

سال پیامبر اعظم صلی الله علیه وآله
۱۳۸۵

سيرة سيد الأنبياء والمرسلين



جامع المحامد كلها



نقله إلى العربية
الدكتور علي هاشم الأسدي




Gift
p.o.Box: 91375-3131-Mashhad- Islamic Republic Of Iran
International Relations of Astan Quds Razavi
E-Mail :iro@imamrezashrine.com


شبكة الفكر
alfeker.net

سيرة سيّد الأنبياء و المرسلين

محمد صلى الله عليه وآله

جامع المحامد كلّها

رسول جعفريان

نقله الى العربية: على هاشم الاسدى

جعفريان، رسول، ۱۳۴۳ -
[سيرهٔ رسول خدا صلى الله عليه وآله، عربی.]
سيرة سيّد الأنبياء و المرسلين محمد صلى الله عليه وآله جامع المحامد كلها / رسول جعفريان؛ نقله الى العربية علي هاشم الأسدي .-- مشهد: بنياد پـژوهشهای اسـلامی، ۱۴۲۷ق. = ۱۳۸۵ ش.
۸۷۸ ص.
ISBN 964-444-962-2
عربی.
فهرستنويسی بر اساس اطلاعات فيپا.
كتابنامه به صورت زيرنويس.
۱. محمد(ص)، پيامبر اسلام، ۵۳ قبل از هجرت - ۱۱ ق. -- سرگذشتنامه. ۲.اسلام -- تاريخ. الف. اسدی، عـلی، ۱۳۳۶ - ، مـترجـم. ب.بـنياد پـژوهشهای اسلامی. ج.عنوان.
BP ۲۲ / ۹ / ۷ج ۹۰۴۳س
۲۹۷ / ۹۳
كتابخانه ملّی ايران
۸۴م ـ ۴۷۸۹۶

بنياد پژوهشهای اسلامی
آستان قدس رضوی

سيرة سيّد الأنبياء و المرسلين محمد صلى الله عليه وآله
جامع المحامد كلها

رسول جعفريان

نقله الى العربية: علي هاشم الأسدي

۱۰۰۰ نسخة / الثمن ۶۵۰۰۰ ريال
الطباعة: غوتمبرغ (مشهد) / الطبعة الاولى: ۱۴۲۷ق.

مجمع البحوث الإسلاميّة، ص. ب ٣٦٦ ـ ٩١٧٣٥
هاتف و فاكس وحدة المبيعات في مجمع البحوث الاسلامية: ٢٢٣٠٨٠٣
معارض بيع كتب مجمع البحوث الاسلامية، (مشهد) ٢٢٣٣٩٢٣، (قم) ٧٧٣٣٠٢٩
شركة بهنشر، (مشهد) الهاتف ٧ ـ ٨٥١١١٣٦، الفاكس ٨٥١٥٥٦٠
Web Site: www.islamic-rf.org E-mail: info@islamic-rf.org

عرض قاصد واعد للمترجم

بسم الله الرحمن الرحيم

«اللهمّ داحي المدحوّات، وداعم المسموكات، وجابل القلوب علىٰ فطرتها شقيِّها وسعيدِها، اجعل شرائف صلواتك ونوامي بركاتك علىٰ محمّد عبدك ورسولك، الخاتم لما سبق، والفاتح لما انغلق، والمعلن الحقّ بالحقّ، والدافع جيشات الأباطيل، والدامغ صولات الأضاليل، كما حُمِّل فاضطلع قائماً بأمرك، مستوفزاً في مرضاتك، غيرَ ناكلٍ عن قُدُم، ولا واهٍ في عزمٍ. واعياً لوحيك، حافظاً لعهدك، ماضياً علىٰ نفاذ أمرك حتّىٰ أورىٰ قبسَ القابس، وأضاء الطريق للخابط، وهُديتْ به القلوبُ بعد خوضات الفتن والآثام، وأقام موضحات الأعلام، ونيّرات الأحكام، فهو أمينُك المأمون، وخازنُ علمك المخزون، وشهيدُك يومَ الدين، وبعيثك بالحقّ، ورسولك إلى الخلق. اللهمّ افسح له مفسحاً في ظلّك، واْجزهِ مضاعفات الخير من فضلك. اللهمّ أَعلِ علىٰ بناء البانين بناءه، وأكرم لديكَ منزلتَهُ، وأتمم له نورَهُ، واْجزهِ من ابتعاثكَ له مقبولَ الشهادة، ومرضيّ المقالة، ذا منطقٍ عدلٍ، وخُطّةٍ فصلٍ. اللهمّ اجمع بيننا وبينه في برد العيش وقرار النعمة، ومُنى الشهوات، وأهواء اللذّات، ورخاءِ الدَعَة، ومُنتهى الطُمَأْنينة، وتُحف الكرامة»[1].

---

(١) *نهج البلاغة*، شرح الشيخ محمّد عبده، ص ١٢٠ ـ ١٢٣.

بهذه الكلمات الكريمة البليغة التي علّم فيها أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام الناسَ كيفيّةَ الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ يبدأ هـذا العـرض اليسـير. أمّـا كـلماتنا القاصرة فهي عاجزة عن التعبير حسيرة عن التصوير. وأنّىٰ لها أن تحـيط إلّا بمـثل قائليها؟ ومهما بلغت فلا تبلغ مبلغ الثناء الذي نطق به ربّ العـالمين الّـذي انـتجبه وابتعثه وختم به رسله بعد أن بشّرهم به وبشّروا به ممهّدين وموطّئين. ثمّ هي لا تبلغ بلاغة الوصف الّذي أعرب عنه أخوه وحبيبه وتلميذه عليّ بن أبي طالب الّذي عرفه حقّ معرفته ونال به فضلَه ومعرفتَه. ولا يخالج الريب أحداً في أنّ أفضل من ذكره أحسن الذكر هما صانعه وصنيعه لأنّهما أعلم به من غيرهما. فصانعه هو الذي اجتباه وبعثه، وصنيعه هو الذي تربّىٰ عليه وورثه. من هنا لم يجد هذا العرض المُزجىٰ أنجع من كلماتهما لأنّها الأثيرةُ التي يُستغنىٰ بها عمّا سواها. فلا كلام لصاحبه الكليل الذي آثر تسميته عَرضاً علىٰ تسميته مقدّمةً لشعوره بوجوب تذكير الأمّة منسيَّ نعمةِ نبيّها العظيم وأبيها الرحيم، ولفت نظرها إلىٰ عظمة سيرته وأحقّيّة رسالته لتستحبّه علىٰ ما تحبّ من زينة الحياة الدنيا وزخارفها الموهومة بشتّىٰ ألوانهـا. ولتُـقبل عـليه إقـبال الصديّ علىٰ العذب الرويّ، ولتـعلم أنّـه ﷺ عـزّها وفـخرها وزهـرة وجـودها وحياتها، ولولاه لفـقدت الحـياة مـعناها؛ ولمـا كـان لهـا مـوقعها ومـقامها. فمعالم عظمته ﷺ في كتاب الله الذي يمثّل المصدر الأوّل لمعرفة سيرته:

إنّه الرحمة المهداة للعالمين كما عرّفه الجليل الأعلىٰ سبحانه في قوله: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾[1]. ومنه نعرف أنّ وجوده رحمة، وكلّ شيء فيه ومـنه رحمـة، وهَدْيه وتعاليمه ونظامه رحمة، فكلّ ما عداه وبال ونقمة. فهو الأحقّ بـالاتّباع لأنّ الناس تنشد الرحمة وتطيب لها نفوسهم إذ تنعمهم بالسعادة.

---

(١) الأنبياء: ١٠٧.

وإنّه البشارة بل الدعوة المستجابة لأنّ أباه إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه دعا ربّه لظهوره وابتعاثه. فقد قال جلّ من قائل: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[١]. فإلىٰ أيّ مدىٰ بلغت عظمته ـ وهي لا تُدرك ـ إذ بشّر به الأنبياء الذين سبقوه؟ وكأنّهم كانوا يمهّدون لنبوّته صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهو الحقّ ـ فقال سبحانه علىٰ لسان عيسى ابن مريم: ﴿يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى ٱسْمُهُ أَحْمَدُ...﴾[٢] وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلْإِنْجِيلِ...﴾[٣] وفي الآية تلويح إلىٰ عالميّة رسالته وشموليّتها التي لا مِراء فيها؛ فهو صلّى الله عليه وآله رسول الله إلىٰ الناس جميعاً ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾[٤].

وأمتع ما نتلو في كتاب الله تبارك اسمه من معالم عظمته وجلالته التي تفرّد بها أنّ دينه هو دين الله تعالىٰ. فقد قال جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِنْدَ ٱللهِ ٱلْإِسْلَامُ﴾[٥] والإسلام وحده، كما سمّاه دين الحقّ في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً﴾[٦]. فالإسلام هو دين الله الحقّ وما خلاه باطل، وهو الذي سينتصر علىٰ جميع الأديان عند خروج خاتم الأوصياء المهديّ المنتظر عليه السلام كما وعد سُبحانه بقوله الحكيم: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي: ينتصر على الأديان كلّها. ثمّ إنّه لا يُقبَل دين إلّا دينه صلى الله عليه وآله وسلم يوم القيامة، ومن أبىٰ فقد خسر. قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ﴾[٧]. وإذا

---

(١) البقرة: ١٢٩.
(٢) الصفّ: ٦.
(٣) الأعراف: ١٥٧.
(٤) الأعراف: ١٥٨.
(٥) آل عمران: ١٩.
(٦) الفتح: ٢٨.
(٧) آل عمران: ٨٥.

أنعمنا الفكر في هذه الآيات الأربع وقفنا علىٰ عظمة نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم باستيقافها إيّانا. فإنّ أدنىٰ تأمّلٍ فيها يرفدنا بأعظم أمل، ويدعونا إلى اكتناه سيرته والتوفّر علىٰ دراستها والتأسّي بها. كما يبيّن منها أنّ الإسلام هو ـ غير مُدافَع ـ دين البشريّة جمعاء ولا يوازيه دين.

ورفع الله سبحانه ذكره إذ جعل اسمه المبارك بعد اسمه الأعظم فلا تبجيل أعلىٰ من هذا ولا توقير ولا تعظيم. قال سبحانه: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[١]. وكأنّه تعالىٰ رتّب درجات العالمين من الأوّلين والآخرين فوهبه في أعلاها لا يُدانىٰ ولا يُبارىٰ. فإنّه ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[٢].

وجعله أولىٰ بالإنسان من نفسه علىٰ نفسه فقال جلّ وعلا: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾[٣] فلا ولاية لهم علىٰ أنفسهم بل الولاية المطلقة العامّة هي لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهو المسلّط على النفوس بأمر الله تعالىٰ. وتلك مزيّة عالية دونها سائر المزايا.

وكرّمه ربّه برفع العذاب عن قومه لوجوده بين ظهرانيهم فقال تبارك وتعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾[٤]. وفي هذا عظيم الإجلال وبالغ الإكبار لشخصيّته المقدّسة الغالية عند ربّها؛ لاسيّما إذا علمنا أنّه سبحانه أنزل العذاب علىٰ أقوام مَن سبقه مِن إخوانه الأنبياء. فأمّته هي الأمّة المرحومة بفضله لو استفاقت من سُباتها.

وأقسم تعالىٰ بحياته الشريفة الكريمة ولم يقسم بحياة غيره من الأنبياء كما جاء في بعض التفاسير، فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[٥]. وقال ابن عبّاس:

«ما خلق الله عزّ وجلّ ولا ذرأ ولا برأ نفساً أكرم عليه من محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وما سمعتُ الله أقسم بحياة أحد إلّا بحياته»[٦].

---

(١) الانشراح: ٤.
(٢) آل عمران: ٧٤.
(٣) الأحزاب: ٦.
(٤) الأنفال: ٣٣.
(٥) الحجر: ٧٢.
(٦) **مجمع البيان** ٣: ٣٤٢.

وصلّى عليه هو وملائكته وأمر المسلمين أن يصلّوا عليه ويسلّموا تسليماً، فقال ونعم القائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[١]. وصلاة الله رحمة، والملائكة تزكية واستغفار، والمؤمنين دعاء بالرحمة. وقد استفاضت الروايات من طرق الشيعة وأهل السنّة أنّ طريق صلاة المؤمنين أن يسألوا الله تعالىٰ أن يصلّي عليه وآله[٢]. اللهمّ صلّ علىٰ محمّد وآل محمّد كما أمرتَنا بذلك وعلّمتناه.

وجعل اتّباعه ﷺ معياراً لحبّه سبحانه وتعالى فلا يستقيم حبّه إلّا باتّباعه والاهتداء به صلوات الله عليه وآله. قال جلّ اسمه: ﴿قُلْ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾[٣]. ويتبيّن منه أنّ اتّباعه هو الدّليل القاطع والبرهان الساطع علىٰ حبّ الله. ولا يتحقّق حبّ الله إلّا بالسير علىٰ هَدْيه. وقرن سبحانه طاعته ﷺ بطاعته فقال: ﴿مَن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[٤]. بل إنّ طاعتهما واحدة لا تفترق ولا تتجزّأ: ﴿وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٥]. وقال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَافِرِينَ﴾[٦].

وشاءت إرادته سبحانه أن يكرّمه أحسن تكريم حين أسرىٰ به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصىٰ. قال تعالىٰ: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَىٰ﴾[٧]. ثمّ عرج به إلى السماء ليريه من آياته الكبرىٰ، ويطيّب نفسه الشريفة، قال سبحانه: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ *

---

(١) الأحزاب: ٥٦.

(٢) *الميزان* ١٦: ٣٣٨.

(٣) آل عمران: ٣١.

(٤) النساء: ٨٠.

(٥) آل عمران: ١٣٢.

(٦) آل عمران: ٣٢.

(٧) الإسراء: ١.

وَهُوَ بِالْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ * إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾[١].

والذي يُستخلَص منها أنّ ربّه حين رأىٰ إخلاصه وجدّه وجهاده وما لاقىٰ من الأذىٰ والمحن في سبيله أراد أن يخفّف عنه عبء المهمّة، ويريح باله، ويطيّب نفسه، ويسرّه ويتحفه ويعوّضه إذ كشف له الحجب وأطلعه على الغيوب، ليُظهر عظيم منزلته وسموّ مقامه، ولينبّه أهل السماوات والأرضين علىٰ جلالة قدره وعلوّ شأنه صلوات ربّي وسلامه وتحيّاته عليه وعلىٰ أهل بيته الأكرمين. وما أبلغه من تعظيم!

وأقسم جل شأنه أنّ نبيّه علىٰ صراط مستقيم فقال: ﴿ يسٓ * وَٱلْقُرْآنِ ٱلْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٢]. أي: إنّ استقامة صراطه دليل علىٰ أحقيّته وعلىٰ وجوب اتّباعه. كما أنّها تُطمئن السالكين بصواب نهجهم وسداد أمرهم. وخاطب سبحانه النّاس بأنّ رسوله جاء بالحقّ من ربّه كي يؤمنوا به فقال تبارك اسمه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ ﴾[٣].

وأثنىٰ عليه سابغ الثناء إذ خاطبه سبحانه في حكيم آيهِ قائلاً: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[٤]. فهذا وصف وصفه به ربّه ومُرسله. وفيه تزكية صريحة من لدنه تعالىٰ. ويمثّل أعلىٰ القيم وأسناها وكفاه فخراً ومجداً أنّ أحداً من مناوئيه الجاهلين لم ينبزه بذميم فعل ولا سوء صنيعٍ، إذ كان متعالياً عن كلّ الدنايا، وهو في المحلّ الأعلىٰ من التقديس والتعظيم. وفي الآية إشارة إلىٰ أنّ التعامل السليم مع البشريّة يتعيّن أن ينبع

---

(١) النجم: ١ ـ ١٨.
(٢) يس: ١ ـ ٤.
(٣) النساء: ١٧٠.
(٤) القلم: ٤.

من الخلق القويم ولولا الخلق الرغيب لعاشت الإنسانيّة محناً تُضنيها وتفقدها لذّة الحياة وإمتاعها. ولا يختلف اثنان في أنّ ما قاست منه وكابدته هو بسبب فقدان الأخلاق الصحيحة، ولا يختلفان أيضاً في أنّ العالم اليوم بحاجة إلى الأخلاق النابعة من الدين أكثر من حاجته إلى العلم والمال ونظائرهما.

وجعله سبحانه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر فقال: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلآخِرَ وَذَكَرَ ٱللهَ كَثِيراً**﴾[١]. فلو سأل أحد متحيّراً: بمن أتأسّىٰ؟ بمن أقتدي؟ ما هو المثال الذي اهتدي إليه واهتدي به؟ فالجواب هو رسول الله محمّد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم. وفي ذلك إنقاذ من الضياع، وإنجاء من التخبّط، وإطلاق من الارتباك. فلا عثرة في المسير، ولا نكسة في التقدير، ولا قلق علىٰ المصير!

ونقرأ في التنزيل العزيز ستّ آيات تستأهل التأمّل والتدبّر، وتسترعي الأنظار. قال تعالى: ﴿**مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ**﴾[٢]. وقال: ﴿**فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِم إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفاً**﴾[٣]. وقال: ﴿**لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾[٤]. وقال: ﴿**فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ**﴾[٥]. وقال: ﴿**إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ ٱللهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ**﴾[٦]. وقال: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ**﴾[٧]. فهذه الآيات تدلّ على حبّه الشديد لربّه ورسالته، وتحمّسه وحرصه علىٰ هداية قومه، وعظيم إخلاصه لهدفه ومهمّته، وَنَصَبه في عبادته ودعوته، وشفقته علىٰ رهطه، ورأفته

---

(١) الأحزاب: ٢١.

(٢) طه: ٢.

(٣) الكهف: ٦.

(٤) الشعراء: ٣.

(٥) فاطر: ٨.

(٦) النحل: ٣٧.

(٧) التوبة: ١٢٨.

بالمؤمنين، وشعوره بثقل مسؤوليّته، وسكّنه ربّه بأن لا يعتني بتولّيهم فقال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ﴾(١). فحقيقٌ أن نكثر الصلاة عليه، وننشدّ إلىٰ رسالته.

ودافع عنه ربّه أشدّ الدفاع أمام ما نبزه القوم به من تهم، وما ألقوه من شبهات. تنزّهت ساحته المقدّسة عن تخرّصات الجاهلين. فقالوا: مجنون، فقال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾(٢)، وقال: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِن جِنَّةٍ﴾(٣). وقال: ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾(٤). وقال: ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِن جِنَّةٍ﴾(٥). وقالوا: أبتر، فقال: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾(٦). وقالوا: «محمّد قلاه ربّه»، فقال: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾(٧). ودعا عليه أحدهم بالهلاك، فلم يُجبه ترفّعاً عمّا أساء فيه الأدب إليه بلفظ مَشين. وأجابه ربّه إنّه نعم الربّ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ...﴾(٨) وقالوا: يعلّمه بشر، فقال: ﴿لِسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُبِينٌ﴾(٩). وقالوا: هو الذي تقوّل القرآن، فقال: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾(١٠). وقالوا: كتابه قول شاعر، فقال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ﴾(١١). وقال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِى لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾(١٢). وقالوا: كاهن، فقال: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾(١٣). وقالوا: ﴿لَسْتَ مُرْسَلاً﴾(١٤)، فقال: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ ٱلْكِتَابِ﴾(١٥). وقال: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾(١٦). وقالوا: مفترٍ، فقال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا

---

(١) النحل: ٨٢.
(٢) التكوير: ٢٢.
(٣) سبأ: ٤٦.
(٤) القلم: ٢.
(٥) الأعراف: ١٨٤.
(٦) الكوثر: ٣.
(٧) الضحىٰ: ٣.
(٨) المسد: ١.
(٩) النحل: ١٠٣.
(١٠) الطور: ٣٤.
(١١) الحاقّة: ٤١.
(١٢) يسٓ: ٦٩.
(١٣) الحاقّة: ٤٢.
(١٤) الرعد: ٤٣.
(١٥) الرعد: ٤٣.
(١٦) يسٓ: ٣.

يَعْلَمُونَ﴾[١]، وقال: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَالِ ٱلْبَعِيدِ﴾[٢]، وقال: ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللهِ شَيْئاً﴾[٣]، وقال: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[٤]، وقال: ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾[٥]. وقال: ﴿فَقَدْ جَاؤُوا ظُلْماً وَزُوراً﴾[٦]. وقالوا: أساطير الأوّلين، فقال: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٧]. وقالوا: يُلقيه إليه الشيطان، فقال: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَاطِينُ﴾[٨]. وقالوا: ﴿فَقَالَ إِنْ هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هٰذَا إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾[٩]، فقال: ﴿كَذٰلِكَ مَا أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِن رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾[١٠].

واتّخذوه هزواً، فقال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِئِينَ﴾[١١]. وحين أزلقه الكافرون بأبصارهم لمّا سمعوا الذّكر، قال: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾[١٢]. وقالوا: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾[١٣]، فقال: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾[١٤]. وقالوا: ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ﴾[١٥]، قال: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذاً مُّنظَرِينَ﴾[١٦]. وقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هٰذَا ٱلْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، قال: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾[١٧]. وقالوا: ﴿مَالِ هٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾[١٨]، قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ

---

(١) النحل: ١٠١.
(٢) سبأ: ٨.
(٣) الأحقاف: ٨.
(٤) الأحقاف: ٩.
(٥) السجدة: ٣.
(٦) الفرقان: ٤.
(٧) الفرقان: ٦.
(٨) الشعراء: ٢١٠.
(٩) المدّثّر: ٢٤، ٢٥.
(١٠) الذاريات: ٥٢.
(١١) الحجر: ٩٥.
(١٢) القلم: ٥٢.
(١٣) الأنعام: ٨.
(١٤) الأنعام: ٨.
(١٥) الحجر: ٧.
(١٦) الحجر: ٨.
(١٧) الزخرف: ٣٢.
(١٨) الفرقان: ٧.

وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾[١].

ومنّوا عليه بإسلامهم، فقال: ﴿لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ ٱللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[٢]. وحين تواطأت عليه اثنتان من أزواجه، قال لهما محذّراً ومهدّداً: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى ٱللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾[٣]. ولمّا قالوا: ﴿ءَإِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾[٤]، قال: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[٥]. وحين استبعدوا إرسال رسول من البشر، قال لهم: ﴿قُل لَوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً ﴾[٦]. وعندما قالوا: ﴿لَئِن رَجَعْنَا إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾[٧]، قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلٰكِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٨]. وحينما قالوا: ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ﴾[٩]، قال: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلٰكِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾[١٠].

فهذه الآيات جميعها تدلّ على عناية المولىٰ بعبده، وتولّيه دفع الشبهات عنه، وتسديده، وتعنيف خصومه، وازدراء حججهم، فهو مُرسله، والرسالة رسالته، والمواجهة رساليّة.

وعُني الكتاب الكريم بملاطفته صلى الله عليه وآله وسلم وتطييب نفسه الشريفة، وتخفيف همومه وغمومه. فقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾[١١]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾[١٢] آيتان

---

(١) الفرقان: ٢٠.
(٢) الحجرات: ١٧.
(٣) التحريم: ٤.
(٤) الصافّات: ٣٦.
(٥) الصافّات: ٣٧.
(٦) الإسراء: ٩٥.
(٧) المنافقون: ٨.
(٨) المنافقون: ٨.
(٩) المنافقون: ٧.
(١٠) المنافقون: ٧.
(١١) المدّثّر: ١.
(١٢) المزّمّل: ١.

علىٰ تلك الملاطفة والتطييب؛ وكذا قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾[١]؛ وقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ...﴾[٢]؛ وقوله: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ...﴾[٣] وقوله: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾[٤]، وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً﴾[٥]. وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[٦]. وقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّاجِدِينَ﴾[٧]. وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌۢ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾[٨]. وقوله: ﴿لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾. وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾[٩] وقوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّالِمِينَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[١٠] وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[١١]. وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[١٢]. وقوله: ﴿مَا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُ ...﴾[١٣] وحين عرف سبحانه عتوّهم ونفورهم قال: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[١٤].

وعلّم سبحانه القوم وأدّبهم كيف يتصرّفون مع نبيّهم صلى الله عليه وآله وسلم، فقال لهم: ﴿يَا أَيُّهَا

---

(١) التحريم: ١.
(٢) الانشراح: ١، ٢.
(٣) يونس: ٦٥.
(٤) يسٓ: ٧٦.
(٥) المزمّل: ١٠.
(٦) النحل: ١٢٧.
(٧) الحجر: ٩٧، ٩٨.
(٨) هود: ١٢.
(٩) المائدة: ٤١.
(١٠) الأنعام: ٣٣.
(١١) الأنفال: ٦٤.
(١٢) النمل: ٧٠.
(١٣) الأحزاب: ٣٨.
(١٤) الغاشية: ٢١، ٢٢.

ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ ٱللهِ وَرَسُولِهِ﴾(١)، أي: لا تحكموا فيما لله ولرسوله فيه حكم إلّا بعد حكم الله ورسوله...(٢). وقال: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ...﴾(٣) ومدح الذين يغضّون أصواتهم عنده صلى الله عليه وآله فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللهِ أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(٤) وأمر المسلمين أن يقدّموا صدقةً عند مناجاتهم إيّاه صلى الله عليه وآله، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ...﴾(٥) وعرّفهم التفاوت بين دعائه صلى الله عليه وآله ودعائهم، فقال: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضاً﴾(٦). وذكّرهم بأن لا خيار لهم أمام خياره، أي: أنّه صلى الله عليه وآله إذا حكم بشيء فليس لهم أن يعترضوا أبداً ولا أن يبدوا آراءهم، وفي السياق تحذير، قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً﴾(٧). وأكّد جلّ شأنه في آية أُخرىٰ أنّ القرار هو قراره والرأي رأيه فإذا رأىٰ شيئاً وعزم عليه أمضاه وأجراه بلا منازع ولا مدافع، قال سبحانه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ ٱللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللهِ إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾(٨). ومن الحريّ بالذكر أنّه أُمر بمشاورتهم لا لحاجةٍ منه إلىٰ ذلك ولا لنقصٍ أو جهل نعوذ بالله لأنّه مجمع الفضائل كلّها. وإنّما لإشعارهم بشخصيّتهم ومكانتهم، وتطييب قلوبهم، وتطويع أنفسهم، وتعليمهم أسلوب المشاورة

---

(١) الحجرات: ١.
(٢) *الميزان* ١٨: ٣٠٦.
(٣) الحجرات: ٢.
(٤) الحجرات: ٣.
(٥) المجادلة: ١٢.
(٦) النور: ٦٣.
(٧) الأحزاب: ٣٦.
(٨) آل عمران: ١٥٩.

كي يُطبّقوه في حياتهم ويبتعدوا عن الاستبداد والتعسّف والأثرة والاستئثار، وأن يتواضعوا فيما بينهم ويحترم أحدهم رأي الآخر؛ ومن ثمّ ليصلوا إلىٰ الرأي الأقسط الأقوم. وألزمهم بإجراء ما يأمرهم به وترك ما ينهاهم عنه فقال لهم مؤدّباً: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا...﴾[1].

وجاء في آية أُخرىٰ أنّ إيمان القوم لا يتحقّق إلّا بتحكيمه ﷺ لفضّ نزاعاتهم، ومن ثمّ إذعانهم لحكمه وتسليمهم لقضائه، قال تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[2]. كما أوصاهم بالرجوع إليه إذا تنازعوا في شيء فقال: ﴿... فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[3] فما أنزل عليه الكتاب إلّا ليحكم بين الناس: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ﴾[4].

وحذّرهم سبحانه من إيذائه ﷺ وأوعد علىٰ ذلك فقال: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[5]. وخوّفهم بالذلّ والخزي إذا حادّوه ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾[6] بل أوعدهم جهنّم إذا شاقّوه فقال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾[7].

وأنذرهم تعالىٰ من دخول بيوته بغير إذنه ﷺ كما نبّههم علىٰ ما يؤذيه ولا يُبديه،

---

(١) الحشر: ٧.
(٢) النساء: ٦٥.
(٣) النساء: ٥٩.
(٤) النساء: ١٠٥.
(٥) التوبة: ٦١.
(٦) المجادلة: ٢٠.
(٧) النساء: ١١٥.

وعرّفهم كيف يتعاملون مع أزواجه، وعنّفهم علىٰ إيذائه، وأدّبهم أن لا يفكّروا بزواج نسائه من بعده فقال عزّ من قائل: ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيماً ﴾[١].

وحذّرهم من الكفر وفيهم رسوله الحبيب صلى الله عليه وآله فقال: ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[٢]. والعجيب في هذه الآية هو أنّ وجوده صلى الله عليه وآله فيهم يتعيّن أن يرغّبهم عن الكفر لو يشعرون. أي: عليهم أن يستحيوا منه، وتمنعهم هيبته وجلالته من الكفر، إذ إنّ وجوده فرصة جدّ ثمينة للإقبال على الإيمان لأنّهم كانوا يرونه ﴿ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ ﴾[٣] و ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾[٤]. وحذّر تعالىٰ المؤمنين من معصيته في تناجيهم فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ... ﴾[٥].

وأحسن سبحانه كلّ الإحسان حين منّ على المؤمنين ببعثه المبارك فقال: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾[٦]. فهو منّة الله تعالىٰ، أي: نعمته. والنعمة تستوجب الشكر، وشكرها بالطاعة التامّة المطلقة له والاتّباع بلا قيد

---

(١) الأحزاب: ٥٣.
(٢) آل عمران: ١٠١.
(٣) آل عمران: ١٣.
(٤) البقرة: ١٤٦، الأنعام: ٢٠.
(٥) المجادلة: ٩.
(٦) آل عمران: ١٦٤.

ولا شرط ولا اعتراض. ورعاية النعمة حقّ رعايتها تدلّ علىٰ ذوق سليم ونظر سديد وبصيرة ثاقبة.

ونقرأ في القرآن الحكيم آيةً ناهيك من آيةٍ، وهي آية الميثاق. وأيّ ميثاق؟ إنّه الميثاق الذي أخذه الله سبحانه من النبيّين عليهم السلام، وهو ميثاق خاصّ غير الميثاق المأخوذ من عامّة البشر[1]. قال جلّ شأنه: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً**﴾[2]. بأن يصدّق بعضهم بعضاً ويتبع بعضهم بعضاً أو بأن يعبدوا الله ويدعوا إلىٰ عبادته[3]. أو أنّه مأخوذ علىٰ وحدة الكلمة في الدين وعدم الاختلاف فيه[4]. ومهما كان فإنّ تسمية الخمسة منهم دليل علىٰ عظمة شأنهم ورفعة مكانهم[5]. وتقديم نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم عليهم وهو آخرهم زماناً آية علىٰ منتهىٰ عظمته وغاية مكانه. «وإنّما قدّمه لفضله وشرفه»[6]. «ومعنى العطف إخراج الخمسة من بينهم وتخصيصهم بالذّكر كأنّه قيل: وإذ أخذنا الميثاق منكم أيّها الخمسة ومن باقي النبيّين... لكن قدّم ذكر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وهو آخرهم زماناً لفضله وشرفه وتقدّمه على الجميع»[7]. «قيل: يا رسول الله متىٰ أُخذ ميثاقك؟ قال: وآدم بين الروح والجسد»[8].

وهو الموعود بالمقام المحمود الذي فُسِّر بالشفاعة التي يطمع فيها كلّ الخلائق يوم الجزاء حتّىٰ ورد أنّ أُناساً يستشفعون بعض الأنبياء بمن فيهم أُولي العزم فيرشدونهم إلىٰ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم[9]. فالجميع يرجون شفاعته يومئذٍ. قال تعالىٰ: ﴿**وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ**

---

(١) *الميزان* ١٦: ٢٧٨.

(٢) الأحزاب: ٧.

(٣) *مجمع البيان* ٤: ٣٣٩.

(٤) *الميزان* ١٦: ٢٧٨.

(٥) نفسه.

(٦) *مجمع البيان* ٤: ٣٣٩.

(٧) *الميزان* ١٦: ٢٧٨.

(٨) نفسه: ٢٨٢ نقلاً عن «*الدرّ المنثور*».

(٩) *الميزان* ١٣: ١٧٩، ١٨٠.

نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحمُوداً ﴾(١). ونحن نطمع في شفاعته ﷺ أيضاً وليس لنا ذلك اليوم إلّا رحمة الله سبحانه وتعالىٰ وشفاعته. اللهمّ آته المقام المحمود الذي وعدته وارزقنا شفاعته كما وعده سبحانه بعدم الإخزاء يوم القيامة فقال: **﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ... ﴾**(٢).

وهو الشهيد على الناس يوم القيامة. قال سبحانه: **﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هٰؤُلَآءِ شَهِيداً ﴾**(٣). وهذه الآية قرأها عليه ابن مسعود رضي الله عنه ففاضت عيناه بالدموع وابتلّت لحيته الشريفة الكريمة حتّىٰ قال: حسبي بها يا ابن مسعود. هذه حاله ﷺ وهو المبشَّر بالجنّة فكيف بالمشهود عليهم وهم نحنُ؟ اللهمّ بيّض وجوهنا أمام نبيّنا صلواتك عليه وعلىٰ آله ولا تخزنا عنده.

ووصفه سبحانه بأنّه: **﴿ رَسُولٌ مِنَ ٱللهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُّطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾**(٤) ونوّه بنَصَبه في عبادته ﷺ وقيامه بالليل، فقال: **﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ... ﴾**(٥).

وأوجب على المسلمين ـ وهذه ملاحظة بالغة الشأن مثيرة لافتة ـ التمسّك برسالته والالتزام بدينه حتّىٰ لو لم يكن فيهم فقال جلّ من قائل: **﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِى ٱللهُ ٱلشَّاكِرِينَ ﴾**(٦).

وطلب سبحانه من الذين آمنوا أن يتّقوه جلّ شأنه وأن يؤمنوا برسوله فقال: **﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَكُمْ نُوراً**

---

(١) الإسراء: ٧٩.
(٢) التحريم: ٨.
(٣) النساء: ٤١.
(٤) البيّنة: ٢، ٣.
(٥) المزّمّل: ٢٠.
(٦) آل عمران: ١٤٤.

تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[١]. فجعل الإيمان به ﷺ عديلاً لتقواه ويتبيّن منه أنّ الإيمان المطلوب لا يتحقّق إلّا من خلاله. وما أنزل الله تعالىٰ آياته عليه إلّا لإنقاذ الناس من ظلمات الضلال إلىٰ نور الهدىٰ فقال تبارك اسمه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾[٢]. وإذا كان ﷺ يدعو الناس للإيمان بربّهم فما لهم لا يؤمنون؟ ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ ﴾[٣]. ويستبين من هذه الآية أنّ فرضاً عليهم تلبيةُ دعوته ﷺ تلبية جميلة إذ لا برهان لهم بترك الاستجابة. علماً أنّه ﷺ لم يطلب منهم أجراً علىٰ دعوته إلّا مودّة قرباه وطاعتهم والتعبّد بأحكامهم نظاماً للناس وأماناً لهم من الفُرقة وهم عليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام كما ذكر ذلك جلّ المفسّرين إن لم نقل: كلّهم. قال تعالىٰ: ﴿ قُل لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾[٤].

وطلب سبحانه من المسلمين أن يستجيبوا له ﷺ إذا دعاهم لما فيه خيرهم وسعادتهم فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[٥].

وأمره ربّه أن يذكّر الناس بأُمورٍ تبيّن لهم توجّهاته وما هو عليه من استقامة الصراط، وخلوص أعماله كلّها لله وحده فقال جلّ من قائل: ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَانِى رَبِّى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[٦]. وهذه الآيات تبيّن مفردات عقائديّة وأخلاقيّة مهمّة في سيرته ﷺ بل هي معالم هويّته الّتي يتعيّن أن تُحتذىٰ.

---

(١) الحديد: ٢٨.
(٢) الحديد: ٩.
(٣) الحديد: ٨.
(٤) الشورىٰ: ٢٣.
(٥) الأنفال: ٢٤.
(٦) الأنعام: ١٦١ ـ ١٦٣.

وأهداه الله الفتح المبين فقال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾[(١)]. وصرف إليه الجنّ ليؤمنوا به وليكون لهم نبيّاً وعليهم حجّة فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُنذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ ٱللهِ وَآمِنُوا ...﴾[(٢)] وقال: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً﴾[(٣)].

وتدلّ هذه الآيات علىٰ أنّه صلى الله عليه وآله مبعوث إلى الإنس والجنّ.

وأراه سبحانه في منامه ما دلّ علىٰ صدق منامه، بل إنّ ما يراه في منامه كالذي يراه في يقظته فلا يختلفان قيد أنملة، أي: منامه ويقظته سواء. فرؤياه حقيقة كرؤيته صلى الله عليه وآله. قال تعالىٰ: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً﴾[(٤)]. وقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّؤْيَا ٱلَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِي ٱلْقُرْآنِ﴾[(٥)]. وقال: ﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللهُ رَسُولَهُ ٱلرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَاءَ ٱللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ...﴾[(٦)].

ومسك الختام في هذه القطوف القرآنيّة الدانية ـ وهو صلى الله عليه وآله مسك الختام وزين الكرام وسيّد الأنام ـ قوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِن رِّجَالِكُمْ وَلٰكِن رَّسُولَ ٱللهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّينَ﴾[(٧)]. ووصفه بخاتمهم تعظيم بيّن له لأنّ ذلك يعني أنّ «شريعته باقية إلىٰ يوم الدين. وهذا فضيلة له صلوات الله عليه وآله اختصّ بها من بين سائر المرسلين»[(٨)].

---

(١) الفتح: ١.
(٢) الأحقاف: ٢٩ ـ ٣١.
(٣) الجنّ: ١.
(٤) الأنفال: ٤٣.
(٥) الإسراء: ٦٠.
(٦) الفتح: ٢٧.
(٧) الأحزاب: ٤٠.
(٨) *مجمع البيان* ٤: ٣٦٢.

ويتلو هذه المجموعةَ الطيّبةَ من الآيات القرآنيّة الكريمة التي تبرّك بها العرض كلام ذي القرابة القريبة والمنزلة الخصيصة عليّ بن أبي طالب عليه السلام وصيّه ومرجع أصحابه من بعده الذي كان يتباهىٰ أنّه تلميذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمتربّي عليه. وكلامه عليه السلام المصدر الثاني المهمّ للتعرّف على السيرة النبويّة الشريفة. وما لنا لا نأخذ بكلامه وهو الذي نشأ في بيته طفلاً وشاباً وكهلاً؟ ولا ينكر أحد أنّ أصدق الكلام وأدقّه في وصف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد كلام الله هو كلامه ـ بلا مراء ـ لأنّه كان يتّبعه اتّباع الفصيل أثر أمّه، وكان مكيناً عنده. فقد احتضنه وليداً، وغذّاه فطيماً، وربّاه طفلاً، ورعاه صبيّاً، وعلّمه شابّاً يافعاً، فكان كثير اللزوق به، خالص الطاعة له، شديد التعلّق به. وكان يراه يجاور في حراء قبل مبعثه المبارك ولم يره غيره. وهو أوّل من صدّقه، وأعظم من واساه وذاد عنه. فلا يقاس به أحد، ولا يقرن بكلامه الصادق البليغ كلام، وكلامه عليه السلام هو الكلام الذي لا تصاب له قيمة ولا توزن به حكمة كما قال الشريف الرضيّ شرّفه الله وأرضاه. بيد أنّا لا نستطيع أن نحيط بكلامه الذي ذكر أو وصف به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وليس لهذه الصفحات أن تستوعبه برمّته لذا نستنير بقبساتٍ منه علىٰ قدر ما يسعدنا جدّنا. ويدخل في تضاعيف كلامه عليه السلام عنه صلى الله عليه وآله وسلم شيء من مواقفه الكريمة الطيّبة التي سجّلها في محياه ومماته صلى الله عليه وآله وسلم. وعهدنا قريب من تلك الكلمات الفخمة الجزلة التي تصدّر بها العرض، وهي خليقة بأن تُقرأ لاشتمالها علىٰ مفاهيم رائعة عن سيّد الأنبياء والمرسلين يستعذ بها كلّ ذي ذوق رفيع.

وقال عليه السلام يصف قداسته وتعاهد الله سبحانه برعايته المباشرة له:

«ولقد قرن الله به صلى الله عليه وآله من لدن أن كان فطيماً أعظم مَلَكٍ من ملائكته يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره»[1].

---

(١) *نهج البلاغة*، شرح الشيخ عبده ٢: ١٥٧.

وقال عليه السلام بعد وصفه لتواتر الأنبياء الذين سبقوه صلى الله عليه وآله من لدن آدم عليه السلام حتّىٰ عيسىٰ عليه السلام :

«... علىٰ ذلك نُسلت القرون ، ومضت الدهور ، وسلفت الآباء ، وخلفت الأبناء ، إلىٰ أن بعث الله سبحانه محمّداً رسول الله صلى الله عليه وآله لإنجاز عِدَته ، وتمام نبوّته ، مأخوذاً على النبيّين ميثاقه ، مشهورة سماته ، كريماً ميلاده ... فهداهم به من الضلالة ، وأنقذهم بمكانه من الجهالة»[١] .

والضمير في عِدَته لله سبحانه وتعالى لأنّه وعد بإرساله علىٰ لسان أنبيائه السابقين. وأخذ على النبيّين ميثاقه وعهده بأن يبشّروا به. وسماته علاماته صلى الله عليه وآله التي ذكرت في كتب الأنبياء السابقين الذين بشّروا به[٢] .

وجاء بعد النصّ السابق قوله عليه السلام :

«ثمّ اختار سبحانه لمحمّد صلى الله عليه وآله لقاءه . ورضي له ما عنده وأكرمه عن دار الدنيا . ورغب به عن مقارنة البلوىٰ . فقبضه إليه كريماً صلى الله عليه وآله . وخلّف فيكم ما خلّفت الأنبياء في أُممها إذ لم يتركوهم هملاً بغير طريق واضح ، ولا علم قائم»[٣] .

ويظهر من هذا النصّ شدّة معاناته صلى الله عليه وآله في تبليغ رسالته ، وتفكيره بمستقبل دعوته والتخطيط لها والحرص علىٰ سلامتها .

وقال عليه السلام :

«بعثه والناس ضلّال في حيرة ، وخابطون في فتنة . قد استهوتهم الأهواء ، واستزلّتهم الكبرياء ، واستخفّتهم الجاهليّة الجهلاء. حيارىٰ في زلزال من الأمر، وبلاء من الجهل. فبالغ صلى الله عليه وآله في النصيحة، ومضىٰ على الطريقة، ودعا إلى الحكمة والموعظة الحسنة»[٤] .

---

(١) *نهج البلاغة* ، شرح الشيخ عبده ١ : ٢٤ ، ٢٥ .
(٢) نفسه .
(٣) نفسه ١ : ٢٥ .
(٤) نفسه ١ : ١٨٦ .

وتدلّ هذه الكلمات علىٰ شدّة كدحه صلى الله عليه وآله وسلم وجدّه في عمله، وعزمه علىٰ مواصلة الطريق، وسداد أسلوبه في الدعوة إلى الله تعالىٰ.

ووصفه في نصّ آخر ذاكراً انحداره من أشرف الأرومات، وإقبال الواعين الهادفين عليه، وانطفاء الأحقاد بمبعثه، ولمّ الشمل به، وتفريق أخلّاء الشرك بوجوده، وإعزاز المستضعفين، وإذلال المستكبرين، وختمه بذكر بلاغة منطقه صلى الله عليه وآله وسلم، فقال:

«مستقرّه خير مستقرّ، ومنبتهِ أشرف منبت، في معادن الكرامة، وممّا هو السلامة. قد صُرفت نحوه أفئدة الأبرار، وثُنيت إليه أزمّة الأبصار. دفن به الضغائن، وأطفأ به الثوائر، ألّف به إخواناً، وفرّق به أقراناً. أعزّ به الذلّة، وأذلّ به العزّة. كلامه بيان وصمته لسان»[1].

وأثنىٰ عليه في موضع آخر فقال:

«حتّىٰ بعث الله محمّداً صلى الله عليه وآله شهيداً وبشيراً ونذيراً: خير البريّة طفلاً، وأنجبها كهلاً. أطهر المطهَّرين شيمةً، وأجود المستمطَرين دِيمة»[2].

ويا لها من كلمات جميلة وصف فيها نجدته وكرمه ومعونته صلى الله عليه وآله وسلم. فهو «أغزر النّاس فيضاً للخير علىٰ طلّابه»[3] علىٰ حدّ تعبير الأستاذ الشيخ محمّد عبده.

وذكر عليه السلام إعراضه صلى الله عليه وآله وسلم عن الدّنيا واستهانتها لمعرفته بما أراد ربّه سبحانه منها. وعقّب ذلك بعظيم جهده صلى الله عليه وآله وسلم في التبليغ والنصح والدعوة فقال عليه السلام:

«قد حقّر الدنيا وصغّرها وأهون بها وهوّنها. وعلم أنّ الله زواها عنه اختياراً، وبسطها لغيره احتقاراً. فأعرض عنها بقلبه، وأمات ذكرها عن نفسه، وأحبّ أن تغيب زينتها عن عينه لكيلا يتّخذ منها رياشاً، أو يرجو فيها مقاماً. بلّغ عن ربّه مُعذراً، ونصح لأمّته منذراً، ودعا إلى الجنّة مبشّراً»[4].

---

(١) *نهج البلاغة*، شرح الشيخ عبده ١: ١٨٧. (٢) نفسه ١: ٢٠٠.
(٣) نفسه ١: ٢٠٠. (٤) نفسه ١: ٢١٥.

وأوصىٰ عليه السلام ـ وهو الملتزم بوصيّة نبيّه وسيّده صلى الله عليه وآله بحذافيرها ـ باستهدائه والاستنان بسنّته صلى الله عليه وآله فقال:

«واقتدوا بهدىٰ نبيّكم فإنّه أفضل الهدىٰ. واستنّوا بسنّته فإنّها أهدى السُنن»[١].

ودلّ علىٰ علوّ همّته وطول نَفَسه ورحابة صدره صلى الله عليه وآله في تبليغه، وقوّته وإقدامه في جهاده، فقال:

«أرسله داعياً إلى الحقّ وشاهداً على الخلق. فبلّغ رسالات ربّه غير وانٍ ولا مقصّر، وجاهد في الله أعداءه وغير واهنٍ ولا معذّر. إمام من اتّقىٰ، وبصر من اهتدىٰ»[٢].

فهو صلى الله عليه وآله إمام المتّقين وبَصَر المهتدين ودليل الحائرين ومنهل الظامئين.

وأرشد إليه طبيباً يُستوصَف وما أحوج البشريّة هذا اليوم إلىٰ طبيب مثله! فأدواؤها لا تُداوىٰ إلّا به صلى الله عليه وآله. قال عليه السلام:

«طبيب دوّار بطبّه قد أحكم مراهمه، وأحمىٰ مواسمه. يضع ذلك حيث الحاجة إليه من قلوب عمي، وآذان صُمّ، وألسنة بُكم. متّبع بدوائه مواضع الغفلة ومواطن الحيرة»[٣].

وما أروع الكلمات التي تبسّط بها الإمام عليه السلام في وصفه صلى الله عليه وآله. وهي كلمات جاذبة لافتة تزدهي بمفاهيمها الكافية في الدلالة عليها ومهما طال التعليق عليها والتحليق في أجوائها فقد قصر المعلّق وعجز المحلّق. قال عليه السلام، وقوله البشير الأثير:

«فتأسَّ بنبيّك الأطيب الأطهر صلى الله عليه وآله، فإنّ فيه أسوةً لمن تأسّىٰ، وعزاءً لمن تعزّىٰ. وأحبّ العباد إلى الله المتأسّي بنبيّه والمقتصّ لأثره. قضم الدنيا قضماً، ولم يُعرها طرفاً. أهضم أهل الدنيا كشحاً، وأخصمهم من الدنيا بطناً. عُرضت عليه الدنيا فأبىٰ

---

(١) *نهج البلاغة*، شرح الشيخ عبده ١: ٢١٦. (٢) نفسه ١: ٢٢٩.

(٣) نفسه ١: ٢٠٧.

أن يقبلها، وعلم أنّ الله سبحانه أبغض شيئاً فأبغضه، وحَقَر شيئاً فحقره، وصغَّر شيئاً فصغّره. ولو لم يكن فينا إلّا حُبُّنا ما أبغض الله ورسوله وتعظيمنا ما صغّر الله ورسوله لكفىٰ به شقاقاً لله ومحادّة عن أمر الله. ولقد كان ﷺ يأكل على الأرض، ويجلس جِلسةَ العبد، ويخصف بيده نعله، ويرقع بيده ثوبه، ويركب الحمار العاري ويُردف خلفه. ويكون الستر علىٰ باب بيته فتكون فيه التصاوير فيقول يا فلانة ـ لإحدىٰ أزواجه ـ غيّبيه عنّي فإنّي إذا نظرتُ إليه ذكرتُ الدنيا وزخارفها. فأعرض عن الدنيا بقلبه، وأمات ذكرها من نفسه، وأحبّ أن تغيب زينتُها عن عينه، لكيلا يتّخذ منها رِياشاً، ولا يعتقدها قراراً ولا يرجو فيها مُقاماً، فأخرجها من النفس، وأشخصها عن القلب، وغيّبها عن البصر. وكذا من أبغض شيئاً أبغض أن ينظر إليه وأن يُذكَر عنده.

ولقد كان في رسول الله ﷺ ما يدلّك علىٰ مساوي الدنيا وعيوبها. إذ جاع فيها مع خاصّته، وزُويت عنه زخارفها مع عظيم زُلفته. فلينظر ناظر بعقله أكرم الله محمّداً [صلّى الله عليه وآله] بذلك أم أهانه؟ فإن قال: أهانه. فقد كذب والعظيم؛ وإن قال: أكرمه فليعلم أنّ الله قد أهان غيره حيث بسط الدنيا له وزواها عن أقرب الناس منه... فإنّ الله جعل محمّداً ﷺ علماً للسّاعة، ومبشّراً بالجنّة، ومنذراً بالعقوبة. خرج من الدنيا خميصاً، وورد الآخرة سليماً. لم يضع حجراً علىٰ حجر حتّىٰ مضىٰ لسبيله، وأجاب داعي ربّه. فما أعظم مِنّة الله عندنا حين أنعم علينا به سلفاً نتّبعه، وقائداً نطأ عَقِبَه!»[١]

والذي بعثه بالحقّ لا يتمّ ديننا إلّا بالتأسّي به. والعجيب العجيب أنّ الدنيا عُرضت عليه فأعرض عنها طائعاً مختاراً ولم يتمتّع بها مع عظيم منزلته ورفعة مقامه. وهو

---

(١) *نهج البلاغة*، شرح الشيخ عبده ٢: ٥٨ ـ ٦٠.

بعدُ نعمة الله علينا. ويريد الإمام عليه السلام أن يقول لنا: إنّ استمتاعنا بهذه النعمة لا يتحقّق إلّا باتّباعه وسلوك طريقه نقفوه خطوة خطوة حتّىٰ كأنّنا نطأ مؤخّر قدمه!!

وأشار عليه السلام في خطبته القاصعة الطويلة إلىٰ معجزة من معجزاته ﷺ وهي ذات سماعٍ. وذكر في سياقها منزلته الخصيصة عليه السلام منه ﷺ، فقال:

«ولقد سمعتُ رنّة الشيطان حين نزل الوحي عليه ﷺ، فقلتُ: يا رسول الله ما هذه الرنّة؟ فقال: هذا الشيطان أيس من عبادته. إنّك تسمع ما أسمع وترىٰ ما أرىٰ إلّا أنّك لست بنبيّ ولكنّك وزير و إنّك لعلىٰ خيرٍ. ولقد كنتُ معه ﷺ لمّا أتاه الملأ من قريش، فقالوا له: يا محمّد إنّك قد ادّعيت عظيماً لم يدّعه آباؤك ولا أحدٌ من بيتك، ونحن نسألك أمراً إن أجبتنا إليه وأريتناه علمنا أنّك نبيّ ورسول، وإن لم تفعل علمنا أنّك ساحر كذّاب. فقال ﷺ: وما تسألون؟ قالوا: تدعو لنا هذه الشّجرة حتّىٰ تنقلع بعروقها وتقف بين يديك، فقال ﷺ: إنّ الله علىٰ كلّ شيء قدير، فإن فعل الله لكم ذلك أتؤمنون وتشهدون بالحقّ؟ قالوا: نعم. قال: فإنّي سأُريكم ما تطلبون، وإنّي لأعلم أنّكم لا تفيئون إلىٰ خير، وإنّ فيكم من يُطرح في القليب، ومن يحزّب الأحزاب. ثمّ قال ﷺ: يا أيّتها الشّجرة إن كنتِ تؤمنين بالله واليوم الآخر وتعلمين أنّي رسول الله فانقلعي بعروقكِ حتّىٰ تقفي بين يَدَيَّ بإذن الله. فوالّذي بعثه بالحقّ لَانقلعت بعروقها وجاءت و لها دويٌّ شديد وقصفٌ كقصف أجنحة الطير حتّىٰ وقفت بين يدي رسول الله ﷺ مرفرفةً، ألقت بغصنها الأعلىٰ علىٰ رسول الله ﷺ، وببعض أغصانها علىٰ منكبي، وكنتُ عن يمينه ﷺ. فلمّا نظر القوم إلىٰ ذلك قالوا ـ علوّاً واستكباراً ـ: فمُرها فليأتك نصفها ويبقىٰ نصفها فأمرها بذلك، فأقبل إليه نصفها كأعجب إقبال وأشدّه دويّاً، فكادت تلتفّ برسول الله ﷺ. فقالوا: ـ كفراً وعتوّاً ـ: فمُر هذا النصف فليرجع إلىٰ نصفه كما كان. فأمره ﷺ فرجع. فقلتُ أنا: لا إله إلّا الله فإنّي أوّل مؤمن بك يا رسول الله، وأوّل من أقرّ بأنّ الشجرة فعلت ما فعلت بأمر الله

تعالىٰ تصديقاً بنبوّتك وإجلالاً لكلمتك. فقال القوم كلّهم: بل ساحر كذّاب، عجيب السحر خفيف فيه، وهل يصدّقك في أمرك إلّا مثل هذا (يعنوني)؟!!»[1]

وألمع عليه السلام إلىٰ جانب من جوانب قدسيّته صلى الله عليه وآله وسلم واتّصاله بالملأ الأعلىٰ حين أعانه الملائكة عليهم السلام علىٰ غسله بعد قبضه صلى الله عليه وآله وسلم فقال:

«ولقد قُبض رسول الله صلى الله عليه وآله و إنّ رأسه لعلىٰ صدري، ولقد سالت نفسه في كفّي فأمررتها علىٰ وجهي[2]. ولقد وليتُ غُسله صلى الله عليه وآله والملائكة أعواني، فضجّت الدار والأفنية ملأ يهبط وملأ يعرج وما فارقت سمعي هَيْنَمَةٌ منهم. يصلّون عليه حتّىٰ واريناه في ضريحه. فمن ذا أحقُّ به منّي حيّاً وميّتاً؟»[3]

ووصفه في سياق خطبة له عليه السلام ذاكراً شيئاً من خصائصه صلى الله عليه وآله وسلم، فقال:

«جعله الله بلاغاً لرسالته، وكرامة لأُمّته، وربيعاً لأهل زمانه، ورفعةً لأعوانه، وشرفاً لأنصاره»[4].

وأخبرنا عليه السلام بكلامه في الصلاة فقال:

«وشبّهها رسول الله صلى الله عليه وآله بالحمّة[5] تكون علىٰ باب الرجل فهو يغتسل منها في اليوم والليلة خمس مرّات فما عسىٰ أن يبقىٰ عليه من الدَرَن؟»[6]

ونقل لنا تعبه صلى الله عليه وآله وسلم في صلاته واهتمامه البالغ بها وتوجّهه الكامل إليها ـ وهو من هو! ـ فقال عليه السلام:

«وكان رسول الله صلى الله عليه وآله نَصِباً بالصلاة بعد التبشير له بالجنّة لقول الله سبحانه: ﴿ **وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا** ﴾ فكان يأمر أهله ويصبر عليها نفسه»[7].

---

(١) ***نهج البلاغة***، شرح الشيخ عبده ٢: ١٥٧ ـ ١٥٩.

(٢) نفسه: دمه، روى أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قاء في مرضه فتلقى قيأه أميرالمؤمنين في يده ومسح به وجهه. (للشيخ محمّد عبده)

(٣) ***نهج البلاغة*** ٢: ١٧٢.

(٤) ***نهج البلاغة***، شرح الشيخ عبده ٢: ١٧٦.

(٥) الحمّة: عين تنبع بالماء الحار.

(٦) ***نهج البلاغة***، شرح الشيخ عبده ٢: ١٧٩.

(٧) نفسه ٢: ١٧٩.

ويدلّ هذا الكلام علىٰ عظم شأن الصلاة وعلوّ منزلتها. وفيه تنبيه لنا علىٰ أهمّيّة هذه الفريضة ووجوب الاهتمام بها.

وذكره ﷺ في كلام له عليه السلام أرانا فيه نهجه العدل الوسط في مهمّته الرساليّة فقال:

«أرسله بالضياء وقدّمه في الاصطفاء فرتق به المفاتق، وساور به المغالِب، وذلّل به الصعوبة، وسهّل به الحزونة حتّىٰ سرّح الضلال عن يمين وشمال»[١].

ومن كلام له عليه السلام قاله وهو يلي غُسله ﷺ وتجهيزه:

«بأبي أنت وأمّي لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوّة والأنباء وأخبار السماء. خصّصتَ حتّىٰ صرت مسلّياً عمّن سواك وعمّمتَ حتّىٰ صار الناس فيك سواء. ولولا أنّك أمرتَ بالصبر ونهيتَ عن الجزع لأنفدنا عليك ماء الشؤون، ولكان الداء مماطلاً والكمَد محالفاً وقلّا لك، ولكنّه ما لا يُملك ردّه، ولا يُستطاع دفعه. بأبي أنت وأمّي أذكرنا عند ربّك واجعلنا من بالك»[٢].

ويُلحَظ في هذه الكلمات التأبينيّة الحارّة أنّه عليه السلام صرّح بانقطاع الوحي، ووصف خلقه الكريم ﷺ في تسلية أقاربه وأهل بيته إذ خصّهم، وفي نظرته العادلة إلىٰ جميع الخلق إذ عمّهم فالنّاس في النسبة إلىٰ دينه سواء. كما أنبأنا بأمره ﷺ بالصبر ونهيه عن الجزع. وبيّن لنا النصّ شدّة تعلّقه به ﷺ ووجده عليه وأسفه وحزنه العميق لفقده حين عبّر عن ذلك في أنّ مماطلة الداء بالشفاء وملازمة الحزن قليلتان لحبيب الله سبحانه وحبيبه عليه السلام وحبيب القلوب السليمة. ثمّ أشار إلىٰ حتميّة الموت، وطلب منه أن يذكره عند ربّه ويكون علىٰ باله. وهذه أعلىٰ درجات اليقين.

وكم أوصىٰ عليه السلام برعاية سنّته ﷺ حتّىٰ في أحرج الساعات وأحلكها فقال مثلاً قُبيل رحيله:

---

(١) *نهج البلاغة*، شرح الشيخ عبده ٢: ١٩٤. (٢) نفسه ٢: ٢٢٨.

«وصيّتي لكم أن لا تشركوا بالله شيئاً . ومحمّد صلى الله عليه وآله فلا تضيّعوا سنّته . أقيموا هذين العمودين وخلاكم ذمّ»(١).

فهو يؤكّد الالتزام بالسنّة النبويّة الشريفة . وذكر النبيَّ صلى الله عليه وآله ليكون المسلم علىٰ صلةٍ دائمةٍ بنبيّه صلى الله عليه وآله .

وقال الشريف الرضيّ رحمه الله :

«وحكىٰ عنه أبو جعفر محمّد بن عليّ الباقر عليهما السلام أنّه قال : كان في الأرض أمانان من عذاب الله وقد رُفع أحدهما فدونكم الآخر فتمسّكوا به . أمّا الأمان الذي رُفع فهو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمّا الأمان الباقي فالاستغفار . قال الله تعالىٰ : ﴿ **وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ﴾(٢) . وهذا من محاسن الاستخراج ولطائف الاستنباط»(٣) .

وخاطبه عليه السلام ساعة دُفن صلى الله عليه وآله وسلم فقال :

«إنّ الصبر لجميل إلّا عنك ، وإنّ الجزع لقبيح إلّا عليك ، وإنّ المصاب بك لجليل ، وإنّه قبلك وبعدك لجلل»(٤) .

فبيّن عليه السلام أثر وجوده صلى الله عليه وآله وسلم بينهم وشدّة حزنه علىٰ فقده .

ومن الآداب الجميلة الّتي أدّب بها المؤمنين هي استهلال أدعيتهم في طلب الحاجات بالصّلاة علىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال وقوله الحقّ :

«إذا كانت لك إلى الله سبحانه حاجةٌ فابدأ بمسألة الصلاة علىٰ رسوله صلى الله عليه وآله ثمّ سل حاجتك فإنّ الله أكرم من أن يُسأل حاجتين فيقضي إحداهما ويمنع الأُخرىٰ»(٥) .

وكلامه عليه السلام هذا من غرر الآداب ودرر التعاليم وجواهر الأخلاق . وفيه ترسيخ

---

(١) *نهج البلاغة* ، شرح الشيخ عبده ٣ : ٢١ .
(٢) نفسه ٤ : ١٩ ، ٢٠ .
(٣) نفسه ٤ : ١٩ ، ٢٠ .
(٤) نفسه ٤ : ٧١ .
(٥) نفسه ٤ : ٨٤ .

لمفهوم الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ، وانشداد دائم إليه ﷺ، وهويّة الصلاة شعيرة واجبة التعظيم، وشعار لازم الإحياء والتكريم. ولعلّ في الدعاء قبل الصلاة سوء أدب ونكران جميل وجحود نعمة. والإمام عليه السلام كثير الصلاة علىٰ رسول الله ﷺ. فكلّما ذكر اسمه المبارك أو وصفه الميمون صلّىٰ عليه حتّىٰ لو تكرّر ذلك مرّات كثيرة، فلا يسأم ولا يملّ ولا يضجر لعلمه بعظمتها وتعليمنا مداومةَ ذكرها تطبيقاً لسنّة صالحة وتعبيراً عن شيء من الوفاء.

ووصف عليه السلام جهده الجهيد في بثّ دعوته، وتجرّعه للغصص والمرارات من أجلها فقال:

«خاض إلىٰ رضوان الله كلّ غمرة، وتجرّع فيه كلّ غصّة. وقد تلوّن له الأدنون، وتألّب عليه الأقصون»[١].

وذكره في موضع آخر فقال:

«أرسله وأعلام الهدىٰ دارسة، ومناهج الدين طامسة. فصدع بالحقّ، ونصح للخلق، وهدىٰ إلى الرشد، وأمر بالقصد، صلّى الله عليه وآله»[٢].

وصرّح عليه السلام بهيمنته ﷺ على المرسلين عليهم السلام، وهذي لعمر الله منزلة فذّة فريدة لا تُوازىٰ ولا تُبارىٰ. قال عليه السلام في أحد كتبه إلىٰ أهل مصر مع الشهيد العظيم مالك الأشتر رضوان الله عليه لمّا ولّاه إمارتها:

«أمّا بعد فإنّ الله سبحانه بعث محمّداً ﷺ نذيراً للعالمين ومهيمناً على المرسَلين»[٣].

ومجّد الإمام عليه السلام شجاعة رسول الله ﷺ وهو هو في شجاعته وبسالته فقال ما يستحليه الإنسان:

---

(١) *نهج البلاغة*، شرح الشيخ عبده ٢: ١٦٥. (٢) نفسه ٢: ١٦٨.

(٣) نفسه ٣: ١١٨.

«كنّا إذا احمرّ البأس اتّقينا برسول الله ﷺ فلم يكن منّا أقرب إلى العدوّ منه»[١].

(ومعنىٰ ذلك أنّه إذا عظم الخوف من العدوّ واشتدّ عضاض الحرب فزع المسلمون إلىٰ قتال رسول الله ﷺ بنفسه فيُنزل الله عليهم النصر به ويأمنون ممّا كانوا يخافونه بمكانه. واحمرار البأس كناية عن اشتداد الأمر)[٢].

وعدّد له صفاتٍ حَريّة بالذّكر حقيقة بالحفظ تزدان بها خطبة من خطبه عليه السلام، قال:

«حتّىٰ أفضت كرامة الله سبحانه إلىٰ محمّد ﷺ، فأخرجه من أفضل المعادن منبتاً، وأعزّ الأرومات مغرساً. من الشجرة الّتي صدع منها أنبياءه وانتخب منها أُمناءه. عترته خير العتر، وأُسرته خير الأُسر، وشجرته خير الشجر. نبتت في حرم، وبسقت في كرم، لها فروع طوال وثمرة لا تُنال. فهو إمام من اتّقىٰ وبصيرة من اهتدىٰ. سراج لمع ضوءه، وشهاب سطع نوره، وزَند برق لمعه. سيرته القصد، وسنّته الرشد وكلامه الفصل. وحكمه العدل. أرسله علىٰ حين فترةٍ من الرّسل، وهفوة عن العمل، وغباوة من الأمم»[٣].

وفخر عليه السلام علىٰ يهوديّ زعم أنّ آدم عليه السلام أفضل من نبيّنا ﷺ لأمر الله سبحانه الملائكة عليهم السلام بالسجود له، فذكر الإمام أنّ السجود كان لله تعالى فضيلةً لآدم عليه السلام. أمّا نبيّنا ﷺ فإنّ الله تعالىٰ صلّىٰ عليه في ملكوته وملائكته وتعبّد المؤمنون بذلك[٤]. بل لا تُقبل الصلاة الواجبة إلّا بالصلاة عليه وآله وذلك في التشهّد الأوسط والأخير كما قال الشافعيّ مخاطباً أهل البيت عليهم السلام:

كفاكم من عظيم الفخر أنّكم   من لم يصلّ عليكم لا صلاة له

هذا قبسٌ ممّا استضاء به هذا العرض من كلام الله سبحانه وتعالىٰ وكلام عبده

---

(١) **نهج البلاغة**، شرح الشيخ عبده ٤: ٦١.   (٢) نفسه ٤: ٦١.

(٣) نفسه ١: ١٨٥.

(٤) ***الميزان في تفسير القرآن*** ١: ١٢٤ نقلاً عن ***(الاحتجاج)***: ٢١٠.

ووليّه عليّ بن أبي طالب عليه السلام في حبيبه ورسوله محمّد صلى الله عليه وآله وسلم. والحديث عن السيرة النبويّة الشريفة تعظيم لشعيرة من شعائر الله تعالىٰ، وموقف حميد من صاحب الرسالة صلى الله عليه وآله وسلم بإحياء ذكره وبثّ رسالته، والاقتداء به. كما أنّ سردها تمتيع للرّوح بذكر حبيب ربّ العالمين صلى الله عليه وآله وسلم وفرصة ثمينة للوقوف الهادف الواعي علىٰ ما ازدهت به من محاسن الأقوال والأفعال. وصفوة القول أنّ السيرة النبويّة هي للعمل والاتّعاظ وهي منجع للقاصدين ومهيع للهادفين.

ويَثمُن العرض بعروض مُربحة تُستثرىٰ وتُبتغىٰ ولها من القدر ما يقدِره أهلها وهي تنظُر من يرعاها حقّ رعايتها. ومن هذه العروض الّتي لا تبتغي إلّا التوجّه تلقاء نبيّ الرحمة ومفتاح الخير وقائد البركة، والتعبير عن نزرٍ من الوفاء الذي هو توأم الصدق لذلك السراج المنير صلى الله عليه وآله وسلم:

١ ـ الإكثار من الصلاة عليه في كلّ يوم وعلىٰ قدر الوُسع، وحبّذا هي في وقتٍ يُخصّص لها. وحَسُن أن تكون قبل طلوع الشمس وقبل الغروب، وقُبيل النوم وبُعيد الاستيقاظ، وفي السرّاء والضرّاء، والحضر والسفر. ونعم المداومة عليها عن بصيرةٍ إجابةً لأمر الله سبحانه وتعالىٰ، ودعاءً لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وإقبالاً عليه، وتحصيناً من الزيغ، واستقامة علىٰ سبيل الرشد، وابتغاءً للثواب. ورياضة اللسان عليها مناعة للنفس من أهوائها وأدوائها. ولتكن هادفةً واعيةً حتّىٰ يجتمع جانباها الروحيّ والتربويّ إن شاء الله. ويجمل التذكير بها عند السهو والغفلة. وخليق بالمسلم أن يلهج بها وهجرها جفاء.

٢ ـ السلام عليه بعد كلّ صلاة. فيقف المسلم متوجّهاً إلى القبلة مخاطباً نبيّه الكريم قائلاً:

«السّلام عليك يا سيّدي يا رسول الله وعلىٰ أهل بيتك الطيّبين الطاهرين جميعاً ورحمة الله وبركاته».

٣ ـ الصلاة عليه كلّما ذُكر اسمه المبارك أو وصفه الجميل عرفاناً لجميله، وشكراً لصنيعه، وتثميناً لكدحه، وسخاءً عند الإمساك عنها، وتطييباً لنفسه الشريفة، وإغاظةً لأعداء الله. فلا يسأم مسلم غيور علىٰ نبيّه ولا يملّ منها حتّىٰ لو تكرّرت مرّات كثيرة، وليشعر أنّه كلّما فعل ذلك فهو قليل بحقّه. وتردادها ترويض حميد للنفس، وآية علىٰ زيادة الثناء ودفع الجحود. وإذا كُتب اسمه أو وصفه فلتكتب الصلاة عليه بصورتها التامّة صلّى الله عليه وآله وسلّم بلا قوسين ويُترك حرف الصاد. صلّى الله عليه وآله كلّما طلعت شمس أو غربت.

٤ ـ تَمَثُّل قداسته صلى الله عليه وآله وسلم . أي: النظر إلىٰ جانبه القُدسيّ أكثر من جانبه البشريّ. وصحيح أنّه بشر لكنّه بشر لا كالبشر وليس مثله بشر. فهو بشر يكلّمه الله جلّ شأنه، ويوحي إليه، ويطأمنه برسله من ملائكته المقرّبين، وهو رسوله وأمينه وصفيّه وحبيبه وخيرته من خلقه وحافظ سرّه ومبلّغ رسالاته. وهو الذي لا ينطق عن الهوىٰ، ولديه أخبار السماء، وله المحلّ الأعلىٰ في الملأ الأعلىٰ. ولم يعرفه حقّ معرفته إلّا ربّه الذي اختاره واصطفاه. وليس لأحد أن يُدرك عظمته وهي لا تُدرك ولا تُنال. وهو المقدّس الذي استخلصه ربّه لنفسه. ولا تُقدَّس الأمّة إلّا إذا قدّسته وعلمت أنّه المتّصل الوحيد بالسماء، المنزَّل عليه روح القُدُس، المؤيّد بالملكوت الأعلىٰ، المسدَّد بربّه الأعلىٰ، الذي أمّ الأنبياءَ في إسرائه، والملائكة في معراجه وهو القائل: «أممتُهم ولا فخر»[١]. وهو القائل: «كنت نبيّاً وآدم بين الماء والطين»[٢] وهو القائل: «لي مع الله وقت لا يسعني فيه مَلَك مقرّب ولا نبيّ مُرسل»[٣].

٥ ـ حبّه صلى الله عليه وآله وسلم حبّاً رساليّاً هادفاً يكون علاجاً لأدواء الهوىٰ وحبّ الذات والجاه

---

(١) *الميزان في تفسير القرآن* ١٣: ٨.

(٢) *شرح القيصريّ على تائيّة ابن الفارض* المطبوع مع تائيّة عبدالرحمٰن الجاميّ: ٢٢٢، شرح البيت ٦٢٨.

(٣) نفسه: ١٦٣ البيت ٢٠٦.

والمال والعِرق والعنصر. ويُصبح هـو المحـور بـعد حبّ الله تـعالى. أي: لا يجـتمع حبّه ﷺ وحبّ واحد من الأشياء المذكورة. ولا يؤمن المـؤمن إلّا إذا كـان ﷺ أحبّ إليه من كلّ شيء. ولا يتحقّق حبّه بحقيقته إلّا بالالتزام بسنّته، والتمسّك بأهل بيته عليهم السلام الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً نـظماً للأُمـور وتـوحيداً للصفّ. أي: إنّ الاهتداء بهدي أهل البيت عليهم السلام أو التعبّد بمذهبهم يضمن للأُمّة نظامها ويقيها شرّ الفُرقة والتشتّت. وهذه حقيقة لا سبيل إلىٰ إنكارها البتة. كما أنّه عـمل بالوصيّة النبويّة المتّفَق عليها في كتب الفريقين أتباع أهل البيت وعـامّة المسـلمين. وتقدّمت الإشارة إلىٰ أنّ حبّ الله جلّ جلاله لا يتحقّق إلّا باتّباع رسوله ﷺ ـ وهو ما نصّ عليه القرآن الكريم ـ أمّا حبّ رسوله فـلا يـتحقّق إلّا بـاتّباع أهـل بـيته. وكأنّه ﷺ يخاطب المسلمين قائلاً: إن كنتم تحبّوني فاتّبعوا أهل بيتي أُحببكم ويغفر ربّي لكم. واتّباعهم ضمان في الدنيا وأمان في الآخرة. ويضاف إلىٰ ذلك تكريم أصحابه رضي الله عنهم والإحسان إليهم بجميل الثناء عليهم، والجدّ في توقيرهم وتبجيلهم. فلسنّته الاهتداء، ولأهل بيته الاقتداء، ولصحابته حسن الثناء.

٦ ـ مذاكرة سيرته ﷺ كلّما سنحت الفرصة كي نعيش أجـواء النـبوّة الخـاتمة باستمرار ولا نفرّط بذكر نبيّنا ﷺ والإشادة به والتمدّح المتّزن المطلوب له. ولا تتمّ المذاكرة إلّا بعد مطالعة السيرة والتعرّف عـليها. والمـطالعة المـطلوبة هـي المـطالعة المنتظمة الهادفة. وجهل المسلم بسيرة نبيّه تقصير بيّن لا يُغفَر. فحقيق به أن يـطّلع عليها ويُحيط بحذافيرها ويتّخذها شعاراً ابتغاء الاستنارة بها، والتعلّم منها، والاعتبار بها. ومصدرها الأوّل هو الثقل الأكبر القرآن الكريم، والثاني هو الثقل الأصغر عِدل القرآن أهل البيت النبويّ الكريم عليهم السلام، والثالث كلام الصحابة والتابعين رضي‌الله عنهم إلّا ما وُضع منه اجتراءً على الله ورسوله، والرابع ما كتبه المعنيّون بالسيرة إلّا ما وهم فيه بعضهم أو اختلقه تطاولاً. ويصاحب ذلك كلّه التمحيص والتثبّت للوقوف عـلى الصحيح منه، فلا يُقبَل إلّا ما صحّ منه.

٧ ـ الاهتمام بالسيرة اهتماماً بالغاً بجعلها درساً مستقلّاً في مدارس المسلمين جميعاً، وترجمتها إلىٰ مختلف اللغات ليعرف أبناء الأُمم الأخرىٰ من هو نبيّنا، وردّ الشبهات التي يثيرها بعض الأعداء عليها، وتمييز صحيحها من سقيمها، وتمحيصها باتّئاد، والتأنّي في منقولاتها. والتفاعل معها بوعي وبصيرة. وبعد هذا كلّه جعلها ميزاناً لوحدة المسلمين. فسيرته ﷺ تدعونا إلىٰ تحسين سيرتنا، وتوحيد كلمتنا وتثمير مودّتنا، وتقريض أضغاننا، ولن يرضىٰ عنّا رسول الله ﷺ إلّا إذا أثّرت فينا سيرته بما يُرضيه عنّا. ولا فائدة في قراءتها وتكرارها دون العمل بها، ويتجلّىٰ تأثيرها في رفع المستوى الإيمانيّ والروحيّ والأخلاقيّ للأُمّة المرحومة.

أمّا هذا الكتاب الذي فُرغ من تعريبه فهو لأحد علماء إيران المتخصّصين في التاريخ الإسلاميّ وهو الشّيخ رسول جعفريان الذي صنّف كتباً نافعةً لها قيمتها. ومنها هذا الكتاب الذي يتناول فيه مؤلّفه المتقصّي السيرة النبويّة الشريفة بأُسلوب جديد، ونظرة فاحصة، وتوجّه سديد. ويتميّز الكتاب بتنوّع معلوماته، وتفصيل موضوعاته، وكثرة مصادره. وسهولة فهمه. ووضوح مراشده تدلّ علىٰ رُشده. وله بعدُ قسطه من الإقبال عليه، والنظر فيه ومطالعته. وهو يُخبر عن سعي حميد.

ومن المناسب أن يُختَم هذا العرض بفقرات من دعاء للإمام الرابع من أئمّة أهل البيت عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام عند ختم القرآن، ثمّ بدعائه عليه السلام بالصلاة علىٰ رسول الله ﷺ.

«اللهمّ صلّ علىٰ محمّد عبدك ورسولك كما بلّغ رسالتك وصدع بأمرك ونصح لعبادك. اللهمّ اجعل نبيّنا صلواتك عليه وعلىٰ آله يوم القيامة أقرب النّبيّين منك مجلساً وأمكنهم منك شفاعةً وأجلّهم عندك قدراً وأوجههم عندك جاهاً. اللهمّ صلّ علىٰ محمّد وآل محمّد وشرّف بنيانه وعظّم برهانه وثقّل ميزانه وتقبّل شفاعته وقرّب وسيلته وبيّض وجهه وأتمّ نوره وارفع درجته وأحينا علىٰ سنّته وتوفّنا علىٰ ملّته وخذ بنا منهاجه واسلك بنا سبيله واجعلنا من أهل طاعته واحشرنا في زمرته

وأوردنا حوضه واسقنا بكأسه وصلّ اللهمّ علىٰ محمّد وآله صلاةً تبلّغه بها أفضل ما يأمل من خيرك وفضلك وكرامتك إنّك ذو رحمة واسعة وفضلٍ كريم. اللهمّ اجزه بما بلّغ من رسالاتك وأدّىٰ من آياتك ونصح لعبادك وجاهد في سبيلك أفضل ما جزيتَ أحداً من ملائكتك المقرّبين وأنبيائك المرسلين المصطَفين والسّلام عليه وعلىٰ آله الطيّبين الطّاهرين ورحمة الله وبركاته»[١].

ومن دعائه عليه‌السلام بالصلاة علىٰ رسول الله ﷺ وهو دعاء خاصّ مستقلّ. أمّا الفقرات السابقة فهي في سياق دعاء طويل كان يقرأه عليه‌السلام بعد ختم القرآن الكريم. وحريّ بكلّ مسلم محبّ لله ورسوله أن يقتني تلك الصحيفة النفيسة التي لا يقدَّر لها ثمن، ويتربّىٰ علىٰ أدعيتها البليغة البليغة التي تحلّق به في عالم الصفاء الروحيّ، وتنقذه من أوساخ هذه الحياة الدنيّة، وتوصله إلىٰ رضوان الله إن شاء الله. قال عليه‌السلام:

«والحمد لله الذي مَنَّ علينا بمحمّد نبيّه صلّى الله عليه وآله دون الأُمم الماضية والقرون السالفة بقدرته التي لا تعجز عن شيءٍ وإن عَظُم ولا يفوتها شيء وإن لَطُف فختم بنا علىٰ جميع من ذرأ وجعلنا شهداء علىٰ من جحد وكثّرنا بمنّه علىٰ من قلّ. اللهمّ فصلّ علىٰ محمّد أمينك علىٰ وحيك ونجيبك من خلقك وصفيّك من عبادك إمام الرحمة وقائد الخير ومفتاح البركة كما نصب لأمرك نفسه، وعرّض فيك للمكروه بدنه، وكاشف في الدعاء إليك حامّته، وحارب في رضاك أُسرته، وقطع في إحياء دينك رَحِمَه، وأقصى الأدنين علىٰ جحودهم، وقرّب الأقصين على استجابتهم لك، ووالىٰ فيك الأبعدين، وعادىٰ فيك الأقربين، وأدأب نفسه في تبليغ رسالتك، وأتعبها بالدعاء إلىٰ ملّتك، وشغلها بالنصح لأهل دعوتك. وهاجر إلىٰ بلاد الغربة ومحلّ النأي عن موطن رحله وموضع رِجله ومسقط رأسه ومأنس نفسه إرادةً منه لإعزاز دينك واستنصاراً علىٰ أهل الكفر بك حتّى استتبّ له ما حاول في أعدائك، واستتمّ له

(١) *الصحيفة السجّاديّة*، الدعاء ٤٢. دعاؤه عليه‌السلام عند ختمه القرآن.

ما دبّر في أوليائك. فنهد إليهم مستفتحاً بعونك ومتقوّياً علىٰ ضعفه بنصرك فغزاهم في عُقر ديارهم وهجم عليهم في بحبوحة قرارهم حتّىٰ ظهر أمرك وعلت كلمتك ولو كره المشركون. اللهمّ فارفعه بما كدح فيك إلى الدرجة العليا من جنّتك حتّىٰ لا يُساوىٰ في منزلة ولا يُكافأ في مرتبة ولا يوازيه لديك مَلَك مقرّب ولا نبيّ مُرسل وعرّفه في أهله الطاهرين وأمّته المؤمنين من حسن الشفاعة أجلَّ ما وعدته يا نافذ العِدّة يا وافي القول يا مبدّل السيّئات بأضعافها من الحسنات. إنّك ذو الفضل العظيم الجواد الكريم»[1].

إنّها لكلمات شافية وعبارات من الدعاء وافية لحفيد من أحفاد رسول الله ﷺ. وهو الإمام الرابع من أئمّة أهل البيت الذين أوصىٰ ﷺ بالتمسّك بهم وصيّة شرعيّة واجبة علىٰ جميع المسلمين. والتمسّك هو التعبّد بأحكامهم، والأخذ بأقوالهم، وتطبيق سننهم عليهم‌السلام لخير الدّنيا والآخرة.

وزبدة الكلام أنّ السنّة النبويّة الشريفة هي للاقتداء، وأعظم ما فيها وأهمّه هو تحكيم الدّين في الحياة، والاهتمام البالغ بسلامته ورفع شأنه، وجعله المعيار في كلّ شيء واتّخاذه بديلاً عن سائر المقاييس الجاهليّة الأُخرىٰ من قوميّة وعنصريّة وفئويّة وحزبيّة ومالٍ وثروة وجاه وسلطة وغيرها من المقاييس التي أشاعها خصوم الدين هذا اليوم، وتثبيته مصدراً لجميع القيم الإنسانيّة والأخلاق الرغيبة. جعلنا الله من المعتصمين بحبله، المتمسّكين بسنّة نبيّه ﷺ، الملتزمين بهُدىٰ أهل بيت نبيّه عليه وعليهم السّلام. وكفانا فخراً وشرفاً أنّ محمّد بن عبد الله ﷺ هو نبيّنا. أغارنا الله عليه في دنيانا ورزقنا رؤيته وشفاعته في أُخرانا إنّه سميع مجيب وهو حسبنا ونعم الوكيل.

مترجم الكتاب

صفر ١٤٢٥ هـ

---

(١) *الصحيفة السجّاديّة*، الدعاء الثاني.

بسم الله الرّحمٰن الرّحيم

توطئة

إنّ تدوين التّاريخ الإسلاميّ ضرورة علميّة وثقافيّة في بلدنا الإسلاميّ هذا اليوم، في حين أنّ المثقّفين الشّيعة لم يهتمّوا بهذا الموضوع كما هو حقّه. ويعود ذلك إلىٰ طبيعة الاتّجاه الّذي يحمله علماء الشيعة حيال الفروع المختلفة للعلوم الإسلاميّة، ومنها التاريخ. والشّيعة ـ مبدئيّاً ـ لم تخصّص وقتاً لكتابة التّاريخ والبحث والتّتبّع فيه، لأنّها ترفض فصولاً من التاريخ الإسلاميّ ولم تقم لها وزناً من منطلق مذهبيّ. والآن إذ يحاول الشيعة أن تكون لهم صلة أكثر بالعالم الإسلاميّ، وأن يمارسوا دوراً أهمّ فيه، من الضّروريّ أن يزيد اهتمامهم بالتّاريخ، ويفيدوا من تجاربه الإيجابيّة والسّلبيّة.

وكانت تراودني ـ منذ سنين ـ فكرة تأليف كتاب يتناول الجانب السّياسيّ من التّاريخ الإسلاميّ. وأطمح أن يستوعب التّاريخ الإسلاميّ بعامّة، وتاريخ المعصومين بخاصّة. وطفقت أُدوّن كتاباً بعنوان «پيش درآمدى برشناخت تاريخ اسلام» [مدخل إلىٰ معرفة التّاريخ الإسلاميّ]. وقامت مؤسّسة «در راه حقّ» [في طريق الحقّ] بطبع الكتاب المذكور سنة ١٤٠٥ هـ. بتشجيع من أُستاذي العزيز آية الله السّيّد محسن الخرّازيّ. ثمّ طُبع كتاب «التاريخ السّياسيّ للإسلام حتّىٰ سنة أربعين للهجرة». وتمّ الفراغ أخيراً من طبع كتاب «التاريخ السّياسيّ للإسلام من سنة أربعين حتّىٰ سنة مئة

للهجرة». وهو الّذي عرضته دار النشر التابعة لوزارة الإرشاد الإسلاميّ في جزءين عنوانهما «سيره رسول خدا» [سيرة رسول الله ﷺ] و«تاريخ خلفاء» [تاريخ الخلفاء] وأعادت «إصدارات الهادي» طبعه بعد إصلاحات أُجريت في الجزء الأوّل منه.

إنّ ما يُلاحَظ علىٰ هذا الكتاب هو غلبة الجانب التّحليليّ علىٰ كتابة التّاريخ. والباعث الأساس علىٰ هذا الأمر مراعاة المطّلعين علىٰ مفردات السّيرة النّبويّة، الّذين لا يحتاجون إلىٰ تكرار الحوادث. يضاف إلىٰ ذلك أنّنا حاولنا أن نذكر المرحلة التاريخيّة لحركة الإسلام النامية، ونحجم عن أحداث ما قبل الإسلام، حتّىٰ فيما يتعلّق بالنّبيّ ﷺ. ويعود ذلك إلىٰ أنّ الأخبار المنقولة في هذا المجال تتّسم بالهشاشة والضعف. وإذا لم نقل كلّها، فينبغي أن نقول إنّ أكثرها مقدوح السند ومرفوض.

وأراني في غنىً عن التّنويه باسم أُستاذي العزيز العلّامة المعزّز المعظّم آية الله السّيّد جعفر مرتضىٰ ـ حفظه الله وأبقاه ـ فإنّي مدين له في عملي التّاريخيّ. وقد استفدت منه سنين متوالية. وحُرمت منه الآن بعد عودته إلىٰ لبنان الّتي مرّ عليها قرابة أربع سنين. يضاف إلىٰ ذلك أنّي استنرتُ في مجالات متنوّعة من هذه المباحث بتوجيهات آية الله السيّد مهدي روحاني، وآية الله احمدي ميانجي خلال عدد سنين. ومن الطّبيعيّ أنّي مسؤول عن كلّ نقص في الكتاب، كما أنّي مسؤول عن الآراء المعروضة فيه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

رسول جعفريان

١٤١٩ هـ

(١)

كتابة التّاريخ عند المسلمين

بسم الله الرحمٰن الرّحيم والحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام علىٰ سيّدنا محمّد وعلىٰ آله الطيّبين الطّاهرين.

المسلمون وكتابة التّاريخ

التّراث التّاريخيّ الضّخم عند المسلمين آية علىٰ وجود البواعث القويّة لديهم من أجل إنضاجه. وإذا ألقينا نظرة مطابقة على الفروع العلميّة الّتي يرغب فيها المسلمون، أمكنتنا أن نقف علىٰ غَناء هذا العلم ونعرف أنّ التّاريخ كان من أهمّ الفروع العلميّة المألوفة في الحضارة الإسلاميّة. ولكلِّ قومٍ دوافعُ كثيرة من الناحية الذاتيّة تحفّزهم علىٰ كتابة تاريخهم، وهذه الدّوافع كانت موجودة عند المسلمين أيضاً. وبالتّغاضي عن هذه الدّوافع يتسنّىٰ لنا أن نشير إلىٰ موضوعات خاصّة كان لها تأثيرها في تنبيه المسلمين علىٰ هذا العلم.

التّراث التّاريخي للعرب في الجاهليّة

يرد التّراث التّاريخيّ للعرب، قبل كلّ شيء، تحت عنوان «أيّام العرب». ويُقصَد من اليوم هنا اليوم الّذي وقعت فيه حادثة مهمّة وأصبح تاريخيّاً. من هنا فإنّ «اليوم» و«الواقعة» في «يوم صفّين» أو «وقعة صفّين» بمعنىً واحد. ولا شكّ أنّ العرب قد استذكروا هذه «الأيّام»، ونقلوها من جيلٍ إلىٰ آخر شفويّاً، وكانوا يقرأونها في

مجالس أدبهم وأُنسهم. مع هذا ينبغي الالتفات إلىٰ أنّ ما نلحظه في الكتب الأدبيّة عن «العصر الجاهليّ وأيّام العرب قبل الإسلام» يرتكز نقله من العصر الجاهليّ إلى العصر الإسلاميّ علىٰ ما رُوي مشافهةً، وهو ما دوّنه العلماء في عصر متأخّر فحسب. وذكرىٰ هذه الأيّام هي أوّل عقليّة تاريخيّة كانت عند العرب، وقد أبقت الاهتمام بأحداث الماضي حيّاً عندهم.

يحوم الشّكّ حول مدىٰ تأثير «أيّام العرب» علىٰ «المعلومات التّاريخيّة» عند المسلمين. وهذه الرّؤية تذهب إلىٰ أنّ الاهتمام بأيّام العرب كان ذا طابعٍ أدبيّ، لا تاريخيّ. وقد نالت ذلك الاهتمام نتيجة لمرور الزّمن ولاشتمالها على العناصر التّاريخيّة. وقال روزنتال: كانت هذه القصص غالباً تُسرد للهواية والترف وإمتاع المستمعين عاطفيّاً. ولمّا كانت أيّام العرب تضبط الأحداث المهمّة، وكانت تنظر إليها من وجهة أخلاقيّة خاصّة، فقد اشتملت علىٰ عناصر تاريخيّة أيضاً. مع أنّها لم يلحظ فيها استمرار قطّ. ولا يُنظَر إلىٰ هذه القصص من منظار علاقة العلّة والمعلول التّاريخيّة، وجوهرها خلوّها من العنصر الزّمانيّ[1]. ومن الجدير ذكره هنا أنّ صورة من كتابة التّاريخ الإسلاميّ الّتي تمثّل نظرةً أُحاديّة الموضوع ترتبط بالحروب والأحداث المؤقّتة تُشبه أيّام العرب تشابهاً ملحوظاً من حيث قلّة الاهتمام بعنصر الزّمان وهذا لا يقوم دليلاً علىٰ ضآلة القيمة التّاريخيّة لأيّام العرب أو النّظرات الأُحاديّة الموضوع للكتابة. علماً أنّه قد أصاب من قال إنّ محتوىٰ أيّام العرب ذو طابع أدبيّ أكثر من أيّ شيء آخر.

وينكر كاتب آخر وجود علم التّاريخ عند العرب أساساً مستنداً إلىٰ عدم وجود اصطلاح خاصّ للتّاريخ في أوساطهم. يقول هذا الكاتب:

---

(١) ***تاريخ تاريخنگارى در اسلام*** [تاريخ كتابة التّاريخ في الإسلام] ١: ٣٢، ٣٣.

«من البديهيّ أنّهم (العرب) إلىٰ ما قبل ظهور الإسلام لم تكن لهم رؤية عن التّاريخ بدون وجود كلمة مناسبة خاصّة له ... وفي الحقيقة كانوا أُناساً بلا علمٍ عن التّاريخ.

من هنا لم يتسنّ للمسلمين أن يستلهموا من العرب قبل الإسلام شيئاً من أجل سنّ كتابة التاريخ وتوسيعها»[١].

ومن الواضح أنّنا لا يمكن أن نعدّ صورة كتابة التّاريخ عند المسلمين وما كان سائداً بين العرب ممّا يعرف بأيّام العرب شيئاً واحداً. ولكن لا ريب أنّ من أسباب الاهتمام بالتّاريخ «نفس الاهتمام بالماضي». وهذا الاهتمام ملحوظ في أيّام العرب بجلاء[٢].

ويتعيّن أن نقول: يرىٰ البعض في مقابل هذه العقيدة أنّ لأساس كتابة التاريخ الإسلاميّ جذوراً في وجود هذا العلم بين العرب قبل الإسلام لاسيّما العرب اليمانيّين منهم، والتاريخ الإسلاميّ علم لم يؤخذ من الحديث قطّ. وأخذ التاريخ من الحديث هو رأي بعض المستشرقين، وقد رفضه الدكتور جواد علي. إذ استنتج في ضوء البحث الّذي قام به في مصادر الطّبريّ أنّ التاريخ علم أقدم من الحديث. وأنّ مقداراً كبيراً من أخبار العصر الجاهليّ، حتّىٰ مع طابعها القصصيّ يدلّ على الاهتمام التامّ البالغ الّذي أبداه العرب قبل الإسلام حيال هذا العلم[٣]. وعلم الأنساب أيضاً قسم من هذا العلم الّذي لا يرتاب أحد أبداً في أصل وجوده عند العرب في الماضي، ويمكن أن يؤدّي الإفراط في هذه الرؤية إلى اتّهام القائل بوجود النوازع القوميّة لديه.

وأرىٰ أنّ الالتفات إلىٰ هذه النّقطة مفيد أيضاً، وهي أنّ «أيّام العرب» كانت تدلّ علىٰ مغزىٰ علم التّاريخ عند عرب الجاهليّة. وواجه القرآن الكريم العلم المذكور

---

(١) ***تاريخ فلسفه در اسلام*** [تاريخ الفلسفة في الإسلام] ٣: ٢٩٦.

(٢) قال إحسان عبّاس ما مضمونه: إنّ اهتمام المسلمين بمغازي النبيّ ﷺ و حروبه في بداية اهتمامهم بالسيرة مأخوذ من رؤية «أيّام العرب» وفي ظرف اسلاميّ طبعاً. انظر: *فنّ السّيرة*: ١٣.

(٣) انظر: ***موارد تاريخ الطّبريّ***، القسم الأوّل، ص١٥٧، ١٥٨.

بطرح الاصطلاح القرآنيّ «أيّام الله». وهذه المواجهة مَعلَم علىٰ شأن هذين الاصطلاحين تاريخيّاً. يضاف إلىٰ ذلك أنّنا يتسنّىٰ لنا أن نعدّ أيّام العرب التّراث التّاريخيّ لعرب الجاهليّة، وكذا علم الأنساب فإنّه يدخل في عداد هذا التراث بحجمٍ أقلّ، كما يعتبر من العوامل المؤثّرة في توجيه المسلمين إلى التّاريخ، وإن كان في قالب النّسب[١].

تأثير المباحث التّاريخيّة للقرآن الكريم

جاز لنا أن نقول بلا مقدّمة: إنّ القرآن الكريم ترك أعمق الأثر على المسلمين في لفت نظرهم إلى التّاريخ[٢]. ولم يعرض القرآن الكريم قسماً من المعلومات التّاريخيّة فحسب، بل حثّ المسلمين علىٰ مطالعة التّاريخ ليستضيئوا به مناراً للهدىٰ والتّديّن. وكلاهما كان مؤثّراً في توليد الحافز الدّينيّ عند النّاس من أجل الاهتمام بالتّاريخ.

من الطّبيعيّ أنّ نطاق هذا الاهتمام كان محدوداً بتقويم تيّارات الحقّ والباطل، وفي مضمارٍ قانونيّ خاصّ طرحه القرآن الكريم عن الحياة الاجتماعيّة للنّاس في التّاريخ. والطّابع الدّينيّ للتواريخ الإسلاميّة، بخاصّة التّوكّؤ علىٰ موضوع الأنبياء، وكذلك العمل المستمرّ في مغازي النّبيّ ﷺ متأثّران بهذه النّظرة. ومع أنّ مباحث تاريخيّة موسّعة قد طرحت في النّصوص التّاريخيّة للمسلمين على مرّ الزّمن ولأسباب أُخرىٰ، بيد أنّ عنوان «العِبرة» الّذي يمثّل الإطار التّاريخيّ للقرآن نال اهتمام المسلمين في كثير من الأوقات، وعُرض التاريخ بوصفه «تجارب الأمم». ويتبع اهتمام المسلمين بتاريخ الأنبياء السّابقين الّذي جرّهم بعد ذلك إلى النصوص التاريخيّة لأهل الكتاب، وترك

---

(١) انظر: *تاريخ تاريخنگارى در اسلام* [تاريخ كتابة التّاريخ في الإسلام]: ٣٢؛ *تاريخنگارى در اسلام* [كتابة التّاريخ في الإسلام]: ١٣.

(٢) *تاريخ كتابة التّاريخ في الإسلام*: ٣٩.

أثراً بالغاً علىٰ ثقافة كتابة التاريخ ومحتوى الكتب التّاريخيّة عند المسلمين من رغبتهم في تفسير الآيات القرآنيّة لشأن تاريخ الأنبياء.

ضرورة الاستهداء بالسّنّة النّبويّة

لو فرضنا أنّ أحداً لم يهتمّ بالحوادث التّاريخيّة بشكل مستقلّ، فإنّا يمكن أن نقبل بسهولةٍ أنّ أهمّ واجبات المحدّثين الاهتمام بالسّيرة النّبويّة وتدوينها من أجل الاستضاءة بها في الفقه، والأخلاق، وغيرهما.

إنّ الكتب المختلفة الّتي اضطلعت بجمع الأحاديث سواءً علىٰ شكل مسانيد أم سنن، أم جمع موضوعيّ تضمّ قسماً كبيراً من السّيرة النّبويّة، مع تأكيد الجوانب الدّينيّة لهذه المنقولات. وهذه المجموعات تتكوّن من أحاديث جمعها المسلمون تدريجاً بعد وفاة النّبيّ ﷺ من منطلق ضرورة معرفة الدّين. ووردت ملاحظات تاريخيّة في معظم أبواب الفقه، وفي تضاعيف المنقولات. ويعدّ «كتاب الجهاد» أو «كتاب السّير» أقرب باب فقهيّ يرتبط بمغازي النّبيّ ﷺ. وفي هذا الحقل نفسه جاءت القضايا التّاريخيّة للحروب مقرونة بضرورة معرفة أحكامها. وكتاب *السِّير* الّذي ألّفه أبو إسحاق الفزاريّ وطُبع أخيراً آية على الاهتمام التّاريخيّ للمحدِّثين. كما كان لمحمّد بن الحسن الشّيبانيّ كتاب *السّير الكبير* أيضاً! وجاء كتاب السّير في هذه المجموعات كلّها كجزء من الكتب الحديثيّة.

كان رسول الله ﷺ بوصفه الشّخصيّة البارزة قد ترك انطباعاً تاريخيّاً خاصّاً له في أذهان المسلمين. وكانت نظرة المسلمين إليه كأُسوةٍ لهم تستلزم دراسة دقيقة عميقة لحياته. من هنا فإنّنا نمتلك الآن معلومات مفصّلة عن شخصيّته ﷺ. وإذا وازنّا بينها وبين المعلومات المتعلّقة بحياة سائر الشّخصيّات الإسلاميّة في العصور

اللاحقة وجدناها تدلّ علىٰ تأثيرها التّاريخيّ وضبطها في التّاريخ بين المسلمين علىٰ سبيل المثال نلحظ أنّ فرع تصوير الشّمائل في التاريخ الإسلاميّ مأخوذ من جهود الجيل الأوّل في تصوير هيئته ﷺ إلىٰ حدّ ما. وسنرىٰ أنّ كتب السيرة لم تظلّ في مستوىٰ دراسة حياته الخاصّة ﷺ أو التاريخ العامّ للإسلام بل اهتمّت بالتاريخ مبدئيّاً كتاريخ و زادت الكتب التاريخيّة شراءً.

إهتمام الحكّام بالتّاريخ

عندما يرغب سواد النّاس في تخليد ذكرهم تاريخيّاً، فإنّ هذه الرغبة تزداد، لا محالة، عند الحكّام لأنّهم يشعرون أنّ تأثيرهم على المجتمع أعمق فيسعون إلىٰ تثبيت هذا التّأثير. ويحبّون أن يذكرهم الناس كشخصيّات بارزة.

يضاف إلىٰ ذلك، أنّهم كانوا يرون أنفسهم بحاجة إلىٰ تجارب الآخرين من أجل بسط السّيادة. من هنا فإنّهم يتوخّون دراسة ما مضىٰ من التاريخ، وكتابة تاريخ العصر الذي يعلَقونه علىٰ حدٍّ سواء. وهم يرغبون أن تحمل الأجيال القادمة صورة مناسبة عنهم في الأذهان. وهذا ما يحدوهم على الاهتمام بتدوين الحوادث الواقعة في عصورهم. ومن الطّبيعيّ أنّ لهم اهتماماً أيضاً بالماضي الذي يتعلّقون به لإثبات قاعدتهم التاريخيّة كي يظهروا ولهم جذور ضاربة في التّاريخ. وفي ضوء ما جاء في *نهج البلاغة* من الاعتبار بالتاريخ نلحظ أنّ الإمام عليّاً عليه السلام أوّل شخصيّة من بين حكّام العصر الإسلاميّ طالبت بالاهتمام الحقيقيّ بالتاريخ فمن منظاره عليه السلام أنّ الانتفاع بالماضي هو من أجل الظفر بحركة صحيحة في المستقبل في إطار الاعتبار القرآنيّ. كما ذكّر معاوية بالماضي بصراحة وأفاد منه. فقد طلب من عبيد بن شرّية أن يكتب له أخبار ملوك اليمن، وقام بذلك وألّف كتاباً تحت عنوان *كتاب الملوك وأخبار*

الماضين[١]. وقيل: إنّه كان يخصّص قسماً من وقته للاستماع إلىٰ ما يُتلىٰ عليه من أخبار الماضين قراءة من الكتب[٢]. وطلب من النّسّابة دِغْفَل أيضاً أن يعلّم يزيدَ الأنساب[٣]. وكان اهتمامه بماضي العرب يغلب عليه الطابع الترفيهيّ والهواية، وله رغبة في المحافظة علىٰ صلته بالثقافة الجاهليّة للعرب.

وكان عبدالملك بن مروان ـ من بين الملوك الأمويّين ـ راغباً في الاطّلاع على السّيرة النّبويّة. وكان يسأل عروة بن الزّبير في هذا المجال[٤]. وطلب سليمان بن عبدالملك من أبّان بن عثمان أن يؤلّف كتاباً في السّيرة. وإن كان أتلف ما استنسخه بعد مدّة لأسباب سياسيّة[٥]. وإنّ إهداء سيرة ابن إسحاق إلى المنصور العبّاسيّ لافت للنظر في هذا المضمار[٦]. ويدلّ طلب هارون من الواقديّ بيان السّيرة على اهتمام الحكّام بالتّاريخ والسّيرة وتشجيعهم المؤرّخين[٧]. وأدّى اتّساع الرّقعة الجغرافية للبلاد الإسلاميّة إلىٰ أن يفكّر الحكّام بالإفادة من تجارب سائر الملوك، فيتّسع نطاق كتابة التّاريخ عبر هذا الطّريق أيضاً. وبلغ اهتمام الحكّام بالتاريخ مبلغاً أنّ البعض قال: علم النّسب والخبر علم الملوك[٨]. وهكذا عُدَّ علم التّاريخ ممّا اختصّ به الملوك.

وأشرنا إلىٰ أنّ الإمام أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام دعا الناس في خطبه كثيراً إلىٰ قراءة التاريخ مستلهماً ذلك من التّعاليم القرآنيّة، ومنطق العِبرة. ودعوته عليه السلام امتداد لدعوة القرآن الكريم إلىٰ قراءة التّاريخ والاعتبار به. وجُمعت إضمامة من

---

(١) *الفهرست*: ١٠٢.

(٢) *مروج الذّهب* ٢: ٧٢، نقلاً عن *التّاريخ العربيّ والمؤرّخون* ١: ١٢٤.

(٣) *التّاريخ العربيّ والمؤرّخون* ١: ١٣٦.

(٤) *المغازي الأُولىٰ ومؤلّفوها*: ٢٠، ٢١.

(٥) *الموفّقيّات*: ٣٣٢، ٣٣٣.

(٦) انظر: **بحث سيره نگارى** [بحث كتابة السّيرة].

(٧) *المغازي الأولىٰ ومؤلّفوها*: ١٠٢؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ٥: ٣١٥.

(٨) *المزهر* ١: ٣٥٧.

كلماته عليه السلام في الاستهداء بالتّاريخ والدّعوة إلى الاتّعاظ بأحداثه[1]. ونـنقل فـيما يأتي نموذجاً واحداً من ذلك:

«واحْذَروا ما نزل بالأُممِ قبلكم مِنَ المَثُلات بسوء الأفعال، وذميم الأعمال. فتذكّروا في الخير والشّرِّ أحوالهم، واحْذَروا أنْ تكونوا أمثالهم. فإذا تفكّرتم في تفاوت حـالَيهم، فالزَمُوا كُلَّ أمرٍ لَزِمَتِ العِزَّةُ به شأنهم، وزاحتِ الأعداءُ لَهُ عنهم، ومُدَّتِ العـافيةُ بِـهِ عَلَيْهِم، وانقَادَتِ النِّعْمَةُ لَهُ مَعَهُمْ، وَوَصَلَتِ الكرامةُ عَلَيْهِ حَبْلَهُم مِنَ الاجتنابِ للفُرْقَةِ، واللّزومِ لِلأُلْفَةِ والتَّحَاضِّ عَلَيْهَا، والتّواصي بها. واجتنبوا كُلَّ أمرٍ كَسَرَ فِقْرَتَهُمْ، وَأَوْهَنَ مُنَّتَهُمْ، مِنْ تَضَاغُنِ الْقُلُوبِ، وتَشَاحُنِ الصُّدور، وتَدَابُرِ النُّفوسِ، وتَخَـاذُلِ الأيـدي. وتَدَبَّروا أحوالَ المَاضينَ مِنَ الْمُؤْمِنينَ قَبْلَكُم، كَيْفَ كَانُوا في حَالِ التَّمْحيصِ وَالبَـلَاءِ... فانْظُروا كيف كانوا حيثُ كانتِ الأملاءُ مُجْتَمِعَةً، والأهواءُ مُؤْتَلِفَةً، والقُلوبُ معتدلةً، والأيدي مُتَرَادِفَةً، والسُّيوفُ مُتَنَاصِرَةً، وَالبَصَائِرُ نافِذَةً، وَالعَزَائِمُ وَاحِدَةً. أَلَمْ يَكُونُوا أَرْبَاباً في أَقْطَارِ الأَرَضينَ، وَمُلُوكاً عَلىٰ رِقابِ العالمينَ؟ فانْظُروا إلىٰ مَا صَارُوا إلَيْهِ في آخِرِ أُمورهم، حِينَ وَقَعَتِ الفُرْقَةُ، وتَشَتَّتتِ الأُلْـفَةُ، واخـتَلَفَتِ الكَـلِمَةُ والأَفْـئِدَةُ، وَتَشَعَّبُوا مُخْتَلِفِينَ، وَتَفَرَّقُوا مُتَحارِبينَ. قَدْ خَلَعَ اللهُ عَنْهُمْ لِبَاسَ كَرَامَتِهِ، وَسَلَبَهُمْ غَضَارَةَ نِعْمَتِهِ، وَبَقِيَ قَصَصُ أَخْبَارِهِم فيكُم عِبَراً لِلمُعْتَبِرينَ»[2].

تأثير الكتابات التّاريخيّة لسائر الأقوام علىٰ العرب

إنّ وجود النّصوص التّاريخيّة المتعلّقة بسائر الشّعوب في أيدي المسلمين كان من العوامل المؤثّرة في تطوّر كتابة التّاريخ الإسلاميّ. وهذا الموضوع يصدق بخاصّة كتب

---

(١) انظر: *حركة التّاريخ عند الإمام عليّ* عليه السلام، محمّد مـهدي شمس الدّيـن، إصـدارات مـؤسّسة *نـهج البلاغة*.

(٢) *نهج البلاغة*: الخطبة ١٨٥ في شرح الشيخ محمّد عبده.

الفُرس والبيزنطينيّين، وإن كان هناك اختلاف في وجهات النظر حول مدىٰ هذا التأثير. وإذا نظرنا في كتب التّاريخ العامّة الّتي دُوِّنت في العصر الإسلاميّ كتاريخ **اليعقوبيّ**، و**الأخبار الطّوال للدينوريّ**، و**مروج الذّهب للمسعوديّ**، و**تاريخ الطّبريّ** استبان لنا أنّها استنارت بالمصادر الفارسيّة. ونحتمل أنّها حاكت أُسلوبها.

كتب سواجه Jean Sauvaget قائلاً: تأثّرت كتابة التّاريخ في مراحل تطوّرها بالّنماذج الفارسيّة السّاسانيّة، وبحجمٍ أقلّ بالّنماذج البيزنطينيّة والسّريانيّة، بيد أنّ سيرتها الأُولىٰ قامت علىٰ دعائم السّنن العربيّة والصّيغ الفكريّة الإسلاميّة[١]. وذهب روزنتال أيضاً إلىٰ تأثير الكتابات الفارسيّة على الأسلوب الّذي يؤرّخ للسلالات في التّواريخ الإسلاميّة، وقال: لعلّ المسلمين تعرّفوا علىٰ مبدأ تقسيم العصور التّاريخيّة علىٰ أساس السلالة من خلال أوّل اتّصالٍ لهم بأُسلوب كتابة التّاريخ عند الفُرس[٢]. ولم يعتقد بتأثير الكتابات المذكورة على أُسلوب تدوين الوقائع، كما أنكر تأثير الكتابات اليونانيّة والبيزنطينيّة بسبب جهل المسلمين بها. وأضاف قائلاً: لا نلحظ كتاباً خاصّاً قد ترك تأثيره على المؤلّفين المسلمين، بيد أنّ فكرة تنظيم الوقائع قد وصلت إلىٰ علماء المسلمين عن طريق علماء النّصارىٰ، أو النّصارى الّذين أسلموا[٣]. ثمّ أورد أدلّةً حول وجود بعض المصادر المذكورة عند علماء المسلمين، فأنكر مرّة أُخرىٰ تأثّر المسلمين بها في أُسلوب كتابة الوقائع؛ إذ لم يثبت قطّ أنّ تلك المعلومات قد وصلت إليهم بتلك السرعة الفائقة فأفادتهم في كتابة الوقائع. وأضاف: تعود جميع الكتب الّتي نمتلك اطّلاعاً واضحاً عنها ـ بعد ظهور كتابة الوقائع بشكلها المعيّن في الكتابات التّاريخيّة الإسلاميّة ـ إلى زمنٍ طويل[٤].

---

(١) ***مدخل تاريخ شرق اسلامى*** [المدخل إلىٰ تاريخ الشّرق الإسلاميّ]: ٢٩.

(٢) ***تاريخ تاريخنگارى در اسلام*** [تاريخ كتابة التّاريخ في الإسلام] ١: ١٠٦.

(٣) نفسه ١: ٩٢ ـ ٩٤. (٤) نفسه ١: ١٠٦.

أمّا المصنّفات الفارسيّة فيمكن أن نبدي رأياً إيجابيّاً في تأثيرها وتأثّرها. فقد صارت الكتب الفارسيّة المدوّنة في ميدان التاريخ والأخلاق العمليّة والحكوميّة بأيدي المسلمين. وترجم ابن المقفّع (م ١٤٤) كتاب *خُداى نامه* وجعل له عنوان *سير الملوك*. وترجم أيضاً *آيين نامه* وهو كتاب كبير. وترجم إسحاق بن يزيد كتاب *اختيار نامه* الّذي كان معروفاً بسيرة *الفُرس*، وكذلك ترجم كتباً أُخرىٰ[١]. وتُرجم بعض هذه المخطوطات لهشام بن عبدالملك (م ١٢٤)[٢]. وينبغي أن نؤكّد هنا تأثير الكتابات اليهوديّة ـ الّتي كان يغلب عليها الطّابع التّاريخيّ كثيراً ـ علىٰ كتابات المسلمين. فقد ظهر كتاب *المبتدأ* الّذي يشتمل علىٰ قصّة الخلق وهبوط آدم، وقصص الأنبياء نوعاً ما، محاكاةً لليهود من جهة، وتبياناً لبعض الآيات القرآنيّة الّتي تتحدّث عن الأنبياء من جهة أُخرى. وكان كعب الأحبار، ووهب بن منبّه من أهمّ مصادر هذه الأخبار. فقد بثّا أخبار الأُمم السابقة بين المسلمين علىٰ صعيد واسع.

الأنماط المتنوّعة لكتابة التّاريخ عند المسلمين

نلحظ تقسيمات متفاوتة لأنماط الكتابات التاريخيّة عرضها روزنتال، وجيب، والدوريّ، وسواجه، وغيرهم و يتسنّىٰ لنا أن نقسم الكتابات التاريخيّة للمسلمين إلىٰ أقسام مختلفة اعتماداً علىٰ عناوين الكتب والكتابات التّاريخيّة:

كتابة السّيرة والتّرجمة

لعلّ هذين العنوانين يتباينان من جهات معيّنة، بيد أنّ أُسلوبهما واحد. ومن

---

(١) *التاريخ العربيّ والمؤرّخون* ١: ١٤٣ ـ ١٤٨.

(٢) *دائرة المعارف الإسلاميّة* ٤: ٤٨٧.

الثّابت أنّ الأديان السماويّة، لاشتمالها علىٰ عنصر النّبوّة، تعتقد بمنزلة رفيعة للنّبيّ. وأدّت هذه النظرة إلىٰ ظهور رؤية خاصّة حول أهمّيّة الشخص بوصفه شخصاً يحمل مواصفات معيّنة. ويعرّف لنا القرآن الكريم ـ بنظرةٍ له ـ تاريخ الأُمم متمحوراً حول أنبيائها، حتّىٰ إنّه يذكر أسماءهم. ونلحظ في هذا الأُسلوب أنّه يدلّ علىٰ شأن الأنبياء وأهمّيّتهم مضافاً إلىٰ عدِّه الدين هو المحور الأصليّ. من هنا، فإنّ الصحابة اهتمّوا بالسيرة النبويّة منذ البداية، واحتفظوا بمذكّراتهم عن نبيّهم وخصائصه، وكانوا ينقلونها للآخرين. ثمّ شاعت كتابة السيرة هذه بنحو أوجز، وموضوعها الخلفاء، والسلاطين، والعلماء، بل سائر الطبقات متّخذةً طابع «كتابة الترجمة».

التّرجمة ليست تاريخاً بالمعنى الاصطلاحيّ للتّاريخ، لأنّها قلّما تهتمّ بعنصر الزمن، غيرَ أنّها تعدّ من أهمّ المصادر التاريخيّة لاحتوائها علىٰ معلومات وافية نسبيّاً حول الحياة الفرديّة والاجتماعيّة للناس والشخصيّات البارزة في المجتمع! ويستفاد من هذه المعلومات في التعرّف على الوجوه الدينيّة والثقافيّة للشعوب أكثر من الوقوف على التّطوّرات السّياسيّة.

واستعمل المسلمون هذا الأُسلوب علىٰ صعيد واسع جدّاً. وألّفوا كتباً في ترجمة الفقهاء وعلماء المذاهب الفقهيّة والاعتقاديّة المختلفة. كما تمّ تأليف الكتب في ترجمة المحدِّثين، والفلاسفة، والأطبّاء. وأخيراً دوِّنت كتب ذاتُ نظرة أُحاديّة الموضوع حول العلماء أو السّاسة، وكذلك صُنِّفت مجموعات مهمّة ومفصّلة. ومثل هذه المصنّفات يتطلّب ببليوغرافيّته الخاصّة. وننوي هنا استعراض الكتابات التاريخيّة بالمعنى الخاصّ مع هذا نشير إلىٰ مثل هذه الكتب.

ويمكن أن نقسم كتب التراجم في تبويب عامّ إلىٰ عدّة أقسام.

قسم منها يتناول سيرة الصّحابة. ويشمل الكتب الأربعة المعروفة: ***الاستيعاب في معرفة الأصحاب*** لابن عبدالبرّ (٣٦٨ ـ ٤٦٣)؛ و***معرفة الصحابة*** لأبي نعيم الإصفهانيّ

(م ٤٣٠)؛ وأسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (م ٦٣٠)؛ والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانيّ (م ٨٥٢).

وقسم أورد تراجم الرجال في تاريخ المدن، نحو تاريخ بغداد للخطيب البغداديّ (م٤٦٣)؛ وتاريخ نيسابور للحاكم النيسابوريّ (أصله مفقود)؛ والسياق وهو ذيل تاريخ نيسابور، وما زال موجوداً؛ وتاريخ إصبهان لأبي نعيم؛ وطبقات المحدّثين بإصبهان لأبي الشيخ؛ والتدوين في أخبار قزوين للرافعيّ (القرن السادس)؛ وإعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء لمحمّد راغب الطبّاخ الحلبيّ؛ وبغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم؛ وتاريخ جرجان لأبي القاسم حمزة بن يوسف السهميّ (م٤٢٧). وأكثرها تفصيلاً تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٩٩ ـ ٥٧١) وصدر منه لحدّ الآن خمسون جزءاً (بيروت، دار الفكر)، وسيبلغ ثمانين؛ ومختصر تاريخ دمشق لابن منظور، وصدر في ثلاثين جزءاً أيضاً.

وقسم منها صُنِّف متّخذاً منحى الطبقات بوصفه تاريخ المحدِّثين. وأهمّها الطبقات الكبرىٰ لابن سعد؛ وكتاب الطبقات لخليفة بن الخيّاط؛ وتذكرة الحفّاظ للذهبيّ.

وكثير منها اقتصر علىٰ علماء مذهب خاصّ نحو طبقات الشافعيّة للسُبكيّ؛ وطبقات الحنابلة لابن أبي يعلىٰ؛ والطبقات السنيّة في تراجم الحنفيّة لتقيّ الدين بن عبدالقادر التميميّ الداريّ الحنفيّ (م ١٠٠٥ أو ١٠١٠)؛ والجواهر المضيئة في طبقات الحنفيّة لمحيي الدين عبدالقادر بن محمّد القرشيّ الحنفيّ (٦٩٦ ـ ٧٧٥).

وبعضها فهرس بالترتيب الألفبائيّ جميع رجالات الإسلام من فقهاء، ومحدّثين، ومؤرّخين، وساسة. وتدخل فيها مجموعات ضخمة مثل معجم الأدباء لياقوت الحمويّ؛ ووفيّات الأعيان لابن خلّكان (٦٠٨ ـ ٦٨١)؛ وسير أعلام النبلاء للذهبيّ؛ والوافي بالوفيّات للصفديّ (م ٧٦٤)؛ وفوات الوفيّات لابن شاكر الكتبيّ. وينبغي أن نذكر في هذا التبويب حلية الأولياء لأبي نعيم الإصفهانيّ (م ٤٣٠)، وقدّم فيه فهرساً طويلاً لفئة الزاهدين والعارفين.

ودُوّنت مصادر خاصّة تدور حول علم الرجال وحده، وقلّما تناولت ترجمة مفصّلة للأشخاص. ومنها *تاريخ* يحيى بن معين؛ و*تاريخ* أبي زرعة الدمشقيّ؛ و*التاريخ الكبير* للبخاريّ؛ و*الجرح والتعديل* لأبي حاتم الرازيّ؛ و*الثقات*، و*المجروحين* لابن حبّان؛ و*تهذيب الكمال* للمزّيّ (٦٥٤ ـ ٧٤٢)؛ و*الكامل في ضعفاء الرجال* لابن عديّ؛ و*ميزان الاعتدال* للذهبيّ؛ و*لسان الميزان* لابن حجر (٧٧٣ ـ ٨٥٢)؛ و*تهذيب التهذيب* له أيضاً.

وأورد بعضها التراجم تحت عنوان النسب الذي يعني هنا اللقب، كـ*الأنساب* للسمعانيّ، أو *الإكمال* لابن ماكولا.

وربّما تكون كتب التاريخ العامّة أكثرها قيمةً وتفصيلاً، إذا ذكرت المتوفَّين في ذيل الحوادث الواقعة في كلّ سنةٍ. ولا يمكن أن نجد في مصادر التراجم العامّة معلوماتٍ عن كثيرٍ منهم. وسنستعرض نماذج منهم في موضعها.

النّظرة الأُحاديّة الموضوع في تدوين الوقائع المهمّة

النّظرة الأُحاديّة الموضوع في تدوين الحوادث شكل آخر من أشكال الكتابات التّاريخيّة، وقد استهدى المسلمون بها في ضبط الوقائع المهمّة. وكانت هذه الكتابات تحوم غالباً حول الأيّام الحافلة بالأحداث، من هنا فهي تماثل «أيّام العرب». وأيّام العرب هي أيّام الحروب والصراعات، ومن الطبيعيّ فهي أيّام زاخرة بالحوادث. وهذا الأُسلوب يمثّل من الوجهة الذاتيّة تنظيماً لأخبار حادثة واحدة. وجاز لنا أن نعدّه أوّل أُسلوب مارسه المسلمون في كتابة التاريخ. ثمّ ظهرت كتب التاريخ العامّة من انضمام هذه الكتابات الأُحاديّة الموضوع بعضها إلىٰ بعض.

التنظيم الموجود في الكتابات المذكورة يقوم علىٰ أساس وقائع ولّدت حادثة معيّنة. أي: يراعى الترتيب الداخليّ للتطوّرات الدقيقة لتلك الحادثة فحسب. ونلحظ

أنّ أبا مخنف، وهشاماً الكلبيّ، والمدائنيّ هم من المؤرِّخين الّذين يغلب علىٰ كتبهم هذا الأُسلوب. وفيما يأتي عناوين بعض الكتب الّتي صنّفها أبو مخنف: كتاب *الجمل*، وكتاب *صِفّين*، وكتاب *الشّورىٰ*، ومقتل عثمان، ومقتل حجر بن عديّ، ووفاة معاوية وولاية ابنه يزيد، وقصّة *الحرّة* وحصار *ابن الزّبير*[1]. ونلحظ في كثير من الحالات والحالة آنفة الذكر أنّ ترتيب الكتابات الأحاديّة الموضوع علىٰ نحوٍ يؤلّف فيه انتقاؤها المنظّم كتاباً في عدّة أجزاء يدور حول عصرٍ مديدٍ.

لا تحوم الكتابات الأُحاديّة الموضوع حول الأحداث السياسيّة والعسكريّة وحدها، بل تشمل الموضوعات الاجتماعيّة الّتي يمكن أن يرغب فيها المؤرّخ من الوجهة التّاريخيّة ـ الاجتماعيّة. ومن المؤسف أنّ كثيراً من هذه الآثار قد ضاع واندثر. ولنا أن نشير فيما يأتي إلىٰ نماذج منها: كتاب *المعمَّرين* في التعريف بمن عمّر طويلاً، كتاب *المثالب* في مساوئ القبائل والأشخاص، كتاب *الأوائل* في الذين تحقّقت علىٰ أيديهم أوّل الأعمال، كتاب *أسواق العرب*، كتاب *الموؤدات*، كتاب *فخر الكوفة على البصرة*، كتاب *أسماء بغايا قريش في الجاهليّة ومَنْ وَلَدْنَ*، كتاب *مَنْ تَزوّج من الموالي في العرب*...

هذه نماذج ألّفها بعض المؤرّخين الكبار ذوي التوجّه الأُحاديّ الموضوع كهشام الكلبيّ، والمدائنيّ، وغيرهما. وإذا كانت النصوص التاريخيّة قد أصابت حظّاً من هذه الكتب، فإنّ الكتب الأدبيّة قد أصابت منها حظّاً أكبر.

ويرىٰ روزنتال من خلال الإشارة إلى الشّكل الخبريّ والحديثيّ الّذي كان في قالب المعلومات التّاريخيّة أوّلاً أنّ النظرة الأُحاديّة الموضوع في كتابة التاريخ تمثّل الشكل النهائيّ لضبط الخبر، وأنّ الخطوة اللاحقة هي «تدوين الوقائع»[2].

---

(١) *الفهرست*: ١٠٥.

(٢) *تاريخ تاريخنگارى در اسلام* [تاريخ كتابة التّاريخ في الإسلام] ١: ٨٥.

كتابة التّاريخ العامّ والتّقويميّ

إذا قُدّر أن نحسب ما صُنّف علىٰ أساسٍ زمنيّ تاريخاً، فلابدّ أن نحسب سائر الكتابات شبه التاريخيّة مقدِّمة أو حاشية لهذا الضرب من الكتابات. ومن المحتمل أنّ كتابة التّاريخ علىٰ أساس السنين قد نالت اهتماماً معيّناً إلىٰ حدٍّ ما في تدوين المغازي والسيرة؛ إذ نلحظ في السّيرة أنّ التّسلسل الزّمنيّ للغزوات قد روعي أيضاً، مضافاً إلىٰ ذكر الحوادث التي تتّخذ من النبيّ ﷺ محوراً[1]. وولّدت ترجمة الخلفاء وسرد الحوادث التي جرت في عصورهم الحاجة إلى الإفادة من الزّمن والتّقويم فائدةً أكثر.

وقلّما نعثر علىٰ هذه الكتابات من القرن الثاني. والموجود اليوم يعود كلّه إلى القرن الثالث فما تلاه. وبعض هذه الكتابات مع اشتمالها على التّسلسل الزّمنيّ لم تسرد الأحداث علىٰ أساس السنين، نحو *تاريخ اليعقوبيّ*، *والمسعوديّ والدينوريّ*. واستخدمت هذه الكتب بخاصّة في قسم تاريخ الملوك والأنبياء تسلسلاً زمنيّاً عامّاً كان مألوفاً عند النصارىٰ واليهود، ثمّ جعلت الحوادث المهمّة كبداية لكلّ فصل من فصولها. وانتهج الطبريّ هذا الأُسلوب فسرد الحوادث علىٰ أساس السنين. وكذلك فعل خليفة بن الخيّاط في تاريخه، والفَسَويّ في كتاب *المعرفة والتّاريخ* الّذي فُقد منه يا للأسف تاريخ الإسلام حتّىٰ نهاية الأمويّين. وقيل إنّ تاريخ هيثم بن عديّ (م٢٠٧) كان قائماً علىٰ حساب السنين. وظلّ أُسلوب الكتابة علىٰ أساس السّنين قائماً بين المسلمين كأفضل أُسلوب رضوه في الكتابات التّاريخيّة. ويعدّ *الكامل* لابن الأثير، *والبداية والنّهاية* لابن كثير، *والمنتظم* لابن الجوزيّ، وكثير أمثالها نماذج أفادت من هذا الأُسلوب. والخطّة الأصليّة لبحثنا في هذا الكتاب هي استعراض مثل هذه الكتابات التي سنواصل الحديث عنها مفصّلاً.

---

(١) حدّد الواقديّ تاريخ الغزوات علىٰ أساس عدّ الشّهور الّتي مضت من الهجرة.

كتابة التّاريخ علىٰ أساس علم الأنساب

إذا كانت أيّام العرب تراثاً تاريخيّاً لعرب الجاهليّة، فإنّ علم الأنساب ينبغي أن يُعدّ فرعاً آخر من كتابة تاريخهم. وإنّ كثيراً من المعلومات التاريخيّة المتعلّقة بتلك الفترة والواردة في تضاعيف المعلومات المرتبطة بالأنساب لابدّ أن تكون من وضع العصور اللاحقة. إذ يتعذّر علينا أن نصدّق بأنّ هذه المعلومات الدقيقة الوافرة قد وصلت إلى الأجيال اللاحقة شفويّاً وهي سليمة في نفس الوقت. مع هذا فإن الثابت هو أنّ علم الأنساب كان قالباً لنقل الأخبار والمعلومات التاريخيّة منذ العصر الجاهليّ. والموادّ الأوّليّة الموجودة في المصنّفات المتأخّرة هي من مخلّفات ذلك العصر.

وظلّت التّركيبة القبليّة قائمةً بعد الإسلام. وشقّ علم الأنساب، الّذي انبثق من هذه التّركيبة أيضاً، طريقه إلى الثقافة الإسلاميّة متقارناً مع تنامي سائر الفروع العلميّة، وإلى جانب التاريخ غالباً. ونُظّم الديوان في عهد الخليفة الثاني علىٰ أساس أنساب القبائل، وكذلك بيت المال. وساعد هذا الأثر علىٰ تنامي العصبيّات القبليّة من جهة، وازدهار علم الأنساب من جهة أخرىٰ. وبلغت العصبيّات القبليّة في العصر الأمويّ حدّ الإفراط وكلّ ذلك ترك تأثير علىٰ إيضاح علم الأنساب[١]. ولم يظلّ علم الأنساب علماً بحتاً، بل أُضيف علىٰ عبئه التاريخيّ بسرعة، فتبلور كأخ للتاريخ. وكان وما زال هذا العلم ضرورةً لمعرفة تاريخ التطوّرات المختلفة للمجتمع الإسلاميّ الذي كان ضمن المجتمع القبليّ. ذلك أنّ أهميّة النّسب في المجتمع الإسلاميّ تُفضي إلى التوشيج بين الأنساب والقبائل وبين القضايا التّاريخيّة. ويمكن أن يدلّ هذا علىٰ ترابطهما أكثر فأكثر. وكان معظم الأخباريّين ـ اسم كان يطلق علىٰ رواة الأخبار التاريخيّة والأدبيّة يومئذٍ ـ يتعلّمون علم النسب، ويذكرون أنساب القبائل في كتبهم

---

(١) ***موارد تاريخ الطّبريّ***، القسم الأوّل، ص١٤٧.

كثيراً. وكانوا يوردون «الأنساب» و«الأخبار» في بعض كتاباتهم متمازجَين. وذكر ابن النّديم لأبي العبّاس عبد الله بن إسحاق المكاريّ كتاباً بعنوان «*كتاب الأخبار والأنساب والسّير*»، ولأبي الحسن النسّابة كتباً منها «*كتاب أخبار الفُرس وأنسابها*»، و«*كتاب الأنساب والأخبار*». وهذه كلّها آية علىٰ ترابط الاثنين.

من الطبيعيّ أنّ الهدف الأساس لبعض الكتب هو علم الأنساب. ومن هذا الضّرب كتاب *النّسب الكبير* لهشام الكلبيّ (م ٢٠٤)، و*الجمهرة في نسب قريش* لمصعب الزّبيريّ (م ٢٣٦)، ونسب قريش للزّبير بن بكّار (م ٢٣٥). بيد أنّ البعض الآخر جعل عمله الأصليّ في سياق النسب، نحو *أنساب الأشراف* للبلاذريّ، وهو تاريخ مفصّل يتناول الأُسر الّتي حكمت المجتمع الإسلاميّ، وكذلك القبائل العربيّة المقتدرة.

ومن المصنَّفات النسبيّة ـ التاريخيّة الأُولى التي يؤسَف علىٰ فقدها مصنّفات أبي اليقظان عامر بن حفص العجيفيّ (م ١٩٠) الذي ظلّت أقسام من كتابه الضخم النسب الكبير وكتبه الأخرىٰ ككتاب *أخبار تميم*، وكتاب *حلف تميم بعضها بعضاً*، وكتاب *النوادر* في كتب ابن قتيبة، وأبي الفرج، وخليفة بن الخيّاط، والجاحظ[١]. وكان أبو فيد السدوسيّ (م ١٩٥) من النسّابين في العصر الأوّل لتدوين هذا العلم، وله كتاب مطبوع بعنوان *حذف من نسب قريش*[٢]. ولابن حزم الأندلسيّ (٣٨٤ ـ ٤٥٦) كتاب *جمهرة أنساب العرب* من القرن الخامس، وهو من مصادر هذا العلم. وقام عبد السلام هارون بطبعه في سلسلة إصدارات دار المعارف بالقاهرة.

وظلّ علم الأنساب قائماً عند العرب. أمّا العلويّون فقد كانوا يركّزون عليه أكثر

---

(١) *إسهامات مؤرّخي البصرة*: ص ٧١.

(٢) صدر بجهود صلاح الدين المنجّد، بيروت، دار الكتاب الجديد، ١٩٧٦. ويعني الحذف هنا أنّه لم يذكر نسب قريش بصورة تامّة بل اكتفى بمقتطفات منه. وله كلام تاريخيّ أو أدبيّ حول كلّ من يذكره.

من غيرهم. ولهذا التوجّه أسبابه القانونيّة والاجتماعيّة، بل السياسيّة الخاصّة. وصُنِّفت كتب كثيرة تشتمل علىٰ أنساب العلويّين وأخبارهم. منها: *الأصيليّ* لصفيّ الدين محمّد بن الطقطقيّ (م ٧٠٩)، و*غاية الاختصار* (وهو علىٰ منوال كتاب *الأصيليّ*)، و*المجديّ* لنجم الدين عليّ العمريّ النسّابة (من القرن الخامس)، و*لباب الأنساب* للبيهقيّ (القرن السادس)، و*عمدة الطّالب* لابن عنبة (القرن التاسع)، و*الفخريّ* لإسماعيل بن الحسين الأزورقانيّ (من القرن السابع)، و*تحفة الأزهار* لابن شدقم المدنيّ (القرن الحادي عشر)، و*سراج الأنساب* لسيّد أحمد بن محمّد الكيلانيّ (القرن العاشر)، و*تهذيب الأنساب ونهاية الأعقاب* لأبي الحسن محمّد العبيدليّ النسّابة (م ٤٣٥)، و*الشجرة المباركة* (وهو منسوب إلى الفخر الرازيّ)[1].

إنّ الكتب المؤلّفة في النسب لم تتّخذ طابع تدوين كتاب الأنساب بالضرورة، بل إنّ أكثرها، ككتب المدائنيّ، أخبار خاصّة في قضايا خاصّة عن القبيلة. وصنّف المدائنيّ كتباً كثيرةً في نساء قريش. كما لاحظنا أنّ أبا اليقظان صنّف كتاباً في الأحلاف الموجودة بين بطون بني تميم. مع هذا، كانت كتب الأنساب تُصنَّف مبدئيّاً علىٰ أساس التطوّر التاريخيّ لظهور القبائل وإيجاد البطون.

الأُسلوب الحديثيّ المسنَد

ضرب آخر من التقسيم في الكتابات التاريخيّة المتعلّقة بطريقة عرض المعلومات التاريخيّة. ولمّا كان تدوين الحديث والعلوم المرتبطة به قليلاً في البداية، فقد أصبح للنقل الشفويّ شأنه، وشاع الاهتمام بالسند. وكان أكثر ما يذكر في أحاديث

---

(١) الكتب المذكورة من منشورات مكتبة آية الله المرعشيّ في قمّ إلّا *غاية الاختصار*، و*عمدة الطالب*، و*تحفة الأزهار*.

النبيّ ﷺ. بيد أنّ الحديث لمّا كان بمنزلة الأمّ لسائر العلوم الإسلاميّة فقد فرض طابعه علىٰ سائر المنقولات. من هنا، عبّر التاريخ أيضاً عن نفسه في الشكل الخبريّ وبصورة منقطعة، مع ذكر السند في معظم المواطن. وجاز لنا أن نقول: إنّ سرد الوقائع بأُسلوب حديثيّ أوّل شكل لعرض المعلومات التاريخيّة وهذا لا يعني أنّ التاريخ لم تكن له هويّة مستقلّة قبل الحديث. وقد انعكست هذه الصّورة حتّىٰ في تاريخ الطّبريّ الّذي كان محدّثاً. وهذا يعني أنّ التاريخ قد انبثق من قلب الحديث. ويُلْحَظُ هذا الأُسلوب في *أنساب الأشراف*، و*مقاتل الطّالبيّين*، وكثير من الكتب الأُخرىٰ.

وأهمّ مزيّة لهذه الكتب نقلها سند الأخبار جزءاً جزءاً. مع أنّ بعضها قد ذكر أسناداً مختلفةً في البداية، وعرض أقوالهم في تبويب معيّن. ويعتبر السّند أوّل خطوة في تقويم الخبر المنقول تاريخيّاً، وإن كان خطوة واحدة فحسب. ويمكن أن يدلّ ذكر السّند علىٰ ترابط المصادر التّاريخيّة المتنوّعة، وهو في غاية الأهمّيّة أيضاً عند تقويم المنقولات التّاريخيّة. وقلّما راعى المؤرّخون المحترفون هذا الأسلوب. فقد ذكر اليعقوبيّ، والدينوريّ، والمسعوديّ بعض مصادرهم في مواطن قليلة، وأحياناً في أوّل الكتاب. لكنّهم بعد ذلك ذكروا الأخبار الّتي اختاروها بالتّرتيب. وقد نقلوا الأقوال الّتي لم يريدوا أن يتحمّلوا تبعتها تحت عنوان: «قيل: كذا». وسرد الطبريّ في أُسلوبه الخبريّ حتّى الأخبار المتضاربة. والكتابات من الضرب الثاني، أي: التي لا تذكر سند الخبر، يسيرة المطالعة، غير أنّها عسيرة عند التقويم. إذ ينبغي تلمّس طرق غير سنديّة لدراستها وتحليلها. وهو عمل ضروريّ في الروايات المسندة أيضاً.

كتابة التّاريخ الإقليميّ

وهو شكل من أشكال كتابة التاريخ. وكان متداولاً منذ القرنِ الثالث بصورةٍ

وافيةٍ. وألّف المسلمون كتباً مفصّلة في هذا المجال ما زال بعضها ماثلاً. وتتوكّأ هذه الكتب علىٰ ثلاث دعائم هي: المعلومات الجغرافيّة، والتّاريخيّة، والرّجاليّة. وأكثر الأقسام الثلاثة تفصيلاً هي المعلومات الرّجاليّة الّتي تتناول الرّجال وترجمتهم. ونلحظ في الفصول الأُولىٰ للكتب المذكورة أحداث المدن والأقوال المتعلّقة بها، والسابقة التاريخيّة، والتّطوّرات المصيريّة الحادثة في المدينة، والحكّام، وبعض المعلومات المتعلّقة بأحياء المدينة أو محاصيلها أيضاً. يلي ذلك ترجمة رجال المدينة. وفي بعض المواطن يُذكَر المحدِّثون، وأحياناً جميع المشاهير حسب الترتيب الألفبائيّ أو غيره. وفي سياق ترجمة المحدِّثين تُنقَل معظم الأحاديث عنهم أيضاً، وهذا لافت للنظر كثيراً من وجهة علم الحديث.

وكانت كتابة التاريخ الإقليميّ موضع اهتمامٍ منذ البداية. وذكر ابن النديم في تقسيمه لمصنّفات هشام الكلبيّ تحت عنوان: «كتبه في أخبار البلدان» كتاب *البلدان الكبير*، كتاب *البلدان الصغير*، كتاب تسمية من *بالحجاز من أحياء العرب*، كتاب *الحيرة*، كتاب *أسواق العرب*، كتاب *الأقاليم*[١].

ومن المؤسف أنّ هذه المصنّفات علىٰ كثرتها في الثقافة التاريخيّة المكتوبة للمسلمين لم يظلّ منها إلّا القليل. وأقدم كتاب وصل إلينا في هذا المجال هو كتاب فتوح مصر *والمغرب* لابن عبدالحكم (م ٢٥٧)[٢]، وكتاب *تاريخ واسط* لأسلم بن سهل الرزّاز المعروف ببحشل الواسطيّ (م ٢٩٢)، ونشره كوركيس عوّاد.

ومن هذه النّماذج *تاريخ إصفهان* لأبي نعيم، ومثله *طبقات المحدّثين بإصبهان* لأبي الشيخ، ويغلب عليه الطابع الرجاليّ والحديثيّ، وظلّت فقرات كثيرة من *تاريخ إصبهان* لحمزة الإصفهانيّ في *معجم الأدباء* وغيره من المصادر لكنّ أصله مفقود، وتاريخ بغداد

---

(١) *الفهرست*: ١٠٩.

(٢) تحقيق علي محمّد عمر، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينيّة، ١٤١٥.

الّذي يعدّ من أكثرها تفصيلاً في الحضارة الإسلاميّة، وتاريخ دمشق لابن عساكر الذي صدر منه لحدّ الآن خمسون جزءاً، ومختصر تاريخ دمشق لابن منظور، ونُشر في ثلاثين جزءاً[١].

وأكثر الكتب صبغةً تاريخيّةً في هذا المجال هو *تاريخ المدينة المنوّرة* لعمر بن شبّه (م ٢٦٢) الذي كان من المؤرّخين البارزين في القرن الثالث الهجري[٢]. ويتناول معظم ما بقي منه تاريخ التّطوّرات السّياسيّة للمدينة، وبعض المعلومات الجغرافيّة. ومنها: أخبار مكّة للأزرقيّ[٣]، وكذلك أخبار مكّة للفاكهيّ[٤]، وهما من الكتب التّاريخيّة المهمّة الّتي تتحدّث عن مكّة، والصبغة التاريخيّة لهما ضافية. وسنتحدّث عنهما بعد ذلك. وينبغي أن نذكر في هذا المضمار *تاريخ الموصل* للأزديّ.

وكانت المصنّفات المؤلّفة في فتح المدن فرعاً خاصّاً من التواريخ الإقليميّة التي نالت اهتماماً بالغاً في العصر الأوّل لتدوين التاريخ. وتدلّ نظرة علىٰ مصنّفات المؤرّخين المشهورين علىٰ أنّ عدداً ملحوظاً منها يبدأ بكلمة (فتوح) أو (فتح). ومثلها كثير بين مصنّفات أبي مخنف، والمدائنيّ، وكذلك عمر بن شبّه وآخرين غيرهم، نحو **فتوح كور دجلة**، **فتوح *الدينور***، **فتوح مدن *قمّ وقاشان وإصبهان***، **وفتوح *الشام***، **وفتوح خراسان وجرجان**... وحصّة المدائنيّ أكثر من غيره في هذا العلم[٥].

وذكر السخاويّ دليلاً (فهرساً) لهذا النّموذج من التواريخ الإقليميّة. ومن المؤسف أنّ عدداً كبيراً منها قد ضاع واندثر[٦]. ويعبّر هذا الدليل عن ضخامة العمل الذي قام

---

(١) دمشق، دار الفكر المعاصر.

(٢) انظر: مجلّة **نور علم**، العدد ٤٠، ص ١٥١ ـ ١٥٦.

(٣) انظر: مجلّة **ميقات**، العدد ٩.

(٤) انظر: نفسه، العدد ٣، ص ٢٢١ ـ ٢٣٩.

(٥) ***إسهامات مؤرّخي البصرة***: ١١٢ ـ ١٣٤.

(٦) ***الإعلان بالتّوبيخ*** نقلاً عن ترجمته في ***تاريخ تاريخنگارى در اسلام*** [تاريخ كتابة التّاريخ في الإسلام] ⇐

به المسلمون في هذا المجال.

ومن النماذج الأخرى التي وصلت إلينا حول بعض المدن هي *تاريخ بيهق* لابن فندق البيهقيّ، و*تاريخ سيستان* لمؤلّف مجهول، وصحّحه ملك الشعراء بهار، وكان تصنيفه بين سنة ٤٤٥ و٧٣٥، و*تاريخ طبرستان* لابن إسفنديار وثمّة كتاب بالغ الأهمّيّة في التواريخ الإقليميّة لمدن إيران، وهو *تاريخ نيسابور* للحاكم النيسابوريّ (م ٤٥٠). وقد ضاع ولم تبق منه إلّا أسماء الرجال التي تؤلّف مداخله[1]، ونصوص متفرّقة في سائر المصادر[2].

وصُنِّف لكثير من المدن في خراسان وحدها كتاب أو عدّة كتب لكنّنا لا نعرف شيئاً عن معظمها. منها *تاريخ أبيورد* لأبي المظفّر محمّد بن أحمد الأبيورديّ (م٥٠٧)؛ وأربعة في *تاريخ بخارىٰ*، الأوّل: لأبي عبد الله محمّد بن إسماعيل الجعفيّ البخاريّ (م٢٥٦)، ولم يبق منه إلّا نصوص منقولة؛ والثاني لأبي بكر محمّد بن جعفر النرشخيّ (م٣٤٨)، وفارسيّه لأبي نصر أحمد بن محمّد القباويّ (م٥٢٢)، وطُبع عربيّه بمصر عام ١٩٦٥ م؛ والثالث لسعد بن جناح؛ والرابع لأبي عبد الله محمّد بن أحمد بن سلمان البخاريّ المعروف بغنجار (م ٤١٠ أو ٤١٢)؛ و*تاريخ بلخ* لتسعة رجال؛ و*تاريخ بيهق* أحدهما لابن فندق (م ٥٦٠)، وهو مطبوع؛ والآخر لعليّ بن أبي صالح الخواريّ، وهو مفقود؛ و*تاريخ خراسان* لثمانية أشخاص، ولم يبق منها إلّا بعض الأخبار؛ و*تاريخ*

⇐ ٢: ٢٨٩ ـ ٣٢٦. وذكر روزنتال معلومات في هذا المجال في كتاب *تاريخ تاريخنگارى در اسلام* ١: ١٧٣ فما بعدها. وأورد سزگين أيضاً المؤلّفين ومؤلّفاتهم في المجلّد الأوّل، الجزء الثّاني، ص٢٠١ ـ ٢٥٣ من *تاريخ التّراث العربيّ*.

(١) قام الدكتور شفيعي كدكني بطبع هذا الفهرس الذي كان قد صدر بلا تحقيق مع حواشٍ وتعليقات كثيرة وذلك سنة ١٤١٦ هـ، طهران.

(٢) انظر: مجلّة *ميراث جاويدان* (تراث الخالدين)، العدد ٢، ص١١٨ ـ ١٢١.

خوارزم لستّة، ولم يبق منها إلّا بعض الأخبار أيضاً؛ و**تاريخ سمرقند** لثلاثة؛ و**تاريخ كشّ** لشخصين؛ و**تاريخ مرو** لأحد عشر رجلاً؛ و**تاريخ نسا**؛ و**تاريخ نسف**؛ و**تاريخ نيسابور**؛ و**تاريخ هرات** لتسعة أشخاص[1].

ومن أهمّ التواريخ المحلّيّة التواريخ التي تناولت الحرمين الشريـفين. وبـلغت مـن الكثرة وغزارة المحتوىٰ مبلغاً يمكن أن نقول إنّه لم تسجّل معلومات دقيقة عن مدينة في العالم بهذا الحجم كالتي دُوّنت عنها. وممّا صُنّف حول مكّة ***أخبار مكّة*** للفاكهيّ؛ و***أخبار مكّة*** للأزرقيّ؛ و***غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام*** لعزّ الدين عبد العزيز بن فهد المكّيّ (م ٩٢٢)؛ و***الجامع اللطيف في فضل مكّة وأهل وبناء البيت الشريف*** لجمال الدين بن ظهيرة المخـزوميّ (م ٩٨٦)؛ و***الإعلام بأعلام بيت الله الحرام*** لقطب الديـن النهروالي (م ٩٨٨)؛ و***شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام***؛ و***العقد الثمين في تاريخ البـلد الأمين***، كلاهما لمحمّد بن أحمد بن عليّ الفاسيّ المكّيّ (م ٨٣٢)؛ و***المغانم المطابة في معالم طابة***، ويدور حول تاريخ المدينة، وهو من تأليف محمّد بن يعقوب الشيرازيّ الفيروزآباديّ (م ٨١٧)؛ و***إتحاف الورىٰ بأخبار أمّ القرىٰ*** لنجم بن فهد (م ٨٨٥)[2].

وصُنِّفت خلال القرون التالية كتب كثيرة في تاريخ مصر. منها: ***النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة*** (في ١٥ جزءاً) لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري البرديّ الأتابكيّ (٨١٣ ـ ٨٧٤)؛ وكتاب ***كنز الدرر وجامع الغرر*** (في ٩ أجزاء) لأبي بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداريّ، ويضمّ الحوادث حتّىٰ سنة ٧٢٥. ومنها: ***حسن المحاضرة*** لجلال الدين السيوطيّ.

---

(١) انظر: ***التواريخ المحلّيّة لإقليم خراسان***، قحطان عبدالستّار الحديثيّ، جامعة البصرة، ١٤١١هـ.

(٢) وردت أسماء كتب جمّة حول تاريخ مكّة والمدينة في كتاب «***التاريخ والمؤرّخون بمكّة***» في ذيل ترجمة المؤرّخين الذين كانوا يعيشون في مكّة.

وكان للشيعة أيضاً دور في كتابة التواريخ المحلّيّة[١]. ومن أقدم مصنّفاتهم في هذا الميدان: **نحل العرب** لمحمّد بن بحر الرهنيّ (أوائل القرن الرابع)، وهذا الكتاب مقدَّم علىٰ كلّ كتاب[٢]. وقال ياقوت في مؤلِّفه وفيه:

«له تصانيف منها: كتاب سمّاه كتاب ***نحل العرب*** يذكر فيه تفرّق العرب في بلاد الإسلام، ومن كان منهم شيعيّاً ومن كان منهم خارجيّاً أو سنّيّاً فيحسن قوله في الشيعة، ويقع فيمن عداهم. وقفت علىٰ جزء من هذا الكتاب ذكر فيه نحل أهل المشرق خاصّة من كرمان وسجستان وخراسان وطبرستان»

ولم يبق من هذا الكتاب إلّا ما نقله ياقوت في **معجم *البلدان***.

ومنها: كتاب ***البلدان والمساحة*** أو ***البنيان في أحوال البلدان*** لأحمد بن محمّد بن خالد البرقيّ. أفاد منه مؤلّف ***تاريخ قمّ*** في القرن الرابع عند تأليفه الكتاب المذكور، ومن المحتمل أنّه أفاد من كتاب ***البلدان*** نفسه[٣]. وأورد الموضوعات التاريخيّة المرتبطة بقمّ نقلاً عن البرقيّ، في مواضع متعدّدة من النسخة المطبوعة، وقال في موضع: كذا ذكر البرقيّ في كتاب ***البنيان***...[٤]. والاحتمال الآخر هو أنّ **كشف الظنون** ذكر ذلك، وهو أنّ عنوان الكتاب كان ***التبيان في أحوال البلدان***[٥].

ونُسب كتابٌ بعنوان ***البلدان والمساحة*** إلىٰ أبي أحمد، محمّد بن خالد أيضاً[٦].

---

(١) انظر: مقالتنا ***شيعه وچهار اثر در تاريخ محلّى*** [الشيعة والمصنَّفات الأربعة في التاريخ المحلّيّ] في ***مقالات تاريخى*** [المقالات التاريخيّة]، الكرّاسة الثانية، قمّ، أنصاريّان، ١٤١٧هـ.

(٢) ***معجم الأدباء*** ١٨: ٣١؛ ***الوافي بالوفيّات*** ٢: ٢٤٤؛ ***الذريعة*** ٢٤: ٨٣.

(٣) ذكر مدرّسي في ***تاريخ قمّ*** الموارد المنقولة من كتاب ***التبيان***. انظر: المصادر المختصّة بقمّ، ص١٨. ومن الجدير ذكره أنّ الرافعيّ نقل في ص ٤٤ ـ ٤٨ من ***التدوين*** عدداً من الموارد عن كتاب ***التبيان***.

(٤) ***تاريخ قمّ***: ٥٦.

(٥) انظر: ***الذريعة*** ٣: ١٤٥، وقم ٤٩٧.

(٦) نفسه ٣: ١٤٥.

وكان لأبي جعفر محمّد بن عبد الله بن جعفر بن الحسين بن جامع الحميريّ كتاب يحمل نفس العنوان في القرن الثالث. وكان يبحث عن كتاب أحمد البرقيّ، وبحث عنه في بغداد، والرّيّ، وقمّ فلم يجده، ثمّ قام بتصنيف كتاب في هذا الموضوع[١].

والكتاب المهمّ الآخر في هذا المجال هو *تاريخ قمّ* لحسن بن محمّد بن حسن القمّيّ الذي صنّفه سنة ٣٧٨. وهذا المصنَّف التاريخيّ المهمّ من أروع المؤلّفات في الحضارة الإسلاميّة العريقة وأكثرها علميّةً. وقد توفّر صاحبه علىٰ تدوين الموضوعات العلميّة المتعلّقة بتاريخ المدينة، في حين أنّ القسم الأعظم من التواريخ المحلّيّة المعدّة في الحضارة الإسلاميّة يتناول ترجمة رجالات المدن. وجعل المؤلّف كتابه في المقدّمة عشرين باباً لا نرىٰ منها الآن ـ يا للأسف ـ إلّا الترجمة الفارسيّة لخمسة أبواب. وليس في أيدينا معلومات عن متنه العربيّ. أمّا متنه الفارسيّ فقد أنجزه الحسن بن عليّ بن الحسن بن عبد الملك القمّيّ سنة ٨٠٥ هـ. ومضافاً إلىٰ ما ورد فيه من أخبار عن مدينة قمّ، أنّه اشتمل علىٰ معلومات ثمينة عن وضع الخراج يومئذٍ. كما تحدّث مفصّلاً عن الأشاعرة منذ كانوا في اليمن، ثمّ وفدوا علىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتوجّهوا إلى العراق، وبعد ذلك هاجروا إلىٰ قمّ. ومضى الكلام فيه عن دورهم في الفتوحات لاسيّما فتح بعض المناطق في إيران.

وثمّة كتاب ثمين آخر لكنّه مفقود، وهو *تاريخ الريّ* لمنتجب الدين صاحب *الفهرست*، وكان يعيش في القرن السادس. ونقل ابن حجر فقرات منه في *لسان الميزان*. وكان لأبي سعد منصور بن حسين الآبيّ مؤلّف الكتاب الأدبيّ الثمين *نثر الدرّ* كتاب بعنوان *تاريخ الريّ* أيضاً[٢]. والكتاب الآخر هو *تاريخ طبرستان* لابن اسفنديار. وهذا المصنَّف الخالد من أهمّ الكتب في تاريخ طبرستان، وكان مؤلّفه الذي عاش في

---

(١) *رجال النجاشيّ*: ٣٥٥.

(٢) *الذريعة* ٣: ٢٥٤.

القرن السادس أحد المؤرّخين الشيعة. ومن التواريخ المحلّيّة النفيسة *تاريخ رويان* لمولانا أولياء الله الآمليّ. وقدّم فيه قسماً من الآراء التاريخيّة للشيعة، بخاصّة حتّىٰ عصر الأئمّة عليهم السلام.

ويضاف إلى الكتب التي تُحسَب في عداد التواريخ المحلّيّة أنّ الكتب الجغرافيّة التي تتناول جغرافيّة العالم أو مناطق محدودة منه عرضت معلومات تاريخيّة ورجاليّة جمّة. ومنها: *أخبار البلدان* لابن الفقيه الهمدانيّ؛ و*المسالك والممالك* للاصطخريّ؛ و*أحسن التقاسيم* للمقدسيّ[١]؛ وأهمّها *معجم البلدان* لياقوت الحمويّ؛ و*الروض المعطار* لمحمّد ابن عبد المنعم الحميريّ.

وحريّ بالذكر أنّ كتاباً شاملاً إلىٰ حدٍّ ما صُنِّف في الآداب الجغرافيّة في الحضارة الإسلاميّة. وتناول المصنَّفات المعدَّة في هذا الموضوع بدقّة وهذا الكتاب هو *تاريخ الأدب الجغرافيّ العربيّ* لكراتشكوفسكي (م١٩٥١)، وقام صلاح الدين عثمان هاشم بتعريبه[٢].

كتابة التّاريخ الثّقافيّ والاجتماعيّ

التاريخ عند المسلمين يشتمل علىٰ سنة الولادة، والوفاة، والحوادث الّتي يؤدّي عنصر الزمان فيها دوره. من هنا، فإنّ تصوّر المسلمين عن التاريخ يتمثّل في الحوادث والتغييرات السياسيّة والإنسانيّة الأساسيّة فحسب. ويرى السخاويّ أنّ موضوع التاريخ عبارة عن «الأحداث العجيبة الغريبة البارزة» الّتي تهدف إلى «الترغيب

---

(١) بشأن المقدسيّ وكتاب *أحسن التقاسيم* أصدر عديّ يوسف مخلص كتاباً مفصّلاً عنوانه *المقدسيّ البشاريّ، حياته ومنهجه، دراسة كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم من الناحية التاريخيّة*، وذلك بالنجف سنة ١٣٩٣هـ.

(٢) بيروت، دار الغرب الإسلاميّ، ١٤٠٨هـ.

والتحذير والإمتاع وإيقاف الأعمال الشيطانيّة»[١]. وهكذا لم يهتمّ المسلمون بالتطوّرات الثقافيّة كظاهرة تاريخيّة، في حين هي من أهمّ المباحث التاريخيّة. وذُكرت هذه التطوّرات في المصادر الأدبيّة، لا في طابعٍ تاريخيّ، بل في طابع آخر وبأهداف خاصّة. وهذه المصادر التي تتناول تاريخ الشعر والشعراء. وتعمد إلىٰ عرض الموضوعات الإنسانيّة والاجتماعيّة الخطيرة تحتوي علىٰ قسم مهمّ من العناصرالثقافيّة التي يمكن أن تساعد الباحثين في دراساتهم حول مسار التطوّرات الثقافيّة للمسلمين.

وكانت الصلة بين التاريخ والأدب وثيقةً في القرون الأُولىٰ حقّاً، حتّىٰ نجد لكثير من المؤرّخين الأُوَل مصنَّفات في كلا الموضوعين، وأبدعوا كتباً أدبيّة ـ تاريخيّة أو بالعكس. ونلحظ أنّ كثيراً من كتابات المدائنيّ هي في التاريخ وأخبار الشعر والشعراء. وتتّسم كتب محمّد بن حبيب (م ٢٤٠)، وهيثم بن عديّ (م ٢٠٧)، وأبي عبيدة (م ٢٠٩) بهذه السمة.

ومن أقدم المجموعات الأدبيّة الّتي تركها الأُوَل: **عيون الأخبار** لابن قتيبة (م٢٧٦)؛ **والبيان والتّبيين** للجاحظ (م ٢٥٥)؛ **والكامل في اللغة والأدب** لأبي العبّاس محمّد بن يزيد المبرّد (م ٢٨٥)؛ **وربيع الأبرار** للزمخشريّ (م ٥٣٨)؛ **ونثر الدرّ** لأبي سعيد الآبيّ (م ٤٢١)[٢]؛ **والعقد الفريد** لابن عبد ربّه (م ٣٢٨)؛ **ونشوار المحاضرة** للقاضي التنوخيّ (م ٣٨٤)؛ **وبهجة المَجالس وأُنس المُجالس** لابن عبد البرّ، **ومحاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء** للرّاغب الإصبهانيّ (أوائل القرن الخامس)؛ **والتذكرة الحمدونيّة**[٣] لابن حمدون (م ٥٦٢)؛ **والمحاسن والمساوئ** لإبراهيم بن محمّد البيهقيّ. ونلحظ في هذه الكتب أنّ الموضوعات الأدبيّة والاجتماعيّة المهمّة

---

(١) ***الإعلان بالتّوبيخ***، نقلاً عن ترجمته في كتاب ***تاريخ تاريخنگارى در اسلام*** ٢: ٦١، ٦٢، ١٤١.

(٢) انظر: مجلّة ***آينه پژوهش*** (مرآة التحقيق)، العدد ٢٠، ص ٣١ ـ ٣٨.

(٣) أصدرت دار صادر ببيروت هذا الكتاب بتصحيح إحسان عبّاس وبكر عبّاس سنة ١٩٩٦م.

أصبحت مدعاة إلىٰ نقل كثير من الأخبار الثقافيّة والتاريخيّة. وإنّ موضوعات من قبيل السلطة والحكومة، والحروب، والأمثال، والنساء، والعدالة، والعشق، والعلم، والخيانة، والخوف، والقضاء صارت محوراً لنقل الروايات التاريخيّة والثقافيّة المتنوّعة. وكلّ منها لشخصٍ، وتدور حول إقليم من الأقاليم. وقد أُعدّت بصورة كشكول أدبيّ. وتضمّ أهمّ العناصر لتدوين التاريخ الاجتماعيّ.

وصُنِّفت كتب أيضاً في تاريخ الشعر والشعراء لها شأنها الكبير في كتابة التاريخ الثقافيّ. منها: *طبقات الشّعراء* لابن سلام (م ٢٣١)، *والشّعر والشّعراء* لابن قتيبة، وأهمّ منها المصنَّف النفيس الثمين المتمثّل بكتاب *الأغاني* لأبي الفرج الإصفهانيّ (م٣٥٦). وهو موسوعة تتناول الشعراء وكثيراً من رجال السياسة، وتشتمل علىٰ معلومات ثقافيّة وتستعرض حتّىٰ بعض التطوّرات السياسيّة. وهي مأخوذة من كتب كثيرة مماثلة قد ضاعت. أمّا هذه الموسوعة فمن حسن الحظّ أنّها خَلُدت لنا.

تدوين السيرة وكتّابها

تدوين السيرة قبل ابن إسحاق

عندما طرح تدوين السّيرة كفرع تخصّصيّ وعليه مسحة من كتابة التّاريخ، فإنّه كان يشتمل علىٰ قسمين رئيسين أحدهما «المبعث»، والآخر «المغازي». ويبدأ القسم الأوّل بترجمة أجداد النّبيّ ﷺ وينتهي بالهجرة. ويتناول القسم الثاني المغازي الّتي تشمل الأحداث العسكريّة وغير العسكريّة التي جرت في المدينة. ونحتمل أنّ ابن إسحاق ككثير من معاصريه قد أفاد ممّا كتبه أهل الكتاب والمسلمون الّذين تأثّروا بهم. وجعل في بداية كتابه كتاب *المبتدأ*، وهو يتناول تاريخ الخلق وسيرة الأنبياء

حتّى نبيّنا ﷺ(١). وقام ابن هشام الّذي هذّب سيرة ابن إسحاق بإسقاط هذا الفصل من كتابه.

ولمّا كانت سيرة ابن إسحاق خاتمة الجهود المتفرّقة لأرباب السيرة، وجامعة لتلك الأعمال التمهيديّة، فلا بدّ من نظرة نلقيها على الفترة التي سبقته كي يتسنّىٰ لنا أن نقف علىٰ موقع هذه السيرة واتّجاهاتها بنحو أفضل من غيره.

إنّ أوّل سؤال يثار حول تدوين السّيرة وكتابة التاريخ وتدوين الحديث في القرنين الأوّل والثاني هو: هل كان هناك شيء مكتوب يومئذٍ أو لا؟ يرتبط الجواب عن هذا السؤال بتاريخ تدوين الحديث، إذ إنّ الاهتمام بالسيرة في البداية قد انبثق من الانشغال بالحديث الشريف والسيرة النبويّة؛ مع أنّ بعدها التاريخيّ كان مستقلّاً عن الحديث إلىٰ حدٍّ ما، ويمكن أن يكون الاهتمام بها غير مرتبط بالحديث.

ولمّا كان الأمر مرتبطاً بتدوين الحديث، جاز لنا أن نقول: بدأ التدوين في أوائل القرن الثاني الهجريّ بشكل رسميّ. أمّا بشكل غير رسميّ فقد طفق رجال، يناهضون الجوّ العامّ، بتدوين الحديث. وكان أوّل من أمر بتدوين الحديث من السلاطين هو عمر بن عبد العزيز (م ١٠١). وكان أوّل محدِّثٍ اهتمّ بذلك بعد الأمر المذكور هو ابن شهاب الزهريّ (م ١٢٤)(٢).

ومن الواضح أنّ الحديث بسبب طابعه الدينيّ كان قد مُني بمثل هذه المشكلة لمعاذير كان يتشبّث بها بعض السلاطين. ولم يسلم التاريخ أيضاً من ذلك في المجال المرتبط بهذا القسم. وفي الوقت نفسه، السيرة لم تعبّر عن الحديث فحسب، بل كانت

---

(١) ورد هذا الفصل نوعاً ما في الكتابات التاريخيّة للمسلمين كما ذكر الطبريّ، واليعقوبيّ، وكثيرون غيرهم كتاب المبتدأ في بداية كتبهم، ثمّ تناولوا تاريخ العصر الإسلاميّ.

(٢) انظر: ***مقدمه‌اى بر تاريخ تدوين حديث*** [مقدّمة علىٰ تاريخ تدوين الحديث] قمّ، انتشارات فؤاد، ١٤١٠هـ.

لها أبعادها التاريخيّة أيضاً. من هنا، قلّما تعرّضت لمشكلة بسبب الجوّ الدينيّ الذي لم يسمح بتدوين الحديث، فنلحظ أنّ موضوعات من قبيل أخبار الجاهليّة، وأنساب العرب، بل سير الملوك، كان يمكن أن تُدوَّن، كما يبدو أنّ كتابات كانت موجودة في هذه المجالات.

ونقل المسعوديّ أنّ *سير الملوك* كانت موجودة عند معاوية، وكانت تُقرأ عليه كلّ ليلة، وهي مدوّنة[١]. ونُسبت كتب في هذا الصدد إلىٰ بعض النسّابين والمطّلعين علىٰ أخبار الجاهليّة. ومنهم عُبَيْد بن شريّة وآخرون غيره[٢].

إنّ ما يجعل الحكم عسيراً على المدوّنات المحتملة الموجودة في القرن الأوّل هو أنّ الرواة المتأخّرين الّذين قاموا بالتأليف أحياناً لم يوضّحوا لنا فيما إذا نقلوا عن الرواة السابقين شفويّاً أو أنّهم استهدوا بكتبهم بعد استئذانهم. مثلاً عندما ينقل ابن إسحاق عن عروة بن الزبير، فهل ينقل الرواية المذكورة عن الزهريّ الّذي سمعها من عروة شفويّاً أو ينقلها عن كتاب عروة، بإجازة كانت عنده من الزهريّ الّذي أجازه عروة؟ وكان المألوف منذ القرن الثاني فما تلاه أنّهم كانوا إذا نقلوا عن كتابٍ ما بإجازة، فإنّهم يذكرون اسم شيخهم المجيز فحسب، وإذا قرأ الشيخ من كتاب، فإنّهم يروون عنه ويوردون اسمه في السند. وظلّ هذا التقليد سائداً مدّة مديدة إلىٰ أن شاع ذكر عنوان الكتاب والنّقل المباشر عن مؤلّفه شيئاً فشيئاً. ولا أدري هل كان هذا مألوفاً في القرن الأوّل وبداية القرن الثّاني أو لا؟ ويمكن القول علىٰ سبيل الاحتمال: إنّ معظم المعلومات كانت تؤخذ من الكتب الموجودة، أمّا النقل الشفويّ فقد كان وجوده محتملاً أيضاً في حالات قليلة. والإشكال القائم هو أنّ كتابات القرن الأوّل

---

(١) *مروج الذّهب* ٢: ٧٢، نقلاً عن *التّاريخ العربيّ والمؤرّخون* ١: ١٢٤.

(٢) *تاريخ التّراث العربيّ*، المجلّد الأوّل، الجزء الثّاني، ص٢٩ ـ ٤٣.

الهجريّ لو كانت وفيرة حقّاً لوصلت إلينا معلومات أكثر في هذا المجال. والنقل الشفويّ، بخاصّة في المواطن الّتي يُنقل فيها شيء عن أُناس عاديّين لكنّهم مرتبطون بالحادث، قطعيّ ثابت. علىٰ أيّ حال أنّ النقل من الكتابات الّتي ينبغي أن نسمّيها كرّاسة أو مسودَّة كان أساس التأليف في النصف الثاني من القرن الثاني فصاعداً.

ينبّه سزگين علىٰ ضرورة الالتفات إلىٰ أنّ الطبريّ حين يقول في تاريخه: «حدّثنا ابن حميد، قال: حدّثنا سلامة، قال: حدّثنا ابن إسحاق» فإنّه قد اقتبس من مغازي ابن إسحاق كلمة كلمة[1]. ويقول: علىٰ سبيل المثال جاء في رواية عن كتاب الأغانيّ: «نقل محمّد بن الحسن بن دريد عن قول عمر بن شبّه، وهو عن أبي عبيدة، عن عوانة ابن الحكم... كذا وكذا». وحينئذٍ نقرّ بأنّ كتب أحد هؤلاء المؤلّفين كانت في متناول يد أبي الفرج الاصفهانيّ، وهو نقل اللفظ نفسه وربّما كان لابن دريد كتاب أو أنّه أخذ هذا الخبر من كتاب عمر بن شبّه، أو كتاب أبي عبيدة، أو كتاب عوانة ـ وكان ذانك الرجلان يرويان كتاب عوانة. وربّما كان مصدر الخبر الّذي أورده أبو الفرج كتاباً لعمر بن شبّه أو لأبي عبيدة أو لعوانة[2].

ويذهب جواد عليّ إلىٰ أنّ الطّبريّ اختار الأُسلوب الروائيّ لنقل الأخبار، ولا حاجة إلىٰ ذكر عنوان الكتاب في مثل هذا الأسلوب، ذلك أنّ اسم الراويّ يُذكَر مكان الكتاب. علىٰ سبيل المثال، قال في خبر عن عمر بن شبّه (م ٢٦٢): «وحدّثني عمر مرّةً أُخرىٰ في كتابه الذي سمّاه كتاب *أهل البصرة*». ويدلّ هذا علىٰ أنّه أفاد من مصنَّفاته المكتوبة. ويضيف جواد عليّ أنّ المشكلة في هذا الأُسلوب هو أنّه لم يستبن في كثير من المواضع علىٰ كتب أيّ الأشخاص الذين وردت أسماؤهم في السند اعتمد الطّبريّ[3].

---

(١) ***گفتارهايى پيرامون تاريخ علوم عربى واسلامى*** [مقالات حول تاريخ العلوم العربيّة والإسلاميّة]: ١٧٠.

(٢) نفسه: ١٧٩.

(٣) ***موارد تاريخ الطّبريّ***، القسم الأوّل: ١٦٦.

ومن المفيد أن نلتفت إلىٰ هذه النّقطة وهي أنّ كتابات المحدّثين في صدر الإسلام كانت في الأصل مساعدة للذّاكرة. ولم تك هذه الكتابات ذات ترتيب وتدوين خاصّ. ويمكن أن يكون لها شأن يماثل شأن مسودّةٍ ما.

في متناول أيدينا روايات حول تدوين السّيرة. منها ما ذكره الزبير بن بكّار حول قيام أبان بن عثمان بن عفّان (م بين ٩٦ ـ ١٠٥) بكتابة السيرة. قال: أمر سليمانُ بن عبد الملك أبانَ بن عثمان أن يكتب له سِيَر النّبيّ ﷺ ومغازيه. فقال أبان: هي عندي... فأمر بنسخها وألقىٰ فيها إلىٰ عشرة من الكُتَّاب. وبعد كتابتها وجد فيها فضائل الأنصار، فأمر بحرقها. وقال: إن وافق أبي فسأستنسخ كتاب أبان[1]. قد يصحّ هذا النّقل بيد أنّا يمكن أن نعدّ كتابته في مستوىً محدود جدّاً، إذ لم تُؤثَر عنه روايات تُذْكَرُ في السِّيَر.

ونظراً إلىٰ اعتماد الطّبريّ علىٰ منقولات سهل بن أبي حَثْمَة (المولود في السّنة الثّالثة للهجرة)، الّتي قيل إنّها كانت مكتوبة عند بعض أحفاده، فقد ذهب بعض الباحثين إلىٰ أنّه كان يرمي إلىٰ تدوين غزوات النّبيّ ﷺ، وكتب قسماً منها أيضاً[2].

وأراد ذلك المؤلّف نفسه أن يثبت استهداء ابن إسحاق بما كتب قبله في السّيرة كما تدلّ عليه بعض أسناده[3]. وأهمّ خبر في تدوين السيرة إبّان القرن الأوّل هو الذي أفاد أنّ عروة بن الزبير صنّف كتاباً في السيرة. وذهب الواقديّ إلىٰ أنّه «أوّل من

---

(١) *الموفّقيّات*: ٣٣٢.

(٢) *تاريخ التّراث العربيّ*، ج ١، الجزء الثّاني، ص ٢٠. الأساس عند سزگين أنّ مدوّنات كانت موجودة من القرن الأوّل في جميع العلوم الإسلاميّة كالحديث، والتّفسير، والسّيرة. انظر في هذا المجال: تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد عليّ، ص١٧ ـ ١٩.

(٣) *تاريخ التّراث العربيّ*، ج ١، جزء ٢، ص٢٣.

صنّف في المغازي»[١]. ويدلّ نقله الكثير في السّيرة علىٰ أنّه لم يستطع أن يحفظ هذا الحجم من المعلومات ويزوّد به الآخرين دون كتابة. وقام محمّد مصطفى الأعظميّ بجمع هذه الأخبار في كتاب بعنوان *مغازي رسول الله* ﷺ *لعروة بن الزبير* برواية أبي الأسود. وبادر «مكتب التربية العربيّ» إلىٰ طبعه مستقلاً سنة ١٤٠١ هـ. وكانت أوراق عن وهب بن منبّه فيها بعض الأخبار الّتي تدور حول مكّة، وكذلك غزوة خثعم بروايته عن طريق سبطه[٢].

واتّخذ التدوين طابعاً رسميّاً في مطلع القرن الثاني. وكان الزهريّ ثمرة لجهود فريق مهمّ من محدّثي المدينة وفقهائها وعلماء السيرة فيها، وبشأنه قال الطبريّ: كان مقدّماً في العلم بمغازي رسول الله ﷺ[٣]. وقصد الشام لهواه في بني أُميّة، وخدم بلاط هشام بن عبد الملك أكثر من غيره. وكان تعلّم روايات المغازي علىٰ عروة بن الزبير، ونقلها لكثير من الناس[٤]. وذهب غيب إلىٰ أنّه أساس الكتب التي صُنِّفت في المغازي آجلاً[٥]. وقام سهيل زكّار بجمع أخباره في السيرة تحت عنوان *المغازي النبويّة* لابن شهاب الزهريّ، وطبعها في كتاب مستقلّ[٦]. وأُعدّت العناصر الأصليّة لهذا الكتاب من قسم المغازي في كتاب *المصنَّف* لعبد الرزّاق بن همام الصنعانيّ (م٢١٢).

واحتمال وجود مكتوبات في هذا المجال، فالنّقطة المهمّة هي أنّ أشخاصاً كانوا

---

(١) *الطّبقات الكبرىٰ* ٥: ١٣٣؛ *البداية والنّهاية* ٩: ١٠١؛ *الفهرست*: ١٢٣ نقلاً عن مقدّمة «مغازي رسول الله لعروة بن الزّبير». ذكر هشام بن عروة أنّ لأبيه كتابات كثيرة حول واقعة الحرّة أتلفها جميعاً.

(٢) *موارد تاريخ الطّبريّ*، القسم الأوّل، ص١٨٦.

(٣) *المنتخب من ذيل المذيل*: ٩٧.

(٤) *الإعلان بالتّوبيخ*: ٨٨، نقلاً عن *تاريخ تاريخنگارى در اسلام* [تاريخ كتابة التاريخ في الإسلام] ٢: ٢١٤؛ *تاريخ التّراث العربيّ* ١، الجزء ٢، ص٧٦ ـ ٧٩.

(٥) *دائرة المعارف الإسلاميّة* ٤: ٤٨٦. (٦) دمشق، دار الفكر المعاصر، ١٤٠١.

موجودين قبل ابن إسحاق وكان لهم اهتمام بهذا الأمر، وقد بذلوا جهودهم في جمع أخبار النّبيّ ﷺ.

علىٰ أيّ حال، جَدَّ بعض المحدِّثين في جمع السّيرة النبويّة خلال القرن الأوّل الهجريّ، وفي أجيال سبقت ابنَ إسحاق، لكنّهم لمّا لم ينظّموا أعمالهم كابن إسحاق، فقد أُهملوا نوعاً ما. وأصبحت سيرة ابن إسحاق نموذجاً تامّاً ارتضاه المؤرّخون من أهل السّنّة. وهم قد جمعوا لاحقاً أخباراً أُخرىٰ أيضاً، لكنّها اعتبرت حواشي لسيرة ابن إسحاق. فظلّت سيرة ابن إسحاق هي المحور حتّىٰ إنّ الشّافعيّ يرىٰ الآخرين عيالاً علىٰ سيرته[1].

وذكر هورفتس وسزگين فهرساً بأسماء الّذين اشتهروا بمعلوماتهم في السّيرة قبل ابن إسحاق، وهم: سعيد بن سعد بن عبادة، وسهل بن أبي حثمة (م ٤١)، وسعيد بن المسيّب (م ٩٤)، وعبد الله بن كعب (م ٩٧)، والشّعبيّ (م ١٠٣)، وأبان بن عثمان بن عفّان (م ٩٦ ـ ١٠٥)، وعروة بن الزّبير (م ٩٤)، وشُرَحبيل بن سعد (م ١٢٣)، وقاسم بن محمّد بن أبي بكر (م ١٠٧)، وعاصم بن عمر بن قتادة (م ١٢٠)، ومحمّد ابن شهاب الزّهريّ (م ١٢٤)، وأبو إسحاق عمرو بن عبد الله الهمدانيّ (م ١٢٧)، ويعقوب بن عتبة (م ١٢٨)، وعبد الله بن أبي بكر بن... حزم (م ١٣٠)، ويزيد بن رومان (م ١٣٠)، وأبو الأسود محمّد بن عبد الرّحمٰن الأسديّ (م ١٣١)، وداود بن الحسين (م ١٣٥)، وأبو المعتمد التّيميّ (م ١٤٣)، وموسى بن عقبة (م ١٤١)[2].

---

(١) ***تاريخ بغداد*** ١: ٢١٩؛ ***شذرات الذّهب*** ١: ٢٢٧. وكانت لموسى بن عقبة سيرة منظّمة، كان مالك بن أنس يراها أصحّ من سير الآخرين بخاصّة ابن إسحاق.

(٢) ذكر ترجمة هؤلاء كلّ من سزگين في ***تاريخ التّراث العربيّ***، وهورفتس في ***المغازي الأُولىٰ ومؤلّفوها***؛ وشاكر مصطفىٰ في ***التّاريخ العربيّ والمؤرّخون***.

تدوين السيرة النبويّة في المدينة

من الموضوعات المهمّة التي ينبغي أن نقف عليها في معرفة مقدّمات السيرة هي الطريقة التي انتظم بها ما نعرفه من السيرة وما هو في متداول أيدينا من تاريخ حياة النبيّ ﷺ، والأشخاص الذين تولّوا تنظيمها.

من الثّابت أنّ ابن إسحاق أخذ علمه من المدينة. وعلينا أن نتعرّف على المصادر التي استند إليها علماء المدينة ورواتها في جمع هذه المعلومات. ومن المفيد أن نشير ابتداءً إلى اتّخاذ كلّ مدينة نزعة سياسيّة ومذهبيّة خاصّة علىٰ مرّ التّاريخ الإسلاميّ، وفي القرن الأوّل الهجريّ أيضاً. وكان جُلّ الناس علىٰ هذه النزعة سواءً انسجمت مع ذوق الحكومات أم لم تنسجم. وكان طبيعيّاً أن يتأثّر علماء كلّ مدينة ورواتها بهذه النزعات إجمالاً.

وفي ضوء ما نستشفّه من التاريخ فإنّ الشام كانت ذات ميول أُمويّة لبرهة من الزمن. أمّا الكوفة فقد احتضنت النزعات الشيعيّة لأسباب متعدّدة. وأمّا البصرة فقد كانت عثمانيّة الهوىٰ لمنافستها الكوفة، واشتراكها في معركة الجمل. وأمّا مكّة والمدينة فهما منحازتان إلى الشيخين وكانت تراهما منطلقاً لرؤيتها الدينيّة والسياسيّة. ولمّا هاجر بعض الصحابة إلىٰ سائر المدائن بعد وفاة النبيّ ﷺ، فقد ظهرت في كلّ مدينة منها مدرسة حديث خاصّة تدريجاً. ولكلّ مدرسة خصوصيّة ترتبط بعقيدة الصحابة أو الصحابي الوجيه الذي سكن في تلك المدينة وربّىٰ فيها عدداً من الطلّاب. وكان لعائشة، وأبي هُريرة، وعبد الله بن عمر ذلك الجاه في المدينة. يليهم زيد بن ثابت، وأنس بن مالك ورواة آخرون غيرهما. واشتهر أميرالمؤمنين عليه السلام، وابن مسعود في الكوفة. وهكذا في بقيّة الأمصار. وكانت النزعة السياسيّة الموجودة في بعض المناطق أقوىٰ من وجود الصحابة فيها حتّىٰ إنّها بلورت التعصّب المذهبيّ في هذه المناطق.

وينبغي أن نعدّ المدينة هي المؤسّس في مجـال تدوين السيرة[١]. وتدلّ نظرة علىٰ أوّل شريحة من علماء السّيرة أنّ الأكثريّة الساحقة منهم كانوا من أهل المدينة. ومن الأسماء الّتي ذكرناها سابقاً الشعبيّ، وأبو إسحاق السبيعيّ. فهذان كانا بالكوفة، وثمّة شخص آخر لم نعثر على المكان الذي عاش فيه. أمّا الباقون فقد نشأوا في المـدينة وتأثّروا بجوّها الفكريّ. وفي مقابل ذلك، كان أهـل الشـام يُـمنعون مـن الانشـغال بالسيرة النبويّة لأسباب ما. وأهمّ سبب هو انكشاف مـاهيّة الأُسرة الأُمـويّة مـن خلال بيان السيرة. إذ لم يستطع الأمويّون بدعاياتهم أن يعرّفوا أنفسهم علىٰ أنّهم من قُربى النبيّ ﷺ. ومن الطريف أنّ عبد الملك بن مروان نفسه لم يرض حـتّىٰ بـنقل سيرة عمر، لأنّه كان يراها مضنية للأُمراء مفسدة للرعيّة[٢].

علماً أنّه ظهر بين المحدّثين الشاميّين من كان ينقل بعض الروايات في المغازي[٣]، لكنّ هؤلاء ليسوا من الشأن بمكان فيُثيرون مشكلة للأمويّين. وكان الزهريّ الذي أخذ علمه من المدينة يتردّد بين الشام والمدينة في العقدين الأخيرين من القرن الأوّل حتّىٰ آخر عمره في العقد الثالث من القرن الثاني بما يربو علىٰ أربعين سنةً. وهو ممّن له

---

(١) قسّم شاكر مصطفى المدارس المرتبطة بالسّيرة إلىٰ مدارس صغيرة وكبيرة. وذهب إلىٰ أنّ أوّل مدرسة في السّيرة ـ ولو صغيرة ـ كان بالشّام. والأدلّة الّتي ذكرها لإثبات هذه النقطة لا تدلّ علىٰ هذا الموضوع. علىٰ سبيل المثال ذكر عن أبي عُيَينة «من أراد المـقاسم وأمر الغزو، فعليه بأهل الشّام» فقد اعتبر هذا الكلام دليلاً علىٰ وجود السّيرة في الشّام، في حين أنّ القصد منه هو المسائل الفقهيّة المرتبطة بالحرب. وكانت مطروحة في الشّام أكثر من غيرها بسبب استمرار الحرب في جبهات الشّام. وأراد أيضاً أن يدلّ علىٰ تقدّم الشّام في تدوين *المغازي* من خلال ذكر رواة الأخبار المـتعلّقة بـفتوحات الشّـام وكـانوا شاميّين. ولو فرضنا أنّ أحداً من الصّحابة والتّابعين نقل الرّوايات المرتبطة بفتوحات الشّام، فلا علاقة لهذا الأمر بنقل مغازي رسول الله ﷺ. انظر: *التاريخ العربيّ والمؤرّخون* ١: ١١٩ ـ ١٢٢.

(٢) *البداية والنّهاية* ٩: ٦٦.

(٣) *رواية الشاميّين للمغازي والسير في القرنين الأوّل والثاني الهجريّين*: ٥٢ ـ ٥٤.

قسط عظيم في علم المغازي، وطبيعيّاً لابدّ أن يكون أحد ناقليه إلى الشام. وكان خلال تلك المدّة يخدم البلاط الأمويّ. وسنواصل الحديث عنه.

وكان سعيد بن سعد بن عبادة، وسهل بن أبي حثمة كلاهما مدنيّين أنصاريّين. ونقل الزهريّ روايات في السيرة عن سهل بن أبي حثمة بنحو مرسل. وكان سعيد بن المسيّب من فقهاء المدينة، واشتهر براوي عمر، وتلمذ له الزّهريّ وقتادة. وكان عبيد الله بن كعب بن مالك أنصاريّاً، أثنىٰ عليه ابن إسحاق، ونقل عنه روايات في المغازي، كما نقل عنه الزهريّ أيضاً.

وكان أبان بن عثمان بن عفّان والياً على المدينة سنة ٧٥ هـ ونقل عن عائشة كثيراً. وهو من أقدم علماء السيرة. ونقل عنه ابن إسحاق[١]. ويعدّ عروة بن الزبير من أهمّ المحدّثين في المدينة. ونقل عن الصحابة بخاصّة عن عائشة نقلاً جمّاً. ويعتبر مصدراً مهمّاً للزهريّ[٢]، ولموسى بن عُقْبة الذي كان من موالي آل الزبير في السيرة. وكان نجله هشام بن عروة راوياً لأخباره، ولم يرتضيه أهل العراق[٣]. وكان القاسم بن محمّد بن أبي بكر من فقهاء المدينة، ومن مشايخ الزهريّ. وكان عاصم بن عمر بن قتادة أنصاريّاً، واشتهر بالمغازي، ونقل عنه ابن إسحاق عدداً من الرّوايات. ثمّ رحل إلى الشام، وأمره عمر بن عبد العزيز بقراءة «قصص المغازي ومناقب الصحابة» في الجامع الأمويّ[٤].

وكان يعقوب بن عتبة مدنيّاً ومعاصراً للزهريّ، ومطّلعاً على المغازي. وعُدَّ عبد الله ابن أبي بكر بن حزم المدنيّ من رواة أخبار المغازي لابن إسحاق وغيره. وكان

---

(١) انظر: *تذكرة الحفّاظ* ١: ١٧٣.

(٢) *تهذيب التّهذيب* ٩: ٣٠٧؛ *تاريخ التّراث العربيّ*، ج ١، الجزء ٢، ص ٧١.

(٣) *تذكرة الحفّاظ* ١: ١٤٥.

(٤) *تاريخ التّراث العربيّ* ج ١، الجزء ٢، ص ٧٣؛ *المغازي الأُولىٰ ومؤلّفوها*: ٤٨.

يزيد بن رومان مدنيّاً ومن موالي آل الزبير، وله كتاب في المـغازي أيضاً يتوكّأ فيه علىٰ روايات عروة والزهريّ.

وكان أبو الأسود محمّد بن عبد الرّحمٰن الأسديّ ربيب عروة بن الزبير، وعروة من مشايخه. وكان موسى بن عُقبة من المتقدّمين في المغازي، ومن تلاميذ الزهريّ، وهو ممّن عاش في المدينة. وتركّزت جهوده العلميّة على المغازي وسيرة الخلفاء. ويبدو أنّ له تاريخاً حسب السّنين. وذهب سزگين إلىٰ أنّ مغازيه تتوكّأ علىٰ مغازي الزهريّ[١]. وهو من موالي آل الزّبير أيضاً[٢]. ودعا مالك بن أنس، ويحيى بن معين، وأحمد بن حنبل الناس إلىٰ قراءة مغازيه[٣].

النّقطة الّتي نستشفّها من القسم الأخير للموضوعات المتقدّمة هي أنّ لآل الزّبير تأثيراً مهمّاً في تبلور السيرة. وأشار هورفتس أيضاً إلىٰ أنّ ابن إسحاق قد نقل كثيراً عن المنتسبين لآل الزبير، مضافاً إلىٰ أخذه من الزهريّ. فقد روىٰ عن أشخاص مثل يزيد بن رومان الذي كان من موالي عروة، عن هشام بن عروة وعمر بن عبد الله ابن أخي عروة، ومحمّد بن جعفر ابن أخي عروة أيضاً، وكذلك عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير[٤].

موسى بن عُقْبة (م ١٤١)

موسىٰ بن عقبة بن أبي عيّاش القرشيّ أحد الوجوه البارزة في علم المغازي. رأىٰ عبد الله بن عمر سنة ٦٨ هـ، فبذا كان في أقلّ التقادير يافعاً يومئذٍ. وكان من موالي

---

(١) *تاريخ التّراث العربيّ، التدوين التاريخيّ*، ص ١٨٤ ـ ١٨٦.

(٢) *تذكرة الحفّاظ* ١: ١٤٨.

(٣) *الجرح والتّعديل* ١: ٢٢؛ *تذكرة الحفّاظ* ١: ١٤٨؛ *المغازي الأُولىٰ ومؤلّفوها*: ٧١.

(٤) *المغازي الأُولىٰ ومؤلّفوها*: ٨٨، ٨٩.

آل الزبير، وهذه نقطة طريفة كما يبدو بالنظر إلىٰ رغبة هؤلاء في المغازي، وهو ما أشرنا إليه من قبل[١]. وتلمذ للزهريّ زميلاً لابن إسحاق، وانشغل في تدوين المغازي بنحو مستقلّ ومفصّل. مع هذا لم يشتهر لأسباب متنوّعة يمكن أن نعدّ منها موعده غير المناسب لنشره في العراق أو لضعف تأليفه قياساً بعمل ابن إسحاق، أو لأسباب أخرىٰ. وكان هذا الكتاب سهل المنال حتّى القرن التاسع الهجريّ، وبعد ذلك لم تبق منه إلّا فقرات.

وذكر سزگين أنّ اعتماده الأساس كان علىٰ الزهريّ، وإن قلّ قوله: حدّثني الزهريّ، وكثر قوله: قال ابن شهاب وزعم ابن شهاب. وكان مالك بن أنس إذا قيل له مغازي من نكتب؟ قال: عليكم بمغازي موسى بن عقبة، فإنّه ثقة. وأضاف أنّه طلبها علىٰ كبر سنّه ليقيّد من شهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[٢]. ولا بدّ أن يكون اهتمام مالك بن أنس بمغازي موسى بن عقبة ذا صلةٍ بانعدام ثقته بابن إسحاق. وبعد ذلك كان يحيىٰ بن معين يقول: كتاب موسى بن عقبة عن الزهريّ من أصحّ هذه الكتب[٣]. ويمكن أن يشير هذا الكلام إلى القدح في طرقه الحديثيّة الأُخرىٰ. وتدلّ الحكاية التي ذُكرت في اهتمامه بالمغازي علىٰ بعض النقاط في تدوين السيرة. وقال سفيان بن عيينة: كان بالمدينة شيخ يقال له شُرَحبيل أبو سعد، وكان من أعلم الناس بالمغازي، فاتّهموه أن يكون يجعل لمن لا سابقة له سابقة، وكان قد احتاج فأسقطوا مغازيه وعلمه. قال إبراهيم بن المنذر: فذكرتُ هذا الحديث لمحمّد بن طلحة ابن الطويل، ولم يكن بالمدينة أحد أعلم بالمغازي منه، فقال لي: كان شُرَحبيل بن سعد عالماً بالمغازي فاتّهموه أن يكون يُدخِل فيهم من لم يشهد بدراً ومن قُتل يوم أحد والهجرة ومن

---

(١) *تهذيب الكمال* ٢٩: ١١٥، ١١٦.

(٢) نفسه ٢٩: ١١٨.

(٣) نفسه ٢٩: ١٢٠.

لم يكن منهم، وكان قد احتاج فسقط عند الناس. فسمع بذلك موسى بن عقبة، فقال: وأنّ الناس قد اجترؤوا علىٰ هذا؟! فدبّ علىٰ كبر السنّ وقيّد من شهد بدراً وأُحداً ومن هاجر إلىٰ أرض الحبشة والمدينة، وكتب ذلك[١]. وأفاد ياقوت من نسخة من مغازي موسى بن عقبة التي كانت بخطّ أبي نعيم الإصفهانيّ[٢]. وقام ساخو بطبع قسم من المغازي الذي هذّبه ابن شهبة (م ٧٨٩)، مع ترجمته الألمانيّة. وكتاب *الدرر في اختصار المغازي والسير* لابن عبد البرّ (م ٤٦٣) تلخيص لمغازي موسى بن عقبة. وأورد ابن حجر في *الإصابة* فقرات كثيرة من هذا الكتاب، وعيّن سزگين أرقام صفحاتها[٣]. كما نقل البيهقيّ (م ٤٥٨) في *دلائل النبوّة* فقرات كثيرة منه أيضاً.

محمّد بن إسحاق (٨١ ـ ٨٥ / ١٥٠ ـ ١٥١)

هو مؤلّف أوّل سيرة شاملة نسبيّاً، وعُرفت سيرته كأوّل عمل أصيل في هذا المجال بسبب ما اتّسمت به من نظم موضوعيّ[٤]. وكان ابن إسحاق عراقيّاً ومن الموالي ـ العرب أو الفرس ـ وآباؤه نصارىٰ، وأُسر جدّه يسار في موقعة عين التمر بالعراق. وكان نشأ في المدينة، ثمّ توفّي ببغداد، ودُفن في مقبرة الخيزران. وإذا استثنينا

---

(١) *تهذيب الكمال* ٢٩: ١١٩.   (٢) *معجم البلدان* ٤: ١٠٠٨ (طبعة أوربّا).

(٣) *تاريخ التّراث العربيّ، التدوين التاريخيّ*: ٨٥.

(٤) صدرت دراسات كثيرة حول ابن إسحاق. وأُعدّت رسالة مستقلّة عنه بهذا العنوان:

JFÜck Mohammad Ibn Ishaq, Frankfurt, am Main, 1923.

وثمّة دراسة أخرىٰ لـ Horowitz وعنوانها *المغازي الأولىٰ ومؤلّفوها*. وتولّىٰ حسين نصّار تعريبها (القاهرة ١٩٤٦). وأصدر باحث آخر المتن الأصليّ لسيرته خالياً من إضافات ابن هشام ومشتملاً علىٰ ما جاء في المصادر الأخرىٰ نقلاً عن ابن إسحاق، وكان قد حُذف من سيرة ابن هشام. ومواصفاته هي كالآتي:

A. Guillaume, The Life of Mohammad, O U P. 1955

المدينة التي قرأ القسم الأعظم من علمه الحديثيّ علىٰ شيوخها، فإنّه توجّه إلىٰ مصر وهو يناهز الثلاثين، وتلمذ لرجالٍ مثل يزيد بن أبي حبيب (م ١٢٧)، وأفاد منه في أخبار السيرة[١]. وبعد استيلاء العبّاسيّين على الحكم سنة ١٣٢ هـ يمّم العراق، وألّف مغازيه عندما كان المنصور في الحيرة، فانتشر بين أهل الكوفة، ثمّ في سائر المناطق منذ ذلك الحين. وأدّت هجرة ابن إسحاق من المدينة تلقاء العراق إلىٰ نقل علم السيرة الذي ولد بالمدينة إلىٰ أهمّ نقطة في العالم الإسلاميّ، أي: العراق.

وترك ابن إسحاق سيرة مدوّنة تستبين صبغتها التاريخيّة تماماً. وكان كتابه يشتمل على الأخبار التاريخيّة منذ بداية حياة آدم عليه السلام حتّىٰ نهاية حياة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

وقام ابن هشام بتهذيب سيرة ابن إسحاق بحذف ما سمّاه من الزوائد، ولم يره ذا علاقةٍ بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. وينبغي أن نقول إنّ مزيّة كتاب ابن إسحاق تتجلّىٰ في سبكه المنظّم الذي لا يمكن أن يكون من بنات أفكاره وحدها، بل هو مزيج من عمل شيخه الزهريّ وسائر المصنّفين الذين كان لهم باع في هذا العمل قبل ذلك، كما ذهب إليه بعض الباحثين. وإن كان لا بدّ من القول إنّ مصنَّفاً لم يبلغ هذا المستوىٰ من قبل، كما ذكر المسعوديّ ذلك[٢].

نشأ ابن إسحاق في المدينة، فجاءت رواياته مشتملةً علىٰ أخبار مدنيّة في الأغلب، وأُخرىٰ مصريّة في الأقلّ. لكنّ رواة كتابه من الشرق إلّا واحداً منهم كان من أهل المدينة. ويعود هذا إلىٰ أنّه دوّن سيرته في المدينة تدويناً أوّليّاً، ثمّ نشرها في

---

(١) منها رسالة له تحت عنوان: «كتاب فيه ذكر من بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى البلدان وملوك والعرب والعجم وما قال لأصحابه حين بعثهم». انظر: *البحوث والمحاضرات*، ١٣٨٥، مقالة بعنوان: دراسة في سيرة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، ص ١١٧.

(٢) *مروج الذّهب* ٤: ١١٦ (ج ٥، ص ٢١١): أوّل من جمع «كتب *المغازي* والسير وأخبار المبتدأ، ولم تكن قبل ذلك مجموعة ولا معروفة ولا مصنّفة».

العراق. من هنا، يجب أن نلتفت إلىٰ أنّه كان محدوداً في الأخبار المدنيّة التي لها قيودها الخاصّة. وأهدىٰ سيرته في الحيرة إلى المنصور أو المهديّ يوم كان وليّاً للعهد[١].

وكان ابن إسحاق تأثّر برواة اليهود والنصارىٰ، أو المسلمين المتأثّرين بهم. وصنّف القسم الأوّل من كتابه ـ الذي سمّاه «كتاب المبتدأ في أخبار الأنبياء والملوك» وحذفه ابن هشام[٢] ـ اعتماداً عليهم واستعانة بمصادرهم. ويضاف إلىٰ ذلك أنّه أخذ أخباره من العرب قبل الإسلام، من مصادر قصصيّة موجودة في الحجاز، وطابعها القصصيّ واضح تماماً. ومع أنّ أُسلوبه حديثيّ لكنّه لم يذكر الأسناد في جميع الموارد، وإنّما أوردها في مواطن يتّصل أكثرها بعصر ما بعد الهجرة. وقبل ذلك يبدأ كلّ عنوان بلفظ «قصّة ...».

إنّ ألفاظاً غامضةً من قبيل: «حدّثني أهل العلم» أو «زعموا كذا» أو حتّىٰ إبداء الشكّ بذكر عبارة «الله أعلم» كلّ ذلك يدلّ علىٰ أنّه كان بحاجة إلى الإفادة من جميع ما حوله لإكمال عمله التاريخيّ، وهذا الأُسلوب ليس أسلوب محدّث طبعاً، بل أسلوب مؤرّخ يستهدي بكلّ دليل عندما يواجه قلّة المصادر لإتمام البنية التاريخيّة لبحثه. ومن ذلك الأشعار التي قدح فيها كثير من القدماء والجدد[٣]. وأسقط ابن هشام كثيراً من هذه الأشعار حتّىٰ زُعم أنّ الأشعار الموجودة في سيرته تبلغ خمس الأشعار التي كانت في النسخة الأصليّة لابن إسحاق[٤].

ونلحظ في مقابل ذلك أنّه أفاد من القرآن الكريم مفصّلاً، وذكر في كلّ باب الروايات الخاصّة بشأن النزول.

---

(١) *تاريخ بغداد* ١: ٢١١.

(٢) ذكر المقدسيّ أنّ «كتاب المبتدأ» لابن إسحاق أوّل مصنَّف من نوعه. *البدء والتاريخ* ١: ١٤٩.

(٣) نصّ ياقوت وابن النديم على اختلاق كثير من الأشعار الموجودة في السيرة. انظر: *معجم الأدباء* ٦: ٤٠٠؛ *الفهرست*: ٩٢؛ *طبقات الشعراء*: ٤ (ليدن) نقلاً عن *البحوث والمحاضرات*: ١٢٧، ١٢٨.

(٤) *موارد تاريخ الطّبريّ*، القسم الأوّل، ص١٤٧ عن: Noldeche-Schwally.Vol,2.P,188 .

إنّ الحديث عن توثيق ابن إسحاق أو قدحه من أكثر الموضوعات التي أثـارت ضجيجاً من نوعها. ولمّا كان بالمدينة اصطدم باثنين من فقهائها ومحدّثيها وهما مالك ابن أنس[١]، وهشام بن عروة[٢] لأسبابٍ ربّما المنافسة أحدها. من هنا اتُّهم بشـتّى التهم منها التشيّع والقدريّة[٣]. وتبع ذلك أنّ الكتب الرجاليّة أوردت أخباراً متباينة وأحكاماً متفاوتة حوله. ودافع عنه ابن حبّان في *الثقات*، وابن سيّد الناس بشدّة[٤].

وحريّ بالقول أنّ تهمة تشيّعه لا تصحّ بالمعنى المصطَلح هذا اليوم. ويُحتَمل أنّـه أُتّهم به لنقله بعض الفضائل ـ التي أسقط ابن هشام عدداً منها في السيرة الموجودة كحديث إنذار العشيرة، وذكرها الطبريّ عن طريق ابن إسحاق ـ ولا يمكن أن يعني هذا إلّا مودّة أهل البيت عليهم السلام ، وهو ما لا يرتضيه المذهب العثمانيّ المتسلّط على المدينة والشام. ووصفنا أمثال هؤلاء في موضع آخر بالشيعة العراقيّين، وهم ذوو درجات مختلفة طبعاً. وليس لنا أن ننكر ذِكرَ ابن إسحاق كثيراً من فضائل الإمام أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام في السيرة.

ووثّقه عدد كبير من المؤرّخين في نقل الأخبار فحسب، لا في الحلال والحرام[٥]. ويدلّ مثل هذا الضرب من إبداء الرأي علىٰ تسـامح السـلف في الأخـبار التـاريخيّة المنقولة. وأثنىٰ عليه الطبريّ ووثّقه، وهو الذي أخذ قسماً وافراً من أخبار السيرة

---

(١) كان ابن إسحاق يقول: أنا بيطار علم مالك. *الكامل في ضعفاء الرجال* ٦: ١٠٦. وكان مالك يقول أيضاً: ابن إسحاق دجّال من الدجاجلة.

(٢) يعود سبب خلافه مع هشام إلىٰ نقله روايةً عن زوجته ممّا أغضب هشاماً إذ كيف التقىٰ بها ابن إسحاق ونقل عنها؟

(٣) *تاريخ يحيى بن معين* ١: ٢٤٧. قيل: أقام الحاكم عليه الحدّ لاعتقاده بالقدر. *الكامل في ضعفاء الرجال* ٦: ١٠٦.

(٤) انظر: *عيون الأثر* ١: ٥٤ـ ٦٧.

(٥) *تذكرة الحفّاظ* ١: ١٧٣؛ *تاريخ يحيى بن معين* ١: ٦٠، ٢٢٥.

وما تلاها من مصنّفات ابن إسحاق[١]. وفي مقابل ذلك نقرأ عن ابن النديم البيّنة ميولُه الشيعيّة تماماً أنّه عَنَّفَ ابنَ إسحاق ورماه بائتثاره من اليهود، وتضعيف أهل الحديث إيّاه[٢]، واختلاقه شعراً وجعله في السيرة، وأنكىٰ من ذلك أنّه قذفه أخلاقيّاً[٣]. وكان الزهريّ ـ وهو من مشايخ ابن إسحاق ـ يقول فيه مادحاً: ما دام هذا الأحول ـ ابن إسحاق ـ في هذه الديار، فالعلم باقٍ[٤]. وكان شعبة يقول: لو كانت لي قدرة لحكّمتُ ابن إسحاق علىٰ جميع المحدّثين[٥].

وأشرنا من قبل إلىٰ أنّ علم المغازي تبلور في المدينة. وذهب بروكلمان إلىٰ أنّ أحاديث ابن إسحاق كلّها تعود إلىٰ أهل المدينة[٦]. وربّما لم ينقل ابن إسحاق عن الأشخاص الذين ذكرناهم فحسب، بل نقل أيضاً عن أُناس عاديّين مجهولين كانوا علىٰ صلة بالحوادث الواقعة في عصر رسول الله ﷺ لأسباب ما، بيد أنّ أساس عمله ـ على أيّ حال ـ رؤية خاصّة بلورت هذه الأحاديث؛ ونظراً إلىٰ أنّ عمل هؤلاء كان يقتصر على النقل بلا نقد وتلاعب في اللفظ عادةً فإنّ أهميّة دور الرواة الأُوَل يتبيّن أكثر فأكثر. وحسبنا أن ننقل أمثلةً من أسناد ابن إسحاق: «حدّثني صالح بن كيسان عن عروة بن الزبير عن عائشة»؛ «حدّثني عاصم بن قتادة، ذكر الزهريّ عن عروة بن الزبير عن عائشة»؛ «حدّثني يحيى بن عروة بن الزبير عن أبيه عروة»؛ «حدّثني محمّد بن عبد الله بن عامر بن زيد، عن بعض أهله»؛ «حدّثني نافع

---

(١) *المنتخب من ذيل المذيل*: ٦٥٤.

(٢) انظر: *الكامل في ضعفاء الرجال* ٦: ١٠٣. ويعود تضعيف أهلِ الحديث المؤرِّخينَ إلىٰ أنّهم غير متمسّكين بأُصولهم في نقل الروايات، بل لهم أُسلوبهم الخاصّ. ومن الطبيعيّ أنّهم لا يمكن أن يظلّوا في إطار الأسناد الصحيحة نوعاً ما لمزاولتهم عملاً تاريخيّاً.

(٣) *الفهرست*: ١٠٢.

(٤) *الكامل في ضعفاء الرجال* ٦: ١٠٥.

(٥) نفسه ٦: ١٠٧.

(٦) *تاريخ الأدب العربيّ* ٣: ١١.

مولىٰ عبد الله بن عمر عن ابن عمر»؛ «حدّثني عبد الرحمٰن بن الحارث عن بعض آل عمر أو بعض أهله».

ونقل ابن إسحاق روايات قليلةً عن الإمام الباقر عليه السلام أو عن طريق الزهريّ عن الإمام السجّاد عليه السلام، وهي محدودة. ويروي معمر بن راشد (م ١٥٤) الذي كان له دور في كتابة المغازي عن الزهريّ غالباً[١]. واستنتج الدوريّ خلال بحوثه في علم التاريخ عند العرب أنّ الزهريّ هو المؤسّس لمدرسة المدينة، وأنّ موسى بن عقبة وابن إسحاق كليهما كانا من تلاميذه. وعنده أنّ موسى بن عقبة يعتمد علىٰ عمل شيخه الزهريّ مع إضافات له في الوقت نفسه[٢]، وكذلك كان ابن إسحاق.

ونصّ غيب علىٰ أنّ المدينة استأثرت بالسيرة إلىٰ ما قبل القرن الثاني الهجريّ[٣]. وجمع ابن إسحاق سيرته في المدينة. ومن المحتمل أنّه قام بتدوينها في العراق آجلاً. واصطدم بمالك بن أنس وهشام بن عروة بالمدينة، واضطُرَّ إلىٰ مغادرة المدينة[٤]؛ بخاصّة لسخريته من علم مالك[٥]. وانتشرت سيرته في العراق. وذكر ابن سعد أنّه قرأ سيرته بالكوفة، ثمّ قرأها علىٰ جماعة في الجزيرة والريّ أيضاً[٦].

وأمضىٰ ابن إسحاق العقدين الأخيرين من حياته في العهد العبّاسيّ. وقيل إنّه أهدىٰ سيرته إلىٰ المنصور أو المهديّ يوم كان وليّاً لعهد أبيه. من هنا كان عليه أن يعيد النظر فيما يتعلّق بالعبّاس بن عبد المطّلب بشكل جزئيّ[٧].

ولم يصل إلينا النصّ الذي أعدّه ابن إسحاق بنحو تامّ، وإنّما في أيدينا تهذيبه الذي

---

(١) *تاريخ التّراث العربيّ، التدوين التاريخيّ*: ٩٢.

(٢) **بحث في *نشأة علم التاريخ عند العرب***: ٣٢، ٣٣ (النصّ الإنجليزيّ).

(٣) **دائرة *المعارف الإسلاميّة*** ٤: ٤٨٦. (٤) ***تاريخ بغداد*** ١: ٢٢٣؛ ***الجرح والتّعديل*** ١: ١٩.

(٥) ***تذكرة الحفّاظ*** ١: ١٧٣؛ ***الجرح والتّعديل*** ١: ١٩، ٢٠.

(٦) **متمّم *الطّبقات الكبرىٰ***: ٤٠٢.

(٧) ***المغازي الأولى ومؤلّفوها***: ٨١؛ مقدّمة كتاب ***السير والمغازي لزكّار***: ١٣، ١٤.

أنجزه عبد الملك بن هشام (م ٢١٣ أو ٢١٨). وأسقط منه ـ كما ذكر في المقدّمة ـ الموضوعات التي وجدها غير مرتبطة بالنبيّ ﷺ وكذلك بعض الأشعار[١]، وما استشنعه. وثمّة خلاف حول الموضوعات التي أسقطها فيما إذا كانت هامّة أم لا[٢]. وفي الوقت نفسه يجب أن نعبّر عن شكرنا علىٰ إمكانيّة تشخيص أقوال ابن إسحاق بدقّة، وعلىٰ وجود إضافات ابن هشام بآسمه.

وكان تهذيب ابن هشام المشهور بسيرة *ابن هشام* موضع اهتمام ومراجعة منذ البداية. فقد أفاد منه اليعقوبيّ. وشرحه عبد الرحمٰن السهيليّ (٥٠٨ ـ ٥٨١) شرحاً مفصّلاً طبع تحت عنوان *الروض الانف*. ومن الخليق بالذكر أنّ هدف السهيليّ شرح سيرة ابن إسحاق التي هذّبها ولخّصها ابن هشام، وعمد السهيليّ إلىٰ شرح الكلمات الغريبة، والعبارات العويصة، وتبيان الأنساب المشكلة، وإتمام ما ظلّ ناقصاً. وطُبع هذا الكتاب في مصر بتصحيح عبد الرحمٰن الوكيل، كما طُبع بالأوفسيت في بيروت عام ١٤١٢.

---

(١) تشتمل نسخة يونس بن بكير علىٰ أشعار لم ترد في متن ابن هشام. انظر: *البحوث والمحاضرات*: ١٣٠.

(٢) *بَزْمَ آوَرْدْ* (الشطيرة): ٩٧. وانظر: مجلّة *آيَنَه پژوهِش* (مرآة التحقيق)، السنة الثانية، العدد الخامس، مقالة «ابن هشام وسيره أوْ» [ابن هشام وسيرته] ٩ ـ ٣٠؛ وتدلّ موارد في السيرة علىٰ أنّ ابن هشام أضاف إليها أحياناً ما فيه مصلحة الإمام عليّ عليه السلام. منها أنّ صيحته عليه السلام في فتح حصن بني قريظة عجّلت في استسلامهم لحكم رسول الله ﷺ. انظر: *السّيرة النبويّة* ٣: ٢٤٠. ولفظ ابن هشام في الحذف: «... ممّا ليس لرسول الله فيه ذكر، وما نزل فيه من القرآن بشيء وليس سبباً لشيء من هذا الكتاب ولا تفسيراً له ولا شاهداً عليه لما ذكرت من الاختصار، وأشعاراً لم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها، وأشياء بعضها نشنع الحديث به، وبعض يسوء بعض الناس ذكره، وبعض لم يقر لنا البكائيّ بروايته». وممّا أسقطه ابن هشام بعض الأخبار المتعلّقة بالنبيّ ﷺ قبل البعثة، وخبر دور العبّاس بن عبد المطّلب ببدر! وكذلك خبر دعوة الإمام عليّ عليه السلام للإسلام، الموجود في نسخة يونس، ولم يرد في سيرة ابن هشام. وكذلك الخبر الوارد في كيفيّة إسلام أبي بكر.

وكتب أبوذر بن محمّد بن مسعود الخَشَنيّ (٥٣٣ ـ ٦٠٤) شرحاً أدبيّاً علىٰ سيرة ابن هشام أيضاً في جزء واحد[١].

وإذا استثنينا ما نقله ابن هشام عن طريق زياد بن عبد الله البكائيّ (م ١٨٣)، فإنّ الطبريّ نقل أخباراً كثيرةً من سيرة ابن إسحاق عن طريق محمّد بن حميد الرازيّ، وهو عن سلمة بن الفضل. وأفاد سلمة هذا من المتن الأصليّ الذي أعدّه ابن إسحاق للمنصور[٢]. والراوي الآخر لكتاب ابن إسحاق يونس بن بكير الذي أفاد منه ابن الأثير في *أسد الغابة*، وعُثر علىٰ قسم منه في مراكش أخيراً. وتولّىٰ تصحيحه محمّد حميد الله، ثمّ سهيل زكّار كلٌّ علىٰ حدة وطبعاه. وألحق يونس بن بكير بهذا القسم من سيرة ابن إسحاق أخباراً نقلها عن آخرين غيره[٣].

وبغضّ النظر عن نقطة الضعف الأساسيّة في سيرة ابن إسحاق، وهي توكّؤه البحت علىٰ أحاديث المدينة وانعكاس ذلك في المتن، فإنّها تتميّز بقوّة لافتةٍ للنظر في تماسكها الداخليّ واتّسامها بطابع تاريخيّ. ونظراً إلى الماضي المحدود لكتابة التاريخ، ينبغي أن نعدّ عمل ابن إسحاق خطوةً بالغة الأهميّة في تطوّر علم كتابة التاريخ الإسلاميّ. فقد أضفىٰ نظماً خاصّاً على الأخبار التاريخيّة، وانطلق بتفكير تاريخيّ في عرض الأخبار. وهو ـ علىٰ حدّ تعبير غيب ـ لم يكتب تاريخ النبيّ ﷺ فحسب، بل كتب تاريخ النبوّة كلّها[٤]. ولنا أن نحسبه أوّل محلّل لأخبار السيرة أيضاً، إذ قدّم في

---

(١) تصحيح بولص برونله، أوفسيت في بيروت، دار الكتب العلميّة.

(٢) *تاريخ بغداد* ١: ٢٢١.

(٣) *بَزْمَ آوَرْد*: ١٠٢ ـ ١٠٧. توفّر المؤلّف علىٰ تحليل رواية يونس بن بكير عن ابن إسحاق وهو جدير بالاهتمام. وانظر أيضاً: مقدّمة الدكتور مهدوي علىٰ سيرة رسول الله ﷺ. فقد عرّف الرواة المختلفين لابن إسحاق وطبع كتاب سيرة ابن إسحاق في قمّ بالأوفسيت أيضاً.

(٤) *دائرة المعارف الإسلاميّة* ٤: ٤٨٧.

بداية كثير من المباحث نوعاً من التلخيص التحليليّ، في حين نلحظ نقائص وأخطاء كثيرة في سيرته بسبب المصادر التي اعتمد عليها. وسيرته تعكس قسماً من أخبار السيرة لا جميعها، ذلك أنّ في سائر المدائن أخباراً أُخرىٰ عند صحابة كانوا هاجروا إليها، فلم يُفد منها. ويضاف إلىٰ ذلك أنّ الواقديّ وغيره، بتتبّعهم في المصادر الأوّليّة، دوّنوا موضوعات جديدة كثيرة في السيرة، وهي حقيقة باهتام الباحثين. وتواصل التتبّع في أخبار السيرة بعد ابن إسحاق، وانهمك محدّثون وأخباريّون كُثر في جمع هذه الأخبار، ولم يبق منها إلّا كتابات عدد من مشهوريهم.

وترجم شرف الدين محمّد بن عبد الله بن عمر سيرة ابن إسحاق إلى الفارسيّة ولخّصها في القرن السابع. وتولّىٰ أصغر مهدوي ومهدي قمّيّ نجاد طبعها تحت عنوان *سيرت رسول الله* بعد أن صدّراها بمقدّمة مفصّلة حول كتابة السيرة بعامّة، وسيرة ابن إسحاق بخاصّة[١]. وصدرت ترجمة أخرىٰ لها حملت نفس العنوان، وصاحبها رفيع الدين إسحاق بن محمّد الهمدانيّ أحد علماء القرن السابع[٢].

وكان لابن إسحاق كتاب آخر في *أخبار الخلفاء* وهو صغير، وبقيت منه بعض المنقولات[٣]. ومن الحريّ بالذكر أنّ خليفة بن الخيّاط أخذ أخبار الردّة والفتوحات من ابن إسحاق في كتابه *أخبار الخلفاء*[٤].

---

(١) طهران، شركت انتشارات علمى و فرهنگى [شركة الإصدارات العلميّة والثّقافيّة]، ١٤١٠هـ.

(٢) طهران، نشر مركز [إصدار مركز]، ١٤١٥هـ.

(٣) *تاريخ التّراث العربيّ، التدوين التاريخيّ*: ٩٠. انظر بشأن ابن إسحاق: *الطّبقات الكبرىٰ* ٧: ٣٢١، ٣٢٢؛ *المغازي الأولىٰ ومؤلّفوها*: ٨٤؛ *بزم آورد*: ٨١ ـ ١٠٧.

(٤) طبع شخص يدعىٰ N.Abbott قسماً من تاريخ الخلفاء لابن إسحاق. وفيما يأتي مواصفاته:

N. Abbott, Studies in Arabic Literary Papyrii. I. Historical texts, chicago U.P. 1957. pp. 80-100.

أبان بن عثمان البجليّ (م ح ١٧٠)

تذكره معظم المراجع باسم أبان بن عثمان الأحمر البجليّ. وجاء في المصادر الشيعيّة أنّه كان من موالي قبيلة بجيلة التي عُدّت من القبائل القحطانيّة، وله ميول شيعيّة أيضاً. وسمّته بعض المصادر أبان الأعرج[1]. ويلزم لفت النظر إلىٰ وجود رجل آخر غير أبان بن عثمان الأحمر، واسمه أبان بن عثمان بن عفّان، وهو نجل الخليفة الثالث. وبالتغاضي عن السنين التي حكم فيها المدينة، فقد زُعم أنّ له دوراً في أخبار السيرة النبويّة أيضاً. وأدّىٰ التشابه في الاسم إلىٰ إيهام البعض بجعل ابن عثمان بن عفّان مكان أبان الإماميّ المذهب. ومن هؤلاء فؤاد سزگين الذي ذكر أبان بن عثمان بن عفّان في كلامه عن كتّاب السيرة في العصر الأوّل وذهب إلىٰ وجود أخبار منقولة عنه في تاريخ اليعقوبيّ[2]، في حين أنّ المنقول عنه في تاريخ اليعقوبيّ هو أبان بن عثمان الأحمر. وسبب ذلك أيضاً هو ما نصّ عليه اليعقوبيّ نفسه أنّه راوٍ أخبارَ الإمام الصادق عليه السلام. ومن الطبيعيّ أنّ عُمْرَ ابنِ الخليفة الثالث الذي كان مع عائشة في حرب الجمل لا يقتضي أن يكون راوياً لأخبار الإمام الصادق عليه السلام. ويضاف إليه أنّ نظرةً علىٰ كتب الحديث الشيعيّة ومعرفة يسيرة لأحاديث أبان تدلّان علىٰ أنّ هذا الخطأ خبط وخلط في غاية الفداحة.

وأبان هذا من أصحاب الإجماع الذين «أجمعت العصابة علىٰ تصحيح ما يصحّ عنهم»، ولا يليق الشكّ في صحّة ما نُسب إليهم. وهذا أفضل دليل على الدرجة العلميّة الرفيعة لأبان بن عثمان وتوثيقه.

وكان أبان من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام، ونقل عنه عدداً كبيراً من الأحاديث بلا واسطة. مع هذا تلمذ لبعض الأعاظم من أصحاب الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام،

---

(١) انظر: *طبقات فحول الشعراء* ٢: ٤٨٢. (٢) *تاريخ التّراث العربيّ، التدوين التاريخيّ*: ٧٠.

ونقل عنهم أحاديث لا تحصىٰ لها. وربّما يعود هذا إلىٰ أنّه كان من الشباب بين أصحاب الإمام الصادق عليه السلام.

ولأبان كتابان أحدهما في السيرة، وسنواصل الحديث عنه؛ والآخر هو «الأصل» الذي ذكره الشيخ مجملاً، وفيه أحاديث فقهيّة واعتقاديّة كثيرة اشتملت عليها كتب الحديث عن ذلك الطريق أو بواسطة التلاميذ. هذا ما عدا العدد الكبير من التلامذة الذين ربّاهم.

وأهمّهم ابن أبي عمير الذي كان أبان من علية مشايخه. ومن رواته: محمّد بن زياد البياع، ومحمّد بن زياد الأزديّ، وحمّاد بن عيسىٰ، والحسن بن عليّ بن فضّال، وأحمد ابن محمّد بن أبي نصر البزنطيّ، وعليّ بن مهزيار، ومحمّد بن الوليد الصيرفيّ، وعبدالله ابن حمّاد الأنصاريّ، والحسن بن عليّ الوشّاء، ومحمّد خالد البرقيّ، والحسن بن محبوب، ويونس بن عبد الرحمٰن، وابراهيم بن أبي البلاد، وفضالة بن أيّوب الأزديّ، ومحمّد بن سنان، وعليّ بن الحكم. وكان أبان عالماً بأخبار الشعراء، وأيّام العرب، والأنساب مضافاً إلى الفقه والكلام الشيعيَّين. وعُرف عنه تخصّصه في السيرة النبويّة بالنظر إلى قابليّته العلميّة هذه. وكان يصطلح علىٰ أولئك الرجال يومئذٍ الأخباريّون. ولأبان في هذا المجال أيضاً تلامذة لامعون مشهورون.

وذكر الشيخ الطوسيّ والنجاشيّ أنّ أباناً عاش في البصرة مدّةً، وفي الكوفة أُخرىٰ. فسمع رجال مثل أبي عبيدة معمر بن المثنّىٰ ومحمّد بن سلام الجمحيّ «أخبار الشعراء والنسب والأيّام» منه في البصرة. وكتب العلّامة التستريّ: (هذا وأبو عبد الله محمّد بن سلام الذي قال في الفهرست والنجاشيّ: «أخذ عن أبان هذا» لم أعرفه، والمعروف أبو عبيد قاسم بن سلام، ويأتي في محلّه محمّد بن سلام لكنّه متأخّر. فقال الحمويّ في ذاك: «مات سنة ٢٣٢ فيشكل أن يأخذ عن هذا الذي من أصحاب الصادق عليه السلام).

ولا بدّ أن نقول بصراحة: إنّ تلمذة محمّد بن سلام وأبي عبيدة معمر بن المثنىٰ لأبان، وهما من الوجوه الأدبيّة البارزة في القرن الثاني والثالث الهجريّين، تدلّ علىٰ مكانته المرموقة آنذاك. ومن هنا ينبغي ألّا نعدّه محدِّثاً للأخبار الفقهيّة فحسب، بل كان عالماً متميّزاً، وأديباً مكيناً، ومؤرِّخاً ملمّاً بأخبار العرب وأيّامها.

ونظراً إلىٰ ما وصل إلينا من أخبار السيرة عن أبان، نقول: كان كتابه منذ البداية في متناول رجال من المحدِّثين والأخباريّين، بمعنى المؤرّخين، وإن كان ـ ككثير من مصنّفات الشيعة ـ قلّ ذكره في كتب المتقدّمين بسبب الإفادة المحدودة منها، حتّىٰ إنّ ابن النديم ـ في القسم الباقي ـ لا اسماً لكتاب مغازيه ذَكَرَ، ولا عن شخصه تَحَدَّثَ. بيد أنّ الشيخ الطوسيّ في كتابه *الفهرست* الذي عمد فيه إلى التعريف بمصنّفات الإماميّة ذكر كتابه، ولم يعرف له غيره مع نصّه على وجود أصل له. ولفظه بشأن كتابه كما يأتي:

(وما عُرف من مصنّفاته إلّا كتابه الذي يجمع «المبدأ والمبعث والمغازي والوفاة والسقيفة والردّة»). وكان هذا الكتاب في الأصل أقساماً يُذكَر كلٌّ منها تحت عنوان «كتاب»، لكن كلّها كتاب واحد كما نصّ الشيخ. وعرض الشيخ أسانيده المتعدّدة إلىٰ هذا الكتاب وأضاف قائلاً: «وهناك نسخة أخرىٰ أنقص منها رواه القمّيّون»[١]. وسنلحظ أنّ هذا الكتاب كان في متناول عليّ بن إبراهيم القمّيّ، ونقل منه في تفسيره غير مرّة.

وكان النجاشيّ عارفاً بالكتاب أيضاً. وقال فيه: «له كتاب حسن كبير يجمع المبتدأ والمغازي والوفاة والردّة»[٢].

---

(١) *الفهرست*: ١٨، ١٩.　　(٢) *رجال النجاشيّ*: ١٣.

وكرّر ياقوت اللفظ نفسه بشأن الكتاب، ولم يُشر إلىٰ أنّه رآه أو لم يره[١].

وكان الشيخ الطبرسيّ هو الشخص الوحيد الذي أفاد من كتاب أبان مفصّلاً وصرّح بذلك أيضاً. أمّا الذين أفادوا من الكتاب سواه، فقد اكتفوا بإسناد الرواية إليه عن طريق مشايخه، ولم يذكروا الكتاب نفسه. وصرّح أحمد بن محمّد بن واضح اليعقوبيّ وهو أحد المؤرّخين في العصر الأوّل لتدوين التاريخ العامّ أنّه أفاد من كتاب أبان. وكان في عداد المؤرّخين الذين لم يعرضوا التاريخ بطابع حديثيّ ـ أي: بشكل مسند ـ بل عرضه بجميع أخباره خالياً من ذكر السند. مع هذا قدّم فهرساً عامّاً لمصادره في بداية الجزء الثاني. ويُلحَظ اسم أبان في تضاعيف فهرسته. «وكان من روينا عنه ما في هذا الكتاب... أبان بن عثمان عن جعفر بن محمّد عليه السلام». وقلنا سابقاً أنّ فؤاد سزگين ذكر استناداً إلىٰ هذا الكلام أنّ لأبان بن عثمان بن عفّان كتاباً في السيرة أفاد منه اليعقوبيّ[٢]، في حين أنّ أبان بن الخليفة الثالث توفّي بين سنة ٩٥ و١٠٥ هـ، فمثله لا يمكن أن ينقل عن جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام. وهذا الخطأ ارتكبه عبد العزيز الدوريّ أيضاً[٣].

ونقل اليعقوبيّ في مواضع من تاريخه عن الإمام الصادق عليه السلام، لكن ينبغي الالتفات إلىٰ أنّه صرّح في فهرس مصادره أنّه نقل روايات عن جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام بواسطة أبي البَختريّ. وحينئذٍ لا يمكن أن يكون كلّ ما نقل في هذا الكتاب عن الإمام الصادق عليه السلام هو بواسطة أبان. وفيما يأتي المواضع التي نقل فيها اليعقوبيّ عن الإمام الصادق عليه السلام بواسطة أبان أو أبي البختريّ:

١ ـ مطلب حول ولادة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الثاني عشر من شهر رمضان (ج٢، ص٧).

---

(١) معجم الأدباء ١: ١٠٨، ١٠٩.

(٢) *تاريخ التّراث العربيّ*، *التدوين التاريخيّ*: ٧٠.

(٣) بحث في *نشأة علم التاريخ عند العرب*: ٢٠، ٢١.

٢ ـ خبر يذكر أنّ المدّة بين زواج عبد الله بآمنة وولادة رسول الله ﷺ عشرة أشهر (ج ٢، ص ٩).

٣ ـ خبر يُبين أنّ أوّل مرّةٍ نزل فيها جبرئيل عليه السلام علىٰ رسول الله ﷺ كانت في يوم الجمعة العشرين من شهر رمضان. لذلك اتّخذ المسلمون يوم الجمعة عيداً (ج ٢، ص ٢٢، ٢٣).

٤ ـ خبر فيه أنّ معجزة كلّ رسول تناسب ما يشيع في زمانه من أمور خاصّة، وأنّ القرآن هو المعجزة بسبب انتشار السجع والخطابة وما شابهها إبّان المبعث النبويّ (ج ٢، ص ٣٥).

٥ ـ خبر حول نزول القرآن وانتظار رسول الله ﷺ إلىٰ أن نزلت آية القتال وبدأت الحروب. (ج ٢، ص ٤٤).

٦ ـ خبر حول كلام جبرئيل عليه السلام ساعةَ دفن رسول الله ﷺ، وأنّ الحاضرين كانوا يسمعون الصوت ولم يروا أحداً (ج ٢، ص ١١٤).

واشتمل تاريخ اليعقوبيّ علىٰ أخبار عدّة تُشبه تماماً ما نُقل عن أبان في المصادر الأُخرىٰ. ومثالها خبر بشأن خديجة عليها السلام، وهو مذكور في أمالي الشيخ المفيد أيضاً (ص ١١٠)، وأورده اليعقوبيّ في ص ٣٥ من الجزء الأوّل من تاريخه. وأشرنا إلىٰ أمثلة أُخرىٰ في الهامش.

ونلحظ إلىٰ جانب الأخبار الفقهيّة الوفيرة أنّ المصادر الحديثيّة في القرن الثالث والرابع نقلت أخباراً كثيرة عن السيرة النبويّة. وأهمّها *الكافي* للكلينيّ، و*تفسير القمّيّ*، وكتب الشيخ الصدوق، وبعض كتب الشيخ المفيد. فقد نقل المرحوم الكلينيّ بخاصّة في *الروضة* عدداً من أحاديث أبان في السيرة النبويّة. وفي أغلب الظنّ أنّ ما جاء في *الروضة* وفي *تفسير القمّيّ* أيضاً تكرار لكتاب أبان، خاصّةً أنّ الشيخ الطوسيّ أشار في *الفهرست* إلىٰ نسخة من الكتاب الذي «رواه القمّيّون». ونقل الشيخ الصدوق

في *علل الشرائع* و*الأمالي* أحاديث كثيرة عن أبان، يرتبط بعضها بتاريخ الأنبياء، وبعضها بسيرة رسول الله ﷺ.

ونقل الإمام أبو طالب يحيى بن الحسين بن هارون (٣٢١ ـ ٣٤٠) الذي كان من أئمّة الزيديّة في ديار الديلم وجيلان أخباراً عن أبان في مواضع عدّة من أماليه المسمّىٰ *تيسير المطالب*. وسند هذه الأخبار حتّىٰ أبان علىٰ وتيرة واحدة: «أخبرني أبي، قال: أخبرنا محمّد بن الحسن بن الوليد، قال: حدّثنا محمّد بن الحسن الصفّار، عن محمّد بن الحسين بن أبي الخطّاب، قال: حدّثنا جعفر بن بشير البجليّ، عن أبان ابن عثمان». ويمكن أن يكون هذا الاشتراك في السند في النقل عن أبان إشارةً إلى الاستهداء بكتابه.

وأورد الشيخ المفيد الذي يرد اسمه كأوّل شخص في أوّل طريق من طرق الشيخ الطوسيّ إلىٰ كتاب أبان أخباراً عن أبان أيضاً.

وكان المرحوم الطبرسيّ الشخص الوحيد الذي نصّ علىٰ أنّه ينقل عن كتاب أبان، وذلك في كتابه *إعلام الورىٰ* علماً أنّه حفظ لنا مقداراً كبيراً منه. ونقل أقساماً منه في فصل مغازيه بألفاظ نحو «وفي كتاب أبان» أو «قال أبان». وفي بعض المواضع يواصل كلامه إلىٰ عدّة صفحات، وهو من كتاب أبان لا محالة لأنّه ينقل مصادر موضوعاته في أغلب الموارد.

ومن المحتمل أنّه أفاد منه في تفسيره *مجمع البيان* أيضاً، لكنّ مواضع الإفادة غير معلومة فيه إذ يكتفي هناك بذكر اسم المَعصوم معرضاً عن نقل السند.

وكان كتاب *إعلام الورىٰ* عند ابن شهرآشوب الذي نقل عن كتاب أبان أيضاً بواسطته، ونلحظ بين الأحاديث التي نقلها ابن شهرآشوب عن أبان حديثاً واحداً حول ولادة رسول الله ﷺ لم يرد في *إعلام الورىٰ*، لكنّ مصدره في سائر المواضع هو هذا الكتاب نفسه وإن لم يُشر في كلامه إليه. وممّا يدلّ علىٰ ذلك أنّه في الوقت

الذي ينقل الموضوعات التي نقلها الطبرسيّ عن أبان، يذكر معها في مناقبه الموضوعات التي قبلها وبعدها، عن ابن إسحاق وغيره.

وأفاد الراونديّ في القسم المتعلّق بالمغازي من كتابه *قصص الأنبياء* من كتاب *إعلام الورىٰ* أيضاً، بيد أنّه لا إليه أشار ولا أباناً ذكر. وإنّما التشابه في الألفاظ يُثبت هذا الأمر.

ولم يرد في مصادر أهل السنّة إلّا خبر واحد عن أبان في السيرة. وهو خبر مفصّل يدور حول «عرض رسول الله نفسه علىٰ قبائل العرب». ونقل أبو نعيم الإصفهانيّ والبيهقيّ سندين له: أحدهما عن أبان بن عبد الله البجليّ عن أبان بن تغلب عن عكرمة عن ابن عبّاس عن عليّ بن أبي طالب. والآخر عن أبان بن عثمان بن أبان بن تغلب... الخ.

وكان كتاب المبتدأ هو القسم الأوّل من كتاب أبان. وهذا العنوان مأخوذ من «البدء والبدىءُ: الأُوَل» بمعنىٰ أخبار الأوائل أو المتقدّمين. والمصداق الخاصّ لأخبار الأوائل هو أخبار الأنبياء من عصر آدم عليه السلام فما تلاه. وكان المؤرّخون المسلمون يبدأون تاريخ الإنسان منذ ذلك الزمن. وهذا أمر كان متأثّراً بالتوراة وبالقرآن نفسه. ولوهب بن منبّه اليهوديّ الأصل الذي أسلم كتب ذات عناوين مختلفة مثل كتاب المبتدأ أو كتاب المبدأ أو كتاب المبتدأ والسيرة أو مبتدأ الخلق، وأفاد منها الثعلبيّ في تفسيره، ثمّ حوىٰ تاريخ الطبريّ ومصادر أُخرىٰ أشياء منها أيضاً. وذكر ابن إسحاق كتاب المبتدأ في بداية سيرته، وحذف ابن هشام ذلك القسم في تهذيبه. ونلحظ مثل هذه الأقسام في التواريخ العامّة كتاريخ اليعقوبيّ، وتاريخ الطبريّ. ونُقلت في هذه الأقسام أخبار عن أهل الكتاب عادةً، وهي من الأقسام التي تُدسّ فيها إسرائيليّات كثيرة علىٰ قول اليهود أو المصادر اليهوديّة. وذكر ابن النديم عدداً من الكتب بهذا

العنوان[١]. وأشرنا من قبل أنّ القسم الأوّل من كتاب أبان كان يُسمّىٰ «كتاب المبتدأ» أيضاً. ويمكن أن يشتمل عنوان الكتاب علىٰ كتاب مستقلّ، ويمكن أن يكون قسماً من كتاب، وإن كانت الأبواب الفقهيّة لأيّ كتاب تُعيَّن من خلال عنوان الكتاب.

وكان أبان قد أعدّ أخبار هذا القسم مستهدياً بروايات الأئمّة عليهم السلام وبالمصادر الأُخرىٰ أيضاً. لذلك لا يمكن الركون إلىٰ كلّ ما نقله. ولم نذكر في هذه المجموعة أخبار «كتاب المبتدأ». ذلك أنّ بالغ همّنا واهتمامنا هو السيرة النبويّة. ويضاف إليه أنّنا نشعر بأنّ نقل أخباره بلا نقدٍ وتمحيص عمل غير مستساغ. وفي الوقت نفسه عمدنا إلىٰ تقديم فهرس لهذه الأخبار الواردة في مختلف المصادر نقلاً عن أبان.

ومن الحريّ بالذكر أنّ بين المصادر اللاحقة كتابين هما *علل الشرائع* و*قصص الأنبياء* للراونديّ اختصّا بأكثر النقل من هذا الكتاب. ونلحظ بين الإرجاعات التالية أخباراً ربّما أُخذ أحدها من الآخر. بخاصّة أنّ هذا الموضوع يصدق علىٰ *بحارالأنوار* إذ ذكر أخبار *قصص الأنبياء* جميعها تقريباً. ووردت مطالب أُخرىٰ من كتاب *المبتدأ* في *تفسير القمّيّ*، و*تفسير العيّاشيّ*، وبعض مصنَّفات الشيخ الصدوق[٢].

ومن المؤسف أنّ سيرة أبان ليست بأيدينا، حتّى نتحدّث عن كيفيّة تدوينه لها. وفي حدود اطّلاعنا أنّه كان ينقل أخبار السيرة مُسنَدةً متأثّراً بمدرسة الحديث. والدليل علىٰ ذلك هو الأقسام الباقية منها، ويمثّل كلّ قسم خبراً مستقلّاً.

وحاول أبان بوصفه محدِّثاً شيعيّاً أن يدوّن سيرةً تتوكّأ علىٰ أخبار الأئمّة المعصومين. لذلك نلحظ أنّ معظم أخباره منقولة عن الإمام الصادق عليه السلام مباشرةً أو بواسطة بعض أصحابه، وتصل إلىٰ الإمام الصادق أو الإمام الباقر عليهما السلام. مع هذا نقل

---

(١) *الفهرست*: ٩٢، ١٠٦، ١٢٢.

(٢) ذكرنا فهرس هذه الموارد في مقدّمة كتاب *المغازي*.

بعض الأحاديث عن طرق عاديّة أيضاً لإتمام كتابه. علىٰ سبيل المثال، نقل عن أبان ابن تغلب عن عكرمة عن عبد الله بن عبّاس في مواضع مختلفة. وقد تأتي روايته مرسَلةً في بعض المواطن حتّىٰ لم يُذكَر فيها اسم المعصوم. فمن المحتمَل أنّه نقل خبراً عن غير الأئمّة المعصومين في مثل هذه الحالات.

ولمّا كان الطبرسيّ قد نقل قسماً كبيراً من هذه السيرة في كتابه *إعلام الورىٰ* ولم يذكر سنداً لأخباره، فلا يتسنّىٰ لنا أن نقدّم تحليلاً مفصّلاً لأسناد أبان في هذا الكتاب. مع هذا يمكن أن نقف علىٰ رصانة الكتاب ممّا بقي منه، وبنقله عن ثقات كزُرارة، وأبي بصير، ومحمّد بن مسلم، وأبان بن تغلب وأمثالهم.

وبالنظر إلىٰ أنّ جميع كتب السيرة المستقلّة التي صنّفها الشيعة قد ضاعت يا للأسف، فإنّنا نستطيع أن نعدّ هذا الحجم من الصياغة الجديدة لسيرة أبان خطوةً علىٰ طريق معرفة آراء الشيعة في السيرة النبويّة من جديد. وبذلتُ جهدي في إعداد المتن المذكور، وتولّت إصدارات مكتب الإعلام الإسلامي في قمّ طبعه.

محمّد بن عمر الواقديّ (١٣٠ ـ ٢٠٧)

كان محمّد بن عمر الواقديّ من المؤرّخين في العقود الأخيرة من القرن الثاني، وتخصّص في المغازي والفتوحات. وأمضىٰ فترة تعلّمه في المدينة، لكنّه رحل إلىٰ بغداد سنة ١٨٠ هـ، ومركزيّة بغداد كانت الباعث الرئيس في استقطاب مثل هذه الوجوه المشهورة إليها. وذكر ابن سعد أنّه كان من أهل المدينة، وقدم بغداد سنة ١٨٠ هـ. ثمّ ذهب إلى الشام والرقّة، ورجع إلىٰ بغداد مرّةً أُخرىٰ، وفيها نصبه المأمون قاضياً للعسكر بعد مغادرته خراسان إلىٰ بغداد. وظلّ قاضياً حتّىٰ مات ليلة الثلاثاء

الحادي عشر من ذي الحجّة سنة ٢٠٧ هـ[١].

وطعن عليه أهل الحديث لتمسّكه بالأساليب التاريخيّة، بخاصّة أنّ أصابع الانتقاد مُدّت إليه لتداخل أسناد أخباره وإعداده متناً واحداً من عدّة أسانيد. وذهب ابن عديّ إلىٰ أنّ متون أخباره غير مضبوطة، وضعفها واضح[٢]. ومن الطبيعيّ أنّ نهجه يتفاوت ونهج المحدّثين[٣]. ويرىٰ ياقوت أنّه موثّق في تاريخ الناس والسيرة والفقه والفنون الأخرىٰ بالإجماع[٤]! وكتب الذهبيّ أنّه ضعيف لكنّ الحاجة إليه في المغازي والتاريخ بيّنة. ونحن نذكر مصنّفاته ولا نستدلّ بها![٥] وتحدّث ابن سيّد الناس وابن كثير عنه بنبرةٍ دفاعيّة[٦]. ونلحظ بين علماء الشيعة أنّ الشيخ المفيد ذهب إلىٰ أنّه كان يميل إلىٰ عثمان، كما كان فيه بعض الرغبة إلىٰ أميرالمؤمنين عليه السلام[٧].

وقيل إنّه كان من أعلم الناس بأخبار العصر الإسلاميّ ولم يعلم شيئاً عن الجاهليّة[٨]. وكتابه المهمّ الباقي هو *المغازي* الذي يدلّ علىٰ سعة عمله وتتبّعه الكثير الأحاديثَ من الهجرة حتّى الوفاة. ومقايسته بسيرة ابن إسحاق تُبينُ جلالة كتابه جيّداً حتّىٰ إنّه يترجّح علىٰ سيرة ابن إسحاق كثيراً في عرض التفاصيل والحوادث الكبيرة والصغيرة. وشرع الواقديّ يحقّق في مغازي رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم مستعيناً بجميع المصادر الشفويّة والتحريريّة، وأكمل معلوماته بذهابه إلى المناطق التي جرىٰ فيها القتال، وأخذه الأخبار من نسّابي القبائل. ونُقل أنّ شخصاً رآه يحمل إناء ماء وهو

---

(١) *الطّبقات الكبرىٰ* ٧: ٣٣٥.
(٢) *الكامل في ضعفاء الرجال* ٦: ٢٤٣.
(٣) انظر: مقدّمة حمد الجاسر على *المناسك* للحربيّ: ١٠٠.
(٤) *معجم الأدباء* ١٨: ٢٧٩.
(٥) انظر: *تهذيب الكمال* ٢٦: ١٩٤.
(٦) *عيون الأثر* ١: ٢٦؛ *البداية والنّهاية* ٣: ٢٢٤.
(٧) *قاموس الرجال* ٨: ٣٢٥.
(٨) *تاريخ بغداد* ٣: ٩.

يريد السفر. فسأله عن مقصده. فأجاب: حُنين ليرىٰ عن قُرب المنطقة التي جرت فيها غزوة حنين[١].

وتدلّ بعض أسناد *المغازي* علىٰ أنّ الواقديّ أفاد من المصادر المتداولة، كما يُحتَمل أنّه أفاد من المصادر المدوَّنة أيضاً كالذي نقله عن الزهريّ. لكنّه أفاد من معلومات عائليّة في بعض المواضع كقوله: «حدّثني محمّد بن الحسن بن أُسامة بن زيد عن بعض أهله...» ولابدّ أن يكون أخذ هذا الخبر من أعقاب أُسامة بن زيد. ومثله لا يُستبعَد من الحياة القبليّة للعرب، إذ إنّ سنّة تدوينهم تاريخَ الجاهليّة كانت تتمثّل في حفظ أخبار الأجداد بين الأجيال اللاحقة. والشيء العجاب هو أنّ الواقديّ لم ينقل شيئاً عن ابن إسحاق في قسم المغازي مع أنّه أخذ علمه من المدينة وقدم العراق أيضاً[٢]. فهل يمكن أن يكون أفاد منه ولم يذكر اسمه لطعن أهل الحديث عليه؟

ويضاف إلىٰ ذلك أنّ النواة الأصليّة لكتاب *الطبقات الكبرىٰ* الذي صنّفه ابن سعد هي في الحقيقة للواقديّ، وإن كان له كتاب أيضاً باسم الطبقات[٣] الذي أدرجه ابن سعد في كتابه. ونلحظ في جزء واحد متمّم للطبقات الكبرىٰ أنّ ابن سعد نقل عن الواقديّ مئةً وثلاثاً وأربعين مرّةً ممّا يدلّ علىٰ أنّه أورد قسماً كبيراً من *طبقات الواقديّ* ـ وربّما أورده كلّه ـ في طبقاته. وأخذ الطبريّ قسماً مهمّاً من معلوماته عن الواقديّ. وورد اسم الواقديّ في *تاريخ الطبريّ* (٣٨٧) مرّةً، وهذا معلَم علىٰ سعة إفادة الطبريّ منه، علماً أنّ قسماً من معلوماته نُقل عن ابن سعد، لكنّه ذكر بعض المطالب بقوله: «قال الواقديّ» وبلا إشارةٍ إلىٰ طريق خاصّ.

وذهب ابن النديم إلىٰ أنّ الواقديّ كان شيعيّاً، وكان يستعمل التقيّة، وعقيدته أنّ

---

(١) انظر: *مقدّمة كتاب الردّة*. (٢) *نشأة علم التاريخ عند العرب*: ٣١.

(٣) انظر: *معجم الأدباء* ١٨: ٢٨٢.

عليّاً عليه السلام معجزة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم[١]. ولم يحتمل غيره ذلك. ولا يُعلَم كيف نسب ابن النديم هذه العقيدة إليه وموقفه في قبول الآراء السنّيّة واضح لا غبار عليه؟

وعُدَّ ابنُ سعد كاتبه، وهو الذي وصفه بأنّه عالم بالمغازي، والسير، والفتوح، واختلاف الناس في الحديث والأحكام[٢]. وكان له كتاب في موقعة الجمل، نقل الشريف الرضيّ عنه إحدىٰ خطب الإمام أميرالمؤمنين عليّ عليه السلام[٣]. ووردت فقرات كثيرة منه في كتاب *الجمل* للشيخ المفيد[٤].

ونُسب إليه كتاب عنوانه *فتوح الشام* (طبعته دار الجيل في جزءين ببيروت وعليه اسم أبي عبد الله بن عمر الواقديّ!) ومعظمه حماسيّ، وأكثر مطالبه فاقدة للسند، بل أسناده غير مألوفة، لذا شُكَّ في نسبته إلى الواقديّ. وذهب بروكلمان إلىٰ أنّ البعض نسب إليه في أيّام الحروب الصليبيّة كتباً في الفتوح كانت قد كتبت بأُسلوب حماسيّ ليطمئنّ إليها الناس[٥].

وطُبع له أخيراً كتاب آخر بعنوان كتاب *الردّة* يُشبه كثيراً ما جاء في *فتوح ابن الأعثم* بشأن الردّة. ويمكن أن يدلّ هذا على ابن الأعثم نقل حوادث الردّة عن كتاب الواقديّ. مع هذا إنّ نظرةً على السند الأوّل للكتاب، وكذلك الوضع العامّ الذي يتّسم به، ومقايسته بأسلوب الواقديّ في *المغازي*، كلّ أولئك يولّد الشكّ في صحّة انتسابه إلى الواقديّ. وحينئذٍ يمكن أن يكون شخص قد رأىٰ قسماً من فتوح ابن الأعثم في مكانٍ ما ونسبه إلى الواقديّ!

---

(١) *الفهرست*: ١١١؛ *المغازي الأولىٰ ومؤلّفوها*: ١٢٤، ١٢٦.

(٢) *الطّبقات الكبرىٰ* ٥: ٤٢٢. (٣) *نهج البلاغة*: الخطبة ٢٣١.

(٤) انظر: *الجمل* للشيخ المفيد، تصحيح سيّد علي مير شريفي (فهرست أعلام): ٥٧٤. وأشار الشيخ في ص ١٣١ إلىٰ كتاب صنّفه الواقديّ في «حرب البصرة».

(٥) انظر: *تاريخ الأدب العربيّ* ٣: ٤٢٢.

ومرّ بنا أنّ الواقديّ عمل قاضياً في الحكومة العبّاسيّة فحصل بسبب ذلك على امتيازاتٍ خاصّة نوعاً ما[١]. وعدّته بعض المصادر من موالي العبّاسيّين[٢]، وبعضها من موالي بني سهم. وذهب ابن سعد إلىٰ أنّه كان من موالي عبد الله بن بريدة الأسلميّ[٣].

محمّد بن سعد (١٦٨ ـ ٢٣٠)

محمّد بن سعد بن منيع الزُهريّ البصريّ المشهور بكاتب الواقديّ من الموالي[٤]. أصله من البصرة، ثمّ قدم بغداد بعد فترة قصيرة، وشرع يتعلّم مع الواقديّ بوصفه كاتباً له. وطعن عليه أصحاب الحديث نوعاً ما كسائر المؤرّخين، في حين كان سنّيّاً متعصّباً كما يبدو من طبقاته بوضوح. كذّبه يحيى بن معين وأحمد بن حنبل، في وقت عدّه ابن النديم، وأبو حاتم، والخطيب، والذهبيّ، وابن حجر صدوقاً. وكان من العلماء البارزين في العقود الثلاثة الأُولىٰ من القرن الثالث. ولمّا طلب المأمون من العلماء جميعاً أن يقرّوا بخلق القرآن عام ٢١٨ هـ، دُعي ابن سعد إلى الرقّة مع سبعةٍ آخرين فأقرّ بذلك مع من أقرّوا[٥].

---

(١) ***الطّبقات الكبرىٰ*** ٥: ٤٢٦، ٤٢٧. وعُدَّ وصيّاً للمأمون، ***الطّبقات الكبرىٰ*** ٥: ٤٢٨.

(٢) ***وفيات الأعيان*** ٣: ٤٧٣. (٣) ***الطّبقات الكبرىٰ*** ٧: ٣٣٤.

(٤) أصدرت دار الغرب كتاباً صغيراً بعنوان ***ابن سعد وطبقاته*** لعزّ الدين عمر موسىٰ عام ١٤٠٧ هـ.

(٥) وهم أبو مسلم المستمليّ يزيد بن هارون، ويحيى بن معين، وزهير بن حرب، وإسماعيل بن داود، وإسماعيل أبي مسعود، وأبو إسحاق كاتب الواقديّ، وأحمد بن الدورقيّ. انظر: ***تاريخ الطبريّ*** ٨: ٤٣٤؛ ***الكامل*** ٦: ٤٢٣؛ ***البداية والنّهاية*** ١٠: ٢٧٢؛ ***ومقدّمة السلميّ على الطبقات الكبرىٰ***، الطبعة الخامسة: ٢٧. ومن الملاحظات الطريفة في هذه المقدّمة أنّ صاحبها حمل عملهم على التقيّة مستنداً إلى الآية ٢٨ من آل عمران، وهو من خرّيجي السعوديّة !!

وأشهر عمله هو كتابه *الطبقات الكبرىٰ* الذي عدّه حاجي خليفة أكبر مصنَّفٍ في طبقات الرواة[١]. وقدّم هذا الكتاب لأوّل مرّة معلومات جامعة واسعة عن الصحابة والتابعين والعلماء حتّىٰ زمانه[٢]. وعدد مشايخه في الطبقات قرابة مئتين وخمسين، ذكر منهم السليميّ في قسم الطبقة الخامسة تسعةً وتسعين مع ترجمة موجزة لهم[٣]. ووصل إلينا كتاب ابن سعد بواسطة تلميذَيه الحارث بن محمّد بن أبي أُسامة (م٢٨٢)، والحسين بن محمّد بن فهم (٢٨٩). وموضوعاته جديرة بالاهتمام كثيراً، وفذّة فريدة في مواضع جمّة. ونلحظ فيه أنّه يبدأ كلامه بمعلومات عن نسب المترجَم له، فهو في غاية الغُنم. ثمّ يتحدّث عن بِزّته وقدّه وزِيّه. وقلّما نجد مثل هذه المعلومات في المصادر الأُخرىٰ. وفي الحقيقة لابدّ أن نقول إنّه يضمّ أقدم معلومات شمائليّة عن النبيّ ﷺ والصحابة والتابعين قياساً بالمصنَّفات الموجودة[٤].

واختار ابن سعد أُسلوباً خاصّاً في تراجم الصحابة والتابعين، وذلك في ما عدا الجزءين الأوّلين اللذين وقفهما علىٰ سيرة رسول الله ﷺ. وجعل في أوّل وهلة قسماً للرجال، وآخر للنساء. والجزء الأخير من الكتاب في النساء. وأجزاؤه الأُولىٰ في الصحابة إذ قسمهم خمس طبقات، وأساسه في التقسيم تقدّمهم في الإيمان، وفضلهم وشرفهم في الإسلام. وأوّل طبقة هم البدريّون الذين بدأهم بقُربى النبيّ ﷺ (بني هاشم)، ثمّ واصل كلامه عن الآخرين منهم. وذكر أصلاء كلّ أُسرةٍ في البداية ثمّ لحقهم بحلفائهم ومواليهم. وبعد فراغه من المهاجرين البدريّين تحدّث عن الأنصار، فبدأ بالأوس ثمّ الخزرج. والطبقة الثانية من الصحابة هم قداماهم الذين لم يشهدوا بدراً، وفيهم مهاجرو الحبشة. والطبقة الثالثة منهم هم الذين شهدوا الخندق إلىٰ

---

(١) *كشف الظنون* ٢: ١٠٩٩.
(٢) *تاريخ الأدب العربيّ* ٣: ٣٢٠.
(٣) *الطّبقات الكبرىٰ*، الطبقة الخامسة: ٣٢ ـ ٥٤.
(٤) *نشأة علم التاريخ عند العرب*: ٣٢.

مسلمة الفتح الذين يمثّلون الطبقة الرابعة. والطبقة الخامسة هم الذين كانوا صغاراً إبّان وفاة النبيّ ﷺ ولم يشهدوا حرباً من الحروب[١].

وكان ابن سعد حديثيّ الأُسلوب، فجاءت أخباره مسندةً. وبلغت طبقاته في معلوماتها الاجتماعيّة والفرديّة من الأهميّة مبلغاً أنّنا لا نستطيع أن نُلمّ بالقرن الأوّل والثاني الهجريّين بدونها. ويضاف إلىٰ ذلك كلّه أنّ الكتاب المذكور عظيم الفائدة في محتواه لاشتماله علىٰ معلومات حول المدن المختلفة وحضور الصحابة والتابعين فيها وكذلك هجرة بعض القبائل إلىٰ شتّى المدن. وعلينا أن نعدّه كتاباً رجاليّاً أيضاً بمعناه المصطلح، لأنّه توفّر في تراجمه علىٰ مدح العلماء والمحدّثين أو ذمّهم، وتوثيقهم أو تضعيفهم.

وازدان القسم الأوّل من الكتاب بسيرة النبيّ ﷺ وعنوانه «أخبار النبيّ ﷺ» وكان منفصلاً عن أصل الكتاب ثمّ ألحقه أحمد بن معروف الخشّاب به[٢]. وتحدّث ابن سعد عن الأنبياء السابقين وتاريخ حياتهم بإيجاز، ثمّ سرعان ما بلغ التاريخ الإسلاميّ الذي تناول فيه بعض القضايا بنحو ملخّص، وليس فيه تفصيل ابن إسحاق أو الواقديّ.

وذهب ابن النديم إلىٰ أنّ طبقاته مأخوذة من مصنَّفات الواقديّ، والكلبيّ، وهيثم ابن عديّ، والمدائنيّ. وتدلّ نظرة في أسناد الكتاب علىٰ أنّ للواقديّ قسطاً كبيراً فيه. فهو يذكر اسمه فيه بين تارةٍ وأخرىٰ. وانصرف إلى التصنيف كأُستاذه، وذلك في الجزءين الأوّلين، وفي الطبقات علىٰ حدٍّ سواء، إذ كان للواقديّ كتاب في المغازي وفي الطبقات معاً. وقيل إنّ ٨٠٪ من أخبار الجزءين الأوّلين منقولة عن الواقديّ[٣].

---

(١) *الطّبقات الكبرىٰ*، الطبقة الخامسة: ٦٤. (٢) *المغازي الأُولىٰ ومؤلّفوها*: ١٢٧.

(٣) *إسهامات مؤرّخي البصرة في الكتابة التاريخيّة*: ٥٥ (بغداد، ١٩٩٠).

وذهب السليميّ إلىٰ أنّ حصّة الواقديّ في الطبقة الخامسة ٢٦٪. وشيخه التالي هو الفضل بن دكين الذي نقل عنه ١٠٪ من أخباره[١].

وأفاد ابن سعد أيضاً من مصنَّفات موسى بن عقبة، وأبي معشر عبدالرحمٰن بن نُجيح (م ١٧٠)، والوليد بن مسلم الأمويّ (م ١٩٥)، والفضل بن دكين في السيرة[٢].

وكان مقيّداً بذكر أسناد أخباره. وروعي هذا الموضوع حتّىٰ في الجزئيّات التي تتناول وصف الخصائص الشخصيّة للناس، وإن كان «تداخل الأسناد» ملحوظاً فيه أيضاً. وعدّه الذهبيّ صادقاً نقلاً عن أبي حاتم، وأراد ـ نقلاً عن الخطيب ـ أن ينسب ما قذفه به يحيى بن المعين من الكذب إلى الواقديّ، وفي جميع الأحوال ذكر بأنّه يوثق به[٣]. وله كتاب آخر تحت عنوان *طبقات الصغير*.

وطُبع كتاب *الطبقات الكبرىٰ* لأوّل مرّة بليدن في تسعة مجلّدات. ورُتِّب المجلّد الأوّل، والثاني، والثالث، والرابع، والسابع، والتاسع كلٌّ منها في جزءين. ثمّ طبعته دار صادر ببيروت مصدَّراً بمقدّمة إحسان عبّاس، ولا يختلف عن طبعة ليون في المقدار المطبوع ووجود النقص. فكلتاهما ناقصة. وطُبع قسم منه سنة ١٤٠٨ هـ مشتملاً على التابعين المدنيّين من ربع الطبقة الثالثة حتّىٰ منتصف الطبقة السادسة[٤]. ثمّ أورد الأستاذ المرحوم السيّد عبد العزيز الطباطبائيّ ترجمة الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام في مجلّة «تراثنا» (العدد ١٠ و ١١). وقدّمت دار الكتب العلميّة ببيروت طبعةً جديدةً للطبقات، ويشتمل علىٰ جزء متمّم أعدّه زياد محمّد منصور. وطبع محمّد بن صامل السليميّ قسماً آخر من القسم غير المطبوع للطبقات عام ١٤١٤ هـ،

---

(١) *مقدّمة الطبقات الكبرىٰ*، الطبقة الخامسة: ٣٣.

(٢) انظر مثلاً: *الطّبقات الكبرىٰ* ٤: ١٢٩. وأفاد خليفة بن الخيّاط من سيرة أبي معشر أيضاً، انظر: مقدّمة تاريخ خليفة بن الخيّاط: ١٨.

(٣) *تاريخ بغداد* ٥: ٣٢١؛ *ميزان الاعتدال* ٣: ٥٦٠.

(٤) *المدينة*، مكتبة العلوم والحكم.

ويضمّ ترجمةً للطبقة الخامسة من الصحابة، وذلك في جزءين، يحتوي الأوّل علىٰ ترجمة أولاد العبّاس والحسنين عليهما السلام، ويتناول الآخر عبد الله بن الزبير وعدّةً آخرين[١]. وذكر السليميّ أنّ صديقه عبد العزيز السلوميّ حقّق قسم الطبقة الرابعة من الصحابة. وتولّىٰ مهدوي دامغاني تفريسَ أربعة أجزاء من الطبقات. ونأمل أن تصدر الأجزاء الأخرىٰ بالفارسيّة أيضاً.

أبو سعد الخرگوشيّ (م ٤٠٧)

أبو سعد عبد الملك بن محمّد بن إبراهيم الخرگوشيّ الزاهد الواعظ المنسوب إلىٰ محلّة خَرْگُوش في نيسابور من العلماء والمحدّثين البارزين في النصف الثاني من القرن الرابع. وأورد السمعانيّ ترجمته ومشايخه، واكتفىٰ بالإشارة إلىٰ أنّ له مصنَّفات في علوم الشريعة ودلائل النبوّة وسِيَر العبّاد والزهّاد، انتشرت منها نُسَخٌ في شتّىٰ الأرجاء[٢]. وكان من مشايخ البيهقيّ صاحب *دلائل النبوّة*.

والكتاب الذي بقي له يحمل عنوان *شرف النبيّ* ﷺ. وعُرف من متنه العربيّ نسخة ناقصة وأُخرىٰ ملخّصة. أمّا ترجمته الفارسيّة فقد اضطلع بها نجم الدين محمود الراونديّ (كان علىٰ قيد الحياة في سنة ٥٧٧، ٥٨٥) في نسخ مختلفة طبعها محمّد رُوشَنْ (طهران، ١٤٠٢ هـ) تحت عنوان *شرف النبيّ* ﷺ وعدد صفحاته قرابة (٧٣٠) مع فهارس متعدّدة. والعنوان الآخر لهذا الكتاب هو *دلائل النبوّة*. ونقل أمين الإسلام الطبرسيّ في القرن السادس أخباراً عن كتاب *شرف المصطفىٰ*.

ونُظِّم الكتاب في سبعة وخمسين باباً. وهو يحتوي علىٰ أخبار متعلّقة بمعجزات النبيّ ﷺ والسيرة النبويّة. وتناول هذا الكتاب الذي يعدّ في نظم كتب «الدلائل»

---

(١) *الطائف*، مكتبة الصديق، ١٤١٤هـ. (٢) *الأنساب* ٢: ٣٥٠، ٣٥١.

نوعاً ما القضايا الخاصّة بالنبيّ ﷺ غالباً، ثمّ تاريخ الإسلام في عصره ﷺ، وشمائله، وأخلاقه، ومطايباته، وأسمائه، وشرفه ﷺ في القرآن. تلا ذلك حديث عن نسبه، وأقاربه ودلائل نبوّته ﷺ في الكتب السابقة. وهي من المباحث التمهيديّة في الكتاب، ثمّ استعرض الكتاب مباحث السيرة. وذكر المؤلّف سنداً في بداية كلّ باب، ويشتمل علىٰ مطالب ذلك الفصل. وبين الأبواب روايات بلا سند، وذكرت بلفظ «ذكروا» أو اكتفت بذكر اسم الراوي الصحابيّ كابن مسعود عن النبيّ ﷺ.

البيهقيّ (٣٨٤ ـ ٤٥٨)

أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقيّ من المحدّثين الكبار عند أهل السنّة. وهو مؤلّف كتاب *دلائل النبوّة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة*. ولد في منطقة من مناطق نيسابور تُدعىٰ خسروگرد، ونشأ في بيهق. ويمكن أن نعدّ من أهمّ مشايخه الحاكم النيسابوريّ (٣٢١ ـ ٤٠٥)، وأبا سعد الخرگوشيّ (م ٤٠٧)، وأبا عبد الرحمٰن السلميّ[١]. وأهمّ مصنَّف تركه هو *السنن الكبرىٰ*. وله مصنَّفات كثيرة في الحديث أيضاً.

وأشرنا في موضع آخر إلىٰ أنّ «تدوين الدلائل» كان من الاتّجاهات الخاصّة التي شاعت في كتابة السيرة خلال القرن الرابع. وهذه المصنّفات ألّفها الأخباريّون في الجواب عن الشبهات التي كانت مثارةً حول إثبات النبوّة. وأهمّها وأوسعها هو كتاب البيهقيّ المذكور.

وكتاب الدلائل هو كتاب حديثيّ ومصادره في الدرجة الأُولىٰ هي كتب الحديث كالكتب المعروفة بالصحاح. مع هذا أفاد من كتب *المغازي* أيضاً. ومن المصنّفات التي أفاد منها كتاب المغازي لموسى بن عقبة، ولم يصل إلينا منه إلّا فقرات. ولم ترد في

---

(١) ذكر محقّق *دلائل النبوّة* عدداً من مشايخه في مقدّمة الكتاب ج ١، ص ٩٤ ـ ١٠٩.

المصادر الأُخرىٰ بعض الروايات التي ذكرها مسندةً[١]. وجاءت روايات كثيرة لابن إسحاق في هذا الكتاب. وعلىٰ هذا الأساس يمكن أن نحصل علىٰ قسم من الموضوعات التي حذفها عبد الملك بن هشام من السيرة. والدقّة في أسناد هذا الكتاب يمكن أن تستبين الفقرات المفقودة لكثير من مصنّفات ذلك العصر، علىٰ شرط أن يتبيّن أيّ الأشخاص المذكورين في السند لهم كتاب في هذا المجال. وربّما ورد خبر من السيرة باسم يعقوب بن سفيان الفسويّ، وهو قسم من الجزء الأوّل المفقود من كتاب *المعرفة والتاريخ*. وترتيب كتاب الدلائل هو غير الترتيب الموجود في مصنَّفات المغازي، لكنّ محتواه أخبار تتعلّق بشخصيّة النبيّ صلى الله عليه وآله والسيرة بأيّ نحو كان. والدلائل في رأي البيهقيّ وغيره هي المعنى الخاصّ للمعجزة؛ من هنا أورد في القسم الأوّل من الكتاب معجزات الأنبياء السّابقين. ثمّ أشار بعد ذلك إلىٰ معجزة النبيّ صلى الله عليه وآله الخالدة المتمثّلة بالقرآن الكريم. تلاه حديث عن مولد النبيّ صلى الله عليه وآله والأخبار التي كانت قبل البعثة. وورد بعده كلام طويل حول شمائله صلى الله عليه وآله. ثمّ تطرّق إلىٰ أخلاقه وخصاله وسرد معجزاته بعد ميلاده مفهرَسةً. وتناول المبعث والأخبار التاريخيّة لهذا العصر. وتواصل هذا النسق حتّىٰ آخر الكتاب. وحاول المصنّف في كلّ قسم أن يفهرس معجزاته والأعمال الخارقة للعادة، التي بدت منه. وأصدرت دار الكتب العلميّة كتاب *دلائل النبوّة* بتصحيح عبدالمعطي قلعجي في سبعة أجزاء سنة ١٤٠٥ هـ. وينبغي أن ننظر إلىٰ كتاب *دلائل النبوّة* لأبي نعيم الإصفهانيّ المعاصر للبيهقيّ بهذا المعيار نفسه. وطبع هذا الكتاب مراراً أيضاً.

---

(١) *دلائل النبوّة*، المقدّمة ج ١، ص ٨٩.

تدوين السيرة بعد القرن الخامس

على الرغم من أنّ كتاب ابن إسحاق ومصنَّفات الواقديّ وابن سعد كانت في ذروة الكمال من حيث التدوين وتناسباً مع الظروف الزمانيّة، فإنّ معلومات كثيرة ما زالت تفتقر إليها سيرة ابن إسحاق لأسباب مختلفة. من هنا واصل المؤرّخون التحقيق والتتبّع بعده.

وللمدائنيّ (م ٢١٤) كتابات رائعة في بعض قضايا السيرة لم يبق منها اليوم أثر، لكنّ عناوينها تدلّ علىٰ محتواها. ومنها كتاب *تسمية الذين يؤذون النبيّ* صلى الله عليه وآله وسلم، كتاب *فتوح النبيّ* صلى الله عليه وآله وسلم، وكتب أخرىٰ[١].

وخصّص البلاذريّ جزءاً من *أنساب الأشراف* للسيرة النبويّة. ووقف ابن حِبّان البُستيّ الجزء الأوّل من كتابه الرجاليّ *الثقات* على السيرة النبويّة لكنّه قلّما نال اهتمام المؤرّخين، وإن خلا من موضوعات جديدةٍ تُذكَر. وصنّف ابن عبد البرّ *الدرر في السيرة*، وقيل إنّه تلخيص لمغازي موسى بن عقبة (م ١٤١). وألّف القاضي عياض (٤٧٤ ـ ٥٤٤) كتاب *الشفاء بتعريف حقوق المصطفىٰ*، ويدور معظمه حول شخصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحقوقه صلى الله عليه وآله وسلم على الأمّة. وهو في حديثه عن شخص النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أكثر منه في سيرته العلميّة أو السياسيّة. وكان هذا الكتاب يحظىٰ باحترام بالغ[٢]. وأصدرت دار الفكر بالقاهرة كتاباً بعنوان *نسيم الرياض في شرح الشفاء للقاضي عيّاض* لأحمد شهاب الدين الخفّاجيّ قبل عقود من الزمن. وللملّا علي القاريّ (م١٠١٤) شرح علىٰ شفاء القاضي عيّاض، ويوصف بأنّه أشهر شرح[٣]. وترجم

---

(١) *الفهرست*: ١١٣، ١١٤.

(٢) طُبع هذا الكتاب مراراً. والطبعة التي اعتمدنا عليها هي طبعة دار الفكر ببيروت، ١٤١٥هـ.

(٣) *التاريخ والمؤرّخون بمكّة*: ٢٧٣.

أبوبكر محمّد بهاروجي هذا الكتاب إلى اللغة الفارسيّة سنة ٩١٠ هـ[١].

وجعل ابن عساكر (م ٥٧١) الجزء الأوّل من كتابه *تاريخ دمشق* في السيرة النبويّة؛ كما صنّف ابن حزم *جوامع السيرة النبويّة* وهي سيرة موجزة. واعتمد في كتابه هذا علىٰ *تاريخ أبي حسّان الزياديّ*، و*سيرة ابن إسحاق*، و*مغازي موسى بن عقبة*، و*مغازي الواقديّ*، و*كتاب السير* لسعيد بن يحيى الأمويّ، و*أعلام النبوّة* لأبي داود السجستانيّ، و*أعلام النبوّة* لأبي جعفر أحمد بن قتيبة، و*الدرر* لابن عبد البرّ[٢].

وصنّف ابن القيّم (٦٩١ ـ ٧٥١) ـ وهو من السنّة المكثرين في التأليف وعلىٰ نهج ابن تيميّة ـ كتاب *زاد المعاد في هدىٰ خير العباد* في خمسة أجزاء (ومع الفهرس ستّة أجزاء)[٣]. وأشرنا قبل ذلك إلىٰ أنّ سبك هذه الكتب يتفاوت مع السِيَر الأُوَل. ويضاف إلىٰ ما تتحدّث به هذه الكتب عن شخصيّة النبيّ ﷺ أنّها تتناول الروايات الفقهيّة أيضاً فيتألّف منها كتاب يمكن أن يستعرض السيرة الفقهيّة، والعسكريّة، والقضائيّة وغيرها. وتضمّ مباحث الجزء الأوّل من هذا الكتاب نسب النبيّ ﷺ، وأولاده، وأعمامه، وأزواجه، ومواليه، وخدّامه، وكتّابه، ومؤذّنيه، وحرّاسه، وغزواته، ولباسه، وزواجه، وكيفيّة جلوسه، وكيفيّة حلق وجهه، وكيفيّة عباداته، وصلاته، الخ، وهذا المبحث الأخير أهمّها جميعاً. ويتكوّن الجزء الثاني من الزكاة، والصيام، والحجّ، وآداب السفر وتفاصيل أخرىٰ. أمّا الجزء الثالث فموضوعه الجهاد، إذ تناول الحروب والسرايا حسب ترتيبها التاريخيّ، ونلحظ هنا أنّ الاتّجاه الفقهيّ بالغ الأهميّة فيه أيضاً. وفي ختامه كلام حول الوفود. ويدور الجزء الرابع حول طبّ

---

(١) *ادبيات فارسي* [الأدب الفارسيّ]: ٧٦٨.

(٢) *ابن حزم الأندلسيّ وجهوده في البحث التاريخيّ والحضاريّ*، عبدالحليم عويس، القاهرة، الزهراء للإعلام العربيّ، ١٤٠٩هـ، ص١٥٢، ١٥٣.

(٣) بيروت، مؤسّسة الرسالة، ١٤١٢هـ.

النبيّ ﷺ وآداب حياته الخاصّة ومأكولاته ومشروباته وما شابهها. وخُصّص الجزء الخامس للحديث عن القصاص والأخبار التاريخيّة ـ الحديثيّة، وبحث النكاح، والطلاق، والبيع والشراء وأبواب مماثلة. ويُستَشَفُّ من هذا التقسيم أنّ المؤلّف نهج فيه أُسلوباً جديداً يتشكّل من الفقه والحديث والتاريخ.

ولعلّ أبرز مصنَّفٍ في السيرة من القرن العاشر هو كتاب *سبل الهدىٰ والرشاد* لمحمّد ابن يوسف الصالحيّ الشاميّ (م ٩٤٢). وله مصنَّفات أخرىٰ في التاريخ أيضاً منها: *عين الإصابة في معرفة الصحابة*[١]. وهذا المصنَّف في غاية الروعة سواءً في جمعه لما يتعلّق برسول الله ﷺ أم في نقده وتحليله وشرح ما صعب من الأخبار أدبيّاً. ويقع هذا الكتاب في عشرة أجزاء، وتولّى المجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلاميّة بمصر طبعه (طبع الجزء الأوّل منه سنة ١٩٧٢ م)[٢].

ويمكن الإفادة من نهج *سبل الهدىٰ* في تقسيم موضوعات السيرة من كلّ الجهات. فقد اعتمد صاحبه علىٰ كثير من المصادر فأبدع عملاً عظيماً في السيرة. وهو الذي ذكر في المقدّمة أنّه أفاد ممّا يربو علىٰ ثلاثمائة كتاب. وأورد عناوين بعضها في المقدّمة نفسها[٣]. وحاول أن يتفادىٰ نقل الأخبار الموضوعة المختلفة، ويذكر الألفاظ الغريبة العويصة عند نقل الأخبار التي تتضمّنها. وتدلّ نظرة على الكتاب وأبوابه إلىٰ أنّه لم يُصَنَّف مثله في تنوّعه حتّى الآن.

وما كتبه ابن الأثير وابن كثير في السيرة يُعدّ في الدرجة الثانية من المصادر. وموضوع الجزءين الأوّلين من *تاريخ الإسلام* للذهبيّ هو السيرة. ومن التصانيف

---

(١) *سبل الهدىٰ والرشاد* ١: ص ط.

(٢) أعدّت دار الكتب العلميّة المتخصّصة في تنضيد الحروف المطبعيّة لشتّى المصنّفات طبعةً أخرىٰ له في ثلاثة عشر جزءاً واضطلع بها ناشرون آخرون، ودخلت سوق الكتاب سنة ١٤١٤هـ.

(٣) *سبل الهدىٰ والرشاد* ١: ٤٠٣.

الأخرىٰ في هذا المجال إبّان القرن الثامن والتاسع *السيرة النبويّة* لابن سيّد الناس (م٧٣٤) في جزءين[١]؛ و*السيرة النبويّة* لابن كثير؛ والجزء الأوّل من *عيون التواريخ* لمحمّد بن شاكر الكتبيّ (٧٦٤)؛ و*إمتاع الأسماع* للمقريزيّ (م٨٤٥).

ويعتبر كتاب *السيرة الحلبيّة* أو *إنسان العيون في سيرة الأمين والمأمون*[٢] لعليّ بن برهان الدين الحلبيّ (٩٧٥ ـ ١٠٤٤) مصنَّفاً بديعاً في جمع الأخبار ورفع التناقضات خلال القرن الحادي عشر.

ومن المصنَّفات النافعة التي لا يُغفَل عنها *تاريخ الخميس* الذي يتناول القسم الأعظم منه السيرة النبويّة، كما يُلحَظ فيه تاريخ الخلفاء أيضاً، وتحدّثنا عنه في موضع آخر. وطُبع كتاب *المواهب اللدنيّة بالمنح المحمّديّة* لأحمد بن محمّد القسطلانيّ (م ٩٢٣) في ثلاثة أجزاء[٣]. وآخر الأعمال المنجَزة في هذا الميدان كتاب *السيرة النبويّة* لزيني دحلان (م ١٣٠٤)، وهو يذكّر بكتاب *السيرة الحلبيّة*[٤].

تحريف السّيرة

اجتمعت عوامل عديدة أدّت إلىٰ تحريف أخبار السّيرة، مع وجود الرّغبة الشديدة في المحافظة على السيرة النبويّة وتفاصيلها. ويمكن أن تكون هذه العوامل نابعةً من التكتّلات السياسيّة والمذهبيّة، وكذلك الخلافات القبليّة. كما أنّ إهمال علماء السّيرة فرزَ الأخبار الصحيحة، وجمعهم الغثَّ والسّمينَ أفضيا إلىٰ تغلغل انحرافات كثيرة في كتب السّيرة.

---

(١) تصحيح محمّد العيد الخطراويّ ومحيِ الدين مستو، دمشق، دار ابن كثير، ١٤١٣هـ.

(٢) بيروت، دار المعرفة. (سنة الطبع غير مذكورة).

(٣) تصحيح مأمون بن محيِ الدّين الجنان، بيروت، دار الكتب العلميّة، ١٤١٦.

(٤) صدرت الطبعة الأخيرة للكتاب في جزءين ببيروت، دار إحياء التراث العربيّ، ١٤١٦.

ينبغي الالتفات إلىٰ أنّ خلافات سياسيّة قد ظهرت بين قريش بعد وفاة النبيّ ﷺ. وأدّت التكتّلات السّياسيّة المتجذّرة في النزاعات القبليّة الماضية إلىٰ فصل مصالح كلّ تكتّل عن الآخر. ويمكن أن تبلور شدّة هذا النزاع، بعد تسلّط الأمويّين (٤١ هـ) ودفاعهم عن ميراث الخلفاء الأُوَل في مقابل أميرالمؤمنين عليّ عليه السلام والأنصار، موقف هذه الفئات من حوادث صدر الإسلام والتجمّعات المشاركة في تأييد النّبيّ ﷺ ومعارضته، وكلّ موقف متميّز عن الآخر. ونلحظ نماذج تدلّ علىٰ أنّ قسماً من هذه التّحريفات الموجودة في السّيرة نابعة من نزعة تحاول أن تعظّم بعض الأجنحة، وتحطّ من شأن البعض الآخر. علىٰ سبيل المثال نقرأ في التّاريخ أنّ هشام ابن عبد الملك الأمويّ (١٠٥ ـ ١٢٥ هـ) كتب رسالة إلى الأعمش ذي الميول الشيعيّة (م ١٤٨ هـ) طلب منه فيها أن يكتب له مناقب عثمان ومثالب عليّ علىٰ حدّ زعمه. فوضع الأعمش رسالة هشام في فم شاة، ثمّ كتب إليه أن لو كانت مناقب أهل الأرض كلّها لعثمان ومثالبهم لعليّ فلا ينفعك ولا يضرّك ذلك شيئاً[١].

وجاء في خبر آخر أنّ معمّراً سأل ابن شهاب الزُّهريّ عن كاتب صلح الحديبيّة. فقال: عليّ عليه السلام. ثمّ ضحك وقال: لو سألتَ هؤلاء (بني أُميّة) لقالوا لك: عثمان![٢] وذكرالمدائنيّ أيضاً أنّ ابن شهاب حدّثه قال: طلب منّي خالد بن عبد الله القُسَريّ (م ١٢٦) عامل الأمويّين على العراق يوماً أن أُصنّف له كتاباً في الأنساب. فبدأتُ بنسب مضر. فقال لي بعد مدّة: دعه واكتب لي السيرة. فقلتُ: وأخبار عليّ بن أبي طالب عليه السلام، أكتبها؟ قال: لا، إلّا أن تراه في قعر الجحيم![٣] كناية عن ذمّه.

---

(١) *شذرات الذّهب في أخبار من ذهب* ١: ٢٢١.

(٢) *المصنّف*، عبد الرزّاق ٥: ٣٤٣.

(٣) *الأغاني* ٢٢: ١٥. وقال الإصفهانيّ: لعن الله خالداً ومن والاه وقبّحهم وصلوات الله علىٰ أمير المؤمنين. ونقل مارسدن جونز هذا وقال: إنّ كلمة «السّيرة» طُرحت منذ ذلك الزمان. انظر: *مقدّمة المغازي*: ١٩.

النّموذج الآخر رواية تدور حول موقف مروان بن الحكم (حكومته من سنة ٦٥ إلىٰ سنة ٦٦ هـ) من أبي سعيد الخُدريّ. فقد روىٰ أبو سعيد عنده أنّ رسول الله ﷺ قال بعد نزول سورة الفتح: لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونيّة. فقال له مروان: كذبتَ. وعنده زيد بن ثابت ورافع بن خديج، وهما قاعدان معه على السرير. فقال أبو سعيد: لو شاء هذان لحدّثاك، ولكن هذا يخاف أن تنزعه عن عرافة قومه، وهذا يخاف أن تنزعه عن الصدقة. فسكتا. فرفع مروان الدرّة ليضربه، فلمّا رأيا ذلك، قالا: صَدَقَ![١]

وكان إصرار معاوية علىٰ إسقاط فضائل الإمام عليّ عليه السلام مؤثّراً في تحريف روايات السّيرة المرتبطة بدور الإمام عليه السلام. وعندما كان صَعْصَعة بن صوحان مصرّاً علىٰ نقل فضائل الإمام عليه السلام، قال له المغيرة بن شعبة حاكم الكوفة: ... فإنّك لستَ بذاكرٍ من فضل عليّ شيئاً أجهله، بل أنا أعلم بذلك، ولكن هذا السلطان (معاوية) قد ظهر، وقد أُخِذنا بإظهار عيبه للناس، فنحن ندع كثيراً ممّا أُمرنا به، ونذكر الشيء الذي لا نجد منه بدّاً، ندفع به هؤلاء القوم عن أنفسنا تقيّةً. فإن كنتَ ذاكراً فضله فاذكره بينك وبين أصحابك وفي منازلكم سرّاً![٢]

وخصّص ابن أبي الحديد فصلاً للأحاديث الموضوعة الّتي اختُلقت ضدّ الإمام عليّ عليه السلام بتحريض معاوية[٣]. وذهب أحمد أمين أيضاً إلىٰ أنّ معظم الأحاديث الّتي رويت في فضائل الصّحابة وُضعت في عهد بني أميّة تزلّفاً إليهم[٤]. ورواية البخاريّ أيضاً يمكن أن تسعفنا في هذا المجال، فقد نقل أنّ رجلاً سأل البراء بن عازب قائلاً: هل شهد عليّ عليه السلام بدراً؟![٥]

---

(١) *المصنّف*، ابن أبي شيبة ٧: ٤٠٧. (٢) *تاريخ الطّبريّ* ٥: ١٨٩.

(٣) شرح *نهج البلاغة* ٤: ٦٣.

(٤) فجر *الإسلام*: ٢١٣؛ مقدّمة شرح *نهج البلاغة* ١١: ٤٤.

(٥) *صحيح البخاريّ* [أو حاشية السّنديّ] ٣: ٥.

ينبغي أن نقول في مثل هذه الأجواء: إنّ ما نُسب في تضاعيف السّيرة ـ وهو أهمّ من كلّ شيء ـ إلى الصحابة المهمّين يجب أن يخضع للتّحليل والتّقويم. فعقيدة كتّاب السّيرة بعدالة جميع الصّحابة بخاصّة الخلفاء جعلتهم يتجنّبون ذكر ما يخالفها[١]. علىٰ سبيل المثال جاء في خبر أنّ رجلاً ذمّ المهاجرين إلى الحبشة بعد عودتهم منها بسبب بقائهم فيها. وهذه الرواية نقلها ابن أبي شيبة عن الشّعبيّ في موطنين، ورد في أحدهما اسم الرجل [عمر]، ولم يرد في الثاني. والسّبب هو أنّ رسول الله ﷺ عنّف المعترض بشدّة[٢]. وجاء في خبر آخر أيضاً أنّ أحد الصّحابة سأل النّبيّ ﷺ بعد الحديبيّة معترضاً: أَوَ كان هذا فتحاً؟ فأجابه النّبيّ ﷺ: نعم[٣]. ونقلت هذه الرواية عن طريق الزّهريّ أيضاً، وذكر فيها اسم عمر بوصفه المعترض مكان «أحد الصّحابة»[٤].

وورد مثل هذا التّحريف في الرّواية المرتبطة بيوم الخميس؛ فقد جاء في خبر اسم الشّخص الّذي حال دون الإتيان بالكتف والدواة اللذين طلبهما النّبيّ ﷺ، في حين لم يرد اسمه في خبر آخر إذ اكتفىٰ ناقله بكلمة «قالوا»[٥]. وكان للكتّاب والرّواة الأُوَل لكتب السيرة دور في بعض التّحريفات. وذكر مارسدن جونز محقّق كتاب *المغازي* للواقديّ المتوفّىٰ سنة ٢٠٧ هـ أنّ النسخة الّتي جعلها أصلاً في طبع الكتاب وفيها أسماء الفارّين يوم أُحد تخلو من اسم الخليفة الثّاني والثّالث. بينما ورد اسماهما في *شرح نهج البلاغة* لابن أبي الحديد نقلاً عن الواقديّ. أمّا البلاذريّ الّذي نقل عن الواقديّ أيضاً

---

(١) علىٰ سبيل المثال قال ابن هشام في خبر حول معتب بن قشير أنّه كان في عداد المنافقين يوم الخندق: لا يصحّ هذا لأنّه كان من أصحاب النّبيّ ﷺ في بدر. انظر: *السّيرة النّبويّة* ٣: ٢٢٢.

(٢) *المصنّف*، ابن أبي شيبة ٧: ٣٥١؛ *مقدّمة*: ٤١٥.

(٣) *المصنّف*، ابن أبي شيبة ٧: ٣٨٤.

(٤) *مجمع البيان* ٩: ١١٠.

(٥) *مقدّمة صحيح البخاريّ* ٤: ٧؛ ٢: ١٧٨؛ ٣: ٩١.

فقد ذكر اسم الخليفة الثالث فحسب[١]. وهكذا يتبيّن أنّ يد التحريف قد مسّت روايةَ الواقديّ.

معاداة الأنصار وتحريف السيرة

كان لمعاداة الأمويّين الأنصارَ تأثير كلُّ التأثير في تحريف السيرة، مع أنّ كثرة رواة الأنصار، وكذلك خفّة العداء لهم قد ثبّتا موقعهم في السّيرة كثيراً. ونصّت المـصادر علىٰ هجاء الأمويّين وشعرائهم للأنصار[٢]. وجاء فيها أنّ معاوية ويزيد كانا يحرّضان الأخطل علىٰ هجائهم[٣].

وبلغ موقف معاوية منهم حدّاً أنّه كان لا يستحسن لقب الأنصار لهم[٤]. وهـذا العداء ـ مضافاً إلىٰ أنّه شبّ بينهم وبين قريش الكافرة في عصر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كـان بسبب مقتل الخليفة الثالث في المدينة وخذلان الأنصار إيّـاه، وهـي الحـادثة الّـتي تداركها الأمويّون في واقعة الحرّة سنة ٦٣ هـ. ونتيجة هذا العداء في تدوين السـيرة رواية نقلها الزبير بن بكّار. وفيها أنّ سليمان بن عبد الملك قدم المدينة حاجّاً يوم كان وليّاً للعهد، وزار المعالم الإسلاميّة فيها. ورغب في تدوين السيرة النّبويّة. فأتاه أبان ابن عثمان بسيرته التي كان قد كتبها من قبل. ولمّا استُنسخ له الكتاب ولاحظه، رأى اسم الأنصار في بيعة العقبة وغزوة بدر، فقال: «ما كنت أرىٰ لهـؤلاء القـوم هـذا الفضل، فإمّا أن يكون أهل بيتي غمصوا عليهم، وإمّا أن يكونوا ليس هكذا... فأمر بذلك الكتاب فحُرّق... وقال: ما حاجتي إلىٰ أنسخ ذاك حتّىٰ أذكره لأبي عبد الملك... فإن يوافقه، فما أيسر نسخه. فرجع سليمان فأخبر أباه بالذي كان من قول أبان، فقال

---

(١) مقدّمة جونز على *المغازي* ١: ١٨.
(٢) *الموفّقيّات*: ٢٢٧، ٢٢٨.
(٣) *العقد الفريد* ٦: ١٧٠.
(٤) *الأغاني* ١٦: ٤٢ ـ ٤٨.

عبد الملك: وما حاجتك أن تقدم بكتاب ليس لنا فيه فضل؟[١] وهكذا يتبيّن أنّ الأمويّين لم يتحمّلوا فضائل أهل البيت عليهم السلام، وليس هذا فحسب، بل كانوا يستاءون من اسم الأنصار أيضاً إذا ذُكروا في بيعة العقبة أو في غزوة بدر، ويأمرون بحرق الكتاب الذي يذكرهم.

تأثير كتّاب السّيرة في التحريف

من الجدير بالذكر أنّه على الرغم من ضروب الإصرار علىٰ إخفاء الحقيقة، فقد بلغت الرواة اللاحقين حقائقُ جمّة دُوِّنت في كتب السّيرة. وفي الوقت نفسه كانوا يتلاعبون فيها زيادةً ونقصاً تبعاً لعقائدهم وأفكارهم وكذلك اتّجاهاتهم السياسيّة.

ذكر ابن هشام في بداية تهذيبه لسيرة *ابن إسحاق* أنّه حذف منها بعض المطالب، منها علىٰ حدّ قوله: «وأشياء بعضها يشنع الحديث به وبعض يسوء بعض النّاس ذكره»[٢]. وهذا الموقف أفضىٰ به إلىٰ أن يُسقط شعراً لأبي طالب عليه السلام يدلّ دلالة واضحة علىٰ إيمانه بنبوّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان ابن إسحاق قد رواه في سيرته[٣].

إنّ اختيار ما نُقل ـ في القرن الثالث وبعده ـ مُني بأشدّ الرّقابات الفكريّة والمذهبيّة. ونظرة علىٰ قسم المغازي في كتاب *البخاريّ* تدلّ علىٰ أنّ ما أُقِرَّ من الروايات بوصفه صحيحاً روايات تمّ تنقيتها من منطلقٍ مذهبيٍّ متعصّب. ورواة هذه الأخبار أشخاص معروفون من الصحابة والتابعين، وهؤلاء لم يقوموا بأيّ عمل قطّ في معارضة الأُمويّين، ولم تكن لهم سوابق تدلّ علىٰ أنّهم دعاة عدالة، بل كان بعضهم

---

(١) *الأخبار الموفّقيات*: ٣٣١ ـ ٣٣٤.

(٢) *السّيرة النبويّة* ١: ٤.

(٣) انظر: مجلّة *آينه پژوهش* [مرآة التحقيق]، السنة الثانية، العدد الخامس ابن هشام وسيره او [ابن هشام وسيرته]: ٢٠، ٢١.

في خدمتهم عدد سنين كابن شهاب الزّهريّ. وإذا كان آلاف الصحابة كلّهم عدولاً فمن الواضح أنّه لا ينبغي نقل رواية تمسّ عدالتهم، أو إذا نقلها الآخرون فيجب تركها جانباً.

يضاف إلىٰ ما يتعلّق بمصالح الأُمويّين أو ما ينطلق من اعتبار العقائد والأفكار كمعايير، فإنّ لمصالح الزبيريّين تأثيرها أيضاً في تدوين السيرة. فقد كان بعض كتّاب السّيرة من آل الزّبير، لذا ينبغي الاحتياط أكثر في المعلومات المرتبطة بهم، كالأخبار المنقولة حول وَرَقة بن نوفل أو الّتي تتحدّث عن دور الزّبير في الغزوات. وأحد هؤلاء الرّواة هو هشام بن عروة بن الزّبير الّذي كان من أساتذة ابن شهاب الزُّهريّ، ونقل أخبار السّيرة إمّا عن أبيه عروة، أو عن بعض موالي آل الزبير. ومصدر أخبار عروة عائشة خالته. ونتيجة لما كانت تحظىٰ به من نفوذ في العقود الأُولىٰ من الهجرة، فقد روت كثيراً من أخبار السيرة. وينبغي التريّث أيضاً في الأخبار المنقولة حول بني العبّاس ودور العبّاس نفسه في العصر الإسلاميّ الأوّل. وفي ضوء ما أشار إليه بعض الباحثين فإنّ ابن إسحاق ـ أهمّ مؤلّف في السيرة ـ أجرىٰ تعديلات علىٰ سيرته لمصلحة بني العبّاس[1]. ويعود ذلك إلىٰ أنّه أهدىٰ سيرته إلى المنصور أو إلىٰ ولده المهديّ.

الصّور القصصيّة في السّيرة

تتباين الرّواية القصصيّة لحادثةٍ ما عن الرواية التاريخيّة والحقيقيّة لها. وسبب هذا التّباين هو ما طرأ على الرّواية الحقيقيّة والتّاريخيّة من زيادة ونقصان، وأضفىٰ عليها صورة قصصيّة ورومانطيقيّة. وما يستلزم هذه الصورة هو بعض الانحرافات الّتي قد

---

(١) *المغازي الأُولىٰ ومؤلّفوها*: ٨١.

لا تكون متعمَّدة دائماً. ورغبة الناس العاديّين في الرّواية القصصيّة أدّت إلىٰ ازدهار عمل القصّاصين في صدر الإسلام. وكان تاريخ الأنبياء وحده يعرض في البداية بأُسلوب قصصيّ. ثمّ اتّخذت بعض حوادث السيرة طابعاً قصصيّاً علىٰ مرّ الزمن. وهنا لا بدّ أن نذكّر بأنّ تمييز الرّواية التّاريخيّة عن الرّواية القصصيّة متعذّر في نقطة واحدة تتمثّل في الحالات الّتي تتّخذ طابع الوحي، والمعجزة، والإخبار عن المستقبل ـ بخاصّة في تاريخ الأنبياء ـ وبكلمة: ما وراء الطبيعة. أمّا الّذين يقتصرون على الأفكار المادّيّة، ويخالون التاريخ مظهراً للعناصر المادّيّة، فإنّهم يحسبون كلّ رواية مشتملة علىٰ هذه العناصر قصصيّة، ويقرّون ببعدها التاريخيّ بعد إسقاط هذه العناصر. وينبغي أن نقول هنا: إذا كانت القضيّة قضيّة غيب أو وحي، فلا يحقّ لنا أن نعدّ هذه الحادثة رواية قصصيّة أبداً. وفي الحقيقة إذا كنّا نملك دليلاً كافياً علىٰ أصل وقوع مثل هذه الحادثة، فليس لنا أن ننكرها بسبب بُعدها الغيبيّ. أمّا في المواضع الّتي يتفوّق فيها الطابع القصصيّ، ويفقد السّند اعتباره وشأنه، وتقام الأدلّة ضدّه، فيتسنّىٰ لنا أن نمتري فيها، ومن ثمّ ننكرها بعد التحليل الدقيق للسّند والمتن.

إنّ من الثابت هو أنّ القصّاصين كان لهم نفوذ ملحوظ في المجتمع، وكانوا يجدّون في إضفاء الطّابع القصصيّ على الحقائق في كثير من المواضع، بل كانوا أحياناً يغيّرون البنية أو الهيكل العام لواقعة من الوقائع جملةً وتفصيلاً. وكان أبو أيّوب السختيانيّ يعتقد أنّ القصّاصين قد أفسدوا الحديث على الناس[١]. وذكر الذهبيّ (م ٧٤٨) قضيّة المعراج في جملة تحريفات القصّاصين في السّيرة[٢]. وكان صلة بن الحارث الغفاريّ يقول: ضاعت السّيرة والسّنّة بسبب القصّاص[٣]. علىٰ سبيل المثال روىٰ أحد

(١) *حلية الأولياء* ٣: ١١.

(٢) انظر: مقدّمة الدكتور السّامرّائيّ علىٰ كتاب *القصّاص والمذكّرين*: ٣٤.

(٣) *حياة الصّحابة* ٣: ٢٨١؛ *الإصابة* ٢: ١٩٣.

القصّاصين أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان قد رأىٰ صورة عائشة قبل أن يتزوّجها ثمّ نظر من نافذة ليرىٰ صاحبة الصورة![1] وكان المحدّث المشهور شعبة يقول: لا نحدّث القصّاص... قال: يأخذون الحديث منّا شبراً فيجعلونه ذراعاً[2]. وإلىٰ جانب هذا الموضوع ينبغي الإشارة إلىٰ أنّ الأخباريّين حاولوا بذهنيّتهم القصصيّة أن يختلقوا قصصاً لجميع مظاهر التّاريخ الجاهليّ والإسلاميّ. وكانت أذهانهم الفعّالة قويّة جدّاً في اختلاق القصص حتّىٰ إنّ قصصهم كانت ذات طابع أدبيّ. وعلينا أن لا ننخدع بالنثر الأدبيّ لقصصهم وأشعارهم الّتي يأتون بها. ومن المؤسف أنّ هذه القصص أصبحت منبعاً لكثير من التّحريفات الحقيقيّة في السّيرة. وقيل في سيرة أبي الحسن البكريّ أنّها لا يوثق بها لأنّ صاحبها كذّاب وقد اختلق قصصاً لا يُركَن إليها أبداً. ومعظم كتبه قصصيّة مثل: *رأس الغول*، كتاب *كُلُنْدجه*، وغيرهما. وكان عنوان كتابه في السّيرة *الذّروة في السّيرة النبويّة*[3].

إنّ أحد المجالات القصصيّة في السيرة هو الموارد الّتي نقلت فيها الأشعار علىٰ لسان الجنّ. وينبغي أن نذكّر هنا أنّ كلامنا لا يعني نفي وجود الجنّ، لأنّ القرآن الكريم ذكر وجودهم بصراحة (سورة الجنّ، الآية ١). فالموارد المعنيّة هي الأحداث الّتي لم يحضر فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وزعم أشخاص عاديّون أنّهم سمعوا الجنّ أو الشّيطان. علىٰ سبيل المثال، أنعموا النّظر في هذا الخبر: [عندما هاجر النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مع أبي بكر] مكثنا ثلاث ليال لا ندري أين توجّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتّىٰ أقبل رجل من الجنّ من أسفل مكّة يغنّي بأبيات من الشعر غناءَ العرب، والناس يتبعونه يسمعون صوته وما

---

(١) *القصّاص والمذكّرين*، ابن الجوزيّ: ١٠٦.

(٢) نفسه: ١٠٠ ـ ١٠٣. وتحدّثنا عن هؤلاء مفصّلاً في كتابٍ لنا تعريب عنوانه: (بحث في التأثير الدينيّ والاجتماعيّ للقصّاص في التاريخ الإسلاميّ).

(٣) *سبل الهدىٰ والرشاد* ٤: ٢٤؛ *ميزان الاعتدال* ١: ١١٢.

يرونه، حتّىٰ خرج من أعلىٰ مكّة، وهو يقول:

جَزَى اللهُ رَبُّ النَّاسِ خَيْرَ جَزَائِهِ   رفيقَيْنِ حَلّا خَيْمَتَي أُمِّ مَعْبَدِ

الراوي لهذا الخبر أسماء بنت أبي بكر، ونقله عنها ابن إسحاق [ويحتمل أنّه نقله عن طريق الزّهريّ، عن هشام بن عروة، عن عروة]. والأبيات الّتي تتلو البيت المذكور تتحدّث عن مكان الهجرة والإقامة(١). فهذه الرواية نموذج بيّن علىٰ موضوعات القصّاص، إذ وضعت من أجل اختلاق فضيلةٍ لأشخاص معيّنين. ويشهد متنها كلّه علىٰ كذبها. كما يحوم الشّكّ حول سندها ككثير ممّا نُقل عن ابن إسحاق، بخاصّة أنّها نقلت عن أسماء بنت أبي بكر. وأشار العالم الإسلاميّ المعاصر محمّد الغزاليّ إلىٰ أنّ عادة العرب في الجاهليّة أنّهم كانوا ينسبون بعض الأشعار إلى الجنّ، وذهب إلىٰ أنّ الخبر المذكور متأثّر بهذه العادة الجاهليّة(٢). وينبغي أن نُضيف إلىٰ أنّ بعض السّاسة المتأخّرين كانوا أيضاً ينسبون إلى الجنّ أعمالاً لم يروا مصلحة في إظهارها، كما كانوا ينسبون إليهم شعراً في دعمها(٣).

---

(١) ***السّيرة النبويّة***، ابن هشام ٢: ٤٨٧؛ ***تاريخ الطّبريّ*** ٢: ٣٨٠؛ ***السّيرة النبويّة***، ابن كثير ٢: ٢٥٥؛ ***المستدرك على الصّحيحين*** ٣: ١٠ (نقل عشرة أبيات)؛ ***مجمع الزوائد*** ٦: ٥٧؛ وانظر: ***الطبقات الكبرىٰ*** ١: ٢٢٩ ـ ٢٣١. ونقل البلاذريّ بيتين ونسبهما إلىٰ أحد الشّعراء، ***أنساب الأشراف*** ١: ٢٦٢.

(٢) ***فقه السّيرة***، الغزاليّ: ١٧٧، ١٧٨. ويرىٰ الغزاليّ أنّ الأبيات لشخص مؤمن في مكّة كان يكتم إيمانه. بيد أنّا لا نجد دليلاً علىٰ ذلك، والرواية من أصلها قصصيّة يقول الجاحظ في الاعتقاد بالهاتف: والأعراب وأشباه الأعراب لا يتحاشون من الإيمان بالهاتف بل يتعجّبون ممّن ردّ ذلك. (***الحيوان*** ٦: ٢٠٢، وعنه نقل صاحب ***المفصّل*** ٦: ٧١٦). وجمع ابن أبي الدّنيا مثل هذه الأخبار في كتاب عنوانه ***الهواتف***.

(٣) النّموذج المناسب هنا قتل سعد بن عبادة في أيّام أبي بكر ونسبة ذلك إلى الجنّ، ونقل بيتين عنهم في تعليل قتله. انظر: ***أنساب الأشراف*** ١: ٢٥٠؛ ***والمفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام*** ٦: ٧١٣. ووردت فيه نماذج من القتل كانت تنسب إلى الجنّ في العصر الجاهليّ.

ويلحظ دور الشّيطان والجنّ في وقائع أُخرىٰ أيضاً؛ منها حضور الشّيطان في مجلس مشورة عقدته قريش قبل الهجرة بقليل لاتّخاذ قرار جادّ بشأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فقد جاء في الرّوايات أنّ إبليس كان من بين الحاضرين، فاعترضهم في هيئة شيخ جليل عليه بتلة (الكساء الغليظ) وهو الذي أيّد الرأي بقتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[١]. ولم يتبيّن من الّذي شخّص أنّ الشّيخ الجليل هو الشّيطان الّذي ظهر في لباس رجل! ومن المحتمل أنّه كان مسافراً في مكّة [وقيل: كان نجديّاً] دخل في جمعهم يومئذٍ. وهذا الشّيخ النّجديّ كناية عن الشّيطان الّذي كان حاضراً أيضاً في نصب الحجر الأسود يوم كان عمر النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم خمساً وثلاثين سنة[٢].

وجاء في موضع آخر أنّه بعد أن بايع أهل يثرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في العقبة، صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوته سمعته يقول: يا أهل الجباجب (المنازل) هل لكم في مذمَّم[٣] والصباة معه؟[٤] قد اجتمعوا علىٰ حربكم. وأُضيف في هذا الخبر أنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: هذا أزب العقبة[٥]. وجاء في معنى الأزب أنّه اسم للشّيطان أو اسم آخر للثّعبان. ومن الطّبيعيّ أنّنا يمكن أن نؤيّد هذا الخبر بسبب وجود رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الحادثة، هذا إذا كان (أزب) بمعنى الشّيطان، واطمئننّا أنّ المقصود هو هذا نفسه، لا كناية عن بعض المشركين المحتالين. وثمّة نماذج أُخرىٰ من هذه الأخبار الّتي تتحدّث عن حضور الشّيطان أو الجنّ في لباس الإنسان أو في شكل هاتف يصيح

---

(١) *السّيرة النبويّة*، ابن هشام ٢: ٤٨١.

(٢) انظر: *تاج العروس*، الزّبيديّ، ذيل كلمة (نجد)؛ *الروض الأنف*، السهيليّ ١: ٢٩١؛ *المفصّل* ٦: ٧٣٤. وانظر: *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٥: ٦٠ للاطّلاع علىٰ نموذج آخر في واقعة أُخرىٰ.

(٣) إشارة إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

(٤) كان المشركون يسمّون من يسلم صابئيّاً.

(٥) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٢: ٤٤٢.

وينشد الشعر، لا مجال لتفصيلها هنا[١].

وذهب البعض إلىٰ أنّ الرّواية المربوطة برؤيا عاتكة قبل غزوة بدر من نوع القصص العاميّة الّتي رسخت في السيرة[٢]. ويبدو أنّ هذه النّظرة نابعة من عدم الاعتقاد بالرؤيا بعامّة. ويمكن أن نقبل متنها إذا كان سندها خالياً من الإشكال. والرّؤيا المذكورة ـ حتّى لو لم تكن ذات طابع ميتافيزقيّ ـ قابلة للتوجيه من الوجهة المادّيّة بالنظر إلىٰ ذعر قريش المحتمل من الحرب [وهو ما عبّر عنه بعضهم قبل الحرب]. وقد أُنكر أيضاً ما أورده جُهَيم بن الصّلت، إذ ذكر أنّه رأىٰ في اليقظة والنّوم فارساً وقف، وقال: قُتل عُتْبة، وشيبة، وأبو الحكم، وأميّة بن خلف... فقال فيه أبو جهل أيضاً: هذا نبيّ آخر [كعاتكة] من بني المطّلب بن عبد مناف![٣]

ينبغي ألّا ننكر مثل هذه الواقعة ببساطة. فهذه الحالات النفسيّة يمكن أن تكون لها موارد مماثلة كثيرة، حتّىٰ في اليقظة يضاف إليه أنّنا يجب أن ننتبه إلىٰ أنّ هذه الأخبار اتّخذت طابعاً قصصيّاً علىٰ تواتر الأيّام. ومن المحتمل أنّ لأصل روايتها التاريخيّة صورة أكثر تعقّلاً. ولا يتسنّىٰ لنا أن نتوكّأ على المفاهيم الواردة في الرواية في كثير من هذه المواضع، بل نكتفي بمضمونها العامّ.

التّطوّر في تدوين السّيرة

صُنِّف عدد من الكتب حول شخصيّة رسول الله ﷺ. منها الكتب الّتي اشتهرت بعنوان السيرة، وأهمّها سيرة ابن إسحاق، ومغازي الواقديّ. وكان الباعث علىٰ

---

(١) انظر: *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ١٩٠. ذكر العلّامة الأمينيّ خمسة عشر مورداً من الأشعار الّتي نُقلت بتعبير «سمعتُ هاتفاً يقول». وذهب إلىٰ أنّها كانت من معجزات النّبيّ ﷺ، ومن الطبيعيّ أنّها صارت سبباً في هداية الناس. انظر: *الغدير* ٢: ٩ـ١٦.

(٢) مقدّمة *المغازي*، مارسدن جونز: ٢٠.

(٣) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٢: ٦١٨؛ وانظر: *أضواء علىٰ كتب السّيرة*: ٥١.

تدوين هذه الآثار عرض صورة تاريخيّة للحوادث الواقعة في عصر صدر الإسلام، ومحورها شخصيّة النبيّ ﷺ. واتّخذ القسم الأوّل من هذه السّيرة عنوان **المبعث**، أمّا القسم الثّاني فاتّخذ عنوان **المغازي**. وجاء في أوّلها حديث حول ماضي العرب، وقريش وعقائد الجاهليّة وأفكارها. ويضاف إلى الكتب الّتي صنّفت تحت عنوان السّيرة آثار أُخرىٰ دوّنت بنزعات خاصّة حول شخصيّة النّبيّ ﷺ وحوادث صدر الإسلام. وورد عنوان كتاب **المغازي** ـ ما عدا القسم الأوّل منه ـ في كتب الحديث. ونلحظ في هذه المواضع عدداً من الأخبار الوثائقيّة حول الحروب. ونجد كتاب *المغازي* في مصنّف عبدالرّزّاق (م٢١١) وكذلك في *صحيح البخاريّ*، ويضمّ مصنّف ابن أبي شيبة (م ٢٣٥) أخباراً حول المغازي، وقد عُرضت فيه بأسلوب روائيّ. وفي بعض هذه الكتب مثل *صحيح البخاريّ* أخبار السيرة حتّى الهجرة، وذكرها البخاريّ مثلاً في سياق كتاب بدء *الخلق*. وفي كتاب **الجهاد** أيضاً موارد عديدة من هذه الأخبار التاريخيّة المتعلّقة بالغزوات، إلّا أنّ المستهدَف في مثل هذه الموارد الجوانب الفقهيّة لتلك الأحداث العسكريّة. ويُدعىٰ كتاب الجهاد أحياناً **كتاب السّير**. ونموذجه كتاب *السّير* لأبي إسحاق الفزاريّ (م ١٨٦).

إلىٰ هنا أشرنا إلىٰ نزعتين تاريخيّتين فقهيّتين تحويان معلومات حول السيرة النبويّة. وفُتح باب آخر علىٰ مرور الأيّام، وهذا الباب الجديد اتّخذ عنوان **دلائل** *النّبوّة*. وتتناول هذه الكتب، كما يُستشفّ من عناوينها، معجزات النّبوّة ودلائلها. وفيها مراجعة لحوادث السيرة، وحيثما وجدت مَعْلماً على الإعجاز والنّبوّة ذكّرت به كما ينبغي. وصوّرت السّيرة تصويراً غير طبيعيّ نوعاً ما.

ومن هذه الكتب **دلائل** *النبوّة* لأبي داود السجستانيّ (م ٢٧٥)؛ **وأعلام** *النبوّة* لابن قتيبة الدينوريّ (٢٧٦)؛ **ودلائل** *النبوّة* لابن أبي الدنيا (م ٢٨١)؛ **ودلائل** *النبوّة* لأبي إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربيّ (م ٢٨٥)؛ **ودلائل** *النبوّة* لأبي أحمد العسّال

(م٣٤٩)؛ ودلائل *النبوّة* لأبي الشيخ بن حيّان (م ٣٦٩)؛ ودلائل *النبوّة* لابن مندة (م٣٩٥)؛ ودلائل *النبوّة* لأبي سعيد الخرگوشيّ (م ٤٠٧) الخ[١].

وثمّة كتابان مهمّان في هذا الميدان أحدهما دلائل *النبوّة* لأبي نُعَيم الإصفهانيّ (م٤٣٠)؛ والآخر يحمل نفس العنوان لأبي بكر البيهقيّ (م ٤٥٨). وكان تصنيفهما في القرن الخامس. وقد تحدّثنا عنهما في موضع آخر. وألّف القاضي عبد الجبّار (م ٤١٥) كتاباً في دلائل النّبوّة تحت عنوان تثبيت دلائل *النّبوّة*، ويُلْحَظُ فيه البعد التّحليليّ أكثر من غيره.

فُتح في تدوين السّيرة باب رابع أيضاً يتناول البعد الأخلاقيّ في شخصيّة النّبيّ ﷺ، ويتحدّث عن شخصيّته وخصائصه مضافاً إلى البعد التّاريخيّ، والفقهيّ، والدلائل. ومن أهمّ الكتب الّتي يمكن أن نذكرها في هذا المجال كتاب *الشّفاء* بتعريف حقوق *المصطفىٰ* ﷺ للقاضي عيّاض بن موسى الأندلسيّ (دمشق، مكتبة الفارابيّ ومؤسّسة علوم القرآن الكريم). وكتاب *الخصائص الكبرىٰ* لجلال الدّين السّيوطيّ (تحقيق محمّد خليل هراس، مصر). وذكر السّيوطيّ في مقدّمته أنّ كتابه يشتمل علىٰ معجزات النّبيّ ﷺ وخصائصه المختصّة به. ومعظم هذه الكتب ولعلّها كلّها خالية من التحليل، ولا تحوي إلّا النقد والدّراسات المقتضبة. ويتركّز عمل أصحابها علىٰ نقل الأخبار وتنظيمها وتبويبها.

وكان أُسلوب آخر متّبعاً في تدوين السّيرة من القرن التّاسع حتّى القرن الحادي عشر. ويتمثّل هذا الأسلوب في جمع كافّة أخبار السّيرة. أمّا طريقة تبويبها فهي كانت على النحو المألوف يومئذٍ ولا سابقة لها. وذكر مؤلّفو هذا الضرب من الكتب في بدايتها نظرة خاطفة من السّيرة، ثمّ صنّفوا الأخبار المتعلّقة بالنّبيّ ﷺ موضوعيّاً.

---

(١) *دلائل النبوّة* ١: ٩٠ ـ ٩٢.

ويبدو أنّ المقريزيّ كان يحذو هذا الحذو في تأليف كتابه *إمتاع الأسماع*. ومن المؤسف أنّ الجزء الأوّل منه قد طُبع وهو يستعرض جميع أخبار السّيرة استعراضاً عامّاً. والكتاب الآخر هو سبل *الهدىٰ والرّشاد* الّذي يُذكَر أيضاً بعنوان *السّيرة الشّاميّة*. أمّا الأجزاء الثّلاثة الأُولىٰ منه تتناول أخبار السّيرة. وأمّا الجزء الرّابع والخامس فيشتملان على المغازي، والجزء السّادس يختصّ بالسّرايا. وأمّا الجزء السّابع والثّامن فيتحدّثان عن الموضوعات الخاصّة في حياة النّبيّ ﷺ. وألّف ابن القيّم الجوزيّة كتاب *زاد المعاد* الّذي تضمّ الأجزاء الثلاثة الأُولىٰ منه (من الطبعة الجديدة) نبذة تاريخيّة عن أخبار السيرة. أمّا الأجزاء الباقية فهي تتحدّث عن قضايا السيرة حسب التبويب الموضوعيّ.

وأفرزت الأعمال الجديدة في تدوين السّيرة كتباً بعنوان *فقه السّيرة* (أحدهما لمحمّد الغزاليّ، والآخر لرمضان البوطيّ) وهي تواكب فهماً جديداً للسيرة. وثمّة كتب صنّفت أيضاً وهي تتوخّىٰ تكوين فكرٍ ثمّ حكومةٍ، وجهادٍ علىٰ طريق إقامة هذه الحكومة مثل: *انقلاب تكاملى اسلام* [ثورة الإسلام التكامليّة] للأُستاذ جلال الدين الفارسيّ.

الشيعة وتدوين السيرة

قسط الشيعة في كتابة التاريخ الإسلاميّ كبيرٌ كبيرٌ. وينطبق هذا الأمر علىٰ شيعة العراق كأبي مخنف والكلبيّ وغيرهما كما ينطبق على الإماميّة بعامّة. وسنكتفي بإشارةٍ في هذا الباب ثمّ نعرّج على الكتب التي صنّفها الشيعة الإماميّة في السيرة النبويّة.

كان الأصبغ بن نباتة من أقدم الشيعة المصنّفين إذ كان له كتاب في مقتل الإمام

الحسين عليه السلام[١]. والآخر هو أحمد بن عبيد الله الثقفيّ، ومن كتبه: **كتاب المبيضّة في أخبار مقاتل آل أبي طالب**، **كتاب في تفضيل بني هاشم وذمّ بني أميّة وأتباعهم**[٢]. والثالث محمّد بن زكريّا بن دينار، ومن كتبه على ما روىٰ النجاشيّ: **الجمل الكبير**؛ **الجمل المختصر**؛ **صفّين الكبير**؛ **مقتل الحسين**[٣]؛ **كتاب النهروان**؛ **مقتل أميرالمؤمنين** عليه السلام؛ **أخبار زيد**؛ **أخبار فاطمة**[٤]. ومثالنا الآخر إبراهيم بن محمّد الثقفيّ الذي كان زيديّاً ثمّ صار إماميّاً، وله مصنّفات في التاريخ منها: **كتاب المبتدأ والمغازي والردّة**؛ **أخبار عمر**؛ **أخبار عثمان**؛ **كتاب الدار**؛ **الغارات** (وهو موجود الآن)؛ **أخبار زيد**؛ **أخبار محمّد النفس الزكيّة وأخوه إبراهيم**[٥]. ولجابر بن يزيد الجعفيّ مصنّفات في هذه المجالات أيضاً: **كتاب الجمل**؛ **كتاب صفّين**؛ **كتاب النهروان**؛ **كتاب مقتل أميرالمؤمنين** عليه السلام؛ **كتاب مقتل الحسين** عليه السلام[٦].

ومن الكتب التاريخيّة التي تركها عليّ بن الحسن بن عليّ بن فضّال: **كتاب الدلائل**؛ **كتاب الأنبياء**؛ **كتاب البشارات**؛ **كتاب الكوفة**[٧].

ومن المصنّفات التاريخيّة التي صنّفها عبد العزيز الجلوديّ الأزديّ الذي كان في عداد علماء الشيعة المعروفين في البصرة: **كتاب الجمل**؛ **كتاب صفّين**[٨]؛ كتاب

---

(١) *تنقيح المقال* ١: ١٥٠. (٢) *الفهرست*، ابن النديم: ١٦٦.

(٣) كان هذا الكتاب متداولاً في الأوساط الزيديّة برواية محمّد بن سليمان الكوفيّ. انظر: مقدّمة *مناقب الإمام أميرالمؤمنين* عليه السلام ١: ١٢. وأورد الكوفيّ في هذا الكتاب أيضاً خمسين فضيلةً من فضائل أميرالمؤمنين عليه الصلاة والسلام ـ ومعظمها تاريخيّ ـ عن محمّد بن زكريّا بن دينار. (انظر: الجزء الثالث من هذا الكتاب، ص١٧٧). (٤) *رجال النجاشيّ*: ٣٤٧.

(٥) نفسه: ١٨؛ وانظر: *لسان الميزان* ١: ١٠٢، ١٠٣؛ *معجم الأدباء* ١: ٢٣٣.

(٦) نفسه: ١٢٩. (٧) نفسه: ٢٥٨، رقم ٦٧٦.

(٨) نقل السيّد ابن طاووس عنه دعاءين في *مهج الدعوات* كان يدعو بهما الإمام أميرالمؤمنين عليّ عليه السلام قبل وقعة صفّين. انظر: *مكتبة ابن طاووس*: ٥٢٥.

الحكمين؛ *كتاب الغارات*؛ *كتاب الخوارج*؛ *كتاب ذِكر عليّ عليه السلام في حروب النبيّ* صلى الله عليه وآله؛ *كتاب مآل الشيعة بعد عليّ* عليه السلام؛ *أخبار التوّابين وعين الوردة*؛ *أخبار المختار*؛ *أخبار عليّ بن الحسين*؛ *أخبار أبي جعفر محمّد بن عليّ* عليه السلام؛ *أخبار عمر بن عبد العزيز*؛ *أخبار من عشق من الشعراء*؛ *أخبار قريش والأصنام*؛ *كتاب طبقات العرب والشعراء*؛ *كتاب خطب النبيّ* صلى الله عليه وآله؛ *كتاب خطب عثمان*؛ *كتاب رسائل عمر*؛ *كتاب رايات الأزد*؛ *كتاب مناظرات عليّ بن موسى الرضا* عليه السلام[١].

وكانت لأحمد بن إسماعيل بن عبد الله البجليّ الذي كان من أهل قمّ مصنّفات في التاريخ. ومن أهمّها *كتاب العبّاسيّ* الذي قال فيه النجاشيّ: «وهو كتاب عظيم نحو من عشرة آلاف ورقة من أخبار الخلفاء والدوله العبّاسيّة. رأيتُ منه أخبار الأمين. وكان في يد محمّد بن الحسن القمّيّ الذي نقل منه أربعة شواهد في *تاريخ قمّ*[٢].

وصنّف علي بن أحمد الجوّانيّ كتاباً في *أخبار صاحب فخّ*، وكتاباً في *أخبار يحيى بن عبد الله بن الحسن*[٣]. وكان لأحمد بن محمّد بن خالد البرقيّ المحدّث القمّيّ البارز كتاب في السيرة تحت عنوان *كتاب المغازي*. وله أيضاً مصنّفات تاريخيّة أُخرىٰ هي: *كتاب الشعر والشعراء*؛ *كتاب البلدان والمساحة*؛ *كتاب التاريخ*؛ *كتاب الأنساب*[٤].

وكان أَبان بن عثمان الأحمر البجليّ من أبرز المؤرّخين في عصر الأئمّة عليهم السلام. وسبق أن تحدّثنا عنه.

وبشأن تدوين السيرة عند الشيعة يمكننا أن نقول في التفاوت بين الرؤيتين الشيعيّة

---

(١) *رجال النجاشيّ*: ٢٤١، ٢٤٤.

(٢) *رجال النجاشيّ*: ٩٧، رقم ٢٤٢. انظر: كتابشِناسی آثار مربوط به قمّ [علم المصادر في المصنّفات المتعلّقة بمدينة قمّ]: ١٩. وهذه الشواهد المنقولة مذكورة في ص١٤٥، ٢٠٠، ٢٣٦، ٢٣٧ من *تاريخ قمّ*.

(٣) نفسه: ٢٦٣.

(٤) نفسه: ٧٦رقم ١٨٢.

والسنّيّة أنّ الشيعة تنظر إلىٰ حياة رسول الله ﷺ بنظرة أكثر قداسةً، وتجعل عصمته هي الأساس في رؤيتها. ومن الحريّ بالقول إنّ حالة الإعجاب بحياته ﷺ وإن كانت ملحوظةً تماماً في كتابة التاريخ عند السنّة لكنّ عصمته ﷺ بجميع أبعادها لم تنل نصيبها من الاهتمام. ومثال ذلك كتاب ألّفه أبوالفضل المشّاط[١] تحت عنوان *زلّة الأنبياء* ردّاً علىٰ كتاب *تنزيه الأنبياء* للشريف المرتضىٰ[٢]. وذكر التقابل بين هذين الفكرين المؤلّف الشيعيّ لكتاب *معتقد الإماميّة* في القرن السابع الهجريّ[٣]. وبلغ الأمر مبلغاً أنّ عالماً سنّيّاً آخر صنّف كتاباً في القرن الثالث تحت عنوان *معاصي الأنبياء*، وقد أنكره عليه المتكلّم السمرقنديّ المشهور أبو منصور الماتريديّ[٤].

وما ارتبط الأمر بالسيرة النبويّة، يجب أن نقول: إنّ تعليم المغازي كان في جملة تعاليم الأئمّة عليهم السلام. وأهمّ دليل علىٰ ذلك هو كلام الإمام السجّاد عليه السلام إذ قال: «كنّا نُعلَّمُ مغازي رسول الله ﷺ كما نُعَلَّم السورة من القرآن»[٥]. وبين أخبار الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام كثير من أخبار السيرة، وورد عدد وفير منها في المصادر المدوَّنة. علىٰ سبيل المثال نقل ابن إسحاق بعض الأخبار في سيرته عن الإمام الباقر عليه السلام. ويُلحظ قسم من هذه الأمثلة في *طبقات ابن سعد* أيضاً. ونجد بين المصنَّفات الشيعيّة قرابة ربع من *تفسير عليّ بن إبراهيم القمّيّ* في أخبار السيرة وتاريخ الأنبياء. وكان إجمال تدوينه الأخير من عدّة مصادر، وأفاد صاحبه من المصنَّفات المدوَّنة التي كانت سهلة المنال في القرن الثالث والرابع. فقد أخذ من كتاب المبعث والمغازي لأبان بن عثمان مثلاً. وهو من جملة المصنَّفات التي اقتصر قسم السيرة فيها علىٰ أخبار الإمامين الباقر

---

(١) كتاب *نقض*: ٣٤٤. (٢) نفسه: ١١.

(٣) *معتقد الإماميّة*: ٤٧ (طبعة دانِشْ بَزوه، طهران، ١٣٣٩ شمسيّ).

(٤) انظر: *ادبيات فارسى اسطورى* [الأدب الفارسيّ الأُسطوريّ]: ٧٢٥.

(٥) *الجامع لأخلاق الراويّ* ٢: ٢٨٨؛ *البداية والنّهاية* ٣: ٢٤٢؛ *سبل الهدىٰ والرشاد* ٤: ٢٠.

والصادق عليهما السلام تقريباً. ويشهد عليه إقحام تفسير أبي الجارود فيه، وجميع أخبار هذا التفسير منقولة عن الإمام الباقر عليه السلام، كما أنّ فيه مطالب من السيرة تناسباً مع شأن نزول الآيات. وتمتاز أخبار أبي الجارود عن سائر الأقسام. وأورد العلّامة المجلسيّ أخبار هذا الكتاب كلّها في مجلّدات تاريخ نبيّنا من *بحار الأنوار*.

والمثال الآخر كتاب *مبعث النبيّ* صلى الله عليه وآله وسلم *وأخباره* لعبد الله بن ميمون القدّاح الذي كان راوياً لأخبار الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام[1]. فهذه أمثلة على اهتمام الأئمّة والشيعة بأخبار السيرة. وكذلك كان اهتمامهم بتاريخ الإسلام عامّةً.

ونشير فيما يأتي إلىٰ عدد من المصنّفات التي دوّنت في شخصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولها بعد موضوعيّ غالباً.

كتاب صفات النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لوهب بن وهب (*رجال النجاشيّ*: ٤٣٠).

كتاب وفود العرب إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم للمنذر بن محمّد بن المنذر (ومن مصنّفاته الأُخرىٰ: *كتاب الجمل*، *كتاب صفّين*، *كتاب النهروان*، *كتاب الغارات*) (*رجال النجاشيّ*: ٤١٨).

مسألة في إيمان آباء النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لأبي يعلىٰ محمّد بن الحسن بن حمزة الجعفريّ (*رجال النجاشيّ*: ٤٠٤).

كتاب مسألة في معرفة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم للشيخ المفيد (*رجال النجاشيّ*: ٤٠٢).

كتاب زهد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، *كتاب أوصاف النبيّ* صلى الله عليه وآله وسلم، *كتاب في معرفة فضل النبيّ* صلى الله عليه وآله وسلم *وأميرالمؤمنين والحسن والحسين* عليهم السلام للشيخ الصدوق (*رجال النجاشيّ*: ٣٨٩، ٣٩١). وله أيضاً *كتاب في عبد المطّلب وعبد الله وأبي طالب* (*رجال النجاشيّ*: ٣٩٠).

---

(١) *رجال النجاشيّ*: ٢١٣.

كتاب البيان عن خيرة الرحمٰن في إيمان أبي طالب وآباء النبيّ ﷺ لعليّ بن بلال المهلبيّ الأزديّ (رجال النجاشيّ: ٢٦٥).

كتاب مبعث النبيّ ﷺ وأخباره لعبد الله بن ميمون القداح (النجاشيّ: ٢١٣).

كتاب وفاة النبيّ ﷺ لسلمة بن الخطّاب البراوستانيّ الاذدورقانيّ (النجاشيّ: ١٨٧).

كتاب الردّ علىٰ من زعم أنّ النبيّ ﷺ كان علىٰ دين قومه قبل النبوّة لجعفر بن أحمد بن أيّوب السمرقنديّ (النجاشيّ: ١٢١).

كتاب الردّ علىٰ من زعم النبيّ ﷺ كان علىٰ دين قومه لحسين بن إشكيب الخراسانيّ (النجاشيّ: ٤٤).

كتاب أخبار النبيّ ﷺ لأبي عليّ أحمد بن محمّد بن عمّار الكوفيّ. وكان له كتاب أيضاً عنوانه: كتاب إيمان أبي طالب (النجاشيّ: ٩٥).

كتاب ذكر النبيّ ﷺ والصخرة والراهب وطرق ذلك لأحمد بن محمّد بن سعيد السبيعيّ الهمْدانيّ (النجاشيّ: ٩٤).

كتاب فضل النبيّ ﷺ لأحمد بن محمّد بن عيسى الأشعريّ (النجاشيّ: ٨١).

كتاب سيرة النبيّ والأئمّة عليهم السلام في المشركين لحسين بن عليّ بن سفيان البزوفريّ (النجاشيّ: ٦٨).

كتاب الوفود على النبيّ ﷺ لحسين بن محمّد بن عليّ الأزديّ (النجاشيّ: ٦٥).

كتاب نسب النبيّ ﷺ، كتاب كُتُب النبيّ ﷺ، كتاب أخبار الوفود على النبيّ ﷺ لعبد العزيز الجلوديّ الأزديّ (النجاشيّ: ٢٤١ ـ ٢٤٤).

كتاب أسماء آلات رسول الله وأسماء سلاحه، وكتاب وفاة النبيّ ﷺ لعليّ بن الحسن بن عليّ بن فضّال (النجاشيّ: ٢٥٨).

كتاب المغازي لأحمد بن محمّد بن خالد البرقيّ (النجاشيّ: ٧٦).

المُنبئ عن زهد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لأبي محمّد جعفر بن أحمد بن عليّ القمّيّ ابن الرازيّ. ونقل عنه السيّد ابن طاووس في عدد من مصنّفاته[١].

كتاب *أسماء رسول الله* صلى الله عليه وآله وسلم لحسن بن خرزاد (*النجاشيّ*: ٤٤).

وظلّت السيرة النبويّة موضع اهتمام المجتمع العلميّ الشيعيّ حتّىٰ في القرون اللاحقة. بيد أنّ هذا الاهتمام كان منحصراً في الاطّلاع عليها، بخاصّة أنّه كان يعني الشيعة أكثر في المباحث الكلاميّة. يقول ابن أبي الحديد: حضرتُ عند محمّد بن معد العلويّ الموسويّ الفقيه علىٰ رأي الشيعة الإماميّة رحمه الله في داره بدرب الدوابّ ببغداد في سنة ثمانٍ وستّمائة، وقارئ يقرأ عنده مغازي الواقديّ، فقرأ: حدّثنا الواقديّ قال: ... إلىٰ أن بلغ خبر الواقديّ الذي يذكر فيه مَنْ فَرّ يوم أُحد مشيراً بكلمة فلان وفلان... فقال لي محمّد بن معد: يريد أبا بكر وعمر. فأنكرتُ عليه ذلك فقال: ليس في الصحابة من يُحتشَم ويُستحيا من ذكره بالفرار وما شابهه من العيب، فيضطرّ القائل إلى الكناية إلّا هما. قلت له: هذا وهم... فبان في وجهه التنكّر من مخالفتي له[٢].

ويُلحَظ بين مصنّفات ابن أبي طي، العالم والمؤرّخ الشيعيّ البارز في القرن السادس وأوائل القرن السابع كتابٌ في المغازي من ثلاثة أجزاء، لكن يؤسفنا أن لا أثر منه اليوم.

وللشيعة محاولات في تاريخ الأنبياء أيضاً. وأُنجز هذا العمل في المصنّفات التاريخيّة للمسلمين تحت عنوان *كتاب المبتدأ*. ويشمل هذا الاصطلاح تاريخ البشر منذ البداية إلىٰ ما قبل خاتم الأنبياء. وفي هذا المجال، يدلّ قسم كتاب المبتدأ والمبعث والمغازي لأبان بن عثمان الأحمر الذي ذكرنا موارده في مقدّمة كتابه *المبعث والمغازي* علىٰ أنّ

---

(١) *كتابخانه ابن طاووس* [مكتبة ابن طاووس]: ٤٤٩، ٤٥٠.

(٢) *شرح نهج البلاغة*، ابن أبي الحديد ١٥: ٢٣، ٢٤.

تقليداً كان سائداً بين الشيعة لتدوين مثل هذه الأخبار، علماً أنّ هذا المصنَّف يضمّ أخباراً أُخذ بعضها من مصادر إسرائيليّة لا يوثق بها طبعاً.

وجاء القسم المتعلّق بتاريخ الأنبياء متفرّقاً في المصادر الشيعيّة لكنّه واسع كثيراً. وذكر العلّامة المجلسيّ مجموعة هذه الأخبار في الجزء الحادي عشر إلى الرابع عشر من *بحارالأنوار*. ومعظمها ملحوظ في مصنَّفات الصدوق، و*تفسير عليّ بن إبراهيم القمّي*، و*تفسير العيّاشيّ*، وتفسير *مجمع البيان* وأمثالها، وكما قيل إنّ مثل هذه المصنّفات يضمّ كثيراً من أخبار أهل السنّة المأخوذة من أشخاص مثل كعب الأحبار، وعبد الله بن سلام، وبخاصّة وهب بن منبّه. ونقل ابن طاووس في *فرج المهموم* مطلباً عن كتاب عنوانه *قصص الأنبياء* قال إنّه لمحمّد بن خالد بن عبد الرحمٰن البرقيّ. ويبدو أنّ شخصاً آخر لم يُخبر عن هذا الكتاب. ومن بين المصنَّفات الباقية بشكل مستقلّ يمكن أن نشير إلىٰ كتاب *قصص الأنبياء* لقطب الدين الراونديّ (م ٥٧٣). وتولّىٰ مجمع البحوث الإسلاميّة في مشهد طبعه بتحقيق الأُستاذ غلام رضا عرفانيان. ويضاف إلىٰ ما يشتمل عليه من تاريخ الأنبياء أنّ قسماً منه يضمّ معجزات النبيّ ﷺ (الباب التاسع عشر من ص ٢٨٠ فما تلاها) وقسماً يتناول أحواله ﷺ وهو الباب العشرون من الكتاب، فلا بدّ أن ينال نصيبه من الاهتمام لهذه الجهة.

ولم يُشر الراونديّ إلىٰ مصادره، لكنّ الأسناد التي ذكرها تدلّ علىٰ أنّه لم يعتمد في معلوماته علىٰ كتاب معروف. ويُحتَمل أنّ قسماً مهمّاً من بابه العشرين مستلّ من تفسير عليّ بن إبراهيم القمّيّ.

وتلا الراونديَّ السيّد نعمةُ الله الجزائريّ (م ١١١٢) في كتابه *النور المبين في قصص الأنبياء*، وهو يدور حول قصص الأنبياء بخاصّة.

كتابة التاريخ والمؤرّخون من البداية حتّىٰ القرن الخامس

مرّ بنا أنّ سنّة كتابة التاريخ عند المسلمين سنّة قويّة فعّالة شاملة. وتطوّر هذا العلم سريعاً بتأثير أيّام العرب في الجاهليّة، والقَصص القرآنيّ وعلم الحديث، وتبلور بتركيبة من الأساليب المتداولة في العلوم الثلاثة المذكورة لبيان الحوادث التاريخيّة. ونشأ التاريخ في قسم من كتاباته في سبك الحديث، وعرض الأخبار في بعض المواضع بلا مراعاة للأُسلوب الحديثيّ، وبدون ذكر للسند.

إنّ ما يجب أن يُلتَفت إليه من وجهة أُسلوب العمل هو أنّ ظهور المصنَّفات التاريخيّة في مرحلتين زمنيّتين متباينتين اتّخذ طابعين. الأوّل: هو الأُسلوب الذي اختبر من القرن الأوّل وعلىٰ امتداد القرن الثاني وفي فترات من القرن الثالث، ويتجسّد في عرض الموضوعات التاريخيّة في قالب الكتابات التجزيئيّة التي استأثر كلّ منها بمبحث خاصّ. والعناوين العامّة التي كانت تُنتخَب لمثل هذه الكتابات هي: «أخبار»، «وقعة»، «مقتل»، وما شابهها. وهذا اسلوب اختاره بعض المؤرّخين في القرن الثاني كأبي مخنف، والمدائنيّ، والكلبيّ.

والثاني هو الأسلوب المتطوّر الذي انتُهج منذ أواخر القرن الأوّل وكثر استعماله في القرنين الثالث والرابع، ويتمثّل في كتابة المصنَّفات التاريخيّة علىٰ شكل تاريخ عام كلّيّ. وتعرض هذه الكتب القضايا التاريخيّة إمّا علىٰ أساس ترتيب الخلفاء أو بشكل تقويم سنويّ. واعتُمد في تدوينها علىٰ كثير من الكتابات التجزيئيّة وأُدرجت موضوعاتها في التاريخ العام. والمؤرّخون البارزون من الجيل الثاني هم خليفة بن الخيّاط، واليعقوبيّ، والدينوريّ، وأخيراً الطبريّ الذي صنّف تاريخه العظيم مستضيئاً بكثيرٍ من الكتابات التجزيئيّة.

ومن الواضح أنّ هذين الأُسلوبين يتعارضان، ولكلٍّ منهما مزاياه الخاصّة غابراً

وحاضراً. وكثير من المباحث الجزئيّة التي كانت تُطرَح في الكتابات التجزيئيّة لم يرد في التواريخ العامّة. وضاع حجم كبير من المعلومات التاريخيّة، بخاصّة في مجال التاريخ الثقافيّ والاجتماعيّ نتيجةً للانقطاع الذي طرأ في إعداد الكتابات التجزيئيّة في العصور اللاحقة. وتدلّ نظرة علىٰ الكتابات التجزيئيّة الداثرة للمدائنيّ، وأبي مخنف علىٰ عمق هذه المحنة الثقافيّة.

وينبغي الالتفات إلىٰ أنّ لبعض المؤرّخين في تلك الفترة أُسلوبهم الخاصّ بهم كالزبير بن بكّار الذي اتّخذ نهجاً خاصّاً في تأليف *الموفّقيّات*، أو محمّد بن حبيب الذي جمع في *المنمّق* و*المحبّر* كثيراً من الكتابات التجزيئيّة المتفرّقة لذريعةٍ ما. ويمكن أن نحدس من محتواها مدى الأهميّة البالغة التي كانت تتّصف بها هذه الكتابات التجزيئيّة.

أبو مِخْنَف (ح ٩٠ ـ ١٥٧)

وهو لوط بن يحيىٰ بن سعيد بن مخنف بن سُلَيم الأزديّ الذي كان من مشاهير المؤرّخين في القرن الثاني الهجريّ[١]. وثبت تشيّعه، لذا تركه أصحاب الحديث. وذكر ابن حِبّان أنّه كان رافضيّاً ويسبّ الصحابة[٢]. وأورد ابن عديّ أنّه كان شيعيّاً مفرطاً[٣]. وفي تركه عند أصحاب الحديث يجب أن نلتفت إلىٰ أنّه كان أخباريّاً ومؤرّخاً. ولم يوثّقه الذهبيّ لنزعته الأخباريّة[٤]. وفي مقابل هؤلاء أيّده الرجاليّون من الشيعة. وذكر النجاشيّ أنّ أبا مخنف كان شيخ الأصحاب في الكوفة ولنا أن نثق

---

(١) العجيب أنّ اليعقوبيّ ذكر اسم أبي مخنف في عداد الفقهاء الذين عاشوا أيّام المهديّ العبّاسيّ (عهده منذ أواخر سنة ١٥٨). انظر: *تاريخ اليعقوبيّ* ٢: ٤٠٣.

(٢) *لسان الميزان* ٤: ٣٤٤.

(٣) *الكامل في ضعفاء الرجال*: ٦، رقم ٢١١٠.

(٤) *ميزان الاعتدال*: ٣، رقم ٢٩٩٢.

بأخباره. ويروي عن جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام[١].

وكان جدّه مخنف بن سليم من صحابة النبيّ صلى الله عليه وآله[٢] والإمام عليّ عليه السلام. وشهد الجمل مع الإمام عليه السلام رئيساً لطائفة الأزد. وبعد ذلك ولّاه الإمام عليه السلام علىٰ إصفهان.

وتخصّص أبو مخنف في حوادث العراق[٣]، وله كتابات تجزيئيّة في معظم حروبه المهمّة. وتضمّ أكثر هذه الكتابات أخبار الشيعة، وبعضها في صراعات الخوارج وثورة عبد الرحمٰن بن محمّد الأشعث. وتدلّ نظرة علىٰ مؤلّفاته في فهرست ابن النديم علىٰ مراحل عمله في هذا المضمار[٤]. وتشمل هذه المراحل تقريباً القسم الأعظم من أخبار تاريخ الإسلام حتّىٰ أواخر العهد الأُمويّ. وجاء أكثر الأحداث المهمّة في تلك الفترة تحت عناوين مستقلّة في كتاباته التجزيئيّة[٥].

ومع أنّ أبا مخنف كان شيعيّاً، لكنّه حافظ علىٰ رحابة صدره اللازمة في نقل الأخبار، حتّىٰ نقل أهل السنّة أخباره أيضاً. وربّما أنكر ابن أبي الحديد تشيّعه لهذا السبب[٦]، وهو ما لم يؤيّده الآخرون. وفي رواية أبي مخنف موضوعات كثيرة تعدّ فريدةً في نوعها، من هنا فهي بالغة الأهميّة. وأفاد الطبريّ من كتاباته التي روىٰ

---

(١) *رجال النجاشيّ*: ٣٢٠، رقم ٨٧٥.

(٢) انظر: *مسند أحمد* ٢: ١٨٣، ٤: ٢١٥، ٥: ٧٦؛ *سنن النسائيّ* ٧: ١٦٧. ونُقلت في هذه المصادر أخبار حول كيفيّة قدومه علىٰ النبيّ صلى الله عليه وآله.

(٣) انظر: *معجم الأدباء* ١٧: ٤١. وتخصّص المدائنيّ في خراسان والهند وفارس، والواقديّ في الحجاز والسيرة. *الفهرست*: ١٠٦.

(٤) *الفهرست*: ١٠٥؛ وانظر: *النجاشيّ*: ٣٢٠.

(٥) *التاريخ العربيّ والمؤرّخون* ١: ١٧٨.

(٦) يقول ابن أبي الحديد: وأبو مخنف من المحدّثين وممّن يرىٰ صحّة الإمامة بالاختيار وليس من الشيعة ولا معدوداً في رجالاتها. *شرح نهج البلاغة* ١: ١٤٧.

أكثرها عن طريق الكلبيّ إفادة وافية. وتبلغ أخباره التي نقلها عنه (٥٨٦) خبراً[١]. وكذلك أفاد أبو الفرج الإصفهانيّ منه كثيراً في كتابَيه: **مقاتل الطالبيّين**، **والأغاني**[٢].

ومن أثمن أعمال أبي مخنف **مقتل الحسين** عليه السلام الذي نقل الطبريّ أكثر أخباره، ومن المؤسف أنّ أصله مفقود[٣]. أمّا مقتل الحسين عليه السلام المتداوَل هذا اليوم والذي أُعيد طبعه مراراً فهو منسوب إلىٰ أبي مخنف وموضوع عليه، ويتأيّد سقمه من خلال مقايسته بما جاء في **تاريخ الطبريّ**[٤]. وكذلك **مقتل المختار**، **وكتاب المختار وابن زياد** إذ هما من الموضوعات المنسوبة إليه، ولا ينسجم متناهما مع محتوىٰ ما نقله الطبريّ عنه[٥]. ومن الحريّ بالذكر أنّ رسالةً بعنوان **مولد عليّ بن أبي طالب** عليه السلام طُبعت باسم أبي مخنف أيضاً.

ويبدو أنّ ما نُسب إلىٰ أبي مخنف يماثل بعض الكتابات التاريخيّة التي وُضعت فيما بعد ونُسبت إلىٰ الواقديّ، ومعظمها في الفتوحات. وتقتني شتّىٰ المكتبات في العالم نسخاً كثيرة من كتاب **مقتل الحسين** عليه السلام المعهود منذ قرون[٦].

وكان كتاب الجمل من مصنّفاته المهمّة، وأورد ابن أبي الحديد بعض أخباره في شرح **نهج البلاغة**، ومنها أشعار لأصحاب أمير المؤمنين عليه السلام، ذُكرت فيها كلمة

---

(١) ***مرويّات أبي مخنف***: ٥٨.

(٢) جُمع في ***تاريخ الطبريّ*** كتاب بعنوان ***مرويّات أبي مخنف***. وجامعه شديد التعصّب ضد الشيعة لذلك وجّه انتقاداته إلىٰ أخباره كلّها من حيث السند.

(٣) تولّت (انتشارات اسلامي) [دار النشر الإسلاميّة] أخيراً طبع هذا القسم من الكتاب مستقلاً بعنوان غير صحيح وهو ***وقعة الطفّ***. وما في متناول اليد من كتاب مستقلّ بعنوان ***مقتل أبي مخنف*** غير صحيح قطعاً.

(٤) ***الكنىٰ والألقاب*** ١: ١٥٥.

(٥) ***مرويّات أبي مخنف***: ٤٨، ٤٩.

(٦) تجد فهرساً لها في ***مرويّات أبي مخنف***: ٥٣.

الوصاية[١]. وله مصنَّفات أُخرىٰ متفرّقة فهرسها سزگين[٢].

وحاول مؤلّف كتاب مرويّات أبي مخنف في تاريخ الطبريّ «عصر الخلافة الراشدة» أن يعدّ فهرساً لأخبار أبي مخنف في عصر الخلفاء الأُوَل وينقدها. وهدفه من الكتاب زعمه أنّ في الكتابات التاريخيّة للطبريّ نزعة شيعيّة، لذا لا قيمة لها من منظار سنّيّ. وفصّل الكلام ـ في مقدّمته ـ عن مشايخ أبي مخنف الذين كانوا من الوجوه الشيعيّة البارزة في العراق، كما أنّ فيهم علماء غير شيعة.

نصر بن مزاحم المِنقَريّ (م ٢١٢)

نصر بن مزاحم المنقريّ أحد المؤرّخين الأخباريّين في النصف الثاني من القرن الثاني الهجريّ. وهو من أصحاب الكتابات التجزيئيّة الذين اضطلعوا بجمع الأخبار المتعلّقة بالتّيارات الشيعيّة في العراق من وحي ميولهم الشيعيّة. ذكره ابن النديم وعدّه من طبقة أبي مخنف وقال إنّه كان عطّاراً. ومن مصنّفاته *كتاب الغارات*، *كتاب صفّين*، *كتاب الجمل*، *كتاب مقتل حجر بن عديّ*، *كتاب مقتل الحسين* عليه السلام[٣]. واتّهمه الرجاليّون من أهل السنّة لتشيّعه. وفي مقابل ذلك عدّه النجاشيّ مستقيم الطريقة، صالح الأمر لكنّه أضاف أنّه يروي عن الضعفاء. ثمّ ذكر له كتاب *النهروان*، و*كتاب المناقب*،

---

(١) شرح *نهج البلاغة*، ابن أبي الحديد ١: ١٤٥؛ *قاموس الرجال* ٧: ٤٤٧. وجمع سزگين المقطوعات المنقولة في *تاريخ الطبريّ* وشرح ابن أبي الحديد عن *كتاب الجمل* لأبي مخنف. انظر:

Sezgin, U. Abu Mihnaf; ein Beigrag zur Historiongraphie der unaiyadischen, zeit, leiden, 1971.

ونقل ابن أبي الحديد ثلاثةً وأربعين مورداً منها.

(٢) *تاريخ التّراث العربيّ*، ج ١، الجزء الثاني، ص١٢٨ ـ ١٣٠.

(٣) *الفهرست*: ١٠٦.

وكتاب *أخبار محمّد بن ابراهيم وأبي السرايا*[1] الذي تناول فيه الحوادث الواقعة في السنين الأخيرة من حياته.

والكتاب الوحيد الذي خلّفه لنا هو وقعة صفّين. وهو الكتاب الأُحاديّ الموضوع المهمّ الذي أخذ منه ابن أبي الحديد في شرح *نهج البلاغة*. وكانت نسخة منه في متحف بغداد وطُبع سنة ١٣٠٠ هـ. وتولّىٰ فرج الله كاشانيّ طبعه بطهران سنة ١٣٠١ هـ . بعد تصحيحه، لكنّ طبعته المقبولة تحقّقت بجهود المحقّق البارز في العالم العربيّ عبد السلام هارون سنة ١٣٦٥ هـ. وهذه الطبعة نفسها أُعيدت بالأوفسيت في طهران بعد أن فرّسها بَرويز أَتَابكي بأسلوب أنيق فصيح وحملت عنوان *پَيْكارِ صِفِّين*. وكتاب وقعة صفِّين من أفضل الكتابات الأُحاديّة الموضوع التي بقيت من القرن الثاني وهو يدلّ علىٰ أهميّة هذه الكتابات التي ضاع ما يربو علىٰ ٩٥٪ منها. وبضياعها تلقّىٰ الشيعة خاصّةً ضربة ثقافيّة كبيرة. وكتاب نصر بن مزاحم كتاب مسند، فقد ذكر سند مطالبه في أكثر المواضع، ولم يدّخر وسعاً في تدوين التفاصيل المتعلّقة بهذه الحرب المهمّة في تاريخ الإسلام. وورد اسم نصر بن مزاحم في كتاب *الفتوح* لابن أعثم كثيراً، إلّا أنّه أخطأ في اسمه فقال: نعيم بن مزاحم. ومن المؤسف أنّ المصحّح لم ينتبه إلىٰ هذا الأمر. وهكذا يمكننا أن نجد عدداً وافراً من نصوص المصنّفات التي صنّفها نصر بن مزاحم في فتوح ابن أعثم أيضاً.

هشام بن محمّد الكلبيّ (٢٠٤ ـ ٢٠٦)

هشام بن محمّد بن السائب بن بشر بن عمرو الكلبيّ المعدود من كبار المؤرّخين في العصر الإسلاميّ. وأبوه محمّد بن السائب بن بشر الكلبيّ (م ١٤٦) من مشاهير علماء

---

(١) *رجال النجاشيّ*: ٤٢٨.

عصره أيضاً. وأصاب نجله حظّاً كبيراً من تراث أبيه العلميّ. وذكر ابن سعد أنّ جدّه بشر بن عمرو وأبناءه السائب، وعبيد، وعبد الرحمٰن شهدوا الجمل مع عليّ عليه السلام[١].

وطُعن فيه وفي أبيه كثيراً لأنّهما كانا خارج سلك أصحاب الحديث، ولهما أساليبهما التاريخيّة الخاصّة بهما، وكذلك بسبب ميولهم الشيعيّة. وذُكر محمّد في عداد السبّابين وهو اسم آخر للروافض[٢]. مع هذا بلغ من العلم مبلغاً أنّ عبّاد بن صهيب الذي لم يرغب في أن ينقل عنه شيئاً في البداية، اضطُرّ فيما بعد إلىٰ أن يروي عنه بالواسطة[٣]. وغاية هذا الأمر أنّ شخصيّات موثّقة من أهل السُنّة روت عنه في علم التفسير ـ الذي قيل إنّه كان فذّاً فيه ـ لكنّها لم تثق به في الحديث[٤].

وذكر ابن النديم أنّ محمّد بن السائب (م ١٤٦) كان من علماء الكوفة، وله في التفسير والأخبار وأيّام الناس باعٌ، كما أنّ له تفسيراً أيضاً[٥]. وفي سياق إشارة الطبريّ إلىٰ حضوره في ثورة ابن الأشعث عدّه متبحّراً في التفسير والأخبار وأحاديث العرب[٦]. ورویٰ عنه ابن اسحاق بتعبير «حدّثنا أبو النصر». وأورد السمعانيّ أنّه أتىٰ بكنية محمّد بن السائب لئلّا يُعرَف![٧]

وكان هشام بن محمّد يحظىٰ بتفوّق أكثر. وكان شيعيّاً كأبيه وأُسرته. وهو ما ركّزت عليه المصادر التي ترجمت له بصورةٍ وافية. وقيل: إنّه كان يعتقد بالرجعة، وأنّ

---

(١) *الطّبقات الكبرىٰ* ٦: ٣٥٩.

(٢) *الكامل في ضعفاء الرجال* ٦: ١١٥؛ *الأنساب* ٥: ٨٦. وربّما نُقل عنه سخريةً أنّه قال ما مضمونه: كان جبرئيل مرّة عند النبيّ ﷺ وعليّ معه. فذهب النبيّ ﷺ في شغل فأوحىٰ جبرئيل عليه السلام إلى عليّ عليه السلام. انظر: *الوافي بالوفيّات* ٣: ٨٣.

(٣) *الكامل في ضعفاء الرجال* ٦: ١١٦.

(٤) نفسه ٦: ١٢٠.

(٥) *الفهرست*: ١٠٧.

(٦) *المنتخب من ذيل المذيل*: ٦٥٢. وانظر: *الطّبقات الكبرىٰ* ٦: ٣٥٨؛ *ميزان الاعتدال* ٣: ٥٥٦ ـ ٥٥٨.

(٧) *الأنساب* ٥: ٨٦.

تصنيفه في مثالب الصحابة من آيات تشيّعه[١]. وقال النجاشيّ: «كان يختصّ بمذهبنا»[٢].

وكانت له كتابات تجزيئيّة (أُحاديّة الموضوع) وفيرة ضاع أكثرها، ولم يبق منها إلّا شذرات مبثوثة في سائر المصادر. وكان كثير من المؤرّخين آنذاك من تلامذته وأفادوا من أخباره في التاريخ. وكان أغلب عمله في أخبار الجاهليّة وكذلك أخبار إيران واليمن. ويبدو أنّه أعدّ مجموعات عظيمة في هذا المجال. وكان طبعاً كأبيه مؤرّخاً لا محدّثاً، ولهذا السبب قال فيه أحمد بن حنبل: هو صاحب شعر ونسب ولا أظنّ أحداً يروي عنه[٣].

وتخصّص هشام الرئيس علم الأنساب. ومصنّفاته فيه أمّ المصنَّفات التي تلتها في هذا العلم. وكثرة عمله تبعث علىٰ الإعجاب وتدلّ علىٰ نبوغه التاريخيّ الرفيع. وذكر جواد علي أنّه سبق أباه في الإفادة من المصادر الأصليّة والوثائق المكتوبة بخاصّة في تاريخ الحيرة وتاريخ الفرس. وكان ملمّاً بالفارسيّة أيضاً. وأثبت قابليّته واستيعابه في هذا المجال، وهو ـ من مؤرّخ ـ بمعنىٰ الفهم العلميّ للتاريخ. وعلىٰ الرغم من أنّه لم يسلم من تُهَم أصحاب الحديث الذين رموه بالتزوير والكذب في الرواية، فإنّ الدراسات الجديدة دلّت علىٰ أنّ خصومه لم يُصيبوا في كلّ ما قالوه فيه. وكان موفّقاً في عمله وقطع أشواطاً بعيدةً في تأليف المصنّفات التاريخيّة علىٰ أساس منهج علميّ[٤].

وأثنىٰ جواد علي علىٰ نهجه في موضوع آخر إذ كان يبحث عن الوثائق الرسميّة ويذهب إلى الكنائس والأديرة ابتغاء الكتب كي يتوفّر علىٰ التحقيق مستعيناً بها، وجاء ثناؤه في سياق إشارته إلىٰ الأُسلوب الروائيّ الذي انتهجه الطبريّ ونقصه في

---

(١) ***ميزان الاعتدال*** ٤: ٣٠٤؛ ***شذرات الذّهب*** ٢: ١٣؛ ***الذريعة*** ١٩: ٧٥. وقال السمعانيّ: كان غالياً في التشيّع. ***الأنساب*** ٥: ٨٦.

(٢) ***رجال النجاشيّ***: ٤٣٤، رقم ١١٦٤.

(٣) ***الأنساب*** ٥: ٨٧.

(٤) ***موارد تاريخ الطّبريّ***، القسم الأوّل: ١٤٩.

تحليل صحّة الأخبار وسقمها[١].

وكانت لهشام مصنَّفات في أخبار العصر الإسلاميّ أيضاً. وهو الذي روىٰ أخبار أبي مخنف الشيعيّ بشكل رئيس كما يُستشفّ من *تاريخ الطبريّ*. وأحصىٰ ابن النديم مؤلّفاته في ثلاث صفحات. وهي تتناول مجالات متنوّعة منها: الأحلاف، والأنساب، والأوائل، وأخبار الجاهليّة، وأخبار العصر الإسلاميّ، وأخبار المدن، والشعراء، وأيّام العرب[٢]. وتحقيقاته العلميّة في قراءة البلاطات التي كانت علىٰ قبور اللخمينيّين غاية الروعة والإبداع من نوعها[٣]. وفهرس سزگين آثاره الباقية[٤]. وطُبع عدد من آثاره المعروفة بتصحيحات عديدة: وهي *النسب الكبير*، *الأصنام*، *كتاب نسب معد واليمن الكبير*.

ونُقلت في تشيّع هشام رواية طريفة يلطف ذكرها. فقد أورد زائدة أنّه كان يختلف إلىٰ الكلبيّ ويقرأ عليه القرآن. فقال يوماً: مرضتُ مدّةً ونسيتُ كلّ شيء. فذهبتُ عند رجلٍ من آل محمّد [ﷺ] فوضع لسانه في فمي، فتذكّرتُ كلّ شيء. يقول زائدة: فقلتُ له: والله لا أروي عنك أبداً[٥]. ورأي زائدة هذا يعود إلى جحوده بآل محمّد عليه وعليهم الصلاة والسلام.

هيثم بن عديّ (م ٢٠٧)

أبو عبد الرحمٰن هيثم بن عديّ من مؤرّخي النصف الثاني من القرن الثاني الهجريّ. وعلى الرغم من أنّه لم يترك شيئاً بصورة مستقلّة لكنّ معظم المؤرّخين في

---

(١) *موارد تاريخ الطّبريّ*، القسم الأوّل: ١٦٨. (٢) *الفهرست*: ١٠٨ ـ ١١٠؛ *النجاشيّ*: ٤٣٥.

(٣) *تاريخ التّراث العربيّ*: ج ١، الجزء ٢، ص ٥٢.

(٤) *تاريخ الأدب العربيّ* ٣: ٨.

(٥) *الكامل في ضعفاء الرجال* ٦: ١١٥. انظر في تشيّعه: *الأنساب* ٥: ٨٦.

القرن الثالث والرابع تقريباً أفادوا من مصنّفاته، حتّىٰ إنّ اسمه ورد في أكثر المصادر التي كانت في العصر الذي تلاه. وذكره ابن النديم بلفظ عالم بالشعر والأخبار والمثالب والمناقب والمآثر والأنساب. وهو وسط بين جيلين من المؤرّخين، جيل التاريخ الأُحاديّ الموضوع، وجيل التاريخ العامّ، ولهذا نلحظ في مصنّفاته كتابات أُحاديّة الموضوع كمصنّفات أبي مخنف والمدائنيّ، وكتابات عامّة أيضاً. وصنّف رسائل وكتباً في أنواع المباحث التاريخيّة والنسبيّة، وتنوّعُ الموضوعات المفضّلة عنده، التي تستبين نطاق كتابة التاريخ آنذاك، في غاية السعة. ومن كتبه: *كتاب هبوط آدم وافتراق العرب*، *كتاب نزول العرب بالسواد وخراسان*، *كتاب الدولة*، *كتاب تاريخ العجم وبني أميّة*، *كتاب المثالب الكبير*، *كتاب من تزوّج من الموالي في العرب*، *كتاب طبقات الفقهاء والمحدّثين*، *كتاب الخوارج*، *كتاب التاريخ علىٰ السنين*، *كتاب خواتيم الخلفاء*، *كتاب تاريخ الخلفاء*، *كتاب ولاة الكوفة*[١] الخ.

وأفاد هيثم بن عديّ من المصادر التي كانت قبله، لكنّه ـ علىٰ عكس الذين جلسوا علىٰ مائدة الكتب الجاهزة فيما بعد ـ كأبي مخنف والمدائنيّ أخذ كثيراً من أخباره من مصادر الطراز الأوّل بين القبائل والشخصيّات البارزة. مع هذا كان عدد من أساتذته ومشايخه أخباريّين. وأحدهم مجالد بن سعيد الذي نقل عنه هيثم الكثير من أخباره كما ذهب إلىٰ ذلك ابن النديم[٢]. وكان له تلامذة من أهل التاريخ أيضاً. ومنهم أبو حسّان الزياديّ (٢٤٣) الذي كانت له كتب مثل كتاب *المغازي لعروة بن الزبير*، وكتاب *طبقات الشعراء*... وتكرّر اسم هيثم بن عديّ في كتاب *طبقات ابن سعد*، ومصنّفات محمّد بن حبيب، و*الأخبار الطوال*، و*تاريخ اليعقوبيّ*، و*تاريخ الطبريّ*، و*مروج الذهب للمسعوديّ*، ومصنّفات أبي الفرج الإصفهانيّ، وهذا يدلّ علىٰ أنّ كتبه

---

(١) *الفهرست*: ١١٢. (٢) نفسه: ١٠٣.

كانت مظنّة لإفادة المذكورين. وذكر الذهبيّ في مقدّمة تاريخ الإسلام أنّ تاريخ هيثم بن عديّ كان من مصادره[١].

أبو عبيدة معمر بن المثنّىٰ (١١٠ ـ ٢٠٩ أو ٢١١ ـ ٢١٣)

وهو من الشخصيّات البارزة الأُخرىٰ التي كانت كتاباتها الأُحاديّة الموضوع الكثيرة مموّنةً لمصنّفات ضخمة أُعدّت منذ القرن الثالث فما تلاه. وأثنىٰ عليه الجاحظ[٢]. وكان شعوبيّ النزعة، ولهذا السبب، أو لميله إلىٰ الخوارج، لم يعبأ به الناس. وقيل: لم يحضر جنازته أحد!

ومعظم مصنّفاته ذات موضوعات أدبيّة. وهي في مفردات القرآن، وجمع الأخبار والمعلومات حول مختلف الحيوانات (كالذي فعله الجاحظ في *الحيوان*، وبعده الدميريّ في *حياة الحيوان*) ومصنّفات تاريخيّة بخاصّة الفتوحات. ومن كتبه في التاريخ: **مقاتل الأشراف**، وكتاب **الجمل وصفّين**، وكتاب ***الغارات***، وكتاب **مقتل عثمان**، وكتاب **قضاة البصرة**، وكتاب **فتوح ارمينية**، وكتاب **فتوح الأهواز**، وكتاب ***أخبار الحجّاج***، وكتاب ***قصّة الكعبة***[٣]. ومصنّفاته في الفتوحات موضع إفادة البلاذريّ في *فتوح البلدان*، وكذلك خليفة بن الخيّاط الذي كان ابن مدينته. فقد نقلا من كتبه مباشرةً، لأنّهما لم يأتيا بسندٍ في النقل عنه[٤].

وجاء في أخبار مكّة للفاكهيّ أحد عشر نصّاً منقولةً عن كتاب لأبي عبيدة كان صنّفه في آبار مكّة[٥]. وله كتب في مثالب القبائل العربيّة وكتاب بعنوان ***فضائل الفُرس***، ممّا أدّىٰ إلىٰ رميه بالشعوبيّة.

---

(١) ***تاريخ الإسلام*** «السّيرة النّبويّة»: ١٣.

(٢) ***البيان والتبيين*** ١: ٣٤٧.

(٣) ***الفهرست***: ٥٩.

(٤) ***إسهامات مؤرّخي البصرة***: ١٣٦ ـ ١٤٢.

(٥) ***أخبار مكّة***، الفاكهيّ، المقدّمة: ٣٤.

أبو الحسن المدائنيّ (١٣٥ ـ ٢٢٨)[١]

ولد عليّ بن محمّد بن عبد الله بن أبي سيف المدائنيّ (من موالي سمرة بن جندب) في البصرة. ثمّ توجّه إلىٰ المدائن. ومات في دار صديقه إسحاق الموصليّ ببغداد وهو ابن ثلاث وتسعين سنةً. وهو من المؤرّخين القلائل الذين يثق بهم أهل السنّة، وهذا ممّا أثار شكّاً خاصّاً حوله. ووثّقه يحيىٰ بن معين والخطيب البغداديّ[٢]. وأوصىٰ يحيىٰ ابن معين أحمد بن زهير أن يدوّن كتب المدائنيّ[٣]. وهذا في وقتٍ كانت له روايات مسندة محدودة. وأورد ابن عديّ في سياق ذكره هذا الموضوع روايةً مسندةً عنه[٤]. ولمّا كان المدائنيّ قد نشأ في البصرة ـ مع أنّه ذهب إلىٰ المدائن فيما بعد ولقّب بها ـ فلا بدّ أن يتأثّر بأجوائها وميولها العثمانيّة. وهو الذي روىٰ أخبار عوانة بن الحكم الذي كان عثمانيّ الهوىٰ علىٰ حدّ تعبير ياقوت. وجاء في الخبر الذي نقله الجاحظ عن المدائنيّ أنّ المدائنيّ ذكر بأنّ الأُمويّين كانوا لا يرضون إلّا بروايات المراثي. وعندما سئل عن السبب قال: لأنّها تشتمل علىٰ مكارم الأخلاق![٥]

وبلغت مصنّفاته (٢٣٩) علىٰ ما أحصاه ابن النديم، في حين تُلحظ كتب أُخرىٰ في الفهرس الذي عرضه ياقوت لمصنّفاته التي ذكر البعض أنّها تبلغ (٢٦١). وهذا الحجم من المصنّفات دفع البعض إلىٰ أن يلقّبه شيخ الأخباريّين. ومن هذه المصنّفات سبعة وعشرون في سيرة النبيّ ﷺ؛ وواحد وثلاثون في قريش وشخصيّاتها البارزة؛ وثلاثة وثلاثون في أخبار النساء والزواج بين الأشراف وأمثال ذلك؛ وسبعة عناوين

---

(١) اختلفوا في تاريخ وفاته: ٢١٥، ٢٢٥، ٢٣١، ٢٣٤، ٢٣٥.

(٢) *تاريخ بغداد* ١٢: ٥٥؛ *لسان الميزان* ٤: ٢٥٣؛ *الأنساب* ٤: ٢٣٢.

(٣) *تاريخ بغداد* ١٢: ٥٥.

(٤) *الكامل في ضعفاء الرجال* ٥: ٢١٣.

(٥) *البيان والتبيين*: ٣٢٠ (القاهرة ١٣٨٠).

في أخبار الخلفاء؛ وسبعة وعشرون في أيّام العرب بعد الإسلام، وسبعة وثلاثون في الفتوحات؛ وعشرة في أخبار العرب؛ واثنان وثلاثون في أخبار الشعراء؛ والباقي منها في موضوعات أُخرىٰ.

والذي يستشفّ من عناوين هذه الكتابات هو أنّ المدائنيّ كان من أهمّ المؤرّخين في عصرٍ كان المألوف فيه كتابة تاريخ أُحاديّ الموضوع يتناول حوادث وموضوعات خاصّة. وكان ولع المدائنيّ الخاصّ بهذه الموضوعات جليّاً تماماً في كتاباته. علىٰ سبيل المثال، كان عَلِقاً بجوانب خاصّة من السيرة، ورسائله تدلّ علىٰ ميله إلىٰ ذلك بوضوح. ومنها كتاب ***أمّهات النبيّ ﷺ***، وكتاب ***اقطاع النبيّ ﷺ***، وكتاب ***عهود النبيّ ﷺ***، وكتاب ***رسائل النبيّ ﷺ***، وكتاب ***أخبار المنافقين***، وكتاب ***أزواج النبيّ ﷺ***، وكتاب ***عمّال النبيّ ﷺ علىٰ الصدقات***.

ويلزمنا أن نعدّ كثيراً من هذه الكتابات التي بقي منها النزر اليسير وطُبع، مقالات موجزة. مثلاً كتابه ***الفرج بعد الشدّة والضيق*** الذي لاحظه التنوخيّ خمس أو ستّ أوراق[١]. ورسالته ***المردفات من نساء قريش*** التي طبعها عبد السلام هارون قصيرة. وهي تتحدّث عن نساء من قريش كنّ تزوّجن بعد وفاة بعولتهنّ. وبقيت له رسالتان أيضاً وهما ***التعازي*** و***علم الخواصّ***. ومن المحتمل وجود مصنّفات عالية بين كتاباته أيضاً لكنّا لم نحصل علىٰ خبرٍ منها لحدّ الآن. علىٰ سبيل المثال، قيل في مغازيه أنّها كانت ثلاثة أجزاء.

ووردت أقسام كثيرة من مصنّفاته المفقودة في الكتب المتأخّرة، ككتاب ***مقاتل الطالبيّين*** لأبي الفرج الإصفهانيّ الذي اشتمل علىٰ فقرات جمّة من كتاب ***أسماء مَن قُتل من الطالبيّين***[٢]. ونقل البلاذريّ (١٤١٦) خبراً عن المدائنيّ[٣]. كما جاءت في

---

(١) *الفرج بعد الشدّة*، التنوخيّ ١: ٧.

(٢) انظر ذلك في *شيخ الأخباريّين*: ٢٦ ـ ٢٨.

(٣) *موارد البلاذريّ* ١: ١٦٧.

بلاغات النساء أقسام ضافية من كتبه التي صنّفها في النساء[١]. ونقل ابن أبي الحديد شذرات من مصنّفاته أيضاً[٢].

وأفاد الطبريّ من كتابات المدائنيّ بخاصّة من فتوح *خراسان* في مواضع كثيرة من القسم المتعلّق بتاريخ خراسان. كما أورد البلاذريّ أخباراً وافرةً عن المدائنيّ أيضاً وذلك في حديثه عن السيرة والأُمويّين. وكتابه *تاريخ الخلفاء* من المصنّفات المهمّة التي يبدو أنّ الطبريّ أصاب حظّاً أكبر منها[٣].

أجل، كانت مصنّفات المدائنيّ على سعتها وكثرتها موقوفةً علىٰ أخبار العصر الإسلاميّ. ولم يبق منه في موضوع المبتدأ شيء. ووصلت إلينا كتابات قليلة عن الجاهليّة، وسائر كتاباته تدور حول العصر الإسلاميّ. من هنا قيل: إذا رام أحد أخبار العصر الجاهليّ فليقرأ كتب أبي عبيدة، وإذا رام أخبار العصر الإسلاميّ فليقرأ مصنّفات المدائنيّ[٤]. وعرض الأُستاذ بدري محمّد فهد بأناة وتُؤَدَة فهرساً طويلاً لما نُقل عن المدائنيّ في تاريخ العصر الإسلاميّ من مصادر متنوّعة، مع الاحتفاظ بالترتيب التاريخيّ[٥]. وفي مجال النصوص الأدبيّة نُقلت أخبار كثيرة عن المدائنيّ في مصنّفات الجاحظ، والزبير بن بكّار، والمبرد، وابن عبد ربّه، وأبي الفرج الإصفهانيّ وغيرهم[٦].

خليفة بن الخيّاط (م ٢٤٠)

خليفة بن الخيّاط المعروف بشباب العُصفريّ[٧]. كان أحد المؤرّخين المهمّين في

---

(١) *شيخ الأخباريّين*: ٣١ ـ ٣٤.

(٢) *تاريخ التّراث العربيّ* ج ١، الجزء ٢، ص ١٤١، ١٤٢؛ وانظر: *التاريخ العربيّ والمؤرّخون* ١: ١٢٨.

(٣) *إسهامات مؤرّخي البصرة*: ٢١٢ ـ ٢١٥.

(٤) *تاريخ بغداد* ١٢: ٥٥.

(٥) *شيخ الأخباريّين*: ٦٥ ـ ١٤٠.

(٦) نفسه: ١٤١ ـ ١٦١.

(٧) *تذكرة الحفّاظ* ٢: ٤٣٦.

القرن الثالث الهجريّ، ووصفه ابن كثير بأنّه «من أئمّة التاريخ»[١]. وهو كابن سعد تماماً كان في عصرٍ مُنيَ فيه «بالمحنة» أو تشدّد المعتزلة ـ والمأمون علىٰ رأس الجميع ـ على الناس في مسألة خلق القرآن[٢]. وذكره ابن النديم، وأحصىٰ له خمسة كتب هي: *الطبقات*، وكتاب *التاريخ*، و*طبقات القرّاء*، و*تاريخ الزمنىٰ والعرجان والمرضىٰ والعميان*، و*أجزاء القرآن*[٣]. ولم يصل إلينا منها ـ علىٰ ما نعلم ـ إلّا كتاب التاريخ، والطبقات وهما مطبوعان.

واختلف فيه علماء الرجال، وإن وثّقوه نوعاً ما. وهو بصريّ، والبصريّون محظوظون في تأييد أصحاب الحديث إيّاهم لميولهم العثمانيّة، أو ما يقرب منها كمثل المدائنيّ. ونقل عنه البخاريّ روايات في ثمانية عشر موضعاً من كتابه، وهذه فرصة أُخرىٰ لعلماء الرجال المتأخّرين أن يُقلّوا في قدحه. ولا مَعْدِلَ في أن نعترف أنّه لم يعتن اعتناءاً وافياً بالسند، وهو ما يرضاه أصحاب الحديث. ولا تُلحَظ في ميول خليفة أدنىٰ درجة من التشيّع العراقيّ.

وطبع له أكرم ضياء العمريّ في العراق كتاب التاريخ الذي بقي برواية بقيّ بن مخلد القُرطبيّ[٤] (٢٠١ ـ ٢٧٦) سنة ١٣٨٦ هـ بمساعدة المجمع العلميّ في العراق. وأصدر سهيل زكّار طبعة أُخرىٰ منه عام ١٤١٤ هـ (بيروت، دار الفكر)! وذكر العمريّ في المقدّمة ترجمة مفصّلة له وما كان عنه وعن أُسرته.

وأورد فهرساً لمصادر خليفة في تاريخه. واعتمد خليفة في القسم الأعظم من سيرته على ابن إسحاق. وأفاد أيضاً من كتابه *تاريخ الخلفاء*، كما نقل عنه روايات عديدة حول عصر الخلافة الأُولىٰ. وقيل إنّه ذكر اسم ابن إسحاق في تاريخه أكثر من

---

(١) *البداية والنّهاية* ١٠: ٣٢٢.

(٢) *أخبار القضاة* ٢: ١٧٥.

(٣) *الفهرست*: ٢٨٨.

(٤) قيل: كان أوّل من أخذ علم التاريخ إلى الأندلس.

مئة مرّة[١]. والراوي أو الكاتب الآخر الذي أفاد منه هو وهب بن جرير الذي أفاد ابن سعد من رواياته أو مصنّفاته في طبقاته أيضاً. وكان مصنّف أبي معشر المفقود من مصادر خليفة أيضاً. وكان المدائنيّ من شيوخه، ونقل عنه خليفة مباشرةً. وقيل إنّ ٥٠٪ من الأخبار المتعلّقة بالفتوحات وأخبار عصر الخلفاء الأُوَل منقولة عن المدائنيّ، ومن المحتمل أنّها مأخوذة من كتاب *الجمل*، وكتاب *صفين*، وكتاب *الخوارج*[٢]. ومن مشايخه الذين كان بعضهم أصحاب كتب، ومن المحتمل أنّه نقل عنهم روايات اعتماداً علىٰ مدوّناتهم بإجازة أو شفويّاً: أبو عبيدة معمر بن المثنىٰ (م ٢٠٩)، وهشام الكلبيّ، وسحيم بن حفص (م ١٩٠)، والوليد بن هشام القحذميّ[٣]، وعبد الله بن المغيرة، وكثير غيرهم[٤].

وقيل في تاريخ خليفة إنّه أقدم مصنَّفٍ تاريخيّ وصلنا وحوادثه مسجّلة بحساب السنين. والمزيّة الأُخرىٰ للكتاب هو أنّه ضبط إحصائيّاتٍ وأرقاماً لم ترد في ما سواه من المصادر. وقلّما تناول الكتاب الأحداث الداخليّة للمسلمين كتمرّد يزيد بن المهلّب، لكنّه استعاض عنها بأخبار كثيرة في الفتوحات[٥].

وعلىٰ الرغم ممّا مضىٰ في تاريخ خليفة قيل: إنّ معاصريه لم يرحّبوا بكتابه، ولم ينقل عنه أصحاب المصنّفات التي صُنِّفت بعده بقليل. وذكره الطبريّ مرّة واحدة، وذلك في حوادث سنة ١٤١ هـ. وأفاد الأزديّ (م ٣٣٤) منه في تاريخ الموصل[٦]، لكنّ الذهبيّ أو ابن كثير لم يُفد منه فيما بعد. ومن المحتمل أنّ الكتاب لم يكن في متناوله.

والتاريخ عند قُدامىٰ المؤرّخين هو السنة، ويُستعمل بشكل رئيس بمعنىٰ التقويم

---

(١) ***إسهامات مؤرّخي البصرة***: ١٩١.
(٢) ***إسهامات مؤرّخي البصرة***: ١٩٢.
(٣) انظر: ص ١٥٠ ـ ١٦٢ من المصدر نفسه للاطّلاع علىٰ أخبار الوليد بن هشام.
(٤) انظر: مقدّمة العمريّ علىٰ تاريخ خليفة: ٢٦ ـ ٤٥.
(٥) مقدّمة زكّار علىٰ تاريخ خليفة: ١٠.
(٦) ***إسهامات مؤرّخي البصرة***: ٢٠١ ـ ٢١٢.

سواءً في سنة الولادة، أم الوفاة، أم سنة وقوع الحوادث وأمثال ذلك. وذكر خليفة نفسه في مقدّمة كتابه واصفاً التاريخ بأنّ كتابه كتاب تاريخ والناس يعيّنون حجّهم وصومهم وعدّة نسائهم ومدّة ديونهم بالتاريخ. ثمّ تحدّث عن تاريخ اليزدجرديّ، وبعد ذلك تناول بدايات تاريخيّة متعدّدة كان العرب يحتفظون بها بعد كلّ حادثة برهةً من الزمن، وآخرها حملة أبرهة علىٰ مكّة. تلا ذلك حديث ظهور التاريخ الهجريّ، وتبعه بحث تاريخيّ يبدأ بولادة النبيّ ﷺ ويتواصل حتّىٰ سنة ٢٣٢ هـ.

ومن المزايا الرئيسة لهذا الكتاب اشتماله علىٰ معلومات حول أصحاب المناصب الحكوميّة في كلّ سنةٍ وكلّ مدينة. فقد قدّم في جميع مواضع الكتاب فهرساً بأسماء المدن مع ذكر أمرائها وأصحاب مناصبها[1]. والمزيّة الأُخرىٰ للكتاب ذكر السنين، وكذلك أيّام الأُسبوع، وهو في هذا الأمر لافت للنظر قياساً بغيره من المصادر. ففهرس قتلىٰ اليمامة، وقتلى الجمل والحرّة[2] أيضاً لا عهد لأحدٍ به.

ومن الحريّ بالذكر أنّ تاريخ خليفة لم يسجّل انحيازاً لجهةٍ علىٰ عكس بعض الكتب ككتاب اليعقوبيّ والمسعوديّ اللذين تلحظ فيهما الميول المذهبيّة والسياسيّة.

والمصنَّف الآخر لخليفة *طبقاته* التي تعدّ مع طبقات ابن سعد من أقدم المصنّفات الباقية في هذا المجال. وعلىٰ الرغم من وجازته فإنّه يفوق طبقات ابن سعد في معلوماته الجغرافية إذ ذكر كثيراً من المدائن الصغيرة مضافاً إلىٰ عدد من المدائن الكبيرة في العالم الإسلاميّ[3]. ويشتمل علىٰ معلومات تاريخيّة خاصّة تدور حول الأشخاص، منها أنّه يتحدّث في بعض المواضع عن مساكنهم، ولهذا قيمته الخاصّة به من منظار التاريخ الإقليميّ.

---

(١) *إسهامات مؤرّخي البصرة*: ١٨٧، ١٨٨. (٢) *تاريخ*، طبعة العمريّ: ١٨٧، ٢٤٠.

(٣) *إسهامات مؤرّخي البصرة في الكتابة التاريخيّة*: ٦٤.

محمّد بن حبيب (م ٢٤٥)

وهو محمّد بن حبيب بن أميّة الهاشميّ البغداديّ أحد المؤرّخين والنسّابين البارزين في القرن الثالث الهجريّ، ومن سلالة علمائيّة، وله كتابات تاريخيّة أُحاديّة الموضوع كثيرة في موضوعات متنوّعة. وكان من موالي بني العبّاس، وعمله الرسميّ تأديب [تعليم] أبناء العبّاس بن محمّد العبّاسيّ (وذا أخو السفّاح والمنصور). وهو عالم أخباريّ أيّ عالم، وكان مولعاً بالقضايا التاريخيّة ـ النسبيّة والأدبيّة. ويمكن أن يُقرَن إلىٰ هشام الكلبيّ والمدائنيّ في الموضوعات التي كان يرغب فيها مقايسةً بسائر المؤرّخين يومئذٍ، وإن كان حجم عمله أقلّ من المدائنيّ بكثير.

وذكره ابن النديم بقوله: «كان من علماء بغداد بالأنساب والأخبار واللغة والشعر والقبائل»، وأحصىٰ مصنّفاته، وقال: «وكتبه صحيحة». وتدور مصنّفاته حول علم الأنساب والتاريخ وأخبار الشعراء. وبعد أن ذكر ابن النديم كتاب *القبائل الكبير والأيّام* قال إنّه كتبه للفتح بن خاقان، وإنّه رأىٰ منه نسخةً وهي أكثر من عشرين جزءاً ومئتَي ورقةٍ بل أكثر، وكان يقال إنّها أربعون جزءاً[1]. وذُكِرَ له «تاريخ الخلفاء»، لكنّه كمصنّفاته الكثيرة الأُخرىٰ لم يُعثَر علىٰ أثرٍ له لحدّ الآن.

وبقيت مخطوطة واحدة لكلٍّ من مصنَّفيه الكبيرين، ورسالتَيه أيضاً بنحوٍ أشبه بالإعجاز. والمصنَّفان هما *المنمّق*، و*المحبّر*. ويبدو أنّ الثاني كان ذائع الصيت في القرن الخامس، لذلك ذكره الخطيب البغداديّ بلفظ «صاحب كتاب المحبّر» بعد اسمه مباشرةً. وقال: إنّه يروي عن هشام الكلبيّ. وكان محمّد بن حبيب من بغداد، بَيْدَ أنّه توفّي بسامرّاء في ذي الحجّة سنة ٢٤٥ هـ[2].

وأورد ياقوت ترجمته عن ابن النديم والمرزبانيّ. وذكر المرزبانيّ أنّه كان يقتبس

---

(١) *الفهرست*: ١١٩.

(٢) *تاريخ بغداد* ٢: ٢٧٧، ٢٧٨.

من كتب الآخرين ويسطره في كتابه. ومن ذلك كتاب كان اسماعيل بن أبي عبد الله قد ألّفه، ونقله محمّد بن حبيب في كتابه دون أن يزيد عليه أو ينقص منه كلمة[١]، وأفاد المسعوديّ من كتبه بعد ذكر اسمه[٢].

وكانت عند ابن طاووس العالم الشيعيّ في القرن السابع (م ذي القعدة ٦٦٤) نسخة من «المحبّر»، ونقل منه في طرائفه، وفيه أنّ ستّة من الصحابة وستّة من التابعين كانوا يرون جواز المتعة. وذكر كلبرك أنّ خمسة من الصحابة مذكورون في النسخة الحاليّة ولم يُذكَر فيها تابعيّ واحد. ويبدو أنّ ابن طاووس كان يقتني نسخة من الكتاب، وهي متفاوتة مع النسخة الوحيدة الموجودة في المتحف البريطانيّ التي اعتمد عليها المحقّق في طبع الكتاب[٣]. وكان عند ابن طاووس كتاب آخر لمحمّد بن حبيب أيضاً وعنوانه «من استجيبت دعوته»، ولخّصه ابن طاووس، ونقل منه في **مهج *الدعوات*** **وإقبال *الأعمال***، ولا أثر منه اليوم[٤].

والمهمّ هو أنّ مصنَّفَيه الباقيين اليوم يشتملان علىٰ أخبار تاريخيّة فريدة وذات قيمة وفيها معلومات عن حياة العرب وعلاقاتهم الاجتماعيّة والقبليّة، ويحتويان علىٰ رسائل صغيرة كلّ منها يسجّل نوعاً خاصّاً من المعلومات الاجتماعيّة والتاريخيّة.

ويتسنّىٰ لنا أن نقول إنّ معظم أخبار كتاب *المنمّق*[٥] تدور حول قريش، وبشكل رئيس، حول العصر الجاهليّ. وبدأ البحث بنسب قريش، ودار حديث حول فضائل العبّاس، ثمّ ورد كلام مفصّل عن حلف الفضول وسائر الأحلاف والمنافرات والمنازعات التي كانت محتدمة بين الأُسر القرشيّة. والقسم الآخر الوارد في تضاعيف

---

(١) **معجم *الأدباء*** ١٨ : ١١٣.
(٢) انظر: ***التنبيه والإشراف***: ١٧٤.
(٣) ***كتابخانه ابن طاووس*** [مكتبة ابن طاووس]: ٤٣٩.
(٤) نفسه: ٣٦٢ ـ ٣٦٤.
(٥) ***المنمّق***، تصحيح أحمد خورشيد فاروق (الهند ١٩٦٤م)، بيروت، عالم الكتب، ١٤٠٥هـ.

هذه المباحث يحوم حول أيّام العرب الخاصّة بقريش، وهو ذو قيمة كبيرة تاريخيّاً. كما حفل الكتاب بأخبار العصر الإسلاميّ. إذ تُلحَظ فيه مباحث من نحو «المؤذّنون لرسول الله ﷺ»، «المستهزئون من قريش»، «المشبّهون برسول الله ﷺ من قريش». وتناولت الأقسام الأُخرىٰ عُمي قريش وحُولِها وكواسجها. وعرّفت بالأشخاص الذين كانت أمّهاتهم من النصارىٰ، أو اليهود، أو النبط، أو الحبش أو السند.

ويتناول كتاب *المحبّر*[١] العصر الإسلاميّ، وهو في الحقيقة مجموعة رسائل صغيرة في موضوعات متنوّعة. وجاءت فيه نُتَفٌ من المباحث المهمّة للسيرة، وإن كانت موجزة. مثل مولد النبيّ ﷺ، والمؤاخاة، ونساء النبيّ ﷺ، والغزوات والسرايا، وأسماء الذين شهدوا بدراً، والمتخلّفين في تبوك، ونقباء الرسول ﷺ، واختيرت إليها موضوعات مع مصاديقها نحو من سُمّي محمّداً من أبناء الأنصار، وأسماء الذين حرّموا علىٰ أنفسهم شرب الخمر، وملوك حمير وكندة وغسّان، وأخبار النساء اللّائي لم يتزوّجن بعد وفاة أزواجهنّ، وأصنام العرب، وشعائر الحجّ عند العرب في الجاهليّة، وتلبيتهم، والرجال الذين كانوا متزوّجين عشراً عند مجيء الإسلام، وأسماء المصلوبين من الأشراف، والنساء اللاتي كان لهنّ أكثر من ثلاثة أزواج، ومباحث من هذا النمط.

وذكر في هذين المصنَّفَين كثيراً من المشاهير قبله. ولعلّ أكثرهم ذكراً هشاماً الكلبيّ الذي كان من مشايخه، وشاركه في عمله. ومنهم أبو عبيدة معمر بن المثنّىٰ، هيثم بن عديّ، وعبد العزيز بن عمران، وابن إسحاق، والواقديّ.

وحقّق له عبد السلام هارون رسالة أخرىٰ عدا ما ذكرناه، وهي تحت عنوان

---

(١) *المحبّر*، تصحيح الدكتورة ايلزه ليختن شتيتر، بيروت، دار الآفاق الجديدة.

كتاب من نُسب إلىٰ أمّه من الشعراء[١]. ومن الطريف أنّه نفسه كان مشهوراً باسم أُمّه حبيب. كما حقّق له رسالةً غيرها أيضاً، وعنوانها *أسماء المغتالين من الأشراف في الجاهليّة والإسلام وأسماء من قُتل من الشعراء*[٢]. وله رسالة أُخرىٰ أيضاً بعنوان *كنى الشعراء ومن غلبت كنيته على اسمه*[٣]، ورسالة بعنوان *ألقاب الشعراء ومن يعرف منهم بأُمّه*[٤]. وأهمّها رسالة بأسماء القتلىٰ، وفيها ترجمة لكثير من السلاطين والأُمراء والوجوه المعروفة من الشعراء وغيرهم. ومنها صفحات في أخبار استشهاد أميرالمؤمنين عليه السلام[٥].

وكانت *أماليه* عند ابن أبي الحديد، ونقل منها في أجزاء مختلفة من شرحه على النهج[٦]. وقيل إنّه كان ذا ميول شيعيّة. ودليل ذلك أنّه إذا ذكر اسم أبي بكر أو عمر أردفه بتعبير «رحمه الله» وإذا ذكر اسم خديجة أو الإمام عليّ عليه السلام أدرفه بتعبير «رضي الله عنه»[٧]. والدليل الآخر أنّه قال: كان عمر أحول[٨]، وكان يضرب جاريته المسلمة قبل إسلامه[٩]. ومن الحريّ بالذكر أنّه أورد مساوئ كثيرٍ من قريش والصحابة وأولادهم بجراةٍ بالغة. ويمكن أن يكون فهرسه بأسماء الذين أُقيم عليهم الحدّ من الصحابة وأبنائهم دليلاً على انفتاحه أو ميوله الشيعيّة في قدح الصحابة. وربّما أهمل علماء السنّة كتاب *المنمّق* علىٰ مرّ التاريخ لهذا السبب[١٠].

---

(١) *نوادر المخطوطات*، المجلّد الأوّل: ٨٣ ـ ٩٦، القاهرة، ١٩٧٢م.

(٢) نفسه، المجلّد الثاني: ١١٢ ـ ٢٧٥.
(٣) نفسه: ٢٨١ ـ ٢٩٦.

(٤) نفسه: ٢٩٩ ـ ٣٢٨.
(٥) نفسه: ١٦٠ ـ ١٦٣.

(٦) شرح *نهج البلاغة*، ابن أبي الحديد ١: ٢٩٤؛ ٢: ٣٦؛ ١٢: ٨١؛ ١٣: ٤٢ و٢٠٨؛ ١٤: ٢٥٠؛ ١٥: ٥٣؛ ١٦: ١٠، ١، ١٢، ١٨٢؛ ١٧: ٢٣٦. وفي هذا المجلّد وحده ورد اسم محمّد بن حبيب.

(٧) *المحبّر*: ٥٠٩.
(٨) نفسه: ٣٠٣.

(٩) نفسه: ١٨٤.

(١٠) انظر: *المنمّق*، مقدّمة خورشيد أحمد فاروق: ١١.

الأزرقيّ (م ٢٤٨)

أبو اليد محمّد بن عبد الله بن أحمد الأزرقيّ مؤلّف الكتاب المهمّ كتاب مكّة وأخبارها وجبالها وأوديتها، وهو المصنَّف الخالد في تاريخ مكّة. وعدّه ابن النديم «أحد الأخباريّين وأصحاب السير»، ومن المؤرّخين، وذكر أنّ كتاب مكّة كتاب عظيم[١]. وهذا الكتاب وإن كان يمثّل نوعاً من التاريخ المحليّ لكنّه أصبح مصدراً مهمّاً لتاريخ الإسلام عمليّاً لأنّه أرّخ لأقدس مدينة في العالم الإسلاميّ. وطُبع تحت عنوان *أخبار مكّة وما جاء فيها من الآثار*.

إنّ ما يجب الالتفات إليه بالنسبة لمصنّف الكتاب هو أنّه لمحمّد بن عبد الله، إلّا أنّ قسطَه فيه روايةُ القسم الأعظم منه عن جدّه أحمد بن محمّد بن الوليد، وقليل منه عن غيره. من هنا يمكن أن نحسب المصنِّفَ الأصليّ للكتاب جدَّهُ لا شخصه، وهو كفستنفلد يعتقد بأنّ أصل الكتاب أصغر من حجمه الحاليّ مستشِفّاً ذلك من وجود بعض الأسناد الأُخرىٰ في الكتاب، وكذا وجوه الشَبَه بينه وبين ما جاء في سيرة ابن هشام، ثمّ أُضيف إلىٰ حجمه بإلحاق بعض المطالب تدريجاً[٢]. ولُخِّص الكتابُ غيرَ مرّةٍ كما نُظم شعراً.

وبدأ الكتاب في فصوله الأُولىٰ بتاريخ الكعبة، وتحدّث مصنِّفه عن التطوّر التاريخيّ للكعبة والمسجد الحرام. تلاه بحث حول جرهم وسيادتها علىٰ مكّة، ثمّ خزاعة، وبعد ذلك قريش. كما جرى الكلام عن الوثنيّة وأسباب انتشارها في الجاهليّة، وكذا أداء الحجّ في العصر الجاهليّ. وأعقبه حديث عن تاريخ الكعبة ومكّة بعد الإسلام حتّىٰ قيام الأمويّين بحرقها... ثمّ أركان الكعبة وأقسامها الأُخرىٰ، والمسجد الحرام، وذلك

---

(١) انظر: مقدّمة ملحس علىٰ أخبار مكّة: ١٦، ١٧.

(٢) نفسه.

بنحو مفصّل مع نبذة تاريخيّة عنها. ومن الأبواب الأُخرىٰ للكتاب تقديم جغرافية دقيقة لمدينة مكّة، وبيوتها، ومحلّاتها ودُور الشخصيّات البارزة فيها بعد الإسلام، وتوضيح لأحياء المدينة ومقابرها... الخ.

وطبع فستنفلد هذا الكتاب لأوّل مرّةٍ سنة ١٨٥٨ م اعتماداً علىٰ ثلاث نسخ في أروبّا. وأُنجزت طبعته المتداولة اليوم بتحقيق رشدي ملحس سنة ١٣٥٢ هـ. وأضاف المصحّح للكتاب ملحقات في تاريخ تجديد الكعبة بعد العصر الذي أورده الأزرقيّ، وذكر السيول التي طالت مكّة حتّىٰ في الفترة المتأخّرة، وموضوعات أُخرىٰ. وطُبع الكتاب بالأوفست في قمّ سنة ١٤١١ هـ من علىٰ طبعة رشدي ملحس، وفرّسه الدكتور محمود مهدوي دامغاني.

الزبير بن بكّار (م ٢٥٦)

وهو آخر من نهج الأُسلوب الأُحاديّ الموضوع في تدوين الوقائع التاريخيّة، لا أُسلوب التاريخ العامّ. وهذه الأُحاديّة لا تعني كتابة مقالة قصيرة، وَلِمَ ذاك؟ ذاك لأنّنا يجب أن نعدّ كتاب وقعة صفّين لنصر بن مزاحم مثلاً من نوع التاريخ الأُحاديّ الموضوع علىٰ ضخامته. ومعظم مصنّفاته يبدأ بكلمة أخبار. ووصفه ياقوت بالأخباريّ[١]. والزبير هذا هو ابن بكّار بن عبد الله بن مصعب بن ثابت، وثابت هو ابن عبد الله بن الزبير الذي حكم الحجاز والعراق ردحاً من الزمن، وصمد أمام الأُمويّين وانتهت حياته بقتله سنة ٧٣ هـ. وكانت لآل الزبير ميول علميّة. ومن متقدّميهم عروة بن الزبير الذي كان الراوي الأصليّ لأخبار عائشة. ومن متأخّريهم مصعب الزبيريّ، والزبير بن بكّار هذا، ومصعب عمّه. وجمعهما قاسم مشترك من

---

(١) *معجم الأدباء* ٤: ٢١٨.

الوجهة العلميّة. والدليل المهمّ علىٰ ذلك هو أنّ كلاًّ منهما ترك كتاباً في نسب قريش.

والمجال العلميّ لعمل الزبير بن بكّار هو التاريخ، والنسب، والشعر، والأدب. وهذه علوم مترابطة ترابطاً عميقاً.

وكان الزبير حاذقاً في مثل هذه المعلومات الأدبيّة ـ التاريخيّة. وكتابه *الموفّقيّات*، وكذا *نسب قريش وأخبارها* آيتان على إلمامه بالأخبار التاريخيّة ونسب قريش المكينة. وله كتاب آخر تحت عنوان *أزواج النبيّ* ﷺ، وهو مطبوع بتحقيق سكينه الشهابيّ (بيروت، مؤسّسة الرسالة، ١٤٠٣هـ).

ومن المناسب أن نشير هنا إلىٰ أنّنا يجب أن نغتنم المصنَّفات التي أفرزها القرن الثالث من جميع الجهات، بخاصّة ما كان في النصف الأوّل منه. وهذه المصنَّفات زاخرة بالأخبار التي استطاعت أن تصمد أمام الضغوط الاجتماعيّة ـ المذهبيّة نوعاً ما، ويمكن أن نجد فيها أخباراً صحيحةً كثيرةً. ويضاف إلىٰ ذلك أنّها ـ باستثناء بعض المتون الموجَزة والمُسهِبة من القرن الثاني ـ من أقدم المصنَّفات التي وصلت إلينا، ولا جرم أنّ مرجعنا في تحليل التطوّرات التاريخيّة القرنان الهجريّان الأوّلان.

ومن هذا الضرب مصنَّفات الزبير بن بكّار التي تحتوي علىٰ أخبار تاريخيّة فريدة ذات قيمة مع ما فيها من بعض الميول الأُسريّة والقبليّة. وكان له كتاب في *أخبار مكّة* أيضاً أفاد منه الفاكهيّ في كتابه أخبار مكّة إذ حوىٰ مئةً وثلاثة وأربعين نصّاً منه[١]. وورد في كتاب *المغانم* للفيروزآباديّ قسم مهمّ من كتابه *تاريخ المدينة* بشأن مساكن القبائل في المدينة. ونقل ابن حجر نصوصاً منه في *الإصابة* أيضاً[٢].

وليس في أيدينا معلومات كثيرة عن الحياة السياسيّة ـ الاجتماعيّة للزبير بن بكّار. ولا نعلم منه إلّا أنّه كان قاضياً علىٰ مكّة في السنين الأخيرة من حياته. وهو منصب

---

(١) أخبار مكّة، الفاكهيّ، المقدّمة، ص ٣٤. (٢) *التاريخ والمؤرّخون بمكّة*، ص ١٩.

خوّله إيّاه الحاكم العبّاسيّ المشؤوم الوضيع المتوكّل مكافأةً له. وكان قبل ذلك مرتبطاً بالحكومة العبّاسيّة. ومن أمارات هذا الارتباط عنوان كتابه *الموفّقيّات*، إذ أخذه من اسم أبي أحمد طلحة الموفّق بن المتوكّل. وكان الموفّق وليّاً لعهد أخيه المعتمد، لكنّه لم يدم طويلاً فمات قبل أن يخلفه.

وصنّف الزبير بن بكّار كتاب *الموفّقيّات* باسمه. وهذا يدلّ علىٰ علاقاته الحميمة بالأُسرة العبّاسيّة. ومهما كان فهو عالم وجيه ينتسب إلىٰ قريش، فمن الطبيعيّ أنّه يعدّ شخصيّةً بارزةً، بخاصّة أنّه عمّر طويلاً إلىٰ حدٍّ ما، فأُتيحت له فرصة ليزيد نفوذه. ومات في ذي الحجّة سنة ٢٥٦ هـ وهو ابن أربع وثمانين سنةً.

ووثّقته المصادر الرجاليّة لأهل السنّة بنحوٍ عامّ. وممّن وثّقه الدارقطنيّ، والبغويّ، والخطيب البغداديّ[١]. بيد أنّ أحمد بن عليّ السليمانيّ هاجمه بعنف، ووصفه بأنّه «منكَر الحديث»، وأنّه من الوضّاعين[٢]. وفي هذه الحالة ينبغي الاحتياط في أخباره على الرغم من دفاع ابن حجر عنه. ولا نعتمد علىٰ معايير السليمانيّ المذكور في التضعيف والتوثيق. وربّما رُميَ بهذه التهمة لذكره بعض الأخبار حول السقيفة. وربّما كان سوء الظنّ العامّ الذي حاق بالأخباريّين يومئذٍ سبباً في تضعيفه. ومن المحتمل أيضاً أنّ للسليمانيّ معلومات خاصّة عنه أو عدّ روايته منقولةً عن رواة ضعفاء ـ وهو ما كان يرضخ له الأخباريّون ليكبّروا حجم كتبهم ويُغنوها. ولا ينسجم هذا مع ما أورده السليمانيّ في الزبير، وجعله في زمرة الوضّاعين. ومهما كان لا بدّ من القول أنّ مشكلة توثيق المؤرّخين والأخباريّين وتضعيفهم كانت قائمة، ونادراً ما تجد مؤرّخاً في أمان منها.

وإذا تخطّينا الزبير بن بكّار كشخصٍ، فيجب أن نقول: من حسن الحظّ أنّ كتابه

---

(١) مقدّمة *الموفّقيّات*: ١٧. (٢) نفسه.

الموفّقيّات مجموعة من الأخبار التاريخيّة التي نُقل كلٌّ منها مسنداً، وعليها صبغة حديثيّة. أي: لكلّ خبر سنده المستقلّ، ومن هنا يتسنّىٰ تثمينه. مع هذا لا مناص من إفشاء هذه الحقيقة وهي أنّ وجود سنده وسلامة رواته لا يعنيان أنّه صحيح حقّاً، ذلك أنّ اختلاق السند كان أمراً يسيراً كاختلاق الخبر، فلا محيص من التوفّر علىٰ تقدير الأخبار بدقّة أكثر، كما يُشفَع ذلك بتمحيص السند أيضاً.

وأشرنا إلىٰ أنّ كتب التاريخ آنذاك إمّا كانت أُحاديّة الموضوع تتناول حوادث خاصّة أو أنّها تواريخ عامّة تؤرّخ لفترةٍ تاريخيّة معيّنة. وقلنا إنّ ابن بكّار كان في عداد المؤرّخين الذين تخصّصوا في موضوعٍ واحد. والسؤال الآن هو: ما حال كتاب *الموفّقيّات*؟

يشتمل الكتاب علىٰ (٤٢٩) خبراً تاريخيّاً. وكلٌّ منها يشغل سطرين أو ثلاثة أسطر إلىٰ صفحتين أو ثلاث صفحات. وهذه الأخبار تاريخيّة أكثر من كَونها أدبيّة. ومحورها الأصليّ أيضاً القضايا السياسيّة، والاجتماعيّة، والثقافيّة المهمّة إبّان القرنين الهجريّين الأوّلين. وكان الزبير بن بكّار في صدد اختيار ما هو طريف عذب تربويّ مهمّ من تلك التغييرات فيُريَه في كتابه. من هنا ينبغي أن نقول إنّ الكتاب ذو سبك في غاية الجِدَّة جعله جديراً بالقراءة لهواة التاريخ وإن كان لا يمكن أن يُعدّ خاصّاً بواقعةٍ أو أنّه في مصافّ التواريخ العامّة.

والمهمّ هو أصل الاختيار. ومراجعة لفهرس موضوعاته تكشف قيمته أكثر فأكثر. وكان لأخباره كلّها تقريباً اتّجاه خاصّ. وعلينا أن نحسبها كتاباتِ مؤرّخٍ أعدّها في دفتر خاصّ على امتداد حياته. ونحن نعلم مدىٰ قيمة هذه الكتابات إذ أعدّها مؤرّخ، خصوصاً أنّه بذل جهده طوال حياته.

وذكر محقّق الكتاب في مقدّمته أنّ أخبار الزبير بن بكّار علىٰ ثلاثة أنواع. فنوع لم يرد في أيّ مصدر غيره، ونوع ورد في المصادر الأُخرىٰ موجَزاً ونجد تفصيله فيه،

ونوع جاء في ما سواه من المصادر أيضاً. علىٰ أيّ حال يجدر بالانتباه إلىٰ أنّ هذه الأخبار موجودة في كتابٍ صُنِّف في النصف الأوّل من القرن الثالث الهجريّ، وهو عندنا. وكان المؤلِّف معاصراً لكثير من القضايا المتعلّقة بأواخر القرن الثاني أو عصر المأمون ممّا يزيد القيمة التاريخيّة للكتاب.

وما يبدو طريفاً هو حسّاسيّة المؤلّف في اختيار الأخبار، ولهذا الاختيار نزعة فكريّة وتحليليّة قويّة، لا أنّه طريف في شكله بحتاً. وبتعبير آخر، إنّ لأكثر هذه الأخبار أثراً في تحليل تاريخ القرنين الهجريّين الأوّلين، وقلّما يمكن التغاضي عن واحدٍ منها. والمحقّق طبعاً يجب أن يقرأ مثل هذا الكتاب كلّه ليتيسّر له أن يفيد من كلّ ما هو مبثوث فيه، لأنّ الكتاب يفتقد ترتيباً تاريخيّاً معيّناً، والمؤلّف أساساً لم يقصد مثل هذا الأمر.

وقبل أن نمرّ علىٰ محتوى الكتاب مروراً أدقّ، ينبغي أن نقول فيه: من المؤسف أنّ النسخ الباقية من هذا الكتاب كانت ناقصة، وليس في أيدينا إلّا قسم منه، وهو مفصّل نسبيّاً. مع هذا حاول محقّق الكتاب أن يصلح القسم المفقود منه نوعاً ما بأخبار نقلها الماضون عنه في القرون الخالية. لذا جاء «القسم الضائع» منه في آخر الكتاب (ص٥٧٣ فما تلاها) وهو يشتمل علىٰ (٥٨) خبراً تاريخيّاً أغلبها منقول عن شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد. وينبغي أن نشكر المحقّق علىٰ إلحاقه هذا القسم. ويبدو أنّ صراحة هذا الكتاب في الأخبار التاريخيّة جعلت المتعصّبين لا يُطيقونه. من هنا فإنّه ـ ككثير من مصنّفات القرن الثالث ـ لم يلق ودّاً، فاندثر قسم معتدّ به منه.

وعلى الرغم من العلاقات غير الطيّبة التي كانت بين آل الزبير وبني هاشم، فإنّ في أخبار الموفّقيّات أخباراً لافتة للنظر جالبة للانتباه بحقّ أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام. ومن أطرفها ما جاء تحت عنوان «رسول الله يوصي بولاية عليّ»... عن عمّار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ:

«أوصي من آمن بالله وصدّقني بولاية عليّ بن أبي طالب، من تولّاه فقد تولّاني، ومن تولّاني فقد تولّى الله، ومن أحبّه فقد أحبّني، ومن أحبّني فقد أحبّ الله عزّ وجلّ»[١].

واستطرد بنقل ثلاثة أسناد لهذا الخبر. وهو مَعلَم علىٰ تأكيده صحّةَ الحديث.

عمر بن شبّه (١٧٣ ـ ٢٦٢)

أبو زيد عمر بن شبّه بن عبيد النميريّ البصريّ (من موالي بني نمير) أحد المؤرّخين البصريّين المشهورين. وكتاباته من المصادر المهمّة للكتب التي صُنِّفت في الأعصار اللاحقة. وذكره ابن النديم وأورد فهرساً لمؤلّفاته. والقسط الأكبر من مصنّفاته يدور حول الكوفة والبصرة ومكّة والمدينة، وبعض المصنّفات الأدبيّة والنَسَبيّة: كتاب الكوفة، كتاب *البصرة*، كتاب *أُمراء الكوفة*، كتاب *أُمراء البصرة*، كتاب *أُمراء المدينة*، كتاب مقتل عثمان، كتاب محمّد *وإبراهيم ابنيّ عبد الله بن الحسن*... الخ[٢].

وكتابه المهمّ الثمين الذي تركه هو *تاريخ المدينة المنوَّرة*. وطُبع في أربعة أجزاء (مجلَّدين) بتحقيق فهيم محمّد شلتوت اعتماداً علىٰ نسخةٍ مخطوطةٍ وحيدة[٣].

وأقدم كتاب في تاريخ المدينة هو «تاريخ المدينة» لابن زبالة الذي وردت أقسام منه في كتاب وفاء *الوفاء* للسمهوديّ، وطبعها فستنفلد في كُتيّب بعنوان *تاريخ المدينة* لابن زبالة. ومن المؤسف أنّ النسخة الباقية من هذا الكتاب ناقصة. وهي تشتمل علىٰ ثلاثة أقسام: الأوّل عن النبيّ ﷺ؛ والثاني عن عمر؛ والثالث عن عثمان. وكلّها ناقصة البداية والخاتمة، لكنّ المقدار الباقي منها غُنم وذو قيمةٍ. وأورد ابن شبّه في القسم الأوّل من الكتاب معلومات دقيقة عن المدينة ووضعها من حيث التمدّن

---

(١) *أخبار الموفّقيّات*: ٣١٢، رقم ١٧١ (و١٧٢ ـ ١٧٤).

(٢) *الفهرست*: ١٢٥.

(٣) أوفسيت قمّ، دار الفكر، ١٤١٠ هـ.

والعمارة. وقلّ اهتمامه بالتاريخ السياسيّ لهذا العصر، بيد أنّه قدّم معلومات فريدة دقيقة في وصفه الأماكن والأحياء، كالمساجد التي صلّىٰ فيها رسول الله ﷺ (٥٧ ـ ٧٩)، والأحاديث الواردة في جبل أُحد (٧٩ ـ ٨٥)، والأخبار المتعلّقة بمقبرة البقيع ومدفن الأكابر فيها (٨٦ ـ ١٠٤)، وقبر السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام (١٠٤ ـ ١١٠)، ووديان المدينة، ومطالب أُخرىٰ في جغرافية المدينة. وتحدّث عن صدقات النبيّ ﷺ والإمام عليّ عليه السلام بالمدينة مفصّلاً. ويضاف إلىٰ ذلك يتسنّىٰ لنا أن نجد فيه أخباراً عن الحروب، والوفود، وكثير من موضوعات السيرة.

والملاحظة المهمّة في الكتاب هي صراحة ابن شبّه الخاصّة في نقل الأخبار التي كانت محظورة عند أصحاب الحديث في القرن الثالث والرابع. ولهذا السبب نلحظ أنّ الكتاب حافل بأخبار مهمّة كشفت حقائق تاريخيّة ترتبط بذلك العصر. ووردت هذه الأخبار مسهبةً، لاسيّما في القسم المتعلّق بعثمان وثورة الناس عليه. ولا كتابَ يبلغ دقّته في استعراض الجزئيّات المتعلّقة بتلك الحادثة.

وموضوعات الكتاب من جزئه الأوّل إلىٰ ص٦٥١ تدور حول عصر النبيّ ﷺ وتليها أخبارٌ عن عصر عمر، وأوّلها في نسبه، ووضعه في الجاهليّة والإسلام. وفُصّلت في هذا القسم سيرة عمر في الحكم، ومبتدَعاته في مجالات مختلفة منها فرضه صلاة التراويح وغيرها نحو سيرة عمر، وموافقات عمر (ص٨٥٩). والقسم الأخير يحوم حول مقتله وتشكيله الشورىٰ وأخبارها (ص٨٦٨).

وتبدأ أخبار عثمان من (ص٩٥٢). وأوّلها إجراءاته الدينيّة ومنها بعض تشريعاته، وجهوده في جمع المصاحف وتوحيدها، وختمها بالثورة عليه مُفصِّلاً في ذلك أبلغ التفصيل. وهكذا ينبغي أن نقول إنّ *تاريخ المدينة* لابن شبّه مصدر قديم أخباره لافتة للنظر من جميع الجهات، وهو أوّل النصوص التاريخيّة التي وصلت إلينا، وهو متن مهمّ في التواريخ المحلّيّة لاسيّما تاريخ مدينة الرسول من جهة، ويشتمل علىٰ أخبار مهمّة

عن عصر الخلفاء الأُوَل من جهةٍ أُخرىٰ. ومن الطبيعيّ أنّه ليس لباحث في التاريخ الإسلاميّ أن يحقّق في تاريخ المدينة وعصر الخلفاء الأُوَل إلّا أن يُلمَّ به وبموضوعاته المتنوّعة. ويضاف إلىٰ *تاريخ المدينة* كتاب مخطوط له بعنوان **جمهرة أشعار العرب**، وتوجد نسخة منه بالقاهرة. ووردت في *تاريخ الطبريّ* فقرات من كتاب آخر له تحت عنوان **أخبار أهل البصرة**[١]. وفي كتاب **الأغاني** فقرات من كتابه **أخبار بني نمير**. كما نقل ابن حجر في الإصابة نصوصاً من كتابه **أخبار مكّة** أيضاً. ونقل أبو الفرج الإصفهانيّ في مقاتل الطالبيّين من كتابه الموسوم **بأخبار محمّد وإبراهيم ابني عبدالله**[٢].

ابن قتيبة (٢١٣ ـ ٢٧٦)

أبو محمّد عبد الله بن مسلم المعروف بابن قتيبة المَرْوزيّ الدِينَوَريّ أحد الأُدباء والمؤرّخين من أهل السنّة في القرن الثالث الهجريّ. وله مصنّفات في الأدب، والحديث، والقرآن، والتاريخ، وبقي عدد وافر منها بسبب كثرة الإفادة منها. وكان أبوه في مَرْوْ، أمّا هو فقد ولد ببغداد، وتولّى القضاء في مدينة دِينَوَرْ برهةً. ومن مشايخه ببغداد: محمّد بن سلام الجُمَحيّ (م ٢٣١)، ويحيى بن أكثم القاضي (٢٤٢)، وأبو حاتم سهل بن محمّد السجستانيّ (م ٢٤٨ أو ٢٥٥)، وغيرهم من المحدّثين والأخباريّين البارزين في ذلك العصر. ومن مصنّفاته: **غريب القرآن**، **ومشكل القرآن**، **ومختلف الحديث**، **ودلائل النبوّة**، **والاختلاف في اللفظ**، **وأدب الكاتب**، **والأسئلة والأجوبة**، **وفضل العرب على العجم**، **وعيون الأخبار**، **وطبقات الشعراء**، **والمعارف**[٣].

---

(١) ***موارد تاريخ الطّبريّ***، القسم الأوّل، ص١٦٦.

(٢) ***تاريخ التّراث العربيّ***، التدوين التاريخيّ: ٢٠٥، ٢٠٦.

(٣) انظر: ***الفهرست*** لابن النديم، ص٨٦. وذكره ابن النديم في طبقة اللغويّين. وورد في مقدّمة ***المعارف*** عناوين سبعة وثلاثين كتاباً له.

و*المعارف* هذا هو أهمّ مصنَّف تاريخيّ له. واتّخذ طابعَ موسوعةٍ وجيزة فيما يجدر علمه من التاريخ الإسلاميّ. فهو عمل بديع من نوعه. والعجيب أنّ المسعوديّ اتّهمه بأخذ الموضوعات من كتب أبي حنيفة الدينَوريّ ووضعها في كتبه[١].

وخُصّص فصلٌ من كتاب المعارف في ترجمة الصحابة، وإن لم يكن بمنزلةِ كتابِ ترجمةٍ. وتلاه فصل عن الحكّام والسلاطين مع نبذة عنهم حتّىٰ عصر المعتمد العبّاسيّ. كما وقف فصلاً على الأشراف الذين كان لكلّ منهم تأثير في الحوادث المهمّة الواقعة في زمانهم نوعاً ما. وواصل كلامه عن التابعين في فصلٍ، وفصل آخر في التعريف بأهل الحديث. ثمّ تحدّث عن القرّاء، والنسّابين، والأخباريّين، والرواة، والأشعار، والمعلّمين، والمتهاجرين[٢]. وختم ببحث عن «الأوائل»[٣]، والفتوحات، وحكّام العراق، والفرق، والكتّاب وكتّاب الملوك والأُمراء، وملوك الحبشة، والحيرة والعجم. ويدلّ هذا الفهرس علىٰ أنّ ابن قتيبة كان في صدد تأليف كتاب جامع وموسوعة تاريخيّة لكنّها كانت موجَزة. وأفضل طبعة للكتاب هي طبعة ثروت عكاشة التي أصدرتها (انتشارات رضى) [دار الرضيّ للنشر] في قمّ سنة ١٤١٥ هـ[٤].

ومن مصنّفاته الأُخرى التي حوت معلومات تاريخيّة جمّة كتاب *عيون الأخبار* وهذا الكتاب من المصنَّفات الأدبيّة التي يتخصّص كلّ باب منها بموضوع اجتماعيّ أو سياسيّ أو أدبيّ. وجُمع فيه كلّ خبر، أو شعر، أو حكاية، أو كلمة قصيرة تتعلّق بالموضوع المنقول. وأصدرت دار الكتاب العربيّ ببيروت هذا الكتاب في أربعة أجزاء كما طُبع بالأوفسيت في قمّ. ويشتمل كتاب *الشعر والشعراء* لابن قتيبة علىٰ ترجمة لعدد كبير من الشعراء البارزين في العصر الجاهليّ والإسلاميّ، ووردت فيه أيضاً مادّة غزيرة حول تاريخ الأدب.

---

(١) *مروج الذهب* ٢: ٢٠٢.

(٢) كسعد بن أبي وقّاص الذي قدم العراق من المدينة.

(٣) فرع من كتابة التاريخ ميدانه الوقائع الأُولى.

(٤) كانت الطبعة السابقة لهذا الكتاب بتصحيح محمّد إسماعيل عبد الله الصاويّ في سنة ١٣٩٠ هـ، ١٩٧٠م.

ونُسب إليه كتاب *الإمامة والسياسة* في التاريخ. ويرىٰ ثروت عكاشة مصحّح كتاب المعارف أنّ نسبته إليه غير صائبة. ذلك أنّ الذين ترجموا له ـ إلّا أبا عبد الله التوزيّ المعروف بابن شباط ـ لم يذكروا هذا الكتاب في عداد كتبه. وجاء في الكتاب أنّ المصنِّف كان بدمشق في حين أنّ ابن قتيبة لم يرحل عن بغداد إلّا إلىٰ دينَور. ورُوي فيه عن أبي ليلىٰ، وأبو ليلىٰ كان قاضياً على الكوفة سنة ١٤٨ هـ، أي: قبل ولادة ابن قتيبة بخمسٍ وستّين سنةً. وورد في الكتاب خبر حول فتح الأندلس عن امرأةٍ كان المصنَّف قد رآها، وهذا أيضاً لا ينسجم مع السنة التي ولد فيها ابن قتيبة. وذُكرت فيه حملة موسى بن النصير علىٰ مراكش، والحال أنّ هذه الحاضرة بناها يوسف بن تاشفين سنة ٤٥٥هـ، ممّا لا يتّفق مع السنة التي توفّي فيها ابن قتيبة وهي سنة ٢٧٦هـ[١]. وربّما يكون السبب الأهمّ في وهم انتساب *الإمامة والسياسية* إلىٰ ابن قتيبة اختلاف نثره عن نثر مصنّفاته الأُخرىٰ. ويضاف إليه أنّ أُسلوبه في التاريخ يدلّ علىٰ أنّ ما كتبه في *المعارف* لا يتّفق مع ما جاء في *الإمامة والسياسة*. كما أنّ انتماءه المذهبيّ لا يوائم ما ورد في الإمامة والسياسة حول السقيفة واختلاف المسلمين. علماً أنّ في كتابه *الاختلاف في اللفظ* تعبيراً أثار الوهم في نزعته الشيعيّة ممّا دفع عكاشة إلى الإجابة عنه[٢]. وجعل ابن قتيبة نفسه نوعاً ما في مواجهة أهل الحديث الذين كانوا سنّة متعصّبين غاية التعصّب وذلك بسبب موقفه من المشبّهة. وامتعض في موضع آخر من أهل الحديث وتشكّاهم لإخفائهم فضائلَ الإمام عليّ عليه السلام، بخاصّة حديث الغدير، فلِمَ يكتمون هذه الحقائق محادّةً للمخالفين (الروافض)[٣]؟ وهو سنّيّ ولا علاقة له بالشيعة.

---

(١) *المعارف*: ٥٦. وانظر أيضاً: *التاريخ العربيّ والمؤرّخون* ١: ٢٤١.

(٢) مقدّمة *المعارف*: ٥٩.

(٣) ولفظه في كتابه *الاختلاف في اللفظ* (بتحقيق محمّد زاهد كوثريّ، ص٤٧ ـ ٤٩). «وقد رأيتُ هؤلاء ⇐

ومهما كان، فإنّ كتاب *الإمامة والسياسة* ـ ولو لم يكن لابن قتيبة ـ يعدّ من المصنّفات التاريخيّة ذات القيمة في القرن الثالث. وهو في الأصل تاريخ الخلفاء. وبدأ بخلافة أبي بكر، وانطلق من حوادث العراق فواصل الكلام حتّىٰ مقتل الأمين العبّاسيّ. وكثير من أخباره فريدٌ في بابه إذ تدعمه القرائن التاريخيّة الأُخرىٰ، لكنّها عينها لم ترد في ما سواها من الأخبار. من هنا فلا مناص من أن نحسب هذا المصنَّف من أمّهات المصادر لتاريخ الخلفاء الأُوَل حتّى العصر العبّاسيّ الأوّل. وأنجزت مطبعة مصطفىٰ البابيّ الحلبيّ طبعته القديمة بالقاهرة سنة ١٣٨٨ هـ[١]. أمّا طبعته الجديدة فقد

⇐ (أهل الحديث) أيضاً حين رأوا غلوّ الرافضة في حبّ عليّ وتقديمه علىٰ ما قدّمه رسول الله ﷺ وصحابته عليه ... قابلوا ذلك أيضاً بالغلوّ في تأخير عليّ كرّم الله وجهه وبخسه حقّه، ولحنوا في القول وإن لم يعرضوا إلىٰ ظلمه، واعتدوا عليه بسفك الدماء بغير حقّ، ونسبوه إلى الممالأة علىٰ قتل عثمان رضي الله عنه، وأخرجوه بجهلهم من أئمّة الهدىٰ إلىٰ جملة أئمّة الفتن، ولم يوجبوا له اسم الخلافة لاختلاف الناس عليه، وأوجبوها ليزيد بن معاوية لإجماع الناس عليه، واتّهموا من ذكره بغير خير. وتحامىٰ كثير من المحدّثين أن يحدّثوا بفضائله كرّم الله وجهه أو أن يُظهروا ما يجب له، وكلّ تلك الأحاديث لها مخارج صحاح، وجعلوا ابنه الحسين عليه السلام خارجيّاً شاقّاً لعصا المسلمين حلال الدم لقول النبيّ ﷺ: (من خرج علىٰ أُمّتي وهم جميع فاقتلوه كائناً من كان). وسوّوا بينه في الفضل وبين أهل الشورىٰ لأنّ عمر لو تبيّن له فضله لقدّمه عليهم، ولم يجعل الأمر شورىٰ بينهم. وأهملوا من ذكره أو روىٰ حديثاً من فضائله، حتّىٰ تحامىٰ كثير من المحدّثين أن يتحدّثوا بها وعنوا بجمع فضائل عمرو بن العاص ومعاوية كأنّهم لا يريدونها بذلك وإنّما يريدونه. فإنْ قال قائل: أخو رسول الله ﷺ عليّ وأبو سبطيه الحسن والحسين، وأصحاب الكساء عليّ وفاطمة والحسن والحسين تمعّرت الوجوه وتنكّرت العيون وطرّت حسائك الصدور. وإن ذكر ذاكر قول النبيّ ﷺ: (من كنتُ مولاه فعليّ مولاه)، و(أنت منّي بمنزلة هارون من موسىٰ) وأشباه هذا التمسوا لتلك الأحاديث المخارج لينتقصوه ويبخسوه حقّه بغضاً منهم للرافضة وإلزاماً لعليّ عليه السلام بسببهم ما لا يلزمه. وهذا هو الجهل بعينه».

(١) أوفسيت قمّ، دار الرضيّ للنشر، ١٤٠٥هـ.

نهض بها علي شيري مقرونةً بالفهارس[١].

يعقوب بن سفيان الفَسَويّ (حوالي ١٩٥ ـ ٢٧٧)

أبو يوسف يعقوب بن سفيان الفَسَويّ من المحدّثين والمؤرّخين في القرن الثالث الهجريّ. وقف سنينَ طويلةً من عمره على السفر إلى مدائن شتّىٰ من العالم الإسلاميّ لسماع الحديث، وهو من مدينة فَسَا في محافظة فارس. ورحل إلىٰ مكّة، ومصر، والشام، وحواضر مختلفة من العراق لتعلّم الحديث. ومات بالبصرة في الثالث عشر من رجب سنة ٢٧٧ هـ وعمره يربو على الثمانين. وأهمّ مصنَّف له هو *المعرفة والتاريخ* الذي طُبع في أربعة أجزاء بتصحيح أكرم ضياء العمريّ[٢]. و«المعرفة» هي معرفة الرجال، و«التاريخ» هو التاريخ حسب السنين. وسنلحظ أنّ الكتاب مزيجٌ من الأُسلوبين.

ووثّقه أصحاب الرجال بأسرهم، ووصفوه بالعبادة والزهد والتقوىٰ. ونسبه ابن الأثير إلى التشيّع[٣]. وقال ابن كثير: بلغ يعقوبَ بن الليث الصفّاريّ أنّه يتكلّم في عثمان بن عفّان فأمر بإحضاره. فقال له وزيره: إنّه لا يتكلّم في شيخنا عثمان بن عفّان السجزيّ، إنّما يتكلّم في عثمان بن عفّان الصحابيّ. فقال: دعوه مالي وللصحابيّ![٤] وبقي من مصنّفاته كتاب *المعرفة والتاريخ* الذي يقع في ثلاثة أجزاء، وفُقد جزؤه الأوّل. كما بقي قسم من كتابه الموسوم *بالمشيخة*. وكان كتاب *المعرفة* في متناول المؤرّخين المتأخّرين. وأفادت منه مصادر متنوّعة وأثنت عليه غير مرّة[٥]. ومن

---

(١) وهذا الكتاب طبعته دار الرضيّ للنشر أيضاً وذلك سنة ١٣٧١ شمسيّ الموافق ١٩٩٢ م، ومن المؤسف أنّه لم يحتفظ باسم الناشر وعام الإصدار من الطبعة التي طبع عليها بالأوفسيت.

(٢) *المدينة المنوّرة*، مكتبة الدار، ١٤١٠هـ.

(٣) *المعرفة والتاريخ* ١٠: ١٥.

(٤) *البداية والنهاية* ١١: ٦٠.

(٥) انظر: *مقدّمة المعرفة والتاريخ*: ٢٢.

المؤسف أنّ قسمه المفقود هو تاريخ عامّ للإسلام علىٰ أساس السنين، وبلغ به حتّىٰ عصر السفّاح. وأرجع مصحّح الكتاب في المقدّمة ما نُقل من هذا القسم في الكتب الأُخرىٰ[١].

وتابع الجزءان الآخران الباقيان حوادث التاريخ الإسلاميّ من سنة ١٣٦ حتّىٰ سنة ٢٤٢ هـ. وأورد المصنّف لكلّ سنةٍ فهرساً لحوادثها. وهكذا ينبغي أن نعدّ كتابه من التواريخ العامّة للقرن الثالث الهجريّ ككتاب اليعقوبيّ، والدينَوَريّ، ولا سيّما تاريخ خليفة. والموضوعات التي نقلها في ذيل كلّ سنة موجزة وقصيرة. وقدّم معلومات رائعة عمّا جرىٰ في السنين التي عاصرها، ومن ذلك تعيين قبر ابن شهاب الزُهريّ، وبعض ما كان كُتب علىٰ جدار المسجد الجامع بدمشق من تاريخ البناء، والآيات القرآنيّة المنقوشة عليه منذ عصر الوليد بن عبدالملك[٢].

واتّخذ كتابه طابع الترجمة والرجال بعد بيان الحوادث الواقعة سنة ٢٤٢ هـ. فبدأ بترجمة الصحابة، وثنّىٰ بالتابعين. واستطرد بعناوين مثل «معرفة القضاة»، وفضائل مصر والصحابة الذين دخلوها، وكذلك الشام وتابعيها، ثمّ أخبار الكوفة والصحابة والتابعين الذين كانوا فيها، وفصل في أبي حنيفة وأصحابه، وكذا الأعمش. فهو يماثل *الطبقات الكبرىٰ* لابن سعد في هذا الاتّجاه، وتُلحظ فيه تراجم ومعلومات تاريخيّة متنوّعة جمّة.

وفي ضوء ما استقصاه مصحّح الكتاب فإنّ مصنّف الكتاب نقل فيه عن (٢٣٢) شيخاً. ويضاف إليه أنّه أخذ بعض الموضوعات من علماء ومؤلّفين قبله، وهي من كتبهم في مواضع من مصنَّفه. ونقل في السيرة (٤٠) نصّاً عن عروة بن الزبير، وهي ممّا لا ينبغي أن تُنقَل عن كتابة كما ارتأى المصحّح ذلك. والكتاب الذي ورد فيه حديث

---

(١) *مقدّمة المعرفة والتّاريخ*: ٢٣ ـ ٤٠. (٢) نفسه: ٥٢.

الزهريّ من مصادر الفسويّ أيضاً. وبعض العلماء الذين يُحتمل أنّه أفاد من مصنّفاتهم هم محمّد بن إسحاق، وعبد الملك بن جريج (م١٥٠)، ومعمر بن راشد (م١٥٣)، والليث بن سعد (م١٧٥)، وأبو نعيم الفضل بن نعيم (م٢١٩)، وعدد آخر من المحدِّثين[١].

محمّد بن إسحاق الفاكهيّ (٢١٧ ـ ٢٧٢ إلىٰ ٢٧٨)

أبو عبد الله محمّد بن إسحاق الفاكهيّ أحد المؤرّخين في القرن الثالث الهجريّ. وصل إلينا نصف من كتابه المهمّ، وعنوانه *أخبار مكّة*. وهذا الكتاب كما يبدو من المصنّفات التي تعدّ من التواريخ المحلّيّة ككتاب *أخبار مكّة* للأزرقيّ، و*تاريخ المدينة المنوّرة* لابن شبّه، لكنّه لمّا كان مشتملاً علىٰ معلومات حول المدينتين الأصليّتين مكّة والمدينة، فيجدر الاهتمام به كسائر المصادر في التاريخ الإسلاميّ. وقلّ وجود ترجمة للفاكهيّ في المراجع القديمة، إلّا أنّ الفاسيّ أورد له ترجمة موجزة في *العقد الثمين*، وكذلك ابن حجر في *تغليق التعليق*. وحاول المصحّح الكريم للكتاب عبد الملك بن دهيش أن يأتي في المقدّمة بما صحّ من معلومات متفرّقة عنه[٢].

وكان سعيد بن منصور المتوفّىٰ سنة ٢٢٧ هـ من أقدم شيوخه. وإذا كان عمره عند نقله عنه عشر سنين في الأقلّ، فولادته في سنة ٢١٧ لا محالة. ومن جهة أخرىٰ ذكر الفاسيّ أنّه كان حيّاً في سنة ٢٧٢ هـ. ويُحتمل أنّه توفّي في الفترة الواقعة بين سنة ٢٧٢ و٢٧٨[٣]. ويستشفّ من بعض الأخبار أنّه كان معاشراً لأُمراء مكّة، لذا كان وجيهاً

---

(١) مقدّمة *المعرفة والتاريخ*: ٥٢.

(٢) طبعه في ستّة أجزاء (ثلاثة مجلّدات) بأفضل شكل ومن الحريّ بالذكر أنّ قسماً منه طُبع قبل ذلك في مجموعة اشتملت علىٰ قسم من كتب التاريخ المتعلّقة بمكّة. انظر: *تاريخ التّراث العربيّ*، *التدوين التاريخيّ*: ٢٠٧.

(٣) انظر: مقدّمة *أخبار مكّة*: ٣٢.

وعالماً بارزاً. وجاء كتابه *أخبار مكّة* مُسنَداً، إذ روىٰ فقط في الجزء الثاني منه عن (٢٣١) شيخاً. ومن أهمّ مشايخه: محمّد بن إسماعيل البخاريّ، ومسلم بن الحجّاج، وأبو حاتم الرازيّ، وأبو زرعة الجرجانيّ، وإبراهيم بن يعقوب الجوزجانيّ، وحسن ابن عرفة العبديّ، والزبير بن بكّار. وأورد المصحّح جدولاً بأسماء مشايخه مع تحديد عدد الأخبار التي نقلها عنهم.

ويكتسب الكتاب أهمّيّته من جهود مصنّفه في تهيئة الأخبار التاريخيّة المهمّة، واحتفاظه بنصوص بعض الكتب المفقودة. فقد حوىٰ سبعةً وأربعين نصّاً من كتاب *تاريخ مكّة والمسجد الحرام* لعثمان بن عمرو بن الساج؛ وستّةً وعشرين من كتاب الواقديّ في مكّة؛ ومئة وسبعة وأربعين من مصنّفات الزبير بن بكّار الذي كان له كتاب *أخبار مكّة*، وأحد عشر من كتاب أبي عبيدة معمر بن المثنىٰ الذي كان في آبار مكّة. وثلاثة عشر من كتاب *المغازي* لموسى بن عقبة. كما احتفظ بمقاطع من بعض المصنّفات الحديثيّة المندثرة[1].

وخصّص الكتاب عدداً من فصوله للبيت الحرام وملحقاته المقدّسة كالحجر الأسود، والملتزَم، وطواف الكعبة، ومقام إبراهيم، وزمزم، والمسجد الحرام، والصفا والمروة. وعدداً آخر منها لتاريخ مدينة مكّة وتطوّراتها وتبدّلاتها والسيول التي أتت عليها قبل الإسلام وبعده[2]. ومن أروع فصوله فصل يدور حول موقع الأحياء والبيوت، وقد روعيت فيه دقّة بالغة. ووردت في فصول أُخرىٰ منه معلومات جغرافيّة حول مكّة، آبارها، وطرقها، وموقع منىٰ وعرفات والمشعر، والمساجد والمنازل التي صلّىٰ فيها رسول الله ﷺ. كما اهتمّ الكتاب في فصول خاصّة منه ببعض

---

(١) *أخبار مكّة*، الفاكهيّ، المقدّمة، ص ٣٤، ٣٥.

(٢) انظر: مجلّة *ميقات*، العدد الثالث، مقالة في التعريف بكتاب *أخبار مكّة* للفاكهيّ.

الموضوعات الفقهيّة إذ تُلحَظ فيه روايات مرتبطة بأحكام الحرم، والأحكام المتعلّقة بشراء دور مكّة وبيعها واستئجارها، ونحو ذلك.

ويذكر مصحّح الكتاب أنّ الجزء الأوّل المفقود يشتمل علىٰ مباحث في تاريخ مكّة من البداية حتّىٰ هجرة النبيّ ﷺ. والدليل علىٰ ذلك أنّنا لا نجد في القسم الباقي منه الموضوعات المتعلّقة بعصر البعثة إلّا ما أورده بشأن بيعة العقبة عند حديثه عن منىٰ. وعلىٰ ما نقله الفاسيّ في *العقد الثمين* وما نقله غيره من الجزء الأوّل من كتاب الفاكهيّ فإنّ المصنّف أضاف في الصفحة الحادية عشرة والمئة فما تلاها من الجزء الخامس قسماً تحت عنوان «ملحق». وتدلّ أخبار هذا القسم علىٰ رأي المصحّح نفسه وهو أنّ الجزء الأوّل من الكتاب كان في تاريخ مكّة من الجاهليّة حتّىٰ هجرة النبيّ ﷺ إلى المدينة.

أحمد بن يحيى البلاذريّ (١٧٠ إلىٰ ١٨٠ ـ ٢٧٩)

أحمد بن يحيى بن جابر البلاذريّ البغداديّ الكاتب من أهمّ المؤرّخين والنّسابين في القرن الثالث الهجريّ. وسنة ولادته مجهولة، إلّا أنّ أقدم شيوخه هو وكيع بن الجرّاح المتوفّىٰ عام (١٩٧) علىٰ ما قيل، فلا بدّ أن يكون عمره يومئذٍ بين سبعٍ وعشر سنين[١]. وذكره ومصنَّفاتِه ابنُ النديم وعدّه من مترجمي الكتب الفارسيّة إلى العربيّة، ومن مصنّفاته ترجمة عهد اردشير شعراً[٢]. كما ذكره ياقوت بتفصيل أكثر. ويستشفّ من إيراده مشايخَه أنّه أخذ علمه من المحدّثين الشاميّين والعراقيّين[٣].

وكان البلاذريّ من أهل الشعر أيضاً، ومعظم شعره في الهجاء. وله شعر في مدح

---

(١) *موارد البلاذريّ* ١: ٤٨.

(٢) *الفهرست*: ١٢٦، ١٢٧.

(٣) *معجم الأدباء* ٥: ٩١.

المأمون، وصار بعده من ندماء المتوكّل (م ٢٤٧)، ثمّ المستعين (م ٢٥١)[١]. ولعلّ هذا هو الذي ولّد فيه الميول العبّاسيّة، والدليل علىٰ ذلك أنّه لم يُسَمِّ أحداً من الأمويّين خليفةً إلّا عثمانَ وعمرَ بن عبد العزيز. ولم يتحدّث عن الأمويّين في الأندلس أيضاً.

وترك البلاذُريّ كتابَين نفيسَين هما: فتوح *البلدان* الذي أثنىٰ عليه المسعوديّ، وذكر أنْ لا كتاب أفضل منه في فتح البلدان. وموضوعه فتح البلدان في القرون الإسلاميّة الأُولىٰ. والآخر *أنساب الأشراف* الذي تناول فيه تاريخ العصر الإسلاميّ في قالب علم الأنساب والسلالات. وعناوينه الأُخرىٰ: *الأخبار والأنساب*، وجمل *أنساب الأشراف*، و*أنساب الأشراف وأخبارهم* و*تاريخ الأشراف*. وصُنِّف هذا الكتاب علىٰ أساس النسب، لكنّه أورد في مجال المعلومات التاريخيّة أخباراً أكثر من الطبريّ في مواضع جمّة من الكتاب. وإذ حاول أن يأتي بترجمة الشخصيّات البارزة، فإنّ المعلومات التي قدّمها تتمثّل في مجالين هما التاريخ والترجمة. وهذه مزيّة للكتاب علىٰ غيره من الكتب التاريخيّة. علماً أنّه يخلو من نَسَقٍ منطقيّ. علىٰ سبيل المثال، ذكر قرابة (٣٤٨٣) خبراً عن الأمويّين في حين تبلغ أخبار الطبريّ فيهم (٦٣٨). بكلمة أخرىٰ، شغلت أخبار الأمويّين ثلث الكتاب[٢].

وبدأ البلاذُريّ حديثه بنسب العدنانيّين. فشرع كلامه ببني هاشم، وثنّىٰ ببني عبد شمس الذي استأثر بحجم أكبر. وبعد فراغه من أخبار قريش، طفق يتحدّث عن القبائل الأُخرىٰ.

ولا سبيل لنا اليوم إلىٰ معظم المصادر التي أفاد منها، لكنّه بانتقائه المعلومات التي عرضها ترك لنا نصّاً في غاية الروعة والنفاسة. فقد نقل عن المدائنيّ وحده (١٤١٦)

---

(١) *لسان الميزان* ١: ٣٢٣؛ وانظر: *موارد البلاذريّ* ١: ٥٧؛ مقدّمة *أنساب الأشراف*، تصحيح زكّار، ص ش.

(٢) *موارد البلاذُريّ* ١: ١٠.

خبراً[١]، وكان كتاب ابن سعد من مصادره أيضاً[٢]. والشيء العجاب هو إغفال المؤرّخين كتابه علىٰ مرّ الأعصار الممتدّة عمداً وسهواً. وطُبع هذا الكتاب متفرّقاً غيرَ طبعته الأخيرة.

كما طُبع قسم منه بألمانيا سنة ١٨٨٣ م تحت عنوان الجزء الحادي عشر لمؤلِّف مجهول. كما طبع بالقدس سنة ١٩٣٨ و ١٩٧١ م جزءان، أحدهما تحت عنوان الجزء الرابع ـ القسم الأوّل، والآخر القسم الخاصّ بمعاوية تحت عنوان الجزء الرابع والجزء الخامس. وتولّى المعهد الألمانيّ ببيروت طبع هذين الجزءين لاحقاً بعد أن أعدّهما إحسان عبّاس بعنوان القسم الرابع من الجزء الأوّل مع تغييرات طفيفة زيادةً ونقصاً. وقام المعهد نفسه بطبع جزء آخر منه بعنوان القسم الثالث وذلك بجهود عبد العزيز الدوريّ، ويشتمل علىٰ أخبار العبّاس بن عبد المطّلب وأبنائه. كما جدّت مؤسّسة الأعلميّ بطبع الجزء الثاني وقسم من الجزء الثالث في مجلّدين سنة ١٩٧٤ م بتحقيق الأُستاذ محمّد باقر المحموديّ مع حواشٍ مفصّلة، وهما في أخبار الطالبيّين. وطُبع الجزءان الأخيران في مجلّد واحد بقمّ سنة ١٤١٦ هـ بعد إجراء تغيير علىٰ شكلهما. وأصدرت دار المعارف بمصر مجلّداً واحداً منه بإعداد محمّد حميد الله، وهو في أخبار السيرة. وطُبع منه مجلّد آخر أيضاً بالرياض سنة ١٤١٤ هـ، ويشتمل علىٰ أخبار أبي بكر وعمر، وأخذ إحسان العمد معظم أخباره من طبقات ابن سعد. واضطلع خليل الثمينة بطبع مجلّد آخر من هذا الكتاب تحت عنوان الجزء السادس، القسم ب (Hebrew University, 1993)، وموضوعه هشام بن عبد الملك[٣]. وبغضّ النظر

---

(١) *موارد البلاذريّ* ١: ٣١.　　(٢) نفسه ١: ٢٤٦.

(٣) انظر في هذا الشأن: نامه *فرهنگستان* [رسالة مجمع اللغة]، السنة الثانية، ١٣٧٥ شمسيّ، العدد الأوّل، ص١٥٢. وبذريعة التعريف بهذا القسم من الأنساب، وردت توضيحات لا تخلو من إشكال في نسخة اسطنبول والأقسام المطبوعة وغير المطبوعة منها.

عن الطبعات المذكورة، ظهرت طبعة جديدة في الأسواق ذات ثلاثة عشر جزءاً بجهود سهيل زكّار ورياض زركي[١]. ومع أنّ *أنساب الأشراف* صُنِّف في القرن الثالث، إلّا أنّنا لا نجد له ذكراً في الكتابات المتأخّرة، لاسيّما كتابات أبي الفرج الاصفهانيّ. وقلّ النقل عنه حتّىٰ في القرون التالية أيضاً، من هنا نلحظ أنّ مخطوطاته مبعثرة[٢].

أبو حنيفة الدِينَوَريّ (م ٢٨٢)

كان الدينوريّ[٣] رياضيّاً ومنجّماً وأديباً قبل أن يكون مؤرّخاً. رحل إلىٰ إصفهان سنة (٢٣٥)، وانشغل فيها بعلم الفلك والهيئة وتسجيل نتائج الإرصاد التي يقوم بها في معمله الفلكيّ. وبلغت منزلته الأدبيّة مبلغاً أنّه قِيسَ بالجاحظ. وذكر أبو سعيد السيرافيّ أنّ أبا حنيفة أكثر نداوةً، وأبا عثمان ـ الجاحظ ـ أكثر حلاوةً. وأُثر له واحد وعشرون مصنَّفاً في موضوعات شتّىٰ[٤].

وأحصىٰ ابن النديم مصنّفاته وذهب إلىٰ أنّه أخذ علمه من البصريّين والكوفيّين،

---

(١) بيروت، دار الفكر، ١٤١٧هـ. وموضوعات هذه الأجزاء كما يأتي: الأوّل: *السّيرة النّبويّة*. الثاني: الشمائل النبويّة وأخبار عليّ بن أبي طالب عليه السلام. الثالث: أخبار عليّ بن أبي طالب عليه السلام وأولاده. الرابع: أخبار العبّاس وأبنائه. الخامس: أخبار بني عبد شمس. السادس والسابع والثامن: أخبار بني أُميّة بن عبد شمس. التاسع: بنو عبد شمس وبنو عبد العزّىٰ بن قصيّ. العاشر: بنو زهرة ـ بنو عديّ. الحادي عشر: بنو عامر بن لؤيّ وبنو مزينة. الثاني عشر: مرّة بن أدين طابخة ـ بنو سعد بن زيد بن مناة بن تميم. الثالث عشر: بنو عمرو بن تميم ـ بنو ثقيف.

(٢) أورد سزگين معلومات حول نُسَخِهِ، انظر: *تاريخ التّراث العربيّ*، ج ١، الجزء الثاني، ص ١٥٢. وقيل إنّ سهيل زكّار أصدر المجلّدات المطبوعة وغير المطبوعة في مجموعة موحَّدة.

(٣) تقع دينور بين كرمانشاه وسنقر وكليائيّ. وتُعرف في مصادر التاريخ الإسلاميّ بماه الكوفة.

(٤) مقدّمة *الأخبار الطوال* لصادق نشأت، ص: يح.

وعدّه متبحّراً في اللغة، والهندسة، والحساب والهيئة، كما وثّقه[1].

وفي الوقت نفسه يُلحَظ أنّ كتابه المهمّ *الأخبار الطوال* ذو قيمة عالية وحاوٍ أخباراً طريفةً من الطراز الأوّل. وكان الدينوريّ فارسيّاً، ومع تحرّره من النزعة الشعوبيّة، فإنّ اهتمامه ببلاد فارس جعل كتابه مصدراً مهمّاً لتاريخها.

ويشتمل كتابه علىٰ ثلاثة أقسام: الأوّل في أخبار الأنبياء ومَن مضىٰ مِن الملوك. الثاني: أخبار فارس. الثالث: أخبار العصر الإسلاميّ حتّىٰ سنة (٢٢٧). وينبغي أن نعدّه في جملة التواريخ العامّة التي ظهرت في زمن تطوّر كتابة التاريخ الإسلاميّ وازدهارها إلىٰ جانب *تاريخ اليعقوبيّ*، و*تاريخ خليفة بن الخيّاط* وغيرهما من المصنَّفات المفقودة.

والقسم الأعظم من أخباره يدور حول العراق وتطوّرات الكوفة. من هنا فإنّ مجال اهتمامه يماثل أبا مخنف في كتاباته وإن كان قد ذكر موضوعات لافتة للنظر حول عصر ما بعد الأمويّين أيضاً.

ولم يتعرّض الدينوريّ في كتابه إلى السيرة النبويّة، كما لم يتناول من عصر الخلفاء الأُوَل إلّا الفتوحات. وتحدّث عن عثمان والقضايا الجارية في عصره، واستعرض الحياة السياسيّة للمجتمع الإسلاميّ في عصر الإمام عليّ عليه السلام. ثمّ واصل كلامه عن الأمويّين والعبّاسيّين، ولم يخرج من موضوع حوادث العراق. ومن البحوث الأصليّة للكتاب تأسيس بغداد، ومقتل أبي مسلم، وثورة النفس الزكيّة، وسيرة الأمين والمأمون، وتمرّد بابك.

ويدلّ هذا المسار علىٰ أنّه كان يريد عرض الأخبار المتعلّقة بإيران فحسب. وقسم من أخباره في حوادث العراق ذو قيمة عالية. ومنه أخبار كربلاء التي شغلت

---

(١) *الفهرست*: ٨٦. وأورد عبد المنعم عامر ترجمته في مقدّمة الكتاب.

صفحات كثيرة من الكتاب (ص٢٢٩ ـ ٢٦٢). وهذا الحجم كبير قياساً بغيره. وفي الوقت نفسه لا يمكن أن نشير إلىٰ تشيّعه. ويبدو عجيباً ما نقله عن موسى بن جعفر عليه السلام أنّه حدّث هارون بالخلافات التي ستنشب بين الأمين والمأمون.

وذُكر في *الأخبار الطوال* عدد من الكتب منها كتاب *الملوك وأخبار الماضي* لعبيد ابن شريّة الجرهميّ الذي كان ينقل التاريخ لمعاوية. وتُلحظ إلىٰ جانب هذا تعابير نحو: قال الهيثم (بن عديّ)، وقال الكلبيّ، وقال الأصمعيّ... وهي تدلّ علىٰ بعض مصادر الكتاب.

واحتمل البعض أنّ الكتاب الموجود هو لمؤلّف آخر، لأنّ عنوانه ـ *الأخبار الطوال* ـ لا ينسجم وحجم الكتاب[1]. لكنّ هذا لا يمكن أن يكون دليلاً صحيحاً علىٰ نفي النسبة المعروفة للكتاب المذكور.

وتُرجم الكتاب بالفارسيّة مرّتين. الأولىٰ أنجزها صادق نشأت الذي طبعت مؤسّسة الثقافة الإيرانيّة ترجمته سنة (١٣٤٦) شمسيّ (١٩٦٧ م). والأُخرىٰ قام بها محمود مهدوي دامغاني، وطبعتها دار «نَيْ» للنشر سنة (١٣٧١) شمسيّ (١٩٩٢ م). وعرض المركز الكومبيوتريّ للعلوم الإسلاميّة في قمّ أخيراً النصّ العربيّ وترجمته الفارسيّة في CD نور السيرة.

أبو إسحاق الثقفيّ (م ٢٨٣)

أبو إسحاق إبراهيم بن محمّد بن سعيد الثقفيّ الكوفيّ الإصفهانيّ أحد المؤرّخين في النصف الثاني من القرن الثالث الهجريّ. وهو من نسل سعد بن مسعود الذي كان ابن

---

(١) *التاريخ العربيّ والمؤرّخون* ١: ٢٤٨. انظر بشأن *الأخبار الطوال*: مجلّة نور علم، العدد ٣٨، ص١٥٤ ـ ١٦٣.

عمّ المختار ووالي المدائن في خلافة الإمام عليّ عليه السلام.

وذكره النجاشيّ وأحصىٰ مصنّفاته مفصّلاً. وأورد أنّه انتقل إلىٰ إصفهان وأقام بها. وكان زيديّاً أوّلاً ثم انتقل إلينا (الإماميّة). ووفد إليه جماعة من القمّيّين كأحمد البرقيّ وسألوه الانتقال إلىٰ قمّ، فأبىٰ، واختار إصفهان لكثرة النواصب فيها. وحلف أن لا يروي كتابه إلّا بها. ثمّ قال: وله مصنّفات كثيرة. ثمّ عدّ ستّةً وثلاثين منها، وهي تاريخيّة إلّا قليلاً منها.

وكتاباته أحاديّة الموضوع كأبي مخنف والمدائنيّ وهشام الكلبيّ. ومعظمها يتعلّق بالتطوّرات الشيعيّة في العراق. ومنها: كتاب *المبتدأ*، كتاب *السيرة*، كتاب *المغازي*، كتاب *السقيفة*، كتاب فدك، كتاب *الردّة*، أخبار عمر، كتاب *الشورىٰ*، أخبار عثمان، كتاب **مقتل عثمان**، كتاب **بيعة عليّ** عليه السلام، كتاب **الجمل**، كتاب **صفّين**، كتاب **الحكمين**، كتاب **النهروان**، كتاب **الغارات**، كتاب **مقتل عليّ** عليه السلام، كتاب **رسائله وأخبار**ه عليه السلام، كتاب **قيام الحسن** عليه السلام، كتاب **مقتل الحسين** عليه السلام، كتاب **التوّابين**، وغيرها[1].

وترتيب الكتب المذكورة منّا، ويبدو أنّه صنّفها متقاربةً لتكون تاريخاً عامّاً في جميع التطوّرات الواقعة آنذاك. وعندما نتحدّث عن الكتابات الأحاديّة الموضوع عادةً، فعلينا الالتفات إلىٰ أنّها يمكن أن تكون أبواباً مختلفة ككتاب واحد. ولعلّ عنوان الكتاب هنا، كالذي يستعمل في أبواب الفقه وهو تراث العصر الأوّل، بمعنى الباب أو الفصل.

ولم يبق من كتبه إلّا كتاب *الغارات*. وهو الذي طبعته جمعيّة المصنَّفات الوطنيّة سنة (١٣٥٥) شمسيّ (١٩٧٦ م) بتصحيح الأُستاذ المحدِّث الأرمويّ الذي فصّل الكلام عنه في المقدّمة، وذكر فهرساً لمشايخه البالغ عددهم اثنين وثلاثين، ورواته الذين

---

(١) *رجال النجاشيّ*: ١٧.

كانوا اثني عشر. وصدرت طبعة أخرىٰ للكتاب ببيروت سنة ١٤٠٧هـ بتصحيح المرحوم السيّد عبد الزهراء الحسينيّ.

ويتناول هذا الكتاب الفترة التاريخيّة الواقعة بين النهروان واستشهاد الإمام عليّ عليه السلام. وهي الفترة التي كان معاوية يشنّ فيها الغارات علىٰ مناطق مختلفة من العراق والحجاز واليمن للسلب والنهب وترويع الناس إمعاناً منه في إضعاف العراق. وهذه الغارات هي التي دوّن الثقفيّ تاريخها. ويضاف إلى الغارات أنّه تحدّث كثيراً عن شخصيّة الإمام عليّ عليه السلام وفضائله ومناقبه.

ومن كتبه كتاب *المعرفة* الذي كان في المناقب والمثالب. وكان عند ابن طاووس (م ٦٦٤)، فذكره ونقل منه في كتبه: *اليقين*، و*سعد السعود*، و*الطرائف*، و*كشف المحجّة*[١]. ولعلّ هذا الكتاب هو الذي حمله علىٰ مغادرة الكوفة بعد أن لم يُجَز روايتَه فيها. ونقل الطَبْرِسيّ في *إعلام الورىٰ* خبراً منه في فتح خيبر[٢]. وكان عند ابن طاووس أيضاً كتاب آخر من كتب الثقفيّ وهو كتاب *الحلال والحرام* الذي نقل منه في كتابه *إقبال الأعمال*. وقيل من المحتمل أنّ هذا الكتاب هو نفسه كتابه *الجامع في الفقه والأحكام* الذي ذكره النجاشيّ[٣].

أخبار الدولة العبّاسيّة (القرن الثالث)

وهو من المصنَّفات المجهول مصنِّفها في القرن الثالث، لكنّه ذو قيمة تاريخيّة. ولم يُعرف المصنِّف لنقص الصفحات الأُولىٰ من هذه النسخة الفريدة الباقية. وطُبعت هذه

---

(١) *كتابخانه ابن طاووس* [مكتبة ابن طاووس]: ٤٠٦، رقم ٣٦٩.

(٢) *إعلام الورىٰ* ١: ٣٦٥.

(٣) *كتابخانه ابن طاووس* [مكتبة ابن طاووس]: ٢٩١، رقم ١٧٢.

النسخة مرّةً بنحو تامّ مصوَّرةً. وصدر قسم منها مقروناً بالترجمة والتعليقات باللغة الروسيّة. وتتألّف من جزءين، الأوّل في تاريخ العصر الأوّل من الخلافة وتاريخ الأمويّين؛ والثاني في أخبار الدولة العبّاسيّة. ونشر الدكتور عبد العزيز الدوريّ وعبد الجبّار المطّلبي القسم الثاني تحت عنوان *أخبار الدولة العبّاسيّة وفيه أخبار العبّاس* وولده (بيروت، دار الطليعة، ١٩٧١ م). وذهب المحقّق إلىٰ أنّ الكتاب المذكور صنِّف في القرن الثالث اعتماداً على القرائن التي أوردها في المقدّمة، واحتمل أن مصنِّفه هو محمّد بن صالح بن مهران بن النطاح (م ٢٥٢). وهذا الكتاب بالغ الأهمّيّة لاشتماله على الأخبار المتعلّقة بظهور الدعوة العبّاسيّة وتبلور دولتها، ولهذا السبب يعدّ مصنَّفاً ممتازاً. وأُخذت أخباره من مصنَّفات لمؤرّخين مشهورين منهم: أبو مخنف (م ١٥٧)، وعوانة بن الحكم (م ١٤٧)، وهيثم بن عديّ (م ٢٠٧)، والمدائنيّ (م ٢٣٥)، وغيرهم كالواقديّ، وهشام الكلبيّ، ومصعب الزبيريّ، ومحمّد بن سلام.

وللمصنِّف هوىً تامّ في بني العبّاس وما يستشفّ من محتوىٰ كتابه هو علاقته الودّيّة بهم، كما أنّه أفاد من معلوماتهم. والرؤية التي تطبع الكتاب رؤية عبّاسيّة في العصر الأوّل، وإلىٰ ما قبل المهديّ علىٰ سبيل الدقّة[1]. ومهما كان فإنّ المعلومات التي

---

(١) قال المصنِّف بشأن الكيسانيّة في ص١٦٥: «قالت الكيسانيّة بإمامة محمّد بن عليّ. وذكروا أنّ أباه أوصىٰ إليه. والكيسانيّة منسوبون إلى المختار بن أبي عبيد، وكان يلقّب بكيسان، وهو أوّل من قال بإمامة محمّد بن عليّ. وبها كان يقول عليّ بن عبد الله وولده إلىٰ أيّام المهديّ. وكان تشيّع العبّاسيّة أصله من قبل محمّد بن الحنفيّة، وإلىٰ ذلك دعا أبو مسلم حتّىٰ كان زمان المهديّ، فردّهم المهديّ إلىٰ إثبات الإمامة للعبّاس بن عبدالمطّلب، وقال لهم: إنّ الإمامة كانت للعبّاس عمّ النبيّ ﷺ فإنّه كان أولى الناس به وأقربهم إليه. ثمّ من بعده عبد الله بن العبّاس، ثمّ بعده عليّ بن عبد الله، ثمّ من بعده محمّد بن عليّ، ثمّ من بعده إبراهيم بن محمّد، ثمّ أبو العبّاس، ثمّ أبو جعفر ...» (أي: أنّه نقل إمامة العبّاسيّين من النبيّ ﷺ إلى العبّاس ثمّ إلىٰ أعقابه لا من طريق محمّد بن الحنفيّة ونجله أبي هاشم، وانتقلت بعده إلى العبّاسيّين كما يعتقد به الجيل الأوّل من ملوك العبّاسيّين).

عرضها حول ظهور الدعوة العبّاسيّة من سنة (١٠٠) هـ فما تلاها، والصورة التي قدّمها للنقباء والدعاة فريدة ذات قيمة في كثير من المواضع.

وتدلّ الدراسات الأخيرة حول هذا الكتاب أنّه لأبي عليّ أحمد بن إسماعيل بن سمكة البجليّ القمّيّ (أوائل القرن الرابع) الذي عبّرت بعض المصادر عن كتابه «بالعبّاسيّ». وقال الدكتور حسين المدرّسيّ في كتاب Tradition and Surviral، ص٤٢٠: يبدو أنّ موشي شارون كان أوّل من ذهب إلىٰ أنّ الكتاب المذكور جزء من كتاب «العبّاسيّ» كما جاء في مقالته المنشورة سنة ١٩٧٣م (علىٰ ما ورد في كتابه Black Banners From the East: 233-236). ونقل منه حسن بن محمّد القمّيّ في *تاريخ قمّ*: ١٤٥ ـ ١٤٦، ٢٠٠، ٢٣٦، ٢٣٧. (انظر: كتاب *كتابشناسى آثار مربوط* به قم: ١٩). إذ إنّ الخبرين الأخيرين وردا في المتن المطبوع (٨٤ ـ ٨٥، ١٦٥ على الترتيب). ونُقل خبر آخر عن مؤلّف كتاب «العبّاسيّ» أبي عليّ أحمد بن سمكة النحويّ في «تاريخ قمّ»: ٢١٧ ـ ٢١٨، وهو من هذا الكتاب حتماً وإنْ لم يصرّح به. وجاء خبر آخر في «المناقب» ٣: ١٩١ عن «تاريخ القمّيّ» ويمكن أن يكون مأخوذاً من الكتاب المقصود، أو حدث تصحيف في الاسم، فأُخذ من كتاب «تاريخ أحمد بن إبراهيم العمي» الذي كان تلميذاً للمؤرّخ عبد العزيز بن يحيى الجلوديّ (م ٣٣٢) (النجاشيّ: ٩٦؛ فهرست الطوسيّ: ٣٠؛ رجال الطوسيّ: ٤١١، ٤١٦). وفي الوقت نفسه لم يعرف شارون مصنِّف الكتاب. ولم يلتفت من صحّح الكتاب إلىٰ رواية المصنِّف عن عليّ بن إبراهيم القمّيّ (كان حيّاً سنة ٣٠٧) الواردة في ص٣٢ من المتن المطبوع، وكذا إلىٰ روايته عن سليم بن قيس الواردة في ص٤٥ ـ ٤٧ من المتن المذكور، وأيضاً إلى النقل عن المصادر الشيعيّة الأخرىٰ مواضع متعدّدة. وكان المصنِّف أُستاذاً لأبي الفضل بن العميد (م ٣٦٠) وزير البويهيّين الذي صنَّف له رسالة ذات مئتي ورقةٍ. ويُلحظ نصّ لإحدىٰ رسائله المكتوبة إلى ابن العميد في مخطوطة قديمة

استُنسخت في عام ٧٥٤. وهي في المكتبة الخاصّة لأصغر مهدوي بطهران (فهرست: ١٤٢ ـ ١٤٣). وفي متناوَل الأيدي صورة للنسخة المذكورة تحت عنوان «جُنْگِ مهدوي» «كشكول مهدوي». وورد النصّ المعهود في ص١٩٢ ـ ١٩٣ من هذه الطبعة. وكان تلميذ أحمد بن محمّد بن خالد البرقيّ (م ٢٧٤ ـ ٢٨٠) وهو أديب ومصنّف لعدد من الكتب (النجاشيّ: ٩٧؛ فهرست الطوسيّ: ٣١؛ رجال الطوسيّ: ٤١٧). وجاء في قصّة منقولة في «تاريخ قمّ»: ٢١٧ ـ ٢١٨ أنّه كان مرافقاً لأبي مسلم محمّد بن بحر الإصفهانيّ في ملاقاته للعلويّين المشهورين في قمّ، وقد دخل المدينة سنة ٣٠٩ بوصفه حاكماً آنذاك. (نفسه ١٠٦، ١٤٢).

اليعقوبيّ (م ٢٨٤)

أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح، وهو اسم اليعقوبيّ في المصادر التي ترجمته. واشتهر «بالكاتب»، و«الأخباريّ». والأوّل إشارة إلىٰ عمله كاتباً في البلاط العبّاسيّ، والثاني إشارة إلى كونه مؤرّخاً ملمّاً بالأخبار التاريخيّة. وعُرف «بالمصريّ» و«الإصفهانيّ»، وهو ما يدلّ علىٰ تعلّق أجداده الوطنيّ. وكان مولده ببغداد، وفيها عاش. ولمّا كان جدّه واضح من موالي المنصور العبّاسيّ فقد عُرف بالعبّاسيّ، وعُدّت أُسرته من موالي العبّاسيّين.

تاريخ ولادته مجهول، لكنّ ياقوت الحمويّ ذهب إلىٰ أنّه توفّي سنة ٢٨٤ هـ. وختم اليعقوبيّ نهجه التاريخيّ في كتابه *مشاكلة الناس* بالمعتضد العبّاسيّ «الذي حكم من (٢٠) رجب سنة (٢٧٩) إلىٰ ربيع الآخر سنة (٢٨٩)». ويضاف إلىٰ ذلك أنّه تحدّث في كتاب *البلدان*[1] عن سقوط الطولونيّين سنة ٢٩٢هـ، فلا بدّ أنّه كان حيّاً حتّىٰ هذه

---

(١) *البلدان*: ١٢٦ (طبعة النجف) ولفظه: ذهب الملك والزينة لمّا مضىٰ بنو طولون.

السنة في الأقلّ[١]. وكان واضح حاكماً علىٰ أرمينيّة وآذربايجان ومصر ردحاً من الزمن في عهد المنصور، كما كان والد اليعقوبيّ من كبار العاملين في ديوان البريد. وما من معلومات عن شغل اليعقوبيّ نفسه، لكنّه لمّا كان يلقّب بالكاتب، فمن الممكن أن يكون فيه إشارة إلىٰ أنّه كان كأبيه مشغولاً بالكتابة والإنشاء في أحد الدواوين.

وقيل: كانت لواضح ميول شيعيّة، وهو كذلك. فحينما كان مسؤولاً عن بريد مصر، ساعد إدريس بن عبد الله بن الحسن أخا النفس الزكيّة علىٰ الفرار إلى المغرب، فضحّىٰ بنفسه في سبيل هذا العمل، ويبدو أنّ الهادي العبّاسيّ قتله[٢].

وهكذا لنقُل أنّ تشيّع آل اليعقوبيّ كان تقليديّاً، وقد وصل إلى اليعقوبيّ المؤرّخ أيضاً. علماً أنّ الشيعة الإماميّة كانوا يومئذٍ ذوي مناصب إداريّة في الحكومة علىٰ تشيّعهم. والمثال الساطع هو عليّ بن يقطين الذي كان يزاول عمله في الحكومة العبّاسيّة بأمر الإمام الكاظم عليه السلام.

ولا شكّ في أنّ اليعقوبيّ كان مؤرّخاً شيعيّاً، وأمارات تشيّعه واضحة تماماً في تاريخه. فأخباره في السقيفة، ومواقف الخلفاء، وما حكاه عن خلافة أميرالمؤمنين عليه السلام، كلّ ذلك آية علىٰ تشيّعه التامّ، والمعتدل نوعاً ما. ويضاف إلىٰ ما قدّمه عن تاريخ الحوادث الإسلاميّة، وذكره عناوين تتعلّق بحكم السلاطين بعد حديثه عن معاوية، أنّه تكلّم عن أئمّة الشيعة عليهم السلام أيضاً. ومن ذلك «وفاة الحسن بن عليّ»، «مقتل الحسين بن عليّ»، «وفاة عليّ بن الحسين»، «وفاة أبي جعفر محمّد بن عليّ»، «وفاة أبي عبد الله جعفر بن محمّد وآدابه»، «وفاة موسى بن جعفر»، «وفاة عليّ الرضا عليه السلام» «وفاة عليّ بن محمّد بن عليّ الهاديّ»[٣]. ونقل في ذيل هذه العناوين

---

(١) *التاريخ العربيّ والمؤرّخون* ١ : ٢٤٩.

(٢) *تاريخ الطبريّ* ١٠ : ٥٩١؛ *النجوم الزاهرة* ٢ : ٤١ عن «اليعقوبيّ... ص ٢٩».

(٣) *تاريخ اليعقوبيّ* ٢ : ٥٠٣.

كلمات قصاراً لهم. وسرد الحوادث حتّىٰ سنة ٢٥٩ هـ، من هنا لم يتطرّق إلىٰ وفاة الإمام العسكريّ عليه السلام. وكلامه عن ثورة زيد بإجمال تامّ دليل علىٰ إماميّته كما ذُكر[١].

أمّا مصنّفاته فينبغي أن نقول أنّه كان مؤرّخاً وجغرافيّاً[٢]. وهي تدور حول هذين العلمين. ولم تبق له إلّا ثلاثة كتب من بين التي نُسبت إليه في المصادر المختلفة. وكتبه المفقودة هي كتاب *المسالك والممالك*؛ *وفتح إفريقيّة وأخبارها*؛ *وأخبار الطاهريّين*. والكتب الثلاثة الباقية ـ وكلّها مطبوعة ـ هي *تاريخه*؛ *والبلدان*؛ *ومشاكلة الناس لزمانهم*. والكتابان الأخيران كلاهما صغير، وقد طُبعا أيضاً. وكتاب *البلدان* الذي نُقل إلى الفارسيّة يحوم حول الجغرافية العامّة للمدن، وفيه فوائد تاريخيّة بالغة الأهمّيّة. وكتاب *المشاكلة* في تقليد الناس لحكّام زمانهم، وقد قُرن بنماذج تاريخيّة.

وأهمّ كتاب له هو تاريخه الذي لم يعرف إلّا بعنوان *تاريخ اليعقوبيّ* ويمثّل دورةً في التاريخ العامّ الذي بدأه بهبوط آدم عليه السلام، ثمّ بلغ به حتّىٰ ظهور الإسلام، وواصل الكلام في الحوادث الواقعة حتّىٰ سنة ٢٥٩ هـ[٣]. ونظراً إلىٰ تاريخ تصنيفه، فحريّ بالعلم أنّه أقدم تاريخ عامّ صُنّف في الحضارة الإسلاميّة ووصل إلينا. علماً أنّ *تاريخ خليفة بن الخيّاط* صُنِّف قبله لكنّه بدأ بحثه التاريخيّ بالإسلام لا بابتداء الخلق.

وطُبع *تاريخ اليعقوبيّ* مراراً. ومن المؤسف أنّنا لا نجد نسخاً مخطوطةً منه كما ينبغي بسبب عدم تداوله في الأعصار الماضية. وطُبع مرّةً في هولندا سنة ١٨٨٣م (١٣٠١ هـ). ثمّ طُبع بالنجف في ثلاثة أجزاء مع مقدّمة محمّد صادق بحرالعلوم

---

(١) *نشأة علم التاريخ عند العرب*: ٥٢، ٥٣.

(٢) بالنظر إلىٰ معلوماته التي أوردها في تاريخه عن الفلك والهيئة، فلا ريب أن نعدّه منجّماً بالمعنى العلميّ للكلمة.

(٣) بشأن ترجمة اليعقوبيّ ومصنّفاته انظر: *اليعقوبيّ، المؤرّخ والجغرافيّ*، ياسين إبراهيم عليّ الجعفريّ، بغداد، ١٩٨٠م.

وتعليقاته[١]. والطبعة المتداولة له نشرتها دار الصادر ببيروت في جزءين. الأوّل من بداية حياة آدم عليه السلام حتّىٰ ظهور الإسلام. الثاني من ظهوره حتّىٰ سنة ٢٥٩ هـ.

وأسلوب تدوينه أُسلوب تاريخيّ لا حديثيّ. أي: إنّ اليعقوبيّ كبعض المؤرّخين المحدّثين لم يسرد الحوادث التاريخيّة بأسلوب روائيّ مشفوع بسلسلة السند، بل نهج أسلوب المؤرّخين بوصفه واحداً منهم فصنّف كتابه بعد الإفادة من مختلف المصادر. فمثله في هذا كمثل الدينوريّ في *الأخبار الطوال*، والمسعوديّ في *مروج الذهب* لا كمثل الطبريّ في تاريخه. وينبغي الالتفات إلىٰ أنّ طابع الكتاب وإن كان تاريخيّاً لكنّه سدّ الطريق أمام الباحثين لتحليل السند وذلك لإحجام صاحبه عن ذكر الأسناد المتعلّقة بموضوعاته. ويضاف إلىٰ ذلك أنّ نسق الكتاب قائم علىٰ أساس رؤوس المطالب التاريخيّة كإمرة الخلفاء لا على أساس السنين. وهذا ما نهجه المسعوديّ في *مروج الذهب* أيضاً، بيد أنّ *تاريخ الطبريّ* سرد الحوادث علىٰ أساس السنين.

وممّا يبعث على الأسف ضياع مقدّمة الجزء الأوّل في النسخ المحدودة الباقية، ولهذا لم يصل إلينا أُسلوب تدوينه والمصادر التي اعتمد عليها المؤلّف في كتابه. ومن الثابت أنّ الجزء الأوّل من الكتاب صُنّف علىٰ أساس مصادر كثيرة لأنّ صاحبه كان يعيش في عصر دخلت العربيّةَ فيه مصنَّفات جمّة من ثقافة الأمم والشعوب الأُخرىٰ، من هنا فهو يشتمل علىٰ معلومات فريدة تخلو منها سائر المصادر. ومن الطبيعيّ أنّ كلّاً من المصادر التي هي في متناول اليد صُنِّف بالأساليب المتداوَلة في الثقافات المعنيّة، فلا يوثق بها تماماً. وهذا الموضوع يشمل المصادر الإسرائيليّة أيضاً، وهي التي أفاد منها اليعقوبيّ في الجزء الأوّل، وفي أخبار الأنبياء. ومن حسن الحظّ أنّ مقدّمة الجزء الثاني موجودة، وأشار المؤلّف فيها إلىٰ بعض مصادره.

---

(١) النجف، منشورات المكتبة الحيدريّة، ١٣٩٤هـ.

ومن أبرز المؤرّخين والأخباريّين الذين ذكرهم: إسحاق بن سليمان الهاشميّ (الذي ينقل عن شيوخ بني هاشم)، وأبو البختريّ وهب بن وهب القرشيّ (الذي ينقل عن جعفر بن محمّد وغيره)[١]، وأبان بن عثمان البجليّ (عن جعفر بن محمّد)، وعبد الملك ابن هشام (برواية البكائيّ عن ابن إسحاق)، وأبو حسان الزياديّ (عن الكلبيّ وغيره)، وهيثم بن عديّ (عن عبد الله بن عبّاس الهمدانيّ)، ومحمّد بن كثير القرشيّ (عن أبي صالح وغيره) والمدائنيّ، وأبو معشر المدنيّ، ومحمّد بن موسى الخوارزميّ المنجّم[٢]. واعتماده على الأخير أفضىٰ به إلىٰ تشخيص معلومات فلكيّة واسعة في تعيين العصر النجوميّ لإمرة كلّ خليفة بدقّة.

وذكر اليعقوبيّ في مقدّمة الجزء الثاني أنّه كان يريد تصنيف كتاب موجز، فأسقط كثيراً من أشعاره وأخباره الطويلة[٣]. مع هذا تدلّ مقايسة قصيرة لتاريخ اليعقوبيّ بغيره من المصنّفات بما فيها المفصّلة علىٰ أنّه أورد في كتابه أخباراً بالغة البداعة تخلو منها نظائره، وذلك لظفره ببعض المصادر. وحجم أسناده الموجودة فيه، التي لم يرد كثير منها في ما عداه من أمثاله لافت للنظر. وضمّ الكتاب ما يربو علىٰ (٤٦٠) رسالة أُشير إلىٰ بعضها، وأُتي بعين نصوصها في كثير من المواضع. ويضاف إلىٰ ذلك أنّ أخبار اليعقوبيّ تتفاوت مع الأخبار المتداولة في سائر المصادر لأسباب ما، ويمكن أن تكون دليلاً للباحث في بلوغ الحقيقة قياساً بما خلاها من النصوص المماثلة. وطبعت فهارس *تاريخ اليعقوبيّ* في مجلّد واحد حديثاً، وعرضت فهرساً دقيقاً لهذا الكتاب التاريخيّ الثمين[٤].

وكان *تاريخ اليعقوبيّ* عند ابن شادي مؤلّف *مجمل التواريخ والقصص* في القرن السادس، وأفاد منه في الصفحات ٢٢٩، و٢٧١، و٢٧٨ من كتابه.

---

(١) قيل إنّ الإمام الصادق عليه السلام تزوّج أمّه، فهو ربيبه. انظر: *الفهرست*، ابن النديم: ١١٣.

(٢) *تاريخ اليعقوبيّ* ٢: ٦.

(٣) نفسه.

(٤) قمّ، مركز البحوث الكمبيوتريّة للعلوم الإسلاميّة، ١٣٧٦ شمسيّ ـ ١٩٩٧م).

محمّد بن جرير الطبريّ (٥ ـ ٢٢٤ / ٣١٠)

أبو جعفر محمّد بن جرير بن يزيد الطبريّ[١] من مشاهير المؤرّخين في العصر الإسلاميّ. وكان عمله الرئيس في الفقه، بيد أنّ كتابَيْه المشهورَين في التفسير وهو *جامع البيان*، والتاريخ وهو *تاريخ الرسل والأمم والملوك* أكسباه شهرةً بالغةً. وهو واضع لمذهب فقهيّ خاصّ كان له أتباعه لقرنٍ واحد بعده[٢]. وله مصنَّف فقهيّ روائيّ مرموق لم يُكمله، وعنوانه *تهذيب الآثار* (في ستّة أجزاء)، وظلّ ماثلاً علىٰ مرّ الزمن.

ولقي تاريخه ترحيباً عامّاً منذ البداية[٣]. وهذا الترحيب ينطلق من رؤية سنّيّة ويرتبط بمواصفات الكتاب في تفصيله واستناده واتّزانه. وأدّىٰ هذا الترحيب إلى اعتماد الكتب التاريخيّة المتأخّرة علىٰ أخباره، وإعدادها خلاصةً له، وهذا ما فعله ابن مسكويه، وابن الأثير، وابن كثير في كتبهم.

وأراد الطبريّ في بداية الكتاب أن يُبرّئ نفسه بسبب نقل الموضوعات السقيمة وذلك من خلال إشارته إلىٰ أنّه نقل الأخبار مُسندةً. ومع أن هذا الأسلوب ساعد علىٰ حفظ حجم كبير من الأخبار التاريخيّة، بيد أنّ بعض الباحثين أنكر عليه ذلك حقّاً لمختاراته غير الصحيحة من الأخبار، بخاصّة نقله عن أشخاص كذّابين كسيف ابن عمر[٤].

---

(١) أُعدّت مقالات وكتب كثيرة فيه وفي تاريخه وتفسيره، منها: *الطبريّ، السيرة والتاريخ* لعبد الرحمٰن حسين العزّاويّ (بغداد، دار الشؤون الثقافيّة العامّة، ١٩٨٩ م)؛ *وأحوال وآثار طبري* [الطبريّ: ترجمته ومصنّفاته] (فارسيّ) لعلي أكبر شهابي (طهران، دار أساطير للنشر)؛ *ويادنامه طبري* [في ذكرى الطبريّ] ويشتمل علىٰ مقالات أُلقيت في مؤتمر عُقد في مدينة بابُلْسَرْ سنة ١٤١٠ هـ لتكريمه (طهران، دار الطباعة والنشر في وزارة الإرشاد، ١٩٩٠ م).

(٢) *الفهرست*: ٢٩١؛ ذكره ابن النديم في الفقهاء لا في المؤرّخين.

(٣) يرىٰ ابن خلّكان أنّ كتاب الطبريّ «أثبت الكتب وأصحّها»، *وفيات الأعيان* ٣: ٣٣٢.

(٤) كتاب عبد الله بن سبأ للعلّامة الباحث السيّد مرتضى العسكريّ. نقد روايات سيف بن عمر في *تاريخ الطبريّ*.

وذهب جواد علي إلىٰ أنّه لم يهتمّ بأصول أهل الحديث في رجوعه إلى المصادر، فروىٰ عن الضعفاء أيضاً. ورجّح روايات سيف بن عمر في قضايا الردّة علىٰ روايات الواقديّ والمدائنيّ، في حين هو متّهم بالزندقة، بل إنّ رأي الطبريّ نفسه فيه رأي سلبيّ(١). وبدأ حضور سيف في تاريخ الطبريّ من حروب الردّة، واستمرّ حتىٰ موقعة الجمل، وبهذا شوّه الطبريّ تاريخه بأخبار سيف الكاذبة في أحرج مرحلة تاريخيّة تتمثّل بقسم من التاريخ الدينيّ لجميع الفرق.

وحفل الجزء الأوّل الذي يتناول تاريخ العالم من بدء الخليقة حتّى المبعث النبويّ الشريف بالإسرائيليّات، مَثَلُهُ بذلك كَمَثَل تفسيره الذي شُحن بها. ونُقلت هذه الأخبار عن طريق وهب بن منبّه الذي كان نشر نظيرها بين المسلمين في أواخر القرن الأوّل الهجريّ أكثر من غيره(٢).

وأملى الطبريّ تاريخه في الفترة الممتدّة بين سنة ٢٨٣ و٢٩٠، ثمّ أضاف إليه الوقائع التي جرت حتّىٰ ربيع الآخر سنة ٣٠٣ هـ. وزاد علىٰ ذلك أنّه صنّف كتاباً تحت عنوان *ذيل المذيّل* في ترجمة الصحابة والتابعين تبعاً لسنة وفاتهم، ولم يظلّ منه إلّا تلخيصه الذي نهض به عريب بن سعد (م ٣٧٠)، وطُبع في آخر تاريخه تحت عنوان *المنتخب من ذيل المذيّل*.

ودوّن عدد من الكتّاب في العصر اللاحق ذيولاً علىٰ *تاريخ الطبريّ*. وسرد عريب ابن سعد الحوادث حتّى سنة ٣٢٠ هـ، وعنوانها صلة *تاريخ الطبريّ*. وواصل ثابت بن سنان الصابيّ (م ٣٦٣) ذلك إلى سنة (٣٦٠). وبلغ به هلال بن محسّن الصابيّ سنة (٤٤٨)، وعيون *التواريخ* امتداد له حتّى سنة (٤٧٩). ثمّ تابعه محمّد بن عبد الملك

---

(١) *موارد تاريخ الطّبريّ*، القسم الأوّل: ١٧٩، ١٨٢.

(٢) انظر القسم الأوّل من *موارد تاريخ الطّبريّ*: ١٨٦ ـ ١٩٠ للاطّلاع علىٰ تأثير وهب بن منبّه في الجزء الأوّل من *تاريخ الطبريّ*.

الهمدانيّ (م ٥٢١) إلىٰ سنة (٤٨٧). وللكتاب تتمّات أخرىٰ مفقودة[١]. وقدّم سزگين توضيحات حول الذيول والتتمّات التي كُتبت على التاريخ المذكور[٢].

وتتّخذ أخبار الطبريّ طابع الحديث بشكل رئيس. فقد بدأ بالسند، وثنّىٰ بمتن الخبر. ومثالنا علىٰ ذلك قوله: «حدّثنا محمّد بن عبد الله بن عبد الحكم، قال: حدّثنا أيّوب بن سويد، عن الأوزاعيّ، قال: حدّثنا إسماعيل بن عبد الله: قدم أنس بن مالك على الوليد بن عبد الملك، فقال له الوليد...»، وقال في بعض المواضع: «حدّثني فلان». ونقل متن الخبر في الجزء الأخير من كتابه عمّن شهد الحوادث بألفاظ مثل «ذكر لي بعض أصحابي»، أو «حدّثني جماعة من أهل...». وتدلّ بعض عباراته نحو «قال ابن إسحاق»، أو «قال الكلبيّ» علىٰ أنّه أفاد من مصنّفاتهم المكتوبة.

وممّا يلزم الالتفات في الوقت نفسه هو أنّ سنديّة أخبار الطبريّ لا تعني جمعها من المصادر الشفويّة. وكان الطبريّ يقتني كثيراً من كتب الأقدمين، فنقل عنها بطريق مسند أو بذكر أسماء مشايخه دون الإشارة إلىٰ عناوينها، معتمداً بذلك على الإجازة الروائيّة أو نظائرها. وقسم الأستاذ جواد عليّ مصادر الطبريّ تحت عنوان *موارد تاريخ الطبريّ*[٣].

والمزيّة الأُخرىٰ لتاريخ الطبريّ هو أنّه أورد في النقل الروائيّ أخباراً متنوّعة عن حادثة من الحوادث بأسناد متباينة. ويُتيح هذا الأُسلوب الفرصة للباحث فيحصل على الآراء المتعارضة في حادثة من الحوادث، ويحقّق حواليها بالنظر إلى الأساليب العلميّة. ويداخل «حديث البعض في حديث الآخرين» أحياناً، لكنّه حين يبلغ

---

(١) ***الإمام الطبريّ***، محمّد الزحيليّ: ٢٢١ ـ ٢٢٣.

(٢) وانظر أيضاً: ***بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب***: ٥٥، ٥٦؛ ***بزم آورد***: ٣٨ ـ ٦٤.

(٣) مجلّة المجمع العلميّ العراقيّ، الأعداد الثلاثة الأولىٰ (سنة ١٩٥٠، ١٩٥٢، ١٩٥٤م) ومجموعها (١٨٤) صفحة.

موضع الخلاف في بعض الحالات ينقل الخبر المعارض، ثمّ يواصل كلامه عن الخبر السابق. ونهج هذا الأُسلوب الروائيّ في تفسيره وتاريخه، ولا يُبدي رأيه الخاصّ إلّا في حالات نادرة جدّاً[1].

ونظراً إلىٰ سند الأخبار يجدر بالمؤلّفين والمحقّقين أن لا يلقوا الوزر على الطبريّ في ما نقل عن المؤرّخين الكذّابين. وعليهم أن يتنبّهوا إلىٰ أنّ الاكتفاء بالسند لا يصحّ في تقدير الأخبار، لأنّ صدق الراويّ لا يدلّ على صحّة نقله، فربّما كان مصدره خاطئاً أو أنّه سبك الخبر منطلقاً من آرائه وعواطفه. والمهمّ هو الاستهداء بجميع الأساليب العلميّة من أجل الدراسة والتحليل.

وأسهب الطبريّ مفصّلاً في سرد الحوادث بسبب رؤيته التاريخيّة الخاصّة. ولم يرد هذا التفصيل في مواضع عديدة من المصادر الأُخرىٰ. ومن الطبيعيّ أنّ أسلوبه هذا لا يمكن أن يستوعب المعلومات الاجتماعيّة. فهو يتوكّأ على الخبر فحسب، والأخبار إمّا تاريخيّةٌ خالصةٌ أو ـ بكلمةٍ ـ سياسيّةٌ بحتةٌ. وحينئذٍ لا يُجدي الظفر ـ في تاريخ الطبريّ ـ بمعلومات في المجال الحضاريّ والثقافيّ كالتي نجدها في مصنّفات المسعوديّ. ولكن ينبغي أن نستثني مواضع قليلة منه.

وأورد الطبريّ الحوادث إلىٰ ما قبل الإسلام بشكل موضوعيّ ونسق تاريخيّ عامّ، أمّا الحوادث الواقعة بعد الإسلام فقد ذكرها علىٰ أساس السنين.

وبسط جواد عليّ الكلام في مصادر الطبريّ. وهو يرىٰ أنّها كانت في القسم الخاصّ بتاريخ الأنبياء وإيران قبل الإسلام أخباراً ومصنّفات تفسيريّة أُعدّت في مدرسة تلامذة ابن عبّاس في شرح الآيات القرآنيّة استهداءً بشتّى المصادر حتّى ذلك الحين. وفي ما يتعلّق بإيران فإنّه أفاد في الأغلب من الكتب المترجَمة من الفارسيّة

---

(١) *موارد تاريخ الطّبريّ*، القسم الأوّل: ١٦٧.

ككتب ابن المقفّع والكلبيّ التي كانت غنيّة في هذا المجال. ولم يصرّح بعناوينها أو أسماء مؤلّفيها غالباً، ونقل الموضوعات بألفاظ من مثل قال بعض العجم.

وأفاد من كتب الكلبيّ في القسم المختصّ بتاريخ العرب قبل الإسلام، لاسيّما تاريخ العراق، الذي تفرّد في النقل عنها بشأنه. واستنار في تاريخ اليمن بما كتبه ابن إسحاق الذي أخذ عن وهب بن منبّه ومحمّد بن كعب القُرَظيّ. وهذان الأخيران مع كعب الأحبار كانوا مصدر الأخبار المرتبطة بتاريخ الأنبياء في الجزء الأوّل من الكتاب. ولم يرد فيه مطلب مهمّ حول تاريخ الروم قياساً بما أورده حول تاريخ إيران. واعتمد في قسم السيرة علىٰ سيرة ابن إسحاق[١]، لكنّه نقل عن عروة بن الزبير، وأبان بن عثمان، وشرحبيل بن سعد، وهيثم بن عديّ أيضاً. وأشرنا سابقاً إلىٰ أنّه توكّأ على أخبار سيف بن عمر فيما يخصّ حروب الردّة حتّىٰ آخر حرب الجمل. وبعد ذلك أثر عن أبي مخنف بشكل رئيس في بيان حوادث العراق حتّىٰ نهاية العصر الأمويّ، وواصل كلامه بالنقل عن المدائنيّ، وعوانة بن الحكم، والواقديّ، وعمر بن شبّه، والكلبيّ[٢].

وتكمن القيمة العليا لكتاب الطبريّ في أنّه أفاد ممّا كان يقتنيه من كتابات تاريخيّة كثيرة متداولة وغير متداولة آنذاك، ولم يبق هذا اليوم إلّا ما حفظه الطبريّ لنا من تلك الكتب. ولعلّ أفضلها *مقتل الحسين* عليه السلام لأبي مخنف الذي حُفِظ قسم مهمّ منه بواسطة *تاريخ الطبريّ*. وينطبق هذا الأمر علىٰ مصنّفات وهب بن منبّه في أخبار الأنبياء السابقين، ومصنّفات عبيد بن شرية، والأصمعيّ، والشعبيّ، والكلبيّ في تاريخ العرب والفرس قبل الإسلام، وكذلك النسخة الأصليّة من سيرة ابن إسحاق في قسم المغازي[٣]. والموقف الدينيّ للطبريّ في كتابة التاريخ واستخلاص الأخبار واضح

---

(١) نفسه: ٢٠٠، ٢٠١.
(٢) نفسه: ١٨٢.

(٣) *موارد تاريخ الطّبريّ*، القسم الأوّل: ١٧٤.

تماماً. ودلّ عليه في مواضع منه كامتناعه عن نقل الأخبار المتعلّقة بمقتل عثمان. وما يُستشفّ من بعض الأخبار، ومصنّفات الطبريّ في أواخر حياته هو احتمال تغيير موقفه الدينيّ. وفي مكان آخر تناولنا هذه الأخبار التي قد يُشمّ منها رائحة التشيّع[1]. منها كتاب *الولاية* الذي صنّفه في طرق حديث الغدير[2].

ومن الثابت أنّه تعرّض لطعون أصحاب الحديث والأهواء العثمانيّة في السنين الأخيرة من حياته ببغداد، وضُيّق عليه أشدّ التضييق بسبب تأليفه كتاب *الولاية*، وكتاب في صحّة حديث *الطير*. وذكر ياقوت خبر المضايقات التي مرّ بها عند ترجمته في *معجم الأدباء*. وحاول بعض الكتّاب من أهل السنّة في السنين الأخيرة أن يبرّئوا الطبريّ من هذه النزعة الشيعيّة المحدودة فذكروا أنّه خُلط بمحمّد بن جرير بن رستم الطبريّ الشيعيّ، ونسبوا بعض المطالب إلى الطبريّ المعروف خطأً. وإذا صحّ هذا الخطأ في كتابٍ ما، فإنّه لا يصحّ في كتاب *الولاية*، لأنّ الذهبيّ رآه، وأعدّ له تلخيصاً ما زال موجوداً.

وقيل إنّ أبا عليّ البلعميّ العامل في بلاط السامانيّين ترجم تاريخ الطبريّ إلى الفارسيّة سنة ٣٥٢ هـ. وذهب محقّق (تاريخنامه) [كتاب التاريخ] إلى أنّ نسبة هذه الترجمة إلى البلعميّ غير صحيحة[3]، وكتب على غلاف الكتاب: «گردانيدهٔ منسوب به بلعمي» أي: [الترجمة المنسوبة إلى البلعميّ]. وبهذا غيّر عنوانه من *تاريخ بلعمي* إلى *تاريخ الطبريّ* وحذف الأسناد وأورد متن الأخبار في كتابه ملخّصاً. واحتذى حذو غيره في انتهاج الأساليب المتداولة في الترجمة يومئذٍ فتصرّف في موضوع

---

(١) انظر: *جغرافياى انسانى شيعه در جهان اسلام* [الجغرافيّة البشريّة للشيعة في العالم الإسلاميّ]: ١٣٣ـ١٥٣.

(٢) انظر: مجلّة تراثنا، العدد ٢١، ص ١٧١ ـ ١٧٤.

(٣) انظر: *تاريخنامه طبري* [تاريخ الطبريّ]، ج ١، المقدّمة، ص١٦ (طهران، سروش، ١٣٧٤ شمسيّ، ١٤١٦ هـ).

الأخبار وموقعها. ومن الطريف أنّ الترجمة الفارسيّة للكتاب نُقلت إلى العربيّة مرّةً أُخرىٰ!

وقام ملك الشعراء بهار وبَروين گُنابادي بطبع تاريخ البلعميّ أوّل مرّة في جزءين، ويشمل تاريخ الأنبياء والملوك حتّىٰ تاريخ الفُرس. وأصدرت (انتشارات سروش) [دار سُروش للنشر] هذين الجزءين بجهود محمّد رُوشَن سنة ١٣٧٤ ش ـ ١٤١٦هـ. وبمساعيه أيضاً اهتمّت دار ألبُرْز للنشر بطبع تتمّتها حتّىٰ حكومة المسترشد بالله (م٥٢٩) في ثلاثةأجزاء سنة ١٣٧٣ ش ـ ١٤١٥هـ، ففي أيدينا خمسة أجزاء منه الآن.

وطُبع *تاريخ الطبريّ* لأوّل مرّة في أروبّا، ثمّ أُعيدت هذه الطبعة بالأوفسيت في إيران. وله طبعات متكرّرة في مصر وبيروت، بيد أنّ أفضلها وأكثرها تداولاً اليوم هي الطبعة المؤلَّفة من أحد عشر جزءاً بتحقيق محمّد أبوالفضل إبراهيم. وتضمّ الأجزاء التسعة الأُولىٰ ونصف من الجزء العاشر نصوصاً تاريخيّة، أمّا النصف الآخر فيحتوي علىٰ فهارس الكتاب. ويحمل الجزء الحادي عشر عنوان *صلة تاريخ الطبريّ* لعريب بن سعد، و*المنتخب من ذيل المذيّل* للطبريّ نفسه.

وعرض المركز الكومبيوتريّ للعلوم الإسلاميّة المتن الكامل لتاريخ الطبريّ مع ترجمته الفارسيّة التي أنجزها أبوالقاسم پاينده في خمسة عشر جزءاً علىٰ (CD) بعنوان *نور السيرة*.

أحمد بن أعثم الكوفيّ (م ح ٣١٤)

محمّد (أبو محمّد عليّ أو أحمد) بن عليّ بن أعثم الكوفيّ[١] مصنّف كتاب الفتوح ذي المحتوى الغزير الذي غفل عنه المؤرّخون وأرباب التراجم حتّى الفترة الأخيرة،

---

(١) *تاريخ التّراث العربيّ، التدوين التاريخيّ*: ١٦٩.

ولم يكن نصّه العربيّ في متناول الباحثين إلّا في العقد أو العقدين الأخيرين، ويبدو أنّه طُبع اعتماداً علىٰ نسخةٍ وحيدة منه[١]. وكملت أقسام من نصّه العربيّ بواسطة النصّ الفارسيّ الباقي من القرن السادس. ويتراءىٰ لنا أنّ النصّ الحالي لا يستلزم اشتماله على النصّ الأصليّ كلّه. فلم يرد فيه مثلاً مطلب نقله السيّد ابن طاووس منه[٢]. وهذه الترجمة حرّة ولها بالغ الأهمّيّة أدبيّاً، لكنّها لا تتعدّىٰ وقائع الإمام الحسين عليه السلام. وبدأ النصّ العربيّ للكتاب بما تلا وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وتواصل حتّىٰ آخر حكم المستعين. ولم يذكر ابن أعثم مصادره في أغلب المواضع، لكنّنا نستطيع أن نجد أخباره في سائر المصادر، وفي الوقت نفسه ذكر شيئاً منها في بعض المواطن. ومن الأسماء المعروفة: الشعبيّ، ونصر بن مزاحم[٣]، والواقديّ، والزهريّ، وهشام الكلبيّ. وقال بعد ذكر هذه الأسماء التي جرىٰ فيها تصحيف نوعاً ما: «وقد جمعت ما سمعت من رواياتهم على اختلاف لغاتهم، فألّفته حديثاً واحداً على نسق واحد»[٤].

وكذلك فعل في موضع آخر إذ ذكر هذه الجملة نفسها حين أورد الأسماء والأسناد على غير ترتيب أيضاً[٥]. ولاريب في أنّ مصنّفات أبي مخنف من أهمّ مصادره، ويضاف إلىٰ ذلك أنّه ذكره في السند المتقدّم عن طريق الكلبيّ. ونقل مطالب عنه بسنده المستقلّ في بعض المواضع[٦]. وعلىٰ هذا النمط أورد خبراً معيّناً في بعض

---

(١) انظر بشأن ابن أعثم: *الذريعة* ٣: ٢٢٠، مقدِّمة ترجمة *الفتوح* بتصحيح غلام رضا محمّد مجد طباطبائي، ص ١١ ـ ٣٢.

(٢) *كتابخانه ابن طاووس* [مكتبة ابن طاووس]: ٥٦٢.

(٣) وجاء في المتن: «نعيم بن مزاحم» خطأً.

(٤) *الفتوح* ٢: ١٤٧ ـ ١٤٩ (الإرجاعات علىٰ أساس طبعة حيدر آباد في الهند).

(٥) نفسه ٢: ٣٤٤، ٣٤٥.

(٦) *الفتوح* ٤: ٣٦، ٣٧.

الفقرات نقلاً عن الهيثم بن عديّ (وهو عن عبد الله بن عيّاش عن الشعبيّ)[١].
وعرض في موضع آخر سلسلة من الأسناد التي تحتاج إلى تحليل مفصّل. ويُلحَظ من بينها سند جاء في آخره: «... حدّثني أبو عمر حفص بن محمّد عن جعفر بن محمّد الصادق، عن أبيه، عن آبائه». ونقرأ في هذه الأسناد أسماء معروفة كنصر بن مزاحم المنقريّ، والواقديّ، وهشام الكلبيّ عن أبي مخنف، وعوانة بن الحكم، والهيثم بن عديّ، وابن دأب، وأبي البختريّ[٢].

ونقل ابن أعثم عن المدائنيّ ما يتعلّق بحرب الأمويّين والعبّاسيّين وبداية الحكم العبّاسيّ بنحو متّسق[٣]. ونقل عن أحمد بن يحيى (البلاذريّ) بعض الأخبار[٤].

وأفاد من كتاب المدائنيّ في القسم المتعلّق بفتح خراسان كما أفاد في فتح أرمينيّة وآذربايجان من كتابي أبي عبيدة معمر بن المثنّى: فتح أرمينيّة، وفتح آذربايجان[٥]. وتبدأ معظم الأخبار بكلمة (قال) التي يمكن أن تكون لابن أعثم أو لراوي الكتاب، وتستوعب صفوةً من الأخبار المرتبطة بالوقائع. ولا شكّ في أنّ الكتاب اعتمد على مصادر من الطراز الأوّل وفيه موضوعات فريدة غزيرة.

وينتهي الكتاب في الصفحة ٢٤٤ من الجزء الثامن، لكن جاء بعدها موضوع تحت عنوان «حكاية الإمام الشافعيّ مع الرشيد»، وتلاه عنوان «أيضاً خبر الشافعيّ»[٦]، ثمّ عاد الكتاب إلى نسقه الطبيعيّ وهو تاريخ عصر الرشيد فعبارة «تمّ كتاب الفتوح» إمّا خطأ أو أنّ المؤلّف أضاف القسم الأخير إلى الكتاب بعد تصنيف أصله. ويُشبه هذا القسم أخبار الطبريّ كثيراً.

---

(١) *الفتوح* ٧: ١٢٤، وانظر أيضاً ٨: ٢٦٦. (٢) نفسه ٤: ٢٠٩، ٢٢٠.

(٣) نفسه ٨: ١٩٠، ١٩٢، ١٩٥، ١٩٦، ٢٠٢، ٢٠٥، ٢٠٧، ٢١٨.

(٤) نفسه ٨: ٢١٢.

(٥) نفسه ١: ٩٠ ـ ٩٢؛ ٢: ٥، ٦، ٦٥، ٦٩؛ انظر: *إسهامات مؤرّخي البصرة*: ١٠٠.

(٦) *الفتوح* ٨: ٢٥٢.

ومن الحريّ بالذكر أنّ كتاباً طُبع أخيراً للواقديّ تحت عنوان *كتاب الردّة*، ويُلحظ أنّ بينه وبين قسم أخبار الردّة في كتاب *الفتوح* وجوه شبه جمّة. ويُخمّن أنّ ابن أعثم ألّف هذا القسم مستعيناً بكتاب الواقديّ، والظنّ الآخر هو أنّ النصّ أُعِدّ لاحقاً على أساس كتاب ابن أعثم ونُسب إلى الواقديّ. وهذا موضوع يحتاج إلى تحقيق أكثر.

واتّهم ابن أعثم بالتشيّع، لكنّ نظرةً على كتابه تدفع هذه التهمة سواء كان التشيّع إماميّاً أم زيديّاً أم إسماعيليّاً. ذلك أنّه ذكر موضوعات مثبتة كثيرة بشأن الخلفاء الأُوَل. وفي الوقت نفسه تُلحظ فيه حقائق وافرة تناسب عقائد الشيعة ويعود هذا إلى تشيّعه العراقيّ ونحن نعلم أنّ الأصل في الرواة والأخباريّين الكوفيّين على التشيّع ولا بدّ أن يكون ابن أعثم متأثّراً بهذا النوع الخاصّ من التشيّع. وتدلّ نظرة على ما ذكر في ميلاد الإمام الحسين عليه السلام واختلاف الملائكة وإخبار جبرئيل عن استشهاده وطبيعة هذه الأخبار على أنّه استنار بالمصادر الشيعيّة، وأورد ما أورده بلا تغيير في تبرتها[1]. وكتاب *الفتوح* مصدر أخباريّ يُغنّيّ علم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والإمام الحسين عليه السلام باستشهاد الإمام في كربلاء[2].

وما جاء في الكتاب حول حروب الردّة يضمّ على سبيل الحصر أخباراً تُرشد إلى أنّ بعض من وُصفوا بالارتداد كانوا ممّن نهض دفاعاً عن حقّ الإمام عليّ عليه السلام وأهل البيت عليهم السلام، وامتنعوا عن دفع الزكاة إلى حكومة أبي بكر.

وتدور موضوعاته حول حوادث العراق، مضافاً إلى أخباره عن سائر المدائن. وتناول جزء من الطبعة ذات الأجزاء الثمانية ملحمة كربلاء وهو من أُمّهات المصادر في هذه الملحمة العظيمة. وورد هذا النصّ نفسه في *مقتل الحسين* عليه السلام للخوارزميّ مع تغيير يسير. وأتى ياقوت بترجمة موجزة له، وذكر له كتابين في سياق اعتقاده بتشيّعه

---

(١) *الفتوح* ٤: ٢١١ ـ ٢١٧.

(٢) نفسه ٤: ٢١٣، ٢١٤.

الأوّل تاريخه من عصر أبي بكر إلىٰ عصر هارون. والآخر تاريخه المشتمل على الحوادث الواقعة في عهد هارون إلىٰ عهد المقتدر[١].

وذهب إلىٰ أنّ كتابه الأوّل يبدأ من خلافة أبي بكر حتّىٰ زمان هارون، في حين أنّ الكتاب الموجود يستوعب الفترة الممتدّة من خلافة أبي بكر حتّىٰ حكومة المعتصم.

وتولّىٰ مجلس دائرة المعارف العثمانيّة في حيدر آباد الدكن الطبعة الأولىٰ للكتاب بإشراف محمّد عبد المعيد خان. ونهضتْ دار الندوة الجديدة ببيروت بطباعتها على الأوفسيت وأنجزت دار الفنون في بيروت الطبعة الاخرىٰ للكتاب بتحقيق علي شيري. ومزيّتها وجود فهرس على الكتاب في جزء واحد.

وأشرنا إلىٰ أنّ طبعة الهند اعتمدت علىٰ نسخة ذُكرت في الحواشي المدوّنة على الأصل، وأجرى المصحّح إصلاحات عليها مستهدياً بسائر الكتب. وذكر سزگين نسخاً متنوّعة من هذا الكتاب وأضاف أنّ كتاباً بعنوان «ابتداء خبر وقعة صفّين» موجود في مكتبة منجانا، واحتمل أنّه قسم من الفتوح نفسه[٢].

أبوبكر الجوهريّ (م ٣٢٣)

أبوبكر أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ البصريّ البغداديّ من الأخباريّين

---

(١) *معجم الأدباء* ١ : ٣٧٩. وانظر بشأن ابن أعثم : *لسان الميزان* ١ : ١٣٨ ؛ وأورد العلّامة السيّد محسن الأمين ترجمته في *أعيان الشيعة* ٢ : ٤٨٨. وذهب القاضي نور الله التستريّ إلىٰ أنّه كان شافعيّاً ! واضطلع محمّد بن محمّد المستوفيّ بترجمته إلى الفارسيّة سنة ٥٩٨. ولعلّ الكتاب المذكور طُبع لأوّل مرّة سنة ١٣٠٠ هـ. وأنجز غلام رضا مجد طباطبائي طبعته المنقّحة (طهران، ١٣٧٢ ش ـ ١٩٩٣ م) انظر بشأن المترجم : مقدّمة طبعته الجديدة ، وكذلك مقالة دبير سياقي في مجلّة (راهنماى كتاب) [دليل الكتاب] السنة ١٩، العدد ١٢، ص ٨٣٩ فما بعدها.

(٢) *تاريخ التّراث العربيّ ، التدوين التاريخيّ* : ١٧٠.

والمؤرّخين الذين ضاعت آثارهم، لكنّ فقرات كثيرة منها تُلحظ في بعض الكتب. وشيخاه البارزان هما عمر بن شبّه مؤلّف تاريخ المدينة المنوّرة، ومحمّد بن زكريّا الغلابيّ (م ٢٩٨). وهو نفسه كان أستاذ أبي الفرج الإصفهانيّ الذي نقل عنه أخباراً في *الأغانيّ* و*مقاتل الطالبيّين*[١].

وذكرت له المصادر كتاب *السقيفة وفدك*. وكان هذا الكتاب عند ابن أبي الحديد وقد صرّح به[٢]. وكان عند عليّ بن عيسى الإربليّ (م ٦٩٢) أيضاً وأفاد منه في *كشف الغمّة*[٣]. والفقرات المنقولة منه في *شرح نهج البلاغة* كثيرة جدّاً. وجمعها الأُستاذ محمّد هادي الأمينيّ الذي جدّد الكتاب المذكور[٤]. ويستشفّ من مرويّات الكتاب أنّه كان جامعاً للأخبار، ومن هنا لم ينحز إلىٰ فرقة خاصّة. ولم تصفه المصادر المعنيّة بالتشيّع قطّ.

وتُلحظ في كتاب *السقيفة وفدك* أخبار كثيرة عن عمر بن شبّه. ويبدو أنّها من القسم الذي فُقد من كتابه *تاريخ المدينة* الذي كانت فيه أخبار السقيفة. وهكذا يتسنّىٰ أن يُجدَّد القسم الذي ضاع من كتاب ابن شبّه الموسوم بـ*تاريخ المدينة* ويُشاهَد اسم أبي زيد عمر بن شبّه في مدخل كثير من الأسناد الموجودة في الكتاب. وكذلك وردت فيه أخبار عن الغلابيّ، ولا بدّ أن تكون من آثاره، وهو من الأخباريّين البارزين.

---

(١) الأخبار المنقولة عن أبي بكر الجوهريّ في المقاتل من الوفرة بمكان. انظر: *فهرس أعلام المقاتل*.

(٢) *شرح نهج البلاغة*، ابن أبي الحديد ١٦: ٢١٠.

(٣) *عليّ بن عيسى الأربليّ وكتاب كشف الغمّة*: ١١٢.

(٤) طهران، مكتبة نينوىٰ، ١٤٠١هـ.

قدامة بن جعفر (م ٣٣٧؟)

قدامة بن جعفر بن قدامة أحد المؤرّخين في القرن الرابع الهجريّ. وذكر ابن النديم أنّ جدّه كان نصرانيّاً وأسلم على يد المكتفي العبّاسيّ. وكان في عداد البلغاء والفصحاء والفلاسفة والمناطقة ومن كتبه: كتاب *الخراج*، وكتاب *السياسة* وغيرهما[1].

وأثنى عليه المسعوديّ في مقدّمة مروج الذهب حقّ الثناء ووصفه بحُسن التأليف وعرضه معاني عالية في ألفاظ قصيرة. وضرب مثلاً بكتابيه *زهر الربيع* وكتاب *الخراج* للوقوف على صواب كلامه[2]. وأشار ياقوت إلى كتابه *زهر الربيع في الأخبار* نقلاً عن ابن النديم، لكنّ اسم هذا الكتاب لم يرد في *الفهرست*.

وليس في أيدينا معلومات كافية تُذكَر عن حياته. وذكر ياقوت أنّه كان كاتباً لابن الفرات. وأشار في تعليقه على كلام ابن الجوزيّ الذي ذهب إلى أنّه مات في أيّام المطيع العبّاسيّ سنة ٣٣٧ هـ إلى أنّ كلامه لا يُركَن إليه، وآخر ما وافاه حول قدامة هو ما قاله أبو حيّان أنّه كان في مجلس مناظرة بين السيرافيّ ومتّى المنطقيّ سنة ٣٢٠هـ[3].

إنّ ما يُعدّ مهمّاً هو كتابه *الخراج وصناعة الكتابة*. وبقيت بعض مصنّفاته الأدبيّة، وذكر مصحّح كتاب *الخراج* في المقدّمة أنّ طه حسين نشر أحدها. وصنّف قدامة هذا الكتاب الذي ظلّت المنازل الأربعة الأخيرة من منازله الثمانية كدليلٍ للكتّاب الذين كانوا بحاجةٍ إلى معرفة شتّى المسائل والأمور. على سبيل المثال كان منزله الثالث المفقود في موضوع البلاغة والرابع في الإنشاء وليس في متناول أيدينا موضوع المنزلين الأوّلين. وتحدّث المنزل الخامس الذي يعتبر أوّل قسم موجود عن الدواوين

---

(١) *الفهرست*: ١٤٤. (٢) *مروج الذهب* ١: ٢٤.

(٣) *معجم الأدباء* ١٧: ١٢.

الحكوميّة، وتطرّق المنزل السادس إلىٰ جغرافية الأرض شرقها وغربها. أمّا المنزل السابع فموضوعه الأموال والإيرادات، وأمّا المنزل الثامن فموضوعه نشوء المجتمع وتوسّعه وبروز المجتمع البشريّ واضمحلاله، وكذلك سياسة الأُمور وإدارتها.

وأشرنا إلىٰ أنّ كتاب السياسة كان في عداد مصنّفاته. والمعلومات التي ذكرها في مجال تبلور المجتمع البشريّ ومراحل تطوّره ـ بالنظر إلىٰ ميوله الفلسفيّة واطّلاعه على الأفكار المتداوله ـ ذات أهمّيّة بالغة، وتحتاج إلىٰ تحليلات ودراسات منطلقة من نظريات علم الاجتماع.

ومن الأبواب المهمّة في الكتاب هو منزله السابع الذي بسط الكلام عن فتح المدن، وحوىٰ أخباراً مفصّلة رائعة حول الفتوحات. واشتمل الباب التاسع عشر من هذا المنزل (من ص٢٥٦ إلىٰ ص٤٢٤) علىٰ نبذة تاريخيّة عن فتح المناطق المختلفة.

ويلحظ بين المباحث أحياناً أسماء رواة ومحدّثين ومؤرّخين[١]. ومنهم أبو عبيد قاسم بن سلام الذي يحتمل أنّه أفاد من مصنّفه كتاب *الأموال*[٢]. كما ورد اسم الكلبيّ، والواقديّ[٣]، ويحيى بن آدم[٤] في صفحات مختلفة منه.

ولا تستشفّ التوجّهات الدينيّة للمؤلّف من الكتاب المذكور مع هذا فإنّ ما أورده عن فدك، وما عبّر عن السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام بقوله «رضوان الله عليها» لافت للنظر[٥].

وطُبع هذا الكتاب في بغداد سنة ١٩٨١ م بجهود محمّد حسين الزبيديّ.

---

(١) وله رواية عن جعفر بن محمّد الصادق أيضاً، وهي في ص٢٥٦.

(٢) *الخراج*: ٢١٥، ٢١٦، ٢١٩، ٢٣٠، ٢٥٠، ٢٤٣، ٢٥٤.

(٣) انظر نفس المصدر: ٢٩٦.

(٤) نفسه: ٣٥٦، ٣٦٤، ٣٦٨ و... ومن المؤسف أنّ فهرس أعلام الكتاب المذكور لا يوثق به أبداً.

(٥) نفسه: ٢٥٩، ٢٦٠.

محمّد بن أحمد التميميّ (م ٣٣٣)

أبو العرب محمّد بن أحمد التميميّ أحد المؤرّخين الأفارقة المجهولين ـ في الشرق الإسلاميّ ـ إبّان القرن الرابع الهجريّ. وله مصنَّف بديع في كتابة تاريخ العصر الإسلاميّ الذي ما زال ماثلاً من حسن الحظّ. وهذا الكتاب الثمين هو كتاب *المحَن*. ولنا في أدبيّاتنا التاريخيّة ـ في سياق بعض الكتب ـ آثار في المقتولين غدراً وغيلةً. كما لغيرنا آثار في مقتل رجالٍ رأينا نماذج منها بين مصنّفات أُحاديّة الموضوع لمختلف الكتّاب. وفي هذا المجال مصنّفات فهرست المصائب والمحن الشخصيّة الخاصّة مثل كتاب محن *أميرالمؤمنين* لابن دأب (م ١٧١)، وكتاب محنة *أحمد بن حنبل* لصالح بن أحمد بن حنبل (م ٢٦٥)، وكتاب محن *الرسول* وذكر *إحن أعدائهم* لمحمّد بن أحمد الصفوانيّ[١]. بيد أنّ كتاب التميميّ يشتمل على فهرسٍ لرجالٍ مُني كلٌّ منهم بمصائب ومحن معيّنة نوعاً ما، وقُتل فيها كثير منهم. ونظراً إلىٰ أنّ تصنيف الكتاب كان في النصف الأوّل من القرن الرابع، فمن الطبيعيّ أن يكون مصنَّفاً قديماً يشتمل علىٰ أخبار بديعة حول أشخاص مهمّين كان لهم تأثير تاريخيّ آنذاك. ويريد المصنِّف من المحن أنواع المصائب وأقسامها كالسجن والإبعاد والتعذيب والقتل وغيرها ممّا ابتلىٰ به الصحابة والتابعيّون والعلماء والفقهاء والأُمراء والخلفاء.

وكان أبو العرب التميميّ من أمراء أفريقية، لكنّه أقبل على الدرس والعلم، واختير في منصب الإفتاء على المذهب المالكيّ آخر الأمر. وهو ممّن اصطدم بالحكومة الفاطميّة الحديثة العهد في أفريقية. وله مصنَّفات عديدة في الفقه والتاريخ وترجمة علماء أفريقية بلغت أربعة عشر عنواناً[٢].

وبدأ التميميّ حديثه عن محنة الأشخاص بمقدّمة حديثيّة عن المحنة والبلاء، وبعد

---

(١) انظر: مقدّمة كتاب *المحن*: ١٧. (٢) مقدّمة كتاب *المحن*: ٣٠.

إشارته إلىٰ مقتل عثمان تحدّث عن اغتيال عمر ثمّ عاد إلىٰ عثمان نزلةً أُخرىٰ، وواصل حديثه عن نماذج غيرهما مراعياً النظم التاريخيّ. ومنهجه الاعتماد على الأسناد ونقله الأخبار مسندةً، وإن أدخل أحياناً بعض الأخبار المماثلة وذكر أسماء الرواة في البداية من أجل بلورة صيغة الخبر[1]. ونُقل في موضع واحد كتاب داود بن حصين الذي كان من موالي عثمان في قتلى الحرّة عن طريق الواقديّ[2]. ومهما كان فإنّ من اليسير ملاحظة سند معظم الأخبار تقريباً بلا عناء، ومن ثمّ تقويمها من هذا المنطلق.

وممّن جاء خبر قتلة أو محنته في هذا الكتاب: عمر، وعثمان، وعليّ بن أبي طالب عليه السلام، وطلحة، والزبير، وعمّار، ومحمّد بن أبي بكر، ومن قتلى الجمل وغارات معاوية: خبّاب بن الأرت، وعمرو بن الحَمِق، والحسن بن عليّ عليه السلام، وعمير بن هاني، وهمدان مؤذّن عليّ عليه السلام، وقتلىٰ يوم الحرّة (يُلحظ كلام مفصّل في هذا المجال)، وعمر بن سعد، وسليمان بن صرد، والمسيّب بن نجبة، وقتلىٰ حرب الجماجم كابن أبي ليلىٰ، وكميل، وسعيد بن جبير، والنفس الزكيّة، وأصدرت دار الغرب الإسلاميّ ببيروت كتاب *المحن* بجهود يحيىٰ وهيب الجبوريّ سنة ١٤٠٣ هـ.

عليّ بن الحسين المسعوديّ (م ٣٤٦)

كان علم التاريخ قد تطوّر تطوّراً لافتاً للنظر في عصر المسعوديّ، وهو نفسه قد قطع أشواطاً جديدة في هذا المجال. ومن أهمّ أعماله أسفاره الطويلة خارج حدود المدائن الإسلاميّة لجمع الأخبار والمعلومات المتعلّقة بسائر الشعوب[3]. وتتبيّن آثار

---

(١) مقدّمة كتاب *المحن*: ١٥٩.　　(٢) نفسه: ١٧٣.

(٣) انظر بشأن أسفاره: *تاريخ تاريخنگارى در اسلام* [كتابة التاريخ في الإسلام]: ٦٢، ٦٣. وأكثر تفصيلاً منه: *موارد تاريخ الطّبريّ* لجواد عليّ، القسم الأوّل: ٢، ٣؛ *منهج المسعوديّ*: ٥٣ ـ ٦٨.

هذه الأسفار في مروج الذهب مقرونةً بالطباعاته الاجتماعية عن الحياة الاجتماعية لمختلف الناس. من هنا سماه كريمر «هرودت العرب»[١].

وورد أقدم ترجمة له في فهرست ابن النديم الذي كان معاصراً له. وذكر أنه كان من أهل المغرب ومن نسل عبد الله بن مسعود[٢]. ثم عدّ بعض مصنّفاته ومنها: *مروج الذهب ومعادن الجوهر في تحف الأشراف والملوك وأسماء الديارات*، و*كتاب التاريخ في أخبار الأمم من العرب والعجم*[٣]. ويبدو أنّ ابن النديم وهم في مغربيّته. وذهب ياقوت إلى أنّه كان بغداديّاً وتوطّن مصراً، ورأيه هذا قائم على ما ذكره المسعوديّ في السفر الثاني من مروجه أنّه ولد ببابل[٤].

وصنّف المسعوديّ كتباً عديدةً سمّى بعضها في مروجه. وكتب المستشرقون مقالات كثيرة حول أعماله التاريخيّة وآرائه، وفهرسها سزگين[٥].

وتُلحظ آراء متضاربة حول مذهب المسعوديّ فقد ذكره ابن حجر وعدّه شيعيّاً

---

(١) *ثقافة الشرق* ٢: ٤٢٣، نقلاً عن مقدّمة *مروج الذهب* ١: ٢.

(٢) جاء في *جمهرة أنساب العرب* (ص ١٩٧): عليّ بن الحسين بن عليّ بن عبد الله بن زيد بن عتبة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود.

(٣) *الفهرست*: ١٧١. جاء في المتن المطبوع «القرابات» بدل «الديارات»، وفي *تنبيه الأشراف*: ٦: «الديارات».

(٤) *معجم الأدباء* ١٣: ٩١. ومن المحتمل أنّ قصد ابن النديم من مغربيّة المسعوديّ مصريّته، وحينئذٍ لن تبرز مشكلة خاصّة في هذا المجال. انظر: *منهج المسعوديّ*: ٤٥.

(٥) *تاريخ التراث العربي* ج ١، جزء ٢، ص ١٧٨، ١٧٩. ويضاف إلى ذلك إنّ جواد علي كتب مقالة مفصّلة حول المسعوديّ في مجلّة سومر، السنة العشرين تحت عنوان موارد *تاريخ المسعوديّ* كما كتب هادي حسين حمود مقالةً في مجلّة المورد، الجزء ٨، العدد ٣، وعنوانها *مؤلّفات المسعوديّ*. وموضوع أُطروحته هو المسعوديّ نفسه، وطبعت هذه الأُطروحة تحت عنوان *منهج المسعوديّ في بحث العقائد والفرق الدينيّة*. والكتاب المفصّل الذي تحدّث عن المسعوديّ هو *منهج المسعوديّ في كتابة التاريخ* لسليمان بن عبد الله المديد السويكت، وطُبع سنة ١٤٠٧ هـ.

معتزليّاً نظراً إلى ما جاء في كتبه[١]. وأورد السبكيّ رسالة تشتمل على الآراء الفقهيّة للشافعيّ، ومالك، وأبي حنيفة، وداود بن عليّ الظاهريّ، وسفيان الثوريّ، وقرأ المسعوديّ هذه الرسالة على كاتبها أبي العبّاس بن سرج، وأملىٰ عليه قسماً منها. وذهب السبكيّ إلىٰ أنّه كان شافعيّاً[٢]. وعدّه علماء الشيعة شيعيّاً إماميّاً، فقد ذكره النجاشيّ ومصنّفاته التي أحصىٰ منها *إثبات الوصيّة*[٣]، وهو الكتاب الذي لو كان له فهو شيعيّ إماميّ بلا لُبسٍ، بيد أنّ الحقيقة هي أنّ نظم الكتاب وترتيبه يدلّان علىٰ تفاوت كبير بينه وبين أُسلوب *مروج الذهب*[٤]. ونظراً إلىٰ أنّ النجاشيّ يعتقد بأنّ الكتاب للمسعوديّ في القرن الخامس، فانّ العثور علىٰ شخص بهذا الاسم ـ أي: عليّ ابن الحسين المسعوديّ ـ بين علماء الشيعة المعاصرين للمسعوديّ المؤرّخ تقريباً يمكن أن يدحض انتسابه إليه. وفي الوقت نفسه نلحظ في *مروج الذهب* نظريّة الوصاية على عهد الأنبياء السابقين، وهي ما يتوكّأ عليه الشيعة.

وتشير نظرة على الكتاب المذكور إلىٰ أنّ ميوله الشيعيّة كانت واسعة الامتداد إلّا أنّنا لا نرىٰ فيه أثراً من التشيّع الإماميّ غير ما ذكره بشأن شروط الإمام عند الإماميّة[٥]. وله أيضاً رسالة مستقلّة تحت عنوان *رسالة البيان في أسماء الأئمّة القطعيّة*

---

(١) *لسان الميزان* ٤: ٢٢٥. (٢) *طبقات الشيعة* ٣: ٤٥٦، ٤٥٧.

(٣) *رجال النجاشيّ*: ٢٥٤، رقم ٦٦٥.

(٤) أبدىٰ مختلف الباحثين آراءهم في وهم انتسابه إلى المسعوديّ. انظر: *منهج المسعوديّ في كتابة التاريخ*: ١٠٧ ـ ١٠٩. ويبدو أن تفاوت الأسلوب هو السبب الوحيد للإنكار. ونُقل في المصدر المذكور عن شخصٍ كان يرىٰ أنّ كتاب المسعوديّ هو لابن المطهّر (العلّامة الحلّيّ) وهذا كلام ليس بصحيح، ذلك أنّ النجاشيّ كان يعرف الكتاب في القرن الخامس ونسبه إلى المسعوديّ المؤرّخ.

(٥) يعتقد مؤلّف كتاب *منهج المسعوديّ في كتابة التاريخ*. وحده بميوله الشيعيّة الشديدة، ويشكّ في كونه إماميّ المذهب أو ـ كما قال اندريه ميكال ـ إسماعيليّاً ومن دعاة الإسماعيليّة في القرن الرابع. انظر: المصدر نفسه: ٧١ ـ ٧٧ فقد بسط فيه الكلام عن الأدلّة التي تهدي إلىٰ ميوله الشيعيّة.

من الشيعة[١]، ولابدّ أن تكون في ترجمة الأئمّة الاثني عشر علىٰ وجه الدقّة. وتحدّث عن الفرقة القطعيّة في كتاب آخر له وذكر الحديث النبويّ الشريف في خطاب الإمام عليّ عليه السلام: «... أنت واثنا عشر[٢] من أولادك أئمّة الحـقّ» مستنداً إلىٰ كتاب سليم بن قيس الذي روىٰ عنه أبان بن أبي عيّاش. ووصف القطعيّة بضمير «هم»، وذكر أنّ هذا الحديث لم ينقله إلّا سليم. وأضاف بعد ذلك قائلاً: إنّ إمامهم المنتظر ظهوره في وقتنا هذا المؤرَّخ به كتابنا: محمّد بن الحسن بن عليّ بن... بن عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليهم أجمعين[٣].

وهل يمكن أن يكون المسعوديّ قد امتنع عن إبداء موقفه الصريح في *مروج الذهب* بسبب تهيئة كتابٍ للعامّة؟ ومهما كان فإنّ نوعاً من التشيّع العراقيّ الصريح يُشَمُّ من كتاب مروج *الذهب*، وهو في مستواه يتفاوت عن التشيّع الإماميّ، أو الإسماعيليّ، بل الزيديّ. ونحن نعرف أنّ التشيّع العراقيّ نوع مستقلّ عن التشيّع بعامّة[٤].

وتدلّ نظرة على فهرس مصنّفات المسعوديّ أنّ له رغبةً خاصّةً في مبحث الإمامة. وكتبه في هذا المجال التي لم يبق منها شيء: *الاستبصار في الإمامة* ووصـف أقـاويل الناس في ذلك من أصحاب النصّ والاختيار وحجاج كلّ فريق منهم؛ كتاب *الصفوة في الإمامة*؛ كتاب *الانتصار في الإمامة*؛ كتاب *حدائق الأذهان في أخبار آل محمّد عليه الصلاة والسلام*؛ كتاب *مزاهر الأخبار وظرائف الآثار* للصفوة النوريّة والذرّيّة الزكيّة أبواب الرحمة وينابيع الحكمة[٥]. ويستشفّ من عناوين هذه الكتب شيء أكثر مـن التشيّع العراقيّ المحدود، لكنّنا لا ندري ماذا كان.

---

(١) *التنبيه والأشراف*: ٢٥٨.

(٢) نحن نعلم أنّ هذا الخبر من المؤاخذات علىٰ كتاب سليم لأنّ العدد يجب أن يكون أحد عشر لا اثني عشر.

(٣) *التنبيه والأشراف*: ١٩٨، ١٩٩.

(٤) انظر: *الشيعة في إيران*، ج ١، فصل أقسام التشيّع.

(٥) *موارد تاريخ المسعوديّ*: ١٣، ١٤.

وكتابه الأهمّ هو *مروج الذهب*. وهذا المصنَّف الذي طُبع غير مرّة حتّى الآن تلخيص لكتابين كان قد صنّفها من قبل. وأفضل طبعةٍ له هي الطبعة التي تقع في سبعة أجزاء، ونهض بها شارل بلا في بيروت بين سنة ١٩٦٦ و١٩٧٩م مقرونةً بفهارس كثيرة[١].

وأشار في المقدّمة إلىٰ أنّه صنّف كتاباً بعنوان *أخبار الزمان* تحدّث فيه عن بداية الخليقة حتّىٰ عصر الإسلام. بعد ذلك أعدّ كتابه الأوسط في التاريخ، ثمّ عزم علىٰ أن يجعل جميع ما فصّله فيهما داخل كتاب واحد هو *مروج الذهب ومعادن الجوهر*. وقد صنّفه سنة ٣٣٣ هـ، وأضاف إليه سنة ٣٣٦هـ ما وقع من أحداث حتّىٰ هذه السنة. ونقل المقريزيّ عنه موضوعاً تاريخه سنة ٣٤٥هـ. ويرىٰ بعض الباحثين أنّ المسعوديّ زاد فيه أيضاً لكن لم تصل إلينا نسخته[٢].

وأتى المسعوديّ في مقدّمته بفهرس لأهمّ الكتب التاريخيّة الموجودة في عصره، وهو فهرس زاخر القيمة. وفيه نفسه خصّ *تاريخ الطبريّ* بأكثر الثناء، وذكر أنّه جمع فيه أنواع الأخبار، وهو كتاب مفيد عظيم الفائدة. وأثنىٰ أيضاً على قدامة بن جعفر وكتاب خراجه.

وعرض في المقدّمة أيضاً فهرساً لأبواب كتابه. وتصدّر الكتاب بقصّة النشأة الأُولىٰ، وواصل الكلام في تاريخ الأُمم المختلفة، والبلدان، والسلالات الملكيّة، والجغرافية التاريخيّة للعالم. ورؤيته في هذه المباحث ليست بتاريخيّة بحتة، بل كان ينظر إلى الماضي من كلّ جهة ويقدّم مجموعة من المعلومات التاريخيّة، والجغرافيّة، وتاريخ العلوم، والتقاويم، والأديان والعقائد. ويصل بعد هذه الموضوعات إلىٰ ولادة

---

(١) للاطّلاع علىٰ طبعاته الأُخرىٰ انظر: *منهج المسعوديّ في كتابة التاريخ*: ٩٦، ٩٧.

(٢) *موارد تاريخ المسعوديّ*: ١٠، ١١؛ *منهج المسعوديّ في كتابة التاريخ*: ٩٢ ـ ٩٥.

النبيّ ﷺ، ويدخل في التاريخ الإسلاميّ، والتقسيم فيه على أساس خلافة الخلفاء، ويدور الكلام في ذيل أسماء الخلفاء حول حوادث عصره. وآخر سنةٍ ذكرت فيها الحوادث هي سنة ٣٤٦هـ.

وكانت مصادره جمّةً، والسبب في ذلك أنّه لم يتحدّث عن التاريخ فحسب، بل تناول كثيراً من المجالات الفكريّة والاجتماعيّة الأُخرىٰ. وسطر في الأقسام الأُولىٰ التي ضمّت مباحث كتاب المبتدأ وقصص الأنبياء في الكتاب المذكور تعابير نحو: «ذهب أكثر أهل الكتاب»، «وقد زعمت المجوس»، و«ذكر أهل الكتاب»، و«ذكر أهل التوراة والكتب الأُولىٰ» وأمثالها ممّا يدلّ علىٰ أنّه أفاد من مصادر أهل الكتاب طبعاً. وأشار إلى كتاب *المبتدأ والسير* لوهب بن منبّه أيضاً[١].

وأخذ في قسم السيرة من مغازي ابن إسحاق (عن طريق تهذيبها الذي أنجزه ابن هشام). وذكر في بعض الأخبار التاريخيّة المتعلّقة بصفّين وأنساب اليمن وغيرها وليد ابن الحصين المعروف بابن القطاميّ (م ١٥٥). وجيء باسم أبي مخنف في مواطن كثيرة. ويُلحظ فيه أيضاً أخبار نقلت عن عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب (م ١٧١) في الخلفاء. ولنا أن نشير إلىٰ هيثم بن عديّ (م ٢٠٧)، والواقديّ، والمدائنيّ، وأبي عبيدة معمر بن المثنّىٰ وكُثُرٍ سواهم في جملة المشاهير والأخباريّين الذين نقل عنهم[٢].

وجملة القول إنّه لا بدّ من الالتفات إلىٰ أنّ كتاب المسعوديّ نُخبة من مئات الكتب التي ضاع اليوم ما يربو علىٰ تسعين بالمئة منها، ونظرةٌ علىٰ فهرسٍ لعناوين الكتب الواردة في المتن المذكورة في فهارس كتاب *مروج الذهب* يمكن أن تدلّ علىٰ جانب من هذه المصادر. وفي هذا الشأن نقل عن كتاب أبي حنيفة الدينوريّ مطلباً في الجغرافيّة

---

(١) *موارد تاريخ المسعوديّ*: ٢٨.

(٢) انظر: *منهج المسعوديّ في كتابة التاريخ*: ٢٠٦ ـ ٢٧٧.

ثمّ ذكر أنّ جميع هذه المطالب أخذها ابن قتيبة من كتب الدينوريّ وأدرجها في كتبه، وطبّق هذا العمل أيضاً على الكتب الأُخرىٰ لأبي حنيفة الدينوريّ[١].

وجمع المسعوديّ في كتبه أيضاً معلومات شفويّة كثيرة بفضل أسفاره المتوالية. والمثال الرائع الآخر في مصنّفاته هو كتابة علىٰ حجر منقوش كان موضوعاً على قبور الأئمّة الأطهار عليهم السلام في البقيع. فقد ذكر أنّ في البقيع حجراً من الرخام كتب عليه: **(الحمد لله مُبيد الأُمم ومحيي الرمم. هذا قبر فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سيّدة نساء العالمين والحسن بن عليّ بن أبي طالب، وعليّ بن الحسين بن عليّ، ومحمّد بن عليّ، وجعفر بن محمّد رضوان الله عليهم أجمعين)**[٢]. وأورد كذلك بعض مذكّراته التي منها خبر عن حفلة ليليّة أُقيمت بمصر سنة ٣٣٠ هـ[٣].

ولا يشتمل كتاب *مروج الذهب* على الأخبار التاريخيّة فحسب، بل يضمّ كثيراً من القضايا الثقافيّة والفرقيّة والكلاميّة وكذلك الأدبيّة. وأفاد في هذه المجالات من مصادر ليست في متناول اليد أيضاً.

وللمسعودي كتاب آخر تحت عنوان *التنبيه والأشراف* وهو يحتوي علىٰ مجمل لتاريخ عامّ للعالم قبل الإسلام وبعده حتّىٰ سنة ٣٤٥ هـ إذ كانت حكومة المطيع. وعرض الكتاب موضوعاته في ثلاثة أقسام، الأوّل ويشتمل على القضايا الجغرافيّة؛ الثاني ويحوي تاريخ فارس والروم؛ الثالث ويتناول تاريخ العصر الإسلاميّ. والقسم الذي يتوسّط الأوّل والثاني سرد لقضايا تخصّ الأُمم السبع الماضية، وهي تؤلّف في الأصل مقدّمة القسم الثاني. وبين القسم الثاني والثالث فصلان حول تعيين التاريخ عند الأُمم المختلفة. وطُبع هذا الكتاب لأوّل مرّة سنة ١٨١٠ مع ترجمة لمستشرق يُدعىٰ

---

(١) *مروج الذّهب* ٢: ٢٠٢.

(٢) *التنبيه والأشراف*: ٢٦٠.

(٣) *مروج الذّهب* ١: ٣٧٩، ٣٨٠.

ساكي. وأعاد دخويه طبعه عام ١٨٩٤. وتكرّرت طبعاته المتأخّرة بمصر وبيروت[١].
وطُبع كتيّب كقسمٍ من كتاب كبير للمسعوديّ عنوانه *أخبار الزمان*، وشكّك جواد علي بالكتيّب المذكور[٢].

أبو الفرج الإصفهانيّ (٢٨٤ ـ ٣٥٦)

أبو الفرج عليّ بن الحسين بن هيثم القرشيّ الأمويّ المنحدر من نسل هشام بن عبد الملك أحد أبرز المصنّفين المسلمين في تاريخ الأدب العربيّ وتدوين موضوعات تاريخيّة مهمّة تدور حول تاريخ الثقافة في الحضارة الإسلاميّة. ذكره ابن النديم المعاصر له وعدّ بعض مصنّفاته[٣]. ومصنّفه التاريخيّ البحت هو *مقاتل الطالبيّين*. أمّا كتابه *الأغانيّ* الذي يترجم للشعراء والمغنّين فهو مليء بأخبار تاريخيّة عن حوادث صدر الإسلام، إذ ما إن يدور الحديث حول شخصيّة من الشخصيّات فإنّه يسرد شرحاً تاريخيّاً للحوادث التي مرّت به وله فيها يدٌ. وهذا الكتاب من أفضل المصنّفات الباقية من القرون الهجريّة الأُولىٰ في الثقافة الإسلاميّة المسطورة. ولا يُقاس به كتاب في تاريخ الأدب العربيّ من الوجهة الأدبيّة.

وله رسائل صغيرة نحو كتاب *أدب الغرباء* وكتاب *الديارات*، وطُبع كلاهما. ومن مشايخه: أبو بكر بن دُريد، وأبو بكر بن الأنباريّ، ومحمّد بن جرير الطبريّ، وجعفر ابن قدّامة[٤].

ونظرة مجملة على كتابه *مقاتل الطالبيّين* الذي يضمّ ترجمة لقتلىٰ آل أبي طالب تدلّ

---

(١) انظر: *منهج المسعوديّ*: ١٠١، ١٠٢. (٢) *موارد تاريخ المسعوديّ*: ٧.

(٣) *الفهرست*: ١٢٧، ١٢٨.

(٤) انظر: *أبو الفرج الإصفهانيّ وكتابه الأغانيّ*: ٦٢ ـ ٦٩ (القاهرة، دار المعارف).

على نزعته الشيعيّة. وهذا أمر عجيب إذا أخذنا بنظر الاعتبار نسبه الأمويّ مع هذا فإنّ تشيّعه نوع من التشيّع العراقيّ شبه المعتزليّ لا التشيّع الإماميّ. وقال ابن العماد الكاتب: «ومن العجائب أنّه مروانيّ يتشيّع»[١]. واعتداله هذا حداه علىٰ نقل أخبار كثيرة خالية من التعصّب المذهبيّ.

وهو في أغانيه ومقاتله شديد التمسّك بالنهج الحديثيّ وذكر الأسانيد، من هنا أتاح فرصة مناسبة للتحقيق في مصادر الأحاديث والروايات التي نقلها. علماً أنّ اهتمامه بأشعار شِرذمة من الفاسقين ومعاقري الخمرة والرقّاصين وأغانيهم وأخبارهم جعله في موضع لا يؤبه له ولا يقام له وزن من الوجهة الدينيّة.

ويجدر الالتفات إلىٰ أنّ كتاب *الأغانيّ*، بغضّ النظر عن موضوعه المتمثّل بترجمة الأُدباء، نقل أخباراً تتعلّق بأقسام كثيرة من تاريخ الإسلام بشكل متفرّق. فنقرأ فيه بحثاً مبسوطاً عن الإمام الحسين عليه السلام وابنته سكينة، وبحثاً عن عبد الله بن الزبير ودولته، وعن حوادث جمّة من أيّام العرب في الجاهليّة ومئات الأمثلة المماثلة. ومن الضروريّ فصل الأقسام التاريخيّة من الكتاب وطبعها على أساس تسلسل تاريخيّ منظّم.

وطُبع قسم من الكتاب في أوربّا إبّان النصف الأوّل من القرن التاسع عشر، ثمّ طبع بعد ذلك بمصر أواخر القرن المذكور. وعقيب مدّةٍ أصدرت دار الكتب منها طبعةً منقّحةً له. ونهضت دار إحياء التراث العربيّ في بيروت بآخر طبعةٍ له في ثلاثة عشر جزءاً مع فهارس مفصّلة.

وكتاب *مقاتل الطالبيّين* كتاب ثمين ثمين من نوعه. وسبق أبا الفرج أحمد بن عبيدالله الثقفيّ إذ كان صنّف كتاباً تحت عنوان *كتاب المبيضّة في أخبار مقاتل آل أبي طالب*[٢]،

---

(١) *شذرات الذّهب* ٣: ١٩.

(٢) *الفهرست*، ابن النديم: ١٦٦.

ويبدو أنّ مصنّفات أُخرىٰ كانت موجودةً في هذا المجال. ومهما كان فإنّ هذا الكتاب ظلّ ماثلاً وحفظ أخباراً كثيرةً في سيرة العلويّين وطُبع الكتاب المذكور بتحقيق أحمد صقر(١).

أبو نصر المقدسيّ (منتصف القرن الرابع)

مطهر بن مطهر (أو طاهر) المقدسيّ من المؤرّخين والمؤلّفين في القرن الرابع الهجريّ. وهو مصنّف كتاب *البدء والتاريخ* الذي يمثّل مصنَّفاً تاريخيّاً يُشبه *مروج الذهب* للمسعوديّ في بعض الجهات(٢). وصُنِّف الكتاب المذكور سنة ٣٥٥ هـ(٣)، وهو نفسه ذكر ذلك في المقدّمة(٤). وقام كلمان هوار بطبع الجزء الأوّل منه بباريس سنة ١٨٩٩م باسم أبي زيد أحمد بن سهل البلخيّ (م ٣٢٢). بيد أنّ ما جاء على الصفحة الأُولىٰ من الجزء الثالث المطبوع سنة ١٩٠٣م هو أنّ الكتاب لمطهر بن طاهر المقدسيّ (المنسوب تأليفه لأبي زيد أحمد بن سهل البلخيّ). وأخذ هذا ممّا ورد في *غرر السير* للثعالبيّ(٥). وذكر سزگين أنّه هو الذي صنّف الكتاب في بُست من أعمال سجستان(٦)، المكان الذي كانت فيه ولادته أو عيشته على سبيل الاحتمال أيضاً. وأورد شفيعي

---

(١) قمّ، أوفسيت منشورات الرضيّ.

(٢) وكتب محمّد كرد علي حول هذا الكتاب مقالة في مجلّة *المقتبس*، الجزء الثالث (١٣٢٦ ـ ١٩٠٨) تحت عنوان «مطبوعات ومخطوطات كتاب *البدء والتاريخ*». وتحدّث شفيعي كَدْكَني عن المقدسيّ وكتابه مفصّلاً في مقدّمة الترجمة الفارسيّة للكتاب المذكور.

(٣) ذكر في الصفحة السابعة عشرة من المقدّمة في موضوعات الفصل الأخير من الكتاب أنّه سيذكر أسماء الملوك العبّاسيّين حتّىٰ سنة ٣٥٠ هـ.

(٤) *البدء والتاريخ* ١: ٦.

(٥) للاطّلاع على السبب المحتمل لهذه النسبة الخاطئة انظر: *آفَرِينِشْ وتاريخ* [الخليقة والتاريخ] ١: ٣٦.

(٦) *تاريخ التّراث العربيّ*، *التدوين التاريخيّ*، ص١٨٧.

فهرساً لمشايخه اعتماداً على ما جاء في كتابه، كما تحدّث عن أسفاره إلىٰ سجستان، ومرو، وسيرجان، وماسبذان، وخوزستان، وفارس، وجندي سابور، ومكّة، والعراق، والشام، ومصر، تلك الأسفار أشار إليها المقدسيّ في تضاعيف كتابه[1].

ويُستشفّ من مقدّمته على الكتاب أنّ المقدسيّ كان متمسّكاً بالعقل في تثمين الأخبار التاريخيّة. وما قيل في العالَم الغابر وأفكاره وآرائه وأديانه. فقد ذكر «غرائب العجائب» التي نقلها القصّاصون، وهي مرفوضة من منظار العقل. وليست إلّا ترّهات وأباطيل وأسماراً كلّها باطلة ولا خَلاق للحقّ فيها[2]. بعد ذلك ذكر شخصاً ولم يسّمه ـ ولعلّ اسمه كان في النصّ الأصليّ ـ وعبّر عنه بفلان، وأنّه طلب منه أن يدوّن له كتاباً خالياً من هذه الترّهات بعيداً عن الإفراط والتفريط... «منحطّاً عن درجة العلوّ، خارجاً عن حدّ التقصير، مهذّباً من شوائبالتزيّد، مصفّىٰ عن سقاط الغسالات وخرافات العجائز وتزاوير القصّاص وموضوعات المتّهمين من المحدّثين». وفي الوقت نفسه يرىٰ هدفه دينيّاً تماماً، وكتابه «ذبّاً عن بيضة الإسلام وردّاً لكيد مناوئيه».

ويرينا المقدسيّ في المقدّمة فهرساً مجملاً للمباحث المطروحة في كتابه. وشرع كلامه بالمبتدأ، ثمّ أورد أخبار الأنبياء والأُمم وسلالات ملوك العرب والعجم، بعد ذلك نقل أخبار السلاطين حتّىٰ زمن تصنيف الكتاب عام ٣٥٥ هـ. وله في النهاية نظر إلى المستقبل، وهو نقل أخبار الملاحم والفتن، لا سيّما ما جاء منها في الكتب المتقدّمة. وتطرّق في غضون ذلك إلىٰ أُمور من قبيل عمران الأرض، وطبيعة الأقاليم والممالك، والفتوحات والحروب. ومع كلّ ما مضىٰ فإنّه كان يرىٰ ضرورة البحث الاعتقاديّ في الفصول الأولىٰ من كتابه.

---

(١) *آفَرينِش وتاريخ* ١: ٤٧.

(٢) قال بعد نقل الخبر المتعلّق بخيبر: هذا هو الصحيح، ولا نعرف ما قاله القصّاص. *البدء والتاريخ* ٤: ٢٢٧، انظر: *آفَرينِش وتاريخ* ١: ٥١.

ويدور الفصل الأوّل حول علم المعرفة وتقويم العقل والنظر. ويتناول الفصل الثاني إثبات وجود الله والتوحيد وردّ التشبيه. ويتحدّث الفصل الثالث عن صفات الباري ويحوم الفصل الرابع حول النبوّة وإثباتها وكيفيّة الوحي. ويتطرّق الفصل الخامس إلى ابتداء الخلق. ويتكلّم الفصل السادس عن اللوح والقلم والعرش والكرسيّ... ويشتمل الفصل السابع على خلق السماء والأرض. ويضمّ الفصل الثامن ظهور آدم وأبنائه، وينطوي الفصل التاسع على ذكر الفتن والحوادث إلىٰ قيام الساعة. ويحتوي الفصل العاشر على تاريخ الأنبياء. وموضوع الفصل الحادي عشر ملوك العجم. والثاني عشر تاريخ الأديان. والثالث عشر جغرافيّة الأرض. والرابع عشر أنساب العرب. والخامس عشر سيرة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من ولادته إلىٰ بعثته... وهكذا حتّى الثاني والعشرين في ملوك بني العبّاس[١].

إذن، نحن أمام كتاب تاريخيّ يمتاز على غيره في شيئين. الأوّل: وجود مبحث اعتقاديّ في بداية الكتاب. الآخر: نظرته إلىٰ مستقبل العالم في ضوء روايات الملاحم والفتن. وهذا أُسلوب تخلو منه الكتب المشابهة يومئذٍ، مع أنّ ابن كثير ألّف ملحقاً لكتابه *البداية والنهاية* في هذا الباب.

وقلّما تعرّض الكتاب إلى الأسناد. وفي البحوث العقليّة أفاد من بعض مصنّفات المعتزلة في مواضع منه. على سبيل المثال نقل بحثاً مفصّلاً من كتاب ***أوائل الأدلّة*** لأبي القاسم الكعبيّ البلخيّ. وأخذ في المباحث الفلسفيّة من كثيرٍ من الكتب المنسوبة إلىٰ علماء اليونان. ويمكن أن نشير إلىٰ كتبٍ أخرىٰ مذكورة فيه مثل ***النقض على الباطنيّة*** لابن رزّام، ***ورسالة في وصف مذاهب الصابئين*** لأحمد بن الطيّب السرخسيّ[٢]. وجاء

---

(١) *البدء والتاريخ* ١: ٥ ـ ١٧. وكتب شفيعي بحثاً مفصّلاً حول نظم الكتاب ونوع موضوعاته، وهو جدير بالقراءة. (*آفرينش وتاريخ*، طهران، آگه ١: ٥٥ ـ ٩٧).

(٢) *آفرينش وتاريخ* ١: ٦٩، ٧٠.

في موضعٍ منه: «حدّثني أحمد بن محمّد بن الحجّاج المعروف بالسجزيّ بالشيرجان سنة ٣٢٥هـ»[١]. وهي سيرجان نفسها. وورد فيه اسم الواقديّ أكثر من سائر المؤرّخين. وقال في موضع واحد بشأن النبيّ ﷺ: «فلمّا بلغ عشرين سنةً، هاجت حرب الفجار في رواية ابن إسحاق والواقديّ، وروىٰ أبو عبيدة...»[٢].

وجاء اسم ابن إسحاق أيضاً في صفحات كثيرة من الجزء الثاني والثالث والرابع. وأفاد المقدسيّ من كتاب *المبتدأ* لابن إسحاق الذي حذفه ابن هشام أكثر من غيره. وقال في موضع: أمّا محمّد بن إسحاق فيقول في كتابه وهو أوّل كتابٍ عُمل في بدء الخلق...[٣].

وذكر في ص١٦٩ من الجزء الأوّل موضوعات من أهل الكتاب نقلاً عن ابن إسحاق[٤]. ونبّه في مقدّمة الفصل السابع التي تتناول خلق السماء والأرض علىٰ أنّه أخذ مطالب هذا الفصل من ابن عبّاس، ومجاهد، وابن إسحاق، والضحّاك، وكعب الأحبار، ووهب بن منبّه، والسنديّ، والكلبيّ، ومقاتل، وغيرهم ممّن كان لهم باع في هذا العلم. وأضاف قائلاً: «فلنذكر الأصحّ من رواياتهم والأقسط للحقّ والأشبه بالصواب». ثمّ قال: نأتي بما قاله أهل الكتاب ولا نكذّب إلّا ما وجدنا خلافه في

---

(١) *البدء والتاريخ* ٢: ١٨١. وشيرجان هي سيرجان التابعة لكرمان. وفي هذا دليل علىٰ أنّ الكتاب صُنِّف في ديار سجستان.

(٢) نفسه ٤: ١٣٥. وجاء اسم الواقديّ في ٢: ١٥٤؛ و٣: ٥٣؛ و٤: ١٣٥، ١٣٧، ١٣٩، ١٤٥، ١٤٦، ١٥٥، ١٥٩، ١٦١ـ١٦٣، ١٦٦، ١٧١، ١٧٥، ١٨٢، ١٨٣؛ و٥: ١٦، ٣٣، ٥٨، ٥٩، ٦١، ٦٧، ٧٢، ٧٣، ٨٠ ـ ٨٤، ٨٦، ٨٧، ٩١ ـ ٩٣، ٩٧، ٩٨، ١٠٠، ١١٠، ١١٣، ١١٤، ١١٦، ١٦٠، ١٩١؛ و٦: ٥٨. ومعظمها في النبيّ ﷺ والصحابة رضي الله عنهم. وهي أخذت إمّا من مغازي الواقديّ أو من كتابه في الطبقات.

(٣) نفسه ١: ١٤٩.

(٤) انظر أيضاً ٢: ١، ٥، ١١، ٥٢، ٨٠، ٨١، ٨٣، ٩٣، ٩٩؛ و٣: ١٦، ٢٠، ٢٦، ٣٠، ٣٦، ٣٧، ٧٩، ٩٩، ١٢٦. وما جاء في الجزء الرابع أخبار تتعلّق بأنساب العرب وأديانهم والعصر الإسلاميّ.

القرآن أو الأخبار الصحيحة[١].

وجميع ما نقله عن الكلبيّ يتعلّق بالجزء الثاني[٢] الذي يرتبط بكتاب *المبتدأ*. وذُكر اسم المسعوديّ أيضاً، لكنّنا بالنظر إلى المورد المذكور نستبعد أن يكون المسعوديّ المؤرّخ نفسه. ونقل بيتين بالفارسيّة بعد قوله: «قال المسعوديّ في قصيدته المحبّرة بالفارسيّة:

نخستين كيومرث آمد بشاهى گرفتش بگيتى درون بيش گاهى

چو سى سال به گيتى پادشا بود كى فرمانش به جايى روا بود

بعد ذلك ذكر أنّه أتىٰ بهذه الأشعار لأنّ الفرس يعظّمونها ويرونها كتاريخهم[٣]. ثمّ قال في ص١٧٣: قال المسعوديّ في آخر قصيدته الفارسيّة:

سپرى شد نشان خسروانا چو كام خويش راندند در جهانا

ولا بدّ أن كان المقدسيّ سنّيّاً معتزليّاً غير متعصّب أو قريباً من ذلك لأنّ له مؤاخذات على مدرسة الاعتزال أيضاً. وفي الوقت نفسه أبدىٰ ميولاً ضدّ الباطنيّة حيث سمّى الزندقة في عصره علم الباطن والباطنيّة[٤]. وذكرها في موضع آخر بقوله: «هذه الشرذمة الخسيسة الموسومة بالباطنيّة»[٥]. وخصّص فصلاً من كتابه «لمقالات أهل الإسلام». وتحدّث في الصفحة ١٢٤ إلى الصفحة ١٣٤ من الجزء الخامس عن فرق الشيعة، لكنّه لم يسجّل موقفاً خاصّاً منها. ونجد في هذا القسم معلومات موجزة

---

(١) *البدء والتاريخ* ٢: ١، ٢.

(٢) انظر أيضاً ٢: ١، ٣، ٦، ٨٦، ٨٩، ٩٦، ١٥٦، ٢٢٣، ٢٣٢.

(٣) نفسه ٣: ١٣٨.

(٤) نفسه ٣: ١٥٧.

(٥) نفسه ٥: ٤٥. وينبغي الالتفات إلىٰ أنّ عنوان الباطنيّة إذا كان متعلّقاً بالإسماعيليّة فإنّ هذه الأمور إلى القرن الخامس والسادس أقرب منها إلى القرن الرابع. وكان المؤلّف يعيش في القرن الرابع طبعاً ولابدّ من أن يكون قد أدرك خطر الإسماعيليّة مبكّراً. انظر: نفسه ٥: ١٣٣، ١٣٤.

عن الفِرَق بيد أنّها مهمّة نسبيّاً. وذهب إلىٰ أنّ أوّل فرقة شيعيّة كانت تتكوّن من عمّار وسلمان والمقداد وجابر وأبي ذرّ وعبد الله بن عبّاس الذين كانوا يُظهرون الولاء للإمام علي عليه‌السلام في حياته[1]. وختم الجزء الرابع بعبارة وصلواته على سيّدنا محمّد النبيّ وآله الطاهرين الطيّبين.

وتولّت دار صادر ببيروت طبع كتاب *البدء والتاريخ* في ستّة أجزاء بالأوفسيت. وأضاف إليه عبد الله الجبوريّ جزءاً مستقلّاً طُبع ببغداد سنة ١٩٦٥ م تحت عنوان *فهارس كتاب البدء والتاريخ*.

ونهض الأُستاذ شفيعي كَدْكَني بترجمة كتاب *البدء والتاريخ* إلى الفارسيّة، فصدر في ستّة أجزاء ومجلّدين تحت عنوان آفَرِينِشْ وتاريخ.

الشيخ المفيد (م ٣٣٦ ـ ٤١٣)

أبو عبد الله محمّد بن محمّد بن النعمان البغداديّ أحد علماء الشيعة البارزين في النصف الثاني من القرن الرابع والعقد الأوّل من القرن الخامس الهجريّ. وكان متكلّماً فقيهاً مؤرّخاً، وله في كلّ باع مصنّفات جليلة. وكان عالماً وقف حياته علىٰ توجيه الشيعة وهدايتهم ومناظرة الفرق الزاعمة أمام الشيعة. فنوع رؤيته وكتابته تنطلق من هذا المنطلق.

وترك الشيخ كتابين تاريخيّين مهمّين: الأوّل: *الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد* وقد اضطلعت مؤسّسة آل البيت بتحقيقه ونشره في جزءين. وفيه ترجمة لحياة أئمّة أهل البيت عليهم‌السلام، والجزء الأوّل منه يدور حول الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه‌السلام، والقسم الأوّل من هذا الجزء يتناول حياته عليه‌السلام في عصر النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله (حتّىٰ ص ١٩٥)،

---

(١) *البدء والتّاريخ* ٥: ١٢٤.

كما يُلحظ فيه كثير من القضايا التي ترتبط بالسيرة، وتلاها الحديث عن الإمام عليه السلام.
أمّا الجزء الثاني فقد اشتمل علىٰ حياة سائر الأئمّة عليهم السلام.

واستضاء الشيخ المفيد بمصادر متنوّعة فصنّف كتابه المذكور بنحو أفاد فيه الشيعة، فعرفوا سيرة أئمّتهم بمطالعته. وفي الوقت نفسه كان مهتمّاً بالمصادر والأسناد أيضاً فأورد أسناد أخباره فيه كلّه.

ونقل عن أبي مخنف، وإسماعيل بن راشد، وأبي هشام الرفاعيّ، وأبي عمرو الثقفيّ أخباراً تتعلّق باستشهاد الإمام عليّ عليه السلام[١]. وجاء اسم أبي مخنف والواقديّ في مطلع بعض الأخبار[٢]. وكذلك اسم الكلبيّ والمدائنيّ[٣]، وأبي الفرج الإصفهانيّ[٤]. ويصرّح في بعض المواضع أنّه أفاد من كتاب خاصّ كقوله: «وجدت في كتاب أبي جعفر محمّد بن العبّاس الرازيّ»[٥]. ويشير في مواضع أُخرىٰ بعامّة إلىٰ أنّ «أهل السير»، أو «أهل الآثار» أو «نقلة الآثار من الخاصّة والعامّة» أو «علماء الأخبار ونقلة السيرة والآثار» نقلوا هذه أو أجمعوا عليه[٦].

وفي نقل الموارد الحديثيّة ذكر اسم الراويّ أوّلاً لكنّه لم يورد مصدر كتابه. وأفاد في قسم السيرة من ابن إسحاق في سيرته التي هذّبها ابن هشام[٧]. وجاء في موضع آخر: «روىٰ يونس بن بكير عن ابن إسحاق»[٨]. ونحن نعلم أنّ رواية يونس رواية مستقلّة

---

(١) *الإرشاد* ١: ١٧.
(٢) نفسه ٢: ١٠٠، ١٤٧؛ ٢: ١٠٧.
(٣) نفسه ٢: ٣٢، ٢٦٣. ويبدأ الحديث عن كربلاء من ص٣٢ فما تلاها. ويبدو أنّ الشيخ المفيد نقل القسم الأعظم من أخباره عن الكلبيّ ـ راوي كتاب أبي مخنف في المقتل ـ والمدائنيّ. وموضوع الصفحة ٢٦٣ عن المدائنيّ في ولاية عهد الإمام الرضا عليه السلام.
(٤) نفسه ٢: ١٩٠، ١٩٣ (مع الإشارة إلى *مقاتل الطالبيّين*).
(٥) نفسه ١: ٣٧.
(٦) نفسه ٢: ٦١، ١٢٨، ٢١٠، ٢٣٤.
(٧) نفسه ١: ٩١.
(٨) نفسه ٢: ١٠٤.

عن رواية البكائيّ وابن هشام. ومن مصادر الشيخ المفيد هشام الكلبيّ أيضاً[١]. أمّا أخباره الحديثيّة والتاريخيّة حول الأئمّة المتأخّرين فقد نقلها عن طريق الكتب الشيعيّة.

والثاني: كتاب *الجمل* أو *النصرة لسيّد العترة في حرب البصرة*. وهو كتاب أُحاديّ الموضوع يدور حول معركة الجمل وحدها[٢]. وصُنِّف عدد من الكتب الأُحاديّة الموضوع في هذا المجال إبّان القرن الثاني والثالث. منها: كتب أبي مخنف، وهشام الكلبيّ، والواقديّ، ونصر بن مزاحم، والمدائنيّ، وإبراهيم الثقفيّ، وابن أبي شيبة[٣].

والمزيّة الأساسيّة لكتاب *الجمل* هي أنّه عرض التاريخ علىٰ شكل بحث كلاميّ. والحقيقة أنّ حرب الجمل أصبحت مصدراً لكثير من الخلافات المتأخّرة بين المسلمين في تعريف الكفر والإيمان والفسق. وكان للشيعة موقفهم الخاصّ الذي لابدّ أن يُفصح عن سقم موقف المعارضين. وكانوا بحاجة إلىٰ أن تتبيّن الحقيقة التاريخيّة لهذه القضيّة أفضل فأفضل. ونهض الشيخ المفيد وهو المتكلّم الحاذق والمؤرّخ اللامع والمحيط بشتّى المصادر بدراسة هذه الواقعة بأُسلوب جديد وصنّف كتابه الخالد *الجمل* غير مماثل لسائر المؤرّخين في القرن الثاني.

ولم ينوِ الشيخ المفيد ذكر كتبه، لكنّه قدّم مصدر الحجم الكبير من الروايات. وأشرنا غير مرّة إلىٰ أنّ ذكر السند لا يعني نقلاً شفويّاً، بل يعني أنّ مؤلّف الكتاب هو واحد من بين عدد من الرواة الأُوَل. ويمكن أيضاً أن يكون قد رأىٰ ذلك الخبر بسنده في كتابٍ ما، وأورده في كتابه نصّاً، إلّا أنّه لم يذكر عنوان الكتاب الذي كان فيه الخبر المذكور. وجاء في كتاب *الجمل* اسم كتاب *الجمل* لأبي مخنف تحت عنوان كتاب صنّفه

(١) انظر: *الإرشاد* ١: ١٠٣؛ ٢: ٣٢.

(٢) طبعه مكتب الإعلام الإسلاميّ في قمّ سنة ١٤١٤ هـ بتصحيح السيّد عليّ ميرشريفيّ.

(٣) انظر: مقدّمة كتاب *الجمل*: ٢٢.

في حرب *البصرة*[١]. وجاء فيه أيضاً كتاب *السيرة* لابن إسحاق، و**فضيلة المعتزلة** للجاحظ، و**مقتل عثمان** لأبي حذيفة، و**البيان والتبيين** للجاحظ، وكتاب **الجمل** للواقديّ تحت عنوان كتاب صنّفه في حرب *البصرة*[٢]، و**المنبئ** لعليّ بن حسن بن فضّال[٣]. ويستشفّ من الكتاب بنظرةٍ خاطفةٍ أنّه أدرج قسماً كبيراً من كتاب *الجمل* للواقديّ فيه، وبذا يتبيّن أنّ كتاب الشيخ المفيد يشتمل علىٰ أقسام من كتاب ثمين مفقود. وتُلحظ فيه أيضاً أسماء لمؤرّخين آخرين في بعض الأسناد، منهم نصر بن مزاحم المنقريّ، ومحمّد بن السائب الكلبيّ، والمدائنيّ[٤].

ويشتمل كثير من مصنّفات الشيخ المفيد الأُخرىٰ ذات الطابع الكلاميّ على أخبار تاريخيّة جمّة نُقلت بشكل رئيس من كتب مفقودة آنذاك[٥].

أبو عليّ أحمد بن محمّد بن مسكويه (٣٢٠ ـ ٤٢١)

وهو مصنّف الكتاب الثمين **تجارب الأُمم**، وكتب أخرى نحو **تهذيب الأخلاق**، و**الهوامل والشوامل**، وغيرهما من الكتب التي لا تُحصىٰ. ونظراً إلىٰ أعماله العلميّة، ينبغي أن نميّزه عمّن سواه بوصفه عالماً فيلسوفاً ومحقّقاً في الأخلاق والرياضيّات. وله باع في التاريخ. وقسم من هذا الكتاب تلخيص لتاريخ الطبريّ، لكنّه أفاد في القسم المتعلّق بحياته من مشاهداته ومسموعاته.

إنّ المهمّ في تاريخ ابن مسكويه رؤيته للتاريخ. وهو ما يتبيّن من عنوانه. وقال في بدايته: «وإنّي لمّا تصفّحت أخبار الأُمم، وسِيَر الملوك، وقرأتُ أخبار البلدان، وكتب

---

(١) *الجمل*: ٩٥، ١٢٨، ١٦٧.
(٢) نفسه: ١٣١.
(٣) نفسه: ٥٦١.
(٤) انظر: فهرست أعلام كتاب *الجمل*.
(٥) قام المؤتمر التكريميّ لألفيّة الشيخ المفيد بطبع مصنّفات الشيخ في خمسة عشر مجلّداً.

التواريخ، وجدتُ فيها ما تُستفاد منه تجربةً في أُمور لا تزال يتكرّر مثلها ويُنتظَر حدوث شبهها وشكلها كذكر مبادئ الدول، ونشئ الممالك، وذكر دخول الخلل فيها بعد ذلك، وتلافي من تلافاه وتداركه إلىٰ أن عاد إلىٰ أحسن حال وإغفال من أغفله واطّرحه إلىٰ أن تأدّىٰ إلى الاضمحلال والزوال...»[١].

ويتبيّن من كلامه هذا أنّه كان في صدد التعرّف على ظهور الدول وسقوطها، وكان يهتمّ اهتماماً بالغاً بزوال الدولة. وبعد ذلك تحدّث عن العبرة فقال: «ورأيتُ هذا الضرب من الأحداث إذا عُرف له مثال ممّا تقدّم، وتجربة لمن سلف، فاتّخذ إماماً يُقتدىٰ به، حذر ممّا ابتلىٰ به قوم، وتُمُسّك بما سعد به قوم. فإنّ أُمور الدنيا متشابهة، وأحوالها متناسبة، وصار جميع ما يحفظه الإنسان من هذا الضرب كأنّه تجارب له، وقد دُفع إليها، واحتُنك بها، وكأنّه قد عاش ذلك الزمان كلّه، وباشر تلك الأحوال بنفسه»[٢].

وذهب إلىٰ أنّ الكتابات التاريخيّة مشوبة بالأساطير وقال: «ووجدت هذا النمط من الأخبار مغموراً بالأخبار التي تجري مجرى الأسمار والخرافات التي لا فائدة فيها غير استجلاب النوم بها، والاستمتاع بأُنس المستطرف منها»[٣].

وبدأ ابن مسكويه تاريخه بالحديث عن الفيشداذيّة. وهذا يدلّ علىٰ رسوخ كتابة التاريخ الفارسيّ في أعماقه، ويشير إلىٰ تفاوته وأُسلوب المصادر التاريخيّة الأُخرىٰ كتاريخ اليعقوبيّ، وتاريخ الطبريّ اللذين بدءا تاريخهما بالحديث عن الخليقة، وهبوط آدم، والأنبياء، حتّى الإسلام. وبعد أن بيّن ابن مسكويه مجملاً لتاريخ فارس حتّى العصر الساسانيّ، وصل إلى العصر الإسلاميّ، وأوّل بحثه في المتن المطبوع من

---

(١) **تجارب الأُمم**، المقدّمة ١: ١.　　(٢) نفسه ١: ٢.

(٣) نفسه ١: ٢.

الكتاب تاريخ حرب الأحزاب[١]. ولم يستبن سبب خلوّه من الأقسام السابقة.

ويقع تاريخ ابن مسكويه في مجلّدين، الأوّل الذي يشتمل على الوقائع الحادثة حتّىٰ سنة ١٠٣هـ اختيار للحوادث من مصادر أُخرىٰ. والمـتن الأصليّ الذي أفاد منه هو *تاريخ الطبريّ*، وما في هذا القسم إلّا تلخيص لعمل آخر.

وقام مستشرق يدعىٰ كايتاني بطبع المجـلّد الأوّل، والخـامس، والسـادس مـن *تجارب الأُمم* لأوّل مرّة بشكل مصوَّر. أمّا المجلّد الثاني، والثالث، والرابع فإنّها لم تُطبع لأنّ الجزءين التاليين، أي: الخامس والسادس متمّمان لتاريخ الطبريّ. وبـعد ذلك لم تسنح فرصة لطبع الأجزاء الباقية.

ونهض مستشرق آخر يُدعى اِمدروز بطبع الجزء الخامس (من سنة ٢٩٥ هـ حتّىٰ سنة ٣٢٩ بوصفه الجزء الأوّل)، والجزء السادس (من سنة ٣٢٩هـ حتّىٰ سنة ٣٦٩ بوصفه الجزء الثاني) في مصر (دار الكتاب الإسلاميّ، القاهرة). كما طبع مجلّداً آخر تحت عنوان ذيل *تجارب الأُمم* (وتواصل بعمل مركليوث عليه) ويشتمل على ذيلين. الأوّل: ذيل أبي شجاع محمّد بن الحسين الملقّب بـظهير الديـن روذراوري، ويـضمّ حوادث الفترة الواقعة بين سنة ٣٦٩ و٣٨٩ هـ. الثاني: وهو الجزء الثامن من كتاب تاريخ أبي الحسين هلال بن محسّن الصابيّ، ويستوعب أحداث ما بـين سـنة ٣٨٩ و٣٩٣هـ (بوصفه الجزء الثالث). وطُبع قسم آخر من التجارب، وهو يتناول وقائع ما بين سنة ١٩٨ وسنة ٢٥١ هـ، مع كتاب مجهول المؤلّف يُدعىٰ *العيون والحدائق فـي أخبار الحقائق*، وذلك بليدن سنة ١٨٦٩م[٢]. وحريّ بالذكر أنّ هـذا الكـتاب مـن المصنّفات القديمة التي لم يُعرف مصنّفها، وفيه حوادث البرهة الواقعة بـين حكـومة

---

(١) *تجارب الأُمم*، المقدّمة ١: ٢.

(٢) كتاب *العيون والحدائق في أخبار الحقائق* (الجزء الرابع، القسم الثاني)، طبعته نبيلة عبد المنعم داود ببغداد سنة ١٩٧٣م.

الوليد بن عبد الملك الأمويّ وبداية حكم الواثق العبّاسيّ.

من هنا نعرف أنّ الأجزاء الأولىٰ إلّا الجزء الأوّل الذي كان طُبع مصوَّراً لم تكن تُطبع إلىٰ ما قبل قيام الدكتور أبي القاسم إماميّ بتصحيح الجزء الأوّل والثاني منه وطبعه (طهران، سروش، ١٣٦٦ شمسيّ ـ ١٤٠٨ هـ). وهو الذي ترجم الجزء الأوّل منه إلى الفارسيّة أيضاً. بيد أنّه لم يتمّ مشروعه بطبع الكتاب كلّه بَعْدُ أو أنّه لم يَرَ نور الطبع كحدّ أدنىٰ.

وهذا الضرب من الرؤية جعله يختار ما ينسجم مع عمله من حوادث ما قبل الإسلام. وقد صرّح بأنّه صنّف كتابه في الدرجة الأُولىٰ للوزراء، والقوّاد، والعسكر، والساسة، والشخصيّات الوجيهة المعتمدة من العامّة والخاصّة، ثمّ لسائر الطبقات، بما فيها الطبقات الدانية فإنّ لها أن تفيد منه في سياسة المنزل ومعاملة الأصدقاء[1].

والملاحظة التي لا بدّ من تأكيدها هنا هي أنّ علىٰ ابن مسكويه أن ينظر إلى التاريخ من وحي فلسفيّ كما كان وعد في المقدّمة، لكنّه حينما دوّن تاريخه لم يفِ بما قطعه على نفسه وكأنّه أراد باختيار الحوادث أن يستخرج القارئ ذاته تلك النتائج بشكل ضمنيّ. والمهمّ من الكتاب أجزاؤه الأخيرة التي عرضت معلومات جديدة بوصفها متمّمة لتاريخ الطبريّ. ومن المؤسف أنّ آخر سنةٍ حرّر فيها أخباره هي سنة ٣٦٩ هـ. ومع أنّه ظلّ حيّاً بعدها قرابة نصف قرن، لم يذكر فيه شيئاً من تلك السنين.

---

(١) انظر: *موارد تاريخ الطّبريّ*، القسم الأوّل، ص١٧٢.

(٢)

العصر الجاهليّ

تمهيد في مفهوم الجاهليّة

علينا قبل كلّ شيء أن نستعرض النّطاق الزّمانيّ والمكانيّ للعصر الجـاهليّ، ثمّ نتحدّث عن خصائصه، فمن حيث الزّمان يُسمّىٰ العصر الّذي سبق البعثة النّبويّة بمائة وخمسين سنة أو مائتي سنة كحدّ أعلىٰ العصر الجـاهليّ[1]. بيد أنّ ما يتسنّىٰ لنـا أن نأخذ به بعد إنعام النّظر في الحوادث المنقولة لهذا العصر هو أنّـه يشـمل الحـوادث الواقعة حتّىٰ قرابة عام الفيل، أي: الواقعة قبل البعثة بأربعين سنة. وقد نقلت أشعار وأخبار عن الحوادث الّتي سبقتها بمائتي سنة تقريباً، لكنّ نصيبها من الصّحّة ضئيل؛ أمّا تاريخ العرب قبل هذين القرنين، فلعلّ القرآن الكريم أشار إليه في موطن واحد فحسب، وهو قدوم إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام إلىٰ وادٍ غير ذي زرع[2]، مكّة[3]. وفي التّوراة أيضاً إشارات لا يُطمئنُّ إليها.

أمّا فيما يتعلّق بالنّطاق المكانيّ للمنطقة الّتي أُطلق عليها اسم الجاهليّة فينبغي أن نقول: استعمل القرآن الكريم هذا الاسم لأوّل مرّة للفترة الّتي سبقت البعثة النّبويّة، بيد أنّه لم يحدّد مكانه. ويعتبر القرآن غالباً المصاديق الغالطة، مـن مـنظور قـرآنيّ،

---

(١) *تاريخ الأدب العربيّ، العصر الجاهليّ*: ٣٨. والأخبار الموجودة في المصادر الإسلاميّة حول عصر ما قبل الإسلام تمتدّ إلى زهاء مائة وخمسين سنة قبل الإسلام. انظر *المفصّل* ١: ٧٣.

(٢) إبراهيم: ٣٧.

(٣) لعلّها إشارة إلىٰ أصحاب الأُخدود، وهو ما يتعلّق بالعرب النّصارىٰ في الجنوب.

ممارسات جاهليّة. من هنا جاز لنا أن نعدّ بلاد الرّوم وفارس أيضاً من بلاد الجاهليّة، وهما كذلك في الحقيقة. ولمّا كنّا نرىٰ هذه الدّراسة مدخلاً للتّاريخ السّياسيّ في الإسلام، لذا نحدّد الجاهليّة فيها بجزيرة العرب، لا سيّما مكّة والمدينة. وهدفنا هو التّعرّف علىٰ موقف الإسلام والنّبيّ ﷺ من هذه البيئة. وتعدّ الجزيرة العربيّة في بداية الإسلام مهدها.

اشتُقّت كلمة «الجاهليّة» من الجهل. لكن هذا لا يدلّ علىٰ أنّ مفهومها بمعنىٰ الجهل الّذي يستعمل في مقابل العلم. وعلينا أن نستعرض مواضع استعمالها في تلك الفترة للتعرّف عليها كمصطلح موضوع.

أشرنا فيما تقدّم إلىٰ أنّ القرآن الكريم هو أوّل من استعمل هذه الكلمة، لذا نلقي في البداية نظرة علىٰ مواضع استعمالها فيه. فالآيات الّتي وردت فيها كلمة «الجاهليّة» هي كالآتي: قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾[1]. وقال سبحانه: ﴿يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَاهِلِيَّةِ﴾[2]. وقال تبارك اسمه: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[3]. وقال جلّ شأنه: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ﴾[4].

يدلّ استعمال «الجاهليّة» في الآيات المتقدّمة علىٰ أنّ القرآن الكريم حسب بعض الممارسات المرتبطة بالعصر الجاهليّ، الّتي لا تنسجم مع المعايير الحقيقيّة في الإسلام، جاهليّة وأدانها. كما شجب العقائد والأحكام الجاهليّة، وعدّ الحميّة الموجودة في النّظام القبليّ حميّة جاهليّة.

وجاءت كلمة «الجاهليّ» و«الجاهليّة» في مواضع من *نهج البلاغة* أيضاً. في

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) آل عمران: ١٥٤.

(٣) المائدة: ٥٠.

(٤) الفتح: ٢٦.

أحدها حذّر الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام النّاس من جاهليّة بني أميّة فليس فيها منار هدىً، ولا عَلَمٌ يُرىٰ[1]. وفي موضع آخر حذّرهم من طاعة السّادات والكبراء الّذين هم قواعد أساس العصبيّة، ودعائم أركان الفتنة، وسيوف اعتزاء الجاهليّة[2]. وفي موضع ثالث نهاهم عن الجاهلين إذ لا في الدّين يتفقّهون، ولا عن الله يعقلون[3]. فمن هنا يتبيّن أنّ الأفعال والأفكار النّابعة من الجهل المخالفة للمعايير القرآنيّة تُعدّ من الأفعال والأفكار الجاهليّة.

يرىٰ بلاشر أنّ الإسلام أطلق صفة الجاهليّة علىٰ جميع الخصائص النّفسيّة للعرب كالطّبيعة القتاليّة، والحميّة العربيّة، والقسوة عند الثّأر، وأطلقها علىٰ بعض عاداتهم كشرب الخمر، والميسر، وما ماثلها[4]. ويذهب جواد علي إلىٰ أنّ الجاهليّة تعني السّفاهة، والحمق، والحقارة، والغضب، وعدم الانقياد للإسلام وأحكامه[5]. وهذا هو عين ما ذهب إليه أحمد أمين أيضاً[6].

وجعل بعض الكتّاب كلمة الجاهليّة في مقابل العلم لاشتقاقها من الجهل. وذهبوا إلىٰ أنّ الإسلام استعملها في مقابل العلم الّذي وعد به النّبيّ ﷺ[7]. بيد أنّا إذا أنعمنا النّظر في مواضع استعمالها في القرآن الكريم، رأينا أنّها لم تستعمل في مقابل العلم، مع أنّا لا نريد أن نُثبت علماً للعصر الجاهليّ. وسنتحدّث في هذا المجال بالتّفصيل لاحقاً لنذكر أنّ العرب كانوا في مستوىً جدّ واطئ من الوجهة العلميّة. وتقدّم لنا كتب اللغة أيضاً معنىً للجاهليّة ينسجم مع الاستعمال القرآنيّ لها. والنّاس الّذين كانوا في حال

---

(١) *نهج البلاغة*، الخطبة ٩٣، ص١٣٨.
(٢) نفسه، الخطبة ١٩١، ص٢٨٩.
(٣) نفسه، الخطبة ١٦٦، ص٢٤٠.
(٤) *تاريخ الأدب العربيّ*، بلاشر ١: ٤٧.
(٥) *المفصّل* ١: ٤٠.
(٦) *فجر الإسلام*: ٧٠؛ وانظر: *العصر الجاهليّ* ١: ٣٩.
(٧) *تاريخ الأدب العربيّ*، بلاشر (نقلاً عن جولد تسيهر): ٤٧؛ *المفصّل* ١: ٤٠.

من الجهل بالله سبحانه ورسوله وشرائع الدّين، والمفاخرة بالأنساب والكِبر والتّجبّر والغرور وغير ذلك يُدعون جاهليّين[١]. وقال كاتب آخر: والظّاهر أنّ الأصل الواحد في هذه المادّة هو ما يخالف العلم وفقدان العلم إمّا بالنّسبة إلىٰ المعارف الإلٰهيّة أو العلوم الظّاهريّة أو بالنّسبة إلى تكاليف شخصيّة[٢].

وفي خاتمة المطاف لابدّ أن نقول في توضيح هذه الكلمة: إنّ كلّ خلاف وعمل غالط هو عمل جاهليّ سواءً نتج عن الجهل أم عن عدم تحكيم العقل في القوىٰ الإنسانيّة. وتصدق الكلمة علىٰ كلّ من قام بعملٍ وليس له علم، أو كان له علم ولم يستطع أن يسيطر علىٰ نفسه. ونقل ابن عبّاس أنّ قوله تعالى: ﴿**قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ ٱللهُ ٱفْتِرَاءً عَلَى ٱللهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ**﴾[٣] يكفي في إثبات جاهليّة العرب[٤].

الفصل الأوّل: الأوضاع السياسيّة والاجتماعيّة

الأوضاع السياسيّة الدّاخليّة والعلاقات الخارجيّة

إذا ألقينا نظرة علىٰ حياة العرب في شبه الجزيرة العربيّة عرفنا أنّ بوناً شاسعاً كان بينها وبين حياة الفُرس والرّوم يومئذٍ. ويتمثّل هذا البون في وجود الحكومة المركزيّة للسّاسانيّين في بلاد فارس، والحكومة المركزيّة للقياصرة في بلاد الرّوم. وهي الحكومة الّتي كان بيدها جميع شؤون المجتمع علىٰ صعيد القانون والعمل به وإجبار الجميع علىٰ اتّباع القانون. وكانت زوايا ذلك المجتمع كلّها خاضعة لسلطة عسكريّة واحدة، حتّىٰ إنّ وجود الحكومة المركزيّة كان محسوساً في كلّ جانب من جوانبه.

---

(١) انظر: *لسان العرب* و*مجمع البحرين*.
(٢) *التّحقيق في كلمات القرآن* ٢: ٢٠.
(٣) الأنعام: ١٤٠.
(٤) *بلوغ الأرب*: ٢٠.

أمّا ما كان في كلّ منطقة من مناطق شبه الجزيرة العربيّة فهو اجتماع ثلّة من الناس علىٰ أساس النّسب العائليّ المشترك كقبيلة من القبائل، وينحصر نطاق الحكم لكلّ قبيلة في المكان الّذي اختارته لسكنها، حتّىٰ إنّ مساحة عملها محدودة بها ولا علاقة لها بالقبائل الأُخرىٰ. ومن الثّابت أنّ هذا الضّرب من الحياة المتداوَل بين عرب الجزيرة معلَم علىٰ تشتّتهم. ذلك التّشتّت الّذي فصل بعضهم عن بعض وأدّىٰ إلىٰ غياب الحكومة المركزيّة في الجزيرة. وإنّ وجود الاختلاف آية علىٰ انعدام التّنظيم المتماسك والعلاقات الموحّدة بين الجماعات المتنوّعة الّتي كانت تعيش في تلك البيئة. وما يهمّنا هنا هو معرفة الأسباب الّتي أفضت إلى اتّخاذ الحياة الاجتماعيّة للعرب طابع التّفرّق. وينبغي تلمّسها عبر الإمعان في أوضاعهم الفكريّة، والثّقافيّة، والجغرافيّة، والاقتصاديّة.

ينبغي أن نقول في البداية إنّ الأُمة تحتاج من أجل وحدتها إلىٰ ثقافة تجمع قواسمها المشتركة وتوحّدها حول فكر واحد وهدف واحد. ولم يكن في الجزيرة العربيّة مثل هذا الفكر الواحد والهدف الواحد. وكان لكلّ قبيلة في جوار الكعبة صنم خاصّ بها، بل كان في كلّ بيت صنم[١]، وهكذا لا وعي عندهم لإلٰهٍ واحد يعبدونه، فلم يُلحَظ هناك إلّا التّفرقة والتّشتّت. من هنا كانت النّزعة الفرديّة والتّفكير بالذات سائدَين في أوساطهم[٢].

ويضاف إلىٰ العامل الثّقافيّ المذكور عوامل أُخرىٰ في المجال الاقتصاديّ والجغرافيّ، وهي جديرة بالاهتمام. وفي الدّرجة الأُولىٰ تدلّ الأوضاع الجغرافيّة لشبه الجزيرة العربيّة علىٰ أنّ المناطق الصّالحة للسكن كانت جدًّ متباعدة في مسافاتها الجغرافيّة،

---

(١) *المغازي* ٢: ٨٧١.

(٢) *المفصّل* ١: ٢٨٣؛ *تاريخ الأدب العربيّ*، بلاشر: ٣٧.

فلا توجد فيها إلّا مناطق محدودة صالحة للسّكن. فتباعد العرب، وانعدام طرق الاتّصال بينهم، ووجود الصّحارىٰ القاحلة الّتي غطّت أرضهم عوامل رئيسة أدّت إلىٰ تفرّقهم. من جانب آخر، إذا ألقينا نظرة علىٰ المنابع الاقتصاديّة في الجزيرة، أدركنا محدوديّتها الّتي كانت لها تبعاتها. ومن هذه التّبعات التّفرقة والتّشتّت؛ إذ عندما يكون الحصول علىٰ المنابع محدوداً بين قوم بدوٍ لا ثقافة لهم، فلا مناص من حدوث القتال بينهم. وكانت كلّ جماعة تحاول أن تصل إلىٰ منطقة من المناطق مبكّراً ليتسنّىٰ لها أن ترعىٰ حيواناتها مدّة وتعيش فيها برهة من الزّمن بنحو أفضل. ونظراً إلىٰ المحدوديّة الموجودة، فإذا استطاعت القبيلة أن تُخرج المرعىٰ من قبضة شخص آخر فإنّها ستفعل ذلك، وحينئذٍ لا يبقىٰ أمام صاحبه خيار إلّا القتال أو النّزوح عنه[١]. وهكذا لا يتسنّىٰ أن نجد حكومة مركزيّة بسبب تلك المحدوديّة المذكورة، إذ إنّ النّزعة الفرديّة موجودة بشدّة، والقبائل تفكّر في مصالح أبنائها، ولا يستتبع هذا الأمر إلّا التشتّتُ.

وعلىٰ الصّعيد الخارجيّ كانت السّيطرة علىٰ العرب متعذّرة بسبب حياتهم البدويّة. وكان طبيعيّاً للحكومات المجاورة ألّا تفكّر بهذا الأمر. في الوقت نفسه كان أمام هذه الحكومات أمران ما ارتبط هذا الموضوع بعرب بادية الشّام والعراق: أحدهما الحؤول دون هجماتهم للسّلب والنّهب، والآخر الاستعانة بهم لصدّ غارات القوىٰ السّياسيّة الأُخرىٰ. فكان الفُرس يستعينون بهم علىٰ الرّوم والرّوم علىٰ الفُرس. وعرض الدكتور جواد علي وسائر الباحثين معلومات في هذا المجال[٢].

إنّ ما ذكرناه يرتبط بعرب العراق والشّام. أمّا عرب الحجاز فقد كانت محاولات

---

(١) *المفصّل* ١: ٢٧٤.

(٢) انظر: نفسه ١: ٥٥٠، ٢: ٤٠، ٦٢٠، ٦٥٠؛ *الأمويّون والبيزنطينيّون*: ٥ ـ ٧.

للروم من أجل السيطرة عليهم، بيد أنّها لم تكن جادّة. ويُستشفّ من موقف خسرو برويز حيال رسالة النّبيّ ﷺ، وما طلبه من بازان حاكم اليمن بإرسال من يأتيه برأس النّبيّ ﷺ أنّ معلوماته عن بيئة مكّة كانت غير وافية أو أنّه كان يزدري أهلها. علماً أنّ لعرب الحجاز علاقات تجاريّة بجيرانهم، وهو ما سنشير إليه في موضعه.

طبيعة القبيلة وقضاياها

يتطلّب العيش في بيئةٍ تتّسم بمواصفات عشائريّة ضرباً من الحياة ذا طابع قبليّ عشائريّ نظراً إلى المشكلات التي تكتنف البادية، والارتزاق، والمنازعات الكثيرة للحصول علىٰ المرعىٰ، وغير ذلك. وكان أفضل خيار للعربيّ أن يعيش مع الجماعة، لا سيّما مع من يستطيع أن يقارع به ما يواجهه من مشكلات كثيرة. لكن هل يمكن الاتّحاد مع كلّ أجنبيّ؟ وهل يتيسّر الاطمئنان بكلّ أحد؟ وعزم العربيّ ـ صدّاً لكلّ خطر ـ على الاتّحاد مع من يشترك معه في النّسب ورابطة الدّم. وتُسمّى الجماعة المتّحدة القائمة على أساس التعايش والقرابة والنسب المشترك في الآباء والأجداد: القبيلة.

ويستتبع ذلك أن تكون مصالح الأفراد مصالح القبيلة عينها، وعليهم أن يذودوا عنها كما يذودون عن أنفسهم، إذ إنّ مصيرهم مرتبط بمصيرها فإذا فنيت فنوا. قال أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «عَشيرَةُ الرَّجُلِ خَيْرٌ للرَّجُلِ مِنَ الرَّجُلِ للعَشيرَةِ»[1]. فالمشكلات في القبيلة تقع علىٰ عاتق جميع أفرادها. من هنا تقلّ معاناة الفرد عمّا إذا أراد أن يعيش وحده. ونقل أنّ النّعمان ملك الحيرة أجاب كسرىٰ حين سأله عن

---

(١) *العقد الفريد* ٢: ٣٦٦؛ *منتخب كنز العمّال* في حاشية *مسند أحمد* نقلاً عن *نهج السّعادة* ٣: ١٤٦.

السّبب الّذي جعل العرب غير خاضعين لنظام واحد وحكومة واحدة بأنّ الشّعوب جعلت زمام أمورها بيد أُسرة واحدة وفوّضت إليها شؤونها لشعورها بالضّعف وخوفها من هجمات الأعداء. أمّا العرب فكلّهم يريدون أن يصيروا ملوكاً، ويمتعضون من دفع الضّرائب والخراج، ويرون ذلك عاراً عليهم[١]. وهكذا تذوب النّزعة الفرديّة في النّزعة القبليّة. ويستعدّ كلّ شخص للتّضحية والإيثار من أجل قبيلته[٢]. فوحدة الدّم في القبيلة هي أساسها وقوامها حقّاً[٣]. من هنا كان للحسب والنّسب قيمتها عند العرب. ويحدّدون قيمهم، بعامّة، تبعاً للموقف القبليّ لكلّ فرد. والعربيّ مضطرٌّ للمحافظة علىٰ نسبه حفاظاً علىٰ نفسه[٤]. وكلّما زاد أفراد القبيلة زاد فخرها إذ تشعر بزيادة قوّتها. وبلغ الافتخار بالأفراد مبلغاً أنّ القرآن الكريم ذكر أنّ المشركين كانوا يحصون حتّىٰ موتاهم كما جاء في تفسيرٍ لسورة التّكاثر[٥]. وقال النّعمان في موضع آخر وهو يخاطب كسرىٰ: «... فليست أُمّة من الأُمم إلّا وقد جهلت آباءها وأُصولها وكثيراً من أوّلها حتّىٰ إنّ أحدهم ليُسأل عمّن وراء أبيه دُنْيا فلا ينسبه ولا يعرفه وليس أحد من العرب إلّا يسمّي آباءه أباً فأباً حاطوا بذلك أحسابهم وحفظوا به أنسابهم فلا يدخل رجل في غير قومه ولا ينتسب إلىٰ غير نسبه ولا يُدعىٰ إلىٰ غير أبيه»[٦]. من هنا فلابدع أن يكون علم الأنساب من أعلىٰ المعارف العلميّة عند عرب الجاهليّة. وذلك لحاجتهم إليه في الحياة، ولأنّه كان معياراً لقيمهم النّسبية[٧]. ولا يعني الاهتمام بالنّسب امتلاك الأصالة العائليّة عندهم. إذ ليس بوسعهم ادّعاء الأصالة العائليّة مع وجود قانون «الاستلحاق» الجاهليّ الّذي يسري علىٰ

---

(١) *بلوغ الأرب* ١: ١٥٠.

(٢) *تاريخ الأدب العربيّ*، بلاشر ١: ٣٧.

(٣) *المفصّل* ٤: ٣١٥.

(٤) *بلوغ الأرب* ١: ١٤٠.

(٥) التّكاثر: ٣.

(٦) *العقد الفريد* ٢: ٦؛ *بلوغ الأرب* ١: ١٤٩.

(٧) *العصر الجاهليّ*: ٥٧.

الفرد الّذي ليس له أب معيّن، ويُلحق بأب خاص، فيعتبر ابنه[١]. وكانت الشعوبيّة تقول: إنّما كانت العرب في الجاهليّة ينكح بعضهم نساء بعض في غاراتهم بلا عقد نكاح ولا استبراء من طمث فكيف يدري أحدهم من أبوه؟[٢] وكان بعض زواجهم يجري بهذا الشّكل: يدخل عدد من الرجال علىٰ امرأة، فاذا ولدت، ونسبت ولدها إلىٰ أحدهم، قبله المنسوب إليه. وما أكثر النّساء اللائي كنّ زانيات وليس لأولادهنّ أب معيّن[٣] فينادَون بأسماء أمّهاتهم! وكان زياد بن أبيه أحدهم[٤]. واتُّهم آخرون بذلك أيضاً كعمرو بن العاص[٥]، ومعاوية[٦]. كما أنّ ظاهر الآية الكريمة ﴿لَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾[٧] يشير إلى الزّانيات اللاتي كنّ يقتلن أولادهنّ، لذا ينهاهنّ القرآن الكريم عن ذلك[٨]. علىٰ أيّ حال، ينبغي ألّا نرتّب أثراً علىٰ إفراط الشّعوبيّة، ولا نُصرّ علىٰ أصالة النسب أيضاً. ولمّا كانت البادية محلّاً لحياة العرب الخالصة، فقد كانت تهتمّ بحفظ النّسب أكثر من الحاضرة[٩].

ونظراً إلىٰ تحليل الأسباب الّتي أدّت إلىٰ التّفرقة والتّشتّت، يتسنّىٰ لنا أن نفهم أنّ عدد أفراد القبيلة حين يزداد، فلا بدّ من تفرّقهم لضيق البيئة عن استيعابهم. فتتفرّق القبيلة الأُولىٰ تدريجاً نتيجة للهجرات الطّويلة الكثيرة، وتظهر قبائل متعدّدة من داخلها. وقد تتّحد القبيلة أمام العدوّ، في حين يتنازع أفرادها فيما بينهم. فهم جميع في

---

(١) *المفصّل* ٤: ٣٥٧، ٣٥٨.
(٢) *العقد الفريد* ٣: ٤١٢؛ *بلوغ الأرب* ١: ١٧٣.
(٣) *بهج الصّباغة* ٢: ١٦٨ نقلاً عن سنن أبي داود؛ *بلوغ الأرب* ٢: ٦.
(٤) *بهج الصّباغة* ٢: ١٦٨؛ *المحاسن والمساوئ* ١: ١٢٤.
(٥) *العقد الفريد* ٤: ١٢؛ *الصّولة العلويّة*: ٤٩ نقلاً عن *ربيع الأبرار* للزمخشريّ.
(٦) *المنمّق*: ١١٨ فما بعدها؛ *المثالب*، هشام الكلبيّ علىٰ ما نقل صاحب *الطّرائف*: ٥٠١، و*تذكرة الخواصّ*: ٢٠٣.
(٧) المتحنة: ١٢.
(٨) *بهج الصّباغة* ٢: ٢٦٩.
(٩) *المفصّل* ١: ٤٦٦.

مواجهة العدوّ، لكنّهم متفرّقون فيما بينهم. وتُطلَق القبيلة في الحقيقة علىٰ أضخم تجمّع سكّانيّ تربطه علاقة النسب والحياة المشتركة نوعاً ما، مثل: قبيلة ربيعة ومضر. وتأتي بعد القبيلة «العمارة» كقريش من مضر. تليها البطون كبني عبد مناف، وبني هاشم، وغيرهم من قريش. ثمّ «الفصيلة» كبني أبي طالب، وبني العبّاس من قريش[١]. وذكر ابن كثير «العشيرة» بعد الفصيلة، وقال: لا أحد أقرب إلىٰ المرء من العشيرة[٢]. وذكر البعض مجموعات كثيرة كابن سعدالّذي عدّ اثنتي عشرة مجموعة[٣]. ومن أشهرها: (بني) الّتي تشمل أحيازاً مختلفة حتّىٰ إنّ القبيلة نفسها تعرف بهذا العنوان كما كان يُطلق على الأوس والخزرج «بني قيلة».

المعايير القِيَميّة لعرب الجاهليّة تعود في الحقيقة إلى القيم القبليّة. فقيمة كلّ فرد في القبيلة تتبع موقعه ونفوذه فيها، ودوره الّذي يمارسه للمحافظة عليها. وفي المرحلة الأولىٰ كان رؤساء القبائل يحتازون أعلى القيم، وفي مرحلة أوطأ من القيم كان العبيد والإماء المشغولون في خدمة القبيلة. ولمّا كانت للنّسب قيمته بينهم، فالمعيار القِيَميّ يرتبط به. يقول أكثم بن صيفيّ لابنه: «إيّاك أن يخدعك جمال النّساء فإنّ المناكحَ الكَريمَةَ مَدَارِجُ الشَّرَفِ!»[٤] ونلحظ في هذا النظام أنّ الشخص الذي أبواه من القبيلة نفسها يعتلي الذّروة من القيمة. أمّا إذا كانا من العرب لكنّهما من قبيلتين مختلفتين، فهو في مرحلة أوطأ من القيم للقبيلة. وإذا كانت الأمّ غير عربيّة، فإنّه يُعاب باسم الهجين[٥]. وإذا تزوّج الابن زوجة أبيه بعد وفاته، فابنه يسمّىٰ «المقتي»، أي: المبغوض[٦]، وفقاً

---

(١) *العقد الفريد* ٣: ٣٨٣؛ *السّيرة الحلبيّة* ١: ٣١؛ *فقه اللغة وسرّ العربيّة*، الثّعالبيّ: ٣١٨؛ *بلوغ الأرب* ٣: ١٨٨.

(٢) *البداية والنّهاية* ٢: ١٥٧.

(٣) *السّيرة الحلبيّة* ١: ٣١.

(٤) *ثمار القلوب*: ٦٩١، نقلاً عن *المفصّل* ٤: ٦٤١؛ وانظر: *بلوغ الأرب* ٣: ٢١.

(٥) *المفصّل* ٤: ٣٩٠.

(٦) *بلوغ الأرب* ٣: ٥٣؛ *المنمّق*: ٥٤.

لتقاليدهم. كما يُسمّي العرب مَنْ وُلد من أمّ عربيّة وأب أعجميّ: المذَّرع[١]. وهكذا نجد أنّ كلماتهم القيميّة جميعها تعود إلى النّسب. وكانوا يصرّون شديد الإصرار علىٰ قضيّة العروبة والعُجمة حتّىٰ إنّ النّعمان ملك الحيرة الّذي كان عميلاً لكسرىٰ لم يرض أن يزوّجه ابنتَه ويولّد له متاعب كثيرة.

ومن الأشخاص الّذين كان لهم الشّرف والقيمة أبطال القبائل وفرسانها وشجعانها الّذين كانوا يتولّون حمايتها في الحروب. من هنا، كانت الشّجاعة من معايير القيمة عندهم[٢]. وكلّ شيء، وكلّ أحد يزيد شرف القبيلة بطريقةٍ ما فله قيمته أيضاً. وكان الشّعراء والخطباء يضاعفون مفاخر قبائلهم بشعرهم وخطبهم، وبهجاء أعدائهم. كما أنّ النّسّابين كانوا بارعين في ذكر مثالب الآخرين ومناقب قبائلهم، لذا كانت لهم منزلتهم المناسبة.

وتقدّم أنّ رؤساء القبائل كانوا من أشرف أفرادها عادةً، وتتمثّل مسؤوليّتهم في اتّخاذ القرار في الشّؤون العامّة المرتبطة بالقبيلة، كاستقبال سفراء القبائل الأُخرىٰ، والبتّ في الحرب والسّلم، وعقد الأحلاف مع القبائل الأُخرىٰ[٣]. وكانوا يرثون الرّئاسة من آبائهم بين الحين والآخر. في الوقت نفسه تستلزم الرّئاسة سجايا معيّنة حتّىٰ يستطيع الرّئيس أن يواصل نفوذه، كما أنّ هذه السّجايا إذا اجتمعت في أحد، فإنّه يصبح شريفاً ورئيساً تدريجاً. وقيل: إنّ الرّئاسة في اليمن كانت تنتقل بالنّسب، وفي ربيعة بالإطعام. وقيل أيضاً: كان عرب الجاهليّة لا يخوّلون الرّئاسة إلّا لمن اجتمعت فيه ستّ خصال: البيان، والتّواضع، والحلم، والصّبر، والسّخاء،

---

(١) *العقد الفريد* ٧: ١٤١؛ *تاج العروس* ٢١: ١٤. [المذَّرع من النّاس: مَن أمّه أشرف من أبيه، والهجين من أبوه عربيّ وأُمّهُ أَمَة].

(٢) *بلوغ الأرب* ١: ١٨٠.

(٣) *تاريخ الأدب العربيّ*، بلاشر: ٣٨؛ *العصر الجاهليّ*: ٥٩.

والشّجاعة[١]. وربما ترأّس بعضهم لصفات فيه كالعقل، والعفّة، والأدب، والعلم[٢]. وقيل: كانت علىٰ أبواب بيوت الرّؤساء علامات تدلّ علىٰ رئاستهم. وعندما كانت تنتقل الرّئاسة إلىٰ شخص آخر فإنّ هذه العلامات تُنصب علىٰ باب داره[٣].

وينبغي الالتفات إلىٰ أنّ النّظام القبليّ يتلخّص في طاعة أفراد القبيلة للرّئيس. وليس لهذه الطّاعة منطلق سياسيّ، بل تنبثق من الروح العنصريّة والنّسبيّة للقبيلة المتجلّية في رئيسها والمتّخذة طابعاً روحيّاً أكثر من غيرها. ونقرأ في كثير من الآيات القرآنيّة أنّ الكفّار والمشركين كانوا يصرّون علىٰ طاعة آبائهم وأجدادهم. وكانوا يطيعونهم حتّىٰ لو لم يكن لهم تعقّل[٤]. ويقول هؤلاء يوم القيامة: ﴿**رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا**﴾[٥]. وكانت المسؤوليّات العامّة تُقسّم في القبائل الّتي كان يزداد عدد أفرادها يوماً بعد آخر، كما يزداد عدد المدّعين للرئاسة والسّيادة عادةً، وهذا ما كان مألوفاً في قريش.

وكانت كلّ قبيلة، وبالدّرجة الأولىٰ رئيس القبيلة، تأخذ علىٰ عاتقها مسؤوليّة الردّ علىٰ كلّ عدوان مُهين تقوم به القبائل الأُخرىٰ ضدّها. وفي هذه الأثناء لم تكن المسألة مسألة ظالم ومظلوم قطّ، بل يُدعم الفرد بمجرّد انتمائه إلىٰ قبيلته. ولم يعرض موضوع الحقّ في تاريخ العرب إلّا «حلف الفضول» الّذي اضطلع بمسؤوليّة الدّفاع عن الحقّ والمظلوم من أيّ قبيلة كان. ويظلّ الفرد مدعوماً في العشيرة حتّى لو كان مخالفاً لها في الفكر والعقيدة. وكان مؤمن بني‌هاشم وكافرهم كلاهما يدافع عن النّبيّ ﷺ[٦].

---

(١) *بلوغ الأرب* ٢: ١٨٧؛ وانظر: *الطّبقات الكبرىٰ* ٣: ٤، ٥، ٥٤٢، ٦٢٣.

(٢) *المفصّل* ٤: ٣٥١.

(٣) *المغازي* ٢: ٥٩١.

(٤) البقرة: ١٧٠؛ المائدة: ١٠٤؛ الأعراف: ١٧٣؛ الأنبياء: ٥٣؛ الشّعراء: ٧٤؛ الزخرف: ٢٢.

(٥) الأحزاب: ٦٧.

(٦) *المغازي* ٢: ٥٩١.

وكلّهم ذهبوا إلىٰ شعب أبي طالب[١]. وكان أبو طالب، الذي أخفىٰ إسلامه وظنّه المشركون منهم، يدافع عن النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم حتّى آخر لحظة من حياته، ولم يجرؤ أحد علىٰ إيذاء النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ما كان حيّاً[٢].

وإذا بايع أفراد القبيلة رئيسهم علىٰ أمرٍ، أو إذا تحالفت قبيلة مع قبيلة أخرىٰ أو مع أحد الأشخاص، فإنّ نَكْثَ البيعة والحلف يشقّ كثيراً على الطرفين. ويقول ابن أبي الحديد:

«وكانت العرب لا ترىٰ الغدر، ولا تنقض البيعة صواباً كانت أو خطأً»[٣].

وهذه التّربية الّتي ظلّت ماثلةً بين بعض الأفراد حتّىٰ بعد النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أفضت إلىٰ أحد الانحرافات الكبيرة. فعندما بايع الأنصار أبا بكر، ثمّ التقوا بعد ذلك بأميرالمؤمنين عليه السلام، قالوا له: لو دعوتَنا إلىٰ نفسك قبل البيعة لما عدلنا بك أحداً. ولكنّا قد بايعنا، فكيف السبيل إلىٰ نقض البيعة بعد وقوعها؟ في حين هم أنفسهم كانوا قد بايعوا الإمام عليه السلام يوم الغدير، بيد أنّهم لم يفوا ببيعتهم لأسباب سياسيّة. وها هم الآن يستندون إلىٰ بيعتهم الخاطئة لأبي بكر.

إنّ العامل الّذي حال دون تفرّق القبيلة وتشتّتها هو الحميّة والتّعصّب الّذي كان موجوداً عند أفرادها. ذلك التّعصّب الّذي كان يبني ثقافتهم ويبلور كلّ فكرة وقيمة متناسبة مع هذه النّزعة. فإذا ما استغاث[٤] أحد أفرادَ القبيلة، وسمعوا استغاثته، فإنّهم يسارعون إلىٰ إغاثته ظالماً كان أم مظلوماً. وكان التّعصّب في الحقيقة نزعة حلّت محلّ المنطق والفكر بوصفها أهمّ حافز. وعدّ القرآن الكريم هذه الصّفة من خصائص الكافرين، وسمّاها الحميّة الجاهليّة، وجعلها في مقابل التّقوىٰ والإيمان[٥].

---

(١) *بلوغ الأرب* ١: ٣٢٥.

(٢) شرح *نهج البلاغة*، ابن أبي الحديد ١٣: ٢٦٨.

(٣) نفسه ١٢: ٨٦، ٨٧.

(٤) *المفصّل* ٤: ٤٠٢؛ *العقد الفريد* ١: ٥٨.

(٥) الفتح: ٢٦.

وهذه الحميّة الّتي زالت معالمها بعد ظهور النّبيّ ﷺ ووحدة القبائل في طاعتها إيّاه نجم قرنها مرّة أُخرىٰ في العصر الأمويّ، وعادت المفاخر القبليّة كما كانت يومئذٍ[١]. ورفض الإسلام المعايير القيميّة القبليّة وطبيعة حياة القبيلة التي تمثّل عامل التّفرقة والتّشتّت، وسعىٰ إلى استبدال الإيمان والتّقوىٰ في قلوب النّاس بالنزعات الجاهليّة. وقد وحّد النّبيّ ﷺ القبائل بنحوٍ أثار إعجاب أبي سفيان إذ رأىٰ القبائل المتشتّتة تطيع رجلاً واحداً[٢]. ومن الطّبيعيّ أنّ الإسلام لم يُضعف رابطة القربىٰ، ذلك أنّ هذه الرابطة بين أفراد المجتمع إذا توكّأت على الروابط الإلٰهيّة فإنّها تعالج مشكلاتهم في كثير من المواطن. قال رسول الله ﷺ:

«تَعَلَّمُوا مِنَ النَّسَبِ ما تَعْرِفُونَ بِهِ أَحْسَابَكُمْ وَتَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ»[٣].

وخاطب النّاس في حجّة الوداع فقال ﷺ:

«كلّكم من آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ لَيْسَ لعربيٍّ علىٰ عَجَمِيّ فَضْلٌ إلّا بِالتَّقْوىٰ»[٤].

وقال في موضع آخر:

«لا تَأتوني بأَنْسَابِكُمْ وَأتُوني بِأَعْمَالِكُمْ»[٥].

وقال أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام أيضاً:

«فإنْ كان لا بُدَّ مِنَ العَصَبيَّةِ فَلْيَكُنْ تَعَصُّبُكُمْ لِمَكَارِمِ الخِصَالِ، وَمَحَامِدِ الأَفْعَالِ، وَمَحَاسِنِ الأُمورِ الَّتي تَفَاضَلَتْ فِيهَا المُجَدَاءُ والنُّجَدَاء مِنْ بُيوتَاتِ العَرَبِ وَيَعَاسيبِ القَبَائِلِ بِالأَخْلَاقِ الرَّغيبَةِ، وَالأَحْلامِ العَظِيمَة ... فَتَعَصَّبُوا لِخِلالِ الحَمْدِ مِنَ الحِفْظِ للجِوارِ، والوَفَاءِ بِالذِّمامِ، والطَّاعَةِ لِلبرِّ، والمَعْصِيَةِ للكِبْرِ، والأَخْذِ بِالفَضْلِ، والكَفِّ

---

(١) *فجر الإسلام*: ٥٧. (٢) *التّراتيب الإداريّة* ١: ٦٤.

(٣) *العقد الفريد* ٣: ٣١٢؛ *التّراتيب الإداريّة* ٢: ٣٠١، ٢٣١؛ *عمدة الطّالب*: ١٧.

(٤) *العقد الفريد* ٤: ٥٨؛ *بلوغ الأرب* ١: ١٦٥.

(٥) *تاريخ اليعقوبيّ*، نقلاً عن *المفصّل* ٤: ٣٦٩.

عَنِ الْبَغْيِ، والاِعْظَامِ لِلْقَتْلِ، والاِنْصَافِ لِلخَلْقِ، وَالكَظْمِ لِلغَيْظِ، وَاجْتِنابِ الفَسَادِ في الأَرْضِ...»[١].

وجاء في الحديث النّبويّ الشريف:

«من قُتِل تحت رايةٍ عُمِّيَّة يدعو عصبيّةً أو ينصر عصبيّةً فقِتلة جاهليّة»[٢].

لا نعلم علىٰ وجه الدّقة متىٰ تمّ تقسيم العرب إلىٰ قحطانيّين وعدنانيّين، وكذلك إلى عرب بائدة. ويقال للقحطانيّين العرب العاربة، وللعدنانيّين العرب المستعربة. وذهب البعض إلىٰ أنّ مصطلح العرب يعني البدو[٣]. ولا يتسنّىٰ لنا أن نحصل علىٰ معلومات صحيحة عنهم بسبب الاختلاط الكبير الذي حصل بين القبائل علىٰ مرّ الزّمن. وكان القحطانيّون هم عرب الجنوب الأُصلاء، أمّا العدنانيّون فيرون أنفسهم من نسل إسماعيل عليه السلام، وهم عرب الشّمال. وعرض جواد علي أدلّة علىٰ التفاوت في إطلاق هذه العناوين على القبائل[٤].

وعندما انتظم الدّيوان قسّم عمر الامتيازات علىٰ أساس النّظام القبليّ ومراعاة السبق للصحابة المقرّبين. فقدّم العدنانيّين على القحطانيّين لأنّ رسول الله ﷺ كان عدنانيّاً. وفضّل قريشاً علىٰ سائر قبائل مضر، وبني هاشم علىٰ سائر بطون قريش[٥]. فعزّز هذا العمل في الحقيقة موضع النّسب في المجتمع العربيّ[٦]. وينبغي أن نذكّر بأنّ عرب الشّمال كانوا بدواً وإن اشتركوا مع القحطانيّين في كثير من الخصائص. وللاهتمام بالنّظام القبليّ تأثير مهمّ في فهم الحوادث التّاريخيّة للعصر الإسلاميّ فهماً صحيحاً.

---

(١) **شرح *نهج البلاغة***، ابن أبي الحديد ١٣: ١٦٦.

(٢) **صحيح مسلم** نقلاً عن **فجر الإسلام**: ٧٩. (٣) ***المفصّل*** ١: ٣٦.

(٤) نفسه ١: ٣٦٣ ـ ٣٨٩. (٥) ***الكامل في التّاريخ*** ٢: ٣١٢.

(٦) ***المفصّل*** ١: ٤٧٣.

الحياة في الحاضرة والبادية

تدلّ نظرة علىٰ الأوضاع الاجتماعيّة في شبه الجزيرة العربيّة أنّ معظم سكّانها كانوا يعيشون في البادية، ويواصلون حياتهم في بيئةٍ تضمن لهم شروط العيش إلىٰ حدٍّ ما. وكانت هذه الحياة المقرونة بحيوان مقاوم كالبعير ثابتة. والحياة البدويّة في شبه الجزيرة العربيّة أمر طبيعيّ يتطلّبه ظرفها الجغرافيّ، من هنا تنتفي الحاجة إلى السّؤال عن سبب معيشة النّاس في البادية. مبدئيّاً كان جُلّ أهالي الجزيرة بدواً أعراباً يرحلون إلىٰ شتّىٰ المناطق بحثاً عن المطر[١].

إنّ ما ينبغي أن نتوفّر علىٰ دراسته هو سبب ظهور المدينة ونشوء الحياة المركزيّة في بعض المناطق من شبه الجزيرة العربيّة. ويعود ظهور المدينة إمّا إلىٰ مركزيّتها العباديّة الّتي أدّت الىٰ اجتماع فئةٍ من الناس، وإمّا إلىٰ موقعها علىٰ طريق القوافل التّجاريّة كمكان لاستضافة المسافرين أو كمحلّ ثابت للقرى المجاورة. وثمّة مناطق أُخرىٰ كالمدينة والطّائف كانت مستثناة بين مناطق شبه الجزيرة إذ عُرفت بأراضيها العامرة ومصادرها المائيّة. واتّخذت مكّة أيضاً طابع الحاضرة لقداسة الكعبة، ولموقعها في مسير القوافل التّجاريّة وكونها أمّ القرىٰ[٢]. ولمّا كان العرب البدو بعيدين عن ضوضاء المدينة وتلوّثها، ومحرومين من الاتّصال بالغرباء الوافدين للزّيارة أو للتّجارة عادةً، فلا شكّ في أنّهم أنقىٰ من سكّان الحاضرة لهجةً ولغةً وسجيّة وعادةً وخصلةً عربيّةً[٣]. إلّا أنّ علينا أن نتلمّس الشّعر والأدب من البادية وإن كان للحاضرة قسطها منها[٤]. وكانت الحاضرة تتفاوت مع البادية في الفكر والخصال العربيّة بسبب تردّد الفئات الاجتماعيّة المختلفة ذات الثّقافات المتنوّعة عليها. فكانت

---

(١) انظر: *المغازي*، الواقديّ ٢: ٥٧٥.
(٢) الأنعام: ٩٢.
(٣) *المفصّل* ٤: ٢٧٤.
(٤) *فجر الإسلام*: ٢٢.

البادية أنقىٰ من الحاضرة. وكان أهالي الحاضرة يرسلون أولادهم إلى البادية منذ ولادتهم حتّى الخامسة من أعمارهم لينشأوا على عاداتها وتقاليدها ويتربّوا في أجوائها، وينعموا بلهجة عربيّة خالصة. كما أُرسل النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلىٰ حليمة السّعدية عدد سنين أيضاً. ولمّا كانت الثّقافة في المدينة أكثر تلوّثاً فالمستوى الفكريّ لأبنائها أعلىٰ من المستوى الفكريّ لأبناء البادية، ومعرفتهم بالقضايا الخارجة عن أكنافهم أكثر. وتحدّث ابن خلدون في فصلين عن «أنّ أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر»، و«انّ أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر»[١].

يقول النّجديّ:

«إنّ العربيّ الأوّل لم يكن يميل إلى استيطان موضع معيّن، فقد اضطرّته عوامل التكوين ومطالب العيش وظروف الحياة إلىٰ أن ينزح من مكان إلى آخر انتجاعاً لمواقع القطر ومنابت الكلأ لأنّ عليها مدار معاشه»[٢].

من هنا ينبغي ألّا نسأل عن السّبب الّذي دفع العرب إلىٰ العيش في البادية؛ ولنا أن نسأل عن سبب رغبتهم في البادية أكثر من المدينة. ويذكر المسعوديّ في هذا الصّدد أنّ ذلك لعلّه يعود إلىٰ أنّ المدينة لم تكن ميداناً للاستباق في إظهار الغرائز الإنسانيّة... أو أنّهم كانوا يعتقدون أنّ الأرضين تمرض كما تمرض الأجسام، وتلحقها الآفات[٣].

من الواضح أنّ القيود في البادية أقلّ منها في الحاضرة، والنّاس فيها يستمتعون بحريّة أكثر. فكلّ شخص يتصرّف كيف يشاء، وقبيلته تعينه وتعضده أيضاً. يقول لامانس: العرب مثال الحرّيّة، لكنّها حرّيّة مفرطة غير محدودة[٤]. ويقول جواد علي أيضاً:

---

(١) مقدّمة *ابن خلدون*: ١٢٣، ١٢٥ (دار الكتب العلميّة، ١٩٧٨ م).

(٢) *صحيح الأخبار عمّا في بلاد العرب من الآثار* ١: ٦٠.

(٣) *مروج الذّهب* ٢: ٩٦.

(٤) *فجر الإسلام*: ٣٣.

«ولا يعرف الأعرابيّ شيئاً غير القوّة ولا يخضع إلّا لسلطانها. وبموجب هذه النظرة بنىٰ أُصول الحقّ والعدل وما يتبعهما من حقوق»[١].

وجليٌّ أنّنا لا نستطيع أن نجد الحلم والصّبر في البادية بسبب هذه الحرّيّة المفرطة، إذ إنّ الصّبر مع أنّه في اختيار الإنسان نفسه بيد أنّ للبيئة تأثيرها العامّ في إيجاده[٢]. ولمّا كانت الحرّيّة موجودة، وكان كلّ شخص حرّاً في القيام بأيّ عمل حتّىٰ لو كان اعتداءً، فلا يتسنّىٰ للمرء أن يكون صبوراً أمام المشكلات، والنتيجة هي استعار الرّوح العصبيّة. وليس لعشيرة سلطة علىٰ عشيرة أُخرىٰ هناك، وكلّ منهما يستمتع بحرّيّة تامّة[٣]. ويرى الآلوسيّ أيضاً أنّ الجُبن نتيجة لحياة الترف في المدينة، والشّجاعة والإقدام على المخاطرات نتيجة لحياة البادية[٤]. من هنا نلحظ أنّ القتال أمر طبيعيّ مألوف عند عرب البادية. والتمرّس بالحرب يولّد المعنويّة القتاليّة تلقائيّاً وكان شجعان العرب في الحروب من أهل البادية. وينقل ابن أبي الحديد أنّ اسم عمرو بن عبد ودّ فارس قريش (الّذي قتله أميرالمؤمنين عليّ عليه السلام في غزوة الخندق) لم يُذكَر مع فرسان العرب الثلاثة المعروفين (عُتبة وبِسطام وعامر) لأنّه كان يعيش في المدينة. أمّا الثّلاثة الآخرون فقد كانوا أصحاب غارات ونهب، وأهل بادية، وقريش أهل مدينة وساكنو مَدَر وحجر، وهم مقتصرون علىٰ حماية حرمهم؛ فلذلك لم يشتهر اسم عمرو كاشتهار هؤلاء[٥].

ويشير كعب الأحبار أيضاً (مع أنّه قصّاص! لكنّ القصّة تعبّر عن الثّقافة الشّعبيّة العامّة) إلىٰ أنّه اختار الشّقاوة منذ اليوم الأوّل للبادية والتحق بها بأمر الله. ولعلّ ذلك

---

(١) *المفصّل* ٤: ٢٩٦.
(٢) *الصّحيح من سيرة النّبيّ الأعظم* صلى الله عليه وآله وسلم ١: ٥١.
(٣) *العصر الجاهليّ*: ٥٢.
(٤) *بلوغ الأرب* ١: ١١٠.
(٥) شرح *نهج البلاغة*، ابن أبي الحديد ١٣: ٢٩١.

يعود إلىٰ ما ذكره أحد الكتّاب أنّ تاريخ العرب لا يكوّنه إلّا الجريمة والخيانة[١].

وأورد هذا الكاتب في موضع آخر أنّ:

«العربيّ كان عصبيّ المزاج، سريع الغضب يهيج للشيء التافه، ثمّ لا يقف في هياجه عند حدٍّ... وإذا اهتاج أسرع إلىٰ السيف واحتكم إليه... وحتّىٰ صارت الحرب نظامهم المألوف، وحياتهم اليوميّة المعتادة...

والمزاج العصبيّ يستتبع عادةً ذكاء، وفي الحقّ أنّ العربيّ ذكيّ، يظهر ذكاؤه في لغته، فكثيراً ما يعتمد على اللمحة الدالّة والإشارة البعيدة... أمّا ناحيتهم الخلقيّة فيل إلىٰ حريّة قلّ أن يحدّها حدّ، ولكن الذي فهموه من الحرّيّة هي الحرّيّة الشخصيّة لا الاجتماعيّة... والعربيّ يحبّ المساواة ولكنّها مساواة في حدود القبيلة»[٢].

ويذكر هيكل أنّ الحياة في البادية وإن كانت عسيرة على العرب لكنّها بعيدة عن العار (بزعمهم)[٣]. ومع أنّهم جاءوا إلى المدينة وذاقوا طعم الحياة ولذّة القصور فيها بيد أنّهم رغبوا عنها إلى البادية وطنهم الأصليّ[٤]. حتّىٰ إنّ امرأة معاوية أمّ يزيد رجعت إلى البادية وآثرت الحياة فيها علىٰ قصر الخضراء[٥]. ونقل هيكل أنّ معظم العرب في شبه الجزيرة العربيّة ما برحوا بدواً، ولم يألفوا حياة المدينة والسّكن في بقعة من بقاعها، ولم يستقرّوا في محلّ من محالّها؛ ولم يتحمّلوا إلّا التّنقّل والترحّل الذي تألفه البادية[٦].

وقيل أيضاً: الحياة في البادية خشنة، ومعاش النّاس فيها ثقيل وأخلاقهم فظّة. وقلّما كان أهلها يفكّرون في القضايا الدّينيّة بسبب صعوبة الحياة والحروب الدّائمّة،

---

(١) *فجر الإسلام*: ٣٣. نقل أحمد أمين هذا الكلام عن أوليري في كتابه: Arabia before Mohammad.

(٢) نفسه: ٣٧، ٣٨.

(٣) *حياة محمّد*: ٣٩.

(٤) *المفصّل* ٤: ٢٩٩؛ *مروج الذّهب* ٢: ٤٠.

(٥) *بلوغ الأرب* ٣: ٤٢٦.

(٦) *حياة محمّد*: ٣٩.

وعلى العكس من ذلك كانوا يشعرون بتعصّب أكثر حيال صيانة العلاقات العائليّة والمعتقدات التّقليديّة. وهم علىٰ ما يقول أحمد أمين مقلّدون في اعتقاداتهم أكثر من كونهم متأمّلين فيها عادةً[١]. والعربيّ كلّما فعل، يشعر أنّه فعل قليلاً، وكلّما جاب الصّحراء، تُضْمَنُ معيشته بنحو أفضل[٢].

ويُدعىٰ سكّان البادية «الأعراب»، وسكّان الحاضرة «العرب»[٣]. وقيل لأعرابيّ: هل لك أن تدخل الجنّة علىٰ أن تعفو عمّن آذاك؟! فقال: يهون عليّ أن أذهب إلىٰ جهنّم وأثأر لنفسي[٤]. ولا يقرّ القرآن الكريم أيضاً بإيمان الأعراب في المرحلة الأُولىٰ كإيمان حقيقيّ، ويقول: ﴿**قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلٰكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ**﴾[٥].

وهؤلاء الأعراب أنفسهم كانوا يؤثرون أموالهم وأهليهم على الجهاد في سبيل الله عادةً، وكانوا يتمحّلون الأعذار ويطلبون من النّبيّ ﷺ أن يستغفر لهم بتخلّفهم عن الغزو والجهاد[٦]. وكانوا يظهرون علىٰ ألسنتهم ما ليس في قلوبهم. وبعد أن أسلموا أمر النّبيّ ﷺ أن لا يُطلق عليهم الأعراب من بعد[٧]. وكان يُطلق هذا الاصطلاح أيضاً علىٰ من تَعَرَّب بعد الهجرة، أي: عاد إلىٰ وطنه الأصليّ بعد هجرته إلى المدينة.

الأحلاف السّياسيّة بين القبائل

لمّا كانت شبه الجزيرة العربيّة تضمّ قبائل مختلفة، فإنّ قدرة كلٍّ منها تتراوح بين الشّدّة والضّعف قياساً بغيرها من القبائل. وإذا كانت كلّ قبيلة تعيش في صراعٍ مع

---

(١) *فجر الإسلام*: ١٠ و٢٣.
(٢) نفسه: ٤٦.
(٣) *بلوغ الأرب* ١: ١٣.
(٤) *نهاية الإرب* ٦: ٦٨.
(٥) الحجرات: ١٤.
(٦) الفتح: ١١.
(٧) *الطّبقات الكبرىٰ* ٨: ٢١٥.

القبائل الأُخرىٰ من أجل معيشتها، فمن الضّروريّ للقوى الصّغيرة أن تفكّر بحيلة لها وتسعىٰ لتعزيز قدرتها الدّفاعيّة. وعليها أن توطّد قدرتها بنحوٍ تستطيع معه أن تصدّ الهجمات الّتي يشنّها الآخرون عليها. من هنا كانت القبائل الضّعيفة تتحالف فيما بينها. وذكر البكريّ أنّ القبائل المختلفة لمّا كانت تعيش الصّراع والتّنازع فيما بينها على الماء والمرعىٰ، فإنّ هذا يحفّز القبائل الضّعيفة على التّحالف فيما بينها أو الانضواء تحت لواء قبيلة قويّة مقتدرة[١].

وتنصّ هذه الأحلاف علىٰ أنّه إذا تعرّض أحد الطّرفين إلىٰ أدنى اعتداء، فإنّ الطّرف الآخر يُسارع إلىٰ نصرته. وهكذا يتحقّق توازن القوىٰ بين القبائل المتنوّعة والأطراف المختلفة إلىٰ حدٍّ ما، ممّا يحول دون الحرب أحياناً، كما إذا شبّت الحرب، فإنّها تكون حرباً شاملةً بين القبائل استناداً إلىٰ الحلف المعقود بينها. ويظلّ هذا الحلف ثابتاً ما دام الطّرفان يرتضيانه. وكانوا لا ينكثون العهود والأحلاف. وإذا ما نُكث الحلف من جانب واحد، فهذا النّكث يعدّ خيانة عندهم.

ذكرنا سابقاً أنّ الحلف كان يعقد عادةً بين القبائل الضّعيفة حسب طلبها. بيد أنّ بعض القبائل الصّغيرة كانت لا ترضخ لمثل هذه الأحلاف لو كان بين ظهرانيها رجال شجعان. وكان من اليسير أن يتحالف عدد من القبائل، كما نجد ذلك في «حلف الأحابيش» الّذي عُقِدَ بين قريش ومجموعات مختلفة من الأحابيش الّذين كانوا يقطنون في ضواحي مكّة[٢]. وقد تُقدِم قبيلة من القبائل على التّحالف مع شخص واحد أيضاً ـ وإن قلّ أبناؤه ـ بسبب عظمته وشرفه. كما تحالفت خُزاعة مع عبد المطّلب، إذ ذكروا أنّهم لم يجدوا أبرّ وأعظم خلقاً وحلماً منه[٣]. وهذه الأحلاف كانت

---

(١) *معجم ما استعجم*، نقلاً عن *العصر الجاهليّ*: ٥٨.

(٢) *أنساب الأشراف* ١: ٥٣.

(٣) *المنمّق*: ٨٨؛ *أنساب الأشراف* ١: ٧١.

تعقد علىٰ أساس المصالح المشتركة، كالأحلاف الّتي تعقد اليوم في العالم. ومن الطّبيعيّ أنّ زوال هذه المصالح كان سبباً في فسخ الحلف. وإذا ما استقرأنا أحلاف العرب جميعها، نجد أنّ الحلف الوحيد الّذي كان يدافع عن حقّ المظلوم أمام الظّالم هو «حلف الفضول». وذهب المؤرّخون إلىٰ أنّه أشرف حلف عُقِدَ بين العرب[١]. وهو الحلف الّذي اشترك فيه النّبيّ ﷺ وكان في الخامسة والعشرين من عمره الشّريف. وكان يفتخر به ويقول ما مضمونه: لو دُعيتُ إليه مرّة أُخرىٰ لأجبتُ[٢]. وسبب انعقاد هذا الحلف أنّ رجلاً من زبيد جاء ببضاعة إلىٰ مكّة، فاشتراها منه العاص بن وائل السّهميّ ولم يدفع له المال. فاستغاث الزبيديّ عند الكعبة قائلاً:

يا قصيّ لمظلومٍ بضاعته ... ببطن مكّة نائي الدارِ والنَّفَر

وأشعث محرمٍ لم يُقضَ حُرمَتُه ... بين المقام وبين الرّكن والحَجَرِ[٣]

وحينئذٍ دعا الزّبير بن عبد المطّلب قريشاً إلىٰ حلف الفضول في دار عبد الله بن جدعان، ثمّ أخذوا حقّ الزّبيديّ من العاص بن وائل[٤]. وأعلنوا أنّ كلّ من ظُلِمَ في مكّة فإنّهم سيدفعون عنه، سواءً كان الظّالم من الرؤساء أم من الضّعفاء، ومن قبيلتهم أم من غيرها، وعبداً كان أم حرّاً[٥]. ونقلت أيضاً حالات أُخرىٰ من سعي المتحالفين إلىٰ أخذ الحقّ[٦]. وكما قيل فإنّ حلف الفضول هو الحلف الوحيد الّذي انعقد من أجل

---

(١) حول تسميته بحلف الفضول، انظر: شرح *نهج البلاغة*، ابن أبي الحديد ١٥: ٢٠٣؛ *السّيرة الحلبيّة* ١: ١٢٩؛ *المنمّق*: ٤٥، ٢١٨.

(٢) *بلوغ الأرب* ١: ٢٧٦؛ *المنمّق*: ٢٠٣، ٢٢٠؛ *الأغاني* ١٧: ٢٩٢، ٢٩٣.

(٣) *الأغاني* ١٧: ٢٩٩؛ *المنمّق*: ٤٥.

(٤) *السّيرة الحلبيّة* ١: ١٣١ ـ ١٣٢؛ *مروج الذّهب* ٢: ٢٠؛ *الكامل في التّاريخ* ٢: ٤١؛ *المنمّق*: ٤٥، ٤٦، ٢١٨، ٢١٩، ٢٤٣؛ *المحبّر*: ١٦٧؛ *الأغاني* ١٧: ٢٩٠.

(٥) *الأغاني* ١٧: ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١.

(٦) *المنمّق*: ٤٨، ٤٩؛ ونقل أنّ الإمام الحسين عليه السلام هدّد الأمويّين مرّةً بأخذ حقّه بدعوة النّاس إلىٰ حلف الفضول. *السّيرة الحلبيّة* ١: ١٣٢.

الدّفاع عن حقّ المظلوم، أمّا سائر الأحلاف فلم تتناول حقّاً ولا باطلاً، وكان الحليف يحظىٰ بالدعم والحماية ظالماً أم مظلوماً[١]. ومن المحتمل أنّ أحلافاً اقتصاديّة كانت تعقد بينهم أيضاً. وما حلف قريش وثقيف إلّا من هذا النّوع إذ حصلت قريش على حظٍّ من بساتين الطّائف في حين تكون ثقيف شريكة في الحرم الإلٰهيّ[٢].

وقدّم محمّد بن حبيب فهرساً وافياً لأحلاف الجاهليّة[٣]. ويتسنّىٰ لكثير من قبائلهم أو طوائفهم علىٰ أساسها أن ينضمّ بعضها إلىٰ بعض. ويُلحَظ في العصر الإسلاميّ حين خضعت الكوفة والشام والبصرة لسيطرةالقبائل أنّ أشخاصاً يُذكَرون دائماً بأنّهم حلفاء أو موالي للطائفة التي يعيشون في أحضانها.

لم يكن الحلف قضيّة سياسيّة فحسب، بل كان يتّخذ طابعاً عائليّاً أحياناً. ويذكر الآلوسيّ أنّ العرب كانوا يقصدون كسب أعدائهم وربّما كان يتمّ ذلك من خلال الزّيجات المتبادلة، فتستبدل الإلفة بالنّفرة، والمودّة بالعداء. وكان خالد بن يزيد عدوّاً لآل الزّبير، وعندما تزوّج رملة، أصبح من أشدّ النّاس حبّاً لهم[٤]. ولعلّ من الأسباب الّتي دعت إلىٰ تعدّد زوجات النبيّ ﷺ هو التّأليف بين القبائل وتوحيدها[٥]. وهذا الموضوع كان يملأ حيّز الإلفة بصورة طبيعيّة. والنّقطة اللافتة للنّظر في الحلف هي أنّ وجود مثل هذه الأحلاف بين القبائل قد يُفضي إلى الاتّصال بين قبيلتين على المدى البعيد بحيث تُعرَفان علىٰ أنّهما من أُرومة واحدة. وضرب الدكتور جواد عليّ أمثلة علىٰ هذا الاتّحاد النسبيّ الذي كانت بدايته حلفاً معقوداً بينهم[٦].

وعُرِف أنّ الأحلاف قد انطوت صفحتها بعد الإسلام. ومن الواضح أنّ الإسلام

---

(١) *العصر الجاهليّ*: ٦١. (٢) *المنمّق*: ٢٨٠، ٢٨١.

(٣) نفسه: ٢٢٩ ـ ٢٨١ (بيروت، عالم الكتب). (٤) *بلوغ الأرب* ٢: ٦، ٧.

(٥) نفسه: ٧. (٦) *المفصّل* ١: ٥١٦، ٥١٧.

كدينٍ يدعو الى الوحدة علىٰ أساس العقيدة الإسلاميّة لا يتواءم وأحلاف الجاهليّة. ثمَّ إنّ الحلف قد فقد ضرورته بشكل كبير بعد ولادة الحكومة المركزيّة. وأُثر عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: لا حِلْفَ في الإسلام بل تمسّكوا بأحلاف الجاهليّة[١]. ويُراد منه أنّ أشخاصاً لو اتّصلوا بقبيلة من القبائل علىٰ أساس الحلف فإنّهم يحفظون ارتباطهم لكن لا حلف جديد بعد ذلك. وجدير بالالتفات أنّه أوّلاً: القسم الثاني من الحديث لا ينسجم مع العقيدة الإسلاميّة، وقد مرّ بنا أنّه لا يمكن أن تكون للإسلام مصالح مشتركة مع الأحلاف الجاهليّة. ثانياً: رُوي هذا الحديث عن قيس بن عاصم وحده. فلا يمكن أن يكون صحيحاً بالنّظر إلىٰ مضمونه[٢]. ثالثاً: نقل ابن أبي الحديد أنّ أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام عقد حلفاً بين أهل اليمن[٣]، وهذا ما ينقض الحديث المذكور. رابعاً: لو صحّ الحديث، فلعلّ ما يصحّ من بين الأحلاف الجاهليّة هو حلف الفضول وحده أو قضيّة الجوار ومراعاة حقوق الجار. خامساً: قال النّبيّ ﷺ نفسه ما مضمونه: لا يبقىٰ من الجاهليّة إلّا سدانة الكعبة وسقاية الحاجّ[٤]. يضاف إلىٰ ذلك أنّ المؤاخاة في الحقيقة حلف عقده النبيّ ﷺ بين المؤمنين بعد دخوله المدينة.

---

(١) ***المفصّل***: ٣١٦؛ ***تاج العروس*** ٦: ٥٧؛ ***الكامل في التّاريخ*** ١: ٢٦٧؛ **شرح *نهج البلاغة*** ١٨: ٦٧؛ ***بلوغ الأرب***: ٢٧٨؛ ***المصنّف***، عبد الرزّاق ١٠: ٣٠٦ـ٣٠٧، ١١: ٤٣٦. وانظر: **مسند *أحمد* بن *حنبل*** ١: ٣١٧ـ٣٢٩، و٢: ٢٥، ١٨٠، ٢٠٧، ٢١٢.

(٢) **شرح *نهج البلاغة***، ابن أبي الحديد ١٨: ٦٧.

(٣) نفسه ١٨: ٦٦.

(٤) ***أنساب الأشراف***، القسم الثّالث، [حول العبّاسيّين]: ١٦.

الحرب والنّزاع بين القبائل

أصبح النّزاع بين القبائل سنّة مألوفة بين العرب. وقد شغل أذهانهم على الدّوام. وكان لهذا النّزاع أسبابه المتفاوتة. منها متطلّبات حياتهم الطّبيعيّة. فقد استلزمت حياة البادية وضرورة تعليف الماشية أن تقيم القبيلة في مكان تتهيّأ فيه الظّروف المناسبة للمعيشة[١]. ويذكر النّجديّ أنّ العرب لا يمكن أن يسكنوا في محلّ خاصّ بنحوٍ دائمٍ، إذ إنّهم يحتاجون إلىٰ ظروف معاشيّة ونسق خاصّ من الحياة يستدعي منهم التّنقّل طلباً للماء، والعشب، والكلأ، والأشياء الّتي يرتبط بها معاشهم[٢]. ولمّا لم يَسُد هناك قانون واحد وحاكم واحد فيتسنّىٰ إرضاء جميع القبائل حسب تقسيم معيّن للبيئة، لذا نلحظ أنّ كلّ من كانت قدرته أكبر، فإنّه يستولي علىٰ أراضٍ أكثر. من هنا كانت تحدث اصطدامات بينهم دائماً. وعندما عرفوا النّبيّ صلى الله عليه وآله كقدرة مسيطرة علىٰ شبه الجزيرة العربيّة في السّنين الأخيرة من حياته، شعرت القبائل المختلفة بخطر علىٰ مناطقها، فأقبلت إلى النّبيّ صلى الله عليه وآله علىٰ شكل مجموعات متنوّعة بعنوان «الوفود». ويضاف إلىٰ إعلانها إسلامَها أنّها طلبت من النّبيّ صلى الله عليه وآله تعليماته وتوجيهاته حول الأراضي الّتي بأيديهم.

وأورد أحد الباحثين أنّ التّاريخ يدلّ علىٰ أنّ القبائل العربيّة كانت تأتي إلى النّبيّ صلى الله عليه وآله بعد ظهور الإسلام وتعلن إسلامها، ثمّ تأخذ منه كتاب الأمان، وكان صلى الله عليه وآله يعطيها ذلك لئلّا يتعرّض أحد إلىٰ أموالهم وأراضيهم. وفيما يأتي مضمون بعض الكتب: «من كانت له أرض فهي ملكه» أو «من كانت لهم أراضٍ عامرة ومياهُ حين

---

(١) *جزيرة العرب في القرن العشرين*: ١١.

(٢) *صحيح الأخبار عمّا في بلاد العرب من الآثار* ١: ٩.

إسلامهم فهي محفوظة لهم ولطائفتهم». «إنّ الأرض والماء لهم». «من أحيا أرضاً تعدّ مهجعاً للماشية فهي له»[١].

لكنّنا لا بدّ أن نقول: إنّ هذه المسألة تعدّ أحد أسباب النّزاع. وثمّة أسباب أُخرىٰ كان لها دورها أيضاً في إيقاد نار الحروب والنّزاعات. منها حبّ الاستعلاء وكسب الفخر والشّرف، من هنا كانت تندلع نار الحرب بين حين وآخر بذرائع واهية. فقد قيل في سبب اندلاع إحدىٰ حروب الفجار إنّ رجلاً من قبيلة بني غفار جاء إلىٰ سوق عكاظ، وقال بعد أن ارتجز: أنا أعزّ العرب! ومن أبىٰ فليضرب رجلي بسيفه! فجرح رجل من قشير رجله. فنشبت حرب الفجار الثّانية لهذا السّبب[٢]. وقيل في سبب نشوب الحرب بين تغلب وبكر أنّ كليب بن ربيعة، وهو من تغلب، قال لزوجته: أتعرفين من هو الأفضل بين العرب؟ فقالت بعد إصراره عليها: بلىٰ، أخواي جسّاس وهمّام، وكانا من قبيلة بكر. ومنذ ذلك الحين طفق يؤذي عدداً من أقرباء جسّاس لقولها حتّىٰ قتل على يد جسّاس نفسه فاندلعت الحرب بين تغلب وبكر ودامت أربعين سنة[٣].

وكان العشق أحياناً يؤدّي إلىٰ نشوب الحرب الّتي قد تستنزف عدد سنين. ونُقل في السبب الّذي أفضىٰ إلى اضطرام إحدىٰ حروب الفجار (الأربعة) أنّ فتية من مكّة أرادوا ذات مرّة أن يتكلّموا مع فتاةٍ مرّت بهم! فلم تُجبهم، فاحتالوا ورفعوا قميصها من خلفها فضحكوا بأجمعهم، فاستغاثت وبدأت حرب الفجار الثّالثة من هذه النّقطة[٤]. ورُويت حالات أُخرىٰ من هذا القبيل أيضاً[٥]. وكان ثلّة من النّاس يُعرفون

---

(١) ***مالكيت خصوصى زمين*** [الملكيّة الخاصّة للأرض]: ٨ ـ ١٢.

(٢) ***الأغاني*** ٥: ٣٤ ـ ٤٠؛ ***العقد الفريد*** ٥: ١٥١.

(٣) ***المنمّق***: ١٨٩.

(٤) نفسه: ١٩٠؛ ***بهج الصّباغة*** ٢: ١٧٦؛ ***العقد الفريد*** ٥: ٢٥٢. ومثله تعرّض يهود بني القينقاع لامرأة مسلمة ممّا أدّىٰ إلىٰ إبعادهم عن المدينة.

(٥) ***المحاسن والمساوي*** ١: ٢١٨، ٢١٩.

بالصّعاليك، دأبهم القتل والنّهب والسّرقة في الطّرقات. وهؤلاء كانوا إمّا من الّذين طردتهم قبائلهم بسبب جرائمهم الكثيرة، واصطُلح عليهم «الخلعاء»، أو كانوا من أولاد الإماء السّود، الّذين كان العرب يرون في انتسابهم إليهم عاراً عليهم[١]. ولم يستطع أحد أن يحول دون أعمالهم؛ فوقوفهم على الطّرقات، وغارتهم على القوافل كانا من الأسباب المهمّة لاندلاع الحرب والخصام بين العرب.

إنّ علم الأيّام هو العلم التّاريخيّ للعرب بهذه الحروب. وكان يستهدفون منه كسب الفخر وإحياء ذكر أجداد القبيلة. وكانت حياة العرب وصفاتهم وعاداتهم تتطلّب مثل هذا العلم. وهم كانوا يتّخذون من هذه المذكّرات عنواناً لكسب الفخر في حياتهم. وأحصى الآلوسيّ شجعان كلّ قبيلة اعتماداً علىٰ ما ذكره نسّابو العرب المعروفون[٢].

قبيلة قريش

كانت قريش من أكبر القبائل نفوذاً بين العرب. وظلّت حاكمة على العالم الإسلاميّ بعد البعثة لعدّة قرون. وكان الخلفاء جميعهم قبل العصر العثمانيّ من قريش، بل كان معظم الولاة في البداية منها أيضاً. ويمكن أن يكون لتأثيرها في تاريخ العصر الجاهليّ والإسلاميّ من جهةٍ، والتّعرّف علىٰ أوضاعها الدّاخليّة بوصفها قبيلة نموذجيّة فائدة لنا في مضمار حديثنا عن الأوضاع السّياسيّة والاجتماعيّة لشبه الجزيرة العربيّة. وكانت تعرف هذه القبيلة الّتي نهض منها النّبيّ ﷺ كأشهر القبائل العربيّة وأشرفها. وهي من بني كنانة، وبنو كنانة من مُضَر، ومضر من عدنان، وهكذا حتّىٰ

(١) *العصر الجاهليّ*: ٣٧٥. (٢) *بلوغ الأرب* ٢: ١٨٩.

تنتهي بإسماعيل عليه السلام. ويُطلق النسّابون علىٰ أولاد النّضر بن كنانة لقب «القرشيّ»[١].
واستطاع قصيّ بن كلاب الّذي كان من أولاد قريش، وكانت قريش متفرّقة في أطراف الحرم أيّام شبابه، أن يُخرج سدانة الكعبة من يد خزاعة بدهائه الخاصّ. وذكر البعض أنّ هذا الأمر قد تمّ بمؤازرة قيصر ملك الروم[٢]! ولا جرم أنّه مُسْتَبْعَد. وجمع قصيّ قبيلته من أطراف مكّة، وأسكن كلّ بطن من بطونها في نقاطٍ بعيدة وقريبة من الحرم علىٰ أساس شرف كلّ واحدة منها[٣]. من هنا سُمّي «المُجَمِّع»[٤]. ومن أعماله الهامّة تشكيل «دار النّدوة»، وكانت مركزاً لمشورة رؤساء قريش في الشّؤون الخطيرة[٥]. وتعدّ هذه الخطوة من نوعها مبادرةً سياسيّةً. ويضاف إلىٰ ذلك أنّه تولّىٰ النّظر في شؤون الحجّاج، وكان يطلب من النّاس أن يساعدوهم[٦].

وكانت قريش القاطنة في وادي مكّة تعرف بقريش البطائح، والسّاكنة في أطرافها تعرف بقريش الظّواهر. ويبدو أنّهم جميعاً كانوا في ظواهر مكّة قبل مبادرة قصيّ. وحافظت قريش علىٰ نظمها البدويّ حتّىٰ بعد استقرارها في مكّة[٧]. وبعد قصيّ تولّىٰ ولداه عبد الدار وعبد مناف أعمال الكعبة وشؤون قريش. وقال البعض أيضاً أنّه خوّل عبد الدّار جميع مناصبه[٨]. وبعد ذلك قسّم هاشم وعبد شمس ولدا عبد مناف المناصب بينهما: فتقلّد هاشم شؤون الكعبة، وتقلّد عبد شمس الرّئاسة. وأصبحت

---

(١) *المعارف* : ٣١؛ مجمع *البيان* ١٠: ٥٤٥؛ *السّيرة الحلبيّة* ١: ١٦؛ *تاريخ ابن خلدون* ٢، الجزء الأوّل: ٣٢٤، ٣٢٠؛ *لسان العرب* ذيل كلمة قريش؛ *عمدة الطّالب* : ٢٦.

(٢) *بلوغ الأرب* ٢: ١٧٣.

(٣) *مروج الذّهب* ٢: ٣٢؛ *المعارف* : ٥١.

(٤) *تاريخ اليعقوبيّ* ١: ٢٣٧ ـ ٢٤٠؛ *حياة محمّد* : ٥٧؛ وانظر: *المفصّل* ٤: ٥٦.

(٥) *أخبار مكّة* ١: ١١٠؛ *المنمّق* : ٣٢؛ *أنساب الأشراف* ١: ٤٩؛ *المعارف* : ٣٢.

(٦) *تاريخ الطّبريّ* ٢: ٢٩٥؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٧٢، ٧٣؛ *المفصّل* ٤: ٥٦.

(٧) *المنمّق* : ١٤.

(٨) *المفصّل* ١: ٥١٢.

شؤون مكّة جميعها بيد أولاد عبد مناف[١].

كانت خدمات قصيّ وهاشم وعبد المطّلب للحجّاج من الأُمور الّتي جلبت صيتاً ذائعاً لقريش. وتمتّع عبد المطّلب بمكانة مرموقة متميّزة من بين قريش لتمسّكه بدين إبراهيم الحنيف عليه السلام، وذكائه في إدارة الشّؤون المختلفة حتّى رضوا به شيخاً[٢]. وعندما ازدادت عشائر قريش وبطونها تدريجاً فإنّ المسؤوليّات المهمّة للقبيلة والكعبة وقعت علىٰ عاتق الطّوائف المختلفة. ومنذ بُعث رسول الله ﷺ من بين بني هاشم كان العبّاس يتولّىٰ سقاية الحاجّ. ومن بني أميّة كان أبو سفيان يتولّىٰ قيادة الجيش القرشيّ (الّذي اشترك في حرب أُحد والخندق أيضاً). ومن بني نوفل كان الحارث بن عامر مسؤولاً عن رفادة الحجيج وإطعامهم. ومن بني أسد كان يزيد بن زمعة يتقلّد المشاورة حيث كانت قريش تستشيره في أعمالها المهمّة. وكان أشخاص آخرون من سائر البطون يتولّون بعض المهامّ أيضاً[٣].

سُمعة قريش

يستشفّ من كتب التّاريخ أنّ قريشاً كانت تتمتّع بشرفٍ وعزٍّ خاصّين بين العرب. وكانت تُدعىٰ عادةً «آل الله»، و«جيران الله»، و«سكّان حرم الله»[٤]. ورضي بها النّاس كقبيلة عظيمة وشريفة[٥]. ولعلّهم كانوا يقاتلون مكانها في الحروب[٦]. وينبغي أن نقول: لا تتجلّىٰ عظمة قريش وشهرتها في جميع بطونها وأُسرها وعشائرها، بل

---

(١) *أخبار مكّة*، الأزرقيّ ١: ٦٦؛ *تاريخ اليعقوبيّ* ١: ٢٤١.

(٢) *تاريخ ابن خلدون* ٢: ٢٢٦؛ *بلوغ الأرب* ١: ٢٤٨.

(٣) *العقد الفريد* ٣: ٣١٦؛ *بلوغ الأرب* ١: ٢٤٩، ٢٥٠.

(٤) *العقد الفريد* ٣: ٣٢٧؛ *الأغاني* ١٧: ٣١٣. (٥) *العقد الفريد* ٣: ٣٢٣.

(٦) نفسه ٣: ٣٢٧.

تقتصران علىٰ آل قصيّ، ثمّ بني هاشم وعبد المطّلب. ذلك أنّ هؤلاء هم الّذين صاروا سبباً في شهرتها. ونقل أنّ أبا بكر انتسب إلىٰ قريش في مسابقة اعتزازٍ بالنّسب. فسأله الطرف المقابل مبتهجاً: أنت من قصيّ؟ قال: لا. قال: عبد المطّلب وهاشم منكم؟ قال: لا. فلم يحفل به السّائل[١].

وكانت لخدمات قصيّ في تأسيس دار النّدوة[٢] والقيام بالأعمال التّرفيهيّة للحجّاج تأثير بالغ في ذيوع صيت قريش. وذكر اليعقوبيّ أن قصيّاً كان أوّل من منح العزّة لقريش وأبان فخرها[٣]. يضاف إلىٰ ذلك أنّ عشيرته هي الّتي تولّت سدانة الكعبة. لذا كانت شتّى المناطق على اتّصالٍ بها ممّا أذاع صيتها[٤]. ومن الواضح أنّ هذا الشّرف والرئاسة كانا في أولاد قصيّ وحدهم، ولم ينازعهم أحد عليهما إلّا غُلب علىٰ أمره[٥].

وكانت لهاشم أيضاً جهود كبيرة في حماية الحجيج. وكان يحثّ أهالي مكّة علىٰ إكرامهم، ويطلب منهم أن يساعدوهم بكلّ معونة ممكنة[٦]. وكانت قريش تأخذ الضرائب أحياناً من الحجّاج كحقّ لها[٧]. في مقابل ذلك قيل إنّ قريشاً كانت تسلّم هاشماً قسماً من أموالها ليصرفها على الحجّاج[٨]. وهو أيضاً قدّم لقريش خدمات كثيرة إذ سيّر قوافلها التجاريّة الشّتويّة والصّيفيّة الّتي أشار إليها القرآن الكريم، وأخذ

---

(١) ***عقد الفريد*** ٣: ٣٢٧؛ ***شرح نهج البلاغة***، ابن أبي الحديد ٤: ١٢٧؛ المحاسن والمساوي ١: ١٢١.

(٢) ***بلوغ الأرب*** ١: ٢٣٥؛ ***حياة محمّد***: ٥٧. كانت هذه الدّار مركزاً لمشاورة قريش في الشّؤون المهمّة؛ بخاصّة في الحرب والسّلم. ونُقل أنّ من كان عمره أقلّ من أربعين سنةً فلا يحقّ له الاشتراك فيها. انظر: *المنمّق*: ١٨، ١٩، ٢١.

(٣) ***تاريخ اليعقوبيّ*** ١: ٢٤٠؛ وانظر: ***أنساب الأشراف*** ١: ٥٠.

(٤) **فجر الإسلام**: ١٤؛ ***المنمّق***: ١٣؛ ***العصر الجاهليّ***: ٥٠.

(٥) **المحبّر**: ١٦٥؛ ***المنمّق***: ٥٣٠.

(٦) ***نهاية الإرب*** ١٦: ٣٤.

(٧) ***المفصّل*** ٤: ٢١.

(٨) ***المنمّق***: ١١، ١٢.

لها الأمان من قيصر[١]. فقيل فيه:

هـو الّـذي سَـنَّ الرحـيلَ لقـومه   رحل الشتاء ورحلة الأصـيافِ[٢]

قال ابن عبّاس: حين كانت قريش في عُسرٍ ومسغبة، جمعها هاشم وعرّفها على العمل والتّجارة[٣]. وأشار آخرون أيضاً إلىٰ أنّ هاشماً كان أوّل من سيّر القـوافـل الصيفيّة والشتويّة[٤]. ويبدو أنّ تجارة قريش كـانت محـدودة قـبله بمكّـة والعـرب أنفسهم، وهو الّذي أخرجها من مكّة[٥].

وذهب ابن خلدون إلىٰ أنّ الرحلات الصّيفيّة والشّتْويّة لم تكن من ابتكار هاشم، وذكر أنّها كانت نابعة من رغبة العرب في الرحيل إلى المصايف هرباً من أذى الحرّ، وإلى المشاتي فراراً من قَرْس البرد[٦]. ونقول في جوابه: أوّلاً: هذا الموضوع المذكور حول العرب هو غير الرحلات التّجاريّة الصيفيّة والشّتويّة الّتي ذكرها القرآن الكريم لقريش. ثانياً: الّذين ذكروا هذه الرحلات أشاروا إلىٰ أنّ هدفها التّجارة لا الفرار من الحرّ. ثالثاً: التّاريخ ينصّ بصراحة علىٰ أنّ هاشماً هو المبتكر لهذه الرحلات، والدليل علىٰ ذلك بيت الشّعر المتقدّم. فكلام ابن خلدون اجتهاد في مقابل النصّ. ويضاف إلىٰ هاشم أنّ عبد المطّلب كان يتمتّع بموقع ممتاز أيضاً. ويقول الحلبيّ: كان ملجأ قريش في الملمّات، وكان من حلمائها وحكمائها. وهو أوّل من تعبّد في غار حراء[٧]. وكانت قريش وحدها ذات أرضيّة مناسبة للتجارة بسبب وجود الأمان في أرجائها أوّلاً،

---

(١) *تاريخ اليعقوبيّ* ١: ٢٤٢؛ *الكامل في التاريخ* ٢: ١٦؛ *المنمّق*: ٣٢؛ شرح *نهج البلاغة*، ابن أبي الحديد ١٥: ٢١١؛ *أنساب الأشراف* ١: ٥٩.

(٢) *أنساب الأشراف* ١: ٥٩؛ *السّيرة النّبويّة* ١: ١٢٥؛ وانظر: *المحبّر*: ١٦٢؛ *بلوغ الأرب* ١: ٢٤٥، ٣٠٧.

(٣) *مجمع البيان* ١٠: ٥٤٦.

(٤) نفسه: ٤٥٤.

(٥) *المنمّق*: ٣١، ٣٢.

(٦) *تاريخ ابن خلدون* ٢: ٣٣٦، ٣٣٧.

(٧) *السّيرة الحلبيّة* ١: ٢٣٧؛ *المنمّق*: ١٣.

وأهمّ من ذلك أنّها كانت أهل الحرم ثانياً. وكلّما تعرّضت لغارة من الغارات فإنّها تعرّف نفسها علىٰ أنّها أهل الحرم. وأشار القرآن أيضاً إلىٰ هذا الموضوع في سورة قريش[١]. وكانت للكعبة قداستها عند معظم العرب، وكانوا يحترمون أهل الكعبة والحرم. ولمّا كانت قريش ترىٰ نفسها أهل الحرم فقد استأثرت بامتيازات دينيّة خاصّة، واختارت لها عنوان «أهل الحمس». وكانت تعتقد أنّها أكثر ديانةً من الآخرين، من هنا كانت تشعر بالتفوّق علىٰ غيرها[٢].

النّقطة الأُخرى الّتي زادت صيت قريش الصّبغة التّجاريّة لمكّة وموقعها علىٰ مفرق الطرق الّتي تجتازها تجارة الحبشة، واليمن، والشّام. وكانت هذه التّجارة تشمل الرحلة إلى اليمن، وحضرموت، والحيرة (في الشّرق)، وبصرىٰ (في الشّمال)، والشّام، وغزّة، ومصر[٣]. وقد شغلتهم التّجارة عن الحرب فتركوها لئلّا يؤسروا أو يفقدوا أموالهم[٤]. ويضاف إلىٰ ذلك أنّ قريشاً استطاعت أن تحصل علىٰ دعم أشخاص كثيرين بسبب تقدّسها. من هنا، كانت من أقدر القبائل وأقواها، بخاصّة أنّها تمكّنت أن تحصل علىٰ قدرة أكبر في الحلف الّذي عقدته مع الأحابيش، أي: الجماعات الكثيرة المستقرّة في جبال مكّة[٥]. ولمّا كان العرب يهتمّون بزيادة قواهم ويرون ذلك معلماً على الشّرف، فإنّ هذا التّوجه أفضىٰ إلىٰ ذيوع صيت قريش واستعلائها[٦].

وانتصر الإسلام انتصاراً ساحقاً بعد هزيمة قريش أمام النّبيّ ﷺ في الفترة الّتي تلت الهجرة. ذلك أنّ أشهر قبيلة، وهي قريش، كانت قد مُنيت بالهزيمة. واستتبعت غارة

---

(١) *مجمع البيان* ١ : ٤٥٦. الإيلاف هو أن يأمن النّاسُ بلا حلف. وكان في سياق العقد الموقّع بين قريش والرّوم والعرب. انظر: *المنمّق* : ٣٢، ٣٣. (٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١ : ١٩٩ ـ ٢٠٣.

(٣) *العصر الجاهليّ* : ٥٠. (٤) *ثمار القلوب* : ١١.

(٥) *أنساب الأشراف* ١ : ٥٣.

(٦) للاطّلاع علىٰ صفات قريش وخصالها الأُخرىٰ، انظر: *رسائل الجاحظ*، الرسائل السياسيّة : ١٠٢ ـ ١١٠.

أبرهه علىٰ الكعبة وحماية الله تعالىٰ لبيته فخراً منيفاً للكعبة وأهلها[١]. ويقول هيكل: هذه الحادثة المهمّة رفعت الهيبة الدينيّة لمكّة، وضاعفت قيمتها التّجاريّة لا محالة[٢]. ووطّدت عقيدة الناس الّذين كان إيمانهم بالكعبة ضعيفاً وطَمْأَنَتْهُم. ويقول آبي: كانت قصّة الفيل سبباً لعظمة قريش عند العرب ولذا كانوا يسمّونها «أهل الله»[٣].

كانت لقريش سمعتها قبل الإسلام، للأسباب المارّ ذكرها، بيد أنّ هذه السّمعة تضاعفت بعد الإسلام للباعثَين الآتيين: أوّلاً: انتماء النّبيّ صلى الله عليه وآله إليها، وهذا أهمّ باعث علىٰ سمعتها. ثانياً: طرح الأمويّين المبدأ القائل بخلافة القرشيّين. وقد وضعوا الأحاديث لأجل ذلك، فرسخ هذا المبدأ تماماً في الفكر السّياسيّ ـ المذهبيّ لأهل السّنّة. علماً أنّ أهمّيّة الانتماء القرشيّ للخليفة كانت مطروحة منذ الأيّام الأُولىٰ للخلافة. كما قال العبّاس لعليّ عليه السلام: إن بايعناك (أنا وأبو سفيان)، لم يختلف عليك أحد من بني عبد مناف، وإذا بايعك بنو عبد مناف لم يختلف عليك أحد من قريش. وإذا بايعتك قريش لم يختلف عليك أحد من العرب[٤].

وكان للدّعايات الأمويّة تأثيرها البالغ في سمعة قريش كي تدلّ علىٰ تفوّق قريش علىٰ سائر العرب. قال معاوية لصعصعة بن صوحان وجماعة معه: لولا قريش لكنتم أذلّةً! فقال له صعصعة: أمّا قريش فإنّها لم تكن أكثر العرب ولا أمنعها في الجاهليّة[٥]. وكان أبو بكر يقول للأنصار في السّقيفة: قد علمتم أنّ العرب لا تقرّ ولا تطيع إلّا لامرئٍ من قريش[٦]. وقال عمر أيضاً: وقومه [قريش قوم النّبيّ صلى الله عليه وآله] أشرف العرب[٧]. وقال الإمام عليّ عليه السلام فيها:

---

(١) سورة الفيل.

(٢) *حياة محمّد*: ٦٤.

(٣) *نثر الدّرّ* ١: ٣٩٤.

(٤) *شرح نهج البلاغة*، ابن أبي الحديد ٢: ٤٨.

(٥) نفسه ٢: ١٣٠.

(٦) نفسه ٦: ٤٠.

(٧) نفسه ١٢: ٩٥.

ولولا أنّ قريشاً جعلت اسمه [النّبيّ ﷺ] ذريعةً إلى الرئاسة، وسلّماً إلى العزّ والإمرة لما عبدت الله بعد موته يوماً واحداً، ولارتدّت في حافرتها...[١]

وكان بلال يدعو علىٰ قريش قبل الأذان دائماً[٢] ويستعين الله عليهم.

مع هذا، فقد اختلق الوضّاعون عشرات الأحاديث في فضل قريش[٣]. منها ما مضمونه: أتاني جبرئيل وقال: قلبت الشرق والغرب والشمال والجنوب فلم أجد أفضل من قريش، وأفضل منها هاشم. ومنها: «قريش ملح هذه الأمّة، وهل يكون الطعام بغير ملح؟» ووقفت قريش أيضاً بعد الإسلام أمام حفّاظ سنن النّبيّ ﷺ وأهل بيته عليهم السلام وغصبت الخلافة. وما هي إلّا قريش الّتي أشعلت حرب الجمل وصفّين علىٰ أميرالمؤمنين عليه السلام.

علىٰ أيّ تقدير، يعود صيت قريش إلىٰ ما قبل البعثة نوعاً ما، وقسم منه يعود إلىٰ ما بعد الإسلام. وكان قبل البعثة رجال من العرب يذهبون إلىٰ أنّ قريشاً أفضل من غسّان وكسرىٰ أيضاً[٤]. ويرىٰ جواد علي بعد حديث له في هذا المجال أنّ الإسلام هو الّذي جعل قريشاً قريشاً، وسوّدها علىٰ العرب وبلغ بها هذا النجاح[٥]. ونحن في سياق تأييدنا هذه النقطة نؤكّد الأهمّيّة النسبيّة لقريش في الجاهليّة. وثمّة أسباب جمّة جعلت كثيراً من العرب لم يسلموا إلى ما قبل فتح مكّة نتيجة للحرمة الّتي كانوا يعتقدونها لقريش[٦]. ونُقل عن النبيّ ﷺ أنّه قال ما مضمونه: النّاس تبع لقريش، الصّالحون للصالحين منها، والفجّار لفجّارها[٧]. وأورد محمّد بن حبيب فهرساً لبعض الأحاديث المأثورة في وصف قريش، وبعضها موضوع[٨].

---

(١) *شرح نهج البلاغة*، ابن أبي الحديد ٢٠: ٢٩٨، ٢٩٩.

(٢) *التراتيب الإداريّة* ١: ٧٩.

(٣) انظر: *سيرة دحلان* ١: ٣، ٤.

(٤) *العصر الجاهليّ*: ٥١.

(٥) *المفصّل* ٤: ١٢٦.

(٦) *التنبيه والإشراف*: ٢٣٩.

(٧) *المنمّق*: ٧.

(٨) نفسه: ٧ فما بعدها.

الفصل الثّاني: دين الناس وتديّنهم في الجاهليّة

السّوابق الدينيّة لجزيرة العرب

سنتحدّث في هذا القسم عن العقائد الدينيّة والشّرعيّة العمليّة المرتبطة بها. فأهمّ العقائد الّتي كانت سائدة في شبه الجزيرة العربيّة هي الشّرك، واليهوديّة، والنّصرانيّة، والحنفيّة. وسنذكر موضوعات تدور حول طبيعة هذه العقائد وتأثيرها في الحياة الفرديّة والاجتماعيّة لعرب الجاهليّة. ومصدرنا الأوّل في تحليل الحوادث الدّينيّة المرتبطة بالعصر الجاهليّ هو القرآن الكريم. فلمّا كان لهذا الكتاب المقدّس بوصفه المخزون الفكريّ لثورة النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم موقف من البيئة الّتي نزل فيها، وكان يهدف إلىٰ تغييرها، ويصطدم بأفكارها السّائدة فيمكن أن يساعدنا في التّعرّف علىٰ العقائد الدينيّة لذلك العصر. ومصدرنا الآخر هو بعض الشّعر الجاهليّ الّذي لا مراء في جاهليّته. ولا ننسَ كلمات الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام فإنّها ترشدنا في بعض الحالات أيضاً. وإلىٰ جانب هذه المصادر استهدينا بمصدر يتناول التّاريخ الجاهليّ وآدابه.

وذكرالمؤرّخون العرب أنّ العرب العدنانيّين والقحطانيّين قبل ظهور عمرو بن لحيّ كانوا علىٰ دين إبراهيم عليه السلام، وكانوا قد أخذوا دينهم من إسماعيل عليه السلام[١]. ومن الثابت في المنظار القرآنيّ[٢] أنّ إبراهيم عليه السلام قدم مكّة والكعبة تذكاره ومرامه[٣]. ولهذا السبب وغيره من الأسباب كان العرب وبعض الشّعوب الأُخرىٰ يحترمون الكعبة[٤]. ونلحظ

---

(١) *بلوغ الأرب* ٢: ١٩٤. (٢) الحجّ: ٧٨.

(٣) *الميزان* ٣: ٣٥٨.

(٤) منها الهنود، والصّابئة من الفرس والكلدانيّين، والفرس، واليهود، والنّصارىٰ. انظر: *الميزان* ٣: ٣٦١، ٣٦٢.

في جميع الذكريات الشّعريّة وغير الشّعريّة للعرب كلاماً حول إبراهيم، والكعبة، وموضوعات تحوم حول الشّريعة الإبراهيميّة. من هنا فإنّ ما كان له سابقة تاريخيّة في شبه الجزيرة العربيّة من الوجهة العقيديّة هو الاعتقاد بالتّوحيد وقد استُبدل به الشرك علىٰ مرّ الزّمن. وذكر لذلك عدد من الأسباب الآتية:

الف: السبب الأوّل يتمثّل في موضوع نصّ عليه النّسّابة المعروف ابن الكلبيّ. فقد ذكر أنّ ما حد اسكّان الجزيرة العربيّة علىٰ ترك الملّة الإبراهيميّة والتّوجّه إلىٰ عبادة الأحجار والأصنام هوأنّ كلّ مسافر كان يخرج من مكّة يأخذ معه حجراً من أحجار الحرم. وحيثما توقّف في سفره فإنّه يضعه على الأرض ويطوف حوله، كما كان يطوف حول الكعبة. ويعود هذا العمل إلى اعتقادهم بالكعبة والحرم. فقد كانوا يحترمون الكعبة ويؤدّون شعائر الحجّ والعمرة. ثمّ أفضىٰ بهم هذا العمل إلىٰ عبادة ما كانوا يحبّونه تدريجاً ونسوا دينهم القديم. وغيّروا دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وأضحوا عبدةً للأوثان[١].

ب: أُشير في الأخبار التّاريخيّة إلىٰ نقطة أُخرىٰ في هذا المجال. وهي أنّ عمرو بن لحيّ العامليّ كان سبباً في عبادة النّاس الأصنام. فقد أتىٰ من الشّام إلىٰ مكّة بصنمٍ يُدعىٰ هُبَل، ودعا النّاس إلىٰ عبادته. ومن هنا انتشرت عبادة الأصنام شيئاً فشيئاً[٢]. ونُقل عن النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً أنّه ذكرعمرو بن لحيّ علىٰ أنّه أوّل من غيرّ دين العرب[٣].

ج: قيل: إنّ أساس الصّنميّة نابع من التّنزيه الّذي كان يعتقد به علماء السّلف لله

---

(١) *أخبار مكّة* ١: ٧٢؛ *الأصنام*: ٦؛ *السّيرة النّبويّة* ١: ٧٢؛ *الروض الأنف* ١: ٣٥٠؛ *بلوغ الأرب* ٢: ٢٠٠، ٢٠١؛ *البداية والنّهاية* ٢: ١٨٨؛ *بهج الصّباغة* ٤: ١٧١؛ *الميزان* ٣: ٣٠٥.

(٢) *الأصنام*: ٧؛ *البداية والنّهاية* ٢: ١٨٧؛ *تاريخ اليعقوبيّ* ١: ٢٥٤ و٢٢٩؛ *المنمّق*: ٣٥٣؛ *مروج الذّهب* ٢: ٢٩؛ *السّيرة الحلبيّة* ١: ١٠ ـ ١٢.

(٣) *الاستيعاب* ١: ٢٠؛ *السّيرة الحلبيّة* ١: ١٠؛ *تاريخ ابن خلدون* ٢: ٣٣٣؛ *السّيرة النّبويّة* ١: ٧١.

تعالىٰ. فقد كانوا ينزّهون الله عن كلّ شيء ويعلّمون النّاس ذلك حين رأوهم يقولون بالتّعطيل.

جعلوا لهم أصناماً وستروها وعظّموها بسجودهم أمامها ليذكروا بها الإله الغائب عنهم[١]. ومن نافلة القول أن نذكر بأنّ هذا السبب لا يرتبط بالعصر الجاهليّ، إذ لم يطرح مثل هذه المباحث الكلاميّة في أوساطهم.

د: يذكر اليعقوبيّ في تحليله للصنميّة وسببها أنّ عبادة الأصنام بدأت عند النّاس حين كانوا يصنعون التماثيل لموتاهم ويحترمونها تذكاراً لهم فظنّ أخلافهم بعد سنين أنّ هذه التماثيل آلهتهم[٢]. ويمكن أن يقوم كلام المشركين مع النّبيّ ﷺ دليلاً علىٰ هذا الأمر إذ قالوا: هذه الأصنام تمثّل مَنْ غبر ممّن كان يُطيع الله، فصنعنا منها صورة ونعبدها[٣]. وقيل في الأصنام الثلاثة المشهورة: يعوق، ويغوث، ونسر أنّهم كانوا من قوم نوح عليه السلام وكانوا صالحين، ثمّ أصبحت تماثيلهم أصناماً[٤]. وقيل في اللات أيضاً إنّه كان صالحاً إذ كان يصنع الطعام للحجّاج. وعندما مات شيّدوا له تمثالاً، وبنوا عليه بنياناً ووضعوا له اسم «بيت الربه»[٥].

قال ابن القيّم في أسباب الصنميّة: صار تعظيم الموتىٰ سبباً في صناعة صور منهم علىٰ شكل أصنام تدريجاً. ونقل عن هشام الكلبيّ عن أبيه أنّ ودّاً وسواعاً ويغوثَ ونسراً كانوا صالحين ثمّ صنعت خمسة أصنام بأشكالهم[٦]. وذكر العلّامة الطّباطبائيّ

---

(١) *السّيرة الحلبيّة* ١: ١٣. توضيحاً لهذا الموضوع نشير إلىٰ أنّ التّعطيل يعني عدم نسبة أيّة صفة إلى الله وهذا يُفضي لا محالة إلىٰ إنكار الله. لذا نظر أولئك إلى الأصنام كعلامة علىٰ وجود الله.

(٢) *بهج الصّباغة* ٢: ١٤٧.
(٣) نفسه ٢: ١٥٤.

(٤) *الروض الأنف* ١: ٣٥٩.
(٥) *بلوغ الأرب* ١: ٣٤٦.

(٦) نفسه ٢: ٢١٢، ٢١٣.

أدلّة علىٰ هذا الموضوع أيضاً[١]. مبدئيّاً لا شكّ في أصل هذه المسألة إلّا أخباراً ترتبط بقوم صالح وغيرهم ولا يُعَوَّل عليها.

هـ: السّبب الآخر الّذي كان له دور كبير في بثّ الشّرك يتمثّل في الخلافات التي كانت موجودة بين القبائل. بعبارة أُخرىٰ كانت القضايا الاجتماعيّة والسياسيّة سبباً في نشر الصنميّة وتوسيع رقعتها. فقد كانت الحرب والمصادمات المتواصلة بين القبائل عاملاً ثقافيّاً أهمّ مؤشّر له هو انفصال القبائل بعضها عن بعض. فقد كانت القبائل تتباعد على أساس هذه الثقافة، وكان كلٌّ منها يسعىٰ إلىٰ حصر الشرف والفخر به، وإلىٰ إبادة القبيلة المواجهة له. واتّسعت هذه الخلافات تدريجاً حتّىٰ عرّضت التّوحيد إلى التّغيير ومهّدت الأرضيّة لكلّ قبيلة أن تختار إلٰهها الخاصّ بها. وعندما نعتبر نتيجة التّوحيد العمليّ في المجتمع وحدة الشّرائح الاجتماعيّة المختلفة باتّجاه واحد نحو الله تعالىٰ فماذا ننتظر من وجود الاختلاف والتشتّت بين النّاس إلّا الاختلاف بين الآلهة. وعلىٰ أولئك أن يتّخذوا إلٰهاً يقضي علىٰ عدوّهم، والعدوّ يتّخذ إلٰهاً يقضي عليهم. وعندما ذهب عمرو بن لحيّ إلىٰ الشّام، ورأى النّاس يعبدون الأصنام، قال: ما هذه الّتي تعبدونها؟ قالوا: آلهة نستعين بها علىٰ عدوّنا[٢]. وعلىٰ أساس هذه النّظرة الّتي كانت عليها القبائل، فقد كان العزّىٰ صنم قريش وبني كنانة[٣]، ومناة صنم الأوس والخزرج وأهل يثرب[٤]، واللات صنم ثقيف والطّائف[٥]، وعشرات الأصنام الأخرىٰ لقبائل غيرها[٦]. وعندما فتح رسول الله ﷺ مكّة كان فيها (٣٦٠) صنماً[٧].

---

(١) *الميزان* ١٠: ٢٨٥. وفي هذه الصّفحة بالذّات رواية عن الإمام الصّادق عليه السلام في هذا الموضوع وهي منقولة عن كتاب *علل الشّرائع*.

(٢) *المنمّق*: ٣٥٣.

(٣) *السّيرة النّبويّة* ١: ٧٨؛ *الأصنام*: ١٨.

(٤) *السّيرة النّبويّة* ١: ٧٩؛ *الأصنام*: ١٣.

(٥) *السّيرة النّبويّة* ١: ٧٩ ـ ١٤٢.

(٦) انظر: *المحبّر*: ٣١٥ و٣١٦؛ *المنمّق*: ٤٠٦ و٤٠٧؛ *بهج الصباغة*: ١٧١ ـ ١٧٤.

(٧) *بهج الصّباغة* ٢: ١٧٤.

واتّسعت شقّة التّفرقة والتّشتّت إلىٰ درجة أنّ في كلّ بيت من بيوت مكّة صنماً[١]. وكانوا قد جعلوا عند الكعبة طواغيت يعظّمونها كما يعظّمون الكعبة[٢]. وكان لكلّ قبيلة صنم خاصّ بها[٣]. وذكر اليعقوبيّ أنّ العرب عندما كانوا يأتون إلى الحجّ فكلّ قبيلة منهم تقف أمام صنمها الخاصّ بها وتصلّي وتلبّي[٤]. وكانوا ينشغلون بعبادة الحجر، فإذا وجدوا أفضل منه ينتقلون إلىٰ عبادته. وقال كثير من المحدّثين أنّ قوله تعالىٰ: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ**﴾[٥] نزل في الحارث بن قيس[٦]. فقد كان يترك عبادة حجر وينتقل منه إلىٰ عبادة حجر آخر.

وعندما لاحظ العرب عظمة الكعبة ودورها في زيادة نفوذ قريش وقدرتها بنوا في مناطقهم كعبةً لئلّا يُحرموا من هذا الفخر. فقد قام بنو عبد المَدَان بتشييد كعبة لهم في نجران قبل قدوم النّصارىٰ إليها[٧]. وأُنشأت كعبة في غطفان أمام بيت الله كما بُنيت لها صفا ومروة[٨]. وشيّد أبرهة كعبة في اليمن مقابل كعبة مكّة[٩]. ويبدو أنّها كانت كنيسةً. وبُنيت في الشّام أيضاً كعبة الشّاميّة[١٠]. وكانت كعبة واقعة في منطقة بين الكوفة والبصرة[١١]. وكان أصحاب هذه الكعبات يريدون تزهيد العرب عن حجّ الكعبة

---

(١) **الأصنام**: ٣٢؛ **المغازي** ٢: ٨٧١؛ **بهج الصباغة** ١: ٧١؛ **تاريخ مكّة**، احمد السّباعيّ: ١٩.

(٢) **البداية والنّهاية** ٢: ١٩٢.

(٣) **المختصر في أخبار البشر** ١: ٩٨.

(٤) **تاريخ اليعقوبيّ** ١: ٢٥٥.

(٥) الجاثية: ٢٣.

(٦) **الاشتقاق**: ٧٦؛ **المحبّر**: ١٥٩؛ **مجمع البيان** ٩: ٧٨؛ **المنمّق**: ٤٨٥؛ **أنساب الأشراف** ١: ١٣٢.

(٧) **المحاسن والمساوي** ١: ١١؛ **الأصنام**: ٤٤؛ **معجم البلدان** ٥: ٢٦٨؛ **فجر الإسلام**: ٢٦.

(٨) **تاج العروس** ٤: ١٠٩؛ **مرصد الاطلاع**: ٩٣٧ نقلاً عن **المفصّل** ٦: ٤٤٤.

(٩) **الأصنام**: ٤٨؛ **البداية والنّهاية** ٢: ١٩٢؛ **بلوغ الأرب** ١: ٣٤٦.

(١٠) **البداية والنّهاية** ٢: ١٩٢؛ **بلوغ الأرب** ١: ٣٤٦.

(١١) **الأصنام**: ٤٥.

وترغيبها في قصد كعابهم. ومن هؤلاء أبرهة الّذي ثبت عنه هذا التّوجّه[١]. يقول الآلوسيّ: كان عرب الجاهليّة متفرّقة متشتّتة... ولذا كانت أعياد كلّ قبيلة منها تتباين وأعياد القبائل الأُخرىٰ[٢].

و: يذهب القرآن الكريم إلىٰ أنّ صنميّة النّاس نابعة من جهلهم. وما هو إلّا الجهل حقّاً إذ سرّب العقائد المشركة إلىٰ أنفسهم وحال دون اعتقادهم بالتّوحيد. قال تعالىٰ: ﴿**وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ**﴾[٣]. وقال سبحانه: ﴿**وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ**﴾[٤].

ولا جرم أنّ الجهل كان أُسّ الانحرافات جميعها في تاريخ البشريّة. واتّباع الهوىٰ حتّى مع وجود العلم ضرب آخر من الجهل. وكان بين العرب من عارض عمرو بن لحيّ الّذي انفرد بنشر الوثنيّة بل غيّر كثيراً من الأحكام الإبراهيميّة الأُخرىٰ[٥]. فقد أنشد أحد الشّعراء قائلاً:

يا عمرو إنّك قد أحدثتَ آلهةً ... شتّىٰ بمكّة حولَ البيت أنصابا

وكان للبيت ربٌّ واحدٌ أبداً ... فقد جعلت له في النّاسِ أربابا[٦]

وكان التّقليد الأعمىٰ من البواعث علىٰ انتشار الوثنيّة أيضاً. وأدّىٰ كلٌّ من العوامل المذكورة دوراً في انحراف النّاس عن التّوحيد وترويج الوثنيّة.

دين إبراهيم عليه‌السلام

لا شكّ في أنّ عرب مكّة ومَن رأىٰ نفسه أنّه من نسل عدنان كانوا ينتسبون إلىٰ

---

(١) *تاريخ ابن خلدون* ٢، القسم الأوّل، ص٦١؛ *لسان الميزان* ٣: ٣٦١.

(٢) *بلوغ الأرب* ١: ٣٤٧.

(٣) الأنعام: ١٠٠.

(٤) الحجّ: ٧١.

(٥) *بلوغ الأرب* ٢: ٢٤٤.

(٦) *مروج الذّهب* ٢: ٢٩.

إسماعيل عليه السلام وقد أكّدوا هذا الموضوع في شعرهم وغيره عدد سنين متباهين بذلك[١]. وأشار القرآن الكريم أيضاً إلىٰ هذه النّقطة[٢]. من هنا كان العرب في بادئ أمرهم موحّدين ـ وألمعنا الىٰ ذلك سابقاً ـ ثمّ شابوا نزعتهم التّوحيديّة بالشّرك لبعض الأسباب والدليل علىٰ هذا الأمر وجود أُثَرٍ من دين إبراهيم عليه السلام بين النّاس. وبعضها سنن بقيت ماثلة. ونقل الطبرسيّ عن الإمام الصّادق عليه السلام أنّ دين العرب قبل الإسلام كان أفضل من دين المجوس بسبب وجود بعض السّنن الإبراهيميّة كالختان، والتكفين والدّفن، وعدم نكاح المحارم، وحجّ البيت وسنن أُخرىٰ غيرها[٣].

وظلّت جذور كثير من هذه السّنن راسخة كما يبدو بيد أنّ أشكالها مُنيت بتحريفات شتّىٰ. ومن ذلك تغيير الأشهر الحرم ـ الّذي أشار إليه القرآن الكريم أيضاً[٤] ـ إذ عراه التّحريف ولم تبق الأشهر المذكورة علىٰ حالها نزولاً عند رغبات العرب من أجل شنّ الحروب في الوقت الّذي يريدونه.

ومنه شعار التّلبية فقد مسخوا صورته التّوحيديّة الّتي كان عليها وعكّروه بالشّرك. وكانت كلّ قبيلة تُلبّي في أيّام الحجّ بشعار تتّخذه لنفسها. ومن أشهر أشكاله المحرَّفة: لبّيك اللهمّ لبّيك لا شريك إلّا شريك هو لك، تملكه ومَا مَلَكَ[٥]! وباتّساع رقعة الانحرافات بين النّاس أتىٰ النّسيان علىٰ دين إبراهيم شيئاً فشيئاً، بيد أنّ منهم مَن التفت إلىٰ هذه المسألة، وأدرك ما كان عليه سابقاً فعزم علىٰ إحياء دين

---

(١) ***الهدىٰ إلىٰ دين المصطفىٰ*** ٢: ١٠٣. (٢) الحجّ: ٧٨.

(٣) ***وسائل الشّيعة*** ١: ٤٦٥، الباب الأوّل، الحديث رقم (١٤) علماً أنّ الحرّ العامليّ نقل ذلك عن كتاب ***الاحتجاج*** للطّبرسيّ ٢: ٣٤٦. (٤) التّوبة: ٣٦.

(٥) ***تاريخ اليعقوبيّ*** ١: ٢٥٥؛ ***المحبّر***: ٣١١، ٣١٢؛ ***بهج الصّباغة*** ٢: ١٤٨ و ٢٧٠؛ ***فقه السّيرة***: ٣٨، ٣٩. حول الحجّ وأدائه انظر: **مجلّة ميقات**، السّنة الأُولىٰ، العدد ٤، ص١٠٢ ـ ١١٤؛ سيره رسول الله، زرياب، ص٦٣ ـ ٦٥.

إبراهيم. ولابدّ أن تكون لنهضة العودة إلىٰ دين إبراهيم عليه السلام سابقة طويلة بين العرب، بحيث يستبين لعدد من المتأخّرين أنّ الاعتقاد بالتّوحيد أو ببعض الفروع الأُخرىٰ قد ظلّ قائماً منذ عصر إبراهيم عليه السلام. وإنّها لسنّة جارية في الحقيقة أن يدعو جماعة إلى الرّجوع إلى الأصل بعد طروء التّحريف التّدريجيّ على الدّين. وأحصى المؤرّخون الأشخاص الّذين أحيوا الاعتقاد بالتّوحيد، ودعوا إلىٰ إحياء العقائد الإبراهيميّة بحكم فطرتهم التّوحيديّة. ومن هؤلاء: أبوذرّ الغفاريّ، وسلمان الفارسيّ[١]، وعثمان ابن حويرث، وورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نفيل[٢]، وعبيد الله بن جحش[٣]، وأُميّة بن أبي الصّلت. ومنهم من كان يتحدّث إلى الآخرين عن الخطأ الموجود وينبّههم علىٰ أن لا نفع ولا ضرر في الخشب والحجارة. من هنا تفرّق هؤلاء للعثور على الدّين الحنيف. فتنصّر ورقة بن نوفل[٤]، وتوقّف زيد بن عمرو ودعا النّاس إلىٰ دين إبراهيم عليه السلام[٥]، وذكر أُميّة بن أبي الصّلت إبراهيم وإسماعيل في شعره، وحرّم علىٰ نفسه الشّراب، وشكّ في عبادة الأوثان[٦]. وقال في شعر له:

رَبُّ الحَنيفيّةِ لَمْ تَنفَذْ خَزائِنُها مَمْلُوءَةً طَبَّقَ الآفاقَ سُلْطَانا[٧]

وقال النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فيه:

---

(١) *أسباب النّزول*: ٢٤٧.

(٢) *البداية والنّهاية* ٢: ٢٣٧ ـ ٢٤٣؛ *الأغاني* ٣: ١٢٣؛ *السّيرة النّبويّة* ١: ٢٠٤؛ *الإصابة* ١: ٥٦٩ ـ ٥٧٠؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ٣: ٣٧٩ ـ ٣٨١.

(٣) *الأغاني* ٣: ١١٩، ١٢٠؛ *تاريخ ابن خلدون* ٢، القسم الأوّل: ٣٢٦؛ *بلوغ الأرب* ٢: ٢٤٧.

(٤) *تاريخ اليعقوبيّ* ١: ٢٥٧. ينبغي التّأمّل كثيراً في ما نُسب إلىٰ ورقة.

(٥) *المنمّق*: ١٧٥ فما بعدها؛ *تاريخ ابن خلدون* ٢، القسم الثّاني: ٤؛ *المحبّر*: ١٧١، ١٧٢. من الحريّ بالذّكر أنّ بعض هؤلاء بحكم ميلهم إلىٰ إبراهيم ركنوا إلى التّوحيد، ثمّ اعتنقوا المسيحيّة. وبعضهم ـ لا اتّباعاً لإبراهيم ـ نزعوا إلى التّوحيد بحكم دليلهم الفطريّ. ونحتمل أن أبا ذرّ كان منهم.

(٦) *الأغاني* ٤: ١٢٢؛ *بلوغ الأرب* ٢: ٢٥٣. (٧) نفسه ٤: ١٢٩؛ نفسه.

«شعره مؤمن وقلبه كافر»[١].

وهو الّذي رثىٰ قتلى المشركين في غزوة بدر[٢]. ونقل أبو نعيم أنّ أبا ذرّ قال في الجاهليّة: لا إله إلّا الله ولم يعبد صنماً[٣]. وكان النّابغة الجعديّ من هؤلاء. وقيل فيه إنّه ارعوىٰ عن الخمر، وقال في شعره:

الحَمْدُ لِلّٰهِ لَا شَرِيكَ لَهُ ... مَنْ لَمْ يَقُلْهَا فَنَفْسَهُ ظَلَمَا

وأسلم بعد قدومه المدينة وكان مع أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام في حرب صفّين[٤]. علماً أنّ هذا لا يعني أنّ هؤلاء كانوا يعتقدون بالتّوحيد بجميع مواصفاته. فقد كان أميّة بن أبي الصّلت مثلاً يصوّر الله تعالىٰ جسماً[٥]. وأشار اليعقوبيّ إلىٰ أنّ أديان العرب كانت تتباين فيما بينها بسبب مجاورتها الشّعوب المختلفة، وذكر أنّ أولاد معد بن عدنان كانوا علىٰ دين إبراهيم عليه السلام، وكانوا يحجّون ويعظّمون الأشهر الحرم[٦]. لكن كما أشرنا إلىٰ أنّ دين إبراهيم عليه السلام كان قائماً بين النّاس بشكل محرّف.

حول الحنيفيّة

يُصطلح على الأشخاص الّذين كان بعضهم من أُولي الفكر التوحيديّ، وكانوا قد رغبوا عن الشرك وعبادة الأوثان، ووجّهوا وجوههم لإبراهيم عليه السلام: الحنفاء. وأشار أحد الباحثين إلى التّعريف المذكور في قسم من كتابه الذي سمّاه «التيّارات التّوحيديّة»[٧]. وذكر آخرون مطالب في هذا المجال أيضاً[٨]. ونُقل عن أبي عبيدة أنّه

---

(١) *الأغاني* ٤: ١٣٠؛ *بلوغ الأرب* ٢: ٢٥٤. (٢) *بلوغ الأرب* ٢: ٢٥٥، ٢٥٦.

(٣) *حلية الأولياء* ١: ١٥٧؛ *الصّحيح من سيرة النّبيّ* ﷺ ١: ٢٦٣.

(٤) *الأغاني* ٥: ٩. (٥) *بهج الصّباغة* ٢: ١٤٨.

(٦) *تاريخ اليعقوبيّ* ١: ٢٥٤. (٧) *تاريخ الأدب العربيّ*، بلاشر ١: ١٣٤.

(٨) *العصر الجاهليّ*: ٩٦.

قال: من كان علىٰ دين إبراهيم فهو حنيف[١] . وأشار ابن منظور في *لسان العرب* إلىٰ أنّه كان يقال لمن اختتن وحجّ البيت في الجاهليّة حنيف، لأنّ العرب لم تـتمسّك في الجاهليّة بشيء من دين إبراهيم غير الختان وحجّ البيت! ولمّح آخرون إلىٰ معنىً يمكن ترجيحه علىٰ المعاني المذكورة لهذه الكلمة. وهو أنّ الحنيف يراد به الشّخص الّـذي ترك اليهوديّة والنّصرانيّة ومال إلىٰ دين قريب للفطرة. وأنشد أحد الشّعراء قائلاً:

فَـلَوْلَا رَبُّـنَا كُـنَّا يهـوداً ... وَمَا دينُ اليَهُودِ بِذِي شَكُولِ
وَلَـوْلَا رَبُّنَا كُنَّا نَـصَارىٰ ... مَعَ الرُّهْبَانِ في جَبَلِ الجَلِيل
وَلكِـنَّا خُـلِقْنَا إِذْ خُـلِقْنَا ... حَنيفاً دِينُنا عَنْ كُلِّ جيلِ[٢]

وهذه الأبيات تحمل مضمون الآية (٦٧) من سورة آل عمران. ولعلّ هذه القضيّة هي التي دعت إلىٰ إنشادها بعد نزول القرآن. وذكر المرحوم الطّـبرسيّ عـدداً مـن المعاني لكلمة «الحنيف» في *مجمع البيان*. ونُقل عن ابن عبّاس، والحسن البـصريّ، ومجاهد أنّ الحنفيّة حجّ بيت الله الحرام. وعن مجاهد أنّها اتّباع الحقّ. وعن آخرين أنّها اتّباع إبراهيم فيما أتىٰ به من الشّريعة... من الحجّ والختان وغير ذلك من شرائع الإسلام. والمعنىٰ الآخر لها هو الإخلاص لله وحده في الإقرار بـالربوبيّة والإذعـان للعبوديّة. ويضيف المرحوم الطّبرسيّ أنّ كلّ هذه الأقوال ترجع إلىٰ ما ذكره من معنى الاستقامة والميل إلىٰ ما أتىٰ به إبراهيم من الملّة[٣]. ومحصّلة ما أوردناه أنّ الحنيف هو من ناهض الشّرك ومال إلى الحقّ وإلى التّوحيد الإبراهيميّ. ويشير القرآن الكـريم إلىٰ أنّ اليهوديّة والنّصرانيّة هما ضربان من الشّرك في الحقيقة، وأنّ التمسّك بإبراهيم هو الدّين الحنيف وهو الجَنَف عن اليهوديّة والنّصرانيّة[٤].

---

(١) *لسان العرب* ٩: ٥٧، ذيل كلمة «حنيف». (٢) *دائرة المعارف الاسلاميّة* ٨: ١٢٩.

(٣) *مجمع البيان* ١: ٢١٦.

(٤) انظر: البقرة: ١٣٥؛ آل عمران: ٦٧؛ الأنعام: ١٦٧؛ يونس: ١٠٥؛ النّحل: ١٢٠، ١٢٣؛ الحجّ: ٣١؛ الرّوم: ٣٠، ٣١.

ومن الحريّ أن نذكّر هنا أنّ ما يضاف إلى الموحّدين الّذين سبق ذكرهم هو أنّ الشّيعة تعتقد أنّ أجداد النّبيّ ﷺ كانوا جميعهم موحّدين. وورد هذا كثيراً في الرّوايات المأثورة عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام. ومزيدٌ علىٰ هذا الأمرِ أنّ المؤرّخين نقلوا حول بعضهم معلومات تدلّ على توحيدهم. فقد جاء في عبد المطّلب أنّه ترك عبادة الأصنام (وفي عقيدتنا أنّه لم يعبد صنماً قطّ) وصار موحّداً، وقام بأعمالٍ ارتضاها القرآن الكريم وأمر بها في ما بعد، منها: الوفاء بالنذر، وحظر الزواج من المحارم، وقطع يد السّارق، والنّهي عن الوأد، وتحريم الخمر والزّنا، والنّهي عن تعرّي النساء في الطّواف[١]. ونُسب إليه التّحنّث وهو الذّهاب إلىٰ غار حراء.

يقول ابن هشام: التحنّث هو التحنّف. لذلك تعرف هذه السُّنّة بالسُّنّة الحنيفيّة[٢]. وجاء في بعض الأخبار التاريخيّة أنّ كتاباً لعبد مناف بن قُصيّ وُجد علىٰ حجر، وفيه: أنا المغيرة بن قُصيّ أوصي قريشاً بتقوى الله وصلة الرحم[٣]. ونُقل أيضاً أنّ عبد المطّلب كان يعتقد بالقيامة[٤]. وأشار الإمام عليّ عليه السلام إلىٰ هذا الموضوع[٥]. وورد في كعب بن لُؤيّ بن غالب أحد أجداد النّبيّ ﷺ أنّه كان على الحنيفيّة، وكان يجمع قريشاً في أيّام الجمعة ويرشدها، ويدعوها إلى التفكّر في خلق السّماوات والأرض، وينقل أعمال الماضين من أجل العِبرة، ويُذكّر بصلة الرّحم، وحفظ العهد، ومراعاة حقوق الأرحام، والتّصدّق على الفقراء والأيتام[٦].

ومهما كان فالحنيفيّة لم تقتصر علىٰ أشخاص معدودين، بل كانت مهوىٰ أفئدة

---

(١) *السّيرة الحلبيّة* ١: ٤٠.
(٢) *السّيرة النّبويّة* ١: ٢٣.
(٣) *السّيرة الحلبيّة* ١: ٨٠.
(٤) نفسه: ٢١.
(٥) *نهج السّعادة* ٣: ٧٦.
(٦) *الطّبقات الكبرىٰ*، ج ١، القسم الأوّل، ص ٣٩ (طبعة ليدن).

أُناس غيرهم علىٰ مرّ التّاريخ[١]. فقد عُدّ عمير بن جندب الجهنيّ[٢]، وأبو قيس صرمة بن أبي أنس[٣] من أتباعها. وما أصابَ من ذهب إلى انعدام العلاقة بين الحنفاء وتبليغ إبراهيم القديم في أرض العرب... واعتَقَدَ أنّ دين الحنفاء ظاهرة جديدة فيها[٤]. فضافاً إلىٰ تصريح القرآن الكريم بقوله ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾، نلحظ أنّ الرّوايات التّاريخيّة تدعم الرأي القائل بوجود الكلام الكثير حول ابراهيم عليه السلام وشريعته في أرض الجزيرة العربيّة قبل مبعث النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

الشّرك وأبعاده في شبه الجزيرة العربيّة

كان الشّرك من منظار عَقَديّ أشهر وأعمّ فكرة سائدة في شبه الجزيرة العربيّة. فقد كانت القبائل المختلفة جميعها مشركة. وأطلق القرآن الكريم اصطلاح «المشركين» علىٰ عبدة الأصنام من العرب. وعلىٰ الرغم من أنّ لهذه الكلمة معنى أوسع من وجهة لغويّة، بيد أنّها استعملت كاسمٍ للمشركين الصّنميّين. والفارق الوحيد الّذي كان بين الجماعات المشركة هو الفارق القابل للتصوّر بين ضروب الشّرك المتنوّعة. وفي الوقت نفسه كان بين سكّان الجزيرة من لا يعتقد بالله أساساً، لا من منطلق الشّرك ولا غيره[٥]. ولعلّ الآية الكريمة الآتية تشير إلىٰ هذه الشّريحة. قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾[٦]. ويُستشفّ من هذه الآية أنّ هؤلاء لم يعتقدوا بالمبدأ والمعاد[٧] وكانوا يرون أنّ الحياة منحصرة بهذه الدّنيا وأنّ الدهر هو الّذي يهلكهم. وذكر العلّامة الطّباطبائيّ أنّ هذه الآية ـ على قولٍ ـ هي

(١) *بلوغ الأرب* ٢: ١٩٦.
(٢) نفسه ٢: ٢٦١.
(٣) نفسه ٢: ٢٦٦.
(٤) *اسلام در ايران* [الإسلام في إيران]: ٢٢.
(٥) *المختصر في أخبار البشر* ١: ٩٨؛ *تاريخ ابن الورديّ* ١: ١١٥.
(٦) الجاثية: ٢٤.
(٧) *بلوغ الأرب* ٢: ٢٢٠؛ *مجمع البيان* ٩: ٧٨.

لسان حال المنكرين لله[١]. وذهب المسعوديّ إلىٰ أنّها تتحدّث عن قوم كانوا يعتقدون بالخالق لكنّهم ينكرون المعاد[٢]. وهذا الرأي لا ينسجم مع ظاهرها. وأورد بعض المفسّرين كالرازيّ، والطّبرسيّ، والطّبريّ، والنيسابوريّ إلىٰ أنّها تشير إلىٰ منكري المبدأ والمعاد[٣]. ويمكن أن نتعرّف من بعض الآيات القرآنيّة أيضاً أنّ أشخاصاً كانوا لا يؤمنون بالخالق أساساً، ويردّ عليهم القرآن الكريم قائلاً: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ﴾[٤]. وهذه الآية في صدد إثبات وجود الله تعالىٰ أيضاً[٥].

وكان فريق آخر من المشركين يعتقد بالله خالقاً بيد أنّه كان يجعل له شركاء بوصفهم خالقين. فهو في الحقيقة كان يجعل له شركاء بوصفهم خالقين. فهو في الحقيقة كان يعتقد بالشّرك في الخالقيّة. قال تعالىٰ: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِم﴾[٦]. وقال سبحانه: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ * أَفَرَأَيْتُم ما تُمْنُونَ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَالِقُونَ﴾[٧]. وربّما نستطيع أن نعتبر الآية الثّانية خطاباً لمنكري الله وخالقيّته. لكنّنا نستنتج من الآيتين في الأقلّ أنّ الشّرك في الخالقيّة كان موجوداً. ويتسنّىٰ لنا أيضاً أن نهتدي إلى الموضوع نفسه من آيات أُخرىٰ تحاول إثبات أصل وجود الله. والآيات المذكورة تنفي الشّرك في الخالقيّة. قال تعالىٰ: ﴿مَا

---

(١) *الميزان* ١٠: ٢٩٧.

(٢) *مروج الذّهب* ٢: ١٣٠. بعامّة كان هناك بعض الأشخاص إمّا اعتقدوا بالتّوحيد كالحنفاء أو أنّهم أبدوا ميولهم التوحيديّة في مناطق خاصّة بتأثير اليهود والنّصارىٰ. وذكر جواد علي هذا الرأي في مشركي اليمن. انظر: *المفصّل* ٢: ٢٤٣ ـ ٥٨٢.

(٣) انظر: *كشف الارتياب*: ٢٠٥.

(٤) الطور: ٣٥، ٣٦.

(٥) *تفسير الرازيّ* ٢٨: ٢٥٩.

(٦) الرعد: ١٦.

(٧) الواقعة: ٥٧ ـ ٥٩.

ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾[١]. وتدلّ هذه الآية علىٰ أنّ المشركين كانوا يعتقدون بخالِقَين أو أكثر. وليس هذا إلّا شرك في الخالقيّة وهو غير الشّرك الربوبيّ.

وكانت فئة ثالثة من المشركين تعتقد بالله الخالق الواحد، بيد أنّها كانت تؤمن بمدبِّرين آخرين مع الله في تدبير نظام الوجود. وكانت ترىٰ أنّ لكلّ نظام من نظم تدبير العالم إلٰهاً يستقلّ بتدبيره. وأنّ كلّ صنم من الأصنام خاصّ بتدبير أمور خاصّة من الكَون؛ لذا نزلت آيات كثيرة في تأكيد التّوحيد في الأفعال ودعمه؛ أي: إرجاع كلّ تدبير وفعل إلىٰ الله، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾[٢]. وقال سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[٣]. وهذه الآية علىٰ ما قاله العلّامة الطّباطبائيّ في الشّرك الربوبيّ أيضاً. ويرى العلّامة أنّ أهل الجزيرة العربيّة هم وحدهم مشركون. وأنّ الشّرك هو الشّرك الربوبيّ فحسب، كما أنّ نزاع الموحّدين لم يكن حول واجب الوجود بل حول الربّ المعبود. وكان عبدة الأوثان يعتقدون أنّ تدبير العالم قد فُوّض إلىٰ موجودات شريفة لها عند الله زُلفىٰ وهي أهلٌ للعبادة كي تكون شفيعة لهم[٤].

وفي ضوء ما تقدّم من موضوعات لا يمكن أن نتّفق معه في كلامه كقاعدة عامّة. ويضاف إليه أنّ هذا التفسير للآية احتمال واحد لا غيره، وطُرحت وجوه أُخرىٰ في تفسيرها أيضاً[٥]. وذهب البعض إلىٰ أنّ الشّرك الربوبيّ وحده كان قائماً في شبه الجزيرة العربيّة مستدلاً بآيات قرآنيّة منها قوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ

---

(١) المؤمنون: ٩١.

(٢) الأعراف: ٥٤.

(٣) الأنبياء: ٢٢.

(٤) *الميزان* ١٤: ٢٩١.

(٥) انظر: الجزء الخامس من كتاب *مبادئ الفلسفة* ...، تعليقات الأستاذ مطهريّ.

ﭐلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[١]. ولا يصحّ هذا الاستدلال للسّببين الآتيين: أوّلاً: يمكن أن نوجّه هذه الآية بآية الفطرة[٢] أو آية الذّرّ[٣]، لا أنّ المشركين عبّروا عن ذلك بألسنتهم، وإنْ تسنّىٰ لنا أن نستنبط أيضاً أنّ عدداً من النّاس كانوا يعتقدون بالله[٤]. وهو ما نقبله لا بوصفه عقيدة عامّة، بل بوصفه عقيدة محدودة. ثانياً: لدينا آيات من هذا القبيل تبدو في النّظرة الأُولىٰ أنّها تنفي وجود الشّرك الربوبيّ أيضاً. قال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِنَ ٱلسَّماءِ وَٱلْأَرْضِ... وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ... وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللهُ ﴾[٥]. ونلحظ هذا النّمط من الآيات في مواطن أُخرىٰ من القرآنالكريم[٦]. وهكذا ينبغي أن نتبيّنَ من هذه الآيات أنّ الشّرك الربوبيّ لم يكن موجوداً في شبه الجزيرة العربيّة يومئذٍ، كما استبان ذلك بعضُهم[٧]. وقال آخرون إنّ الشّرك الربوبيّ في الوجود كان شركاً عباديّاً فحسب[٨]. في حين ذهب العلّامة الطّباطبائيّ إلىٰ أنّ الشّرك الرّبوبيّ كان موجوداً. والحقيقة أنّ التّحليل العقليّ الدقيق يدلّنا علىٰ أنّ أولئك القوم كانوا يرون الأصنام رمزاً لله، بيد أنّ ما كان موجوداً عندالمشركين هو الاعتقاد بالأصنام وتأثيرها في التغييرات الطّبيعيّة الجارية.

وكانت هناك طائفة أُخرىٰ تشرك في عبادة الله، وتعبد الأصنام لتقرّبها إلى الله زُلفىٰ، لا بوصفها خالقة أو مدبّرة. فهي إذن تعتقد بالخالق[٩]. وقال الإمام عليّ عليه السلام يصفها:

---

(١) الزخرف: ٩؛ والآية الكريمة ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللهُ... ﴾ الزخرف: ٨٧.

(٢) الروم: ٣٠. (٣) الأعراف: ١٧٢.

(٤) **مجمع البيان** ٨: ٤٩٨؛ ***الميزان*** ١٤: ٢٩٠. (٥) يونس: ٣١.

(٦) الزمر: ٣٨؛ لقمان: ٢٦؛ العنكبوت: ٦١ ـ ٦٣؛ المؤمنون: ٨٤، ٨٩.

(٧) **بلوغ الأرب** ١: ١٩٧. (٨) **زاد المعاد** ٣: ٢٢٤ (الطبعة الأولىٰ).

(٩) **مروج الذّهب** ٢: ١٠٢، ١٠٩.

«... الذين نسوا عبادتك وجهلوا معرفتك، واتّخذوا [لك] أنداداً، وجحدوا ربوبيّتك وأنكروا وحدانيّتك، وجعلوا لك شركاء وأولاداً، وصبوا إلىٰ عبادة الأوثان...»[١].

شركاء لله

إنّ من الشّركاء الّذين جعلهم المشركون لله الجنّ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ٱلْجِنَّ﴾[٢]. ومن الّذين كانوا في عداد الشركاء أيضاً الأحبار والرّهبان ومن كان في مصافّ الرؤساء أحياناً. قال تعالىٰ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ ٱللَّهُ﴾[٣]. وممّا عُدَّ في الشّركاء الأصنام المصنوعة من الذّهب والحجر. قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ ٱللَّاتَ وَٱلْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾[٤].

وذكر ابن حزم أصنام كلّ قبيلة[٥]. وكان للاعتقاد بالأصنام أثره الخاصّ في حياتهم الفرديّة والاجتماعيّة حتّى إنّ أسماء معظم النّاس كانت ترتبط بالأصنام بنحوٍ ما، فاسم مثل زيد كان مأخوذاً من صنم في الجاهليّة[٦]. وكان بعض القبائل يعبد صنماً، ثمّ يتركه إلىٰ صنم آخر، كما نُقل عن الهَمْدانيّين أنّهم كانوا يعبدون في البداية صنماً يُدعىٰ «تالب»، ثمّ تحوّلوا عنه إلىٰ «يعوق»[٧]. ومن القبائل من كان يشرك الملائكة بالله[٨]. وطائفة أُخرىٰ كانت تعبد الشّمس، وأُخرىٰ تعبد النّجوم، وثالثة

---

(١) *نهج السّعادة* ٣: ٧٧.

(٢) الأنعام: ١٠٠؛ سبأ: ٤١ ﴿... بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُؤْمِنُونَ﴾.

(٣) الشّورىٰ: ٢١.

(٤) النّجم: ١٩، ٢٠.

(٥) *جمهرة أنساب العرب*: ٤٩١ ـ ٤٩٣. وألّف هشام الكلبيّ أيضاً كتاباً بعنوان *الأصنام*، تحدّث فيه عن أصنام العرب.

(٦) *الاشتقاق*: ١٣.

(٧) *المفصّل* ٢: ٣٥٤.

(٨) سبأ: ٤٠. ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾.

تعبد النّار(١)، وبغضّ النظر عن الأصنام وسائر الشّركاء الّذين جُعلوا لله، فإنّ الكعبة كانت تحظىٰ باحترام خاصّ عندهم. وكان ربّ الكعبة من الآلهة الّتي نالت اهتمامهم. وبلغ احترام العرب الكعبةَ درجةً أنّهم كانوا يشيدون بيوتهم مدوّرةً علىٰ عكس الكعبة المكعّبة الشّكل. وقيل إنّ أوّل من عمل خلاف هذه القاعدة هو حميد بن زهير(٢).

وعُرف عدد من النّاس في التّاريخ الجاهليّ بالزّندقة منهم أبو سفيان، وأميّة بن خلف وأمثالهما. وأُضيف إلىٰ هذا الخبر أنّ العرب أخذت الزّندقة من الحيرة(٣). ويُطلق الزّنديق علىٰ من يقول ببقاء الدهر، أو بالنّور والظّلمة أو ينكر المعاد. وهذا لا ينسجم مع الرأي القائل أنّهم أخذوا الزّندقة من نصارى الحيرة. ونحتمل في الأغلب أنّ القصد من الزنديق هو ما قاله عَبَدَةُ النّار والثّنويّة (المعتقدون بالله والشّيطان). وهو ما كان شائعاً في الحيرة تأثّراً بالفرس يومئذٍ. وذهب الآلوسيّ إلىٰ هذا الاحتمال أيضاً وذكر أنّ هذا هو اعتقاد المجوس بالثّنويّة والنّور والظّلمة(٤). والدليل الآخر علىٰ هذا الموضوع هو أنّ كلمة «الزّنديق» معرّبة من الكلمة الفارسيّة (زَنْدِهاي) أي المعتقد بالزَنْد (كتاب المجوس)(٥). ووجود المجوس المشهورين بهذا الاسم بين ظهراني العرب يدعم وجود هذه الفكرة بين العرب. وكان الأقرع بن حابس التّميميّ من هؤلاء الأشخاص(٦). وأورد ابن قتيبة أنّ دين المجوس كان سائداً في قبيلة تميم ومن رموزه لقيط، وزرارة بن عدس، ونجله حاطب، والأقرع بن حابس، وأبو الأسود جدّ وكيع

(١) *بلوغ الأرب* ٢: ٢٣٣، ٢٣٧، ٢٣٩. (٢) *المفصّل* ٤: ٥١.

(٣) *المنمّق*: ٤٨؛ *المحبّر*: ١٦٦؛ *بلوغ الأرب* ٢: ٢٢٨ (عن: *المعارف*)، *بهج الصّباغة* ٢: ١٦٧.

(٤) *بلوغ الأرب* ٢: ٢٢٩.

(٥) *أقرب الموارد* ١: ٤٧٧. حول معنى الزنديق انظر: *بيست گفتار* [عشرون مقالة] للدكتور مهدي محقّق: ١٩١ ـ ١٩٢. (٦) *بلوغ الأرب* ١: ٣١٦.

ابن حسّان[١]. ويستشفّ من مصادر أُخرىٰ أنّ للمشركين لقاءات مع مجوس فارس، كما كانت بينهما مراسلات أيضاً[٢]. وقيل: إنّ إشراك الجنّ مع الله كان نابعاً من الزّندقة وتعاليم الثّنويّة[٣]. ولعلّنا نستطيع أن نحتمل من هذه الشّواهد أنّ المقصود من الزنادقة هم المعتقدون بالثّنويّة، ولا نغفل أنّ من المحتمل شيوع هذا المعنىٰ بعد الإسلام.

المشركون والمعاد

يتبيّن من الآيات القرآنيّة الكريمة أنّ منكري المعاد كانوا كثيرين. وكان عرب الجاهليّة ينكرون المعاد مبدئيّاً. قال تعالى: ﴿**وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا ٱلدَّهْرُ**﴾[٤]. ونُقل أنّ أُميّة بن خلف أو غيره جاء إلى النّبيّ ﷺ بعظم بالٍ، وقال: هل يحيىٰ هذا مرّة أُخرىٰ؟ ونقل لنا القرآن سؤاله. قال سبحانه: ﴿**وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي ٱلْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ...**﴾[٥]. وتُشير آيات أُخرىٰ أيضاً إلىٰ إنكار المشركين المعاد[٦]. وألمع بعض المؤرّخين أيضاً إلىٰ إنكار العرب في الجاهليّة المعادَ[٧]. وأنشد شدّاد بن الأسود قصيدة في رثاء قتلىٰ قريش، قال فيها:

---

(١) *بلوغ الأرب* ٢: ٣٤٥؛ *جمهرة أنساب العرب*: ٤٩١.

(٢) *أسباب النزول*: ١٥٠.

(٣) نفسه: ١٤٨.

(٤) الجاثية: ٢٤.

(٥) يس: ٧٨؛ *أسباب النّزول*: ٢٤٦؛ *أنساب الأشراف* ١: ١٣٧. وقيل أيضاً إنّ الآية المذكورة نزلت في النّضر بن حارث. انظر: *أنساب الأشراف* ١: ١٤٣.

(٦) النّحل: ٣٨؛ الإسراء: ٤٩ و٩٨؛ الصّافّات: ١٦ و٥٣؛ التّغابن: ٧؛ الحجّ: ٥؛ هود: ٧؛ المؤمنون: ٨٢؛ الرّعد: ٥؛ النّمل: ٦٧؛ السّجدة: ١٠؛ الدخان: ٣٤.

(٧) *المختصر في أخبار البشر* ١: ٥٨؛ *مروج الذّهب* ٢: ١٠٣؛ *تاريخ ابن الورديّ* ١: ١١٥.

أَيُخْبِرُنا ابنُ كَبْشَةَ أنْ سَنُحيىٰ　　وكَيْفَ حياةُ أصداءٍ وَهامِ
أَيَقْتُلني إِذَا مَا كُنْتُ حَيّاً　　وَيُحْييني إذَا رَمَّتْ عِظامي[1]

وأشار الإمام أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام إلىٰ أنّ العرب لم تعتقد بالمعاد[2].

وجاء في خبر أنّ أحد المشركين كان يستهزأ بالمعاد[3].

الكعبة، والدّين، والوضع المعيشيّ للنّاس

كان الوضع المعيشيّ للنّاس في شبه الجزيرة العربيّة ليس بالمستوى المطلوب كثيراً. ولاقى الناس مصاعب في حياتهم بسبب فقدان الماء والظّروف المساعدة على الزّراعة في معظم المناطق. غير أنّ الطّائف، والمدينة تمتّعتا بوضع أفضل قياساً بالمناطق الأُخرىٰ. من جهة أخرىٰ، كان انعدام المواصلات مشكلة أُناس يحتاجون إلىٰ وسائط المناطق الأُخرىٰ، وكان متعذّراً عليهم أن يحصلوا على احتياجاتهم متىٰ شاؤا. وكانت مكّة مركزاً دينيّاً يتقاطر عليه سكّان الجزيرة من فجاج بعيدة[4]. وكانوا يستفيدون منها كمركز تجاريّ مضافاً إلىٰ أداء واجباتهم الدّينيّة فيها. كما كانوا يهيّئون وسائلهم اللازمة منها علاوة علىٰ بيع المحاصيل. قال تعالى: **﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِن لَدُنَّا وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾**[5].

يقول ابن عبّاس: كانت أسواق عكاظ، والمجنة، وذي المجاز قائمة في أيّام الحجّ. والسّوقان الأوّليان قريبان من مكّة، والثّالث قريب من عرفات. وكانت العرب

---

(١) *بهج الصّباغة* ٢: ١٤٨. وورد هذان البيتان في مصادر أُخرىٰ أيضاً بتغيير يسير. انظر: *المفصّل* ١: ٢٨٧. وذكر الآلوسيّ بيتاً آخر في نفي المعاد (*بلوغ الأرب* ٢: ١٩٨) وهو قول أحدهم:

حَياةٌ ثمّ مَوتٌ ثمّ نَشْرُ　　حديثُ خُرافةٍ يا أمَّ عمرو

(٢) *نهج السّعادة* ١: ١٤٩؛ ٣: ١٥٤.

(٣) *أنساب الأشراف* ١: ١٣٢.

(٤) الحجّ: ٢٧.

(٥) القصص: ٥٧.

تتاجر في هذه الأسواق. وكانت تمضي ثمانية عشر يوماً من ذي القعدة في السّوق الأوّل، ومثلها في السّوق الثّاني، ثمّ تيمّم السّوق الأخير القريب من عرفات[١]. ونقل عن ابن عبّاس في موضع آخر أنّ العرب بعد الإسلام كانت ترىٰ هذا العمل عاراً حتّى نزل قوله تعالىٰ[٢]: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِن رَبِّكُمْ﴾[٣]. والآية الأُخرىٰ الّتي اعتنت بالمنافع المادّيّة والمعنويّة للحجّ هي قوله تعالىٰ: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِالْحَجِّ... * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾[٤]. وذكر ابن جبير أنّ المراد من المنافع هنا المنافع التّجاريّة في الدّنيا والثّواب في الآخرة. وذهب ابن عبّاس أيضاً إلىٰ أنّ المنافع هنا هي المنافع التّجاريّة[٥]. وأشار اليعقوبيّ إلىٰ تقارن سوق عكاظ وذي المجاز، وموسم الحجّ[٦].

وكانت الأسواق تقام في الأشهر الحرم بسبب الأمن الاقتصاديّ الّذي كان موجوداً، وكذلك بسبب إمساك القبائل عن القتال في الأشهر المذكورة.

من جهة أُخرىٰ كان الأمن الّذي يسود الوسط الدّينيّ بمكّة باعثاً علىٰ سفر قريش إلىٰ أيّ نقطةٍ تريدها، فقد كانت مصونةً من كلّ أذىً يصل إليها من السلّابين بما عرفت به أنّها أهل الحرم الإلهيّ. وأشار القرآن الكريم إلىٰ هذه النّقطة في سورة قريش. فقد ذكرت هذه السّورة الرّحلات التّجاريّة الّتي كانت تقوم بها قريش إلى اليمن شتاءً، وإلى الشّام صيفاً، ودعتهم إلىٰ عبادة ربّ البيت (الكعبة) الّذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف[٧].

وذكر الجاحظ أنّ قريشاً كانت إذا خرجت من مكّة علّقت عليها أشياء خاصّة

---

(١) *المحبّر*: ٢٦٧؛ تفسير *الخازن* في تفسير الآية «وأذّن في النّاس بالحجّ».

(٢) *أسباب النّزول*: ٣٨.

(٣) البقرة: ١٩٨.

(٤) الحجّ: ٢٧، ٢٨.

(٥) *مجمع البيان* ٧: ٨١.

(٦) *تاريخ اليعقوبيّ* ١: ٢٧٠؛ *بلوغ الأرب* ١: ٢٧٦.

(٧) انظر: سورة قريش.

حتّىٰ يعرف الآخرون أنّهم أهل الحرم. فلم يؤذهم أحد[١]. وجاء في القرآن الكريم قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾[٢].

وقال العلّامة الطّباطبائيّ في تفسير «مُبارَكاً»[٣]: المقصود من ذلك البركة الدّنيوية الموجودة في مكّة. وقوله «هدىً للعالمين» يشير إلى البركة المعنويّة أيضاً. وهذه البركة الدّنيويّة هي وفور النّعمة والأرزاق التي تتوفّر هناك بسبب وجود العمران فيها، وحضور النّاس وما يُلاحَظ من احترامهم وإكرامهم. وتعود هذه المسألة إلىٰ دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[٤].

الشريعة الدينيّة عند العرب

تحدّثنا حتّى الآن عن القضايا الاعتقاديّة والفكريّة للعرب في مجال التّوحيد والشّرك، وكذلك المعاد. وقلنا: إنّ القاسم المشترك الأعمّ لجميع الأفكار الموجودة هو الشّرك بالله الّذي شاع بينهم بضروب متنوّعة. ونتحدّث فيما يأتي عن الشّريعة العلميّة ـ الدّينيّة للعرب، والقوانين الّتي كانت تنظّم علاقاتهم في الأبعاد العباديّة ـ الاجتماعيّة المختلفة.

وأشرنا في المباحث المتقدّمة إلىٰ أنّ أعمال العرب وممارساتهم كان تجري تقليداً لكبرائهم بسبب غياب الفكر والاستدلال والمنطق عنهم. ولو لوحظ إبداع في ذلك المجتمع، فإنّه ينطلق من سلوك الأشراف.

---

(١) *رسائل الجاحظ* ١: ١٨٨.

(٢) آل عمران: ٩٦.

(٣) *الميزان* ٣: ٣٥٠، ٣٥١.

(٤) ابراهيم: ٣٧.

وكان كلّ ما يحدث في الأعراف اليوميّة يتّخذ طابع السّنّة شيئاً فشيئاً ومن هنا ظهرت السّنن الجارية. وكانت البيئة تلزم الجميع بإطاعتها، إذ إنّ إهمالها كان يُفضي إلىٰ طرد الخاطئين من القبيلة. ولم يكن الحلال والحرام عندهم إلّا ما تراه القبيلة نهجاً طبيعيّاً في حياتها. ويُلحظ في النّظام القبليّ أنّ رؤساء القبائل كانوا مصدر التّشريع، وأنّ موقفهم هو معيار الصّواب والخطأ عند القبيلة. وذكر جواد علي أنّ العرب في الجاهليّة لم يكن لهم حكم في الأطعمة ومرجع الحلال والحرام من منظارهم هو عرف القبائل[١]. وأورد اليعقوبيّ أنّ العرب كان لهم حكّام يرجعون إليهم في شتّىٰ شؤونهم، ويذهبون عندهم لحلّ دعاواهم وفضّ نزاعاتهم... إذ ليس لهم شريعة وقانون يرجعون إليهما بل كان يتصدّىٰ للقضاء بينهم أولو الشّرف والصّدق والأمانة والزّعامة والتّجربة[٢]، من هنا كان لكلّ قبيلة حاكمها الخاصّ بها[٣]. ولم تكن سيرة الرّؤساء أُسوة وسنّة في الشّؤون العامّة المرتبطة بالقبيلة فحسب بل كانت كذلك في الشّؤون الدّينيّة أيضاً. وقيل إنّ أفعال عمرو بن لحيّ وأقواله كانت كالشّريعة عند العرب، لأنّه كان من الأشراف والسّادات[٤]. وهؤلاء الّذين كانت أعمالهم تُتّخذ كقانون كثيرون. وقيل: إنّ عامر بن ظرب كان أوّل من حكم في الخنثىٰ وأقرّ الإسلام حكمه أيضاً[٥]. وذهب البعض إلىٰ أنّ عمرو بن حُمَمة الدّوسيّ كان أوّل من حكم في ذلك[٦]. وقيل في تقسيم الارث إنّ أوّل من جعل للذّكر مثل حظّ الأنثيين في الإرث هو ذو المجاسد[٧]، أو عامر بن جشم الجهميّ[٨]. وكان الوليد بن المغيرة أوّل من خلع

---

(١) *المفصّل* ٦: ٢٢٣.

(٢) *تاريخ اليعقوبيّ* ١: ٢٥٨.

(٣) *فجر الإسلام*: ٥٦.

(٤) *أخبار مكّة* ١: ٥٨؛ *الرّوض الأنف* ١: ٣٩٥.

(٥) *المعارف*: ٢٤٠؛ *المحبّر*: ٢٣٦.

(٦) *بلوغ الأرب* ١: ١٧٩.

(٧) *المحبّر*: ٣٢٤، ٢٣٧، ٢٣٦.

(٨) *بلوغ الأرب* ١: ١٧٩.

نعليه عند دخوله إلى الكعبة في الجاهليّة، ثمّ أقرّ النّبيّ ﷺ هذا العمل أيضاً[١]. ونُقل كذلك أنّه كان أوّل من حرّم الخمر علىٰ نفسه (يبدو أنّ هذه القضيّة لا يمكن أن تكون صحيحةً لأنّه سُبق بأشخاص كثيرين كانوا قد حرّموا علىٰ أنفسهم شرب الخمر فهو ليس أوّل من سبق إليها) أو أوّل من سنّ قطع يد السّارق[٢]. وممّن قطعت أيديهم بسبب السّرقة مدرك بن عوف، وخيار بن عديّ، ومقيس بن قيس، وغيرهم[٣]. وفي رواية مأثورة عن الإمام الرّضا عليه السلام أنّ الإسلام أقرّ خمسةً من أعمال عبد المطّلب وهي تحريم الزّواج على الأبناء من أزواج آبائهم بعد موتهم، وجعل دية القتل مائة بعير[٤]، والطّواف حول الكعبة سبعة أشواط، وإخراج الخمس من كنزٍ يُعثر عليه[٥]، والوفاء بالنّذر. ونُسب إليه أيضاً القول بمنع النكاح من المحارم، وتحريم الزّنا والخمر وطواف النّاس حول بيت الله عراةً[٦]. وعندما عزم علىٰ ذبح ولده عبد الله قال له النّاس: إذا فعلتَ فسيذبح النّاس جميعهم أولادهم[٧]. وقيل في قصيّ أيضاً إنّ أعماله كانت كالدّين عند العرب ولم يعمل أحد منهم خلافها[٨].

وينبغي أن نقول في إقرار الإسلام بعض الأحكام الجاهليّة: إنّ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام تركا شريعةً خاصّةً عند العرب، كما أنّهما خلّفا فكرة التّوحيد في أوساطهم. ثمّ طمس العرب معالم التّوحيد الإبراهيميّ، وحرّفوا شريعة إبراهيم عليه السلام، حتّى إنّهم أبقوا بعضها علىٰ سيرته الأُولىٰ، وغيّروا البعض الآخر، ولعلّ هذه الأحكام

---

(١) *المعارف*: ٢٤٠.
(٢) نفسه؛ *بلوغ الأرب* ٢: ٢٩٢.
(٣) *المنمّق*: ٥٣٠.
(٤) *المعارف*: ٢٤٠.
(٥) *وسائل الشّيعة* ٦: ٣٤٦؛ *الخصال*: ٣١٢.
(٦) *السّيرة الحلبيّة* ١: ٤٠. وحظر النّبيّ ﷺ هذه المسألة الأخيرة في السّنة التّاسعة للهجرة ممّا يدلّ علىٰ أنّها كانت شائعة حتّىٰ ذلك العصر.
(٧) *السّيرة النّبويّة* ١: ١٤١.
(٨) نفسه ١: ١١٦؛ *بهج الصّباغة* ٢: ٢٩؛ *بلوغ الأرب* ١: ٢٧٢.

الّتي نُسبت إلىٰ أشخاص معيّنين كانت من بقايا شريعة إبراهيم عليه السلام. وقيل في عمرو ابن لحي إنّ من الانحرافات الّتي أحدثها في شريعة العرب الدّينيّة جواز أكل لحم الميتة في حين أنّ أولاد إسماعيل عليه السلام كانوا يحرّمونه[١]. ونُقل عن النّبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أنّه ذكر أنّ العرب كانت علىٰ دين إبراهيم عليه السلام حتّىٰ جاء عمرو بن لحيّ فغيّرها[٢]. وكانت المراحل الثّلاث للطّلاق (لا أن يقول المطلّق مرّةً واحدة: طلّقتك ثلاثاً) من شريعة إسماعيل عليه السلام وغيرّتها الجاهليّة[٣]. ثمّ أعادها الإسلام علىٰ ما كانت عليه. وحُرّفت هذه المسألة بعد ذلك عند بعض المسلمين، واليوم نلحظ أنّ الفقه الشّيعيّ وحده يقرّر أنّ الطّلقات الثّلاث ينبغي أن تقع في ثلاث مراحل. يضاف إلىٰ ذلك أنّنا يجب ألّا نقيم وزناً للأخبار الّتي مرّت علىٰ الأوّلين. وإنّ ما أردناه من هذا البحث هو أنّ الأشراف في الجاهليّة هم الّذين كانوا يسنّون القوانين.

المستوى الإيمانيّ للعرب المشركين

قلنا: كان الشّرك عقيدة معظم النّاس في العصر الجاهليّ. ويرىٰ بعض الكتّاب أنّ العرب كانوا شديدي التّمسّك بعقائدهم. وقال طه حسين: «أفتظنّ أنّ قريشاً كانت تكيد لأبنائها وتضطهدهم وتذيقهم ألوان العذاب ثمّ تخرجهم من ديارهم ثمّ تنصب لهم الحرب وتضحّي في سبيلها بثروتها وقوّتها وحياتها ولو لم يكن لها من الدين إلّا ما يمثّله هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليّين؟ كلّا كانت قريش متديّنة قويّة الإيمان بدينها ولهذا الدين وللإيمان بهذا الدين جاهدت ما جاهدت وضحّت بما ضحّت. وقل مثل ذلك في اليهود»[٤]. وينبغي أن نقول إنّ هذه الموضوعات ليست إلّا أوهاماً، إذ إنّ الأدلّة القائمة تشير إلىٰ أنّهم لم يكونوا أولي إيمان

---

(١) *السّيرة الحلبيّة* ١: ١٠.
(٢) نفسه: ١١.
(٣) *بلوغ الأرب* ٢: ٤٩.
(٤) *في الأدب الجاهليّ*: ٧٣.

راسخ بمعتقداتهم. وإذا ألقينا نظرة على الحوافز الّتي تدفع النّاس إلى التحرّك الفرديّ والاجتماعيّ، تسنّىٰ لنا أن نقف على المحاور والعوامل الّتي تحرّكهم في حياتهم. ولمّا كانت القضايا الدّينيّة تمثّل رؤية كَونيّة، وكانت محدِّدة للمسار العمليّ في حياة الإنسان، فلا بدّ أن تكون محوراً لجميع تحرّكاته العمليّة. وإذا طالعنا حياة العرب في الجاهليّة، عرفنا أنّ الحميّة والتعصّب القوميّ والقبليّ قد حلّا محلّ الدّين والقيم الدّينيّة. وكان حافزهم في تحرّكاتهم الجماعيّة وكافّة الحروب الّتي شنّوها هو المصالح القبليّة. وكانوا مستعدّين أن يُخضعوا عقيدتهم الدّينيّة للدوافع القبليّة. علىٰ سبيل المثال كانوا يغيّرون وقت الأشهر الحرم ليتمكّنوا من القتال والجدال في أيّ وقتٍ أرادوا[١]. بعبارة أُخرىٰ، بالنظر إلىٰ أنّ الثقافة والقيم الاجتماعيّة تحدّد مستوى العقيدة الدّينيّة للمجتمع، لذا ينبغي أن نقول: إنّ أهل الجزيرة العربيّة الّذين كان معظمهم من سكّان البادية لم يصيبوا حظّاً من المعارف العقليّة، وكان بعض القضايا كالثأر أهمّ ما يشغل بالهم. ولم يدع الصّراع والقتال والجدال الدائم لهم فرصةً للتأمّل في العقائد الدّينيّة. ويستشفّ من بعض الآيات أنّهم كانوا يرون أنّ تأثير آبائهم أكبر من تأثير الله، أو تأثير الآلهة. ويمكن أن نستنبط هذا المطلب من الآية الكريمة الآتية: ﴿**فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا**﴾[٢] ونقل في ذيل الآية عن مجاهد أنّ النّاس كانوا يجتمعون في أيّام الحجّ ويتحدّثون عن آبائهم وأعمالهم وحروبهم، ويتفاخرون بأنسابهم[٣] وبسبب هذه العلاقة والانشداد القوميّ إلى الآباء والأجداد وقف القرآن الكريم قسماً من تعاليمه لإضعاف ذلك، وحاول توطيد ارتباطهم بالله تعالىٰ[٤]. ونقرأ في آيات كثيرة أنّهم تبنّوا عقائدهم الدّينيّة بسبب

---

(١) السّبب الآخر الّذي ذُكر هو تطبيق الأشهر القمريّة مع الشّمسيّة بالاستفادة من الكبيسة كاليهود.

(٢) البقرة: ٢٠٠.

(٣) *أسباب النزول*: ٣٩.

(٤) انظر: التّوبة: ٢٣، ٢٤؛ المؤمنون: ١٠١؛ المجادلة: ٢٢.

ارتباطهم بأجدادهم. ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آباءَنَا كَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[١]. ويُلحظ مثل هذا أيضاً في آيات أُخَر[٢]؛ فقد جاء علىٰ لسان إبراهيم عليه السلام قوله لعبدة الأصنام: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِن دُونِ ٱللهِ أَوْثَاناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾[٣]. وجاء في تفسير الآية أنّ العرب ـ لفقدانهم الحجّة والدّليل العقليّ ـ لم يكن لهم وجه لعبادة الأصنام إلّا الشّأن الّذي كان يراه الكبار والوجهاء كالآباء والرؤساء للأبناء. وبسبب هذا الضرب من العلاقة ظلّت التقاليد القبليّة سائدة وواصلت مسيرها الطّبيعيّ. فالاقتداء بالصنميّة اذن كان من إفرازات العلاقات الاجتماعيّة الّتي كانت قائمة بينهم. وكانت هذه العلاقات هي منطلق التّقليد عندهم أيضاً[٤]. وجاء في القرآن الكريم قوله تعالىٰ: ﴿أَجَعَلَ ٱلآلِهَةَ إِلٰهاً وَاحِداً إِنَّ هٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾[٥]. وكانوا يتعجّبون أيضاً لبشريّة النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم[٦].

النقطة الأُخرى اللافتة للنّظر في معرفة عقائدهم الدّينيّة هي حرّية المجتمع القبليّ في القيام بأيّ عمل يرغب فيه. من هنا لا يمكن أن نتلمّس الصّبر والحلم عندهم ـ فالبيئة الحرّة ـ مع الأخذ بنظر الاعتبار الفساد الّذي يسودها ـ من جهة، وشحّة المصادرالاقتصاديّة وضغط الحياة من جهة أُخرىٰ تركا الباب مفتوحاً لعرب الجاهليّة في الاختيار الغالط. ونلحظ في هذا المجتمع أنّ الأهواء تتّخذ طابعاً عمليّاً فيه. لذلك قلّما يعير أحدهم اهتماماً بالقيم الدّينيّة ويظلّ متمسّكاً بتعاليم الدّين. وبلغوا مبلغاً من الحرّيّة أنّهم كانوا يتدخّلون في اختيار عقائدهم الدّينيّة وتأويلها أنّىٰ شاءوا، كما مرّ بنا أنّ قوله تعالى ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ﴾[٧] نزل في شخصٍ كان يغيّر صنمه من حجرٍ إلىٰ حجرٍ آخر كلّ يوم.

---

(١) الشعراء: ٧٤.
(٢) البقرة: ١٧٠؛ الأعراف: ٢٨.
(٣) العنكبوت: ٢٥.
(٤) *الميزان* ١٦: ١٢٤، ١٢٥.
(٥) صٓ: ٥.
(٦) الأعراف: ٦٣، ٦٩؛ صٓ: ٤؛ قٓ: ٢؛ يونس: ٢.
(٧) الجاثية: ٢٣.

يضاف إلىٰ ذلك أنّنا لا نجد بين العرب الوثنيّين فئة تحرس الدّين وتبيّن عقائده. وهذا يعدّ من المعالم المهمّة لغفلتهم عن الدّين، بخاصّة لم يكن عندهم نصّ مقدّس يعتمدون عليه في تبيان عقائدهم. ومن الواضح أنّ الدّين حينئذٍ لا يمكن أن يكون موجوداً بوصفه مجموعة من العقائد المعيّنة المحدّدة. ولعلّ في بعض مناطق اليمن كهّاناً كانوا يضطلعون بمثل هذه المهمّة[1]، بيد أنّا قلّما نجد مثل هذه الفئة في الجاهليّة وهي تقوم بمهمّة دينيّة خاصّة. وكان عمل الكهّان يماثل عمل العرّافين في عصرنا هذا إلىٰ حدّ بعيد. وكان مثلَ قريش الّتي ترىٰ نفسها أهل الحُمس من يحاول إظهار تمسّكه بعقائده الدّينيّة ومناسك الحجّ أكثر فأكثر، ويحسب أنّه متولّ للدّين، لكنّا لا نذكر هؤلاء كمجموعة حامية للعقائد الدّينيّة. وكانت قريش تزعم أنّها من أهل الحمس لتحقيق مكاسب خاصّة في أمر الحجّ والطّواف.

اليهود في شبه الجزيرة العربيّة

سمّوا اليهود يهوداً نسبة إلىٰ يهودا بن يعقوب[2]. وربّما سمّوا بذلك أيضاً لأنّ هذا الاسم كان اسم قبيلة أو مدينة[3]. ومهما كان فلعلّ اسم ابن يعقوب أُطلق على القبيلة كلّها. وكان اليهود وهم من أهل الكتاب إبّان البعثة يقطنون في أرض الجزيرة العربيّة بشكل شبه موسَّع. ويستشفّ من مواقف القرآن الكريم بالنسبة إلى اليهود، بخاصّة في السور المدنيّة، أنّ وجودهم في يثرب يفوق وجودهم في المناطق الأُخرىٰ كما ذهبت كتب التّاريخ إلىٰ ذلك أيضاً. ويذكر اليعقوبيّ أنّ معظم المناطق اليهوديّة تتركّز في يثرب واليمن[4]. ونقل ابن قتيبة أيضاً أنّ اليهوديّة كانت شائعة في قبيلة حمير، وكنانة،

---

(١) انظر: *المفصّل* ٢: ١٤.

(٢) *المعارف*: ٢٧٠.

(٣) *لسان العرب وتاج العروس*.

(٤) *تاريخ اليعقوبيّ* ١: ٢٥٧.

وبني الحارث بن كعب، وكندة[١]. ويُستنبَط من بعض المصادر أيضاً أنّ جماعات من الأوس والخزرج تهوّدت بسبب معاشرتها لليهود في حيّ خيبر، وبني قريظة، كما تهوّد عدد من بني الحارث بن كعب، وثلّة من قبيلة غسّان وجذام[٢]، وأشار المسعوديّ أيضاً إلىٰ رغبة العرب في الدين اليهوديّ[٣]. وذكر جواد علي أنّ ظاهر كتاب التّلمود[٤] يفيد أنّ عدداً من العرب انضمّ إلىٰ المجتمع اليهوديّ وتهوّد بعد وفوده علىٰ أحبار اليهود[٥]. واشتهر اليهود في الجزيرة العربيّة بالزّراعة، أمّا يهود يثرب فقد اشتهروا في الأعمال المعدنيّة، والحِدادة، وصنع الأسلحة[٦]. ويستفاد من بعض الأخبار التّاريخيّة أنّهم كانوا يتمتّعون بوضع جيّد من الوجهة الاقتصاديّة. وشيوع الربا بينهم، مع الأخذ بعين الاعتبار حياة الأعراب في البادية بل اليهود في المناطق الأُخرىٰ[٧]، يدلّ علىٰ جودة وضعهم الاقتصاديّ.

وذكر المؤرّخون تخمينات شتّىً حول تاريخ سكنهم في الجزيرة العربيّة بخاصّة يثرب، وهي غير ثابتة تاريخيّاً، بيد أنّ ما يُركَن إليه هو أنّهم سكنوا بادئ الأمر في يثرب، ثمّ قدمت إليها القبائل العربيّة كالأوس والخزرج بعدهم[٨]. وذهب البعض إلىٰ أنّ سبب نزوحهم إليها هو ما لقوه من ضغط الحكومة الرّومانيّة واضطهادها[٩]، لكنّا نلحظ في بعض الأخبارالتّاريخيّة معلومات ذات مدلول خاصّ، وهو أنّهم نزحوا إليها

---

(١) *المعارف*: ٢٦٦. (٢) *تاريخ اليعقوبيّ* ١: ٢٥٧.

(٣) مروج *الذّهب* ٢: ١٠٣.

(٤) التّلمود يعني التّعاليم وهو عبارة عن الرّوايات الشّفويّة الّتي جمعها أصحاب موسىٰ عليه السلام. انظر: *قصّة الحضارة* ديورانت، ج ٤، عصر الإيمان، قسم التّلمود للاطّلاع علىٰ تاريخه ومحتواه.

(٥) *المفصّل* ٦: ٢٤. (٦) فجر *الإسلام*: ٢٤.

(٧) *الأغاني* ٢٢: ١٠٩. (٨) نفسه ٢٢: ١١٠.

(٩) نفسه ٢٢: ١٠٨.

لعلمهم بظهور نبيّ جديد فيها. وقيل إنّ يهود يثرب عندما كانوا يصطدمون بالأوس والخزرج فإنّهم كانوا يهدّدونهم بظهور نبيّ جديد، وأنّهم سوف يتّبعونه ويفعلون بهم كما فُعل بعاد وإرم[١]. ويستفاد من خبر آخر أنّهم عندما وصلوا إلىٰ يثرب يمّموا جبل أحد في البداية ظنّاً منهم أنّه مهجر النّبيّ الجديد، بيد أنّ طائفة منهم أدركوا خطأهم وقدموا إلىٰ أطراف يثرب وقطنوا في خيبر وغيرها...[٢] ونُقلت أخبار كثيرة حول علمهم المبكّر بظهور النّبيّ[٣].

ومن الواضح أنّ منطقة الجزيرة العربيّة كانت غير مناسبة علىٰ صعيد المصادر الاقتصاديّة، كما كانت الحياة فيها عسيرة. من هنا ينبغي أن نقول: ثمّة سبب آخر دفع اليهود إلى اختيارها لنزوحهم. ونقرأ خبراً آخر يفيد أنّ سيف بن ذي يزن أخبر عبد المطّلب بظهور نبيّ جديد وأنّه سيقوىٰ أمره في يثرب[٤]. وذكر أنّه وجد ذلك في كتاب ناطق وعلم سابق[٥]. وأشار القرآن الكريم أيضاً في آيات كثيرة إلىٰ أنّ أهل الكتاب يعرفون النّبيّ ﷺ كما يعرفون أبناءهم. وأكّد هذه النّقطة كثيراً[٦]. ويمكن أن تدلّ هذه الآيات الّتي نزل عدد منها في المدينة بمحضر اليهود والمنافقين علىٰ أنّ القرآن كان يصرّ علىٰ هذا الأمر من وحي الاحتجاج وإلقاء الحجّة. ويضاف إلىٰ ذلك أنّ سكوت أهل الكتاب، وقبول المسلمين هذا الموضوع معلَمان علىٰ أنّهم كانوا واثقين بهذه المسألة. وبين كبارهم من أسلم نتيجة إقراره بها كعبد الله بن سلام. من جهة

---

(١) *السيرة النّبويّة* ٣، ٤: ١٦٢؛ *كمال الدّين*: ١٠١ و١٠٢؛ *الثّقات* ١: ٩٠؛ وانظر: *الصّحيح من سيرة النّبيّ* ﷺ ١: ١٧٤.
(٢) *بحارالأنوار* ١٥: ٢٢٦.
(٣) انظر: *مجمع الزّوائد* ٨: ٢٣٠ ـ ٢٤١؛ *بحارالأنوار* ١٥.
(٤) *المنمّق*: ٥٤٥، ٥٤٦.
(٥) *الأغاني* ١٧: ٣١٤ ـ ٣١٦.
(٦) الأنعام: ٢٠، ١١٤؛ القصص: ٥٢؛ البقرة: ٨٩، ١٠١، ١٤٦؛ آل عمران: ٨٢، ١٧٨، ١٨٨؛ الأعراف: ١٥٧؛ الصّفّ: ٦، ٧.

أخرىٰ نلحظ في العهد القديم، أي: التّوراة، معالم تشير إلىٰ ظهور النّبيّ ﷺ. وممّا جاء في التّوراة الموجودة الآن بعد تحريفات كثيرة جرت عليها منذ عصر موسىٰ عليه السلام حتّىٰ يومنا هذا: (وهذه بشارة بشّر بها موسى الرجل الإلٰهيّ بني إسرائيل قبل وفاته قائلاً: «خرج يهوه من سينا، وطلع عليهم من سعير، وأشرق من جبل فاران). وهنا ثلاثة موارد: الأوّل يشير إلىٰ ظهور موسى من جبل سينا، والثّاني يشير إلىٰ ظهور عيسىٰ من جبل سعير، والثّالث يشير إلىٰ ظهور نبيّنا من جبل فاران[١]. ومن الثّابت عند الجغرافيّين كياقوت الحمويّ في معجم *البلدان* أنّ جبل فاران هو السلسلة الجبليّة الواقعة في أطراف مكّة.

وتحدّث المرحوم الشّيخ محمّد جواد البلاغيّ عن هذا الموضوع مفصّلاً في كتاب *الهدىٰ إلىٰ دين المصطفىٰ*[٢]. وتحدّد التّوراة في نصّ من نصوصها مكان فاران عندما يقال لإبراهيم: «قُم وخذ ولدك بيدك إذ ستظهر منه أمّة عظيمة. وفتح الله عينيه، فرأىٰ عين ماء، فذهب وملأ قربته منها وسقىٰ ولده وكان الله مع ذلك الولد، ونما، وسكن الصحراء، ونشأ علىٰ الرّماية وسكن صحراء فاران»[٣]. وقد ثبت تاريخيّاً أنّ إبراهيم أتىٰ بإسماعيل إلىٰ مكّة، وأنّ إسماعيل سكن فيها وعاش هناك. من هنا يستبين أنّ مكان فاران ليس إلّا وادي مكّة. وهاجر اليهود إليها لعلمهم بذلك، بيد أنّهم لم يؤمنوا بالنّبيّ الجديد لأنّه ليس من بني إسرائيل، ومنهم من آمن به[٤].

ويعود عدم اتّساع الدّين اليهوديّ إلىٰ أسباب متنوّعة. منها: إنّ اليهود لم يستعدّوا لقبول أحد في دينهم بسبب عنصريّتهم، فقد كان اعتناق العرب لدينهم محالاً إلّا في مواضع نادرة جدّاً. ومنها: إنّهم لم يكونوا أقوياء فكريّاً وعمليّاً إلىٰ درجة أنّهم يستطيعون معها أن يستقطبوا الآخرين إلىٰ دينهم.

---

(١) *سفر التّثنية*، الباب ٣٣، الفقرة ١، ٢.

(٢) *الهدىٰ إلىٰ دين المصطفىٰ* ٢: ١٠٣ ـ ١٠٥.

(٣) *سفر الظّهور*، الباب ٢١، الفقرة ١٨.

(٤) *مجمع البيان* ١: ١٥٨؛ *بحار الأنوار* ١٥: ١٧٦.

ويعدّ القرآن الكريم أقرب مصدر معتمَد يبيّن وضعهم الدّينيّ والفكريّ. فقد جاء فيه: أنّ اليهود أناس تركوا شرائعهم لأجل مصالحهم الخاصّة، وأنّهم يعملون ببعضها ولا يهتمّون ببعضها الآخر[١]. وفيه: إنّهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السّحت.. لولا ينهاهم الرّبّانيّون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السّحت[٢]. وفيه: إنّهم وأحبارهم يرتشون ويأكلون السّحت[٣]. وفيه: إنّ كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال النّاس بالباطل ويصدّون عن سبيل الله[٤]. وفيه: مثل الّذين حُمّلوا التّوراةَ ثمّ لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً[٥]. وفيه: إنّهم أشركوا في عقائدهم[٦]. وقالوا عزير ابن الله[٧]. واتّخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله[٨]. وفي تعاملهم مع الكلم الحقّ كانوا يحرّفونه من بعد مواضعه[٩]. وكانوا يفترون على الله[١٠]. ومن أفعالهم كتمان الحقّ[١١]. وقولهم علىٰ مريم بهتاناً عظيماً[١٢]. وأخذهم الربا وقد نُهوا عنه[١٣]. وكان الغدر أهمّ صفة من صفاتهم[١٤]. وعندما أُتي بمروان أسيراً إلىٰ أميرالمؤمنين عليّ عليه السلام ليبايعه فإنّه عليه السلام وصفه بالغدر مشبّهاً إيّاه باليهود[١٥]. ويعود هذا التشبيه إلىٰ أنّ أهمّ شيء كان يتّصف به اليهود وما زالوا هو الغدر ونكث العهود. وجاء في التاريخ أنّهم عاهدوا النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم غير مرّة ونقضوا عهودهم. ويتحدّث النّاس اليوم في العالم عن غدر الصّهاينة ونقضهم العهود في فلسطين المحتلّة.

---

(١) البقرة: ٨٥.
(٢) المائدة: ٦٢، ٦٣.
(٣) المائدة: ٤٢.
(٤) التّوبة: ٣٤.
(٥) الجمعة: ٥.
(٦) آل عمران: ٦٤، ٦٧.
(٧) التّوبة: ٣٠.
(٨) التّوبة: ٣١.
(٩) المائدة: ٤١.
(١٠) البقرة: ٧٩؛ آل عمران: ٧٨.
(١١) البقرة: ١٤٦.
(١٢) النّساء: ١٥٦.
(١٣) النّساء: ١٦١.
(١٤) البقرة: ٨٣؛ الأنفال: ٥٥، ٥٨.
(١٥) *نهج البلاغة*، الخطبة ٧٣.

النّصرانيّة في شبه الجزيرة العربيّة

يقدّم لنا التّاريخ معلومات محدودة عن أوضاع النّصارىٰ في شبه الجزيرة العربيّة. وإذا أردنا أن نستعرض هذا الموضوع من منظار قرآنيّ علمنا أنّ للقرآن الكريم موقفاً عَقَديّاً من النّصارىٰ كموقفه من المشركين واليهود. بيد أنّ من الواضح هو أنّ موقفه السّياسيّ والعسكريّ منهم هو ليس كموقفه من المذكورين. وهذا معلَم علىٰ قلّة عددهم قياساً باليهود، أو كانوا ـ كحدّ أدنىٰ ـ قليلين جدّاً في مكّة والمدينة قياساً بالمناطق الأُخرىٰ. وكانت نجران وحدها مركزاً لتجمّعهم. علماً أنّ هذا لا يعني خلوّ المدينتين المهمّتين هاتين منهم. فإنّ بعض الأخبار التّاريخيّة تفيد أنّ نصارىٰ اليمن كانوا يجدّون في توسيع نطاق المسيحيّة، كما كانت لبعض الرّوم بيوت تجاريّة بمكّة وكانوا يستغلّونها أحياناً للتجسّس على العرب[1].[2] وذكر ابن حزم أنّ أفراداً من قريش تنصّروا! وأورد أسماء بعضهم. وجاء في أخبار تاريخيّة أنّ الروم حاولوا مرّات أن يستولوا علىٰ هذه المناطق عن طريق اليمن أو عبر استغلال الغساسنة. ونُقل أنّ عثمان ابن حويرث أحد العرب الّذين تنصّروا توجّه تلقاء آل جفنة الّذين كانوا يحكمون في الشّام من قبل الرّوم واقترح عليهم استعداده لإدخال قريش في الدّين النّصرانيّ بشرط أن يجعلوه حاكماً عليهم. بيد أنّهم رفضوا اقتراحه، فتركهم ميمّماً قيصر الروم، وعندما وصل إليه عرض عليه الاقتراح نفسه. فوافق عليه وعيّنه حاكماً لكنّه مات قبل بلوغ مقصده[3].

ولمّا كانت حكومة الغساسنة الّتي أسّسها الروم في الشّام عميلةً لهم فقد عملت

---

(١) *فجر الإسلام*: ١٣.

(٢) كما جاء في بعض الأخبار التّاريخيّة أنّ صورة عيسىٰ ومريم كانت في الكعبة؛ *أخبار مكّة* ١: ١١٢.

(٣) *المنمّق*: ١٧٨، ١٨٠، ١٨١.

علىٰ توسيع نطاق المسيحيّة. ولعلّ هذا يعود إلىٰ أنّ عدداً من العرب كان قد ترهبن من قبل[١]. وهو من نتائج الأواصر التّجاريّة الّتي كانت تقام بين هذه المناطق. وكان تنصُّر العرب في بادية الشّام مهمّاً من منظار الرّوم، إذ يمكنهم أن يكونوا المدافعين الطّبيعيّين عنهم أمام سائر القبائل والفرس أيضاً مضافاً إلىٰ سهولة السّيطرة عليهم وكَونهم تحت تصرّفهم. في مقابل ذلك نجد أنّ الفرس ـ علىٰ مجوسيّتهم ـ كانوا يدعمون المذهب النّسطوريّ الّذي كان معارضاً للمسيحيّة الرّسميّة في الدّولة البيزنطينيّة، ليوجدوا قوّة مقاومة أمام الرّوم[٢]. ويحتمل شوقي ضيف أنّ انتشار النّصرانيّة في اليمن كان قد بدأ منذ غُرّة القرن الرّابع الميلاديّ. ومن أهمّ أسباب ذلك هو الدّوافع الدّينيّة الّتي كان القياصرة وراءها. ويضاف إليه أنّهم كانوا يطمحون إلىٰ الاستيلاء علىٰ هذه المناطق عبر هذا الطّريق[٣].

ويذكر اليعقوبيّ أنّ من كبار العرب الّذين تنصّروا من قريش من بني أسد بن عبد العزّىٰ: عثمان بن حويرث، وورقة بن نوفل، ومن بني تميم أبناء امرئ القيس بن زيد، ومن ربيعة أبناء تغلب، ومن اليمن قبائل طي، ومذحج، وبهراء، وسليح، وتنوخ، وغسّان، ولخم[٤]. وعدّ ابنُ قتيبة أرباب بن رئاب، وورقة بن نوفل، وزيد ابن عمرو بن نفيل، وأبا قبيس صرمة بن أبي أنس في نظم النّصارىٰ[٥]. وذكر في موضع آخر أنّ النّصرانيّة كانت منتشرةً بين ربيعة، وغسّان، وبعض طوائف قضاعة[٦]. وأورد الآلوسيّ أيضاً أنّ النّصرانيّة كانت عند ربيعة، وغسّان، وأفراد من قبيلة قضاعة أكثر من غيرهم. وأضاف أنّ هؤلاء كانوا متأثّرين بالرّوم، ذلك أنّ

---

(١) فجر الإسلام: ٢٧؛ *المختصر في أخبار البشر* ١: ٩٧.

(٢) *المفصّل* ٢: ٦٢٩.

(٣) *العصر الجاهليّ*: ٩٩.

(٤) *تاريخ اليعقوبيّ* ١: ٢٥٧.

(٥) *المعارف*: ٢٧، ٢٨.

(٦) نفسه: ٢٦٦.

العرب كانت تربطهم علاقات تجاريّة متواصلة بالرّوم وكانوا يختلفون إلىٰ مناطقهم وكان بنو تغلب من العرب المتنصّرين أيضاً[١].

وأثنى القرآن الكريم على النّصارىٰ لقبولهم الحقّ، وعدّهم أقرب النّاس مودّةً للمسلمين في مقابل اليهود الّذين كانوا أشدّ النّاس عداوةً لهم[٢]. بيد أنّه ـ من جهة أخرىٰ ـ خطّأهم كما خطّأ اليهود، وكفّرهم بسبب عقيدتهم بالتثليث والسيّد المسيح عليه السلام[٣]. ونقل لنا التاريخ مواقف للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم منهم، وأصرحها تمثّل في المباهلة الّتي تحدّثت عنها كتب التاريخ الإسلاميّ، كما تمثّلت بالمعاهدات والاتّفاقيّات المعقودة مع نصارى الشّمال، وبالكتب المُرسَلَة إلىٰ قيصر الرّوم والأسقف الأعظم.

الفصل الثالث: الثقافة والعلم في العصر الجاهليّ

الثقافة والمعارف العلميّة

الثقافة الجاهليّة كما يستشفّ من عنوان الجاهليّة تفتقر إلىٰ روح التفكّر وكانت غالباً مجموعة من الآداب والتقاليد العربيّة المتعصّبة. والشيء الوحيد الّذي لم توله البيئة الجاهليّة اهتماماً هو العلم والثّقافة والاطّلاع. ولم يكن معيار القيم عندهم إلّا القوّة والسّيف والرّمح، ولغة التملّق والتزلّف المتمثّلة بالشّعر والخطابة، والقتال وإراقة الدماء وطلب الثأر والتباهي بالحسب والنسب. وكان سلوكهم وتحرّكاتهم الفرديّة والاجتماعيّة نابعة من جهلهم. وذهب ابن عبّاس[٤] إلىٰ أنّ قوله تعالى: ﴿**قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ**﴾[٥]، يكفي في الدلالة علىٰ جهالة العرب. ويُخطئ

---

(١) *بلوغ الأرب* ٢: ٢٤١. (٢) المائدة: ٨٢.

(٣) المائدة: ١٧، ٧٢، ٧٣؛ النساء: ١٧١؛ التّوبة: ٣٠.

(٤) *البداية والنّهاية* ٢: ١٩٠. (٥) الأنعام: ١٤٠.

الّذين يحاولون أن يجعلوا العرب أولي ثقافةٍ، ويزعمون أنّ «الجهل في الجاهليّة مقابل الحِلم لا العلم، إذ كان للعرب حظّ كبير من العلم!»[١] والأفضل هنا أن نبدأ حديثنا من القراءة والكتابة.

القراءة والكتابة

الإلمام بالقراءة والكتابة في المجتمع آية على المعارف العلميّة والثّقافة والتحضّر فيه، وإذا حُرم المجتمع من ذلك فإنّ حياته ستكون خليّةً من الثّقافة والعلم. ولا يتسنّىٰ للأمم الغابرة أو المعاصرة أن تنقل تجاربها إلى الآخرين إلّا عبر القراءة والكتابة. وإذا ما فقدت الأمّة هذه النّعمة فلا يُرجىٰ تناميها وتقدّمها حتّىٰ لو تصرّمت القرون المتطاولة. وما يُستفاد من القرآن الكريم والأحاديث وكتب التاريخ القديمة والحديثة هو أنّ العرب في الجاهليّة كانوا محرومين من نعمة القراءة والكتابة إلّا قليلاً منهم. وأشار القرآن الكريم إلىٰ أمّيّة النّبيّ ﷺ وقومه[٢]، كما أشار إلىٰ أنّه ﷺ لم يعرف القراءة والكتابة[٣]. يقول الأستاذ مطهّريّ: إنّ أحد معاني الأُمّيّ هو الّذي لم يدرس ولم يعرف الخطّ. ويضيف أنّ الأكثريّة تؤيّد هذا المعنىٰ أو ترجّحه في الأقلّ[٤]. ويقول الإمام أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «إِنَّ اللهَ بَعَثَ مُحمّداً ﷺ وليس أحدٌ من العرب يَقْرَأُ كِتاباً»[٥]. علماً أنّ الإمام عليه السلام إذا قصد كتاباً سماويّاً، فلا يدلّ علىٰ ما نحن فيه.

---

(١) *تاريخ صدر الإسلام والدولة الأمويّة*: ٤٠. والصحيح هو أنّ الجاهليّة مقابل الدين لا مقابل الحلم أو العلم! وهذا ما صرّح به القرآن الكريم نفسه في عدد من آياته. منها: «أفحكم الجاهليّة يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون» المائدة: ٥٠. المترجم

(٢) الأعراف: ١٥٧، ١٥٨؛ الجمعة: ٢؛ آل عمران: ٢٠، ٧٥.

(٣) العنكبوت: ٤٨.

(٤) *النّبيّ الأُمّيّ*: ٤٩.

(٥) شرح *نهج البلاغة*، ابن أبي الحديد ٢: ١٨٩؛ ٧: ١١٤؛ *نهج السّعادة* ١: ٢٥٠.

وقال البلاذريّ: كان مجاشع أمّيّاً وشميلة تكتب. فذكر الأُمّيّ في مقابل من يكتب[١]. وذهب الجاحظ إلىٰ أنّهم كانوا أمّيّين ولم يقدروا على الكتابة[٢]. وعلّق أحمد أمين علىٰ قول الجاحظ بأنّ خلاصة رأيه في تأييد كلام الشّعوبيّة هو أنّ العرب لم يكن لهم علم ولا فلسفة ولا كتب ورثوها من القديم[٣]. وذكر الواقديّ، وهو أحد الأوائل الّذين ألّفوا في مغازي النّبيّ ﷺ، أنّ سبعة عشر من قريش كانوا قادرين على الكتابة إبّان ظهور الإسلام[٤]. ونظراً إلىٰ تداول العرب في الجاهليّة اصطلاحَ أهل الكتاب فمن المحتمل أنّ الأُمّيّ قد استُعمل مقابلاً له. ويخطر هذا الاحتمال في البال أيضاً بعد ملاحظة الآية (٧٥) من سورة آل عمران بيد أنّه احتمال من الاحتمالات علىٰ أيّ حال. ومن يرىٰ أنّ الأُمّيّة تعني «الصفاء الفطريّ»، والأرضيّة لإدراك مفاهيم لا يدركها الآخرون[٥] فرأيه هذا لا ينسجم مع إطلاق «الأمّيّين» على العرب جميعهم. ذلك أنّ هؤلاء الأمّيّين ينبغي أن يتّصفوا بهذا الصّفاء حينئذٍ. وذكر البلاذريّ في موضع آخرمن كتابه أنّ الكتابة كانت نادرة بين الأوس والخزرج، وكان بعض اليهود لا غيرهم يعرفون الكتابة العربيّة. وكانت ثلّة من القبيلتين المذكورتين قادرة على الكتابة[٦]. وأشار غيره إلىٰ هذا الموضوع أيضاً[٧]. وأورد الواقديّ أنّ حنظلة بن أبي الربيع كتب لرسول الله ﷺ، فسُمّي حنظلة الكاتب[٨]. مبدئيّاً لمّا كان عدد الكتّاب في غاية النّدرة فقد كُتبت أسماؤهم وضُبطت[٩]. وتحدّث ابن قتيبة عن تاريخ ظهور

---

(١) *أنساب الأشراف* ١: ١٣٧.

(٢) *البيان والتّبيين* ٣: ١٥، نقلاً منّا عن كتاب **فجر الإسلام**: ٣١.

(٣) **فجر الإسلام**: ٢٩. (٤) **فتوح البلدان**: ٤٥٧؛ *العقد الفريد* ٤: ١٥٧.

(٥) **روش شناخت اسلام** [منهج معرفة الإسلام]: ١٠١.

(٦) **فتوح البلدان**: ٤٥٩.

(٧) *تاريخ القرآن*: ٥، نقلاً عن كتاب **بحوث في تاريخ القرآن وعلومه**: ١٤.

(٨) **فجر الإسلام**: ١٤٢. (٩) *النّبيّ الأمّيّ*: ١٨.

الكتابة عند العرب، فذكر أنّ قريشاً سئلت ممّن أخذت الكتابة، فقالت: من أهل الحيرة، وأهل الحيرة من مدينة الأنبار. وقيل إنّ بشر بن عبد الله العباديّ علّم أبا سفيان بن أميّة (عمّ أبي سفيان المعروف) الكتابة لأوّل مرّة[١]. وهذا معلَم علىٰ أنّ الكتابة ظهرت عند قريش قبيل بزوغ فجر الإسلام بليل. وأشار أحمد أمين أحد كتّاب العرب المعاصرين إلىٰ هذه الحقيقة المتمثّلة بندرة الكتابة عند عرب الجاهليّة[٢]، وشيوع الجهل بينهم، واتّساع نطاق الأمّيّة في أوساطهم بخاصّة في البادية[٣]، وذهب إلىٰ أنّ أحد الأسباب الّتي دعت إلىٰ تخلّف العرب هو جهلهم بالقراءة والكتابة[٤]. وفصّل جواد علي الكلام في شرح معنىٰ كلمة (الأمّيّ) فذكر أنّها عدم القدرة على الكتابة والقراءة[٥]. وقال الآلوسيّ: إنّ من أسباب تمتّع العرب بالذاكرة هو أنّ معظمهم كان أمّيّاً لا يعرف القراءة والكتابة، بل يمكن القول أنّ جميعهم كانوا كذلك في البادية[٦]. ولا يرى السّباعيّ صحّة ما نُقل حول وجود صحف مكتوبة في العصر الجاهليّ وتداول النّاس لها آنذاك، ذلك أنّ الأمّيّة كانت شائعة عندهم، والكتابة منحصرة بأفراد قلائل يُعدّون بالأصابع، كما صرّح بذلك بعض المؤرّخين[٧]. ويعتقد جواد عليّ أن لا خلاف بين العلماء في عدم العثور علىٰ كتاب جاهليّ باللهجة الّتي نزل بها القرآن الكريم أو بلهجة الأشعار المأثورة عن الجاهليّة، لا منذ عهد سحيق ولا قريب، مع أنّ بعض الكتابات الجاهليّة بغير اللهجة المذكورة

---

(١) *المعارف*: ٢٤٠؛ *بلوغ الأرب* ٣: ٣٦٨. (٢) *فجر الإسلام*: ٢٩.

(٣) نفسه: ١٤٠. (٤) نفسه: ٢٩.

(٥) *تاريخ العرب قبل الإسلام*: ١٦٩ ـ ١٧٤. (٦) *بلوغ الأرب* ١: ٤١.

(٧) *تاريخ مكّة*، أحمد السّباعيّ، ص ٢٤. للاستزادة حول أمّيّة العرب، انظر: *مقدّمة ابن خلدون*، الفصل ٣٠، ص ٤١٩؛ *ودائرة المعارف الإسلاميّة*، ج ٣، ذيل «خط».

قد عثر عليها وهي تعود إلى الفترة الّتي سبقت ظهور الإسلام بقليل[١]. وعلى الرغم من أنّ لهجة قريش هي لهجة القرآن والأشعار الباقية، بيد أنّا لا نجد كتاباً وصل إلينا منهم. في حين أنّ المؤرّخين نصّوا علىٰ أنّ هذه اللهجة كانت موجودة منذ عهد إسماعيل عليه‌السلام البعيد غاية البعد عن الجاهليّة القريبة من الإسلام[٢].

ونقل ابن قتيبة خبراً يفيد أنّ العرب كانت ترىٰ الكتابة عيباً[٣]. وأُثر أنّ النّبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بعث كتاباً إلىٰ قبيلة بكر بن وائل، ولم يستطع أحد منها قراءته علىٰ كثرتها[٤].

إنّ هذه النصوص التّاريخيّة جميعها لا تدع مجالاً للشّكّ في أنّ العرب كانوا غير قادرين على القراءة والكتابة إبّان العصر الجاهليّ. وهنا ندرك قيمة القسم المذكور في القرآن الكريم بالقلم. ومن الشيء العجاب هنا أنّ العرب حين كانوا يعيشون الجهل والأمّيّة، كان الرّوم والفرس يستمتعون بنعمة القراءة والكتابة علىٰ مستوىٰ رفيع. وكان العلم في اليونان متطوّراً وصُنِّفت مئات الكتب هناك قبل قرابة ألف سنة من ذلك التاريخ. ومع أنّ العرب كانوا يتردّدون على الرّوم والفرس بحكم علاقاتهم التّجاريّة بهم، بيد أنّهم ظلّوا متخلّفين[٥].

وحاول بعض الكتّاب الجدد أن يغضّ الطّرف عن هذه النّصوص التّاريخيّة والآيات القرآنيّة ليثبت وجود الكتابة وشيوعها عند القوم يومئذٍ. وذهب هؤلاء إلىٰ أنّ ذكر

---

(١) *المفصّل* ٨: ٢٤٨؛ *تاريخ العرب قبل الإسلام*: ١٥؛ وانظر أيضاً: *معارج نهج البلاغة*: ٢٥٠.

(٢) *طبقات الشّعراء*: ٤.

(٣) *الشّعر والشّعراء*: ٣٣٤.

(٤) *الصّحيح من سيرة النّبيّ الأعظم* ١: ٤٩.

(٥) ذكر محمّد بن سعد في الجزء الثالث من طبقاته عدداً من الكتّاب وبعد أن قال إنّهم كانوا يعرفون الكتابة ذهب إلىٰ أنّ الكتابة كانت قليلة عند العرب في الجاهليّة. انظر: ص ٤٥٠، ٤٦٥، ٤٩٨، ٥٢٢، ٥٢٦، ٥٣١، ٥٣٦، ٦٠٤، ٦١٣.

وسائل القراءة والكتابة في القرآن الكريم يدلّ علىٰ أنّ القوم كانوا يعرفونها، ويستعملونها، وكانت القراءة والكتابة منتشرة بينهم علىٰ نطاقٍ واسع[١]. ويقول أحد الكتّاب في ذيل الآية الّتي تأمر بكتابة الدَّين: هذا دليل علىٰ أنّ الأمر كان ممكناً فأمر به الله[٢]. ويقول الآلوسيّ: من الأدلّة الدالّة على وجود الكتابة عند العرب الألفاظ الكثيرة الجارية علىٰ ألسنتهم، المرتبطة بالقراءة والكتابة[٣].

وذكر جواد علي أنّ في لغة الجاهليّة كلمات تشتمل على القراءة والكتابة كالقلم، والقرطاس، والدّواة، والمداد، واللوح، والصّحف، والكتاب، والمجلّة، وغيرها ممّا لا تُبقي شكّاً أنّ الجاهليّين كانوا يستعملونها؛ ذلك أنّ هذه الكلمات وردت في القرآن الكريم، وهذا دليل على استعمال عرب الجاهليّة لها[٤]. ومن الضّروريّ التّذكير هنا بالنّقاط الآتية:

أوّلاً: صرّح شخصان آخران في موضوعات تقدّم ذكرها أنّ الأمّيّة كانت شائعة بينهم، ولم يصل إلينا أيّ كتاب جاهليّ لحدّ الآن. ولعلّ قصد أولئك هو أنّ أصل مسألة الكتابة كان قائماً هناك. ونحن لا ننكر هذا الأمر، بل ننكر شيوعه، ولا نقرّ باستخدام الكتابة في الشّؤون الثّقافيّة وانتقال العلم. وعلى الّذين يرون أنّ ورود الكلمات في القرآن الكريم دليل علىٰ شيوع الكتابة في الجاهليّة أن يعلموا بأنّ ورود كلمة «الأُمّيّ» أيضاً دليل تامّ علىٰ أنّ العرب كانوا أُمّيّين لا يعرفون القراءة والكتابة[٥].

ثانياً: إنّ وجود هذه الكلمات في اللغة لا يدلّ علىٰ شيوع القراءة والكتابة. فقد كانت القراءة والكتابة قبل ذلك التّاريخ بقرون، وكان اليهود والنّصارىٰ بين العرب

---

(١) *عصر النّبيّ* ﷺ: ٤٤٤. (٢) نفسه: ٤٤٥.

(٣) *بلوغ الأرب* ٣: ٣٧٠. (٤) *المفصّل* ٨: ٢٥٢.

(٥) *العقد الفريد* ٤: ١٦٠؛ *بحوث في تاريخ القرآن وعلومه* ١٣٩، ١٤٠.

وبأيديهم التّوراة والإنجيل، ولا بدّ للعرب أن يختاروا اسماً للأدوات الّتي يستخدمها الآخرون في القراءة والكتابة. والأمر بكتابة الدّيون لا يدلّ علىٰ شيوع الكتابة، فلعلّ عشرة أشخاص في المدينة يكفون لكتابة الدّيون جميعها، كما ذكر المؤرّخون أنّ سبعة عشر شخصاً كانوا يعرفون الكتابة. ويضاف إلىٰ ذلك أنّ القرآن الكريم، بأمره بكتابة الدّيون، أراد أن يعزّز وجود القراءة والكتابة عند العرب، وبتثمينه القلم عبر القسم به أراد أن يوسّع نطاقهما بينهم.

ثالثاً: أيّ كتابةٍ للتاريخ هذه؟ إنّها اجتهاد في مقابل النّصّ! وقد أقرّ بذلك مؤرّخون قدامىٰ مثل البلاذريّ، وابن قتيبة، والواقديّ، وابن عبد ربّه الأندلسيّ، ومؤرّخون معاصرون كالآلوسيّ[١]، ومحمّد كرد علي[٢].

رابعاً: يتعيّن الالتفات إلىٰ أنّنا لا يمكن أن نعدّ كلّ كلمة استعملها القرآن الكريم هي نفسها الّتي كانت تستعمل معانيها في الجاهليّة. وذكر أحمد أمين أنّ في القرآن الكريم ألفاظاً تغيّر معناها في الإسلام، وإذا كان لها في الجاهليّة معنى عامّ فقد صار لها في الإسلام معنى خاصّ، ومن هذه الكلمات: الصّلاة، والزّكاة، والحجّ، والبيع، والمزارعة. وأضاف أنّ الألفاظ ومعانيها لا تستبين لغة العرب في الجاهليّة بنحوٍ وافٍ، إذ إنّ القرآن الكريم استعمل ألفاظاً كان العرب لا يستعملونها في الجاهليّة. ونسب ألفاظاً إلىٰ معاني كانت لا تُستخدم في الجاهليّة بنحو تامّ؛ كما أجرى استعارات ومجازات خارج الإطار الّذي كان العرب في الجاهليّة يُجرونها. وللقرآن أُسلوبه الخاصّ البعيد عن أُسلوب العرب في العصر الجاهليّ. ثمّ نقل أحمد أمين عن السّيوطيّ في المزهر أنّه قال: ذكر ابن خالويه أنّ الجاهليّة اسمٌ ظهر في الإسلام وأُطلق علىٰ عصر ما قبل البعثة؛ وكلمة المنافق مفهوم إسلاميّ لم يُستعمل في الجاهليّة. وقال ابن

---

(١) *بلوغ الأرب* ٣: ٣٧. (٢) *الإسلام والحضارة الدّينيّة*: ١٢٤.

الأعرابيّ: لم تُسمَع كلمة (الفاسق) قطّ لا في كلام الجاهليّة ولا في شعرها. ويستنتج أحمد أمين بعد نقل هذه الكلمات أنّه لا يستطيع أن يعدّ كلمات القرآن دليلاً على المعارف العقليّة في العصر الجاهليّ"[١]. ونجد مثل هذا البحث في معنىٰ «الكتاب» أو «القلم» وبعض المفاهيم الأُخرىٰ إلىٰ حدٍّ ما.

الشّعر والخطابة

يقال: إنّ الشّعر والخطابة من معالم الثّقافة والتّمدّن. وكانا متداوَلين في الجاهليّة تداولاً كبيراً. ونحن لا ننكر أهمّيّتهما بل نؤكّد أنّ ما يمكن أن يدلّ على التكامل العقليّ للمجتمع في الشّعر والخطابة هو محتواهما. وكان إنشاد الشعر في غاية الازدهار عند عرب الجاهليّة، وسوقه ساخنةٌ ساخنةٌ. فقد كانوا ينشدون الشّعر في مجالس اللهو والسّمر، وفي ميادين القتال والجدال، وفي رثاء الموتىٰ، والتحريض علىٰ أخذ الثّأر أو الفخر والمباهاة وإبداء الفضل والاستعلاء. وكان سوق عكاظ أحد المواضع المعروفة الّتي كان الشّعراء ينشدون فيها أشعارهم[٢]. وذكر ابن سلام أنّ الشّعر في الجاهليّة كان ديوان علم العرب[٣] ومنتهىٰ حكمتهم، ومنه يبدأون وبه يختمون[٤]. وقال اليعقوبيّ: وكانت العرب تقيم الشّعر مقام الحكمة وكثير العلم. فإذا كان في القبيلة الشّاعر الماهر... أحضروه في أسواقهم الّتي كانت تقوم لهم في السّنة ومواسمهم عند حجّهم البيت، حتّىٰ تقف وتجتمع القبائل والعشائر فتسمع شعره، ويجعلون ذلك فخراً من فخرهم، وشرفاً من شرفهم[٥]. ويستشفّ من هذه المعلومات التّاريخيّة أنّ للشّعر

---

(١) فجر الإسلام: ٥٤.

(٢) *بلوغ الأرب* ١: ٢٦٧.

(٣) *المحاسن والمساوئ* ١: ١٠و١١.

(٤) *طبقات الشّعراء*: ١٠.

(٥) *تاريخ اليعقوبيّ* ١: ٢٦٢.

عند العرب منزلة رفيعة، ومن مفاخر كلّ قبيلة نبوغ عدد من الشّعراء فيها. وقال عمر: كان الشّعر علم قوم ليس لهم أفضل وأصحّ منه، ولمّا جاء الإسلام وانشغل العرب بالجهاد أمسكوا عن قول الشّعر وروايته، بيد أنّهم رووه مرّتين بعد الفتوحات[١].

قال السّيوطيّ: بفضل الشّعر حفظ العرب أنسابهم، وذكروا مآثرهم، وتعلّموا العربيّة[٢]. وتحدّث الدكتور جواد علي بالتّفصيل عن تأثير الشّعر في ضبط الأخبار الجاهليّة[٣]. ومهما كان، يتعيّن أن نقول: إنّ ماضي الشّعر الموجود يمتدّ إلىٰ مائة وخمسين سنة قبل البعثة كما يبدو[٤]، ولا وجود لشاعر معروف وشعر مأثور قبل تلك الفترة. واتّخذ إنشاد الشّعر أبعاده الواسعة في عصر عبد مناف ونجله هاشم فحسب، وكان بعض الأشعار يُنشَد قبل ذلك في سرد بعض الحوادث[٥]. وبلغ الشّعر مبلغاً في العصر المذكور أنّ العرب كانوا به يتخاصمون، وبه يتفاضلون... ويتمادحون ويتعايبون علىٰ حدّ قول اليعقوبيّ[٦]. ولم تدوّن الأشعار الّتي أُنشدت في الجاهليّة يومئذٍ، وبدأ تدوينها جميعاً في أواخر القرن الأوّل الهجريّ فصاعداً. وقد جُمعت في كتبٍ منها: *المعلّقات السّبع*، و*المفضّليّات* الّتي تضمّ ١٢٨ قصيدة، و*ديوان الحماسة* لأبي تمّام، و*ديوان الحماسة* للبحتريّ. كما نلحظ شعراً جاهليّاً في كتاب *الأغاني*؛ وكتاب *الشّعر والشّعراء*؛ و*مختارات ابن الشّجريّ*؛ و*جمهرة أشعار العرب* لأبي زيد القرشيّ[٧]. ولعلّ المعلّقات السّبع (علىٰ ما قالوا) هي القصائد السّبع الّتي عُلِّقت على الكعبة. لذا فهذه المجموعة كانت مدوّنة منذ العصر الجاهليّ[٨]، بيد أنّ مِنَ القدماء مَنْ

---

(١) *طبقات الشّعراء*: ١٠؛ *المزهر* ٢: ٤٧٣.
(٢) *المزهر* ٢: ٤٧٠.
(٣) *المفصّل* ١: ٧٠ـ٧٣.
(٤) *فجر الإسلام*: ٥٨.
(٥) *طبقات الشّعراء*: ١١؛ *المزهر* ٢: ٤٧٤.
(٦) *تاريخ اليعقوبيّ* ١: ٢٦٢.
(٧) *فجر الإسلام*: ٥٨.
(٨) *المزهر* ٢: ٤٨٠.

نفىٰ ذلك كابن النحّاس[١]، ومن المعاصرين من ذهب إلىٰ أنّ ذلك أسطورةٌ لاغيرها[٢].

النّقطة الجديرة بالملاحظة هنا هي أنّ عدداً من العلماء والأُدباء امتروا في كثير من الشّعر الجاهليّ، واعتقدوا إلىٰ أنّه ليس لشعراء الجاهليّة بل لشعراء آخرين كانوا جميعهم يعيشون في العصرالإسلاميّ ولذا يرتابون في صحّة الشّعر المنسوب إلىٰ شعراء الجاهليّة. ويبدو أنّ أوّل من جمع الشّعر الجاهليّ رجل يعرف بحمّاد بن أبي ليلىٰ المشهور بحمّاد الرّاوية؛ ويقذفه عدد كبير من المؤرّخين بالوضع والكذب[٣]. فقد قال فيه ابن سلام: هو أوّل من جمع الشّعر الجاهليّ لكن لا يُوثَق به، لأنّه نسب شعر بعضهم إلىٰ بعض آخر ولعلّه زاد في شعرهم[٤]. واتّهمه أبو الفرج أيضاً بالزّندقة[٥]. لكنّه في الوقت نفسه يراه من أعلم النّاس بأيّام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغتها[٦]، وفي الآن ذاته ينقل عن الآخرين أنّه أفسد شعر العرب[٧].

يقول طه حسين:

«... إنّ الكثرة المطلقة ممّا نسمّيه أدباً جاهليّاً ليست من الجاهليّة في شيء وإنّما هي منحولة بعد ظهور الإسلام. فهي إسلاميّة تمثّل حياة المسلمين وميولهم وأهوائهم أكثر ممّا تمثّل حياة الجاهليّة. ولا أكاد أشكّ في أنّ ما بقي من الأدب الجاهليّ الصحيح قليلٌ جدّاً لا يمثّل شيئاً ولا يدلّ علىٰ شيء، ولا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الثورة الأدبيّة الصحيحة لهذا العصر الجاهليّ»[٨].

من الطّبيعيّ أنّ كثيراً من الأُدباء يرفضون الرأي المذكور بشكله العام هذا، وهو

---

(١) **معجم الأدباء** ١: ٢٦٦ نقلاً عن ***العصر الجاهليّ***: ١٤١.

(٢) ***العصر الجاهليّ***: ١٣٩، ١٤٠.

(٣) ***لسان الميزان*** ٢: ٣٥٢.

(٤) ***طبقات الشّعراء***: ١٤، ١٥؛ ***المزهر*** ١: ١٧٥.

(٥) ***الأغاني*** ٦: ٧٤.

(٦) نفسه ٦: ٧٠.

(٧) نفسه: ٨٩ـ٩٢.

(٨) ***في الأدب الجاهليّ***: ٦٥.

الحقّ. يقول شوقي ضيف ما مضمونه: الحقيقة أنّ في الشّعر الجاهليّ كذباً كثيراً لكن علينا أن نُذعن بأنّ قدماءنا لم يغفلوا عن هذا الأمر، وكانوا أنفسهم يدقّقون الأشعار بالنّقد الداخليّ (محتوى الشّعر)، والخارجيّ (دراسة الرواة)، لذا من المناسب ألّا يفرط بعض الأشخاص كبرجليوث وطه حسين في الشّكّ فيها، وإلّا يُفضي إنكارها إلىٰ رفض الشّعر الجاهليّ كلّه[١]. في حين أنّ الشّعر هو الأساس في علم العرب[٢]. وعندما نلحظ الطعن في الشّعر الجاهليّ يبلغ هذه الدرجة، ولا يمكن التمييز بين صحيحه وسقيمه، فلا يتسنّىٰ لنا أن نعرف الجاهليّة حقّ معرفتها في الوهلة الأُولىٰ عبر هذا الشّعر. ونحن واثقون أنّ بعض الشّعر المذكور من إفرازات العصر الجاهليّ وإن نال التحريف قسماً منه تأثّراً بالبواعث القوميّة والعنصريّة المختلفة. ونضيف إلىٰ ما سبق أنّنا إذا أخذنا الجوانب المتنوّعة بعين الاعتبار فالأشعار الموجودة إن دلّ بعضها على الحكمة والعلم والفكر فقد دلّ بعضها الآخر على الحقارة والضعة والبعد عن القيم الإنسانيّة الواقعيّة. ويتعيّن أن نتلمّس الدّوافع علىٰ إنشادها والفترات الّتي كان يستفاد منها فيها. بعامّة، كان الشّعر أحد الضّرورات في حياة العرب، كما كان أداةً للتفاخر والاستعلاء النّسبيّ. وذكر الآلوسيّ أنّ العرب في الجاهليّة لمّا كانوا يتفاخرون بحسبهم ونسبهم ويرومون المحافظة علىٰ شرفهم ومجدهم وسيادتهم، فإنّهم عند نشوب الحوادث بينهم كالحرب والنهب كانوا يحتاجون إلىٰ كلمات تنبّههم على الثّأر وتبعد قبائلهم عن العار، لذا مضافاً إلى استعانتهم بالشّعر في هذا المجال، كانوا يستعينون بالخطب والوصايا أيضاً[٣]. ومرّ في كلام اليعقوبيّ أيضاً أنّ الهدف من

---

(١) *العصر الجاهليّ*: ١٧٥. إنّ إنكار الشّعر الجاهليّ برمّته يمكن أن يولّد مشاكل لمسألة إعجاز القرآن الكريم إذ يُقدَح في أدب العصر الجاهليّ. وحول هذا الموضوع نشب خلاف كبير بين طه حسين وعلماء الأزهر. انظر: مجلّة الدراسات التّاريخيّة الفصليّة، السّنة الأولىٰ، العدد ٢، ص١٩٧ ـ ٢٠٠.

(٢) *بلوغ الأرب* ٣: ٨٢.

(٣) *بلوغ الأرب* ٣: ١٥١.

الشّعر هو التّخاصم والـتّمادح والتهاجي. وفي ذلك العصر الّذي كـان الشّـعراء فـيه يهدون قصائدهم ملوكَ فارس والشّام وغيرهما من المناطق، فلا يُرجىٰ من الشّعر إلّا المدح والذّمّ. وكان هذا أُسلوب الشّعراء إذ يقصدون الملوك ورؤساء القبائل في وفود مختلفة من أجل مدحهم والثّناء عليهم[١]، ومن هؤلاء الشّـعراء: النّـابغة الذّبـيانيّ، وزهير بن أبي سُلمىٰ، والأعشى الأكبر وغيرهم من الشّعراء الذين اتّخـذوا الشّـعر وسيلةً للتكسّب[٢].

يضاف إلىٰ ذلك ـ وذكرناه سابقاً ـ أنّ الشيء المهمّ الّذي يمكن أن يجعل الشّـعر مَعْلَماً علىٰ تألّق الثّقافة هو محتواه الرّفيع وعواطفه الإنسانيّة النّبيلة. وإلّا فإنّ وصف الخضرة، وطلوع الشّمس وغروبها، ووصف الحبيب، والحرب، وأمثالها كلّ ذلك لا يدلّ على تقدّم ثقافيّ وحضاريّ. ولم يكن للشّاعر الجاهليّ موضوع يتناوله في شعره إلّا البعير في الصحراء، والسّفر في المفاوز السّحيقة، ووصف معشوقته، والدفاع عن مجد قبيلته وشرفها الخياليّ، وهجاء أعدائها. إذ إنّ الحياة الماديّة الصرفة لاسيّما الحياة في البادية والصّحراء والأراضي القاحلة لا تتطلّب موضوعاً آخر غـير مـا ذكـرنا. وننقل فيما يأتي نموذجاً من إحدى المعلّقات السّبع للشّاعر طرفة بن العبد في وصف جَمَلِه:

كـقنطرة الرّومـيّ أقـسَمَ ربُّهـا	لَـتُكْتَنَفَنْ حـتّىٰ تُشـادَ بِـقَرمَدِ
صُهابيَّة العُـثنونِ مُـؤجَدَة القَـرَا	بعيدةُ وَخْدِ الرجلِ مـوّارةُ اليَـدِ
أُمِرَّت يَدَاها فَتْلَ شزرٍ وأُجنحتْ	لها عَضُداهـا في سـقيفٍ مُسَـنَّدِ
جَنوحٌ، دَقاقٌ، عندلٌ، ثمّ أُفرعت	لهـا كَـتِفَاها في مُـعَالَي مُـصَعَّدِ

(١) *صحيح الأخبار عمّا في بلاد العرب من الآثار*، النّجديّ ١: ٩.

(٢) *بلوغ الأرب* ٣: ٩١.

كَأَنَّ عُلوبَ النِسْعِ في دأياتِهَا   مواردُ مِنْ خلقاءَ في ظَهْرِ قَرْدَدِ
تَلاقىٰ، وأحياناً تبينُ كَأَنَّها   بَنَائِقُ غُرٌّ في قَميصٍ مُقَدَّدِ[١]

وهكذا سائر الشّعر الجاهليّ فليس دأبه إلّا الشّرّ والخمر والسّيف والجمل، وغير ذلك. وكلامنا هنا يحوم حول محتوى الشّعر الجاهليّ، أما شكله فالألفاظ أدبيّة رائعة. وإنّ كثرة المفردات في اللغة العربيّة مع قابليّة اللغة الخاصّة في استعمال ضروب التشبيهات والاستعارات يمكن أن تدلّا علىٰ سعة هذه اللغة. وهذا الموضوع من الوجهة الشّكليّة يعكس الثقافة العربيّة بمستوىً في غاية الجمال الأدبيّ، وهو شطرٌ من الحُسن، وشطره الآخر محتوى الشّعر الّذي لا خلاقَ له من العلم والفلسفة.

النُّقطة الأُخرىٰ الّتي يمكن أن نذكرها في تحليل الشّعر الجاهليّ كمعلم علىٰ ثقافة الجاهليّة هي أنّ إنشاد الشّعر حليف الخيال والكلام غير الواقعيّ وهذه هي طبيعة الشّعر (إلّا ما ندر منه) إذ يضخّم العمل الصّغير، أو يقدّم صورةً للعمل إمّا تعجيزيّة لا يتسنّىٰ تطبيقها أو أنّ تطبيقها عسيرعويص. وأشار القرآن الكريم إلىٰ هذا الموضوع فقال في الشّعراء: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ**﴾[٢]. وقال الزمخشريّ في تفسير هذه الآية:

«فيه تمثيل لذهابهم في كلّ شعب من القول واعتسافهم وقلّة مبالاتهم بالغلوّ في المنطق ومجاوزة حدّ القصد فيه، حتّىٰ يفضّلوا أجبن النّاسِ علىٰ عنترة، وأشحّهم علىٰ حاتم، وأن يبهتوا البريء، ويفسّقوا التّقيّ»[٣].

وذكر الطبرسيّ والعلّامة الطّباطبائيّ ما يماثل هذا المعنىٰ أيضاً. من هنا لا يتيسّر لنا أن نعدّ الشّعر الجاهليّ ـ مع فرض قبوله ـ آيةً علىٰ تقدّم ثقافيّ حضاريّ، إذ إنّ محتواه

---

(١) *المعلّقات السّبع*: ٣٢.   (٢) الشّعراء: ٢٢٥.
(٣) *الكشّاف* ٣: ١٣٣.

لا يكون منطقيّاً إذا أخذنا وصف القرآن الكريم للشّعراء بعين الاعتبار. ومن الطّبيعيّ أنّ كلّ من كانت له قريحة شعريّة فإنّه ينشد من الشّعر ما يشاء. وفيما يأتي رأي القرآن الجامع في الشّعراء، قال تعالىٰ: ﴿**وَٱلشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ...**﴾[1] نلحظ هنا أنّ القرآن الكريم ذمّ شعراء المشركين الّذين ينضمّ إليهم شعراء الجاهليّة أيضاً، واتّهمهم بقول ما لا يفعلون. لكنّه استثنىٰ المؤمنين منهم كبعد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، وحسّان بن ثابت وسائر شعراء المؤمنين الّذين مدحوا رسول الله ﷺ، وردّوا هجاء مَنْ هجاه[2]. وفي الختام ينبغي أن نشير إلىٰ أنّ بعض الرّواة ذكر أنّ النّبيّ ﷺ جعل الشّعر في مستوىٰ علم الأنساب الّذي لا ينفع من علمه ولا يضرّ مَنْ جَهِله[3].

علم الأنساب

إنّ إحدى الضّرورات الأُخرىٰ لحياة العرب في الجاهليّة، مع ذلك التّفرّق والتّشتّت كلّه، هي معرفة القبيلة نفسها، وصيرورتها نسّابةً، وإدراكها أُرومة القبائل، وإحاطتها بالتّقسيمات الدّاخليّة للقبائل واستقلال كلّ عشيرة عن غيرها، وعلمها بآباء القبائل وأجدادها فرداً فرداً، واطّلاعها أحياناً علىٰ أخبارها وبطولاتها. ولم يشعر أحد بشخصيّته خارج قبيلته وقيمها، من هنا كان يسعىٰ في حفظ كلّ قيمة مأثورة من ماضي قبيلته ويتباهىٰ بها. وقال الآلوسيّ في ضرورة علم الأنساب عند العرب في الجاهليّة: والعرب في الجاهليّة كان لهم مزيد اعتناء بضبطه ومعرفته فإنّه أحد أسباب

---

(١) الشّعراء: ٢٢٤ـ٢٢٧.
(٢) مجمع *البيان* ٧: ٢٠٨.
(٣) *التراتيب الإداريّة* ٢: ٢٣٠.

الألفة والتّناصر، وهم كانوا أحوج شيء إلىٰ ذلك حيث كانوا قبائل متفرّقين، وأحزاباً مختلفين، لم تزل نيران الحروب مستعرة بينهم، والغارات ثائرة فيهم، فإنّهم امتنعوا عن سلطان يقهرهم، ويكفّ الأذىٰ عنهم، فحفظوا أنسابهم ليكونوا متظافرين به علىٰ خصومهم، ومتناصرين علىٰ من شاققهم وعاداهم، لأنّ تعاطف الأرحام، وحميّة الأقارب يبعثان على التّناصر والألفة ويمنعان من التخاذل والفرقة[١]. وهذه الحاجة أفضت إلىٰ تمتّع النّسّابين في كلّ قبيلة بمنزلة اجتماعيّة جيّدة لأنّهم مراجع النّاس في الأنساب[٢]. علىٰ أيّ حال كان هذا علماً ونحن نقرّ بأنّ أحد علوم العرب هو علم الأنساب[٣].

إنّ المهمّ هنا هو تحليل قيمة هذا العلم. وننقل هنا حديثاً نبويّاً في هذا الباب. فقد ورد أنّ النّبيّ ﷺ دخل المسجد ذات يوم فرأىٰ عدداً من الناس مجتمعين حول رجل، فقال: من هذا؟ فقالوا: علّامة. فقال: في أيّ شيء؟ فقالوا: هو أعلم النّاس بأنساب العرب... فقال ﷺ : هذا علم لا ينفع وجهل لا يضرّ[٤]. وهذا ما لا يقرّ به ابن عبد البرّ، فقد قال: ... لم يُنصف من زعم أنّ علم النّسب علم لا ينفع وجهله لا يضرّ! ومن الطّبيعيّ أنّ ابن عبد البرّ لا يرى الحديث المذكور صحيحاً[٥]. ويقدّم النّسّابون المسلمون أدلّتهم علىٰ لزوم معرفة الأنساب من منظار الدّين لما تستدعيه ضرورة عملهم. وذكر ابن حزم عدداً من النّقاط في هذا المجال: أوّلاً: ضرورة معرفة النّبيّ ﷺ ونسبه. ثانياً: الخلافة في أبناء قريش فينبغي معرفتهم لئلّا يدّعي الخلافة غَيرهم. ثالثاً: معرفة الصّحابة، ومعرفة الأنصار لأمر النّبيّ ﷺ بالإحسان إليهم،

---

(١) *بلوغ الأرب* ٣: ١٨٢.
(٢) *المفصّل* ١: ٤٧٢. وذكر أسماء أهمّ النسّابين.
(٣) *المختصر في أخبار البشر* ١: ٩٩.
(٤) *لسان الميزان* ٣: ١٠٤؛ *التراتيب الإداريّة* ٢: ٢٣٠.
(٥) *بلوغ الأرب* ٣: ١٨٧.

فعلينا أن نعرفهم حتّىٰ يتسنّىٰ لنا أن نُحسن إليهم. وقال بعد هذه التّوجيهات: فلا يصحّ قول من يعتقد أنّ علم الأنساب لا ينفع وجهله لا يضرّ[١].

ويتعيّن الالتفات إلىٰ أنّ هؤلاء كانوا يستغلّون هذا الموضوع في فخرهم والدّفاع عن مجدهم وشرف قبيلتهم. ولمّا كان رؤساء القبيلة وأبطالها، وطهارة المولد وأمثالها معايير لتحديد القيم، فالعلم بها وبما يرتبط بالقبيلة من شؤون كأيّها أفضل رؤساءً وأكثر أبطالاً أو أيّها من أبناء العرب الأُصلاء الأقحاح، كلّ ذلك يُقام له وزنه عند القبيلة. والدليل علىٰ هذا الأمر أنّ لها نسّابيها المعروفين، المشهورين بالحكّام في أمر النّسب. وعندما كان يتنازع اثنان في هذا الموضوع فإنّهم يقضون بينهما. ومن هؤلاء: مخرمة بن نوفل، وحويطب بن عبد العزّىٰ، وأبو الجهم بن حذيفة، وعقيل بن أبي طالب[٢]. والدليل الآخر عليه أنّ مصدر كلمة (المنافرة) هو الفخر بالقيم النّسبيّة. وأصلها من «نَفَر». ونحن نعلم أنّ أحد ضروب الفخر عند كلّ قبيلة هو كثرة أنفارها قياساً بالقبائل الأُخرىٰ، من هنا عُرف النّزاع علىٰ هذه المسألة بالمنافرة[٣].

وكان للنّسب قيمته البالغة عند من لم يزل متخلّقاً بأخلاق الجاهليّة من المسلمين. وكان زياد بن أبيه من أصحاب عليٍّ عليه السلام في بادئ أمره، ثمّ انحاز إلىٰ معاوية وصار من ألدّ أعداء آل عليّ عليه السلام بعد أن استلحقه معاوية وشهد علىٰ ذلك جماعة حسب تقاليد الجاهليّة[٤]. وقال كسرىٰ للنعمان بن المنذر: هل في العرب قبيلة تشرف علىٰ قبيلة؟ قال: نعم. قال: فبأيّ شيء؟ قال: من كانت له ثلاثة آباء متوالية رؤساء[٥]. وأشار القرآن الكريم إلىٰ هذا الموضوع في سورة التكاثر، عندما تفاخر حيّان من قريش وتكاثرا بالسّيادة والإشراف بالإسلام، فقال كلّ حيّ منهم: نحن أكثر سادةً، وأعظم

---

(١) *جمهرة أنساب العرب*: ٢ ـ ٣.

(٢) *المنمّق*: ٤٨٢.

(٣) *بلوغ الأرب* ١: ٢٨٨.

(٤) *لسان الميزان* ٢: ٤٩٣، ٤٩٤.

(٥) *بلوغ الأرب* ١: ٢٨٢.

رجالاً، وأكثر قادةً ولمّا لم يحصلوا علىٰ شيء من التّفاخر بالأحياء، ذهبوا إلى القبور للتكاثر بالأموات، فنزلت هذه السّورة علىٰ ما نقل بعض المفسّرين[١]. فقال النّبيّ ﷺ:

«من انتسب إلىٰ تسعة آباء يريد بهم عزّاً وكرامةً فهو عاشرهم في النار»[٢].

علم الأيّام

إنّ أحد علوم العرب الّذي يعدّ ضرباً من الاطّلاع العلميّ هو العلم بأيّام العرب. وهذه الأيّام الّتي مرّت على العرب هي الأيّام الّتي كان فيها القتل والحرب وإراقة الدّماء بين شتّى القبائل. وهي الأيّام الّتي تعدّ فخراً للظافر الغالب، وخزياً للمهزوم المغلوب. وهذه الحروب آيةٌ علىٰ قدرة الغالب. ولمّا كانت الكثرة والقدرة والقوّة معايير للتفاضل والمشارفة فإنّ قبيلة الغالب أشرف من قبيلة المغلوب! وبلغت هذه الأيّام وهذه الحروب في الحقيقة مبلغاً أنّ الأدب العربيّ بشعره وخطابته ومفرداته أصبح مديناً لها إلى حدّ كبير. وكانت الخطب الّتي تُلقىٰ والأشعار الّتي تُنشد في تلك الأيّام تستهدف إثارة العدوّ أو تحريضه على الهجوم أو رثاء القتلىٰ. وقال المغيرة بن زرارة الأسيديّ ليزدجرد: كان ديننا وديدننا غابراً أنّ بعضنا يقتل بعضاً[٣]. وخصّصت المجموعات الأدبيّة العربيّة كثيراً من صفحاتها لذكر «أيّام العرب» ووقائع تلك الأيّام[٤]. قال الآلوسيّ:

«اعلم أنّ العرب في الجاهليّة لم يزالوا في كرّ وفرّ وغارات ومحاربات. أرخصوا نفوسهم في طلب العزّ وإشادة المجد... حتّى أصبحوا كلّهم فرساناً كماة»[٥].

---

(١) *بلوغ الأرب* ١: ٢٧٩؛ *الميزان* ٢٠: ٤٩٨؛ *أسباب النزول*: ٣٠٥.

(٢) *لسان الميزان* ٣: ٥٠.

(٣) *بهج الصّباغة* ٢: ١٦٨.

(٤) انظر: *بلوغ الأرب* ٢: ٦٨ فما بعدها.

(٥) نفسه ٢: ١٢٤.

وفي ضوء هذه المنازعات والبطولات يتسنّىٰ لنا أن نشهد الشّجاعة وأمثالها هناك. ولا جرم أنّ الحياة القاسية في البادية من جهة، والقتال الدّائم بين القبائل من جهة أُخرىٰ ولّدا هذه الروح عندهم. ولمّا كانت الحروب تُفضي إلىٰ تحديد القيم عندهم، فإنّهم كانوا ينظرون إلى النصر والهزيمة علىٰ أنّهما فضيلة ورذيلة في الحقيقة، والقبيلة الّتي أبطالها أكثر من غيرها تستأثر بفخرٍ ورفعة أكبر بين القبائل جميعها. ورجال مثل ربيعة بن مكرم، وعنترة بن عمرو بن شدّاد، وعامر بن مالك، وزيد الخيل (الّذي سمّاه رسول الله ﷺ زيد الخير)، وعامر بن الطفيل، وعمرو بن معديكرب هم نماذج من أشهر فرسان العرب[١]. وقيل: ليس بين العرب رجل أخطب وأشجع وأحظىٰ عند الملوك من زهير بن جناب بن هبل بن عبد الله. عاش مائتين وخمسين وشهد مائتي واقعة[٢]. وكان لهذه الحروب قيمتها عند العرب حتّىٰ إنّهم كانوا مستعدّين أن يدوسوا علىٰ عقائدهم الدّينيّة من أجل إيقادها. وقد فعلوا ذلك إذ داسوا علىٰ عقيدتهم في حرمة القتال في الأشهر الحرم ـ بتغيير وقتها إلى أشهر أخرىٰ ـ ليتسنّىٰ لهم القتال في الوقت الّذي يريدونه، كما وقعت حرب الفجار في الأشهر المذكورة وعُرفت بهذا الاسم للسبب المشار إليه.

وما نستخلصه ممّا تقدّم هو كلام الدكتور شوقي ضيف إذ يقول ما مضمونه: هذا القسم من العلوم كلّه من النّوع البدائيّ القائم علىٰ أساس التجارب البشريّة الناقصة، غير المرتكز علىٰ قاعدة معيّنة؛ وكان العرب إجمالاً بدواً، ولم يكونوا من أولي العلم والفكر القائم علىٰ أسلوب علميّ[٣].

---

(١) *بلوغ الأرب* ٢: ١٢٥و١٢٨. (٢) *الأغاني* ١٩: ٢١.

(٣) *العصر الجاهليّ*: ٨٥.

ثقافة أهل الكتاب عند العرب

مرّ بنا أنّ العرب الّذين اعتنقوا اليهوديّة والنّصرانيّة كانوا ينظرون إلى اليهود والنّصارىٰ علىٰ أنّهم أفضل منهم لهيبتهم الدّينيّة بوصفهم «أهل الكتاب» الّذين كان لهم رصيد ثقافيّ ليس للعرب مثله في الجاهليّة. وكانت المعلومات التّاريخيّة الواسعة لليهود وقرّاء التوراة والإنجيل، ومعرفة القصص العجيبة باعِثَين علىٰ إظهارهم بمظهر المستعلي على العرب في العصر الجاهليّ، بيد أنّ هؤلاء العرب الّذين كانوا يرون اليهود والنّصارىٰ أفضل منهم قلّما يغيّرون عقائدهم بسبب التعصّب القبليّ الخاصّ وطاعتهم آباءهم وأجدادهم، وكان يتشدّدون في الاحتفاظ بوثنيّتهم، لكنّهم ـ علىٰ أيّ حال ـ كانوا يحسبون أهل الكتاب أفضل منهم ثقافيّاً.

ويقول ابن خلدون:

«وإذا تشوّقوا (العرب) إلىٰ معرفة شيء ... في أسباب المكوّنات وبدء الخليقة وأسرار الوجود فإنّما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدونه منهم وهم أهل التّوراة من اليهود ومَن تَبع دينهم من النصارىٰ، وأهل التّوراة الّذين بين العرب يومئذٍ بادية مثلهم ولا يعرفون من ذلك إلّا ما تعرفه العامّة من أهل الكتاب»[١].

وذكر شوقي ضيف أيضاً أنّ النّصارىٰ في الجاهليّة كانوا لا يعرفون من دينهم إلّا ظاهره ولم يقفوا علىٰ حدوده الدقيقة[٢]. ونُقل عن أُميّة بن أبي الصّلت شعر نلحظ فيه ألفاظاً من مصطلحات أهل الكتاب، ممّا يدلّ علىٰ تأثيرهم الثّقافيّ في العرب إبّان العصر الجاهليّ. وأقرّ جواد علي بهذا التأثير، بيد أنّه ذهب إلىٰ أنّ قسماً من هذه الأشعار وليد العصر الإسلاميّ[٣].

---

(١) *تاريخ ابن خلدون* ١: ٤٣٩.

(٢) *العصر الجاهليّ*: ١٠١.

(٣) *المفصّل* ١: ٤١٣ـ٤١٦.

ومن الأدلّة على السّيطرة الثقافيّة لأهل الكتاب على العرب في الجاهليّة أنّ أبا سفيان زعيم قريش كان يسأل كعب بن الأشرف اليهوديّ ويقول: ديننا خيرٌ أم دين محمّد! من جهة أُخرىٰ أوفد كفّار قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلىٰ أحبار اليهود في المدينة ليسألوهم عن دين محمّد ﷺ ويتحدّثوا لهم عن صفاته بوصفهم أهل الكتاب(١). وجاء اليهوديان حيّ بن أخطب وكعب بن الأشرف إلىٰ مكّة، فقال لهما أهلها: أنتما من أهل الكتاب والعلم القديم أخبرانا عن ديننا ودين محمّد، فقالا لهم: أنتم أهدىٰ سبيلاً منهم(٢). وجاء في خبر آخر أنّ كفّار قريش عندما لجأوا إلى اليهود متلمّسين حلّاً منهم طلب منهم اليهود أن يسألوا النّبيّ ﷺ ثلاثة أسئلة ترتبط بالروح، وذي القرنين، وأصحاب الكهف(٣). وحينما تشاجر يهوديّ وعربيّ وأرادا اختيار قاضٍ يحكم بينهما اختار العربيّ كعبَ بن الأشرف في حين أنّ اليهوديّ اتّهمه بالرشوة واختار النبيّ ﷺ ليحكم بينهما(٤).

ونظراً إلىٰ هذه النماذج يتسنّىٰ لنا أن نفهم أنّ قريشاً الّتي كانت أكبر القبائل العربيّة قداسةً، وتدّعي أنّها أهل الحُمْس (التّشدّد في الدّين) كانت خانعة أمام اليهود بهذا الشكل الّذي رأيناه. واستمرّت هذه السّيطرة الثّقافيّة بعد ذلك، وحافظ مسلمو أهل الكتاب علىٰ هذه السّيطرة من خلال نقل قصص التّوراة والإنجيل وكلماتها القصار. ونقل ابن جرير، وابن أبي حاتم، والدّارميّ في مسنده عن طريق عمرو بن دينار، عن يحيىٰ بن جعدة أنّ عدداً من المسلمين كانوا يكتبون بعض المعلومات الّتي يسمعونها من اليهود، فقال النّبيّ ﷺ ما مضمونه: كفىٰ بأمّة ضلالةً أن تعرض عمّا جاء به نبيّها،

---

(١) *السيرة الحلبيّة* ١: ٣١. (٢) *أسباب النّزول*: ١٠٣، ١٠٤.

(٣) *لباب النقول*: ١٤٣؛ وانظر: *أسباب النزول*: ١٩٧؛ *تفسير ابن كثير* ٣: ٧١، ٧٢.

(٤) *مجمع البيان* ٣: ٦٥، عن ابن عبّاس، ومجاهد، والربيع، والضّحّاك.

وتقبل علىٰ ما جاء به غيره، فنزلت هذه الآية[١]: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾[٢]. وحاول النّبيّ ﷺ كثيراً أن يحدّ من سيطرتهم الثّقافيّة هذه. وقال مراراً: «لا تأخذوا دينَكم مِن مُسلم أهل الكـتاب»[٣]. ونلحظ في موضع آخر أنّ عمر بن الخطّاب لمّا أتى النّبيّ ﷺ بـصحف مـن التّـوراة تـغيّر وجـه النّـبيّ ﷺ وأنحـى الحاضرون باللائمة علىٰ عمر بسبب عمله المذكور[٤]. ونقرأ في خبر آخر أنّ حفصة زوجة النّبيّ ﷺ جاءته بصحيفةٍ فيها قصّة يوسف عليه السلام فتغيّر وجهه لفرط غضبه[٥]. بيد أنّ المؤسف هو أنّ أشخاصاً ككعب الأحبار، وأبي الدرداء كانوا أحراراً في نقل التّوراة والقَصص بعد النّبيّ ﷺ فتعزّزت السّيطرة الثّقافيّة السّابقة لأهل الكـتاب. وذكر الكتانيّ أنّ كثيراً من الصّحابة أخذوا علومهم من كعب الأحبار، وأنّ مـعاذاً أوصىٰ بالحضور عند أبي الدرداء، وابن مسعود، وعبد الله بن سلام لطلب العلم[٦].

---

(١) *لباب النقول*: ١٦٧. (٢) العنكبوت: ٥١.

(٣) انظر: *صحيح البخاريّ*، كتاب تفسير القرآن، الباب ٤٢.

(٤) *المصنّف* ٦: ١١٢، ١١٣. (٥) نفسه: ١١٤.

(٦) *التراتيب الإداريّة* ٢: ٣٢٦، ٣٢٧.

(٣)

بداية الإسلام

بداية الوحي

بدأت إرهاصات الوحي في غارحراء بعد أن بلغالنّبيّ ﷺ أربعين سنةً من عمره. ووردت في المصادر التّاريخيّة معلومات حول كيفيّة إقامة النّبيّ ﷺ في غار حراء وسابقة ذلك في الجاهليّة، وهي تحتاج إلى البحث والتأمّل. ويصطلح علىٰ إقامته ﷺ في الغار: التحنّث. والحنث في اللغة هو الإثم، والتحنّث هو التحرّز من الإثم، وهو التّعبّد لله تعالىٰ في معناه الإثباتيّ. وعُرف به «الحنفاء» في الجاهليّة[1]. ومنه كلام حكيم بن حزام الّذي كان «في الجاهليّة يتحنّث في بعض المسائل كصلة الرحم، ودفع الصّدقة». أي: كان يتقرّب إلى الله بهذه الأمور[2]. علىٰ أيّ حال، استعمال التّحنّث في التّعبّد نوع من المجاز علىٰ خلاف معناه الحقيقيّ ـ الإثم ـ في «الاجتناب عن الإثم»[3].

يقع غار حراء علىٰ جبل بهذا الاسم في الشّمال الشّرقيّ من مكّة علىٰ بعد فرسخين

---

(١) قال ابن هشام في معنى التحنّث: تقول العرب: التحنّث والتحنّف، يريدون الحنفيّة، فيُبدلون الفاء من الثاء كما قالوا جدث وجدف، يريدون القبر (*السّيرة النّبويّة* ١: ٢٣٥) من هنا، فالحنث هو الحنف أساساً.

(٢) ***تاج العروس*** ٥: ٢٢٤، ٢٢٥. قيل إنّ التحنّث معرّبة عن الأصل العبريّ وهو «يحينوت» أو «تحينوث». وتعني بالعبريّة الاعتكاف والانقطاع إلى الله بالصّلاة والدعاء؛ انظر: ***تاريخ العرب في الإسلام***: ١٦٣.

(٣) النموذج الآخر له قولهم: «فلان يتنجّس» في من يحاول تطهير النّجاسة.

عنها[1]، ويعرف أيضاً بجبل النّور. وذُكر هذا الجبل في عداد بعض الجبال المقدّسة. ومن المحتمل أنّ هذه القداسة قبل الإسلام عُرف بها الحنفاء كـحدّ أدنىٰ. وجـاء في حديث عن أنس أنّ رسول الله ﷺ قال: لمّا تجلّىٰ الله عزّ وجـلّ للـجبل تشـظّىٰ فطارت لطلعته ثلاثة أجبل فوقعت بمكّة، وثلاثة أجبل فوقعت بالمدينة؛ فوقع بمكّة حراء، وثبير، وثور؛ ووقع بالمدينة أحد، وورقان، ورضـوىٰ[2]. وقـيل: إنّ جـبل حراء كان من المصادر الّتي تزوّد الكعبة بيت الله بالحجر[3]. وذُكـر هـذا الجـبل في مصادر أُخرىٰ إلىٰ جانب جبال مقدّسة مثل طور سيناء، والجوديّ[4]. وجاء في نصّ مكتوب حرّره عبد المطّلب مع قبيلة خزاعة أنّهم سـيتّحدون مـا دام حـراء وثـبير قائمين[5]. وأنشد أبو طالب في الجبال الثلاثة المقدّسة بمكّة قائلاً:

وثورٍ وَمَنْ أرسىٰ ثبيراً مكانه   وراقٍ ليرقىٰ في حراء ونازلِ[6]

ولا يتسنّىٰ لنا أن نُبدي رأياً قاطعاً في التّحنّث بغار حراء، هل كان سنّةً متداولةً بين العرب أو قريش. وينبغي الالتفات سلفاً إلىٰ أنّ غار حراء كان لا يسع أكثر من بضع نَفَر، وورد أنّ سنّة التحنّث كانت في شهر رمضان فحسب. من هنا لا يمكن أن تكون سنّةً شائعة. يقول ابن عبّاس:

«كانت قريش إذا دخل رمضان خرج من يريد التحنّث منها إلىٰ حراء، فـيقيم فـيه شهراً، ويطعم من يأتيه من المساكين، حتّىٰ إذا رأوا هلال شوّال لم يدخل الرجل علىٰ أهله حتّىٰ يطوف بالبيت أُسبوعاً، فكان رسول الله ﷺ يفعل ذلك»[7].

---

(١) حول مكانه الدقيق انظر: *أخبار مكّة* ٢: ٢٨٨؛ *معجم البلدان* ٢: ٢٣٣، ويقع الآن في نطاق مكّة.

(٢) *أخبار مكّة* ٢: ٢٨١؛ كتاب *مناسك وأماكن طرق الحجّ ومعالم الجزيرة*: ٤٠٦.

(٣) *أخبار مكّة*: ١: ٢٢٢.

(٤) انظر: نفسه ١: ٣٦؛ *ومناسك وأماكن طرق الحجّ*: ٤٨١.

(٥) *المغازي* ٢: ٧٨١.

(٦) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٢٣٥.

(٧) *أنساب الأشراف* ١: ١٠٥.

والمألوف أنّ هذا الأمركان يرتبط بعدد قليل من قريش، ولعلّه ـ كما ذكرنا سابقاً ـ كان من سجيّة الحنفاء أنفسهم، بخاصّة قد قيل: إنّ عبد المطّلب هو الّذي سنّه لقريش[١]. وقيل أيضاً: إنّ المتألّهين الآخرين بعده قد فعلوا هكذا، بيد أنّه لم يُذكر منهم إلّا اثنان وهما ورقة بن نوفل، وأبو أميّة بن المغيرة[٢]. وفي مقابل هذه المعلومات يقول ابن حزم:

«كان رسول الله ﷺ ينفرد متقرّباً إلى الله عزّ وجلّ في غارٍ معروف بغار حراء، حُبِّب إليه صلوات الله وسلامه عليه ذلك، لم يأمره بذلك أحد من الناس، ولا رأىٰ من يفعل ذلك فتأسّىٰ به، وإنّما أراده الله تعالىٰ لذلك، فكان يبقىٰ فيه عليه الصّلاة والسلام الأيّام والليالي، ففيه أتاه الوحي»[٣].

ومن الثابت أنّ رسول الله ﷺ كان يفعل هذا وحده، ومن المستبعَد وجود هذه السنّة قبله بنحوٍ جادّ.

وجاء في أكثر المعلومات التّاريخيّة المنقولة أنّه ﷺ كان وحده في غار حراء، وكان يُحمل إليه مقدار من الزاد بين الحين والآخر، وبعد نفاده كانت تُعاد الكرّة لأيّام أُخَر. لكنّ معلومات أُخرىٰ ذكرت أنّ أهله كانت معه أيضاً[٤].

ولم ترد معلومات دقيقة حول كيفيّة التّحنّث إلّا ما نخمّنه بقوّة، وهو أنّ الاعتزال نفسه، والتفكّر في خلق الله وعبوديّة الحقّ هي أهمّ الأعمال الشائعة في مثل هذا

---

(١) *السّيرة الحلبيّة* ١: ٢٣٧؛ *سبل الهدىٰ والرشاد* ٢: ٣١٩. قيل: لمّا كان عبد المطّلب هو أوّل من تحنّث في غار حراء، لذلك كانت قريش تحفظ هذا الحق لحفيده محمّد ﷺ.

(٢) *السّيرة الحلبيّة* ١: ٢٣٧؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٢: ٣١٩.

(٣) *جوامع السّيرة النّبويّة*: ٣٦.

(٤) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٢٣٦؛ *سبل الهدىٰ والرشاد* ٢: ٣١٢. وحيناً معه أهله، وآخر معه أولاده. انظر: *السّيرة الحلبيّة* ١: ٢٣٧.

الاعتكاف[١]. وفي الحقيقة كان هذا الاعتزال بداية الحياة الروحيّة للرّسول الأكرم ﷺ واتّصاله بالوحي، وكان تمهيداً للبعثة ونزول الوحي عليه. وقيل: إنّ الجلوس في غار حراء كانت ترافقه ثلاثة أشياء: الاختلاء، والتعبّد، والنّظر إلى الكعبة[٢].

نزلت الآيات القرآنيّة الأُولىٰ على النّبيّ ﷺ في غار حراء. وذكرت المصادر التّاريخيّة والحديثيّة روايات عديدة حول كيفيّة تعرّف النّبيّ ﷺ على الوحي وحامله جبرئيل. ويضاف إلىٰ ما في هذه الروايات من جوانب تاريخيّة وجود نقاط ترتبط بمباحث كلاميّة مثل ماهيّة الوحي، وعصمة النّبيّ ﷺ. وبالنظر إلى الخلاف الموجود في أسس المذاهب الإسلاميّة حول المسائل المتقدّمة، فقد تعرّضت الروايات المذكورة إلىٰ تفاسير مختلفة، بل أُنكرت أيضاً. وينبغي أن نشير في البداية إلىٰ أنّ مجموع الروايات الّتي وصلت إلينا حول الوحي الأوّل منقولة عن قسم من الصّحابة الّذين يلحظ في نقلهم عدد من وجوه الالتقاء والافتراق. والراوي الأصليّ للوحي الأوّل عند ابن إسحاق هو عبيد بن عمير بن قتادة الليثيّ. وواسطة ابن اسحاق في النّقل عن عبيد هو وهب بن كيسان أحد موالي آل الزّبير. ونلحظ هنا أنّ لعبد الله بن الزّبير يداً في هذا النقل، إذ طلب من عبيد أن ينقل قصّة البعثة[٣]. وثمّة رواية أُخرىٰ عن ابن إسحاق، عن الزّهريّ، عن عروة بن الزّبير عن عائشة[٤]. والنقل الآخر

---

(١) انظر: *السّيرة الحلبيّة* ١: ٢٣٦، ٢٣٧. (٢) *سبل الهدىٰ والرشاد* ٢: ٣١٩.

(٣) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٢٣٥؛ *تاريخ الطبريّ* ٢: ٣٠٠، ٣٠١.

(٤) *تاريخ الطّبريّ* ٢: ٢٩٨، ٢٩٩؛ *مغازي رسول الله* ﷺ، *عروة بن الزبير*: ١٠٠ ـ ١٠٢؛ *دلائل النّبوّة*، البيهقيّ ٢: ١٣٥ ـ ١٣٧. وذكره البخاريّ ومسلم أيضاً. وروي في بعض المصادر عن الزهريّ مباشرة (مثل: *دلائل النّبوّة* ٢: ١٤٣، ١٤٤).

للواقعة هو عن سليمان الشّيبانيّ، عن عبد الله بن شدّاد[١]. وهناك نقل عن إسماعيل بن أبي حكيم، وهو من موالي آل الزّبير[٢]. وأورد البلاذريّ عدداً من الروايات أيضاً عن ابن عبّاس[٣]. ونجد نقلاً عن أبيمسيرة أيضاً[٤]. وذكر جابر بن عبدالله الأنصاريّ بداية الوحي نقلاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[٥].

ونلحظ في هذه المنقولات بعامّة نقطة ثابتة، وهي وجود الزبيريّين ومن دار في فلكهم. فشخصان من موالي آل الزبير مضافاً إلىٰ عبد الله بن الزبير، وأخيه عروة، وعائشة (خالتهما) لهم حضور في معظمها؛ يضاف إلى ذلك أنّ عائشة، وابن عبّاس لا يتسنّىٰ لهما أن يكونا راويين مستقلّين للحادثة بسبب صغر سنّهما. علماً أنّ الإشكال يرافق حوادث مكّة في كثير من المواطن. فالإشكال في وجود آل الزّبير في هذه الواقعة يرتبط إلىٰ حدٍّ ما بورقة بن نوفل، وخديجة عليها السلام، والحكاية الّتي تُنقل بشأن نبوّة النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. ونحن نعلم أنّ هذه الطّائفة هي من بني أسد، ومن قريش. علىٰ أيّ حال ينبغي أن ننقل قسماً مهمّاً من هذه الروايات ثمّ نناقشها.

تقول عائشة (النقل بالمضمون لا بالنصّ): كان أوّل الوحي النازل علىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رؤيا صادقة ألهمت له في النوم، وتحقّقت في اليقظة كالفجر. ثمّ إنّه رغب في الاعتزال للتحنّث، وبقي في غار حراء بعض الليالي والأيّام حتّىٰ نزل عليه المَلَك قائلاً: اقرأ. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: لا أستطيع أن أقرأ. فضغطه الملك وطلب منه مرّة أخرىٰ أن يقرأ، فأجاب كجوابه الأوّل واحتمل الضغط. وفي المرّة الثالثة تلا عليه الملك الآيات

---

(١) *تاريخ الطّبريّ*: ٢٩٩، ٣٠٠.
(٢) نفسه: ٣٠٢، ٣٠٣.
(٣) *أنساب الأشراف* ١: ١٠٤، ١٠٥، رقم ١٩٠ ـ ١٩٥؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ١٩٤، ١٩٥.
(٤) *أنساب الأشراف* ١: ١٠٥، رقم ١٩٣.
(٥) *دلائل النّبوّة*، البيهقيّ ٢: ١٣٩ (ونُقل عن البخاريّ أيضاً في الهامش). للاطّلاع على الوثائق الأُخرىٰ للواقعة انظر: *سبل الهدىٰ والرشاد* ٢: ٣١١.

الأُولىٰ من سورة العَلَق، ففزع واضطرب ورجع إلىٰ بيته وطلب أن يدثّروه لإزالة فزعه. فسألته خديجة، وحين رأته بتلك الحالة قالت له: لن يتركك الله، إنّك لتصل الرحم، وتعطي الصّدقة، وتُقري الضّيف. ثمّ ذهبت إلىٰ ورقة بن نوفل وسألته عن قصّة نزول المَلَك. فقال لها: هو النّاموس الّذي كان ينزل علىٰ موسىٰ. وتمنّىٰ أن يطول عمره حتّى يدرك النّبيّ ﷺ وينصره[١].

ورد هذا النقل الّذي تعدّ عائشة مصدره الأوّل باختلافات متعدّدة عن طرق متباينة وفي مصادر متنوّعة. ثمّة روايات أُخرىٰ أيضاً تنطوي علىٰ هذه الموارد إلىٰ حدٍّ ما إلّا أنّ فقرات كلٍّ منها تتفاوت بين الشدّة والضعف. يقول عبيد بن عمير: هبط جبرئيل وبيده كتاب وطلب من رسول الله ﷺ أن يقرأ. وعندما قال له النّبيّ ﷺ: لستُ بقارئ، ضغطه ضغطةً أحسّ فيها أنّ الموت قد غشيه. وحين رجع سمع صوت جبرئيل وهو يخاطبه بالرّسالة، وكان ظاهراً في آفاق السّماء كلّها. ونلحظ في رواية ابن عبّاس نقلاً للقسم الأخير من الرّواية الآنفة الذّكر؛ أي: بعد نزول الآيات الأولىٰ على النّبيّ نازلاً من الجبل، شاهد جبرئيل في الأُفق[٢].

إنّ المشكلة الكبرىٰ في هذه الرّايات ارتياب النّبيّ ﷺ في نبوّته، وهو أمر مثير للإشكال من الوجهة الدّينيّة والكلاميّة. ونقرأ في التّاريخ أنّ وسائط إثبات هذه النّبوّة في الرّوايات المرتبطة ببداية الوحي تتمثّل في ورقة بن نوفل، وبعضها في نسطور المسيحيّ، وعدّاس[٣]، وغيرهما من المجهول أمر معظمهم. ولم تستبنْ إلى الآن شخصيّة ورقة وزمان وفاته[٤]، وهل مات على النّصرانيّة أو على الإسلام. وأورد ابن عساكر

---

(١) **دلائل النّبوّة** ١: ١٣٥ ـ ١٣٧. (٢) **أنساب الأشراف** ١: ١٠٤.

(٣) أسلم في وقعة الطّائف. ولم يُشر المؤرّخون إلىٰ دوره في بداية الوحي عند حديثهم عن إسلامه.

(٤) انظر: ***الصحيح من سيرة النّبيّ*** ١: ٢٢٨، ٢٢٩ للاطّلاع على المزاعم المتضاربة في إسلامه أو كفره، ⇐

أنّ أحداً لم يذكر أنّه أسلم، في حين ذهب البعض إلىٰ أنّه كان أوّل من أسلم[1].
ومرّت الإشارة إلىٰ أنّ تسليط الضوء علىٰ دور ورقة يرمي إلىٰ تضخيم دور بني أسد في القضايا المرتبطة بعصر صدر الإسلام. ويبدو متعذّراً أنْ نقرّ بأنّ رسول الله ﷺ قد بعث وهو غير عارف بوضعه معرفةً وافيةً. وإنّه لأمر عويص علماً أنّه ورد في أخبار مأثورة عن أشخاص معيّنين لا يصلحون ـ نوعاً ما ـ لنقل الوقائع المرتبطة بأوّل الوحي. والموضوع الآخر هو ضغط النّبيّ ﷺ ليقرأ شيئاً لم يعرفه. ومن الطّبيعيّ أنّ تحمّل الوحي أمر عسير وكان رسول الله ﷺ تعتريه رعشةٌ شديدةٌ عند تلقّي الوحي[2]. علىٰ أيّ حال بداية الوحي لا يمكن أن تكون عاديّة على النّبيّ ﷺ، لكن لا علىٰ حساب أبسط الأُصول العقليّة والدّينيّة في أمر الوحي والنبوّة فينساها مثلاً. ونقرأ في روايات مأثورةٍ عن الإمام الصّادق عليه السلام تأكيداً لطمأنينة النّبي ﷺ في تلقّيه الوحي، فقد قال في سؤالٍ حول كيفيّة معرفة الرّسل رسالتهم: يماط عن وجوههم الحجاب[3]. ويبيّن الله تعالىٰ هذه الطمأنينة بقوله: ﴿**قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِن**

⇐ وهل مات في البداية أو ظلّ حيّاً إلىٰ ما بعد إذن المسلمين بالقتال، وغير ذلك من الأخبار المضطربة حوله.
ومن الطريف نقل شعرٍ له في النّبيّ ﷺ والإسلام، وهو مثار شكٍّ. انظر: ***دلائل النّبوّة*** ١: ١٥٠؛ ***البداية والنّهاية*** ٣: ١٠ ـ ١٣؛ ***سبل الهدىٰ والرّشاد*** ٢: ٣١٧ ـ ٣١٨. ومن النقاط الطّريفة أيضاً ما نُقل عن النّبيّ ﷺ أنّه رآه في حلّة بيضاء (أي: إنّه من أهل الجنّة) مع النّصّ الوارد في عدم إسلامه بعامّة. (***سبل الهدىٰ*** ٢: ١٣٢٧). أمّا أبو طالب الّذي كان حامياً للنّبيّ ﷺ على طول عصر البعثة فهو في النّار بزعمهم! فمن الجلاء بمكان أنّ هذه الأخبار موضوعة.

(١) ***الإصابة*** ٣: ٦٣٣؛ ***إرشاد السّاري*** ١: ٦٧ نقلاً عن ***الصحيح من سيرة النّبيّ*** ﷺ ١: ٢٨٨ ـ ٢٨٩.

(٢) قيل في هذا المجال: كان ضغط جبرئيل عليه لصرف ذهنه عن أشياء أُخرىٰ أو لإراءته أهمّيّة تحمّل الوحي. وحين تبيّن أنّه يتحمّل الضغط المذكور أوحىٰ إليه الله ما أوحىٰ. للاطّلاع علىٰ توجيهات أخرىٰ انظر: ***سبل الهدىٰ والرّشاد*** ٢: ٣٢١، ٣٢٢. وسنلحظ في الآيات الأولىٰ من سورة المزّمّل أنّ الوحي وُصِف بـ«القول الثّقيل».

(٣) ***بحار الأنوار*** ١١: ٥٦؛ وانظر: ١٨: ٢٦٢؛ ***تفسير العيّاشيّ*** ٢: ٢٠١؛ ***التمهيد في علوم القرآن*** ١: ٤٩.

رَبِّى ﴾[١] وقوله: ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِى أَدْعُوا إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾[٢].

وجاء في بعض الرّوايات أنّ النّبيّ ﷺ ذكر بأنّ جبرئيل هبط عليه وهو نائم. وفي حديث عائشة قُرنت بداية الوحي برؤيا صادقة. وينبغي الالتفات إلىٰ أنّ أكثر الرّوايات ذهبت إلىٰ نزول سورة العلق في اليقظة، مضافاً إلىٰ أنّ هذا هو ما ورد في حديث عائشة أيضاً. وقصدها أساساً أنّ الرؤيا الصّادقة كانت متحقّقة كبياض الصّبح قبل نزول الوحي القرآنيّ. من هنا لا ينبغي أن نعتبر الوحي القرآنيّ متحقّقاً في النوم[٣]. وصرّح القرآن الكريم نفسه بالطريقة الّتي يتّصل بها الرّسول بربّه، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾[٤]. وهذا الاتّصال كان صعباً في البداية. فإذا تصوّرنا أنّ بشراً يريد أن يتلقّىٰ كلام الله وهو ما يزال علىٰ طبعه البشريّ، فلا بدّ له أن يواجه صعوبةً. ونلحظ أنّ الآيات الأولىٰ الّتي نزلت على النّبيّ ﷺ أجاءته إلىٰ ردّ الفعل

---

(١) الأنعام: ٥٧.

(٢) يوسف: ١٠٨. قال الطّبرسيّ في نقد رواية منقولة عن جابر بن عبد الله، ونُسب فيها وَهْمُ النّبيّ ﷺ في أوّل الوحي: «... وفي هذا ما فيه لأنّ الله تعالىٰ لا يوحي إلىٰ رسوله إلّا بالبراهين النيّرة والآيات البيّنة الدّالّة علىٰ أنّ ما يوحىٰ إليه إنّما هو من الله تعالى». انظر: **مجمع البيان** ١٠: ٣٨٤؛ جواب الشّامي (*سبل الهدىٰ* ٢: ٣٢٦) هذا الإشكال غير مُقنع أبداً إذ لا يتسنّىٰ لأحدٍ أن يقتنع بأنّ ورقة كان واثقاً بنبوّة محمّد ﷺ أكثر من محمّد ﷺ نفسه!

(٣) لتوجيه هذه الرّوايات انظر: *سبل الهدىٰ والرشاد* ٢: ٣٠٢.

(٤) الشّورىٰ: ٥١. أشار المتكلّمون إلىٰ أنواع الوحي استناداً إلى الآيات والروايات: ١ ـ رؤيا صادقة في النوم وشاهدها قصّة إبراهيم عليه السلام (الصّافات: ١٠٢). ٢ ـ إلقاء الآيات في قلب النّبيّ ﷺ (البقرة: ٩٧؛ الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٤). ٣ ـ سماع صوت الملك الّذي يظهر له. ٤ ـ تكليم الله المباشر من وراء حجاب. ٥ ـ تكليمه بدون حجاب (في ضوء ما ذكره بعض السنّة إذ قال: رأى الرسول بعينه الله تعالى! وهذا كلام جُزاف). ٦ ـ مكالمة الله سبحانه الرسول في النوم. انظر في هذا المجال: الكتب المؤلّفة في علوم القرآن، منها: «الوحي» للاستاذ الأمينيّ، العدد (٥٩) من سلسلة المقالات الّتي نشرها مؤتمر الشيخ المفيد.

حتّىٰ طلب من زوجته أن تزمّله؛ ثمّ ناداه الله تعالىٰ أن يقوم ويُعدّ نفسه لحمل رسالة ثقيلة. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ * قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْآنَ تَرْتِيلاً * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾[١]. وحكىٰ المحدّثون ثقل الوحي هذا أيضاً في أحاديث نقلوها عن شهود[٢]. وقالوا إنّ هذه الآيات نزلت والنّبيّ صلى الله عليه وآله كان مدّثراً. قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَٱلرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾[٣]. ويستشفّ من الآيات الأولىٰ لسورة المزمّل أنّ شيئاً من القرآن كان قد نزل قبل ذلك، والنّبيّ صلى الله عليه وآله يتلوه منتصف الليل أو أقل منه قليلاً. من هنا لا ينبغي أن تكون تلك الآيات قد نزلت مباشرة بعد نزول الآيات الأولىٰ من سورة العلق[٤].

ونقول في الآيات الأولىٰ لسورة المدّثّر أيضاً: إنّ الله سبحانه ألقىٰ عبء رسالة الإنذار علىٰ عاتق رسوله منذ البداية. وإذا صحَّ تأخّر الرّسالة عن النّبوّة، فهذه الآيات لم تنزل في أوّل البعثة. ومن المحتمل أنّ الرّسالة تقارنت مع النّبوّة منذ انبثاقها إلّا أنّ السّياسة العمليّة للنّبيّ صلى الله عليه وآله تطلّبت أن يتّخذ سبيله شيئاً فشيئاً تجنّباً لإثارة المشركين[٥]. وثمّة رواية أُخرىٰ تذهب إلىٰ نزول سورة المدّثّر حين كان رسول الله صلى الله عليه وآله يعاني ضغط المشركين ومضايقتهم إيّاه فادّثّر من شدّة الضغط فنزلت عليه

---

(١) المزمّل: ١ ـ ٥.

(٢) *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٢: ٣٤٣؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ١٩٧؛ *مسند أحمد* ٦: ٤٥٥ ـ ٤٥٨؛ *مجمع البيان* ١٠: ٣٧٨ (وذُكرت هناك معان مختلفة للثقيل).

(٣) المدّثّر: ١ ـ ٥.

(٤) *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٢: ٣٦٦.

(٥) يعتقد الدكتور جواد علي أنّ كلمة «الرسول» وردت في سورة المزّمّل ـ وهي من السور الّتي نزلت في أوّل عصر نزول الوحي ـ في حين لم ترد كلمة «النّبيّ» في السور الأولىٰ. لذا لا يصحّ قول من تصوّر أنّ النّبيّ أخصّ من الرّسول مفهوماً. ويرىٰ أنّ هذا من ثقافة اليهود. بيد أنّ معنىٰ النّبيّ في الإسلام أوسع ممّا جاء في تعاليم اليهود. انظر: *تاريخ العرب في الإسلام*: ١٥٧.

الآيات الأولىٰ من السّورة المذكورة وأمرته بالقيام واستدامة الإنذار[١]. وحينئذٍ ينبغي ألّا تكون لهذه السّورة صلة بالقضايا المتعلّقة بأوّل الوحي. ومهما كان فلا مرية في أنّ الآيات الأولىٰ من سورة العلق كانت أوّل الآيات النّازلة علىٰ رسول الله ﷺ: ﴿ٱقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[٢]. ونرىٰ أنّ أهمّيّة ما تحتويه الآيات المذكورة فيما يرتبط برسالة النّبيّ ﷺ بيّنة جليّة.

إنّ مثار الخلاف حول بداية الوحي هو زمن نزول الآيات الأولىٰ وتاريخ البعثة النّبويّة. وجاء في عدد من الأحاديث المرتبطة بتحنّث النّبيّ ﷺ في غار حراء أنّه كان مشغولاً بالعبادة في شهر رمضان. وإذا ركنّا إلىٰ هذا الكلام، فعلينا أن نقرّ بأنّ الآيات الأُولىٰ من سورة العلق نزلت علىٰ رسول الله ﷺ في شهر رمضان علىٰ جبل حراء. وذهب ابن إسحاق إلىٰ هذا الرأي أيضاً[٣]. واستشهد بثلاث آيات قرآنيّة: الأولى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ ٱلْهُدىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[٤] والثّانية سورة القدر، قال تعالىٰ فيها: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾. والثّالثة الّتي رآها ابن إسحاق تتعلّق بتعيين يوم الفرقان [يوم القرآن][٥] في القرآن، وهو «يوم التقى الجمعان» أي: يوم بدر (١٧ رمضان المبارك). وجاء في تلك الآية: ﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ويرى ابن إسحاق أنّ يوم الفرقان هو يوم القرآن

---

(١) *الدرّ المنثور* ٦: ٢٨١؛ *مجمع البيان* ١٠: ٣٨٦، ٣٨٧.

(٢) العلق: ١ ـ ٥ (أكثر المفسّرين علىٰ أنّ هذه السّورة أوّل ما نزل من القرآن؛ *مجمع البيان* ١٠: ٥١٤).

(٣) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٢٣٩، ٢٤٠. (٤) البقرة: ١٨٥.

(٥) ذهب إلىٰ أنّ الفرقان في هذه الآية هو القرآن لا ما فُرّق به بين الحقّ والباطل.

ـ وهو اليوم السّابع عشر من رمضان ـ لا اليوم الّذي كانت فيه وقعة بدر. أي: اليوم الّذي نزل فيه القرآن على النّبيّ ﷺ. وإذا تساءلنا عن مصدر السابع عشر من رمضان، وجدنا أنّه أُخذ من انطباقه علىٰ يوم بدر الّذي كان في السابع عشر من رمضان عام ٢ هـ. وثمّة رواية مأثورة عن الإمام الباقر عليه‌السلام تدلّ علىٰ أنّ أوّل نزول الملَك علىٰ رسول الله ﷺ كان في اليوم المذكور[١].

وقيل في الآية الواردة في سورة البقرة الّتي تنصّ علىٰ نزول القرآن في شهر رمضان إنّها صريحة في نزول الآيات القرآنيّة الأولىٰ. من هنا فالأقوال الأُخرىٰ الذّاهبة إلىٰ نزول الآيات في وقت آخر تعارض هذه الآية[٢]. بيد أنّ توجيهات أخرىٰ قد وردت بشأن الآية المذكورة. منها أنّ القرآن نزل كلّه إلى السماء الدنيا في شهر رمضان، ثمّ نزل على الرسول ﷺ تدريجاً؛ والدّليل علىٰ ذلك ما جاء في سورة القدر أنّ القرآن نزل في ليلة القدر، ونحتمل أنّ المراد هو القرآن كلّه[٣]. ونحن نعرف أنّ القرآن جميعه لا يمكن أن ينزل على النّبيّ ﷺ في بداية الوحي. ولعلّ رواية البيت المعمور الّذي عُدَّ موضعاً لنزول القرآن كانت لرفع هذا الإشكال. وهي رواية مرفوضة من منظار كثير من الباحثين. علىٰ أيّ حال يمكن أن يقال إنّ الآيات الأولىٰ نزلت في ليلة القدر، وإنّ الآية النازلة ينبغي تحديدها. والمشكلة هي كيف يمكن الجمع بين قول أهل البيت عليهم‌السلام في وقت البعثة المتمثّل في السّابع والعشرين من رجب وبين نزول الآيات الأولىٰ في شهر رمضان؟ يبدو أنّ السبيل الوحيد لذلك هو أن نعتبر تعرّف الرسول ﷺ على الملَك كان قبل نزول الآيات الأولىٰ من سورة العلق. وهذا ما جاء

---

(١) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ١٩٤.   (٢) *تاريخ العرب قبل الإسلام*: ١٥٨، ١٥٩.

(٣) هذا احتمال فحسب إذ لا يمكن القول: إنّ القصد من استعمال كلمة «القرآن» هو القرآن كلّه أو بعضه. في مواضع مثل سورة المزّمّل أُطلق علىٰ جزء منه كان قد نزل حتّىٰ ذلك الحين «ورتّل القرآن ترتيلاً». وحينئذٍ فالاحتمال المذكور مقبول، لأنّ القصد هو المقدار الّذي كان قد نزل حتّىٰ ذلك الوقت.

في بعض المعلومات التاريخيّة أيضاً[١]. في ضوء ذلك كانت أرضيّة التّعرّف على الوحي ممهّدة لرسول الله ﷺ قبل نزول الآيات الأولىٰ. وذهب بعض السّنّة أيضاً إلىٰ أنّ البعثة كانت في ربيع الأوّل، فجمعوا بين كلامهم وبين نزول الآيات الأُولىٰ في شهر رمضان[٢].

وقيل إنّ الوحي قد انقطع مدّة بعد نزول الآيات الأُولىٰ. وتباينت الأقوال في مقدارها بين ثلاث سنين، وسنتين ونصف، وسنة[٣]، وأربعين يوماً (رأي ابن عبّاس)، وخمسة عشر يوماً (ابن الجوزيّ، والفرّاء)، وثلاثة أيّام (مقاتل بن سليمان)[٤]. ولا يتسنّىٰ لنا أن نبدي رأياً في تحديدها علىٰ نحو دقيق، لأنّ الخلاف فيها بلغ مبلغاً يتعذّر فيه الجمع بينها. مبدئيّاً ينبغي أن تكون الفترة طويلة بين نزول سورة العلق وسورة المدّثّر الّتي قيل إنّها نزلت بعد انقطاع الوحي[٥]. ولكن كم كانت؟ نستطيع أن نكتفي بالقول إنّها لا ينبغي أن تكون طويلة جدّاً. وقيل في فلسفة هذه الفترة إنّ الهدف منها إعداد النّبيّ ﷺ روحيّاً بعد نزول الآيات الأُولىٰ عليه[٦]. وتكرّر انقطاع الوحي بعد ذلك مراراً ممّا دفع المشركين إلى التعنيف والتقريع، ومنه إشارة في سورة «الضحىٰ». وهٰذه السورة من السور المكّيّة القديمة أيضاً. قال تعالىٰ فيها ردّاً علىٰ لوم المشركين بسبب تأخير الوحي: ﴿**وَٱلضُّحَىٰ * وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ**﴾[٧].

---

(١) ***الصحيح*** ١: ١٩٥.

(٢) ***سبل الهدىٰ والرّشاد*** ٢: ٣٤٠.

(٣) هذا هو رأي الدكتور راميار، انظر: ***تاريخ القرآن***: ٧٥.

(٤) ***سبل الهدىٰ والرّشاد*** ٢: ٣٦٣. ذهب الشّاميّ إلىٰ صحّة الرأي الأخير.

(٥) ***أنساب الأشراف*** ١: ١٠٨. والقول الآخر هو أنّ سورة «الضحىٰ» كانت أوّل سورة نزلت بعد انقطاع الوحي، ١٠٨، ١٠٩. ونُقل في ص١٠٩ عن ابن عبّاس أنّ الأولىٰ هي «العلق»، ثمّ تلتها «القلم»، ثمّ أعقبتها «المدّثّر» و«المزمّل».

(٦) انظر: ***تاريخ القرآن***، راميار: ٧٢، ٧٣.

(٧) الضُّحىٰ: ١ ـ ٣. وذهب ابن إسحاق إلىٰ أنّ هذه الآيات تعود إلى الفترة التي تلت نزول الآيات الأولىٰ ⇐

كان نزول الوحي علىٰ رسول الله ﷺ مقروناً بظهور حالات خاصّة عليه ﷺ، إذ يحمرّ وجهه، وتأخذه الرّجفة، ويعرق جبينه ويتصبّب العرق علىٰ وجهه، ثمّ يعود إلىٰ حالته الأولىٰ بعد فترة، ويتلو علىٰ مَن حوله مِن أصحابه ما أُوحي إليه من القرآن. وجاء في رواية عن الإمام الصّادق عليه السلام أنّ هذا النوع من الوحي يتحقّق عندما يكلّم الله رسوله مباشرة[١]. وورد أنّ النّبيّ ﷺ كان في بعض الحالات يعجل في قراءة الآيات. قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾[٢]. ولعلّ سبب ذلك ورد في قوله سبحانه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾[٣].

الخطوات الأولىٰ لبثّ الإسلام وتوسيع نطاقه

يبدو أنّ تحديد تاريخ دقيق للتطوّرات الأُولىٰ الّتي رافقت عصر البعثة أمر عسير. ويعود هذا الموضوع إلىٰ قلّة اهتمام الصّحابة بتدوين الوقائع بدقّة[٤]، ووجود أخطاء غير متعمّدة، وإقحام المآرب القبليّة والسياسيّة في نقل الوقائع. وعُنيت مصادر السّيرة بجانبين من تطوّرات المسيرة الإسلاميّة. الأوّل: إسلام الصّحابة بالترتيب. الثّاني: مرحليّة الدّعوة النّبويّة وانتقالها من المرحلة السّرّيّة إلى المرحلة العلنيّة. ويضاف إليهما أنّ المؤرّخين حاولوا من خلال نوع من التّقسيم التّاريخيّ في ضوء التّاريخ المتداول المبتني علىٰ محوريّة واقعة خاصّة، في سنين عصر البعثة، أن يدلّوا على

⇐ (*السّيرة النّبويّة* ١: ٢٤١) بيد أنّ البعض رفض هذا الرأي وذهب إلىٰ أنّ سورة «المدّثّر» هي السورة الأولىٰ بعد الفترة.

(١) ***بحارالأنوار*** ١٨: ٢٥٦، ٢٦٨.

(٢) طه: ١١٤.

(٣) القيامة: ١٧ ـ ١٩.

(٤) يؤكّد الدكتور جواد علي هذا السبب بنحو خاصّ ويذهب إلىٰ أنّه الباعث علىٰ غموض الحدود التاريخيّة لأحداث عصر البعثة. انظر: ***تاريخ العرب قبل الإسلام***: ١٩٢.

الحدود التّاريخيّة للوقائع. منها الذّهاب إلى دار الأرقم، والهجرة إلى الحبشة، وشعب أبي طالب، وغيرها من النّماذج الأُخرىٰ.

أمّا التّرتيب في إسلام الصّحابة فتكتنفه بعض المشاكل، بخاصّة عندما يخضع للنقاش علىٰ أساس مرحليّة الدّعوة أو المحاور التّاريخيّة المذكورة الّتي تعاني من مشكلة التّحديد التّاريخيّ أيضاً. وذهب ابن إسحاق إلىٰ أنّ خديجة هي أوّل من أسلم، ثمّ تلاها من الرّجال الإمام عليّ عليه السلام. وبعد ذلك ذكر زيد بن حارثة، وأبا بكر، وعثمان، والزبير، وابن عوف، وسعد بن أبي وقّاص، وطلحة. ورأىٰ أنّ هؤلاء الثّمانية هم أوّل من أسلموا. ثمّ أورد فهرساً بأسماء مسلمين آخرين قدامىٰ بلا أدنىٰ توضيح[١]. ويذهب كثير من المصادر التّاريخيّة إلىٰ أنّ الإمامَ عليّاً عليه السلام كان أوّل من أسلم. ومن البيّن أنّه عليه السلام كان يعيش في بيت النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم[٢]، فسبقه إلى الإسلام بتلك السّرعة كان أمراً طبيعيّاً. وكذلك سبق خديجة إليه. ويضاف إليهما أنّ زيد بن حارثة كان في عداد موالي النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، فلا بدّ أن يعتنق الإسلام بسرعة أيضاً.

ومن قال أنّ أبا بكر كان أوّل من أسلم، فكلامه لا يتوكّأ علىٰ دعامة من الوجهة التاريخيّة، ولا نمتري في أنّه ناتجٌ من الصّراعات المذهبيّة. وذكر الواقدي أنّ عليّاً عليه السلام رأىٰ خديجة تصلّي مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسأل النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك، فدعاه صلى الله عليه وآله وسلم إلى التّوحيد، واجتناب اللات والعزّىٰ اللّتين لا تنفعان ولا تضرّان. واستأذنه في أن يستشير أباه لكن النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لم يرغب آنذاك تكتّماً على الدّين، فجاءه من الغد وأعلن إسلامه. وهؤلاء الثلاثة أو الأربعة على حدّ تعبير الواقديّ كانوا يحذرون ظهور إسلامهم حتّىٰ لأبي طالب نفسه. ونقل ابن إسحاق أنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وعليّاً عليه السلام

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٢٤٥ ـ ٢٥٢.

(٢) نفسه: ٢٤٥، ٢٤٦ (إشارة إلىٰ ذهاب جعفر إلىٰ بيت العبّاس، وذهاب عليّ عليه السلام إلىٰ بيت النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم) ويذهب ابن إسحاق إلىٰ أنّ هذا الذهاب من نعم الله تعالىٰ علىٰ عليّ عليه السلام.

كانا يذهبان إلىٰ الجبال المحيطة بمكّة ويصلّيان ثمّ يعودان إلىٰ مكّة ليلاً.

وأورد الواقديّ أنّ زيد بن حارثة كان معهما أيضاً. ونقل أنّهم كانوا يصلّون الظهر عند الكعبة، ولم تنكر قريش صلاتهم. أمّا الأوقات الأُخرىٰ فقد كانوا يصلّون حيث لا تعلم بهم قريش. وكان زيد أو الإمام عليّ عليه السلام يراقب الأوضاع يومئذٍ. وكان أبو طالب يتقصّى الحقائق عن ولده عليّ عليه السلام وبعد مدّة عرف ما جرىٰ. وعندما سمع حقيقة الأمر طلب من النّبيّ ﷺ أن يثبت علىٰ كلامه وأمر عليّاً عليه السلام أن يواصل دعمه لابن عمّه[١]. مبدئيّاً ينبغي أن يكون خبر النّبوّة قد شاع بمكّة تدريجاً. وشهد عدد من مسافري مكّة صلاة النّبيّ ﷺ، وعليّ، وخديجة عليهما السلام عند الكعبة.

ولا يستبين كم استغرق ذلك الوضع، بيد أنّا نرىٰ أنّ هذه الأسرة وحدها رضيت الإسلام ديناً حتّىٰ حين. وفي غضون ذلك الحين بدأ النّبيّ ﷺ دعوته سرّيّةً لا علنيةً. ولعلّ ذلك يعود إلىٰ رغبة النّبيّ ﷺ عن إثارة المشركين لمواجهة الإسلام. وذهب المؤرّخون إلىٰ أنّ هذه الدّعوة استغرقت ثلاث سنين. وروى الواقديّ أنّ الدعوة كانت سرّيّة لثلاث سنين ثمّ أُمر النّبيّ ﷺ بإعلانها[٢]. وقال ابن هشام مشيراً إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾: كان رسول الله ﷺ يُسرّ إلىٰ من يثق بهم من أهله بالنّعمة الّتي منّ الله بها عليه[٣]. وقال الزّهريّ: دعا رسول الله ﷺ سرّاً، وكان يجتنب الأصنام. (وجاء في «الطبقات» نقلاً عن الزّهريّ أنّ النّبيّ ﷺ كان يدعو سرّاً وجهراً). وظلّ يدعو حتّىٰ استجاب له ثلّة من الفتيان وضعفة النّاس فزاد عدد المسلمين. وكان هذا في وقت لم ينكر فيه الكبراء من كفّار قريش دين الله،

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٢٤٦، ٢٤٧؛ *أنساب الأشراف* ١: ١١٣ (وورد قسم ممّا ذكرناه أعلاه في سيرة ابن هشام، وقسم آخر في الأنساب).

(٢) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ١٩٩؛ *أنساب الأشراف* ١: ١١٦.

(٣) *السّيرة النّبويّة* ١: ٢٤٣.

وكان رسول الله ﷺ يمرّ بهم فيشيرون إليه قائلين: «ابن عبد المطّلب» يتحدّث عن السّماء. هكذا كان الوضع إلىٰ أن عاب آلهتهم وأخبرهم بمصير آبائهم وأنّهم ماتوا على الكفر والضلال وأنّهم في النّار. فحنقوا عليه وعادوه وطفقوا يؤذونه[١]. وتحدّث ابن إسحاق عن هذه الفترة أيضاً، وذهب إلىٰ أنّها دامت ثلاث سنين حتّىٰ جاء الأمر بإعلانها[٢].

وينبغي الالتفات هنا إلىٰ أنّ ثلاث مراحل يُعنىٰ بها منذ بداية النّبوّة إلى الفترة الّتي تلتها. الأُولىٰ: الصّدع بالدّعوة، وكان بعد ثلاث سنين مرّت على الدّعوة، وبدأ بآية الإنذار [﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾]. الثّانية: بداية الأذى الّذي مارسه المشركون بعد أن عاب النّبيّ ﷺ آلهتهم. ومن المحتمل أنّ هذه المرحلة تنطبق علىٰ بداية إعلان الدّعوة، وإن كان ممكناً أيضاً إيذاء بعض المسلمين قبل ذلك، مع أنّه لم يكن هناك عداء مع النّبيّ ﷺ نفسه. الثّالثة: ذهاب النّبيّ ﷺ والمسلمين إلىٰ دار الأرقم بن أبي الأرقم. وكان ذلك بعد عداء المشركين وتشدّدهم على النّبيّ ﷺ والمسلمين. بيد أنّنا لا نستطيع أن نجزم بزمانه. ومن الثابت أنّ هذا الذّهاب إلىٰ دار الأرقم كان حادثة مهمّة، وكان رواة أخبار السّيرة يعدّونه مرحلة من مراحل الدعوة، إذ نلحظ مثلاً أنّ الواقديّ، وابن سعد استند إلىٰ هذه المعرفة في تاريخ إسلام الصّحابة الأُوَل. علىٰ أيّ حال ينبغي أن نقول: إنّ الذّهاب إلىٰ دار الأرقم كان قبل إعلان الدّعوة وقبل هجرة المسلمين إلى الحبشة، أي: السّنة الرّابعة للبعثة تقريباً. وإذا قيل إنّ فلاناً من الصّحابة أسلم قبل دار الأرقم فمن الممكن أن يكون ذلك في السّنين الثّلاث الأُولىٰ من البعثة أو بعد إعلان الدّعوة بقليل حتّى الذّهاب إلىٰ دار الأرقم.

---

(١) *أنساب الأشراف* ١: ١١٥ ـ ١١٧؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ١٩٩.

(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٢٦٢.

وعلى الرغم من أنّ ابن سعد لم يتحدّث في المضمار التّاريخيّ لحوادث البعثة عن الذّهاب إلىٰ دار الأرقم بوصفه مبحثاً مستقلّاً، وكذلك ابن إسحاق إذ لم يورد تلك الحادثة أساساً، بيد أنّ ابن سعد نفسه تطرّق في ترجمة الصّحابة الأُوَل إلىٰ إسلام عدد منهم تحت عنوان «أسلم قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار أرقم بن أبي أرقم ويدعو فيها». وفي ما يأتي فهرس الأشخاص الّذين ذكرهم في كتاب الطبقات الكبرىٰ: عيّاش بن أبي ربيعة (٤: ١٢٩)، عثمان بن عفّان (٣: ٥٥)، أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة (٣: ٨٤)، عبد الله وعبيد الله وأبو أحمد أبناء جحش (٣: ٨٩)، عبد الرحمٰن بن عوف (٣: ١٢٤)، عبد الله بن مسعود (٣: ١٥١)، خبّاب بن الأرتّ (٣: ١٦٥)، مسعود بن ربيع القاري (٣: ١٦٨)، عامر بن فهيرة (٣: ٢٣٠)، أبو سلمة بن أسد (٣: ٢٣٩)، سعيد بن زيد بن عمرو (٣: ٣٨٢)، عامر بن ربيعة (٣: ٣٨٦)، واقد بن عبد الله (٣: ٣٩٠)، خُنيس بن حُذافة (٣: ٣٩٢)، أبو عبيدة بن الجرّاح (٣: ٣٩٣)، عثمان بن مظعون (٣: ٣٩٣)، عبيدة بن الحارث (٣: ٣٩٣)، عبد الله بن مظعون (٣: ٤٠٠)، معمر بن حارث (٣: ٤٠٢)، حاطب بن عمرو (٣: ٤٠٥)، جعفر بن أبي طالب (٤: ٣٤)، سليط بن عمرو[١]. وذُكر أبو بكر أيضاً في نظم من أسلم قبل الذهاب إلىٰ دار الأرقم. وثمّة أدلّة تشير إلىٰ أنّ إسلامه كان بعد مرحلة الدّعوة السّرّيّة الّتي استغرقت ثلاث سنين، وبعد أن سفّه النّبيّ ﷺ آلهة المشركين[٢]. وزُعم أنّ

---

(١) *أنساب الأشراف* ١: ٢١٩.

(٢) انظر: *البدء والتّاريخ* ٥: ٧٧؛ *البداية والنّهاية* ٣: ٢٩ ـ ٣٠؛ وانظر: *الصّحيح من سيرة النّبيّ* ﷺ ١: ٢٤٨، ٢٤٩. وذكر الطبريّ أيضاً (نقلاً عن *الصّحيح*... المذكور ١: ٢٤٨) أنّ إسلام أبي بكر كان بعد خمسين شخصاً. وقال الدكتور جواد علي أيضاً وهو ينقل كلام الطّبريّ إنّ موضوع «أوّل من أسلم» كان خاضعاً للميول السياسيّة والعاطفيّة بشدّة. انظر: *تاريخ العرب في الإسلام*: ١٩٠.

الزّبير كان رابع أو خامس من أسلم[١]. وذكر سعد بن أبي وقّاص أنّ شخصاً واحداً فحسب سبقه إلى الإسلام، وأنّه أسلم في نفس اليوم الّذي أسلم فيه سعد[٢]! وقيل إنّ خالد بن سعيد كان ثالث المسلمين أو رابعهم، وكان يصلّي مع النّبيّ ﷺ في ضواحي مكّة يوم كانت الدعوة سرّيّة[٣]. ونُقل أنّ أبا ذرّ الغفاريّ كان خامس من أسلم، وعدّه البعض رابعهم[٤]. وعندما قدم إلىٰ مكّة لاعتناق الإسلام كان الجوّ فيها مُرعباً مخيفاً، فأتىٰ به الإمام أميرالمؤمنين عليّ عليه السلام إلىٰ رسول الله ﷺ سرّاً. ولمّا أسلم، جاء إلىٰ المسجد الحرام ونادىٰ بالتّوحيد فضربه المشركون بشدّة، وأرادوا قتله لولا خوفهم من قبيلته بني غفار. وبعد ذلك توجّه تلقاء بني غفار ونشر الإسلام في أوساطهم[٥]. وكان قد هجر عبادة الأصنام في الجاهليّة وصار موحّداً. وقيل: إنّه حينما أسلم قالت له امرأة: صبأتَ، وبعد ذلك قامت جماعة من قريش بضربه[٦]. وقال عمرو بن عبسة أيضاً: إنّه كان رابع من أسلم إذ لم يسبقه إلّا بلال وأبو بكر[٧]! ومن الواضح أنّه إمّا لم يطّلع علىٰ حقيقة الأمر أو تقوّلوا عليه ذلك، لأنّنا لو افترضنا أنّ أبا بكر لا يقال عنه شيء، فإنّ بلالاً قد سبقه إلىٰ الإسلام كثيرون. وقال نعيم بن عبد الله أيضاً: إنّه أسلم بعد عشرة، لكنّه كان يكتم إيمانه[٨]. ونقل نجل الأرقم بن أبي الأرقم أنّ أباه كان سابع من أسلم[٩]. إلىٰ هنا ورد أكثر من ثلاثين مسلماً وقد ذكرنا أسماءهم.

---

(١) *الطّبقات الكبرىٰ* ٣: ١٠٢.
(٢) نفسه: ١٣٩.
(٣) نفسه ٤: ٩٥.
(٤) نفسه: ٢٢٤.
(٥) نفسه ٤: ٢٢٤، ٢٢٥.
(٦) نفسه: ٢٢٣.
(٧) نفسه: ٢١٤؛ *السّيرة النّبويّة*، الذّهبيّ: ١٤٠، ١٤١، نقلاً عن كتاب مسلم، رقم ٨٣٢. ومن الطّريف أنّ اليعقوبيّ نقل علىٰ لسانه أنّه أتى النّبيّ ﷺ وسأله قائلاً: هل استجاب لك أحد؟ فقال: نعم، امرأة، وفتىً (عليّ)، وعبد (زيد بن حارثة). تاريخ اليعقوبيّ ٢: ٢٣.
(٨) *الطّبقات الكبرىٰ* ٤: ١٣٨.
(٩) *المنتخب من ذيل المذيل*: ٥١٩.

وأشار ابن سعد إلىٰ عدد من المسلمين بقوله: «كان قديم الإسلام بمكّة وهاجر إلىٰ أرض الحبشة»(١). ويستشفّ من هذه الجملة أنّ هؤلاء كانوا قد أسلموا قبل السّنة الخامسة الّتي هاجر فيها المسلمون إلى الحبشة. وعددهم ثمانية وعشرون شخصاً. وينبغي أن نضيف إليهم عدداً من النساء. ومن المحتمل أنّ عدد المسلمين في السّنة الخامسة للبعثة كان يربو على المائة قليلاً إذا أخذنا بنظر الاعتبار عدد المهاجرين إلى الحبشة، وهم بضع وثمانون.

ونعود الآن الىٰ مرحلة الدّعوة السّرّيّة، أي: السّنين الثلاث الأُولىٰ من البعثة، ونستعرض مرحلتين تاريخيّتين ترتبطان بعلنيّة الدّعوة، والذّهاب إلىٰ دار الأرقم.

مرّ بنا أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يتعرّض لعقائد المشركين في البداية، وتركهم وشأنهم لذلك لم تعاده قريش. ونجحت هذه السّياسة المقرونة بالدعوة غير الرسميّة في استقطاب من كانت عندهم أرضيّة للنزوع نحو التّوحيد. ولم يبال عامّة المشركين إذا تخلّىٰ أحد عن الوثنيّة أو اعتنق النّصرانيّة أو الإسلام، ولكنّهم يقلقون إذا تعرّض نظامهم القيميّ والقبليّ للتشكيك. وسنرىٰ أنّ المشركين كانوا على استعداد أن يعبدوا ربَّ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم سنةً علىٰ أن يعبد آلهتهم سنةً أيضاً. وطفق المشركون يعادون النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم منذ أن جهر بالدّعوة، وعاب عقائدهم المشوبة بالشّرك. يقول اليعقوبيّ: كتم النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم دعوته ثلاث سنين وكان يدعو إلى التوحيد، وعندما يلتقي بمجموعة من قريش كانوا يقولون: ابن عبد المطّلب يتحدّث عن السّماء؛ وظلّ هكذا إلىٰ أن عاب آلهتهم وضلّل آباءهم لكفرهم. ثمّ أمره الله تعالىٰ أن يصدع برسالته. فصدع بها، ووقف بالبطحاء وقال: أنا رسول الله، أدعوكم إلىٰ عبادة الله وترك عبادة

---

(١) *الطّبقات الكبرىٰ* ٤: ١٢٠ ـ ١٢٢ (ستّة)، ١٢٤، ١٢٨ (اثنان)، ١٣٠، ١٣٥ (اثنان)، ١٣٦، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١ (اثنان)، ١٩١ (اثنان)، ١٩٤، ٢٠١، ٢٠٢ (اثنان)، ٢٠٣ (اثنان)، ٢١٣، ٢١٤ (اثنان).

الأصنام الّتي لا تضرّ ولا تنفع، ولا تخلق ولا ترزق، ولا تُحيي ولا تُميت. وبدأت قريش باستهزائها منذ ذلك الحين، وطلبت من أبي طالب أن يصدّ النّبيّ ﷺ عن مراده[١]. وذكرعامّة كتّاب السِّيَر أنّ الدّعوة العلنيّة بدأت بعد نزول قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[٢]، وقوله سبحانه: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِئِينَ﴾[٣].[٤] وفي رواية عن الإمام الصّادق عليه السلام أنّ النّبيّ ﷺ كتم عمله ثلاث سنين بمكّة ثمّ أمره الله تعالىٰ أن يصدع به ففعل[٥].

وكان رسول الله ﷺ بعد ذلك يعلن رسالته مراراً في اجتماعاتٍ كان يعقدها، ويطلب من النّاس أن يُسلموا. وكُلِّف في ضوء الآية المذكورة أن يبدأ بإنذار عشيرته الأقربين. ونقل الطبريّ عن ابن إسحاق في شأن نزولها قائلاً: قال عليّ عليه السلام: لمّا نزلت هذه الآية علىٰ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ دعاني رسول الله ﷺ فقال لي: يا عليّ! إنّ الله أمرني أن أُنذر عشيرتي الأقربين. فضقت بذلك ذرعاً ... حتّىٰ جاءني جبرئيل فقال: يا محمّد إنّك إلّا تفعل ما تؤمر به يعذّبك ربّك فاصنع لنا صاعاً من طعام... ثمّ اجمع لي بني عبد المطّلب حتّىٰ أكلّمهم وأبلّغهم ما أُمرتُ به ففعلتُ ما أمرني به، ثمّ دعوتهم له وهم يومئذٍ أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصونه فيهم أعمامه... فلمّا أراد رسول الله ﷺ أن يكلّمهم بدره أبو لهب إلى الكلام... ولم يكلّمهم رسول الله ﷺ، فقال الغد: يا عليّ إنّ هذا الرّجل سبقني إلىٰ ما قد سمعت من القول فتفرّق القوم قبل أن أكلّمهم فعُد لنا من الطعام بمثل ما صنعتَ، ثمّ اجمعهم لي، قال: ففعلتُ... فأكلوا... ثمّ تكلّم رسول الله ﷺ فقال:

---

(١) *تاريخ اليعقوبيّ* ٢: ٢٣.
(٢) الشّعراء: ٢١٤.
(٣) الحجر: ٩٤، ٩٥.
(٤) انظر: *الدرّ المنثور* ٤: ١٠٦، ١٠٧؛ *تاريخ الطّبريّ* ٢: ٣١٨، ٣١٩؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٢٦٢، ٢٦٣.
(٥) *تفسير العيّاشيّ* ٢: ٢٥٣.

«يا بني عبد المطّلب إنّي والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل ممّا قد جئتكم به. إنّي قد جئتكم بخير الدّنيا والآخرة. وقد أمرني الله تعالىٰ أن أدعوكم إليه فأيّكم يؤازرني علىٰ هذا الأمر علىٰ أن يكون أخي ووصيّي وخليفتي فيكم».

قال: فأحجم القوم عنها جميعاً وقلتُ: ... أنا يا نبيّ الله أكون وزيرك عليه، فأخذ برقبتي ثمّ قال: إنّ هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا. قال: فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع[١]. ونقل الطبريّ هذه الواقعة في تفسيره أيضاً إلّا أنّه ذكر غير الجملة السّالفة وقال مكانها: فأيّكم يوازرني علىٰ هذا الأمر علىٰ أن يكون أخي وكذا وكذا[٢]. وهذا تحريفٌ بيّن لخبر تاريخيّ مهمّ!

إنّ دعوة العشيرة الأقربين نابعة من تكليف ألقاه الله تعالىٰ علىٰ عاتق رسوله صلى الله عليه وآله. ومن منظار اجتماعيّ ومن وحي الظّروف السّائدة في مكّة ينبغي أن نقول: كانت لدعوة العشيرة الأولويّة التّامّة للأسباب الآتية: **أوّلاً**: كانت العشيرة مطّلعة علىٰ خلق النّبيّ صلى الله عليه وآله عن قرب، فكانت تعتقد بنزاهته وصدقه أكثر من جميع العرب. ومن الطّبيعيّ له صلى الله عليه وآله أن يستثمر هذا الوضع في الظّروف الاعتياديّة، بالرغم من وجود بعض العقبات في طريقه. **ثانياً**: إيمان العشيرة به صلى الله عليه وآله يترجم شعورها القبليّ العاطفيّ حياله. ويضاف إليه أنّ بني عبد المطّلب إلّا من شذّ وندر كانوا ينحازون إليه، فلو آمنوا به مع الشّعور العاطفيّ الّذي كانوا يحملونه تجاهه فإنّهم يكونون حماةً ثابتين أقوياء له. ولا شكّ في أنّ كثيراً من بني هاشم ـ على الرغم من مخالفتهم لدعوته في ذلك الاجتماع ـ أسلموا تدريجاً، وإن لم يجهروا بإسلامهم، وأُكرهوا

---

(١) *تاريخ الطّبريّ* ٢: ٣٢٠، ٣٢١؛ *مجمع البيان* ٧: ٢٠٦ (خليفتي في أهلي) عن *تفسير الثّعلبيّ*.

(٢) *تفسير الطّبريّ* ١٩: ٧٥. وأورد الذّهبيّ الواقعة أيضاً بنفس السّند لكنّه حذف القسم الأخير من الحديث. انظر: *السّيرة النّبويّة*، الذّهبي: ١٤٥.

بعد ذلك علىٰ حضور بدر، وورد أنّ جُلّهم اعتنق الإسلام باطناً. وما موقف أبي لهب منه ﷺ إلّا خوفاً علىٰ بني هاشم من العرب أن يبيدوهم[١]. ثالثاً: كانت العشيرة الأقربون يتوقّعون منه ﷺ أن يُطلعهم علىٰ رسالته في جلسة خاصّة وهم رهطه الأدنون. ولو لم يفعل لاتّهموه بعدم الاعتناء بهم. رابعاً: ينبغي الالتفات إلىٰ أنّ عشيرته الأقربين إذا رضيته وآمنت به فالقبائل الأُخرىٰ لا تتّهم دعوته بعدم الشّرعيّة، وهذا ما حدث يومئذٍ. فقد قال له المشركون مرّة: كان رهطك الأقربون يعرفونك أكثر منّا ولم يتّبعوك[٢]. ونقل خالد بن أبي جبل عن أبيه أنّ النّبيّ ﷺ لمّا قرأ سورة الطارق حفظتها منه؛ فسألتني ثقيف، ماذا تعلّمت منه؟ فقرأت لهم السّورة. فقال رجل قُرَشِيّ كان معهم: نحن نعرف صاحبنا أكثر، فلو كان كلامه حقّاً لاتّبعناه[٣]. وقال شيخ من قبيلة كلب في دعوة النّبيّ ﷺ أيضاً: ما أحسن ما يدعو إليه هذا الشّاب، إلّا أنّ قومه ابتعدوا منه؛ ولو وادعهم لتبعته العرب كلّها[٤]. وقالت له ثقيف أيضاً: كرهك قومك ورفضوا دعوتك، وجئتنا تدعونا. والله لنحن أشدّ مخالفةً لك منهم[٥].

بيد أنّ دعوتَهُ ﷺ عشيرتَه أجدت نوعاً ما. وبعدها عقدالجلسات ليدعو عامّة المكّيّين. وذهب أرباب السِّيَر إلىٰ أنّ هذه الجلسات كانت تُعْقَد قريباً من جبل الصّفا. ونقل الواقديّ عن ابن عبّاس أنّ النّبيّ ﷺ كان ينادي قريشاً عند الصّفا، ويقول مستنداً إلىٰ صدقه، ساعياً إلىٰ أخذ الدعم من النّاس: يا بني عبد المطّلب! يا بني عبد مناف! يا بني زهرة! ـ ونادىٰ قبائل قريش كلّها ـ إنّ الله أمرني أن أنذركم، خير دنياكم وآخرتكم في قول لا إله إلّا الله. فقام أبو لهب وقال: تبّاً لك، ألهذا جمعتَنا؟

---

(١) انظر: *أنساب الأشراف* ١: ١١٨، ١١٩.
(٢) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٢١٦.
(٣) *تاريخ يحيى بن معين* ١: ٢٧.
(٤) *أنساب الأشراف* ١: ٢٣٨.
(٥) نفسه: ٢٣٧.

فنزلت فيه سورة المسد[١].

ونقل ابن معين روايةً كاملةً نسبيّاً حول تأثير الدّعوة النّبويّة الأولىٰ، ومن المناسب أن نوردها هنا. علماً أنّ الحاكم النّيسابوريّ ذكرها ناقصةً. قال: نقل مِسْور ابن مخرمة الزّهريّ عن أبيه أنّ النّبيّ ﷺ حين أعلن دعوته إلى الإسلام، أسلم أهل مكّة جميعهم، وكان ذلك قبل وجوب الصّلاة، إلىٰ أن قرأ النّبيّ ﷺ. فسجدوا كلّهم حتّىٰ لم يبق مكان للسّجود لكثرة النّاس. وظلّوا علىٰ ما هم عليه إلىٰ أن رجع رؤساء قريش إلىٰ مكّة، وكانوا قد ذهبوا إلى الطّائف يستخبرون عن أراضيهم، فوبّخوا النّاس وقالوا لهم: تركتم دين آبائكم؟ بعد ذلك كفر النّاس[٢]. وقال عروة بن الزّبير أيضاً: لمّا دعا رسول الله ﷺ قومه إلى النّور والهُدىٰ، لم يبتعد عنه النّاس وكادوا أن يتّبعوا كلامه، إلىٰ أن رجع جماعة من قريش من ذوي الجاه قادمين من الطّائف، وعارضوه، فتبعهم أكثر النّاس وابتعدوا عنه[٣]. هاتان الرّوايتان تتطابقان إلىٰ حدٍّ ما. وفي ضوء هذه الرّواية ينبغي أن نقول: اعتنق جمهور الناس في مكّة الإسلام بسرعة أو كانوا مستعدّين لاعتناقه، مثلهم بذلك كمثل أهل المدينة، بيد أنّ رؤساء قريش مستغلّين نفوذهم حالوا دون تنامي الإسلام في حين أنّ المدينة كانت تخلو من نظرائهم فيحولوا دون إسلام الناس.

إنّ الصّدع بالرّسالة في مكّة، وإسلام عدد من شبابها، وعبدانها، حتّى نسائها ولّدا ردّة فعل عند رؤساء قريش. وشعروا أنّهم إذا تقاعسوا قليلاً في مقاومته فسيفلت

---

(١) ***أنساب الأشراف*** ١ : ١٢٠ (من اللازم ذكره أنّ بعض أرباب السِّيَر أرادوا أن يطبّقوا الآية المذكورة علىٰ هذه الجلسة من أجل نفي حكاية الإنذار. في حين أنّ الجلسة المذكورة خاصّة ببني عبد المطّلب لأنّهم كانوا العشيرة الأقربين). حول إطلاق العشيرة على الأقربين انظر: ***البداية والنّهاية*** ٢ : ١٥٧.

(٢) ***تاريخ يحيى بن معين*** ١ : ٥٣.

(٣) ***مغازي رسول الله*** ﷺ، عروة بن الزّبير، ص ١٠٤؛ ***تاريخ الطّبريّ*** ٢ : ٣٢٨.

الزّمام من أيديهم تماماً. من هنا بدأ تشدّدهم، علماً أنّ هذا التشدّد كان بعد إعلان الدّعوة. ويعود ذلك إلىٰ جرأة بعض المسلمين علىٰ الجهر بـإسلامهم. فـعبد الله بـن مسعود بعد ما أسلم كان يقرأ القرآن في مكّة جهراً ممّا سبّب في إيذائه[١]. ومـرّ بـنا أيضاً أنّ أبا ذر ما إن أسلم حتّىٰ وقف عند الكعبة رافعاً صوته بالتّوحيد فلقي مـن المشركين أذىً كثيراً. وقال زيد بن عمرو بن نفيل: كنّا متخفّين سنةً بسبب إسلامنا ولم نستطع الصّلاة إلّا في بيت مُقفَل أو شِعب غير مسكون ومع ذلك كان بعضنا يراقب بعضنا الآخر[٢]. وذكر الواقديّ أنّ الصّحابة كانوا يـصلّون الظّـهر مختـارين لكـنّهم يتفرّقون في الشِعاب لصلاة العصر ويصلّونها فرادىٰ ومثنىٰ. ولمّا صلّىٰ طُليب بن عمير وحاطب بن عمرو في شعب «الأجياد الأصغر» حمل عليهما ابن أصداء وابن غيطلة. وكانا فحّاشَين فهاجماهما بالحجارة[٣].

ونقل البلاذريّ عن سعد بن وقّاص أنّه ذهب إلىٰ «شعب أبي دبّ» مع نفر مـن الصّحابة، وتوضّؤوا وصلّوا خفيةً. فأقبل جماعة من المشركين ولاحـقوهم. وفـيهم الأخنس بن شريق ورهط منهم، ولاموهم وحملوا عليهم، فأخذ سعد عـظم بـعير ورمىٰ به أحدهم فجرحه، وانهزموا[٤]!

ومن المحتمل أنّ راوي هذه الحادثة غيّر آخِرها إذ يدلّنا مـصدر آخَـر عـلىٰ أنّ المسلمين فقدوا حتّى الشّعاب البعيدة الّتي كانوا يصلّون فيها آمنين بسبب موقف سعد غير السّديد هذا. وقبل ذلك كان رسول الله ﷺ نفسه يصلّي مع بعض الصّحابة في أطراف مكّة[٥]. ونحن نعلم أنّه ﷺ كان ينهىٰ أصحابه إبّان البعثة عن أيّ لونٍ من ألوان العُنف. ولعلّ هذه الحـادثة أدّت إلىٰ تحـديد المسـلمين أكـثر مـن ذي قـبل،

---

(١) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ١٥١.

(٢) *أنساب الأشراف* ١: ١١٦.

(٣) نفسه ١: ١١٧.

(٤) نفسه: ١١٦.

(٥) *الطّبقات الكبرىٰ* ٤: ٩٥.

واختفائهم في دار مقفلة علىٰ جبل الصّفا، وهي دار الأرقم بن أبي الأرقم. ونقل نجل الأرقم أنّ أباه كان سابع من أسلم. وكانت داره على الجبل المذكور. وهي الدّار الّتي مكث فيها النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في «أوّل الإسلام»، وكان يدعو فيها الناس إلى الدّين الجديد، وأسلم كثير منهم. وأصبحت هذه الدار فيما بعد ملكاً للمنصور العبّاسيّ، ثمّ أعطاها ولدُه المهديّ زوجتَه الخيزرانَ، فعرفت «بدار الخيزران» منذ ذلك الحين[١]. وتحوّلت إلىٰ مسجد مبارك. وذلك يعود إلىٰ إقامة النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فيها مدّةً مع ثلّة من أصحابه عندما كان متولّيّاً عن المشركين[٢]. ولم يتطرّق ابن إسحاق إلىٰ هذا الموضوع. واكتفىٰ البلاذريّ بالإشارة إلىٰ أسماء بعض الّذين أسلموا قبل ذهاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلىٰ دار الأرقم (نقلاً عن الواقديّ طبعاً). بيد أنّ السِيَر المتأخّرة كسيرة الحلبيّ والشّاميّ أشارت إليه. ولعلّ سيرة ابن إسحاق لم تذكره لضآلة شأنه.

لقد مرّ بنا (ونصّ عليه الحلبيّ أيضاً) أنّ الذّهاب إلىٰ دار الأرقم كان بعد مشكلة طرأت على المسلمين في جبال مكّة، وهي جرح سعد بن أبي وقّاص أحد المشركين[٣]. ونقل البعض أن إسلام عمر كان في هذه الدار[٤]. لكنّ الشّاميّ لا يرىٰ ذلك صحيحاً. لأنّ المشهور بين المؤرّخين من أهل السّنّة هو أنّ عمر أسلم بعد هجرة ثلّة من المسلمين إلى الحبشة في حين أنّ الذّهاب إلىٰ دار الأرقم كان في السّنة الرّابعة من البعثة[٥]. وذكر ابن سعد أشخاصاً أسلموا يوم كان النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في دار الأرقم. ومن هؤلاء بنو أبي البُكَير بن ياليل الأربعة إذ أسلموا وبايعوا النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فيها[٦].

---

(١) *الطّبقات الكبرىٰ* ٣: ٢٤٢ ـ ٢٤٤. (٢) *أخبار مكّة* ٢: ٢٠٠ ـ ٢٦٠.

(٣) *السّيرة الحلبيّة* ١: ٢٨٣. (٤) *أخبار مكّة* ٢: ٢٠٠.

(٥) *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٢: ٢٢٩ ـ ٢٤٨. إنّ الخبر المعروف المأثور في إسلام عمر ينافي إسلامه في دار الأرقم. للاطّلاع على تاريخ إسلام عمر والآراء المطروحة حوله انظر: *الصّحيح* ٢: ٩١ ـ ٩٤.

(٦) *الطّبقات الكبرىٰ* ٣: ٣٨٨.

ونقل أنّ مصعب بن عمير سمع بدعوته ﷺ النّاسَ في الدّار المذكورة فدخلها وأسلم، لكنّه كتم إسلامه خوفاً من أُمّه وقومه إلىٰ أن رآه عثمان بن طلحة يتردّد على النّبيّ ﷺ، فأخبر أُسرته، فحبسوه من جرّاء ذلك، إلىٰ أن هاجر إلى الحبشة[1]. وأسلم طليب بن عمير في دار الأرقم أيضاً. وأضاف ابن سعد ذاكراً هذا الموضوع أنّه ذهب عند أمّه أروىٰ بنت عبد المطّلب وأخبرها بإسلامه، فحثّته علىٰ ذلك واستحسنت له أن يحمي ابن خاله، وودّت أنّها لو كانت تستطيع الذبّ عنه كالرّجال. فطلب منها أن تسلم كما أسلم أخوها حمزة بن عبد المطّلب؛ واستجابت لذلك، وكانت تدافع عن النّبيّ ﷺ بلسانها[2]. ويُستشفّ من هذا النقل أنّ حمزة بن عبد المطّلب كان قد أسلم آنئذٍ. ونُقل عن عمّار بن ياسر أنّه رأىٰ صهيباً علىٰ باب الأرقم، فسأله عن قصده، وسأله صهيب أيضاً عمّا جاء به، فقال إنّه جاء ليسمع كلام محمّد ﷺ. فقال صهيب إنّه جاء لذلك أيضاً. وأسلم الاثنان، ومكثا نهارهما هناك. ثمّ خرجا منه ليلاً يترقّبان[3].

وليس من معلومات دقيقة حول المدّة الّتي لبث خلالها رسول الله ﷺ في دار الأرقم. وذهب الحلبيّ إلىٰ أنّها كانت شهراً واحداً[4]، وأنّه أقام هناك في بداية الجهر بالدّعوة، بيد أنّ ما سلف يدلّ علىٰ أنّ ذهابه إلىٰ دار الأرقم كان بعد إعلان الدّعوة واصطدام المسلمين بالمشركين. وكان كلّ من يسلم آنذاك يُدعىٰ صابئيّاً[5]، وكفىٰ بذلك ذريعةً لقومه، بل لأبويه في إيذائه وتعذيبه[6]، وإذا كان عبداً فمولاه يتولّىٰ إيذائه وتعذيبه. وسنرىٰ أنّ هذا الوضع هو الّذي أجبر المسلمين على الهجرة إلى الحبشة.

---

(١) *الطّبقات الكبرىٰ* ٣: ١١٦. (٢) نفسه ٣: ١٢٣.

(٣) *أنساب الأشراف* ١: ١٥٨؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ٣: ٢٢٧ ـ ٢٤٧.

(٤) *السّيرة الحلبيّة* ١: ٢٨٣. (٥) *الطّبقات الكبرىٰ* ٣: ٢٦٧، ٤: ١٠٠ ـ ٢٢٠.

(٦) نفسه ٤: ١٢٤.

تأثير النّبيّ ﷺ تاريخيّاً

كان لقيادة النّبيّ ﷺ خلال الثلاث والعشرين سنة تأثير باهر في انتصار الاسلام على الشّرك الجاهليّ. وتبدأ مزايا هذه القيادة منذ عصر ما قبل البعثة، وتبلغ ذروتها مع بداية البعثة عبر تغييرٍ مهمّ سببه الأساس هو تأثير الوحي في شخصيّته ﷺ. وكان لهذه المزايا تأثيرها البالغ في بثّ الدّعوة الإسلاميّة. وقبل البدء بالحديث يجدر بنا الإشارة إلى التعبير القرآنيّ «أولو العزم» بشأن بعض الأنبياء. قال تعالىٰ مخاطباً نبيّه: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[1]. وكان أنبياء أولو العزم حلماء صابرين، لذا جاء في عدّة مواضع من القرآن اقتران العزم بالصبر، فقال سبحانه: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[2]. وورد في القرآن أيضاً أنّ آدم كان خليّاً من العزم، قال تعالىٰ: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾[3]. وكان رسول الله ﷺ من أُولي العزم والإرادة، صبوراً، مقاوماً، مصرّاً علىٰ نشر دعوته التّوحيديّة، وهذه المزايا مجتمعةً جعلت منه شخصيّةً متألّقة، وكان لها تأثيرها العامّ الشّامل في قيادته. ويحسن بنا أن نتناولها بشيء من الحديث بغية التعرّف علىٰ شخصيّته ﷺ.

١ ـ ارتباط النّبيّ ﷺ بقريش والعرب

من الحريّ بالعلم أنّ موقع النّبيّ ﷺ كان رفيعاً ممتازاً من الوجهة الاجتماعيّة والقبليّة. فقد كان من قريش. وذكرنا آنفاً أنّ قريشاً كانت تتمتّع بأعلىٰ وجاهة معنويّة بين المشركين في الجزيرة العربيّة. ويعود ذلك إلىٰ سيطرتها علىٰ مكّة أمّ القرىٰ

(١) الأحقاف: ٣٥.

(٢) لقمان: ١٧. وانظر: آل عمران: ١٨٦؛ الشّورىٰ: ٤٣.

(٣) طه: ١١٥.

في الحجاز وأقدس مكان عند العرب. من هنا كان معظم العرب ينظرون إليها نظرة إجلال وإكبار وسؤدد. ودلّت الأحداث الّتي تلت وفاة النّبيّ ﷺ علىٰ وجود قبائل أخرىٰ كانت تحاول منافسة قريش، بيد أنّ قريشاً ظلّت راسخة الموقع قويّة الجاه.

وذكر الجاحظ خصائص قريش بقوله: لم يُرَ في قريش من ينتسب إلىٰ قبيلة أخرىٰ. ولم يلد فيها مولود لغيرها إلّا في ثقيف في الطّائف وكانوا أهل الحُمس أيضاً. ومع أنّها كانت قد تركت الحرب لكنّها ظلّت أعزّ وأعلىٰ. وكانت تكرّم ضيوف مكّة وتصل الشّعراء كما كان يفعل الملوك. وكانت قريش أفصح العرب، كما قال رسول الله ﷺ: «أنا أفصح العرب بيد أنّي من قريش» [ونحن نعلم أنّ القرآن نزل بلهجة قريش]. وكان العرب يفدون علىٰ مكّة للحجّ والتّجارة كلّ سنة ويعرفون قريشاً[1]. وهذا الجاه الّذي تمتّعت به قريش كان في البداية سدّاً أمام الإسلام ثمّ أصبح سبباً في امتداده أكثر فأكثر. وكان لآل قُصيّ وبني هاشم جاه معنويّ متميّز بين قريش. وأشرنا سابقاً إلى الشّأن الّذي كان لبني هاشم بين قريش، وذلك في حديثنا عن العصر الجاهليّ. كما تولّىٰ عبد المطّلب زعامة قريش لسنين طوال. وفي أحضان هذه الأسرة نشأ رسول الله ﷺ. فقد رعاه جدّه عبد المطّلب في البداية، ثمّ عمّه أبو طالب. وكان لبني عبد المطّلب جاه ملحوظ، ممّا شكّل عقبة في طريق القبائل الأخرىٰ من أن تنال من مشركي قريش. وهذا الشّرف النّسبيّ أشار إليه أميرالمؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة أيضاً فقال: «ونحن الأعلون نسباً»[2]. وافتخر به المغيرة ابن شعبة أمام قائد الجيش الفارسيّ فقال: «وإنّ الله قد ابتعث منّا نبيّاً في شَرَفٍ منّا،

---

(١) *رسائل الجاحظ*، الرسائل السّياسيّة، ص١٠٢ ـ ١٠٦. وجاء في *الطّبقات الكبرىٰ* أنّ النّبيّ ﷺ قال: أنا أعربكم، أنا من قريش. انظر: المصدر المذكور ١: ١١٣.

(٢) *نهج البلاغة*: ١٦٢.

أوسطنا حَسَباً وأصدقنا حديثاً»[١]. فكان له أن يجعل النّبيّ ﷺ في موقع يُحسب له حسابه في المجتمع الجاهليّ.

وكانت للنّبيّ ﷺ مزيّة أُخرىٰ تربطه بالعنصر العربيّ لاسيما بقريش. فقد كـان عربيّاً. من هنا فقد كان لقريش والقبائل العربيّة الأُخرىٰ الّتي كانت تعيش في إطار النّظام القبليّ المغلَق نبيّ منها. ولم تكن ملزمة باعتناق اليهوديّة والنّصرانيّة اللّتين كانتا غريبتين عليها عنصريّاً. قال تعالىٰ مخاطباً إيّاها: **﴿وَهٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ * أَوْ تَقُولوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِن رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ...﴾**[٢]. ويستفاد من هذه الآيات أنّ العرب كانت ترىٰ نـفسها مستقلّة عن تينك الطّائفتين ولابدّ أن يكون لها كتاب مستقلّ عـنهما. ولم يـبعث الله تعالىٰ كتاباً جديداً فحسب بل اختار رسولاً منها أيضاً. ونزل القرآن بلسان عربيّ مبين لينسجموا معه تماماً ولا يخالفوه. **﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ * ..... وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾**[٣]. وقال جلّ من قائل: **﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾**[٤].

ومن البيّن أنّ الله تعالىٰ راعىٰ تكييف لغة العرب مع لغة القرآن، وهذا ما يمكن أن ينسف كثيراً من الاعتراضات. وعلىٰ هذا المنوال اهتمّ القـرآن بـالانسجام القـوميّ للنّبيّ ﷺ مع العرب. فليس للعرب إذن أن يعترضوا في هذا المجال. وإنّهـم كـانوا مغلولين بغلّ مجتمع مغلَق فمن الطّبيعيّ لهم أن يعترضوا، مع أنّ منزلة القرآن من جهة

---

(١) *أخبار إصبهان* ١: ٢١؛ *المصنّف*، ابن أبي شيبة ١٣: ١٠ (طبعة الهند).

(٢) الأنعام: ١٥٥ ـ ١٥٧.

(٣) الشّعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥، ١٩٨، ١٩٩.

(٤) فصّلت: ٤٤.

اشتماله على الهُدىٰ كانت تعدّ معياراً أساسيّاً من هنا جاء في تتمّة الآية السّابقة قوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُولٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾[1]. ولعلّ التّعبير القرآنيّ «من أنفسهم» بشأن النّبيّ ﷺ يعكس مزيّة هي نصب عينه ﷺ لمخاطبي القرآن العرب. قال سبحانه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾[2]. وذهب عدد من المفسّرين في صدر الإسلام إلى الاحتمال المعهود[3]. ونظراً إلىٰ هذا الموضوع، فإنّ تعبير «من أنفسهم» الوارد في الآية الّتي تحدّثت عن تعلّق النّبيّ ﷺ بقومه يجد له مكانةً أرفع. وقال تعالىٰ في موضع آخر: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[4]. وأشار الطبرسيّ إلىٰ بعض الأقوال في تبيين قوله تعالىٰ: «مِنْ أنفسهم» فقال:

«فيه أقوال: أحدها: أنّ المراد به من رهطهم يعرفون منشأه وصدقه وأمانته وكونه أمّيّاً لم يكتب كتاباً ولم يقرأه ليعلموا أنّ ما أتىٰ به وحي منزّل... وثانيها: أنّ المراد به أنّه يتكلّم بلسانهم فيسهل عليهم تعلّم الحكمة منه... وثالثها أنّه عامّ لجميع المؤمنين، والمراد بأنفسهم أنّه من جنسهم لم يُبعَث مَلَكاً ولا جنّيّاً»[5].

فالآيات المذكورة مجتمعةً تؤكّد انسجام النّبيّ ﷺ والكلام الإلٰهيّ مع البيئة الّتي كان فيها مبعثه.

---

(١) فصّلت: ٤٤.
(٢) التوبة: ١٢٨.
(٣) انظر: *مجمع البيان* ٥: ٨٦.
(٤) آل عمران: ١٦٤.
(٥) *مجمع البيان* ٢: ٥٣٢.

٢ ـ السّابقة الدّينيّة للنّبيّ ﷺ

كان ماضيه ﷺ في مكّة معروفاً عند قريش. إذ كان منذ عنفوان شبابه مشهوراً بالخصال الأخلاقيّة الحميدة، ولم يعهد النّاس منه سوءَ سابقة وذميم فعلٍ. فقد كان ذا شخصيّة أخلاقيّة متينة، مستأنساً بنفسه نوعاً ما، ولم ينشغل بعبث الشباب ومجالس اللغو واللهو الحيوانيّة قطّ. وكان مدارياً للناس، مضيافاً، واصلاً للرحم، معيناً للضّعفاء والمساكين والبائسين. وهذه صفات وصفه بها النّاس في الجاهليّة وأوّل البعثة[١]. من هنا كانوا يحكّمونه في خلافاتهم[٢]. وسمّوه «الأمين». وكلّما كانوا ينحرون كانوا يطلبون منه أن يحضر معهم ويدعو لهم[٣]. وخاطبوه بالأمين أيضاً في واقعة نصب الحجر الأسود. وعُدَّ قراره ﷺ في اشتراك طوائف قريش كلّها في نصب الحجر آية علىٰ علمه وحنكته[٤]. وعندما نشب النزاع بينه وبين قريش بعد النّبوّة لم تنبزه بسوء سابقة وغيرها قطّ، في حين لو كانت له، وهو الّذي ما برح يدعو النّاس إلى الحياة الأخلاقيّة السّليمة، لبدا طبيعيّاً لقريش أن تُذيع بها.

ويتسنّىٰ لنا أن ننوّه بهذا الموضوع أيضاً فيما يخصّ سابقته الدّينيّة ﷺ. وإذا تغاضينا عمّا في أيدينا من معلومات حول عقيدته الدّينيّة قبل البعثة، فإنّه لم يُلحَظ أنّ قريشاً لمزته بالشّرك وعبادة الأصنام يوماً كما لم تتبجّح عليه وتقدح في سابقته. فعلىٰ أيّ دينٍ كان قبل النّبوّة؟ ونقول: إنّ هذا الموضوع مثار نقاش عند المفكّرين المسلمين في النّصوص التّاريخيّة والرّوائيّة، ومن ثمّ في النّصوص الكلاميّة منذ البداية.

---

(١) كتاب البخاريّ، كتاب بدء الوحي، الباب ٣؛ كتاب مسلم، كتاب الإيمان، ٢٥٢ ـ ٢٥٤؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٢: ١٩٨.

(٢) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ١٥٧؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٢: ٢٠٢.

(٣) *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٢: ٢٠٢.

(٤) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ١٤٦.

وسنستعرض هنا بعض المعلومات المنقولة في هذا المجال مع اعتقادنا سلفاً بطهارته ﷺ من كلّ أنواع الشّرك من منظارٍ إسلاميّ. ونترك هذا الموضوع إلىٰ موضعه. وذكر ابن إسحاق أنّ رسول الله ﷺ حين بلغ سنّ الشّباب كان الله تعالىٰ يرعاه ويحفظه من دَنَس الجاهليّة ورجسها لأنّ إرادته اقتضت أن يكرمه بكرامة الرّسالة. وكان علىٰ دين قومه إلىٰ أن نشأ وكبر. وهو أمثلهم مروءةً وأخلاقاً. وكان له أفضل سلوك في تعامله مع الآخرين، وعرف برعاية حقوق الجار أكثر من غيره. وكان أفضل النّاس وأصدقهم وآمنهم في الأخلاق والكلام والأمانة[1]. والمثير للإشكال في هذه العبارة كلمة ابن اسحاق الّتي يقول فيها: «هو علىٰ دين قومه». ومن الجدير بالذكر أنّ الّذي رواها هو يونس بن بكير[2]، في حين أنّ خبر ابن إسحاق ورد في سيرة ابن هشام أيضاً لكنّ العبارة المذكورة لم ترد فيها. ومن المحتمل أنّ ابن هشام لم يعتقد بها فأسقطها. مع أنّنا عهدناه لا يحذف شيئاً من الأخبار، بل يعلّق عليها عادةً إذا كان له رأي في نصوصها. علىٰ أيّ حال لم تنقل العبارة المعهودة في سيرته[3].

وجاء في خبر آخر عن ابن إسحاق أنّ جبير بن مطعم قال: رأيتُ رسول الله ﷺ «وهو علىٰ دين قومه» وكان جالساً علىٰ ناقته في عرفات[4]. وهنا تثار ملاحظتان. الأولىٰ: إنّ هذا الخبر ورد في موضع آخر أيضاً، لكنّ العبارة المذكورة لم ترد فيه، بل ورد مكانها ما نصّه: «رأيت رسول الله ﷺ في الجاهليّة»[5]. الثانية: إنّ البيهقيّ يرفض رفضاً قاطعاً نسبة أيّ لون من ألوان الشّرك إلىٰ رسول الله ﷺ، ويرىٰ ذلك مغايراً للرّوايات الأُخرىٰ الّتي تنزّه ساحة النّبيّ ﷺ عن الشّرك، ويقول: هذا يعني أنّه كان علىٰ إرث إبراهيم وإسماعيل الّذي كان مألوفاً بين القوم

---

(١) **سيرة ابن إسحاق**: ٧٨.

(٢) ***دلائل النّبوّة***، البيهقي ٢: ٣٠.

(٣) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ١٨٣.

(٤) ***دلائل النّبوّة***، البيهقيّ ٢: ٣٧.

(٥) ***سبل الهدىٰ والرشاد*** ٢: ٢٠١.

يومئذ كالحجّ، والشّؤون المتعلّقة بالنّكاح والبيع والشّراء، وليس الشّرك إذ لم يشرك بالله طرفة عين[١].

ومن المناسب أن نذكر هنا توضيحاً آخر أيضاً، وهو أنّ كلمة «الدّين» في الاستعمال اللغوي أوسع بكثير ممّا نعرفه عنها أنّها مجرّد مجموعة من العقائد. فالدّين جاء بمعنى الجزاء والحساب (يوم الدّين)، والطّاعة والاتّباع، والعادة والشّأن. كما تقول العرب: «ما زال ذلك ديني ودَيْدَني»[٢]. ويبدو أنّ ما نُقل أنّه «كان علىٰ دين قومه» يراد به أنّه كان في الحجّ والوقوف في عرفة يتسنّن بما كان من سنن قبل الإسلام في ذلك العصر الّذي كان عصر جاهليّة. وهكذا فالعبارة المذكورة في مجال الدّين لا تعني عبادة الأصنام، بل هي مجرّد إشارة إلىٰ أنّ العهد لم يزل عهد جاهليّة كما ورد في خبر آخر عن جبير بن مطعم نفسه أنّه رأى النّبيّ ﷺ والعهد عهد جاهليّة[٣]. وكذا جاء في رواية ابن إسحاق، فقد أراد أن يقول: إنّ النّبيّ ﷺ كان منزّهاً من كلّ رجسٍ ودَنَس في ذلك العصر الّذي كان عصر جاهليّة. وإلّا لا ينبغي أن نقول: إنّ ابن إسحاق نفسه في كلامه الّذي أراد به أن ينزّهه ﷺ من كلّ عيب نسب إليه أسوأ رِجسٍ وهو الشّرك. وأورد ابن الأثير كلام البيهقيّ نفسه في شرح الجملة المذكورة، وذهب فيه إلىٰ أنّ الدّين بمعنى العادة[٤].

---

(١) ***دلائل النّبوّة***، البيهقيّ ٢: ٣٧.

(٢) ***لسان العرب*** ٤: ٤٦٠، ٤٦١، ذيل كلمة «دين».

(٣) ينبغي أن نقرّ بوجود موارد تفيد أنّ تعبير «علىٰ دين قومه» يراد منه معناه الظّاهر كالّذي جاء بشأن حمزة، انظر: ***بحارالأنوار*** ١٨: ١٥٩. وحينئذٍ لا بدّ من رفض الخبر المنقول بشأن النّبيّ ﷺ من الأساس لوجود روايات تعارضه، وستأتي لاحقاً.

(٤) انظر: ***لسان العرب*** ٤: ٤٦٢؛ من المؤسف أنّ عبد الحسين زرياب ذهب إلىٰ أنّ المراد من الدّين في تعبير «علىٰ دين قومه» هو دين الشّرك. وقال: لو لم يكن علىٰ دينهم ولم يحترم عقائدهم لما لقّبوه بالأمين (***سيرة رسول الله***: ١٠٠). وقد أكّدنا سابقاً في الموضوعات المرتبطة بالعصر الجاهليّ أنّ قريشاً لم تُبد

⇐

وإذا استثنينا خبر ابن إسحاق فإنّ هناك حديثاً آخر بهذا الشّأن ولا بدّ من تقويمه. وهذا الحديث يعرف بحديث البَلْدَح[١]. ونُقل فيه أنّ النّبي ﷺ، ومعه زيد بن حارثة، التقىٰ قبل البعثة بزيد بن عمرو بن نفيل الّذي كان حنيفيّاً في موضعٍ يُدعىٰ «بلدح». وكان النّبيّ ﷺ وزيد قد بسطا مائدةً عليها لحم من ذبيحة الأصنام، ودعوا زيد بن عمرو إليها. فقال: لا آكل لحماً ذُبح للأصنام. فقال النّبيّ ﷺ: وهذا دعاني إلىٰ أن لا آكل مثل هذا اللحم. وأضاف ﷺ: هو أوّل من عرّفني بعيب الأصنام وعبادتها[٢]. ولم ينقل ابن هشام هذا الخبر، لكن المؤسف هو أنّ البخاريّ أورده في كتابه إلّا أنّه لم يورد الحشو الّذي في آخره.

والحقّ هو أنّ أحاديث كثيرة تنقض الخبر المذكور. ويضاف إليها أنّه رُوي بشكلٍ محدودٍ جدّاً ولم يجد له صدىً في النّصوص الحديثيّة. وكان فيه دسٌّ أيضاً إذ نلحظ أنّه يرفع زيد بن عمرو بن نفيل ـ كرفعه ورقة بن نوفل ـ إلىٰ درجة أنّه يُبعث أمّةً وحده يوم القيامة كإبراهيم! علماً أنّه كان من قبيلة بني عَديّ، وهي قبيلة عمر بن الخطّاب.

ونطالع أحاديث تنزّه النّبيّ ﷺ من كلّ شائبة من شوائب الشّرك. فقد روىٰ أبو نعيم عن عليٍّ عليه السلام أنّه قال: سُئل رسول الله ﷺ: هل عبدتَ صنماً ولو لمرّةٍ واحدة؟ فقال: لا. فسئل: هل شربت خمراً؟ قال: لا[٣]. وكذلك نُقل عن ابن سعد، وأبي نعيم، والبيهقيّ أنّ أمّ أيمن قالت: كان البوانة صنماً تجتمع عنده قريش مرّة في السّنة. ولمّا جاء عنده أبو طالب! مع قومه، أرادوا من النّبيّ ﷺ أن يحضر معهم، فرفض،

⇐ حسّاسيّة حيال عبادة الأصنام وكانت مستعدّة في اقتراحاتها على النّبيّ ﷺ أن تعبد إلهه سنةً كاملة، ونحن نعرف أنّ رسول الله ﷺ لم يُثر أحداً ضدّه في السّنين الثّلاث الأولىٰ من البعثة لعدم اتّخاذه موقفاً متطرّفاً من عبادة الأصنام.

(١) بلدح موضع في مسير مكّة باتّجاه الحديبيّة.

(٢) *سيرة ابن إسحاق*: ١٨؛ *كتاب البخاريّ* ٣: ٣١٠؛ وانظر أيضاً: *دلائل النّبوّة*، لأبي نعيم: ١٤٦.

(٣) *سبل الهدىٰ والرشاد* ٢: ٢٠٠؛ *الخصائص الكبرىٰ* ١: ٢٢١ (طبعة القاهرة).

وتركهم، ثمّ قال: إنّه كلّما دنا من صنم ينهاه صوت عن مدّ يده إليه[١].

وكان زيد بن حارثة يعيش مع النّبيّ ﷺ في العصر الجاهليّ سنين طوالاً، ونقل عنه فقال: والّذي أكرمه بالنّبوّة وأنزل عليه الكتاب إنّه لم يمسّ صنماً حتّىٰ أكرمه الله بالرّسالة[٢]. ونقل أيضاً أنّ صنماً من الصّفر يُعرف بإساف أو نائلة، كان المشركون يمسحونه حين الطّواف، ولمّا طاف النّبيّ ﷺ وأنا معه، مسحتُه، فقال ﷺ: لا تمسحه! وأعدتُ مسحه، فاعترضني ﷺ وقال: ألم أنهك عنه؟[٣] وجاء في قصّة بُحيرىٰ أيضاً أنّهم عندما أقسموا عليه باللات والعزّىٰ ـ وكذلك كانت تفعل قريش ـ ذكر ﷺ أنّهما أبغض الأشياء عنده[٤].

ونُقلت نماذج كثيرة تدلّ على النّبوّة قبل البعثة، مع أنّنا ينبغي أن نلتفت إلىٰ أنّ الإفراط رافقها حتّىٰ إنّ المحدِّثين أنفسهم رفضوها[٥]، بيد أنّ بينها موارد قابلة للتّأمّل. منها إنّ النّبيّ ﷺ كان متعوّداً على الانعزال والتّعمّق والتفكّر قبل النّبوّة، وكان ينشغل بذلك من خلال الابتعاد عن مكّة والذّهاب إلى الشّعاب والأودية. وقيل: عندما كان يبتعد عن البيت، ويذهب إلىٰ شعاب الجبال، لم يمرّ بشجرةٍ أو حجرٍ إلّا سلّم عليه. وكان ينظر هنا وهناك فلم ير أحداً[٦]. النّقطة الأخرىٰ هي رغبته ﷺ في التّحنّث والتّحنّف في غار حراء، وتبنّىٰ ذلك سُنّةً له عدد سنين، وكان يختلي مع ربّه في

---

(١) *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٢: ٢٠١؛ *دلائل النّبوّة*، أبو نعيم: ١٤٤؛ *الخصائص الكبرىٰ* ١: ٢٢١؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ١٥٨.

(٢) *دلائل النّبوّة*، البيهقي ٢: ٣٤؛ *البداية والنّهاية* ٢: ٢٨٧؛ *الخصائص الكبرىٰ* ١: ٨٩.

(٣) *دلائل النّبوّة*، البيهقيّ ٢: ٣٤.

(٤) نفسه ٢: ٣٥؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٢: ٤٧.

(٥) علىٰ سبيل المثال انظر: *دلائل النّبوّة*، البيهقيّ ٢: ٤٧.

(٦) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ١٥٧.

مكان لا أثر فيه للشّرك والصّنميّة. ونحن نعلم أنّ النّزعة الحنيفيّة كانت من النّزعات المعروفة بخاصّة بين بني هاشم، وطوائف قريش الأخرىٰ، بل بين غيرها من القبائل، فقد كان فيها من يزعم أنّه ابراهيميّ الملّة. وعندما يسمّي عبد المطّلب ابنه عبد الله، وهو والد النّبيّ ﷺ، فتلك آية علىٰ ولائه لله الواحد وحده. وكيف يمكن أن توجد النّزعة الحنيفيّة بين قريش وبعض القبائل العربيّة الأُخرىٰ، ومزيّتها المهمّة اجتناب الشّرك والتّوجّه إلى التّوحيد، ولا يتعرّف عليها النّبيّ ﷺ الّذي سيبعث في المستقبل، ويحيي دين إبراهيم عليه السلام الّذي هو دين التّوحيد؟ فهذا لا ينسجم مع سابقة التّحنّث في حراء وغيرها من الأدلّة الآنفة الذكر. وحريّ بنا أن نعرف أنّ الإسلام مبدئيّاً جعل الدّعوة الإبراهيميّة أساس دعوته، وواكب خطّ الدّين الحنيف بكلّ جدٍّ. وعندنا أدلّة جمّة علىٰ ذلك. وكانت النّزعة الحنيفيّة في الجاهليّة قد مهّدت الأرضيّة للنّبيّ ﷺ كي يتسنّىٰ له أن يعرّف عمله بعد مبعثه كامتدادٍ لها، ويقدّم الدّين الجديد كدينٍ معروفٍ عند أهل الجاهليّة. وكان ﷺ يقول: «أنا دعوة أبي إبراهيم» إذ قال في بناء الكعبة: ﴿**رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ**﴾[1]. وكان ﷺ يقول أيضاً: بُعِثْتُ بالحنيفيّة السّمحاء ودين إبراهيم[2]. وجاء في إحدى الآيات المكّيّة أيضاً: ﴿**قُلْ إِنَّنِى هَدَانِى رَبِّى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ**﴾[3]. وورد في سورة الحجّ أيضاً، وهي سورة مدنيّة، قوله تعالىٰ: ﴿**وَجَاهِدُوا فِى ٱللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ ٱجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ**﴾[4]. وجاء هنا بصراحةٍ أنّ اسم المسلمين هو من إرث إبراهيم عليه السلام، وأنّ الصراط القويم هو ملّة «أبيكم» إبراهيم. وورد في موضع آخر

---

(١) البقرة: ١٢٩؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ١٤٩. (٢) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ١٩٢؛ *وفاء الوفاء* ١: ٢١٩.
(٣) الأنعام: ١٦١. (٤) الحجّ: ٧٨.

أيضاً: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[١].

وهذا إرث كان العرب يعرفونه، ومن الثّابت المسلّم به أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يعرفه قبل البعثة أيضاً طوال حياته، كما أنّ أشخاصاً كثيرين كانوا يعرفونه أيضاً[٢]. ويعتقد طه حسين أنّ الاخبار المتعلّقة بالحنفاء بعد الإسلام أكثر إفراطاً ممّا كانت عليه حقيقةً[٣]. وهذا الأمر طبيعيّ بين قصّاص العرب. مع هذا في الآيات القرآنيّة دليل قاطع علىٰ ما نحن بصدد تبيانه.

الضرب الآخر لتعرّف المشركين على التّوحيد هو التّعرّف على الدّين الصّابئيّ. وعندما ظهر الإسلام اتّهم المشركون النّبيّ صلى الله عليه وآله[٤] وسائر المسلمين[٥] بالنّزعة الصّابئيّة، فمن الواضح حينئذٍ أنّ التّوحيد كان أمراً معروفاً. وكانت هذه الإرهاصات أوضح للنّبيّ صلى الله عليه وآله الّذي أختير للنّبوّة بسبب وجود أرضيّتها عنده. قال تعالىٰ في نبيّه الكريم: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[٦]. ومرّ بنا أنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله كان يتمتّع بسابقة

---

(١) النحل: ١٢٣.

(٢) يضاف إلى النّماذج الّتي ذكرناها في البحث المرتبط بالمذهب الحنيفيّ، انظر: ***الإصابة*** ٤: ١٦٠ (أبو قيس ابن الأسلت)؛ ***الاستيعاب*** ٤: ١٥٧، ١٥٨، ١٦٠؛ ***سبل الهدىٰ والرّشاد*** ٣: ٢٧٥ (وردت هناك توضيحات دقيقة حول الشّخص المعهود).

(٣) من ***تاريخ الأدب العربيّ*** ١: ١٥٢ ـ ١٥٦. ناقش فيه شعراً منسوباً إلىٰ ابن أبي الصّلت وذهب إلىٰ أنّه منحول. وأراد من ذلك الرّدّ علىٰ «كلمان هوار» الّذي كان قد تصوّر أنّه اكتشف أحد المصادر الجاهليّة للآيات القرآنيّة من خلال العثور علىٰ شعر حنيفيّ منسوب إليه. وقال طه حسين حقّاً. حتّىٰ لو افترضنا صحّة الشعر المذكور، فإنّ الشّبه بقصص التّوراة موجود في القرآن الكريم أيضاً. وهذه التّهمة الواهية موجودة هناك أيضاً، وهي مرفوضة طبعاً. مع ذلك، لا ريب في أنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله والقرآن الكريم أفادا من مكانة إبراهيم بين العرب كنزعة مستقلّة عن اليهوديّة والنّصرانيّة. وصرّح العلّامة البلاغيّ أنّ الدين الحنيف بلغ النّصر الحقيقيّ بانتصار الإسلام. انظر: ***الرّحلة المدرسيّة***: ٥٧٣، ٥٧٤.

(٤) ***البدء والتّاريخ*** ٤: ١٤٨.

(٥) ***الطّبقات الكبرىٰ*** ٣: ٢٦٧؛ ٤: ١٠٠، ٢٠٢.

(٦) الأنعام: ١٢٤.

توحيديّة إبراهيميّة قويّة إلىٰ درجة أنّه كان وحده يتحنّث في غار حراء. وهو نفسه ﷺ يؤكّد أنّه لم يتلوّث بمجالس اللهو والشّراب في الجاهليّة، ولم يشترك في مجالس زفافهم الّتي كانت مجالس رقص وطبل ودفّ قطّ[١]. علماً أنّه لم يُبعَثْ نبيّاً يومئذٍ، ولم يكن يعرف ما يُدعىٰ القرآن، والإيمان المفصّل بالشّريعة الجديدة. وهذا أمر صرّح به الباري تعالىٰ، فقد قال جلّ من قائل: ﴿**وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَابُ وَلَا ٱلْإِيمَانُ وَلٰكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِى بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾[٢].

وثمّة نماذج أخرىٰ أيضاً تدلّ على حسن سابقته ﷺ قبل مبعثه. فنحن نعلم أنّ زيد بن حارثة الّذي أُسر في إحدىٰ الحروب اشترته خديجة غلاماً لها، ثمّ وهبتهُ النبيّ ﷺ. وحين جاء أبوه إلىٰ مكّة ليأخذه، لم يرقه أن يترك رسول الله ﷺ، وقال: إنّ ذلّ العبوديّة عند محمّد ﷺ أفضل له من عزّ الحرّيّة بعيداً عنه[٣]. ولمّا عزم أبو طالب علىٰ تزويج النّبيّ ﷺ بخديجة قال: إنّ ابن أخيه محمّد لا يقاس به رجل من قريش إلّا رجحه[٤]. وكان أبو طالب يحبّه حقّاً منذ صغره، ويودّه أكثر ممّا يودّ ولده. ويضيف ابن سعد بعد نقل هذا الموضوع قائلاً: كان أبو طالب يراقبه دائماً، ويبسط فراشه إلىٰ جانب فراشه، ويصطحبه حيثما ذهب. وكان يؤثره علىٰ عياله وولده حتّىٰ في الطّعام. وله أخبار أخرىٰ في هذا المجال أيضاً[٥]. وهذا كلّه يعود إلىٰ أنّ النّبيّ ﷺ كان محبوباً محترماً، وأنّ أبا طالب بما كان عليه من مكانة ووجاهة، ومع شيخوخته وقف نفسه علىالنبيّ ﷺ بالنّحوالّذي رأينا وشعره الرّائع في مدحه ﷺ

---

(١) ***دلائل النّبوّة***، البيهقيّ ٢: ٢٣؛ ***سيرة ابن اسحاق***: ٧٩؛ ***سبل الهدىٰ والرّشاد*** ٢: ١٩٩، ٢٠٠.

(٢) الشّورىٰ: ٥٢.

(٣) ***ربيع الأبرار*** ٣: ١٠.

(٤) ***نثر الدّرّ*** ١: ٣٩٦؛ ***بحارالأنوار*** ١٦: ١٤؛ ***تاريخ اليعقوبيّ*** ١: ٢٠.

(٥) ***الطّبقات الكبرىٰ*** ١: ١١٩.

يعبّر عن هذه المنزلة الأخلاقيّة الرفيعة في ذلك المجتمع. فقد قال في الثناء عليه:

فمن مثله في النـاسِ أيّ مـؤمّل إذا قاسه الحكّام عند التّـفاضلِ

حليمٌ رشيدٌ عادلٌ غير طائشٍ يوالي إلٰهاً ليس عـنه بـغافلِ[١]

إنّ من أهمّ فضائله المشهورة صلى الله عليه وآله صدقه. والتأثير العجيب لهذه الصّفة في قبوله بين العرب بوصفه «رسول الله» قابل للإثبات من الوجهة التّاريخـيّة تمـاماً. وأنشـد أبو طالب في ذلك قائلاً:

لقد علموا أنّ ابـننا لا مكـذَّب لدينا ولا يُعْنىٰ بقول الأباطل[٢]

وكان المشركون يقرّون بهذه الصّـفة أيـضاً. قـال سـبحانه وتـعالىٰ في مـوقفهم منه صلى الله عليه وآله مسلّياً إيّاه بألّا يحزن من قذفهم له بالكذب: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّـذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلٰكِنَّ ٱلظَّالِمِينَ بِآيَاتِ ٱللهِ يَجْحَدُونَ﴾[٣] وأورد الطبرسيّ هذا الخبر عن أبي جهل أنّه قال للنّبيّ صلى الله عليه وآله: «ما نتّهمك ولا نكذّبك ولكنّا نـتّهم الّـذي جئت به ونكذّبه»[٤]. والصّدق عند عامّة النّاس أقوىٰ وأوثق من كلّ استدلال عقليّ، كما أنّ حياتهم العاديّة قائمة عليه وعلى الثّقة المتبادلة الّتي يوليها أحدهم للآخر، وعلىٰ أساسهـا يقبل أحدهم كلام الآخر في كثير من الأمـور بـلا سـند ولا مسـتمسك. والنّبيّ صلى الله عليه وآله نفسه أعلن نبوّته وطلب من الناس أن يقبلوا دعوته إلى التّوحيد علىٰ جبل الصّفا استناداً إلىٰ ثقة النّاس بصدقه. وفي ذلك قال له المشركون: (ما جـرّبنا عليك كِذباً قطّ)[٥].

وقال شاهد بَصَرَهُ في الجاهليّة إنّه ما رآه صلى الله عليه وآله في قهقهة وجهالة قطّ، ومـا رآه

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٢٨٠. (٢) نفسه ١: ٨٠.

(٣) الأنعام: ٣٣. (٤) *مجمع البيان* ٣: ٢٩٤.

(٥) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٢٠٠؛ *أنساب الأشراف* ١: ٩٩، ١٠٠، ١٢٠؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٢: ٢٠٠.

يلعب مع الصّبيان قطّ[١]. فرزانته واتّزانه ﷺ، وبعده عن الجاهليّة والشّرك، ووفاؤه لدين التّوحيد، دين جدّه إبراهيم وإسماعيل، كلّ أولئك جعله يتمتّع بموقع قويّ في المجتمع المكّيّ.

٣ ـ النّبيّ الأمّيّ

تناول عدد من البحوث موضوع معرفة النّبيّ ﷺ بالكتابة والقراءة، وهل كان ملمّاً بهما أم لا. وقد ناقشنا في الموضوعات المرتبطة بالعصر الجاهليّ أمّيّة المجتمع المكّيّ. ومحصّلتها أنّ الأُمّيّة هي الجهل بالقراءة والكتابة. ونلحظ في الاستعمالات التّاريخيّة أنّ هذه الكلمة قد تكرّر استعمالها كثيراً بمعنىٰ «كان أمّيّاً لا يكتب»[٢]. يضاف إلىٰ ذلك خلوّ التاريخ من معلومات واضحة تدلّ علىٰ وجود مدارس وكتاتيب في مكّة والمدينة والطائف[٣]. مع ذلك ذُكر أفراد قليلون فحسب كانوا يحسنون هذا العمل. وأجمعت المصادر علىٰ أنّ رسول الله ﷺ كان لا يعرف القراءة والكتابة إلىٰ ما قبل البعثة. وصرّح القرآن الكريم بذلك. قال تعالىٰ: ﴿**وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ* * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ**

---

(١) **تفسير *روح المعاني*** ٣٠: ١٦١ نقلاً عن ***تاريخ العرب قبل الإسلام***: ١٤٩.

(٢) ***بحارالأنوار*** ١٦: ٨٢، ٦٦: ١٦٧. ويستفاد من إحدى الآيات القرآنيّة أنّ استعمالها بالنسبة إلى المشركين يعني إطلاق «الأمّيّين» في مقابل «أهل الكتاب» أيضاً. (آل عمران: ٢٠، «وقل للّذين أوتوا الكتاب والأمّيّين». وجاء في الخبر المرتبط بهزيمة الفرسِ الرومَ الّذي أحزن النّبيّ ﷺ والمسلمين، ونزلت فيه الآيات الأولىٰ من سورة الروم وفيها الوعد بغلبة الروم على الفرس في بضع سنين: «كان النّبيّ ﷺ يكره أن يظهر الأمّيّون من المجوس علىٰ أهل الكتاب من الروم»؛ فقد أطلقت هذه الكلمة علىٰ فاقدي الكتاب. انظر: ***سبل الهدىٰ والرشاد*** ٢: ٥٦٠. علىٰ أيّ حال لا مانع من هذا الاستعمال للكلمة في موضعين مترابطين أساساً.

(٣) ***بحارالأنوار*** ١٧: ١٨٥، ١٨٧.

(*) الطّريف اللافت للنّظر في الآية الكريمة تصريحها بأنّه ﷺ لم يقرأ ولم يكتب، أي: لم يظهر منه ما دلّ ⇐

أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ * ... أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[١] ومن الواضح أنّ هدف القرآن من تأكيد عدم القراءة والكتابة إثبات النّبوّة وإلٰهيّة الآيات القرآنيّة[٢]. وقيل إنّ هذه الآية تشير إلىٰ الوضع السّابق لنزول القرآن. مع هذا فإنّ ما حدث في الحديبيّة يدلّ علىٰ أنّ النّبيّ ﷺ كان لا يجيد القراءة والكتابة حتّىٰ ذلك الحين. وعندما تقرّر حذف عبارة «رسول الله» من معاهدة الصّلح مع المشركين، ولم يطق أميرالمؤمنين عليه السلام محوها، طلب منه النّبيّ ﷺ أن يدّله عليها ليمحوها بنفسه. وفي المقابل، نقرأ أخباراً تنصّ علىٰ أنّه «ما مات رسول الله حتّىٰ كتب وقرأ»[٣]، بيد أنّنا لا نجد ما يدلّ علىٰ أنّه كتب نصّاً بيده. علىٰ أيّ حال، إنّ الإصرار علىٰ عدم القراءة والكتابة في التّحليل القرآنيّ وسيلة لإثبات رسالته ونبوّته ومعجزة قرآنه ﷺ. ولعلّنا نستطيع أن نعدّ الأمّيّة هنا بمعنى الحرمان من التّربية الكتبيّة والمدرسيّة. فالبدو الّذين ليس هم مركز

⇐ عليها أو إنّه لم يزاولها في حياته الشّريفة. فليس فيها ما يهدي إلىٰ أنّه لم يعرف القراءة والكتابة، أو لم يستطع أن يقرأ ويكتب. فألا يخطر في البال ويجول في الظنّ أنّه ﷺ كان يعرف القراءة والكتابة متمكّناً منها لكنّه لم يمارسها عملياً، إمّا لا لحاجةٍ منه إليها أو أنّه لم يعتنِ بها أو لم يُطلَب منه ذلك أو لم تتطلّب ظروفه قراءةً وكتابةً، أو أنّ الحكمة الإلٰهيّة اقتضت ذلك لإثبات معجزته الخالدة؟ وهو جامع المحامد كلّها ومجمع المناقب جميعها. ولمزيد البيان أنّ الرؤية القرآنيّة في الأُمّيّة تتمثّل في أنّ الأُمّيّين هم من كانوا في مقابل أهل الكتاب كما جاء في الآية (٧٨) من سورة البقرة، والآية (٢٠) والآية (٧٥) من سورة آل عمران، وهي آيات حقيقةٌ بالتّدبّر! وورد في لسان العرب (١٢ : ٣٤) ما نصّه: (وبعثه الله رسولاً وهو لا يكتب ولا يقرأ من كتاب ...). وشتّان بين قولنا: «إنّه ﷺ كان لا يقرأ ولا يكتب» وقولنا: «إنّه لم يعرف القراءة والكتابة». فحريّ بنا أن نتحرّىٰ ونتروّىٰ والتثبّت محمود. (المترجم)

(١) العنكبوت: ٤٨، ٤٩، ٥١.

(٢) مثل هذه الآية واستدلالها آية أخرىٰ، قال سبحانه: «قل لو شاء اللهُ ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون». يونس: ١٦.

(٣) *شرح القاموس* ٨: ١٩١؛ نقلاً عن *تاريخ العرب قبل الإسلام*: ١٧٢.

للتربية الفكريّة هم أُمّيّون لا كتاب لهم. ومن المحتمل أنّ العرب، حتّىٰ في الجاهليّة، كانوا يسمّون أنفسهم أمّيّين قياساً بمن كانوا يدعونهم أهل الكتاب.

٤ ـ النّبيّ والأخلاق

ينبغي الأخذ بعين الاعتبار دوراً أساسيّاً مهمّاً لخُلُق النّبيّ ﷺ في نشر دعوته. وكانت خصائصه الأخلاقيّة ﷺ قد بلغت مبلغاً أنّنا يمكن أن نعتبره أسوةً تامّة كاملة للأخلاق الإنسانيّة في مستوى رفيع عالٍ جدّاً. ولنلتفت إلىٰ أنّ الخلق، بحجم كبير، خاصّيّة فرديّة، ولطف إلٰهيّ نوعاً ما. يضاف إلىٰ ذلك أنّنا يجب أن نشير إلىٰ هذه الرّسالة الخاصّة للنّبيّ ﷺ إذ قال: «إنّما بُعثتُ لأُتمّم صالح الأخلاق»[١]. ودلّت الأخبار التّاريخيّة علىٰ قابليّة النّبي ﷺ في استقطاب كثير من الموالين، واجتذاب عامّة النّاس في مكّة، ومن ثمّ في المدينة، لكن قبل ذلك كلّه نجد أنّ صراحة القرآن نفسه أفضل دليل علىٰ هذا الأمر. قال سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٢]. وقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ ٱللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[٣]. من هنا أمره الله تعالىٰ أن يتلقّى المسلمين الجدد بصدر رحيب ووجه طلق: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾[٤]. وقال سبحانه: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٥].

إنّ أكثر الوصف الموجود لرسول الله ﷺ مأثور عن الإمام أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام عضده القديم الحميم، وكانت له نظرة نافذة ثاقبة، وكان يعرف أخاه

---

(١) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ١٩٢ [«حسن الأخلاق» بدل «صالح الأخلاق»]، ١٩٣؛ *بحارالأنوار* ١٦: ٢١٠، ٦٧: ٣٧٢، ٣٨٢؛ *مجمع البيان* ١٠: ٣٣٣، ٣٣٤.

(٢) القلم: ٤.

(٣) آل عمران: ١٥٩.

(٤) الأنعام: ٥٤.

(٥) الحجر: ٨٨.

وحبيبه أكثر من أيّ شخص آخر. قال عليه السلام في وصفه:

«لم يكن رسول الله ﷺ بالطويل الممغّط، ولا بالقصير المتردّد، كان ربعةً من القوم، ولم يكن بالجعد القطَط ولا السّبْط، كان جعداً رَجِلاً، ولم يكن بالمطّهم ولا المكلثم، وكان في وجهه تدوير أبيض مُشْرَب أدعج العينين، أهدب الأشفار، جليل المُشاش والكَتِد، أجرد، ذا مَسْرُبة، شثن الكفّين والقدمين، إذا مشىٰ تقلّع كأنّما يمشي في صَبَب، وإذا التفت التفت معاً، بين كتفيه خاتم النبوّة، وهو خاتم النّبيّين، أجود النّاس كفّاً، وأجرأ النّاس صدراً، وأصدق النّاس لهجةً، وأوفى النّاس بذمّة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة»[١].

وجمع البيهقيّ والشّاميّ، وآخرون كثيرون غيرهما مثل هذه الأخبار المتعلّقة بهندام رسول الله ﷺ ليس هنا موضع ذكرها[٢]. وقال الإمام عليه السلام في خلقه الاجتماعيّ:

«مَنْ رآه بديهةً هابه، ومَنْ خالطه معرفةً أحبّه»[٣]. و«كان رسول الله ﷺ يقسّم لحظاته بين أصحابه، فينظر إلىٰ ذا وينظر إلىٰ ذا بالسّويّة»[٤]. و«إذا لقيه الرّجل فصافحه لم ينزع يده من يده حتّىٰ يكون الرّجل هو الّذي ينزعها، ولا يصرف وجهه عن وجهه حتّىٰ يكون الرّجل هو الّذي ينزعها، ولا يصرف وجهه عن وجهه حتّى يكون الرّجل هو الّذي يصرفه[٥]. وكان طلق المحيّا، ولم يكن فظّاً ولا لوّاماً ولا بذئياً

---

(١) *الغارات* ١: ١٦١ ـ ١٦٩؛ *المعرفة والتّاريخ* ٢: ٣٥٥؛ *أنساب الأشراف* ١: ٣٩١؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٤١١ ـ ٤١٢.

(٢) *سبل الهدىٰ والرشاد* ٢: ٩ ـ ٧٦؛ *دلائل النّبوّة* ١: ٢١٥ ـ ٣٢٠؛ *المعرفة والتّاريخ* ٣: ٣٤٠ ـ ٣٦٤؛ *الموفّقيّات*: ٣٥٤، ٣٥٥.

(٣) *أنساب الأشراف* ١: ٣٩٢.

(٤) *بحارالأنوار* ١٦: ٢٦٠.

(٥) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٣٧٨؛ *مجمع الزّوائد* ٩: ١٥؛ *بحارالأنوار* ١٦: ٢٣٧؛ *المعرفة والتّاريخ* ٣: ٣٦٢.

ولا مازحاً[١] سيرته القصد، وسنّته الرشد، وكلامه الفصل، وحكمه العدل»[٢].

وقال أحد أصحابه ﷺ: «ما رأيتُ أحداً أكثر تبسّماً من رسول الله ﷺ»[٣]. وحين أسلم أبوسفيان ورأىٰ تعامل الصّحابة مع نبيّهم ﷺ قال: «والله ما رأيتُ من قوم قطّ أشدّ حبّاً لصاحبهم من أصحاب محمّد له»[٤]. ووصف الإمام الحسين عليه السلام أيضاً سيرة رسول الله ﷺ مع النّاس الّذين كان لهم شغل معه وصفاً جميلاً، نقلاً عن أبيه عليه السلام، وذكر أنّه كان يتفقّد ذوي الحاجة من النّاس ويسألهم أن يخبروه بمن له حاجة ولم يستطع أن يصل إليه. وكان وقته ﷺ في خدمة النّاس دائماً إلّا ما كان منه لله ولأهله. وكان دائب السّعي في تأليف قلوب النّاس (يؤلّفهم ولا ينفّرهم). ويكرّم كريم كلّ قوم ويولّيه عليهم. و(يتفقّد أصحابه ويسأل النّاس عمّا في النّاس). ويحسّن الحسن ويقوّيه، ويقبّح القبيح ويوهنه، معتدل الأمر غير مختلف. ولا يقصر عن الحقّ ولا يجوزه الدين. يلونه من النّاس خيارهم، أفضلهم عنده أعمّهم نصيحةً، وأعظمهم عنده منزلةً أحسنهم مواساةً ومؤازرةً. لا يجلس ولا يقوم إلّا على ذكر... يعطي كلّ جلسائه بنصيبه. لا يحسب جليسه أنّ أحداً أكرم عليه منه. (ويظنّ أنّه يحبّه كثيراً بل يؤثره علىٰ غيره)[٥]. مَنْ جالسه أو قاومه في حاجةٍ صابره حتّىٰ يكون هو المنصرف، ومن سأله حاجةً لم يردّه إلّا بها أو بميسور من القول. قد وسع النّاسَ منه بسطه وخلقه، فصار لهم أباً وصاروا في الحقّ عنده سواء، مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر

---

(١) *أنساب الأشراف* ١: ٢٩٣. علماً أنّه ﷺ كان يمزح مع ضيوفه باعتدال. *التراتيب الإداريّة* ١: ٤٤٢. [لم نعثر على مصدر هذه الصفات فتصرّفنا في ترجمتها]

(٢) *نهج البلاغة*، صبحي الصّالح: ١٣٩.

(٣) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٣٧٢ ـ ٣٧٣.

(٤) *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ٥٦؛ *المصنّف*، ابن أبي شيبة ١٤: ٤٨٤. وكان عروة بن مسعود يقول هذا أيضاً. مصنّف ابن أبي شيبة ٤: ٤٤٧.

(٥) انظر: *مجمع الزّوائد* ٩: ١٥ للاطّلاع علىٰ ما جاء داخل الأقواس.

وأمانة، لا تُرفع فيه الأصوات... وكان سهل الخلق، ليّن الجانب... يتغافل عمّا لا يشتهي... لا يذمّ أحداً ولا يعيّره، ولا يطلب عورته[١]. وكان أحسن النّاس وأسخاهم وأشجعهم[٢]. قال أحد الصّحابة: إذا تكلّمنا عنده عن الدّنيا شاركنا في كلامنا، وإذا تكلّمنا عن الآخرة تكلّم معنا عنها، وإذا دار الحديث عن الطّعام، كان يتحدّث عنه أيضاً[٣]. وكانت عائشة تقول: كان خلقه القرآن[٤]. وإذا تحدّث تبسّمت شفتاه[٥].

هذه نماذج من سيرة رسول الله ﷺ مع أصحابه. ويمكننا الآن أن ندرك كلام الله سبحانه أفضل ممّا سبق إذ يقول: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾. ومع هذه الأخبار المنقولة كلّها نلحظ اشتهار رواية في مصادر أهل السّنّة تذكر أنّ النّبيّ ﷺ كان مشغولاً ذات يوم في الكلام مع أشراف قريش. فجاءه رجل أعمىٰ يقال له ابن أمّ مكتوم، وكان يتوقّع منه أن يهتمّ به ويُقبل عليه. لكن النّبيّ ﷺ عبس وتولّىٰ وأعرض عنه، فنزلت سورة عبس تعاتبه على ذلك. فهذه الرّواية نقلها محدّثو السّنّة نوعاً ما، بيد أنّ العلماء الإسلاميّين حين وضعوها علىٰ مسبار النّقد والتّمحيص بعد مدّة قليلة، اقتُرحت طرقٌ للتملّص منها.

يقول الشّاميّ: قال الحافظ ابن حجر: لم يتردّد علماء السّلف في أنّ فاعل «عبس» هو رسول الله ﷺ، لكن الدّاووديّ قال: إنّ المقصود هو الكافر. وقال آخرون

---

(١) **المعرفة والتّاريخ** ٣: ٣٥٧ ـ ٣٥٩؛ **الطّبقات الكبرىٰ** ١: ٤٢٢ ـ ٤٢٥ (باختصار).

(٢) **المعرفة والتّاريخ** ٣: ٣٦١.

(٣) **المعرفة والتّاريخ** ٣: ٣٦١؛ **دلائل النّبوّة** ١: ٣١٣. وجاء في موضع آخر أنّ الصحابة كانوا يتناشدون الأشعار ويذكرون أشياء من أمر الجاهليّة فيضحكون ويتبسّم رسول الله ﷺ إذا ضحكوا. **الطّبقات الكبرىٰ** ١: ٣٧٢؛ **المعرفة والتّاريخ** ٣: ٣٦٣؛ **سنن البيهقيّ** ١: ٢٤٠.

(٤) **المعرفة والتّاريخ** ٣: ٣٦١.

(٥) **نثر الدّرّ** ٢: ١٣٣.

أيضاً: كان ابن أمّ مكتوم في المدينة ولم يلق الوليد بن المغيرة، وأميّة بن خلف، فشكّوا في هذه القضيّة. ولا يستصوب الشّاميّ هذا الرّأي، لأنّ ابن أمّ مكتوم كان في مكّة، وعُدّ في المهاجرين الأُوَل[1]. علىٰ أيّ حال لم يبدر من أهل السّنّة ترديد جادّ في هذا الموضوع. ويقابل موقفهم موقف آخر للشّيعة، فقد رفضوا الرواية المذكورة. ويعود ذلك في الدّرجة الأُولىٰ إلىٰ رواية مأثورة عن الإمام الصّادق عليه‌السلام قال فيها:

«إنّها نزلت في رجلٍ من بني أُميّة كان عند النّبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فجاء ابن أمّ مكتوم، فلمّا رآه تقذّر منه وجمع نفسه وعبس وأعرض بوجهه عنه فحكى الله سبحانه ذلك وأنكره عليه»[2].

ونقل الطبرسيّ عن الشّريف المرتضىٰ أنّه قال:

«ليس في ظاهر الآية دلالة علىٰ توجّهها إلى النّبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بل هو خبر محض لم يصرّح بالمخبر عنه، وفيها ما يدلّ علىٰ أنّ المعنيّ بها غيره، لأنّ العبوس ليس من صفات النّبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم مع الأعداء المباينين فضلاً عن المؤمنين المسترشدين. ثمّ الوصف بأنّه يتصدّىٰ للأغنياء ويتلهّىٰ عن الفقراء لا يشبه أخلاقه الكريمة. ويؤيّد هذا القول قوله سبحانه في وصفه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾، وقوله: ﴿**وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾[3].

فالشخصيّة الأخلاقيّة الّتي نعرفها لرسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لا تؤيّد هذا الموقف.

وذهب البعض الآخر إلىٰ أنّ تضارب الرّوايات المنقولة في هذا الباب دليل علىٰ فساد أصل القصّة. ولمّا كانت الرّوايات المذكورة مرويّة عن أشخاص مثل عائشة، وأنس، وابن عبّاس الّذين لم يتذكّروا زمان البعثة أو لم يكونوا في مكّة أساساً،

---

(١) *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٢: ٥٥٧، ٥٥٨. (٢) *مجمع البيان* ١٠: ٤٣٧.

(٣) نفسه ١٠: ٤٣٧.

فسندها ضعيف[١]. ومهما كان فالموقف نفسه في التّمييز بين الفقير والغنيّ تنكره الآيات الكريمة حتّىٰ لو كان للهداية. ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ * أَن جَاءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰ * أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ * فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ * وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ * وَهُوَ يَخْشَىٰ * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ * كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾[٢].

وقال المرحوم الطّبرسيّ، وقد نقل رواية الإمام الصّادق عليه السلام:

فلو صحّ الخبر الأوّل، هل يكون العبوس ذنباً أم لا؟ فالجواب أنّ العبوس والانبساط مع الأعمىٰ سواء إذ لا يشقّ عليه ذلك، فلا يكون ذنباً. فيجوز أن يكون عاتب الله سبحانه بذلك نبيّه صلى الله عليه وآله ليأخذه بأوفر محاسن الأخلاق وينبّهه بذلك علىٰ عظيم حال المؤمن المسترشد، ويعرّفه أنّ تأليف المؤمن ليقيم علىٰ إيمانه أولىٰ من تأليف المشرك طمعاً في إيمانه»[٣].

وقال في سبب ورود «عبس» بصيغة الغائب:

«... وفي هذا لطف من الله عظيم لنبيّه صلى الله عليه وآله»[٤].

علىٰ أيّ حال حريّ بالذكر أنّ الله سبحانه نفسه قال في وصف رسوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾[٥].

٥ ـ النّبيّ ذو العزم

أشرنا في بداية هذا البحث إلىٰ مفهوم «أولي العزم» وقلنا: إنّ بعض الأنبياء كانوا

---

(١) *الصّحيح من سيرة النّبيّ* صلى الله عليه وآله ٢: ٧٨ ـ ٨٥.

(٢) عبس: ١ ـ ١٢.

(٣) *مجمع البيان* ١٠: ٤٣٧، ٤٣٨.

(٤) نفسه.

(٥) التّوبة: ١٢٨.

أصبر من غيرهم. ولعلّ هذا هو الّذي دعا إلىٰ أن يكون عدد منهم أصحاب شرائع عامّة فحسب بناءً علىٰ مصداق الرّواية الواردة في شرح مفهوم «أُولي العـزم». وفي ضوء المعنى المذكور فإنّهم أفضل من غيرهم لتحلّيهم ببعض الخصال الذّاتيّة. وكان نبيّنا ﷺ منهم. فقد كان ذا عزم وإرادة. إذ جدّ في بثّ دعوته، وتحمّس لها، وعمل أكثر ممّا كُلِّف به، وكان شديد الحرص علىٰ إسلام النّاس. وفي مرحلة الدّعوة طُلب منه «البلاغ» لا غيره، وهذا البلاغ كان يتحقّق بالدّعوة مرّةً واحدةً، بيد أنّ رسول الله ﷺ لم يرض بها مرّة أو مرّتين، بل كان مكثراً فيها، إذ عُرِف بتردّده علىٰ الأشخاص والطّوائف المختلفة مراراً، وكان يريد منهم الاستماع إلىٰ دعوته الإسلاميّة. والّذين كانوا يواجهون هذا الإصرار، يشعرون بثقته الّتي لا تتزعزع بنهجه. وكانت محصّلة هذا الشّعور مضاعفة الاهتمام بهذه الدّعوة. وحقيقة الأمر أنّهم عندما كانوا يلحظون كلّ هذا الحرص والتحمّس والإصرار، يزيد اهتمامهم بأمره. وكان سعيه ﷺ، بخاصّة ما كان يحمله من روح الحرص والتحمّس الّتي تؤذيه أشد الإيذاء باطنيّاً، قد بلغ مبلغاً أنّ الله سبحانه وتعالىٰ كان يلطف به ويلفت نظره إلىٰ ذلك حبّاً به وتطييباً لنفسه الشّريفة المقدّسة. قال جلّ من قائل: ﴿**فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً**﴾[1]. وقال: ﴿**أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ ٱللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ ٱللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ**﴾[2]. وقيل لرسول الله ﷺ: ﴿**إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ ٱللهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ...**﴾[3]. وقال: ﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلٰكِنَّ ٱللهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ**﴾[4].

هذه الآيات كلّها آيات على الحرص الخاصّ الّذي كان يشعر به النّبيّ ﷺ حيال

---

(١) الكهف: ٦.
(٢) فاطر: ٨.
(٣) النّحل: ٣٧.
(٤) القَصَص: ٥٦.

دعوته وهداية النّاس والإصرار علىٰ هذا العمل. ومن الطّبيعيّ أنّ الهداية ليست بالإصرار وحده. فهي نور يقذفه الله تعالىٰ في قلب من كان له أهلاً. ولنا أن نعدّ صمود رسول الله ﷺ وإصراره علىٰ عمله الرّساليّ عاملين مهمّين في بثّ دعوته ونشرها. وحول جهوده ومساعيه العظيمة يقول أخوه وصاحبه الإمام أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام:

«اللهمّ ... اجعل شرائف صلواتك ونوامي بركاتك ورأفة تحنّنك علىٰ محمّد عبدك ورسولك ونبيّك الخاتم لما سبق، والفاتح لما انغلق، والمعلن الحقّ بالحقّ، والدّافع جيشات الأباطيل والدّامغ صولات الأضاليل ،كما حمّل فاضطلع قائماً بأمرك لطاعتك، مستوفزاً في مرضاتك، غير ناكلٍ عن قدم، ولا واهٍ في عزم، واعياً لوحيك، حافظاً لعهدك، ماضياً علىٰ نفاذ أمرك، حتّىٰ أورىٰ قبس القابس، وأضاء الطريق للخابط ...»[١].

مكائد المشركين في موقفهم من النّبيّ ﷺ

كان ظهور الإسلام في الوهلة الأولىٰ بعد نزول الآيات الأولىٰ علىٰ رسول الله ﷺ. فكان ﷺ يصلّي عند الكعبة إلىٰ بيت المقدس ومعه عدد من أتباعه كعليّ ابن أبي طالب عليه السلام، وخديجة، وزيد بن حارثة. ومن الواضح أنّ المشركين كانوا علىٰ علم بهذا العمل وممهّداته لكنّهم لم يتّخذوا موقفاً حادّاً منه ﷺ. وعزا المؤرّخون ذلك إلىٰ ما يأتي: يقول الزّهريّ:

«دعا رسول الله ﷺ إلى الإسلام سرّاً وجهراً، فاستجاب لله من شاء من أحداث الرّجال وضعفاء النّاس حتّىٰ كثر مَنْ آمن به، وكفّار قريش غير منكرين لما يقول.

---

(١) *الغارات* ١: ١٥٩، ١٦٠.

فكان إذا مرّ عليهم في مجالسهم يشيرون إليه أنّ غلام بني عبد المطّلب ليُكلَّم من السّماء، فكان ذلك حتّىٰ عاب الله آلهتهم الّتي يعبدونها دونه، وذكر هلاك آبائهم الّذين ماتوا على الكفر، فَشَنِفوا لرسول الله ﷺ عند ذلك وعادَوْهُ»[١].

ويبدو أنّ المشركين لم يتّخذوا موقفاً من الدّعوة في مرحلتها الأولىٰ لأنّ قريشاً لم تكن حسّاسةً حيال عبادة الأصنام أو تغيير دين بعض أفرادها. بل كانت تثار وتمتعض إذا تعرّض أحدٌ لآلهتها (أصنامها) أو لآبائها وأجدادها بسوء وامتهان[٢]. وفي فترة لاحقة كانت تقترح على النّبيّ ﷺ أن يدع آلهتها، وهم يتركونه وإلٰهه[٣]. وتدهورت علاقات المشركين بالنّبيّ ﷺ وصحابته بعد إعلان حقيقة رسالته وهي الانفصال عنهم، وتوحيد الله، ورفض عبادة الأصنام، وذمّها البالغ. وبعد ذلك حاولت قريش أن تحول دون انتشار الإسلام وامتداده المتعاظم بما كانت تمتلكه من وسائل وأدوات.

إنّ التّركيبة القبليّة لتلك البيئة دفع قريشاً إلى الاصطدام بالنّبيّ ﷺ في إطار خاصّ. فلم تستطع إيذاءه مباشرة لدعم آل عبد المطّلب له. من هنا كان عليها أن

---

(١) ***أنساب الأشراف*** ١: ١١٥، ١١٦؛ ***الطّبقات الكبرىٰ*** ١: ١٩٩؛ ***السّيرة النّبويّة***، ابن هشام ١: ٢٦٢، ٢٦٤.

(٢) كان هذا الموضوع عسيراً علىٰ بعض المشركين إلىٰ درجة أنّهم لم يتحمّلوا البقاء في مكّة إبّان سنين البعثة، وغادروها إلى الطّائف كي لا يسمعوا إساءةً إلىٰ آبائهم وآلهتهم. انظر: ***الطّبقات الكبرىٰ*** ٤: ١٠٠، [قال أحيحة حين أسلم ابنه ولم يستطع إرجاعه: «لأعتزلنّ في مالي لا أسمع شتم آبائي ولا عيب آلهتي هو أحبّ إليّ من المقام مع هؤلاء الصباة». والصباة جمع صابئ، اسم وضعه المشركون للمسلمين، وكان في الأصل اسماً لفرقة تُدعىٰ «الصّابئين»].

(٣) ***أنساب الأشراف*** ١: ٢٣١. كرّر المشركون تعبير أبي جهل بشأن رسول الله ﷺ. وكان قد قال فيه معدّداً أعماله ضدّهم: عيب ديننا وشتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وشتم إلٰهنا. انظر: ***السّيرة النّبويّة***، ابن هشام ١: ٢٩٨؛ ***أنساب الأشراف*** ١: ١٤١.

تفكّر بأُسلوب يطلق لها العنان في ما تريده. وتطرّقنا سابقاً إلىٰ أحد أساليبها وهو إيذاء المسلمين واضطهادهم. ويتسنّىٰ لنا مناقشة هذه الأساليب والمواقف في شكلين: الأوّل: استعراض المسار التّاريخيّ لها. الثّاني: الحديث عنها موضوعيّاً. وسنتناولها بهذا الحديث الموضوعيّ مشيرين إلىٰ موردها التّاريخيّ ومراعين بذلك إيجاز الكتاب.

١ ـ المساومة

كان موقع قريش في مكّة، كقبيلة متاجرة تحتاج إلى الهدوء لمواصلة عملها، يفرض عليها أن تُنهي قضيّة الإسلام باتّئاد. يضاف إلىٰ ذلك أنّ القضاء على النّبيّ ﷺ ـ كما مرّ بنا سلفاً ـ كان متعذّراً لاستتباعه حرباً دمويّة لاحدّ لها داخل قريش نفسها. من هنا كانت منذ البداية حتّىٰ عزمها علىٰ قتله تفكّر بالموادعة والمساومة، وتطرح ذلك بين تارةٍ وأخرىٰ. ومن الجدير ذكره أنّها لم تكن مستعدّة قطّ لايجاد اشتباكات واصطدامات بين بطونها بخاصّة علىٰ قضايا جزئيّة أو علىٰ قضايا كانت تحسبها جزئيّة[١]. وبشأن الاقتراحات التساوميّة يمكن الإشارة إلى اقتراحاتها بتقديم المال والمنصب. قال ابن إسحاق: نزلت الآية ﴿**قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللهِ**﴾[٢] في ردّ العروض الماليّة للمشركين[٣]. ونقل أنّ أشراف قريش بعثوا وراء رسول الله ﷺ، وطلبوا التفاوض معه فأتاهم، فقالوا له: (إنّا قد بعثنا إليك لنكلّمك، وإنّا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل علىٰ قومه مثل ما أدخلتَ علىٰ قومك. لقد شتمتَ الآباء، وعبتَ الدّين، وشتمتَ الآلهة، وسفّهت الأحلام، وفرّقتَ الجماعة، فما بقي أمرٌ قبيح إلّا قد جئته فيما بيننا وبينك... فإنْ كنتَ إنّما جئتَ

(١) انظر بهذا الشأن قصّة مفصّلة نقلها ابن هشام (*السّيرة النّبويّة* ١: ٤١٢، ٤١٣).

(٢) سبأ: ٤٧.

(٣) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٣١٣.

بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتّىٰ تكون أكثرنا مالاً، وإن كنتَ إنّما تطلب به الشّرف فينا فنحن نسوّدك علينا، وإنْ كنت تريد به ملكنا ملّكناك علينا، وإن كان هذا الّذي يأتيك رَئيّاً تراه قد غلب عليك ـ وكانوا يسمّون التّابع من الجنّ رئيّاً ـ فربّما كان ذلك بذلنا لك أموالنا في طلب الطّبّ لك حتّىٰ نبرئك منه أو نُعذر فيك. فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما بي ما تقولون، ما جئتُ بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشّرفَ فيكم، ولا الملك عليكم، ولكنّ الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل علَيّ كتاباً ... فإن تقبلوا منّي ما جئتكم به فهو حظّكم في الدّنيا والآخرة، وإن تردّوه علَيّ أصبر لأمر الله حتّىٰ يحكم الله بيني وبينكم».)[١]

وورد في خبر آخر عن جابر أنّ رسول الله ﷺ قرأ عليهم الآيات الأولىٰ من سورة «فصّلت» حين عرضوا عليه المال والسّؤدد وغيرهما حتّى بلغ قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[٢]. وتحيّر عتبة بن ربيعة أمام هذه الآيات ورجع. وأضاف البلاذريّ علىٰ لسانه أنّه قال لقريش: خلّوا بين هذا الرّجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، وإنّه لن يتخلّىٰ عمّا هو فيه[٣]. وهو نفسه ﷺ كان يقول: «لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري علىٰ أن أترك هذا الأمر حتّىٰ يُظهره الله أو أُهلك فيه، ما تركتُه»[٤].

وكان الاقتراح التّساوميّ الآخر للمشركين إسكات النّبيّ ﷺ مبدئيّاً عندما لم

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٢٩٥، ٢٩٦. (٢) فصّلت: ١٣.

(٣) *المصنّف*، ابن أبي شيبة ٧: ٣٣١؛ *أنساب الأشراف* ١: ١٥١؛ *تاريخ يحيى بن معين* ١: ٥٤، ٥٥ (الرّواية هنا مفصّلة)؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٢٩٣؛ *عيون الأثر* ١: ١٩٦، ١٩٧؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٢: ٤٤٧ ـ ٤٤٩.

(٤) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٢٦٦؛ *أنساب الأشراف* ١: ٢٣٠.

يعلن ﷺ دعوته، ولم يُدِن عقائد المشركين، فإنّهم قد تركوه وشأنه. بيد أنّهم اتّخذوا موقفهم المعروف منه حين صدع بدعوته إلى التّوحيد وعاب عقائد الصنميّة وأدانها. وبعد ذلك بدأ الاصطدام، لكنّ المشركين كانوا مصرّين علىٰ أن يحجّم رسول الله ﷺ عن عمله، ويتركهم وآلهتهم. وفي ضوء ما نقل كتّاب السِّيَر والمفسّرون، فإنّ سورة «الكافرون» نزلت في نفر من أشراف قريش، وفيهم: الحارث بن قيس السّهميّ، والعاص بن أبي وائل، والوليد بن المغيرة، وأميّة بن خلف.

«قالوا: هلمّ يا محمّد فاتّبع ديننا نتّبع دينك ونشركك في أمرنا كلّه. تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلٰهك سنةً. فإن كان الّذي جئت به خيراً ممّا بأيدينا كنّا قد شركناك فيه وأخذنا بحظّنا منه. وإن كان الّذي بأيدينا خيراً ممّا في يديك كنت قد شركتنا في أمرنا وأخذت بحظّك منه، فقال ﷺ: معاذ الله أن أشرك به غيره، قالوا: فاستلم بعض آلهتنا نصدّقك ونعبد إلٰهك. فقال: حتّى أنظر ما يأتي من عند ربّي، فنزل: «قل يا أيّها الكافرون» السّورة، فعدل رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام..»[1].

قال ابن عبّاس: لمّا اشتكىٰ أبو طالب وكان في الأيّام الأخيرة من حياته، استغلّت قريش جاهه، فاعتزمت إجبار النّبيّ ﷺ علىٰ تحجيم دعوته.

«قالوا لأبي طالب: ... وقد علمتَ الّذي بيننا وبين ابن أخيك، فادعه، فخذ له منّا، وخذ لنا منه، ليكفّ عنّا، ونكفّ عنه، وليدعنا وديننا، وندعه ودينه. فبعث إليه أبو طالب، فجاءه، فقال: يا ابن أخي: هؤلاء أشراف قومك، قد اجتمعوا لك ليعطوك، وليأخذوا منك. فقال رسول الله ﷺ: نعم، كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم، فقال أبو جهل: نعم وأبيك، وعشر كلمات؛ قال:

---

(١) *مجمع البيان* ١٠: ٥٥٢؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٣٦٢؛ *أنساب الأشراف* ١: ١٣٤، رقم ٢٧٥؛ *عيون الأثر* ١: ١٩٧؛ *سبل الهدىٰ والرشاد* ٢: ٥٥٩.

تقولون: لا إله إلّا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه. قال: فصفّقوا بأيديهم... إنّ أمرك لعجب... ثمّ تفرّقوا»[١].

وكانت خطوات المشركين من أجل جرّ النّبيّ ﷺ إلى التّساوم مكثّفة، وكانوا يطمحون إلىٰ تقليص اندفاعه باقتراحاتهم المتعدّدة مهما كلّفهم ذلك. وهمّوا بخداعه أيضاً. وهو ما ذكره القرآن الكريم. فقد نُقل عن الإمام الباقر عليه السلام أنّ آيات من سورة الإسراء، كسورة «الكافرون»، نزلت بشأن الاقتراحات الّتي كان قد عرضها الكافرون[٢]. قال تعالىٰ في هذه السّورة: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً * وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً * إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَاةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾[٣]. وذكر الطّبرسيّ خمسة موارد في شأن نزول هذه الآيات، وكلّها تُنبئ عن إصرار المشركين علىٰ ضربٍ من التّساوم العباديّ[٤]. وطلبوا منه ﷺ أن يعبد آلهتهم بذريعة أنّ عبادتها كانت دين آبائه، فمنعه الله تعالىٰ من ذلك بصراحة وقال: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللهِ تَأْمُرُونِّى أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَاهِلُونَ * وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ﴾[٥]. وفي موضع آخر طلب الله سبحانه من رسوله ألّا يرضخ لأيّ هوىً من أهواء المشركين، قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ ٱلْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٦]. وقال تارةً أُخرىٰ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ * وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ * وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ﴾[٧].

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٤١٧؛ *أنساب الأشراف* ١: ٢٣١؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٢٠٢؛ *المصنّف*، ابن أبي شيبة ٧: ٣٢٢.

(٢) *تفسير فرات*: ٦١١، رقم ٧٦٨.

(٣) الإسراء: ٧٣ ـ ٧٥.

(٤) *مجمع البيان* ٦: ٤٣١.

(٥) الزمر: ٦٤، ٦٥.

(٦) الجاثية: ١٨.

(٧) القلم: ٨ ـ ١٠.

الآيات الأخيرة بخاصّة تصرّح بأنّ قريشاً كانت تنوي تقليل التّوتّر بينها وبين الرّسول ﷺ. وقال سبحانه في موضع آخر: ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِن دُونِ ٱللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ**﴾[1] وقال تبارك شأنه: ﴿**فَلِذٰلِكَ فَادْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ**﴾[2]. وأمر تعالىٰ رسوله ﷺ أنْ يبتعد عنهم وقال: ﴿**وَٱهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً**﴾[3]. وهذا الأمر كان منذ بداية الدّعوة. ومن المحتمل أنّه ورد من أجل تمييز طريق التّوحيد عن طريق الشّرك تماماً. ولم يرغب المشركون كثيراً في زيادة التّفاوت بين توحيد النّبيّ ﷺ وشركهم لئلّا يحدث انشقاق في المجتمع المكّيّ. وكان قد قيل لأبي بكر إنّه إذا بقي في بيته وعَبَدَ الله فلا شغل للمشركين به[4]. فهذه هي سياسة المشركين.

٢ ـ المواقف النّفسيّة

إنّ أحد الأساليب الّتي انتهجها المشركون في تعاملهم مع النّبيّ ﷺ اتّخاذهم المواقف السّاخرة لإيذائه. وكان هدفهم الأصليّ الحطّ من شخصيّته وعزله. وكانوا يسخرون منه بأشكال مختلفة مستهدفين عزله وامتهان شخصيّته. وكان طبيعيّاً من جرّاء ذلك أنّه لا اعتناء للنّاس به، ولا هو يستطيع البروز في المجتمع. ولا يمكن أن يكون التأثير الروحيّ لهذا الموقف قليلاً علىٰ النّبيّ ﷺ وهو المعروف بنجابته ونزاهته وصدقه، بيد أنّه صمد أمام ضروب السخرية والاستهزاء جميعها بفضل ما عُرِفَ به من الصّفات المذكورة. واهتمّ كُتّاب السِّيَر بالاستهزاء كفصل مهمّ في أخبار

---

(١) هود: ١١٢، ١١٣.
(٢) الشّورىٰ: ١٥.
(٣) المزّمّل: ١٠.
(٤) *البدء والتاريخ* ٤ ـ ٦: ١٥١.

عصر البعثة. وذكر ابن سعد، وابن إسحاق، والبلاذريّ فهرساً بأسماء المستهزئين[١]. ومن بين عشرات الأسماء الّتي أوردها ابن سعد، أسلم شخصان منهم فحسب، أمّا الباقون فقد هلكوا في الغزوات أو ماتوا قبل فتح مكّة[٢]. وذهب كُتّاب السِّيَر إلىٰ أنّ هذا يعود إلىٰ دعاء النّبيّ ﷺ عليهم[٣].

وأبرز هؤلاء أبو جهل، وأبو لهب، والأسود بن عبد يغوث، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وعقبة بن أبي معيط، وأبو سفيان. وكان أبو لهب (عبد العزّىٰ بن عبد المطّلب) أحد الهاشِمِيِّين المخالِفَين لرسول الله ﷺ، ولم يأل جهداً في الحؤول دون انتشار الإسلام علىٰ طول عصر البعثة. ونقل البلاذريّ أنّه كان قبل البعثة سيّئ العلاقة برسول الله ﷺ إذ ورد أنّ أبا لهب وأبا طالب تشاجرا يوماً، وجلس أبولهب علىٰ صدر أبي طالب فأزاحه رسول الله ﷺ، ثمّ جلس أبو طالب علىٰ صدره[٤]. وكان أبو لهب يقول في سبب مخالفته: يا بني عبد المطّلب، هذا الأمر (الإسلام) أمر سوء فحولوا دونه قبل أن يحول غيركم دونه؛ لأنّكم إذا أسلمتم فستذلّون بين العرب، وإذا ذدتم عنه تُقتلون. وجاء فيه أنّه كان يخشىٰ علىٰ بني عبد المطّلب أن يكونوا طرفاً أمام قريش والعرب جميعها[٥].

علىٰ أيّ حال، عندما تمّ الإعلان عن الدّعوة بذل أبو لهب وزوجته أمّ جميل قصاراهما من أجل التّبليغ ضدّ النّبيّ ﷺ ومناهضته حتّىٰ بلغا في ذلك درجة أنّ

---

(١) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٢٠٠، ٢٠١؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٤٠٨ ـ ٤١٠؛ *أنساب الأشراف* ١: ١٢٤.

(٢) انظر: *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٢٠١؛ *مجمع البيان* ٦: ٣٤٦، ٣٤٧.

(٣) *دلائل النّبوّة*، البيهقيّ ٢: ٣٣٥ ـ ٣٣٩؛ *تثبيت دلائل النّبوّة*: ٣٤٤، ٣٤٥؛ *مجمع البيان* ٦: ٣٤٦؛ *عيون الأثر* ١: ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٦.

(٤) *أنساب الأشراف* ١: ١٣٠، رقم ٢٦٣.

(٥) نفسه ١: ١١٩.

القرآن الكريم ذكرهما وحدهما من بين الأعداء. وبدأ أبو لهب عداءه للنّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بتطليق بنتيه اللّتين كان قد عقدهما لابنَيْه[١]. وعندما كان صلى الله عليه وآله وسلم يدعو النّاس إلى التّوحيد، كان أبو لهب يلاحقه ويرميه بالحجارة ويقول للنّاس: لا تطيعوه، إنّه صابئيّ، إنّه كذّاب[٢]!

واشتدّ إيذاؤه للنّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم حتّىٰ قال تعالىٰ فيه وفي زوجته أمّ جميل: **﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ * ... وَٱمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ * فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِن مَسَدٍ﴾**[٣].

وقيل: إنّ الله تعالىٰ سمّاها حمّالة الحطب لأنّها كانت تلقي الشّوك في طريق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[٤]. وعندما سمعت نزول آيات فيها وفي زوجها أنشدت شعراً في هجاء النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قالت فيه:

مذمّماً عصينا وأمره أبينا

ودينه قَلَيْنَا[٥]

كان المشركون يستعملون كلمة «مذمّم»، ولعلّهم افتعلوها في مقابل اسم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[٦]. وكان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطّلب من أقارب النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم الآخرين الّذين كانوا شديدي العداء له، وكان يهجو الإسلام والمسلمين بشعره. وأسلم في فتح مكّة[٧]. وكان أُميّة بن خلف في عداد المستهزئين أيضاً. ونقل كُتّاب

---

(١) *أنساب الأشراف* ١: ١٢٢، ١٢٣.

(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٤٢٣؛ *تاريخ يحيى بن معين* ١: ٢٣٨؛ *كنز العمّال* ٦: ٣٠٢؛ *المستدرك* ١: ١٥؛ *عيون الأثر* ١: ١٩٠؛ *المصنّف*، ابن أبي شيبة ٧: ٣٣٢.

(٣) المسد ١، ٤، ٥.

(٤) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٣٥٥. حول شأن النزول المتعدّد الوالد فيها، انظر: *أنساب الأشراف* ١: ١٢٠، ١٢١.

(٥) نفسه ١: ٣٥٦؛ نفسه ١: ١٢٢.

(٦) انظر: *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٣٥٦.

(٧) *الطّبقات الكبرىٰ* ٤: ٤٩، ٥٠.

السِّيَر والمحدِّثون أنّ الله تعالىٰ أنزل سورة الهُمَزَة في وصفه[١].

من الحريّ بالعلم أنّ نزول الآيات القرآنيّة بشأن المشركين كان يُغضبهم، إذ كانت هذه الآيات تُقرأ باستمرار. وكانت بين عقبة بن أبي معيط وأُبيّ بن خلف صداقة أكيدة. وحين سمع أُبيّ مرّة أنّ عقبة جالس عند رسول الله ﷺ حنق، وقال له: لا أكلّمك إلّا إذا جاء محمّد وبزقتَ في وجهه، ففعل ذلك[٢]. وقال سبحانه تعالىٰ فيه: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً * يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً﴾[٣]. وذات مرّة ماطل أبو جهل دائناً له، فاستغاث، فقال له المشركون هازئين ساخرين: ارجع إلىٰ الرجل الجالس عند المسجد وخذ منه حقّك. وذلك الرّجل هو النّبيّ ﷺ. فقام ﷺ صدفةً وذهب إلىٰ باب دار أبي جهل وطلب منه أن يُعطي الرجل حقّه. ففعل أبو جهل ذلك لا شعوريّاً[٤].

وكانت ضروب السّخرية كثيرة حتّى قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِئِينَ﴾[٥] وقيل: إنّها نزلت في الأسود بن عبد يغوث الّذي كان يستهزئ بالمسلمين، وكان يقول إذا رآهم: جاء الملوك علىٰ الأرض! وعندما كان يرىٰ رسول الله ﷺ يقول له: يا محمّد، هل تحدّث اليوم معك أحد من السّماء؟ وقيل: إنّه مات شرَّ ميتةٍ[٦]. وقال تعالىٰ

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٣٥٦. ونقل الطّبرسيّ خبرين يفيدان أنّ السورة نزلت في الوليد بن المغيرة، والأخنس بن شريق؛ *مجمع البيان* ١٠: ٥٣٨. وأورد رواية عن الإمام الباقر عليه السلام قال فيها: «إنّ الكفّار والمشركين يعيّرون أهل التّوحيد في النّار ويقولون: ما نرىٰ توحيدكم أغنىٰ عنكم شيئاً وما نحن وأنتم إلّا سواء. قال: فيأنف لهم الربّ تعالىٰ...».

(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٣٦١؛ *مجمع البيان* ٧: ١٦٦.

(٣) الفرقان: ٢٧، ٢٨.

(٤) *أنساب الأشراف* ١: ١٢٨، ١٢٩؛ *السّيرة النّبويّة*: ٣٨٩، ٣٩٠؛ *عيون الأثر* ١: ٢٠٤، ٢٠٥.

(٥) الحجر: ٩٥.

(٦) *أنساب الأشراف* ١: ١٣١، ١٣٢، وانظر ١: ١٤٨، ١٤٩.

بعد الآية السّابقة واصفاً المستهزئين بالشّرك: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهاً ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[١]. ثمّ قال بعدها: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾[٢]. وفي آيات أُخرىٰ لاطف الله سبحانه رسوله ﷺ وسلّاه عن استهزاء المشركين. قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِن قَبْلِكَ﴾[٣]. وتكرّرت هذه الآية ثلاث مرّات. ويضاف إلىٰ ما تستهدفه من تهدئة النّبيّ ﷺ وتسكينه أنّها تحمل تهديداً للمستهزئين أيضاً، إذ جاء في تتمّة الآية السّابقة: ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[٤]. وهذه السّخرية كان يرافقها إطلاق لكلمة «كذّاب» و«ساحر» وأسوأ منها كلمة «مجنون».

وكان المشركون يهمّون بسلب القداسة من الآيات القرآنيّة، ووصف الرّسول ﷺ بالجنون والكذب. وحين سأل عدد من الوافدين قريشاً عن عمل النّبيّ ﷺ جعلته في عداد السّحرة والشّعراء[٥]. وأراد الله تعالىٰ تسلية رسوله وتطييب نفسه المقدّسة فوجّه نظره إلىٰ ما حدث للأمم السّابقة. قال جلّ شأنه: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِن رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ﴾[٦]. وقال في موضع آخر: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾[٧]. وقال في الأنواع الأخرىٰ لهزئهم وسخريتهم: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولاً﴾[٨]! وذكر بعد هذه الآية أنّ المشركين مسرورون

---

(١) الحجر: ٩٦. (٢) الحجر: ٩٧.

(٣) الأنعام: ١٠؛ الرعد: ٣٢؛ الأنبياء: ٤١. وانظر: *السّيرة النّبويّة* ١: ٣٩٥، ٣٩٦. وقيل هنا: نزلت الآية المذكورة بعد استهزاء المستهزئين من قريش، وينهج القرآن الكريم من الوجهة التّاريخيّة أسلوب المقايسة بين الأُمور الّتي حدثت للأنبياء السّابقين عليهم السلام ولنبيّنا ﷺ.

(٤) الأنعام: ١٠.

(٥) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٢٧٠، ٢٧١؛ **عيون الأثر** ١: ١٩١.

(٦) الذّاريات: ٥٢ ـ ٥٤. (٧) فصّلت: ٤٣.

(٨) الفرقان: ٤١.

لبقائهم صابرين علىٰ شركهم أمام النّبيّ ﷺ.

وكان من الضّروب الأخرىٰ لاستهزائهم أنّ النّبيّ ﷺ أبتر ليس له ابن. والمستهزئ بذلك هو العاص بن وائل (أبو عمرو بن العاص). فأنزل الله تعالىٰ سورة الكوثر في جواب ذلك الوضيع، ووصفه فيها بالأبتر ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾[١]. ومن المستهزئين الآخرين الحكم بن أبي العاص الّذي كان يسير خلف النّبيّ ﷺ ويصنع بعض الحركات[٢]. ونُقل في بعض المواضع أيضاً أنّه عدّ الاعتقاد بالمعاد خُداعاً من رسول الله ﷺ، لذا كان يستهزئ به[٣].

علىٰ أيّ حال عبّأت قريش سفهاءها للاستهزاء برسول الله ﷺ[٤] مستهدفةً الهزء به ﷺ وعزله. وكانت تُسمّيه ابن أبي كبشة استهزاءً وسخريةً. وقيل: إنّ هذا الرجل كان لا يرعىٰ حرمة الحرم الإلٰهيّ، من هنا كانوا يشبّهون رسول الله ﷺ به[٥].

٣ ـ المواقف السّياسيّة

يمكننا أن نعثر علىٰ نماذج من هذه المواقف في الموضوع السّابق المذكور تحت عنوان: «المواقف النّفسيّة». ونذكر هنا أمثلة خاصّة. فقد كانت لقاءات المشركين جميعها بأبي طالب وإصرارهم علىٰ ممارسة الضغوط ضدّ النّبيّ ﷺ بواسطته في عداد المواقف السّياسيّة لهم. وأورد ابن إسحاق فهرساً لهذه المواقف. قال: قال المشركون لأبي طالب في أوّل لقاءٍ لهم به: إنّ ابن أخيك قام بخطوات غير صالحة

---

(١) *أنساب الأشراف* ١: ١٣٨، ١٣٩؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٣٩٣؛ *مجمع البيان* ١٠: ٥٤٩.

(٢) *أنساب الأشراف* ١: ١٥١.

(٣) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٣١٣؛ *أنساب الأشراف* ١: ١٣٢، ١٣٧.

(٤) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٢٨٩؛ وانظر: *دلائل النّبوّة* ٢: ٢٧٥؛ و*أنساب الأشراف* ١: ١٣٨.

(٥) *أنساب الأشراف* ١: ٩١.

وغير صائبة «قد سبّ آلهتنا وعاب ديننا وسفّه أحلامنا وضلّل آباءنا» فقال لهم قولاً رفيقاً ... فانصرفوا[١]. بعد ذلك مضىٰ رسول الله ﷺ في العمل من أجل دعوته حتّىٰ قوي أمره. وذهبت قريش عند أبي طالب مرّة أخرىٰ وعاتبته علىٰ عدم صدّه النّبيّ ﷺ قائلة له: إنّ لك سنّاً وشرفاً ومنزلةً فينا. ثمّ هدّدوا بأنّهم لا يتحمّلون مواقف النّبيّ، فإمّا يكفّه عنهم، أو ينازلوه، وإيّاه... فبعث أبو طالب إلىٰ رسول الله ﷺ فقال له: إنّ قومك قد جاءوني... فأبْقِ عليّ وعلىٰ نفسك، ولا تحمّلني من الأمر ما لا أُطيق. فظنّ ﷺ أنّه قد بدا لعمّه فيه بداء أنّه خاذله ومُسلمه، وأنّه قد ضعف عن نصرته.. فأخبره أنّه لا يترك دعوته أبداً.. ثمّ استعبر ﷺ فبكىٰ.. ولمّا رآه أبو طالب بهذه الحالة ناداه: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببتَ، فو الله لا أُسلمك لشيء أبداً[٢]. وحين عرفت قريش موقف أبي طالب مشت إليه مرّة ثالثة ومعها عُمارة بن الوليد، وعرضت عليه أن يأخذه له ويعطيها محمّداً ﷺ مكانه، فامتعض أبو طالب من ذلك بشدّة وقال: والله لبئس ما تسومونني! أتعطونني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا والله ما لا يكون أبداً[٣]. ويضيف ابن إسحاق قائلاً: حين رأت قريش ذلك تذامرت بينها علىٰ مَن في القبائل منهم.. الذين أسلموا، فوثبت كلّ قبيلة علىٰ من فيهم من المسلمين يعذّبونهم ويفتنونهم عن دينهم[٤].

---

(١) ***السّيرة النّبويّة***، ابن هشام ١: ٢٦٥؛ وانظر: ***المصنّف***، ابن أبي شيبة ٧: ٣٣١؛ ***السّيرة النّبويّة***، ابن كثير ١: ٢٧٣، ٢٧٤؛ ***الطّبقات الكبرىٰ*** ١: ٢٠٢؛ ***عيون الأثر*** ١: ١٨٨، ١٨٩؛ ***سبل الهدىٰ والرشاد*** ٢: ٤٣٦.

(٢) ***السّيرة النّبويّة***، ابن هشام ١: ٢٦٦؛ ***عيون الأثر*** ١: ١٨٩؛ ***سبل الهدىٰ والرّشاد*** ٢: ٤٣٧.

(٣) ***السّيرة النّبويّة***، ابن هشام ١: ٢٦٧؛ ***أنساب الأشراف*** ١: ٢٣١؛ ***الطّبقات الكبرىٰ*** ١: ٢٠٢؛ ***عيون الأثر*** ١: ١٨٩، ١٩٠؛ ***سبل الهدىٰ والرّشاد*** ٢: ٤٣٨.

(٤) ***السّيرة النّبويّة*** ١: ٢٦٨، ٢٦٩.

ينبغي أن نقول: إنّ مواقف أبي طالب من سياسة قريش كانت في غاية الرّزانة والاتّزان. فقد كان يكثر من تمجيد النّبيّ ﷺ، ويحاول بأشعاره الرّائعة أن يردع قريشاً عن مواقفها العدائيّة منه، وفي نفس الوقت كان يكتم إسلامه. كما ذمّ في أشعار أخرىٰ من خذله من بني عبد مناف ولحق بغيره[١]. وخاطب قريشاً وقال لها: فخركِ كلّه ببني عبد مناف، وشرف بني عبد مناف ببني هاشم، وفخر بني هاشم بمحمّد ﷺ:

وإنْ فَخَرتْ يوماً فإنّ محمّداً   هو المصطفىٰ مَنْ سرّها وكريمُها[٢]

وموقف أبي طالب هذا أوجد فجوةً وصدعاً في صفوف قريش ذات التّركيبة القبليّة.

وكان أحد المواقف الّتي وقفتها قريش من النّبيّ ﷺ زعمها أنّه سبب إثارة النّفاق والتّشتّت في المجتمع المكّيّ بخاصّة بين قريش. وكانت قريش تقيم وزناً كبيراً لوحدتها الّتي كانت أمراً ضروريّاً لحفظ القبيلة ومصالحها التّجاريّة وأبّهتها السّياسيّة والعباديّة[٣]. من هنا كانت تسعىٰ في وصفه بالإنسان المفرّق، فتجعله معزولاً من الوجهة السّياسيّة. وكانت تقول لأبي طالب: «ابن أخيك شتّتَ أمرنا، وفرّق جماعتنا»[٤]. وقالت مثل ذلك للحارث بن عبد العزّىٰ أبيه من الرّضاعة، وطلبت منه أن ينصحه[٥]. وكان أبو جهل يقول لتوجيه موقفه المتعنّت منه ﷺ: «إنّما يريد محمّد أن يُلقي بينكم العداوة»[٦]. وجاء في مصدر آخر أيضاً أنّ قريشاً كانت تراه سبباً في

---

(١) *السيرة النبويّة*: ٢٦٧ ـ ٢٦٩؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٢: ٤٣٨.

(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٢٦٩؛ **ديوان شيخ الأباطح أبي طالب**: ٧١، وانظر: ص١٤٩؛ *سبل الهدىٰ والرشاد* ٢: ٤٣٩.

(٣) انظر: *أنساب الأشراف* ١: ١٣٥.

(٤) نفسه ١: ١٣٥؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن كثير ١: ٤٧١؛ *المصنّف*، ابن أبي شيبة ٧: ٣٣١؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٢٩٣ ـ ٣٩٥؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٢: ٤٤٧.

(٥) *سيرة ابن إسحاق*: ٢٣٤.

(٦) *أنساب الأشراف* ١: ١٥١.

هلاك قومه وعشيرته، وفي فساد قريش وضياعها[١]. وكانت تصرّح بأنّه أهلك أولادها ونساءها[٢].

ومن الأساليب السّياسيّة الّتي انتهجتها ضدّه تأليب النّاس عليه. وكانوا يحبّون أصنامهم، فيشقّ عليهم إهانتها. وكان أشراف قريش يحاولون أن يجعلوه طرفاً مع سفهاء مكّة من خلال تأكيدهم أنّه يعيب الاعتقاد بالأصنام، ويسفّه أحلامهم، ويضلّل آباءهم ويراهم في النّار. وكان أبو جهل يقول: يا معشر قريش إنّ محمّداً قد أبىٰ إلّا ما ترون من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وسبّ آلهتنا[٣]. وكان أبو لهب يتبعه في سوق ذي المجاز ليُحبط دعوته، ويمنع الناس من قبولها، ويقول لهم: يا أيّها النّاس لا يغرّنكم هذا عن دينكم فإنّما يريد أن تتركوا عبادة اللات والعزّىٰ[٤]. والطّريف أنّهم كانوا يخوّفونه ﷺ بأصنامهم أن تُنزل عليه البلاء[٥].

يضاف إلىٰ هذا أنّ قريشاً كانت ترىٰ أنّ الدّعوة الجديدة تقيّد الحياة الجاهليّة، فكانت تقول لكلّ وافدٍ جديد علىٰ مكّة إنّ هذا النّبيّ يحرّم الخمر، ويحظر الزّنا، ويحجُر كلّ ما تفعله العرب، فارجع، فإذا كان عليك ذنب بسبب الرجوع وعدم الدّخول في هذا الدّين فنحن نتحمّله. وقيل نزل بموقف المشركين هذا قوله تعالىٰ: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[٦]. ومن الجدير بالذكر أنّ قريشاً استطاعت عبر هذه المواقف أن تكهرب الجوّ في مكّة ضدّ النّبيّ ﷺ وتصدّه عن هدفه. وما

---

(١) *دلائل النّبوّة* ٢: ٣١٣.

(٢) *عيون الأثر* ١: ٢٢٢.

(٣) *السّيرة النّبويّة*، ابن كثير ١: ٤٦٤، ٤٧١.

(٤) نفسه ١: ٤٦٢. وهذا مثل كلام فرعون للنّاس في موسىٰ ﷺ: «إنّي أخاف أن يبدّل دينكم أو أنْ يُظهر في الأرض الفساد». غافر: ٢٦.

(٥) الزمر: ٢٩ «أليس اللهُ بكافٍ عبده ويخوّفونك بالّذين من دونه».

(٦) *المصنّف*، ابن أبي شيبة ٧: ٣٣٣؛ *الدرّ المنثور* ٥: ١٤٢.

كانت تتّصف به قريش من السّيادة والوجاهة، وانقطاع النّاس إلىٰ أولي المكانة والمنزلة، ومعرفة قريش بالأساليب السّياسيّة، كلّ أولئك أدّىٰ إلىٰ أن لا يكون للنّبيّ ﷺ نفوذ شعبيّ في مكّة، ولا يستطيع أن يستقطب عامّة النّاس إلىٰ الإسلام.

٤ ـ الاضطهاد البدنيّ

أشرنا سابقاً إلىٰ أنّ النّظام القبليّ كان يُعجِز المعارضين لرسول الله ﷺ من تعذيبه بسهولة كما كانوا يفعلون مع بلال وعمّار. وكذلك فإنّ اتّخاذ القرار بقتله لم يكن يسيراً قطّ. ويعود ذلك إلىٰ الدعم القاطع لأبي طالب وبني عبد المطّلب الآخرين إيّاه. ومع هذا فقد كان الاضطهاد البدنيّ يُمارَس ضدّه بشكل غير منظّم. واشتدّ ذلك بعد وفاة أبي طالب. ويؤكّد كتّاب السّير أنّ المشركين ما تطاولوا على النّبيّ ﷺ إلّا بعد وفاة أبي طالب[1]. وقبل ذلك كان عليهم أن يُقنعوه بتسليمه إيّاهم. وأرادوا منه مرّةً أن يسلّمه إيّاهم بكلّ وقاحة وصلافة ليقتلوه. فلم يستجب لهم. وفي ليلة ذلك اليوم اختفى النّبيّ ﷺ عن الأنظار، فاجتمع أبو طالب وسائر بني عبد المطّلب. وأعطىٰ أبو طالب كلّ واحدٍ منهم حديدةً حادّة وطلب منهم أن يدخلوا المسجد الحرام معه، ويجلس كلّ منهم إلىٰ جانب صنديد من صناديد قريش وفيهم أبو جهل، فإذا قُتِل محمّد ﷺ فلا يسلم منهم أحد. وفعلوا ذلك حتّىٰ جاء زيد بن حارثة وأخبرهم أنّه كان معه ﷺ. فقال أبو طالب: لا أدخل بيتي أبداً حتّىٰ أراه. فخرج زيد سريعاً حتّىٰ أتىٰ رسول الله ﷺ وهو في بيت عند الصّفا ومعه أصحابه يتحدّثون، فأخبره الخبر... فلمّا أصبح أبو طالب أخبر قريشاً بما كان قد عزم عليه، وقال: والله لو قتلتموه ما بقّيت منكم أحداً حتّىٰ نتفانىٰ نحن وأنتم، فانكسر القوم وكان أشدّهم

---

(١) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٢١١؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن كثير ١: ٢٧٦؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٤١٦.

انكساراً أبو جهل[١].

مع هذا، مرّ بنا أنّ التّاريخ نقل لنا حالات من الاضطهاد البدنيّ، الّتي يحتمل أنّ بعضها كان قبل وفاة أبي طالب، ومعظمها بعد وفاته. ولمّا كنّا لا نعرف تاريخها علىٰ وجه الدقّة، فإنّا نقوّمها بالنظر إلىٰ ما سبق. فقد جاء أنّ عُقبة بن أبي معيط تجاسر مرّة على النّبيّ ﷺ، وألقىٰ عليه عباءته وضغط عليه حتّىٰ كادت روحه أن تزهق[٢]. ولمّا أُسر المذكور في معركة بدر أمر ﷺ بقتله، وذكر أنّ سبب ذلك هو عداوه الشّديد للإسلام بمكّة. وقال: لمّا كنتُ أسجد كان يضغط علىٰ حلقي ضغطة أشعر فيها أنّ عينيّ قد خرجتا من حدقتها[٣]. ونُقل أيضاً أنّ عقبة وأبا لهب كانا يلقيان العَذَرة والأوساخ علىٰ باب داره ﷺ[٤]. وكان ﷺ يقول: «كنتُ بين شرّ جارين، بين أبي لهب وعقبة بن أبي مُعيط، إن كانا لَيأتيان بالفُرُوث فيطرحانها علىٰ بابي». وتضيف عائشة، وهي راوية هذا الحديث، فتقول: فيخرج به رسول الله ﷺ فيقول: يا بني عَبدِ مَناف أيّ جوارٍ هذا؟[٥]

وقُتِل طعيمة بن عديّ[٦]، والنّضر بن الحارث لنفس السبب الّذي قُتِل به عقبة بعد أسره. وكانا ممّن يؤذي النّبيّ ﷺ كثيراً. وعزم أبو جهل علىٰ قتله ﷺ عدّة مرّات فلم يفلح في مراده[٧]. وأقسمت قريش مرّة أنّها لا تسلّمه بني عبد مناف أبداً إذا

---

(١) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٢٠٢، ٢٠٣. انظر: لاميّة أبي طالب الّتي تحدّث فيها عن أذىٰ قريش للنّبيّ ﷺ، وعزمه على الذّبّ عنه ﷺ. انظر: *السّيرة النّبويّة* ١: ٢٧٢.

(٢) *المصنّف*، ابن أبي شيبة ٧: ٣٣١.

(٣) *أنساب الأشراف* ١: ١٤٨.

(٤) نفسه ١: ١٣٧ ـ ١٤١.

(٥) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٢٠١.

(٦) *أنساب الأشراف* ١: ١٥٣، ١٥٤.

(٧) انظر: **عيون الأثر** ١: ١٩٢، ١٩٣. ووردت في هاتين الصّفحتين روايتان تدلّان علىٰ أنّ عجز المخالفين يعود إلىٰ رعاية غيبيّة. وقد جاء هذا في أخبار أخرىٰ أيضاً، لكن من الجدير بالعلم أنّ هاتين الحالتين في الأقل تفقدان الاعتبار السّنديّ اللازم كما ذكر المصحّح ذلك في الهامش.

قتلته[1]. وكان إلقاء الفروث عليه ﷺ وهو في سجوده أحد أساليب الاضطهاد البدنيّ الّتي انتهجها المشركون ضدّه[2]. وذات مرّة أُلقي التراب علىٰ رأسه ﷺ، فذهب إلىٰ بيته، وغسلت إحدىٰ بناته رأسه وهي تبكي. وجاء في هذا الخبر أنّ قريشاً فعلت هذا معه بعد وفاة أبي طالب علىٰ ما نُقل عنه ﷺ[3]. وهكذا يستبين أنّ المواقف القُرَشيّة هذه كانت بعد وفاة أبي طالب. وورد في خبر آخر أنّ أبا جهل كان يحول دون صلاة النّبيّ ﷺ. فقال سبحانه وتعالى فيه: ﴿أَرَأَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ * عَبْداً إِذَا صَلَّىٰ﴾[4]. وعزم المشركون بجدٍّ علىٰ قتله ﷺ. وذكر الله تعالىٰ خطّتهم هذه في سورة الأنفال الّتي نزلت في المدينة، ونقل أنّهم يمكرون به ليُثبتوه، أو يقتلوه، أو يُخرجوه من مكّة[5]. وانتهىٰ مكرهم إلىٰ قتله ﷺ. وذكر أبو جهل في توجيه عدم إخراجه من مكّة أنّه إذا خرج وسمع عدّة من الفتيان كلامه من لسانه الحلو تبعوه، وعند ذلك لن نأمنهم على أنفسنا[6]. وطرح أيضاً موضوع دعم أُسرته ﷺ إيّاه. ونحن نعلم أنّ الله تعالىٰ ذكر في موضع آخر من كتابه مكر قريش بإخراجه ﷺ من مكّة. قال سبحانه: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾[7].

ونقل ابن هشام أنّ أشدّ يومٍ كان علىٰ رسول الله ﷺ هو يوم خرج من بيته، وكلّ من لاقاه حرّاً كان أم عبداً كذّبه وآذاه. وأورد ابن هشام أيضاً أنّه ﷺ جاء

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٢٩٨، ٢٩٩؛ *عيون الأثر* ١: ١٩٩.

(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٤١٦؛ *أنساب الأشراف* ١: ١٢٥.

(٣) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٤١٦. وجاء في خبر آخر أيضاً: عندما كانوا يلقون فرث الحيوانات المذبوحة علىٰ ظهره ﷺ، كانت فاطمة تُزيحه. (*دلائل النّبوّة* ٢: ٢٧٨. انظر: ص٢٧٩؛ *المصنّف*، ابن أبي شيبة ٧: ٣٣٢). وينبغي أن يعود هذا الخبر إلىٰ زمن ما قبل البعثة بعامين، إذ كانت فاطمة عليها السلام بنت ستّ أو سبع سنين كحدّ أدنىٰ (علىٰ أساس ولادتها في السّنة الخامسة للبعثة).

(٤) العلق: ٩ ـ ١٠؛ *أنساب الأشراف* ١: ١٢٦. (٥) الأنفال: ٣٠.

(٦) *أنساب الأشراف* ١: ١٢٧. (٧) الإسراء: ٧٦.

إلىٰ بيته مضطرباً وادّثر بلباسٍ، فنزلت عليه سورة المدّثّر هناك[١]. ومن الجدير بالقول أنّ اشتداد أذى المشركين في السّنين الأخيرة إذا كان بسبب وفاة أبي طالب، فإنّ هذا جزءاً منه إذ يضاف إليه تصاعد عمله ﷺ في تبليغ دعوته بين القبائل أيضاً، وهو ما ذكره كتّاب السّيرة تحت عنوان «عرض نفسه على القبائل» في تلك السّنين.

٥ ـ المواقف العلميّة

كانت قريش تفقد القدرة اللازمة لاتّخاذ موقف علميّ من الدّعوة الجديدة، لأنّ الأفكار الجاهليّة أساساً كانت أضعف من أن توجد روح التّفكير والتّعقّل في المجتمع الجاهليّ. مع هذا كانت قريش تطرق الأبواب وتستمدّ كلّ شيء للحؤول دون تنامي الإسلام المتزايد. وفي هذا المضمار، لم يتمالكوا عن اتّخاذ المواقف العلميّة الظّاهريّة أيضاً ولو باستغلال يهود المدينة. ويمكننا الإشارة في هذا المجال إلىٰ نماذج من هذه المواقف.
فقد زعمت قريش إنكاراً لنبوّة النّبيّ ﷺ أنّ ما يقرأه ﷺ عليهم بوصفه وحياً هو في الأصل ليس وحياً إلٰهيّاً بل أموراً علّمها إيّاه أهل الكتاب. ويقال هنا موضوعان؛ الأوّل: يدور حول علاقات النّبيّ ﷺ ببعض المطالب الّتي سمعتها قريش من اليهود، وموضوعها القصص المرتبط بالأُمم الماضية. وذكر القرآن الكريم موقف قريش هذا وأجاب عنه. قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾[٢]. ونقل المؤرّخون معلومات حول الشّخص الّذي تقصده قريش، فقد وردت رواية بسند ضعيف وهي

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٢٩١. انظر: *مجمع البيان*، ذيل الآيات ذات العلاقة للاطّلاع على الأقوال الأخرى الواردة بشأن نزول الآيات الأولىٰ من سورة المدّثّر.

(٢) النّحل: ١٠٣.

تذكر شخصاً أعجميّاً يُدعىٰ بلعام، كان في مكّة، وزعمت قريش أنّ رسول الله ﷺ كان يتردّد عليه. وذهبت رواية أخرىٰ إلىٰ أنّ ذلك الشّخص هو «أُعبدة بن الحضرميّ» وكان من أهل الكتاب. وذكر عكرمة أنّ النّبيّ ﷺ كان يقرأ القرآن علىٰ غلامٍ من بني المغيرة اسمه مقيس. وجاء في رواية أخرىٰ أنّ مقيساً هذا هو ابن الحضرميّ السّابق نفسه. وذُكر في خبر آخر أنّه سلمان الفارسيّ، ولا ينبغي أن يكون صحيحاً، لأنّ سلمان تعرّف على النّبيّ ﷺ في المدينة في حين أنّ سورة النّحل من السور المكّيّة. ويحكي خبر آخر أنّ أهل مكّة لمّا آذوا رسول الله ﷺ، دخل علىٰ عبد بني المغيرة، وكان يقال له: أبو اليسر، وكان عالماً بالتّوراة والإنجيل. وحين رأى المشركون ذلك اتّهموه بتعليمه[1].

إذا أنعمنا النّظر في الأخبار المتقدّمة رأينا أنّها تدلّ علىٰ أنّ شخصين كانا معنيّين بهذا الأمر: أحدهما بلعام، والآخر عبد من بني المغيرة. وذهب ابن إسحاق إلىٰ أنّ الشّخص المعهود هو «جَبْر»، وأضاف أنّه عبد لبني الحضرميّ[2]. ولا بدّ أن يكون هذا النّقل مرتبطاً بعبد بني المغيرة أيضاً، إذ ذُكر في هذه الأخبار بشكل متفاوت. ويدلّ هذا الاضطراب في الاسم علىٰ أنّ ذلك العبد المسكين كان أوكس إلىٰ درجةٍ أنّه لم يعرف، فكيف استطاع أن يُبدع مثل هذه الأفكار؟ وذكر ابن إسحاق في خبر آخر أنّ المشركين كانوا يقولون للنّبيّ ﷺ: إنّ شخصاً في اليمامة يقال له: «رحمان» علّمك هذه الآيات[3]. وعلّق السّهيليّ علىٰ هذا الخبر فذكر أنّ شخصاً من المعمّرين يُدعىٰ مسيلمة بن حبيب، كان يقال له: «رحمان». وكان هذا الاسم له قبل أن يولد أبو

---

(١) *الدرّ المنثور* ٤: ١٣١.

(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٣٩٣؛ يضاف إلىٰ هذه كلّها ذِكْرُ شخصٍ باسم عداس مولىٰ حويطب بن عبد العزّىٰ أيضاً. انظر: *مجمع البيان* ٧: ١٦٠، ١٦١.

(٣) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٣١١؛ وانظر: *أنساب الأشراف* ١: ١٤٠، ١٤١.

النّبيّ ﷺ[١].

وأجاب القرآن الكريم عن هذه الشّبهة الّتي أثارها المشركون جواباً علميّاً عقليّاً، فقال سبحانه في دحضها: ﴿لِسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُبِينٌ﴾[٢]. ونستفيد من هذه الآية أنّ الرّجل الّذي يقصده المشركون كان أعجميّاً ـ ويبدو أنّه كان روميّاً ـ والملحوظ أنّ أهم بعدٍ في القرآن الكريم هو بُعدهُ الأدبيّ، من هنا لا يستشرع قدح المشركين في عزوه إلىٰ شخص أعجميّ. والحقّ أنّ سعة الموضوعات الّتي تطرّق إليها القرآن الكريم خارجة عن الحدّ الّذي يتسنّىٰ معه لأحد أن يعزوه إلىٰ رجل نصرانيّ مقيم في مكّة، لم يرد له ذكر في الآثار الجاهليّة.

ومن الأشياء الّتي كان المشركون يضربون علىٰ وترها مشابهة القرآن الكريم للتّوراة في قصص الأنبياء. قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ ٱفْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾[٣]. وتدلّ الآية الثّانية على ارتباط أساطير الأوّلين بالأشخاص الّذين زعم المشركون أنّهم كانوا يعلّمون النّبيّ ﷺ. وكانت قريش تخال أنّ القصص القرآنيّ يماثل قصص أهل الكتاب الّذين كانت تعرفهم علىٰ أنّهم «أهل الكتاب الأوّل»[٤]. وينبغي أن نقول في مشابهة قصص القرآن بما جاء في التّوراة: كلا الكتابين سماويّ فوجود المشابهة بينهما أمر طبيعيّ، بيد أنّ المهمّ هو التّفاوت بين القصص فيهما. ويُلحظ هذا التّفاوت أوّلاً في الموضوعات الّتي ذكراها حول الأنبياء. وثانياً: في موقفهما من عصمة الأنبياء وهو تفاوت أساس مهمّ بينهما في هذه النّقطة. فالموضوعات غير الصّحيحة الّتي نسبتها التّوراة إلى الأنبياء لم ترد في القرآن الكريم

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام، الهامش، ١: ٣١١ عن الروض الأنف.

(٢) النّحل: ١٠٣.

(٣) الفرقان: ٤، ٥.

(٤) *دلائل النّبوّة* ١: ٢٧٠.

قطّ، والدّعوة إلى التّوحيد في القرآن أصرح وأوضح وأبين كثيراً ممّا هي في التّوراة[١]. وكان عدم معرفة النّبيّ ﷺ بالكتابة والقراءة من أجل ردّ هذه التّهم الواهية. يضاف إلىٰ ذلك أنّ القسم الأعظم من الآيات القرآنيّة، بخاصّة فيما يتعلّق بقصص الأنبياء نزل بمكّة في وقتٍ لم تكن للنّبيّ ﷺ أدنىٰ معرفةٍ بثقافة يهود المدينة. وكانت قريش ملتفتة إلىٰ أنّ رسول الله ﷺ يبشّر بدينٍ هو في الحقيقة من ضرب الأديان السّماويّة، فهمّت بالإفادة من اليهود. وأرسلت النّضر بن الحارث ـ الّذي ينبغي أن نعدّه أحد شخصيّاتها الثّقافيّة ـ إلىٰ يهود المدينة ليطرح عليهم الموضوع. وتوجّه النضر إليهم مع عُقْبَة بن أبي معيط ووصفا لهم رسولَ الله ﷺ. فقالوا: اسألوه عن ثلاثة أشياء، إن أجابكم عنها فهو نبيّ الله، وإلّا فهو مفترٍ. الأوّل: جماعة كانوا في الدهر الأوّل وأمرهم عجيب. الثّاني: شخص جاب شرق العالم وغربه. الثّالث: الرّوح. أمّا السّؤال الأوّل فالمقصود منه أصحاب الكهف، والسّؤال الثّاني فالمقصود منه ذو القرنين فقد نزلت فيهما سورة الكهف. وأمّا السّؤال الثالث الّذي يُحتمل أنّ المراد منه جبرئيل الّذي كان يأتي بالوحي إلى النّبيّ ﷺ، وذكره القرآن الكريم بالرّوح فقد نزلت فيه آية في سورة الإسراء[٢]. ومن الحريّ بالعلم أنّ قريشاً لم تجدّ في فهم حقيقة الإسلام وصحّته، وإنّما كانت تجدّ ـ بل تمكر بتعبير القرآن الكريم ـ من أجل إحباط الجهود

---

(١) للاستزادة انظر: *المنار* ١١: ١٨٦ ـ ١٩٠؛ *الميزان* ١: ٦٢.

(٢) انظر: *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٣٠١ ـ ٣٠٧؛ *أنساب الأشراف* ١: ١٤٢؛ *عيون الأثر* ١: ١٩٩، ٢٠٠؛ *سبل الهدىٰ والرشاد* ٢: ٤٦٠، ٤٦١؛ *دلائل النّبوّة*، البيهقيّ ٢: ٢٦٩ ـ ٢٧٠؛ الإسراء: ٨٥. ونقل البخاريّ حديثاً عن عبد الله بن مسعود يذهب فيه إلىٰ أنّ آية الرّوح تعود إلى الآي المدنيّ. انظر: *دلائل النّبوّة*، البيهقيّ ٢: ٢٧١؛ ومن المحتمل أنّ ما طرح في المدينة هو سؤال اليهود عن القسم الثّاني من الآية المتعلّقة بالرّوح: «وما أُوتيتم من العلم إلّا قليلاً». انظر: *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٣٠٨؛ وانظر: *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٢: ٤٦٦ للاطّلاع علىٰ الأقوال الأُخرىٰ.

التّبليغيّة للنّبيّ ﷺ. ومنها النّضر بن الحارث الّذي قال الله تعالىٰ فيه: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[١]. وكان المشركون يستصعبون الاعتقاد بالمعاد أكثر من الاعتقاد بالتّوحيد. وانعكس امتراؤهم في المعاد وتعجّبهم من الحياة بعد الموت في عدد من الآيات. وكانوا يسألون رسول الله ﷺ عن القيامة. وقد طُرح هذا الموضوع في موضعين من القرآن الكريم. وجواب الله تعالىٰ عن سؤال المشركين هو ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾[٢].

الموقف العلميّ الآخر الوارد في السّيرة هو موقف ابن الزِبَعرىٰ[٣]. فحينما نزلت الآية الكريمة: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾[٤]، اعترض المذكور وقال: إذا كان ذلك كذلك فإنّا نعبد الملائكة أيضاً، وعبد اليهود عُزير والنّصارىٰ المسيح، فهم في جهنّم لا محالة. فقال رسول الله ﷺ: إنّه كذلك، إذا أحبّوا أن يكونوا أرباباً من دون الله فسيُحشرون مع من يعبدونهم، وهم في جهنّم. قال تعالىٰ دفعاً لهذا التّوهّم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[٥]. إنّ القصد من هذه الآية في الأصل الأصنام ونظائرها الّتي وصفها الله تعالىٰ بالعجز عن القيام بكلّ عمل، بل عن دخول جهنّم أيضاً، ولابدّ من شمول الآية طواغيت مثل فرعون، ممّن كانوا يرون أنفسهم أرباباً من دون الله باطلاً.

تأثير القرآن الكريم تاريخيّاً

١ ـ أثر الآيات القرآنيّة

يتعيّن أن نقول بلا تردّد: إنّ أهمّ وسيلةٍ كانت بيد رسول الله ﷺ أمام المشركين

---

(١) الأنفال: ٣٢. (٢) الأعراف: ١٨٧.

(٣) انظر بشأنه: *دائرة المعارف بزرگ اسلامى* [دائرة المعارف الإسلاميّة الكبرىٰ] ٣: ٦١٤ ـ ٦١٦.

(٤) الأنبياء: ٩٨. (٥) الأنبياء: ١٠١.

طول البعثة هي الآيات القرآنيّة. ويتجلّىٰ هذا الأمر أكثر في السّنين الأُولىٰ من البعثة. فالتّعاليم الّتي تشرق بها الآيات القرآنيّة كانت تنزل علىٰ رؤوس المشركين كالصّاعقة، وتجعلهم معازيل أمام الدّعوة الإسلاميّة. والنّظم القرآنيّ المتناغم وأدبه القويّ وأُسلوب الآيات، كلّ اولئك زاد جذّابيّة تعاليمه، وأعجز المشركين عن تحدّيه. وهكذا استطاع القرآن الكريم بشكله ومحتواه معاً أن ينشر التّوحيد في صفوف المجتمع المشرك، ويفتن النّاس ويخلبهم. وكان المشركون عاجزين عن إبداء أيّ نوعٍ من الانتقاد الجادّ للآيات القرآنيّة والشّيء الوحيد الّذي قاموا به هو أنّهم مارسوا الضغط على المسلمين وضيّقوا عليهم ليحدّوا من امتداد هذا الدّين المقدّس.

إنّ التّطوّر التّاريخيّ الّذي بدأ بالمبعث النّبويّ الشّريف وإعلان النبوّة استطاع مستضيئاً بالآيات القرآنيّة أن يوسّع فكره في جميع زوايا المجتمع الجاهليّ، ويتقدّم نحو ثورة أساسيّة. وقد ولّدت الآيات القرآنيّة تأثيراً عميقاً من الوجهة الفكريّة، وكان لها دورها الملحوظ في إفقاد القيم الجاهليّة وزنها وشأنها من خلال مهاجمتها والتعرّض لها.

إنّ تأثير القرآن على النّاس جدير بالدّراسة والتّحليل من جهات مختلفة؛ والاهتمام باتّجاه الآيات الأُولىٰ النّازلة يمكن أن يدلّ علىٰ جانب من تأثير القرآن على النّاس. ونحن نعلم أنّ كثيراً من النّاس كانوا يُسلمون بسماع عدد من الآيات. وأقدم السّور النّازلة هي «العَلَق» و«المدّثّر»، و«المزّمّل»، و«الضُّحىٰ»، و«القلم»[1].

وجاء في سورة العلق: **﴿ٱقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ * كَلاَّ إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَن رَآهُ ٱسْتَغْنَىٰ * إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰ * أَرَأَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ * عَبْداً إِذَا صَلَّىٰ * أَرَأَيْتَ إِن**

---

(١) انظر: *الدرّ المنثور* ٦: ٣٦٨.

كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰ * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ * أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ ٱللهَ يَرَىٰ * كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ * فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ * كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِبْ﴾.

يدلّ التّاريخ علىٰ أنّ الآيات الأولىٰ من هذه السّورة كانت أوّل الآيات الّتي نزلت علىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في غار حراء بإجماع المحدّثين وكتّاب السّير. وفي السّورة إشارة إلىٰ شخصٍ كان ينهىٰ عبداً من عباد الله عن الصّلاة. وقيل: شأن نزولها أبو جهل. فعندما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصلّي عند الكعبة، كان أبو جهل يمنعه منها[١]. ورسالات الله تعالىٰ في هذه السّورة كما يأتي تبدأ باسم الله، ثمّ تذكر خلق الإنسان وتعليمه بالقلم، بعد ذلك ترىٰ أنّ طغيانه ناتج من شعوره بالاستغناء والجموح، إلىٰ أن يقف أمام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا يعبد الله، وليس هذا فحسب، بل يمنع الآخرين من عبادته أيضاً. يتلو ذلك أنّ الله سبحانه يقايس وضعين متفاوتين للإنسان، الأوّل: حين يكون على الهدىٰ. والآخر: حين يكذّب ويتولّىٰ. فعندئذٍ ينتظره عذاب الله وخذلانه.

إنّ الخطابات الواردة في سورة المدّثّر جديرة بالملاحظة من أجل معرفة التّعاليم القرآنيّة الأُولىٰ. ونذكر فيما يأتي قسماً من آياتها: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَٱلرُّجْزَ فَاهْجُرْ * ... فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ * فَذٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى ٱلْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ * ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً * وَبَنِينَ شُهُوداً * وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً * سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هٰذَا إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ * ... كَلَّا وَٱلْقَمَرِ *

---

(١) *الدرّ المنثور* ٦: ٣٦٩، ٣٧٠.

وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَٱلصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ * إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ * نَذِيراً لِلْبَشَرِ * لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ * كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّا أَصْحَابَ ٱلْيَمِينِ * فِى جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * حَتَّىٰ أَتَانَا ٱلْيَقِينُ * فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ ٱلشَّافِعِينَ * فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ * ... كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ ٱللهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾.

إنّ أهمّ إشارة تاريخيّة في هذه السّورة هي الإشارة إلىٰ عمل النّبيّ ﷺ بعد نزول الآيات الأُولىٰ عليه. فالله تعالىٰ يريد منه أن يقوم من مكانه، ويطهّر ثيابه، ويهجر الرجز، ويؤدّي رسالته.

وتضمّ السّورة إشارة تاريخيّة أخرىٰ ترتبط بالوليد بن المغيرة. فقد قيل: إنّه تردّد في تحليل مصدر الآيات القرآنيّة بعد سماعها. واجتذبه القرآن إليه من جهة، ومن جهة أُخرىٰ حالت مسايرة المشركين والاستكبار دون قبوله له. وذكر الله تعالىٰ شكّه وتردّده، وتسميته القرآنَ سحراً بجهله[1]. وذكر سبحانه أنّ جميع الأموال والأولاد والنّعم من الله، وأنّ الإنسان يطمع في المزيد، لكنّه في الحقيقة فرد مجرّد، وإذا ما عاند الآيات الإلٰهيّة فإنّ جهنّم من ورائه.

وكانت آيات الإنذار شديدة دامغة للمشركين بخاصّة للمترفين من قريش. والآيات الأخيرة تراهم يستحقّون جهنّم لتركهم الصّلاة، وإمساكهم عن الإنفاق، وخوضهم مع الخائضين في الباطل. وطلب الله تعالىٰ من رسوله في سورة الضّحىٰ ألّا ينهر السّائل، وأن يحدّث بنعمة ربّه، قال سبحانه: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ

---

(١) انظر: *مجمع البيان* ١٠: ٣٨٧.

رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

ونلحظ أنّ القرآن الكريم يؤكّد المبادئ الإنسانيّة منذ البداية. ويبدو مناسباً هنا أن نُلقي نظرةً على التّعليمات الأساسيّة الّتي تحملها سورة الإسراء وهي من السّور المكّيّة المهمّة. فقد أشارت في البداية إلىٰ معراج النّبيّ ﷺ. ثمّ انتقلت إلىٰ بني اسرائيل، وأكّدت أنّ كلّ قومٍ أحسنوا فإحسانهم لأنفسهم، وإذا أساءوا فإساءتهم علىٰ أنفسهم. ثمّ وصفت القرآن فقالت:

﴿**إِنَّ هٰذَا ٱلْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ**﴾. وأكّدت مرّة أخرىٰ أنّ كلّ إنسان مسؤول عن أعماله، وهو الّذي يحصل علىٰ نتيجتها حسنةً كانت أم سيّئةً. قال تعالى: ﴿**مَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ**﴾[1]. ولله تعالىٰ تخويفان أو إنذاران عادةً: أحدهما: يرتبط بالعواقب الدّنيويّة لفساد قريش من خلال الإشارة إلىٰ قصص الأنبياء السّابقين وأقوامهم. والآخر: يرتبط بجهنّم، أي: إنذار من جهنّم. قال سبحانه: ﴿**وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً * وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ...**﴾[2] وتكرّرت في القرآن الكريم الإنذارات لقريش من مغبّة أعمالهم الدّنيويّة. مثلاً ينذر الظّالمين بالعذاب من خلال ذكره كلام المعارضين للأنبياء إذ كانوا يقولون لرسلهم: ﴿**لَنُخْرِجَنَّكُم مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا**﴾[3].

ونقرأ في سورة الإسراء فصلاً من القواعد الأخلاقيّة للحياة، بخاصّة فيما يخصّ احترام الوالدين، والاهتمام بالمساكين والفقراء، وذمّ الإسراف الّذي كان يمارسه أشراف قريش. وهكذا يصف الإسلام نفسه كمدافع عن الفقراء ومناهض للمسرفين.

---

(١) الإسراء: ١٥. (٢) الإسراء: ١٦، ١٧.

(٣) إبراهيم: ١٣؛ وكذلك انظر: النّحل: ٢٦، ٣٥ للاطّلاع علىٰ نموذجين آخرين.

وجاء اهتمام القرآن بقواعد الأخلاق الإنسانيّة بتفصيل أكثر في «عدم قتل الأولاد»، و«الابتعاد عن الفحشاء» ـ والزّنا نموذجها الماثل ـ و«عدم الاقتراب من مال اليتيم» ـ فضلاً عن التّصرّف فيه بلا حقّ ـ و«رعاية العدالة في الكيل والميزان» ـ وذلك من الأخلاقيّات الإنسانيّة للإسلام[١] ـ و«توضيح عن معارضة المشركين للقرآن وعدم اعتنائهم بسماع الآيات»، وغير ذلك. وجاء في هذه السّورة أيضاً استهزاء المشركين بعقيدة المعاد الوارد في سور أخرىٰ غيرها. ويفنّد القرآن عقيدة المشركين بالأصنام أيضاً. قال تعالىٰ: ﴿**قُلِ ٱدْعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُون كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً**﴾[٢].

ثمّ يتحدّث عن الأقوام الّتي عارضت الأنبياء ورُزئت بالعذاب الإلٰهيّ. ويقدّم صورة عن دور الله تعالىٰ في هداية النّاس ودور الشّيطان في إضلالهم، كما يذكر ماضي الشّيطان في عناده لله سبحانه، لكنّه يؤكّد أنّ الشّيطان لا سلطان له علىٰ عباد الله. ويحذّر النبيّ ﷺ من التأثّر بالمشركين، ويشير إلىٰ تآمرهم في إخراجه. ويوصي بالصّلاة فجراً وظهراً وعصراً، ممّا يدلّ علىٰ وجود هذه الصّلوات في عصر البعثة. ويُحتمل أنّ سورة الإسراء كانت آخر السّور النازلة بمكّة وذلك من خلال الآيات الواردة بشأن المعراج، والإشارة إلىٰ إخراج النّبيّ ﷺ، وقوله تعالىٰ: ﴿**وَقُلْ جَاءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَاطِلُ**﴾. وفي هذه السّورة سؤال المشركين عن الرّوح وهو جبرئيل، وجوابه. ومن الإشارات التّاريخيّة للقرآن فيها إلى الظروف السّائدة آنذاك: تأكيد تحدّي القرآن، وإصرار المشركين علىٰ إتيان النّبيّ ﷺ بمعجزات محسوسة. وهذه السّورة ونظائرها النّازلة في مكّة والمتحدّثة عن الموضوعات السّابقة تعبّر عن موقف قرآنيّ حيال العقائد الجاهليّة وتصرّفات الجاهلين المشركين.

---

(١) الإسراء: ٣١ ـ ٣٥.
(٢) الإسراء: ٥٦.

علىٰ أيّ حال تتّخذ الآيات القرآنيّة الموزونة لاسيّما المكّيّة منها موقعاً خاصّاً في الذّهنيّة الأدبيّة المتميّزة لعرب مكّة وأطرافها. وثمّة أخبار جمّة تدور حول هذا التّأثير شكلاً ومحتوىً. ويتباهى القرآن الكريم بأُسلوبه الأدبيّ ويتحدّى الآخرين به ويطلب منهم أن يأتوا بمثله[١]، أو بعشر سورٍ كسِوَرِهِ[٢]، أو بسورةٍ واحدةٍ في الأقلّ[٣]. بيد أنّ أيّ محاولة جادّة لم تُبذَلْ في هذا المجال إلّا بضع مواضع استهزاء، وورد دائماً أنّ المشركين كانوا معجَبين بجاذبيّة القرآن، وما حال بينهم وبين اعتناقهم الإسلام إلّا الاستكبار. ويرى القرآن أنّ هذا التّحدّي دليل علىٰ أحقّيّته، وكان يطلب منهم أن يقبلوه إذا عجزوا عن مقابلته. وفي جوّ مكّة الملوّث، وفي خضمّ الجهل والضّلالة كان يدعو الناس إلى الابتعاد عن الرّجس، والإقبال على المبادئ الإنسانيّة، ومعرفة حقيقتهم وحقيقة الوجود، والالتفات إلىٰ قيمتهم الحقيقيّة. وكانت هذه الدّعوة لهم ـ وهم أولو فطرةٍ نقيّة ـ من أكثر الدّعوات جاذبيّة لهم، لذا كانوا يبادرون إلىٰ قبولها بلا تأخير. وذات مرّة قدم طفيل بن عمرو الدّوسيّ ـ وكان حليفاً لقريش ـ مكّة فطلب منه أشراف قريش أن يتجنّب محمّد ﷺ ولا يسمع كلامه لأنّه كالسّحر وقد أدّىٰ إلىٰ تفرقة النّاس واختلافهم في مكّة. فعزم علىٰ ذلك. وجاء المسجد الحرام يوماً ورأى النّبيّ ﷺ مشغولاً في صلاته، وأنصت إلىٰ آيات كان يتلوها، وشعر بحلاوتها، فقال في نفسه: إنّه قادر علىٰ تمييز الكلام الجميل من القبيح. فذهب عند رسول الله ﷺ، فقرأ عليه آياتٍ من القرآن، فقال: لم أسمع أحسن منها وأعدل. ثمّ اعتنق الإسلام. وذهب إلىٰ قبيلته، فأسلم كثير منها بسبب وجاهته فيها[٤].

وجاء ضماد الأزديّ إلىٰ مكّة أيضاً وسمع مَن يقول: محمّد مجنون. فقال: لعلّي أُبرئه

---

(١) الإسراء: ٨٨. (٢) هود: ١٣.

(٣) البقرة: ٢٣.

(٤) *الطّبقات الكبرىٰ* ٤: ٢٣٧ ـ ٢٣٩؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٣٨٢ ـ ٣٨٤.

من علّته. وذهب إليه وأخبره بما عزم عليه. فتلا ﷺ آياتٍ من القرآن فدُهش وطلب منه أن يعيدها عليه، فأعادها. فقال: لم أسمع مثلها حتّىٰ هذا الحين. فتشهّد، وأسلم، وبايع عن نفسه وقومه(١).

وورد في خبر أنّ الوليد بن المغيرة ذهب عند النّبيّ ﷺ، وقال له: اقرأ عليّ من القرآن، فقرأ: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾(٢). فقال: اقرأ. فأعاد عليه الآيات. فقال: ما أحلاها! هذا ليس من كلام البشر(٣). وكانوا جميعهم ملمّين بالشّعر، ويشعرون أنّ الكلام القرآنيّ ليس شعراً كما لا علاقة له بالسّحر والكهانة، فآياته من سنخ آخر. ومع ذلك كلّه كانوا يستثقلون رسالة النّبيّ ﷺ، فيُمنَون بالتّناقض.

واشتهر كثيراً أنّ عدداً من صناديد قريش كانوا يأتون قريباً من بيت النّبيّ ﷺ في بعض الليالي ليلتذّوا بسماع صوته العذب السّارّ حين التّلاوة(٤). وكان عتبة بن ربيعة يقرّ أيضاً بأنّ الآيات القرآنيّة ليست شعراً ولا سحراً وهو أحد المعارضين الأشدّاء للنّبيّ ﷺ(٥). ويُحتمل أنّ عدداً من الآيات الواردة في سورة الذّاريات وهي قوله تعالىٰ: ﴿**وَٱلسَّمَاءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ * إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ * قُتِلَ ٱلْخَرَّاصُونَ**﴾(٦) نزل في بلبلة بال هؤلاء وكلماتهم المتناقضة حول القرآن. ومن المناسب أن نُشير هنا إلىٰ أنّ الملحوظ في آياتٍ من سورة المدّثّر، والضّحىٰ، وكذا

---

(١) *الطّبقات الكبرىٰ* ٤: ٢٤١.　　(٢) النّحل: ٩٠.

(٣) *دلائل النّبوّة*، البيهقيّ ٢: ١٩٨، ١٩٩.

(٤) نفسه ٢: ٢٠٦؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٣١٥؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٢: ٤٧٠، ٤٧١؛ وانظر: *المعرفة والتّاريخ* ٣: ٤٤٥ ـ ٤٥٤.

(٥) *تفسير القرطبيّ* ١٥: ٣٣٧؛ *دلائل النّبوّة*، البيهقيّ ٢: ٢٠٤، ٢٠٥.

(٦) الذّاريات: ٧ ـ ١٠.

الآيات المذكورة من سورة الذاريات، وكثيرٍ غيرها هو القسم بـالظّواهـر الطّـبيعيّة الجميلة الرائعة كطلوع الفجر، والسماء المزيّنة بالكواكب، وهي من الوجهة الأدبيّة في غاية الحُسن ولفت النّظر والجاذبيّة.

٢ ـ التّأثير التّاريخيّ لتنزيل القرآن الكريم

كان النّزول التّدريجيّ للقرآن الكريم وآيات منه مرتبطاً بأحداث وأقوال محـلّها مكّة، ثمّ المدينة. وهذا الضّرب من النّزول أفضىٰ إلىٰ تأثير القرآن في المجتمع آنذاك لأسبابٍ متنوّعة. وكان المشركون يعترضون على النّزول التّدريجيّ للقرآن ويسألون عن سبب عدم نزوله دفعةً واحدةً. فأجابهم الله تعالىٰ مبيّناً العلّة من وراء ذلك. وفي الجواب ملاحظتان ترتبطان بالموضوع. قال تعالىٰ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾[١]. فكان النّزول التّدريجيّ للآيات القرآنيّة إذاً أداةً بالغة الأهمّيّة لتثبيت فؤاد النّبيّ ﷺ، وأفئدة صحابته كما نحتمل. وكلّما كانت تنزل آيات جديدة، فإنّها تأتي بتوجيهات جديدة وتزيد أمل النّبيّ ﷺ وصـحابته بـالنّصر. يـضاف إلىٰ ذلك أنّ النّزول التّدريجيّ كان يؤدّي إلىٰ قراءة القرآن على النّاس بمكثٍ وترتيل. وكان هـذا الأُسلوب عمليّاً ميسّراً للعرب الأُمّيّين من أجل فهم الآيات القرآنيّة. وكان رسول الله ﷺ يقرأ الآيات النّازلة على الرّجال أوّلاً، ثمّ على النّساء[٢].

وأكّد الباري سبحانه هاتين الملاحظتين في آيتين أُخريين فقال جلّ مـن قـائل: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هٰذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْـهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا

---

(١) الفرقان: ٣٢.

(٢) *سيرة ابن إسحاق*: ١٤٧.

وَهُمْ كَافِرُونَ * ... وَإِذا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا صَرَفَ ٱللهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾[1].

وهكذا فإنّ نزول كلّ سورة يزيد إيمان المؤمنين. فيزداد تبعاً له حجم الإيمان والاعتقاد الدّينيّ في المجتمع ككلّ. وقال سبحانه في موضع آخر: ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً * قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً﴾[2] ونلحظ في هذه الآيات كلا الموضوعين: قراءة القرآن بتأمّل وتأنٍّ؛ وتأثير الآيات النّازلة كلّ مرحلة في زيادة الإيمان وخشوع المؤمنين.

ويمكن القول إنّ النّزول التّدريجيّ كان يتوخّىٰ أهدافاً أُخرىٰ أيضاً من أهمّها بيان أُسس الدّين بالتّرتيب وعلىٰ أساس منوال منطقيّ. وقد راعى القرآن الكريم نوعاً من التّدريج في تبيان أُسس الدّين. ولنا أن نعدّ عرض أُصول الدّين وفروعه أهمّ وجه لهذا النّزول التّدريجيّ، وفي هذا الضّوء تتفارق الآيات المكّيّة والمدنيّة. إذ اهتمّت الآيات المكّيّة بأُسس العقائد، بينما اهتمّت الآيات المدنيّة بالفروع العمليّة غالباً. وينبغي الالتفات إلىٰ أنّ التّدريج نفسه ذو أهمّيّة بالغة في تعليم العقائد الدّينيّة. فالمجتمع الجاهليّ الهابط يستطيع بالتّعليم التّدريجيّ أن يُرسي دعائم حضارة راسخة وطيدة. والصّحابة الّذين ربّاهم رسول الله ﷺ، وكثير منهم كان علىٰ درجة عالية من الفهم الدّينيّ، قد أُعدّوا يومئذٍ بواسطة التّعليم التّدريجيّ للقرآن الكريم. وكان النّزول التّدريجيّ للقرآن يولّد نوعاً من الانتظار لدى المسلمين. فالصّحابة ينتظرون نزول الآيات والتّعاليم الجديدة في كلّ لحظة، من هنا كان لهم حضور ملموس أكثر

---

(١) التّوبة: ١٢٤، ١٢٥، ١٢٧.   (٢) الإسراء: ١٠٦ ـ ١٠٩.

فاعليّة في مسرح التطوّرات الحاصلة أيّام البعثة والهجرة. ومن النّتائج الأُخرىٰ للنّزول التّدريجيّ خوف المشركين والمنافقين من نزول آيات بحقّهم، إذ تتداولها الألسن وتكون في متناول أيدي الجميع بعد نزولها. وهذا نفسه يشكلّ عقبة أمام المنافقين، وأحياناً المشركين، من القيام بعمل مضادّ(١).

٣ ـ القرآن أمام التحجّر الفكريّ الجاهليّ

كان المجتمع الجاهليّ في شبه الجزيرة العربيّة مجتمعاً مغلقاً مغلولاً بالركود والجمود. خالياً من معالم الثّقافة والفكر. وإذا استثنينا بعض الآداب والعادات السّائدة فيه، فلا نجد وسائل تربويّة فكريّة في أوساطه نحو المدرسة والمكتبة وغيرهما. وكانت حياته مدينة لتقليد الغابرين. والتّقليد هو الجسر الّذي يوصل قيم الأجيال الخالية إلى الأجيال الجديدة. وتعلّقهم بالماضي دليل علىٰ حقّانيّتهم. وكان ذلك الجمود عقبة كبيرة في طريق تقدّمهم ورفعتهم، ولم يرضوا بالتّغيير والتّبديل، وهذا هو عين الجمود.

وكان أحد الحواجز الماثلة الّتي تقف حجر عثرة في طريق التقدّم الفكريّ للعرب في العصر الجاهليّ هو نظرتهم الحسّيّة وفقدان التفكّر العقليّ عندهم. فكانوا لا يقبلون إلّا ما يرونه بأمّ أعينهم محرومين من الحقائق القابلة للإدراك والرّؤية بالعقل. من هنا ضربوا عن عقيدة أبيهم إبراهيم عليه السلام صفحاً ورضوا بعبادة حفنة من التماثيل المصنوعة من الشّجر والحجر.

وفي ضوء هذه النّظرة المادّيّة الّتي كانوا يتبنّونها يبرّر الدكتور جواد علي إعراضهم

---

(١) مثل ذلك مثل الشّعر عندما يُنشد في هجاء أحد فإنّ الأطفال يستظهرونه أيضاً.

عن عقيدة التّوحيد وإقبالهم علىٰ عبادة أصنامٍ محسوسة ملموسة[١]. وحاول القرآن الكريم أن ينقل نظرتهم الحسّيّة إلىٰ مستوىٰ أعلىٰ، ويوجد لديهم أرضيّة التّعقّل والتّفكّر، ومن ثمّ يعرّفهم على الآيات الآفاقيّة والأنفسيّة. فعرض الاعتقاد بالغيب إلىٰ جانب الاعتقاد بالشّهادة، وعزّز أساس الدّين المتمثّل بالاعتقاد بالغيب. علماً أنّه لم يُهمل النّظرة الحسّيّة بل رشّدها بنحو من الأنحاء ليستقوي العقل ويهتدي إلى الله والغيب عن طريق التأمّل فيها. ونعرف في القرآن آيات كثيرة تدعو النّاس إلىٰ معرفة الآيات الآفاقيّة. وللقرآن نفسه كمعجزة فكريّة تأثير باهر في توطيد أبعاد التفكّر والتعقّل. وعندما كان المشركون يطلبون معجزات حسّيّة، يجيبهم الله سبحانه طالباً منهم التأمّل في القرآن نفسه والوقوف علىٰ حقّانيّة الإسلام[٢]. وما تعظيم القرآن للعلم والمعرفة، واستعماله مفاهيم واسعة تدور حول الفهم والدّراية[٣] إلّا آية على الحركة التبليغيّة المكثّفة للقرآن في فتح طريق التفكّر والتعقّل، وهو الطّريق الّذي أبدع التمدّن الإسلاميّ العظيم في نهاية المطاف.

وقيل: إنّ تقليد الأوّلين والشّأن الّذي كان يوليه المشركون لثقافتهم القديمة يشكّلان عقبة كبيرة في طريق تقدّم المجتمع وتطوّره. وكانت شخصيّة القبيلة رهينة بحفظ ميراثها وسابقتها التّاريخيّة. من هنا كان أهمّ ما يتذرّع به المشركون في معاداة الإسلام هو قول رسول الله ﷺ: إنّ آباءهم وأجدادهم كانوا في ضلالٍ، فهم في النّار[٤]. وهاجم القرآن هذا الضّرب من التّقليد في العقائد والقيم الفارغة الواهية، وطالبهم أن يجعلوا «العلم» و«البرهان» أساساً لممارساتهم وعزائمهم. قال تعالىٰ: ﴿وَلَا

---

(١) *المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام* ٩: ٢٨٦.

(٢) العنكبوت: ٥١.

(٣) علىٰ سبيل المثال انظر: الزُّمَر: ٤٢؛ الجاثية: ٣؛ الأنعام: ٣٢؛ الأعراف: ١٦٩؛ يوسف: ١٠٩؛ آل عمران: ١٩١.

(٤) انظر: *أنساب الأشراف* ١: ١١٥، ١١٦.

تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾[١].

ونقل سبحانه عن المشركين فقال: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ ٱللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ * وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[٢]. ومن المناسب أن نشير هنا إلىٰ تأكيد القرآن الكريم الحكمةَ. وهي الحكمة الّتي علّمها الأنبياء النّاسَ، وعلّمها رجل مثل لقمان الحكيم ـ وهو ليس من الأنبياء ـ ابنه. فالحكمة هي القدرة علىٰ تمييز الحسن من القبيح، أي: المصالح والمفاسد، والصّحيح من السّقيم في نطاق العقل النّظريّ والعمليّ. بعبارة أخرىٰ الحكمة في قسم العقائد، وفي قسم الأخلاق علىٰ حدٍّ سواء، من أهمّ المفاهيم العلميّة الّتي أكّدها القرآن الكريم وطلب من النّاس أن يتعلّموها.

وكان التعلّق القائم بين الأشخاص المنتسبين إلى القبيلة باعثاً علىٰ إيجاد الرّوح الجماعيّة بينهم. وكانت قوّة الأواصر العائليّة من مرحلة العشيرة إلىٰ مرحلة القبيلة قد ضبطت الجميع في إطارٍ خاصٍّ يصعب عليهم التخلّص منه، ويستحيل علىٰ ضعفاء القبيلة ذلك أيضاً. فكلّهم يرون أنفسهم محميّين في ظلّ الرّوح الجماعيّة القبليّة، ولم يستعدّوا للانفصال منها قطّ. ومن الواضح أنّ الشخص الّذي يتخلّىٰ عن العقائد القديمة، يفقد تعلّقه بماضي القبيلة وحاضرها. وحينئذٍ من سيكون المدافع عنه؟ وكانت العقائد الدّينيّة واختيار الأصنام في إطار العلاقات القبليّة أيضاً. وفي ضوء هذه الرّوح الجماعيّة كان كلّ قرارٍ يُتّخذ يخصّ القبيلة جمعاء. وإذا قُتل أحد أفراد القبيلة فإنّ القبيلة بأسرها تنهض للدفاع حقّاً كان أم باطلاً. وهكذا لم يتمتّع أفراد القبيلة بشخصيّة فكريّة مستقلّة وليس لهم أن يفكّروا خارج الإطار القبليّ. وحاول

---

(١) الإسراء: ٣٦. (٢) البقرة: ١٧٠، ١٧١.

القرآن الكريم أن يقلّل شأن التّضامن القبليّ، ويحثّ أفراد القبيلة علىٰ جعل الحق والباطل مقياساً لأعمالهم وعلاقاتهم. ومن منظاره فإنّ كلّ شخص مسؤول عن عمله ولا ارتباط لعمله بالقبيلة، أو بالعكس إذا ارتكب أحد خطأً فليس لقبيلته أن تدعمه بلا مسوّغ. وأكّد هذه الشّخصيّة الفكريّة المستقلّة كثيراً. من هنا قيل للنّاس: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1]. وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَاكُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[2] وكان المشركون يقولون للنّبيّ ﷺ: لو كانت قيامة وأراد ربّك أن يلقينا في جهنّم فإنّنا مع أقاربنا نقف أمامه ولا نمكّنه من أنفسنا[3]. من هنا قال تعالىٰ: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[4] وذكر الكافر في موضع آخر من القرآن فقال سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَ مَالاً وَوَلَداً﴾[5] ثمّ قال: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً﴾[6].

وعلىٰ أساس هذه الآيات يمكن أن نقول إنّ الله سبحانه أراد في آياته أن يجعل كلّ شخص مسؤولاً عن عمله خارج التبعيّة القبليّة. وهنا ينبغي أن نشير إلىٰ آيةٍ بالغة الأهمّيّة، وهي تطلب من المشركين أن يفكّروا برسول الله ﷺ بدون أن يتأثّروا بالآخرين سواءً كانوا أشراف قريش أم أُسرتهم. قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[7].

---

(١) الزّمر: ٧؛ فاطر: ١٨. (٢) الأنعام: ٩٤.

(٣) انظر بهذا الشأن: *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٣١٣.

(٤) الممتحنة: ٣. (٥) مريم: ٧٧.

(٦) مريم: ٨٠. (٧) سبأ: ٤٦.

يدعو الله سبحانه النّاس إلىٰ عظة واحدة «أن تقوموا» بمعنىٰ أن يعتزموا الإصلاح. ثمّ يبتعدوا عن المنحرفين والمشركين الّذين يرمون النّبيّ صلى الله عليه وآله بالجنون دون أيّ دليل ويشيعون ذلك. وليكونوا وحدهم أو مع شخصٍ آخر بعيدين عن التأثّر بالجمع، ثمّ يتفكّروا. ويؤكّد الزمخشريّ أنّ مآل هذه العظة هو أنّ الاجتماع [لاسيّما اجتماع المشركين] ممّا يشوّش الخواطر، ويُعمي البصائر، ويمنع من الرويّة، ويخلط القول، ومع ذلك يقلّ الإنصاف، ويكثر الاعتساف، ويثور عجاج التعصّب، ولا يسمع إلّا نصرة المذهب(١). بيد أنّه إذا كان وحده فإنّه يستطيع التأمّل، والتفكّر برسول الله صلى الله عليه وآله، وعندئذٍ يقف علىٰ زيف التّهم الّتي يبثّها المشركون. وبهذه التّربية يترك الشّخص التعلّق الفئويّ والطّائفيّ من أجل التّفكّر. وحينئذٍ يدرك فكرة التّوحيد في الإسلام ببالٍ أكثر رخاءً. ومن المؤسف أنّ النّظام القبليّ كان من أهمّ العقبات في طريق تحكيم الحقّ والباطل معياراً في فكر المسلمين الأوائل وعملهم. مع هذا أفلح النّبيّ صلى الله عليه وآله في تغيير ذلك النّظام إلىٰ حدٍّ كبير، وفي تعريف المسلمين بمعيار الحقيقة حتّىٰ بلغ الأمر بالمسلم أن يقف أمام أبيه في الحرب(٢).

إنّ انغلاق المجتمع الجاهليّ النّاجم ـ نوعاً ما ـ عن طبيعة النّظام القبليّ، ولسببٍ ما، عن فقدان الارتباط الثّقافيّ الوثيق بسائر الشّعوب أدّىٰ إلىٰ جموده. في حين أنّ بعض التجّار من قريش كانوا يرحلون هنا وهناك بيد أنّ رحلاتهم هذه لم تؤثّر تأثيراً كبيراً في التّطوّر الفكريّ لشبه الجزيرة العربيّة. وكانت مكّة وحدها قد تأثّرت بنماذج من الأفكار اليهوديّة أو المجوسيّة. وكسراً لذلك الجمود الفكريّ كان على الإسلام أن يوسّع الأفق الفكريّ لأهل تلك الدّيار. وعليهم أن يبتعدوا عمّا تبنّوه من نهجٍ وهموا

---

(١) انظر: *الكشّاف* ٣: ٢٩٤. كان سقراط يقول: أنا أتحدّث مع شخص واحد فحسب، ولا أتحدّث إلى الغوغاء. فهم لا يفهمون الكلام ويقتلون قائله.

(٢) *المعرفة والتاريخ* ١: ٣٤٣.

أنّه سبيلهم الوحيد، وأنّه هو الحقيقة بعينها، وأن ينفتحوا علىٰ سائر الأفكار. وإذا كان الاتّصال بسائر الأُمم متعذّراً، فلا يتعذّر تعريفهم بالمساجلات الفكريّة ـ من خلال التّاريخ ـ وجعل الاستدلالات المتنوعّة علىٰ مسبار التّجربة عبر ذلك الطّريق ونحن نعلم أنّ قسماً كبيراً من آيات السّور المكّيّة ذو صبغة تاريخيّة، إذ تتحدّث الآيات المذكورة عن طبيعة النضال الّذي كان قائماً بين الشّرك والتّوحيد، وعن تجربة الأُمم الغابرة. وهذه التّجارب كانت تفتح الأفق الفكريّ للمجتمع الجاهليّ وتدلّه علىٰ أنّ النّضال بين محمّد ﷺ وبينهم نضال ضارب في أعماق التّاريخ. والملاحظة الرّائعة في هذه الآيات التّاريخيّة هي دعم القرآن الكريم لفكرة التّوحيد وتعريفها كفكرة أصيلة في التّاريخ. وكان الشّرك بوصفه عقيدةً واهية يجرّ إليه النّاس الّذين يتّبعون الظّنّ لا البرهان. وأتباع التّوحيد رجال أتقياء أولو ألبابٍ وبصائر، أمّا أتباع الشّرك فإنّهم رمز الفسق والفجور، وأولو بلادة فطريّة وعقليّة. علىٰ أيّ حال كان للدّعوات القرآنيّة المتكرّرة لمعرفة الأمم الأُخرىٰ أن تُخرج المجتمع الجاهليّ من رتابته وتعدّه لقبول الدّين الجديد. وقصص الأنبياء في القرآن الكريم تستهدف كذلك إحياء الأمل في نفوس المؤمنين وتثبيت قلب النّبيّ ﷺ. وكان يقال للنّبيّ ﷺ أنّ المشاكل الّتي يلاقيها في طريق نشر دعوته كان يلاقيها الأنبياء من قبله أيضاً، وعليه أن يكون مثلهم في رجاء النّصر الإلٰهيّ. قال تعالىٰ: ﴿**وَكُلّاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِى هٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾[١]. وفي الآيات التّاريخيّة أيضاً تفصيل لأنواع العذاب الّذي نزل بالأُمم السّابقة. وهذه الموضوعات وردت أساساً لتهديد المشركين ﴿**لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً**﴾[٢].

وكانت لمقارعة القرآن المتواصلة للشّرك وعبادة الأصنام، وتأكيده التّوحيد في

---

(١) هود: ١٢٠.　　(٢) طه: ١١٣.

الأفعال باستثمار ممهّداته الموجودة في المجتمع دور مؤثّر في النّهوض بأهداف النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. وسنذكر هذه الأُمور في موضع آخر يناسبها إن شاء الله.

٤ ـ الدّفاع عن المحرومين من تعاليم القرآن الجوهريّة

من الضّروريّ الإشارة إلى التّعليم المرتبط بدعم المحرومين في المجتمع الطّبقيّ بمكّة عند استعراض الدّور التّاريخيّ للقرآن الكريم. فقد كانت في مكّة شريحة من الأشراف تقود القوافل التّجاريّة الثّمينة جدّاً إلىٰ مختلف الأرجاء، وكانت في ذروة الغنىٰ والثّروة. كما كانت هناك طبقة من الرّقيق والفقراء، وطبقة متوسّطة[١]. وأدّت العلاقات الاقتصاديّة السّيّئة إلىٰ حرمان عدد كبير منهم. ولم يكن هذا الحرمان اقتصاديّاً فحسب بل كان ذا جانب قِيَميّ واجتماعيّ أيضاً. فقد حُرِمَ الأحباش والرّقيق الرّومان من أيّ موقع في المجتمع. إذ كانوا يعيشون في ذلّ تامّ ويعامَلون معاملة الحيوانات، مضافاً إلى الرّقّ الّذي كانوا يعانون منه. واتّخذ القرآن الكريم في هذا المجال موقفاً صارماً. فقد جعل الله سبحانه في آياتٍ نزلت في الأنبياء السّابقين ـ وهي مكّيّة ـ الضّعفاء والمحرومين إلىٰ جانب الأنبياء، والأشراف والمترفين في نقطة مقابلة لهم. وورد هذا الموضوع في كثير من الآيات التّاريخيّة، وهو آيةٌ علىٰ روح القرآن المتعاطفة مع الضّعفاء في المجتمع.

﴿وَكَذٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِن نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُقْتَدُونَ﴾[٢]، **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِن نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾**[٣].

---

(١) *المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام* ٤: ١٢٣.

(٢) الزخرف: ٢٣. (٣) سبأ: ٣٤، ٣٥.

إنّ أهمّ معطيات هذه التّعاليم إقبال قسم كبير من أفراد الطبقة الوسطىٰ والسّفلىٰ على الإسلام، ولو أنّ بعض أبناء المترفين قد أسلموا أيضاً في حالات معيّنة. وتحدّثنا في موضع آخر عن الدور الأخلاقيّ الإترافيّ في معارضة قريش للإسلام، بيد أنّ تأكيدنا هنا هو أنّ الدّعوة الإسلاميّة برمّتها تركّز على استخلاف المستضعفين واستبدالهم بالمستكبرين، وجعل المستضعفين هم الوارثين. وتتجلّى التّجربة التّاريخيّة لهذا الموضوع في دعوة موسىٰ عليه السلام، وحوار نوح عليه السلام مع المترفين دليل آخر علىٰ ما نقول. وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبشّر المسلمين الضعفاء منذ كان في مكّة أنّهم سيرثون قيصر وكسرىٰ. وهذا ما دعا المشركين إلى الاستهزاء بهم، حتّىٰ إنّهم عندما كانوا يرون بلالاً وخبّاباً وصهيباً يقولون ساخرين: «جاءكم ملوك الأرض!»[١] وبلغ موقف القرآن الكريم من الصّرامة مبلغاً أنّه لم يرتضِ امتهان الإنسان المؤمن والتّلهّي عنه وإن كان مثل ابن أُمّ مكتوم أيضاً[٢].

وكانت أخلاق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في معاشرة الفقراء ورفاقتهم مؤثّرة في استقطابهم. منها أنّه كان لا يترك «الأكل على الأرض مع العبيد»[٣]. والتّعليم الأهمّ في القرآن الكريم هو أنّه جعل التّقوىٰ معياراً للتّفاضل بين النّاس[٤]. وفي ضوئه استطاع كثير من الفقراء أن يتخلّصوا من الحرمان القِيَميّ والاجتماعيّ، ويجدوا قيمتهم الحقيقيّة في المجتمع. وعندما كتب عمر حكمه بتولية عمّار على الكوفة قال: ذلك لقول الله سبحانه: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٥]. وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «بُعثتُ لرفع قومٍ ووضع آخرين»[٦].

---

(١) انظر: تثبيت *دلائل النّبوّة* ١: ٣١٧.

(٢) انظر: تفسير سورة عبس. وفي موضعٍ آخر من هذا الكتاب ذكرنا بعض التوضيحات في هذا المجال.

(٣) *بحار الأنوار* ١٦: ٢١٥، ٢٢٠، ٢٢٥.

(٤) الحجرات: ١٣.

(٥) القصص: ٥؛ *أنساب الأشراف*: ١٦٣.

(٦) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ١٩٢.

مناهضة المشركين للقرآن

عزم المشركون علىٰ مناهضة الإسلام بسبب امتداد تأثير القرآن الكريم واتّساع نطاقه. وجهدوا في العثور على السُّبل المؤدّية إلىٰ مواجهة القرآن والحدّ من تأثيره علىٰ أفكار النّاس. ونلقي هنا نظرةً علىٰ مواقفهم منه.

إنّ من أهمّ المشكلات الّتي كان يواجهها المشركون البعد الأدبيّ للقرآن وجاذبيّته. فنثره الرّصين المنطوي علىٰ مضامين تُناغي القلب قد وجّه أذهانهم إليه، بخاصّة أنّه جاء علىٰ لسان من لم تكن له سابقة في عرض هذه الموضوعات ولم يُعْرَفْ بهذه الصّفة. وبدا للمشركين أن يحسبوا القرآن شعراً. وكان للشعر جانب عاطفيّ متدفّق، وأساسه جمال الصّورة. والخيال أهمّ أركانه، والنّزعة الجماليّة للإنسان أهمّ باعث علىٰ نموّه وتطوّره. بيد أنّ المتّفق عليه تقريباً هو أنّه بقدر ما يتّصف به من جاذبيّة الصّورة، فإنّه يخلو من العناصر الاستدلاليّة والعقلانيّة. وما فتئ أداةً للتّعبير عن المشاعر والعواطف، وقلّما اختُدم للتّعبير عن الآراء العقليّة والمنطقيّة. وقيل فيه: «أجمله أكذبه»[1]، إذ كلّما هدرت عاطفته قلّ بعده العقليّ والواقعيّ. وهذه الأرضيّة المزدوجة للشّعر حملت المشركين علىٰ عدّ القرآن شعراً. وهذه النّسبة في الوقت الّذي يمكن أن توجّه جاذبيّته الظّاهريّة، فإنّها تُضعف جانبه الواقعيّ.

ولم تكن للرسول ﷺ قريحة شعريّة، كما لم يرغب فيه كثيراً إلّا في حالات قليلة. فهو تابع لكلام ربّه سبحانه إذ يقول: ﴿**وَٱلشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا**

---

(١) وجاء في موضع آخر: «أعذب الشّعر أكذبه». انظر: *التفسير المنير* ٢٣: ٤٥، ٤٦.

اَللّهَ كَثِيراً وَٱنتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾[١]. أي: إنّ الأنبياء كانوا أُولي إيمانٍ وعمل.

وخال المشركون القرآنَ شعراً. أي: ما تنتجه قريحة الإنسان. **﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ ٱفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾**[٢]. **﴿وَيَقُولُونَ ءَإِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾**[٣]؟ **﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾**[٤]. وفي مقابل يؤكّد الله تعالىٰ أنّ رسوله ليس بشاعرٍ: **﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ * لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ﴾**[٥]. وقال سبحانه: **﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾**[٦]. ومن الطّبيعيّ أنّه كان واضحاً للجميع أنّ للشّعر وزناً وقافية يخلو منها القرآن الكريم، لكنّه ذو نثر موزون مسجّع في بعض مواضعه. والمهمّ أنّه يتحدّث من منطق واقعيّ عمليّ. وما يوصي به هو مواعظ عمليّة ومفاهيم عقليّة ثابتة، لا نثراً مبتنياً على الخيال. وهذا أمر في غاية الوضوح واعترف به المشركون مراراً، وهم ملمّون بالشّعر، وعرفوا أنّ هذا النثر لا يمكن أن يكون شعراً أبداً. مثال ذلك أنيس أخو أبي ذرّ، فقد كان شاعراً ونصّ علىٰ أنّ كلام محمّد ﷺ لا يُشبه الشّعر[٧]. ومن الحريّ بالعلم أنّ الشّعر قد انزوىٰ في مقابل القرآن الكريم، وقلّما كان ينشده أحد في عصر الرّسالة إلّا ما حظي منه بدعم النّبيّ ﷺ. وما برح المتديّنون والصّالحون لا يقيمون له وزناً[٨]. علماً أنّ الشّعر

---

(١) الشّعراء: ٢٢٤ ـ ٢٢٧.
(٢) الأنبياء: ٥.
(٣) الصّافّات: ٣٦.
(٤) الطّور: ٣٠.
(٥) يسٓ: ٦٩، ٧٠.
(٦) الحاقّة: ٣٨ ـ ٤١.
(٧) *دلائل النّبوّة*، البيهقي ٢: ٢٠٨؛ *تفسير القرطبيّ* ١: ٧٣.
(٨) من المناسب أن ننقل هنا عبارة للعالم الشّيعيّ عبد الجليل الرازيّ القزوينيّ الّذي كان يعيش في القرن السّادس الهجريّ، فقد قال: لا بدّ أنّك سمعتَ أنّ قول الشّعر منهيّ عنه عند الشّيعة حتّىٰ إنّ محقّقيهم من أمثال الخواجة الإمام رشيد المتكلّم وغيره صرّحوا بأنّه لا يجوز على الأئمّة عليهم السلام ولا على الأنبياء عليهم السلام
⇐

الحَسَن مستثنىٰ دائماً. ومن الطّبيعيّ أنّ بحث «النّبيّ والشّعر» بحث مفصّل ليس هنا موضع ذكره.

الموضوع الآخر الّذي كان المشركون يطرحونه هو أنّ القرآن سحر، والنّبيّ ﷺ ساحر. ويستشفّ من القرآن أنّ هذا الموضوع كان مطروحاً أيضاً بشأن الأنبياء السّابقين ومعجزاتهم. بعبارة أخرىٰ كان المشركون والكفّار ينظرون إلىٰ بيّنات الأنبياء علىٰ أنّها «سحر مبين»[١]. وقال تعالىٰ في موضع آخر من القرآن: ﴿**كَذَٰلِكَ مَا أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ**﴾[٢].

فالمشركون إذاً كانوا يتذرّعون بهذا الموضوع دائماً من أجل الحطّ من شأن الأنبياء. وكان إطلاق السّحر علىٰ معجزات سائر الأنبياء يتناسب مع إعجازهم المادّيّ. أمّا مشركو مكّة فما حملهم علىٰ وصف القرآن سحراً؟ ﴿**وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ**﴾[٣]. ويبدو أنّ المشركين كانوا يحاولون توجيه جاذبيّة القرآن، لاسيّما جاذبيّته السحريّة. وكانوا في حيرةٍ ممّا يتّصف به القرآن من خصائص جذبت النّاس إليه وجعلتهم يرغبون في سماع ترتيلاته. وأنّ تشبيه القرآن بالسّحر أو قذف النّبيّ ﷺ بالسّحر بالقرآن كورد من الأوراد يستهدف

⇐ قول الشّعر. ونُسب إلى المصطفىٰ ﷺ أنّه استشهد في حياته كلّها بشطر بيتٍ لا غيره، وهو: (ستُبدي لك الأيّام ما كنت جاهلاً). ولم يقل كلامه الباقي علىٰ سبيل نظم الشّعر لئلّا يكون شعراً. وقال الباري تعالىٰ في مدح القرآن: «وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون». ويُجمع علماء الشّيعة علىٰ أنّ الإمام الصّادق عليه السلام قال: إذا كنت صائماً فلا تقل الشّعر لأنّه منقصة للصوم. قيل: وإن كان حقّاً؟ قال: «وإن كان حقّاً»، كتاب *نقض*: ٥٧٧. بشأن الأبيات القليلة الّتي كان يتمثّل بها رسول الله ﷺ، انظر: *التفسير المنير* ٢٣: ٤٦.

(١) انظر: الصّفّ: ٦. «فلمّا جاءهم بالبيّنات قالوا هذا سحرٌ مبين».

(٢) الذّاريات: ٥٢، ٥٣.

(٣) الأحقاف: ٧.

الإجابة عن هذا الوضع. ومن الواضح أنّ هذه التّهم كانت من أجل إلهاء عامّة النّاس. ومن الطّبيعيّ أنّها كانت تترك أثرها عليهم. بيد أنّ المترفين أنفسهم وأشخاصاً كالوليد بن المغيرة صرّحوا بأنّ القرآن ليس سحراً. والوليد هذا صرّح بذلك اعتماداً علىٰ تجربته المتمثّلة برؤية السّحرة وأعمالهم. لكنّه هو نفسه وصفه بالسّحر من وحي الإدبار والاستكبار كما أشار القرآن إلىٰ ذلك[1].

ويستشفّ من أخبار أُخرىٰ أنّ إطلاق السّحر علىٰ كلمات النّبيّ ﷺ يعود إلىٰ ما زعموا أنّها تسبّب الخلاف والانشقاق في العائلة الواحدة كالسّحر. وقال المشركون للطفيل بن عمرو: «إنّك قدمت بلادنا وهذا الرجل الّذي بين أظهرنا قد أعضل بنا، وفرّق جماعتنا، وشتّت أمرنا. وإنّما قوله كالسّحر يفرّق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرّجل وبين أخيه، وبين الرّجل وبين زوجته»[2].

كيف كان السّحر سبباً في خلافهم ونفاقهم؟ من المحتمل أنّ في ذلك إشارة إلىٰ عمل أشخاص كانوا يلجأون إلى السّحر من أجل بثّ الخلاف بين العوائل، كما في زماننا هذا. ولعلّهم وصفوا القرآن بالسّحر من هذا المنطلق أيضاً. ومن الحريّ بالعلم أنّ هذه التّهمة معلم علىٰ جاذبيّة القرآن الفائقة بين النّاس. وإذا نظرنا إلى الآيات الّتي نقلت وصف المشركين القرآن بالسّحر نجدها أكثر بكثير من الآيات الّتي نقلت وصفهم إيّاه بالشّعر. ولابدّ أن يدلّ هذا علىٰ بذلهم جهداً أكبر في هذا المجال.

ووصف المشركون ـ بمقياس أقلّ ـ النّبيّ ﷺ بأنّه كاهن، وكانوا يرون الآيات القرآنيّة ككلمات الكهّان. والكهّان شريحة في الجاهليّة كانت تزعم أنّها تعلم الغيوب، وتقضي علىٰ أساس زعمها هذا. وكانت تنطلق بكلمات مسجّعة تجذب السّامع،

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٢٧٠؛ **عيون الأثر** ١: ١٩٠، ١٩١. «ثمّ أدبر واستكبر فقال إن هذا إلّا سحرٌ يُؤثَر».

(٢) *الطّبقات الكبرىٰ* ٤: ٢٣٧.

وتُحدث جاذبيّة خاصّة في كلامها عن هذا الطّريق. وكان بعض الكهّان يهوداً[١]. وفي فترة لاحقة حين أبدى الإسلام معارضته الجادّة للكهانة، فإنّها ضعفت ضعفاً شديداً، وإن كان عوامّ النّاس يمهّدون الأرضيّة لتنامي هذه الاتّجاهات غير الشّرعيّة.

ولعلّ المشركون شبّهوا القرآن بكلام الكهّان لأنّ آياته كانت تخبر عن الغيب من جهة، وأنّ نثره كان مسجوعاً إلىٰ حدٍّ ما من جهة أُخرىٰ. وكان المشركون يحاولون أساساً أن يضفوا طابعاً بشريّاً على الوحي، ويعدّوه «قول بشر» لا كلام الله تعالىٰ، وذلك من خلال التّهم الّتي كانوا يلصقونها به مثل تهمة السّحر والشّعر. ولسان حالهم: ﴿**فَقَالَ إِنْ هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هٰذَا إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ**﴾[٢]. وقال تعالىٰ لرسوله في مقابل كلامهم: ﴿**فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ**﴾[٣] وقال سبحانه في موضع آخر: ﴿**وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِن رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ**﴾[٤].

الموضوع الآخر الّذي طرحه المشركون هو وصف القرآن بأساطير الأوّلين. وجاءت الأسطورة في كتب اللغة بمعنى الأباطيل والأكاذيب والكلمات الّتي لا نظام لها[٥]. وفي البداية ينبغي الالتفات إلىٰ أنّ قصدهم من ذلك هو القصص القرآنيّ باحتمال كبير. إذ إنّ لجذر الكلمة (اسطور) استعمالاً قصصيّاً وتاريخيّاً كمعادلها في الإنجليزيّة واليونانيّة. فكلمة «Historia» باللاتينيّة، و«History» بالإنجليزيّة، و«Istoriya» باليونانيّة تدور حول محور القصص والتّاريخ[٦]. وينبغي الالتفات أيضاً إلىٰ أنّ كلمة (أساطير) لم ترد وحدها في الآي الحكيم بل أردفت بكلمة (الأوّلين).

---

(١) *لسان العرب*، ذيل كلمة (كهن) ١٢: ١٨١؛ وانظر: *تاريخ الأدب العربيّ*، العصر الجاهليّ: ٤٢٠.

(٢) المدّثّر: ٢٤، ٢٥.

(٣) الطّور: ٢٩.

(٤) الحاقّة ٤١ ـ ٤٣.

(٥) *تاج العروس*، ذيل كلمة (سطر) ١٢: ٢٥.

(٦) *تاريخ العرب في الإسلام*: ١٧٦.

وأساطير الأوّلين يعني المتقدّمين، وفي خاتمة المطاف تعني الأخبار التّاريخيّة أو القصص التّاريخيّة للسّابقين. ووردت التّهمة المذكورة في تسعة مواضع من القرآن الكريم[١]. وجاءت في أغلب المواضع بياناً لزعم المشركين بأنّ القرآن أساطيرالأوّلين. أمّا في سورة الفرقان، فقد جاء قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذَا إِلَّا إِفْكٌ ٱفْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاؤُوا ظُلْماً وَزُوراً * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً**﴾[٢]. إذاً ينبغي أن يكون قصدهم قصصاً معيّنة.

يقول الدكتور جواد علي: كانت هذه الأساطير مكتوبات يعرفها عرب الجاهليّة. فقد أخذوا لفظها اليونانيّ واستعملوه بالشّكل المذكور. ويضيف أنّه لا يستبعد وجود هذه الكتب باليونانيّة أو اللاتينيّة في مكّة؛ وكان الرقيق الرومان في مكّة ويقرأونها بهاتين اللغتين ويتكلّمون بها[٣]. وفي ضوء ذلك يلتقي هذا الموضوع مع التّهمة الأُخرى الّتي قذف بها المشركون النّبيّ ﷺ، وهي أنّ الآيات القرآنيّة مأخوذة من أقوال الآخرين. أمّا المكتوبات الّتي كانت في مكّة فكلام جواد علي فيها تخمين محض. وأمّا سماع العرب في الجاهليّة أخبار الأمم السّابقة عن طريق اليهود والنّصارىٰ فأمر محتمل تماماً. ومرّ بنا أنّ القرآن دحض تهمتهم وعدّها باطلةً بالنّظر إلىٰ نقطتين: الأولىٰ: لسان أُولئك أعجميّ ولسان القرآن عربيّ مبين. يضاف إلىٰ ذلك أنّ رسول الله ﷺ لم يقدر على القراءة والكتابة فيكتب ما يُملىٰ عليه بزعمهم. وجاء في آية أُخرىٰ أيضاً أنّ المشركين قالوا: آيات القرآن «إفك قديم»[٤]. ولعلّهم يقصدون أنّ هذه الآيات قصص تاريخيّة قديمة غير حقيقيّة. وما يُحتمَل أكثر من غيره هو القصص اليهوديّة الّتي كانت موضع اهتمام المشركين. وأورد أهل السّيرة نقلاً عن أحد

---

(١) الأنعام: ٢٥؛ الأنفال: ٣١؛ النّحل: ٢٤؛ المؤمنون: ٨٣؛ الفرقان: ٥؛ النّمل: ٦٨؛ الأحقاف: ١٧؛ القلم: ١٥؛ المطفّفين: ١٣.

(٢) الفرقان: ٤، ٥.

(٣) *تاريخ العرب في الإسلام*: ١٧٦.

(٤) الأحقاف: ١١.

المشركين أنّه كان يقول للنّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّما يعلّمك أهل الكتاب أساطيرهم»[١].

وجاء في أخبار السّيرة أنّ هذه التّهمة ألقاها النّضر بن الحارث. وهو الّذي كان ينقل من الحيرة إلىٰ مكّة قصص الفرس العامّيّة كقصّة رستم واسفنديار وملوك فارس، ويطلب من النّاس أن يسمعوا قصصه الّتي هي أفضل من قصص محمّد صلى الله عليه وآله وسلم![٢] وقيل إنّ الآية الآتية نزلت بشأن عمله هذا: ﴿**وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ**﴾[٣]. وينبغي الالتفات إلىٰ أنّ مواقف المشركين الّتي تبدو عليها مسحة علميّة لم تَحُلْ دون تأثير الإسلام وإن تركت تأثيرها علىٰ بعض الجهلاء. ومن هنا لجأ المشركون إلىٰ أساليب عمليّة أُخرىٰ كي يحولوا دون تأثير القرآن على النّاس. وأشار القرآن إلىٰ بعض هذه المواقف فقال: ﴿**وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهٰذَا ٱلْقُرْآنِ وَٱلْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ**﴾[٤].

وعندما عزم ابن مسعود أن يجهر بالقرآن، انقضّ عليه المشركون وراغوا عليه ضرباً[٥]. وقيل: إنّ الآية الكريمة الآتية: ﴿**وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذٰلِكَ سَبِيلاً**﴾[٦] نزلت عندما كان يجهر النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بصلاته ويسمع المشركون صوت الآيات فيسبّوا ويشتموا. فطلب الله منه ألّا يجهر فيسبّوا، ولا يخافت فلا ينتفع صحابته[٧]. وكان الّذين أُترفوا من قريش يحذّرون الوافدين إلىٰ مكّة من الاقتراب

---

(١) *أنساب الأشراف* ١: ١٥٠؛ وانظر: ص ١٤٠، ١٤١.

(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٣٠٠ ـ ٣٠٨؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٢: ٤٦٠.

(٣) لقمان: ٦؛ *مجمع البيان* ٨: ٣١٣.

(٤) فصّلت: ٢٦؛ وانظر: *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٣١٣؛ *عيون الأثر* ١: ٢٠٢.

(٥) *سبل الهدىٰ والرشاد* ٢: ٤٦٩.

(٦) الإسراء: ١١٠.

(٧) *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٢: ٤٦٨.

إلى النّبيّ ﷺ والاستماع إلىٰ كلماته الّتي هي آيات إلٰهيّة[١].

وكان الاستهزاء بالآيات القرآنيّة أُسلوباً آخر انتهجه المشركون لإفقاد الآيات القرآنيّة شأنها. وحينما نزلت الآيات الكريمة: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ ٱلزَّقُّومِ * طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ * كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾[٢]، أمر أبو جهل أن يُؤتىٰ إليه بمقدار من الزّبد والتّمر. ثمّ قال: اصنعوا منها زقّوماً. نحن لا نعرف زقّوماً غير هذا. فنزلت آيات أخرىٰ في وصف الزّقّوم، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِى أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ ٱلشَّيَاطِينِ﴾[٣]. فقالت قريش مستهزئةً: وهل تنبت شجرة من النّار؟ ونقل هذا الخبر أيضاً بشأن الآية الحادية والخمسين من سورة الواقعة الّتي تحدّثت عن الزّقّوم أيضاً[٤]. كما ذكر الله سبحانه عن المشركين قولهم ساخرين: ﴿... قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾، فواصل تعالىٰ قوله: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ ٱللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ﴾[٥]. وكفرهم هذا هو الّذي غلّف قلوبهم ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً * وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِى آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً﴾[٦]. وورد التذكير أيضاً بإعراض المشركين عن الآيات الإلٰهيّة في عدد من الآيات الأُخرىٰ[٧].

---

(١) من المحتمل أنّ الآية ٩١ و٩٢ من سورة الحجر نزلتا فيهم. انظر: ***دلائل النّبوّة***، البيهقيّ ٢: ٢٠٠.

(٢) الدخان: ٤٣ ـ ٤٥.

(٣) الصّافات: ٦٤، ٦٥.

(٤) ***أنساب الأشراف*** ١: ١٢٧؛ ***مجمع البيان*** ٨: ٣١٣.

(٥) البقرة: ٨٨.

(٦) الاسراء: ٤٥ ـ ٤٧؛ وانظر: *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٣١٦، ٣١٧.

(٧) الأنبياء: ٢؛ الكهف: ٥٦؛ الجاثية: ٩.

الدّعوة الإسلاميّة ومراحلها

طوت الدعوة الإسلاميّة عدّة مراحل في مسيرتها منذ أن أُوحيت الآيات القرآنيّة الأُولىٰ إلىٰ رسول الله ﷺ ، وعرّف ﷺ النّاس بالمعارف الجديدة إلىٰ أن فارق الحياة. وكان تنظيم هذه المراحل قائماً علىٰ أساس الآيات النّازلة في كلّ مرحلة، والسّياسة العمليّة للنّبيّ ﷺ في توسيع نطاق الدعوة الإسلاميّة. وكان لهذا التنظيم ركن ثالث أيضاً يتمثّل في الحقائق العمليّة الموجودة في المجتمع. وتتطلّب هذه الحقائق ضرورات لا بدّ منها، كما تستلزم تعاليم جديدة في كلّ مرحلة بعد انقضاء المرحلة السّابقة. وكان موقف القرآن من الشّرك يشتدّ بالتّدريج، كما أنّ النّبيّ ﷺ لم يعجل في إعلان البراءة من الشّرك رسميّاً في السّنين الأُولىٰ من الدّعوة. ثمّ أخذت الهجمات تشتدّ تدريجاً، وكان هذا في وقت قد اعتنق فيه قسم كبير من المجتمع الجاهليّ الإسلام، وألفت مسامع الآخرين الرسالات الجديدة بشأن الشّرك.

ويدلّ التفاوت المحسوس بين الآيات المكّيّة والمدنيّة علىٰ وجود مرحلتين في الدّعوة الإسلاميّة أساساً. نجد في الأولىٰ خطابات قرآنيّة لجميع النّاس، ومحتواها الأصليّ تبيان العقائد الدّينيّة، ومجادلات فكريّة بين الشّرك والتّوحيد، ومباحث مرتبطة بالقيامة. ومن مواصفات السّور المكّيّة: آياتها تبدأ بـ«يا أيّها النّاس»، وفيها كلمة (كلّا) للتّوبيخ والتّقريع؛ وفيها آيات السّجدة، وقصص الأنبياء، وقصّة آدم والشّيطان، علماً أنّ الفقرتين الأخيرتين قد وردتا في سورة البقرة أيضاً، فهي إذاً مستثناة منها. أمّا السّور المدنيّة فينبغي أن نقول: إنّ جميع السّور الّتي ذكرت المنافقين مدنيّة تقريباً[١]، وكذلك السّور الّتي تحدّثت عن الجهاد المسلّح مع المشركين، أو بيّنت الحدود، والفرائض، والحقوق الشّخصيّة والأحكام الشّرعيّة[٢]. وهذا التّفاوت بين

---

(١) ثمّة خلاف يسير بهذا الشّأن.

(٢) *تاريخ قرآن* [تاريخ القرآن]، راميار ٦٠٥ ـ ٦٠٧.

الآيات المكّيّة والمدنيّة يقدّم لنا مبدأً يتمثّل في أنّ موقف القرآن في مكّة كان عَقَدِيّاً، وموقفه في المدينة كان فقهيّاً.

وشغل إصلاح الفكر في الحقيقة المرحلة الأُولىٰ، وبعد ولادة المجتمع الدّينيّ كان إصلاح الآداب والقيم الاجتماعيّة وتبيان الأحكام الشّرعيّة بوصفه مبدأً. والتّفاوت بين هاتين المرحلتين من حيث الحقيقة العمليّة عامل مهمّ في ثنائيّة مرحليّة الدّعوة الإسلاميّة. ومن المؤسف أنّ بعض المستشرقين عدّ هذا التّفاوت نوعاً من الازدواجيّة في الدّعوة الإسلاميّة وفي شخصيّة النّبيّ ﷺ أيضاً. وأجاب «غيب» جواباً مناسباً عن هذا الرأي، فقال: إنّ التّضارب القاطع الّذي يرونه عادةً بين النّبيّ المغمور المضطهد في مكّة وبين رئيس الحكومة الدّينيّة المقاتل في المدينة لا يقبل التّوجيه تاريخيّاً. فلم يدر في خلد محمّد شكّ في رسالته يوماً. وكان واضحاً أنّ النّهضة الإسلاميّة اتّخذت طابعاً جديداً وأنشأت مجتمعاً معيّناً في المجال السّياسيّ يرأسه شخص واحد... وما كان جديداً في المدينة هو أنّ المجتمع الدّينيّ قد تطوّر من الجانب النّظريّ إلى الجانب العمليّ"[1]. ومرّت الإشارة إلىٰ أنّ المطالب الّتي كان يفرضها المجتمع الجاهليّ في مكّة هي غير الّتي يقتضيها المجتمع الدينيّ ـ السّياسيّ في المدينة.

مع هذا ينبغي أن نقول: نزلت في مكّة آيات تتحدّث عن الأخلاق الفرديّة والاجتماعيّة وأصبحت فيما بعد قاعدة لبعض الأحكام الشّرعيّة. وهذه الآيات الفقهيّة قابلة للتّحليل والمناقشة من جهتين: الأولىٰ: إنّها عرضت جميع الأهداف الأخلاقيّة والفقهيّة للإسلام، وشكّلت إطاراً لمجموعة فقهيّة نزلت بعد ذلك في المدينة مفصّلاً. الأُخرىٰ: إنّ الأحكام النّازلة في مكّة أحكام ذات بعدٍ عاطفيّ وفطريّ غالباً. وتشتمل علىٰ مبادئ أخلاقيّة ترتضيها الفطرة الإنسانيّة. وهي أحكام لا تحتاج إلىٰ تبيين

---

(١) ***اسلام، بررسى تاريخى*** [الإسلام: دراسة تاريخيّة]: ٤٥.

وتوجيه، وتعتبر من النّماذج الواضحة لتشخيص العقل. ومن الطّبيعيّ أنّ الإسلام قد بيّن أهدافه العامّة وعرض أمثلةً من أحكامه الفقهيّة منذ السّنين الأولىٰ للبعثة لا محالة. وكان هٰذه الأحكام تأثير ملحوظ في معنويّات النّاس نظراً إلى المشكلات الأخلاقيّة للمجتمع الجاهليّ. ونقدّم فيما يأتي عدداً من الأمثلة القرآنيّة والتّاريخيّة:

قال تعالىٰ في سورة الإسراء الّتي تعدّ من السّور المكّيّة: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً * وَلَا تَقْرَبُوا ٱلزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً * وَلَا تَقْتُلُوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِف فِى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُوراً * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْؤولاً * وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[١]. وجاءت هذه الموضوعات نفسها في سورة الأنعام المكّيّة أيضاً. وذُكرت فيها كمحرّمات إلٰهيّة. ووردت كلمة (الفواحش) بدل كلمة (الزّنىٰ)، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾. وجاء في آخرها: ﴿وَأَنَّ هٰذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٢].

إنّ تأكيد الله تعالىٰ تعبير «كبائر الإثم» و«الفواحش» في آيات مثل قوله: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ ٱلإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾[٣]، أو قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[٤]، أو قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ ٱلإِثْمِ وَٱلْفَوَاحِشَ﴾[٥]، أو قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ ٱلإِثْمِ وَٱلْفَوَاحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾[٦] كلّ ذلك يدلّ علىٰ أنّ في الآيات المكّيّة قيماً أخلاقيّة، كما أنّها عرضت أهداف

---

(١) الإسراء: ٣١ ـ ٣٥.
(٢) الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٣.
(٣) الأنعام: ١٢٠.
(٤) الأعراف: ٣٣.
(٥) الشّورىٰ: ٣٧.
(٦) النّجم: ٣٢.

الإسلام كواجبات فقهيّة.

وكانت هذه كلّها تمثّل الرّسالة الأساسيّة للدّعوة الإسلاميّة لكلّ من كان يتعرّف على الإسلام لأوّل مرّة سواءً كان في مكّة أم في المدينة. ولمّا قدم أخو أبي ذرّ مكّة ليطّلع علىٰ خبر النّبيّ ﷺ ويُبلغه أبا ذرّ، قال حين رجع: رأيت رجلاً يدعو إلى الخير وينهىٰ عن الشّرّ ويأمر بمكارم الأخلاق[١]. وجاء في رواية أُخرىٰ أنّ رسول الله ﷺ دعا مفروق بن عمرو إلى الإسلام. فسأله مفروق: يا أخا قريش! لأيّ شيءٍ تدعو النّاس؟ فتلا عليه رسول‌الله ﷺ الآيات الّتي أوردناها سلفاً من سورة الأنعام، فقال: ما سمعتُ كلاماً أجمل من هذا. فقرأ عليه النّبيّ ﷺ هذه الآية مرّة أخرىٰ، وهي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَٱلإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٢]. فقال مفروق: يا أخا قريش! إنّك تدعو الناس إلىٰ مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال[٣]. وبعد مدّة حين وصل كتاب النّبيّ ﷺ إلى الأحنف بن قيس رئيس بني تميم، سأل الأحنف: إلىٰمَ يدعو؟ فقيل له: إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فقال: كلام حسن[٤]. وكان عبد الله بن سلام يقول: لمّا قدم رسول الله ﷺ المدينة فإنّ أوّل ما سمعت منه هو قوله: «أفشوا السّلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام»[٥]. وقال آخر في جواب سائل قال: إلىٰمَ يدعو هذا النّبيّ؟ «يأمرنا بالصّلاة والزّكاة والعفاف والصّلة»[٦]. والزّكاة هنا هي الصدقة طبعاً.

---

(١) *الطّبقات الكبرىٰ* ٤: ٢٢٤؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٢: ٤٢١.

(٢) النحل: ٩٠.

(٣) *دلائل النّبوّة* ٢: ٤٢٤؛ *عيون الأثر* ١: ٢٠٣؛ *مختصر تاريخ دمشق* ٨: ٢٠٢؛ *نهاية الإرب* ١٦: ٣٠٨، ٣٠٩.

(٤) *طبقات المحدّثين بإصبهان* ١: ٢٩٧.

(٥) *المصنّف*، لابن أبي شيبة ١٤: ٩٥؛ *الأوائل*، ابن أبي عاصم: ٤٩.

(٦) *المصنّف*، عبدالرزّاق ٥: ٣٤٦.

إنّ الأحكام الفقهيّة النّازلة في مكّة لم تنه عن «الإثم»، و«الفحشاء» و«البغي» فحسب، بل كانت تطرح مسائل أخرىٰ أيضاً. وردت في السّور المكّيّة منها: إنّ الله سبحانه نهىٰ في سورة الأنعام عن أكل الذّبيحة الّتي لم يُذكَر اسمُ الله عليها، وكانت تُذبح للأصنام[١]. وهذه المسألة كانت أمراً معروفاً عند الحنفاء، وهي من السّنن الإبراهيميّة الّتي كانت الصنميّة قد نسختها. ووردت إقامة الصّلاة وإيتاء الزّكاة عدّة مرّات في السّور المكّيّة حتّىٰ في سورة المزّمّل الّتي تعدّ من السّور الأولىٰ[٢]. والحكم الشّرعيّ لإيتاء الزّكاة طُرح من النّاحية التنفيذيّة في السّنة التّاسعة من الهجرة فحسب. ومن الطّبيعيّ أنّ ذكرها في السّور المكّيّة نوع من الإعداد أو بمعنىٰ دفع الصّدقة لتطهير الأموال. ونال احترام الوالدين اهتماماً في عدد السّور المكّيّة أيضاً. وينبغي أن نعدّ هذا من مصاديق الاهتمام المبدئيّ للإسلام بصلة الرّحم والقواعد الأخلاقيّة الأُولىٰ. وثمّة موضوعات أخلاقيّة أخرىٰ كالنهي عن الكبر والغرور ورعاية التّواضع وردت في سورة لقمان[٣] الّتي تعدّ من السّور المكّيّة.

ومن الحريّ بالعلم أنّ بعض المفسّرين ذكر أنّ الله حرّم شرب الخمر في أربع مراحل تدريجاً[٤]. فقال في أوّل سورة النحل وهي سورة مكّيّة: ﴿**وَمِن ثَمَرَاتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾[٥]. ونلحظ هنا أنّ «المسكرات» قد فُصلت عن «الرزق الحسن». وجاء في موضع آخر: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَفْعِهِمَا**﴾[٦]. ونجد هنا أنّ الإثم يقابل الضّرر، وعُبِّر عن الخمر بالإثم مكان التحريم. ولفظ الإثم جدُّ

---

(١) الأنعام: ٢١.
(٢) النمل: ٣٠؛ فصّلت: ٧؛ المزّمّل: ٢٠.
(٣) لقمان: ١٨، ١٩.
(٤) *التفسير المنير* ٢: ٢٧٠، ٢٧١.
(٥) النّحل: ٦٧.
(٦) البقرة: ٢١٩.

قريب من التّحريم. ونقرأ في موضع ثالث: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا ٱلصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ﴾[١]. وفي نهاية المطاف جاء في سورة المائدة الّتي كانت آخر السّور النّازلة أو ما قبل آخرها: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنْصَابُ وَٱلْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَاءَ فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ ٱللهِ وَعَنِ ٱلصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾[٢]؟ ونقل عن عائشة أيضاً أنّ أوّل ما نزل من السور هي السّور الّتي ذكرت فيها الجنّة والنّار، ثمّ نزلت آيات فيها أحكام الحلال والحرام. ولو كانت آية تحريم الخمر والزنا قد نزلت من البداية لخالفها النّاس[٣]. وهذا التّدريج مرفوض من منظار بعض الباحثين[٤] لوجود أدلّة علىٰ تحريم الخمر قبل الهجرة. منها أنّ أبا جهل كان يقول في إرجافه ضدّ النّبيّ ﷺ: إنّه كاذب، ويحرّم الخمر والزّنا[٥]. وإنّ إطلاق الإثم على الخمر يدحض التّدريج المذكور بالنظر إلىٰ أنّ الإثم عُدَّ من المحرّمات الإلهيّة في آيات أُخرىٰ، وإن ذهب البعض إلىٰ عدم حرمة الإثم مطلقاً، فأجاب عن الإشكال المذكور[٦]. ونظراً إلىٰ أنّ الخمر كانت في عداد الأمور الظّاهرة الفساد، وأنّ أشخاصاً كثيرين حرّموها علىٰ أنفسهم في الجاهليّة، فلا يتسنّىٰ لنا أن نتبنّىٰ الرأي القائل بأنّ الإسلام أرجأ تحريمها.

وينبغي أن نضيف إلىٰ ما ذكرناه أنّ الله تعالىٰ عبّر عن موارد من الأحكام الّتي أنزلها في مكّة والمدينة «بالموعظة»، و«التذكّر»، وإذا كان قد حرّمها بصراحة، فقد بيّن فلسفة حكمها نوعاً ما. ونظرة نلقيها علىٰ آيات أشرنا إليها سابقاً من سورة

---

(١) النساء: ٤٣.
(٢) المائدة: ٩٠، ٩١.
(٣) *صحيح البخاريّ* ٣: ٢٢٧.
(٤) *الصّحيح من سيرة النّبيّ* ﷺ ٤: ٤٨ ـ ٥٢؛ وانظر: *الميزان* ١٦: ١٦٣.
(٥) *الثّقات*، ابن حبّان ١: ٦٩.
(٦) *تفسير القرطبيّ* ٣: ٦٠.

الأنعام تدعم هذه النّقطة. إذ ورد بعد كلّ آية قوله تعالىٰ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ و﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ و﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[١]. وفي آية تحريم الخمر أيضاً قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وقوله: ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[٢] في فلسفة التّحريم.

الظّروف السّياسيّة والاجتماعيّة والفكريّة لمكّة وتأثيرها في تقدّم الإسلام

كان للعلاقات الخاصّة الّتي تربط النّاس في شبه الجزيرة العربيّة على الصّعيد الاجتماعيّ والسّياسيّ أن تعدّ البيئة ـ من جهاتٍ ـ لتوسيع نطاق الإسلام لا إراديّاً. ويمكن لنا أن نوضّح هذا الموضوع في عدد من النقاط الآتية:

١ ـ إنّ الوضع السّياسيّ في شبه الجزيرة العربيّة عبارة عن حياة القبائل المختلفة الّتي لم تخضع لسلطان سياسيّ واحد قطّ. فكان لكلّ قبيلة سيادتها المستقلّة عن سائر القبائل. ويتسنّىٰ لنا أن نعدّ نظامها الحكوميّ نظاماً إقطاعيّاً، من هنا كانت سلطتها متشتّتة فاقدة لزعيم واحد. وأدّىٰ هذا الوضع إلىٰ غياب عقبة كبيرة كانت وما تزال موجودة باسم «الامبراطور» أو «الملك» أو «السّلطة المركزيّة، وهي تقف في وجه النّهضات الشعبيّة. ونحن نشهد في التّاريخ أنّ هذه القوى المتسلّطة تراقب كلّ تحرّك من خلال مراكزها المتسلسلة المنبثّة في جميع المناطق الخاضعة لها. بيد أنّ شبه الجزيرة العربيّة كانت يومئذٍ بعيدة عن هذا الخطر. وكان للقبائل المختلفة سلطاتها المستقلّة بعضها عن بعض. كما كانت بينها منازعات ومنافسات للحصول على امتيازات معيّنة.

واتّسع نطاق الإسلام في وقتٍ لم يواجه فيه من النّاحية السّياسيّة إلّا سلطة قريش. وكانت قريش منقسمة إلىٰ طوائف متعدّدة، ولم يقف منها في وجه النّبيّ ﷺ

---

(١) الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٣.
(٢) المائدة: ٩١.

إلّا طائفة خاصّة. ويؤكّد الدكتور جواد علي أنّ أيّ حكومة مركزيّة لم تكن في مكّة، بل كانت الحكومة للرؤساء والمتنفّذين الّذين كانوا مطاعين بين النّاس بسبب وجاهتهم وشرفهم[١]. والخلافات الموجودة في هذا الوضع السّياسيّ بمكّة كانت في مصلحة الدّعوة النّبويّة، إذ لم يواجه الإسلام بسببها مشكلة في انتشاره بين القبائل الأُخرىٰ. وأدّت المدينة قسطاً وافراً في امتداد الإسلام، لأنّ النّبيّ ﷺ عندما أسّس الحكومة، رحّبت بها جميع القبائل لحلّ خلافاتها. وأعداء الحكومة الإسلاميّة القائمة في المدينة هم القبائل المتفرّقة الّتي وإن كانت تتّحد أحياناً بيد أنّ آصرةً لم تربطها عادةً، من هنا لم يستطيعوا أن ينهضوا بعملٍ ما.

٢ ـ النقطة الأخرى المهمّة من منظار سياسيّ هي فقدان السّلطة الأجنبيّة في الحجاز. فلم تكن هناك سلطة تتدخّل في الشّؤون الداخليّة للعرب وتحول دون اقتدار المعارضين لنفوذها، وذلك من أجل حفظ مصالحها. وكانت الأقسام الأصليّة في شبه الجزيرة العربيّة تعدّ مناطق حرّة علىٰ عكس بعض المناطق الّتي كانت خاضعة لسلطة فارس أو الروم كاليمن، والعراق، والشّام. وهذا يعود إلىٰ عدم وجود شيءٍ باسم «المصالح» في تلك المنطقة. ووقف الجاحظ علىٰ هذه النقطة وأكّد أن ليس لأحد رغبة في السّيطرة علىٰ مكّة[٢]. وهذه الأرضيّة هي تمهّدت للنّبيّ ﷺ فاستثمر غياب السّلطة في الحجاز واستطاع أن يقيم نظاماً حكوميّاً قويّاً بعيداً عن عيون تلك القوىٰ. ذلك النظام المقتدر الّذي تمكّن في الفرصة المناسبة أن يقوّض تلك القوىٰ في عقر دارها. ومن الطّبيعيّ أنّ تلك القوىٰ لو كانت تعلم قوّة الإسلام لحالت دون تقدّمه منذ البداية. بيد أنّ موقع شبه الجزيرة العربيّة كان بنحوٍ استطاع الإسلام أن يمتدّ وينتشر

---

(١) *المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام* ٤: ٤٨.

(٢) *رسائل الجاحظ* ١: ١٨٧ (تحقيق عبد السّلام هارون).

ويصبح مقتدراً فيها بعيداً عن مطامع تلك القوىٰ.

٣ ـ ومن القضايا المهمّة في هذا المجال الموقع الاجتماعيّ لشبه الجزيرة العربيّة آنذاك؛ وأهمّ مزيّة من مزايا الحياة الاجتماعيّة لمجتمعها هي الحياة القبليّة، فكان الأشخاص يعيشون في كنف قبائلهم، وليس لأحد السّيطرة عليهم إلّا رؤساء القبائل. وكلّ شخص كان يتعرّض للاعتداء من القبائل الأخرىٰ فإنّ الهجوم على القبيلة المعتدية كان أمراً طبيعيّاً ونتيجةً قاطعةً لتلك الحادثة. وعندما انتشر الإسلام اعتنقه كثير من أفراد القبائل المختلفة. وكان لكلّ منهم طائفته وقبيلته ولم تكن قريش طليقة في اضطهاد الأشخاص من سائر القبائل والضغط عليهم. وفي الأثناء كان كثير من القبائل لا يدرك خطر الدّين الجديد علىٰ عقائده القبليّة، من هنا كانوا لا يحولون دون اعتناق بعض أفرادهم الدين الجديد. وفي هذه الظروف كان مختلف المسلمين مصونين في كنف عشائرهم وقبائلهم، إلّا من كان ليس له طائفة وقبيلة وحماية في مكّة كبلال، وعمّار، وخبّاب بن الارتّ فإنّهم كانوا يتعرّضون للاضطهاد والتعذيب[1]، مع أنّه كان ممكناً أن تقوم أسرة الشّخص الّذي يُسلم جديداً بتعذيبه وسجنه.

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نفسه مصوناً بسبب دعم بني هاشم بخاصّة الدعم الشّجاع لأبي طالب عليه السلام. وكان أبو طالب مؤمناً مضحّياً حازماً. وقد هبّ لدعم النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في لباس التقيّة. وقيل عندما عزمت قريش علىٰ تشديد عدائها للنّبي صلى الله عليه وآله وسلم، واضطرّ المسلمون من بني هاشم إلىٰ شعب أبي طالب، فإنّ غير المسلمين منهم لحقوا بهم في الشِعب أيضاً، وهذا يعود إلىٰ علاقاتهم القبليّة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[2]. يقول أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام في هذا المجال:

---

(١) *أنساب الأشراف* ١: ١٥٦ ـ ١٩٧؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ٣: ٢٤٨؛ *شرح نهج البلاغة*، ابن أبي الحديد ١٣: ٢٥٥.

(٢) *شرح نهج البلاغة*، ابن أبي الحديد ١٤: ٦٥؛ *أنساب الأشراف* ١: ٢٣٠.

«واضطرّونا [قريش] إلىٰ جبل وعر، وأوقدوا لنا نار الحرب، فعزم الله لنا على الذّبّ عن حوزته، والرمي من وراء حرمته؛ مؤمننا يبغي بذلك الأجر، وكافرنا يُحامي عن الأصل. ومن أسلم من قريش خلوٌ ممّا نحن فيه بحلفٍ يمنعه، أو عشيرةٍ تقوم دونه، فهو من القتل بمكانٍ أمنٍ»[١].

علىٰ أيّ حال كان الدعم التامّ لبني هاشم ـ إلّا أبا لهب وأبا سفيان بن الحارث بن عبد المطّلب ـ باعثاً علىٰ أمن النّبيّ ﷺ وحصانته. ولمّا مات أبو طالب في السّنة العاشرة من البعثة (عام الحزن)، واجه النّبيّ ﷺ مشكلات كثيرة جادّة[٢]. ولعلّ الله تعالىٰ حين أمر رسوله بدعوة عشيرته الأقربين إلى الإسلام وإنذارهم في بدء الدّعوة الإسلاميّة[٣] أراد من قبولهم الإسلام أن يدعموا نبيّه بوصفه عضواً منهم مضافاً إلىٰ دعمه بوصفه نبيّاً من أنبياء الله. ومهما كان فإنّ العلاقات القبليّة في النظام الجاهليّ كانت تعدّ سبباً في المحافظة علىٰ أرواح الناس، وإلىٰ جانب ذلك ـ كما أشار أميرالمؤمنين عليه السلام ـ فإنّ الأحلاف المعقودة بين مختلف الأشخاص والقبائل الأخرىٰ أفضت إلى أن يكونوا بمأمن من تعذيب قريش واضطهادها إيّاهم[٤].

٤ ـ كان رئيس القبيلة أسوة النّاس في النّظام الاجتماعيّ للعرب. ويضاف إلىٰ دور الجانب الوراثيّ في اختياره رئيساً للقبيلة أنّ السّخاء، والشّجاعة، والعلم وأمثالها صفات مؤثّرة في الاختيار أيضاً. فاختيار أفراد القبيلة يتبع رئيسهم إذاً وأنّىٰ سار تبعوه. وفي قبولهم الإسلام أو رفضه كانوا ينظرون إليه. وإذا أعرض رؤساء القبائل

---

(١) ***نهج البلاغة***، الكتاب التّاسع.

(٢) ***السّيرة النّبويّة***، ابن هشام: ٤١٦؛ ***شرح نهج البلاغة***، ابن أبي الحديد ١٤: ٦١؛ ***تاريخ اليعقوبيّ*** ٢: ٣٦؛ ***الصحيح من سيرة النّبيّ*** ﷺ ٢: ١٢٤، ١٢٥؛ ***سيرة ابن إسحاق***: ٢٤٣.

(٣) آية «وأنذر عشيرتك الأقربين»، الشعراء: ٢١٤.

(٤) انظر: ***تفسير المنار*** ١٠: ١٤٩.

عن الدّين الجديد ولم يعتنقوه، فإنّ أفراد القبائل العاديّين لم يُبدوا رغبةً فيه. وهذا الوضع يمكن أن يكون مؤثّراً في ابتعاد النّاس عن الإسلام، كما يمكن أن يكون مؤثّراً في قبولهم إيّاه أيضاً بنفس الحجم.

وكان الجانب السلبيّ لهذا التأثير أكثر طرحاً من غيره إبّان البعثة حتّىٰ فتح مكّة، إذ إنّ معظم رؤساء القبائل كانوا ينظرون إلىٰ قريش، فلم يستسلموا ما دامت قريش تناهض الإسلام. علماً أنّنا نشهد تأثير اعتناق بعض الرؤساء في اعتناق الناس الإسلام آنذاك. ونُقل هذا الموضوع بشكل ملحوظ في إسلام سعد بن معاذ وأثره علىٰ أفراد قبيلته[١]. وفي الأيّام الأخيرة لانهيار قريش في مكّة دانت القبائل المختلفة بالإسلام. وفي السّنة التّاسعة والعاشرة من الهجرة وفد رؤساء القبائل على النّبي صلى الله عليه وآله وسلم واعتنقوا الإسلام، وإن لم يُسَمِّ القرآن الكريم هذه الحالة إيماناً بل سمّاها إسلاماً[٢].

٥ ـ صار حقّ الجوار في بعض الظّروف وسيلة للمحافظة علىٰ أرواح بعض المسلمين. وعندما كان أحد الأشخاص يطلب من أحد الأشراف حقّ الجوار ويجيبه فلا يستطيع كلّ شخص أن يؤذيه. وقيل: عندما عاد بعض مهاجري الحبشة إلىٰ مكّة، لجأ قسم منهم إلىٰ بعض الأشراف في مكّة بعدما رأوا قساوة الظّروف. فصار عثمان بن عفّان في جوار أبي أُحيحة، وأبو حذيفة بن عتبة في جوار أُميّة، ومصعب بن عمير في جوار النضر بن الحارث (أو في جوار أخيه أبي عزيز بن عمير)، والزّبير بن العوّام في جوار زمعة بن مسعود، وابن عوف في جوار الأسود بن عبد يغوث. وفي هؤلاء عثمان بن مظعون الّذي كان قد صار في جوار الوليد بن المغيرة، آثر شرف الإسلام علىٰ جوار المشرك. وقاسىٰ من العذاب والاضطهاد بعد رفضه الجوار[٣].

---

(١) *الصّحيح من سيرة النّبيّ* صلى الله عليه وآله وسلم ٢: ٢٠٠؛ *حياة الصّحابة* ١: ١٧٠ من *البداية والنّهاية* ٣: ١٥٢؛ *وفاء الوفاء* ١: ٢٧.

(٢) الحجرات: ١٤.

(٣) *أنساب الأشراف* ١: ٢٢٧.

وينبغي أن نضيف الأحلاف الموجودة بين القبائل، والطوائف، والأفراد إلىٰ حق الجوار[١].

ومن الأخلاق السّياسيّة للعرب في الجاهليّة العهد الّذي كان يتمسّك به الأشخاص في مقابل بيعتهم لرئيس القبيلة. وهذا العهد مع القبائل الحليفة كان موجوداً ومرعيّاً ما دام الطّرف المقابل ملتزماً به. ومعظم الّذين كانوا يسلمون يعلنون عن دعمهم للنّبيّ ﷺ من خلال بيعتهم له. وقد تحقّق هذا العقد (الّذي كان يتبيّن موضوعه أيضاً في كثير من الحالات) بين النّبيّ ﷺ وصحابته عدّة مرّات خلال ثلاث وعشرين سنةً. ويضاف إلى البيعة الفرديّة الّتي كانت تتحقّق بينهم، العقود والبيعات الجماعيّة كبيعة «العقبة الأولىٰ»، و«العقبة الثّانية»، و«بيعة الرّضوان». وفي بيعة «العقبة الثّانية» عيّن النّبيّ ﷺ اثني عشر ممثّلاً منهم. وهذا يعني أنّ بيعتهم الجماعيّة قد تحقّقت بحضورهم وبمشاركة اثني عشر من وجهائهم. وعليهم أن يُبرزوا دورهم في العمل جيّداً، ويكونوا مجيبين حقيقيّين للعمل بهذا العهد. وكانت للبيعة وأهمّيّتها عند العرب نتيجتها المتمثّلة بالتزامهم بدعم البيعة وإسنادها حتّىٰ لو كانت باطلاً. وسنتحدّث عن الموضوع بتفصيل أكثر في الصّفحات القادمة.

وكان للتعصّب العربيّ موقعه الخاصّ في النظام الاجتماعيّ القبليّ، والتعصّب لحفظ شخصيّة القبيلة معلم علىٰ ردّ الفعل في دعم أفراد القبيلة، وبالجملة المحافظة علىٰ علاقات قبيلتهم. وكان التعصّب ـ خارجاً عن العلاقات القبليّة ـ قائماً في حياة العرب كلّها كمبدأ، وهذا التعصّب نفسه سُخِّر فيما بعد لخدمة الإسلام إلىٰ حدٍّ ما، إذ أصبح في خدمة العقيدة الجديدة. والمنافسة بين القبائل في عهد النّبيّ ﷺ وبعده كانت باعثاً على التقدّم في جهات معيّنة نوعاً ما. وكانت المنافسة بين الأوس والخزرج في المدينة

---

(١) *نهج البلاغة*، الكتاب التّاسع.

مدعاةً إلىٰ أن يقوم أحدهما بمهمّة عسكريّة في كلّ فترة، فيطلب الآخر القيام بمهمّة مماثلة. ولهذه النقاط الثلاث الأخيرة تأثير محدود في تقدّم الإسلام، وفي بعض الحالات تحول دون تقدّمه أيضاً.

وعاد التعصّب الجاهليّ والقبليّ بعد برهةٍ من جديد، فولّد للإسلام مصاعب عديدة. وما المشكلات المرتبطة بموضوع القيادة بعد رسول الله ﷺ إلّا واحدة منها، فقد كان لها جذور في الأخلاق السّياسيّة لعرب الجاهليّة وعصبيّاتهم القبليّة الواهية إلىٰ حدٍّ ما.

الفراغ الفكريّ والعقيديّ

يمكن القول أنّ البيئة الحجازيّة كانت تعاني من ضروب الفراغ الفكريّ والثّقافيّ. وأحدها الفراغ العقائديّ. فنظرة على الوضع الفكريّ للبيئة الّتي بزغت فيها شمس الإسلام تدلّ علىٰ أنّ في تركيبة العقائد الّتي كان يتبنّاها العرب في الجاهليّة نوعاً من الضعف بل أنواعاً منه. وهذا الضعف ناتج عن خلوّ تلك العقائد من البعد الاستدلاليّ والمنطقيّ حتّىٰ في أدنىٰ مراحل الفكر. وكان الوضع الثّقافيّ للجزيرة العربيّة بنحوٍ لا يستطيع معه العرب أن تكون لهم عقائد دينيّة علىٰ وتيرة واحدة، وأن يتقصّوا الأسس الاستدلاليّة، والمعقولة ظاهراً، لأفكارهم. وكانت النّزعة الدّينيّة للجزيرة العربيّة نزعة توحيديّة وقتاً ما، ثمّ تحوّلت إلى الصنميّة، بيد أنّه لم تكن هناك رؤية محدّدة بالشكل الّذي يمكن أن يرتضيه الجميع. مبدئيّاً كانت النّزعة الحنفيّة المطروحة متأخّراً معلماً علىٰ نوعٍ من التضعضع. وكان رصيد المحافظة علىٰ ذلك الوضع أساساً العادة والتّقليد لا الاستدلال والعقل. ومن منطلق التّقليد الأعمىٰ، وبسبب الإدمان على الصنميّة مدّةً طويلة ظهرت علاقة مقدّسة بين العرب والأصنام، وهذا هو سند احترامهم لعقائدهم. وكان إلغاء هذه العقائد لا يعني عندهم سحق العقل والاستدلال

بل يعني إلغاء قيم الآباء والأجداد. وإذا أفلح أحد في محو هذه القداسة، فلا استدلال يبقىٰ لديمومة العقائد المذكورة وثباتها، في حين أنّ كثيراً من الأفكار الأُخرىٰ الّتي كانت قائمة في العالم يومئذٍ رافقها التفكير المنطقيّ مضافاً إلى القداسة، علىٰ سبيل المثال نزعة كالمسيحيّة، فعلىٰ الرغم من التّحريفات الّتي أصابتها، وفقدانها جاذبيّتها الذّاتيّة في تقديم رؤية شاملة للأجيال الجديدة، لكنّها كانت تمثّل في الأساس تفكيراً فطريّاً ومصدرها هو الله سبحانه. وكذلك عقائد الفرس فقد كانت علىٰ هذا المنوال إلىٰ حدٍّ ما وإن كانت أضعف من المسيحيّة أضعافاً. وهكذا لم يواجه الإسلام في الجزيرة العربيّة تفكيراً مستدلّاً بل واجه تقاليد وعادات مألوفة وما عليه إلّا أن يرفع هذا الحاجز. وبانهيار قواعد هذا الحاجز لم يبق معقل للعقائد الجاهليّة. والصنميّة أساساً نزعة واهية غير قابلة للاستدلال، وهذا ممّا يُيسّر مقارعتها.

وتقوم مقارعة القرآن الفكريّة للعقائد المذكورة علىٰ تصوير الأصنام تافهة وضيعة في أعين عبدتها ليدلّ بذلك علىٰ أنّها لا تستحقّ أن تكون آلهةً للنّاس، بل هي عاجزة عن القيام بكلّ عمل، ولا خاصّيّة فيها ولا شأن. قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً﴾[١]. وطلب سبحانه من المشركين أن يبيّنوا دور الأصنام في إنشاء العالم، وإذا كان لها كتاب مقدّس وثقافة معروفة فليُبدوها، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمٰوَاتِ ٱئْتُونِى بِكِتَابٍ مِن قَبْلِ هٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللهِ مَن لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾[٢]. ومحاربة القرآن الكريم للصنميّة في آيات أُخرىٰ منها: ما دليل المشركين على اعتقادهم بإلوهيّة الأصنام؟

---

(١) الفرقان: ٣. (٢) الأحقاف: ٣، ٤.

ومنها: كيف يُتصوَّر أنّ للأصنام ضرّاً ونفعاً؟ تأكيد منه علىٰ عدم ضرّها ونفعها(١).

وبيّن الله سبحانه العقائد الواهية السّخيفة للجاهليّة، وعبّر عن تعجّبه منها.

ومن هذه العقائد امتعاض العرب وقلقهم من أن تكون لهم بنات في حين يتوهّمون أنّ لله سبحانه وتعالىٰ بنات. قال تعالىٰ: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾(٢)! وفي موضع آخر يسخر بهذه العقيدة أيضاً ويقول: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً﴾(٣). وكان العرب في الجاهليّة حين يسمعون هذه الكلمات يرون أسس عقائدهم هشّةً واهية. ونقل القرآن الكريم في موضع آخر كلام إبراهيم عليه السلام فقال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾(٤).

وكان الأسلوب الّذي انتهجه الصّحابة في محاربة العقائد الملوّثة بالشّرك يماثل حركة إبراهيم عليه السلام في تحطيم الأصنام وترك الفأس علىٰ عاتق كبيرهم وهي حركة كان لها أن تضعضع الأسس العقيديّة لعَبَدة الأصنام بسهولة. وكان لعمرو بن الجموح أحد رؤساء بني سلمة صنم من خشب في بيته يعبده كما كان يفعل الأشراف. وأسلم بعض أبنائه مع جماعة من بني سلمة. وأخذوا صنمه ذات ليلة وألقوه في حفرة مليئة بالقاذورات. وفي غد تلك الليلة بذل جهده فأخرجه وطهّره ووضعه في مكانه الأولّ. وكرّروا ما فعلوه في الليلة التالية، وقام بنفس ما قام به من قبل. وفي المرّة الثّالثة وضع سيفه في عنق الصّنم وقال له: لا أدري من تعرّض لك بسوء. فإذا كان فيك خير فدافع عن نفسك وهذا السيف معك. وفي تلك الليلة أخذه المسلمون وألقوه مع كلب ميّت في الحفرة نفسها. فلمّا أصبح ترك عبادة الأصنام وأسلم. وقال يخاطب صنمه:

---

(١) طه: ٨٩؛ المائدة: ٧٦؛ الحجّ: ١٣. (٢) النجم: ٢١، ٢٢.

(٣) الإسراء: ٤٠. (٤) الشّعراء: ٧٠ ـ ٧٤.

والله إنْ كـــــنتَ إلٰهاً لم تكـــن   أنت وكلبٌ وَسطَ بئرٍ في قَرَن[١]

وعندما بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص بعد فتح مكّة لكسر صنم سواع الّذي كان لهذيل، قال حارسه: إنّك لا تقدر على كسره! بيد أنّه لمّا رآه قد كسره ولم يحدث شيء، قال: أسلمتُ لله[٢].

وبالنظر إلىٰ هذه الظّروف الفكريّة يستبين الفراغ العقائديّ، وهـو الفـراغ الّـذي أفضىٰ إلىٰ أن لا يواجه الإسلام مشكلات عقائديّة تُذكَر علماً أنّ هذا لا يعني عجز الإسلام عن مواجهة الأفكار الباطلة ولو كانت استدلاليّة في ظاهرها، كما لا يعني أنّه لم يواجه أيّ مشكلة قطّ، بل كما مرّ بنا أنّ التّقليد والعادة والقداسة مشكلات أحدثت عقبة كبيرة في طريق الإسلام، وما يعنينا هنا هو أنّ المشكلات العقائديّة كانت قابلة للعلاج بنحو أيسر وأسرع قياساً بالمشكلات الأُخرىٰ.

الفراغ القانونيّ

خلت حياة العرب في الجاهليّة مـن أيّ قـانون يسـتطيع أن يحـدّ مـن أعـمالهم وتصرّفاتهم، فكانوا يجدون أنفسهم أحراراً في كلّ عمل يمارسونه إلّا سنّةَ الأجـداد الّتي تمثّلت ـ يا للأسف ـ في القتال والجدال. وفي أجواء هذه الحرّيّة كانوا لا يخشون إلّا من هجوم يبيد وجودهم، لكنّ تمرّسهم على القتال أزال هذا الخوف من نفوسهم. وبسبب انعدام القانون سادت الفوضى الاجتماعيّة والسّياسيّة وعمّت جميع الأرجاء، وفي كلّ لحظة كان يُحتَمل نشوب حرب مدمّرة تهدّد كلّ أُسرة بالفناء. ومرّ بنا سابقاً أنّ نوعاً من الحرّيّة المفرطة كان موجوداً في العصر الجاهليّ بالحجم الّذي كان يُمنىٰ فيه المجتمع بالاضطراب والفوضىٰ. وفي مثل هذه البيئة المضطربة كان النـاس عـلى

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٤٥٢ ـ ٤٥٣؛ *وفاء الوفاء* ١: ٢٣٤.

(٢) *المغازي* ٢: ٨٧٠.

استعداد أن يتحمّلوا القيود بما فيها القيود الّتي تحدّ من حياتهم، وذلك من أجل الرّخاء والهدوء. تلك القيود والضوابط الّتي تنقذ دارهم وبيئتهم من التخلخل والاضطراب وتتحفهم بالصفاء والصّدق والنّزاهة والسّلام.

الفراغ الأخلاقيّ

يضاف إلى الفراغ العقائديّ والقانونيّ أنّ المجتمع الجاهليّ في مكّة كان مجتمعاً غير أخلاقيّ. وكان لفقدان القيم الأخلاقيّة دور كبير في دمار أُسس المجتمع. ويستشفّ دور النساء في ضياع ذلك المجتمع من الآية الثانية عشرة من سورة الممتحنة الّتي تحدّثت عن بيعة النّساء. وجاء في أحد الأخبار أيضاً أنّ رسول الله ﷺ حين ذكر هذه الأشياء للبيعة قالت له هند بنت عتبة: وٰالله إنّ البهتان قبيح وما تأمرنا إلّا بالرّشد ومكارم الأخلاق[١]. وذكرنا قبل هذا مفردات من اعتراف المشركين بدعوة النّبيّ ﷺ إلىٰ مكارم الأخلاق. والنموذج الآخر هو موقف جعفر بن أبي طالب أمام ملك الحبشة. فقد قال في حديثه عن الوضع الاجتماعيّ والأخلاقيّ لمجتمعه، وبيان أهمّيّة الرّسالة النّبويّة يومذاك:

«أيّها الملك! كنّا أهل جاهليّة، نعبد الأوثان، ونأكل الميتة، ونرتكب الفواحش ولا نصل الرحم، ونسيء الجوار، ويأكل قويّنا ضعيفنا. فبعث الله إلينا نبيّاً من أنفسنا نعرف وفاءه وصدقه وأمانته ونسبه فدعانا إلىٰ أن نعبد الله وحده لا شريك له، ونخلع ما كنّا نعبد من دونه من الحجارة والأوثان. وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الأرحام، وحُسنِ الجوار، والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش ...»[٢].

---

(١) *مجمع البيان* ٥: ٢٧٦؛ *مستدرك الوسائل* ١٤: ٢٨٠.

(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن كثير ٢: ١٩.

ويستشفّ من كلامه هذا أنّ النّاس أنفسهم كانوا يعانون من غياب القوانين والضّوابط الّتي تنقذ حياتهم من الفوضىٰ والاضطراب، ولمّا رأوا الإسلام ومبادئه الإنسانيّة وجدوا أنفسهم بحاجةٍ إليه. وكان الإسلام نعمةً حقيقيّةً لهم حقّاً.

موقع مكّة

بدأت رسالة النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم في مكّة، وكانت مكّة مهاداً مناسباً لتبليغ الإسلام وامتداده في حين كانت المناطق الأخرىٰ في العالم تفتقدها أو أنّ نصيبها قليل منها. ويمكن أن تكون الخصائص الّتي تتّصف بها مكّة مؤثّرة في تكامل الإسلام وتقدّمه بين النّاس لأسباب متنوّعة.

وأوّل قضيّة هنا هي قداسة الكعبة عند العرب. الكعبة الّتي بناها إبراهيم عليه السلام، وكانت بيتاً ومعبداً محترماً يتوجّه إليه الجميع قبل البعثة بقرون، كما كان يضفي علىٰ مكّة قداسةً خاصّة حتّىٰ غدت بلداً آمناً في ظلاله. وتفيدنا كتب التّاريخ أنّ الكعبة كانت محترمة عند معظم الأمم منذ القديم. وكان الصّابئون من الفرس والآشوريّون يعدّونها أحد البيوت السّبعة المعظّمة في العالم. ولمّا كانت موغلة في القدم فقد اعتبرها البعض بيت «زُحَل».

وكان الفرس يعتقدون بأنّ روح «هرمز» قد حلّت في الكعبة، وكان بعضهم يحجّ إليها أحياناً. وكان اليهود يحترمون الكعبة أيضاً ويعبدون الله فيها على أساس دين إبراهيم عليه السلام. وكانت فيها صورة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وفي أيديهما الأزلام، وكذلك كانت فيها صورة مريم والمسيح عليهما السلام. وهذا مَعْلَم علىٰ أنّ النّصارىٰ كانوا يحترمون الكعبة أيضاً كاليهود. ونقل الزمخشريّ حكاية في تسمية زمزم، وذُكر فيها قدوم بابك

ابن ساسان إلىٰ مكّة. ونقلها المسعوديّ والحمويّ أيضاً بتفاوت يسير[١]. وكان العرب وهم يعتقدون أنّ الكعبة بيت الله الّذي بناه إبراهيم الخليل عليه السلام يحترمونها احتراماً خاصّاً، ويفدون إلىٰ مكّة من كلّ حدبٍ وصوبٍ لأداء الحجّ. وبقيت هذه السّنّة من دين إبراهيم عليه السلام بين ظهرانيهم. ونُقل أيضاً أنّ الهنود كانوا يحترمون الكعبة بخاصّة «الحجر الأسود»[٢].

والقضيّة الثّانية هي أنّ مكّة كانت مركزاً تجاريّاً، ويضاف إلىٰ أنّ المكّيّين كانوا أهل تجارةٍ[٣]، ويذهبون إلى الشّام واليمن والحبشة للتجارة مرّتين في كلّ سنة، أنّ مكّة نفسها كانت مركزاً لتردّد القوافل القادمة من الشّمال إلى الجنوب أو من الغرب إلى الشّرق، من هنا كانت موضعاً لوفود كثير من التجّار يومذاك.

والقضيّة الثّالثة هي أنّ مكّة كانت حرماً. ولمّا جاء إبراهيم عليه السلام إلىٰ هذه المنطقة غير ذي زرع[٤]، بادر إلىٰ بناء بيت[٥] اتّخذ اسم «بيت الله الحرام». وبعد بنائه عليه السلام الكعبة دعا الله تعالىٰ أن تكون مكّة بلداً آمناً[٦]، فاستجاب سبحانه دعاءه وجعلها حرماً آمناً[٧]، كما أقسم تبارك اسمه بها[٨]. ويضاف إلىٰ حرمة مكّة أنّ الأشهر الحرم كانت باعثاً علىٰ ذهاب القبائل فيها إلىٰ مكّة والأسواق الواقعة في أطرافها ببال رخيّ من عدم هجوم القبائل الأُخرىٰ[٩].

والقضيّة الرّابعة تتمثّل في الموقع الجغرافيّ لمدينة مكّة بالنسبة إلى العالم آنذاك. فقد

---

(١) *ربيع الأبرار* ١ : ٢٢٤؛ *مروج الذّهب* ١ : ٢٦٥؛ *معجم البلدان* ٤ : ٤٠٠.

(٢) *تفسير المنار* ١٠ : ٤٢٠؛ *الميزان* ٣ : ٣٩٨. (٣) *مجمع البيان* ١٠ : ٥٤٥.

(٤) إبراهيم : ٣٧. (٥) البقرة : ١٢٧.

(٦) إبراهيم : ٣٥؛ البقرة : ١٢٦. (٧) العنكبوت : ٦٧.

(٨) التّين : ٤.

(٩) انظر : *سنن النسائيّ* ٢ : ٣٣٣؛ *مسند أحمد* ١ : ٢٢٨، ٣٦١ وانظر : *الصّحيح من سيرة النّبيّ* ﷺ ٣ : ٣٠٨.

كانت وسطاً بين بلاد فارس والرّوم في الشّرق والغرب، بخاصّة أنّها أدّت فيما بعد دوراً مهمّاً في امتداد الدّعوة الإسلاميّة في كلا الطرفين من العالم[١].

وهذه المزايا المذكورة لمدينة مكّة أفضت إلىٰ أن تؤدّي هذه المدينة دوراً مهمّاً في توسيع النّهضة الإسلاميّة من الوجهة الإعلاميّة والعمليّة علىٰ حدٍّ سواء. ومن الواضح أنّ مهمّة النّبيّ ﷺ كانت تتجسّد في تبليغ الإسلام للنّاس[٢]. والتكثيف الإعلاميّ للإسلام من هذه النّقطة إلىٰ أرجاء العالم والمناطق النائية عن الجزيرة العربيّة تطبيق لهذه المهمّة الكبيرة. وللأمان الّذي كانت تحظىٰ به مكّة وتراعيه العرب اقتداءً بإبراهيم عليه‌السلام قسط وافر في نشر الدّعوة الإسلاميّة. ونشير فيما يأتي إلىٰ نماذج من هذا التأثير:

لمّا كان العرب يفدون إلىٰ مكّة من أرجاء الجزيرة في أيّام الحجّ فقد كان رسول الله ﷺ يستثمر هذه الفرصة ويتّصل برؤساء القبائل المختلفة ويدعوهم إلى الإسلام؛ وكان يذهب عند القبائل ويعرض عليهم الإسلام، ويتبعه أبو لهب ليحبط محاولاته والتقىٰ ﷺ بقبائل «بني صعصعة» و«بني حنيفة»، و«كندة» و«كلب» ودعاهم إلى الإسلام[٣]. وفي أحد هذه اللقاءات دعا ﷺ جماعة من أهل اليمن إلىٰ الإسلام[٤]. وتمهّدت الأرضيّة لأهل يثرب أن يسلموا في الاتّصالات الّتي كانت جارية خلال موسم الحجّ. وتعرّفت شريحة منهم على النّبيّ ﷺ وسمعت دعوته في مراسيم الحجّ. وكانوا في البداية ستّة، ثمّ صاروا في بيعة العقبة الأولىٰ اثني عشر، وفي السّنة الّتي تلتها

---

(١) *فقه السّيرة*: ٣٠ نقلاً عن *الصّحيح من سيرة النّبيّ* ﷺ ١: ١٦٦.

(٢) آل عمران: ٢٠؛ المائدة: ٩٢، ٩٩؛ النّحل: ٣٥، ٨٢؛ النّور: ٥٤؛ العنكبوت: ١٨؛ يسٓ: ١٧؛ التغابن: ١٢.

(٣) *أنساب الأشراف* ١: ٢٣٨، ٢٣٩.

(٤) نفسه ١: ٦٧؛ *المصنّف*، ابن أبي شيبة ٧: ٣٣٦.

التقىٰ به ﷺ بضع وسبعون من المسلمين المدنيّين في موسم الحجّ[١].

ويتبيّن تأثير هذه الاتّصالات في نشر الإسلام من ذُعر قريش في موسم الحجّ. فقد كانت تعقد الاجتماعات قبل شروع المناسك وتتشاور وتتبادل الآراء للحؤول دون الدّعوة الإسلاميّة. فواحد منها كان يقول: الأفضل أن نقول: محمّد مجنون! وآخر يقول: هو شاعر! وثالث يقول: هو ساحر!...[٢]

ونُقل عن كعب بن مالك أنّ النّبيّ ﷺ جهر بدعوته بعد ثلاث سنين من مرحلتها السّرّيّة، وكان يذهب في أيّام الحجّ إلى بيوت الحجّاج ويدعوهم إلى الإسلام، وبعد مدّة يسأل عن قبائلهم ويذهب إليها قبيلةً قبيلة[٣].

وكانت تقام في أيّام الحجّ الأسواق المعروفة «عكاظ»، و«المجنّة»، و«ذي المجاز» حيناً ما فيقصدها النّبيّ ﷺ ويدعو النّاس فيها إلى الإسلام. ويقدّم غيب صورة لمدينة مكّة وتأثيرها في نجاح الرّسول ﷺ فيقول: لم تكن مكّة في عهده عشر كور خاملة بعيدة عن ضوضاء العالم، بل كانت مدينةً تجاريّة ثريّة مكتظّة بالنّاس. واستأثرت بموقع تجاريّ وسط تقريباً بين المحيط الهنديّ والبحر الأبيض المتوسّط... وفي الوقت الّذي كان سكّان مكّة يحافظون علىٰ نوعٍ من البساطة العربيّة الأصيلة في آدابهم وتقاليدهم وأوضاعهم، فقد حصلوا علىٰ معلومات واسعة عن المدائن المختلفة وأهاليها عبر علاقاتهم التّجاريّة والسّياسيّة بالقبائل العربيّة والسّلطات الروميّة. وهذه التجارب ساعدت علىٰ تعزيز القوى الفكريّة والعقليّة لقادتهم وإثارتها وكذلك تعزيز سجاياهم الأخلاقيّة كالحزم وضبط النّفس اللذين قلّما كانا موجودَين عند أهل الحجاز. والتفوّق الأخلاقيّ الّذي حاز عليه المكّيّون عن هذا الطّريق قياساً

---

(١) *أنساب الأشراف* ١: ٢٣٩؛ *وفاء الوفاء* ١: ٢٢٢.

(٢) *أنساب الأشراف* ١: ١٣٣؛ *بحار الأنوار* ١٨: ١٩٨؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٢٧٠، ٢٧١؛ *عيون الأثر* ١: ١٩١.

(٣) انظر: *حياة الصّحابة* ١: ٦٥ ـ ٨١.

بأفراد القبائل الأُخرىٰ قد توطّد أيضاً بفضل وجود عدد من المعابد والأماكن المقدّسة في مكّة وأطرافها. ويتسنّىٰ لنا أن نلحظ تأثير هذه الأرضيّة الاستثنائيّة في حياة محمّد ﷺ بأسرها. وإذا أردنا أن نناقش هذا الموضوع من منطلق بشريّ محض فلا بدّ لنا أن نقول: إنّ رمز نجاح محمّد ﷺ يكمن في انتمائه المكّيّ. بيد أنّ مكّة نفسها إذا أصابت حظّاً من ضياء السّعادة فقد كان لها حظّها من ظلام الشقاء والتّعاسة أيضاً. ويتمثّل هذا الظلام بالمفاسد الخاصّة لمجتمع تجاريّ ثريّ، ووجود غاية الفقر من جهة، وغاية الغنىٰ من جهة أُخرىٰ[1].

وهذا الكلام دليل علىٰ وجود عقبات كؤودة كانت قائمة في طريق الرّسالة النّبويّة.

(١) **اسلام، بررسى تاريخى** [الإسلام، دراسة تاريخيّة]: ٤٢، ٤٣.

أخلاق العرب في الجاهليّة

إنّ البيئة الّتي عاش فيها عرب الجاهليّة أفضت إلىٰ تنامي خصال خاصّة عندهم وربّتهم بنحو خاصّ. كما أنّ الحياة القبليّة العسيرة فرضت ضغوطاً معيّنةً علىٰ أفراد القبيلة، وأوجدت الضّرورات الجغرافيّة والاقتصاديّة حاجاتٍ وظروف خاصّة. فتربّى العرب في هذه الظّروف وبرزوا في الاتّصاف ببعض الخصال والسجايا. وعلى الرغم من استغلال هذه الخصال والقابليّات للمفاسد والمآرب المطابقة للمعايير الجاهليّة، بيد أنّ منبعها كان بمقدوره أن يصبّ في اتّجاهات أُخرىٰ أيضاً. كما أنّ بعضها كان في عداد القيم الأخلاقيّة الموجبة. واستطاع رسول الله ﷺ بجهوده الدؤوبة أن يُحِلَّ ذلك الهدف السّامي الّذي يدعو الإسلام الإنسان إليه في نفوس الصّحابة، ويستثمر الخصال الموجودة بما يرتبط بذلك الهدف الرفيع، وهكذا تمكّنت الخصال المذكورة أن تشكّل الأرضيّة لتقدّم الإسلام.

ومن خصال العرب في الجاهليّة قدرتهم علىٰ تحمّل الشّدائد. ولهذه الخصلة دورها العمليّ الجادّ في تربية القوم وإعدادهم لمواجهة المصاعب والمشكلات. واستثمر النّبيّ ﷺ هذه الخصلة الموجودة في أصحابه استثماراً وافياً لمواجهة المشركين والأشراف والقبائل البدويّة، وكذلك لخوض الحروب الطّويلة معهم في المدينة. إذ إنّ المسلمين مُنوا بمشكلات كثيرة في تلك الظّروف. لكن لمّا كان العرب يعيشون في بيئة الحجاز الحارّة المحرقة وظروف عصيبة بلا ماء ولا عشب، وكانوا قد ألفوا المصاعب وتطبّعوا عليها، فقد تمكّنوا من المقاومة مع النّبيّ ﷺ في ضروب الحرمان، وتحمّلوا شتّى الضغوط والشّدائد. والحياة بلا رفاهية في الجاهليّة ـ وكان يعيشها أكثر من ٩٠٪ من النّاس ـ منحت العرب صلابةً خاصّة، وولّدت فيهم الاستعداد لمقاومة كلّ شيء حتّى الجفاف وفقدان الماء. ومطالعة السّيرة تدلّ علىٰ أنّ الصّحابة قلّما كانوا

يعترضون على النّبيّ ﷺ بالرّغم من وجود المشكلات الكثيرة. والعرب ـ أساساً ـ بخاصّة الصّحابة منهم لم يكونوا مترفين، بل كان معظمهم من المحرومين والعاديّين، ولم أجد في حدود الكتب الّتي طالتعها إلّا موضعاً واحداً اعترض فيه شخص من أهل الصُّفّة في مسجد المدينة الّذي كان يأتيه الفقراء عادةً فقال: كان رسول الله ﷺ يقسم مقداراً من التمر على الأشخاص. وكان مشغولاً بصلاته ذات يوم فصاح رجل: يا رسول الله! أكلنا التمر حتّى احترقت بطوننا. فقال ﷺ: «والله الّذي لا إله إلّا هو، لو كنت قادراً على الخبز واللحم لهيّئته لكم»[1].

الخصلة الأُخرىٰ للعرب معرفتهم بالحرب بل تمرّسهم عليها. فالحروب المتواصلة بين القبائل في الجاهليّة على الماء، والمرتع، وغيرهما منحتهم بخاصّة سكّان البادية منهم روحاً خاصّةً. والحروب الّتي دامت عشرين سنة أو أربعين سنة، لاسيّما بين قبيلتين معيّنتين لم تتجاوز نفوسهما الآلاف، دليل علىٰ لجاجتهم الحربيّة الشّديدة. ومن الطّبيعي أنّ الرجال لم يستبسلوا وحدهم بل استبسلت النساء والأطفال الّذين نشأوا في أجواء القتال وألفوها حتّى استطاعوا أن يصمدوا بوجه العدوّ ويتحمّلوا مصائب الحرب بسهولة. وبعد حين عندما أراد رسول الله ﷺ الجهاد لتقويض الحكومات الظّالمة والدّفاع عن كيان الإسلام، واضطُرّ لخوض أكثر من ثمانين «غزوة» و«سريّة» خلال عقد من الزمن في المدينة، فإنّه استثمر هذه الرّوح القتاليّة عند العرب؛ إذ من البيّن أنّ النّاس الجبناء المذعورين الّذين لايتحمّلون جرحاً طفيفاً يصابون به عاجزون عن القيام بمثل هذه التحرّكات العسكريّة المكثّفة المتواترة خلال فترات قصيرة. بيد أنّ العرب الّذين كانوا قد تمرّسوا على القتال وخبروا الحروب في الجاهليّة استطاعوا إبّان ظهور الإسلام أن يقدّموا خدمات جليلة لتوسيع نطاقة أكثر فأكثر في المناطق

---

(١) *المعرفة والتّاريخ* ١: ٢٧٧.

المختلفة للجزيرة العربيّة. وكان هذه الرّوح القتاليّة مفعولها أيضاً في حروب المسلمين المختلفة ضدّ الرّوم والفرس. ولابدّ أن نعطيها دورها في عداد أسباب النّصر والفتح. علماً أنّنا ينبغي ألّا نغفل عن أنّ عدداً يسيراً منهم عُرف بشجاعته الفذّة في الحروب المهمّة الّتي جرت في عصر صدر الإسلام فاستطاع أن يهزم العدوّ، ويجب ألّا ننسىٰ أنّ بعضهم ترك ساحة القتال مرّتين كحدٍّ أدنىٰ، مرّة في أُحد، والأُخرىٰ في حُنين.

ومن الصّفات البارزة الأُخرىٰ لعرب الجاهليّة «إقراء الضّيف». فمع أنّهم كانوا في سعي دائم من أجل تأمين مصادر العيش، وكانوا يقاتلون منافسيهم لبلوغها، لكنّ نفوسهم تطيب للضّيف وإقرائه وحمايته تماماً. واستطاعت هذه الصّفة أن تساعد المسلمين في بعض الحالات وتنقذهم من عناء الغربة والوحدة. فعندما قدم المهاجرون من مكّة إلى المدينة احتضنهم أهل المدينة بفضل ما كانوا يتمتّعون به من روح الضيافة وآثروهم علىٰ أنفسهم حتّىٰ إنّهم كانوا يقترعون لأخذهم إلىٰ بيوتهم مع أنّ عددهم كان كبيراً قياساً بالقدرة الاقتصاديّة لأهل المدينة[١]. وذكر القرآن الكريم هذا الإيثار أيضاً[٢]. وهذه الروح لم تكن موجودة عند الأنصار فحسب بل كانت موجودة عند جميع المسلمين. وكان للإسلام دور مؤثّر في تعزيزها وإن كانت من تراث الجاهليّة. وقال رسول الله ﷺ في سياق كلام له:

«أيّها النّاس! إنّ الله تبارك وتعالىٰ رضي لكم الإسلام ديناً فأحسنوا صحبته بالسّخاء وحسن الخلق. ألا إنّ السّخاء شجرة من أشجار الجنّة لها أغصان متدلّية في الدنيا. فمن كان سخيّاً تعلّق بغصن من أغصانها، فساقه ذلك الغصن إلى الجنّة».

وإنّ وجود مثل هذه الرّوح بين المسلمين في بداية تأسيس الحكومة في المدينة أفضىٰ إلى اقتلاع الفقر من المجتمع بنحو إعجازيّ، وأحيا الأمل في نفوس الجميع، الأمل بالنظّام وتأثيره في حلّ المشكلات.

---

(١) *الطّبقات الكبرىٰ* ٣: ٣٩٦.

(٢) الحشر: ١٩.

(٤)

الإسلام أمام ضغوط قريش

المشركون أمام الإسلام

الّذين عارضوا الإسلام تشبّثوا بتسويغات معيّنة لمعارضتهم. وحديثنا هنا جواب عن السّؤال الآتي: لماذا أحجم هؤلاء عن اعتناق الإسلام؟ ونقول: وردت في الآيات القرآنيّة والأخبار التّاريخيّة مطالب كثيرة في هذا المجال، ويمكن أن تدلّ علىٰ أسباب تلك المعارضة. وبعض المطالب المذكورة ذو جانب اجتماعيّ وسياسيّ، وبعضها الآخر ذو جانب فكريّ وثقافيّ. وعرضها مفيد من منظار التعرّف علىٰ جوهر التّعارض بين الإسلام والمشركين بل هو ضروريّ لفهم التطوّر الّذي أدّىٰ إلىٰ غلبة الإسلام وانتصاره على المجتمع الجاهليّ بصورة صحيحة.

١ ـ عجب المشركين من التوحيد: صحيح أنّ الإسلام كان يرىٰ نفسه امتداداً للملّة الحنيفيّة، بيد أنّه لإصراره المكثّف على التّوحيد بخاصّة إلغاء جميع المعبودين عرض كلاماً جديداً. وهذا الكلام كان يجهله أشراف قريش وعرب الجاهليّة مبدئيّاً.

فقد اتّخذ هؤلاء الأصنام آلهة يعبدونها أو رمزاً لمعبودهم الأصليّ. وإذا رضوا الإسلام ديناً فلا بدّ أن يتركوا إدمانهم الفكريّ جانباً. وقبول الدين الجديد يصعب حتّىٰ على الّذين يعيشون في مجتمع منفتح فضلاً عن المجتمع الجاهليّ. علىٰ أيّ حال، عرض التّوحيد الخالص أثار إعجابهم وحداهم على المعارضة. قال تعالىٰ في كتابه الحكيم: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ۞ أَجَعَلَ ٱلآلِهَةَ

إِلٰهاً وَاحِداً إِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[١]. فهم لم يعجبوا من التوحيد ويصرّحوا بجهلهم إيّاه فحسب بل زعموا أنّ هذا التّوحيد لم يطرحه أحد من قبل حتّى المسيح عليه السلام: ﴿**وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا وَٱصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلآخِرَةِ إِنْ هٰذَا إِلَّا ٱخْتِلَاقٌ**﴾[٢]. وكان اعتراض المشركين على المسلمين الجدد قولهم: أتدعون دين آبائكم وتصبون إلى الدّين الجديد؟[٣] وكان أبو جهل يقول في بدر: «اللّهمّ ربّنا ديننا القديم ودين محمّد الحديث فأيّ الدّينين كان أحبّ إليك وأرضىٰ عندك فانصر أهله اليوم»[٤] وقال الله تعالىٰ في جواب المشركين إذ قالوا إنّهم لم يسمعوا في دين المسيح كلاماً ككلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿**قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِنَ ٱلرُّسُلِ**﴾[٥]. وكان لجهد النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في إثبات حنيفيّته أن يمثّل علاجاً لهذه المشكلة. وللإسلام أن يقاوم في هذه المنطقة لفترة حتّىٰ يألفه النّاس. ورفعاً للمشكلة المذكورة كان الإسلام يصرّ علىٰ جذوره التّاريخيّة القويّة، ومن خلال ربط نفسه برسالة مَنْ سلف من الأنبياء، عرض التوحيد كتيّار مبدئيّ في تاريخ الحياة الفكريّة للإنسان.

٢ ـ الخوف من فقدان العرب سيادتها: تمكّنت قريش من سيادة العرب بشكل طبيعيّ بسبب سيطرتها علىٰ مكّة ومسكها بزمام تجارتها. وكانت ترىٰ أنّها راعية للنّظام الدّينيّ الجاهليّ من خلال تسمية نفسها «أهل الحُمس» وتشدّدها في دينها. وكان قبولها الإسلام يؤدّي إلىٰ فقدانها سيادتها حتّىٰ حينٍ كحدّ أدنىٰ إلىٰ أن تستطيع استعادة سيطرتها بمؤازرة الإسلام، ومستقبل ذلك كان مجهولاً يومئذٍ. وعند اعتناقها الدّين الجديد لم تفقد سيادتها فحسب، بل تجعل نفسها أمام القبائل الأُخرىٰ الّتي يُحتمل أنّها كانت تهمّ بمنافستها أيضاً. وكان رجالها يقولون لأبي طالب: «أعطنا

---

(١) صٓ: ٤، ٥. (٢) صٓ: ٦، ٧؛ *أنساب الأشراف* ١: ٢٣١.

(٣) *أنساب الأشراف* ٥: ٢؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ٣: ٥٥؛ *المصنّف*، ابن أبي شيبه ٧: ٣٣٢.

(٤) *مجمع البيان*، ج ٤، ص ٥٣١. (٥) الأحقاف: ٩.

محمّداً نقتله لئلّا يغيّر ديننا ويعرّضنا لقتال العرب»[١] وكانوا يقولون للنّبيّ ﷺ : لم نجد بين العرب أشأم منك لقومه ؛ فرّقتَ جماعتنا، وشتّت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا بين العرب حتّى قيل: في قريش ساحر وكاهن ![٢]

٣ ـ منافسة طوائف قريش لبني هاشم: كانت بين قريش طوائف مختلفة تقسّم مناصب مكّة بينها طبيعيّاً، وأحياناً تعاقديّاً. مع هذا كانت بينها بعض المنافسات. وكان كلّ منها يسعىٰ إلى البروز وكسب الجاه الأكبر بين العرب من وحي التّنافس القائم بينها. وكان بنو هاشم أسرة بارزة متنفّذة، وعلى الرغم من أنّ بعض وجوهها لم يكن في أيّامه الأخيرة ذا ثروة تذكر، إلّا أنّهم كانوا أفضل طوائف قريش بفضل دعم هاشم وعبد المطّلب وما لهما من نسلٍ كثير. وأكثر من هذا كان بنو عبد مناف الّذين ينتمي إليهم بنو هاشم، يحظون بموقع مرموق. وحين بزغت شمس الإسلام علىٰ ربوع بني هاشم كان جليّاً للجميع أنّ هذا التحرّك إذا أثمر فإنّه يُفضي إلىٰ تفوّق بني هاشم أكثر فأكثر. وكان بنو أميّة يقفون أمامهم، ورؤساء طوائف قريش المختلفة أمام بني عبد مناف. وكان أبو جهل يقول: «تنازعنا نحن وبنو عبد مناف في الشّرف. أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا حتّىٰ إذا تجاثينا على الركب وكنّا كفرسي رهان قالوا: منّا نبيّ يأتيه الوحي من السّماء، فمتىٰ ندرك هذه، والله لا يؤمن به أبداً ولا نصدّقه»[٣]. وينقل المغيرة بن شعبة أنّه كان يوماً مع أبي جهل في مكّة فلقيا النّبيّ ﷺ ، فدعاه إلى الإسلام، فقال: لا أتّبعه حتّىٰ لو علمتُ أنّه حقّ. يقول المغيرة: بعد ذلك قال لي أبو جهل: أعلم أنّه يقول حقّاً، لكن أولاد قصيّ قالوا: سدانة الكعبة لنا، فرضينا. وقالوا: النّدوة بيننا، فرضينا. وقالوا: الرّاية بأيدينا، فوافقنا. ثمّ أطعموا

---

(١) *نثر الدرّ* ١: ٣٩٨.
(٢) *مصنّف ابن أبي شيبة* ١٤: ٢٩٦ (الهند).
(٣) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٣١٦؛ *عيون الأثر* ١: ٢٠٤؛ *الدرّ المنثور* ٤: ١٨٧.

فأطعمنا حتّىٰ تساوينا، إلىٰ أن قالوا: منّا نبيّ! لا والله، لا أفعل[١]. وكان أبو جهل يقول لأبي سفيان مشيراً إلى النّبيّ ﷺ: هذا نبيّكم يا بني عبد شمس![٢]

وكان أشراف قريش يشعرون بالضّعة والحقارة إذ يرون يتيم بني هاشم يدّعي النّبوّة، فلم يريدوا أن يقبلوا ذلك. وهم في الحقيقة كانوا يحسدون النّبيّ ﷺ وقال منبّه ونبيه ابنا الحجّاج السّهميّ لرسول الله ﷺ: «أما وجد الله من يبعثه غيرك؟ إنّ هاهنا من هو أسنّ منك وأيسر... وإذا ذكراه قالا: «مُعلَّم مجنون، يعلّمه أهل الكتاب ما يأتي به»[٣]. وكم كان الاعتراض علىٰ نبوّة رسول الله ﷺ بين جميع النّاس الّذين كانوا يعيشون في مكّة والطّائف. وفي سورة الزخرف إشارة إلىٰ كثير من دعاوى المشركين. قال تعالىٰ: ﴿**وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ**﴾[٤]. وذكر سبحانه هذا الشّعور الّذي كان يحمله أكابر المجرمين بين الأقوام الخالية فقال: ﴿**وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**﴾[٥]. ولم يحملوا هذا الشعور حيال النّبيّ ﷺ فحسب، بل كانوا يحملونه حيال من كان معه. قال تعالىٰ: ﴿**وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا**

---

(١) *دلائل النّبوّة* ٢: ٢٠٧؛ *البداية والنّهاية* ٣: ٦٤؛ *المصنّف*، ابن أبي شيبة ١٤: ٩١، ٩٢.

(٢) *دلائل النّبوّة* ٢: ٢٨٤؛ *البداية والنّهاية* ٣: ٦٥.

(٣) *أنساب الأشراف* ١: ١٤٤؛ وجاء في الآية (١٤) من سورة الدخان: «ثمّ تولّوا وقالوا معلّم مجنون». وقُتل هذان الأخوان اللّذين دعا عليهما رسول الله ﷺ قتلهما عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

(٤) الزّخرف ٣١، ٣٢؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٣٦١.

(٥) الأنعام: ١٢٤.

إِلَيْهِ ﴾[١]. وكان المشركون يتوهّمون من وحي كبرهم أنّهم معيار الحقّ، وأنّ الضّعفاء معيار بطلان الإسلام. قال سبحانه: ﴿ وَكَذٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهٰؤُلَاءِ مَنَّ ٱللهُ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا أَلَيْسَ ٱللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾[٢]. وحين كان يمرّ صهيب، وعمّار، وخبّاب علىٰ قريش، تسخر منهم، وتقول: هؤلاء جلساء محمّد[٣].

وكانت قريش تعتقد أنّ ضعفة النّاس وحدهم تبعوه[٤]. قال تعالىٰ في سخرية قريش من المؤمنين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾[٥]. وأمر سبحانه نبيّه ﷺ أن يرعىٰ هؤلاء الضعفاء، بل المؤمنين فقال جلّ شأنه: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِن شَيْءٍ وَمَا مِن حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ ﴾[٦]. ويصف سبحانه صورةً لموقف المشركين من النّبيّ ﷺ وصحابته في مرآة تاريخ الأنبياء مع قومهم. وهذا البعد من القضيّة ورد نوعاً ما في قصّة نوح ﷺ، حين قال له مشركو قومه: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ... (فقال:) ... وَمَا أَنَا بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٧]. وجاء في موضع آخر من القرآن قوله تعالىٰ: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ ﴾[٨]. وكان جوابه ﷺ هو نفس الجواب وهو أنّه لا يطرد الّذين آمنوا[٩].

٤ ـ الخوف من فقدان مكّة أمنها وهدوءها: النّقطة الأُخرىٰ هي أنّ الإسلام

---

(١) الأحقاف: ١١. هذا كلام أبي جهل. *أنساب الأشراف* ١: ١٩٦.

(٢) الأنعام: ٥٣.

(٣) *أنساب الأشراف* ١: ١٨٤.

(٤) *المصنّف*، ابن أبي شيبة ٧: ٣٤٧.

(٥) المطفّفين: ٢٩، ٣٠؛ *أنساب الأشراف* ١: ١٩٧؛ *مجمع البيان* ٣: ٣٠٦.

(٦) الأنعام: ٥٢.

(٧) الشّعراء: ١١١، ١١٤.

(٨) هود: ٢٧.

(٩) هود: ٢٩.

عرّض الهدوء الطبيعيّ لمدينة مكّة لأزمةٍ حقيقيّة. وشمل ذلك الهدوءَ السّياسيّ، وبخاصّة الهدوء الفكريّ للمجتمع. فقد كان أهلها وأهل سائر المناطق قد أقاموا علاقاتهم الاجتماعيّة والقيميّة في ظلّ الكيان الجاهليّ القديم. وفي غضون ذلك أدّىٰ النّظام الدّينيّ الجاهليّ دوراً مهمّاً في تبلور هذه العلاقات، وعلاقاتهم الاقتصاديّة أيضاً. فتقويض هذا النظام القديم لا يستتبع إلّا التّخلخل والتّشتّت في المجتمع. وهذا الوضع لا يمكن أن يُطيقه من ألف تلك العلاقات وبنىٰ شخصيّته الفرديّة والاجتماعيّة علىٰ أساسها. وكانوا قد اتّخذوا الأصنام رمزاً لعزّتهم وعظمتهم، ﴿**وَٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً**﴾[1]. وارتبط النّظام الصّنميّ بنظامهم الأخلاقيّ والقيميّ، حتّىٰ جاء علىٰ لسان إبراهيم عليه السلام في قوله لقومه: ﴿... **إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِن دُونِ ٱللهِ أَوْثَاناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا**﴾[2]. علماً أنّ المجتمع الفتيّ في مكّة وكذلك من مُني بالحرمان في نظامها القديم كانوا مستعدّين لمناغاة الحركة الثّوريّة الجديدة. وقيل: إنّ قريشاً كانت تخاف علىٰ فتيانها من اللحاق بمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم. وقال مروان بن الحكم ذات مرّة لشيخ كبير: يا شيخ، ألا تدبّرت في إسلامك حتّىٰ سبقك الفتيان؟ فقال: عزمتُ عليه كثيراً لكنّ أباك (الحكم بن أبي العاص) يمنعني في كلّ مرّة ويقول: أتتنازل عن شرفك وتترك دين آبائك لأجل الدّين الجديد؟[3] علىٰ أيّ حال، هذه مشكلة كلّ حركة أساسيّة تقلب النّظام القديم في المجتمع. وكان الكبراء يحولون دون إسلام الجماهير الرّازحة تحت وطأة الظّلم وضغط العلاقات الجائرة للنّظام السّابق. وكلّ فرد في المجتمع القبليّ عضو في القبيلة. من هنا، لا يتسنّىٰ قبول الإسلام؛ إذ ينبغي بهذا العمل أن يجرّ عداء كبراء القبيلة لنفسه. وكان مَيْسَرة بن مسروق يقول للنّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم:

---

(١) مريم: ٨١. (٢) العنكبوت: ٢٥.

(٣) *المنتخب من ذيل المذيل*: ٥١٧؛ *أنساب الأشراف* ١: ٣٦٢.

ما أحسن كلامك! لكنّ قومي يخالفونني، والإنسان وقومه. إذا خذلوه، فلن ينصره أحد[١]. مع هذا، كان هناك رجال شجعوا ولم يتهيّبوا وانفصلوا عن قومهم، بل حاربوهم. وقال أميرالمؤمنين عليّ بن أبي‌طالب عليه السلام في خطبة له:

«ولقد كنّا مع رسول الله صلى الله عليه وآله نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا، ما يزيدنا ذلك إلّا إيماناً وتسليماً»[٢].

وأكّد القرآن الكريم ذلك أيضاً[٣]. فشخص مثل مصعب بن عمير كان فرحاً لأسر أخيه في بدر، وقال للمسلم الّذي أسره: أمسك أسيرك فإنّ عنده مالاً كثيراً في مكّة! وقال حين اعترض أخوه: المسلم الّذي أسرك هو أخي حقّاً[٤]. من هنا اتّهم المشركون رسول الله صلى الله عليه وآله بأنّه مزّق الأُسَر وشتّتها[٥].

٥ ـ التصوّر الخاطئ عن النبوّة: لا بدّ أنّ التّصوّر المبتور الّذي حمله المشركون عن الرّسالة مأخوذ ممّا كان يقوله النّصارىٰ في المسيح عليه السلام. يضاف إلىٰ ذلك أنّ أذهان العرب كانت مليئة بالاعتقاد بالملائكة والجنّ، ويرونهم معبودين إلىٰ جانب الأصنام. وهذه كلّها إلىٰ جانب الاعتقاد بإله ظلّ مجهولاً في تضاعيف تلك الآلهة المصطنعة جميعها. وإذا رسول الله صلى الله عليه وآله يعرض نفسه رسولاً لذلك الإله المجهول ـ أو كحدٍّ أدنى المجهول نوعاً ما ـ وكان العرب يتساءلون عن سبب عدم اختيار مَلَكٍ من الملائكة للرّسالة علىٰ فرض وجودها ـ مع أنّه في ضوء تصوّرهم ـ كان طبيعيّاً أنّ الحامل للرّسالة من الله يتّصف بصفات الله إلىٰ حدٍّ ما. بيد أنّ المدّعي لهذه الرسالة الآن بشرٌ

---

(١) *حياة الصّحابة* ١: ٦٥؛ *دلائل النّبوّة*، أبو نعيم ١: ٢٩٤، رقم ٢٢٠.

(٢) *نهج البلاغة*، الخطبة ٥٦؛ وانظر: الخطبة ١٢٢؛ *ربيع الأبرار* ٣: ٣١٢.

(٣) المجادلة: ٢٢.

(٤) *حياة الصّحابة* ٢: ٢٩٤ عن *نصب الرّاية* ٣: ٣، ٤.

(٥) *دلائل النّبوّة*، البيهقيّ ٢: ٣١٣؛ *عيون الأثر* ١: ٢٢٢.

مثلهم، وليس له أن يتّصل بالله في زعمهم. وهذا التّصوّر كان قد أوجد مشكلةً مهمّةً للمشركين إلىٰ درجة أنّ الله سبحانه عدّها عقبة كبيرةً تحول دون إسلامهم. قال تعالىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَراً رَسُولاً﴾[1]. وذكر أيضاً تعجّبهم من اختيار رسولٍ من بينهم[2]. علماً أنّ هذه المشكلة كانت موجودة أيضاً في عصر مَن سلف من الأنبياء. وهي تدلّ علىٰ أنّ الذّهن العاديّ للإنسان يتعذّر عليه أن يدرك هذا الموضوع في الوهلة الأولىٰ[3]. من هنا كان الأنبياء يبادرون إلىٰ إبداء معجزاتهم. ولم يتوقّع المشركون أنّ الرّسول الّذي يبعثه الله، يكون مثلهم يأكل الطّعام ويمشي في الأسواق، فكانوا ينظرون إلىٰ هذه التّصرّفات بدهشة وذهول[4]. ويجيب الله تعالىٰ هؤلاء فيقول: أوّلاً: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾[5]. ثانياً: «الرّسول يناسب من تكون له الرسالة لا من أرسله بها». ولو كان في الأرض ملائكة لكان رسولهم مَلَكاً منهم، في حين لا يمكن أن يعيش على الارض ملك كما يعيش الإنسان عليها. ﴿قُل لَوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً﴾[6]. وهبوط الملك مع الاحتفاظ بصفته المَلَكيّة ليس من مصلحة أهل الأرض: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَا يَلْبِسُونَ﴾[7]. ويشير القسم الأخير من الآية إلىٰ أنّ الرّسول حتّىٰ لو كان مَلَكاً فلا بدّ أن يكون بصورة إنسان، وهكذا تظلّ المشكلة قائمة أيضاً. وهذا صحيح

---

(١) الإسراء: ٩٣.

(٢) صٓ: ٤؛ يونس: ٢.

(٣) إبراهيم: ١٠؛ الأنبياء: ٣؛ المؤمنون: ٢٣، ٢٤؛ الشعراء: ١٥٤، ١٨٦؛ يسٓ: ١٥؛ التغابن: ٦؛ القمر: ٢٤، ٢٧.

(٤) الفرقان: ٧.

(٥) الفرقان: ٢٠.

(٦) الإسراء: ٩٥.

(٧) الأنعام: ٨، ٩.

إذ إنّ التّصوّر المذكور يمثّل مشكلة فكريّة، لكنّه أصبح ذريعةً بيد المشركين. وكان هذا بعد عرض الأدلّة الوافية لإثبات الرّسالة. قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾[1]. وينبغي أن نقول: إنّ الله تعالىٰ يصرّ علىٰ بشريّة رسوله ليُزيل كلّ تصوّر غير بشريٍّ عنه. فهو بشر فحسب ولا يأتي بمعجزةٍ إلّا بإذن الله سبحانه.

٦ ـ طلب الأمور الخارقة: في ضوء التّصوّر الّذي عرضناه في الفقرة السّابقة كان المشركون يطلبون أعمالاً خارقة. ومبدئيّاً كان على الأنبياء أن يأتوا بمعجزةٍ لإثبات رسالتهم. وأشار القرآن الكريم في طبيعة حياة الرّسل إلىٰ معجزاتهم أيضاً. من هنا لعلّنا نستطيع أن نقول: إنّ الإتيان بمعجزة من منظار القرآن كان أمراً عامّاً للأنبياء. بيد أنّ القرآن نفسه جعل العبء الأصليّ للاستدلال علىٰ رسالة النّبيّ ﷺ قائماً علىٰ آياته، وطلب من أولئك أن يتدبّروا فيها للوقوف علىٰ صحّة رسالته ﷺ. وهكذا نلحظ أنّ التّفاوت بين النّبيّ ﷺ وغيره من الأنبياء في الإتيان بمعجزة النّبوّة نابع من القرآن عينه. لكنّ المشركين كانوا يصرّون علىٰ أن يروا معجزة مادّيّة محسوسة من النّبيّ ﷺ. والله سبحانه لم تتعلّق مشيئته بذلك، كما أنّ هذا الأمر ليس من شأن محمّد ﷺ الّذي هو بشر مبعوث من الله فحسب ﴿وَقَالُوا لَن نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً[2] أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَٱلْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً﴾[3]. وجاء في موضع آخر: ﴿وَقَالُوا مَالِ هٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ

---

(١) الأنعام: ١١١.

(٢) إشارة إلى الآية التّاسعة من سورة سبأ «إنّ نشأ نخسف بهم الأرض أو نُسقط عليهم كِسَفاً من السّماء».

(٣) الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣؛ *عيون الأثر* ١: ١٩٨، ١٩٩ و٢٠١.

﴿ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً * أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾[١]. وأراد المشركون أيضاً أن يكلّمهم الله مباشرةً أو يرسل إليهم آيةً، مثلهم بذلك مثل من سبقهم من القرون الّذين طلبوا من أنبيائهم شبهَهُ. وسبب ذلك أنّهم **﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾**[٢]. وبلغ إصرار المشركين مبلغاً أمعض النّبيّ ﷺ فهدّأه ربّه سبحانه ولطّفه بقوله: **﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾**[٣]. وبعد هذه الآية طلب منه أن يتحدّىٰ بالقرآن فقال جلّ اسمه: **﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلمِ ٱللَّهِ وَأَن لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُسْلِمُونَ﴾**[٤]. وقال في موضع آخر مجيباً عن سؤال المشركين حين قالوا: **﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِن رَّبِّهِ... * أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾**[٥]. علىٰ أيّ حال نطاق هذا البحث واسع في القرآن، وهو معلَم علىٰ تكرار المشركين له. وهذا مبدئيّاً إشكال عقيم مع وجود القرآن؛ ذلك أنّ كبراء قريش الّذين كانوا يرون سذاجة مثل هذه الإشكالات، يصرّون عليها، في حين أنّ الله تعالىٰ يشهد أنّهم لا يفكّرون بالإيمان: **﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلآيَاتُ عِندَ ٱللهِ وَمَايُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾**[٦]. وكم ذكر سبحانه أنّهم يُعرضون عن كلّ آية يرونها[٧]، ويستهزئون ويسخرون منها[٨]، ولا يؤمنون بها[٩].

---

(١) الفرقان: ٧، ٨؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٣٩٥.

(٢) البقرة: ١١٨؛ وانظر: الأنعام: ٣٧؛ الرعد: ٧، ٢٧؛ يونس: ٢٠؛ طه: ١٣٣؛ الشّعراء: ١٥٤.

(٣) هود: ١٢.

(٤) هود: ١٣، ١٤.

(٥) العنكبوت: ٥٠، ٥١.

(٦) الأنعام: ١٠٩.

(٧) الأنعام: ١٢٤.

(٨) الصّافّات: ١٤.

(٩) الأعراف: ١٤٦؛ الأنعام: ٢٥.

وأورد الشّاميّ ما جرىٰ بين النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وبينهم في فصل خاصّ مفصّلاً[١].

٧ ـ جبريّة المشركين: الكلام الآخر الّذي نُقل عن المشركين في سبب كفرهم بالله هو أنّ الله سبحانه كتب عليهم أن يكونوا عبدةَ أصنام. وحينئذٍ فإيمانهم وكفرهم ليسا بأيديهم فيقرّروا ما يريدون. ﴿**وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيءٍ كَذٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ**﴾[٢]. ﴿**وَقَالُوا لَوْ شَاءَ ٱلرَّحْمٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَا لَهُم بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ**﴾[٣]. ومن المحتمل أنّ الالتزام بعقيدة الجبر مأخوذ من العقائد الّتي كانت سائدة في العصرالجاهليّ بيد أنّنا نحتمل أيضاً أنّهم عرضوا هذا الكلام لإصرار القرآن الكريم علىٰ أنّ الله هو الّذي يهدي من يشاء من النّاس. وفي هذه الحالة ينبغي أن نقول إنّه يستشفّ من الآيتين المذكورتين أنّ الله تعالىٰ لا يقبل تأويل الجبر ممّا قاله في الهداية. ففي أمرها يقع علىٰ عاتق النّاس قسم من القرار بشأنها، والقسم الآخر يتعلّق باللطف الإلهيّ. وأكّد القرآن الكريم أنّ الله تعالىٰ ترك للإنسان اختيار طريق الفجور أو التّقوىٰ[٤]. وهكذا فالانسان بنحو من الأنحاء، والله تعالىٰ بنحو آخر شريكان في تحديد طريق الهداية. علماً أنّ دور الإنسان يكمن في القدرة الّتي ألهمها الله إيّاه. وصارت عقيدة الجبر في العهود المتأخّرة من المباحث الكلاميّة الإسلاميّة المهمّة، وكان لها تأثيرها الوافر في الحياة الاجتماعيّة والسّياسيّة للمسلمين.

٨ ـ التمسّك بالسنن القبليّة: كانت الحياة القبليّة قائمةً علىٰ رعاية سنن الآباء والأجداد والقيم المرتبطة بماضي القبيلة. ودعم هذه السّنن مهمّة ضروريّة تقع علىٰ عاتق أفراد القبيلة جميعهم ذلك أنّ الرّوح المسيطرة على القبيلة امتدّت وضمنت حياة

---

(١) *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٢: ٤٥١ ـ ٤٥٩.
(٢) النّحل: ٣٥؛ الأنعام: ١٤٨.
(٣) الزّخرف: ٢٠.
(٤) الشّمس: ٧ ـ ٩.

القبيلة بالمحافظة علىٰ هذه السّنن. وصواب السّنّة أو سقمها يعودان إلىٰ أنّها كانت موجودة أو معدومة في ماضي القبيلة وحياتها. ومن الطّبيعيّ أنّ من يتحرّك خلافاً لتلك السّنن، ويعدّها باطلةً، ويُضلّل طريق آبائه وأجداده فإنّه يشكّل خطراً حقيقيّاً للقبيلة ونظامها. ينطبق هذا الأمر بخاصّة على النّبيّ ﷺ الّذي كان يسعىٰ من أجل تغيير التّركيبة القبليّة وإنشاء نظام واحد قائم على الاعتقاد بإلٰهٍ واحد وقِيَمٍ واحدةٍ. وفي ضوء الرّؤية المسيطرة على المجتمع الجاهليّ يكفي في رفض دينه تضليلُه آباء المشركين وأجدادهم. وفي المفاوضات الّتي جرت بين أبي طالب والمشركين كان من قلق المشركين أنّ النّبيّ ﷺ ضلّل آباءهم وقال إنّهم في النّار[١]. وعندما كان يذهب النّبيّ ﷺ بين القبائل ويدعوهم إلى الإسلام، كان أبو لهب يقول: هذا الرجل يريد منكم أن تتركوا دين آبائكم[٢]. ونقل القرآن الكريم هذا الموضوع عن المشركين في موقفهم من هود ﷺ: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾[٣]. ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُهْتَدُونَ * وَكَذٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِن نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُقْتَدُونَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُم قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾[٤]. وطُرح هذا الموضوع في آيات أُخرىٰ أيضاً، وأجاب القرآن أنّهم ينبغي ألّا يتّبعوا آباءهم الضالّين الّذين لا يعقلون[٥]. وفي هذا الاتّجاه، كانت عضويّة الفرد في القبيلة ـ بالمواصفات المعروفة للقبيلة ـ تجعل إسلامه متعذّراً إلىٰ حدٍّ ما. فقد قال أحد المشركين من بني المصطلق للنّبيّ ﷺ مرّةً: لا أدين بدينك حتّىٰ أرىٰ ماذا يفعل قومي. فإذا أسلموا أُسلم وإلّا فإنّي واحد منهم[٦].

---

(١) انظر: *أنساب الأشراف* ١: ١٢٨، ١٤١. (٢) *عيون الأثر* ١: ٢٥٧.

(٣) الأعراف: ٧٠. (٤) الزّخرف: ٢٢ ـ ٢٤.

(٥) المائدة: ١٠٤؛ البقرة: ١٧٠. (٦) *المغازي* ١: ٤٠٦.

٩ ـ مصارعة الحقّ: التبريرات الفكريّة والاجتماعيّة غطاء للمآرب الباطنيّة وحبّ الدّنيا. ويحاول الإنسان فراراً من التّوحيد أن يتملّص من عبادة الله ويجعل لنفسه هيمنة يستحوذ بها علىٰ الآخرين، إذ لعبادة الله تبعات كثيرة في الحياة الدّنيا من الوجهة الرّوحيّة. ومن منظار القرآن الكريم، كان المشركون يستهدفون رفض ولاية الله واستبدال ولاية الطّاغوت بها. وهذا الهدف نابع من توجّهاتهم المطمعيّة والاستعلائيّة وليس له أيّ أرضيّة عقليّة فكريّة. وكانوا ينكرون معجزة موسىٰ عليه السلام في حين كانوا يبطنون الاعتقاد بها. قال تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[١]. ويؤكّد القرآن الكريم أنّ الحسّ الاستعلائيّ لمشركي مكّة هو الحائل دون إيمانهم. فقد كانوا يزعمون الإلوهيّة والاستكبار في مقابل التّوحيد. قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ ءَإِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾[٢]. وهكذا لم يطق المشركون دعوة التّوحيد ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾[٣]. وهذا هو الاستكبار نفسه ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ آيَاتِ اللهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً أُولٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[٤]. وحبّ الدّنيا من ضرورات الحسّ الاستعلائيّ وحبّ المزيد أيضاً. وقد ذمّ الإسلام المشركين وعنّفهم لتعلّقهم الشّديد بالدّنيا. والحياة الدّنيا من منظار القرآن الكريم لا يمكن أن تكون أساساً يُركَن إليه، كما لا يتيسّر الاستمتاع بها إلّا للآخرة ومصلحتها، وإلّا فهي لغوٌ وعبث. وقد شقّ على المشركين هذا الموقف القرآنيّ. وحين كانوا يسمعون آيات القيامة كانوا يتأفّفون من القرآن ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

---

(١) النّمل: ١٤.　(٢) الصّافّات: ٣٥، ٣٦.

(٣) الشّورىٰ: ١٣.　(٤) الجاثية: ٧ ـ ٩.

بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾[١]. وكانوا يعتقدون أنّهم لا يُعذّبون ثقةً منهم بأموالهم وأولادهم. وقد ذمّهم الله سبحانه وقرّعهم فقال: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ * ٱلَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾[٢]. ﴿ٱعْلَمُوا أَنَّمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلأَمْوَالِ وَٱلأَوْلَادِ﴾[٣]. وعلىٰ أيّ حال، كان الباعث الأصليّ للمشركين علىٰ مخالفتهم هو استكبارهم وحبّ المزيد في نفوسهم، وهو ما أُشير إليه في آيات أُخرىٰ أيضاً. قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِى آيَاتِ ٱللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[٤].

ردّ فعل المسلمين حيال أذى المشركين

كان طبيعيّاً أنّ بين كثير من المسلمين الّذين تحمّلوا ألوان العذاب أفراداً لم يطيقوا العذاب والاضطهاد. وهؤلاء لم يثبتوا في التّعذيب الّذي كان يُمارَس ضدّهم. لذا كانوا يعبّرون عن ندمهم وارتدادهم. وبينهم من كان يتّقي، ويُخفي عقيدته في التّوحيد، بيد أنّ بعضهم كان يرتدّ بشكل جادّ. وتدلّ أخبار السّيرة على الموقفين كليهما. وأسلوب التّقيّة كان أسلوباً منطقيّاً لمن لا يرىٰ في نفسه طاقةً على الصمود، لكنّه كان يعتقد بالدّين. وإن كنّا نستطيع أن نقول: من الوجهة الدينيّة يتسنّىٰ حتّىٰ للأشخاص الّذين كانت لهم قدرة على الصّمود أن يفيدوا من هذا الأُسلوب الشّرعيّ. وكان هناك أشخاص قد عرّضوا أنفسهم للسّجن، والتّعذيب، والاستشهاد أحياناً من خلال صمودهم. وشاع في كتب السّيرة اصطلاحان في هذه المواقف. أحدهما: «الفتنة»،

---

(١) الزمر: ٤٥.　　(٢) الهمزة: ١ ـ ٣.

(٣) الحديد: ٢٠.　　(٤) المؤمن: ٥٦.

والآخر «الاستضعاف». واستعمل كتّاب السِّيَر الاصطلاح الأوّل بشأن الظّروف العصيبة الّتي أوجدها المشركون واستغلّوها لإعادة المسلمين إلى الشّرك[١]. وكان عنوان الاستضعاف يُطلَق على المسلمين الّذين كانوا عرضةً لهذه الظّروف، وكانوا يعانون من ضغط المشركين، ويُهدّدون بترك عقائدهم التّوحيديّة[٢]. وكان الأشخاص الّذين يعيشون في مكّة عادةً إمّا من الأشراف الّذين يشكّلون رؤساء القبائل وأثريائها ووجهائها ممّن كانوا يتمتّعون بوضع ماليّ اعتياديّ، أو من الضعفاء والمعدمين. وكان المشركون يهدّدون الأشراف بإذلالهم وقذفهم بالحماقة والسّفاهة، ويهدّدون الأثرياء بإكساد تجارتهم وتبديد أموالهم، ويضطهدون الضّعفاء، ويحرّضون الآخرين ضدّهم أو يخدعونهم[٣]. وهذا التّعذيب ـ كما نقل ابن عبّاس ـ كان علىٰ درجةٍ لم يكن للمسلمين حيلة معها في ترك الإسلام.

وكانوا يضربون الضّعفاء ويعطّشونهم ويجوّعونهم حتّىٰ لم يقووا على الجلوس. ثمّ يطلبون منهم أن يعتقدوا باللات والعُزّىٰ بدل الله. وكانوا يكرهونهم علىٰ أن يقولوا إنّهم لا يرضون الله إلٰهاً لهم، ويرضون هبل[٤]. وكان النّظام القبليّ يفرض علىٰ أشراف كلّ قبيلة أن يعذّبوا من أسلم منهم، إذ ليس للقبائل الأُخرىٰ أن تضيّق على المسلمين من سائر القبائل.

---

(١) قيل: إنّ تعبير «فتنة النّاس» في الآية العاشرة من سورة العنكبوت بهذا المعنىٰ. انظر: ***مجمع البيان*** ٧: ٢٧٣.

(٢) يقول عروة في صهيب: كان من المستضعفين، ومن المؤمنين الّذين عُذّبوا في سبيل الله؛ ***أنساب الأشراف*** ١: ١٨١؛ وانظر: ص١٨٥ حول بلال، وص١٩٤ حول عامر بن فُهيرة؛ وانظر أيضاً: ***سبل الهدىٰ والرّشاد*** ٢: ٤٨٠. وجاء في عمّار بن ياسر ما نصّه: «كان عمّار بن ياسر من المستضعفين الّذين يُعذّبون بمكّة ليرجع عن دينه. ***الطّبقات الكبرىٰ*** ٣: ٢٤٨.

(٣) ***سيرة ابن هشام*** ١: ٣٢٠؛ ***أنساب الأشراف*** ١: ١٩٨.

(٤) ***السّيرة النّبويّة***، ابن هشام ١: ٣٢٠؛ ***أنساب الأشراف*** ١: ١٩٧؛ ***السّيرة النّبويّة***، الذهبيّ: ٢١٩.

يقول ابن إسحاق: قامت كلّ قبيلة بإيذاء من أسلم منها، وحبسوهم أو عذّبوهم، وجوّعوهم وعطّشوهم. وكانوا يجعلونهم على الرمضاء في شدّة الحرّ. فارتدّ عن دينه من كان ضعيفاً منهم، ومات بعضهم، وبعضهم الآخر قد أمن منهم[١]. وجاء في خبر آخر أنّه لمّا انتشر الإسلام بين رجال مكّة ونسائها قامت قريش بحبس عدد منهم، وخديعة عدد آخر[٢]. وكان بلال يعذّب علىٰ يد أميّة بن خلف[٣]. وكانت امرأة من إماء بني عديّ تُعذَّب علىٰ يد عمر بن الخطّاب الّذي كان مشركاً يومذاك[٤]. وعُذِّب عمّار وأبواه واضطهدوا علىٰ يد بني مخزوم الّذين كانوا يعذّبونهم تحت حرارة الشّمس. واستُشهدت الأمّ التي صمدت علىٰ إسلامها[٥] ونالت وسام أوّل شهيدةٍ في الإسلام[٦]. وكان أشخاص من بني مخزوم يطلبون من هشام بن الوليد أن يأذن لهم بالضّغط علىٰ أخيه الوليد بن الوليد لأنّهم كانوا يحتملون انتشار الإسلام بين بني مخزوم. فأذن لهم، لكنّه قال لهم: عذّبوه وحده وإيّاكم أن تُزهقوه، لأنّي سأقتل أشرفكم ثأراً له، فتركوه وذهبوا خشية أن يموت في التّعذيب[٧].

وهذا يدلّ علىٰ أنّ النّظام القبليّ كان يشعر بالمسؤوليّة حيال تعذيب الّذين

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٣١٧. (٢) نفسه ١: ٢٩٤.

(٣) انظر: *أنساب الأشراف* ١: ١٨٤ للاطّلاع علىٰ أسلوب تعذيبه إذ كانوا يمدّونه على الرّمضاء ويضعون الحجر علىٰ صدره؛ وعلّقوا في عنقه حبلاً وأعطوه الصّبيان ليجرّوه بين جبال مكّة. *أنساب الأشراف* ١: ١٨٥. يقول بلال: تركوني ظامئاً يوماً كاملاً ثمّ أضجعوني علىٰ حجارةٍ حارّة. *أنساب الأشراف* ١: ١٨٦؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٢: ٢٧٧.

(٤) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٣١٩؛ *أنساب الأشراف* ١: ١٩٥؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٢: ٤٨٢.

(٥) انظر: *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٣٢٠.

(٦) *أنساب الأشراف* ١: ١٥٨؛ *السّيرة النّبويّة*، الذّهبيّ: ٢١٨؛ *دلائل النّبوّة* ٢: ٢٨٢؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٢: ٤٨١.

(٧) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٣٢١؛ *السّيرة النّبويّة*، الذّهبيّ: ٢١٩.

يسلمون من القبيلة والمحافظة علىٰ أرواحهم في آنٍ واحد. ونصّ أصحاب السِّيَر علىٰ أنّ التّعذيب كان يُمارَس بحقّ من لا دعم لهم من إحدى القبائل (عُذِّب قومٌ لا عشائر لهم ولا مانع)[١]. ونحن نعلم أنّ هؤلاء يشكّلون عدداً كبيراً من الصّحابة. وكان أبو سفيان يقول: إنّ أكثر أصحاب محمّد صلى الله عليه وآله من النّساء والضّعفاء[٢]. فمن الطّبيعيّ أنّ كثيراً من الصّحابة الّذين كانوا من هذه الشّريحة تعرّضوا لضغط الأشراف واضطهادهم. وكانت آثار التّعذيب شديدة إلىٰ درجة أنّها تظلّ باديةً عدد سنين كما كانت في ظهر عمّار بن ياسر[٣] الّذي تظاهر بالتخلّي عن التّوحيد بعد استشهاد أُمّه وتحمّل الأذى الكثير. ونقل أصحاب السّير والمحدِّثون أنّ الآية السّادسة والمئة من سورة النّحل نزلت في جواب سؤاله الّذي طرحه على النّبيّ صلى الله عليه وآله حول صواب موقفه أو عدم صوابه[٤]. ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ ٱللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٥]. وموقف عمّار المذكور عُرف بعد ذلك بالتّقيّة. وهذا الاصطلاح مأخوذ من الآية الثّامنة والعشرين من سورة آل عمران: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾.

ولم يقتصر هذا الموقف علىٰ عمّار وحده بل اتّخذه جمع من المسلمين أيضاً. ونصّ ابن الجوزيّ علىٰ أنّ المسلمين كانوا يُخفون إيمانهم إلّا من ذهب منهم إلى الحبشة[٦].

---

(١) *أنساب الأشراف* ١: ١٩٧؛ وانظر: شرح *نهج البلاغة*، ابن أبي الحديد ١٣: ٢٥٥.

(٢) *المصنّف*، ابن أبي شيبة ٧: ٣٤٧.

(٣) *أنساب الأشراف* ١: ١٥٨. وكذلك خبّاب بن الأرتّ، انظر: *أنساب الأشراف* ١: ١٧٧؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٢: ٤٨١.

(٤) *أنساب الأشراف* ١: ١٥٩، ١٦٠؛ يقول: أمر رسول الله صلى الله عليه وآله عمّاراً أن يفعل ذلك مع المشركين ليتخلّص منهم.

(٥) النّحل: ١٠٦.

(٦) *المنتظم* ٢: ٣٧٤.

وحين أسلم مصعب بن عمير أخفىٰ إسلامه علىٰ أبويه وقومه، ولمّا أُخبر أهله بإسلامه حبسوه إلىٰ أن هاجر إلى الحبشة[١]. وتعرّض خالد بن سعيد للتّعذيب أيضاً حتّىٰ هاجر إلى الحبشة[٢]. وممّن كتم إسلامه في مكّة سهيل بن بيضاء[٣] ونعيم بن عبد الله بن أُسيد[٤]. وكان عبد الله بن سهيل بن عمرو من المهاجرين إلى الحبشة، وبعد هجرة النّبيّ ﷺ إلى المدينة جاء إلىٰ مكّة ليذهب إلى المدينة، فحبسه أبوه. وأظهر الارتداد، وكان يقسو على المسلمين ويعنف بهم، إلىٰ أن ذهب معهم إلىٰ غزوة بدر، وعندما تقابل الجيشان لحق بالمسلمين قبل نشوب القتال، فغضب عليه أبوه بشدّة[٥]. وأُسر سهل بن بيضاء أيضاً وكان قد شهد بدراً مع المشركين مكرَهاً. وشهد عبد الله ابن مسعود علىٰ أنّه رآه يصلّي في مكّة. من هنا استُثني من دفع الفدية[٦].

وكان سجن المسلمين من أساليب المشركين الشّائعة في تعاملهم مع المسلمين. علماً أنّه لم تكن في مكّة حكومة فيكون لها سجن عامّ. لذا كان الشّخص يُسجَن في مكانٍ من بيته بواسطة أبيه أو قومه. وكان أبو جندل الابن الآخر لسهيل بن عمرو سجيناً عند أبيه، واستطاع أن يتخلّص من قيده ويأتي إلى النّبي ﷺ في إرهاصات صلح الحديبيّة، ولكن لمّا انعقد الصّلح (السّنة السّادسة للهجرة) أُعيد إلىٰ مكّة[٧]. ومزيّة الحبس من منظار المشركين أنّ من يُسلم من القبيلة في الوقت الّذي يسلم فيه من القتل لا يستطيع الذّهاب عند النّبيّ ﷺ أيضاً. والمسلمون الّذين عادوا من الحبشة تعرّضوا للسّجن نوعاً ما[٨]. وسبق أن ذكرنا أنّ البعض قد ارتدّ عن الدّين

---

(١) *الطّبقات الكبرىٰ* ٣: ١١٦.

(٢) نفسه ٤: ٩٥.

(٣) نفسه ٤: ٢١٣.

(٤) نفسه ٤: ١٣٨.

(٥) *أنساب الأشراف* ١: ٢١٩، ٢٢٠.

(٦) *أنساب الأشراف* ١: ٢٢٥.

(٧) نفسه ١: ٢٢٠.

(٨) نفسه ١: ٢١٥. وفيه نموذجان: أحدهما هشام أخو عمرو بن العاص، الّذي كان سجيناً حتّىٰ بعد موت ⇐

الجديد بسبب ما لاقاه من الأذىٰ. وذكر الكلبيّ عدداً من أشراف مكّة الّذين أسلموا ثمّ ارتدّوا. وفيهم سلمة بن هشام، والوليد بن الوليد بن المغيرة[١]. وكان ابن عبّاس يرىٰ ذلك التّعذيب علىٰ درجةٍ لا مناص معها من ارتداد البعض[٢]. وذُكر عيّاش بن أبي ربيعة في عداد مَنْ فُتنوا وارتدّوا عن دينهم[٣]. وذهب المقريزيّ إلىٰ أنّ عدد الّذين ارتدّوا عن الإسلام خمسة، وهم أبو قيس بن المغيرة، وأبو قيس بن فاكه بن المغيرة، والعاص بن منبّه، والحارث بن زمعة، والوليد بن المغيرة[٤].

ويستشفّ ممّا حدث في تلك السّنين أنّ مقاومة المسلمين كانت بجدٍّ ضمن بقاء الإسلام في مكّة. ومن أمثلة ضغوط المشركين أنّ العاص بن وائل لم يدفع دَيناً عليه إلّا أن يرجع الدّائن عن الإسلام، لكنّ الدّائن لم يفعل[٥]. وذكر المؤرّخون أنّ آيةً نزلت في وصف المؤمنين الصّامدين وهي قوله تعالىٰ: ﴿**وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا فِى ٱللهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُم فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ۞ (من المحتمل أنّ المقصود هو الهجرة إلى الحبشة لأنّ سورة النّحل مكّيّة) **ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾[٦]. وذهب الطّبرسيّ إلىٰ أنّ الآية المذكورة نزلت في بلال، وخبّاب،

⇐ أبيه. وتمكّن من اللحاق بالنّبيّ ﷺ بعد غزوة الخندق. وعبّر عنه البلاذريّ في ص١٩٧ أنّه أحد الأشراف الّذين أسلموا ثمّ ارتدّوا.

(١) *أنساب الأشراف* ١: ١٩٧.

(٢) نفسه ١: ١٩٧.

(٣) *مجمع البيان* ٧: ٢٧٢ نقلاً عن الكلبيّ؛ انظر: *أنساب الأشراف* ١: ٢٢٠؛ قيل: إنّ الآية العاشرة من سورة العنكبوت نزلت فيه.

(٤) *إمتاع الأسماع* ١: ٢٠. يقول المصحّح في الهامش: وصحيحه ما جاء في سيرة ابن هشام انّه عليّ بن أُميّة بن خلف.

(٥) *دلائل النّبوّة* ٢: ٢٨٠، ٢٨١؛ *صحيح البخاريّ* ٣: ١٥٧، ١٥٨.

(٦) النّحل ٤١، ٤٢؛ وانظر: *أنساب الأشراف* ١: ١٥٨، ١٥٩. ويحوم حولها الشّكّ في أنّ قسماً منها مكّيّ، وقسماً آخر مدنيّ.

وصهيب، وعمّار. وعندما كان عمر يعطي أحداً من هؤلاء المهاجرين عطاءً يقول: خذ هذا ما وعدك الله في الدّنيا...[١].

وكان تهديد المشركين الجادّ سبباً في تفكير النّبيّ ﷺ بحيلة أخرىٰ لإنقاذ المؤمنين وإيمانهم، فكانت الهجرة إلى الحبشة.

الهجرة إلى الحبشة

يطرح عدد من القضايا حول هجرة طائفةٍ من المسلمين إلى الحبشة. وقبل كلّ موضوع ينبغي أن نعلم بأنّ المؤرّخين أجمعين سمّوا هذه الحركة هجرةً. والمنطلق في ذلك هو أنّ القرآن الكريم ذكرها بهذا الاسم أيضاً في الآية الحادية والأربعين من سورة النّحل المكّيّة المشار إليها سابقاً، وكذلك سمّاها النّبيّ ﷺ.

١ ـ سبب الهجرة

حين تحدّث جعفر بن أبي طالب أمام النّجاشيّ ذكر أنّ سبب الهجرة هو ضغط المشركين على المسلمين ليردّوهم عن دينهم[٢]. يقول الزّهريّ: (لمّا كثر المسلمون وظهر الإيمان وتُحُدّث به ثار ناس كثير من المشركين من كفّار قريش بمن آمن من قبائلهم فعذّبوهم وسجنوهم وأرادوا فتنتهم عن دينهم. فقال لهم رسول الله ﷺ: «تفرّقوا في الأرض» فقالوا: أين نذهب يا رسول الله؟ قال: «هاهنا» وأشار إلى الحبشة... فهاجر ناس ذوو عدد من المسلمين منهم من هاجر معه بأهله، ومنهم من

---

(١) *مجمع البيان* ٥: ٣٦١.

(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٣٣٦. وكان من المسلمين من عانىٰ من تعذيب المشركين حتّىٰ هاجروا، انظر: *الطّبقات الكبرىٰ* ٤: ١٢٣.

هاجر بنفسه، حتّىٰ قدموا أرض الحبشة)[١]. ونقل رواة السّيرة هذه النّقطة أيضاً وأكّدوا أنّ السّبب الأصليّ للهجرة إلى الحبشة إنقاذ المسلمين من أذى المشركين والمحافظة علىٰ إيمانهم. وبرّر عروة بن الزبير ضرورة هذه الهجرة من خلال الإشارة إلى ارتداد بعض المسلمين في أجواء التّعذيب والاضطهاد[٢]. وكلام ابن إسحاق هو أنّ رسول الله ﷺ كان مصوناً من أذى المشركين بلطف الله تعالىٰ ودعم عمّه، بيد أنّ أصحابه كانوا في ورطةٍ ولم يقدر أن يدافع عنهم، لذا أمرهم بالهجرة إلى الحبشة. فذهبوا إليها خوفَ الفتنة ـ الرجوع إلى الصّنميّة ـ وفراراً إلى الله تعالىٰ من أجل حفظ دينهم، فكانت هذه الهجرة أوّل هجرة في الإسلام[٣]. وقال رسول الله ﷺ: اللهمّ اقبل هجرة أصحابي ولا ترجعهم إلىٰ جاهليّتهم[٤].

ويبدو متعذّراً أنّ نخال لرسول الله ﷺ هدفاً آخر من الهجرة في تلك الظّروف. لكنّا نستطيع الإشارة إلىٰ موضوع يرتبط بوقائع مكّة وهو أنّ استمرار هذه الوقائع ووجود المسلمين فيها يمكن أن يؤدّيا إلى اصطدام المسلمين بالمشركين. وهذا أمر كان يتوقّاه النّبيّ ﷺ. فخروج أكثر من ثمانين مسلماً من مكّة يخفّف من حدّة هذا التّوتّر[٥]. مضافاً إلىٰ أنّ قريشاً تشعر بخطرٍ أقلّ في الظّروف الجديدة. وصحيح أنّ ذهاب المهاجرين ينطوي على امتهان لهم، بيد أنّ غياب هذا العدد من المسلمين يقلّص من شدّة حسّاسيّتهم، فيتعاملوا مع عدد أقلّ من المسلمين.

---

(١) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٢٠٤؛ ووردت الصّورة التّامة لكلام الزّهريّ المأثور عن أمّ سلمة، وهي نفسها من المهاجرين، في *دلائل النّبوّة* للبيهقيّ ٢: ٣٠١؛ وانظر: **عيون *الأثر*** ١: ٢٠٩.

(٢) **مغازي *عروة بن الزّبير***: ١٠٤؛ *الدّرر*: ٢١.

(٣) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٣٢٠؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٢: ٤٨٥.

(٤) *أنساب الأشراف* ١: ٢٢٢.

(٥) جاء في **خلاصة** *(سيرة رسول الله ﷺ)*، ص٦٩، ٧٠: لمّا كان السّيّد ﷺ يرى الصّحابة يعانون من عذاب الكافرين، ولم تنزل آية القتال بعد، أذن لهم بالتّوجّه إلى الحبشة.

وتمثّل الموضوع الآخر في أنّ الإسلام كان مهدّداً في مكّة. من هنا كان محتملاً أن يتعرّض المجتمع الإيمانيّ الصّغير إلىٰ ضغطٍ شديد يمارسه المشركون ضدّهم فيفضي إلىٰ فنائهم وإبادتهم ألبتة. فكان إشخاص جمع من المسلمين إلىٰ بيئة نائية، وفيهم مشاهير كجعفر بن أبي طالب، وعثمان بن مظعون، خطوة وقائيّة لصدّ هذا الخطر المحتمَل. علماً أنّ مثل هذه الفكرة لم ترد في النّصوص التّاريخيّة، لكنّ هناك دليلاً قويّاً علىٰ صحّتها. وعندما هاجر المسلمون مع نبيّهم ﷺ إلى المدينة، كان عدد من مهاجري الحبشة، بخاصّة قائدهم جعفر، لم يزالوا في الحبشة. وإنّما أمرهم النّبيّ ﷺ أن يعودوا إلى المدينة بعد صلح الحديبيّة حين حصل الإسلام علىٰ ضمان قاطع لحفظ كيانه، في حين أنّ المدينة كانت قبل ذلك بحاجة ماسّة إلىٰ طاقة بشريّة. من جهة أُخرىٰ ينبغي التنبيه علىٰ أنّ جميع المهاجرين لم يكونوا في عداد المستضعفين فيستطيع المشركون إيذاءَهم. ومثال ذلك جعفر نفسه إذ كان في كنف أبي طالب. وثمّة نماذج أخرىٰ نحو الزّبير، وعثمان، وعبد الرحمٰن بن عوف[١]. من هنا فإنّ إشخاصهم لا يمكن أن يكون للخلاص من أذى المشركين فحسب، وإن كان الذّهاب إلىٰ مكان طلقٍ بعيدٍ عن الذّلّ الّذي عانوا منه في مكّة يروقهم كثيراً. والتخلّص من الظّلم والذّلّ أساساً لا بدّ أن يُعَدّ أحد الأدلّة الأصليّة علىٰ تيك الهجرة. وأشار سبحانه وتعالىٰ في سورة النّحل إلىٰ هجرة هي هجرة الحبشة لا محالة بسبب مكّيّة السّورة المذكورة. قال تعالىٰ: ﴿ **وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا فِى ٱللهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُم فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾[٢]. وأنشد عبد الله بن الحارث وهو أحد المهاجرين شعراً في هذا المجال

---

(١) ذهب القاضي عبد الجبّار إلىٰ أنّ ذهاب عثمان، والزّبير، وجعفر كان بسبب الظّروف العصيبة في مكّة. **تثبيت دلائل *النّبوّة***: ٣٥٠.

(٢) النّحل: ٤١. وتحدّثت الآية ١١٠ عن الهجرة والجهاد. ومن المحتمل أنّها هجرة المدينة. وهذا لا ينسجم ⇐

قال فيه:

كلّ امرئٍ من عباد الله مضطهَدٌ ببطنِ مكّة مقهورٍ ومفتونِ

إنّا وجدنا بلاد اللهِ واسعةً تُنجي من الذّلِ والمخزاة والهونِ[١]

والتأكيد أنّ بعث النّبيّ ﷺ تلك الجماعة للتبليغ كسببٍ للهجرة لا مجال له هنا، بل يمكن أن يمثّل نتيجةً للهجرة فحسب. والحريّ بالعلم أنّ الحبشة لم تجرّب الإسلام لقرون، وما هم إلّا التجّار المسلمون الّذين نشروا الإسلام فيها إلىٰ حدٍّ ما في القرون اللاحقة.

٢ ـ تاريخ الهجرة

وترتبط هذه القضيّة ـ إلىٰ حدٍّ ما ـ بعدد المرّات التي كانت فيها الهجرة وزمانها، فكم كان عددها؟ ومتىٰ كان كلّ منها؟ والمعلومات التّاريخيّة الّتي تبنّاها المؤرّخون المتأخّرون نسبيّاً تُنبئ أنّ الهجرة إلى الحبشة كانت مرّتين، الأولىٰ منهما في رجب من السّنة الخامسة للبعثة، وهاجر فيها قرابة اثني عشر إلىٰ سبعة عشر رجلاً وامرأةً على اختلاف الأخبار. وجاء في هذا الخبر أنّهم لبثوا هناك شهر شعبان ورمضان إلىٰ أن حدثت واقعة السّجدة أو ما تُسمّىٰ بحادثة الغرانيق (يرجى الالتفات إلىٰ تتمّة الحديث)، فعادوا حين سمعوا إسلام المكيّين. لكنّهم لمّا لحظوا خللاً في إسلام أشراف مكّة دخلوا المدينة على كُرهٍ، وبعد مضيّ مدّة لم تُحدّد علىٰ وجه الدقّة، حدثت الهجرة

⇐ مع مكّيّة السّورة إلّا أن يكون قسماً منها أو الآية المذكورة مدنيّاً. وثمّة أقوال تذهب إلىٰ مدنيّة قسم من الآيات. انظر: **مجمع البيان** ٦: ٣٤٧.

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٣٣١؛ *السّيرة النّبويّة*، الذّهبيّ: ١٨٥. وذهب في شعر آخر له إلىٰ أنّ هذه الخطوة تمثّل نوعاً من الإبعاد القسريّ الّذي مارسته قريش، وذكر الحبشة كمحلّ يتسنّىٰ فيه عبادة ربّ محمّد ﷺ ببالٍ رخيّ.

الثّانية. وكان عدد المهاجرين فيها أكثر من ثمانين، وفيهم جعفر[١]. وهذا الخبر ذكره الواقديّ ونقله ابن سعد عنه[٢]، وتبنّاه عروة بن الزّبير أيضاً[٣]. والمشكلة الرئيسة في هذا الخبر حكاية الغرانيق الّتي قيل إنّها كانت السّبب في رجوع المهاجرين الأُوَل إلىٰ مكّة. وسنتحدّث عن هذه الحكاية مجملاً.

تحدّث ابن إسحاق في أحد عناوين كتابه عن «الهجرة الأُولىٰ». وتناول في ذيل هذا العنوان ـ الّذي لا يُعلَم علىٰ وجه الدّقّة هل هو منه أو من ابن هشام أو من شخص آخر ـ الهجرة العامّة للمسلمين البالغ عددهم ثمانين. وذهب إلىٰ أنّهم جميعاً كانوا من الّذين هاجروا إلى الحبشة في الهجرة الأولىٰ. مع هذا تابع كلامه قائلاً: [ثمّ خرج جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وتتابع المسلمون حتّى اجتمعوا بأرض الحبشة][٤]. وذكر أسماءهم ثمّ قال: إذا كان عمّار بن ياسر معهم ـ وفي ذلك شكّ ـ فهم ثمانية وثمانون. وبعد ذلك أشار إلىٰ قدوم وفد قريش لإعادة المهاجرين، وحكومة النّجاشيّ في الحبشة وخروج الأحباش عليه. ثمّ ذكر إسلام عمر، وخبر الصّحيفة، وذهاب بني هاشم إلى الشّعب، وأعقبه بخبر رجوع عدد من المهاجرين إلىٰ مكّه، وعدّد أسماءهم، ونصّ علىٰ أنّ ثلاثة وثلاثين منهم عادوا إلىٰ مكّة[٥]. وأورد ابن إسحاق هذا الخبر بعد خبر ذهاب بني هاشم إلى الشّعب ، وقبل نقله الخبر المرتبط بنقض عهد المشركين. ولو كان [مع احتمال تحريف ابن هشام] قد راعى التّرتيب التّاريخيّ للبحث لرفض الخبر المنقول عن طريق الواقديّ، الشّائع بين المتأخّرين. فهو لا يذكر حكاية الغرانيق الّتي نقلها جميع المؤرّخين المتأخّرين سبباً لعودة

---

(١) حول هذا الخبر انظر: *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٢: ٤٨٧ ـ ٤٨٩؛ *المنتظم* ٢: ٣٧٤، ٣٧٥.

(٢) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٢٠٣ ـ ٢٠٨.

(٣) *مغازي عروة بن الزبير*: ١٠٥ ـ ١١١.

(٤) انظر: *السّيرة النّبويّة* ١: ٣٢١، ٣٢٢.

(٥) نفسه ١: ٣٦٩.

المهاجرين الأُوَل[١]. وموضوع الرجوع الّذي ذكره هو رجوع ثلاثة وثلاثين مهاجراً، ولا صلة له بما قاله الآخرون في المرحلة الأولىٰ للهجرة (إذ كان المهاجرون فيها خمسة عشر كحدّ أعلىٰ) إنّ عدداً منهم قد رجع، ثمّ كانت المرحلة الثّانية للهجرة. من هنا يمكن أن نقول إنّ ابن إسحاق لا يذهب إلىٰ وجود هجرتين كما يذهب إليه الآخرون. وثمّة نقطة واحدة يتسنّىٰ لنا أن نذكرها وهي أنّ أوّل مجموعة خرجت من مكّة كانت اثني عشر أو سبعة عشر شخصاً. وبعد ذلك خرج المسلمون منها على التّوالي في مجموعات صغيرة. وكانت هجرة جعفر بعد ذهاب المجموعة الأولىٰ، ومن المحتمل احتمالاً قويّاً أنّ الفترة لم تطل بينهما. وذكر ابن إسحاق هذا الخروج التّدريجيّ[٢]. مع هذا كلّه ينبغي ألّا نخال هذا التصوّر غالطاً، وهو أنّ المدّة قد طالت بعد خروج المجموعة الأُولىٰ حتّىٰ هاجرت المجموعة أو المجموعات الأخرىٰ بالتناوب والتّدريج، إذ تحدّثت جميع المصادر بما فيها سيرة ابن إسحاق ـ ولو مجملاً ـ عن هاتين المرحلتين من الهجرة[٣]. ويشير البلاذريّ في ذيل أسماء المهاجرين إلىٰ هجرة شخص معهود في

---

(١) لم ترد الحكاية المذكورة في ***سيرة ابن هشام*** إلّا أنّ البيهقيّ نقلها في ***دلائل النّبوّة*** (ج٢، ص٢٩٦)، والطّبريّ (ج٢، ص٣٢٨) عن ابن إسحاق. ومن المحتمل أنّ ابن هشام قد حذفها. ولعلّ ابن إسحاق نفسه نقلها في إملاءٍ لكتابه، ولم ينقلها في إملاءٍ آخر. وهذا يعود إلىٰ ما قاله في بنية البحث عن الهجرة ورجوع ثلاثة وثلاثين مهاجراً ـ لا كما رآه غيره في الغرانيق كسبب لرجوع الطّائفة الأولىٰ وهجرة الطّائفة الثّانية ـ ويستبين أنّ أصل الخبر غير موجود في النّصّ الّذي وصل إلى ابن هشام من ابن إسحاق. وذكره الطّبريّ في تاريخه (ج٢، ص٣٣٨ ـ ٣٤١) نقلاً عن ابن إسحاق. وفيه أنّ الغرانيق ليست سبباً لرجوع الطّائفة الّتي كانت هاجرت في المرحلة الأُولىٰ، بل كانت قد طُرحت بعد الخروج من الشِّعب.

(٢) ***السّيرة النّبويّة***، ابن هشام ١: ٣٢٣؛ ***تاريخ الطّبريّ*** ٢: ٣٣٠، ٣٣١. ويبدو أنّ خروج هؤلاء الأشخاص كان تدريجيّاً لئلّا تعلم قريش بهم؛ انظر: ***فقه السّيرة***، الغزاليّ: ١١٥.

(٣) حول سبب هذا الإجمال انظر: ***سيرة رسول الله*** ﷺ، زرياب: ١٥٥، ١٥٦.

المرّة الأُولىٰ أو الثّانية[١]. وورد النّصّ علىٰ هجرة بعض الصّحابة في الهجرتين أيضاً[٢]. وحينئذٍ يكون القصد من الهجرة الثّانية ـ في الأقلّ ـ هو العام أو العامين أو حتّى الأعوام الثلاثة اللاحقة. ويشرح البيهقيّ واقعة الهجرة بوصفها الهجرة الثّانية إلى الحبشة نقلاً عن الواقديّ وعلىٰ لسان عبد الله بن مسعود[٣]. ويقول عبد الله بن مسعود في هذا الخبر: كان المهاجرون ثمانين، وكان معنا جعفر بن أبي طالب. وهذا الخبر كخبرٍ لا يتناول الهجرة الأولىٰ والثّانية بيد أنّ الواقديّ ذكره بوصفه المرحلة الثّانية للهجرة. والمشكلة الأُخرىٰ في تاريخ الهجرة إلى الحبشة كلام موسىٰ بن عقبة الّذي كان يرىٰ أنّ زمانها وقت دخول النّبيّ ﷺ الشِّعب مع آل عبد المطّلب[٤]. ويقول ابن عبد البرّ أيضاً: لمّا دخل رسول الله ﷺ الشِّعب أمر المؤمنين الّذين كانوا بمكّة أن يهاجروا إلى الحبشة[٥]. مع هذا ذهب المؤرّخون إلىٰ أنّ السّنة الخامسة للبعثة هي سنة الهجرة إلىٰ الحبشة. وهل يمكن أن تتمّ المرحلة الثّانية من الهجرة في الأيّام الأُولىٰ من دخول النّبيّ ﷺ الشِّعب بعد مضيّ مدّة من ذهاب مجموعة تتراوح بين عشرة إلىٰ خمسة عشر شخصاً؟ ومن الضّروريّ أن نذكّر بأنّ المشركين كتبوا الصّحيفة وفرضوا الحصار علىٰ بني هاشم في الشِّعب بعد أن رأوا أمن المسلمين وطمأنينتهم في الحبشة.

٣ ـ اختيار الحبشة

لماذا أمر النّبيّ ﷺ المسلمين بالهجرة إلى الحبشة لا إلىٰ مكان آخر؟ والجواب نجده في كلام منسوب إلى النّبيّ ﷺ، جاء فيه أنّ في الحبشة ملكاً لا يظلم أحداً، وهي أرض صدق[٦]. وذكر المؤرّخون أنّ الحبشة كانت من المراكز الّتي تقصدها

---

(١) *أنساب الأشراف* ١: ١٩٨ ـ ٢٢٧.

(٢) *الطّبقات الكبرىٰ* ٣: ٨٤.

(٣) *دلائل النّبوّة* ٢: ٢٩٨.

(٤) نفسه ٢: ٢٨٥.

(٥) *الدّرر*: ٢٧.

(٦) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٣٢١.

قريش للتّجارة(١). ومن الطّبيعيّ أنّها كانت بلدةً معروفةً وتحظىٰ بموقع ممتاز قياساً بالمناطق الأخرىٰ وحكّامها. وثبت هذا عمليّاً؛ إذ إنّ النّجاشيّ رفض إعادة المهاجرين. وتقع الحبشة (اثيوبيا الحاليّة) على الطرف الآخر من ساحل البحر الأحمر قبالة اليمن. وكانت السّفن التجاريّة تقطع هذا الطّريق، فدخلها المسلمون بواسطتها. وكلمة (الحبش) مأخوذة من اسم أمّة عرفت أرضها باسمها. ولم تتواصل فتوحات المسلمين في أفريقية فتبلغ هذه الحدود. وعلى الرّغم من نفوذ الإسلام الشّامل في أطرافها ظلّت متشدّدةً في نصرانيّتها(٢). ويرى السّمعانيّ أنّ المنسوبين إليها أحباش، ويذكرهم مع طوائف أخرىٰ كالزّنج، والنّوبة، وغيرهم. ويذهب إلىٰ أنّ بلالاً كان منهم(٣). ونحن نعلم أنّ الأحابيش سيطروا على اليمن ردحاً من الزّمن. فلا جرم أنّ منهم من بقي فيها. ومهما كان فالحبشة كانت معروفة عند المسلمين وقريش. وما كان مهمّاً للمسلمين هو أنّهم لا يُخرجَون منها. ولم تكن هذه المزيّة للشّام أو الطّائف أو غيرهما من المناطق الّتي يمكن أن تستجيب لقريش وتلبّي طلبها. وعاش المسلمون في الحبشة متنعّمين بخفض العيش. ولم ترد في المعلومات التّاريخيّة أيّ إشارةٍ إلىٰ إيذاء مسلم من المسلمين المهاجرين. بل بالعكس حظوا بدعم مطلق من النّجاشيّ علىٰ ما ذكر رواة أخبار الهجرة إلى الحبشة بخاصّة من كان متفاعلاً مع الحادثة. ولا جرم أنّ المسلمين عاشوا حياة دَعةٍ في كنف النّجاشيّ(٤). وحول عملهم فيها لدينا خبر

---

(١) *المنتظم* ١: ٣٧٤.

(٢) انظر: *معجم معالم الجغرافية في السّيرة النّبويّة*: ٩١.

(٣) *الأنساب* ٢: ١٦٧.

(٤) *دلائل النّبوّة*، البيهقيّ ٢: ٣٠١ [فنزلنا خير دارٍ والىٰ خير جارٍ آمنّا علىٰ ديننا ولم نخش منه ظلماً]. وانظر: *سيرة ابن هشام* ١: ٣٣٤؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٢: ٥١٧.

واحد فحسب، وفيه أنّ عبد الله بن مسعود وجماعة آخرين كانوا يتعيّشون. «وكان لهم سوق يبيعون ويشترون»[١].

٤ ـ مبادرة قريش وإخفاقها

وقريش، إذ حارت حيال هذه الخطوة، وشعرت بالخجل أمام الأحباش ـ علىٰ ما نحتمل بقوّة ـ عزمت على استردادهم. ومن المحتمل أنّ قريشاً كانت تخشىٰ من نفوذ الإسلام في الحبشة أيضاً. وجاء في قسم من الرّوايات التّاريخيّة أنّ عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة ذهبا إلى الحبشة موفَدَين من قريش، وورد في أخبار أخرىٰ أنّ عمرو بن العاص، وعمارة بن الوليد تولّيا هذه المهمّة. وذكر ابن سيّد النّاس في الجمع بين هذين القولين أنّ قريشاً أوفدت رجالها مرّتين، إحداهما بعد هجرتهم إلى الحبشة، والأُخرىٰ بعد غزوة بدر[٢]. والبلاذريّ الّذي وقف علىٰ تناقض الخبرين أكّد ذهاب عبد الله بن أبي‌ربيعة مع عمرو بن العاص، وأضاف أنّ عمروبن العاص وعمارة ابن الوليد ذهبا بعد ذلك إلىٰ الحبشة للتّجارة، وحدث بينهما نزاع. ومن الحريّ بالقول أنّ الجانب القصصيّ لهذا الخبر يغلب علىٰ جانبه الواقعيّ[٣]. ودخل بعض هذه القصص، كعلاقة عمارة بامرأة النّجاشيّ في القضايا المرتبطة بإرجاع مهاجري الحبشة.

علىٰ أيّ حال، لم يثمر سفر عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة مع هداياهم الكثيرة إلى الحبشة. ويعود ذلك إلىٰ وعي جعفر بن أبي طالب وشجاعته، وكان

---

(١) **دلائل النّبوّة**، البيهقيّ ٢: ٢٩٨.

(٢) **عيون الأثر** ١: ٢٠٩؛ وانظر: **مكاتيب الرّسول** ١: ١٢٦؛ ونقل في **سيرة الحلبيّ** (٢: ٢١٢) بعد الهزيمة في بدر فكّرت قريش بالثأر من المسلمين، وبإيفادها ممثّلين عنها إلى الحبشة أرادت عودتهم.

(٣) **أنساب الأشراف** ١: ٢٣٢، ٢٣٣؛ وذكر **اليعقوبيّ** في تاريخه (٢: ٢٩) ذهاب عمارة بن الوليد مع عمرو بن العاص.

النّبيّ ﷺ قد أمّره على المهاجرين[١]. وتحدّث جعفر في كلامه أمام النّجاشيّ عن سابقة الفسق والفجور والظّلم الموجود في المجتمع الجاهليّ، وذكر دور الإسلام في إخراجهم من عبادة الأصنام، والدّعوة إلى التّوحيد، والأمر بالصّدق، والأمانة، وصلة الأرحام، ورعاية حقوق الجار، وحقن الدّماء، واجتناب الفواحش وأكل مال اليتيم. ثمّ تطرّق إلىٰ دور قريش في إكراههم علىٰ ترك الإسلام، وأضاف قائلاً: لمّا جاروا علينا وضيّقوا علينا الخناق لجأنا إلىٰ بلادك لنكون في جوارك. ونرجو ألّا نظلم عندك. وحين تحدّث وفد قريش عن عقيدة المسلمين في المسيح وأمّه مريم لتحريض النّجاشيّ ضدّهم، تلا آيات من سورة مريم بطلب من النّجاشيّ نفسه. وهذه الآيات الّتي اختارها بشأن مريم وتزكيتها من تهم اليهود تركت تأثيراً عميقاً في نفس النّجاشيّ. وأعاد عمرو بن العاص كلامه حول عقيدة المسلمين في عيسىٰ ﷺ وأنّهم يقولون: هو عبد الله. فقال جعفر هنا بلا وجل: «هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلىٰ مريم العذراء البتول». فسُرّ النّجاشيّ لهذا الكلام وأيّده وقال: هذا هو الاعتقاد الصّحيح.

وذكر المؤرّخون المسلمون هذه القضيّة كقضيّة سبّبت للنّجاشيّ مصاعب معيّنة إذ يبدو أنّه كان يعاني من مشكلات سياسيّة أخرىٰ في الحبشة، وقد أُشير إليها في رواية أمّ سلمة، وفيها أنّ المهاجرين كانوا يتمنّون نصر النّجاشيّ علىٰ مناوئيه[٢]. وهذه الأخبار مفصّلة. ولمّا لم تكن لها صلة بكتابنا صدفنا عن ذكرها. ويضاف إليه أنّنا

---

(١) يقول الواقديّ: رووا لنا أنّ الأمير علىٰ مهاجري الحبشة كان جعفر بن أبي طالب. ***الطّبقات الكبرىٰ*** ٤: ٣٤.

(٢) انظر: ***سبل الهدىٰ والرّشاد*** ٢: ٥١٩ ـ ٥٢٤ [جميع الأخبار في هذه الصّفحات قد عُرضت متراكبةً] وانظر: ***سيرة ابن هشام*** ١: ٣٣٤ ـ ٣٣٨. وأضاف اليعقوبيّ (٢: ٢٩) أنّ وفد قريش قال للنّجاشيّ: إنّ هؤلاء يمكن أن يقضوا علىٰ دينك.

لا يتسنّىٰ لنا إبداء رأي جازم في تلك الحوادث بمحض وجود هذه الرّوايات.

إنّ ما ينبغي أن نقوله في النّجاشيّ هو أنّ هذا اللقب كان يُطلق علىٰ ملوك الحبشة[١]. وذكرت بعض المصادر النّجاشيّ الأوّل والنّجاشيّ الثّاني. والنّجاشيّ الأوّل هو الّذي دعم المهاجرين، وجاء في بعض المصادر الإسلاميّة أنّه أسلم. ومات قبل فتح مكّة وصلّىٰ عليه النّبيّ ﷺ وهو في المدينة. وتولّى النّجاشيّ الثّاني الأمر بعده، وهو الّذي خرق كتاب النّبيّ ﷺ حين تسلّمه[٢] وكان الكتاب الأوّل الّذي بعثه النّبيّ ﷺ يشتمل علىٰ تأييده ﷺ أنّ عيسىٰ روح الله، وتحدّث فيه عن نبوّته، وقال مواصلاً كلامه فيه: «وقد بعثتُ إليكم ابن عمّي جعفراً ومعه نفر من المسلمين؛ فإذا جاءوك فأقر ودع التجبّر وإنّي أدعوك وجنودك إلى الله عزّ وجلّ وقد بلغتُ ونصحتُ...»[٣]. ويُستشفّ من هذا الكتاب أنّه كُتب في نفس السّنة الّتي ذهب فيها المهاجرون إلى الحبشة، مع أنّ الّذي يتبيّن من نقل بعض كتّاب السِّيَر أنّه كُتب أثناء مراسلته ﷺ ملوك العالم. وما نعمله هو أنّ أبا طالب حين سمع بذهاب وفد قريش إلى الحبشة أنشد شعراً في مدح النّجاشيّ لإيوائه المهاجرين[٤].

---

(١) نقل البيهقيّ (٢: ٣١٠) عن ابن إسحاق أنّ اسم النّجاشيّ كان مصحمة، وعربيّة عطيّة. وأضاف البيهقيّ أنّ أصحم أصحّ إذ جاء في حديث جابر أنّ رسول الله ﷺ صلّىٰ على أصحمة النّجاشيّ؛ وفي *تاريخ اليعقوبيّ* (٢: ٣٠) أصحبة أيضاً.

(٢) انظر: *مكاتيب الرّسول* ١: ١٢٣، ١٢٤.

(٣) نفسه ١: ١٢١ نقلاً عن *أعلام الورىٰ*: ٣٠؛ *البداية والنّهاية* ٣: ٨٣، ومصادر أُخرىٰ. وانظر: *دلائل النّبوّة* للبيهقيّ ٢: ٣٠٩.

(٤) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٣٣٣، ٣٣٤

تعلَّم، أبيتَ اللعنَ، أنّك ماجدٌ ... كريم فلا يشقىٰ لديك المجانب

تعلّم بأنّ الله زادك بسطةً ... وأسباب خير كلها بك لازب

٥ ـ عودة المهاجرين من الحبشة

وعاد قسم من المهاجرين تدريجاً. وكان رجوعهم تدريجيّاً. وقدم عدد منهم مكّة، وتوجّه عدد آخر إلى المدينة بعد هجرة النّبيّ ﷺ إليها. ولم يُلْحَظْ في الأخبار المنقولة أنّ النّبيّ ﷺ لامَ أحداً علىٰ رجوعه. والّذين رجعوا كانوا مقسورين علىٰ تحمّل الظّروف الصّعبة لمدينة مكّة. وإذا كانوا هم الرّاغبين في الرّجوع، فلا حيلة لمن أراد. ومع هذا لم يعترض النّبي ﷺ علىٰ عودتهم إلى المدينة أيضاً، إلّا ما دلّ عليه ظاهر التّاريخ من أنّ المهاجرين الباقين كانوا ينتظرون أمره ﷺ بالرّجوع. وفي السّنة السّابعة للهجرة أمرهم بالعودة إلى المدينة. يقول الواقديّ:

«وكان عدّة من خرج في هذه الهجرة من الرّجال ثلاثة وثمانين رجلاً، ومن النسّاء إحدىٰ عشرة امرأة قرشيّة، وسبع غرائب. فأقام المهاجرون بأرض الحبشة عند النّجاشيّ بأحسن جوار. فلمّا سمعوا بمهاجَر رسول الله ﷺ إلى المدينة رجع منهم ثلاثة وثلاثون رجلاً، ومن النساء ثماني نسوة، فمات منهم رجلان بمكّة، وحُبس بمكّة سبعة نفر، وشهد بدراً منهم أربعة وعشرون رجلاً. فلمّا كان شهر ربيع الأوّل سنة سبع من هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة، كتب رسول الله ﷺ إلى النّجاشيّ كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام ... وكتب إليه أن يبعث إليه من بقي عنده من أصحابه ويحملهم»[١].

بيد أنّ رجوع المهاجرين لم ينحصر في الفترة الّتي هاجر فيها رسول الله ﷺ إلى المدينة. وتحدّث المؤرّخون الّذين ذهبوا إلىٰ أنّ الهجرة إلى الحبشة تمّت في مرحلتين عن رجوع عدد من مهاجري المرحلة الأولىٰ. وإذا كان ذلك الخبر غير صحيحٍ نوعاً ما، فإنّ عدداً من المهاجرين رجع إلىٰ مكّة بعد أن زادوا علىٰ ثمانين، وواجهوا فيها

---

(١) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٢٠٧، ٢٠٨.

بعض التّعقيدات أيضاً. وماله أهمّيّة هنا هو معرفة الباعث علىٰ رجوعهم إلىٰ مكّة، فما هو ذلك الباعث؟

قصّة الغرانيق[١]

انتشر اصطلاح «الآيات الشّيطانيّة» في جميع أرجاء العالم بعد قضيّة سلمان رشدي. وعلينا أن نتحدّث الآن عمّا نُقل حول الغرانيق أو الآيات الشّيطانيّة بإيجاز. وجاءت هذه القصّة في المصادر التّاريخيّة لتوجيه سبب رجوع المهاجرين من الحبشة، وفي المصادر التّفسيريّة عند شرح آياتٍ من سورة النّجم، وآية من سورة الحجّ. وفيما يأتي رواية محمّد بن كعب القرظيّ الّتي نقلها الطبريّ عن ابن إسحاق[٢] بواسطة يزيد ابن زياد عن القرظيّ باختصار: كان رسول الله ﷺ حريصاً علىٰ أن يعطف المشركين إليه وتمنّىٰ في نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب بينه وبين قومه... فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿**وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ**﴾... فلمّا انتهىٰ إلىٰ قوله: ﴿**أَفَرَأَيْتُمُ ٱللَّاتَ وَٱلْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ**﴾ ألقىٰ الشّيطان علىٰ لسانه... «تلك الغرانيق العُلىٰ وإنّ شفاعتهنّ لتُرتضىٰ (أو لتُرتجىٰ)». فلمّا سمعت قريش فرحوا... فلمّا انتهىٰ إلى السّجدة منها وختم السّورة سجد فيها فسجد المسلمون والمشركون.. فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر إلّا سجد إلّا الوليد بن المغيرة فإنّه كان شيخاً كبيراً فلم يستطع السّجود فأخذ بيده حفنة من البطحاء فسجد عليها... وأتىٰ جبريلُ رسول الله ﷺ فقال: ... لقد تلوتَ

---

(١) اسم كان يطلق على الأصنام، وقيل إنّ معناه «طير الماء». وهو طير ذو عنق طويل كالكُركيّ. ولمّا كان يحلّق في السّماء، شُبّهت به الأصنام في العلوّ والرّفعة. انظر: *السّيرة النّبويّة* ١: ٣٢٥.

(٢) أشرنا سابقاً إلىٰ أنّ هذا الخبر لم يرد في **سيرة ابن هشام**. ومن المحتمل أنّ ابن هشام حذفه، كما يحتمل أنّ ابن إسحاق لم يذكره عند املاء كتابه. وهذا هو الأرجح عندي؛ إذ بلغ من الأهمّيّة أنّ ابن هشام لو كان قد حذفه لنبّه عليه.

على النّاس ما لم آتك به عن الله عزّ وجلّ... فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى ٱلشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَانُ...﴾ وبعد ذلك تتمّة الآيات من سورة النّجم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم...﴾ وأقبل أولئك النّفر من أصحاب رسول‌الله ﷺ الّذين خرجوا من أرض الحبشة لما بلغهم من إسلام أهل مكّة... حتّىٰ إذا دنوا من مكّة بلغهم أنّ الّذي كانوا تحدّثوا به من إسلام أهل مكّة كان باطلاً فلم يدخل منهم أحد إلّا بجوارٍ أو مستخفياً[١].

وجاءت هذه الرّواية في عدد من مصادر السّيرة والتّفسير القديمة، أمّا المصادر الّتي تتشدّد في السّند فلم ترد فيها أو وردت فيها مجملاً كما في *صحيح البخاريّ* وهي لا تنسجم أبداً مع هذه الحكاية المفصّلة والقصصيّة إلىٰ حدٍّ ما. ومن البيّن أنّنا لا يمكن أن نتوفّر علىٰ نقدها مفصّلاً، بيد أنّنا نناقشها مجملاً من عدّة وجوه[٢]. فما دام الموضوع يرتبط بالقرآن نفسه، فلا بدّ من الالتفات إلىٰ أنّ الله تعالىٰ قال في الآيات الأولىٰ من هذه السّورة: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ فكيف يمكن أن تحدث مثل هذه الواقعة عند تتابع الآيات وهذا هو منطق الآيات؟ يضاف إليه أنّه ورد في موضع آخر من القرآن الكريم قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾[٣]. وفي موضع آخر يخاطب الشّيطان بقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾[٤]. وفيه: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا

---

(١) انظر: *تاريخ الطّبريّ* ٢: ٣٣٨ ـ ٣٤٠.

(٢) بعض هذه النقود موجّهة لأشخاص يعتقدون بالإسلام وأُسسه، وبعضها نقود مبدئيّة، وهي مُقنعة حتّىٰ للأشخاص الّذين لا يعتقدون بالإسلام.

(٣) الحاقّة: ٤٤ ـ ٤٦.

(٤) الحجر: ٤٢.

سُلْطَانُهُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾[١]. من هنا لا تثبت صحّة الواقعة المذكورة، ويرفضها كلّ مسلم معتقد. وحول الآية الواردة في سورة الحجّ فيضاف إلى الإشكالات الموجودة في تطبيقها مع الواقعة أنّ سورة الحجّ مدنيّة بالإجماع، ولا يمكن أن تكون لها صلة بالواقعة المذكورة[٢]. ومن المؤسف أنّنا ينبغي أن نقول: إنّ الكتب التّفسيريّة ـ الرّوائيّة في القرن الأوّل الهجريّ كانت تنظر إلىٰ أقلّ مشابهة لفظيّة بين الآية والواقعة فتعدّ الآية نازلة في شأن الواقعة. حتّىٰ إنّها نسيت مدنيّة الآية ومكّيّة النّقل التّاريخيّ. ومن منظار السّند ينبغي أن ننبّه علىٰ أنّ الرّواية المذكورة وإنْ نقلها بعض الأخباريّين من السّنّة بيد أنّنا لا نجدها في كتبهم ذات الشّأن والاعتبار. وجدير بالالتفات إلىٰ أنّ آثار الأخباريّين وأُولي القصص مليئة بالأخبار الّتي تتّسم بطابع قصصيّ. وحول هذه القصص يجب أن ننتبه إلىٰ أنّ الحادثة كلّما غلب عليها الطّابع القصصيّ قلّ شأنها واعتبارها وهذا الخبر المهمّ الّذي نقله الطّبريّ عن ابن إسحاق ينتهي بمحمّد بن كعب القرظيّ الّذي عُدّ من القصّاصين المعروفين الّذين كانوا يبدّلون حديث الشّبر بالذّراع، وكان هذا الرجل من بقايا يهود بني قريظة (لذا عُرف بالقرظيّ)، وهو مصدر القَصَص في عالم الإسلام[٣]. علماً أنّ للحديث طرقاً أخرىٰ بلغت التّابعين نوعاً ما وهي ما يُسمّىٰ مرسلة. وينسب أحدها إلىٰ ابن عبّاس الّذي لا يمكن اعتبار كلامه بشأن أحداث مكّة حجّةً في الاصطلاح العلميّ لأنّه لم يولد

---

(١) النّحل: ٩٩، ١٠٠.

(٢) للاطّلاع علىٰ توضيح أكثر حول محتوى الآية انظر: *الهدىٰ إلىٰ دين المصطفىٰ* ١: ١٣٣؛ *تنزيه الأنبياء*: ١٠٧، ١٠٨.

(٣) حول القصّاصين ومحمّد بن كعب القرظيّ انظر: *قصّه خوانان در تاريخ اسلام* [القصّاصون في التّاريخ الإسلاميّ]: ٦٨، ٦٩؛ وانظر أيضاً: *ربيع الأبرار* ٢: ٨٤٣، ٨٤٤.

بعدُ[١]. وأشرنا في موضع آخر إلىٰ أنّ ابن هشام أو ابن إسحاق نفسه قد أسقط هذه الحكاية من سيرته في إملاءٍ لها، واليوم لا نجدها في سيرة ابن هشام الّتي كانت تعدّ من أشهر السِّيَر منذ القديم. ولم يذكرها ابن عبد البرّ (م ٤٦٣) أيضاً في الدّرر. وهذا يدلّ علىٰ أنّ هؤلاء ما كانوا يعرفون سنداً صحيحاً لها. ولا جرم أنّ هذا الخبر كما قال ابن خزيمة من موضوعات الزّنادقة[٢]. وذهب القاضي عبد الجبّار إلىٰ أنّه من موضوعات الملحدين[٣]. ويقول السّهيليّ الّذي شرح سيرة ابن هشام أيضاً: «أهل الأصول يدفعون هذا الحديث بالحجّة»[٤]. ونُقل عن البيهقيّ (م ٤٥٨) أيضاً أنّه لم يثبت من جهة النقل[٥]. ووردت في سيرة الحلبيّ أيضاً أخبار عن بعض منكريه[٦]. واضطرب ابن حزم (م ٤٥٦) منه بشدّة، ويراه كذباً صرفاً، ويعجب من عقل يسع فيه هذا الحمق، وهذا لا يجوز إلّا علىٰ سكران... يهذي ويتكلّم بما لا يدري ولا يعرفه[٧]. والّذين حلّلوا الطرق المتعدّدة للحديث قدّموا فهرساً بالاختلافات الّتي تكتنف هذا الخبر[٨]. ويدلّ هذا الاضطراب والتّشويش علىٰ أنّ قسماً كبيراً من الخبر وضعه القصّاصون بعد اختلاق أصله لترويج سوق أخبارهم وكتبهم.

علىٰ أيّ حال ذهب عدد كبير من العلماء القدامىٰ والجدد إلىٰ أنّ الخبر موضوع.

---

(١) انظر: *الهدىٰ إلىٰ دين المصطفىٰ* ١: ١٣٠؛ وأُشير فيه إلىٰ ضعف سند الواقعة نقلاً عن قول النسفيّ صاحب تفسير **الخازن**؛ وانظر: ***الصّحيح من سيرة النّبيّ*** ٢: ٦٦؛ وجاء عن عيّاض أنّ هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحّة، انظر: ***الشّفاء*** ٢: ١٢٦.

(٢) انظر: **فتح القدير** للشّوكانيّ ٣: ٤٦٢. (٣) ***تنزيه القرآن عن المطاعن***: ٢٤٣.

(٤) انظر: ***سبل الهدىٰ والرشاد*** ٢: ٤٨٨ (الهامش)؛ ***قصّه خوانان در تاريخ اسلام*** [القصّاصون في التاريخ الإسلاميّ]: ٦٨، ٦٩.

(٥) انظر: *السّيرة النّبويّة* للذّهبيّ: ١٨٧ (الهامش) عن ***دلائل النبوّة*** ٢: ٦٢.

(٦) ***السّيرة الحلبيّة*** ١: ٣٢٦. (٧) ***رسائل ابن حزم*** ٣: ٢٢٨.

(٨) انظر: ***الصحيح من سيرة النّبيّ*** ﷺ ٢: ٦٦، ٦٧؛ ***الهدىٰ إلىٰ دين المصطفىٰ*** ١: ١٣٠، ١٣١.

وألّف المحدّث السّنّيّ المعاصر الباني كتاباً بعنوان **نصب المجانيق لنسف قصّة الغرانيق**.

وأفرد محمّد حسين هيكل في كتابه **حياة محمّد** ﷺ[١] فصلاً مشبعاً حول سقم الخبر. وذكر أدلّة عديدة في الردّ على المستشرق موير الّذي ذهب إلىٰ صحّته[٢]. ومرّ بنا أنّ المرحوم البلاغيّ[٣] خصّص فصلاً في دحضه أيضاً. كما أنّ مصحّح **دلائل النّبوّة** أورد نفس الأدلّة[٤]. وذكر الدكتور زرياب خوئي أدلّة في تفنيده أيضاً[٥]. ولعلّ أكثر الدراسات تفصيلاً في هذا المجال هي دراسة المرحوم الدكتور راميار[٦]. وتوفّر الغزاليّ علىٰ نقده في **فقه السّيرة**[٧]. وأكّد أنّه كيف يمكن أن يصدر مثل هذه الآيات الّتي تمزج التّوحيد بالشّرك عن عاقل فضلاً عن رسول الله ﷺ الّذي هو أعقل النّاس ومؤسّس مثل هذه المدرسة التّوحيديّة. وذهب إلىٰ أنّ هذا الخبر وأمثاله من الإسرائيليّات. والإسرائيليّات ثقافة نابعة من الكتب اليهوديّة والنّصرانيّة في الإسلام. وتركت تأثيرها على الآثار التّاريخيّة والحديثيّة.

ويقول أُستاذنا العلّامة جعفر مرتضىٰ تحت عنوان «حقيقة الأمر»: (والظّاهر هو أنّ حقيقة ما جرىٰ هو ما قيل من أنّ الكفّار كانوا يكثرون اللغو واللغط حين قراءته ﷺ حتّىٰ لا يسمع أحد ما يقرأ قال تعالىٰ: ﴿**وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا ٱلْقُرْآنِ وَٱلْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ**﴾[٨] فحينما قرأ النّبيّ ﷺ سورة النّجم، وانتهىٰ إلىٰ

---

(١) **حياة محمّد** ﷺ: ١٧٢ ـ ١٨٢.

(٢) نقل الدكتور رامیار أنّ كايتاني يعتقد بسقم الخبر، انظر: **تاريخ قرآن**: ١٦٥.

(٣) **الهدىٰ إلىٰ دين المصطفىٰ** ١: ١٣٠ ـ ١٣٧.

(٤) **دلائل النّبوّة** ٢: ٢٨٧ ـ ٢٩١ (نقل المحقّق في الهامش قسماً من أدلّة هيكل، وكذلك فعل مصحّح مغازي عروة بن الزّبير، انظر: ص١٠٦ ـ ١٠٨.

(٥) **سيرة رسول الله** ﷺ: ١٦٢ ـ ١٦٦.

(٦) **تاريخ قرآن**: ١٦٥ ـ ١٦٧.

(٧) **فقه السّيرة**: ١١٦ ـ ١١٨.

(٨) فصّلت: ٢٦.

هذا المورد، قال المشركون تلك الغرانيق العُلىٰ... والدّليل علىٰ هذا الخبر ما قاله الكلبيّ في الأصنام أنّ عرب الجاهليّة كانوا يقولون مثل هذه الكلمات في مدح أصنامهم[١].

ومهما كانت القصّة فهي لا تنسجم وعصمة النّبيّ صلى الله عليه وآله أساساً. ومن المؤسف أنّ مصادر الأخباريّة الحشويّة تضمّ مثل هذه الأخبار غير قليلةٍ، ولا يُعلم متىٰ يتمّ تهذيبها علىٰ حدّ تعبير الغزاليّ[٢]. أمّا بشأن السبب الّذي دعا إلىٰ رجوع عدد من مهاجري الحبشة إلىٰ مكّة، فينبغي أن نقول: لعلّ بثّ المشركين الإشاعة ـ الّتي شكّلت أساس هذا الخبر فيما بعد ـ خدعة لإعادة المسلمين المهاجرين. وكانت قريش تستغلّ كلّ ما يمكن لإعادتهم.

ومن الواضح أنّ أصل الخبر حتّىٰ لو صحّ فلا يمكن أن يصل إلى الحبشة، إذ جاء في تلك الأخبار نفسها أنّ ذلك الإشكال قد رُفع ليلة ذلك اليوم وكذّب رسول الله صلى الله عليه وآله قرآنيّة تلك المهملات. من هنا يتعذّر وصول مثل هذا الخبر إلى الحبشة. ومن الممكن أنّ أصل الواقعة متوكّئ علىٰ إشاعة مبثوثة. ولعلّ لرجوع المهاجرين أسباباً أخرىٰ أيضاً. ونحن نعلم أنّ عدداً منهم قد رجع قبل هجرة النّبيّ صلى الله عليه وآله إلى المدينة بقليل. ومن المحتمل أنّهم شعروا بأنّ الضغط على المسلمين قد خفّت وطأته بعد الشِعب وموافقة المشركين علىٰ خروج بني هاشم من الحصار. والخبر الّذي لعلّه يمثّل إشارةً إلىٰ هذا الموضوع هو قول المقريزيّ عن جماعةٍ إنّ رجوع المهاجرين إلىٰ مكّة كان بعد خروج بني هاشم من الشِعب[٣].

---

(١) *الصحيح من سيرة النبيّ* صلى الله عليه وآله ٢ : ٧١؛ *سيرة رسول الله*، زرياب : ١٦٥؛ انظر : *الأصنام* : ١٩.

(٢) *فقه السّيرة* : ١١٧.

(٣) *إمتاع الأسماع* ١ : ٢٧.

شِعب أبي طالب

مدينة مكّة مدينة محاطة بجبال كثيرة وبينها سفوح ووديان صغيرة يسمّيها العرب الشِّعاب. وهي مملوءة بها. وكان هذا المثل مشهوراً منذ القديم «أهل مكّة أعلم بشعابها». وهذهالشّعاب كانت موضعاً لسكن أهلها الّذين كانوا من طوائف مختلفة[١]. من هنا كان يُعرف كلُّ شعبٍ باسم الطائفة الّتي تسكن فيه. وما اشتهر بشِعب أبي طالب كان معروفاً في البداية بشعب أبي يوسف. ويبدو أنّه اتّخذ اسم أبي طالب في عصر البعثة، ثمّ سُمّي بعد ذلك بشعب بني هاشم، ويُعرَف الآنَ بشعب عليٍّ عليه السلام، ويقع في شرق الكعبة المعظّمة بين جبل أبي قبيس وشعب ابن عامر[٢]، ويبعد عنها حوالي مائتين إلىٰ ثلاثمائة متر. وتحدّث المؤرّخون بعد ذكر الهجرة إلى الحبشة عن شِعب أبي طالب وحصار بني هاشم فيه.

وفيهم ابن سعد الّذي ذكر تاريخاً دقيقاً لبدء الحصار ـ الّذي سنوضّح معناه أثناء الكلام ـ وهو الأوّل من المحرَّم في السّنة السّابعة للبعثة[٣]. وفي متناول أيدينا عدد من الرّوايات حول هذه القصّة، ونحتمل أنّ أتمّها هي رواية موسى بن عُقبة عن الزُهريّ عن قطّان. وتحدّث ابن إسحاق عن هذه الحادثة، وضمّ ابن سعد عدداً من الأخبار بعضها إلىٰ بعض، وذكر محصّلة الحادثة بإيجاز.

والموضوع الأوّل هو سبب مبادرة قريش إلىٰ قطع العلاقات مع بني هاشم. يقول قطّان: لمّا شعرت قريش أنّها غير مفلحة في التّضييق على النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم همّت بقتله. ولم يتيسّر لها هذا إلّا ـ إذا رضي به بنو هاشم وعلىٰ رأسهم أبو طالب. فإذا لم يرضوا فإنّ

---

(١) انظر: *أخبار مكّة* ج ١ و ٢ فهرس الأماكن، ذيل عنوان «شِعب».

(٢) *معجم المعالم الجغرافيّة في السّيرة النّبويّة*: ١٦٨. كما أُشير في المتن أنّ شعب عليّ هو باسم الإمام عليّ عليه السلام. انظر: *أخبار مكّة* ٢: ٢٧٨.

(٣) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٢٠٩.

قريشاً ستمنىٰ بحرب لا حدّ لها. من هنا طلبوا من أبي طالب أن يأخذ منهم ضعف دية قتله، ويقتله رجل من غير قريش[١] [لئلّا تظهر مشكلة بين قريش]. فرفض أبو طالب طلبهم رفضاً شديداً، وأمر بني عبد المطّلب أن يدخلوا في الشِّعب ويذودوا عن النّبيّ ﷺ، فاستجابوا كلّهم إلّا أبا لهب، وأبا سفيان الحارث بن عبد المطّلب إذ لم يدخلا في الشِّعب[٢]. وحينئذٍ عزمت قريش علىٰ قطع علاقاتها الاقتصاديّة، والعائليّة، والودّيّة بهم. وكتبوا حلفاً تعاهدوا فيه علىٰ رفض أيّ صلحٍ من بني هاشم، وألّا يرأفوا بهم ويعاشروهم إلّا إذا سلّموهم النّبيّ ﷺ ليقتلوه[٣]. ويدلّ هذا الخبر علىٰ أنّ الهدف الأصليّ لقريش وحلفائها (كنانة)[٤] في هذا الأمر الضغط علىٰ بني هاشم كي يسلّموا لهم النّبيّ ﷺ. وهكذا كان أبو طالب نفسه صاحب القرار في الذّهاب داخل الشِعب، وهدفه الرئيس منه هو المحافظة علىٰ حياة النّبيّ ﷺ والتعبير عن وحدة بني عبد المطّلب في الدّفاع عنه.

وفيما يأتي رواية ابن إسحاق: ... فلمّا رأت قريش أنّ أصحاب رسول الله ﷺ قد أمنوا واطمأنّوا بأرض الحبشة، وأنّهم قد أصابوا بها داراً وقراراً... هذا من جهة، ومن جهة أُخرىٰ أسلم رجال مثل عمر وحمزة، والإسلام آخذ بالانتشار بين القبائل، أقامت مجلساً عزمت فيه علىٰ عقد حلف ضدّ بني هاشم وبني عبد المطّلب، فلا يناكحوهم [لا يزوّجوهم ولا يتزوّجون منهم] ولا يبايعوهم. ويضيف ابن إسحاق أنّ هذا الأمر دفع بني هاشم إلىٰ أن يذهبوا عند أبي طالب ويجتمعوا في شِعبه. واعتزل

---

(١) *الدرر في اختصار المغازي والسِّير*: ٢٧.

(٢) قال أبو لهب: يريد أن ينصر اللات والعزّىٰ بعمله هذا، انظر: **سيرة ابن هشام** ١: ٣٥١. وانظر بشأن أبي سفيان: **المغازي** ٢: ٨٠٦.

(٣) **دلائل النّبوّة** ٢: ٣١١، ٣١٢.

(٤) انظر: *الدّرر*: ٣٠.

منهم أبو لهب ولحق بقريش[١]. والفرق اليسير بين الخبرين واضح. فلم يرد في كلام ابن إسحاق موضوع قتل النّبيّ ﷺ. ومن الثّابت أنّ بني هاشم أنفسهم ذهبوا إلى الشِّعب[٢]. يضاف إلى ذلك أنّ نصّ الحلف الّذي عقدته قريش يخلو من موضوع الحصار الجغرافيّ.

ولا بدّ لهذا الأمر من سبب خاصّ. وأحد أسبابه أنّهم لم تكن لهم حيلة إلّا الذّهاب داخل الشِّعب، إذ لم يتيسّر لهم بعد ذلك الحلف معاشرة أحدٍ وبناء علاقة معه. وثمّة سبب أهمّ وهو الدّفاع عن النّبيّ ﷺ. وجاء في خبر البيهقيّ وكذلك عروة ابن الزّبير أنّ أبا طالب كان يُضجع النّبيّ ﷺ في فراشه ليلاً، كما يُضجع رجالاً من بني هاشم في فراش النّبيّ ﷺ، ويُرسل النّبيّ ﷺ إلىٰ فراشهم[٣]. وهذه الخطوات تدعم الموضوع القائل أنّ قريشاً كانت عازمة علىٰ قتل النّبيّ ﷺ. ويدلّ خبر البلاذريّ وكذلك رواية عروة بن الزبير علىٰ مؤامرة قتله ﷺ كخبر دلائل النّبوّة عن قطّان. وفي خبرهما أنّ أبا طالب حين رأىٰ إصرارهم علىٰ قتله، خاف عليه، ثمّ أخذ بني هاشم إلى الشِّعب[٤]. وذهب ابن سعد إلىٰ أنّ عزم قريش كان نابعاً من غيظها لما لقيه المهاجرون من دَعَة في الحبشة لذا همّت بالتّضييق علىٰ بني هاشم[٥]. ومن الواضح أنّهم كانوا في غيظٍ شديد من موضوع الحبشة. وأشرنا إلىٰ أنّ بني هاشم

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٣٥٠، ٣٥١؛ *تاريخ الطّبريّ* ٢: ٣٣٥، ٣٣٦؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٢: ٥٠٢.

(٢) من الثّابت أنّ موضوع الإخراج لم يرد في الخبر الأوّل حقّاً. انظر: *السّيرة الحلبيّة* ١: ٣٣٧. ويصحّ هذا الموضوع في الخبر الثّاني أيضاً.

(٣) *دلائل النّبوّة* ٢: ٣١٢؛ *مغازي رسول الله لعروة بن الزبير*: ١١٤؛ *الدّرر*: ٢٨.

(٤) *أنساب الأشراف* ١: ٢٣٠؛ *مغازي رسول الله لعروة بن الزبير*: ١١٤. بعد ذلك ذكر البلاذريّ خبر القتل بوصفه خبراً آخر في تبيان السّبب الآخر لدخول الشِّعب، انظر: *أنساب الأشراف* ١: ٢٣٢.

(٥) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٢٠٨؛ *أنساب الأشراف* ١: ٢٣.

وبني عبد المطّلب وحدهم كانوا في داخل الشّعب لا جميع المسلمين. والعنوان الّذي ذكره البيهقيّ لهذا القسم يدلّ علىٰ أنّ بقيّة الصّحابة كانوا في داخل الشّعب أيضاً. لكنّه غير صحيح[١].

وذكر عدد من أرباب السِّيَر وجود مصاعب داخل الشِّعب. فالّذين كانوا فيه لم يستطيعوا أن يهيّئوا ما يحتاجون إليه؛ إذ لم يرغب أحد في التّعامل معهم. ويضاف إليه وجود تهديدات أُخرىٰ أيضاً في تلك الظّروف العصيبة. وجاء في فضيلة هاشم بن عمرو أنّه كان يضع الطعام علىٰ راحلته ويذهب قريباً من الشِّعب ليلاً، ويُخرج لجام دابّته من رأسها ويشدّه علىٰ جنبه ليدخل الشّعب[٢]. وكانت مشكلة الطّعام سبباً في معاناة أصحاب الشِّعب من الجوع. وورد في أخبار أُخرىٰ أنّ قريشاً «قطعوا عنهم المادّة والميرة»[٣]. وذكر البلاذريّ، وابن سعد أنّهم لم يستطيعوا أن يخرجوا من الشّعب طول السّنين الثلاث الّتي كانوا فيها إلّا في موسم الحجّ. كما أنّ أولادهم لاقوا من العنت والمشقّة فيه حتّىٰ إنّ أنينهم كان يُسمع من خارجه[٤]. ولمّا خرج العبّاس من الشّعب مرّة لشراء الطّعام أراد أبو جهل أن يوقع به فأنجاه الله[٥]. ولم يُسلم العبّاس يومئذٍ. وإنّما دخل الشّعب لدعم النّبيّ صلى الله عليه وآله من وحي القُربىٰ كما فعل بعض آخر من بني هاشم.

---

(١) *دلائل النبوّة* ٢: ٣١١ [باب دخول النّبيّ صلى الله عليه وآله مع من بقي من أصحابه شعب أبي طالب]. فما لوحظ هو أنّ خبراً آخر لا يسند هذا العنوان. وذكر الإسكافيّ المعتزليّ أنّه في الوقت الذي كان فيه عليّ عليه السلام في الشعب مع بني هاشم كان ابو بكر مع أهله في دعة وطمأنينة. انظر: *المعيار والموازنة*: ٨٨.

(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٣٧٥؛ *أنساب الأشراف* ١: ٢٣٥؛ *سبل الهدىٰ والرشاد* ٢: ٥٤٣. ذكر خبراً أكثر تفصيلاً عن ابن سعد فيه وفي موقف قريش منه.

(٣) *أنساب الأشراف* ١: ٢٣٤؛ وانظر: *إمتاع الأسماع* ١: ٢٥.

(٤) *أنساب الأشراف* ١: ٢٣٤؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٢٠٩.

(٥) *أنساب الأشراف* ١: ٢٣٥.

ويُستشفّ من خبر آخر للبلاذريّ أنّ قريشاً وبخاصّة أبا جهل كانوا يراقبون الوضع لئلّا يُباع عليهم شيء. وأرسلت خديجة إلىٰ زمعة بن الأسود تخبره أنّ أبا جهل يمنعهم من الشّراء[١]. وهذا الموضوع وأنّات الصّغار هي الّتي ألانت قلوب البعض من أعيان قريش. ونقل الإسكافيّ أنّ عليّاً عليه السلام كان يحمل الميرة سرّاً إلىٰ داخل الشِّعب. وجاء في خبر البيهقيّ أنّ كلّ طعام يعرضه المسافرون في أسواق مكّة يشترونه بأسرع ما يكون لئلّا يصل إلىٰ بني هاشم[٢]. وذكر ابن إسحاق أنّ بعض قريش كان يرسل إليهم شيئاً سرّاً بقصد صلة الأرحام[٣]. وقال أميرالمؤمنين عليه السلام في أحد كتبه إلىٰ معاوية:

«فأراد قومنا (قريش) قتلَ نبيّنا، واجتياح أصلنا، وهمّوا بنا الهموم، وفعلوا بنا الأفاعيل، ومنعونا العَذْبَ، وأحلسونا الخوفَ، واضطرّونا إلىٰ جبلٍ وعرٍ، وأوقدوا لنا نار الحرب. فعزم الله لنا على الذّبِّ عن حوزته، والرّمي عن وراء حُرمته. مؤمننا يبغي بذلك الأجر، وكافرنا يُحامي عن الأصل»[٤].

ودام هذا الوضع ثلاث سنين، وقيل: سنتين كما في بعض المصادر. ويحتمل أنّه تصحيف لكلمة «سنين»[٥]. ويقوم النّظام القبليّ في الأصل علىٰ قاعدة النّسب والقُربىٰ. ولم يكن لقريش، بخاصّة لبعض بطونها، مع عدائها للإسلام أن تقف مكتوفة الأيدي مطلقاً أمام بني عبد المطّلب من منطلق المسائل القبليّة. والآن بعد مضيّ ثلاث سنين كان بينهم من شعر بالامتعاض وتأنيب الضّمير. وأورد كتّاب السِّيَر عدداً ممّن عزم علىٰ إنقاذ بني عبد المطّلب من هذا الوضع المؤلم. وكان سير الواقعة

---

(١) *المعيار والموازنة*: ٨٨.
(٢) *دلائل النّبوّة* ٢: ٣١٢؛ *الدّرر*: ٢٨.
(٣) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٣٥٣.
(٤) *نهج البلاغة*، الكتاب التّاسع.
(٥) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٢١٠؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٣٥٣؛ وذهب القاضي عبد الجبّار إلىٰ أنّ مدّة مكوثهم في الشِّعب أربع سنين، انظر: تثبيت *دلائل النّبوّة*: ٣٦٢.

قد دلّ أيضاً علىٰ أنّ عمل المشركين هذا لم يكن له دور في إكراه أبي طالب علىٰ تسليم النّبيّ ﷺ، فهو وبنو هاشم جميعهم يذبّون عنه بكلّ وجودهم. وهذا كان يعني أنّ السّياسة المذكورة منهزمة، ولم تدع لقريش إلّا تعنيفاً أخلاقيّاً، وأيّ قريش؟ قريش الّتي كانت تدّعي السّيادة على العرب جميعهم والسّخاء قياساً بهم[١]. وتزامناً مع هذا الشّعور أخبر النّبيّ ﷺ أبا طالب بأكل الصحيفة الّتي قيل إنّها كانت معلّقة في داخل الكعبة. وهذه من المعجزات النّبويّة الواضحة. وكان أبو طالب يثق ثقة تامّة بكلامه ﷺ، لذا عندما سمعه قال: «أشهد أنّك لا تقول إلّا حقّاً»[٢] وأخبر المشركين فأخرجوا الصّحيفة. ولمّا شاهدوها مأكولةً إلّا «باسمك اللّهمّ» حاروا ودُهشوا، وقذفوا رسول الله ﷺ بالسّحر[٣]. وهذه الأُمور مجتمعةً أفضت إلىٰ زوال الصّحيفة. وقيل: إنّ معارضيها من قريش همّوا بالذّود عن بني هاشم عسكريّاً[٤]. وهكذا نلحظ أنّ استمرار هذه الواقعة ألقىٰ الخلاف بين المشركين أنفسهم، حتّىٰ أُكرِهَ بعضُهم على السّكوت كأبي جهل[٥]. وجاء في خبر ابن إسحاق أنّ أبا جهل وقف أمام المعارضين في البداية، فقال له زهير بن أبي أميّة: كنّا كارهين لها مُذ كُتبت. فأيّده من كان حاضراً[٦]. فأثنىٰ أبو طالب علىٰ أمثال هؤلاء في شعرٍ له، وهو الّذي دافع عن النّبيّ ﷺ بكلّ ما يستطيع. ومن شعره قوله:

---

(١) جاء في خبر ابن إسحاق (*السّيرة النّبويّة* ١: ٣٧٧؛ *سبل الهدىٰ والرشاد* ٢: ٥٤٤) أنّ مخالفي الصحيفة قالوا لأهل مكّة: «يا أهل مكّة، أنأكل الطّعام، ونلبس الثّياب، وبنو هاشم هلكىٰ لا يُباع ولا يُبتاع منهم؟! والله لا أقعد حتّىٰ تُشَقَّ هذه الصحيفةُ القاطعة الظّالمة».

(٢) *أنساب الأشراف* ١: ٢٣٤.

(٣) *دلائل النّبوّة* ٢: ٣١٣.

(٤) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٢١٠.

(٥) لمّا رأىٰ أبو جهل حكيمَ بن حزام يحمل الطّعام إلىٰ داخل الشّعب نَهَرَهُ. فدافع عنه أبو البختريّ وقال: يحمله إلىٰ عمّته [خديجة]. فتنازعا، فضرب أبو البختريّ رأس أبي جهل، ولم يرفعا أصواتهما لئلّا يشمت بهما المسلمون. انظر: *سبل الهُدىٰ والرّشاد* ٢: ٥٠٤.

(٦) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٣٧٦.

ألا هل أتىٰ بحريِّنا صنع ربّنا على نأيهم واللهُ بالنّاسِ أرودُ
فيخبرهم أنّ الصّحيفةَ مُزّقت وأنْ كل ما لم يرضه اللهُ مُفْسَدُ[1]

وقبل ذلك كان قد ذمّ قريشاً في بداية انعقاد عهدها، وعبّر عن اعتقاده العميق بنبوّة رسول الله ﷺ، واعتقاده هذا هو الّذي دفعه إلى الذّود عنه. قال:

ألم تعلموا أنّا وجدنا محمّداً نبيّاً كموسىٰ خُطَّ في أوّل الكتبِ
فلسنا وربِّ البيتِ نُسلم أحمداً لِعزّاءَ من عضّ الزّمانِ ولا كربِ

علىٰ أيّ حال، مضىٰ هذا العهد لسبيله وخرج بنو هاشم ليخالطوا الناس ويعاشروهم بمكّة[2]. وكان هذا الأمر نصراً عظيماً علىٰ حدّ تعبير القاضي عبد الجبّار[3]. وبعد الخروج من الشّعب بفترة قصيرة توفّي اثنان من أودّ الأَحبّة وأعزّهم عند رسول الله ﷺ وهما أبو طالب، وخديجة. فأبوطالب توفّي في الأوّل من ذي القعدة أو في النّصف من شوّال السّنة العاشرة للبعثة وله من العمر بضع وثمانون. ولحقته خديجة بعد خمسة وثلاثين يوماً أو خمسة وعشرين، أو خمسة، أو ثلاثة أيّام كما هو محتمَل. ودُفنا في مقبرة المعلَّىٰ قرب قبور كبار بني هاشم كعبد المطّلب. وأخبار السّيرة جميعها في عصر البعثة حتّى السّنة العاشرة منها قد التحمت باسم أبي طالب. فكلّ مكان يشهد بدوره في دعم النّبيّ ﷺ ونقرأ في سيرة ابن إسحاق وغيرها شعره الكثير في نصرته، والتّعبير عن حبّه للإسلام وذمّ صناديد قريش[4]. وجاء في بعضها

(١) ***الاستيعاب*** ٢: ٩٢؛ تاريخ دمشق ١٩: ٤٣ نقلاً عن ***ديوان أبي طالب***: ٤٧.

(٢) ***السّيرة النّبويّة***: ابن هشام ١: ٣٥٢؛ ***سبل الهدىٰ والرشاد*** ٢: ٥٠٣.

(٣) تثبيت ***دلائل النّبوّة***: ٣٦٣.

(٤) جمع عبد الله بن أحمد المهزميّ أشعار أبي طالب في القرن الرّابع الهجريّ، وطبعت بتحقيق الأُستاذ الشّيخ محمّد باقر المحموديّ تحت عنوان ***ديوان شيخ الأباطح أبي طالب***.

الّذي مضىٰ وسواه إقراره الصّريح بنبوّة النّبي ﷺ ورسالته[١]. ونقل ابن عبد البرّ وغيره أنّه كان يمضي الليل في مراقبة الشّعب لئلّا يصل إليه سوءٌ طول المدّة الّتي كان فيها ﷺ رهين الشّعب[٢]. وهذا دليل علىٰ روحه العالية خلال السّنين العشر كلّها. وتدلّ لاميّته علىٰ ذروة دعمه للنّبيّ ﷺ[٣]. وأورد ابن عبد البرّ أيضاً أنّ سفهاء قريش بدأوا يؤذونه ﷺ بعد وفاة أبي طالب عليه الصّلاة والسّلام ورحمة الله[٤].

(١) *ديوان أبي طالب*: ٦٩، ٧٠.

(٢) *الدّرر*: ٢٨؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٢: ٥٠٤.

(٣) انظر: *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٢: ٥٠٦ ـ ٥٠٨.

(٤) *الدّرر*: ٣٢؛ *عيون الأثر* ١: ٢٢٥.

(٥)

الإسلام في المدينة

يثرب قبل الإسلام

ذُكر أنّ يثربَ اسم حفيد من أحفاد نوح عليه السلام [يثرب بن قانية بن مهائيل...] كما وُضع لها معنىً لغويّ خاصّ وهو «اللوم والفساد والعيب». من هنا قيل إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمر بعد دخولها ألّا تُستعمَل، فسُمّيت «طابة»، و«طيبة»[1]. وقيل إنّ يثرب كانت قسماً من منطقة دُعيت بعد هجرته صلى الله عليه وآله وسلم «مدينة الرّسول» أو «المدينة» بإيجاز[2]. علماً أنّها كانت تُدعىٰ بعد الهجرة باسمها القديم بين حين وآخر. من ذلك ما جاء في القرآن الكريم علىٰ لسان المنافقين ـ في السّنة الخامسة للهجرة أو بعدها بقليل ـ إذ كانوا يخاطبون أهلها بقولهم: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ﴾[3]. وذُكر اسمها أيضاً في شعرٍ أنشدته زوجة عثمان بعد مقتله[4]. وورد اسمها كذلك في شعر الصّحابة[5].

ولم تُعرف هذه المنطقة قبل الإسلام كمدينة مركزيّة، بل كانت تتألّف من واحات بعضها في السّهول، وبعضها الآخر في الرّوابي، وبعض منها بين الشِّعاب. وهي في الحقيقة سلسلتان من الحرّة، أي: الجبال الصّخريّة ذات الصّخور السوداء الّتي تبدو كأنّها محروقة بالنّار، وتمتدّ غربها وشرقها جغرافيّاً. فالحرّة الشّرقيّة الّتي تعرف «بحرّة

---

(١) *تاج العروس* ٢: ٨٥. وجاء في القرآن: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، يوسف: ٩٢؛ وانظر: *مفردات*: ٧٥.

(٢) *معجم البلدان* ٦: ٤٣٠؛ *تاج العروس* ٢: ٨٥.

(٣) الأحزاب: ١٣، ٣٣.

(٤) *معجم البلدان* ٦: ٤٣٠، عن ابن عبّاس.

(٥) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٣٨٤.

واقم» تنتهي في الشمال بجبل أُحد، وتمتدّ إلى الجنوب تقريباً. أمّا الحرّة الغـربيّة التي تُعرف بحرّة الوبرة فهي تمتدّ حتّىٰ بئر رومة شمالاً، وتحاذي محلّة قبا جـنوباً. وتـعدّ هاتان الحرّتان تحصيناً للمدينة. وتُلحظ هذه الصّخور في الجنوب أيضاً نـوعاً مـا. وهكذا ينبغي أن نقول: إنّ المنطقة الوحيدة من المدينة، الّتي تتّصل بخارجها من خلال أرض سهليّة هي شمالها. وكان معظم اليهود يقطنون في الحـرّة الغـربيّة والواحـات المنتهية بها. وهذه المنطقة الّتي كان يسكنها أكثر الأوس أيضاً تُسمّىٰ يثرب، مع أنّنا يجب أن نلتفت إلىٰ أنّ هذه الكلمة أُطلقت علىٰ جميع هـذه المـناطق بـسرعة، مـع الاحتفاظ بأسمائها الخاصّة.

وكان أكثر المناطق السّكنيّة في المدينة عبارة عن دور عاديّة من الحجر، والآجرّ، واللبن. ومن المحتمل أنّ لكلّ طائفة، بخاصّة اليهود، حصوناً وقلعاً تـعرف بـالأُطُم مضافاً إلىٰ بيوتها المألوفة. وكان يستفاد منها في الأوقات الضّروريّة (الحروب)، أمّا المدينة نفسها فليس لها سور (ثمّ أُحيط القسم الأصـليّ مـنها الّـذي يمـثّل المـناطق السكنيّة المحدقة بالمسجد النّبويّ الشّريف بسورٍ علىٰ مرّ التاريخ). ونُقلت أخبار حول سكّانها القدامىٰ لا يوثق بها كثيراً[١]. وما يستشفّ منها إجمالاً هو أنّ بني اسرائيل هاجمـوها مراراً لأسباب دينيّة وسياسيّة، واسـتولوا عـليها وفـرّقوا أهـلها. وليس بأيدينا معلومات دقيقة حول طبيعة الهجمات المذكورة وزمانها الدّقيق. بـيد أنّ مـا ذهب إليه المؤرّخون مفترِضين هو أنّ اليهود القاطنين في المدينة إبّان البعثة كانوا فيها قبل العرب الّذين سكنوها من الأوس والخزرج. ومن المحتمل أنّ هؤلاء المهاجرين لجأوا إلى الحجاز في القرون الميلاديّة الأولىٰ أثـناء هـجوم الروم عـلى القـدس[٢].

---

(١) انظر: *المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام* ٤: ١٣٣.

(٢) ذكر ديورانت خبر انتشار اليهود في مناطق البحر الأبيض المـتوسّط، ومـنها شـبه الجـزيرة العـربيّة، وأسباب ذلك (*قصّة الحضارة* ١٤: ٤٣٣).

ولم تكن لهذه المنطقة حكومة قطّ، ولأُولئك القادمين أن يعيشوا هناك متوكّئين علىٰ طاقاتهم المحلّيّة كغيرهم من القبائل، بخاصّة أنّ بعدهم عن سطوة الروم المعادين لليهوديّة يمنحهم الدّعة والطمأنينة. ومن الطّبيعيّ أنّهم توطّنوا أفضل البقاع ـ زراعيّاً ـ بين الحرّتين الشّرقيّة والغربيّة لغياب سلطةٍ يُعتَدُّ بها آنذاك.

ونقل المؤرّخون أخباراً كثيرةً حول السّبب الّذي دعاهم إلى اختيار تلك المناطق سكناً لهم، ويتمثّل في المعلومات الّتي كانت عندهم من التّوراة حول ظهور النّبيّ ﷺ فيها[1]. وكانت سكناهم غالباً في جانب الحرّة الشّرقيّة. ومن الثّابت أنّ يهود هذه المناطق ليسوا من العنصر العربيّ بل كانوا من بقايا يهود بني إسرائيل. ويتسنّىٰ لنا أن نعدّ هذا الأمر ثابتاً من الإشارات المتواصلة إلىٰ بني إسرائيل في القرآن الكريم وتطبيقها علىٰ يهود المدينة. يضاف إلىٰ ذلك أنّ المصادر مجمعة علىٰ أنّ لغتهم الدّينيّة هي اللغة العبريّة، كما أنّ المؤرّخين والنسّابة العرب ـ الّذين قد يضعون نسباً عربيّاً لكافّة السّاكنين ـ لم يذكروا لهم نسباً عربيّاً. ويدلّ هذا علىٰ أنّ عجمتهم كانت محرزة للجميع. والعرب الّذين كانوا يُعرَفون باسم الأوس والخزرج ـ ثمّ عُرفوا باسم الأنصار ـ هم من المهاجرين الّذين هاجروا إلىٰ هذه المنطقة قادمين من جنوب الجزيرة العربيّة. والأوس والخزرج كانا ولدَين لأب واحد هو حارثة بن ثعلبة[2]. وولد لأوس ولد واحد يدعىٰ مالك بن أوس الّذي وُلد له خمسة أولاد مثّلوا البطون الخمس الّتي اشتهرت بين الأوس، وكان لكلّ منها عدد من الأُسر والطّوائف. وكان لخزرج خمسة أولاد تبلورت منهم خمس بطون في داخل قبيلة الخزرج، وعند ظهور الإسلام كانت كلٌّ منها تشتمل علىٰ عدد من الأُسر والعشائر. علىٰ سبيل المثال

---

(١) [إنّ علماءهم كانوا يجدون في التّوراة صفة النّبيّ ﷺ وأنّه يهاجر إلىٰ بلد فيه نخل بين حرّتين فأقبلوا من الشّام يطلبون الصفّة] *معجم البلدان* ٦: ٨٤.

(٢) كان الأوس والخزرج يعرفون ببني قيلة. وجاء في خبرٍ أنّ قيلة كانت أمّهما.

تكوّنت من نسل نجّار بن ثعلبة بن خزرج أربع عشائر هي مالك بن نجّار، وعديّ بن نجّار، ومازن بن نجّار، ودينار بن نجّار. وكانوا يعيشون بين الحرّتين الشّرقيّة والغربيّة. وهناك نزل رسول الله ﷺ وفيها شيّد المسجد أيضاً. وكان بنو النجّار أخوال رسول الله ﷺ. والأماكن الّتي سكنها الأوس كانت تقع حوالي المناطق اليهوديّة من المدينة في الحرّة الشّرقيّة وضواحي قبا. وكانت هذه الأماكن تتمتّع بأراضٍ خصبة صالحة للزّراعة. وللأوس أحلاف مع بني قريظة.

وكان التّاريخ الّذي هاجرت فيه هذه القبائل اليمانيّة إلىٰ شمال الجزيرة، وأسباب الهجرة مثار اهتمام الأخباريّين والمؤرّخين. ويتركّز معظم هذا الاهتمام علىٰ سيل العرم ودمار سدّ مأرب الذي استتبعه هجرة عدد كبير من قبائل الجنوب إلىٰ شتّىٰ مناطق الجزيرة (منها هجرة خزاعة إلىٰ مكّة). وحام الشّكّ حول الرأي القائل بهجرة الأوس والخزرج بعد سيل العرم. وقيل إنّ هذه الهجرة يمكن أن تكون لها أسبابها السياسيّة والعسكريّة ـ النّزاعات بين القبائل وحبّ السلطة عند الأحباش والحكّام المحلّيّين في تلك النّقاط ـ وكذلك الاقتصاديّة[١].

وثمّة تخمين حول تاريخ هذه الهجرة، وهو أنّها تحقّقت حوالي سنة ٣٤٧ م، في حين كان سيل العرم بين سنة ٤٥٠ و٤٧٧م تقريباً. وهكذا كانت هجرتهم قبل سيل العرم بسنين. مع أنّه لا يُستبعَد وجود سيل آخر دفعهم إلى الهجرة[٢]. وكان لهجرة هذه القبائل إلىٰ يثرب واستيطانها فيها أن تسبّب مشاكل لليهود هناك. وقيل إنّها أقامت في البداية علاقات مناسبة معهم عبر المعاهدات الّتي وقّعوها فيما بينهم، بيد أنّها تفوّقت عليهم تدريجاً لتكاثر العرب، وأصبح اليهود أقلّيّة، لكنّها أقلّيّة قويّة. ثمّ شهد

---

(١) حول أسباب هجرتهم انظر: *يثرب قبل الإسلام*: ٦٧ ـ ٧٢.

(٢) انظر: *يثرب قبل الإسلام*: ٧٢، ٧٣.

تواتر الأيّام نزاعاً بين جميع الطّوائف اليهوديّة والعربيّة لأسباب اقتصاديّة، وعصبيّات قبليّة، وساد ما كان قائماً بين القبائل من حرب وحلف في أرجاء الجزيرة العربيّة بأسرها. ونشبت بين الأوس والخزرج حروب كثيرة، ومن المحتمل أنّها كانت بتحريض اليهود الّذين كانوا يرون أنفسهم مغلوبين.

ومن أولى الحروب الّتي شُنّت بينهما ما اشتهر عند المؤرّخين «بيوم سمير» [أو سميعة]. وتلته اشتباكات أخرىٰ (كان بعضها في الأشهر الحرم فاتّخذ اسم الفجّار [غير حروب الفجّار في مكّة وأطرافها]). وآخرها حرب البُعاث (اسم منطقة قريبة من الحرّة الشّرقيّة) الّتي كانت حرباً طاحنةً بينهما. وقُتل في هذه الحرب الّتي يُحتمَل أنّها وقعت قبل السّنة الأولىٰ للهجرة بخمس سنين كثير من أكابرهم. وذهبت عائشة إلىٰ أنّ هذه الحرب ومقتل سادتهم فيها مقدّمة لظهور الإسلام في المدينة[١].

ونقل أبو الفرج الإصفهانيّ التّفاصيل المتعلّقة بواقعة البُعاث[٢]. وفي هذه الحرب انتصر الأوس على الخزرج (على الرغم من مقتل حضير الكتائب [والد الصّحابيّ أُسيد بن حضير] الّذي كان رئيسهم).

ولم يفرط الأوس في قتل الخزرج مع هزيمة هؤلاء. وهمّوا بتفضيلهم ـ وهم إخوتهم ـ على الثّعالب. ولعلّ هذا التّعبير يشير إلى اليهود الرّواغين[٣]. وهذا الضّرب من الحروب يمكن أن ينبع في البداية من حسد الخزرج للأوس على الأراضي الخصبة الّتي كانت تحت تصرّفهم (وتصرّف حلفائهم اليهود)[٤]، ثمّ يتواصل بثارات متكرّرة

---

(١) *البخاري* ٢: ٣٠٩ و٣٢٠ (ومصادر أُخرىٰ ستأتي في الحديث عن أسباب الانتشار السّريع للإسلام في المدينة).

(٢) *الأغاني* ١٧: ١١٧ ـ ١٢٨.

(٣) نفسه ١٧: ١٢٥. [يا معشر الأوس أسجحوا ولا تهلكوا إخوتكم فجوراً هم خيرٌ من جوار الثّعالب] أسجحوا أي: أحسنوا العفو.

(٤) جاء علىٰ لسان زعيم من الخزرج أنّ بياضة بن عمرو أنزلكم منزل سوء. والله لا يمسّ رأسي غسلاً حتّىٰ أنزلكم منازل بني قريظة والنّضير... وكان لهم غزار المياه وكرام النّخل. انظر: *وفاء الوفاء* ١: ٢١٧.

ينادي بها الفريقان. وحريّ بالقول أنّ الخزرج كانوا ضعف الأوس تقريباً. ويتبيّن هذا من إحصاء المبايعين منهما في العقبة الثانية، وكذلك من أسماء شهداء أُحد. ومن المحتمل أنّ بعض الطّوائف من الخزرج أو الأوس لم يشترك في بعض الحروب الجاهليّة. وكان للأوس حلف مع يهود بني قريظة، وقد ترك آثاره في التاريخ الإسلاميّ لاحقاً، وذلك في غزوة بني قريظة. كما كان لرجال من الخزرج علاقات ودّيّة بيهود بني النّضير، واستبانت آثارها أيضاً في غزوة بني النّضير. وفي الوقت نفسه ثمّة أدلّة علىٰ تحريضات اليهود لإثارة الخلاف بين الأوس والخزرج قبل الإسلام وبعده[1]. وكان بعض القبائل العربيّة ـ خلا الأوس والخزرج ـ يعيش في أطراف المدينة. منها قبيلة «مُزينة»، و«سليم» اللّتان كانتا تسكنان في شرق المدينة، ولهما حلف مع بعض بطون الأوس. وكذلك كانت قبيلة «جهينة» حليفةً لبعض الخزرج، وتوطّنت في غرب المدينة. وكانت قبيلة «أشجع» في شمالها، وتحالفت مع بعض الخزرج[2].

من منظار دينيّ كانت القبائل القاطنة في يثرب بأسرها صنميّة، أو مشركة في الاصطلاح القرآنيّ. من هنا كانت أواصرها بمكّة المقدّسة ومشركيها جِدَّ وطيدة. ويمكن أن نقول: إنّهم كانوا يراعون جميع الآداب الصنميّة عند قريش والشّعائر المنحرفة المتبقّية من ملّة إبراهيم عليه السلام، الّتي كان يراعيها المكّيّون. وهكذا كانت أواصرهم الثّقافيّة بمكّة واسعةً جدّاً. وفي مقابل ذلك لم تربطهم آصرة فكريّة بيهود

---

(١) انظر: *تفسير الطبريّ* ٧: ٥٥. وجاء فيه علىٰ لسان شاس بن قيس اليهوديّ حين رأىٰ وحدة الأوس والخزرج في ظلّ الإسلام: «قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد، لا والله، ما لنا معهم إذا اجتمع ملأهم بها من قرار». ورُويت أخبار حول تحريضات اليهود لإثارة الخلاف عند الحديث عن قوله تعالىٰ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٠٠)، انظر: *أسباب النّزول*: ٧٧.

(٢) *يثرب قبل الإسلام*: ١٣٣.

المدينة ولم يخضعوا لأدنىٰ تأثير بهم قطّ. وكذا الحال بالنسبة إلى النّصارى الّذين لم يكن لهم وجود في مدينتهم طبعاً، مع أنّ قوافلهم التّجاريّة كانت تتردّد علىٰ منطقتهم قادمةً من نجران أو اليمن متّجهةً صوب الشّمال[١]. وإنّ غياب تأثير اليهود الواسع على العرب يعود معظمه إلىٰ إهمال اليهود نشر دعوتهم. وهم الّذين كانوا يرون أنفسهم شعب الله المختار، وأضفوا علىٰ دينهم صبغةً عنصريّة. يضاف إليه أنّ تصوّر الأوس والخزرج يتمثّل في أنّ الدّين المحلّيّ للمنطقة هو عبادة الأصنام فلا ينبغي أن يكترثوا بدين آخر دخيل عليهم. مع هذا ذكر اليعقوبيّ أنّ جمعاً من الأوس والخزرج قد تهوّدوا بسبب مجاورتهم ليهود خيبر، وبني قريظة، وبني النّضير[٢].

ولمّا كان لكلّ قبيلة من القبائل العربيّة صنم خاصّ بها تُقبل عليه ـ وتحترم سائر الأصنام أيضاً ـ فإنّ الأوس والخزرج كانوا يتوجّهون إلىٰ صنم مناة ويعبدونه. ويقع الصّنم المذكور قريباً من البحر الأحمر في منطقة قديد ـ جنوب غرب يثرب ـ وكان عرب يثرب يُكنّون له احتراماً بالغاً[٣]. وقيل إنّ الأوس والخزرج كانوا يتوجّهون إلىٰ مكّة لأداء مناسك الحجّ، بيد أنّهم يذهبون عند «مناة» لحلق رؤوسهم، وبذلك يرون حجّهم تامّاً مقبولاً[٤]. وسنشير لاحقاً إلىٰ أنّ مفردات من الرؤية الحنيفيّة

---

(١) من الطّبيعيّ يمكن أن نجد أشخاصاً في القبائل العربيّة قد تنصّروا. وورد كلام حول تأثّر يثرب وبعض توابعها كوادي القرىٰ بالنّصرانيّة تأثّراً محدوداً. انظر: ***يثرب قبل الإسلام***: ١١٠. وعلى الرغم من النّصوص التّاريخيّة الصّريحة علىٰ أنّ الأوس والخزرج كانوا يعبدون الأصنام ذهب شيخو إلىٰ أنّهم كانوا يدينون بالنصرانيّة، وذلك من خلال عرضِهِ تخمينات بعيدة عن الأذهان. انظر: ***النّصرانيّة وآدابها بين عرب الجاهليّة***: ١١٤، ١١٥.

(٢) ***تاريخ اليعقوبيّ*** ١: ٢٥٧؛ ووردت أسماء جملة من الطّوائف اليهوديّة من القبائل العربيّة في الحلف العامّ للنّبيّ ﷺ مع المسلمين واليهود.

(٣) حول الأصنام الخاصّة بالقبائل ومحلّ نصبها انظر: ***أطلس تاريخ الإسلام***: ١٠٠، وخارطة ٣٧.

(٤) انظر: ***الأصنام***: ١٢، ١٤؛ ***المحبّر***: ٣١٣ ـ ٣١٦.

كانت قائمةً بيثرب أيضاً. ويمكن أن يعود هذا إلىٰ تأثير حنفاء مكّة أكثر ممّا يعود إلىٰ تأثير اليهود الموحّدين المدنيّين عليها. مع أنّنا ينبغي أن نقرّ بأنّ لليهود تأثيرهم على الأوس والخزرج لكونهم مثقّفين. وحدّه الأدنىٰ هو علم الأوس والخزرج بظهور نبيٍّ جديد، وقد عُدّ هذا من الأسباب الّتي دعت أهل يثرب إلىٰ تبنّي الإسلام. [انظر: البحوث القادمة]. وكانت بيئة يثرب تختلف عن بيئة مكّة من الوجهة الاقتصاديّة، مع أنّ التّجارة كانت موجودة هنا أيضاً لكنّها ليست كتجارة المكّيّين الّذين كانت لهم قوافل تجاريّة صيفيّة وشتويّة. وكان اقتصاد المدينة قائماً على الزّراعة والنّخيل الّتي كانت موجودة في مناطقها المختلفة[١]. وكان التّمر من محاصيلها الّتي تسدّ قسماً من حاجة النّاس إلى الغذاء، وإن كان شِبَع المسلمين منه قد تحقّق بعد فتح خيبر[٢]. وكان الماء يتحصّل بوفرة في المدينة، بيد أنّ حفر الآبار والحصول علىٰ ماء عذب كانا متعذّرين في جميع مناطقها[٣]. وجملة القول إنّها قياساً بمكّة كانت تتمتّع بقدرة اقتصاديّة كامنة، من هنا تميّزت عليها بمزيّة ملحوظة.

ونلحظ بين سكّان يثرب أنّ اليهود ذوو قدرة اقتصاديّة أكثر من غيرهم، لذا كانوا يحتكرون البضائع ويرابون. يضاف إليه أنّهم عرفوا بالصّناعة لاسيّما صناعة السّيوف، والرماح، والسّهام ممّا يدرّ عليهم بدخل ملحوظ مع الأخذ بعين الاعتبار الحروب المتواصلة. وينبغي أن نعدّ إهمال العرب هذه الأمور نتيجة لروحهم العربيّة واهتمامهم بالأُصول البدويّة. وأهل يثرب وإن كانوا مدنيّين إلىٰ حدٍّ ما لكنّ السّجايا العربيّة

---

(١) بالنّظر إلى الآية ٩٩ و١٤١ من سورة الأنعام يمكن أن نتعرّف علىٰ بعض المحاصيل الّتي كانت قريبة المنال لعرب الحجاز.

(٢) *فتح الباري* ٧: ٤٩٥ [كانت عائشة تقول: ما شبعنا حتىّ فتحت خيبر].

(٣) حول بيع اليهود ماء بئر رومة انظر: ***وفاء الوفاء*** ٣: ٩٧٠؛ وأيضاً ***الصّحيح من سيرة النّبيّ*** ﷺ ٣: ١١٣ ـ ١١٩. ويرى الأستاذ العامليّ فيه أنّ عثمان هو الّذي اشترى البئر المذكورة أيّام خلافته.

البدويّة (الّتي كانت شائعة في تلك البيئة) قد تركت أثرها عليهم أيضاً. وما الحروب المتوالية للأوس والخزرج إلّا تعبير عن هذه الرّوح[١].

المسلمون الأُوَل في يثرب

اختلف المؤرّخون حول المسلمين الأُوَل في يثرب. ولا بدّ أن يكون تردّد أهلها علىٰ مكّة قد أطلعهم علىٰ أصل رسالة النّبيّ ﷺ، بيد أنّنا يندر أن نجد خبراً حول من رغب في الإسلام منهم قبل السّنة العاشرة للبعثة. وتدلّ رواية لابن إسحاق علىٰ أنّ سويد بن الصامت ـ الّذي كان يعدّ نموذجاً من النماذج الكاملة بين أهل يثرب[٢] ـ قد التقىٰ برسول الله ﷺ في أحد أسفاره إلىٰ مكّة لأداء مناسك الحجّ أو العمرة. فدعاه إلى الإسلام، فأخبره بوجود «مجلّة لقمان»[٣] لديه، ولعلّ عنده مثلها. فقال ﷺ حين سمعه: كلام حَسَن لكن القرآن منه أحسن. فقال سويد لمّا سمع القرآن: كلام حَسَن. ولم يستبعد صحّته. ثمّ عاد إلىٰ يثرب، وقُتل قبل واقعة بُعاث. ثمّ زعم قومه بعد ذلك أنّه كان مسلماً[٤]. ولمّا كانت الواقعة المذكورة قد حدثت قبل الهجرة بخمس سنين، فإنّ مقتله لا بدّ أن يكون في إحدى السّنين الّتي سبقت السّنة الثّامنة للبعثة. ويبدو أنّ إسلامه لم يُؤَيَّدْ.

وجاء في رواية أُخرىٰ عن ابن إسحاق أيضاً أنّ جماعة من الأوس جاءوا إلىٰ مكّة

---

(١) *المفصّل* ٤: ١٤٠، ١٤١.

(٢) انظر: *الطّبقات الكبرىٰ* ٣: ٤٥٠، ٤٦٥، ٤٩٨، ٥٢٢، ٥٢٦، ٥٣١، ٥٣٦، ٦٠٤، ٦١٣. كانت للأشخاص الكَمَل صفات خاصّة منها القدرة على القراءة والكتابة.

(٣) المجلّة بمعنىٰ «الصحيفة» و«الحكمة». في خبر البلاذريّ: «الحكمة» بدل «المجلّة» (*أنساب الأشراف* ١: ٢٣٨).

(٤) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٢: ٤٢٦، ٤٢٧؛ *دلائل النّبوّة* ٢: ٤١٩.

مرّةً لكسب دعم قريش ضدّ الخزرج. فدعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام في فرصة مناسبة، واستجاب منهم إياس بن معاذ الّذي أبدىٰ رغبته فيه، فحذّره الآخرون منه. ويستشفّ من خبر ابن إسحاق أنّ واقعة بُعاث حدثت بعد ذلك بقليل، ومات إياس أيضاً بسرعةٍ. وقيل: إنّه كان يهلّل الله ويكبّره ويحمده عند موته[١]. وما من خبرٍ مألوف يُركَن إليه حول إسلامه. وثمّة خبر آخر عن السمهوديّ يذكر قدوم جماعة من الأوس إلىٰ مكّة لكسب حلفاء لهم فيها، وبعد دعوتهم إلى الإسلام قال عمرو بن الجموح: هذا خيرٌ لكم ممّا جئتم لأجله، فلم يوافقوه[٢].

ويضيف البلاذريّ في سياق الإشارة إلى الخبرين الأوّلين أنّ رجالاً من الأنصار كانوا يأتون بعد ذلك إلىٰ مكّة لإنجاز أعمالهم، ويدعوهم النّبيّ ﷺ فيخبرونه أنّهم لم يأتوا لأجل ذلك، ومنهم من سكت ولم يقل شيئاً. وقدم قيس بن حطيم حيناً ودعاه النّبيّ ﷺ إلى الإسلام. فقال إنّه سمع كلاماً عجيباً، وأراد أن يفكّر حتّىٰ تلك السّنة ويعود، لكنّه مات فيها[٣]. ونظراً إلىٰ هذه الأخبار يمكننا أن نقرّ بوجود ميول إلى اعتناق الإسلام في يثرب قبل السّنة العاشرة من البعثة وإنْ لم يكن له دعم رسميّ فيها يومئذٍ. والحدّ الأدنىٰ لذلك وجود معلومات متناثرة عن الإسلام بين أهل يثرب. وفي متناول أيدينا خبر (هاتفيّ) أيضاً هنا. فقد قيل إنّ هاتفاً كان ينادي علىٰ جبل

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٢: ٤٢٨؛ *دلائل النّبوّة* ٢: ٤٢٠؛ *عيون الأثر* ١: ٢٦٠؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن كثير ٢: ١٧٤، ١٧٥؛ *نهاية الإرب* ١٦: ٣٠٥. واكتفىٰ البلاذريّ في *أنساب الأشراف* ١: ٢٣٨ بالإشارة إلىٰ رغبة بعض هؤلاء في الإسلام.

(٢) *وفاء الوفاء* ١: ٢٢١.

(٣) *أنساب الأشراف* ١: ٢٣٨؛ وذكره ابن حجر في *الإصابة* ٣: ٢٨١، ونقل ما أوردناه في النّصّ، وأشار إلىٰ وجود أشعار كثيرة له بشأن حرب بُعاث. فلا بدّ إذاً أن يكون الخبر المذكور بعد السّنة الثّامنة للبعثة، الّتي كانت فيها حرب بُعاث.

أبي قبيس آنذاك ويقول: إذا أسلم السّعدان، فلا يخشىٰ محمّد أحداً يخالفه. وكان أبو سفيان متردّداً حول هذين السّعدين. وأنشد هاتف أيضاً شعراً آخر في الليلة التالية. فأقسم أبو سفيان حينئذٍ أنّ السّعدين هما سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة[١]. وينبغي أن نقول إنّ هذا الخبر كان بعد إظهار المذكورين إسلامهما في المدينة ونُسب إلى الهاتف.

ويحوم خلاف حول من رضي الإسلام ديناً. فرواية تذهب إلىٰ أنّ شخصين رضياه ديناً في البداية وهما أسعد بن زرارة، وذكوان بن قيس. وجاء المذكوران إلىٰ مكّة لكسب دعم عتبة بن ربيعة، بيد أنّه لمّح إلىٰ أنّهما مبتليان الآن بمحمّد ﷺ. وورد في هذا الخبر أنّ أسعد بن زرارة، وأبا الهيثم بن التيّهان كانا [يتكلّمان بالتّوحيد بيثرب]. ثمّ إنّ أسعد. وذكوان جاءا إلىٰ رسول الله ﷺ وأسلما. وعندما رجعا إلىٰ يثرب أسلم ابن التيّهان أيضاً[٢]. وذهب الواقديّ إلىٰ أنّ هذا الخبر غير صحيح إذ لم يسلم أحد من أهل يثرب قبل تلك الجماعة السّداسيّة ـ وسنتطرّق إلىٰ ذلك[٣]. ونقل ابن سعد رواية أخرىٰ أيضاً وملخّصها أنّ رافع بن مالك الزُرَقيّ ومعاذ بن (حارث المشهور بابن) عفراء قدما مكّة للعمرة قبل أولئك السّتّة، وذهبا عند رسول الله ﷺ وأسلما بعد دعوته إيّاهما. من هنا قيل إنّ «مسجد بني زريق» أوّل مسجد في المدينة قُرئ فيه

---

(١) *تاريخ الطّبريّ* ٢: ٣٨٠، ٣٨١؛ *تاريخ الإسلام؛ السّيرة النّبويّة*: ٢٨٩.

(٢) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٢١٩؛ *وفاء الوفاء* ١: ٢٢٣. حول ذكوان وخبر إسلامه واستشهاده في أحد انظر: ج٣، ص٥٩٣. وحول أسعد بن زرارة انظر: ج٣، ص٦٠٨؛ *إعلام الورىٰ*: ٥٥، ٥٦، تحدّث عن إسلام أسعد وذكوان بتفصيل أكثر، لكنّه ذكر بعد ذلك أنّ النّبيّ ﷺ بعث مصعباً معهما إلى المدينة. ونحن نعلم أنّ مصعباً ذهب اليها بعد بيعة العقبة الأولىٰ.

(٣) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٢١٩؛ وذهب الواقديّ إلىٰ أنّ هذا الخبر مجمع عليه. وانظر: *الطّبقات الكبرىٰ* ٣: ٦٠٩؛ *تاريخ المدينة المنوّرة*: ٧٧، وفيه أنّ المسجد المذكور «أوّل مسجد قرئ فيه القرآن».

القرآن[١]. وهذا الخبر لا ينسجم مع رأي الواقديّ، لذا أورد ابن سعد كلام الواقديّ نفسه بعد الخبر المذكور.

إنّ ما يصرّ عليه الواقديّ هو أنّ أوّل من أسلم من أهل يثرب هم السّتّة الّذين أسلموا علىٰ يد النّبيّ ﷺ بمكّة في السّنة الحادية عشرة للبعثة. [وأمر السّتّة النفر أثبت الأقاويل عندنا والله أعلم][٢]. ونقرأ في خبر ابن إسحاق أنّ النّبيّ ﷺ حين كان مشغولاً بدعوة القبائل في موسم الحجّ، التقىٰ بطائفة من الخزرج في العقبة، فطلب منهم أن يجلسوا عنده ليحدّثهم، فرضوا بذلك. فعرض عليهم أساس دعوته وقرأ عليهم آيات من القرآن الكريم، وكانوا قبل ذلك قد سمعوا من اليهود خبر ظهور نبيّ جديد، فاعتقدوا أنّه هو المقصود، وقبلوا دعوته. وقالوا إنّهم تركوا قومهم بأسوأ حال من العداوة والبغضاء والفتن، ورجوا أن يكونوا متّحدين بعضهم ببعض بعد قبول دعوة النّبيّ ﷺ[٣]. وهؤلاء هم أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث، ورافع ابن مالك، وقطبة بن عامر، وعقبة بن عامر، وجابر بن عبد الله بن رئاب[٤].

ومرّت الإشارة إلىٰ أنّ هؤلاء كانوا أوّل من أسلم من أهل يثرب في ضوء رأي ابن إسحاق، والواقديّ. وأورد ابن سعد قبل نقل هذا الخبر أنّ ثمانية نفر التقوا

---

(١) ***الطّبقات الكبرىٰ*** ١: ٢١٨؛ ٣: ٦٢٢. وذهب البلاذريّ في ***أنساب الأشراف*** ١: ٢٤٥ إلىٰ أنّه أوّل مسلم من الأنصار؛ ***الإصابة*** ١: ٤٩٩؛ ***وفاء الوفاء***: ٨٥٧. ونقل النويريّ هذه الجملة عن الواقديّ، انظر: نهاية الإرب ١٦: ٣١٢. من هنا ينبغي أن نفسّر رأي الواقديّ بنحو يرتبط بإسلام الشّخص المذكور. ويتمثّل خبر الزبير بن بكّار في أنّه حين أسلم علّمه النّبيّ ﷺ كلّ ما أُنزل عليه، وكان نفسه يقرأه على النّاس في مسجده، انظر: ***الإصابة*** ١: ٤٩٩.

(٢) ***الطّبقات الكبرىٰ*** ٣: ٦٢٢.

(٣) ***السّيرة النّبويّة***، ابن هشام ٢: ٤٢٨، ٤٢٩؛ ***تاريخ الطّبريّ*** ٢: ٣٥٤؛ ***الطّبقات الكبرىٰ*** ١: ٢١٩؛ ***دلائل النّبوّة***، البيهقيّ ٢: ٤٣٤، ٤٣٥؛ ***مجمع الزوائد*** ٥: ٤٢؛ ***وفاء الوفاء*** ١: ٢٢٣.

(٤) ***الطّبقات الكبرىٰ*** ١: ٢١٩؛ ***السّيرة النّبويّة***، ابن هشام ٢: ٤٢٩، ٤٣٠.

بالنّبيّ ﷺ بمنىٰ وأظهروا الإسلام، وهم معاذ بن عفراء، وأسعد بن زرارة، ورافع بن مالك، وذكوان بن قيس، وعبادة بن الصّامت، وعبد الرّحمٰن بن يزيد، وأبو الهيثم بن التيّهان، وعُويم بن ساعدة. وقالوا: سنعمل لله وللرسول. ونحن متخاصمون، إذ لم تمرّ علىٰ بُعاث الّتي قُتل فيها رجال منّا إلّا سنة واحدة، فإذا جئتنا الآن فلا يجتمع عليك أحد، أمهلنا نرجع إلىٰ أهلينا، وسيصلح الله بيننا إن شاء، وموعدنا وإيّاك العام المقبل في موسم الحجّ[١]. ولم يرد هذا في الخبر الأوّل الّذي كان ابن إسحاق رواه، وفيه أسماء السنّة، لكن ورد ما يُشبهه في خبر آخر يعبّر عن هذا الخبر أيضاً[٢]. وذكر محمّد بن صالح الشّاميّ أنّ الخبر الوارد عن ابن إسحاق هو خبر السّتّة، إلّا أنّنا نلحظ في نقل جرير بن أبي حازم عنه اسم معاذ بن عفراء مكان عقبة بن عامر. ويضيف أنّ ما جاء في نقل موسىٰ بن عقبة عن الزّهريّ عن عروة بن الزّبير[٣] هو أنّهم كانوا ثمانية. ثمّ ذكر أسماءهم[٤]. ولابدّ أن يكون النقل السّابق لابن سعد هو رواية الزّهريّ عن عروة.

ويبدو أنّ رواية ابن إسحاق والواقديّ أدقّ من الخبر المرويّ عن موسى بن عقبة. والفهرس الّذي عرضه يُشبه كثيراً قائمة من حضر في بيعة العقبة الأولىٰ ـ الوفد الّذي ضمّ اثني عشر شخصاً[٥]. وهكذا يُحتمَل الخلط بين أولئك الأشخاص وبين الوفد السُّداسيّ الأوّل[٦]. ونقرأ في خبر آخر أنّ هذا الوفد كان سُباعيّاً، إذ نجد اسم عامر

---

(١) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٢١٨، ٢١٩. (٢) *سبل الهدىٰ والرشاد* ٣: ٢٦٨.

(٣) *مغازي رسول الله* ﷺ، *عروة بن الزّبير*: ١٢١ ـ ١٢٣؛ *مجمع الزّوائد* ٥: ٤٠؛ *تاريخ الإسلام*، *السّيرة النّبويّة*: ٢٩٤.

(٤) *سبل الهدىٰ والرشاد* ٣: ٢٦٨ و٢٦٩؛ *دلائل النّبوّة*، البيهقيّ ٢: ٤٣٠ و٤٣١.

(٥) انظر: نفسه: ٢٧٠.

(٦) *دلائل النّبوّة*، البيهقيّ ٢: ٤٣٣. وبعد ذكره ما نقل موسى بن عقبة من رواية ابن إسحاق ذهب إلىٰ أنّها أصحّ من غيرها كما فعل ابن كثير في *السّيرة النّبويّة* ١: ١٧٨.

ابن عبد حارثة مع السّتّة المذكورين[١]. وبعد إسلام هؤلاء ورجوعهم إلىٰ يثرب تغلغل الإسلام في أعماق الطّوائف المختلفة للأوس والخزرج. وذكر ابن إسحاق أنّه لم يبق بيت إلّا وفيه كلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[٢].

بيعة أهل يثرب للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم

١ ـ البيعة الأُولىٰ لمسلمي يثرب مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

لمّا انتشر خبر الإسلام في يثرب أسلم عدد آخر من أهلها مضافاً إلىٰ من أسلم منهم بمكّة. والتقى اثنا عشر منهم بالنّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في العقبة في موسم السّنة المقبلة ـ السّنة الثانية عشرة للبعثة ـ (المقصود من العقبة جمرة العقبة بمنىٰ حيث يقع مسجد البيعة في جانبه، وذكره المؤرّخون المتأخّرون)[٣]، وكان عشرة منهم خزرجيّين[٤]، واثنان أوسيّين[٥]. (وذهب المقريزيّ إلىٰ أنّ تسعة منهم خزرجيّون، وثلاثة أوسيّون)[٦]. وهؤلاء بايعوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند لقائهم به. واشتهرت هذه البيعة ببيعة النّساء. وهذا الاسم مأخوذ من محتوى البيعة الّتي أُخذت من النّساء بعد الفتح علىٰ أساس الآية الثّانية عشرة من سورة الممتحنة كما نقل السمهوديّ ذلك [اقرأ ما بعد

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٢: ٤٣٠؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٢١٩؛ *دلائل النّبوّة* ٢: ٤٣٥.

(٢) *عيون التواريخ* ١: ٩٠.

(٣) *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٣: ٢٦٩؛ *معجم البلدان* ٤: ١٣٤.

(٤) وهم أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث، ومُعاذ بن الحارث، وذكوان بن عبد قيس، ورافع بن مالك، وعبادة بن الصّامت، ويزيد بن ثعلبة، والعبّاس بن عبادة، وعقبة بن عامر، وقطبة بن عامر. وفي خبر آخر اسم جابر بن عبد الله مكان عبادة بن الصّامت، *الدرر*: ٣٨.

(٥) وهما أبو الهيثم بن التيّهان، وعويم بن ساعدة.

(٦) عدّ منهم البراء بن معرور الأوسيّ (*إمتاع الأسماع* ١: ٣٣).

الحديبيّة][١]. ولمّا كانت هذه السّورة نزلت بعد صلح الحديبيّة (إذا كان عنوان «بيعة النساء» مأخوذاً من هذه الآية) فلا جرم أنّ المؤرّخين اختاروا العنوان المذكور لتلك البيعة لاحقاً. والثّابت هنا هو أنّ حكم الجـهاد لم يُشرّع وقتئذٍ [ولم يُفْرَضْ يـومئذٍ القتالُ][٢]. وفسّر بعض الباحثين بيعة النساء بالبيعة الّتي لم يُفرَضْ فيها القتال (مـن المحتمل أنّ هذا الرّأي يستند إلىٰ خلوّ البيعة من اسم القتال)[٣]. ومحتواها أنّ المسلمين يتعهّدون بألّا يشركوا بالله، ولا يسرقوا ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم، ولا يكذبوا في مولود يوجد [بنسبته إلىٰ غير أبيه افتراءً][٤]، ولا يعصوا في معروف. «فمـن وفىٰ ذلك فأجره على الله» [وفي لفظ آخر: «فله الجنّة»]. ومن لم يَفِ يعذّبْه الله أو يعفو عنه [وجاء في نقل آخر: «ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدّنيا فهو له كفّارة وطهور، ومن أصاب من ذلك [شيئاً] فستره الله فأمره إلى الله إن شاء عذّب وإن شاء غفر»][٥]. وإذا استثنينا التفاصيل الأخرىٰ فإنّ محتوى البيعة هو عين ما جاء في الآية الثانية عشرة من سورة الممتحنة[٦]. وتعرف هذه البيعة ببيعة «العقبة الأولىٰ» أو بيعة «العقبة الصّغرىٰ».

ونُقل محتوى البيعة عن عبادة بن الصّامت بشكل آخر. وذكره الذّهبيّ في تاريخ

---

(١) ***وفاء الوفاء*** ١: ٢٢٤؛ وانظر: ***أنساب الأشراف*** ١: ٢٣٩؛ ***سبل الهدىٰ والرشاد*** ٣: ٢٧١؛ ***السّيرة النبويّة***، ابن كثير ٢: ١٨٠. تعبير السمهوديّ «بعد الفتح»، ولابدّ أن يكون خطأً إذ إنّ الآية علىٰ ما ذكر المفسّرون تتناول هجرة النساء بعد صلح الحديبيّة (***مجمع البيان*** ٩: ٢٧٤).

(٢) ***الطّبقات الكبرىٰ*** ١: ٢٢٠.

(٣) ***الصحيح من سيرة النّبيّ*** ﷺ ١: ١٩٩.

(٤) ***مجمع البيان*** ٩: ٢٧٦؛ وانظر أيضاً: ***السيرة الحلبيّة*** ٢: ٧.

(٥) ***السّيرة النّبويّة***، ابن هشام ٢: ٤٣٣؛ ***سبل الهدىٰ والرّشاد*** ٣: ٢٧٠؛ ***تاريخ الطّبريّ*** ٢: ٣٥٦.

(٦) ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ ٱلْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

الإسلام [السّيرة النبويّة] في بيعة العقبة الأُولىٰ، ولابدّ أن يكون سهواً. وهذا الخبر يتعلّق بأُمور طُرحت في البيعة الثّانية. وأشار السمهوديّ إلىٰ أنّ حكم القتال (الجهاد) لم ينزل يومئذٍ، وأضاف أنّه لم ينزل قبل هذه البيعة إلّا حكم الصّلاة والتـوحيد[١]. والحقيقة هي أنّ محتوىٰ هذه البيعة نزول عدد من الأحكام الطّبيعيّة والفطريّة. فالزنا لا يمكن أن يكون محموداً عند العرب (وعند غيرهم من الأقوام الأخرىٰ). وكذلك السّرقة، وقتل الأولاد، والكذب بشدّة أكثر. وحينئذٍ ينبغي أن نـقول: إنّ حـديثي العهد بالإسلام من أهل يثرب بايعوا رسول الله ﷺ على الأُصول الفطريّة. ويجب ألّا نغفل جاذبيّة مثل هذه الخطوة. فهؤلاء عادوا إلىٰ يثرب و«قدموا علىٰ قومٍ قابلين للإسلام»[٢]، حتّىٰ امتدّ الإسلام هناك واتّسع نطاقه. وفي هذا المجال يحوم خلاف حول إيفاد النّبيّ ﷺ مصعب بن عمير إلى المدينة بدعوة مسلميها، هل كان وقت ذهاب المبايعين المذكورين، أو بعد حين؟ فقد ذهب ابن إسحاق إلى الرأي الأوّل[٣]، مع أنّ الرأي الثّاني روي عنه أيضاً[٤]. أمّا البلاذريّ، وابن سعد فقد ذكرا أنّ أهل يـثرب كتبوا إلى النّبيّ ﷺ وطلبوا منه أن يبعث إليهم مصعب بن عمير ليعلّمهم القـرآن، وذلك بعد مضيّ مدّةٍ[٥].

وجاء في خبر ابن شهاب أنّهم أرسلوا إليه معاذ بن عفراء، ورافع بن مالك ليبعث إليهم من يعلّمهم الدّين[٦]. ويبدو أنّ هذا الرأي أصوب من غيره. ويعضده عدد من الأخبار الآتية: قيل: إنّ أسعد بن زرارة كان «أوّل من جمع النّاس بالمدينة». وذكر

---

(١) *وفاء الوفاء* ١: ٢٢٤.
(٢) *أنساب الأشراف* ١: ٢٣٩.
(٣) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٢: ٤٣٤؛ *تاريخ الطّبريّ* ٢: ٣٥٧ (عن ابن إسحاق)؛ *إمتاع الأسماع* ١: ٣٥؛ *عيون الأثر* ١: ٢٠٨.
(٤) *دلائل النبوّة*، البيهقيّ ٢: ٤٣٧.
(٥) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٢٢٠؛ *أنساب الأشراف* ١: ٢٣٩؛ *السّيرة الحلبيّة* ٢: ٨.
(٦) *السّيرة النّبويّة*، الذّهبيّ: ٢٩٤.

السهيليّ بشأن هذا «الاجتماع في الجمعة» أنّه كان قبل نزول حكم (صلاة) الجمعة، وأنّه نزل بعد هجرة النّبيّ ﷺ فحسب. ونقل المؤرّخون أنّ الأوس والخزرج لمّا كانوا يكرهون أن يؤمّ أحدٌ منهم [بسبب الخلافات القبليّة]، أرادوا أن يتولّىٰ مصعب ابن عمير إمامتهم[١]. مع أنّ السّمهوديّ ذهب في هذا الخبر إلىٰ أنّه كان أوّل من «أجمع النّاس في الجمعة»، لكن يمكن أن نقول: كان هذا الأمر بعد أن جمع أسعد النّاس، وطُرحت قضيّة الإمامة في أوساطهم، فطلبوا من النّبيّ ﷺ أن يبعث إليهم مصعباً. وإذا كان مصعب أوّل من أقام الاجتماع الأوّل في الجمعة، فلا معنىٰ لذكر أسعد بن زرارة في المصادر الأُخرىٰ، مع أنّه لا ينبغي أن تطول هذه المدّة.

وذكر البيهقيّ أنّ الجمع بين الخبرين يتلخّص في أنّ مصعباً كان أوّل من أقام الجمعة بحماية أسعد[٢]. وقال ابن سعد في مصعب أيضاً: «أوّل من جمع في النّاس جمعة»[٣] ونُصَّ في خبر آخر علىٰ «يوم الجمعة»[٤].

وجاء في روايةٍ أنّ عدد هؤلاء الأفراد في الجمعة الأولىٰ (أو أحد الاجتماعات الأُولىٰ) أربعون شخصاً[٥]. وكانوا يجتمعون في القسم المسطّح من حرّةٍ تُعرَفُ بحرّة نقيع الخضمات[٦] (يبدو أن ذلك كان للاختباء). والثّابت هو إضافة عدد من الأشخاص إلى النفر الموجودين بنحو سريع، وقيام مصعب بخطوات كثيرة في بثّ الإسلام بين أهل يثرب بدعم من أسعد الّذي كان يعيش مصعب عنده. والسّبب

---

(١) ***وفاء الوفاء*** ١: ٢٢٤؛ ***السّيرة النّبويّة***، ابن كثير ٢: ١٨١ (عن ابن إسحاق)؛ ***عيون الأثر*** ١: ٢٠٨.

(٢) ***دلائل النّبوّة***، البيهقيّ ٢: ٤٤١؛ ***وفاء الوفاء*** ١: ٢٢٤ (عن البيهقيّ مع توضيحات أكثر).

(٣) ***الطّبقات الكبرىٰ*** ٣: ١١٨، ١١٩. ونقل القول المتعلّق بأسعد أيضاً.

(٤) ***الأوائل***، ابن أبي عاصم: ٤٠.

(٥) ***دلائل النّبوّة***، البيهقيّ ٢: ٤٤١؛ ***وفاء الوفاء*** ١: ٢٢٤.

(٦) ***إمتاع الأسماع*** ١: ٣٥.

الآخر لإرسال مصعب ـ بعد قدوم الاثني عشر إلىٰ يثرب رواية عن عروة؛ وجاء فيها أنّهم كتبوا إلى النّبيّ ﷺ بإرسال شخص من قبله يدعو النّاس إلىٰ كتاب الله [فإنّه أدنىٰ أن يُتَّبَع]. وأضاف أنّهم كانوا يدعون النّاس خفيةً[١]. والأُسلوب الأكثر استعمالاً في الدّعوة هو قراءة القرآن. من هنا كان مصعب بن عمير يُعرَف بالمقرئ[٢].

ونقل البلاذريّ خبر تولّي أسعد إمامة الصّلاة قبل قدوم مصعب عن جماعة ذكروا أنّه كان يقرأ القرآن فحسب حتّىٰ بعد مجيء مصعب. وكان أسعد يؤمّ النّاس في الصّلاة قبل قدوم سالم مولىٰ حذيفة، بعد بدء الهجرة[٣].

و ذكر الواقديّ أيضاً أنّ الرّواية الصّحيحة هي أنّ مصعباً كان يقرأ القرآن، وأسعد يؤمّ النّاس في الصّلاة[٤]. ولا تنسجم هذه الرّواية مع الرّوايات السّابقة الّتي يقول بعضها إنّ الأوس والخزرج كانوا في نزاع حول إمامة شخص منهما. وورد في خبر آخر (عن ابن عبّاس) أنّ النّبيّ ﷺ كتب إلىٰ مصعب بعد قدومه إلىٰ المدينة أن يقيم الجمعة[٥]. ونلحظ أنّ الاختلاف في الرّوايات المذكورة نابع إلىٰ حدٍّ ما من التّعارض بين أخبار الرّواة المدنيّين والمكّيّين (القرشيّين). وبغضّ النّظر عن هذا الاختلاف، فإنّ ما تتّفق عليه الرّوايات المعهودة هو الدور الّذي قام به الاثنان في بثّ الإسلام بيثرب[٦]. وجاء في خبر آخر أنّ ابن أمّ مكتوم أُرسل إلى المدينة مع مصعب[٧].

---

(١) ***مجمع الزّوائد*** ٦: ٤١ (عن ***معجم الطّبرانيّ***)؛ ***وفاء الوفاء*** ١: ٢٢٥؛ ***مغازي رسول الله*** ﷺ، عروة بن الزبير: ١٢٣.

(٢) ***مجمع الزّوائد*** ٦: ٤٢.

(٣) ***أنساب الأشراف*** ١: ٢٣٩.

(٤) ***أنساب الأشراف*** ١: ٢٤٣.

(٥) ***وفاء الوفاء*** ١: ٢٢٥ (عن ***سنن الدارقطني***)؛ ***السّيرة النّبويّة***، ابن كثير ٢: ١٨١؛ واستُفيد من هذه الرّواية أنّ النّبيّ ﷺ أذن لهم بإقامة الجمعة. انظر: ١: ٢٠٩.

(٦) ***أنساب الأشراف*** ١: ٢٤٣؛ أكّد دور سعد [اجتهد في دعاء النّاس إلى الإسلام حتّىٰ فشىٰ بالمدينة وكثر، فكان يجمع بهم في المدينة كلّ جمعة]. وتوفّي بعد الهجرة بتسعة أشهر.

(٧) ***الدرر***: ٣٩؛ ***عيون الأثر*** ١: ٢٦٥؛ ***إمتاع الأسماع*** ١: ٣٤؛ ***السّيرة الحلبيّة*** ٢: ٨؛ ***جوامع السّيرة النّبويّة***، ابن حزم: ٥٧.

ولا ينبغي أن يكون هذا الخبر صحيحاً نوعاً ما، مع أنّنا نعلم أنّ الشّخص المذكور يُعَدُّ أوّل مهاجر إلى المدينة بعد مصعب.

وكان أهمّ إنجاز قام به مصعب وأسعد هو إدخالهما سعد بن معاذ في الإسلام. ونقل ابن إسحاق أنّهما استقرّا قرب بيوت بني عبد الأشهل، وبني ظفر. وحين علم سعد بن معاذ وأُسيد بن حضير بهما همّا بإخراجهما من ذلك المكان (وكان أسعد ابن خالة سعد ابن معاذ). فأتاهما أسيد بن حضير أوّلاً، لكنّه تفاعل مع آيات من القرآن سمعها منهما فأسلم، وتلاه سعد بن معاذ فكان من أمره ما كان من أمر صاحبه.

وقدم سعد بعد إسلامه إلىٰ بني عبد الأشهل، وبوصفه سيّدهم وكبيرهم فقد طلب منهم أن يُسلموا. فلبّوا دعوته، وأسلم بنو عبد الأشهل رجالهم ونساؤهم أجمعين[١]. وأفضىٰ هذا الإقبال إلىٰ تغلغل الإسلام في بيوتات الأوس الأخرىٰ ـ إلّا بعضها ـ ومن ثمّ دخل الإسلام في معظم الأُسر اليثربيّة. وذكر ابن إسحاق أنّ الّذي حال دون إسلام بعض الأوس هو وجود أبي قيس بن الأسلت بين ظهرانيهم. وهو الّذي كان يُبدي ميولاً حنيفيّة أيضاً[٢]. وأورد الشّاميّ توضيحات أكثر عن مغازي سعيد بن يحيى الأمويّ[٣]. وجاء في ذيل ترجمة أبي قيس أنّه كان متأثّراً بعبد الله بن أُبيّ. والأخبار المتعلّقة به، وهل أسلم أم لا، غير واضحة إلىٰ حدٍّ ما[٤].

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٢: ٤٣٧؛ *السّيرة النّبويّة*، الذّهبيّ: ٢٩٥ ـ ٢٩٧؛ ***سبل الهدىٰ والرّشاد*** ٣: ٢٧٣، ٢٧٤.

(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٢: ٤٣٧ (انظر: الهامش الآتي).

(٣) ***سبل الهدىٰ والرشاد*** ٣: ٢٧٥؛ أنكر محقّق الكتاب أن يكون أبو قيس من المتألّهين في الجاهليّة. وذكر أنّ هذا الأمر يرتبط بأبي قيس صرمة بن أبي أنس. انظر: **الاستيعاب** ٤: ١٥٧، ١٥٨. ولا ينسجم هذا الموضوع مع ما ذكره ابن إسحاق، ص٤٣٨.

(٤) انظر: ***الإصابة*** ٤: ١٦١؛ ***الاستيعاب*** ٤: ١٦٠.

وأشار ابن عبد البرّ إلىٰ أنّ عدداً كبيراً من النّاس أسلم بدعوة مصعب، وأنّ بني عبد الأشهل كلّهم أسلموا في يوم واحد، وذهب إلىٰ أنّ مخالفة بعض الأوس تعود إلىٰ أبي قيس بن الأسلت، بيد أنّه (كابن إسحاق) ذكر أنّه أسلم بعد الخندق[١]. وجاء في بعض الأخبار أنّ مصعباً ذهب بعد مدّة إلىٰ مكّة للحجّ ومعه سبعون من مسلمي يثرب. وما يستشفّ ممّا نقله ابن إسحاق، والبلاذريّ[٢]، وابن كثير[٣]، والبيهقيّ[٤]، وابن سعد[٥] أنّ البيعة تحقّقت مرّتين. الأولىٰ بيعة العقبة الأولىٰ أو الصّغرىٰ، والأُخرىٰ بيعة العقبة الثّانية. لكنّ بعض الكتب ذكرت هذا التقسيم بنحو آخر. فقد ذهب ابن عبد البرّ مثلاً إلىٰ أنّ العقبة الأُولىٰ ضمّت ستّة من الخزرج، والثّانية اثني عشر، والثّالثة سبعين منهم[٦].

وكذلك فعل صاحب كتاب سبل *الهدىٰ والرّشاد*، وكتاب عيون *الأثر*[٧]. وذكر السّمهوديّ العقبة الصّغرىٰ والكبرىٰ، وقال في ذيل العنوان الثّاني: يسمّيها البعض العقبة الثّانية، لكن لا ينبغي أن تُسمّى الثّالثة بناءً علىٰ ما سلف[٨]. ويبدو أنّ سهواً قد حصل بالنسبة إلى الجماعة الثّانية. وصحيح أنّهم التقوا ثلاث مرّات في ثلاث جماعات بيد أنّ البيعة قد تحقّقت مرّتين فحسب ـ بيعة الاثني عشر، وبيعة السّبعين. ولم تذكر بيعة الجماعة الأولىٰ في الأخبار التّاريخيّة[٩]. ولا بدّ من التذكير أنّ لقاءً كان قد جرىٰ في العقبة أوّلاً.

---

(١) *الدّرر*: ٣٩، ٤٠؛ وانظر: *السّيرة النّبويّة*، ابن كثير ٢: ١٨٥ ـ ١٩١. يبدو أنّه خلط بين أبي قيس بن الأسلت، وأبي قيس صرمة بن أنس.

(٢) *أنساب الأشراف* ١: ٢٣٩.

(٣) *السّيرة النّبويّة*، ابن كثير ٢: ١٧٩ و١٩٢.

(٤) *دلائل النّبوّة* ٢: ٤٣٠ و٤٤٢.

(٥) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٢١٩ و٢٢١.

(٦) *الدّرر*: ٣٨ ـ ٤٠.

(٧) *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٣: ٢٦٧، ٢٧٠، ٢٧٧؛ *عيون الأثر* ١: ٢٦٢، ٢٦٣.

(٨) *وفاء الوفاء* ١: ٢٢٨.

(٩) قال الحلبيّ: «فلم يقع لهؤلاء السّتّة أو الثّمانية». (*السّيرة الحلبيّة* ٢: ٧. وفي نفس الوقت نقل قولاً يذهب إلىٰ أنّها العقبة الأولىٰ).

٢ ـ بيعة العقبة الثّانية

أثمرت الجهود الّتي بذلها المسلمون الأُوَل في يثرب، وكذلك مصعب بن عمير رسول رسول الله ﷺ في تغلغل الإسلام في قلوب عدد كبير من أهل تلك المنطقة. وكان هذا التّغلغل بفضل قراءة القرآن عليهم فحسب. وهكذا عزم المسلمون علىٰ أن يأتوا مكّة في قافلة خلال موسم الحجّ القادم، ويبايعوا رسول الله ﷺ. وكان من بواعثهم علىٰ هذا العمل أن يخلّصوا النّبيّ ﷺ من العنت والشّدائد الّتي يلاقيها في مكّة[1]. وكانوا خمسمائة وبينهم سبعون مسلماً. وذكر البلاذريّ أنّ عدد المبايعين في العقبة سبعون رجلاً وامرأتان[2]. أمّا ابن إسحاق فقد أورد أنّهم كانوا ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين[3]. وذهب هشام الكلبيّ إلىٰ أنّ سبب الاختلاف هو أنّ بعض المذكورين وصلوا في وقت كانت البيعة قد تمّت فيه. لكنّ أهلهم زعموا بعد ذلك أنّهم كانوا من أهل العقبة. ولمّا كان مقرّراً ألّا يتجاوز العدد سبعين، فقد حُذف بعضهم، وحلّ محلّهم آخرون[4].

ومهما كان فقد التقىٰ بعضهم بالنّبيّ ﷺ في مكّة، ومنهم: عويم بن ساعدة، وسعد ابن خيثمة وغيرهما[5]. وتقرّر أن يلتقوا به في العقبة خلال مكوث الحجّاج بمنىٰ. وكان مسلمو يثرب إلىٰ جانب سائر الحجّاج اليثربيّين في الليلة الموعودة. فلمّا مضىٰ شطر من الليل، وأمنوا ألّا يراهم أحد من أبناء مدينتهم تحرّكوا فرادىٰ صوب العقبة،

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، الذّهبيّ: ٢٩٨؛ كانوا يقولون: «حتّىٰ متىٰ نَذَرُ رسول الله ﷺ يطوف في جبال مكّة ويخاف».

(٢) *أنساب الأشراف* ١: ٢٥١.

(٣) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٢: ٤٤١. ذكر ابن حزم في *جوامع السّيرة النّبويّة*: ٥٩ أنّ مجموع المشاركين من الأوس كان أحد عشر رجلاً.

(٤) *أنساب الأشراف* ١: ٢٥٣.

(٥) نفسه.

ليلتقوا في الشِّعب الّذي كان واقعاً هناك. وذكر الواقديّ أنّهم تواعدوا أن يجتمعوا في اليوم الثّاني من أيّام التّشريق ليلاً في الشّعب المذكور، إلىٰ يمين القادم من منىٰ نحو أسفل العقبة بعد مضي الثّلث الأوّل من الليل. وأضاف: في المكان الّذي هو الآن مسجد «البيعة». وقال لهم رسول الله ﷺ: عليهم ألّا يوقظوا أحداً، ولا ينتظروا غائباً. وبعد ذلك سار الأنصار فرادىٰ معجّلين نحو هذه المنطقة[١]. والّذي دفعهم على اختيار هذه الليلة من أيّام منىٰ هو أنّهم كانوا يستطيعون مغادرة مكّة والتّوجّه إلىٰ يثرب في اليوم التّالي.

وجاء في رواية ابن إسحاق (المنقولة عن كعب بن مالك) أنّ العبّاس عمّ النّبيّ ﷺ كان معه ﷺ. وتردّد أحد الباحثين في هذا المجال. ويعود ذلك إلىٰ أنّ الكلام الّذي نُسب إلى العبّاس في ذلك المجلس جدير بالتأمّل من جهتين: ١ ـ توكّأ علىٰ قضيّة الهجرة، وطلب من الأنصار أن يلتزموا بالمحافظة على ابن أخيه الّذي يريد التوجّه إليهم، في حين أنّ موضوع الهجرة كان غير واضح آنذاك. ٢ ـ العبارات الأخرىٰ المنقولة تُظهر العبّاس كشخص مؤمن تماماً، بينما ورد في الرّواية المنقولة نفسها أنّه كان لا يزال علىٰ دين قومه. وفي أغلب الظنّ (كما أشار الباحث المذكور أيضاً) أنّ رجلاً من الأنصار يُدعىٰ العبّاس بن عبادة بن نضلة الأنصاريّ كان حاضراً في ذلك المجلس أيضاً وتحدّث إليهم. وحديثه يُشبه كثيراً ما نُسب إلى العبّاس. ومن المحتمل ذِكر اسم العبّاس بن عبد المطّلب في الأخبار عمداً، أو في الأقلّ سهواً. والحدّ الأدنىٰ هو أنّ العبّاس حتّىٰ لو كان حاضراً، فإنّه لم يقل ما نُسب إليه.

وجاء اسم الإمام عليّ عليه السلام في بعض الأخبار أيضاً[٢]. وذهب الحلبيّ الّذي نقل ذلك إلىٰ عدم وجود تعارض بين هذا الخبر وبين الرّواية الّتي تقول إنّه لم يكن إلّا

---

(١) *أنساب الأشراف* ١: ٢٥٣؛ *الطبقات* ١: ٢٢١.

(٢) *إعلام الورىٰ*: ٦٠، ٦١؛ *بحار الأنوار* ١٩: ١٣.

العبّاس؛ إذ جاء في الرّواية أنّ العبّاس جعل عليّاً عليه السلام في أوّل الشّعب (وجعل أبا بكر أيضاً في آخره) ليرقبوا الوضع[١]. وورد في رواية كعب بن مالك أنّ رسول الله ﷺ قام بعد كلام العبّاس، وتلا آيات من القرآن الكريم، ودعا الناس إلىٰ الله، ورغّبهم في الإسلام. ثمّ قال في البيعة: «أُبايعكم علىٰ أن تمنعوني ممّا تمنعون منهُ نساءكم وأبناءكم». وقال البراء بن معرور: «لنمنعنّك ممّا نمنع به أُزُرَنا... فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة». فعرض ابن التيّهان نقطة أخرىٰ قبل البيعة، وقال: «... إنّ بيننا وبين الرجال حبالاً، وإنّا قاطعوها ـ يعني اليهود ـ فهل عسيتَ إن نحن فعلنا ذلك ثمّ أظهرك الله أن ترجع إلىٰ قومك وتَدَعنا؟ فتبسّم رسول الله ﷺ، ثمّ قال: «الدم الدم، والهدم الهدم [يعني الحرمة]، [أي: ذمّتي ذمّتكم، وحرمتي حرمتكم] أنا منكم وأنتم منّي، أُحارب من حاربتم، وأُسالم من سالمتم»[٢]. ثمّ عاد ﷺ إلى المدينة بعد فتح مكّة، وهكذا صدق ما عاهد عليه.

واتّخذ الأنصار في تلك الليلة قراراً بالغ الأهمّيّة. وينبغي أن نقول إنّ عدداً منهم كان علىٰ علم بأهمّيّة القرار المذكور جيّداً. وبعد ذلك صاروا أمام فريقين مهمّين وهما اليهود وقريش. ولم يحسب أحد نتائج هذه المواجهة بسهولةٍ. وقام العبّاس بن عبادة الأنصاريّ (الّذي استُشهد بأُحد) في ذلك الجمع وخاطبهم قائلاً: («... هل تدرون علامَ تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم؛ قال: إنّكم تبايعونه علىٰ حرب الأحمر والأسود من النّاس، (كناية عن جميع الفرق والطّوائف) فإن كنتم ترون أنّكم إذا نُهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلاً أسلمتموه. فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزي الدّنيا والآخرة. وإن كنتم ترون أنّكم وافون له بما دعوتموه إليه علىٰ نهكة الأموال، وقتل الأشراف، فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة»؛ قالوا: فإنّا نأخذه علىٰ

---

(١) *السّيرة الحلبيّة* ٢: ١٦.

(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٢: ٤٤٢، ٤٤٣.

مصيبة الأموال، وقتل الأشراف؛ فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا [بذلك]؟ قال: الجنّة. قالوا: ابسط يدك؛ فبسط يده فبايعوه)[١]. وقيل: سُمع في تلك الحال صوت في العقبة (يخاطب المشركين) يقول: «هل لكم في مذَمَّم والصباة معه؟ قد اجتمعوا علىٰ حربكم». فقال رسول الله ﷺ: «هذا أزبُّ العقبة» (أزب: اسم شيطان). ثمّ قال: «ارفضّوا إلىٰ رحالكم». فأكّد العبّاس أن لو شاء رسول الله ﷺ لمالوا علىٰ أهل منىً غداً بأسيافهم. بيد أنّه ﷺ لم يأذن بذلك فرجعوا إلىٰ محلّ قوافلهم[٢].

إنّ العمل المهمّ الّذي قام به رسول الله ﷺ لإقرار الانضباط بين الأنصار هو أنّه اختار اثني عشر رجلاً منهم كنقباء ليضبطوا الآخرين ويكون النّاس على اتّصال بهم. وكانوا يعدّون قيّمين علىٰ من تحت أيديهم في الحقيقة. وأكّد ﷺ أنّه اختار هذا العدد تأسّياً بموسىٰ عليه السلام حين اختار اثني عشر نقيباً من بني اسرائيل[٣]. وشبّههم بحواريّي عيسى عليه السلام وقال: أنتم علىٰ قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريّين لعيسى ابن

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٢: ٤٤٦؛ *تاريخ الطبريّ* ٢: ٣٦٣، ٣٦٤. ويحوم خلاف حول أوّل مبايع أكان أسعد بن زرارة، أَمْ أبا الهيثم بن التيّهان، أَمْ البراء بن معرور. *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٢٢٢.

(٢) *الطبريّ* ٢: ٣٦٥؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٢: ٤٤٨؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٢٢٣.

(٣) *أنساب الأشراف* ١: ٢٥٤ [إنّ موسىٰ عليه السلام أخذ من بني اسرائيل اثني عشر نقيباً وإنّي آخذ منكم اثني عشر] *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٢٢٢. وقال تعالىٰ أيضاً: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيباً﴾. المائدة: ١٢. والجدير بالالتفات إلىٰ أنّ سورة المائدة لم تنزل يومئذٍ ـ وقيل كانت من آخر السور النازلة. وعدّ البلاذريّ المبايعين، وذكرهم مستقلّين علىٰ أساس الانتماء الأُسريّ، وأورد كلّ فريق من النقباء الّذين كانوا بين الطّوائف. فمن الأوس (١٢) بينهم ثلاثة نقباء، ومن بني النجّار بن حارثة (٩) بينهم نقيب واحد، ومن بني الحارث بن خزرج (٧) بينهم نقيبان، ومن بني زريق (٧) بينهم نقيب واحد، ومن بني سلمة بن سعد (٢٨) رجلاً وامرأة بينهم نقيبان، ومن بني ساعدة رجلان وامرأة والرجلان هما النقيبان. ومن بني عوف (٥) أحدهم نقيب عليهم. انظر: *أنساب الأشراف*: ٢٤٠ ـ ٢٥١.

مريم عليها السلام[١]. وجاء في هذا الخبر أنّ جبريل هو الّذي اختارهم فلا يمتعض أحد. والنقباء من الأوس هم أُسيد بن حُضَير، وأبو الهيثم مالك بن التيّهان (ذكر البعض رفاعة بن عبد المنذر مكانه)[٢]، وسعد بن خيثمة. أمّا من الخزرج فهم أسعد بن زرارة، ورافع بن مالك، وسعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو، والبراء بن معرور، وسعد ابن الرّبيع، وعبد الله بن رواحة، وعبد الله بن عمرو، وعبادة بن الصّامت[٣] (الّذي ذكر البعض جابر بن عبد الله مكانه). وأمّا المرأتان المشاركتان فهما أمّ عمارة نسيبة بنت كعب، وأم منيع أسماء بنت عمرو بن عديّ. واختير أسعد بن زرارة لمنصب «نقيب النقباء». وهذا يعود إلىٰ جهوده المكثّفة في نشر الإسلام بالمدينة. ونقل الواقديّ أنّه توفّي بعد الهجرة بستّة أشهر (وقيل: تسعة أشهر).

إنّ ما يتّسم بالأهمّيّة في هذه البيعة هو الدّفاع عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان صلى الله عليه وآله وسلم معرّضاً لتهديد المشركين بشدّة. وقبل ذلك كان يهمّ في بثّ الإسلام بالطّائف واللجوء إليها. بيد أنّ العلاقة الوثيقة لأهلها بالمكّيّين حالت دون هذا التّغيير. وليثرب أن تمثّل نقطة مهمّة في هذه البيعة من خلال تبنّيها الإسلامَ وقبولها الالتزام بالدفاع عنه صلى الله عليه وآله وسلم، الّذي يعني الدفاع عن الإسلام. والنصّ الّذي نقله عبادة بن الصّامت وفيه محتوىٰ هذه البيعة يضمّ نقاطاً أخرىٰ أيضاً: «بايعنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على السّمع والطّاعة في العُسر واليُسر والمكره والمنشط وألّا ننازع الأمر أهله وأن نقول بالحقّ حيث كان ولا نخاف لومة لائم»[٤]. ونلحظ في هذا النّصّ، مضافاً إلى الطّاعة والاتّباع في الشّدّة والرّخاء

---

(١) *أنساب الأشراف* ١: ٢٥٣؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٢: ٤٤٦.

(٢) *جوامع السّيرة النّبويّة*: ٦٠.

(٣) *أنساب الأشراف* ١: ٢٥٤؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٢: ٤٤٣، ٤٤٤؛ *الاستيعاب* ١: ٨٣.

(٤) *أنساب الأشراف* ١: ٢٥٣؛ *الموطّأ*، مالك بن أنس (مطبوع مع *تنوير الحوالك*) ٢: ٤.

والإكراه والنشاط، تعبير «ألّا ننازع الأمر أهله» الّذي ذكر السّيوطيّ في شرحه أنّه الإمارة والحكومة[١].

ومرّ بنا سلفاً أنّ رسول الله ﷺ لمّا دعا بني عامر بن صعصعة إلى الإسلام أجابوه علىٰ شرط أن تنتقل الحكومة بعده إليهم، فلم يوافقهم علىٰ ذلك. ومن المحتمل أنّ مثل هذا التعهّد يعود إلىٰ تلك القضيّة أيضاً[٢]. ويبدو أنّ هجرة النّبيّ ﷺ قد طُرحت في هذا الاجتماع أيضاً. إذ يضاف إلىٰ أنّ الدّفاع عنه ﷺ يدخل في هذا المعنىٰ، ما ذكره ابن حزم أنّ إحدى الفقرات الّتي لم يُبايَع عليها هي [أن يرحل إليهم هو وأصحابه][٣].

ولمّا حان غد تلك الليلة ذهبت قريش ـ الّتي كانت قد سمعت الخبر ـ عند الأوس والخزرج، واعترضت علىٰ ما ينوونه من إخراج النّبيّ ﷺ من مكّة، ومبايعته علىٰ حربها. فأشهد مسلمو يثرب مشركي الأوس والخزرج علىٰ أنّ هذا الخبر غير صحيح. ثمّ توجّهت نحو عبد الله بن أُبيّ الّذي كان له موقعه عند القبيلتين، وسألته، فأنكر علمه بذلك وقال لهم: إنّه لا يحسب قومه يقومون بذلك العمل دون إخباره. ومع هذا ظلّت تجوس بعض الأكابر الّذين أسلموا من الأوس والخزرج. فقبضت علىٰ سعد بن عبادة في منطقة «الأذاخر» بمكّة، وكالته ضرباً وشتماً. وحين سمع جبير بن مطعم[٤] خبره طلب منها إطلاقه لما كان له من دور في المحافظة علىٰ تجارتهم بيثرب وطريق الشّام[٥]. ويضيف ابن سعد أنّ الأنصار حين قلقوا علىٰ سعد حاولوا أن يقوموا بعملٍ لخلاصه لكنّهم ذهبوا جميعهم إلى المدينة بعد قدومه إليهم، فانتشر الإسلام فيها بشكل واسع بعد رجوعهم إليها.

---

(١) *تنوير الحوالك* ٢: ٤؛ *الصّحيح* ٢: ٢٠٤ (عنه).

(٢) انظر: *الصّحيح* ٢: ١٧٥ ـ ١٧٧. (٣) *جوامع السّيرة النّبويّة*: ٥٨.

(٤) جاء في *الطّبقات* ١: ٢٢٣؛ و*أنساب البلاذريّ*: مطعم بن عديّ.

(٥) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٢: ٤٤٩، ٤٥٠؛ *أنساب الأشراف* ١: ٢٥٤؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٢٢٣.

٣ ـ ماهيّة البيعة

ذكرت البيعة لأوّل مرّة في قضيّة إنذار العشيرة الأقربين. وجاءت كلمة البيعة بصراحة في بعض الأخبار. ونقرأ في بعض المواضع «الصّفق على اليد» تعبيراً عن البيعة[١]. ومن الطبيعيّ أنّ أشخاصاً آخرين ممّن كانوا يعتنقون الإسلام كانوا يبايعون رسول الله ﷺ. بيد أنّ الثّابت هو أنّ البيعة طُرحت بشكل عامّ وجادّ في العقبة الأولىٰ والثّانية. وبعد ذلك سُنَّتِ البيعة لكلّ مسلم جديد.

ومتابعة هذا الموضوع في السّيرة النّبويّة يدلّ علىٰ أنّ مفهوم البيعة كان أحد المفاهيم السّياسيّة الأساسيّة. وهو المفهوم الّذي يربط أفراد المجتمع بقائدهم، ويحدّد التزاماتهم فيما بينهم. ومن المناسب في البداية أن نوضّح المعنى اللفظيّ للمفهوم المذكور أكثر. فالبيع والبائع يطلقان على المشتري والبائع علىٰ حدٍّ سواء، بعبارة أخرى البيع معاوضة ومبادلة. واستعمال هذا اللفظ في البيعة يعني وجود نوع من المعاملة هنا. وذكر ابن الأثير أنّ البيعة على الإسلام هي المعاقدة والمعاهدة على الإسلام، إذ «كأن كلّ واحد منها باع ما عنده من صاحبه وأعطاه خالصة نفسه وطاعته ودخيلة أمره»[٢]. وكانت هذه المعاملة تجري بين العرب بصفق اليد على اليد. والمبايعة نوع من المعاقدة. فيتقبّل الطرفان تعهّداً فيما بينهما (طبعاً عقد بين طرفين). وكان هذا التّقليد سائداً في الجاهليّة بين أفراد القبيلة ورئيسها، لاسيّما وقت الحرب، إذ يتعهّد الأفراد بطاعة رئيس قبيلتهم طاعةً تامّةً. وهو أيضاً في مقام رئاسته يعدّ المدافع عنهم بشكل طبيعيّ.

---

(١) حول هذه الرّواية ومصادرها انظر: *الغدير* ٢: ٢٧٨ ـ ٢٨٣.

(٢) *النّهاية* ١: ١٧٤؛ *لسان العرب* ١: ٥٥٨؛ *تاج العروس* ٢٠: ٣٧٠.

وعُرضت تعاريف كثيرة للبيعة الاصطلاحيّة[١]. وما نرومه في هذه المباحث هو استعراض التطوّرات التّاريخيّة للبيعة. فالبيعة الّتي جرت في العقبة الأولىٰ والثّانية بين المسلمين ونبيّهم ﷺ كانت تعهّداً بقبول الشّروط الّتي طرحها النّبيّ ﷺ من جهة، وتلقّياً لضمانه ﷺ لهم الجنّة من جهة أخرىٰ. وإذا اعتبرنا عنصر «الإطاعة» جدّيّاً في البيعة (والشروط الأخرىٰ فروعه) فلا بدّ أن نعدّ القاعدة الأُولىٰ لتشكيل الحكومة (بمعنىٰ إقرار الانضباط السّياسيّ بين النّاس وقائدهم) هي بيعة العقبة الأولىٰ والثّانية. ومع أنّ كلّ مسلم ـ قبل ذلك ـ قد رضي بمثل هذا التعهّد بنحو عامّ من خلال إظهاره الإسلام (لا بمعناه السّياسيّ علىٰ وجه التّحديد)، لكن ينبغي الالتفات إلىٰ ضرورة التدقيق في ما تتمّ البيعة عليه. وما دام الأمر مرتبطاً بأهل مكّة وأوّل المخاطبين بالدعوة الإسلاميّة، فإنّ أهمّ أمر هنا هو اعتناق الإسلام وترك عبادة الأصنام وأرجاس الجاهليّة. ولا يتسنّىٰ لنا أن نذكر الأعمال الّتي أُنجزت قبل بيعة العقبة الأُولىٰ والثّانية كأعمالٍ سياسيّة، مع أنّ رأياً نحو هذا قد أُبدي بشأن الهجرة إلى الحبشة إذ تمّ ذلك علىٰ أساس الحزم السّياسيّ لرسول الله ﷺ. بيد أنّ الحريّ بالعلم هناك هو أنّ الدّافع علىٰ تلك الهجرة إنقاذ ثلّة ضعيفة من تحكّم النّظام الجاهليّ، ومن المحتمل أنّ الحزم السّياسيّ المذكور كان بعد ذلك، أي: بعد الهجرة وحدها، إذ يظلّ المهاجرون بالحبشة عدد سنين، ليتمكّنوا بعدها أن يمثّلوا قاعدة مضمونة عند الضّرورة.

ويمكننا أن نتحدّث عن الخطوات الأولىٰ للتنظيم السّياسيّ مع بدء نفوذ الإسلام واتّساع نطاقه في يثرب. وكان أوّل اتّصال جاد قد تحقّق في بيعة العقبة الأولىٰ في السّنة الثانية عشرة للبعثة. ولهذه البيعة طابع دينيّ، مع أنّ همساً بنوع من التّنظيم

---

(١) *البيعة في النظام السّياسيّ*: ٣٢، ٣٣.

السّياسيّ كان يُلحَظ فيها أيضاً. وطلب المسلمون الجدد من النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أن يرسل إليهم مبلّغاً، وسرعان ما انتشر الإسلام في المدينة بعد ذلك. وتسمية البيعة المذكورة ببيعة النساء ـ لخلوّها من القتال والحرب علىٰ ما يُحتَمل ـ تدلّ علىٰ طابعها الدّينيّ لا العسكريّ. ويضاف إلىٰ ذلك أنّ الموادّ الّتي تمّت البيعة في ضوئها تتمثّل في قبول أصل الدّين وحده دون ذكر النّضال والدفاع أو التنظيم السّياسيّ الخاصّ. وكان أصل البيعة قد طُرح أيضاً قبل بيعة العقبة، وذلك في حديث الإنذار ﴿**وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ**﴾، ودعوة النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أقاربه[١]. وبالنّظر إلىٰ موادّ البيعة يمكن أن نقول إنّ القضيّة كانت ذا طابع دينيّ فحسب. ويتمثّل محتوى البيعة في مضمون الآية الثّانية عشرة من سورة الممتحنة تقريباً. وانتشر الإسلام بالمدينة استمراراً لهذه البيعة. ويضاف إلىٰ إقامة صلاة الجماعة أنّ صلاة الجمعة قد أُقيمت أيضاً باحتمال ضعيف.

وكانت المدينة آنذاك تعاني من مشكلة سياسيّة مهمّة علاجها رهين بإنشاء جهاز قياديّ مركزيّ. فالحروب الطويلة بين الأوس والخزرج دفعتهم إلى التفكير بتتويج شخص ظلّ محايداً في تلك الحروب. وكانت الممهّدات قد أُعدّت لمثل هذا العمل إذ دخل الإسلام يثرب، فكان البديل لتلك الفكرة. من هنا طلب أهل المدينة من النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يهاجر إليهم. وعُرِض هذا الطّلب في بيعة العقبة الثّانية. وفي السّنة الثّالثة عشرة للبعثة جاءت مكّةَ قافلةٌ مؤلّفة من خمسمائة شخص من أهل يثرب. وبينهم قرابة سبعين مسلماً، والتقوا بالنّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وبايعوه قرب الجمرات حيث مسجد البيعة الآن. والنقطة الجديدة في هذه البيعة هي الدّفاع عن حياة النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بعد قدومه إلىٰ يثرب. ودار في اللقاء المذكور كلام كثير، منه أنّ بعض الأنصار تحدّث عن قطع علاقاته باليهود، وسألوه صلى الله عليه وآله وسلم هل يبقىٰ بعد النّصر معهم؟ فأجابهم أنّ ذمّته

---

(١) *الغدير* ٢: ٢٨٣ ـ ٢٨٧.

ذمّتهم وحرمته حرمتهم، وهو منهم وهم منه، وأنّه يعادي من عادوا ويوالي من والوا[١]. وكان شرط البيعة في هذا اللقاء أنّ مسلمي يثرب يدافعون عنه كما يدافعون عن أرواحهم وأموالهم وأهليهم. وقال البراء بن عازب: نحن أبناء الحرب والسّلاح، وسندافع عنك كما ندافع عن أعراضنا.

وهكذا أُضيف عنصر جديد في البيعة الثّانية، وهو عنصر «الدّفاع». وسيتلوه نوع من التّنظيم العسكريّ لحراسة قيادة الدّين الجديد. ولن يكون القائد في مثل هذا التّنظيم إلّا رسول الله ﷺ. ولهذا الضّرب من البيعة سوابق في الماضي أيضاً. فقد كان أفراد القبيلة يبايعون قائدهم وقت الحرب. والنّقطة الجديدة هذه المرّة هي أنّ القضيّة خلت من الطّابع القبليّ، وأنّ الّذين أسلموا من جميع القبائل كانوا يشكّلون جبهةً دينيّةً سياسيّة واحدة. وقام العبّاس بن عبادة الأنصاريّ في ذلك الجمع وخاطب مسلمي يثرب قائلاً: «يا معشر الخزرج، هل تدرون علامَ تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم. قال: إنّكم تبايعونه علىٰ حرب الأحمر والأسود من النّاس (كناية عن جميع طوائف الكفر). فإنْ كنتم ترون أنّكم إذا نُهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلاً أسلمتموه، فمن الآن، فهو والله إنْ فعلتم خزي الدّنيا والآخرة. وإن كنتم ترون أنّكم وافون له بما دعوتموه إليه علىٰ نهكة الأموال، وقتل الأشراف، فخذوه، فهو والله خير الدّنيا والآخرة»[٢].

وكانت أوّل خطوة لإقرار الانضباط والتّنظيم السّياسيّ تلك اللّيلة قد تحقّقت بمبادرة النّبيّ ﷺ، إذ اختار من بين السّبعين الحاضرين اثني عشر رجلاً بوصفهم نقباء بعدد النقباء الاثني عشر الّذين اختارهم موسىٰ عليه السلام من أكابر بني إسرائيل[٣].

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٢: ٤٤٢، ٤٤٣. (٢) نفسه ٢: ٤٤٦.

(٣) *أنساب الأشراف* ١: ٢٥٤.

وشبّههم رسول الله صلى الله عليه وآله بحواريّي عيسىٰ عليه السلام وقال: يتكفّلوا قومهم[١]. وعُيِّن أسعد ابن زرارة نقيب النّقباء. وكان من أوائل المسلمين الّذين بذلوا جهوداً مكثّفة في بثّ الإسلام بيثرب. وبعد ذلك مارس النّقيب دوراً مهمّاً في إقرار الاتّصال بين القبائل والجهاز الحكوميّ. والمهمّة الّتي خوّلها النّبي صلى الله عليه وآله النقيبَ هي «ليأخذوا عليهم الإسلام ويعرّفوهم شرائطه». وبعدها ترادفت كلمة «النّقيب» مع كلمة «العريف»، أي: مقدّم القوم والمتفقّد أحوالهم. وذهب البعض إلىٰ أنّ النّقيب يعني الرئيس الكبير أيضاً. والحقيقة أنّ كلمة «النّقيب» قد اشتقّت من «النقب»، وهو الّذي ينقّب في شؤون قومه وقبيلته ويَخبرُها.

وكان إحداث منصب النّقابة يعالج مشكلة أساسيّة للحكومة والنّظام المركزيّ وتتمثّل هذه المشكلة في أنّ القبيلة ما زالت تحافظ علىٰ تماسكها. وحينئذٍ كيف يتسنّىٰ إخضاعهم لسيادة الحكومة؟ فالنّقيب هنا يؤدّي دور الوسيط، إذ يعدّ من القبيلة وأحد رؤسائها من جهة، كما يعتبر مسؤولاً أمام الحكومة والنّظام من جهة أُخرىٰ. وكان منصب النّقابة للقبائل وبعض الشّرائح الاجتماعيّة المنظّمة قائماً طوال الخلافة الإسلاميّة. وكان للعلويّين بوصفهم شريحة متميّزة لهم أواصرهم القبليّة كما لهم مزيّة شريحة اجتماعيّة بارزة، نقيب خاصّ بهم، ونقيب النقباء أيضاً. وهو الّذي يعيّنه الخليفة عادةً لينظر في الشّؤون المتعلّقة بارتباط العلويّين بالسّلطة.

التّعبير الآخر الّذي طُرح في بيعة العقبة الثّانية هو أنّنا بايعنا «على السّمع والطّاعة في العُسر واليُسر والمكره والمنشط وألّا ننازع الأمر أهله»[٢]. والقسم الأخير من التّعبير، أي: عدم منازعة أهل الأمر تأكيد الرضا بحكومة النّبيّ صلى الله عليه وآله مهما كانت الظّروف. وهكذا فإنّ مفهوم الإطاعة وترك النّزاع مع أصحاب الأمر (قايسه بتعبير

---

(١) *أنساب الأشراف* ١: ٢٥٣.

(٢) نفسه ١: ٢٥٣.

«أولي الأمر» في القرآن الكريم) الّذي يعدّ من القواعد الأساسيّة للسّيادة والحاكميّة قد طُرِح واتُّفق عليه في ليلة البيعة تلك. وكلّ من كان يبايع في العصر المدنيّ لم يُصبح مسلماً فحسب، بل يكون عضواً في المجتمع الإسلاميّ بكلّ التزاماته. ولا بدّ من الإشارة قبل ذلك إلىٰ أنّ الإسلام يؤيّد شرعيّة البيعة بشرط أن يتوكّأ محتواها علىٰ أساس الإسلام. وكانت البيعة تقليداً مألوفاً في الجاهليّة، وتعدّ أُسلوباً لإقرار النّظم السّياسيّ مبدئيّاً.

وكلّ من كان ينضوي في زمرة المسلمين منذ بيعة العقبة الأُولىٰ فما تلاها عليه أن يبايع رسول الله ﷺ. ويمكن أن يكون هٰذه البيعة طابعها السّياسيّ والطّاعويّ، بخاصّة في اللحظات الحسّاسة كبيعة الرّضوان مثلاً. وتتجلّى الممهّدات الفكريّة لمثل هذه البيعة في القرآن الكريم في مفهوم «العهد» و«العقد». ولنا أن نقول: إنّ البيعة نفسها من مصاديق العهد، أو هما سواء[١]. وكانت رعاية العهد والعقد من أمّهات المبادئ الّتي يعمل بها المرء المسلم. وتكرّر هذا الموضوع في القرآن الكريم، واستخدمت فيه ألفاظ حادّة حول نقض العهد بخاصّة مع الله تعالى[٢]. وكما تحدّث القرآن الكريم عن بيع الأنفس لله[٣] (نوع من البيع)، فكذلك تحدّث عن أصل المبايعة لله. وذكر الّذين يبايعون رسول الله ﷺ ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ**﴾[٤]، وتطرّق أيضاً إلى النّساء المبايعات (في ضوء الأُصول المطروحة في بيعة العقبة الأُولىٰ)[٥].

---

(١) تحدّثت الآية العاشرة من سورة الفتح في بدايتها عن البيعة، ثمّ تطرّقت إلى الوفاء بالعهد.

(٢) ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ البقرة: ٢٧؛ وانظر: الرّعد: ٢٠، ٢٥.

(٣) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾. البقرة: ٢٠٧.

(٤) الفتح: ١٠.

(٥) الممتحنة: ١٧.

إنّ المهمّ في البيعة علىٰ عهد النّبيّ ﷺ هو محتوى البيعة نفسها. وبيعتهم إيّاه معلَم علىٰ تمسّك المبايع والتزامه بالعمل بالمسائل الدّينيّة وطاعة النّبيّ ﷺ. وكانت البيعة في عصر الرّسالة تعني أنّ المشرك كان يقرّ بالإسلام طواعية. ولمّا كان عليه أن يكون ملتزماً بهذا الإقرار الاختياريّ، فإنّه يبايع رسول الله ﷺ. ويتلو ذلك صيرورته عضواً في المجتمع، أي: كما كان يستمتع ببعض الحقوق، فعليه أن يقبل ببعض القيود (فيقول ما يقوله الشّرع مباشرةً، وينفّذ ما تريده الحكومة، في إطار الطّاعة طبعاً لا في إطار معصية الحقّ). وبعد ذلك حين لم يكن الإعراض عن الشّرك والإقبال على الإسلام مطروحاً، كانت البيعة تحمل معنىٰ قبول السّيادة الجديدة[1].

إنّ الموضوع المهمّ الّذي ينبغي الالتفات إليه هنا هو هل كانت البيعة بمعنى التّصويت؟ فالثّابت هو أنّ هذا الأمر لا ينطبق علىٰ رسول الله ﷺ ولا علىٰ كلّ شخص آخر يتمتّع بقدرة الله تعالىٰ. وإذا فسّر أحدُ البيعة بالتّصويت، والحقّ الطّبيعيّ للفرد[2]، فسوف يُمنىٰ بإشكالٍ في ما يخصّ رسول الله ﷺ والبيعة المذكورة في القرآن الكريم. ومهما كان جواب السّؤال المذكور، فلا تأثير له في هذا الأمر، إذ إنّ المعنى الواضح للبيعة في عصر الرّسالة هو الموافقة والإعراب عن الرّضا بالإسلام في الدّرجة الأُولىٰ، وبعد ذلك قبول حكومة النّبيّ ﷺ، أي: حكومة من أحرز شرعيّتها بأمر الله سبحانه (القرآن الكريم) ﴿أَطِيعُوا اللّٰهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾. وتُعَدُّ البيعة

---

(١) تعريف ابن خلدون هو: «إنّ البيعة هي العهد على الطّاعة كأنّ المبايع يعاهد أميره علىٰ أن يسلم له النظر في أمر نفسه وأمور المسلمين لا ينازعه في شيء من ذلك ويطيعه في ما يكلّفه به من الأمر على المنشط والمكره». المقدّمة: ٧١٩، ٧٢٠؛ وانظر أيضاً: *التّراتيب الإداريّة* ١: ٢٢.

(٢) *النّظريات السّياسيّة الإسلاميّة*، السنهوريّ: ١٦٥، ١٦٦، نقلاً عن *نظام الحكم في الإسلام*، النبهان: ٤٣٦. مبدئيّاً إنّ استعمال كلمة البيعة في العهد الوارد في القرآن يدلّ إلىٰ حدّ كبير علىٰ خطأ تفسيره بالتّصويت.

في تلك الفترة، مضافاً إلى اعتناق الاسلام، نوعاً من ولاء المسلم وتمسّكه بالإسلام لا أكثر. وبعامّة بايع رسول الله ﷺ النّاس بيعة عامّة مرّتين (وبعبارة أخرىٰ ثلاث مرّات)[١]. إحداهما في العقبة، والأُخرىٰ في صلح الحديبيّة، وهي الّتي تُعرف ببيعة الرّضوان. بيد أنّا كما ذكرنا سابقاً أنّ كلّ مشرك كان يسلم، كان يبايع النّبيّ ﷺ منفرداً.

والبيعات الّتي تحقّقت خلال هذه السّنين تشمل حالات عدّة. ونشير إليها في ما يأتي مجملاً: مرّ أنّ البيعة تمّت في العقبة الأُولىٰ لأُمور وردت في الآية المتعلّقة ببيعة النّساء، وهي، ألّا يُشرَك بالله، ولا يُسرق، ولا يُزنىٰ، ولا يُقتَل الأولاد، ولا يؤتىٰ ببهتان (في الابن المولود وأبيه)، ولا يُعصىٰ رسول الله ﷺ في المعروف[٢]. أمّا البيعة الثّانية (علىٰ ما نقل عبادة بن الصّامت) فقد كانت بيعة على الطّاعة في العُسر واليُسر، والإكراه والاختيار، وترك منازعة أولي الأمر (الحكومة)، والجهر بالحقّ وعدم الخوف من كلّ شيء[٣]. ويضاف إلىٰ ذلك أنّ البيعة قائمة علىٰ أساس أنّ الدّفاع عن رسول الله ﷺ هو كالدفاع عن أنفسهم وأولادهم، وهذا من الفقرات الأصليّة في البيعة المذكورة. وأمّا البيعات المفردة التالية فقد كانت متوكّئةً على الإسلام، والهجرة، والجهاد نوعاً ما[٤]. وبعد فتح مكّة كانت على الإسلام والجهاد فحسب[٥]. ومن الواضح أنّ البيعة في جميع هذه الحالات كانت قائمة علىٰ قاعدة الإسلام[٦]. وثمّة

---

(١) *التراتيب الإداريّة* ١: ٢٢٢. نقل عن القرطبيّ قوله: «كانت مبايعته ﷺ لأصحابه بحسب ما يحتاج إليه من تجديد عهدٍ أو توكيد أمرٍ».

(٢) الممتحنة: ١٢.

(٣) *أنساب الأشراف* ١: ٢٥٣؛ *البخاريّ* ٤: ٢٤٥؛ *النّسائيّ* ٧: ١٣٩.

(٤) **مسند أحمد** ٣: ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٧٢.

(٥) *صحيح البخاريّ* ٢: ١٦٣.

(٦) كان الصّحابة ينشدون عند حفر الخندق:

نحن الّذين بايعوا محمّداً ... على الإسلام ما بقينا أبداً

⇐

خلاف حول فقرات البيعة في صلح الحديبيّة. فقد قيل: «بايعناه على الموت» أي الصّمود حتّى الاستشهاد[١]. ورفض البعض هذا الخبر وقال: «بايعناه علىٰ أن لا نفرّ» أي: البيعة علىٰ ألّا يفرّوا من ساحة القتال[٢]. وورد في خبر آخر أيضاً: البيعة على الصبر لا على الموت[٣]. وفي خبر غيره: «علىٰ ما يطيقون»[٤]. وجاء لفظ «حدّ الاستطاعة» في أخبار أُخرىٰ أيضاً[٥]. وكانت النّساء تُبايَع بشرط «أن لا يقعدن مع الرّجال في خلاء وأن لا يحدّثن من الرّجال إلّا محرماً»[٦].

وذُكر «النّصح لكلّ مسلم» في سياق هذه الأخبار أيضاً[٧]. وجاء القول بالعدل (وفي روايةٍ القول بالحقّ) في رواية عبادة بن الصّامت[٨]. ولفظ «علىٰ فراق المشرك»، الّذي يمكن أن يعني الهجرة، من الموادّ الّتي بويع عليها[٩]. وإقامة الصّلاة وإيتاء الزّكاة من الموادّ الّتي بويع عليها أيضاً[١٠]. وفي بيعة العقبة الثّانية بويعت امرأتان أيضاً. وجاءت بيعة النّساء في بعض الكتب كصحيح البخاريّ[١١]، وسنن النّسائيّ[١٢] بوصفها فصلاً خاصّاً. واهتمّ الآخرون بهذا الموضوع أيضاً ونقلوا عشرات الرّوايات في هذا المجال.

⇐ *البخاريّ* ٢: ١٤٣؛ *مسند أحمد* ٣: ١٧٠، ١٨٧، ٢٠٥، ٢٥٢، ٢٨٨؛ وجاء في *مغازي الواقديّ* (٢: ٤٥٣) «الجهاد» مكان «الإسلام».

(١) *أنساب الأشراف* ١: ٣٥١؛ *البخاري* ٢: ١٦٣؛ *مسند أحمد* ٤: ٤٧، ٥١، ٥٤.

(٢) *سنن الدارمي* ٢: ٢٢٠؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ٩٩، ١٠٠؛ *سنن النّسائيّ* ٧: ١٤١.

(٣) *البخاريّ* ٢: ١٦٣.

(٤) نفسه.

(٥) نفسه ٤: ٢٤٥؛ *سنن النّسائيّ* ٧: ١٤٧.

(٦) *الطّبقات الكبرىٰ* ٨: ١٠.

(٧) *البخاريّ* ٤: ٢٤٥؛ *سنن النسائيّ* ٧: ١٤٠.

(٨) *سنن النّسائيّ* ٧: ١٣٩.

(٩) نفسه ٧: ١٤٨.

(١٠) نفسه.

(١١) *البخاريّ* ٤: ٢٤٧.

(١٢) *سنن النّسائيّ* ٧: ١٤٩.

ويتجسّد التّفاوت الرّئيس في أُسلوب البيعة الّتي لم تكن عن طريق المصافحة، وبعد ذلك حين صار أخذ البيعة من النّاس إجباريّاً، وشاع نقض العهد، كان الخلفاء يطلبون من النّاس أيماناً مغلظة مع البيعة. ولم يستشرع مالك بن أنس هذا العمل فوبّخته الحكومة واضطهدته[١]. وظلّ هذا التقليد قائماً لقرون كسنّة سياسيّة للخلافة، وكانت له آدابه وتقاليده الإداريّة الخاصّة به. منها أنّ نصوصاً كثيرة كانت تعدّ مكتوبةً، وتتمّ البيعة في ضوئها. وأورد القلقشنديّ بحوثاً ناشئة للبيعة وآدابها وأسبابها في كتابه *صبح الأعشىٰ*[٢].

أسباب الانتشار السّريع للإسلام في المدينة

إنّ نظرةً علىٰ كيفيّة انتشار الإسلام في المدينة تدلّ علىٰ أنّه قد امتدّ فيها منذ السّنين الأُولىٰ (من السّنة الثانية عشرة للبعثة حتّى الهجرة النّبويّة)، وقد اعتنقه النّاس بعد الهجرة إلّا طوائف محدودة. ولا يقاس هذا الامتداد بطريقة امتداده في مكّة أبداً. من هنا لا بدّ أن تكون له أسبابه الخاصّة. ويمكن أن نشير إلىٰ عدد من القضايا الّتي قد يشكّل بعضها حالةً خاصّة، لكنّا نستطيع تعميمه إلىٰ حدٍّ ما. وللحالات الأُخرىٰ بُعد تحليليّ عامّ.

أ ـ إنّ من القضايا الّتي يمكن أن تشكّل حالةً خاصّة كما يمكن أن تكون لها قاعدة تحليليّة عامّة هي أنّ أهل المدينة كانوا على استعداد أكبر للتّفاعل مع القرآن الكريم. وينبغي أن ننظر إلىٰ هذا الاستعداد في معنويّاتهم والموقع الخاصّ لمجتمعهم. وسنتحدّث في الأقسام التّالية عن قسم من هذه الظّروف وفوارقها عن وضع مكّة.

---

(١) *التراتيب الادارية* ١: ٢٢٣؛ *نظام الحكم في الإسلام للنبهان*: ٤٣٥ (نقلاً عن *مقدّمة ابن خلدون*: ٧١٩، ٧٢٠).

(٢) *صبح الأعشىٰ* ٩: ٢٧٣ ـ ٣٠٩.

ولابدّ لنا هنا أن نتوكّأ على القرآن نفسه بوصفه معجزة. وكان أوّل خطوة في تعرّف النّاس على الإسلام في سياق الدّعوة النّبويّة تلاوة آيات قرآنيّة. كما أنّ بثّ الإسلام في المدينة قد تحقّق بفضل رسول رسول الله ﷺ مصعب بن عمير عبر تلاوة القرآن. وبلغ هذا التأثير مبلغاً أنّه نُقل عن النّبيّ ﷺ قوله: «فُتِحت المدينة بالقرآن»[١]. وأهمّ عامل في إسلام سعد بن معاذ، وأُسيد بن حُضَير هو آي القرآن الكريم كما ذكرت ذلك جميع المصادر.

ب ـ إنّ مجاورة اليهود وسماع الأخبار الّتي كانت تبشّر بظهور نبيّ جديد عاملان مؤثّران في انتشار الإسلام وتقدّمه بين أهل المدينة. ونقل ابن إسحاق أنّ اليهود الّذين كانوا يعيشون مع عرب الأوس والخزرج في هذا البلد، وكانوا أهل كتاب وعلم، يهدّدون من ينازعهم من العرب بظهور نبيّ فيهم، ويعدونهم أنّهم سيتّبعونه ويقتلونهم قتل عاد وإرم[٢]. وهذا ما أدّىٰ إلىٰ أن يقول بعض الأنصار لغيرهم منذ أوّل يومٍ دُعوا فيه إلى الإسلام: «هذا هو الرّسول الّذي كان يبشّر اليهود بظهوره، فلا يسبقوكم إليه»[٣].

وذكر البلاذريّ أيضاً أنّهم كانوا قبل ذلك قد سمعوا باسمه وصفاته من اليهود[٤]. ونقرأ في القرآن الكريم آيات بيّنة حول علم يهود المدينة بالرّسالة المحمّديّة. وهي تدلّ علىٰ أنّها كانت مُثارة تماماً في تلك الظّروف. وذُكر بهذا الشّأن إسلام عبد الله بن سلام أحد أحبار اليهود بيثرب. ويحوم خلاف حول تاريخ إسلامه. ويبدو أنّ هناك

---

(١) *فتوح البلدان*: ٢١.

(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٢: ٤٢٨، ٤٢٩ (بتلخيص)؛ *تاريخ الطّبريّ* ٢: ٣٥٣، ٣٥٤؛ *سبل الهدىٰ والرشاد* ٣: ٢٦٧.

(٣) *دلائل النّبوّة*، البيهقيّ ٢: ٤٣٤؛ *جوامع السّيرة النّبويّة*: ٥٦؛ *وفاء الوفاء*، السّمهوديّ ١: ٢٢١ ـ ٢٢٣.

(٤) *أنساب الأشراف* ١: ٢٣٩.

من ضخّمه وهوّله (إمّا لدور إسلامه أو لدوره الّذي أدّاه فيما بعد في الحديث والسّياسة [لا سيّما في أحداث عثمان] بوصفه كان يهوديّاً ثمّ أسلم. وذهب الشّعبيّ إلىٰ أنّه أسلم في السّنة الثّامنة للهجرة[١]، ولم تنزل فيه آية قطّ[٢]. وانظر في المصدر المذكور في الهامش للاطّلاع علىٰ كيفيّة إسلامه[٣]. وما تُجمع عليه المصادر هو أنّه أسلم استناداً إلىٰ ما كان في يده من أخبار التّوراة وغيرها من آثار اليهود حول ظهور نبيّنا ﷺ. وكذلك كان إسلام سلمان الفارسيّ إذ توكّأ على الأخبار نفسها[٤]. ونحن هنا في سياق قبولنا الأدلّة الثّابتة المسوقة لا نستبعد احتمال وجود بعض الأخبار الموضوعة في هذا المجال أيضاً. بخاصّة إذا كان رواتها من اليهود الّذين أسلموا، وبنقلهم لها يرومون التّغلغل في ثقافة المسلمين، وقد حقّقوا بعض النّجاح أيضاً. ويضاف إليه أنّ الطّابع القصصيّ قد ألقىٰ ظلاله علىٰ مثل هذه الأخبار، فلا بدّ من التّأمّل الأكثر فيها للظّفر بحقائقها. وممّا يُثير العجب هو ما زُعم في بعض الأخبار القصصيّة باشتمال الكتب السّماويّة ليس على اسم النّبيّ ﷺ أو صفاته فحسب، بل أسماء أو صفات الخلفاء فرداً فرداً، بل النّاس العاديّين حتّىٰ نهاية القرن الأوّل. وهذا أساساً بحث ينبغي مواكبته في المباحث الاعتقاديّة [مبحث النّبوّة الخاصّة].

ج ـ إنّ من الأسباب البيّنة الّتي أدلىٰ بها المؤرّخون حول امتداد الإسلام في المدينة هو الوضع المتأزّم المتوتّر في يثرب للخلافات القبليّة. وقد تحدّثنا سلفاً عن طبيعة علاقات الأوس والخزرج، وكذلك اليهود، وأسباب تكتّلاتهم وكيفيّتها. وما كان مهمّاً عند سكّان المدينة هو نيل الوحدة والموادعة. وفي هذا المجال تهيّأت مقدّمات معيّنة، بيد أنّ ظهور الإسلام وعرضه في المدينة مهّد الطريق لإقرار سلام حقيقيّ دائم. وأوّل

---

(١) *الإصابة* ٢: ٣٢٠.

(٢) *مشكل الآثار* ١: ١٣٧.

(٣) *الصّحيح* ٣: ١١ ـ ١٥.

(٤) انظر: *دلائل النّبوّة*، البيهقيّ ٢: ٨٢ ـ ١٠٠.

مجموعة التقت برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهي المجموعة الخزرجيّة السداسيّة ـ قالت له: إنّا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشّرّ ما بينهم، فعسىٰ أن يجمعهم الله بك. فسنقدم عليهم، فندعوهم إلىٰ أمرك، ونعرض عليهم الّذي أجبناك إليه من هذا الدّين، فإنْ يجمعهم الله عليه فلا رجل أعزّ منك[١].

وجاء في خبر آخر (عن عروة) أنّهم طلبوا من النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أن يمهلهم تلك السّنة نظراً إلى الوضع المتوتّر الحافل بالخلافات في يثرب، ليعودوا ريثما تهدأ الأجواء (بعد حرب بُعاث بين الأوس والخزرج)، ثمّ يلتقوا به في السّنة القادمة في موسم الحجّ[٢].

وتدلّ رواية عن عائشة بصراحة علىٰ أنّ الخلافات السّابقة، بخاصّة يوم بُعاث كانت ممهّداً مهمّاً لنشر الدّعوة الإسلاميّة في المدينة. تقول: «كان يوم بُعاث يوماً قدّمه الله لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم، فقَدِم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد افترق ملؤهم، وقُتلت سرواتهم وجُرِّحوا، فقدّمه الله لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم في دخولهم في الإسلام».

وتوثّقت آصرة الأوس والخزرج بعد هجرة النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. وعلى الرغم من وجود بعض ممهّدات الخلاف وتآمر بعض المنافقين، لم ينشب بينهما نزاع وخلاف مادام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيّاً.

د ـ إنّ من الأُمور الخاصّة الّتي رغّبت بني عبد الأشهل قاطبة في الإسلام وجعلتهم يعتقدون به هو دور سعد بن معاذ. فقد أسلم هذا الرجل الّذي كان سريّهم علىٰ يد مصعب بن عمير بعد سماعه آيات من القرآن الكريم. ثمّ جاءهم وسألهم عن رأيهم فيه، فقالوا: «سيّدنا وأفضلنا رأياً وأيمُنُنا نقيبةً. قال: فإنّ كلام رجالكم ونسائكم عليَّ

---

(١) *دلائل النبوّة*، البيهقيّ ٢: ٤٣٤؛ *تاريخ الطبريّ* ٢: ٣٥٤؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٢: ٤٢٩؛ *نهاية الإرب* ١٦: ٣١١؛ *جوامع السّيرة النّبويّة*: ٥٦؛ *عيون الأثر* ١: ٢٠٥، ٢٠٦؛ *وفاء الوفاء*، السّمهوديّ ١: ٢٢٣.

(٢) *مجمع الزّوائد* ٦: ٤٠؛ *مغازي رسول الله لعروة بن الزبير*: ١٢٣؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٣: ٢٦٧.

حرام حتّىٰ تؤمنوا بالله ورسوله... فوالله ما أمسىٰ في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلّا مسلماً أو مسلمةً، حاشا الأُصيرم، وهو عمرو بن ثابت بن وقش فإنّه تأخّر إسلامه إلىٰ يوم أُحد فأسلم واستُشهد ولم يسجد لله سجدةً»[١].

وحينما تشدّد بنو النجّار ـ بعد العقبة الأُولىٰ ـ علىٰ أسعد بن زرارة ذهب مصعب ابن عمير عند سعد بن معاذ واستمدّه، فواصل جهوده التبليغيّة بمعاضدته[٢]. واستطاع سعد بوجاهته عند بني عبد الأشهل ونفوذه المعنويّ فيهم أن يخطو خطوة مهمّة في بثّ الإسلام بيثرب. ومن الحريّ بالعلم أنّ التّركيبة القبليّة القائمة علىٰ تبعيّة الأشخاص لشرفاء قومهم كانت عقبة كؤوداً في طريق انتشار الإسلام بين العرب لسنين، مع وجود بعض الاستثناءات كنفوذ سعد في بني عبد الأشهل، الّذي أدّىٰ إلىٰ إسلامهم. وكذلك حريّ بالعلم أنّ أحد الأسباب الّتي أفضت إلىٰ بقاء المكّيّين علىٰ كفرهم هو الموقف المضادّ لهذا التوجّه في بني عبد الأشهل.

هـ ـ كان لوجود الأفكار التّوحيديّة في المدينة، الّتي تمثّل امتداداً للنّزعة الحنيفيّة في مكّة أن يشكّل أرضيّة مناسبة لبثّ الإسلام. وكانت أفكار الحنفاء تتّفق مع الإسلام تماماً في أمر التّوحيد، فيمكن أن تكون قاعدة مناسبة لتنامي الإسلام.

وكان أبوقيس صرمة بن أبي أنس (الّذي وهم بعض كتّاب السِّيَر فظنّوه أبا قبيس صيفي بن الأسلت)[٣] أحد الحنفاء المدنيّين. وذكر ابن قُتيبة أنّه كان من بني النجّار وقد ترهبن، وترك عبادة الأصنام، حتّىٰ عزم علىٰ أن يتنصّر، لكنّه امتنع عن قبولها في نهاية الأمر. وكان يقول إنّه يعبد ربّ إبراهيم.

ويضيف قائلاً: لمّا هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أسلم أبو قيس. وله شعر في الجاهليّة قال فيه:

---

(١) *سبل الهدىٰ والرشاد* ٣: ٢٧٤؛ *عيون الأثر* ١: ٢١٢.

(٢) *دلائل النّبوّة*، البيهقيّ ٢: ٤٣٢؛ *السّيرة النّبويّة*، الذّهبيّ: ٢٩٥.

(٣) انظر: *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٣: ٢٧٥.

سَبّحوا شرقَ كلِّ صباح طلعت شمسه وكلَّ هلال

ونقل ابن قُتيبة شعراً له في مدح رسول الله ﷺ(١).

وهذا مثال رائع لوجود الأفكار التّوحيديّة في يثرب قبل الإسلام(٢). وحضور مثلها يمثّل الأرضيّة التّوحيديّة الموجودة بيثرب لقبول الإسلام الّذي كان يروّج للدّعوة الإبراهيميّة. وجاء في أسعد بن زرارة، وأبي الهيثم بن التيّهان أيضاً أنّهما كانا «يتكلّمان بالتّوحيد بيثرب»(٣).

و ـ كان الأساس الواهي للشّرك والصنميّة عاملاً آخر في عدم مقاومة المشركين أمام الإسلام والدّفاع عن الصنميّة. وكان للمكّيّين رغبة أكثر في الأصنام، بخاصّة أنّ لها علاقة وثيقة بمصالحهم الاقتصاديّة والسّياسيّة. أمّا اليثربيّون (نظراً إلىٰ قربهم من اليهود كأُولي دين سماويّ توحيديّ)(٤) فلا ينبغي أن تكون لهم تلك العلاقة الوثيقة بالصنميّة كالمكّيّين(٥)، طبعاً لا بالحجم الّذي يمكن أن ينزعوا عنه ببساطة.

ويُلحَظ نموذج رائع عن وجود الفراغ الفكريّ ـ العقائديّ في المدينة، ذلك الفراغ الّذي يمكن أن يتنازل بسهولة أمام رؤية توحيديّة أصيلة (بخاصّة أنّها عربيّة لا إسرائيليّة كرؤية اليهود). وخبر إسلام عمرو بن الجموح مصداق للفراغ المذكور. فقد كان الرجل شيخاً من شيوخ بني سلمة، وقد ظلّ علىٰ شركه حتّىٰ بعد عودة المبايعين في العقبة الثّانية. وكانت شيخوخته تتطلّب ذلك. وقام فتيان من قبيلته كمعاذ بن جبل، ومعاذ بن عمرو ليلاً بإلقاء صنم كان يحتفظ به في بيته في حفرة بها عَذِر النّاس. فوجده عمرو في غد تلك الليلة وطهّره. ثمّ ألقياه مرّة أُخرىٰ. فعثر عليه أيضاً

---

(١) ***المعارف***، ابن قتيبة: ٦١.
(٢) انظر: ***سبل الهدىٰ والرّشاد*** ٣: ٢٧٥.
(٣) ***الطّبقات الكبرىٰ*** ١: ٢١٨.
(٤) انظر: ***من تاريخ الأدب العربيّ***، طه حسين ١: ١٥٦.
(٥) انظر بهذا الشّأن: ***الصّحيح*** ٢: ١٩٤.

وطهّره. وفي الليلة الثّالثة قال له: «إنّي والله ما أعلم من يصنع بك ما أرىٰ، فإنْ كان فيك خير فامتنع فهذا السّيف معك!» وعاد إليه المعاذان وألقياه في الحفرة أيضاً بعدما قرنا به كلباً ميّتاً بحبل، فلمّا رآه عمرو هذه المرّة «أبصر شأنه» فأسلم وأنشد مخاطباً الصنم:

والله لو كـــنتَ إلهاً لم تكـــن أنت وكلب وسطَ بئرٍ في قَـرَنْ

... الحــمد لله العـليّ ذي المِـنَن الواهب الرزّاق ديّان الدِّيَـنْ[١]

ورضي الإسلام ديناً بكلّ وجوده، وشهد أحداً علىٰ عرجـته واستُشهد فـيها. وينبغي أن نعدّ موقف الفتيَين المسلمَين مـن صـنم عـمرو استلهاماً مـن مـوقف إبراهيم عليه‌السلام حيال أصنام قومه.

ز ـ إنّ من النقاط الّتي كانت تحول دون إسلام المكّيّين هي وجود الإتراف الماليّ في مكّة. وأسبغ هذا الإتراف ملحقاً به الإتراف القبليّ صبغةً علىٰ مكّة لم يكن لها نظير في سائر المراكز والقبائل. وهذا الإتراف الّذي ورد ذكره في القرآن الكريم، وأصـحابه المـترفون، كان يرىٰ الإسلام معارضاً لكيانه. وإصرار القرآن علىٰ مخـالفة المـترفين للأنبياء[٢] آية على الوضع السّائد بمكّة. ومثل هذا الإتراف لم يكن له وجود في المدينة لأنّها ما كانت مدينة تجاريّة. علماً أنّ حسّ انعدام الإتراف، بمعنىٰ أنّه كـان عـاملاً مهمّاً يمكن عبر نفوذه في النّاس أن يحول دون إسلامهم، لم يكن في تلك البيئة. وهذا نفسه ممهّد لامتداد الإسلام بين أهل المدينة أسرع ما يكون. وفي مقابل ذلك، نقول بكلمة واحدة (كما مرّ سلفاً): إنّ المتنفّذين في يثرب كانوا أوّل من أسلم.

ح ـ ينبغي أن نضع في حسابنا الخصائص القبليّة أيضاً. فكانت القبائل الشماليّة أو

---

(١) *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٣: ٣٠٩؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٢: ٤٥٢، ٤٥٣.

(٢) سبأ: ٣٤. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِن نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ وانظر: سورة الزخرف: ٢٣، ٤٣.

العدنانيّة (ومنها قريش) تتميّز على القبائل الجنوبيّة أو القحطانيّة (ومنها الأوس والخزرج) بأنّها أكثر أعرابيّة منها وكان التعصّب والقسوة عندها أكثر من عرب الجنوب. ولعلّ هذا يعود إلى التفوّق الحضاريّ الّذي كان موجوداً في جنوب الجزيرة العربيّة.

ويمكن أن ندرك هذه الرّوح الهادئة لعرب الجنوب بنحو أفضل، مضافاً إلىٰ عمل عرب المدينة ـ في بساتين النّخل وأحياناً الزّراعة ـ في مقابل المكّيّين الّذين كانوا يعملون في التّجارة[١]. وكان لأهل المدينة تعامل أكثر فطريّة وطبيعيّة ممّا يترك تأثيره في قبول الإسلام. ونُقل عن رسول الله ﷺ قوله في أهل اليمن: «أهل اليمن أضعف قلوباً وأرقّ أفئدةً»[٢].

وينبغي أن نضع في حسابنا أيضاً تنافس عرب الجنوب والشّمال. فحينما ذهب رسول الله ﷺ بين الأنصار كان جليّاً أنّهم بسبب منافستهم الأُصوليّة لعرب الشّمال لن يسلموه لهم أبداً. وكان لهذا الأمر أثره في تعميق التّوجّه الإسلاميّ بالمدينة أكثر فأكثر.

ودلّ النموّ السّريع للإسلام بالمدينة علىٰ أنّ الدّعوة الإسلاميّة لم تتّخذ الطابع القبليّ قطّ، بخاصّة من نوعه القرشيّ، بل كانت دعوة إلٰهيّة رغب فيها أُولو الفطرة النقيّة الّذين لم تربطهم بصاحب الدعوة أيّة وشيجة قبليّة. بينما نلحظ في المقابل أنّ قريشاً الّتي كانت أهله وعشيرته قد انبرت له ووقفت بوجهه عدد سنين. وهذه كانت خسارة من جهات، لكنّها كانت دليلاً ساطعاً وافياً علىٰ صواب الدعوة الإسلاميّة وسلامة باطنها.

---

(١) من هنا ذهب جواد عليّ إلىٰ أنّهم ألين عريكة وأوسع صدراً، انظر: ***المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام*** ٤: ١٣٢.

(٢) ***البخاريّ*** ٣: ٨١.

الهجرة إلى المدينة وقضاياها

١ ـ مفهوم الهجرة

«الهَجْر» في اللّغة ضدّ «الوصل». بعبارة أخرىٰ يشكّل «الفصل والتّرك» المعنى الأصليّ لهذه الكلمة سواءً كان باللسان أم بالقلب أم بالبدن[١]. وهَجَر الشّرك أي: ابتعد عنه. وكذلك الآية ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً﴾[٢] بهذا المعنىٰ. و«المهاجرة» في الأصل مفارقة الغير وتركه[٣]. وعند العرب «خروج البدويّ من البادية إلى الحاضرة». ويقال لمن ترك مسكنه وذهب إلىٰ قوم آخرين: هاجر قومه[٤]. من هنا، فإنّ استعمالات «الهَجْر» في الأصل بمعنى الابتعاد والتّرك. وجاء في القرآن الكريم قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا هَٰذَا ٱلْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾[٥]. وقوله سبحانه: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾[٦]. لكنّ أكثر استعمالاته في التّرك المكانيّ. والمعنى الاصطلاحيّ لهذه الكلمة الهجرة من مكّة وسائر نقاط (دار الشّرك) إلى المدينة (دار الإسلام). ومن المحتمل أنّ لقوله: ﴿إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّى﴾[٧] معنىً مكانيّاً ومعنويّاً. ووردت الهجرة في الرّوايات بمعنىٰ هجر الرجس والإثم «الهجرة أن تهجُر الفواحش»[٨]. وحين سُئل رسول الله ﷺ عن أفضل الهجرة، قال: «أنْ تَهجُرَ ما كَرِهَ رَبُّكَ»[٩]. وجاء أيضاً: «المهاجر من هَجَرَ السيّئات وترك ما حرّم الله»[١٠]. وقيل في مهاجري المدينة: «هاجِروا ولا تهجّروا»[١١]. ونستبين هنا مساراً لموضوع الهجرة وتبعاتها.

---

(١) انظر: *تاج العروس* ١٤: ٣٩٦؛ *المفردات*: ٥٣٤.

(٢) المزّمّل: ١٠.

(٣) *المفردات*: ٥٣٤.

(٤) *تاج العروس* ١٤: ٣٩٦.

(٥) الفرقان: ٣٠.

(٦) المدّثّر: ٥.

(٧) العنكبوت: ٢٦.

(٨) *مجمع الزّوائد* ٥: ٢٥٢، ٢٥٣.

(٩) *سنن النّسائيّ* ٧: ١٤٤.

(١٠) *الكافي* ٢: ٢٣٥.

(١١) *المفردات*: ٥٣٥.

٢ ـ بدء الهجرة

شعرت قريش بالخطر وزادت ضغوطها على المسلمين بعد انتشار الإسلام بين أهل المدينة. وقيل إنّ تشدّدها لم يسبق له مثيل حتّىٰ ذلك الحين. ويعود ذلك إلى امتداد الإسلام في مدينة كيثرب، ودعم أهلها العسكريّ للنّبيّ ﷺ[١].

وبعد هذا التشدّد وإعداد الأرضيّة للهجرة طلب المسلمون الهجرة إلى المدينة. وقد جُرِّبت هذه الهجرة قبل ذلك حين هاجر المسلمون إلى الحبشة. وكان تشدّد قريش أيضاً من الأسباب الأساسيّة لخروج المسلمين إليها. وكان قد وقع الذّهاب من مكّة إلى المدينة قبل أمر النّبيّ ﷺ، وتلك هي هجرة أبي سلمة بن عبد الأسد. وهذا الرّجل كان من المهاجرين إلى الحبشة، وعاد إلىٰ مكّة. وحين رأى اضطهاد قريش لجأ إلىٰ يثرب. وبعد ذلك ذهبت زوجته أمّ سلمة ـ الّتي تزوّجها النّبيّ ﷺ بعد استشهاده ـ مع النّبيّ ﷺ وابنها إلىٰ يثرب. وبناءً علىٰ ما ذكره ابن هشام وابن سعد كان أوّل مهاجر توجّه إلىٰ يثرب قبل بيعة العقبة بعامٍ[٢]. وذهب البلاذريّ إلىٰ أنّه ثالث مهاجرٍ بعد مصعب بن عمير وابن أمّ مكتوم[٣]. ويبدو أنّ الرّأي الأوّل هو الأصوب. مع افتقارنا إلى الدّليل علىٰ أنّ تجربته كانت مؤثّرةً في قرار رسول الله ﷺ إذ إنّ أرضيّة الهجرة تمهّدت بعد بيعة العقبة والقضايا الّتي اتّفق عليها الأوس والخزرج[٤]. وينبغي أن نعدّ هذه النّقطة هي الأساس لاختيار يثرب داراً للهجرة،

---

(١) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٢٢٥، ٢٢٦؛ *أنساب الأشراف* ١: ٢٥٧. قال ابن سعد: [وجعل البلاء يشتدّ على المسلمين من المشركين لما يعلمون من الخروج فضيّقوا علىٰ أصحابه وتعبّثوا بهم ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالون من الشّتم والأذىٰ].

(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٢: ٤٦٨؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٢٢٦؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن كثير ٢: ٣١٥.

(٣) *أنساب الأشراف* ١: ٢٥٧.

(٤) *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٣: ٣١٩.

لأنّ مثل هذا الدّعم من أُناس كهؤلاء يمكن أن يكون مؤثّراً في اختيارها بسهولة. ويضاف إلىٰ ذلك أنّ يثرب نفسها كانت منطقة معروفة ومألوفة لدى المسلمين. كما أنّنا نعلم أنّ والِدَي النّبيّ ﷺ كانا مدفونَين في الأبواء وهي من القرى التّابعة للمدينة. وقال ﷺ للمسلمين بعد أمره بالهجرة: «فإنّ البلاد قريبة وأنتم بها عارفون»[١]. من هنا فإنّ «قرب يثرب من مكّة»، و«معرفة أهل مكّة بها» عاملان لهما أهمّيّتهما في اختيار يثرب. بيد أنّ الأهمّ هو رسوخ الإسلام فيها. وقال رسول الله ﷺ في هذا الصّدد: «إنّ الله ـ عزّ وجلّ ـ قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها»[٢]. وذكر بعض الباحثين نقاطاً أخرىٰ منها أهمّيّة يثرب الزّراعيّة في تكوين بنية اقتصاديّة قويّة، ومنها يمانيّة الأوس والخزرج وقحطانيّتهما ـ مع الأخذ بعين الاعتبار منافستهم للعدنانيّين وامتناعهم من تسليم اللاجئين إلىٰ خصومهم ـ ومنها تعذّر الهجرة إلىٰ مناطق أخرىٰ كالطّائف مثلاً (الّتي كانت قد أعربت من معارضتها للدّعوة النّبويّة رسميّاً) وكذلك مناطق نائية كبلاد فارس، والروم، والحبشة[٣]، الّتي كانت قبل ذلك مأمناً مناسباً لعدد من المسلمين على النحو المؤقّت. وجاء في روايةٍ أنّ البحرين، وقُنَّسْرين (مدينة في الشّام) كانتا من المناطق المحتملة أيضاً. لكنّ الاختيار وقع على المدينة[٤].

وكانت الفترة بين بيعة العقبة والهجرة النّبويّة تتراوح بين سبعين يوماً إلىٰ ثلاثة أشهر. وهاجر خلالها معظم المسلمين تاركين مكّة ميمّمين المدينة. وبذل المشركون جهدهم في صدّ المسلمين عن الذهاب ما استطاعوا إلىٰ ذلك سبيلاً (وبعضهم كان قادراً علىٰ ذلك)، وحبسوا عدداً منهم. وكان هؤلاء عادةً ممّن وافقت أُسرُهم على

---

(١) *أنساب الأشراف* ١: ٢٥٧.

(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٢: ٤٦٨؛ *تاريخ الطّبريّ* ٢: ٣٦٩.

(٣) *الصّحيح من سيرة النّبيّ* ﷺ ٢: ٢٢٨ ـ ٢٥٢.

(٤) *دلائل النّبوّة*، البيهقيّ ٢: ٤٥٨؛ *سنن التّرمذيّ* ٥: ٧٢١.

اضطهادهم والضّغط عليهم، وكانوا أنفسهم يسجنونهم في بيوتهم ويصفّدونهم بأغلالهم ووسائلهم الأُخرىٰ[١]. علىٰ سبيل المثال، لمّا ذهب أبو سلمة فإنّ أهل زوجته أمّ سلمة ـ وهم بنو المغيرة ـ حالوا دون ذهابها عاماً كاملاً، ولم يوافقوا علىٰ ذلك إلّا بعد أن رأوا شدّة امتعاضها وانزعاجها[٢]. وهاجرت بعض الأُسر الّتي كان جميع أعضائها أو جلّهم مسلمين. وهاجر آل جَحْش [بنو غَنْم] رجالهم ونساؤهم جميعاً بعد أن أغلقوا باب دارهم[٣]. وكان أبو جهل وطائفة من قريش يمرّون عليها مع العبّاس عمّ النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. وقال العبّاس: هذا عمل ابن أخي، فرّق جماعتنا، وشتّت أمورنا، وألقىٰ بيننا التّفرقة[٤]. وكانت بنتُ أبي سفيان زوجةَ عبد الله بن جحش، وباعت دارهم بعد هجرتهم[٥]. وجاء في خبر آخر أنّ مسلمي مكّة كانوا يغادرونها إلى المدينة فوجاً فوجاً[٦]. وغادرها أبناء بكير الأربعة أيضاً مع مواليهم من بني سعد ابن ليث[٧].

وسكن جُلّ هؤلاء المهاجرين ـ كما يُستشفّ من سيرة ابن هشام ـ في قُبا عند قبيلة بني عمرو بن عوف. وكان أبو سلمة أوّل مهاجر في قُبا، وتلاه بنو جحش وخلق كثير آخر، وأقاموا في قُبا[٨]. وشعر المشركون بالخطر حين رأوا هذه الهجرة العامّة للمسلمين، وبدأوا بإجراءات تحول دونها. منها أنّهم سجنوا عدداً منهم. ولمّا

---

(١) هاجر لفيف منهم بعد تحمّل ضروب الأذىٰ. قال تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾. النّحل: ١١٠. وانظر: *بحارالأنوار* ١٩: ٣٥.

(٢) *أنساب الأشراف* ١: ٢٥٩؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٢: ٤٦٩.

(٣) *الطّبقات الكبرىٰ* ٣: ٩٠.

(٤) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٢: ٤٧١.

(٥) مجمع *الزّوائد* ٦: ٦٣.

(٦) *تاريخ الطّبريّ* ٢: ٣٦٩.

(٧) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٢: ٤٧٧؛ *تاريخ الطّبريّ* ٢: ٢٥٩؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ٣: ٣٨٨.

(٨) انظر: *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٢: ٤٧٢، ٤٧٤، ٤٧٧، ٤٧٨؛ *الدّرر*: ٤٦، ٤٧.

هاجر عيّاش بن أبي ربيعة [من بني مخزوم] قدم أبوجهل وأخوه الحارث إلىٰ يثرب، وخدعاه عبر استفزازه بقلق أمّه عليه من خلال بكائها المتواصل، وجلوسها تحت الشمس، وإبائها الجلوس في الظّلّ. وبعد قطعهما شوطاً من الطّريق صفّداه وحبساهُ في مكّة. وعندما جاءا إلىٰ مكّة طلبا من أهلها أن يتعاملوا مع سفهائهم بهذا النّحو. وفي وقت لاحق أشخص النّبيّ ﷺ الوليد بن الوليد بن المغيرة إلىٰ مكّة، فأفلح في إطلاقهم سرّاً وأتىٰ بهم إليه ﷺ[١]. ويدلّ خبر آخر علىٰ أنّ المشركين أرغموا صهيب الرّوميّ الّذي كان يهمّ بالهجرة أن يدفع إليهم كلّ ما ادّخره، وحينئذٍ يستطيع أن يغادر مكّة. وقال رسول الله ﷺ: ربح صهيب! ربح صهيب[٢]! وقيل: كلّ من كان قادراً على الهجرة يمّم المدينة إلّا أفراداً قلائل منهم كالنّبيّ ﷺ، وأميرالمؤمنين عليه السلام، وأبي بكر. ويضاف إلىٰ ذلك أنّنا ينبغي أن نعدّ المسلمين المستضعفين ومَن كان خاضعاً لقيود أسرته في عداد الباقين[٣]. وقيل إنّ الآية الكريمة: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾[٤] نزلت في المهاجرين الّذين بكت أزواجهم وذراريهم ليحولوا دون هجرتهم[٥].

٣ ـ هجرة النّبيّ ﷺ

ذُعر المشركون بخروج المسلمين من مكّة لأنّهم شعروا أنّ طائفةً من المسلمين قد

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٢: ٤٧٤ ـ ٤٧٦؛ وانظر: *دلائل النّبوّة*، البيهقيّ ٢: ٤٦٠.

(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٢: ٤٧٧؛ *فقه السّيرة*: ١٦٦؛ عن *المستدرك على الصحيحين* ٣: ٣٩٨٣؛ *مجمع الزّوائد* ٦: ٦٠؛ *تاريخ المدينة* ٢: ٤٨٠؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ٣: ٢٢٧، ٢٢٨.

(٣) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٢٢٨؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٢: ٤٨٠.

(٤) التّغابن: ١٤.

(٥) *تاريخ المدينة* ٢: ٤٩٠، ٤٩١؛ *مجمع البيان* ١٠: ٣٠٠ (عن ابن عبّاس، ومجاهد).

تهيّأت في إحدى المدن، ويمكن أن تشكّل خطراً جادّاً عليهم وعلىٰ قوافلهم التّجاريّة. من هنا عزموا علىٰ أن يتّخذوا قراراً حازماً بشأن النّبيّ ﷺ الّذي ما زال في مكّة[١]. ولم يفكّروا حتّىٰ ذلك الحين بقتله ﷺ إذ كانوا يُحسّون أنّ ذلك يؤدّي إلى الخلاف، ويمكن أن يُفضي إلىٰ نزاعٍ لا تُعرف عُقباه. ومن الطّبيعيّ أنّ مكّة كانت حاضرةً تجاريّة، وبقاء التّجارة رهين بالأمن والهدوء اللّذين كانا فيها. فإذا فُقدا تخلخلت. لذا كلّما يُطرح كلام في هذا المجال فإنّه إمّا يعبّر عن فكرة فرديّة غير قابلة للتّطبيق، وإمّا ينبري له جمع منهم في حينه. بيد أنّ هذه التّجارة نفسها (بغضّ النّظر عن مبدأ عداء الكفر والإيمان) أضحت عرضةً للتّهديد الآن لخطر يثرب على القوافل. وعقدت قريش اجتماعاً في دار النّدوة الّتي كانت محلّاً لمشاورة الكبراء للتداول بهذا الشّأن. وسمّى المؤرّخون ذلك اليوم «يوم الزّحمة». وكانت قريش تدرك أنّ المسلمين لن يسكتوا أمام المشركين بعد الانفتاح التّامّ ليثرب على الإسلام وذهاب المهاجرين إليها. فالأفضل لها أن تحول دون رحيل النّبيّ ﷺ الّذي كان يتولّىٰ قيادة التيّار. ولم يدر في خلدهم باديُ ذي بدء أن يقتلوه ﷺ بل كان الكلام يدور حول إخراجه أو سجنه. فأبو البختريّ بن هشام رأىٰ سجنه، والأسود بن الرّبيع رأىٰ إخراجه[٢]. ومن الطّبيعيّ أنّ القرارَين، لا سيّما الأوّل، لم يكن لهما أن يحلّا مشكلتهم، إذ إنّ مغادرته مكّة يمكن أن تجعل جبهة يثرب علىٰ أهبة الاستعداد لمواجهتهم. أمّا سجنه فيمكن أن يحرّض المسلمين علىٰ إنقاذه. فرأوا أنّ المناسب هو قتله وقطع أمل المسلمين به. وأخبر الله تعالىٰ في سورة الأنفال (وهي سورة مدنيّة) عن عزمهم علىٰ ذلك فقال جلّ من قائل: ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَاكِرِينَ**﴾[٣].

---

(١) *عيون التّواريخ* ١: ٩٧ (فلمّا رأت قريش ذلك حذروا خروج رسول الله ﷺ).

(٢) *السّيرة الحلبيّة* ٢: ٢٥، ٢٦.

(٣) الأنفال: ٣٠.

قال ابن إسحاق: نزلت في ذلك اليوم[١]. لكنّا أشرنا من قبل إلىٰ أنّ سورة الأنفال من السّور المدنيّة. ومن المحتمل أنّ الله سبحانه أخبر عن قرارٍ اتّخذه المشركون وقتاً ما. ومعظم الأخبار المتعلّقة بجلسة دار النّدوة تُجمع علىٰ أنّ أبا جهل هو الّذي اقترح القتل. وجاء في هذه الأخبار نفسها أنّ شيخاً نجديّاً كان حاضراً في الاجتماع دعم اقتراح أبي جهل برفضه اقتراحات الآخرين. وقيل إنّ الشّيطان ظهر في هيئة رجل نجديّ. ولا يمكن أن نجد دليلاً يسند شيطانيّته [إبليسيّته]. علماً أنّ المسلمين لم يستطيعوا في وقت لاحق أن يتصوّروا ذلك الشّيخ الّذي يوجّه الاجتماع إلّا الشّيطان[٢]. وعرض أبو جهل خطّة للحؤول دون نشوب نزاعٍ داخليّ بين قريش وهي اشتراك جميع الأسر القُرَشِيّة حتّىٰ أبي لهب في هذه المؤامرة فلا يستطيع بنو هاشم إذا طالبوا بدمه أن يقفوا أمامها قاطبةً. وحينئذٍ سيرضون بالدّية وتنتهي القضيّة[٣]. وامتدّ نفوذ أبي لهب في بني هاشم تلك الفترة (بعد وفاة أبي طالب). ولعدائه المسلّم لرسول الله ﷺ زال ذلك الاتّحاد السّابق لبني هاشم، الّذي كان أبو طالب عليه السلام سندَهُ، في الدّفاع عنه ﷺ. وجاء في كثير من المصادر أنّ جبرئيل عليه السلام أخبره ﷺ بمؤامرتهم،

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٢: ٤٨٤.

(٢) التصوّر الآخر هو أنّ حضور الشّيطان في هيئة النّجديّ يمكن أن يكون له جذور في أفكار العصر الجاهليّ. قيل: عندما وُضع الحجر الأسود في مكانه باقتراح محمّد ﷺ لرفع النزاع (كان ابن خمس وثلاثين) صاح الشّيخ النجديّ المذكور: لِمَ أذنتم لهذا الغلام يضع الحجر في مكانه وتركتم أشرافكم وكباركم؟ واختيار النّجديّ لهذا الخبر يعود إلىٰ أنّ أهل تهامة كانوا يرغبون في حماية محمّد ﷺ. *السّيرة الحلبيّة* ٢: ٢٥. يقول المقدسيّ في إبليس والبيتين المنسوبين إليه: لا نعجب لكلام إبليس إذ قد يقال لمن يعمل عمله: إبليس. *البدء والتّاريخ* ٤: ١٧٤. ومرّت لنا توضيحات في القسم الأوّل من الكتاب بهذا الشأن.

(٣) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٢: ٤٨٢؛ *أنساب الأشراف* ١: ٢٦٠.

وحذّره من النّوم في بيته تلك الليلة الموعودة[١]. ونقل ابن سعد أنّ رُقَيعة بن أبي صيفي [ابن هاشم] أخبره صلى الله عليه وآله وسلم باجتماع قريش وعزمهم علىٰ قتله في الليلة الموعودة[٢]. وهذان الخبران لا يتنافيان.

وقام أربعون من قريش (وفي رواية خمسة عشر، وفي أُخرىٰ مائة)[٣] بتطويق داره صلى الله عليه وآله وسلم في بداية الليلة الموعودة.

ولا علم لنا بشكل البناء الّذي كان عليه داره، بيد أنّ ما يُستشفّ ممّا نُقل هو أنّ منامه صلى الله عليه وآله وسلم كان بمرأىٰ منهم. وذكر السّهيليّ وآخرون أنّ الّذي منعهم من دخول الدار ومهاجمته هو أنّهم سمعوا صوت امرأةٍ من داخل الدار. وبعد ذلك قال بعضهم إنّهم يشقّ عليهم أن تقول العرب فيهم أنّهم هتكوا حرمة بني عمّهم، فمكثوا حتّىٰ يخرج صلى الله عليه وآله وسلم من الدار[٤]. وفي الوقت نفسه كانوا يراقبونه ألّا يفرّ منها. وفي هذا المجال كان صلى الله عليه وآله وسلم قد وضع خطّةً، وطلب من عليّ عليه السلام أن ينام في مكانه، ويلتحف ببرده اليمانيّ الأخضر الّذي كان يرتديه صلى الله عليه وآله وسلم[٥]. وبعد ذلك خرج صلى الله عليه وآله وسلم من الدار بعناية الله سبحانه، وتوجّه نحو جنوب مكّة علىٰ عكس طريق يثرب. ومن الثّابت أنّ المرور علىٰ أربعين شخصاً لا يمكن أن يتحقّق بغير عون إلٰهيّ مباشر. وهذا أمر ذكرته المصادر المعنيّة مراراً. وكان صلى الله عليه وآله وسلم حين خرج يتلو الآيات الأولىٰ من سورة «يسٓ» ومنها قوله تعالىٰ: ﴿**وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا**

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٢: ٤٨٣؛ *أنساب الأشراف* ١: ٢٦٠.

(٢) *الطّبقات الكبرىٰ* ٨: ٢٢٣؛ *الإصابة* ٤: ٣٠٣.

(٣) *وفاء الوفاء* ١: ٢٣٦.

(٤) نقلاً عن هامش *السّيرة النّبويّة* لابن هشام ٢: ٤٨٣؛ *السّيرة الحلبيّة* ٢: ٢٨؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٣: ٣٣٠؛ *سمط النجوم العوالي*، العصاميّ ١: ٢٩٢.

(٥) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٢: ٤٨٣؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٢٢٨.

يُبْصِرُونَ﴾[١]. وكانوا ما زالوا ينتظرون خروجه وهم يظنّون أنّ النّائم هو نفسه ﷺ. وذكر البلاذريّ وغيره أنّهم رشقوه بالنبال (أو بالحجارة)[٢]. وكان الإمام يتقلّب أحياناً لكنّه لم يُخرج رأسه[٣] إلىٰ أن أصبح (كما قال ابن هشام) وقام من مكانه، فعرفوا أنّ النّبيّ ﷺ قد أفلت من أيديهم. وحين سألوا الإمام عليه السلام عنه قال: لا أدري أين ذهب! ويتحتّم علينا أن نعدّ هذا التّفادي من أعظم مناقب الإمام عليه السلام وأكثرها قيمةً. وروى الحاكم النيسابوريّ عن الإمام السّجّاد عليه السلام أنّ أوّل من فدىٰ نفسه لمرضاة الله هو عليّ بن أبي طالب عليه السلام[٤]. ونقل عن الإمام عليّ عليه السلام شعراً بهذا الشّأن نذكر منه البيتين الآتيين:

وبات رسول الله في الغار آمناً ... موقّىً وفي حفظ الإلٰه وفي سترِ
وبتّ أُراعيهم ولم يتّهمونني ... وقد وطّنت نفسي على القتل والأسرِ[٥]

وروي عن الإمام الباقر عليه السلام عن ابن عبّاس وعمر بن شبّه أنّ قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾[٦] نزل ليلة المبيت بشأن أميرالمؤمنين عليه السلام

---

(١) يس: ٩.

(٢) ***أنساب الأشراف*** ١: ٢٦٠؛ وانظر: ***تفسير فرات***: ٤٢١ عن ابن عبّاس؛ ***تاريخ دمشق*** «ترجمة الإمام عليّ عليه السلام» ١: ١٥٤؛ ***بحارالأنوار*** ١٩: ٨٧؛ ***إعلام الورىٰ***: ١٩٠ (نقلاً عن ابن عبّاس)؛ ***سبل الهدىٰ والرّشاد*** ٣: ٣٢٧.

(٣) ***أمالي الشّيخ الطّوسيّ*** ٢: ٨٢، ٨٣؛ ***الصّحيح*** ٢: ٢٤٠، عن الطّوسيّ.

(٤) ***المستدرك على الصحيحين*** ٣: ٤؛ ***سبل الهدىٰ والرّشاد*** ٣: ٣٢٧؛ ***أمالي*** ابن الشّيخ: ٢٨٦؛ ***بحار الأنوار*** ١٩: ٥٤، ٥٥، عن ابن الشّيخ (نقلاً عن الإمام السّجّاد عليه السلام).

(٥) ***المستدرك على الصحيحين*** ٣: ٤؛ ***سمط النّجوم العوالي*** ١: ٢٩٢، ٢٩٣؛ ***سبل الهدىٰ والرّشاد*** ٣: ٣٢٨؛ ***بحارالأنوار*** ١٩: ٦٣، (عن أمالي ابن الشّيخ)؛ ***الغدير*** ٢: ٤٨، عن ***الفصول المهمّة***: ٣٣؛ ***المناقب***، الخوارزميّ: ٤٩؛ ***تذكرة الخواصّ***: ٢١؛ ***نور الأبصار***: ٨٦.

(٦) البقرة: ٢٠٧.

الّذي بات في فراش النّبيّ صلى الله عليه وآله[١].

ونقل الطّبريّ عن بعض الرّواة أنّ أبا بكر أتىٰ عليّاً عليه السلام وسأله عن رسول الله صلى الله عليه وآله فأخبره أنّه لحق بالغار من ثور، وقال: إن كان لك فيه حاجة فألحقه. فخرج أبوبكر مسرعاً فلحق نبيّ الله صلى الله عليه وآله في الطريق. فسمع رسول الله صلى الله عليه وآله جرس أبي بكر في ظلمة الليل، فحسبه من المشركين، فأسرع صلى الله عليه وآله المشي فانقطع قبال نعله ففلق إبهامَه حَجَرٌ فكثر دمها وأسرع السعي، فخاف أبو بكر أن يشقّ علىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله فرفع صوته وتكلّم فعرفه رسول الله صلى الله عليه وآله فقام حتّىٰ أتاه فانطلقا ورجل رسول الله صلى الله عليه وآله تستنّ دماً حتّى انتهىٰ إلى الغار مع الصبح فدخلاه. وأصبح الرهط الّذين كانوا يرصدون رسول الله صلى الله عليه وآله فدخلوا الدار. وقام عليّ عليه السلام عن فراشه فلمّا دنوا منه عرفوه، فقالوا له: أين صاحبك؟ قال: لا أدري... وأخرجوه إلى المسجد فحبسوه ساعةً ثمّ تركوه[٢]. ونُقل عنه عليه السلام في بعض الرّوايات أنّه ضُرب ضرباً مبرّحاً

---

(١) ***التبيان*** ٢: ١٨٣؛ ***مجمع البيان*** ٢: ٣٠١؛ ***الإرشاد***: ٣١؛ ***تاريخ دمشق*** «ترجمة الإمام عليّ عليه السلام» ١: ١٥٣، ١٥٤؛ ***تفسير العيّاشيّ*** ١: ١٠١؛ ***بحارالأنوار*** ١٩: ٧٨ (عن العيّاشيّ)؛ ***شرح نهج البلاغة***، ابن أبي الحديد ٣: ٢٧٠؛ ***الغدير*** ٢: ٤٧ عن الإسكافيّ في شرح ابن أبي الحديد. وجاءت رواية ليلة المبيت فيه عن تفسير الثّعلبيّ. وقيل: نقلها الغزاليّ عن الثّعلبيّ في ***إحياء العلوم*** ٣: ٢٣٨. وانظر: مصادر أُخرىٰ وردت في ***الغدير*** ٢: ٤٧، ٤٨.

(٢) ***تاريخ الطّبريّ*** ٢: ٣٧٤؛ ***البرهان*** ١: ٢٠٧؛ ***تفسير العيّاشيّ*** ١: ١٠١؛ ***بحار الأنوار*** ١٩: ٧٨؛ ***السّيرة الحلبيّة*** ٢: ٣٦ (باختصار)؛ ***السّيرة النّبويّة***، ابن كثير ٢: ٢٣٥. نقله عن الطّبريّ وعدّه غريباً. ولابدّ أن يكون السبب هو التأكيد التامّ للروايات الأُخرىٰ وجود برنامج مشترك للهجرة، وهذا الخبر يدحض تلك الرّوايات المشكوكة. ونقل الحلبيّ القسم الأخير من الرواية حول حبس الإمام في المسجد ٢: ٢٨. وذكر المقدسيّ أيضاً أنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله ذهب وحده وأوصىٰ عليّاً عليه السلام أن يخبر أبا بكر إذا جاء أنّه ذهب نحو ثور. ***البدء والتاريخ*** ٤: ١٧٠. وهكذا فهما لم يذهبا معاً أو لم يذهبا من دار أبي بكر كما نقلوا. وانظر في حبس الإمام وضربه أيضاً: ***عيون التواريخ*** ١: ٩٨.

حتّىٰ قارب القتل[١].

ومن المؤسف أنّ بعض المحسوبين على الخليفة الأوّل مثل بنتيه أسماء وعائشة (أو غيرهما عنهما) نقلوا روايات توخّوا منها اختلاق فضائل معيّنة. وتدلّ هذه الرّوايات علىٰ أنّ أُسرة أبي بكر كلّها شملتها الهجرة، في حين أنّ هذا الأمر مضافاً إلىٰ تضاربه مع الخبر المذكور يبدو أنّه لا يراعي الاحتياط أيضاً.

ويضاف إلىٰ ذلك، وهو ما مرّ في الحديث عن أسباب التّحريف في السّيرة، أنّ جوّ تلك الروايات المنقولة عن أسماء بنت أبي بكر يشير إلىٰ أنّ أحد الجنّ قرأ شعراً في مكّة وسمعه النّاس جميعهم دون أن يروه! وذلك الجنّيّ مجّد النّبيّ ﷺ وأبا بكر في شعره، بل دلّ على مخبأهما[٢]. ومرّ بنا أنّ الجنّ حقيقة بيد أنّ ما يقال أنّه جاء بين النّاس وذهب من أسفل مكّة إلىٰ أعلاها وسمع النّاس صوته دون أن يروه وبلا شهادة من أحدٍ أمر مرفوض[٣].

٤ ـ من مكّة إلى المدينة

خرج رسول الله ﷺ من بيته في السّاعات الأُولىٰ من الليل، وتوجّه تلقاء جنوب مكّة في طريق يعاكس اتّجاه المدينة. وفعل ذلك ليترك المشركين الّذين تُحتمل ملاحقتهم إيّاه في طريق يثرب حيارىٰ لفترة أكثر، ومن ثمّ يمّم يثرب في فرصة مناسبة. وجاء في رواية مرّت بنا أنّ أبا بكر قصده ﷺ، وكان قد سمع خبر هجرته من الإمام عليّ عليه السلام. (ومن المحتمل أنّه تلقّىٰ خبر مسيره)، والتحق به. وهؤلاء في

---

(١) *الخصال* ٢: ١٢٣، ١٢٤؛ *بحارالأنوار* ١٩: ٩٢.

(٢) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٢٢٩، ٢٣١. ذكرنا سابقاً مصادر أكثر لهذا الموضوع.

(٣) انظر: موضوع أسباب التّحريف في السّيرة.

الحقيقة كانوا المطّلعين وحدهم علىٰ موضوع الهجرة بهـذا الشّكل. وجـاء ﷺ إلىٰ جبل ثور واختفىٰ في غارٍ كان عليه. ومن جهة أخرىٰ قصّهُ المشركون مسرعين حين علموا بخروجه من بيته بعد ساعات مرّت عليه. وقصدوا كلّ جهة، ومـنها المسـير المذكور، ووصلوا قريباً من الغار أيضاً. وتدلّ روايات كثيرة علىٰ أنّهم اقتربوا مـن الغار كثيراً حتّىٰ إنّ النّبيّ ﷺ كان يسمع صوتهم. وذكر الله تعالىٰ في سورة التّوبة نصره لنبيّه ﷺ في تلك اللحظة الحرجة. وعوتب النّاس في البداية علىٰ تقاعسهم عن الجهاد حين دُعوا إليه، ثمّ جاء التهديد بالعذاب الأليم واستبدال غيرهم بهم إذا لم يسرعوا إلى الجهاد. بعد ذلك قال سبحانه: ﴿**إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلىٰ وَكَلِمَةُ ٱللهِ هِيَ ٱلْـعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾[١].

وهكذا يحدّثنا الله تعالىٰ عن دعمه الصريح لرسوله ﷺ وإنزاله السّكـينة عـليه وتأييده بجنود لا يُرَون[٢]. وتحقّقت هذه النّصرة بنسائج العنكبوت علىٰ باب الغار كما نطقت بذلك الرّوايات التّاريخيّة، حتّىٰ إنّ المـشركين اطمأنّوا إلىٰ أنّه لم يدخل الغار. وأضاف البعض أنّ حمامتين قد عشّشتا هناك أيضاً، بحيث لو أنّ أحداً كـان ذهب داخل الغار فلا يتسنّىٰ لهما العيش بهذا الشّكل. ويضاف إليه أنّ صوتاً علا في السماء

---

(١) التوبة: ٤٠.

(٢) ذهب البعض إلىٰ خلاف ما صرّحت به الآية الكريمة وقال: إنّ السّكينة كانت عـلىٰ أبي بكـر لا عـلىٰ رسول الله ﷺ لأنّها كانت قد نزلت عليه قبل ذلك. وظاهر الآية الّتي تذكر نزول السّكينة مصاحبَة بنصره بجنود لا يُرَون يغاير هذا الرأي. ويضاف إلىٰ ذلك أنّ نزول السّكينة عليه ﷺ جاء في آيات أخرىٰ أيضاً.

ينادي أنّ محمّداً صلّى الله عليه وآله وسلّم ليس هاهنا فاطلبوه في شعاب مكّة[١]. وقال أميّة بن خلف في باب الغار: هذا النّسج كان قبل أن يولد محمّد. وعيّنت قريش مئة بعير جائزة لمن يلقىٰ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ويسلّمه لهم[٢]. وذكرت بعض الأخبار أنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم وصاحبه مكثا ثلاثة أيّام في الغار كي ييأس المشركون الّذين أتعبهم البحث منه وينصرفوا عنه. ونقل الطبرسيّ أنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم طلب من عبد الله بن أريقط[٣] أن يذهب إلىٰ عليّ عليه السلام ويأتيه بزاد. وكذلك طلب منه أبو بكر أن يذهب إلىٰ بنته أسماء ويأتيه منها بزادٍ أيضاً[٤].

ومن النقاط الرّائعة في ذهاب النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم المراعاة التّامّة للقضايا الأمنيّة، ومنها تركه الإمامَ في بيته لإضلال المشركين، وذهابه إلىٰ جنوب مكّة مع أنّ المسير كان باتّجاه الشّمال، وأخذه عامر بن فهيرة الّذي كان يسوق الأغنام خلفه ليمحو أثر أقدامه، واعتماده علىٰ دليل موثوق لكنّه مشرك كي لا يُثير أحداً. ويضاف إلىٰ هذا كلّه سيره ليلاً واختفاؤه نهاراً[٥].

وفي رواية نقلها ابن عساكر عن أبي رافع: «كان عليّ يجهّز النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم حين كان في الغار يأتيه الطعام والشّراب» ويضيف أنّ الإمام استأجر ثلاثاً من الإبل ليركبها رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، وأبو بكر، ودليلهما، ويتحرّكوا صوب يثرب[٦]. وكان الدّليل خبيراً

---

(١) **مجمع البيان** ٥: ٣١؛ ***إعلام الورىٰ***: ٦٣؛ ***السّيرة الحلبيّة*** ٢: ٣٧.

(٢) ***السّيرة النّبويّة***، ابن هشام ٢: ٤٨٦؛ ***أنساب الأشراف*** ١: ٢٦٣.

(٣) جاء في بعض المصادر كسيرة ابن هشام: «أُرَيْقَط»، ٢: ٤٩١.

(٤) ***إعلام الورىٰ***: ٦٣.

(٥) انظر: ***عيون التّواريخ*** ١: ١٠٠ (الهامش).

(٦) ***تاريخ دمشق*** «ترجمة الإمام عليّ عليه السلام» ١: ١٥٤؛ ***إعلام الورىٰ***: ١٩٠. هذه الرّواية وإن كانت نُقلت من طرق أهل السُّنّة أيضاً لكنّها وردت في مصادرهم العامّة. وفيها أنّ أبا بكر بعث شخصاً ليأتوه ببعيرين. وفي الوقت نفسه يُلحظ في هذه الرّوايات أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم دفع ثمن بعيره ثمّ ركب وقال: «لا أركبُ بعيراً ليس هو لي». وقيل في توجيه ذلك أنّه كان لا يحبّ أن يهاجر إلّا علىٰ ما كان من ماله فحسب. ***وفاء الوفاء*** ١: ٢٣٧.

بالطّرق تماماً، فسار بهما إلىٰ يثرب علىٰ غير الطّريق. ووصلوا إلىٰ قبا في العقد الأوّل من ربيع الأوّل[١]، وكان الثّاني عشر من ربيع الأوّل مصادفاً في اليوم الرّابع والعشرين من أيلول سنة ٦٢٢م حسب تقويم وستنفلد. وكان طريق الهجرة غيرالطّريق الطّبيعيّ إلّا أنّهما كانا يلتقيان في بعض النّقاط. وهذا في الحقيقة احتياط لابدّ منه حتّىٰ لا يظفر المشركون برسول الله ﷺ.

ووقعت في الطريق حادثتان مهمّتان: الأولىٰ: إنّ مشركاً يُدعىٰ سراقة بن مالك علم بتحرّك النّبيّ ﷺ ومن معه. فركب جواده لعلّه يعثر عليه فيسلّمه لقريش ويأخذ منها مئة البعير. لكنّه مُني ببعض العقبات كما تدلّ روايات كثيرة علىٰ ذلك، منها أنّ قوائم فرسه ساخت في الأرض ثلاثاً. فشعر أنّ شيئاً يردعه عن الوصول إلىٰ رسول الله ﷺ. وفي هذه الحال نادى النّبيّ ﷺ اطمئناناً منه إلىٰ وجود قوّة غيبيّة تحميه وتعضده، وشعوراً منه بغلبته في المستقبل القريب، وطلب منه أن يكتب له كتاب الأمان[٢]. وفي طريقه ﷺ وصل إلى امرأةٍ في منطقة قُديد تُدعىٰ أمّ معبد وهي تعيش في خيمة. فطلب منها أن تبيعهم لحماً أو تمراً إن كان عندها، فقالت: إنّها لا تملك شيئاً من ذلك. فطلب منها أن تأذن له بحلب شاةٍ كانت لها! فقالت: هذه الشّاة تخلّفت عن القطيع لضعفها. فأمر أن يؤتىٰ بها، فمسح عليها، فدرّت لبناً كثيراً وظلّت كذلك لسنين ببركة يده الشّريفة ﷺ[٣]. وبعد ذهابه ﷺ جاء زوجها فوصفت له شمائله. ووصفها هذا من أفضل الأوصاف الّتي نُقلت لمحيّاه الشّريف بدقّة مناسبة[٤].

---

(١) *أنساب الأشراف* ١: ٢٦٣.

(٢) *المستدرك* ٣: ٦، ٧؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٢: ٤٨٩. حول الطرق المختلفة لهذه الرّواية انظر *دلائل النّبوّة* للبيهقي ٢: ٤٨٣ ـ ٤٨٩.

(٣) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٢٣٠، ٢٣١.

(٤) *المستدرك* ٣: ٩؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٢٣٠، ٢٣١.

رسول الله ﷺ في قباء[١]

طويت المسافة بين مكّة ويثرب من غير الطّريق المألوف. ومن الثّابت أنّ النّبيّ ﷺ لاقىٰ بعض المصاعب في طريقه. ووصل إلىٰ قبا متأخّراً بعد الوقت الّذي كان ضروريّاً لسيره الطّبيعيّ. وذكر المقدسيّ أنّ رحلته منذ خروجه من مكّة إلىٰ أن وصل قبا استغرقت خمسة عشر يوماً[٢]. وتبعد قبا عن مركز المدينة (حيث المسجد النّبويّ الشّريف الآن) ستّة كيلومترات، وتقع إلى الجنوب منه[٣]. وحريّ بالعلم أنّ المدينة لم تكن حاضرة مركزيّة آنذاك بل كانت تتألّف من عدد من المراكز الحياتيّة لشتّى الطوائف العربيّة واليهوديّة، وكانت واسعة نسبيّاً[٤].

وأشرنا قبل ذلك إلىٰ أنّ عدداً كبيراً من المهاجرين سكن في قبا. وكان بنو عمرو ابن عوف من الأوس يسكنون فيها. ومن المحتمل أنّهم كانوا يجهدون كثيراً في استقبال الضّيوف الّذين منهم. ويقول البلاذريّ: لمّا قدم المهاجرون من مكّة إلى المدينة سكنوا في قبا[٥]. ووصل رسول الله ﷺ إلىٰ قبا يوم الاثنين، ولبث فيها حتّى الجمعة وجاء في بعض الرّوايات أنّه مكث ثلاثاً وعشرين ليلةً فيها[٦]. وفي بدء دخوله، قال أحد اليهود الّذي كان علم بمجيئه قبل غيره: أي بني قيل! (اسم كان للأوس والخزرج): جاء صاحبكم. ودخل ﷺ بيت كلثوم بن هدم في قبا. وجاء في خبر آخر أنّه

---

(١) حول تلفّظ (قبا) بلا همزة، أو (قباء) بالهمزة انظر: ***معجم البلدان*** لياقوت ٤: ٣٢٠.

(٢) ***البدء والتاريخ*** ٤: ١٧٥.

(٣) اتّصلت المدينة بقبا الآن. ومنطقة قبا عامرة مليئة بالبساتين. انظر: ***معجم المعالم الجغرافيّة في السّيرة النّبويّة***: ٢٤٨، ٢٤٩.

(٤) ***البدء والتّاريخ*** ٤: ١٧٦.

(٥) ***أنساب الأشراف*** ١: ٢٦٤؛ ***معجم البلدان*** ٤: ٣٠٢.

(٦) ***أنساب الأشراف*** ١: ٢٦٣. ولمّا مكث ﷺ في قبا حتّىٰ قدوم عليّ عليه السلام، فإنّ هذا الرأي يبدو مقبولاً أكثر من غيره.

سكن في منزل سعد بن خيثمة. وذكر البلاذريّ أنّ القول الثاني نابع من تردّده الكثير صلى الله عليه وآله وسلم علىٰ سعد[١]. لكنّه كان في دار كلثوم بن هدم أساساً. وقيل: كان سعد ابن خيثمة أعزب، واختير بيته للقاءات النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بأصحابه[٢]. وكان الصّحابة العُزب يسكنون فيه أيضاً[٣] وقبل قدومه صلى الله عليه وآله وسلم أعدّ المسلمون مسجداً كانوا يصلّون فيه.

لا جرم أنّ الأخبار المرويّة في كتب السّيرة حول انتظار أهل المدينة ترتبط بدخوله صلى الله عليه وآله وسلم إلىٰ قبا، لا إلىٰ يثرب؛ وحين وصل خبر دخوله إليها بُعث أحد أفراد البادية إلى الطوائف الّتي كانت في سائر مناطق المدينة ليخبرها. ولمّا أنبأها بادر خمسمائة من الأنصار إلى استقباله[٤]. علماً أنّه عندما لبث في قبا أيّاماً كان أهل يثرب يتردّدون عليه أيضاً. ورُوي عن أبي بكر أنّ شعار النّاس حين الدخول في يثرب: الله أكبر جاء رسول الله؛ الله أكبر جاء محمّد. وكذلك نُقل أنّهم كانوا ينشدون الأشعار آنئذٍ، ومنها:

طلع البدر علينا ... من ثنيّات الوداع
وَجَبَ الشكرُ علينا ... ما دعا لله داع
أيّها المبعوث فينا ... جئتَ بالأمر المطاع[٥]

وذهب البعض إلىٰ قوّة الاحتمال القائل أنّ الشّعر المذكور لم يُنشد عند دخول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلىٰ قبا؛ لأنّ «ثنيّات الوداع» في طريق الشّام إلى المدينة لا في طريق

---

(١) *أنساب الأشراف* ١: ٢٦٣؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن كثير ٢: ٢٧٠؛ *تاريخ الطّبريّ* ٢: ٣٨٢.

(٢) *السّيرة الحلبيّة* ٢: ٥٢.

(٣) *تاريخ الطّبريّ* ٢: ٣٨٢.

(٤) *السّيرة النّبويّة*، ابن كثير ٢: ٢٦٩؛ *السّيرة النّبويّة*، الذّهبيّ: ٣٣٣.

(٥) *السّيرة النّبويّة*، ابن كثير ٢: ٢٦٩؛ *السّيرة النّبويّة*، الذّهبيّ: ٣٣٣.

مكّة إليها[١]. ولعلّها أُنشدت وقُرأت عند رجوعه ﷺ من تبوك إلى المدينة.

واستقبله المسلمون جميعهم مسلّحين، ومنهم الأنصار أيضاً[٢]. ولعلّ ذلك يعود إلىٰ أنّ أهل المدينة كانوا قد تعهّدوا في الدّفاع عنه حين جرت بيعة العقبة الثّانية. وكانت الهجرة في الحقيقة بداية تشكيل الحكومة الإسلاميّة الّتي تعتبر القوّة من اللوازم الأصليّة لتبلورها. وكان أوّل عملٍ قام به النّبيّ ﷺ هو كسر الأصنام[٣].

وورد اسم عمّار بن ياسر في بناء مسجد قبا. فقد نقل الحكم بن عيينة أنّ النّبيّ ﷺ حين نزل قبا، قال عمّار: علينا أن نبني له سقيفة يستريح تحتها ويصلّي. ثمّ هبّ يجمع الحجر ليبني به المسجد المذكور. وجمع الحجر وبنى النّبيّ ﷺ المسجد، وأكمله عمّار. من هنا كان عمّار أوّل من بنىٰ مسجداً لعامّة المسلمين[٤]. وسنتحدّث عن دوره في بناء مسجد المدينة لاحقاً. وقال ابن هشام أيضاً: «أوّل مَن بنىٰ مسجداً عمّار بن ياسر»[٥]. في ضوء ذلك لابدّ أن يكون مسجد قبا أوّل مسجد يشهد صلاة جماعة للمسلمين بإمامة النّبيّ ﷺ. وبعد ذلك لمّا بنى المنافقون مسجد ضرار في السّنة التّاسعة للهجرة، منع الله تعالىٰ رسوله ﷺ من إقامة الصّلاة فيه، قال سبحانه: **﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾**[٦].

---

(١) ***وفاء الوفاء*** ٤: ١١٧٠؛ ***زاد المعاد*** ٣: ١٠؛ نقلاً عن ***الصحيح*** ٢: ٣١٢.

(٢) ***الطّبقات الكبرىٰ*** ١: ٢٣٣ (وتلبّس المسلمون السّلاح).

(٣) ***البدء والتّاريخ*** ٤: ١٧٦، ١٧٧.

(٤) ***السّيرة الحلبيّة*** ٢: ٥٥؛ ***وفاء الوفاء*** ١: ٢٥٠؛ ***سبل الهدىٰ والرّشاد*** ٣: ٣٨٠ (عن يونس بن بكير).
ويضيف المؤلّف: «وهو في التّحقيق أوّل مسجد صلّىٰ فيه بأصحابه جماعةً».

(٥) ***السّيرة النّبويّة***، ابن هشام ٢: ٤٩٨. نقل محقّق السّيرة الرّواية المذكورة عن السّهيليّ في ***الرّوض الأنف*** مشيراً إلىٰ قيام عمّار ببناء مسجد قبا.

(٦) التّوبة: ١٠٨.

تحدّثت الآية عن أوّل «مسجد أُسّس على التقوىٰ»، و«فيه رجال يحبّون أن يتطهّروا». وذهبت روايات كثيرة إلىٰ أنّ مصداق الآية هو مسجد قبا. وأشار عدد من الروايات إلىٰ مسجد النّبيّ[1]. وكلمة «أوّل» لا تثبت تقدّماً وتأخّراً، بل الآية في مقام بيان منزلة مسجدٍ أُسّس على التّقوىٰ من «أوّل يومٍ»[2]. بيد أنّنا إذا انطلقنا من المصداق أمكننا أن نقول اعتماداً علىٰ بعض القرائن إنّ المقصود هو مسجد قبا. ويقول الطّبرسيّ: «إنّ بني عمرو بن عوف اتّخذوا مسجد قبا وبعثوا إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يأتيهم فأتاهم وصلّىٰ فيه فحسدهم جماعة من المنافقين من بني غنم بن عوف فقالوا نبني مسجداً فنصلّي فيه...» وطلبوا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يصلّي فيه، وذلك هو مسجد ضرار[3]. ففي ضوء هذه القرينة، لابدّ أن ترتبط مقايسة الله تعالىٰ بهذين المسجدين. (وتمّت المقايسة بدقّة في الآية «١١٠» من سورة التّوبة) وذكر ياقوت في القرن السّابع أنّ أنقاض مسجد ضرار ما زالت في مكانها ويقوم النّاس بهدمها قصداً للثّواب[4]. والخلوص الّذي كان عليه المهاجرون الأُوَل بعد تحمّل تلك المشاقّ ووعثاء السّفر وترك البيوت قد انعكس في الآية المذكورة. وكان النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يكثر الذّهاب إلى مسجد قبا والصّلاة فيه[5]. ولا جَرَمَ أنّ هذا كان احتراماً لأهل قبا الّذين أخلصوا في

---

(١) انظر: *الدرّ المنثور* ٣: ٢٧٧، ٢٧٨.

(٢) ثمّة رأي آخر بهذا الشّأن أيضاً. وملخّصه أنّ «أوّل يوم» هو اليوم الأوّل لدخول النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة. انظر: *الرّوض الأنف* ٢: ٢٤٦؛ *إرشاد السّاري* ٦: ٢٣٤؛ *وفاء الوفاء* ١: ٢٤٨؛ *فتح الباري* ٧: ٢٠٨ ـ ٢٠٩؛ *الصّحيح* ٣: ٣٨ ـ ٤٠.

(٣) *تاريخ المدينة* ١: ٥٢ ـ ٥٤؛ *فتوح البلدان*: ١٨؛ *مجمع البيان* ٥: ٧٢ (كان بناء مسجد قبا في السّنة التّاسعة).

(٤) *معجم الأدباء* ٤: ٣٠٢.

(٥) عن ابن عمر: كان رسول الله يكثر الاختلاف إلىٰ قبا راكباً وماشياً. *الدرّ المنثور* ٣: ٢٧٨. ونُقلت روايات كثيرة في فضيلة الصّلاة في مسجد قبا (انظر: *تاريخ المدينة* ١: ٤٠ ـ ٤٤). ورُوي أيضاً

⇐

خدمة الإسلام. ومن المحتمل أيضاً أنّهم أنفسهم طلبوا من النّبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك.

ومن النّقاط التّاريخيّة الأُخرىٰ حول زمان حضور النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في قبا ورود الإمام أميرالمؤمنين عليّ عليه السلام هناك في ذلك الحين. وقيل إنّ من أسباب مكوث النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في قبا انتظاره الإمامَ عليه السلام وأولاده صلى الله عليه وآله وسلم الّذين يأتي بهم معه. وبعد رحيله صلى الله عليه وآله وسلم عن مكّة وقف الإمام عليه السلام في الأبطح (محلّة في مكّة) وصاح قائلاً: من كانت له أمانة عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فليأتِ ويأخذها. وحين أدّى الأمانات إلىٰ أهلها، استلم كتاباً من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يأمره فيه بالهجرة إلى المدينة مع الفواطم (وهنّ فاطمة الزّهراء عليها السلام، وفاطمة بنت أسد، وفاطمة بنت الزّبير بن عبد المطّلب) وكذلك أمّ أيمن وابنها أيمن وجمع من ضعفاء مكّة[1]. وقيل: إنّ سودة زوج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمّ كلثوم بنه كانتا مع الإمام عليه السلام أيضاً. ونقل الحلبيّ أنّه عليه السلام كان يسير ليلاً ويختفي نهاراً. ولمّا قطع ذلك الطريق ماشياً فقد ورمت رجلاه وتقرّحتا ونزف منهما الدّم. وحين رآه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم احتضنه وبكىٰ[2]. وأقام الإمام عليه السلام بقبا في دار كلثوم بن هدم (الّذي كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد أقام في داره أيضاً)[3].

⇐ أنّه صلى الله عليه وآله وسلم كان يأتي مسجد قبا صبح السابع عشر من رمضان (*تاريخ المدينة* ١: ٤٤). ورُوي أنّه كان يأتيه كلّ اثنين (نفسه: ٤٥).

(١) ***بحارالأنوار*** ١٩: ٦٥ (عن أمالي ابن الشّيخ).

(٢) انظر: ***السّيرة الحلبيّة*** ٢: ٥٣ (نقل قسماً من الرّواية عن المقريزيّ في ***إمتاع الأسماع***. وبشأن القسم الأخير من الرّواية أيضاً انظر: ***تاريخ دمشق*** «ترجمة الإمام عليّ عليه السلام» ١: ١٥٤؛ وفي هامشه عن ***أُسد الغابة*** ٤: ١٩؛ ***معرفة الصّحابة*** ١: ورقة ٢١ ـ ب؛ ***والاختصاص***: ١٤٦، ١٤٧؛ ***وإعلام الورىٰ***: ١٩١؛ ***بحارالأنوار*** ١٩: ٨٥؛ ***وعيون التّواريخ*** ١: ١٠٢؛ ***تاريخ اليعقوبيّ*** ٢: ٤١: «وقدم عليّ بن أبي طالب بفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ... وكان يسير اللّيل ويكمن النهار». وحول هجرة الإمام عليه السلام بالفواطم انظر أيضاً: ***كشف الغمّة*** ١١: ٤٠٦، ٤٠٧ (عن الزّمخشري في ***الكشّاف***).

(٣) ***تاريخ الطّبريّ*** ٢: ٣٨٢؛ ***السّيرة النّبويّة***، ابن هشام ٢: ٤٩٣؛ ***تاريخ دمشق*** «ترجمة الإمام عليّ عليه السلام» ١: ١٥٥. والعجيب أنّ أبا بكر ذهب إلى سُنح فور وصوله (علىٰ ما نقل ابن هشام) وهي محلّة كان ⇐

٦ ـ استقرار رسول الله ﷺ والمهاجرين في المدينة

ثمّة خلاف حول عدد الأيّام الّتي لبث خلالها رسول الله ﷺ بقبا. فقد ذهب البعض إلىٰ أنّها كانت ثلاثة، وذكر آخرون أنّها أكثر من ذلك (حتّىٰ بلغوا بها ثلاثةً وعشرين). وكانت يثرب يومئذٍ منطقة تسكن شتّى الطّوائف من الأوس والخزرج وأيضاً اليهود بين حرّتيها الشّرقيّة والغربيّة. وتحيط بها الصّخور والأحجار السوداء والصلبة (الحرّة) من ثلاث جهات، ولها طريق واحد إلىٰ أحد من الشّمال فحسب. وكانت قبا تقع في الحرّة الغربيّة. وغادرها رسول الله ﷺ إلىٰ مركز هذه المنطقة حيث كان يسكن بنو النّجّار. وكانت كثافة السّكّان هناك أكثر من غيرها[١].

وكانت هذه المنطقة كلّها، أو ـ علىٰ قولٍ ـ قسم منها يُدعىٰ يثرباً قبل هجرة النّبيّ ﷺ إليها، وليس لها معنىً حَسَن[٢]. من هنا تغيّر اسمها فوراً إلى مدينة الرّسول أو طَيبة وأسماء أخرىٰ كثيرة[٣]. وتحرّك رسول الله ﷺ يوم الجمعة، وصلّىٰ صلاة الجمعة في منطقة وادي رانوناء. وذهب بعض المؤرّخين إلىٰ أنّ هذه الصّلاة كانت أوّل صلاة جمعة له، بيد أنّ البعض الآخر قال إنّه كان صلّاها في قبا[٤]. وفي الحقيقة إذا كانت مدّة إقامته في قبا أكثر من خمسة أيّام أو كما ذكر البعض ثلاثةً وعشرين يوماً

⇐ يسكنها بنو الحارث من قبيلة الخزرج. انظر: *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٢: ٤٩٣؛ *وجوامع السّيرة* لابن حزم: ٧٢. وورد فيه العنوان سهواً [منزل أبي بكر بقبا] إذ ذكر في النّصّ منطقة سُنح الواقعة شمال شرق المسجد النّبويّ لا قبا الواقعة جنوبه علىٰ بعد (٦) كيلومترات عنه. انظر: *بحار الأنوار* ١٩: ١١٦ (عن *روضة الكافي*: ٣٣٧).

(١) أمّ عبد المطّلب هي سلمىٰ بنت عمرو من بني النجّار. *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٢: ٤٩٥. ولم ينزل النّبيّ ﷺ عند بني عديّ بن النّجّار الّذين كانوا أخواله، بل نزل عند بني مالك بن النجّار الّذين كانوا بعدهم بقليل.

(٢) *معجم البلدان* ٥: ٤٣٠.

(٣) *معجم البلدان* ٥: ٨٣.

(٤) *وفاء الوفاء* ١: ٢٥٦؛ ٣: ٨١٩ ـ ٨٢١.

فمن الطّبيعيّ أنّ الجمعة كانت تقام في قبا. وشيّد في المكان الّذي صلّىٰ فيه الجمعة بوادي رانوناء مسجد باسم «مسجد الجمعة»، وقد جُدِّد بناؤه الآن بشكل رائع.

وأجمعت المصادر علىٰ أنّ رسول الله ﷺ لم يعزم على اختيار مكانٍ لإقامته مباشرةً وإنّما كان يقول للأنصار الّذين أرادوا نزوله عندهم ما مضمونه: سأنزل حيث بركت ناقتي. «خلّوا سبيلها فإنّها مأمورة»[١]. والجواب الأوضح الّذي نطق به حيال طلباتهم: «إنّي أُمرتُ بقريةٍ تأكل القرىٰ»[٢] فكان في الحقيقة يتطلّع إلىٰ منطقةٍ أكثر استيعاباً ولها قابليّة ذاتيّة علىٰ أن تتبدّل إلىٰ حاضرةٍ تحتضن المهاجرين برمّتهم.

وكان الأنصار على اختلاف طوائفهم يتوقون إلى التشرّف باستضافته ﷺ. وفي نهاية المطاف بركت ناقته عند بني مالك بن النجّار. وسبق أبو أيّوب الأنصاريّ في هذه الحال إلىٰ نقل أثاثه ﷺ إلىٰ بيته، فقال ﷺ لمن حوله من الطالبين نزوله عندهم: كلٌّ وأثاثه. وهكذا نزل في بيت أبي أيّوب الّذي كان فيه حجرتان (إحداهما على الأُخرىٰ)، وأقام فيه سبعة أشهر[٣]. وكان في الحجرة السُّفلىٰ، وأبو أيّوب وزوجه في الحجرة العليا[٤].

وقيل إنّ مبرك الناقة أرض ليتيمين، وكانت تستعمل لتجفيف التّمر. وسرعان ما أصبح هذا المكان مسجداً للمسلمين. وذهب الطّبريّ إلىٰ أنّ الأرض المذكورة كانت لبني النّجّار. وكان فيها نخل، كما ضمّت قبور المشركين أيضاً. واشتراها النّبيّ ﷺ

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٢: ٤٩٥.

(٢) ***وفاء الوفاء*** ١: ٢٥٦ (عن كتاب *أخبار المدينة* لمؤلّفه يحيى الحسينيّ).

(٣) ***أنساب الأشراف*** ١: ٢٦٧، ٢٦٨؛ ***الطّبقات الكبرىٰ*** ١: ٢٣٦؛ ***وفاء الوفاء*** ١: ٢٦٥. وثمّة قول آخر عن بقائه سنة واحدة. كما يذهب رأي ثالث إلىٰ مكوثه شهراً واحداً فحسب. وهو ما ارتضاه أُستاذنا العلّامة جعفر مرتضىٰ. واحتمل أنّ مسجده ﷺ ومنزله قد شيّدا خلاله بجهود شعبيّة مكثّفة. انظر: *الصّحيح* ٣: ١٠، ١١.

(٤) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٢: ٤٩٨.

وصارت مسجداً بعد تسويتها[١].

وسمّىٰ الله تعالى استقبال الأنصار للمهاجرين وإيوائهم في بيوتهم إيثاراً. والأنصار في الحقيقة نصروا الإسلام، بيد أنّهم بادروا في مرحلة أوطأ إلىٰ رفد المهاجرين الّذين تركوا ثرواتهم إن كانت لهم ثروة وجاءوا إلى المدينة بأيدٍ خالية. وفيهم قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[٢]. وقيل في نزول هذه الآية أنّ غنائم بني النّضير لمّا صارت تحت تصرّف النّبيّ ﷺ طلب من الأنصار أن يقبلوا أحد الخيارين، إمّا إعطاء الغنائم للمهاجرين، ويخرجون من ديار الأنصار، وإمّا تقسيمها بين جميع المسلمين، ويبقى المهاجرون في ديار الأنصار. فأجاب الأنصار قائلين: «بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها»[٣].

وتتوفّر أدلّة كثيرة علىٰ هذا الإيثار. يذكر زيد بن ثابت حول عيش النّبيّ ﷺ في دار أبي أيّوب أنّه لم تمرّ ليلة إلّا ويأتي ثلاثة أو أربعة بطعام لرسول الله ﷺ[٤].

ويقول شاعر أنصاريّ مشيراً إلىٰ إعراض المكّيّين عن دعمه ﷺ ما كان فيهم:

بذلنا له الأموال من جُلِّ ما لنا وأنفسنا عند الوغى والتآسيا[٥]

ويقول كعب بن مالك في شعر له أيضاً:

اللهُ أكرمنا بنصر نبيّنا وبنا أقام دعائمَ الإسلامِ

---

(١) انظر: *تاريخ الطّبريّ* ٢: ٣٩٦، ٣٩٧. (٢) الحشر: ٩.

(٣) *تاريخ المدينة* ٢: ٤٨٩؛ *مجمع البيان* ٩: ٢٥٨.

(٤) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٢٣٧؛ *وفاء الوفاء* ١: ٢٦٦.

(٥) *دلائل النبوّة*، البيهقيّ ٢: ٥١٤؛ *تاريخ الطّبريّ* ٢: ٣٨٥؛ *السّيرة النّبويّة*، الذّهبيّ: ٣٣٧؛ *المعارف*: ٦١ (ثمّة خلاف في الشعر المنقول إذ إنّ عدداً منها إمّا لحسّان أو لصرمة بن أبي أنس الأنصاريّ).

وبـنا أعـزّ نـبيّهُ ووليّـهُ وأعزّنا بالنّصر والأقـدامِ[١]

وحين آخىٰ رسول الله ﷺ بين عـبد الرّحمٰـن بـن عـوف وسـعد بـن الرّبـيع الأنصاريّ، قال له سعد: أنا أثرىٰ أهل المدينة، فخذ لك من أموالي شيئاً[٢]. وجاء في خبرآخر أنّ الأنصار تنازعوا حول أخذ المهاجرين إلىٰ بيوتهم، ثمّ اقترعوا فقسموهم بينهم؛ وهذا يعود إلىٰ رغبتهم في إقراء المهاجرين[٣]. وذكر البـلاذريّ أنّهـم أهـدوا النّبيّ ﷺ ما زاد مـن أراضـيهم وطـلبوا مـنه أن يأخـذ بـيوتهم أيـضاً إذا شـاء. فسلّم ﷺ المهاجرين قطعاً منها ومن الأراضي الّتي لا مالك لها. وأضاف أنّهم كانوا في شوق بالغ لاستضافة المهاجرين[٤]. وفي مثل هذه الظّروف كانت الأكثريّة السّاحقة منهم فقيرة، إذ حتّىٰ لو كانت لهم ثروة، فإنّهم لم يستطيعوا حملها معهم إلى المـدينة. ولولا همّة الأنصار ما كان للمدينة أن تُضيف هذا العدد من المهاجرين، وإن كان عدد منهم قد سكن المسجد فيما بعد، وذلك لكثرتهم. وهؤلاء هم الّذين عُرفوا بأهل الصفّة.

وكان تبلور مفهومي الأنصار والمهاجرين من نتائج الهجرة[٥]، وخاطب القـرآن الكريم مسلمي المدينة بهما أيضاً[٦]. واستدامت هذه الآصرة الأولىٰ بين المـهاجرين والأنصار لسنين، وكانت ثمرة لتغيير باطنيّ فيهم. لكنّها تخلخلت بعد فـتح مكّـة و دخول الأمويّين في الإسلام كرهاً، إذ قام هؤلاء بـإثارة الخـلاف بـينهما، وولّـدت المنافسة الناشبة فيهما مشكلات كثيرة في مقابل اتّحادهما الأوّل. ومن الجدير ذكره أنّ

---

(١) *أنساب الأشراف* ١: ٢٦٧.

(٢) *الطّبقات الكبرىٰ* ٣: ١٢٦؛ *صحيح البخاريّ* ٢: ٣٠٩، ٣١٠.

(٣) *السّيرة الحلبيّة* ٢: ٦٤.

(٤) *أنساب الأشراف* ١: ٢٧٠؛ *فتوح البلدان* ٦: ٨٦.

(٥) أُطلق مصطلح المهاجرين الأوّلين على الّذين جاءوا إلى المدينة قبل تغيير القبلة. انظر: ابن أبي شيبة ٧: ٣٤٦؛ *تاريخ المدينة* ٢: ٤٩١، ٤٩٢.

(٦) التوبة: ١٠٠، ١٠١.

إحدىٰ هذه المشكلات ظهور تيّار السقيفة الّذي كان حصيلة لخوف الأنصار من المهاجرين، أو بكلمة أُخرىٰ قريش السّياسيّة، خوفاً مشوباً بالحذر. وفي أيّام تسلّط الأمويّين أخذ عداء قريش السّياسيّة ـ الّتي كانت ترىٰ نفسها وارثة للمهاجرين ـ للأنصار يشتدّ علىٰ مرّ الأيّام[١]. وسنتحدّث في الفصول القادمة عن جهود النّبيّ صلى الله عليه وآله في غرس المؤاخاة بينهما ومحاولات المنافقين زرعَ الخلاف في صفوفهما.

٧ ـ استمرار وجوب الهجرة حتّىٰ فتح مكّة

اتّخذت الهجرة من مكّة إلى المدينة طابع الوجوب الشّرعيّ مضافاً إلىٰ أنّها كانت تعدّ تكليفاً سياسيّاً. وقيل: إنّ الله تعالىٰ أمر رسوله أن يهاجر ويقرأ هذه الآية: ﴿**رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً**﴾[٢]. وقبل ذلك كان النّبيّ صلى الله عليه وآله قد كلّف بعض الصّحابة بالهجرة إلى المدينة. وبعد هجرته صلى الله عليه وآله وتزامناً مع تبلور عاصمة للأمّة الإسلاميّة أُمر المسلمون الآخرون بالهجرة إلى المدينة أيضاً. وثمّة أدلّة كثيرة علىٰ وجود مثل هذا التكليف، كما أنّ أحداً إذا لم يهاجر فإنّ عمله هذا يمكن أن يعدّ بقاءً على الكفر. ولدينا أدلّة علىٰ ذلك. قال تعالىٰ: ﴿**وَدُّوا** [أولئك الذين آمنوا ظاهريّاً ولم يهاجروا بل ظلّوا إلىٰ جانب الكفر] **لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوا** [كسائر الكفّار] **فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُم**﴾[٣] وجاء في سورة

---

(١) انظر: *الموفّقيات*: ٢٢٧، ٢٢٨، ٣٧٦، ٥٩٤؛ *الأغاني* ١٦: ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٤٢، ٤٨.

(٢) *المستدرك علىٰ الصحيحين* ٣: ٣. ونُقل عن قتادة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله علم أنّه لا يستطيع أن يقيم الفرائض الدّينيّة وكتاب الله بغير سلطان، فطلبه. انظر: *دلائل النّبوّة*، البيهقيّ ٢: ٥١٧. ويبدو أنّ تطبيقها على الهجرة تطبيق ذهنيّ محض ككثير من أنواع شأن النزول الأخرى الّتي نُقلت ليسير شبهٍ بين الآية والواقعة. وسورة الإسراء مكّيّة.

(٣) النساء: ٨٩.

الأنفال أيضاً: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللهِ وَٱلَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِن وَلَايَتِهِم مِن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾[١]. وورد في سورة النساء مرّة أخرىٰ قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ ظَالِمِى أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً * إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ وَٱلْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً﴾[٢] وهكذا يستبين أنّ لزوم الهجرة إلى المدينة قد طُرح في ثلاث حالات كحدٍّ أدنىٰ، وأنّ غير المهاجرين قد قُذفوا بالكفر. واستُثني من ذلك الأشخاص الذين لم تكن لهم قدرة على الهجرة لأسباب منها مخالفة الكفّار وممانعتهم. ويضاف إلىٰ ذلك أنّ القرآن الكريم كلّما تحدّث عن «الايمان، والهجرة، والجهاد»[٣]، نبّه علىٰ أهمّيّة الهجرة إلى المدينة. وقيل بشأن الآيتين ٩٧ و٩٨ من سورة النساء المشار إليهما سلفاً إنّهما نزلتا فيمن ادّعوا الإسلام لكنّ الكافرين أحضروهم في معركة بدر عنوةً. وقيل أيضاً إنّ العبّاس عمّ النّبيّ ﷺ، وعقيلاً، وغيرهما حين أُسروا، فُرض عليهم دفع الفدية وعندما قال أحدهم أنّه كان يصلّي، تلا عليه النّبي ﷺ قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللهِ وَاسِعَةً﴾. وجاء في هذا الخبر أنّ الآية لمّا نزلت كان الحكم أنّ «كلّ من أسلم ولم يهاجر فهو كافر إلّا أن يهاجر»[٤]. وكانت الهجرة مفروضة في جميع سنين العصر المدنيّ حتّىٰ فتح مكّة (السّنة الثّامنة). وهذا الحكم قابل للفهم جيّداً في ضوء ما ذُكر من الآي القرآنيّ. وذكر ابن عربيّ أنّ الحكم بالهجرة كان أمراً واجباً في زمن

---

(١) الأنفال: ٧٢.

(٢) النساء: ٩٧. ٩٨.

(٣) انظر علىٰ سبيل المثال: البقرة: ٢١٨؛ آل عمران: ١٩٥؛ الأنفال: ٧٢، ٧٤، ٧٥؛ التّوبة: ٢٠؛ النحل: ٤١، ١١٠؛ الحجّ: ٥٨.

(٤) *الدرّ المنثور* ٢: ٢٠٦؛ وانظر: *التبيان* ٣: ٣٠٣.

النّبيّ ﷺ[١]. وورد في خبرٍ آخر أنّ رسول الله ﷺ كان يوصي من يرسلهم قُوّاداً للحرب بوصايا منها أن يبدأوا من يلتقون بهم من المشركين بالدّعوة إلى الإسلام، فإذا استجابوا فلا يقاتلوهم؛ ثمّ يدعوهم إلى التحوّل من منازلهم إلىٰ دار المهاجرين، فإذا أبوا أعلموهم أنّ حكمهم حكم «أعراب المسلمين» ولا سهم لهم من الفيء والغنائم إلّا إذا جاهدوا في سبيل الله[٢]. ومن كان يسلم منهم خلال تلك السّنين، فإنّهم علاوةً على الإسلام، يبايعون على الهجرة أيضاً[٣]. ولمّا كان هذا الحكم، مضافاً إلىٰ شرعيّته، يرتبط برأي النّبيّ ﷺ، وله بوصفه حاكماً للمسلمين أن يعفو عمّن كان في عسرٍ عن القيام بهذا العمل، فقد أُذن للبعض أن يبقوا في منطقتهم. وذات مرّة مُني أحد الصّحابة الّذين كانوا بايعوا على الهجرة بمشكلة في استعمال ماء المدينة وذكر أنّه إذا شرب من ماء «بطحان» شُفي من مرضه. فأذن ﷺ له أن يرجع وقال له: «أنت مهاجر حيث كنتَ»[٤] وكان هذا الإذن لبعض الأشخاص، وممّن أُذن له منهم «سلمة بن الأكوع». وقد أُتّهم هذا الشّخص أنّه تخطّىٰ حكم الهجرة بسبب تركه المدينة، لكنّه دُوفع عنه للإذن الّذي كان له من النّبيّ ﷺ[٥]. وقال شخص يُدعىٰ فديكاً أنّه أتى النّبيّ ﷺ وقال له: إنّ هؤلاء يزعمون أنّ من لا يهاجر يهلك! فقال ﷺ: أقم الصّلاة، وآتِ الزكاة، وابتعد عن القبيح، وامكث في أرض قومك، فستكون مهاجراً[٦]. ولعلّه سمع هذا الجواب بعد فتح مكّة، إذ لم تجب الهجرة يومئذٍ. مع أنّ البعض قد مُني بمثل هذا الغموض بسبب الحكم الّذي كان قبل فتح مكّة.

---

(١) ***أحكام القرآن*** ٢: ٨٧٢. (٢) ***المصنّف***، عبد الرّزّاق ٥: ٢١٨.

(٣) جاء في أمر الخندق أنّهم كانوا يبايعونه ﷺ على الهجرة، **مسند احمد بن حنبل** ٣: ٤٢٩.

(٤) ***مجمع الزّوائد*** ٥: ٢٥٤. (٥) نفسه: ٥: ٢٥٣، ٢٥٤.

(٦) انظر: **الاستيعاب** ٣: ١٢٦٨؛ ***أسد الغابة*** ٤: ٣٥١؛ ***مجمع الزّوائد*** ٥: ٢٥٥؛ ***مختصر تاريخ دمشق*** ٧: ١٧٩.

وحدث هذا لصفوان بن أُميّة الّذي كان من أشراف مكّة وأسلم بعد فتحها. فقد قيل له: «لا دين لمن لا هجرة له». فأتى النّبيَّ ﷺ، فقال ﷺ له: لك أن تسكن بمكّة[١]. وهذا في الحقيقة ليس إذناً بعدم الهجرة، بل لأنّ وجوب الهجرة قد رُفع بعد الفتح. وجاء بلال بن الحارث المزنيّ إلى النّبيّ ﷺ في السّنة الخامسة من الهجرة وقال إنّ له أموالاً في منطقته ولا يستطيع أن يُديرها أحد غيره، فإذا كان الإسلام لا يتحقّق إلّا بالهجرة فإنّه يبيعها ويأتي المدينة. فقال له ما مضمونه: إذا اتّقيت الله أينما كنت فلا ينقص من أعمالك شيء[٢]. وهذا يمكن أن يكون استثناءً آخر أيضاً. وثمّة نماذج أخرىٰ كذلك ومن المحتمل أنّها كانت بعد الفتح[٣]. بيد أنّ النّموذج الذي كان قبل الفتح قطعاً هو وفد قبيلة مزينة حين جاء أربعمائة منهم إلى المدينة في رجب سنة ٥ هـ، فجعل النّبيّ ﷺ «الهجرة في دارهم» وقال لهم ما مضمونه: أنتم مهاجرون حيث كنتم، فارجعوا إلىٰ أموالكم[٤]. والّذين كانوا يهاجرون إلى المدينة لم يُؤذَن لهم تركها. وإذا تخلّفوا كانوا أعراباً. بعبارة أخرىٰ، إذا رجعوا مُنوا بـ «التعرّب بعد الهجرة». وكان هذا التعرّب بمنزلة الكفر. وذكر الزّبيديّ أنّنا لا يمكن أن نسمّي المهاجرين أعراباً، بل هم عرب[٥]. ونُقل عن رسول الله ﷺ قوله: «من بدا جفا»[٦] ونقل عنه أيضاً أنّه لعن من تعرّب بعد الهجرة إلّا أن تكون فتنة، فالذّهاب إلى البادية أفضل من البقاء في الفتنة[٧]. وذهب ابن مسعود إلىٰ أنّ من جملة الملعونين علىٰ لسان النّبيّ ﷺ

---

(١) **مختصر *تاريخ* دمشق** ١١: ٨٩؛ ***تاريخ المدينة المنوّرة*** ٢: ٤٨٣.

(٢) ***تهذيب الكمال*** ٤: ٢٨٤.

(٣) ***مجمع الزّوائد*** ٥: ٢٥٣؛ ***المصنّف***، عبد الرّزّاق ١١: ١٢٩؛ ***سنن النسائيّ*** ٧: ١٤٣، ١٤٤؛ ***صحيح البخاريّ*** ٢: ٣٣٧.

(٤) ***الطّبقات الكبرىٰ*** ١: ٢٩١.

(٥) ***تاج العروس*** ٣: ٣٣٤.

(٦) ***مجمع الزّوائد*** ٥: ٢٥٤.

(٧) نفسه.

«الأعرابي المرتدّ الّذي تعرّب بعد الهجرة»(١). وعُدَّ التّعرّب بعد الهجرة في حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله وسلم من الكبائر. وأضاف ابن منظور في ذيل الحديث: «هو أن يعود إلى البادية ويقيم مع الأعراب، بعد أن كان مهاجراً. وكان من رجع بعد الهجرة إلىٰ موضعه من غير عذر يعدّونه كالمرتدّ»(٢). وقال الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام في ذمّ أهل الكوفة إذ ابتعدوا عن الإسلام الحقيقيّ: «صِرتُم بعد الهجرة أعراباً»(٣). ويدلّ هذا علىٰ غاية الأهمّيّة الّتي بلغتها الهجرة.

وذكر بعض الأخبار هجرتين هما «هجرة البادي»، و«هجرة الحاضر». وجاء في حديث نبويّ يشير إلى الهجرتين أنّ هجرة البادي هي هجرة المسلم الّذي إذا دُعي أجاب، وإذا أُمر أطاع؛ أمّا هجرة الحاضر ففيها واجبات أعسر وأجر أكثر(٤). وورد في خبر آخر أنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم رأىٰ رجلاً في المسجد كان قَدِمَ المدينة حديثاً. فسأله عمّا جاء به؟ فقال: مهاجراً إلى الله ورسوله. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: هجرة إقامة أو رجعة؟ قال: إقامة. فبايعه(٥). وفي خبر آخر حين قال واثلة بن الأسقع للنّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: أنا مهاجر. سأله: هجرة البادي أو هجرة التّألّه الّذي هو التعبّد والتنسّك؟ قال: أيّهما أفضل؟ قال: هجرة التألّه؛ أي: البقاء عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم(٦).

ويبدو أنّ شدّة هذا الحكم قد قلّت في الفترة الأخيرة. ومن المحتمل أيضاً أنّ المجيء إلى المدينة حتّىٰ بعد فتح مكّة كان يعدّ امتيازاً، ولا خلاق للّذين كانوا في البادية ولم

---

(١) *المصنّف*، عبد الرّزّاق ٣: ١٤٤، ١٤٥.

(٢) *لسان العرب* ٢: ٧٦. وكذلك عُدَّ «التعرّب بعد الهجرة» من الكبائر في روايات أهل البيت عليهم السلام. انظر: *الكافي*: ٢: ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٨٠، ٢٨١؛ *معاني الأخبار*: ٢٦٥.

(٣) *نهج البلاغة*: الخطبة ١٩٢.

(٤) *سنن النّسائيّ* ٧: ١٤٤؛ *مجمع الزّوائد* ٥: ٢٥٢.

(٥) *تاريخ المدينة المنوّرة* ٢: ٤٨٤، ٤٨٥.

(٦) نفسه.

يتحمّلوا ما تحمّله المهاجرون من المشاقّ، من تلك الامتيازات[١]. وجاء في رواية عن الإمام الكاظم عليه السلام أن لا سهم للأعراب [غير المهاجرين] حتّىٰ لو اشتركوا في الجهاد، لأنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم صالحهم هكذا ليبقوا في ديارهم [ويهتمّوا بحياتهم المادّيّة طبعاً] ولا يهاجروا. ولكن إذا نشب القتال، فعليهم أن يشتركوا فيه، ولا نصيب لهم من الغنائم[٢].

ويعود هذا كما أشرنا إلىٰ أنّ المهاجرين تنازلوا عن جميع أموالهم، وهاجروا في تلك السّنين قصداً للجهاد فحسب. وإذا كانت غنيمة في الحرب فلهم خاصّة. ويحرم منها حتّى الأنصار في بعض الحالات، وذلك من أجل أن يتمكّن المهاجرون من تمشية أمورهم وتنظيم حياتهم دون الاعتماد على الأنصار. واستدام حكم الهجرة حتّىٰ فتح مكّة، ثمّ أُلغي بعد استبدال دار الإسلام بدار الشّرك مكّة. وهكذا لم يجب على المسلمين بعد الفتح أن يأتوا المدينة، أو يكونوا مهاجرين إذا أتوها. ونقل عدد من الصّحابة حديث «لا هجرة بعد الفتح». منهم جابر بن عبد الله[٣]، وعائشة[٤]، وأبو سعيد الخدريّ[٥]، وصفوان بن أُميّة[٦]، وأنس بن مالك[٧]، وعبد الله بن عبّاس[٨]، والمجاشع بن مسعود[٩]، وأميرالمؤمنين[١٠]، وعبد الله بن عمر[١١]. ولم يرق الأمويّين هذا الحديث لأنّهم أسلموا إبّان فتح مكّة، وما قدموا المدينة إلّا ليحسبوا أنفسهم من المهاجرين. وحين قرأ أبو سعيد الخدريّ حديث «لا هجرة بعد الفتح» بمحضر مروان

---

(١) انظر بهذا الشّأن: *تاج العروس* ٣: ٣٣٤. (٢) *الكافي* ١: ٥٤١.

(٣) *المصنّف*، عبدالرّزّاق ٧: ٤٦٤؛ ٨: ٤٦٥.

(٤) نفسه ٨: ٤٧٤؛ *المصنّف*، ابن أبي شيبة ٧: ٤٠٨؛ *صحيح البخاريّ* ٢: ٣٣٠.

(٥) *المصنّف*، ابن أبي شيبة ٧: ٤٠٧؛ *دلائل النّبوّة*، البيهقيّ ٥: ١٠٩؛ *مجمع الزّوائد* ٥: ٢٥٠.

(٦) *سنن النسائيّ* ٧: ١٤٧. (٧) *المصنّف*، عبد الرزّاق ٥: ٣٠٩.

(٨) نفسه.

(٩) *المصنّف*، ابن أبي شيبة ٧: ٤٠٨؛ *مجمع الزّوائد* ٥: ٢٥٠.

(١٠) *نهج البلاغة*، الكتاب ٦٤. (١١) *صحيح البخاريّ* ٢: ٣٣٠.

(الّذي حكم من سنة ٦٥ إلىٰ سنة ٦٦ هـ) ثارت ثائرته واتّهمه بالكذب حتّىٰ همّ بضربه[١].

وكتب الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أيضاً إلىٰ معاوية قائلاً له: «وذكرتَ أنّك زائري في المهاجرين والأنصار. وقد انقطعت الهجرة يوم أُسِرَ أخوك»[٢]. وأخوه المقصود في كلام الإمام عليه السلام هو يزيد بن أبي سفيان الّذي أُسر في فتح مكّة[٣].

ومن غير الواضح سبب ما رُوي عن الخليفة الثّاني قوله: «لا هجرة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله»[٤]. وإذا صحّت هذه الرّواية فالطّلقاء سيكونون في عداد المهاجرين. ومن المحتمل أنّ الأمويّين هم الّذين وضعوها علىٰ لسان الخليفة. وتدلّ أخبار أخرىٰ أيضاً علىٰ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يبايع على الإسلام والجهاد فحسب بعد فتح مكّة[٥]. ونصّ الحاكم النيسابوريّ علىٰ أنّ الّذين جاءوا بعد فتح مكّة ليسوا من المهاجرين[٦]. وجاء في إحدى الرّوايات أنّ رجلاً أصرّ بعد الفتح علىٰ أن يبايع هو وأبوه على الهجرة لكنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله رفض ذلك حتّىٰ مع إلحاح عمّه العبّاس[٧]. وفي مقابل هذه الأخبار نُقل عدد من الأحاديث الدالّة علىٰ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «لا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفّار». وهذا الكلام النّبويّ نقله عبد الله بن واقد السّعديّ وقال: سئل صلى الله عليه وآله في ذلك فقال: «لا تنقطع ...»[٨] ونقل جنادة بن أبي أميّة مثله[٩].

---

(١) **دلائل *النّبوّة***، البيهقيّ ٥: ١٠٩، ١١٠؛ **مجمع *الزّوائد*** ٥: ٢٥٠؛ ***المصنّف***، ابن أبي شيبة، ٧: ٤٠٧.

(٢) **نهج البلاغة**: الكتاب ٦٤.

(٣) **شرح *نهج البلاغة***، ابن أبي الحديد ١٧: ٢٥٧.

(٤) **سنن *النسائيّ*** ٧: ١٤٦.

(٥) **دلائل *النّبوّة***، البيهقيّ ٥: ١٠٩؛ ***المصنّف***، ابن أبي شيبة ٧: ٤٠٨؛ **المعرفة *والتاريخ***، الفسويّ، ١: ٤٠٠؛ **سنن *النّسائيّ*** ٧: ١٤٥؛ **مجمع *الزّوائد*** ٥: ٢٥٠.

(٦) ***المستدرك على الصّحيحين*** ٣: ١٨.

(٧) **مسند *أحمد بن حنبل*** ٣: ٤٣٠، ٤٣١.

(٨) **سنن *النّسائيّ*** ٧: ١٤٧؛ **مجمع *الزّوائد*** ٥: ٢٥٠.

(٩) **مختصر *تاريخ دمشق*** ٦: ١١٩؛ **مجمع *الزّوائد*** ٥: ٢٥١.

كما نقله الرجاء بن حيوة وهو من وعّاظ السّلاطين الأمويّين[١]. ولا جرم أنّه سقيم إلّا أن يراد منه المعنى العامّ للهجرة من أجل الجهاد خارجاً من المعنى المصطلح للمهاجرين والهجرة إلى المدينة. واصطلاح دار الهجرة في الأصل مصداق لدار الإسلام قياساً بدار الشّرك. وهذا الاصطلاح أطلقه ـ فيما بعد ـ الخوارج الّذين كانوا يكفّرون سائر المسلمين علىٰ كلّ مدينة أو منطقة يجتمعون فيها، ويأمرون الخوارج الآخرين بالهجرة إليها. من هنا أكّد الفقه الإسلاميّ وجوب الهجرة المتمثّلة بخروج المسلمين من دار الشّرك بخاصّة دار الحرب إلىٰ دار الإسلام[٢].

وهذا الموضوع، بغضّ النّظر عن أنّه يمكن أن يكون مؤثّراً في التّربية الدّينيّة للشّخص المسلم، ويجعله عرضةً لخطر الارتداد[٣]، ذو أخطار تطرأ في الحرب أيضاً. وفي مثل هذه الظّروف لا يضمن الحاكم الإسلاميّ حياة المسلم الّذي يعيش في دار الحرب. ورُوي عن قيس بن حازم أنّ رسول الله ﷺ بعث جيشاً إلىٰ خثعم، فلمّا غشيهم استعصموا بالسجود، [ليبدوا إسلامهم ويأمنوا علىٰ أنفسهم] فقتل بعضهم [إذ لم يُعلَم إسلامهم]. فبلغ ذلك النّبيّ ﷺ فقال: أعطوا الورثة نصف العقل بصلاتهم؛ وقال: ألا إنّي بريء من كلّ مسلم نزل مع مشرك في دار الحرب[٤].

---

(١) *مجمع الزّوائد* ٥: ٢٥١.

(٢) انظر: *أحكام القرآن* ٢: ٨٧٧ وعنه: *تفسير القرطبيّ* ٥: ٣٥٠ و*فقه السّيرة*: ١٧٦.

(٣) يُذكَر هذا الارتداد بعنوان الابتلاء بالفتنة، يقول عطاء: سألنا عائشة عن الهجرة فقالت: لا هجرة اليوم (ويومئذٍ) كان المؤمنون يهاجرون إلى الله ورسوله لحفظ دينهم مخافة أن يفتن عليه. أمّا اليوم فقد أظهر الله دينه، وكلّ أحد يستطيع أن يعبد الله حيث أراد. انظر: *صحيح البخاريّ* ٢: ٣٣٠.

(٤) *المصنّف*، ابن أبي شيبة ٧: ٣٤٧؛ *فروع الكافي* ١: ٣٣٩؛ *تهذيب الأحكام*، الطّوسيّ ٢: ٥٠؛ *دعائم الإسلام* ١: ٣٧٦؛ *مجمع الزّوائد* ٥: ٢٥٣.

كان الإقبال على الهجرة من أجل تربية المسلمين[١] ودفع الخطر عنهم[٢] من جهة، ومن جهة أُخرىٰ يمكن أن يكون مؤثّراً في تعزيز بنية المدينة الّتي أصبحت مركزاً للإسلام. وكان للمسلمين بهجرتهم من دار الشّرك إلىٰ دار الإسلام أن يعزّزوا البنية العسكريّة والسّياسيّة للحكومة الإسلاميّة والمجتمع الإسلاميّ[٣].

وفي الحقيقة ينبغي الالتفات إلىٰ أنّ أحد البواعث الأصليّة على الهجرة هو تعذّر تشكيل الحكومة في مكّة. من هنا قيل في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿**وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً**﴾[٤]، أنّ رسول الله ﷺ طلب أن يُعطىٰ سلطة تمكّنه من تطبيق الشّريعة الإسلاميّة «فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله وحدوده وفرائضه ولإقامة كتاب الله فإنّ السّلطان عزّة من الله جعلها بين أظهر عباده لولا ذلك لأغار بعضهم علىٰ بعض»[٥].

ومسك الختام لموضوعنا هذا أن ننقل الحديث الآتي: يقول أبوفاطمة: قلتُ لرسول الله ﷺ حدّثني بعملٍ أستقيم عليه وأعمله. فقال: «عليك بالهجرة فإنّه لا مثل لها»[٦].

٨ ـ الهجرة بداية التّاريخ الإسلاميّ

إنّ امتلاك شعب لتاريخٍ له بداءة محدّدة، وينوء بعبء مئات أو آلاف السنين ليس

---

(١) ذكر القرآن الكريم سعة الأرض للعبادة ورعاية التّقوىٰ في موضعين. قال تعالىٰ: ﴿يَا عِبَادِىَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِى واسِعَةٌ فَإِيَّاىَ فَاعْبُدُونِ﴾ (العنكبوت: ٥٦) وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ (الزمر: ١٠).

(٢) وردت آية في القرآن الكريم بشأن الهجرة في مقابل الظلم الموجود في المجتمع. قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا فِى ٱللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُم فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ (النحل: ٤١).

(٣) انظر: *فقه السّيرة*: ١٦٣.

(٤) الإسراء: ٨٠.

(٥) **دلائل *النّبوّة***، البيهقيّ ٢: ٥١٦، ٥١٧؛ ***تفسير القرطبيّ*** ١٠: ٣١٢.

(٦) ***سنن النسائيّ*** ٧: ١٤٥.

امتيازاً سهل المنال في العالم القديم. وهو أصعب بخاصّة للعرب الّذين كانوا يعيشون حياة البداوة ولم ينضووا تحت كيان سياسيّ موحّد. علماً أنّ الحاجة إلىٰ محاسبة سنويّة ضروريّة حتّىٰ بالنسبة إلى الحياة الاعتياديّة، لكنّ هذه المحاسبة كانت متيسّرة بالنظر إلى الظّروف الطّبيعيّة للّيل والنهار ودوران الأرض والقمر، إلّا أنّها تحدّد السّنة فحسب، وكان فرضاً أن يُجعل للسّنة وقت لبدئها أيضاً. وكان المحرّم أوّل شهور السّنة في الجاهليّة. ويبدو أنّ هذا يعود إلىٰ أنّ الحجّ مراسيم سنويّة إذا اختتمت في شهر ذي الحجّة فإنّ العرب يصبحون علىٰ مشارف المحرّم[١]. أمّا حول بداءة يمكن أن تحسب عشرات السّنين أو أكثر، فإنّ التوكّؤ كان على الأحداث المهمّة مثل عام الفيل، أو عام تجديد بناء الكعبة[٢] (قبل البعثة بخمس سنين).

وما كان عند المسلمين بوصفه تاريخاً إبّان البعثة هو الذّهاب إلىٰ دار الأرقم. فيقولون كانت الحادثة الفلانيّة قبل الدخول في دار الأرقم أو بعده[٣]. وبعد تكوين المجتمع الإسلامي والحكومة الإسلاميّة أجمعوا علىٰ هجرة الرّسول الأكرم ﷺ إلى المدينة بوصفها بدء التّاريخ الإسلاميّ. ويعود ذلك إلىٰ أهمّيّة الهجرة في الفكر القرآنيّ ودورها في إيجاد تطوّر عظيم في توسيع رقعة الإسلام. كما أنّ اتّخاذها تاريخاً كان مؤثّراً في تعزيز فكرة الهجرة. ويدور خلاف حول الوقت الّذي اتّخذت فيه الهجرة تاريخاً. ومعظم ما يُروىٰ هو أنّ الخليفة الثّاني عزم في السّنة السّابعة عشرة للهجرة (لأسباب ذُكرت مختلفةً) علىٰ أن يضع تاريخاً. فعُرضت عليه اقتراحات شتّىٰ، فمنهم

---

(١) وكان هذا استدلالاً طرحه عمر فيما بعد ليجعل المحرّم أوّل السّنة. انظر: ***الإعلان بالتّوبيخ*** في كتاب ***تاريخ كتابة التاريخ في الإسلام*** ٢: ٢٠٠.

(٢) بشأن بعض هذه البدايات الزّمنيّة انظر: ***تاريخ الطّبريّ*** ٢: ٣٩١، ٣٩٢.

(٣) مثلاً قيل في زمن إسلام عبيدة بن الحارث أنّه أسلم قبل الدخول إلىٰ دار الأرقم. انظر: ***السّيرة النّبويّة***، ابن هشام ١: ٢٥٣؛ وذكرنا نماذج أُخرىٰ سلفاً.

من قال ميلاد النّبيّ ﷺ، ومنهم من قال بعثته، وذهب البعض إلىٰ وفاته، بيد أنّ أميرالمؤمنين عليّاً عليه‌السلام اقترح الهجرة أساساً للتاريخ فقُبل[١].

وثمّة رأي آخر (صرّح به ابن شهاب الزّهريّ) مفاده أنّ رسول الله ﷺ نفسه أمر بجعل الهجرة أساساً لتعيين التّاريخ منذ دخل المدينة[٢]. وتتوفّر أدلّة أُخرىٰ يمكن أن تؤيّد الرأي الثّاني. وذكر الأُستاذ الباحث العلّامة جعفر مرتضى العامليّ عدداً منها[٣].

وهو يعتقد أنّ ما جرت الاستشارة فيه أيّام الخليفة الثّاني هو تعيين المحرّم مكان ربيع الأوّل (الّذي وقعت الهجرة في عقده الأوّل)[٤].

وقيل في هذا المجال إنّ المحرّم لمّا كان واقعاً بعد مناسك الحجّ فمن الأفضل أن يكون أوّل السّنة. وكانت الاقتراحات الأخرىٰ تدور حول رجب ورمضان ورفضها عمر.

وأهمّ دليل على اتّخاذ الهجرة أساساً للتّاريخ منذ عصر النّبيّ ﷺ هو كلام الزّهريّ، وكذلك عهدان منسوبان إلىٰ تلك الفترة. فقد ضُبط في آخر العهد الّذي كُتب إلىٰ إحدى القبائل تاريخ السّنة التّاسعة للهجرة. كما ورد التّاريخ نفسه في كتاب آخر لرسول الله ﷺ كتبه بطلبٍ من أحد المسلمين لدعوة أخيه إلى الإسلام[٥].

إنّ ما يستشفّ من مجموع الموضوعات المنقولة في هذا المجال هو أنّ الهجرة

---

(١) *البداية والنّهاية* ٧: ٧٣، ٧٤ ومصادر أُخرىٰ وردت في الصّحيح ٣: ٣٣، ٣٤. ونقل بعض المصادر هذا الخبر خالياً من ذكر الإمام عليّ عليه‌السلام. ونسب بعضها ذلك إلى الخليفة نفسه لكنّ معظمها أورده باقتراح الإمام عليه‌السلام.

(٢) *تاريخ الطّبريّ* ٢: ٣٨٨ (إنّ النّبيّ لمّا قدم المدينة ـ وقدمها في شهر ربيع الاول ـ أمر بالتّاريخ). وانظر: *الصّحيح* ٢: ٤١.

(٣) *الصّحيح* ٢: ٣٧ ـ ٥٥.

(٤) ذهب الواقدي في *المغازي* ١: ٢ إلىٰ أنّه الثاني عشر من ربيع الأوّل الموافق (٢٤) ايلول ٦٢٣م. واليوم الأوّل من المحرّم في السّنة الأولىٰ من الهجرة يصادف الخامس عشر من تمّوز سنة ٦٢٢م.

(٥) بشأن العهد الأوّل انظر: *فتوح البلدان*: ٦٧. وورد الكتاب الثاني في *أخبار إصفهان* ١: ٥٢، ٥٣. وحول دلالتها انظر: *الصّحيح* ٢: ٤٥، ٤٦.

بوصفها تطوّراً مهمّاً في عصر النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كانت تعدّ المنطلق للأحداث الواقعة. بيد أنّ المحتمل هو أنّ أهمّيّتها قد تقلّصت أو غمرتها لجّة النّسيان بعد وفاة النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وظهور أحداث أخرىٰ. وفي هذا الشّأن حديث مأثور عن ابن عبّاس له دلالته. فقد نقل أنّ النّبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم حين وطأت قدماه أرض المدينة، لم يكن فيها تاريخ. وبعد مضيّ شهر أو شهرين علىٰ قدومه صلى الله عليه وآله وسلم عمل الناس بتاريخٍ [ولابدّ أن تكون الهجرة منطلقة]. واستمرّ هذا التّاريخ حتّىٰ وفاته صلى الله عليه وآله وسلم، ثمّ قُطع. ولم يك تاريخ أيّام أبي بكر والسّنين الأربع الأولىٰ من حكومة عمر، بعد ذلك وُضع التّاريخ (الهجريّ)[1].

وهكذا يمكن التّوفيق بين الرأيين. فقد تحقّق بدء الهجرة في حياة النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بنحو طبيعيّ (أو بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم). وهذا يمثّل ـ بالتّبع ـ القاعدة السّابقة الّتي تتجسّد في الحوادث المهمّة في بدء التّاريخ. لكنّه طوي بملفّ النّسيان بعد رحيل الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم! ثمّ استعاد حياته بعد سنين نظراً إلى الشعور بالحاجة إليه، وذلك باقتراح الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام [الّذي كان يهتمّ اهتماماً خاصّاً بالسّير علىٰ سنّة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم].

يضاف إلىٰ ذلك ـ ولعلّه من المؤسف ـ أن يستبدل المحرّم بربيع الأوّل ـ شهر الهجرة ـ الّذي ينبغي أن يكون المنطلق لبدء السنة الهجريّة أساساً[2]. وحريّ بالذكر أنّ السّنين في عصر النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كانت تسمّىٰ بالحوادث المهمّة الواقعة فيها، نحو عام

---

(١) ***الإعلان بالتّوبيخ*** (في كتاب تاريخ كتابة التاريخ في الإسلام ٢: ٢٠١).

(٢) وهكذا أُضيف على السّنة الهجريّة شهران. أي: قُدِّم أوّل التّاريخ علىٰ ربيع الأوّل شهرين. مع هذا يبدو أنّه كان من حسب التّاريخ الهجريّ من المحرّم الواقع في السّنة التّالية. أي: إنّهم تغاضوا عن عشرة أشهر. وتحدّث البيهقيّ مشيراً إلىٰ هذا الرأي عن السبب الّذي دعا البعض إلى اعتبار حرب الأحزاب في السّنة الرّابعة والمشهور هو أنّها كانت في السّنة الخامسة. وذهب إلىٰ أنّ الفسويّ كان من المعتقدين بهذا الرأي. انظر: ***دلائل النّبوّة***، البيهقيّ ٣: ٣٩٦.

الحزن ـ العام العاشر للبعثة ـ الّذي كانت فيه وفاة خديجة وأبي طالب عليهما السلام، وعام الإذن ـ العام الأوّل للهجرة ـ الّذي كان فيه الاستئذان للهجرة [أو للقتال]، وسمّيت السّنة الثّانية سنة الأمر بالقتال، والسّنة الثّالثة سنة التّمحيص [لمناسبة حرب أُحُد][1].

أعمال النّبيّ ﷺ بعد الاستقرار في المدينة

١ ـ بناء المسجد

ينبغي أن نعدّ بناء المسجد أوّل الأعمال الّتي قام بها رسول الله ﷺ في المدينة. وقد أُقيم هذا المسجد الّذي كان قد بُني مثله في قبا بأبسط الإمكانيّات، وأدّىٰ فيما تلا دوراً مهمّاً في الثّقافة والحضارة الإسلاميّة. والأخبار الّتي وصلت إلينا حول بناء المسجد متضاربة وإن كانت مفصّلة. وقيل إنّ أسعد بن زرارة ومعه جماعة من المسلمين اتّخذوا الأرض الّتي كانت حوالي دار أبي أيّوب الأنصاريّ ـ مسكن النّبيّ ﷺ ـ مسجداً قبل قدوم النّبيّ ﷺ إليها[2]. وكان إلىٰ جانب تلك الأرض مِرْبَد متّصل بها، وهو عبارة عن أرض يحفظون فيها الحيوانات الأليفة. ونقل بعض الأخبار أنّ هذه الأرض كان في زاوية منها بقعة ذات نخيل متروكة، وفيها قبور للمشركين فاشتراها النّبيّ ﷺ وأنشأ عليها مسجده بعد تسطيحها. وفي رواية أنّها كانت ليتيمين [باسم سهل وسهيل] يرعاهما معاذ بن عفراء ـ وفي خبرٍ، أسعد بن

---

(١) **الاعلان** (في كتاب تاريخ كتابة التاريخ في الإسلام ٢: ٢٠٣) وسمّيت السنة الرابعة: الترفئة، والخامسة: الزلزال (ربّما لوقوع حرب الأحزاب فيها كما جاء في سورة الأحزاب)، والسّادسة: الاستئناس، والسّابعة: الاستغلاب، والثامنة: الاستواء، والتاسعة: البراءة، والعاشرة: الوداع. انظر: *گاهنامه تطبيقى* (التقويم المقارن)، أحمد بي رشك: ٢١٧.

(٢) انظر: *فتوح البلدان*: ٢٠؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٣: ٤٨٥.

زرارة[١]. ومع رضاهما بتقديمها لكنّ النّبيّ ﷺ لم يرض إلّا بشرائها. ونقل الطّبريّ هذه الرّواية، وذهب إلىٰ أنّ الصّحيح هو أنّ الأرض كانت لبني النجّار، وبعد تقديمهم إيّاها قام النّبيّ ﷺ بتسطيحها وبنىٰ عليها مسجده. وذكر أنّه ﷺ كان قبل بناء المسجد يصلّي في أرض مسطّحة كانت تُحفظ فيها الأغنام قبل ذلك[٢]. ولم يرد فيما نقله ذكر لليتيمين مع أنّ المحتمل هو انطباق الخبر الّذي يذهب إلىٰ كون الأرض لبني النجّار مع الخبر الّذي يراها لليتيمين.

ومن المحتمل أيضاً أنّ هذه الخلافات في الأخبار المتعلّقة بالمسجد (مضافاً إلىٰ أنّ بعضها يذهب إلىٰ بنائه مرّتين في الأقلّ: مرّة في السّنة الأولىٰ، وأخرىٰ في السّنة السّابعة؛ وتداخل بعضها في بعض) نابعة من كَونه بُني علىٰ قطع من الأرض، ولكلّ قطعة شكلها. فقِسمٌ المِربَد [أو المُربد]، وآخر بستان نخيل متروك، وثالث مقبرة المشركين. وقيل في هذه القبور إنّ رسول الله ﷺ أمر بتخريبها ودفن رفاتها في مكان آخر. وأُقيم في البداية جدار لا سقف له ثمّ جُعلت له أعمدة من النّخيل وغُطّي السّقف بالسّعف حتّىٰ إذا مطرت يتطيّن سطح المسجد، وتتلطّخ جبهة رسول الله ﷺ والنّاس به عند السّجود. وكانت القبلة يومئذٍ إلى الشمال [بيت المقدس]. وقيل في مساحته الأولىٰ إنّ طوله (٧٠) ذراعاً من الشمال إلى الجنوب، وعرضه (٦٠) ذراعاً من الغرب إلى الشّرق[٣]. ونقل المؤرّخون أنّ النّبيّ ﷺ نفسه شارك في بنائه من قريب[٤]. وذكر ابن سعد أنّه كان يساعدهم في نقل الحجر ويترنّم هامساً:

---

(١) *دلائل النّبوّة* ٢: ٥٣٨.

(٢) *تاريخ الطّبريّ* ٢: ٣٩٦، ٣٩٧؛ *دلائل النّبوّة*، البيهقيّ ٢: ٥٣٩، ٥٤٠؛ *فتح الباري* ٧: ٢٩٥؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٢٤٠.

(٣) انظر: **مدينه‌شناسى** (معرفة المدينة) ١: ٣٠ ـ ٣٢؛ مساحة المسجد ٤٢٠٠ ذراع يعادل ٢٠٧١/١٨٦ متراً.

(٤) *تاريخ الطّبريّ* ٢: ٣٩٧.

اللّهمّ لا عيش إلّا عيش الآخرة فـاغفر الأنـصار والمـهاجرة

وكان للمسجد النّبويّ بناؤه الأوّل حتّى السّنة السّابعة. وفيها توسّع بعد عودة المسلمين من خيبر وازدياد عددهم[1]. وكان المسجد في حياته ﷺ مركزاً عباديّاً عسكريّاً سياسيّاً؛ ونظراً إلى الجوّ الّذي أوجده الإسلام في فكر المجتمع الجاهليّ وعمله، فقد كان له دوره الأساس في تكوين المجتمع الإسلاميّ الجديد. من هنا ينبغي أن نعدّ بناءه من الخطوات الأولىٰ لبناء المجتمع الجديد. وشاد النّبيّ ﷺ إلىٰ جانبه بيتين ببساطة جدرانه [في الحقيقة حجرتين] لزوجاته. وأُنشئ بيت لعليّ وفاطمة عليهما السلام. كما قام سائر الصّحابة ببناء دور لهم في أطرافه، ولها أبواب إليه أيضاً[2].

٢ ـ عقد المؤاخاة بين المسلمين

ومن أُولىٰ أعماله الأُخرىٰ ﷺ في المدينة ـ أو مكّة في روايةٍ ـ عقد المؤاخاة بين المسلمين مثنىٰ. وذكره معظم كتّاب السِّيَر بعد بناء المسجد. ويحوم خلاف حول وقته الدقيق. فذهب البعض إلىٰ أنّه كان بعد الهجرة بخمسة أشهر. وقال آخرون: تسعة أشهر. ومنهم من جعله متزامناً مع بناء المسجد أو قبله، وفيهم من ذكر أنّه كان بعد الهجرة بعام[3].

---

(١) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٢٤٠. انظر: المسار التاريخيّ لتغيير المسجد وتطوّراته في كتابنا الآخر *آثار اسلامى مكّة ومدينة* (الآثار الإسلاميّة لمكّة والمدينة)، طهران، نشر مشعر (إصدارات مشعر)، ١٤١٨هـ.

(٢) أمر النّبيّ ﷺ (بوحي من السماء) بسدّ جميع الأبواب بعد غزوة بدر إلّا باب عليّ عليه السلام [سدّوا الأبواب إلّا باب عليّ عليه السلام]. انظر: *الصّحيح* ٤: ٩٤؛ *دلائل الصّدق* ١: ٢١، ٢٢.

(٣) *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٣: ٥٣٣.

كما يحوم خلاف آخر أيضاً حول موضوع العقد هل كان بين المهاجرين والأنصار، أو بين المهاجرين فحسب. فقد ذكر ابن إسحاق أنّه كان بين المهاجرين والأنصار[١]. ويُلحَظ بين المتآخين مهاجريّان تارةً، وأنصاريّ ومهاجريّ تارةً أُخرىٰ. ويبدو [كما قال بعض المؤرّخين] أنّ عقد المؤاخاة أُبرم مرّتين. الأُولىٰ في مكّة بين المهاجرين كالمؤاخاة بين أبي بكر وعمر[٢]، وحمزة وزيد بن حارثة، وعثمان وعبد الرحمٰن بن عوف[٣]، والزّبير وابن مسعود، وعبيدة بن الحارث وبلال... ورسول الله ﷺ نفسه وعليّ بن أبي طالب عليه السلام[٤]، والأخرىٰ في المدينة بين الأنصار والمهاجرين[٥].

إنّ المعاناة الّتي كان يعيشها المهاجرون في مكّة، وهم قطعوا علاقاتهم القبليّة إلىٰ حدٍّ ما، فرضت عقد المؤاخاة بينهم. وفي غضون ذلك نلحظ أنّ الأشخاص الّذين تآخوا في مكّة، وإن وجدوا لهم إخوةً من الأنصار في المدينة، لكنّ معظمهم حافظ علىٰ أواصر الإخوّة السّابقة[٦].

وهذه الأواصر الّتي عُقدت علىٰ أساس القواسم المشتركة بينهم ظلّت محفوظة فيما بعد. ونشهد آثارها في الرّوابط السّياسيّة بين أبي بكر وعمر، وعثمان وعبد الرّحمن بن عوف (في الشّورى الّتي كانت بعد وفاة عمر) وكذلك بين الزّبير وابن مسعود. وقد

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٢: ٥٠٤، ٥٠٥.

(٢) انظر: *تاريخ جرجان*: ٩٦؛ مختصر *تاريخ دمشق* ٩: ١٣٩.

(٣) انظر: *الطّبقات الكبرىٰ* ٣: ٥٦.

(٤) *وفاء الوفاء* ١: ٢٦٨؛ *المستدرك* ٣: ١٤؛ *المعجم الكبير* ٢٤: ١٣٧.

(٥) جاء تقسيم المؤاخاة مرّتين في *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٣: ٥٢٧؛ *تاريخ الخميس* ١: ٣٥٣(عن فتح الباري وابن عبد البرّ).

(٦) أدام بعضهم إخوّته مع إخوانه الأنصار. بشأن بلال وأبي رويحة الأنصاريّ انظر: *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٢: ٥٠٧، في *تاريخ المدينة* ٣: ١٠٥٤ ـ ١٠٥٦.

دافع الزّبير عن ابن مسعود حين اصطدم بعثمان. ولمّا مات عبد الله صلّى عليه الزّبير لا عثمان[١].

ولا مِرية في عقد الأخوّة بين رسول الله صلى الله عليه وآله وأميرالمؤمنين عليه السلام[٢]. وما امترىٰ فيه إلّا ابن تيميّة الّذي أنكر عقد الأخوّة بين المهاجرين وقال: كانت المؤاخاة لتأليف القلوب بعضها مع بعض فلا معنىٰ أن يؤاخي رسول الله صلى الله عليه وآله أحداً. وينبغي الالتفات هنا إلىٰ أنّ ابن تيميّة ذاتاً ينكر أكثر فضائل إمام المتّقين عليّ بن أبي طالب عليه الصّلاة والسّلام. وقد اعترض عليه أهل السّنّة بشدّة منهم السمهوديّ، والشّاميّ، والعسقلانيّ وغيرهم. ومضافاً إلىٰ عشرات النصوص التّاريخيّة، فإنّه لجأ إلى القياس في مقابل النصّ[٣].

وأشار البلاذريّ إلى المتآخين، وذكر في البداية «الإخوان المهاجرين»، ثمّ أورد «الإخوان المهاجرين والأنصار»[٤]. وهذا دعم للرأي القائل بوقوع المؤاخاة مرّتين. ويُستشفّ من أخبار المؤرّخين أنّ قرابة (٤٥) أنصاريّاً تآخوا مع (٤٥) مهاجريّاً في مجلس واحد بالمدينة، مع أنّ هذه المؤاخاة قد استدامت بدخول مهاجرين جدد. وذهب البلاذريّ إلىٰ أنّ أيّ مهاجريّ لم يبق بلا أخٍ[٥]. وفي أيدينا أخبار حول عقدٍ للمؤاخاة بين النساء المؤمنات أيضاً. فقد قيل إنّ فاطمة عليها السلام تآخت مع أم سليم[٦].

---

(١) نفسه.

(٢) روىٰ ابن إسحاق أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «تآخوا في الله أخوين ثمّ أخذ بيد عليّ بن أبي طالب فقال: هذا أخي». *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٢: ٥٠٥ (انظر: تتمّة الحديث).

(٣) انظر: ***وفاء الوفاء*** ١: ١٢٨؛ ***السّيرة الحلبيّة*** ٢: ٢٠؛ ***سبل الهدىٰ والرّشاد*** ٣: ٥٣٤؛ ***الصّحيح*** ٣: ٦١ ـ ٦٣ (وما ورد فيه من إرجاع إلى المصادر المعنيّة)؛ ***الغدير*** ٣: ١١٢ ـ ١٢٥ (وما فيه من إرجاع). ونصّ ابن عبّاس علىٰ أنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله اختار عليّاً عليه السلام في المدينة لأخوّته. انظر: ***سبل الهدىٰ والرشاد*** ٣: ٥٢٨.

(٤) ***أنساب الأشراف*** ١: ٢٧٠.

(٥) نفسه: ٢٧١.

(٦) ***تهذيب تاريخ دمشق*** ٦: ١٠، ١١.

وفي خبر آخر عن رسول الله ﷺ أنّ الأخوات المؤمنات هنّ ميمونة بنت الحارث، وأمّ الفضل سلمىٰ، وأسماء[١].

وتمّ هذا العقد علىٰ أساس «الحقّ والمواساة». وجاء في أكثر الأخبار أنّ إحدى القواعد الأُخرىٰ لهذه الأخوّة إقرار «التوارث» بينهم «يتوارثون بعد الممات دون ذوي الأرحام»[٢]. ورُوي عن الإمام الباقر عليه السلام أيضاً أنّه قال: «إنّهم كانوا يتوارثون بالمؤاخاة»[٣] ولمثل هذا العقد أن يكون وثيقاً وطيداً. وقيل: إنّ التّوارث أُلغي فيما بعد، وحلّ محلّه «ذوو الأرحام». والواقع الطّبيعيّ للقضيّة هو هذا نفسه، إذ إنّ معظم المهاجرين رفض في البداية أواصره مع الأرحام المشركين، لكنّ هذه الأواصر قد تعزّزت شيئاً فشيئاً بإسلامهم وهجرتهم إلى المدينة. ويضاف إلىٰ ذلك أنّ الإسلام، وإن كان حاول إزالة الأواصر القبليّة والأحلاف الجاهليّة، رسّخ أساس الأُسرة، وعدّ تعزيزه ضروريّاً. وذكر ابن سعد أنّ الآية الكريمة ﴿**وَأُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ**﴾[٤] حين نزلت نسخت الحكم السّابق، وانتفت المؤاخاة في الميراث، وأُرجع كلّ أحدٍ إلىٰ نسبه وورثته[٥]. وانقطع هذا الموضوع في بدر. ويبدو أنّ الواقديّ زعم أنّ المؤاخاة لم تتحقّق بعد بدر قطّ ـ في حين قد استمرّت إلىٰ وقت متأخّر ـ من هنا عدّ مؤاخاة سلمان وأبي الدرداء[٦] ملغيّةً، لأنّ

---

(١) **الاستيعاب**: ٤٠٠، ٤٠١.

(٢) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٢٣٨.

(٣) **مجمع *البيان*** ٤: ٥٦١.

(٤) الأنفال: ٧٥.

(٥) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٢٣٨؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٣: ٥٢٨. وينبغي الالتفات إلىٰ أنّه جاء في القسم الأوّل من هذه الآية قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ﴾ أي: تأكيد أنّهم منكم وإن كان لأُولي الأرحام حكمهم الخاصّ بهم.

(٦) نقل ثقة الإسلام الكلينيّ رواية عن الإمام الصّادق عليه السلام قال: «آخىٰ رسول الله ﷺ بين سلمان وأبي ذرّ، واشترط علىٰ أبي ذرّ أن لا يعصي سلمان». *روضة الكافي*: ١٦٢. انظر بشأنها: *الصّحيح* ٣: ٦٨، ٦٩.

سلمان أسلم في الفترة الواقعة بين أُحد والخندق[١]. والصّحيح هو أنّ التّوارث قد رُفع، بيد أنّ أصل المؤاخاة ظلّ قائماً[٢]. مع أنّنا لابدّ أن نقول إنّها ليست بسيرتها الأولىٰ، وكانت بصورة مثنىٰ مثنىٰ، ولم تكن لها ضرورة تُذكَر أيضاً.

إنّ الذي كان له شأن أكبر من ذلك هو إخوّة المؤمنين جميعهم، الّتي تمّ تأكيدها في سورة الحجرات في السّنة التّاسعة للهجرة ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٣]. وللأسرة حكمها الخاصّ بها ولأخوّة المؤمنين مكانها أيضاً. قال سبحانه في سورة الأحزاب بعد أن سمّىٰ أزواج النّبيّ ﷺ أمّهات المؤمنين: ﴿وَأُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَاجِرِينَ﴾[٤]. وذهب بعضهم إلىٰ أنّ الآية تنفي التوارث في المؤاخاة.

وكانت أهمّيّة عقد المؤاخاة في ظروف السّنة الأُولىٰ للهجرة قابلة للإدراك تماماً. وهذا العقد في الدرجة الأُولىٰ لدعم المهاجرين الذين لا مأوىٰ لهم. لذا نُقل أنّه «آخىٰ رسول الله ﷺ بين أصحابه، آخىٰ بين الفقير والغنيّ ليردّ الغنيّ على الفقير»[٥]. وحين تآخىٰ سعد بن الرّبيع الأنصاريّ وعبد الرّحمٰن بن عوف اقترح عليه «أن يناصفه أهله وماله»[٦]. وللسهيليّ تحليل رائع للمؤاخاة. يقول فيه: «آخىٰ رسول الله ﷺ بين أصحابه حين نزلوا المدينة ليذهب عنهم وحشة الغربة ويؤنسهم من

---

(١) *أنساب الأشراف* ١: ٢٧١.

(٢) يقول ابن عبّاس: بقي النّصر والنّصيحة بعد ذلك. انظر: *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٣: ٥٣٥.

(٣) الحجرات: ١٠.

(٤) الأحزاب: ٦؛ وانظر: *مجمع البيان* ٨: ٣٣٩. نزلت سورة الأحزاب في السّنة الخامسة من الهجرة. علماً أنّ الوصيّة قد استُثنيت، كما نجد أنّ حمزة جعل زيد بن حارثة الّذي كان قد آخاه وصيّه في غزوة أُحُد. انظر: *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٢: ٥٠٥.

(٥) *الكامل في ضعفاء الرّجال* ٦: ١١٨. (٦) *صحيح البخاريّ* ٢: ٢.

مفارقة الأهل والعشيرة، ويشدّ أزر بعضهم ببعض، فلمّا عزّ الإسلام واجتمع الشمل، وذهبت الوحشة أنزل الله سبحانه ﴿وَأُولُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ ٱللَّهِ﴾[1].

ومن أهمّ أهداف هذه المؤاخاة إيجاد الأخوّة النّابعة من الإيمان بالله تعالىٰ. وكان لهذا الموضوع أهمّيّة بالغة في تقليل قدرة الأحلاف الجاهليّة، بخاصّة أنّ عقد المؤاخاة كان قائماً علىٰ أساس الحقّ في حين أنّ الأحلاف الجاهليّة تخلو من تعريف خاصّ للحقّ ولم تفكّر إلّا بالمصالح القبليّة (اللهمّ إلّا حلف الفضول). ومن العطاءات الأكيدة للمؤاخاة زرع روح التّعاون، وتأكيد الأُلفة الجماعيّة، واتّحاد المجتمع علىٰ أساس الأخوّة الإسلاميّة. ولنا في الحقيقة أن نعدّ هذه الخطوة ثاني خطوة ضروريّة لتعزيز بنيّة المجتمع الإسلاميّ بعد بناء المسجد (بيت الله ولجميع الناس والقبائل). ويعتبر مثل هذا الانتقال من مجتمع قبليّ جاهليّ إلىٰ أمّة إسلاميّة أهمّ موضوع للنّبيّ ﷺ في دعوته الإسلاميّة.

٣ ـ الدستور الأوّل للأُمّة الواحدة

كان وجود القبائل المختلفة والطّوائف المتعدّدة الّتي تعيش في المدينة وفقاً للسنن الجاهليّة مدعاةً للنّزاع والخلاف. ويضاف إليه أنّ القبائل اليهوديّة، علاوةً على القضايا القبليّة، تمثّل تعارضاً جديداً للمسلمين، وقد زادت مجالات الخلاف والمناوءة. وكان لا بدّ لهذه الخلافات أن تزول كي يتيسّر تشكيل الحكومة. وفي بعض الحالات ينبغي أن يقطع دابرها. وهذه الحالات هي الخلافات القائمة بين القبائل المسلمة. كما يتحتّم في حالات أُخرىٰ أن تُسوّىٰ علىٰ أساس المصالح السّياسيّة أو السياسات

---

(١) *الروض الأنف* ٤: ٢٩٧؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٣: ٥٥٣ عنه.

المبدئيّة الّتي كان الإسلام يعرضها بالنّسبة إلى الأديان الأخرىٰ. وفي هذا القسم كان اليهود في الدرجة الأولىٰ، ويتلوهم مشركو المدينة الّذين لم يسلموا، ومن ثمّ نصارىٰ نجران. وتشكيل مثل هذه الحكومة الّتي تستطيع أن تحتفظ بقدرتها المتفوّقة في بيئة منعوتة بتشتّتها مشروط بإقرار الوئام بين النّاس. وهم المسلمون في البداية، وبعد ذلك الاتّفاق مع اليهود.

وما دام الأمر مرتبطاً بالإسلام والمسلمين، فإنّ التّعاليم الإسلاميّة تعدّ أهمّ ركن للاتّحاد، مع أنّ الإسلام لمّا كان في بداية الطّريق، فلا يحسن التشدّد كثيراً. وأهمّ تعليم من تعاليمه تعزيز النّزعة التّوحيديّة في المجتمع، وإيجاد عقيدة مشتركة بالله. علماً أنّ التّوحيد لا يعني قبول ذات واحدة وعبادتها فحسب، بل يعني أنّ الله هو الحاكم وصاحب الولاية، وأنّه بعث رسولاً لتطبيق هذا الحكم والولاية بين النّاس. وفي هذا الضوء على المسلمين أن يطيعوا الله ورسوله. وتعدّ هذه الطاعة أهمّ ثمرة سياسيّة لعقيدة التوحيد، وأعظم مبدأ لإقرار الوحدة. وكان عطاء هذه الوحدة تبلور الأمّة[1] الواحدة. وتبلورها أمر في غاية الضّرورة لتشكيل الحكومة والنّظام. وكان قد تمّ تأكيد الوحدة المذكورة قبل ذلك في عقد المؤاخاة، وقبله في بناء المسجد. والمسجد موضع لله سبحانه، وبعده لجميع المؤمنين بلا امتياز قبليّ أو غيره لأحد.

إنّ الجانب المثبت في النّزعة التّوحيديّة ترسيخ رابطة المؤمنين جميعهم بالله سبحانه، والجانب المنفيّ فيها يرتبط بتقليص نفوذ المعايير القبليّة. وهذا المعنى القائل

---

(١) لم يستعمل هذا الاصطلاح في النّصوص الجاهليّة إلّا في موضع واحد. انظر:

W. Montgomery, watt Islamic Political Thougth, P. 10. لكنّه تكرّر استعماله في القرآن الكريم مرّة بمعنى الدّين، ومرّات بمعنى «الجماعة علىٰ دين واحد، وتتحرّك نحو نقطة واحدة، ولها هدف واحد». ومركز الثقل في تعدّد استعماله إلغاء التّفرقة، والوحدة في الحركة واتّخاذ القرار.

«إنّ الحكم لله وحده» قد أكّدته السّور المكّيّة أيضاً[١]. ثمّ نبّهت عليه الآيات المدنيّة في ألفاظ شتّىٰ. قال تعالىٰ: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[٢]. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا ٱللهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِى ٱلأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَٱلْيَوم ٱلآخِرِ ذٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[٣]. وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً﴾[٤]. وتكرّر تعبير ﴿أَطِيعُوا ٱللهَ وَرَسُولَهُ﴾[٥] وأمثاله[٦] في القرآن الكريم كثيراً.

في غضون ذلك إنّ ما كان يحظىٰ بأهمّيّة بالغة هو تسوية الخلافات بردّها إلى الله والرسول لا إلى الرؤساء والوجهاء المحلّيّين. وتوليد مثل هذه النّزعة عند قبائل لم تجرّب الحكومة قطّ أمر عويص ويحتاج إلىٰ فرصة طويلة. ونحن نعلم أنّ كثيراً من القبائل لم يستطع أن يدرك بعد مضيّ عشر سنين علىٰ تأسيس الحكومة، ومن ثمّ وفاة الرسول الأعظم ﷺ سلطةً تبسط نفوذها في المدينة كحكومةٍ لها سطوتها، ولم يرتضِ هذه الفكرة، بينما كانت الإجراءات النّبويّة علىٰ درجةٍ من العمق، بل كانت ممّا يحتاج إليها المجتمع العربيّ يومذاك، حتّىٰ ترسّخت الحكومة الإسلاميّة وتغلّبت علىٰ شتّى القبائل مع وجود الخلافات القبليّة الممتدّة.

ويتسنّىٰ لنا الأمل بقوام الحكومة من خلال هذه التعاليم، والتّوكّؤ عليها وحدها فحسب. وينبغي للحكومة أن تضع تعليمات معيّنة أيضاً، وتسيطر على التّيّار العمليّ للمجتمع في ضوئها. وتنفيذاً لهذا العمل تحتاج إلىٰ قوّة، كما تحتاج إلىٰ قوانين معيّنة تنظّم بها الحياة العمليّة للقبائل الّتي أسلمت. فالحكومة تعلم ماذا تفعل، والجماهير

---

(١) الأنعام: ٥٧؛ يوسف: ٤٠، ٦٧.
(٢) المائدة: ٥٠.
(٣) النساء: ٥٩.
(٤) الأحزاب: ٣٦.
(٥) الأنفال: ٢٠، ٤٦.
(٦) الفتح: ١٧؛ الحجرات: ١٥.

المؤمنة تعرف واجبها علىٰ حدّ سواء. والمجتمع يحتاج إلى الفقه، والفقه يعني القانون. وبغضّ النّظر عمّا حصل، يتطلّب الانتقال ـ طبيعيّاً ـ من مجتمع قبليّ إلىٰ حكومة قانوناً يأخذ بعين الاعتبار مصالح فوق التركيبة القبليّة في الحقيقة. ولابدّ أن ينسجم القانون الجديد مع مطالب أناس تجمّعوا من قبائل شتّىٰ. ومضافاً إلىٰ موضوع الحياة والعَيش، فإنّ لأهدافهم وعقائدهم الدّينيّة وإيمانهم بأهداف معيّنة أهمّيّة في تبلور القانون المذكور.

ويتآصر قسم من هذا القانون بالدّين في المجتمع الدّينيّ الجديد. وهذا التآصر من جهتين. الأُولىٰ: إنّ بعض القوانين يؤخذ من الدّين. الثانية: إنّ سائر القوانين ينبغي أن يكون بشكلٍ يضمن المصالح العامّة للدّين والمحافظة عليها وحراستها. بعبارة أخرىٰ، الفقه المتبلور تركيب من أوامر الله تعالىٰ ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم والأحكام الحكوميّة الّتي يعرضها الحاكم، نبيّاً كان أم غيره، للحياة الاجتماعيّة المتمحورة حول الدّين علىٰ أساس المصالح الواقعيّة.

إلىٰ هنا، كان القرآن موجوداً، كما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلىٰ جانبه يسنّ القوانين لإدارة المجتمع الجديد. بيد أنّه إذا كان الأمر متّصلاً بأصل الشّرع بعنوان وضع لقوانين ثابتة، فذلك غير مفروغ منه. فالمجتمع آنذاك كانت له قضاياه الخاصّة به، ومن الضّروريّ أن تؤخذ ظروفه ومصالحه المؤقّتة علىٰ أساس قوانين قرآنيّة نبويّة، وتوضع له قوانين بشكل منضبط. والدّين الّذي لا بدّ من العمل به مهما كانت الظّروف قسم منه أحكام وفقه حكوميّ يأخذ بنظر الاعتبار الأهداف بالفعل. وعلى أيّ حال، من الصّحيح أنّ القرآن الكريم كان في متناول اليد، لكن ينبغي أن تُدوَّن علىٰ أساسه مجموعة من القوانين يتمكّن من خلالها أن يقيم عماد المجتمع فيما يتعلّق بهذه الحكومة، ومن جهة أخرىٰ يمهّد الطريق لتربية النّاس بنحو أفضل.

وكان العهد العام الّذي أمضاه النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في السّنة الأولىٰ من الهجرة بين

المسلمين، واليهود، والمشركين بيثرب أوّل خطوة لإقرار دستور قائم على القرآن الكريم. وتلك حركة يجب أن تستمرّ على امتداد الحضارة الإسلاميّة، وتصبح رصيداً عظيماً لفكر سياسيّ في هذه الحضارة.

وأورد أرباب السِّيَر نصّ العهد المذكور بشكل تامّ[١]. ونقله الأستاذ أحمدي ميانجي عن مصادر عديدة، وشرحه[٢]. واتّخذ العهد طابع النصّ المدوَّن. ورضيه جميع المسلمين واليهود الّذين ذكرت أسماؤهم فيه. وتتعلّق أقسام منه بالقضايا الداخليّة للمسلمين، وقسم منه يعود إلى التعامل الثّنائيّ لليهود والمسلمين، كما تناولت نقطة أو نقطتان منه مشركي المدينة.

وجاء في أوّله أنّ هذا كتاب من محمّد ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم. إنّهم أمّة واحدة. من هنا تمّ تأكيد مفهوم أساس في البداية، وهذا المفهوم يشكّل قاعدة الحكومة الإسلاميّة.

مع هذا كانت التركيبة القبليّة في المجتمع الجاهليّ أمراً أساسيّاً، ولم يتيسّر تغييرها علىٰ أساس الأمّة الواحدة بهذه البساطة. لذا ذكرت القبائل واحدة واحدة في عقيبه، وتمّ التّنبيه علىٰ نظم القبيلة وتماسكها الداخليّ في إطار الأُمّة الواحدة. «إنّهم أمّة واحدة علىٰ رباعتهم». أي: ستكون كلّ قبيلة علىٰ رباعها. «يريد أنّهم علىٰ أمرهم الّذي كانوا عليه»[٣]. وكان هذا بخاصّة في أمر «المعاقل» أو «الديات»؛ أي: يعملون

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٢: ٥٠١ ـ ٥٠٤؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن كثير ٢: ٣٢٠ ـ ٣٢٣؛ *السّيرة الحلبيّة* ٢: ٩٦؛ *إعلام الورىٰ*: ٤٥؛ *عيون الأثر* ١: ٢٦٠ ـ ٢٦٢؛ *الأموال*، أبو عبيد (القاهرة، ١٣٥٣ هـ): ٢٠٢ ـ ٢٠٦؛ *مجموعة الوثائق السّياسيّة في العهد النّبويّ والخلافة الرّاشدة*: ١ ـ ٧؛ *نثر الدّرّ* ١: ٢٢٢، ٢٢٣.

(٢) *مكاتيب الرّسول* ١: ٢٤١ ـ ٢٦٣.

(٣) «القوم علىٰ رباعتهم» أي: على استقامتهم. انظر: *مكاتيب الرّسول* ١: ٢٤٢.

في ضوء صور الدّفع السّابقة في الدية [حاليّاً][1]. وأُعقب بالتأكيد أنّ «كلّ طـائفة منهم تَفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين».

وتتكرّر هذه الألفاظ بذكر القبائل وبطونها واحدة واحدة. وهذا التكـرار يـعني مشاركتهم الرّسميّة كلّهم في هذا العهد. بعد ذلك ذكرت الأُصول العامّة بين المؤمنين: «وأنّ المؤمنين لا يتركون مغرماً بينهم، أن يعطوه بالمعروف في فـداء أو عـقل، ولا يحالف مؤمن مولىٰ[2] مؤمن دونه، وأنّ المؤمنين المتّقين (أيديهم) علىٰ (كلّ) من بغىٰ منهم، أو ابتغىٰ دسيسة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وأنّ أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم»[3].

وهذا الأصل بخاصّة في تفضيل المعايير الإسلاميّة على الأواصر النّسـبيّة يـتألّق تألّقاً خاصّاً. «ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافرٍ، ولا ينصر كافراً علىٰ مؤمن. وإنّ ذمّة الله واحدة». وكلّ من أسلم يتمتّع بما يتمتّع به سائر المسلمين من حقوق. ومن آمن مسلماً فأمانه كذمّة الله، وهو مقبول. «وإنّه مـن تـبعنا مـن يهـود فـإنّ له النّـصر والمعروف والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم». وهذا تأكيد بأنّ كلّ من أسلم مهما كان دينه فله جميع حقوق الإنسان المسلم. «وإنّ سلم المؤمنين واحدة ولا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلّا علىٰ سواءٍ وعدلٍ بينهم».

وهذا القرار سيقع علىٰ عاتق القيادة عمليّاً، إذ إنّ اتّخاذ القـرار لا يـتيسّر «عـن ملاءٍ» إلّا بواسطة زعيم الأمّة الّذي يتولّىٰ هداية الأمّة الواحدة «وأنّ كلّ غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً». فالقتال في الحقيقة مهمّة الجـميع لا طـائفة خـاصّة، لذا

---

(١) انظر: *مكاتيب الرّسول* ١: ٢٤٣.

(٢) مولى القوم أي: ليس من القبيلة بلحاظ النّسب. لكنّه يعرف مولىً لقوم بالعقد أو بعتق القبيلة إيّاه. قال رسول الله ﷺ: مولى القوم منهم. وكان هذا التكليف علىٰ أساس ذلك الكلام أيضاً.

(٣) هذا هو مفهوم الآية الكريمة: ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا ﴾ الحجرات: ٩.

تشترك فيه جميع الفصائل كلّ حسب دورها. «وإنّ المؤمنين يُبيء بعضهم علىٰ بعض بما نال دماءهم في سبيل الله» لا أنّ أكثر الشّهداء من جماعة خاصّة. «وإنّ المؤمنين المتّقين علىٰ أحسن هدىً وأقومه». وهذا معيار أساس إذ هو المسبار الوحيد لتقويم الإيمان والتّقوىٰ[1].

وعلى المسلم أن يظلّ وفيّاً لهذا الأصل القيميّ. «وإنّه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه علىٰ مؤمن». «وإنّه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بيّنةٍ فإنّه قود به، إلّا أن يرضىٰ وليّ المقتول (بالعقل)، وإنّ المؤمنين عليه كافّة. وإنّه لا يحلّ لهم إلّا قيام عليه».

«وإنّه لا يحلّ لمؤمن أقرّ بما في هذه الصّحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحدِثاً ولا يؤويه. وإنّه من نصره وآواه فإنّ عليه لعنة الله وغضبه إلىٰ يوم القيامة. ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل. وإنّكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإنّ مردّه إلى الله عزّ وجلّ وإلىٰ محمّد (الرسول) ﷺ» وهذا الأصل كما مرّ من قبل أهمّ تعليم لإيجاد الأُمّة الواحدة. وتلته أُصول تتعلّق باليهود. «وإنّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين (ضدّ الّذين يُغيرون على المدينة). وإنّ يهود بني عوف أمّة مع المؤمنين». وبعد ذلك لليهود من سائر القبائل العربيّة كيهود بني ساعدة، ويهود بني جُشَم، ويهود بني الأوس، ويهود بني ثعلبة، ويهود بني شطبية ما ليهود بني عوف، أي: إنّهم يشكّلون أمّة واحدة مع المسلمين.

وفي هذه الأمّة الواحدة «لليهود دينهم وللمسلمين دينهم». وهذا ضمان عام «إلّا من ظلم وأثم فإنّه لا يوتغ إلّا نفسه وأهل بيته ... وإنّ البرّ دون الإثم. وإنّ موالي ثعلبة كأنفسهم، وإنّ بطانة يهود كأنفسهم وإنّه لا يخرج منهم أحد إلّا بإذن محمّد ﷺ؛

(١) قوام هذا الأصل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾. الحجرات: ١٣.

وان لا ينحجز علىٰ ثأر جرح. إنّه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلّا من ظلم» وما هذا إلّا من أجل أن يتمتّع الجميع بضمان تامّ، بخاصّة إذا كان الكلام يدور حول عدم الصّفح عن جرح بسيط، فإنّه تأكيد لهذا الضّمان العامّ. واستثناء من ظلم عامل للتّهديد بالظّلم والعدوان (تهديد اليهود). «وإنّ الله علىٰ أبرّ هذا.

وإنّ على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإنّ بينهم النّصر علىٰ من حارب أهل هذه الصحيفة، وإنّ بينهم النّصح والنّصيحة؛ والبرّ دون الإثم. وإنّه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإنّ النّصر للمظلوم؛ وإنّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين». ولهذا التأكيد أهمّيّته فيما يرتبط باليهود الّذين كانوا مشهورين بنقض العهود. «وإنّ يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصّحيفة». وليس هذا إلّا إثبات لحرمة المدينة بمعنىٰ أنّه يجب ألّا تنشب حرب بين الفريقين مهما كانت الظّروف.

والنّقطة الأخرىٰ هي «إنّ الجار كالنّفس غير مضارّ ولا آثم». «وإنّه ما كان بين أهل هذه الصّحيفة [الرّاضين بها] من حدث أو اشتجار يُخاف فساده، فإنّ مردّه إلى الله عزّ وجلّ وإلىٰ محمّد رسول الله ﷺ، وإنّ الله علىٰ أتقىٰ ما في هذه الصّحيفة وأبرّه». «وإنّه لا تجّار قريش ولا من نصرها؛ وإنّ بينهم النّصر علىٰ من دهم يثرب؛ وإذا دعوا (اليهود) إلىٰ صلح (حليف لهم فإنّهم) يصالحونه ويلبسونه، وإنّهم إذا دعوا إلىٰ مثل ذلك فإنّه لهم على المؤمنين إلّا من حارب في الدّين، وعلىٰ كلّ أُناس حصّتهم من جانبهم الّذي قبلهم... وإنّه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وإنّه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلّا من ظلم وأثم، وإنّ الله جار لمن برّ وأتقى ومحمّد رسول الله ﷺ».

ويمكن أن تشكّل هذا الصّحيفة عوناً كبيراً للحكومة الحديثة العهد. والقسم الأعظم منها للحؤول دون مناوءة اليهود للمسلمين وتحجيمهم لمنعهم من إثارة النّفاق والخلاف بين المسلمين. وقد صُدّوا عن الاحتكاك بالمشركين وتجارتهم. وهكذا

وجدت عقبة مهمّة في طريق اتّحاد قريش واليهود ضدّ الإسلام. وكان هذا العهد يعدّ فرصة مناسبة لنشر الدعوة الإسلاميّة[١].

من جهة أُخرىٰ، المسلمون الّذين كانوا قبل ذلك يتبعون رسول الله ﷺ من وحي إيمانهم فحسب، أبدوا الآن ولاءهم للأُصول المعلومة، ومن الوجهة الرّوحيّة كان لهم استعداد أكثر للعمل في ضوء الضّوابط الجديدة. ولابدّ من الالتفات إلىٰ فقدان العهد المذكور عنوان الحكومة الإسلاميّة. بيد أنّ تعبير «المؤمنين» يدلّ علىٰ وجود مجتمع إسلاميّ بقيادة الرسول ﷺ. والتعهّدات المؤيّدة والمعارضة في العهد المذكور تدور في الحقيقة حول محور المؤمنين.

وللقبائل العربيّة الّتي منها يهود بني النجّار، ويهود بني الحارث، ويهود بني ساعدة، ويهود بني جُشَم، ويهود بني الأوس، ويهود بني ثعلبة، ويهود بني شطبيه ما ليهود بني عوف. أي: إنّهم يشكّلون أمّة واحدة مع المسلمين. وفي هذه الأمّة الواحدة «لليهود دينهم وللمسلمين دينهم». وهذا ضمان عام «إلّا من ظلم وأثم، فإنّه لا يوتغ إلّا نفسه وأهل بيته... وإنّ البرّ دون الإثم. وأنّ موالي ثعلبة كأنفسهم، وإنّ بطانة يهود كأنفسهم، وإنّه لا يخرج منهم أحد إلّا بإذن محمّد ﷺ». «وأن لا ينحجز علىٰ ثأر جرح. وإنّه من فتك (قتل خفيةً غيلةً (أن يأتي الرجل صاحبه وهو غارّ غافل) فبنفسه فتك وأهل بيته إلّا من ظلم».

إنّ الهدف من هذه الأُصول هو تمتّع الجميع بضمان تامّ بخاصّة حين لا يُتغاضىٰ عن القصاص حتّىٰ لو كان الموضوع أبسط جراحة. واستثناء الظّلم نفسه عامل لتهديد (اليهود) بالظّلم والعدوان. «وإنّ الله علىٰ أبرّ هذا، وإنّ على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم. وإنّ بينهم النّصر علىٰ من حارب أهل هذه الصّحيفة، وإنّ بينهم

---

(١) *مكاتيب الرسول* ١: ٢٦١.

النّصح والنّصيحة؛ والبرّ دون الإثم، وإنّه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإنّ النّصر للمظلوم، وإنّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين» ولهذا التأكيد أهمّيّته فيما يرتبط باليهود الّذين كانوا مشهورين بنكث العهود.

«وإنّ يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصّحيفة». وليس هذا إلّا إثبات حرمة المدينة، بمعنىٰ عدم نشوب حرب بين الفريقين مهما كانت الظّروف. «وإنّ الجار كالنّفس غير مضارّ ولا آثم». «وإنّه ما كان بين أهل هذه الصّحيفة من حدث أو اشتجار يُخاف فساده، فإنّ مردّه إلى الله عزّ وجلّ وإلىٰ محمّد رسول الله، وإنّ الله علىٰ أتقىٰ ما في هذه الصّحيفة وأبرّه» «وإنّه لا تُجار قريش ولا من نصرها؛ وإنّ بينهم النّصر علىٰ من دهم يثرب؛ وإذا دعوا (اليهود) إلىٰ صلح (حليف لهم فإنّهم) يصالحونه ويلبسونه، وإنّهم إذا دعوا إلىٰ مثل ذلك فإنّه لهم على المؤمنين، إلّا من حارب في الدّين. وعلىٰ كلّ أناس حصّتهم من جانبهم الّذي قبلهم». «وإنّه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم. وإنّه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلّا من ظلم وأثم. وإنّ الله جار لمن برّ واتّقى ومحمّد رسول الله ﷺ».

(٦)

غزوات النّبيّ ﷺ

حتّى السّنة الخامسة للهجرة

أُسلوب بثّ الدّعوة الإسلاميّة

يتسنّىٰ لنا أن نتعرّف علىٰ عدد من الأساليب المعلومة في دعوة النّاس إلى الإسلام من خلال السّيرة النّبويّة العمليّة وفي ضوء آيات قرآنيّة كثيرة. وأوّلها وأكثرها أصالةً هو الأسلوب القائم علىٰ أساس «الهداية الفكريّة» للنّاس عبر الاستدلال وتعزيز روح التفكّر والتعمّق في أنفسهم. وأُنتُهِج هذا الأسلوب في مرحلة مكّة كلّها بقوّة. وما دعوة القرآن المكرّرة أيضاً إلى التأمّل والتّدبّر، وتوصية النّبيّ ﷺ أن يدعو «بالحكمة والموعظة الحسنة» ويجادل «بالّتي هي أحسن» إلّا آية علىٰ مواصلة هذا المسير حتّى الأخير. واستطاع النّبيّ ﷺ بهذا الأسلوب أن يدعو عدداً غفيراً من النّاس إلى الإسلام. ورضي أهل المدينة بالإسلام عن طريق التعرّف علىٰ هذه الدّعوة، ونشر الآيات القرآنيّة بنحوٍ محضٍ حتّى اشتهر القول: «فُتحت المدينة بالقرآن»[1].

وعندما بلغت الغزوات والسّرايا ذروتها، كانت الدعوة الإسلاميّة متواصلة وتوجّه خالد بن الوليد إلى اليمن من أجل دعوة أهلها، ولمّا لم يعمل شيئاً بُعث الإمام عليّ عليه السلام لذلك، وبدعوته أسلم كثير من سكّانها[2]. ونقل ابن سعد أنّ

---

(١) ***فتوح البلدان*** : ٧. إشارة إلىٰ قدوم مصعب بن عمير المدينة قبل هجرة النّبيّ ﷺ إليها ودعوة أهلها إلى الإسلام بالقرآن.

(٢) حول إرسال الإمام عليه السلام إلى اليمن، انظر: ***الطّبقات الكبرىٰ*** ٢ : ٣٣٧؛ ***أنساب الأشراف*** ١ : ٣٨٤؛ ***نهج البلاغة***، صبحي الصّالح: ٤٦٣، ٤٦٤.

رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد في موضوع فتح مكّة لدعوة بني جَذيمة إلى الإسلام لا لقتالهم «داعياً إلى الإسلام ولم يبعثه مقاتلاً». بيد أنّه قاتلهم وأسر منهم جماعة. فتبرّأ النّبيّ ﷺ من فعله الشّنيع هذا، وبعث عليّاً عليه السلام لِيَدِيَ مقتوليهم ويجبر ما فات منهم[١]. وأصبح موضوع الدّعوة إلى الإسلام أصلاً مسلّماً به في «فقه الجهاد» منذ بداية الحرب. وسئل الإمام السّجّاد عليه السلام عن كيفيّة الدّعوة إلى الإسلام قبل بداية الحرب، فقال:

«تقول: بسم الله الرّحمٰن الرّحيم. أدعوكم إلى الله عزّ وجلّ وإلىٰ دينه، وجماعه أمران: أحدهما معرفة الله عزّ وجلّ والآخرالعمل برضوانه. وإنّ معرفة الله عزّ وجلّ أن يُعرَف بالوحدانيّة والرّأفة والرّحمة والعزّة والعلم والقدرة والعلوّ علىٰ كلّ شيء وأنّه النّافع الضّارّ، القاهر لكلّ شيء، الّذي لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير؛ وأنّ محمّداً عبده ورسوله، وأنّ ما جاء به هو الحقّ من عند الله عزّ وجلّ، وما سواه هو الباطل. فإذا أجابوا إلىٰ ذلك فلهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين»[٢].

وعلىٰ هذا الأساس لم يحقّ للمسلمين جهاد المشركين إلّا بعد دعوتهم إلى التّوحيد والنّبوّة[٣]. والتزم بهذا الأمراء الّذين عيّنهم النّبيّ ﷺ إلّا من شذّ منهم كخالد ـ وقد تقدّم ذكره[٤].[٥] ولمّا دخل الإمام عليّ عليه السلام منطقة قبيلة مذحج باليمن علىٰ رأس كتيبة قوامها ثلاثمائة بوصفهم أوّل جيش إسلاميّ، دعا النّاس إلى الإسلام في البداية

---

(١) *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ١٤٧. (٢) *فروع الكافي* ١: ٣٣٧؛ *التّهذيب* ٢: ٤٧.

(٣) *مستدرك الوسائل* ١١: ٣١. (ولا تقاتلوهم حتّىٰ تحتجّوا عليهم بأن تدعوهم إلىٰ شهادة أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله والإقرار بما جاء به من عند الله). وانظر: *دعائم الإسلام* ١: ٢٦٩، ٢٧٠.

(٤) ذهب خالد مرّة أخرىٰ إلىٰ إحدى الطّوائف، فقالوا له: «صبأنا صبأنا» مكان أن يقولوا أسلمنا، مشيرين بتلك الكلمة إلى اعتناقهم الإسلام، إذ إنّ المشركين كانوا يدعون من أسلم صابئاً. مع هذا هاجمهم خالد وقتل منهم جماعة. ولمّا وافى النّبيّ ﷺ وأخبره بما صنع قال: «اللّهمّ إنّي أبرأ إليك ممّا صنع خالد». انظر: *المصنّف*، عبد الرزّاق ٥: ٢٢١، ٢٢٢.

(٥) *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ١٦٣.

فأجابوه بالنّبل والحجارة. فنظّم جيشه وهاجم المشركين فقتل منهم عشرين، ثمّ وقف مرّة أخرىٰ ودعاهم إلى الإسلام أيضاً فأجابوه وبايعه عدد من رؤسائهم على الإسلام[١].

وجاء في كتبالحديث في باب الجهاد باب بعنوان (دعاء العدوّ) ونقلت فيه مطالب من السّيرة النّبويّة في هذا المجال. منها أنّ النّبيّ ﷺ حين بعث معاذاً إلى اليمن، أمره أن يدعو أهل الكتاب إلى التّوحيد، فإذا استجابوا، يدعوهم إلى الصّلوات اليوميّة، ثمّ صيام شهر رمضان. وإذا قبلوا ذلك كلّه يطلب منهم دفع الزّكاة[٢].

ومنها أنّه ﷺ دعا بني قُريظة إلى الإسلام قبل قتالهم[٣]. وهكذا فعل في غزوة بني المصطلق الّتي كانت مع جماعة من قبيلة خزاعة. ونُقل عن بُريدة الأسلميّ[٤] أنّ رسول الله ﷺ حين كان يؤمّر أميراً علىٰ جيش أو سريّة يوصيه في خاصّة نفسه بتقوى الله، وبمن معه من المسلمين خيراً، ثمّ يقول له:

«اغزوا باسم الله في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغدروا، ولا تمثّلوا، ولا تغُلُّوا، ولا تقتلوا وليداً، إذا أنت لقيت عدوّك من المشركين، فادعهم إلىٰ ثلاث خصال أو خلال. فأيّتهن ما أجابوك منها، فاقبل منهم، وكفّ عنهم، وادعهم إلى الإسلام. فإن هم أجابوا فاقبل منهم وكفّ عنهم. ثمّ ادعهم إلى التحوّل من دارهم إلىٰ دار المهاجرين، وأخبرهم أنّ لهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين. فإن هم أبوا أن يتحوّلوا من دارهم إلىٰ دار المهاجرين، فأخبرهم أنّهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الّذي يجري على المؤمنين. ولا يكون لهم في الفيء والغنيمة شيء إلّا أن يجاهدوا مع المسلمين. فإن هم أبوا أن يدخلوا في الإسلام، فسلهم إعطاء الجزية. فإن فعلوا فاقبل منهم، وكفّ عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم»[٥].

---

(١) *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ١٧٠.
(٢) *المصنّف*، عبد الرزّاق ٥: ٢١٦.
(٣) نفسه.
(٤) *أنساب الأشراف* ١: ٣٤١.
(٥) *المصنّف*، عبد الرزّاق ٥: ٢١٨ ـ ٢٢١؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٦: ١٧، ٢٣١.

ونلحظ أنّ أمر القرآن الصّريح هو قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ ٱللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١]. حتّىٰ في ذروة تشدّد المسلمين على المشركين بعد إعلان البراءة في السّنة التّاسعة للهجرة. ولمّا أُتي بأسرىٰ إلى النّبيّ ﷺ سأل من معهم: أعرضتم عليهم الإسلام؟ قالوا: لا، قال: خذوهم إلىٰ مأمنهم، ثمّ تلا قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى ٱللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً﴾[٢].

ومهما يكن من شيء فإنّ الدّعوة قائمة علىٰ أساس هداية النّاس إلى التّوحيد. من هنا وقبل كلّ شيء كان هدف النّبيّ ﷺ تعريف النّاس بالتّوحيد والنّبوّة. وكانت قريش في عداد من عرض ﷺ عليهم الإسلام وتلا لهم آيات القرآن سنين متمادية. فإذا سُلّ سيف غضب المسلمين عليهم فإنّ قرابة ثلاث عشرة سنة قد مضت على الدّعوة الفكريّة والإرشاديّة. مع هذا لمّا كان الهدف هدايتهم أوّلاً، وأنّ المشركين لبثوا عمراً في الشّرك ثانياً، ومن الطّبيعيّ أنّ الانتقال يتطلّب تدرّجاً وصبراً، فقد كان ﷺ مستعدّاً أن يتلمّس الطّرق السّلميّة بعد ممارسة شيء من الضّغط على المشركين. من هنا كان ﷺ يقبل أصل المداراة والتّعامل السّلميّ بنفس السّرعة الّتي يقبل فيها الحرب. وعلىٰ هذا الأساس قبل صلح الحديبيّة إبّان تفوّقه على المشركين.

وفي مستوى المداخلات الفكريّة لم يهتمّ المشركون بالاستدلال والفكر، كما لم يرغبوا في حرب الإسلام إلىٰ جانب ذلك. ومورست معهم سياسة «تأليف القلوب» الّتي تمثّل نوعاً من التّواضع لتلطيف قلوبهم. وهذه السّياسة لا تعني أداء الأتاوة والخنوع كما لم يكن باعثها الخوف من المشركين[٣]، بل كانت لترغيبهم في الإسلام إذ

---

(١) التّوبة: ٦. (٢) الأحزاب: ٤٥، ٤٦؛ *حياة الصّحابة* ١: ١٦٦.

(٣) قطع الخليفة الثّاني سهم هؤلاء فيما بعد إذ كان يتصوّر أنّ الإسلام ما عاد يخشىٰ سطوتهم!

كانوا على الشّرك، ولا يمكن أن نتوقّع منهم تطوّراً آنيّاً أو نعدّهم جميعاً من أتباع المعقولات. ونقل عن الإمام العسكريّ عليه السلام في ذيل الآية الكريمة ﴿**وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً**﴾[١] أنّ النّاس عامّة سواءً المؤمنين وغيرهم. فالقول للمؤمنين بالبشاشة، ولغيرهم من المخالفين بالمداراة ليدينوا بالإسلام[٢]. ويقوم هذا التّعامل التّأليفيّ علىٰ أساس الآية القرآنيّة الكريمة الّتي جعلت سهماً من الزّكاة لل﴿**مُؤَلَّفَةِ قُلُوبهم**﴾[٣]. وهؤلاء من الكفّار الذين يُخصّص لهم مالٌ من أجل دعوتهم إلى الإسلام والجهاد مع المسلمين. وفي المرحلة التّالية يُساعَد المسلمون الضعيفو العقيدة لكسب قلوبهم[٤].

ويضاف إلى الزّكاة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دفع مبلغاً طائلاً من خمس غنائم حنين الّتي كانت له خاصّة بوصفه حاكم المسلمين إلى الكفّار والمسلمين الجدد. وذكرت المصادر التّاريخيّة فهرسها مع أسماء المؤلّفة قلوبهم[٥]. وأشهرهم كبراء قريش كأبي سفيان وأبنائه الّذين لم يُسلموا إلّا في فتح مكّة، بل إنّ بعضهم لم يُسلم حتّىٰ بعد الفتح بمدّة. واعترض عدد من المسلمين على الخطوة النّبويّة المذكورة، فقال صلى الله عليه وآله وسلم في جوابهم:

«إنّي أُعطي الرجل وأدَع الرجل، والذي أدعه أحبّ إليّ من الذي أُعطيه. أُعطي أقواماً لما في قلوبهم من الجزع والهلع وأكِلُ أقواماً إلىٰ ما جعل الله في قلوبهم من الغنىٰ والخير»[٦].

---

(١) البقرة: ٨٣. وقيل إنّ الآية المذكورة لم تُنسخ بآية الجهاد، إذ يتسنّىٰ، مع قبول الجهاد، دعوة العدوّ إلى الإسلام قبل ذلك بالكلام الحَسَن. انظر: **مجمع البيان** ١: ١٥٠.

(٢) **تفسير الإمام العسكريّ** عليه السلام: ١٤٢؛ **مستدرك الوسائل** ١٢: ٢٦٠.

(٣) التّوبة: ٦٠.

(٤) **تحرير الوسيلة** ١: ٣٣٦.

(٥) انظر: **مختصر تاريخ دمشق** ٥: ١٧.

(٦) **المعرفة والتّاريخ** ١: ٣٣٠. وقال للأنصار: «أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون برسول الله إلىٰ رحالكم؟» انظر: **المصنّف**، ابن أبي شيبة ١٤: ٥٢٣، ٥٢٤.

وكانت مداراته ﷺ كأصلٍ من الأُصول قد نالت اهتمامه على طول عصر الهجرة. وانتهج هذه السّياسة وهو في بداية الطريق على الرغم من إرجافات المنافقين الكثيرة. وفي الوقت الّذي كان يسيطر فيه على الأوضاع لم يتعامل مع هؤلاء بشدّةٍ وعنفٍ. إذ كان يخشىٰ أن يقال: محمّد يقتل أصحابه، لأنّ المنافقين كانوا في الظّاهر مع المؤمنين علىٰ أيّ حال.

بيد أنّ رأي النّبيّ ﷺ علىٰ أساس التّكاليف الشّرعيّة والقرآنيّة لم يكن بعيداً عن النّظرة الواقعيّة، فقد كان يهبّ إلىٰ قتال العدوّ بقوّة في الحالات اللازمة. علماً أنّ العدوّ المذكور هو العدوّ الّذي لا يُؤمل هداه عن طريق الفكر والمداراة. وهو المقصود بقوله تعالىٰ عند دعوة المؤمنين إلى الجهاد: ﴿**إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَابِّ عِندَ ٱللهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّـذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ ٱللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ**﴾[١].

وإذ جرى الحديث عن هذا الموضوع نستعرض فيما يأتي رؤية الإسلام في استثمار الجهاد لبثّ الدّعوة الإسلاميّة.

الإسلام داعية السّلام

يتحدّث التّاريخ الغابر للبشريّة عن وجود الاختلاف والخصومة بين أبناء البشر علىٰ صعيد واسع. وعلى الرّغم من أنّ جبلّة البشر عُجنت من خمير الوحدة، وتكوينه قائم علىٰ أساس الفطرة الإلٰهيّة بيد أنّ الاختلاف ظهر بينهم منذ الأيّام الأولىٰ. وكانت أرضيّة هذا الاختلاف مودعة في غريزتهم، لكنّ الشّيطان ضرب علىٰ وترها[٢]. بعبارة أخرىٰ، في الوقت الّذي كانت فيه القواعد الأساسيّة للوحدة مثبّتة في نفوس النّاس، كان الاختلاف سائداً بينهم بوصفه أمراً عرضيّاً دائميّاً، وباتّساع نطاقه تصدّع

---

(١) الأنفال: ٢٢، ٢٣.

(٢) آل عمران: ٩١.

السّلام والهدوء اللذان يعدّان شرطاً للحركة البشريّة نحو الله سبحانه، وطمع البشر في فرض سيطرته على الآخرين بالنّظر إلىٰ بواعث الاختلاف الموجودة فيهم، وبدأ التّناحر بينهم بعد ذلك. ونظراً إلىٰ هذه الأمور انقسم النّاس فريقين: مفسدٍ، ومصلحٍ. فمن أثار الاختلافات فهو مفسد. ومن همّ بفضّها فضّاً صحيحاً فهو مصلح[١]. وفي هذا الاتّجاه، إنّ من أهمّ مهامّ الأنبياء الإصلاح بين النّاس والتحرّك لإزالة الاختلاف. والمهمّ هنا هو التحرّك لإلغاء الاختلاف علىٰ أساس بثّ الثّقافة التّوحيديّة، لا إلغاء الاختلاف وإقرار وحدة قائمة على التّناقض والتّناحر وتربّص الدوائر.

وجاء في القرآن الكريم قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا فِيهِ﴾[٢]. وقوله: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا فِيهِ﴾[٣]. وقوله: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى ٱللهِ﴾[٤]. وقوله: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[٥]. فالهدف التّمهيديّ للأنبياء عليهم السلام إقرار أرضيّة الهداية وتحكيم السّلم والسّلام، بحيث تصرف الطّاقات البشريّة في صراط الله، لا أن تهدر حياتها لأهداف باطلة من خلال تناحرها وتنازعها.

والتّعبير المهمّ الآخر الّذي تكرّر ذكره في القرآن الكريم هو «الفساد ومكافحته»، وهو الموضوع الّذي يقف في الطّرف المقابل «للسّلم والسّلام». وحاكميّة المفسد من منظار القرآن الكريم تستتبع هلاك «الحرث والنّسل»[٦]، ومن هذا المنظار نفسه نلحظ أنّ حاكميّة الأهواء النفسيّة لا تستتبع هلاك الإنسان فحسب، بل تخلخل النّظام الكونيّ كلّه[٧]. ونقيض حكومة المفسدين حكومة الأنبياء والمصلحين الّذين يتولّون

---

(١) انظر: البقرة: ٢٢٠؛ هود: ١١٧؛ الشّعراء: ١٥٢؛ الأعراف: ١٤٢.

(٢) البقرة: ٢١٣.

(٣) النّحل: ٦٤.

(٤) الشّورىٰ: ١٠.

(٥) النّساء: ٥٩.

(٦) البقرة: ٢٠٤.

(٧) الحجّ: ٧١.

القضاء على الفساد ومجالاته، ويقدّمون الأصول والمبادئ للحركة الصّحيحة السّليمة من الاختلاف باتّجاه السّعادة.

وبالنّظر إلىٰ هذا الكلام يبدو من الطّبيعيّ أنّ أكثر أُصول الإسلام أصوليّة هو تحقيق السّلم. لكن أيّ سلم؟ وإذا قُدّر القضاء على الاختلاف، فلا بدّ أن يقوم علىٰ قاعدة تُزيل الاختلاف حقّاً وتُحلّ محلّه السّلم والصّفاء. ومن منظار الإسلام، السّلم الوحيد الّذي يمكن أن يكون واقعيّاً هو «التّسليم لله وحده». أي: إنّ المجتمع الّذي يتمتّع بعقيدة التّوحيد هو الّذي يرىٰ وجه السّلام غير منازَع. وجاء في القرآن الكريم قوله تعالىٰ: ﴿**يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱدْخُلُوا فِى ٱلسِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ**﴾[1]. وفي هذه ثلاث نقاط هي: ١ ـ خطاب الله تعالىٰ والإسلام لجميع المؤمنين. ٢ ـ دعوتهم إلى السّلم. ٣ ـ دعوتهم إلىٰ عدم اتّباع طريق الشّيطان. أي: على المؤمنين أن يحقّقوا السّلم في مجتمعهم، وألّا يتّبعوا طريق الشّيطان المثير للاختلاف، وذلك في ظلّ إيمانهم. ووردت آية أخرىٰ أيضاً بهذا المضمون، قال سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ... * فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ**﴾[2]. ويستشفّ من هذه الآية أيضاً أنّ هذا السّلم ينبغي أن يتحقّق في ظلّ علوّ الإسلام، وإلّا فلن تجوز الدّعوة إلى السّلم. وقال تبارك اسمه: ﴿**وَٱللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَامِ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾[3]. وهو حقّه سبحانه وحده أن يدعو البشر هذه الدّعوة من خلال إرسال الرّسل وإنزال الكتب.

وفي ضوء الآيات المذكورة وكأصل مسلّم به ينبغي أن نقول: إنّ تحقيق السّلم بمعناه الحقيقيّ لا يتيسّر في الرؤية الإسلاميّة إلّا علىٰ أساس الإيمان بالله ورسوله ﷺ

---

(١) البقرة: ٢٠٨. (٢) محمّد ﷺ: ٣٣ ـ ٣٥.

(٣) يونس: ٢٥.

ولا سبيل غيره لتحقيقه إلّا اتّباع خطوات الشّيطان، لذلك لا شأن له ولا بال من منظار الإسلام. وليس إلّا تطبيق تعاليم الإسلام ضمانة لإقرار السّلم الحقيقيّ. وكلّ نداء لرفع الاختلافات وفضّ النّزاعات بين أبناء البشر لا يُكتَب له الثّبات، كما يفتقد القيمة والمنطق في ظلّ أيّ قانون لا يرتضيه الإسلام. وما هو إلّا قوله تعالىٰ: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ﴾ مجلبة للسّلم لا غيره. ويتوخّى الإسلام تحقيق هذا الأمر لا دفع الشّرّ فحسب كما يخال البعض[1].

ونلحظ سلماً مزيّفاً أيضاً في مقابل هذا السّلم الحقيقيّ، بيد أنّه لتغطية الاختلافات المستعصية الّتي تُبذَل الجهود لإقامتها بوجوم لأسباب متنوّعة. وفي غضون ذلك نجد أنّ الأشخاص الّذين يتمسّكون بهذا الضّرب من السّلم هم الّذين يرون مصالحهم في وجود هذه الاختلافات عادةً، وبسكوتهم السّطحيّ يُرغمون الآخرين على التّنازل عن حقّهم. وهذا السّلم هو الّذي تنشده القوى المستكبرة هذا اليوم وتريد من الشّعوب أن تضحّي بمصالحها من أجلها، ولا تعارضها، لأنّ السّلم مهدّد بالخطر بزعمها! وإذا لم يفعل أحد ذلك فسوف يُتَّهم بخلخلة السّلم، والدّعوة إلى الحرب، مع أنّهم إذا تطلّب الأمر ولاحظوا عُقم السّلم السّطحيّ عَدَوا في الوقت المناسب وعدّوا عدوانهم هذا أداةً لحفظ مصالحهم.

الحرب أداةٌ لتحقيق السِّلم

قلنا في السِّلم إنّه انقياد ذو جانب واحد. والسِّلم الّذي يرتضيه الإسلام هو استسلام جماعة المؤمنين قطعةً واحدةً لله ورسوله ﷺ. ويثار هنا سؤال مفاده إذا كان الإسلام قائماً على السِّلم، فَعَلَامَ يقبل الحرب أيضاً؟ وفي ضوء هذا السّؤال

---

(١) *آثار الحرب*: ٦٥٦، ٦٥٧.

سترون أنّ في جعل الحرب والسِّلم في الفقه الإسلاميّ اختيار البعض الشّقّ الثّاني. في حين أنّ هذين الموضوعين يتفاوتان تماماً. وصحيح أنّ الإسلام هو من أجل السّلم، ولكن أيّ سلم؟ السّلم الّذي يطرح على الشّعوب من خلال قبول الإسلام، فما هي الوسائل لامتداد الإسلام وبثّه؟ وإذا تحقّق السّلم عبر الإسلام، فكيف نطبّق الإسلام في المجتمعات؟

ويتجلّى الجواب في عرض الوسائل الّتي يختدمها الإسلام في هداية النّاس. وقد مرّ أنّ هذه الوسائل تنسجم مع مستوى الأفكار وإمكانيّة التّعامل المنطقيّ مع الأمم والشّعوب المختلفة. والمنطق والعقل هما للنّاس الّذين يُدركون ويتمتّعون بفهمٍ وافٍ، وهؤلاء ممّن يتيسّر للمسلمين الاحتكاك بهم. ولكن كيف يكون التّعامل مع من ذكرهم القرآن الكريم: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى ٱللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾[1]. وقوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُم مُعْرِضُونَ﴾[2]؟ ونقرأ في السّيرة النّبويّة الشّريفة أنّ رسول الله ﷺ وجد بعد ثلاث عشرة سنة من التبليغ في مكّة، وثماني سنين من الصمود أمام ظلم قريش وعدوانها أنّ الطّريق الوحيد لنشر الإسلام في السنين الأخيرة هو إعلان البراءة من المشركين وتهديدهم، ولهؤلاء أن يدخلوا في نطاق السّلم عن هذا الطريق وحده، وكحدّ أدنىٰ لا يفسدوا ولا يزعزعوا سلم المجتمع في ظلّ سيادة الإسلام، حتّىٰ لو قدّر أنّ الإسلام يحادد الفساد والظّلم، فإنّ عقائدهم الملوّثة بالشّرك أكبر ظلم من منظار القرآن الكريم[3]. وهذه العقائد أهمّ ممهّد للفساد وفرض العدوان على السّلم في العالم حقّاً. ومن الطّبيعيّ أنّ الرسالة الّتي تدّعي تحقيق السِّلم لا يمكنها أن تنسجم مع الآراء المضادّة للسّلم وتطيق وجودها.

---

(١) النّور: ٤٨. (٢) الأنفال: ٢٣.

(٣) ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيم﴾. لقمان: ١٣.

من هنا نلحظ أنّ من وسائل تحقيق السِّلم للّذين لا يجدي معهم المنطق شيئاً ، وهم آراء فاسدة باطلة توسيع نطاق السّيادة الإسلاميّة عليهم وتطبيق القوانين اللازمة لإقرار السّلم الحقيقيّ. ولن تتحقّق هذه السّيادة في مجالات كثيرة إلّا بالحرب. ومن الواضح أنّ هذه الحرب ستكون في غاية القداسة إذ تستهدف تحقيق الإسلام أيضاً.

وإذا قال القرآن الكريم في موطنٍ: ﴿ٱدْخُلُوا فِى ٱلسِّلْمِ كَافَّةً﴾، فلا ينافي آيات الجهاد الّتي منها قوله سبحانه: ﴿قَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، لأنّ الحرب لدفع الفتنة أيضاً، وهو أمر سيستتبعه السّلم والصّلح.

ومن منظار القرآن إذا لم يتحقّق مثل هذا الجهاد فستكون فتنة وفساد كبير: ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾[١]. ومن منظوره أيضاً كانت حرب داود مع جالوت في هذا الاتّجاه أيضاً: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ ٱللهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾[٢]. وجاء هذا الموضوع بنحو طبيعيّ وبمستوىٰ عالٍ في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلّٰهِ﴾[٣]، وإلّا ففسادهم سيبلغ حدّه ﴿لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللهِ﴾[٤]. وحينئذٍ ستضمحلّ جميع العلاقات الدّينيّة. فما أفضل ذا القرنين إذ يستعين النّاس على اجتثاث شرّ يأجوج ومأجوج وفسادهما فيريحهم منهما[٥]! ويشمل تشدّد القرآن هذا سائر المفسدين ـ الّذين يُدعون محاربين أيضاً ـ وسُنّت أحكام في غاية الشدّة لمعاقبتهم[٦]. وفي هذا الإطار يجد «الحديد»[٧] ومنافعه الكثيرة للنّاس مفهومها الأصليّ. والهدف الأساس في هذه الحرب طبعاً هو السّلم

---

(١) الأنفال: ٧٣.
(٢) البقرة: ٢٥١.
(٣) البقرة: ١٩٣؛ الأنفال: ٣٩.
(٤) الحجّ: ٤٠.
(٥) الكهف: ٩٥.
(٦) المائدة: ٣٣.
(٧) الحديد: ٢٥.

نفسه الّذي تعدّ الدّعوة إليه بمنزلة الدّعوة إلىٰ إعادة الحياة[١]. ومن خلال معرفتنا لتوجّهات المفسدين في التّاريخ الغابر والمعاصر نشعر أنّه من السّذاجة بمكان أن نخال بأنّنا نستطيع بكلامنا أن نرغمهم علىٰ ترك العدوان. ويرى القرآن الكريم أنّ أئمّة الكفر لا يكفّون عن العدوان وإثارة الفساد إلّا بالحرب لا بالعهد والحلف[٢]. وأوّل يومٍ فرّطنا فيه حيال المفسدين ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾[٣]، يريدون منّا أن نكفر مضافاً إلىٰ نهبهم وقرصنتهم وطعنهم في الدّين.

والإسلام لا يريد إقرار السّلم المزيّف الّذي يظلّ فيه المظلوم قاعداً عن إحقاق حقّه في ظلّ الصّمت. والسّلم الحقيقيّ لا يتحقّق في ظلّ تهديد أعداء الله والمسلمين[٤] فحسب، بل لا بدّ أن يقوم سلم الإسلام علىٰ قاعدة تقويض القوى المتفرعنة. وينبغي أن يقوم السّلم علىٰ قاعدة السّيادة المطلقة لدين الله بحيث لا يجرؤ الآخرون علىٰ إبداء المعارضة، وتزول مجالات الفساد جهد المستطاع. ولا يشمل هذا الأمر العقائد العدوانيّة فحسب، بل يشمل أصل الشّرك الّذي يُنتج التّفرقة والاختلاف. ولا يتحقّق السّلم الحقيقيّ إلّا علىٰ أساس الوحدة الحقيقيّة في ظلّ الاعتقاد بتوحيد الله. وبالنظر إلى الآيات القرآنيّة الّتي لا تُحصىٰ بشأن فلسفة الجهاد، وما ذكرته من الأهداف الدّينيّة والإنسانيّة للحرب، فقد أجحف من عدّ الحرب في الإسلام لإشباع غريزة حبّ الحرب عند عرب الجاهليّة. ومفهوم الجهاد الدّينيّ الّذي يعني إنقاذ النّاس من قيود الظّلم، واسترجاع الحقوق الحقّة من خلال القضاء على الانتهاك والاعتداء إلىٰ جانب النهي عن الاعتداء، وعشرات الأحكام الأخرىٰ يدلّ علىٰ مدىٰ غفلة الذين

---

(١) الأنفال: ٢٤.
(٢) التّوبة: ١٢.
(٣) الممتحنة: ٢.
(٤) ﴿ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُم ﴾. الأنفال: ٦٠.

أبدوا مثل هذه الآراء عن الأدلّة القرآنيّة والتّاريخيّة القاطعة مثل مونتغمري واط.
ويرى الإسلام أنّ حياة النّاس رهينة بدعوة الله ورسوله إلى الجهاد **﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾**[١].

ويستشفّ من التّوضيحات المتقدّمة أنّ الإسلام سلميّ بطبيعته، لكنّه لا يحاول أن يُخفي رأيه في الجهاد والدّفاع، فيقترح نوعاً من السّلم غير الحقيقيّ. وهذه مشكلة كان يثيرها الملاحدة[٢] والنّصارىٰ على الإسلام غالباً. وتعود هذه القضيّة، بغضّ النّظر عن التوجّهات التّاريخيّة للنّصرانيّة، إلى الحرب وسابقتها في القرون الوسطىٰ، وإلى البنية الداخليّة للعقائد النّصرانيّة والإسلاميّة في القرون الحديثة. ونظراً إلىٰ أهمّيّة هذا البحث من الضّروريّ أن ننقل فيما يأتي ملاحظات مستنيرة لأحد الباحثين وإن كانت مفصّلة:

هذه التّهمة [الإسلام دين السّيف] ثقيلة الوطأة، فلا بدّ من التّوفّر علىٰ تفصيلها[٣]. أجل، من الصّحيح أنّ للإسلام أحكامه في الحرب أيضاً. في مقابل ذلك تأمر النّصرانيّة النّاس أن إذا صفع أحدٌ أحداً منهم علىٰ خدّه الأيسر فليدر له خدّه الأيمن. وتتّصف تعاليم النّصرانيّة بالمرونة والاعتدال. بيد أنّ الّذي يُنسىٰ في غضون ذلك هو إمّا دين سُنَّ للأولياء والزهّاد (يقول السيّد المسيح عليه السلام: «ما مملكتي من هذا العالم»). فحينئذٍ يضرب عن الأمور السّياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة صفحاً، ويعدّ أتباعه بمنزلة المقدّسين بالقوّة، ويستطيع أن يصمد ويعمل في مجتمع مؤلّف من الزّهّاد وأولياء الحقّ فحسب. وإمّا دين يحاول أن يستوعب الحياة الإنسانيّة بجميع أبعادها،

---

(١) الأنفال: ٢٤. الآية المذكورة بعد الآيات المتعلّقة بوقعة بدر.

(٢) *سبل الهدىٰ والرشاد* ٤: ١٥.

(٣) وضع ديورانت في كتابه *قصّة الحضارة* ٤: ٢٤١ «سيف الإسلام» عنواناً للفصل المتعلّق بتاريخ حوادث الإسلام من سنة ١١ هـ فما بعدها.

فلا بدّ له أن يأخذ بعين الاعتبار الفطرة البشريّة بكلّ ما لها من نقائص ونقاط ضعف ومثالب. وعلىٰ مثل هذا الدّين أن يسنّ القوانين الّتي تحكم الحياة السّياسيّة والاقتصاديّة للنّاس، كما عليه أن يضع الأحكام الّتي تنظّم الجوانب الدّينيّة المحضة في حياتهم علىٰ حدٍّ سواء. ومع أنّ النّصرانيّة جعلت تعاليمها للأولياء والمقدّسين بالقوّة، لكنّها من دون شكّ لا هي قادرة علىٰ إزالة الوجوه غير النّزيهة للفطرة الإنسانيّة بين أتباعها، ولا هي بمستوىٰ من يستطيع أن يُقصي الحرب عن عالم المسيحيّة. والحقيقة أنّ النّصرانيّة اضطرّت منذ اللحظة الّتي تحوّلت فيها إلىٰ حضارة وامبراطوريّة كبيرة أن تحمل السّيف لتكون قادرة علىٰ مواصلة الحياة والثّبات. وعليها أن تتّخذ قرارها في لحظة من لحظات التّاريخ، فهل تريد أن تظلّ علىٰ دين الرّهبان أو تستبدل به دين الحضارة العظيمة؟ ومن البديهيّ أنّ اختيار الطّريق الثّاني يصطحب الحكم والقتال أيضاً. وكان ملوك النّصارىٰ مثل شارل الكبير أو لويس التّاسع ـ الملقّب بلويس المقدّس ـ يخوضون الحرب بنفس الشدّة والعنف الّذي يخوض به هذا الملك المسلم أو ذاك. ولم يكن المقاتلون النّصارىٰ في ساحات القتال بألين وأوسع نظراً من أقرانهم المسلمين. وخضعت إسبانيا والأناضول لسلطة النّصارىٰ والمسلمين متزامنتين تقريباً، إلّا أنّ المسلمين جميعهم إمّا قُتلوا في إسبانيا أو طُردوا منها، حتّى لم يبق فيها مسلم واحد حيّاً آنذاك. في حين أنّ مقرّ الكنيسة الأرثوذكسيّة ما زال قائماً في تركيا. أجل، إنّ قذف الإسلام بأنّه دين السّيف تهمة واهية من أساسها. وقد وضع الإسلام للحرب حدودها من خلال القوانين الّتي شرّعها لها. ونلحظ في مقابل ذلك أنّ النّصرانيّة جعلت الحرب خارج نطاق صلاحيّاتها وتأمّلاتها. وليس بصدفةٍ أن تبدأ الحروب الشّاملة الشّعواء كلّها في قرننا هذا من الغرب حيث تسيطر النّصرانيّة الّتي تمثّل القوّة الدينيّة هناك. ومكان أن يتغاضى الإسلام عن الحرب بوصفها ظاهرة ليس لها وجود خارجيّ، فإنّه تحدّث عنها وسنّ لها قوانين دينيّة ليحول بذلك دون اتّساعها

وتبعاتها المشؤومة جهد المستطاع. وفي الحدّ الأدنىٰ يمكن أن نقول: إنّ أضرى الحروب وأشنعها في هذاالقرن لم تنطلق من العالم الإسلاميّ، بل من حيث ما يسمّيه البعض الغرب فوق المسيحيّ. وما نقوله هنا لا يعني إلقاء التّبعة على النّصرانيّة في شنّ الحروب المذكورة؛ إذ نعلم جيّداً أنّ هذه الحروب انطلقت من مجتمع طالما تمرّد على النّصرانيّة وطغىٰ عليها بأشكالٍ شتّىٰ. بيد أنّ النّصرانيّة لمّا كانت تخلو من الأحكام الإلٰهيّة الّتي تنظّم الحياة الظّاهريّة والمادّيّة للإنسان ـ كالّتي تنظّم حياته الباطنيّة والمعنويّة ـ فقد يسّرت إضفاء الطّابع الدّنيويّ على الحياة السّياسيّة والاجتماعيّة للمجتمع وعزله عن المبادئ الماثلة، وهو من جهة أُخرىٰ أفضىٰ إلىٰ تغييرات أساسيّة عظيمة في العصر الحديث[1]. ومن الواضح أنّ هذا الموجز لا يستوعب تفصيلاً أكثر ممّا ذكرنا. ويبدو أنّ ما تقدّم كافٍ في هذا المجال.

حروب رسول الله ﷺ: جهاد أم دفاع؟

حدثت غزوات وسرايا كثيرة في العقد الهجريّ الأوّل. أَفكانت دفاعاً عن كيان الإسلام أم اصطداماً هجوميّاً ضدّ المشركين؟ ونلحظ في المباحث الفقهيّة للجهاد أنّ الحرب في الإسلام تنقسم عادةً إلىٰ «حرب هجوميّة» أو الجهاد الابتدائيّ، و«حرب

---

(١) ***متفكران مسلمان و مدرنيسم (المفكّرون المسلمون والحداثة)***، الدكتور السيّد حسين نصر نقلاً عن مجلّة نشر دانش (نشر العلم) السّنة ١٤، العدد ٢ (مقالة خسرو نافذ) ص: ٤٣، ٤٤. وانظر أيضاً: ***روح اسلام***، أمير عليّ، ص: ٢٠٣. وحول الحرب والمسيحيّة انظر: ***تأثير اسلام در اروپا*** (تأثير الإسلام في أوربّا) مونتغمري واط، ص: ٩٢. وحول رؤية الإسلام في الحرب انظر: ***بازشناسى جنبه‌هاى تجاوز و دفاع*** (جوانب العدوان والدفاع: تعرّف متجدّد) ج ١ (مقالات المؤتمر العالميّ للعدوان والدّفاع).

دفاعيّة». ولكلٍّ منهما أحكامه الفقهيّة الخاصّة[١]. وتدلّ مطابقة البحوث المذكورة مع آيات الجهاد علىٰ أنّ التّقسيم المتقدّم ليس دقيقاً كثيراً. وقد أُجيز القتال أو الجهاد في القرآن الكريم بأشكال متنوّعة. بعبارة أخرىٰ، أجاز الله تعالىٰ الحرب في حالات خاصّة، وألزم المسلمين بها في حالات أُخرىٰ. وتتطابق الحالات المذكورة مع الدفاع كمصطلح فقهيّ تارةً، ومع الجهاد الابتدائيّ المصطلح في الفقه تارةً أُخرىٰ، لكنّها قد لا تتطابق معهما في بعض الحالات أيضاً. وسنستعرض هنا الأسباب الدّاعية إلىٰ جواز الحرب في القرآن الكريم علىٰ نحو الإشارة، بخاصّة أنّ الآيات القرآنيّة المعنيّة تتعلّق بالتطوّرات الحاصلة إبّان العصر المدنيّ الممتدّ عقداً من الزّمن. ولا ننوي استقصاء الحالات جميعها.

١ ـ الجواز بل الأمر بقتال من يقاتل المسلمين: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[٢]. ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[٣].

٢ ـ القتال للقضاء على الفتنة، ولا يمكن أن نتحدّث عن الفتنة بشكلٍ دقيق مع أنّ الآية الآتية تبيّن المعنى المقابل للفتنة نوعاً ما، وهو السّيطرة التامّة لدين الله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّالِمِينَ﴾[٤].

٣ ـ الدّفاع عن المستضعفين أمام المستكبرين: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ

---

(١) ذكر المرحوم كاشف الغطاء أربعة فروق بين أحكام الجهاد الابتدائيّ والجهاد الدّفاعيّ. انظر: *كشف الغطاء*: ٣٨٢. وذهب البعض إلىٰ أنّ الجهاد الابتدائيّ بحكم أهدافه هو الجهاد الدّفاعيّ في الأصل. ومن البيّن أنّ هذا يتفاوت مع الاصطلاح المتداول للدّفاع في الفقه.

(٢) البقرة: ١٩٠.

(٣) الحجّ: ٣٩.

(٤) البقرة: ١٩٣.

وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ وَٱلْوِلْدَانِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَنَا مِن لَدُنْكَ وَلِيّاً وَٱجْعَلْ لَنَا مِن لَدُنكَ نَصِيراً ﴾[١].

٤ ـ عند نكث العدوّ عهده وطعنه في دين المسلمين: ﴿وَإِن نَكَثُوا أَيْمَانَهُم مِن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ * أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾[٢].

٥ ـ تقويض الشّرك: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ ٱللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ٱلَّذِينَ عَاهَدْتُم مِنَ ٱلْـمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾[٣]... ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَاقْتُلُوا ٱلْـمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾[٤]. والإخراج من البلد مسوّغ آخر للقتال[٥]. وإذا استقصينا أكثر فإنّه يقدّم لنا نماذج أُخرىٰ أيضاً.

ومن الواضح أنّ الأمثلة المذكورة تستوعب مرحلة الدّفاع أمام اعتداء العدوّ حتّى الجهاد لبثّ التّوحيد. وقد وقف النّبيّ ﷺ أمام المشركين في جميع المراحل استهداءً بالآيات المتقدّمة. وكانت هجماته الأُولىٰ علىٰ قوافلهم التّجاريّة أهمّ موقف من مواقفه وأكثرها حسّاسيّة. واستعان في معظمها بالمهاجرين، وأهمّ دليل علىٰ تسويغ ذلك ما مارسه المشركون من ظلمٍ بحقّهم. وقيل إنّ الآية التاسعة والثلاثين من سورة الحجّ، الّتي أذنت بالقتال ضدّ رموز الظّلم كانت أوّل آية نزلت بشأن القتال[٦]. وجاء بعدها بشأن المظلومين: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا ٱللهُ ﴾[٧]. وقال

---

(١) النساء: ٧٥.
(٢) التّوبة: ١٢، ١٣.
(٣) التّوبة: ١، ٢.
(٤) التوبة: ٥.
(٥) البقرة: ٢٤٦؛ الحجّ: ٣٩.
(٦) *أنساب الأشراف* ١: ٢٨٦؛ وإذا قيل إنّ سورة البقرة نزلت قبل سورة الأنفال ـ وذلك يقال ـ فحريّ بالعلم أنّ الآيات ١٩١، ١٩٢، ١٩٣ من البقرة تصرّح بالأمر بمقاتلة المشركين.
(٧) الحجّ: ٤٠.

الإمام الباقر عليه‌السلام: إنّها نزلت في المهاجرين[1]. وكلّ من كان يؤتىٰ به من المسلمين إلىٰ رسول الله ﷺ مجروحاً أو مضروباً بمكّة كان يشكو من الكفّار، ولم يأذن ﷺ بالقتال، ثمّ أذنت الآية به[2].

ولا شكّ أنّ رسول الله ﷺ كان مهتمّاً بنشر الإسلام، وأنّ قريشاً كانت عقبةً عسكريّةً واقتصاديّةً كؤوداً في طريقه مضافاً إلىٰ ما مارسته من أنواع الظّلم والاضطهاد سابقاً. وكانت بدر تجربةً لاختبار قوّات المسلمين والمشركين في حكم الحجاز. وكانت أحد والخندق امتداداً لهذه التّجربة إلىٰ أن تحقّق توازن صوريّ في الحديبيّة، وتلاه انتصار المسلمين السّاحق في فتح مكّة.

الأحداث قبل بدر

عندما تبلور المجتمع الإسلاميّ في المدينة، وخضع اليهود وبقايا المشركين لسيطرة الدّين في سياق بعض الالتزامات، فكّر النّبيّ ﷺ بالخارج. وكان ﷺ قد استطاع أن يحكم قبضته على المدينة بما أوتي من حزمٍ وبصيرة مع تفرّق قبائلها وطوائفها، بل مع قوّة اليهود اللافتة للنّظر فيها. وتمكّن من أن يجعلها قطعة واحدة خاضعة لحكومة مركزيّة علىٰ أساس ضوابط منطقيّة. وكانت هذه الأعمال كلّها من أجل التمهيد للاصطدام بأخطر عدوّ، وهو قريش مضافاً إلى القضاء على المقاومة الداخليّة. وكان المهاجرون الّذين بلغ عددهم قرابة مئتين قد فقدوا دورهم ومآويهم، وعلى الرّغم من مساعدة الأنصار إيّاهم لم تنتظم حياتهم. ولم يفكّروا قطّ بالبقاء في المدينة إلى الأبد. من هنا كان عليهم أن يواجهوا قريشاً. وفي حدود معلوماتنا أنّ قريشاً لم تفكّر بالحرب آنذاك لانشغالها بالتّجارة. وكانت تجارتها مع سورية تتيسّر من جانب

---

(١) مجمع *البيان* ٧: ٨٧.

(٢) نفسه.

المدينة بمسافة قليلة فحسب. ولم يكن بوسعها أن تتملّص من هذه الحقيقة، كما لم تسطع أن تخترع طريقاً آخر! إذن، نقطة ضعفها كانت جليّةً تماماً. وهذا ما وضع النّبيّ ﷺ إصبعه عليه. فعليها الآن أن تستلم جواب انتهاكاتها واعتداءاتها الّتي دامت عدد سنين ضدّ المسلمين.

وقد سبق بدراً عدد من الحوادث البسيطة الّتي لم تأبه لها قريش كثيراً لعلّها تستطيع بنحوٍ أن تتخلّص من قيودها؛ بيد أنّ المسلمين لم يتركوها وحالها، لاسيّما المهاجرون منهم الّذين فقدوا كلّ ما عندهم بمكّة وعاشوا محنة ضغوطها الجائرة لسنين. وذكر الواقديّ في فهرس الغزوات الّتي سبقت بدراً عدداً من حملات المسلمين علىٰ قافلتها التّجاريّة، وكان الهدف منها التّضييق والضغط عليها عادةً.

وأوّل حملةٍ ـ برواية الواقديّ ـ كانت بعد الهجرة بسبعة أشهر بقيادة حمزة، وقوامها ثلاثون. فتعرّضوا لقافلة قريش بقيادة أبي جهل، وعدد من معه ثلاثمائة، وكانوا قاصدين مكّة من الشّام. وأوشك أن يتقاتلوا لولا تدخّل مجدي بن عمرو الّذي كان حليفاً للفريقين، فصرفهما عن القتال. وبعد ذلك قال للنّبيّ ﷺ: لم أرَ في الحرب نفعاً للمسلمين فتدخّلت بينهما، فعامله النّبيّ ﷺ ومرافقيه بما يناسب المقام[1].

ومن الواضح أنّ قتال ثلاثين لم يكن في مصلحة المسلمين. ودار خلاف حول حمزة، فهل كان أوّل أمير للحرب أم لا؟ فذهب الواقديّ إلىٰ أنّه كان. أمّا ابن إسحاق، وهو يرىٰ أنّ عبيدة بن الحارث كان أوّل أمير أمّره النّبيّ ﷺ، فقد نقل قول «بعض النّاس» أنّ راية حمزة كانت أوّل راية رفرفت وقال به. وذهب إلىٰ أنّ سبب هذا الوهم هو تزامن إيفادهما تقريباً. كما أنّه لم يستبعد أن يكون السبب هو الشّعر المنسوب إلىٰ حمزة الّذي يذكر فيه أنّ رايته كانت أوّل راية رفرفت في الإسلام.

---

(١) ***المغازي*** ١: ٩، ١٠؛ إسلامه غير معلوم طبعاً. انظر: ***سبل الهدىٰ والرّشاد*** ٦: ٢٣.

وأورد أن الشّعر إذا كان لحمزة فقد صحّ الرّأي المذكور. وأضاف ابن هشام أنّ أهل العلم ينكرون نسبته إلىٰ حمزة[١]. ونحن نضيف أنّه حتّىٰ لو لم يكن لحمزة فالمستبان هو أنّ الّذين ذكروا فيه لسان حال حمزة، ذهبوا إلىٰ أنّه آية علىٰ صحّة الرأي المذكور منذ البداية. وهذا أيضاً هو رأي عروة بن الزّبير، وموسىٰ بن عقبة، ومحمّد بن سعد، والبيهقيّ، وعدد آخر غيرهم[٢].

والكلام الآخر بشأن حضور الأنصار إلىٰ جانب حمزة يتمثّل في ما نقله الواقديّ. فقد ذهب في بداية نقله إلىٰ حضورهم، ثمّ أكّد ناقداً أنّهم لم يشهدوا الحملات الّتي سبقت بدراً. وجاء في خبر ابن إسحاق أيضاً: «ليس فيهم من الأنصار أحد»[٣]. ولعلّ ذلك يعود إلىٰ أنّهم كانوا قد تعهّدوا بالدفاع عن النّبيّ ﷺ فحسب[٤]. وإلّا لو كان ﷺ قد أمرهم لحضروا، بيد أنّه ﷺ لم يرغب في أن يأمرهم بأمر لا تعهّد لهم به، اللّهمّ إلّا أن يرغبوا فيه عن طواعية.

ولعلّ من المناسب هنا تأكيد أنّ قسماً من الواجبات الاجتماعيّة للنّاس، وبالمقابل، بعض حقوقهم قائم علىٰ نوع من الالتزام الثّنائيّ الّذي كان سائداً حتّىٰ بين رسول الله ﷺ والمؤمنين من المهاجرين والأنصار. والبيعة في الأصل تعبّر عن الالتزام المذكور إلىٰ حدٍّ ما، وإن كان وراء ذلك أن يدين المؤمنون لأوامر النّبيّ ﷺ. والبيعة تعني أنّهم يتّبعون أوامره فيستمتعون بحقوق المواطنة إزاء ذلك. ومهما كان فالأنصار تعهّدوا بالدّفاع ولم يرد النّبيّ ﷺ أن يعمل خلاف هذا التعهّد.

والشّعر الّذي نسبه ابن إسحاق إلىٰ حمزة ـ وأنكره ابن هشام عليه؛ بل هو لسان

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٥٩٥.
(٢) *سبل الهدىٰ والرشاد* ٦: ٢١.
(٣) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام: ٥٩٥.
(٤) قال الواقديّ: «لأنّهم شرطوا له أن يمنعوه في دارهم». ١: ١١.

حال الرجل (باعتقادنا كحدٍّ أدنىٰ) ولعلّه له[١] ـ يركّز علىٰ:

«كأنّا تبلناهم ولا تبل عندنا   لهم غير أمرٍ بالعفافِ وبالعدلِ

وأمر بإسلامٍ فلا يقبلونه   وينزل منهم مثل منزلة الهزلِ

وخاطب لؤيّ بن غالب قائلاً:

فيا للؤيّ لا تطيعوا غواتكم   وفيئوا إلى الإسلامِ والمنهج السهلِ

فإنّي أخاف أن يصبّ عليكم   عذابٌ فتدعوا بالنّدامة والثّكلِ»[٢]

وهكذا ينبغي أن نقول إنّ المقاتلين المسلمين كانوا علىٰ بيّنةٍ تامّة من رسالتهم منذ اللحظات الأُولىٰ للرسالة. ونلحظ في مقابل ذلك أنّ أبا جهل يتّهم المسلمين في شعره بأنّهم أثاروا الخلاف بين قومهم بعد إنكار قريش رسالة محمّد ﷺ. ويهدّدهم أنّهم إذا لم يرجعوا عن قولهم فسيجعلهم كقشر الشّجرة الّتي لا أصل لها.

وروى الواقديّ أنّ عبيدة بن الحارث (بن المطّلب بن عبد مناف) ذهب بعد شهر مضىٰ علىٰ ذلك، أي: في الشّهر الثّامن من الهجرة، مع ستّين (أو كما نقل ابن إسحاق ثمانين كاحتمال ثانٍ) قاصدين جماعة من قريش كانوا قرابة مئتين. ولم تكن بينهما وقعة مع أنّهما كانا متأهبَين للقتال علىٰ ما نقل أرباب السِّير. ولم يستبن سبب إحجامهما عن القتال. وقيل إنّ سعد بن أبي وقّاص وحده كان أوّل من رمى المشركين بسهم. وهذا أوّل سهم أُطلق في الإسلام[٣]. وفي ضوء ما نعرفه من الحياة القبليّة هو أنّه إذا أُطلق سهم نشبت الحرب، فكيف إذا أُطلق عشرون سهماً قتل كلٌّ منها أحداً أو جرحه[٤]،

---

(١) والدليل علىٰ ذلك جواب أبي جهل إيّاه في شعر آخر. وأنكر ابن هشام طبعاً نسبة الشّعر المذكور إلىٰ أبي جهل علىٰ لسان أهل العلم. كما أنكر مثله في سريّة عبيدة بن الحارث، وكان بين أبي بكر من جهة، وابن الزّبعرىٰ من جهة أخرىٰ.

(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٥٩٦، ٥٩٧.

(٣) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٥٩١.

(٤) *المغازي* ١: ١٠؛ ونقل شعراً في هذا الشأن أيضاً، *سبل الهدىٰ والرشاد* ٦: ٢٣.

ولم تكن وقعة أيضاً. وفي هذه الوقعة بتأكيد ابن إسحاق ليس فيهم من الأنصار أحد(١).

ويستشفّ من خبر ابن إسحاق أنّ المشركين كانوا قد خرجوا من مكّة لمواجهة المسلمين. ولم يُشر إلىٰ أنّ قريشاً كانت تمرّ في قالب قافلة تجاريّة. وأضاف أنّ عدداً من مسلمي مكّة ـ وفيهم المقداد بن عمرو، وعتبة بن غزوان ـ الّذين كانوا ينوون اللحاق بمسلمي المدينة جاءوا مع المشركين من أجل الالتحاق بالمسلمين(٢). وتوجّهت جماعة صغيرة أخرىٰ بقيادة سعد بن أبي وقّاص إلىٰ منطقة الخرّار ـ وفي بعض المصادر: الحزار والخزاز ـ قرب غدير خمّ في الشّهر التّاسع للهجرة لتعترض الطريق الّذي تسير فيه قافلة قريش. وكان المسلمون عشرين أو واحداً وعشرين، وعندما وافوا المنطقة المعهودة كانت القافلة قد اجتازتها قبل موافاتهم بيوم، لذا لم تكن وقعة تذكر.

ويبدو مناسباً هنا أن نذكر هذه النّقطة وهي أنّ رسول الله ﷺ كان يُشخص إلى الحرب في بعض المواقف مجموعةً بقيادة أحد الصّحابة، ويطلق علىٰ هذا البعث اسم «السَريّة». وفي حالات أُخرىٰ كان يحضر بنفسه في الحرب، فتُسمّى الوقعة الّتي يشهدها «الغزوة». واستُثنيت مؤتة علىٰ ما يظهر فسُمّيت «غزوة» في حين لم يحضرها النّبيّ ﷺ. ويُلحَظ احتمالان في معنى السَريّة. أحدهما أنّها تُطلق على الجند إذا بلغوا أربعمائة. وبكلمةٍ أنّهم صفوة الجند وزبدتهم. والآخر هو الجند إذا أُوفدوا سرّاً. وقيل إنّ هذا الاحتمال لا يصحّ لأنّ السّرّ هو غير السري من الوجهة اللّغويّة(٣). ومن

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٥٩١.

(٢) نفسه ١: ٥٩٢؛ ولم يُشر الواقديّ إلىٰ هذا الموضوع.

(٣) *النهاية* ٢: ١٥٩؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٦: ١٢. وهناك احتمالات أُخرىٰ أيضاً. وبالإشارة إلىٰ كلام ابن الأثير فإنّ أفضل معنىً عُرف لها هو «تَسْري في خفية».

الواضح أنّ الغزوة كانت أبلغ أهمّيّةً من غيرها لوجود رسول الله ﷺ فيها ولاتّساع نطاقها. وعلى أيّ حال كانت السّرايا تماثل حرب العصابات والهجمات الفرعيّة.

ويضاف إلىٰ بعض السّرايا الّتي مرّ ذكرها أنّ رسول الله ﷺ نفسه كان يشترك في بعض العمليات العسكريّة أيضاً قبل بدر. وكانت أربع غزوات قبل بدر لمهاجمة قوافل قريش ولم تحقّق نصراً. وأوّلها غزوة الأبواء في منطقةٍ بهذا الاسم، واسمها الآخر غزوة ودّان. وودّان علىٰ مسافة قريبة من الأبواء. وانتهت هذه الحملة الّتي جرت في الأوّل من صفر بعد الهجرة علىٰ قول البلاذريّ والواقديّ بعقد حلف بني ضمرة بن كنانة الّذي تقرّر بموجبه ألّا يتقاتلان، ولا يحميان عدوّاً ضدّ محمّد ﷺ.

والغزوة الأُخرىٰ هي غزوة بواط ـ وبواط موضع في منطقة جبل رضوىٰ قرب يَنْبُع ـ الّتي كانت في ربيع الأوّل، أي: بعد الهجرة بعام[1]؛ والهدف منها علىٰ حدّ تعبير أرباب السِّير قافلة قريش، بيد أنّها «لم تلق كيداً» أي: لم يقع فيها قتال.

وتلتها غزوة ذات العُشيرة[2] الّتي كانت في جمادى الآخرة من السّنة الثّانية، وتوخّت نفس الهدف. وهو مهاجمة قافلة كانت قادمة من مكّة إلى الشّام، وفيها أموال قريش كلّها، ولم يحدث فيها قتال. فعزم النّبيّ ﷺ حينئذٍ علىٰ زعزعة الأمن في الطّريق التّجاريّ لقريش. ولمّا علم المشركون ذلك حاولوا أن يسلكوا طرقاً أُخرىٰ غير مألوفة ليأمنوا علىٰ أنفسهم وتجارتهم. وقام كرز بن جابر الفهريّ بهجومٍ سرّيّ على المدينة في غضون ذلك، فلاحقه النّبيّ ﷺ حتّىٰ بدر، بيد أنّه لم يظفر به. ومن المحتمل أنّه انبرىٰ بتحريض قريش.

والأعمال المذكورة تدلّ علىٰ أنّ النّبيّ ﷺ كان مستعدّاً للاشتباك مع قريش. ومن

---

(١) نحن نعلم أنّ الهجرة كانت في هذا الشّهر لكنّ السّنة الهجريّة بدأت بعد ذلك من المحرّم ممّا أدّىٰ إلىٰ إضافة شهرين على السّنة الهجريّة بالقياس إلىٰ بدئها الّذي كان في ربيع الأوّل.

(٢) منطقة قريبة من ينبع.

الطّبيعيّ أنّ القبائل الأُخرىٰ ينبغي أن تحسب حسابها. وفي غزوة ذات العُشيرة استقبل بنو مدلج النّبيّ ﷺ ومن معه استقبالاً رائعاً. وكان برفقته مئتان. وبسبب لبثهم هناك نأت القافلة عن تعرّض المسلمين، ولعلّ هذا قد تمّ خفيةً بدافعٍ سياسيّ. ولم يصرّح بهذا الموضوع أحد. وفي ضوء ما نقله جمع غفير من المؤرّخين كُنِّيَ الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام بأبي تراب في هذه الغزوة. يقول عمّار بن ياسر: ذهبتُ مع عليّ عليه السلام إلىٰ نخيل بني مدلج فنمنا على التّراب حتّىٰ جاء رسول الله ﷺ فنادىٰ عليّاً بأبي تراب[1].

وكانت آخر سريّة قبل غزوة بدر بشهر ونصف تقريباً هي سريّة النّخلة بقيادة عبد الله بن جحش. وهي السريّة الوحيدة، أو بعبارةٍ أُخرىٰ، العمليّات الوحيدة الّتي حالفها التّوفيق. ودفع إليه النّبيّ ﷺ رسالة مغلقة، وأوصاه أن يفتحها مع جماعة بعد مضيّ يومين علىٰ تحرّكهم ويعمل بما فيها، إلّا أنّه لا يحقّ له أن يُجبر جنده على العمل بها. ومن المحتمل أنّ هذا كان من أجل إخفاء العمليّات، إذ كانت قريش تعلم قبل ذلك بمبادرته ﷺ هذه نوعاً ما. ولمّا قرأ عبد الله الرّسالة عرف أنّ الموضع الأصليّ للعمليّات هو منطقة النّخلة، فعليه أن يكمن لقافلة من قوافل قريش كانت تحمل الزّبيب والجلود للتّجارة. واطّلعت قريش علىٰ وجود المسلمين، بيد أنّ أحد المرافقين لعبد الله كان قد حلق رأسه ليوهم أنّه يريد العمرة، فهدأ روع قريش.

وكانت هنا مشكلة إذ صادف ذلك اليوم آخر رجب، وهو من الأشهر الحرم، فلا ينبغي للمسلمين أن يبدأوا بقتال، لأنّ الوقت وقت حرام. ومن جهةٍ أُخرىٰ، لو صبر أولئك حتّىٰ غد ذلك اليوم، وهدأوا مع قريش لدخلوا الحرم. وشكّ جماعة في

---

(١) انظر: *الصّحيح من سيرة النّبيّ* ﷺ ٣: ١٤١ للاطّلاع علىٰ مصادر كلام عمّار. وورد فيه كلام مفصّل يدور حول حكاية أُخرىٰ موضوعة نقلتها بعض المصادر حول الكنية المذكورة.

أنّ ذلك اليوم كان الآخر من رجب أو الأوّل من شعبان، لكنّهم عزموا في نهاية المطاف على القتال. فقُتل المسؤول عن القافلة، وأُسر اثنان، وتمّ الاستيلاء علىٰ أموال القافلة، وعاد المسلمون إلى المدينة. ولمّا عادوا قال رسول الله ﷺ إنّهم لم يؤذن لهم بالقتال في الشّهر الحرام. حتّىٰ قيل إنّ ما حملته رسالة النّبيّ ﷺ إلىٰ أولئك النفر هو جمع المعلومات وإيصال الأخبار[١]. وتلاوم المشركون بمكّة أيضاً، ونالوا من النّبيّ ﷺ بأنّه هتك حرمة الشّهر بسفك الدماء، والاستيلاء على الأموال.

وهذه المشكلة الطّارئة أدّت إلىٰ أن ينتظر الجميع حكم الله تعالىٰ. ومثلها في السّيرة كثير؛ إذ تطرأ معضلة فينتظر الجميع بما فيهم رسول الله ﷺ حكم الله سبحانه. وكان النّاس حتّىٰ ذلك الحين يخبرون تعظيم الأشهر الحرم ويرعون حرمتها، بيد أنّهم الآن يتساءلون عن رأي الإسلام فيها، وفي القتال خلالها: ﴿**قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ**﴾[٢]. فقد رعى الله تعالىٰ حرمة الشّهر الحرام لكنّه عنّف المشركين الّذين ارتكبوا جرائم أكبر من ذلك. منها أنّهم صدّوا عن المسجد الحرام؛ ومنها أنّهم فتنوا المؤمنين عن دينهم بالأذىٰ والاضطهاد، ومنها ـ وهو أهمّ من ذلك كلّه ـ أنّهم جميعاً على الشّرك. وبشأن المشركين، ما دام الأمر يرتبط بأذاهم وتعذيبهم فلا حرمة في البَين، لكنّهم حين تعرّضوا لحادثة من الحوادث رفعوا عقيرتهم ونادوا بالقانون والحرمة.

وذكرهم الله تعالىٰ في تتمّة الآية المتقدّمة فقال: ﴿**وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَاعُوا**﴾. ثمّ أثنىٰ على المجاهدين من المسلمين فقال سبحانه: ﴿**إِنَّ**

---

(١) *المغازي* ١: ١٦.

(٢) البقرة: ٢١٧. عدّ أرباب السّير والمحدّثون الآية المذكورة نازلةً بشأن سريّة عبد الله بن جحش.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. ويعني هذا أنّهم لمّا كانوا أهل هجرة وجهاد فإنّهم يرجون رحمة الله، والله يغفر لهم خطأهم. ومهما كان فإنّ الآية المذكورة تنبّه علىٰ خطأ المسلمين، وإن عدّت جرم العدوّ أكبر من ذلك الخطأ. فهي هنا قد اتّخذت موقفاً رائعاً من الوجهة الإعلاميّة[1].

وقسم رسول الله ﷺ غنائم هذه الوقعة علىٰ أساس قانون الخمس لأوّل مرّة. وكان قانون المرباع سائداً في الجاهليّة[2]، وهو تخصيص ربع الغنائم لشيخ القبيلة. وأراد النّبيّ ﷺ أن يطلق أسيرين من أسرىٰ العدوّ في مقابل الفدية غير أنّه صبر حتّىٰ عاد اثنان من أصحابه كانا قد انفصلا عن السريّة المذكورة، وبعد أن اطمأنّ علىٰ عودتهما أطلق الأسيرين المذكورين.

ومن المفيد أن نعرف أنّ عبارة «أميرالمؤمنين» أطلقت لأوّل مرّة في هذه الغزوة علىٰ عبد الله بن جحش[3]. ويبدو أنّ هذا هو الموضع الوحيد الّذي يُطلق فيه مثل هذا العنوان علىٰ أمير من الأمراء ـ ولعلّ المسلمين هم الّذين سمّوه به ـ وبعد ذلك حين استوسق أمر الخلافة في عهد عمر، دُعي الخليفة به، وليس له استعمال في إمرة الجيش. ومن الجدير بالذكر ما قيل في فضائل الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أنّ من الألقاب الّتي لقّبه بها رسول الله ﷺ هو هذا اللقب.

---

(١) نقل الغزاليّ الموضوع المذكور في *فقه السّيرة*: ٢٣١، ٢٣٢ بنحوٍ لا يُشمّ منه حصول خطأ. وجاء في نقل الواقديّ ١: ١٤ أنّ حبّ الدنيا هو الّذي دفع المسلمين إلىٰ شنّ الحرب ذلك اليوم. وذهب العلّامة الطّباطبائيّ إلىٰ أنّ الآية المذكورة تدلّ علىٰ أنّ شخصاً إذا قام بعملٍ قربةً إلىٰ الله، وكان خطأً، فإنّه لم يرتكب ذنباً. وتدلّ الآية أيضاً علىٰ وجود المغفرة بدون ارتكاب ذنبٍ ما. ***الميزان*** ٢: ١٩٩. وهذا طبعاً خلاف الظّاهر.

(٢) ***المغازي*** ١: ١٧.

(٣) نفسه ١: ١٩.

العلاقات باليهود إلىٰ ما قبل بدر

وردت في الحلف الّذي ذكرناه آنفاً، بوصفه أوّل دستور وُضع، معايير تحكم العلاقات المتبادلة بين اليهود والمسلمين، بيد أنّ الواضح هو رغبة اليهود عن إقامة علاقات ودّيّة مع المسلمين. لأنّهم شهدوا سيطرة الإسلام علىٰ تلك المناطق جميعها، كما كانوا يرون مستقبلهم مهدّداً بالأخطار؛ هذا أوّلاً، وثانياً إنّ الإسلام من الوجهة الدّينيّة كان ينتقد اليهوديّة ويقدح فيها من الأساس. وقبل ذلك وردت بمكّة آيات كثيرة في قصص الأنبياء وهي توبّخ بني إسرائيل وتعنّفهم علىٰ أعمالهم المشينة حيال الأنبياء. فكيف يسكت اليهود أمام الدّين الجديد الّذي يتحدّاهم؟ وينبغي الالتفات إلىٰ أنّهم كانوا الفرقة الوحيدة الّتي انبرت للإسلام والمسلمين بالجدل الدّينيّ بجدّ. وأشار ابن إسحاق إلىٰ حسدهم بسبب ظهور نبيٍّ بين العرب، وذكر أنّهم كانوا يسألون النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم دائماً من وحي اللجاج والعناد لتلبيس الحقّ بالباطل. ونزلت آيات كثيرة للإجابة عن أسئلتهم[١]. وخصّص كتّاب السِّير بعد الحديث عن الهجرة فصلاً طويلاً للتحدّث عن مواقف القرآن الكريم من اليهود وذلك في بداية كتبهم. وهذا معلم علىٰ أنّ أهمّيّة الموقف من اليهود في رؤية كتّاب السِّيَر القدامىٰ كانت مشهورة ومشهودة منذ بداية الهجرة. وقبل كلّ نقطة حريّ بالعلم أنّ لمّة من اليهود بعدد الأصابع قد اعتنقت الإسلام ومنهم عبد الله بن سلام الّذي كان من يهود بني قَيْنُقاع. وقيل أيضاً إنّ أفراداً آخرين منهم قد اعتنقوه إلّا أنّ إسلام هؤلاء إلّا عبد الله ابن سلام غير ثابت[٢].

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٥١٣.

(٢) انظر: المصدر نفسه ١: ٥٢٧؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٣: ٥٥٨.

وجاء فهرس لمواقفهم الفكريّة والاجتماعيّة الّتي لا تعود إلى الفترة الواقعة بين الهجرة وبدر بالضّرورة، في السّور المدنيّة بخاصّة البقرة الّتي يبدو أنّها أوّل سورة مدنيّة علىٰ ما شاع عنها في الأخبار التّاريخيّة. وورد في الآية التّاسعة والثّلاثين خطاب لبني إسرائيل أن يذكروا نعم الله، ويؤمنوا بما أُنزل وما تصدّقه التّوراة، ولا يلبسوا الحقّ بالباطل، ويذكروا نعم الله وتفضيله إيّاهم على العالمين، وإنجائهم من آل فرعون؛ وتتحدّث الآيات الّتي تلتها عن فرار بني إسرائيل من فرعون، وغرق فرعون، واتّخاذهم العجل، وطلبهم رؤية الله جهرةً، وما منّ الله تعالىٰ به عليهم من النّعم السّماويّة أيضاً.

وجاء استعراض لمواقف بني إسرائيل التّحجّجيّة من موسىٰ عليه السلام في الآيات الّتي تتواصل. قال تعالىٰ على لسانهم: ﴿... **فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا**...﴾ وأدّت هذه الطّلبات إلىٰ أن يبوءوا بالذّلّ والمسكنة وغضب الله. قال سبحانه: ﴿**وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ ٱللهِ**﴾. وهذا مصير قوم كان الله قد اصطفاهم في عصرهم. ثمّ خاطب تعالىٰ أهل الكتاب فقال جلّ من قائل: ﴿**مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ**﴾. وبعد ذلك عرض قصّة البقرة. فيقول موسى: اذبحوا بقرة، وبنو إسرائيل يوجّهون إليه الأسئلة المتواصلة عن سنّها ولونها ومواصفاتها الأُخرىٰ. وهذه الأشياء كلّها تُفضي إلىٰ قسوة قلوبهم.

بعد ذلك يدور الكلام حول تحريف اليهود كلام الله، ونفاقهم. ويُذكَر جهلهم بقوله تعالىٰ: ﴿**وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَابَ**...﴾ ويتلوها قوله: ﴿**فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ ٱللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً**﴾. ثمّ يتناول تولّيهم عن أوامر الله سبحانه القاضية بعبادته وحده، والإحسان إلى الوالدين والفقراء إلّا قليلاً منهم. وحام الكلام بعده حول نزاعاتهم الدّاخليّة وتظاهرهم بالإثم والعدوان، وذُمّوا

لإيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم ببعضه الآخر. ثمّ تحدّث القرآن الكريم عن الأنبياء بعد موسىٰ عليه السلام بخاصّة عيسىٰ عليه السلام، وبعد ذلك خاطب اليهود قائلاً: ﴿**أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ**﴾.

وجاءت قصّة عبادتهم العجل مرّة أخرىٰ في آيات أُخر موصّلة ﴿**وَأُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ**﴾، وبعد جهود موسى عليه السلام ﴿**ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ**﴾. وسُخر من تصوّرهم أنّهم إذا دخلوا جهنّم فلن تمسّهم النّار إلّا أيّاماً معدودة، وأُكِّد أنّهم ﴿**أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا**﴾. وجاء نقضهم للعهود في آيات من هذه السّورة (البقرة)، وطلب الله تعالىٰ منهم مراراً أن يفوا بها. ﴿**أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾.

وتحدّث القرآن الكريم عن رغبة أهل الكتاب في ارتداد المسلمين عن الإسلام، وأنّهم لا يودّون أن ينزل على المسلمين خيرٌ من ربّهم. ومن الطّبيعيّ أنّ اليهود والنّصارىٰ أنفسهم لا يريان أحدهما (الطّرف المقابل) علىٰ حقٍّ ﴿**وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَارَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ**﴾. وورد الخطاب للرّسول ﷺ أنّه ﴿**وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ**﴾. وتتواصل هذه الموضوعات حتّى الآية الثّانية والعشرين والمئة الّتي يتكرّر فيها ما جاء في الآية التّاسعة والثلاثين أن ﴿**يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِىَ ٱلَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ**﴾. وينتهي البحث. وكان عسيراً على اليهود تحمّل مثل هذا الموقف الّذي يعدّ نوعاً من الفضيحة التّاريخيّة لبني إسرائيل واليهود، إذ كشف عن سجاياهم الفكريّة والأخلاقيّة بهذا النّحو المذكور، بخاصّة في كتاب مقدّس كالقرآن الّذي يحفظ أهل المدينة آياته ويكرّرونها. وهكذا فاليهود، بغضّ النّظر عن عهدهم مع رسول الله ﷺ، لم يرعووا عن هجومهم الفكريّ. وحينما اصطدمت سريّة عبد الله بن جحش بقريش لأوّل مرّة في آخر رجب، وقُتل رجلٌ من قريش طفقوا يطعنون

ويقدحون ويستفزّون الآخرين. وقالوا: قُتِلَ حضرميّ من قريش، أي: «حضرت الحرب». وهذا تطيّر بالنسبة إلى المسلمين[١].

تغيير القبلة واعتراض اليهود

كان طعنهم الآخر في قبلة المسلمين، وأُشير إليه في سورة البقرة أيضاً. ونقرأ في الآية الرابعة والأربعين والمئة من السورة المذكورة كلاماً عن اليهود وأهل الكتاب مرّة أخرىٰ. وأوّل ما نلحظ هو أنّ رسول الله ﷺ كان قلقاً من طعن اليهود في هذا المجال إذ لِمَ يصلّي إلىٰ قبلتهم وهي محلّ الصّخرة من بيت المَقدس؟ وهذا ما ولّد نوعاً من الامتعاض في نفسه المقدّسة ﷺ. قال تعالىٰ: **﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾**[٢]. وتغيير القبلة هذا كان لطعن اليهود علىٰ رسول الله ﷺ إذ قالوا: «يخالفنا ويصلّي إلىٰ قبلتنا»[٣]. وكَبُر عليهم تغييرها من بيت المَقدس، ـ اتّجاه الشّام شمال المدينة ـ إلى الكعبة في الجنوب. وقلقوا هذه المرّة لأنّ ذلك نكسة لهم، واستقلالاً للمسلمين. بيد أنّهم في الوقت نفسه طعنوا على المسلمين أيضاً بسبب تغيير قبلتهم. **﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَاءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم﴾**. ومضافاً إلىٰ رغبة الرّسول ﷺ في تغيير القبلة ـ وهو ما صرّحت به الآية ـ أنّ الله سبحانه جعل السّبب واحداً أيضاً **﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾**. ومن المحتمل أنّ الآية تشير إلى المنافقين الّذين كانوا بين المسلمين إذ فاهوا

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٦٠٤. (٢) البقرة: ١٤٤.

(٣) *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٣: ٥٣٨.

بالاعتراض، وحاكوا اليهود في هزئهم بتغيير القبلة من الشّمال إلى الجنوب. ويمكن لهذا الكلام أن يهدّئ أولي الشّكّ أيضاً ويحول دون اعتراضهم علىٰ تغيير القبلة. وتحويل القبلة بوصفها محور العبادة الأصليّة وهي الصّلاة يمكن أن يبعث على الشّكّ طبيعيّاً، فلا بدّ من رفعه بنحو من الأنحاء. قال سبحانه: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾[1] (يعني تغيير القبلة). وخاطب نبيّه ﷺ أيضاً قائلاً: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾[2] وجاء في الآية التّاسعة والأربعين والمئة قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَبِّكَ﴾. وورد في الآية الخمسين والمئة قوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾.

وكان اليهود راغبين في رجوع قبلة المسلمين إلىٰ بيت المقدس. من هنا جاء عدد من كبرائهم إلىٰ رسول الله ﷺ وطلبوا منه ذلك، وقالوا له إنّه إذا فعل فسيتّبعونه[3]. قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ ٱلظَّالِمِينَ﴾[4].

وطُمئِنَ المؤمنون أيضاً أنّ أعمالهم السّابقة لا تضيع بتغيير القبلة، ومن ثمّ ما كانت هناك حاجة إلى الإعادة.

وحدثت هذه الواقعة بعد مضيّ ستّة عشر أو سبعة عشر شهراً على الهجرة. وهي تدلّ علىٰ تأزّم العلاقات بين المسلمين واليهود. وفي سياق ذلك حريّ بالعلم أنّ تغيير القبلة إلى الكعبة كان لافتاً لنظر العرب في شبه الجزيرة، إذ كانوا يقيمون وزناً خاصّاً للكعبة. علماً أنّ الإسلام كان قد طرح اعتبار الكعبة في السّور المكّيّة، بل في سورة

---

(١) البقرة: ١٤٣. (٢) البقرة: ١٤٧.

(٣) *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٣: ٥٤١. (٤) البقرة: ١٤٥.

البقرة نفسها قبل الآيات المذكورة، بيد أنّ أرضيّة جديدة قد تمهّدت لاستقطاب العرب من خلال جعلها قبلةً[١].

وهكذا اتّسعت الشُّقّة بين المسلمين واليهود، وحين أسلم بعض اليهود ككعب الأحبار كانوا يحاولون أن يجعلوا لبيت المقدس فضيلة أكثر من الكعبة. وهذا أنكره أئمّة الشّيعة عليهم السلام بوصفهم حفّاظ السّنّة الإسلاميّة الأصيلة[٢]. كما أنّ هذا التّوجّه لا ينسجم مع الآيات القرآنيّة الكثيرة بشأن الكعبة. وجاء شخص إلىٰ رسول الله ﷺ في فتح مكّة وأخبره أنّه نذر أن يصلّي في بيت المقدس بعد فتح مكّة. فأمره أن يصلّي عند الكعبة لأنّ ثوابها أكثر.

معركة بدر

كانت أوّل مواجهة جادّة للمسلمين مع قريش في يوم الجمعة السّابع عشر من شهر رمضان السّنة الثّانية للهجرة ببدر[٣]. ولا جرم أنّنا ينبغي أن نعدّها من أعظم الحوادث في عصر صدر الإسلام. فقد كانت قافلة قريش تحمل أموالاً طائلة ساهم

---

(١) هذا احتمال طرحه بعض المفسّرين إذ رغب رسول الله ﷺ في تغيير القبلة لنزوعٍ خاصٍّ في نفسه الشّريفة إلى استقطاب العرب وإسلامهم. انظر: *مجمع البيان* ١: ٢٢٧.

(٢) ذهب الإمام الباقر عليه السلام إلىٰ كذب الخبر الّذي نقله كعب الأحبار إذ نقل أنّ الكعبة تسجد لبيت المقدس كلّ صباح. انظر: *الكافي* ٤: ٢٣٩؛ *بحارالأنوار* ٤٦: ٣٥٤.

(٣) تقع المنطقة المذكورة الّتي شيدت فيها مدينة الآن علىٰ بعد (١٥٥) كيلومتراً عن المدينة، و(٣١٠) كيلومترات عن ساحل البحر الأحمر، وهي بعيدة الآن عن الطريق العامّ الّذي يربط المدينة بمكّة. قيل سمّيت بذلك على اسم «بدر بن مخلد»، وقيل «بدر بن حارث». وأنكرت قبيلة بني غفّار ملكيّتها لأحد إلّا لها، ولم تجد اسمها مأخوذاً من اسم شخصٍ معيّن، بل ترىٰ أنّ بدراً اسم فحسب. انظر بهذا الشّأن: *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٤: ١٢٠.

فيها رجالهم ونساؤهم جميعاً[١]، وهي تقصد الشّام، منطقة غزّة[٢]. ولمّا تحرّكت، علم رسول الله ﷺ بخبرها، وكان يترصّدها ليعترض طريقها[٣]. من هنا كلّف عدداً من أصحابه ليجمعوا الأخبار حول مسيرها. وعندما بلغه اقترابها شدّ الرّحال. وكان أبو سفيان يدرك الخطر، فأشخص من تبوك رجلاً إلىٰ مكّة ليدعو قريشاً إلىٰ حماية أموالها. وقيل: إنّه علم بتأهّب المسلمين لمهاجمتها حين كان بالشّام[٤]. بيد أنّ من المحتمل هو أنّه لم يكن لديه خبر دقيق عنها، لذا عندما رجع جاء حتّىٰ وصل قريباً من عين بدر أيضاً. وقبل قدوم ضمضم الغفاريّ موفداً من قبله رأت عاتكة بنت عبد المطّلب رؤيا. فقالت إنّها رأت رجلاً جاء مكّة ونادىٰ أيّها النّاس! أنتم تنفرون إلى مصارعكم بعد ثلاثة أيّام. وكرّر ذلك ثلاثاً، ووقف على الكعبة وجبل أبي قبيس وصاح، ثمّ ألقىٰ صخرةً دخلت ذرّاتها دور قريش كلّها إلّا بني هاشم وبني زهرة. ففزع أبو جهل حين سمع الرّؤيا، وقال: «يا بني عبد المطّلب، أما رضيتم أن يتنبّأ رجالكم حتّىٰ تتنبّأ نساؤكم»[٥]! وهو الّذي قال حين اعترضه رجل من بني هاشم: «إنّا استبقنا المجد وأنتم فقلتم: فينا السّقاية... فينا الرفادة... قلتم: منّا نبيّ... لا كان هذا أبداً... إنّي جحدتُ ذلك»[٦]. ودوّت صيحات ضمضم بن عمرو الغفاريّ للاستغاثة في اليوم الثّالث من رؤيا عاتكة بمكّة. فعمّ الخوف قريشاً مشوباً بخلافاتٍ ظهرت بينها، وتغلّب عليها أبو جهل. وكان الاستقسام بالأزلام من نوعه الجاهليّ

---

(١) تقدّر بخمسين ألف دينار (سكّة ذهب). وجاء في خبر آخر: «وكانت العير ألف بعير». *أنساب الأشراف* ١: ٢٨٨.

(٢) *المغازي* ١: ٢٨.

(٣) نفسه.

(٤) *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ١٢، ١٣.

(٥) *المغازي* ١: ٢٩، ٣٠؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٦٠٧، ٦٠٨؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٤: ٣٢ـ٣٤.

(٦) *المغازي* ١: ٣٠.

يعبّر عن كراهة التّوجّه إلىٰ هذا السّفر[١]. بيد أنّ المكّيّين اضطرّوا إلى الخروج دفاعاً عن أموالهم. وبعضهم أُرغم على ذلك؛ وكلّ من لم يخرج يبعث مكانه أحداً علىٰ نفقته.

وينبغي الالتفات إلىٰ أنّ مهاجمة المسلمين للقافلة والاستيلاء عليها، مضافاً إلىٰ بعدها المادّيّ، تمسّ كرامة قريش؛ إذ يُفهم منها أنّ محمّداً ومعه عدد من الفتيان الّذين صبأوا ـ اصطلاح كان المشركون يطلقونه على المسلمين ـ قد غلبوا قريشاً[٢]. بخاصّة أنّ أموالاً لها قد وقعت بيده قبل فترة، فلم ترد أن يتكرّر مثلها[٣]. وتأهّبت قريش سريعاً. وتبرّع كثير من كبرائها بأموال طائلة لتجهيز الجند، وعبّأت جيشاً لذلك[٤]. ورضي أبو لهب الّذي كان قد أفزعته رؤيا عاتكة أن يرسل أحداً مكانه بعُسرٍ وصعوبةٍ، فذهب الموفَد لدَينٍ عليه لأبي لهب[٥]. وذُكر «عدّاس» النّصرانيّ الّذي كان غلاماً لعتبة وشيبة، ونهاهما عن قتال محمّد ﷺ، لكنّهما ذهبا وقُتلا، وهو نفسه مُني بنفس المصير[٦]. علىٰ أيّ حال كان أهل الرأي من قريش فزعين من الذّهاب علىٰ حدّ تعبير الواقديّ، إلّا أنّ الّذي يبدو هو أنّهم لا حيلة لهم إلّا الخروج، بخاصّة أنّهم كانوا متّهمين بالجُبن دائماً[٧]. وهذا ما لا تطيقه الرّوح العربيّة القبليّة. وتحدّث أرباب السير في موضوع خروج قريش عن دور الشّيطان مراراً إذ ظهر في صورة سراقة بن جُعشم المُدلجيّ وحثّ قريشاً على الخروج[٨]. وسقنا الكلام قبل ذلك حول مثل هذه

---

(١) *المغازي* ١: ٣٣، ٣٤. (٢) نفسه ١: ٣٢؛ *سبل الهدىٰ والرشاد* ٣: ٣٥.

(٣) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٦٠٩؛ *سبل الهدىٰ والرشاد* ٢: ٣٥.

(٤) *أنساب الأشراف* ١: ٢٩٢. (٥) *المغازي* ١: ٣٣.

(٦) قال الواقديّ إنّه لم يشهد بدراً مع أنّ خبراً آخر يذكر هلاكه في تلك الواقعة. وكان عدّاس من أهل الكتاب الّذين حامت حولهم بعض الأخبار الموضوعة. *المغازي* ١: ٣٥.

(٧) *أنساب الأشراف* ١: ٢٩٢. ولمّا اتّهم أميّة بن خلف الّذي كان بديناً ولم يرغب في الخروج بأنّه كالنساء خرج مكرهاً. انظر: *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٦١٠.

(٨) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٦١٦.

الأخبار في السّيرة عند حديثنا عن التّحريف في تدوين السِّيرة.

وتحرّك عسكر قريش وقوامه قرابة تسعمائة وخمسين مقاتلاً مجهّزاً بكافّة الإمكانيّات، وأصحاب الدفوف والطّبول. وغنّت قيانهم في الطّريق. واصطحبوا معهم الأحابيش يتقاذفون بالحراب لتحريض الجيش[١]. وكان أبو جهل واثقاً من النصر، وهو يقول: أيظنّ محمّد أن يُصيب منّا ما أصاب بنخلة ـ قضيّة سريّة عبد الله بن جحش ـ وأصحابُه[٢]؟!

من جهة أُخرىٰ تحرّك رسول الله ﷺ من المدينة في الثّاني عشر من رمضان بعد أن بلغه خبر اقتراب القافلة، وتوقّف في محلّة السُّقيا قرب المدينة لتنظيم الجيش. وتخلّف عنه عدد من المسلمين. يقول الواقديّ: تخلّف عنه كثير من الصّحابة وكرهوا الخروج معه. «وكان فيه كلام كثير واختلاف. وكان من تخلّف لم يُلَمْ! لأنّهم ما خرجوا علىٰ قتال، وإنّما خرجوا للعِير»[٣]. مع هذا يُستشفّ من القرآن الكريم أنّ عدداً منهم تخلّف لأسباب أخرىٰ. قال تعالىٰ: ﴿**كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ**﴾[٤]. وهذا التّمثيل يدلّ علىٰ أنّ كُره بعضهم بلغ ذروته إذ يسيرون متباطئين.

ووقف ﷺ في السّقيا متأمّلاً؛ وكان اسمها قبل ذلك «حُسَيْكة»، وغيّر النّبيّ ﷺ اسمها، وسمّاها السُّقيا[٥]. وهذا ما كان فعله ﷺ في تغيير أسماء الأشخاص أيضاً، فقد

---

(١) *المغازي* ١: ٣٩. في النّسخة البدل: «جيش»، مكان «حبش»، وهي ما رجّحناه علىٰ ما في النّسخة البدل.

(٢) نفسه.

(٣) *المغازي* ١: ٢١؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ١٢ (أبطأ عنه بَشَرٌ كثير).

(٤) الأنفال: ٥، ٦.

(٥) *المغازي* ١: ٢٣. لمّا حججنا سنة ١٤١٤ هـ وزرنا المدينة، ذهبنا ذاتَ يومٍ إلىٰ مسجد السُّقيا. وكان ⇐

استبدل الأسماء الجميلة بالأسماء القبيحة[١].

وعرض ﷺ المقاتلة واحداً واحداً، فردّ صغار السّنّ الّذين لا يتناسب سنّهم والحرب إلى المدينة. وفيهم عبد الله بن عمر، وأُسامة بن زيد، وزيد بن أرقم، وآخرين غيرهم. وكان عمير بن أبي وقّاص يتوارىٰ لئلّا يُرْجَعَ وهو ابن ستّ عشرة سنةً. ثمّ «عُرض علىٰ رسول الله ﷺ فاستصغره، فقال: ارجع! فبكىٰ، فأجازه رسول الله ﷺ... فقُتل ببدر[٢]. وأمر ﷺ أن يَعُدُّوا الجيش[٣]، ومن ثمّ تحرّك المسلمون بأقلّ الإمكانيّات، بحيث جلس كلّ ثلاثة علىٰ جملٍ واحد، حتّىٰ جلس النّبيّ ﷺ وعليّ بن أبي طالب، ومَرْثد (أو زيد بن حارثة) علىٰ جمل واحد أيضاً[٤].

وكان الجيش كلّه يمتلك حصانين أحدهما للمقداد، والآخر لمرثد بن أبي مرثد الغنويّ. وتحرّك النّبيّ ﷺ مرحلةً مرحلةً حتّىٰ وصل إلىٰ عرق الظبية في الرّابع عشر من شهر رمضان. وهو المكان الّذي كان يبعد عن «الروحاء» (الّتي كانت تبعد عن المدينة ٧٥ كيلومتراً) قرابة ثلاثة كيلومترات، وهو موضع لاستراحة القافلة.

⇐ واقعاً في ساحة محطّة السّكك الحديديّة القديمة بالمدينة المنوّرة. ومن المؤسف أنّه قد أُهمل تماماً حتّىٰ غدا كمزبلة.

(١) *تاريخ أبي ذرعة الدمشقيّ* ٢: ٦٣٥؛ *المغازي* ١: ٨٢. ونقلت حكاية بهذا الشّأن مفادها أنّ اسم عبد الرحمٰن بن عوف قبل الإسلام كان عبد عمرو، وعندما أسلم سمّىٰ نفسه عبد الرحمٰن. ولمّا كان المشركون يكرهون كلمة «رحمان» فقد امتنعوا عن مناداته بهذا الاسم، ومنهم أميّة بن خلف الّذي كان صديقه إذ كان يخاطبه باسمه القديم ولم يجبه، إلىٰ أن خاطبه بآسم عبد الإله فأجابه. وكان المشركون يعتقدون بالإله في الجاهليّة. انظر: *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٦٢٣.

(٢) *المغازي* ١: ٢١.

(٣) نفسه ١: ٢٦. وجاء في كتاب *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٤: ٤٠ أنّ الصّحابة لمّا عُدّوا كانوا ثلثمائة وثلاثة عشر. فسُرّ رسول الله ﷺ حين سمع العدد، وقال: بعدد أصحاب طالوت.

(٤) *المغازي* ١: ٢٤؛ *أنساب الأشراف* ١: ٢٨٩؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٦١٣؛ *سبل الهدىٰ والرشاد* ٤: ٣٩.

وأشخص اثنين من أصحابه إلىٰ عين بدر للاستطلاع. فعلما من كلام دار بين بنتين أنّ القافلة بلغت الروحاء فعادا مسرعين. وكان أبو سفيان الّذي أصابه ذعر شديد يستخبر مجدي بن عمرو عن جيش محمّد ﷺ إذ كان يسكن هناك. وقد توقّع وجود المبعوثين من جيشه ﷺ قريباً منهم وذلك عبر ما شاهده من فضلات جَمَلَيْهما اللذين كانا يحملان نوىٰ التمر ـ وهو معلَم علىٰ أنّهما من أهل المدينة ـ لذا سرعان ما عاد إلى القافلة ووجّهها من منطقة بدر إلىٰ ساحل البحر، فابتعد عن مرمى المسلمين تماماً[١].

وبعد أن أفلتت القافلة من تهديد المسلمين بعث أبو سفيان إلىٰ قريش من يُبلغها نجاة القافلة فلا تعرّض نفسها للقتل علىٰ يد أهل يثرب. لكنّ أبا جهل رفض الرّجوع، ويبدو أنّ كلّ شيءٍ كان يتهيّأ لحرب شاملة بين أهل مكّة ومسلمي المدينة بإصراره. علماً أنّ النساء أُرجعت بطلب أبي سفيان لئلّا تصيب قريشاً فضيحة أُخرىٰ إذا هي هُزمت!

وأصرّ أبو جهل علىٰ ذهاب الجيش حتّىٰ بدر؛ إذ كانت هذه المنطقة موسماً من مواسم الجاهليّة يجتمع فيها العرب، ولها بها سوقٌ أيضاً[٢]. وقال: «نقيم ثلاثاً علىٰ بدر ننحر الجُزُر، ونُطعم الطّعام، ونشرب الخمر، وتعزف القيان علينا، فلن تزال العرب تهابُنا أبداً»[٣]. ثمّ تعرف جميع القبائل مقاومتهم وبسالتهم أمام أهل المدينة، وترىٰ عظمتهم. ورجع بعضهم على الرغم من إصرار أبي جهل الّذي سمّاه رسول الله ﷺ فرعون الأُمّة[٤]. وبان بنو زُهرة ـ الّذين قيل إنّهم كانوا قرابة مئة ـ عن

---

(١) *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٤: ٤٦. (٢) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ١٣.

(٣) *المغازي* ١: ٤٤؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٦١٨، ٦١٩.

(٤) *المغازي* ١: ٤٦؛ *أنساب الأشراف* ١: ٢٩٨؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٤: ٧٩، ٨٠ (إنّ لكلّ أمّة فرعوناً وفرعون هذه الأمّة أبو جهل).

قريش بحيلةٍ خاصّة وعادوا إلىٰ مكّة. وقالوا إنّهم جاءوا للذّود عن القافلة. ورفضوا أن يشاركوا في قتل ابن أُختهم ـ لأنّ أمّ النّبيّ ﷺ كانت منهم ـ حتّىٰ لو لم يكن نبيّاً[١]. يقول الشّاميّ: شهد هذه الوقعة اثنان من أعمام مسلم بن شهاب الزّهريّ وقُتلا علىٰ كفرهما[٢]. وقيل إنّ بنيٖ عَديّ بانوا عن قريش أيضاً وتوجّهوا نحو ساحل البحر ولقوا أبا سفيان بالظّهران. وذكروا أنّهم رجعوا بأمر أبي سفيان[٣].

وعندما كان رسول الله ﷺ عازماً على المسير إلىٰ بدر، رأى اثنين من المشركين كانا يرافقانه. أحدهما خُبيب بن يساف[٤]، والآخر قيس بن محرّث. فسألهما عمّا أخرجهما معه. فقالا: أنت ابن أُختنا ـ من بني النّجّار ـ وجارنا، وخرجنا مع قومنا للغنيمة. فقال ﷺ: «لا يخرجنّ معنا رجلٌ ليس علىٰ ديننا». فتحدّثا عن شجاعتهما، فلم يقبل منهما ذلك حتّىٰ أسلم خُبيب. ورجع قيس بن محرّث، ثمّ أسلم بعد ذلك وشهد أُحداً واستُشهد فيها[٥]. والنّقطة الأُخرىٰ هي أنّ رسول الله ﷺ أفطر لكنّ جماعة لم يفطروا حتّىٰ نادىٰ مناديه: يا معشر العُصاة إنّي مفطرٌ فأفطِروا. وذلك أنّه قد كان قال لهم قبل ذلك: «أفطروا» فلم يفعلوا[٦]! وهذا خبر طريف للتعرّف علىٰ شخصيّة الصّحابة.

وبلغ المسلمين أثناء سيرهم تلقاء بدر توجّه قريش نحوها. وكانوا لا يعلمون بخبر ابتعاد القافلة. مع هذا انقلب الوضع تماماً بسماعهم الخبر. وكانوا يتهيّأون لمهاجمة القافلة، فهل بمقدورهم الصّمود الآن أمام جيش مسلّح يفوقهم ثلاثة أضعاف؟

---

(١) *المغازي* ١: ٤٤، ٤٥. (٢) *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٤: ٤٧.

(٣) حول رجوع بني زهرة وبني عديّ، انظر: *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ١٤؛ *أنساب الأشراف* ١: ٢٩١؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٦١٩. (٤) ويقال أيضاً: إساف.

(٥) *المغازي* ١: ٤٧؛ *أنساب الأشراف* ١: ٢٨٨؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٤: ٣٨.

(٦) *المغازي* ١: ٤٧، ٤٨؛ *أنساب الأشراف* ١: ٢٩٢، ٢٩٣.

فليس من قتالٍ في مهاجمة القافلة، لكنّهم الآن أمام حربٍ أيّ حربٍ. وعزم رسول الله ﷺ علىٰ أن يسأل أصحابه عن استعدادهم للقتال في مثل هذه الظّروف. يقول الواقديّ: قام أبو بكر وقال وأحسن (ولم ينقل أحد ماذا قال)[١]. ثمّ قام عمر و قال: يا رسول الله! إنّها قريش وعزّها، والله ما ذلّت منذ عزّت، وما آمنت منذ كفرت، والله لا تُسلم عزّها أبداً، ولتُقاتلنّك. فاتّهب لذلك أُهبته وأعدّ لذلك عدّته! وهذا الكلام الّذي نقله الواقديّ وغيره[٢] يُنبئ عن ذُعرٍ ووعيد أيضاً. ولعلّه هو الّذي دفع ابن إسحاق إلىٰ أن يكتفي بقوله: «فقال وأحسن»[٣]! ثمّ قام المقداد بن عمرو وقال: يا رسول الله، امض لأمر الله فنحن معك. والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لنبيّها: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾[٤]، ولكن اذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون[٥].

ثمّ التفت ﷺ إلى النّاس وقال: «أشيروا عليّ أيّها النّاس». وكان خطابه موجّهاً إلى الأنصار أساساً، لأنّه كان يظنّ أنّهم ينصرونه في دارهم فحسب عملاً بما تعهّدوا به في بيعة العقبة الثّانية. فقد جاء فيه: «إنّا برآءٌ من ذمامك حتّىٰ تصل إلىٰ دارنا، فإذا وصلتَ إلينا فأنت في ذمّتنا، نمنع منك ممّا نمنع منه آباءنا ونساءنا»[٦].

---

(١) جاء في **صحيح مسلم** أنّ أبا بكر تكلّم وأعرض عنه النّبيّ ﷺ، وتكلّم عمر وأعرض عنه أيضاً. انظر: ***سبل الهدىٰ والرّشاد*** ٤: ١٢١؛ **صحيح مسلم** ٢: ٨٤.

(٢) ***سبل الهدىٰ والرشاد*** ٤: ٤٢.

(٣) ***السّيرة النّبويّة***، ابن هشام ١: ٦١٥.

(٤) المائدة: ٢٤. وهذه السّورة هي آخر ما نزل من القرآن. ولم يستبنْ كيف قرأ المقداد الآية المذكورة قبل وقعة بدر في السّنة الثّانية للهجرة، اللّهمّ إلّا أن يكون قد سمع القصّة بنحو من الأنحاء، وذكر مضمونها. وحريّ بالذكر أنّ أرباب السِّيَر نقلوا كلامه هذا نفسه في صلح الحديبيّة أيضاً. ويبدو أنّه فيها أصوب من الّذي قبله. انظر: ***المصنّف***، ابن أبي شيبة ٧: ٣٨١.

(٥) ***المغازي*** ١: ٤٨؛ ***أنساب الأشراف*** ١: ٢٩٣؛ ***سبل الهدىٰ والرّشاد*** ٤: ٤٢.

(٦) ***السّيرة النّبويّة***، ابن هشام ١: ٦١٥.

وذكر أرباب السِّيَر أنّه ﷺ لم يستعن بأحد من الأنصار في الحروب قبل ذلك[١].

وبالنظر إلىٰ هذا الأمر يتبيّن أنّ تعبير «أشيروا» أو «استشار» الّذي أورده ابن سعد لم يُصطَلح عليه بمعنى المشورة، بل هو لرفع مشكلة مع الأنصار، وإن كانت المشورة عملاً محموداً في جميع الأُمور ولاسيّما أمر الحرب الّذي ينوء الناس بعبئه الأكبر، وكانت مواطن استشارته ﷺ في الحروب أيضاً. وفطن سعد بن معاذ للأمر، فقال: «أنا أُجيب عن الأنصار؛ كأنّك يا رسول الله تريدنا! قال: أجل. قال: إنّك عسىٰ أن تكون خرجت عن أمر قد أُوحي إليك في غيره، وإنّا قد آمنّا بك وصدّقناك، وشهدنا أنّ كلّ ما جئتَ به حقّ، وأعطيناك مواثيقنا وعهودنا على السّمع والطّاعة؛ فامضِ يا نبيّ الله، فو الّذي بعثك بالحقّ لو استعرضتَ هذا البحر فخُضته لخضناه معك»[٢]. وأعلن سعد بكلامه هذا ـ المفصّل في المصادر المعنيّة ـ عن استعداد الأنصار التامّ للتضحية بأنفسهم وأموالهم. ثمّ قال: «إنّا قد خلّفنا من قومنا قوماً ما نحن بأشدّ حبّاً لك منهم... ولو ظنّوا يا رسول الله أنّك ملاقٍ عدوّاً ما تخلّفوا...»[٣]. ولمّا فرغ من كلامه أمر النّبيّ ﷺ بالسّير وقال: «... فإنّ الله قد وعدني إحدى الطّائفتين»[٤].

وهنا رفرفت راية الحرب فحسب. وذكر أرباب السّير مسير حركة النّبيّ ﷺ منطقة منطقة[٥]. ووصل ﷺ إلىٰ منطقة بدر ليلة الجمعة السّابع عشر من رمضان. وكانت المسافة بين المسلمين والمشركين تلالاً من الرمل. وكانوا لا يعلمون بوجود

---

(١) *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ١٢.

(٢) *المغازي* ١: ٤٩؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٦١٥.

(٣) نفسه. (٤) نفسه.

(٥) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ١٣؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٦١٣، ٦١٤؛ *سبل الهدىٰ والرشاد* ٤: ٤١.
سقيا، تُربان، عرق الظبية، سَجْسج وهي بئر الروحاء نفسها، نازية، وادي رحقان، مضيق الصّفراء، وادي ذفران، ثنية الأصافر، الدبّة، بدر.

كلٍّ منهما في منطقة واحدة. والتقىٰ رسول الله ﷺ بسفيان الضّمريّ في الطّريق. وسأله عن عسكر قريش وعسكر محمّد ﷺ بدون أن يعرّفه نفسه. فقال: بلغني أنّ قريشاً خرجت يوم كذا وكذا من مكّة. فإنْ كان الذي أخبرني صادقاً فإنّهم بجنب هذا الوادي. وذكر أيضاً أنّه بلغه أنّ محمّداً وأصحابه خرجوا من يثرب يوم كذا وكذا، فإن كان المخبِر صادقاً فهم بجانب هذا الوادي. ومن الطّريف أنّه ﷺ كان قد تعهّد للرجل المذكور أن يجيب عن أسئلته أيضاً في مقابل إجابته عن أسئلته ﷺ. فسأل سفيان: فمن أنتم؟ فقال ﷺ: نحن من ماء. وأشار بيده نحو العراق، أي: الشّمال حيث كانت المدينة في ذلك المسير[1]!

وذهب عليّ عليه السلام، والزّبير، وسعد بن أبي وقّاص إلىٰ بئر بالظُّرَيب يتحسّسون على الماء. فأسروا اثنين من سُقّاء قريش. وفرّ أحدهما وأخبر قريشاً عن وجود الجيش الإسلاميّ لأوّل مرّة. وكان أسر هذين السقّاءَين أوّل ضربةٍ تتلقّاها قريش، ويضاف إليه أنّه زوّد المسلمين بمعلوماتٍ عن وضع العدوّ. وذكر الواقديّ أن ذعراً شديداً سيطر علىٰ قريش في تلك اللّيلة المطيرة. وإنّما كان أبو جهل يسعىٰ أن يصوّر الوضع طبيعيّاً، والنّصر على المسلمين ميسّراً. ولمّا أُتي بالسقّاءَين إلى النّبيّ ﷺ كان مشغولاً بالصّلاة. وكان المسلمون ينوون أن يحصلوا منهما علىٰ خبر القافلة، لكنّهما قالا إنّهما من قريش. فكرهوا ذلك ولم يرغبوا في سماعه ظانّين أنّهما يكذبان فطفقوا يضربونهم. وفرغ النّبيّ ﷺ من صلاته، وصدّق كلامهما وأمر المسلمين ألّا يؤذوهما. وحين علم ﷺ بخبر قريش قال: «هذه مكّة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها»[2].

وسأل الحباب بن المنذر رسول الله ﷺ قائلاً: «يا رسول الله، أرأيتَ هذا المنزل،

---

(١) **المغازي** ١: ٥٠؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٦١٦؛ ***سبل الهدىٰ والرّشاد*** ٤: ٤٤.

(٢) **المغازي** ١: ٥٣؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٦١٧؛ ***سبل الهدىٰ والرّشاد*** ٤: ٤٤، ٤٥.

أمنزل أنزلكه الله... أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأي، والحرب، والمكيدة... ثمّ قال الحباب: انطلق بنا إلىٰ أدنىٰ ماء القوم... بها قليب قد عرفت عذوبة مائه... ثمّ نبني عليها حوضاً ونقذف فيه الآنية، فنشرب ونقاتل...»[١].

ووقع رأيه موقع القبول، فتوقّفوا عند القليب. وكان بين الفريقين تلّ من الرّمل[٢]. وفي تلك الليلة أخذ المسلمين نعاسٌ فناموا نوماً مريحاً حتّى الصّباح كما صرّح القرآن الكريم بذلك. يقول الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام: نام الجميع تلك الليلة إلّا رسول الله ﷺ فقد كان منشغلاً بالصّلاة تحت شجرة حتّى الفجر[٣].

ويدلّ خبر إرسال عمّار بن ياسر وعبد الله بن مسعود اللذين أطافا بالقوم عن اضطراب قريش اضطراباً تامّاً حتّىٰ إنّهم لم يتحمّلوا سماع صهيل خيولهم إذ كانوا يضربونها لتسكت. ومع أنّهم نحروا عشر جزائر وشووها لكنّهم لم يجرُؤا علىٰ أكلها من الخوف وباتوا جائعين[٤]. وقام رسول الله ﷺ بتنظيم الصفوف في أوّل الصّباح حتّىٰ أقبلت قريش. وقيل إنّ لواء المهاجرين في تلك الوقعة كان بيد مصعب بن عمير. كما كانت رايتان، حمل الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام إحداهما، وتدعىٰ «عقاب»؛ وحمل الأخرىٰ رجل من الأنصار[٥]. وجاء في خبر آخر أنّ المعروف هو انّ لواء المهاجرين في بدر كان بيد عليّ بن أبي طالب[٦]. واستدبر المسلمون الشّمس مواجهين مغربها، فاضطرّت قريش إلى استقبالها مواجهة مشرقها.

---

(١) **المغازي** ١: ٥٣، ٥٤؛ ***الطّبقات الكبرىٰ*** ١: ١٥؛ ***السّيرة النّبويّة***، ابن هشام ١: ٦٢٠؛ ***سبل الهدىٰ والرشاد*** ٢: ٤٨، ٤٩.

(٢) ***الطّبقات الكبرىٰ*** ١: ١٥. (وإنّما بينهم قَوز من الرّمل).

(٣) ***سبل الهدىٰ والرّشاد*** ١: ٤٨. (٤) ***المغازي*** ١: ٥٥.

(٥) ***السّيرة النّبويّة***، ابن هشام ١: ٦١٢، ٦١٣؛ ***سبل الهدىٰ والرّشاد*** ٤: ٣٩.

(٦) ***سبل الهدىٰ والرّشاد*** ٤: ٣٩.

وضرب رسول الله ﷺ بطن سوّاد بن غزيّة بعصاه أثناء تسوية الصّفوف، فعتب عليه من الألم وطلب القصاص، فرفع ﷺ قميصه وقال له: استقد. فقبّل سوّاد بطنه ﷺ مكان القصاص[١]. وورد في خبرٍ أنّ أبا بكر كان على الميمنة، وآخر كان على الميسرة؛ وفي جيش المشركين أيضاً...، في حين ينصّ الواقديّ علىٰ أنّه ما كان علىٰ ميمنته ﷺ يوم بدر ولا علىٰ ميسرته أحد يسمّىٰ؛ وكذلك ميمنة المشركين وميسرتهم[٢]. وحريّ بالعلم أنّ مثل هذه الأخبار الموضوعة المختلقة لفضائل الأشخاص، بخاصّة الشّخص المذكور في السّيرة كثير. وخطب النّبيّ ﷺ في صبيحة يوم بدر فدعا المسلمين إلى اتّباع الحقّ، وأكّد لهم أنّ الصبر في مثل هذه المواطن العصيبة مفتاح النّجاة ووسيلة يفرّج الله بها الهمّ عن الإنسان وينجّيه بها من الغمّ. ولمّا رأىٰ ﷺ طليعة جيش العدوّ طلب من الله أن ينزل عليه نصره الّذي وعده به[٣].

ويستشفّ من بعض الإشارات التّاريخيّة أنّ قريشاً كانت تروم تدارك ما جرىٰ لها في سريّة عبد الله بن جحش بالنّخلة! وفي الوقت نفسه مرّ بنا أنّها ـ مبدئيّاً ـ لم تطلب حرباً، حتّىٰ إنّ أبا جهل كان يرىٰ أنّ مجيئهم إلىٰ منطقة بدر يستهدف تهديد القبائل. والمشكلة الأخرىٰ الّتي كانت تواجهها قريش هي أنّها لا بدّ لها أن تحول دون هجمات المسلمين علىٰ قوافلها التّجاريّة. من هنا لمّا أعلمها أبو سفيان بنجاة القافلة وطلب منها الرجوع، قال رجالها: لا ندع محمّداً ومن صبا معه أن يتعرّضوا بعد ذلك لأموالنا وتجارتنا[٤]. وكان رسول الله ﷺ أيضاً راغباً في أن لا تقع حرب. من هنا بعث إلىٰ قريش من يخبرها بأن يلي هذا الأمر منه غيرهم أحبّ إليه من أن يلوه منه، فلم يستجب أبو جهل، ولم يَرُق له ترك القتال، وقال: لا نطلب أثراً بعد عين[٥]! وأتى

---

(١) *المغازي* ١: ٥٦، ٥٧؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٦٢٦؛ *سبل الهدىٰ والرشاد* ٤: ٥٥.
(٢) *المغازي* ١: ٥٨.
(٣) نفسه ١: ٥٩.
(٤) *أنساب الأشراف* ١: ٢٩١.
(٥) *المغازي* ١: ٦١.

الماءَ شِرذمةٌ من المشركين، وهمّ بعض المسلمين بتحلئتهم عنه لكنّ رسول الله ﷺ أذن لهم أن يشربوا منه.

وأطاف عمير بن وهب، وهو من المشركين، حول المسلمين لعلّه يرىٰ آخرين منهم غيرهم مختفين في تلك الأنحاء. فلم يجد أحداً. وحين رجع طمأن قريشاً وقال: لا مدد ولا كمين. مع هذا كلّه، ليس للقوم مَنَعَة ولا ملجأ إلّا سيوفهم. ألا ترونهم خُرساً لا يتكلّمون، يتلمّظون تلمّظ الأفاعي؟ والله، ما أرىٰ أن يُقتَل منهم رجلٌ حتّىٰ يَقتُل منّا رجلاً فطلب من قريش أن تتريّث أكثر في حربها مع هؤلاء الرّجال[١]. وذهب أبو سلمة الجشميّ يتقصّىٰ، وكلامه الأصليّ أنّ المسلمين لا يرجعون إلىٰ دورهم مع قلّة سلاحهم، وفيهم من ينتظر الموت فحسب، وقد عوّلوا على سيوفهم.

وتردّد في هذه اللحظة رجال كحكيم بن حزام. وطلب من عتبة بن ربيعة أن يحمل دم مَن قُتل بالنّخلة، وما أصاب المسلمين من العِير فيها، فيحول دون نشوب الحرب[٢]. فوافق عتبة وطلب من قريش أن لا تقاتل، وقال: إن يك محمّد كاذباً يكفيكموه ذؤبان العرب. وإن يك ملكاً أكلتم في ملك ابن أخيكم. وإن يك نبيّاً كنتم أسعد النّاس به[٣]. فاعترضه أبو جهل. ثمّ حرّض عامر بن الحضرميّ أخي المقتول بنخلة ليمنع عتبة بن ربيعة حليفه من الرجوع. وكذلك اتّهم المخالفين بالجُبن، وألقاهم في التهلكة مثيراً العصبيّة العربيّة فيهم[٤].

---

(١) ***الطّبقات الكبرىٰ*** ١: ١٦؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٦٢٢؛ ***سبل الهدىٰ والرشاد*** ٤: ٥١.

(٢) **المغازي** ١: ١٦؛ ***سبل الهدىٰ والرشاد*** ٤: ٥١، ٥٢. يستشفّ من هذا الخبر وأخبار أخرىٰ غيره أنّ وقعة بدر بدأت بإصرار المشركين، وسببها الثأر لحادثة النخلة التي قتل فيها رجل من قريش.

(٣) **المصنّف**، عبد الرزّاق ٥: ٣٥٠.

(٤) **المغازي** ١: ٦٣، ٦٤؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٦٢٢، ٦٢٣؛ ***سبل الهدىٰ والرّشاد*** ٤: ٥٢، ٥٣.

وكان عامر بن الحضرميّ أوّل من حمل على المسلمين، فتكون قريش هي الّتي بدأت الحرب. واشتبك عامر مع أحد المسلمين ـ ويُدعىٰ مهجعاً ـ فقتله. من هنا لا شكّ أنّ قريشاً هي الّتي أصرّت علىٰ هذه الحرب، وهي الّتي بدأتها. وكان مسعارها أبا جهل أيضاً. وأشرنا سابقاً إلىٰ أنّ قريشاً لم ترغب كثيراً في الحرب، ومبدئيّاً لم تكن من أهلها في السّنين الأخيرة من حياتها لانشغالها بالتّجارة ولدورها المعنويّ المتفوّق.

ومهما كان فقد تقدّم العدوّ، ودخل عتبة بن ربيعة ساحة الحرب طالباً مبارزاً، وكان قد تعرّض لطعون قريش الحادّة، وعلىٰ رأسها أبو جهل. وكان على المسلمين ألّا يسلّوا سيوفهم ما لم يحاصرهم العدوّ، وإنّما يتأهّبون للرّمي بقسيّهم[1]. ودنا الأسود بن عبد الأسد المخزوميّ من الحوض وقال: أعاهد الله لأشربنّ من حوضهم، أو لأهدمنّه، أو لأموتنّ دونه... فاستقبله حمزة بن عبد المطّلب، فضربه فأطنّ قدمه، فزحف الأسود حتّىٰ وقع في الحوض، فهدمه برجله الصّحيحة، وشرب منه، وأتبعه حمزة فضربه في الحوض فقتله[2].

وفي ضوء التّقاليد العربيّة كانت الحرب تبدأ بطلب أحد المقاتلين البراز. فبرز ثلاثة من قريش وهم شيبة، وعتبة، وابنه الوليد إلىٰ ثلاثة من بني هاشم. بل سبق هؤلاء ثلاثةٌ من الأنصار. ونقل ابن سعد أنّ رسول الله ﷺ لم يرغب في أن يكون الأنصار طرفاً في أوّل مواجهة مع المشركين. لذا انتدب لأولئك حمزة، وعليّاً عليه السلام، وعبيدة بن الحارث. فقتل حمزة، وعليّ عتبة، وابنه الوليد. أمّا شيبة فقد ضرب رجل

---

(١) *المغازي* ١: ٦٧، ٦٨.

(٢) نفسه ١: ٦٨؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٦٢٤.

عبيدة وقطعها[١]. فأسرع علي، وحمزة لنجدته، وقتلا شيبة[٢].

وكَبُر ذلك علىٰ قريش. أمّا أبو جهل فقد قال: لا يهولنا مقتل عتبة وشيبة والوليد، فإنّهم عجلوا. وأطلق شعاره: «إنّ لنا العزّىٰ ولا عزّىٰ لكم». وقال المسلمون: «الله مولانا ولا مولىٰ لكم»[٣]. وكان يوصي بأسر الكثيرين منهم ليعرّفهم بالّذي صنعوا لمفارقتهم دينهم ورغبتهم عمّا كان يعبد آباؤهم[٤]. وسنرىٰ أنّ المسلمين كانوا مكلّفين ألّا يأسروا أحداً أثناء القتال، ولم يفعلوا فعاتبهم القرآن الكريم. وبدأت الحرب العامّة واشتبك الجيشان من جانبين. وكان أشخاص معيّنون من المسلمين يهمّون بقتل مشركين معروفين لأنّهم كانوا من وجوه قريش البارزة، ولهم دور في تعذيب المسلمين. وكان بين المسلمين من يتمتّع بقدرة عالية. منهم حمزة بن عبد المطّلب وعليّ بن أبي طالب عليه السلام من المهاجرين[٥]، وأبو دجانة من الأنصار. ونقل البلاذريّ أنّ تسعة عشر من صرعىٰ قريش قتلهم عليّ عليه السلام[٦]. وحدّثنا القرآن الكريم

---

(١) عدّ عبيدة نفسه حين استشهاده مصداقاً جديراً لشعرٍ خاطب به أبو طالب عليه السلام المشركين؛ وذكره الواقديّ (*المغازي* ١: ٧٠)

كذبتم وبيتِ الله نخلي محمّداً ولمّا نطاعنْ دونه ونناضل

ونُسلمه حتّىٰ نصرَّع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

واستشهد عبيدة بالصفراء عند رجوعه. انظر: *سبل الهدىٰ والرشاد* ٤: ٩٦. وتقابل ثلاثة من الأنصار وأولئك الثلاثة؛ ونقل ابن سعد أنّ النّبيّ ﷺ لم يرغب في أن يكون الأنصار طرفاً في أوّل مواجهة للمسلمين مع المشركين. *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ١٧؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٤: ٥٧.

(٢) نُقل عن الإمام عليّ عليه السلام أنّ قوله تعالىٰ: ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ (الحجّ: ١٩) نزل في نزاعهم مع الثلاثة من المشركين. انظر: *سبل الهدىٰ والرشاد* ٤: ٥٨.

(٣) *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٤: ٥٩.

(٤) *المغازي* ١: ٧١.

(٥) كان حمزة مُعلِماً يوم بدر بريشة نعامة، وعليّ عليه السلام مُعلِماً بصوفة بيضاء على خوذته، والزّبير مُعلِماً بعصابة صفراء. وهم دون غيرهم كانوا مُعلمين يوم بدر.

(٦) *أنساب الأشراف* ١: ٢٩٧ ـ ٣٠١. نلحظ في فهرس الذين أَسَروا المشركين، اسمَ الإمام عليّ عليه السلام قد ⇐

عن اشتراك الملائكة مع المسلمين في القتال، كما نقلت ذلك أخبار لا تُحصىٰ. وبعد ذلك أيّد كثير من المسلمين أنّهم شهدوا قتال الملائكة ضدّ المشركين. وأورد الواقديّ خطبة للإمام عليّ عليه السلام بالكوفة بسط فيها حضور الملائكة ببدر[١].

واشترك رسول الله ﷺ نفسه في القتال بنحو فاعل. ونُقل عن الإمام عليّ عليه السلام قوله: «كنّا إذا اشتدّ القتال يوم بدر لذنا برسول الله ﷺ. وكان من أشدّ الناس بأساً يومئذٍ، وما كان أحدٌ أقربَ إلى المشركين منه»[٢].

وطلب النّبيّ ﷺ من المسلمين قبل الحرب ألّا يقتلوا من كان ساعده في مكّة بنحو من الأنحاء أو جيء به إلىٰ بدر مكرَهاً، وكان بنو هاشم منهم[٣]. وفيهم أبو البختريّ الّذي كان يحول دون إيذاء النّبيّ ﷺ وقتاً ما[٤]؛ مع هذا لم يعرفه قاتله وقتله. كما كان رسول الله ﷺ قد نهىٰ عن قتل الحارث بن عمر بن نوفل، إذ أُتي به مرغَماً. وقد قُتل أيضاً[٥].

وكان رسول الله ﷺ ينتظر خبر قتل أبي جهل. وحين بلغه خبره قال: لهو أحبّ إلىَّ من حُمر النّعم. وكان قتل أبي جهل الّذي سمّاه رسول الله ﷺ «فرعون الأمّة» و«رأس أئمّة الكفر» مهمّاً أيّ أهمّيّة حتّىٰ قال ﷺ: اللّهمّ قد أنجزتَ ما وعدتَني[٦]. وكان قتله في تلك الحرب يعني أنّ كلّ شيء قد انتهىٰ[٧]. ودعا النّبيّ ﷺ ربّه أن

⇐ جاء مرّةً واحدةً. وهو يدلّ علىٰ أنّه كان مطيعاً لأوامر النّبيّ ﷺ في إفناء المشركين. وما قيل عمّن حضر ببدر أنّ فيهم «أهل الشجاعة»، وفيهم «أهل الضعف» قد انعكس في أخبارها. انظر: **المغازي** ١: ٩٩.

(١) **المغازي** ١: ٥٧.

(٢) **الطّبقات الكبرىٰ** ١: ٢٣؛ **سبل الهدىٰ والرشاد** ٤: ٧١؛ **مسند احمد**، الحديث ١٠٤٢ (طبع دار المعارف).

(٣) **السّيرة النّبويّة**، ابن هشام ١: ٦٢٩؛ **سبل الهدىٰ والرّشاد** ٤: ٧٦.

(٤) **السّيرة النّبويّة**، ابن هشام ١: ٦٢٩.

(٥) **المغازي** ١: ٨١.

(٦) نفسه ١: ٩١.

(٧) **الطّبقات الكبرىٰ** ٤: ٤٣.

يكفيه نوفل بن خويلد. ولمّا أسره أحد الأنصار سار إليه عليّ عليه السلام وقتله، فحمد ﷺ ربّه علىٰ إجابة دعائه[١].

ولمّا قُتل صناديد قريش، وهلك سبعون منها وأُسر مثلهم، انهزم الجيش وتفرّق. والحقيقة أنّ الحرب وضعت أوزارها حين زالت الشّمس بنصر المسلمين وهزيمة العدوّ[٢]. وتفرّقوا في الفلوات، وأُسر عدد منهم إثر ملاحقة المسلمين إيّاهم، وكانوا يعدّون اللحظات لحلول الليل ليتخلّصوا من أيدي المسلمين. وبعد الفراغ اجتمع الأسرى الّذين أُسر كلّ واحد منهم بيد أحد المسلمين، مع الغنائم الباقية الّتي كان معظمها تجهيزات عسكريّة. وهكذا كان يوم بدر من أخلد أيّام صدر الإسلام وانتهىٰ بنصر باهر حاسم عجيب للمسلمين. واستشهد من المسلمين أربعة عشر[٣]. وقال رسول الله ﷺ:

«ما رؤي الشّيطان يوماً هو فيه أصغر، ولا أحقر، ولا أغيظ منه في يوم عرفة ـ وما ذاك إلّا لما رأىٰ من تنزّل الرحمة، وتجاوز الله عن الذنوب العظام ـ إلّا ما رأىٰ يوم بدر»[٤].

وقال ﷺ في موضع آخر: «وكانت أوّل غزوةٍ أعزّ الله فيها الإسلام، وأذلّ فيها أهل الشّرك»[٥].

وكانت غنائمها أكثر من مئة وخمسين بعيراً، وعشر أفراس، وشيء من الجلود

---

(١) *المغازي* ١: ٩٢.

(٢) نفسه ١: ١١٢. ونقل ابن سعد في طبقاته ٢: ٢٣ أنّ ذلك اليوم كان حارّاً؛ على الرغم من المطر الّذي كان ليلاً. وهو أمر طبيعيّ بالنسبة إلىٰ جوّ الحجاز.

(٣) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ١٧، ١٨؛ ستّة من المهاجرين وثمانية من الأنصار. واشترك فيها أكثر من ستّين مهاجراً، ومئتين وأربعين أنصاريّاً. انظر: *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ١٩، ٢٠. وقيل: اشتركت فيها قريش أو حلفاؤها أو مواليها فحسب، كما اشترك فيها الأنصار أو حلفاؤهم أو مواليهم، ولم يكن فيها غيرهم. انظر: *أنساب الأشراف* ١: ٢٩٠.

(٤) *المغازي* ١: ٧٨.

(٥) نفسه ١: ٢١.

والأقمشة وآلات الحرب. وكانوا لا يأخذون إلّا ما وقع في أيديهم من المقتولين. كما كان لهم نصيب في التقسيم العامّ للغنائم. ويستفاد من الآيات القرآنيّة والأخبار التّاريخيّة أنّ خلافات ظهرت عند تقسيم الغنائم. وكان أمراً طبيعيّاً؛ إذ لم يكن هناك قانون معيّن لهذا العمل حتّىٰ تلك الفترة. ويضاف إلىٰ ذلك أنّ الحوافز المادّيّة الّتي كان عليها مثل هؤلاء المؤمنين يمكن أن تؤدّي إلى الخلاف أيضاً بشكل محدود. وكان واضحاً أنّ الخلاف المذكور قد عولج بسرعة لوجود الرّسول ﷺ ونزول الآيات القرآنيّة بهذا الشّأن. ودفع ﷺ سهماً من الغنائم لمن استخلفه على المدينة وقبا. وأخذ سعد بن عبادة سهمه إذ كان له دور في حثّ الأنصار على المشاركة في هذه الواقعة الّتي لم يشهدها لأنّ حيّة لدغته قبل مجيئه بقليل. وأخذ عدد آخر من المسلمين سهمه أيضاً لملاحقتهم القافلة أو لقيامهم بأعمال أخرىٰ ولم يشهدوا الوقعة لأسباب معيّنة[١]. وقيل إنّ الرّسول ﷺ جعل سهماً لجعفر بن أبي طالب الّذي كان بالحبشة يومئذٍ.

وأُطلق اصطلاح الأنفال لأوّل مرّة علىٰ غنائم هذه الحرب. وهي في الحقيقة أوّل الأشياء الّتي اتّخذت اسم الأنفال كأموال عامّة. وتخالَفَ أشخاص حول الأثاث الباقي وكانوا يأتون رسول الله ﷺ باستمرار ليحلّ لهم مشكلتهم. والآية الأُولىٰ من سورة الأنفال تعبّر عن هذا السؤال. وفوّض الله تعالى اختيار ذلك كلّه إلىٰ رسوله ليقسمه. من هنا كلّ من كان قد أخذ شيئاً كُلِّف بإرجاعه إلىٰ مكانه.

والموضوع الآخر هو موضوع الأسرىٰ فقد ظهر خلاف بين المسلمين حول كيفيّة التّعامل معهم. وقتل الرّسول ﷺ اثنين منهم. وهما عُقبة بن أبي مُعَيط، والنّضر بن الحارث. وكانا من أنشط المشركين عملاً ضدّ النّبيّ ﷺ والمسلمين على امتداد عصر

---

(١) *المغازي* ١: ١٠١.

البعثة. وقُتلا[١] بأمر مباشر من النّبيّ ﷺ نفسه وبسيف عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

وحين شعر النّضر بدنوّ أجله من نظرة النّبيّ ﷺ إليه توسّل بمُصعب بن عمير واستشفعه قائلاً: لو أسرتك قريش ما قُتلتَ أبداً وأنا حيّ.

قال مصعب: ... قطع الإسلام العهود[٢]. وبشأن سائر الأسرىٰ كان بعض الصّحابة يرىٰ أن يُقتَلوا كلّهم[٣]. بيد أنّ بعضهم الآخر من المهاجرين والأنصار كان يصرّ علىٰ أخذ الفداء منهم ودليلهم هو قرابتهم من النّبيّ ﷺ.

وعُدّت آية من سورة الأنفال نازلةً بشأن هذا الخلاف، وقيل إنّ الله تعالىٰ أيّد حكم قتل الأسرىٰ. ورضي الفداء أيضاً. قال سبحانه: ﴿**مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾[٤].

---

(١) ***مصنّف***، عبدالرزّاق ١: ٣٥٢؛ ***السّيرة النّبويّة***، ابن هشام ١: ٦٤٤؛ ***سبل الهدىٰ والرشاد*** ٤: ٩٧ (ويرىٰ ابن إسحاق أنّ عاصم بن ثابت قتل عقبة، في حين يذهب ابن هشام إلىٰ أنّ عليّاً عليه السلام قتله). وجاء في مصادر أُخرىٰ أنّ معاوية كان يقول للوليد بن عقبة من أجل تحريضه على الخروج معه إلىٰ صفّين: عليّ هو الذي قتل أباك ببدر. انظر: ***الفتوح*** ٣: ١٩١؛ ***وقعة صفّين***: ٤١٧.

(٢) ***المغازي*** ١: ١٠٦، ١٠٧.

(٣) جاء في الأخبار التّاريخيّة أنّ سعد بن معاذ وعمر بن الخطّاب كانا يصرّان علىٰ قتل الأسرىٰ أكثر من غيرهما. وحريّ بالعلم أنّه بغضّ النّظر عن الآيات القرآنيّة كانت الأخلاق السياسيّة لعمر تقتضي مثل هذا التشدّد أساساً. وكان المهمّ هنا هو التكليف الّذي عيّنه الله تعالىٰ ورسوله ﷺ للأسرىٰ. بيد أنّ عمر كان من البداية يصرّ علىٰ من بيده أسير أن يقتله (***المغازي*** ١: ١٠٥). وحين أُتي بسهيل بن عمرو أسيراً إلىٰ رسول الله ﷺ قال له عمر: انزع ثنيّتيه يُدلَع لسانه فلا يقوم عليك خطيباً أبداً! فقال رسول الله ﷺ: لا أُمثّل به (***المغازي*** ١: ١٠٧). وأسلم سهيل هذا في فتح مكّة وقيل: إنّه حال بخطبته دون ارتداد المكّيّين بعد وفاة النّبيّ ﷺ. ***أنساب الأشراف*** ١: ٣٠٤. وانظر: ***السّيرة النّبويّة***، ابن هشام ١: ٦٤٩. والطّريف أنّ عمر طلب من النّبيّ ﷺ أن يأمر عليّاً عليه السلام بقتل عقيل، وحمزة بقتل العبّاس. ***سبل الهدىٰ والرشاد*** ٤: ٩٢. هذا في وقت لم يشترك أحد من آل عمر من بني عديّ في حرب بدر. وهو نفسه لم يأسر أحداً فيها!

(٤) الأنفال: ٦٧.

وقيل إنّ الباعث علىٰ ترجيح قتل الأسرىٰ هو أنّ معظمهم كانوا من شخصيّات قريش، فالقضاء عليهم كان يذلّ قريشاً أكثر. ويضاف إلىٰ ذلك أنّه معلم علىٰ ترفّع المسلمين عن الأطماع الدنيويّة، وأنّهم كانوا مستعدّين لبلوغ أهدافهم أن يتنازلوا عن حفنة مالٍ يُطلق به عدوّ دينهم. وكان محرزاً أيضاً أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان راضياً بحرب قبيلته وليس هذا فحسب، بل بقتل أسراها أيضاً، بل ليس لأحد أن يخال أنّه كان يرغب في بقائهم، مع شركهم بسبب وشيجة القُربىٰ. وفي الآن ذاته كان الأنصار واثقين أنّه صلى الله عليه وآله وسلم لم يفكّر إلّا بالإسلام والعقيدة، لا بقومه وطائفته[١].

ومع جميع الّذي تقدّم نلحظ أنّ نقطة ثابتة عند فقهاء الشّيعة وهي أنّ الأسر أسران: أحدهما الأسر عند نشوب الحرب، والآخر بعد انتهائها. أمّا في الأوّل فإنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أو الحاكم مخيّر في قتله. وأمّا في الثّاني فالتخيير بين الإطلاق، والفداء، والاسترقاق[٢]. علماً أنّ الحاكم في هذه الحالة إذا شخّص خطر أحدٍ فله أن يقتله. والمهمّ بالنّظر إلىٰ آية الأنفال هو معنىٰ قوله: ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ[٣] فِى ٱلْأَرْضِ﴾. فليس للرّسول صلى الله عليه وآله وسلم أن يأسر أحداً حتّىٰ يثبت في الأرض ويتمكّن فيها. وإذا وضعنا هذه الآية إلىٰ جانب آية أُخرىٰ في سورة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم فإنّ معناها يستبين لنا، قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾[٤]. ونلحظ هنا قيد ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾. ويتبيّن من المقايسة بين الآيتين بالنّظر إلىٰ كلمة (أثخنتموهم) الواردة في الآية الثّانية، وكذلك ممّا أُثر عن الإمام الباقر عليه السلام قوله: «إذا كانت الحرب قائمة لم تضع

(١) *الصحيح من سيرة النّبيّ* صلى الله عليه وآله وسلم ٣: ٢٤٨، ٢٤٩.

(٢) انظر: *الخلاف* ٢: ٣٣٢؛ *النّهاية*: ٢٩٦؛ *دراسات في ولاية الفقيه* ٣: ٢٥٩ ـ ٢٦٣.

(٣) التخين هو الغليظ الّذي لا يسيل. وهو كناية عن الثّبات.

(٤) محمّد: ٤.

أوزارها ولم يثخن أهلها» أنّ المقصود عدم استصواب الأسر حين الحرب بقصد أخذ الفدية، لا الخلاف علىٰ حكمها التّالي، إذ يجوز الفداء. وخاطب الله رسوله ألّا يأخذ أسيراً أثناء الحرب.

وكان المسلمون ببدر يقلّون من قتل المشركين، ويأسرونهم أملاً بأخذ الفدية منهم بعد انتهاء الحرب. وهذا العمل بالغ خطره في الحرب. ومن الطّبيعيّ أنّ حكم هذا الأسير من منظار الفقه يختلف عن حكم الأسير الّذي يؤسر بعد الحرب، حتّىٰ بعد انتهاء الحرب؛ إذ للحاكم أن يقتله. وهذا مبدئيّاً أصل عقليّ فلا ينبغي التفكير بأسر أحد أثناء الحرب بل بتقويض قوّة العدوّ وتبديدها. من هنا، وبالنظر إلىٰ ما مرّ توضيحه يتبيّن عكس ما قاله البعض أنّ في سورة الأنفال حكماً بقتل الأسرىٰ كلّهم، ثمّ نُسخ في سورة محمّد[١]. بل عُرض حكم واحد في الحالتين كلتيهما وهو ألّا يؤسر أحد ريثما يثبت وضع القوّات الإسلاميّة. وكان بعض الأشخاص يهمّ بالأسر. علىٰ سبيل المثال أسر ابنُ عوفٍ أميّةَ بن خلف ونجله لكن وصل بلال فقتل أميّة[٢].

وكان بين الأسرىٰ عقيل بن أبي طالب، والعبّاس عمّ النّبيّ ﷺ. وأُخذ من العبّاس ثمانمائة أو ألف وستّمائة مثقال ذهب. وقيل بعد ذلك برواية أحد أحفاده[٣] أنّه كان أسلم قبل بدر خفيةً، ولعلّ ذلك كان لتطييب قلوب بني العبّاس. بيد أنّ تعامل النّبيّ ﷺ معه في بدر وغيرها يدلّ علىٰ أنّه لم يسلم إلّا في فتح مكّة وإن كان يمالئ النّبيّ ﷺ ويتعاطف معه[٤].

---

(١) *سبل الهدىٰ والرشاد* ٤: ٩٣.

(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٦٣٢؛ *سبل الهدىٰ والرشاد* ٤: ٧٣.

(٣) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٦٤٦. وسند إسلام عبّاس كما يأتي: قال ابن إسحاق: حدّثني حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عبّاس، عن عكرمة مولىٰ ابن عبّاس!

(٤) انظر: *الصحيح من سيرة النّبيّ* ﷺ ١: ٢٥٣.

وأمر ﷺ بعد انتهاء الحرب أن تُطمّ عيون بدر وتُلقىٰ فيها قتلى المشركين. وكان جسد أميّة بن خلف ثقيلاً فانتفخ في ذلك الجوّ الحارّ، ولمّا أرادوا جرّه على الأرض تفسّخ لحمه فتركوه. ثمّ وقف ﷺ علىٰ حافّة البئر فقال: «يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة...، يا أبا جهل! هل وجدتم ما وعدكم ربّكم حقّاً؟ فإنّي قد وجدتُ ما وعدني ربّي حقّاً. بئس القوم كنتم لنبيّكم! كذّبتموني وصدّقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس...»[1]. ونظر أبو حذيفة بن عتبة إلىٰ وجه أبيه في تلك اللحظة وكان يُجرّ ليُلقىٰ في القليب، فساءه ذلك. فقال له النبيّ ﷺ: يا أبا حذيفة كأنّك ساءك ما أصاب أباك. قال: لا والله يا رسول الله، ولكنّي رأيت لأبي عقلاً وشرفاً، كنت أرجو أن يهديه الله إلى الإسلام، فلمّا أخطأه ذلك ورأيتُ ما أصابه غاظني[2].

والحقيقة هي أنّ حرب بدر كان يُنظَر إليها كحرب داخليّة عائليّة بالنسبة إلى المهاجرين. وهو شيء لم تعهده العرب بهذا المستوىٰ من قبل. فقد تقابل أبناء الأعمام بعضُهم أمام بعض، وكذلك الأولاد أمام آبائهم[3]. وعبّر النبيّ ﷺ مرّةً أُخرىٰ عن

---

(١) *المغازي* ١: ١١٢؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٤: ٨٤؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٦٣٨، ٦٣٩. وأنشد حسّان شعراً في بدر القتال، وقال في إلقاء أجساد المشركين في القليب:

يناديهم رسولُ الله لمّا ... قذفناهم كباكب في القليبِ
ألم تجدوا كلامي كان حقّاً ... وأمر الله يأخذ بالقلوبِ
فما نطقوا ولو نطقوا لقالوا ... صدقتَ وكنتَ ذا رأيٍ مصيبِ

وفي تلك اللحظة سُئل ﷺ: هل يعون ما تقول؟ فقال: قد علموا أنّ ما قلته حقّ؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٤: ٨٥. وبشأن ما قاله ﷺ علىٰ نحو الدقّة حين سأله أصحابه عن كلامه مع القتلىٰ خلاف كثير في النقل. انظر: *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٤: ١٢٧ ـ ١٢٩.

(٢) *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٤: ٨٧؛ *المغازي* ١: ١١١، ١١٢؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٦٤٠، ٦٤١.

(٣) نصح عتبة قريشاً قبل بدر أن تدع الحرب مع محمّد ﷺ؛ لأنّها إذا تمكّنت منه فسوف يظهر الخلاف فيما بينها بسبب قتل بني الأعمام. انظر: *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٦٢٣.

رضاه لقتل أبي جهل، وشكر الله علىٰ ذلك. وكان ﷺ يرىٰ أنّ المقتولين هم الملأ من قريش[١]، وهم الّذين ذكر الله شيطنتهم مراراً. وفي الأحد التاسع عشر من رمضان بلغ المدينةَ خبرٌ لا يصدّق، وهو هزيمة قريش، وقتل أبي جهل، وأُميّة بن خلف، وعتبة بن ربيعة، وأسر سهيل بن عمرو. ولم يصدّق أحد هذا الخبر في الوهلة الأولىٰ حتّىٰ إنّهم عدّوا زيد بن حارثة الّذي أتىٰ به فارّاً منهزماً من الحرب[٢]. وكان المنافقون واليهود يحاولون أكثر من غيرهم ألّا يصدّقوا هذه الهزيمة، وأن يلقوا الرعب في قلوب سائر الناس[٣].

وتوجّه الناس لاستقبال الرسول ﷺ، وقال سلمة بن سلامة: لا تهنئة بقتل عجائز صُلع. فقال ﷺ: «أولئك الملأ، لو رأيتهم لهبتهم، ولو أمروك لأطعتهم». فاغتنم سلمة الفرصة وسأله قائلاً: «إنّك يا رسول الله لم تزل عنّي معرضاً منذ كنّا بالرّوحاء في بدأتنا». فقال ﷺ: «أما قلتَ للأعرابيّ ـ الّذي جاءني وسألني: إذا كنتَ نبيّاً فقل لي: ماذا تلد ناقتي؟ ـ وقعتَ علىٰ ناقتك فهي حبلىٰ منك؟ ففحشت، وقلتَ ما لا علم لك به»! فاعتذر إليه ﷺ وقبل منه معذرته[٤]. وتدلّ هذه الحكاية علىٰ نوع السلوك الّذي كان يسلكه ﷺ في تأديب أصحابه. ودخل المدينة يوم الأربعاء الثّاني والعشرين من رمضان، واستقبله الفتيان وهم ينشدون: طلع البدر علينا[٥]. وقدم بالأسرىٰ. فقال أبو العاص بن الرّبيع، وكان فيهم: «كنتُ مع رهط من

---

(١) *المغازي* ١: ١١٦.
(٢) نفسه ١: ١١٥.

(٣) قال أحد المنافقين لأسامة ـ وكان حدثاً يومئذٍ: قُتل محمّد وأصحابه كلّهم. وقال آخر لأبي لبابة: تفرّق أصحابكم ولم يجتمعوا قطّ، وقُتل محمّد وهذا بعيره أعرفه. انظر: *أنساب الأشراف* ١: ٢٩٤؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٤: ٨٩.

(٤) انظر: *المغازي* ١: ٤٦، ١١٦؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٦١٣، ٦٤٣، ٦٤٤.

(٥) *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٤: ٩٨.

الأنصار جزاهم الله خيراً، كنّا إذا تعشّينا أو تغدّينا آثروني بالخبز وأكلوا التّمر. والخبز معهم قليل والتّمر زادهم». وقال الوليد بن المغيرة المخزوميّ أيضاً: «وكانوا يحملوننا ويمشون»[١]. ومن أبرز الأسرىٰ سهيل بن عمرو الّذي همّ بالفرار مرّةً في منتصف الطّريق بذريعة قضاء الحاجة، ثمّ وقع بأيدي المسلمين مرّة أخرىٰ. وأُتي به إلى المدينة مربوطةً يداهُ إلىٰ عُنُقه. وهذه ذلّة بالغة لقريش، حتّىٰ إنّ سودة زوج الرّسول ﷺ لمّا رأته علىٰ تلك الحال فزعت وقالت له: ألا مُتّم كراماً؟ فلامها النّبيّ ﷺ علىٰ كلامها وقال لها: «يا سودة أعلى الله وعلىٰ رسوله؟» فاعتذرت[٢].

وكانت هزيمة قريش مخزية متفشّيّة إلىٰ درجة أنّهم قالوا: نُقل شعر عن فَتَيَيْنِ متخلّفين عن بدر ذكرا أنّهما سمعاه ولم يريا قائله[٣]. وهذا الشّعر هو:

أزار الحنيفيّون[٤] بدراً مصيبةً سينقضّ منها ركنُ كسرىٰ وقيصرا
أرنّت لها صُمّ الجبال وأفزعت قبائل ما بين الوتير[٥] وخيبرا
أجازت جبالَ الأخشَبَين[٦] وجُرّدت حرائرُ يضربن الترائبَ[٧] حُسّرا[٨]

وتدلّ هذه الأبيات علىٰ عمق الأهمّيّة الّتي كانت لوقعة بدر في قلوب المكّيّين والقبائل المجاورة. وكانت أوّل ضربة لأركان كسرىٰ وقيصر حقّاً. وفي خبر نقله

(١) *المغازي* ١: ١١٩. وبشأن أحكام الأسرىٰ انظر أيضاً: *مجمع الزّوائد* ٦: ٨٦؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٦٤٥.

(٢) *المغازي* ١: ١١٨؛ *أنساب الأشراف* ١: ٣٠٣؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٦٤٥.

(٣) مثل هذه الأخبار الّتي سُمِعَ فيها صوتُ هاتفٍ ولم يُرَ كثير. وألّف ابن أبي الدنيا كتاباً عنوانه «*الهواتف*» جمع فيه تلك الأخبار.

(٤) وهم الحنفاء أي: الموحّدون. وجاء في توضيح الواقديّ أيضاً أنّهم هم المقصودون.

(٥) الوتير موضع في ديار خزاعة.

(٦) جبلا مكّة وهما أبو قبيس، والأحمر.

(٧) الترائب: عظام الصدر.

(٨) *المغازي* ١: ٨٨؛ وانظر: *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٤: ١٠٠.

الواقديّ أنّ النّجاشيّ لمّا بلغه ظفرُ النّبيّ ﷺ دعا جعفر بن أبي طالب وسائر المهاجرين معه وأنبأهم الخبر، وعدّ ذلك نعمةً من الله سبحانه[١].

وبُهِتَ له المشركون والمنافقون في المدينة أيضاً. يقول الواقديّ: «ولم يبق بالمدينة يهوديّ ولا منافق إلّا خضد عنقه (ثناه) لوقعة بدر. وقالت اليهود: والله لا تُرفع له راية بعد اليوم إلّا ظهرت. وقال كعب بن الأشرف (وهو من سُراتهم): بطن الأرض اليوم خيرٌ من ظهرها. هؤلاء أشراف النّاس وساداتهم، وملوك العرب، وأهل الحرم والأمن، قد أُصيبوا»[٢]. وقال في شعر يرثي به قتلىٰ بدر:

قُتلت سَراة النّاس حول حياضه (بدر)...

صدقوا فليت الأرض ساعة قُتِّلوا ظلّت تسيخ بأهلها وتصدّع

وكانت قريش حتّىٰ تلك اللحظة إذ مضىٰ شهر على الوقيعة لم ترثِ قتلاها بأمر أبي سفيان لتمسك عقدتها وتكظم غيظها. ثمّ بدأ النياح بمكّة بعد مرثية كعب[٣].

وأخذ المسلمون أربعة آلاف درهم إلىٰ ألف درهم مقابل إطلاق الأسرىٰ سوىٰ ما غنموه ببدر. وأُطلق من ليس له مال أيضاً بمَنِّ رسول الله ﷺ[٤]. وأرسلت زينب بنت النّبيّ ﷺ قلادة، كانت أمّها خديجة أعطتها إيّاها، إلى المدينة فديةً لإطلاق زوجها أبي العاص بن الرّبيع. وأطلقه المسلمون كرامةً للنّبيّ ﷺ وأُرجعت القلادة. ونقل الشّعبيّ أنّ من كان قادراً على الكتابة علّمها الأنصار مقابل إطلاقه. وجاء في خبر آخر أنّ كلّ واحد يعلّم عشرةً الكتابة. وكان زيد بن ثابت ممّن تعلّمها في تلك الوقعة. وورد في خبر أنّ أهل مكّة كانوا قادرين على الكتابة أمّا أهل المدينة فلم

---

(١) *المغازي* ١: ١٢٠، ١٢١.
(٢) نفسه: ١٢١.
(٣) نفسه: ١٢٣، ١٢٤.
(٤) ذكر ابن إسحاق أسماء الذين أُطلقوا منّاً من الرّسول ﷺ. انظر: *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٦٥٩، ٦٦٠.

يكونوا كذلك. من هنا، كلّ أسير يعلّم عشرةً من أطفال المسلمين الكتابة يُطلق بعد إحراز مهاراتهم الكافية فيها[١]. وأُسر أبو عزيز أخو مصعب بن عمير ببدر. والتقىٰ بأخيه في الطريق واستعانه، فقال له مصعب إنّ أخاه هو المسلم الّذي أسره. ثمّ التفت إلىٰ ذلك الأنصاريّ المسلم وقال له: شدّ وثاقه فإنّ أهله أصحاب ثروة[٢]. وذكر حسّان في شعر له أنّ كثيراً من الأسرىٰ أُطلق بلا مالٍ «كم من أسير فككناه بلا ثمن»[٣].

معركة بدر في القرآن الكريم

تطرّق القرآن الكريم إلىٰ عدد من الأحداث المهمّة، واهتمّ بنقل الوقائع وتحليلها بنحو خاصّ. وكانت واقعة بدر في عدادها، ولعلّها أبرزها. فقد نزل القسم الأكبر من آيات سورة الأنفال بشأنها وتحليلها، وكذلك الجوانب الفقهيّة والتّربويّة فيها. ونستعرض فيما يأتي الآيات النازلة بشأن بدر:

جاء في أوّلها قوله تعالىٰ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنْفَالِ قُلِ ٱلْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾. وذهب عدد من المفسّرين إلىٰ أنّ الأنفال في هذه الآية هي غنائم الحرب. ونُقل عن عبادة بن الصّامت قوله: اختلفنا في النّفل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا فجعلها إلىٰ رسوله ﷺ[٤]. ثمّ لسوء صنيعهم أوصاهم الله تعالىٰ بالتّقوىٰ وإصلاح ذات بينهم. فقال سبحانه: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ *

---

(١) *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ٢٠ (الأخبار الثلاثة في المصدر المذكور) وانظر: ٢٦.

(٢) *أنساب الأشراف* ١: ٣٠٢؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٦٤٦؛ *مجمع الزّوائد* ٦: ٨٦.

(٣) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ١٣٢.

(٤) *مجمع البيان* ٤: ٥١٨؛ وانظر: *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٦٤٢.

يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾. يقول الواقديّ: كَرِهَ خروجَ رسول الله ﷺ أقوام من أصحابه إلىٰ بدر، قالوا: نحن قليل وما الخروج برأي[1]. ومن أسباب هذا الجدال أنّهم قالوا: كيف خرجنا من المدينة ونحن لم نعلم أللقافلة جئنا أم للقتال! وذكر الله سبحانه في الآية التالية وعده لرسوله بالنّصر علىٰ إحدى الطّائفتين ـ القافلة أو الجيش: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللهُ إِحْدَى ٱلطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾. ثمّ أورد تعالىٰ إرادته بقطع يد المشركين، مكرّراً لها في غير موطن من السّورة ومذكّراً المسلمين بأنّ بدراً كانت عذاباً إلٰهيّاً وُعِدَ به المشركون: ﴿وَيُرِيدُ ٱللهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ[2] وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَافِرِينَ﴾. ثمّ ذكر في الآية التّاسعة استغاثة المسلمين وعلىٰ رأسهم رسول الله ﷺ، وكذلك استجابة دعائهم. قال جلّ من قائل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۞ وَمَا جَعَلَهُ ٱللهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللهِ إِنَّ ٱللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. ثمّ عرض جلّ شأنه في الآية الثّانية عشرة كيفيّة إغاثة الملائكة للمؤمنين فقال عزّ اسمه: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا ٱلَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾.

وتتحدّث الآية الحادية عشرة عن الوضع الرّوحي الجيّد للمسلمين ليلة السّابع عشر من شهر رمضان، أي: يوم بدر. قال تعالىٰ: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ

(١) *المغازي* ١: ١٣١؛ وانظر: *مجمع البيان* ٤: ٥٢٠، ٥٢١.

(٢) لعلّ مفهوم الكلمات هنا عدات الله سبحانه بالنّصر لأنبيائه في قوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾؛ *مجمع البيان* ٤: ٥٢١. ولعلّها أيضاً فعل الله ونتيجة عمله وإرادته سبحانه، ومعجزة عرفت بوصفها كلمات الله.

وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾. ونلحظ في الآية أنّ نزول المطر إمداد غيبيّ، ومن أهدافه ﴿لِيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾. وهكذا نجد أنّ ظاهر الآية ينافي ما جاء في أخبار السّيرة من سيطرة المسلمين علىٰ عيون بدر. فقد ذكر بعض الأخبار التّاريخيّة أنّ المشركين سبقوا المسلمين إلى الماء، فأصاب المسلمين الظمأ ووسوس إليهم الشّيطان فقال: إنّ عدوّكم قد سبقكم إلى الماء وأنتم ترون أنفسكم أولياء الله. فنزل مطر كاف وتطهّروا وتلبّدت به أرضهم ورسخت فيها أقدامهم وهي رمل[1].

ولم يرد في الآية المذكورة أنّ المطر كان في ليلة الواقعة. ومن المحتمل أنّه كان في الليلة أو في النهار الّذي سبقها. وتدلّ أخبار تاريخيّة كثيرة علىٰ أنّ المسلمين سيطروا علىٰ عيون بدر بعد وصولهم إليها. وكذلك يمكن أن يقال إنّه لم يكن ثمّة ماء كاف للغسل والتّطهير، فسُقوا ماء المطر الغزير. ونُقل عن الإمام الباقر عليه السلام أيضاً أنّ قوله تعالىٰ ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ إشارة إلىٰ نزول المطر وتلبّد الرّمل تحت أقدامهم[2]. وأشار سبحانه في الآية الثّامنة عشرة مرّة أخرىٰ إلىٰ كيده في شنّ الحرب ببدر فقال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.

إنّ حرب بدر في الحقيقة نقلت المسلمين من موقع الضّعف إذ تُحتمل إبادتهم تماماً إلىٰ موقع القوّة والثّبات. لذا قال تعالىٰ في الآية السّادسة والعشرين: ﴿وَٱذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

ومرّ بنا أنّ الحرب المذكورة كانت وعداً بالعذاب وعده الله المشركين من قبل، كما قال رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم علىٰ عين بدر حين خاطب المشركين. من هنا قال سبحانه

---

(١) *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٤: ٤٨؛ *مجمع البيان* ٤: ٥٢٦؛ *الميزان* ٩: ١٨، ١٩.

(٢) *مجمع البيان* ٤: ٥٢٥.

بعد الواقعة: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

وكان أشخاص كثر ينحرون إبلهم لجند قريش ويتولّون مصاريفهم وطعامهم. قال تعالىٰ في الآية السّادسة والثلاثين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾. وفي الآية الأُولىٰ من السّورة جُعلت الأنفال لله وللرّسول، وفي الآية الحادية والأربعين يستبين وضع الغنائم وكيفيّة تقسيمها. قال سبحانه: ﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

تبيّن هذه الآية حكم الخمس للمؤمنين، ويعقبها قوله جلّ وعلا مخاطباً إيّاهم: ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾. وفي إطلاق «يوم الفرقان» علىٰ يوم بدر احتمالان: الأوّل: أشرنا إليه في موضع آخر وقلنا إنّ الله سبحانه عدّ يوم السّابع عشر من رمضان يوم الفرقان علىٰ ما روي عن الإمام الباقر عليه السلام وما قاله ابن إسحاق، أي: اليوم الّذي نزل فيه القرآن أوّل مرّة. ويقوم هذا الافتراض علىٰ أساس أنّ الفرقان استُعمل بمعنى القرآن. والآخر: إنّ يوم بدر اتّخذ اسم الفرقان لثبوت الحقّ، وإنجاز الوعد الإلٰهيّ، وإبطال الباطل بما مُني به من عذاب الله فيه. ومهما كان فالثابت هوأنّ شأن يوم بدر يعود إلىٰ تمييز الحقّ عن الباطل يومئذٍ.

وبعد ذلك نلحظ في الآية الثّانية والأربعين صورةً لموقع المسلمين والمشركين يوم بدر، قال تعالىٰ: ﴿إِذْ أَنْتُم بِالْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾. ونُقل عن ابن عبّاس أنّه فسّر الدُّنيا والقُصوىٰ بالنسبة إلى المدينة[1]، وكان المسلمون

---

(١) مجمع *البيان* ٤: ٥٤٦؛ وانظر: *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٦٢٠.

والمشركون في جانبي الوادي. ففئة جاءت من المدينة وهي في شفير الوادي الأقرب إلى المدينة، وفئة قدمت من الجنوب وهي في الشفير الأقصىٰ من المدينة، وكانت القافلة تمرّ شرقهم قريباً من البحر.

أمّا الهدف الأصليّ من هذا التّعبير فقد جاء في سياق قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَادِ وَلٰكِن لِيَقْضِىَ ٱللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. من هنا فالخطّة الأصليّة كانت من الله تعالىٰ. وبعد ذلك ذكر جلّ شأنه إمداداً من إمداداته الغيبيّة يوم بدر فقال: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِى ٱلأَمْرِ وَلٰكِنَّ ٱللهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِى أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِى أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى ٱللهِ تُرْجَعُ ٱلأُمُورُ﴾. ومن الواضح أنّه هيّأ جميع الظّروف لتحقيق ما كان وعده.

ويوازن تعالىٰ في الآية السّابعة والأربعين والثّامنة والأربعين بين الفريقين في الأهداف الّتي كانوا يتوخّونها من الحرب. ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَراً وَرِئَاءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللهِ وَٱللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ وكان المشركون يخالون أنّهم يغلبون المسلمين بسهولة. ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىءٌ مِنكُمْ﴾.

وكان المنافقون في المدينة يفسّرون عشق المسلمين لدينهم وحسّ تفانيهم وتضحيتهم في سبيل الله تفسيراً غالطاً ويقولون: ﴿غَرَّ هٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾. واسترسلت الآيات فطلبت من المؤمنين أن يصمدوا في الحرب ويثبتوا حتّىٰ لو كان عددهم نصف المشركين فسيغلبون. ولو كانوا عُشرَ المشركين وصمدوا فسينتصرون على الكافرين، بيد أنّه سبحانه لم يلزم المؤمنين بهذا الرّقم كتكليف، وعرض مقاومتهم حتّىٰ مستوى

النّصف كتكليف شرعيّ مع حُرمة الفرار من الحرب.

وقيل للنّبيّ ﷺ في الآية السّابعة والسّتّين ألّا يكون له أسرىٰ إبّان الحرب إلّا أن تتوقّف الحرب بغلبة المسلمين. ويثبّت المسلمون موقعهم. وأشرنا إلىٰ هذه الآية قبل ذلك وعُرضت فيها بعض الرّؤىٰ. وجاء في الأسرى الّذين دفعوا مالاً لإطلاقهم قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِمَن فِى أَيْدِيكُم مِنَ ٱلْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِر لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وعدّت الآية الثّانية والسّبعون الهجرة شرطاً لإيمان المسلمين من أهل المدينة فقالت: ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِن وَلَايَتِهِم مِن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾.

الأحداث الواقعة بين بدر وأُحُد

١ ـ الموقف من شعراء الكافرين واليهود

شهدت المدينة وما حولها أحداثاً جمّة في الفترة الواقعة بين رمضان السّنة الثانية وشوّال السّنة الثّالثة. ونشير هنا إلىٰ بعضها. فأوّل حدث تناوله كتّاب السِّيَر مقتل امرأةٍ تُدعىٰ عصماء علىٰ يد مسلم يعرف بعمير بن عديّ.

نقل الواقديّ أنّ المرأة المذكورة كانت تحرّض الأوس والخزرج على النّبيّ ﷺ في شعرها وتقول لهم: لِمَ أطعتم غريباً لا من بني مراد ولا من بني مذحج[1]؟ فعزم عمير ابن عديّ الّذي كانت عصماء زوجة رجلٍ من طائفته بني خطمة علىٰ قتلها. قال الواقديّ: «ورسول الله ﷺ يومئذٍ ببدر». وهذا الموضوع لا ينسجم وشعر عصماء

(١) كانت مراد ومذحج من قبائل اليمن القحطانيّة. وكان الأنصار يمانيّين أيضاً في حين كان النّبيّ ﷺ عدنانيّاً. من هنا همّت المرأة المذكورة بأن تدفع اليمانيّين إلىٰ أن يُمسكوا عن دعم عدنانيّ غريب. ومن أفعالها المشينة إلقاؤها خِرق الحيض في مسجد بني خطمة. انظر: *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٦: ٢٦.

الّذي تخاطب به أهل المدينة وتقول: «ترجّونه بعد قتل الرؤوس»(١) وجاء في خبر ابن إسحاق أنّ النّبيّ ﷺ سمع شعرها وطلب من النّاس أن يكفوه شرّها(٢). علماً أنّ الصّحابة كانوا لا يُقدمون علىٰ قتل أحد ما لم يستأذنوه ﷺ. ويذكر البلاذريّ أيضاً أنّ عميراً لمّا عزم علىٰ قتلها كان المسلمون ببدر. فصبر حتّىٰ عاد النّبيّ ﷺ واستأذنه فقتلها(٣).

وأثنىٰ حسّان بن ثابت في شعر له علىٰ عمل هذا الشّاب الغيور وقال:

فضرّجها من نجيع الدماء   قُبيل الصباحِ ولم يحرجِ

ودعا له بقوله:

فأوردك الله برد الجنان   جذلانَ في نعمة المولجِ(٤)

وبعد ذلك أعلن رجال من بني خطمة عن إيمانهم بعد أن ظلّوا علىٰ شركهم برهةً خوفاً.

ويماثل هذا الحدث ما ذكره ابن إسحاق عن مقتل أبي عَفَك اليهوديّ قبل مقتل عصماء(٥). وكان من بني عمرو بن عوف(٦). وكان يحرّض أهل المدينة على النّبيّ ﷺ في شعره من غير أن يسلم. ويقول: «فسلّبهم أمرهم راكب». وخاطب قومه قائلاً:

فلو كان بالملك صدّقتم   وبالنّصر تابعتم تُبّعاً

---

(١) *المغازي* ١: ١٧٢، ١٧٣.

(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٦٣٧. [ألا أخذ لي من ابنة مروان ؟]

(٣) *أنساب الأشراف* ١: ٣٧٣.

(٤) *المغازي* ١: ١٧٣؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٦٣٧؛ انظر: *إمتاع الأسماع*: ١٠٢.

(٥) وَصْفُهُ باليهوديّ جاء من ابن سعد والمقريزيّ. انظر: *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٢٨؛ *إمتاع الأسماع*: ١٠٣؛ يقول البلاذريّ: وقيل عفك أيضاً. *أنساب الأشراف* ١: ٣٧٣.

(٦) وكانت فئة من الخزرج وفئة من الأوس تعرف بهذا الاسم. انظر: *معجم قبائل العرب* ٢: ٨٣٤.

ولم يُشر الواقديّ هنا إلىٰ طلب النّبيّ ﷺ أن يُكفىٰ شرّه في حين جاء ذلك في خبر ابن إسحاق. علىٰ أيّ حال قتله سالم بن عمير الّذي كان من هذه الطّائفة أيضاً[١]، مع أنّ البلاذريّ يورد خبراً آخر بقتل الإمام عليّ عليه السلام إيّاه[٢]. وأنشدت امرأة مسلمة شعراً تمدح فيه قاتله وتعدّه حنيفيّاً وتودّ لو أنّها تعرفه أكان من الإنس أم من الجنّ[٣].

وقُتل شاعر آخر في تلك الفترة أيضاً. وكان من أعيان اليهود بالمدينة، وهو كعب بن الأشرف. طائيّ المَحتد لكنّ أمّه كانت من يهود بني النّضير[٤]. يقول ابن شهاب: كانت في المدينة طوائف شتّىٰ. أمّا المسلمون فقد التفّوا حول النّبي ﷺ. وأمّا اليهود فقد كان فيهم أهل سلاح وحصون، وبعضهم كان حليفاً للأوس والخزرج. وأمّا المشركون فقد ظلّوا علىٰ أصنامهم عاكفين. وجهد النّبيّ ﷺ أن يقرّ الأُلفة والمودّة فيما بينهم[٥]. وفي مقابل هؤلاء، كان هناك بعض المشركين واليهود الّذين يؤذون رسول الله ﷺ والمسلمين. وأشار القرآن الكريم إلىٰ هذا الأذىٰ. قال تعالىٰ: **﴿لَتُبْلَوُنَّ فِى أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾**[٦].

وكان كعب بن الأشرف من البارزين في أذى النّبيّ ﷺ. وذهب إلىٰ مكّة بعد بدر. وأنشد شعراً في رثاء القتلىٰ من قريش وحرّضها على المسلمين. ومن الطّريف أنّه كان إذا نزل علىٰ قومٍ، هبّ حسّان إلىٰ هجائهم بأمر النّبيّ ﷺ. ولمّا كانت

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٤٣٥، ٤٣٦؛ *المغازي* ١: ١٧٥، ١٧٦.

(٢) *أنساب الأشراف* ١: ٣٧٤. (٣) *المغازي* ١: ١٧٥.

(٤) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٥١. (٥) *تاريخ المدينة المنوّرة* ٢: ٤٥٩.

(٦) آل عمران: ١٨٦. ونزلت هذه السّورة في السّنة الثّالثة من الهجرة لتتناول غزوة أُحد. حول الآية المذكورة انظر: *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٦: ٤٠.

قصائده الهـجائيّة قويّة، فإنّ من نزل عندهم كعب يطردونه كي لا يتعرّضوا لهـجاءٍ أكثر. وتكرّر هذا الأمر مرّات حتّىٰ عاد كعب إلى المدينة بدون أن يجد له مأمناً. وقد حان الوقت ليتخلّص المسلمون من شرّه[١].

وذكر ابن اسحاق ما أنشده من شعر شبّب فيه بالنساء مضافاً إلىٰ ما مارسه من أعمال ضدّ الإسلام[٢]. ولم يكن قتله باليسير إذ ما انفكّ يرقب نفسه، وكان يعيش في بيت كحصنٍ بين يهود بني النّضير[٣]. فالمشكلة الأصليّة هي إخراجه وقتله[٤]. وعزم محمّد بن مسلمة وأبو نائلة أن يُخرجاه من داره بمكيدة، فطفق أبـو نـائلة يسـتأذن رسول الله ﷺ لخديعته[٥].

وإذ كان أبو نائلة أخا محمّد بن مسلمة، وكعب بن الأشرف من الرّضاعة، فـقد ذهب إلىٰ كعب وقال له في خلوةٍ بينهما: كان قدوم هذا الرّجل ـ رسول الله ﷺ ـ علينا من البلاء، وحاربتنا العرب ورمتنا عن قوس واحدة، وتقطّعت السُّبُلُ عنّا حتّىٰ جهدت الأنفس وضاع العيال. وأخبره أنّه يريد إذلال النّبيّ ﷺ. ثمّ قال له إنّه يريد أن يشتري من تمره وليس معه مال، لكنّه مستعدّ أن يرهن عنده أسلحةً. وهذا في الأصل مكرٌ مَكَرَهُ المسلمون حتّىٰ إذا جاءوا في وقت آخر بأسلحتهم يأمنهم كعب إذ كان يشعربالذُّعر طبيعيّاً. فتوجّه المسلمون ليلاً وشايعهم رسول الله ﷺ حتّى البقيع.

---

(١) *المغازي* ١: ١٨٧؛ *أنساب الأشراف* ١: ٣٧٤. وأشرنا من قبل أنّه كم للشّعر من وَقْعٍ ولا سيّما الهجائيّ منه، وهو ماكان يتحاماه الكثيرون، حتّىٰ إنّ المشركين أنفسهم، لهجاء حسّان بن ثابت إيّاهم، لم يطيقوا وجود كعب بن الأشرف الّذي كان يرثي قتلاهم. من هنا تظهر حسّاسيّة النّبيّ ﷺ حين يُقْتَلُ مـثل هؤلاء الشّعراء الّذين كانوا يحرّضون الكفّار على المسلمين.

(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٥٤.

(٣) كانت آثار حصنه الّذي يدلّ علىٰ إحكامه بادية قبل سنين قـليلة (١٣٩٧ هـ). انـظر: **مـدينةشناسى** [علم المدنيّات] ٢٤٦ـ ٢٤٨.

(٤) *تاريخ المدينة المنورة* ٣: ٤٥٦.

(٥) نفسه ٢: ٤٥٧.

وطرق أبو نائلة باب كعب فخرج إليه كعب. فحالت زوجته دونه قائلةً له: إنّك رجل محارب، ولا ينزل مثلك في هذه السّاعة. فلم يلتفت إليها، وخرج. فتحدّثوا ساعةً، وبعد موافقته مشوا إلىٰ موضع يُدعىٰ «شرج العجوز» وفي الطريق مسح أبو نائلة شعر كعب بيده، ومدح عطره الّذي كان متعطّراً به. وفعل ذلك مرّة أُخرىٰ حتّى اطمأنّ إليه. وفي المرّة الثّالثة سلسلت يداه في شعره وأخذ بقرون رأسه، وطرحه أرضاً وقال لأصحابه: اقتلوا عدوّ الله! ثمّ تركوا حيّ بني النضير الّذين كانوا قد أوقدوا النار علىٰ سطوح دورهم حين سمعوا صيحة كعب، وأتوا المسجد مسرعين. وكان رسول الله ﷺ مشغولاً بالصّلاة. وعندما سمع تكبيرهم خرج يستقبلهم[١].

وذكر عبّاد بن بشر القصّة الجميلة لمقتل كعب بن الأشرف في شعر له يؤكّد فيه أنّهم كانوا خمسة سادسهم الله سبحانه. وأرعب قتله يهود المدينة. وقال النّبيّ ﷺ في غد ذلك اليوم: من ظفرتم به من رجال اليهود فاقتلوه. فلم يطلع عظيم من عظمائهم[٢]. وفي شعر أنشده كعب بن مالك في واقعة بني النضير أشار إلىٰ أنّ قتله [قبل ذلك] أذلّ بني النّضير. وأكّد أنّه كان بأمر رسول الله ﷺ[٣]. وفي شعر حول غزوة بني النضير ونسبه ابن إسحاق إلى الإمام عليّ عليه السلام وشكّ ابن هشام في نسبته إليه إشارة إلىٰ قتل كعب بن الأشرف وكيفيّة وقوع الحادثة[٤].

ولمّا رأى الخزرج أنّ الأوس حازوا علىٰ شرف قتل كعب استأذنوا النّبيّ ﷺ في

---

(١) *المغازي* ١: ١٨٧ ـ ١٨٩؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٥٥ ـ ٥٧.

(٢) نفسه ١: ١٩١؛ نفسه ٣: ٥٦.

(٣) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٥٧، ١٩٩.

فغودر منهم كعبٌ صريعاً ... فذلّت بعد مَصْرعه النّضيرُ

بأمر محمّد إذ دسّ ليلاً ... إلىٰ كعب أخا كعبٍ يسيرُ

(٤) نفسه ٣: ١٩٧.

قتل ابن أبي الحقيق اليهوديّ وقتلوه. ونُقل عن حسّان شعر حَسَن في مدح الأنصار لقتلهم ذينك الشّخصين[١]. ونقل ابن سعد أنّ اليهود أتوا النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بعد قتل كعب، وقالوا له أنّ رفيقهم قُتل فتكاً، فذكّرهم بأفعاله وطلب منهم عقد حلف جديد معه، فعقدوا. وذكر ابن سعد أنّ ذلك الحلف كان عند عليٍّ عليه السلام[٢].

وكانت جريرة كعب العظمىٰ في الأصل ذهابه إلىٰ مكّة وتحريضه قريشاً علىٰ الإسلام، مضافاً إلىٰ أنّه كان شاعراً هجّاءً للدّين. وكان يهود المدينة قد تعهّدوا ألّا يعاشروا قريشاً، ولا يتعاونوا معها أبداً. وقبل ذلك جاء في حلف أهل المدينة، وفيهم اليهود، مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّ من ظلم أو ارتكب خطيئةً فسوف يعاقَب[٣]. وجريرته الأخرىٰ ذكره أسماء بعض النّساء المسلمات في أشعاره ممّا يسبّب الأذىٰ لهنّ.

يقول ابن إسحاق: لمّا أمر النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بقتل من يُظفَر به من رجال اليهود، قام محيصة بن مسعود، وهو من الأوس، بقتل أحد تجّار اليهود الّذي كان طرفاً في تجارته. فاعترضه أخوه فقال له محيصة: لو كان النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أمر بقتلك وأنت أخي لقتلتُكَ. فقال محيصة: هذا الدين الّذي بلغ بك إلىٰ هذا الأمر لعجيب. وهذا الموضوع مهد لإسلام محيصة[٤].

٢ ـ الموقف من المشركين

ندرك حسّاسيّة النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في قتل الشّعراء الّذين كانوا يهجون الإسلام والمسلمين وشخصه صلى الله عليه وآله وسلم بنحو أفضل إذا عرفنا تأثير الشعر علىٰ عرب الجاهليّة. وكان هذا

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٢٧٦.

(٢) *المصنّف*، عبد الرزّاق ٥: ٢٠٤؛ *تاريخ المدينة المنوّرة* ٢: ٤٦١؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٦: ٤٦.

(٣) انظر: موضوع *أوّل دستور للأمّة الواحدة*.

(٤) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٥٨؛ وجاء فيه خبر آخر حول إسلامه.

التأثير بالغاً بشكلٍ لا حدّ له، ويُذاع مباشرة فيملأ الأرجاء. ونـقل المـؤرّخون أنّ يهوديّاً يُدعىٰ يسير بن رزام ـ أو رازم ـ كان بخيبر، وقد حرّض غطفان علىٰ مهاجمة النّبيّ ﷺ، فوجّه إليه كتيبةً بقيادة عبد الله بن رواحة فقتله[1].

وكانت بين بدر وأحد غزوات صغيرة لم يحدث فيها قتال. وتوجّه رسول الله ﷺ إلىٰ قبيلة بني سُلَيم بعد مضيّ سبع ليالٍ علىٰ بدر. ومكث هناك ثلاث ليالٍ ثمّ قـفل راجعاً بلا قتال. وجاء أبو سفيان المدينة في الخامس من ذي الحجّة سنة (٢) هجريّة ومعه مئتان من أصحابه، وكـان قـد نـذر ألّا يـبدأ حـياته العـاديّة مـا لم يـقاتل محمّداً ﷺ. فذهب عند بني النضير سرّاً. فلم يفتح له حيّ بن أخطب الباب. فقصد سلّام بن مشكم من يهود بني النّضير، وكان صاحب كنزٍ علىٰ حدّ تعبير ابن إسحاق ـ أي: كانت بينهما علاقات تجاريّة ـ فرفضه. ثمّ رحل إلى «العُـرَيض» في المـدينة، فأحرق فيها نخلاً ودارَين، وقتل أنصاريّاً مع أجيره، وذهب. ولـمّـا بلغ النّـبيّ ﷺ خبره عبّأ جيشاً وأشخصه إليهم. فتركت قريش متاعها بما فـيه القـمح وتـوجّهت بسرعة. من هنا سمّيت هذه الغزوة غزوة السّويق. وصار مقدار كبير من السّويق (قمح أو شعير) للمسلمين[2]. ودلّت هذه الحادثة علىٰ أنّ اليهود كـانوا يشكّـلون خـطراً مهمّاً. وكانت قريش تؤمّلهم. وخطر قريش نفسها كان جديّاً كما في السّابق، ولابدّ من مراقبتها.

وبعد مضيّ خمسة أيّام نحر رسول الله ﷺ شاةً أو اثنتين في العاشر من ذي الحجّة فطرح بذلك عنوان عيد الأضحىٰ. ويضاف إليه أنّ أحكام الديات والقصاص دُوِّنت في تلك السّنة أيضاً، وعلّقها النّبيّ ﷺ بمقبض سيفه[3]. وكانت قبيلتا غَطَفَان وسُلَيم

---

(١) *أنساب الأشراف* ١: ٢٨٥.

(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٤٤، ٤٥؛ *المغازي* ١: ١٨١، ١٨٢؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ٣٠.

(٣) *إمتاع الأسماع* ١: ١٠٦، ١٠٧.

من ألدّ أعداء الإسلام. وبلغ النّبيَّ ﷺ خبرُ تأهّبهما للقتال. فسار إليهما علىٰ رأس مئتين فلم يجد أحداً. وغنم منهما خمسمائة من الإبل، فأخذ خمسها وقسم الباقي على المقاتلين. وكانت القبيلتان حليفتين لقريش. وأعتق النّبيّ ﷺ راعي الإبل حين رآه يصلّي[١].

وعُرفت هذه الغزوة بقرقرة الكُدْر. وكانت هذه المنطقة علىٰ طريق المدينة، وتبعد عن خيبر نفسها شمال المدينة علىٰ بعد (١٦٥) كيلومتراً عنها. وفي تلك الفترة ذهب النّبيّ ﷺ حتّىٰ منطقة «فُرُع» علىٰ بعد (١٥٠) كيلومتراً جنوب المدينة يريد قريشاً، لكنّه لم يلق أحداً[٢]. وهذا يدلّ علىٰ أنّه كان مصرّاً على الحدّ من سطوة قريش.

ولمّا عجزت قريش عن مواصلة أعمالها التجاريّة لخطر طريق الشّام بسبب المسلمين وموادعة أهل السّاحل للنّبيّ ﷺ[٣] قصدت العراق. وأنفذ ﷺ في الشّهر الأوّل من السّنة الثالثة للهجرة جيشاً إلىٰ نجد بقيادة زيد بن حارثة. وكانت قافلة قريش مشغولة بتجارة الذّهب والفضّة، وكانت الثانية «عُظْم تجارتهم» علىٰ حدّ قول ابن إسحاق.

ونزل زيد عليهم في منطقة القَرَدَة، فغنم أموالهم وعاد إلى المدينة. وكان معه أسير فأسلم. وأنشد حسّان بن ثابت بيتين في هذه الحادثة[٤]. وأشار فيهما إلىٰ أنّ طريق الشّام غير آمن، كما أنّ طريق العراق غير آمن لهم أيضاً علىٰ عكس ما يظنّون.

٣ ـ الموقف من يهود بني القَينُقاع

وكانت الحادثة الأخرىٰ بعد بدر حرب يهود بني القينقاع. وكانوا يعيشون داخل

---

(١) *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ٣١؛ *المغازي* ١: ١٨٢، ١٨٣.

(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٤٦.

(٣) *المغازي* ١: ١٩٧.

(٤) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٥٠، ٥١؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٦: ٥١ ـ ٥٣.

المدينة في الحدّ الفاصل بين الحرّة الشّرقيّة والغربيّة، وهم طائفة مقتدرة من طوائف اليهود. ولم تكن لهم مزرعة وأعمال زراعيّة، بل كانوا يعملون في الصّياغة والصّناعة[١]. وكانوا في عداد من حضر الحلف أو ما سُمّي الصّحيفة، وتعهّدوا بالعمل بها، وأسلم منهم نفر إسلاماً ظاهريّاً لكنّهم كانوا في زمرة المنافقين[٢].

وروى الواقديّ أنّ رسول الله ﷺ حين شعر بعد بدر أنّهم يريدون الفتنة، جمعهم ودعاهم إلى الإسلام قبل أن يوقع الله بهم مثل وقعة قريش، فقالوا: إنّك قهرتَ في الحرب قوماً أغماراً، إنّا أصحاب الحرب. وحدث مرّة أن جلست امرأة، وهي زوجة لأحد الأنصار، في سوق بني قينقاع، فجاء رجل من يهودهم فجلس من ورائها ولا تشعر فرفع أسفل ثوبها إلى الأعلىٰ بشوكة... وقُتل بسبب هذه الحادثة واحد من المسلمين وواحد من اليهود.

وهذا العمل الّذي دلّ علىٰ بداية إيقاد اليهود الفتنة كان ينذر بخيانة أكبر. ونبّهت آية من سورة الأنفال ـ نزلت بعد بدر مباشرة ـ على الخوف من الخيانة، ووضّحت ما يفعله النّبيّ ﷺ في ذلك. قال تعالىٰ: ﴿**وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ**﴾[٣]. وذكر الواقديّ أنّ رسول الله ﷺ سار إليهم بهذه الآية[٤].

وحوصر حصنهم خمس عشرة ليلة إلىٰ أن نزلوا علىٰ حكم رسول الله ﷺ. واستسلموا فأمر بهم فرُبطوا. وبدأ الحصار يوم السّبت النّصف من شوّال وانتهىٰ في الأوّل من ذي القعدة السّنة الثّانية من الهجرة. وكان بنو القينقاع حلفاء الخزرج في

---

(١) ***المغازي*** ١: ١٧٩؛ ***أنساب الأشراف*** ١: ٣٠٩.

(٢) ***أنساب الأشراف*** ١: ٢٨٥. وكان مالك بن أبي قوقل أحدهم إذ عمل جاسوساً لليهود وهو عند رسول الله ﷺ.

(٣) الأنفال: ٥٨.

(٤) ***المغازي*** ١: ١٧٧؛ وانظر: ***الطّبقات الكبرىٰ*** ١: ٢٩؛ ***أنساب الأشراف*** ١: ٣٠٩.

الجاهليّة. أمّا المسلمون المؤمنون فإنّهم تبرّأوا من كلّ حلفٍ في الجاهليّة لأجل الإسلام، لكنّ عبد الله بن أُبيّ المنافق الخزرجيّ اعترض علىٰ رسول الله ﷺ وقال: كم أبلوا في الجاهليّة له ولطائفته. وظُنَّ أنّ رسول الله ﷺ أراد بربطهم قتلهم. ومهما كان فإنّه ﷺ حكم بإجلاء بني القينقاع. وأصرّ عبد الله علىٰ أن يتكلّم مع رسول الله ﷺ في أمرهم لكنّ عويم بن ساعدة الّذي كان في بيت النّبيّ ﷺ ردّه. فصاح عبد الله مخاطباً بني قينقاع أن يقاوموا، بيد أنّهم لمّا رأوه مدمىً لإصراره على الذّهاب عند رسول الله ﷺ قالوا له: لا نُقيم أبداً بدارٍ أصاب وجهك فيها هذا. فخرجوا من المدينة بدون أن يرموا بسهمٍ على المسلمين، وتركوا أسلحة كثيرة.

وكُلِّف عبادة بن الصّامت الّذي كان حليفاً لهم بإجلائهم. فوبّخه عبد الله المنافق. لكنّ عبادة قال: لمّا حاربتم جئتُ إلىٰ رسول الله ﷺ فقلتُ: يا رسول الله إنّي أبرأ إليك منهم ومن حلفهم. وخاطب عبد الله قائلاً له: يا أبا الحباب! تغيّرت القلوب ومحى الإسلام العهود[١]. علىٰ أيّ حال كان الظنّ أنّ رسول الله ﷺ عفا عنهم لتحالفهم مع الخزرج وإصرار عبد الله بن أُبيّ. ومن بين الطوائف اليهوديّة الثلاث بالمدينة طائفة تركت المدينة إلى الشّام، وسكنت في منطقة أذرعات[٢]. وليس في متناول أيدينا ما حدث لهم بعد ذلك.

---

(١) *المغازي* ١: ١٧٧ ـ ١٧٩. وذهب ابن إسحاق إلىٰ أنّ آيات من سورة المائدة، وهي آخر ما نزل من القرآن، نزلت بشأن عبادة بن ثابت. وهذا غير صحيح، وهو يدلّ علىٰ أنّ كتّاب السِّيَر، لمجرّد تشابه صوريّ بين الآية والواقعة، يربطون بينهما.

(٢) هذه المنطقة الآن في سوريا قرب مدينة درعا. انظر: *معالم الأثيرة في السنّة والسيرة*: ٢٥.

موقعة أُحُد

يبعد جبل أحد عن المدينة ستّة كيلومترات، وامتدّت المدينة الآن حتّىٰ سفحه. وقيل أنّه عُرف بهذا الاسم لتفرّده عن الجبال الأخرىٰ في المنطقة، وقيل إنّ رسول الله ﷺ سمّاه التّوحيد[١] لتعلّقه بالتّوحيد ورغبته في بثّه. وحدثت عنده في السّابع من شوّال سنة (٣) هجريّة إحدى المعارك المهمّة في عصر صدر الإسلام، وهي معركة أحد الّتي خلّفت تجربةً مرّةً لكنّها تربويّة. وتعدّ استثناءً بين غزوات صدر الإسلام.

وعزمت قريش الّتي جرحتها بدر على الثّأر لقتلاها. ومرّ أنّ أبا سفيان مع مئتين من أصحابه قصدوا المدينة للغارة فلم يتيسّر لهم إلّا قتل اثنين وحرق بعض البيوت. وهذه الخطوة أرضت قريشاً. من هنا أوقفت قافلة قريش العظيمة في دار النّدوة واتّفق القريشيّون علىٰ صرف أرباح ما في القافلة البالغ ألف بعير وخمسين ألف دينار في قتال المسلمين بعد دفع رؤوس أموال الأشخاص[٢]. وقيل إنّ قريشاً ارتضت ذلك عن طيب نفس، ومسك أبو سفيان زمام القيادة بوصفه ثائراً[٣]. ولم يكن لقريش عدد كاف من النّفير لشنّ حرب شاملة على المسلمين، لكنّها حرّضت عدداً من القبائل لدعمها بما كان لها من نفوذ ملحوظ بين ظهرانيها[٤].

وهكذا بادر عدد من عبد مناة أو بتعبير آخر الكنانيّين، والأحابيش ـ من العرب

---

(١) ***الروض الأُنف*** ٥: ٤٤٩، ٤٥٠. يقول السهيليّ: غيّر رسول الله كثيراً من الأسماء القبيحة للأماكن والأشخاص. ويبدو أنّ جبل أُحد كان يسمّىٰ في الجاهليّة عنقداً وسمّاه رسول الله ﷺ أحداً (***تاريخ المدينة المنوّرة*** ١: ٨٥). وقيل في تسميته إنّه لانفراده عن سائر الجبال عُرف بهذا الاسم.

(٢) ***الطّبقات الكبرىٰ*** ٢: ٣٧. الآيتان ٨ و٣٨ من سورة الأنفال تتحدّثان عن إنفاق المشركين للصدّ عن سبيل الله. وذهب البعض إلىٰ أنّ شأن نزولها بدر، وقال آخرون: أُحد.

(٣) ***المغازي*** ١: ٢٠٠.

(٤) انظر بهذا الشّأن: ***سبل الهدىٰ والرّشاد*** ٦: ٥٤.

الّذين كانوا يسكنون بمكّة وحلفاء قريش[١] ـ وطائفة من ثقيف إلىٰ نصر قريش[٢] بتحريض أبي سفيان وشعر بعض شعرائها. نحو أبي عزّة الجمحيّ شاعر قريش الّذي منّ عليه رسول الله ﷺ وأطلقه ببدر، وكان قد تعهّد أن لا يقوم بعمل ضدّ النّبيّ ﷺ، لكنّه دعا العرب إلىٰ إسناد قريش في شعر له. وكان تأكيده في شعره قد تمثّل في قوله: «لا تُسلموني لا يحلّ إسلامْ». أي إنّ العرب إذا قصّرت عن إسناد قريش فإنّ الإسلام سيعمّ الأرجاء[٣].

ونشب خلاف بين قريش حول أخذ النّساء إلى الحرب. وكان أخذهنّ معلماً علىٰ عزم الجيش على القتال، إذ تقع بيد العدوّ عند الهزيمة. كما كان لهنّ وقعهنّ في تحريض الجيش أيضاً. وكنّ يحفّزن الجيش بدفوفهنّ وأشعارهنّ في رثاء قتلىٰ بدر[٤]. وكان البعض يؤيّد خروجهنّ مع الجيش، والبعض الآخر يعارض ذلك، لكنّ الأكثريّة كانت تؤيّده. وأعلنت هند زوجة أبي سفيان عن استعدادها للحضور في ميدان القتال. ولمّا رأىٰ أبو سفيان الوضع كما كان عليه قال إنّه من قريش ولا يخالفها[٥]. ويدلّ هذا الخبر علىٰ نظام القيادة عند عرب الجاهليّة. ويشاور رؤساء القبائل وهم

---

(١) وهم بنو الهون، وبنو الحارث بن كنانة؛ وبنو المصطلق من خزاعة. تحبّشوا أي: تجمّعوا. انظر: ***تاج العروس*** ١٧: ١٢٧، ١٢٨؛ ذيل (حبش). انظر: ***المغازي*** ١: ٢٠١. وفي موضع من شعر حسّان بن ثابت حكم على الأحابيش بأنّهم لا حسب لهم «جمعتموها أحابيشاً بلا حَسَب». ***السّيرة النّبويّة***، ابن هشام ٣: ١٣٢.

(٢) على سبيل المثال مائة من ثقيف. انظر: ***المغازي*** ١: ٢٠٣.

(٣) ***أنساب الأشراف*** ١: ٣١٢؛ ***المغازي*** ١: ٢٠١؛ ***السّيرة النّبويّة***، ابن هشام ٣: ٦١.

(٤) ***المغازي*** ١: ٢٠٦. ولمّا سمع رسول الله ﷺ خروج النساء بالدفوف والطبول قال: أردن أن يحرّضن القوم ويذكّرنهم قتلىٰ بدر. انظر: ***المغازي*** ١: ٢٠٨.

(٥) ***المغازي*** ١: ٢٠٢. تلا ذلك إخراج رؤساء قريش نساءهم وأحياناً أمّهاتهم. للاطّلاع علىٰ أسمائهنّ انظر: ***أنساب الأشراف*** ١: ٣١٢، ٣١٣؛ ***السّيرة النّبويّة***، ابن هشام ٣: ٦٣؛ ***المغازي*** ١: ٢٠٢، ٢٠٣.

الوجهاء عندها الناس ولا يخالف أحد منهم كلامها.

وكان قوام الجيش ثلاثة آلاف مع تجهيزات كافية ـ ثلاثة آلاف بعير ومئتي فَرَس[١] ـ وتحرّك نحو المدينة وطبول النساء ودفوفهنّ تصحبه. ونقل المؤرّخون أنّ العبّاس بن عبد المطّلب كتب إلىٰ رسول الله ﷺ يُعلمه بتحرّك قريش ويعرّفه عدد جندها. وأعطى الكتاب رجلاً من بني غفّار. فأسرع فيه، وسلّمه لرسول الله ﷺ بقُباء. وأُمر أُبيّ بن كعب الّذي قرأه للنّبيّ ﷺ بالسّكوت[٢].

مع هذا سرعان ما انتشر الخبر في المدينة. ويضاف إلىٰ مبعوث العبّاس قدوم نفر من قبيلة خزاعة ـ حليفة رسول الله ﷺ ـ إلى المدينة بسُرعة وإخبارهم النّبيّ ﷺ بتحرّك قريش، ثمّ رجوعهم بسرعة. وحين انصرفوا وجدوا قريشاً ببطن رابغ علىٰ أربع ليال من المدينة. وعرفت قريش لكنّها لم تهتمّ كثيراً بكتمان الخبر، إذ كانت تفكّر باقتراحين: إمّا بقاء المسلمين داخل المدينة في بيوتهم وقلاعهم، وحينئذٍ تعمد إلىٰ قطع نخلهم، وإمّا يصحرون لها، ووقتئذٍ تعتقد أنّها ستهزمهم لأنّ عددها وسلاحها أكثر من عددهم وسلاحهم[٣].

وواصلت قريش مسيرها إلىٰ أن استقرّت في سفح أحد قرب «كوه عينين». وكانت المسافة بين الجرف قرب المدينة حتّىٰ وطاء قرب أحد أراضي زراعيّة تُروىٰ بالجمال النّاضحة. ولمّا سمع المسلمون خبر قريش جمعوا أدواتهم وعُدَدهم وأُجراءهم من المنطقة المذكورة. وقيل إنّ زرع المسلمين كان جاهزاً للحصاد[٤].

---

(١) *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ٣٧؛ *أنساب الأشراف* ١: ٣١٣.

(٢) *أنساب الأشراف* ١: ٣١٣، ٣١٤.

(٣) *المغازي* ١: ٢٠٥.

(٤) *المغازي* ١: ٢٠٧. وكانت أحد في الأوّل من شوّال سنة (٣) للهجرة. وصادف يوم الأحد (١٧) من آذار سنة ٦٢٤م. واليوم السّابع من شوّال الّذي نقل الواقديّ وقوع معركة أحد فيه (وذهب ابن إسحاق ⇐

إنّ الموضع الّذي ذهب الواقديّ إلىٰ أنّه مقرّ قريش كان جنوب جبل أحد علىٰ بعد كيلومتر إلىٰ كيلومتر ونصف في أقوى الاحتمالات. ومن الجدير ذكره أنّ مدخل المدينة كان متيسّراً من شمالها فحسب. من هنا دارت قريش حولها وكانت قد جاءت من الجنوب ودخلتها من الشّمال بحذاء جبل أُحد.

وقام المسلمون بالحراسة ليلاً حول المسجد لاحتمال شنّ العدوّ الغارة ليلة الجمعة[١]. وما كانت تفكّر به قريش من الاقتراحين هما الآن ممّا أصبحا أمام المسلمين أيضاً؛ فماذا عليهم أن يفعلوا؟ أهل يبقون في المدينة ويدافعون عنها أم يُصحرون للعدوّ؟ ودار حوار مفصّل بين رسول الله ﷺ وصحابته يوم الجمعة بعد الصّلاة. ومن بين أهل المدينة كان عبد الله بن أُبيّ يصرّ على البقاء في المدينة مستدلّاً علىٰ أنّ النّساء يستطعن عند البقاء أن يساعدنهم في رمي العدوّ بالحجارة. وقال: «وما خرجنا إلىٰ عدوٍّ قطّ إلّا أصاب منّا، وما دخل علينا قطّ إلّا أصبناه»[٢].

وقال الواقديّ بعد نقل هذا الكلام: «وكان رأي رسول الله ﷺ مع رأي ابن أُبيّ، وكان ذلك رأي الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار». لكنّه لم يذكر أحداً غير عبد الله بن أُبيّ يصرّ على البقاء فيها[٣]. وهذا ما رواه ابن إسحاق أيضاً[٤]. وفي مقابل ذلك يذكر الإثنان إصرار الصّحابة على الخروج من المدينة ولقاء العدوّ. ورأىٰ فتيان أحداث لم يشهدوا بدراً الخروج إلىٰ عدوّهم. كما رأىٰ ذلك رجالٌ

⇐ إلىٰ أنّ الوقعة كانت يوم السبت النصف من شوّال. انظر: *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ١٠٠؛ وذهب قتادة إلىٰ أنّها كانت في (١١) شوّال، انظر: *دلائل النّبوّة*، البيهقيّ ٣: ٢٠١) كان يصادف يوم السبت (٢٣) من آذار. من هنا تتطابق أيّام الأسبوع مع ما ذكره كتّاب السِّيَر دقيقاً. وكانت حرارة الجوّ في المدينة يومئذٍ كافية لحلول وقت الحصاد.

(١) *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ٣٧.

(٢) *المصنّف*، عبد الرزّاق ٥: ٣٦٤.

(٣) *المغازي* ١: ٢٠٩، ٢١٠.

(٤) *الطّبقات الكبرىٰ* ٣: ٦٣.

من أهل السّنّ، مثل حمزة بن عبد المطّلب، وسعد بن عبادة وغيرهما خشية أن يظنّ العدوّ فيهم جُبناً[١]، فيكون هذا جرأةً من قريش عليهم. وأكّد هذا آخرون أيضاً وذكروا أنّ البدو في الجاهليّة حين كانوا يهاجمون المدينة وهم فيها، لم ينقطع طمعهم فيها قطّ، وكان مالك بن سنان أكثر إصراراً على القتال لينال إحدى الحُسنيين إمّا النّصر وإمّا الشّهادة. وقال حمزة لرسول الله ﷺ: والّذي أنزل عليك الكتاب، لا أطعم اليوم طعاماً حتّىٰ أجالدهم بسيفي خارجاً من المدينة. وقال النعمان بن مالك إنّه في نظم الشّهداء فلم يحرمه رسول الله ﷺ من الشّهادة[٢]؟ ويقول المؤرّخون: وكان النّبيّ ﷺ يرى البقاء في المدينة، لكنّه لمّا رأىٰ إصرار القوم على الخروج استجاب. ثمّ وعظهم وأوصاهم بالجدّ والجهاد. وبعد أن صلّى العصر ذهب إلى البيت. ولمّا شعر الصحابة وقتئذٍ أنّهم خالفوا ما أراده رسول الله ﷺ قلقوا، وعندما رأوه لابساً لأمة الحرب، خارجاً من البيت، أتوه وقالوا: يا رسول الله، ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما بدا لك. فقال ﷺ: لا ينبغي لنبّي إذا لبس لأمته أن يضعها. ثمّ قال: امضوا على اسم الله فلكم النّصر ما صبرتم[٣]!

ولم يشكّ كتّاب السِّيَر في أنّ رأي رسول الله ﷺ باديَ الأمر هو البقاء في المدينة إلّا كاتباً معاصراً عرض الموضوع علىٰ سبيل الحدس، وأُجيب جواباً مناسباً[٤]. ويثار هنا سؤال وهو: أكانَ البقاء في المدينة وحياً إلٰهيّاً أم رأياً خاصّاً لرسول الله ﷺ؟ والجواب هو أنّنا لا نجد في الأخبار التّاريخيّة الشّائعة إشارة إلىٰ كونه وحياً، إلّا ما قاله الصّحابة حين رأوا نبيّهم ﷺ لابساً لأمته: ما كان لنا أن نلحّ علىٰ

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٦٣.

(٢) *المغازي* ١: ٢١١ ـ ٢١٣؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ١: ٦٣.

(٣) *المغازي* ١: ٢١٤؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ٣٨. انظر: *الصّحيح من سيرة النّبيّ* ﷺ ٤: ١٨٦ ـ ١٩٠.

(٤) انظر: *الصّحيح من سيرة النّبيّ* ﷺ ٤: ١٨٦ ـ ١٩٠.

رسول الله في أمر يهوىٰ خلافه لأنّ الأمر بيد الله، ثمّ بيد رسوله. وورد تعبير قالوه فيما بينهم أيضاً، وهو قولهم: «والأمر ينزل عليه من السماء»[١]. بيد أنّ رسول الله ﷺ نفسه لم يصرّ علىٰ رأيه باعتباره أمراً إلٰهيّاً. ولو كان كذلك لأظهره.

ورأىٰ رسول الله ﷺ ليلة الجمعة كأنّه في درع حصينة، وكأنّ سيفه ذا الفقار قد انفصم من عند ظُبته، وكأنّ بقراً تُذَبّح، وكأنّه مُردِف كبشاً، فأخبر بها أصحابه، وأوّلها فقال: أمّا الدّرع الحصينة فالمدينة... فكان رأي رسول الله ﷺ أن لا يخرج من المدينة لهذه الرؤيا[٢]. مع هذا قال الصحابة الّذين أصرّوا على الخروج إنّهم هم البقر المذبّح، وعلموا أنّهم يُستشهدون، فأصرّوا على الخروج. علىٰ أيّ حال، يمكننا أن نقول: لو كان الحكم بالبقاء في المدينة حكماً إلٰهيّاً لثبت عليه رسول الله ﷺ، أو في الأقلّ لظلّ فيها بعد رجوع رؤساء الأنصار عن إصرارهم الّذي كان في غير محلّه.

ويبدو أنّ رأي رسول الله ﷺ الشّخصيّ هو البقاء في المدينة. لكنّه لمّا عرف أنّ الأكثريّة يريدون الخروج منها ما أحبّ أن يخالفهم. وبعد أن أدرك الأنصار خطأهم، قال ﷺ: «... ولا ينبغي لنّبيّ إذا لبس لأمته أن يضعها». وسبب ذلك أنّ اتّخاذ القرار في هذه الأُمور لا يمكن أن يكون في جوٍّ من الشّك والتّرديد، ويخضع للتّغيير والتّبديل في كلّ لحظة. وكان النّبيّ ﷺ يأخذ رأي النّاس بعين الاعتبار في موضوع الحرب، لأنّ تحمّل خسائر الحرب لم يكن أمراً يسيراً، وإذا كان النّاس قد وافقوا علىٰ عملٍ وأصرّوا عليه، فإنّهم يرون تبعاتِه نابعةً من قرارهم. ويضاف إليه أنّ مراعاة مشاعرهم في مثل هذا الموضوع المهمّ يربط جأشهم في الحرب[٣].

---

(١) *المغازي* ١: ٢١٣، ٢١٤؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ٣٨.

(٢) *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ٣٨.

(٣) من نافلة القول أنّ معركة أُحُد مصداق لتولّي الصّحابة عن أمر رسول الله ﷺ. فعصيانهم هنا وفيما تلاه خلال الحرب سبّب هذه المصائب حقّاً. وقد يصحّ أنّهم كانوا يرون أنفسهم مكلّفين بالطّاعة، لكن ⇐

وتحرّك الجيش الإسلاميّ عصر الجمعة، وتوقّف للاستراحة في منطقة تعرف بشيخين[١] وفيها استعرض رسول الله ﷺ الجند واحداً واحداً، وعزل الصّغار عن الجيش. وكان عبد الله بن أُبي قد جاء أيضاً مع عدد من حلفائه اليهود. فقال رسول الله ﷺ: «لا يُستنصَرُ بأهل الشّرك علىٰ أهل الشّرك»[٢]. وحين توقّف ﷺ في شيخين فارقه عبد الله مع شرذمة من المنافقين، واختار له منزلاً في جانب آخر. وتحرّك الجيش الإسلاميّ منتصف اللّيل وصلّى المسلمون الصّبح في أحد. واختاروا طريقاً أمرهم به رسول الله ﷺ كي لا يصطدموا بالمشركين[٣] ويسيروا به إلىٰ سفح أُحُد. وفي هذه اللحظة رجع عبد الله بن أُبيّ أدراجه ومعه ثلاثمائة من مرافقيه المنافقين[٤]. بيد أنّ رسول الله ﷺ مضىٰ ولم يلتفت وراءه. وهكذا بقي من الألف الّذين كانوا معه سبعمائة[٥]. وكان عبد الله يقول في توجيه رجوعه: نحن شرطنا له أن نذبّ عنه وننصره في مدينتنا لا خارجها. وأشرنا عليه أن يبقىٰ في داخلها ويقاتل فأبىٰ إلّا طواعية الغلمان!

⇐ المخالفات كانت تتناهىٰ إلىٰ حدٍّ ما. ولا يمكن أن نمرّ مروراً عابراً علىٰ رجوع ثلاثمائة من أفراد الجيش الإسلاميّ البالغ ألفاً. فهؤلاء الثلاثمائة كانوا من المسلمين المنافقين ـ ولو بمعنىٰ ضعيفي الإيمان ـ وكانوا يعيشون بالمدينة. وفي الوقت نفسه نجد كعب بن مالك يفتخر أمام العدوّ بأنّ للمسلمين نبيّاً يطيعونه في كلّ حال. فقد قال في شعر أنشده في غزوة أُحُد (*السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ١٣٣):

وفينا رسول الله نتبع أمره ... إذا قال فينا القولَ لا نتطلّع

تدلّىٰ عليه الروح من عند ربّه ... يُنزَّل من جوّ السماءِ ويُرفَع

نشاوره فيما نريد وقصرنا ... إذا ما اشتهىٰ أنّا نطيع ونسمعُ

(١) كان هناك حصنان صغيران يسمّىٰ كلٌّ منهما «أُطُم» اصطلاحاً. وكان يعيش فيهما شيخ وعجوز، لذا عرفت المنطقة بشيخَين.

(٢) *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ٣٩، ٤٨.

(٣) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٦٥.

(٤) جاء في خبر ابن إسحاق أنّ ثلث الجيش قد رجع بين الطريق حتّى أُحُد بحماية عبد الله بن أُبيّ. *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٦٤.

(٥) *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ٣٩٠؛ *أنساب الأشراف* ١: ٣١٥.

وقدّم لنا كتّاب السِّير معلومات ضروريّة عن الموضع الّذي استقرّ فيه المسلمون والمشركون، إلّا أنّ الموضع الدقيق لبعض الأسماء الواردة في السّيرة غير محدّد بشكل يُركن إليه. وجدير بالذكر أنّ المشركين نزلوا من سفح أحد، وأنّ المسلمين مرّوا من جانبهم ـ يساراً ـ وصعدوا نحو الجبل واستقرّوا في شِعب من أحد على حافّة الوادي[١]. وكان إلىٰ يسارهم جبل صغير يُدعىٰ عينين ثمّ سُمّي بعد ذلك جبل الرُّماة. وهكذا كان جبل أُحُد خلف النّبيّ ﷺ، وعينين عن يساره، واستقبل المدينة[٢]. هذا في وقت كانت المدينة خلف قريش، وبينها وبين أحد مسافة طويلة. وجعل رسول الله ﷺ عبد الله بن جُبَيْر علىٰ جبل عينين مع خمسين من أصحابه. ومن المحتمل احتمالاً قويّاً أنّ رسول الله ﷺ كان عن يمين جبل عينين وتقدّم قليلاً عليه. وكانت المسافة بين عينين وأُحد قبل ذلك أقلّ، لكن صغر الجبل الآن بسبب العمارة وشقّ الشّوارع، فزادت المسافة بينهما. وكان هذا الموضع في الحقيقة مدخل المدينة. وتكرّر بناء الحصون وتدميرها علىٰ جبل عينين (الرّماة) كثيراً ممّا أدّىٰ إلىٰ تآكله وصغره[٣].

وقيل خرج مع رسول الله ﷺ قُرابة ألف، لكن كما ذكرنا رجع منهم مع ابن أُبيّ حوالي ثلاثمائة[٤]. وكان لواء المهاجرين بيد عليّ بن أبي طالب عليه السلام[٥]. ولواء الأنصار

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٦٤ (ومضىٰ رسول الله حتّىٰ نزل الشّعب من أُحُد في عدوة الوادي إلى الجبل).

(٢) *المغازي* ١: ٢٢١ (فجعل أُحُداً خلف ظهره، واستقبل المدينة وجعل عينين عن يساره).

(٣) كتبنا في ذلك مقالة مستقلّة طبعت في المقالات التّاريخيّة، الدفتر الأوّل.

(٤) أنشد كعب بن مالك شعراً فيه بيت يذكر العدد بصراحة. (انظر: *دلائل النّبوّة*، البيهقيّ ٣: ٢٠٩)

ثلاثة آلاف ونحن نصية ثلاث مئين إن كَثُرْنا وأربعُ

(٥) كانت إحدىٰ فضائل الصحابة أن يكون اللواء أو الرّاية بيد أحدهم. وكان الإمام عليّ عليه السلام هو صاحب اللواء أو الراية عادةً لشجاعته. بيد أنّ بعض الرّواة ذوي الميول العثمانيّة يحاولون في كلّ مرّة طمس هذه

⇐

من الأوس بيد أُسيد بن حُضير، ومن الخزرج بيد الحُباب بن المنذر[١]. وكانت الوجوه البارزة لجيش المشركين خالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أُميّة، وعبد الله بن أبي ربيعة. ونقل الواقديّ أنّ رسول الله ﷺ صفّ الجند وساوى الصفوف[٢]. وخطب بعد ذلك وأوصى النّاس بالعمل بأحكام الله والتّناهي عن محارمه، وعدّ ذلك اليوم يوم أجر وذخر لمن ذكر الّذي عليه ثمّ وطّن نفسه له على الصّبر، واليقين، والجدّ، والنّشاط. وذكر أنّ جهاد العدوّ شديد كربُه لا يُيسّره إلّا الصّبر، وقال ﷺ: «... فإنّ الاختلاف والتّنازع والتثبيط من أمر العجز والضعف ممّا لا يحبّ الله»[٣].

وكانت وصيّته ﷺ للرُّماة علىٰ جبل عينين أن «احموا لنا ظهورنا، فإنّا نخاف أن نؤتىٰ من ورائنا، والزموا مكانكم لا تبرحوا منه؛ وإن رأيتمونا نهزمهم حتّىٰ ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم؛ وإن رأيتمونا نُقتل فلا تُعينونا ولا تدفعوا عنّا. اللّهمّ إنّي أُشهدك عليهم». وأكّد أنّ احتمال هجوم الخيل من ورائهم قائم، لكن لا تُقدم

⇐ الفضيلة. فممّا يذكرونه أنّ لواء المهاجرين كان بيد عليّ، وقيل أيضاً إنّه كان بيد مصعب بن عمير! وأطرف من ذلك كلّه ما رواه البيهقيّ عن مغازي موسى بن عقبة وجاء فيه أنّ حامل لواء المهاجرين كان أحد الصّحابة، وكان يقول: أنا عاصم ما في يدي. فقال له طلحة بن أبي طلحة: أي عاصم، أجئتَ لقتالي؟ قال: بلىٰ. ثمّ قتل طلحة. انظر: ***دلائل النّبوّة***، البيهقيّ ٣: ٢١٠. فمع أنّه واضح تاريخيّاً أنّ ذلك الشّخص لم يكن إلّا عليّاً عليه السلام لكن الراوي للخبر أحجم عن ذكر اسمه. وبشأن الأدلّة الّتي تُثبت أنّ لواء المهاجرين كان بيد الإمام عليّ عليه السلام يوم أُحُد، انظر: ***الصحيح من سيرة النّبيّ*** ﷺ ٤: ١٩٣ ـ ١٩٧.

(١) ***المغازي*** ١: ٢١٥. (٢) ***أنساب الأشراف*** ١: ٣١٦.

(٣) ***المغازي*** ١: ٢٢٢، ٢٢٣. وفي شعر كعب بن مالك إشارات إلىٰ أوامر رسول الله ﷺ وفي غضونها ذُكرت هذه النقطة وهي أن يَدَعوا الخوف من الموت جانباً ويكونوا خالصين لله:

قال رسول الله لمّا بدوا لنا ... ذروا عنكم هول المنيّات واطمعوا

وكونوا كمن يشري الحياة تقرّباً ... إلىٰ ملك يُحيا لديه ويُرجَعُ

انظر: ***السّيرة النّبويّة***، ابن هشام ٣: ١٣٣.

الخيل على النّبل[١]. وإنّ ما كان يخافه رسول الله ﷺ ووقع هو أنّ خيل قريش تحرّكت من جنوب جبل عينين نحو الشّرق، وأحاطت بعينين، وحملت على المسلمين الّذين كانوا في سفح أُحُد في الحدّ الفاصل بين أُحُد وعينين. وكانت المنطقة مفتوحةً بشكلٍ كانوا يرون فيه جبل عينين من بعيد، وفي اللحظة الّتي نزل فيها الجنود من على الجبل، تحرّكت الخيل نحوهم.

واشتدّ الرمي بالنبال بين الجانبين في البداية، وفي غضونه تراجعت قبيلة هوازن من المشركين[٢]. كما شهد القتال شخص يُدعىٰ أبا عامر من الأوس وكان قد لحق بقريش مع خمسين من قومه حين قدم رسول الله ﷺ المدينة. وكان يُعرف في الجاهليّة بأبي عامر الرّاهب وسمّاه رسول الله ﷺ أبا عامر الفاسق. وانبرىٰ يرشق المسلمين بالحجارة مع عصبة من عُبدان العدوّ. وحدث أوّل اصطدام حين دعا طلحة بن أبي طلحة صاحب لواء المشركين ومن بني عبد الدار إلى البراز، فخرج إليه أميرالمؤمنين عليّ عليه السلام، وبعد قتال يسير، ضربه الإمام علىٰ رأسه، «فمضى السّيف حتّىٰ فلق هامته حتّى انتهىٰ إلىٰ لحيته، فوقع، وانصرف عليّ عليه السلام»؛ فقيل له: ألا حززت رأسه؟ «قال: إنّه لمّا صُرع استقبلتني عورته فعطفني عليه الرحم، وقد علمتُ أنّ الله تبارك وتعالىٰ سيقتله ـ هو كبش الكتيبة»[٣].

وسُرّ رسول الله ﷺ حينئذٍ وكبّر. وحمل أخوه عثمان اللواء بعده. وحمل عليه حمزة فضربه بالسّيف علىٰ كاهله فقطع يده وكتفه حتّىٰ بدت رئته.

ثمّ صار اللواء بيد أبي سعد بن أبي طلحة الّذي قتله الإمام عليه السلام أيضاً علىٰ ما نقله

---

(١) *المغازي* ١: ٢٢٥؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ٤٠.

(٢) *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ٤٠.

(٣) *المغازي* ١: ٢٢٦ (إشارة إلى الرؤيا الّتي رآها النّبيّ ﷺ من قبل).

بعض الأخبار[١]. ووقعت حملات أُخرىٰ كذلك قُتِل فيها عدد من المشركين، قتلهم عليّ عليه السلام، وطلحة بن عبيد الله، والزّبير[٢]. وكان هذا النصر العجيب في السّاعات الأولىٰ من الحرب يبشّر بأملٍ كبيرٍ. كما خلخل الإجراءات المذكورة لجيش العدوّ. وتفرّقت نساء قريش اللائي كنّ يحرّضن الجيش، ولم يوبّخن الفارّين[٣]. وفي غضون ذلك أراد خالد أن يحمل من جهة جبل عينين مراراً فجوبه بالرُّماة ولم يقدر على التغلغل[٤]. وتواصل هذا الوضع حتّىٰ لاحق المسلمون العدوّ ودخلوا معسكره[٥]. ويدلّ كلام لنسطاس الّذي كان يومئذٍ مولىً لصفوان بن أميّة وخُلِّف في العسكر علىٰ أنّ المسلمين تقدّموا حتّىٰ أسروه واستولوا علىٰ أموال العسكر[٦].

مع هذا ينبغي ألّا نتصوّر أنّ العدوّ قد تفرّق وانهزم في تلك اللحظة بشكل تامّ. والدليل علىٰ ذلك هو هجوم خالد بالخيل من صوب شرق عينين ودورانهم حوله وعبورهم من الحدّ الفاصل بين أُحُد وجبل عينين. وفي اللحظة الّتي توجّه فيها المسلمون نحو المعسكر ظنَّ الرُّماة أنّ عملهم قد انتهىٰ، فنزلوا من الجبل لئلّا يُحرموا

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ١٢٧؛ *المغازي* ١: ٢٢٧. وقُتل في أُحُد تسعة من بني عبد الدّار كانوا يصرّون علىٰ أن يكون اللواء بأيديهم تبعاً لسنّة جاهليّة. انظر: *المغازي* ١: ٣٠٧، ٣٠٨.

(٢) *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ٤١.

(٣) بشأن شعرهنّ في تحريض المشركين انظر: *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٤٠؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٦٨؛ *أنساب الأشراف* ١: ٣١٧:

نحن بناتُ طارق — نمشي على النّمارق

إن تُقبلوا نعانق — أو تُدبروا نفارق

فراق غير وامق

(٤) انظر: *مجمع البيان* ٢: ٤٩٦.

(٥) *أنساب الأشراف* ١: ٣١٨.

(٦) *المغازي* ١: ٢٣٠.

من الغنائم على الرغم من إصرار قائدهم على البقاء[١]. ولمّا عرف خالد أنّ الجبل خلا من الرُّماة حمل[٢]، فقاومه عبد الله بن جُبير مع أصحابه الّذين كانوا أقلّ من عشرة حتّى استشهدوا. وبعد ذلك انقضّ العدوّ على المسلمين المتفرّقين الّذين لم يكونوا متأهّبين للقتال قطّ. يقول نسطاس: كنّا قد استسلمنا للمسلمين وإذا الجبل خلا ورأيتُ أصحابنا يكرّون على المسلمين. ويقول: رأيتُ رُماة المسلمين قبل ذلك وقد نزلوا من الجبل متأبّطي قِسيّهم وجعابهم، وكلّ رجل منهم في يديه أو حضنه شيء قد أخذه! وحين بدأ كرّ خالد فرّ المسلمون من كلّ جهة وأكثرهم فرّ إلىٰ جبل أُحُد، وبعضهم ذهب إلى المدينة[٣].

واضطربت الأوضاع بنحوٍ كان المسلمون يضرب بعضهم بعضاً ويجرح أحدهم الآخر دون أن يشعروا حتّىٰ قُتل أحدهم بسيف مسلم آخر[٤]. واستُشهد مصعب بن عُمير في تلك اللحظة، قتله المشركون. والّذي قتله ظنّ أنّه رسول الله صلى الله عليه وآله فصاح: قُتل محمّد[٥]. فزاد من تفرّق المسلمين، وترك كثير منهم ساحة الحرب لهذا السّبب[٦]. يقول كعب بن مالك: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله فجعلتُ أصيح، وأشار إليّ باصبعه علىٰ فيه أن أسكت[٧]. وظنّ المشركون أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قُتل فتراخوا عن القتال

---

(١) نزلوا من الجبل منادين: الغنيمة، الغنيمة. انظر: ***دلائل النبوّة***، البيهقيّ ٣: ٢٦٧.

(٢) ***الطّبقات الكبرىٰ*** ٢: ٤١؛ ***أنساب الأشراف*** ١: ٣١٨؛ ***المغازي*** ١: ٢٣٢. وجاء في تعبير الواقديّ: نظر خالد بن الوليد إلىٰ خلأ الجبل وقلّة أهله. وفسّر بعض المترجمين خلأ الجبل بالمضيق في حين لم يرد موضوع المضيق أساساً.

(٣) ***المغازي*** ١: ٢٣١.

(٤) هو اليمان والد حُذيفة بن اليمان. وجُرح أُسَيد بن حُضَير بيد أحد الأنصار؛ انظر: ***أنساب الأشراف*** ١: ٣٢٢. ولمّا كان أكثرهم قد غطّوا رؤوسهم ووجوههم، لذلك قلّما كانوا يُعرَفون.

(٥) ***السّيرة النّبويّة***، ابن هشام ٣: ١٤٢؛ ***أنساب الأشراف*** ١: ٣٢٣.

(٦) ***المغازي*** ١: ٢٨٠، ٢٨١.

(٧) ***السّيرة النّبويّة***، ابن هشام ٣: ٨٣؛ ***المغازي*** ١: ٢٣٥، ٢٣٦.

وملاحقة المسلمين. وسأل أبو سفيان: أيّكم قتل محمّداً؟ قال ابن قمِيئة: أنا قتلتُه. قال نُسوِّرك كما تفعل الأعاجم بأبطالها(١).

وجعل أبو سفيان يبحث عن النّبيّ ﷺ بين القتلىٰ. ولمّا لم يجده عرف أنّ ابن قميئة قد كذب؛ وقال خالد أيضاً إنّه رآه أقبل في نفر من أصحابه مصعدين في الجبل. ودام القتال حتّىٰ أسفل الجبل، وفيه استُشهد آخر الصحابة. ثمّ صعد المسلمون الجبل وانفضّ الاشتباك(٢). وكان لوجود الشّعب في الجبل تأثير كبير في حفظ حياة النّبيّ ﷺ ونجاة عدد من الصحابة. لذا قال ابن الزبعرىٰ في شعره: ولولا علوه الشعب غادرن أحمدا(٣).

وبلغ تفرّق المسلمين واضطرابهم مبلغاً أنّ محمّد بن مسلمة كان يقول: أبصرت عينايَ رسول الله ﷺ وإنّه ليقول: إليّ يا فلان، إليّ يا فلان، أنا رسول الله! فما عرّج منهما واحد عليه ومضيا(٤). وكان خالد بن الوليد يقول بعد ذلك: إنّه رأىٰ عمر حين كان ينهزم نحو الجبل، فنكب عنه وخشي أن يغري به من معه أن يصمدوا له(٥). وفرّ بعضهم حتّىٰ وصل إلىٰ محلّة المنقّىٰ قريباً من المدينة(٦). وقال نملة بن أبي نملة: لمّا انكشف المسلمون ذلك اليوم نظرتُ إلىٰ رسول الله ﷺ وما معه أحد إلّا نُفَير... وإنّ كتائب المشركين لتحوشهم مقبلةً ومدبرةً في الوادي، يلتقون ويفترقون، ما يرون أحداً من النّاس يردّهم(٧).

ومثّل المشركون بأكثر الشّهداء ومنهم حمزة سيّد الشّهداء. وكانت المثلة ببعضهم

---

(١) *المغازي* ١: ٢٣٦؛ *أنساب الأشراف* ١: ٣٢٣.

(٢) *المغازي* ١: ٢٨١.

(٣) *مجمع البيان* ٢: ٥١٣.

(٤) *المغازي* ١: ٢٣٧.

(٥) نفسه.

(٦) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٨٧.

(٧) *المغازي* ١: ٢٤٠.

كعمرو بن الجموح بجدٍّ فصلت فيه أعضاؤه بعضها عن بعض حتّىٰ غدا لا يُعرف[١]. وجاء في خبر أنّ هنداً والنساء الأُخريات قد مثّلن بجميع الشّهداء إلّا حنظلة إذ كان أبوه مع المشركين وهو الّذي منعهنّ من التّمثيل بابنه[٢]. وذكرت هند زوجة أبي سفيان أنّ ما دفعها إلى التمثيل بحمزة هو التشفّي منه لقتلىٰ قريش.

شفيتُ من حمزةَ نفسي بأُحُد   حتّىٰ بقرتُ بطنه عن الكَبد[٣]

ويتحدّث المقداد عن صمود رسول الله ﷺ، ومقاومته مع أربعة عشر من أصحابه حتّى اللحظة الأخيرة، ومن ثمّ كرّه على العدوّ بالنّبل والحجارة في وقت فرّ النّاس عنه[٤]. وقد التفّ بعضهم حول رسول الله ﷺ مرّة أُخرىٰ بُعيد الفرار ثمّ زاد

---

(١) *المغازي* ١: ٢٦٧.   (٢) نفسه ١: ٢٧٤.

(٣) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٩٢.

(٤) *المغازي* ١: ٢٤٠. تدور خلافات حول أسماء الفارّين، وهي لا تخلو من التّحريف عادةً. وقد رسخ هذا التّحريف في متن المغازي للواقديّ، ذلك أنّه عندما أُشير إلى الفارّين في النسخة الّتي طُبع الكتاب علىٰ أساسها، جاء فيها: «فلان وفلان شخص كانا من الفارّين. وذكر المصحّح في الهامش أنّ ما جاء في النصّ المذكور في **شرح *نهج البلاغة*** لابن أبي الحديد نقلاً عن الواقديّ هو اسم عمر وعثمان مكان فلان و فلان. (انظر: ص٢٢٧، وانظر أيضاً: ***دلائل النّبوّة***، البيهقيّ ٣: ٣١٠). وقال سعد بن أبي وقّاص في روايةٍ: «لزم طلحة النّبيّ ﷺ وكنّا نتفرّق عنه ثمّ نثوب إليه». انظر: ***المغازي*** ١: ٢٥٤. وذهب بعض الفارّين إلى المدينة، وبعضهم صعد حتّىٰ سفح الجبل. يقول الواقديّ: «أتينا عمر بن الخطّاب في رهطٍ من المسلمين قعوداً، ومرّ بهم أنس بن النضر ... فقال: ما يقعدكم؟ قالوا: قُتل رسول الله. قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا علىٰ ما مات عليه». ***المغازي*** ١: ٢٨٠. وذكر مثله ابن إسحاق أيضاً، وقال في سياقه: كان عمر، وطلحة، ونفر من المهاجرين والأنصار قاعدين. انظر: ***دلائل النّبوّة*** ٣: ٢٥٤؛ ***السّيرة النّبويّة***، ابن هشام ٣: ٨٣. ويتبيّن من هذا أنّ طلحة كان من الفارّين أيضاً. وكان عمر يقول أيضاً: إنّي أرقىٰ في الجبل كأنّي أُرْويه حتّىٰ انتهيتُ إلىٰ رسول الله ﷺ. (***المغازي*** ١: ٣٢١) ولا يُعلَم متىٰ لقي النّبيّ ﷺ. وتحدّث الأستاذ السيّد جعفر مرتضىٰ عن الفارّين في أُحد مفصّلاً. انظر: ***الصحيح من سيرة النّبيّ*** ﷺ ٣: ٢٤١ ـ ٢٥٠. وجدير بالذكر أنّ الله تعالىٰ عفا عن هذه الكبيرة الّتي ارتكبها الصحابة.

عددهم تدريجاً. يقول الواقديّ: أوّل نفر بلغوا بني حارثة ورجعوا سراعاً طائفة من الأنصار. وفي كرّتهم صادفوا المشركين فدخلوا في حومتهم، وما أفلت منهم رجل حتّىٰ قُتلوا[١]. ويحدّث ضرار بن الخطّاب الّذي كان في عداد المشركين أنّ جمعاً من الأنصار رجعوا بعد الهزيمة، فقتلناهم وكانوا قد صبروا لنا[٢]. وكانت الهجمات المتجدّدة لبعض المسلمين قد أدّت إلىٰ تحسّن الأوضاع نوعاً ما، لكنّ قريشاً أخذت ثأرها. ويبدو أنّ قيادتها لم تُرد في تلك الظّروف أكثر ممّا وقع. ولو كان رسول الله ﷺ قد استُشهد لكان خيراً لهم. علىٰ أيّ حال عزموا على الرّجوع.

وكان للجهود الفرديّة الّتي بذلها بعض الصّحابة تأثير كبير في المحافظة علىٰ حياة النّبيّ ﷺ والسّيطرة على الوضع بالحجم الّذي ظلّ فيه الإسلام قائماً. وكان الإمام عليّ عليه السلام في نظم أفضل من صمد إذ لم يفارق رسول الله ﷺ حتّى اللحظة الأخيرة. وتحدّث عليه السلام في البصرة مشيراً إلىٰ وقعة أُحد، والظّروف العصيبة يومئذٍ، وقتاله العدوّ[٣]. وجاء في خبر ابن هشام أنّ ابن أبي نجيح قال: سُمع يوم أحد نداء

لا فتىٰ إلّا عليّ　　لا سيف إلّا ذوالفَقار[٤]

وقيل إنّ الإمام عليه السلام جُرح ذلك اليوم سبعين جراحةً[٥]. ونقل ابن هشام شعراً للحجّاج بن علاط السُلَميّ يمدح فيه شهامة الإمام عليه السلام وشجاعته في قتل طلحة بن أبي طلحة وإخوته الآخرين الّذين كانوا حَمَلَة لواء العدوّ[٦]. ومهما كان فالإمام عليه السلام نفسه كان راضياً عن سيفه في هذه الحرب، ذلك السّيف الّذي كان يقطر دماً وقد

---

(١) *المغازي* ١: ٢٥٧.　(٢) نفسه ١: ٢٨٣.

(٣) نفسه ١: ٢٥٦.

(٤) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ١٠٠؛ *مجمع البيان* ٢: ٤٩٧.

(٥) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٤٧؛ *دلائل النّبوّة*، البيهقيّ ٣: ٢٣٤.

(٦) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ١٥١.

اعوجّ بعد الحرب[١]. وعنّف نساء المدينة أحد المنافقين واسمه قزمان وكان رجع إلى المدينة مع عبد الله بن أُبيّ، ثمّ التحق برسول الله ﷺ مرّة أُخرىٰ. وكان شجاعاً وكرّ على العدوّ بشدّة وقتل واحداً أو اثنين إلىٰ أن جُرح، فوصل إليه قتادة بن النّعمان وقال له: هنيئاً لك الشّهادة! قال قزمان: ما قاتلتُ علىٰ دينٍ، ما قاتلتُ إلّا على الحِفاظ أن تسير قريش إلينا حتّىٰ تطأ سَعَفَنا. (وجاء في بعض الأخبار: قدمتُ الحرب لأذبّ عن الحسب). ولمّا سمع ذلك رسول الله ﷺ قال: من أهل النّار[٢]. وكان هدفه ﷺ إضفاء الصّبغة الدّينيّة على الحركة الجهاديّة بنحو تامّ. لذا عندما أنشد كعب بن مالك: مجالدنا عن جِذمنا كلّ فخمةٍ، قال ﷺ: لو قلتَ: مجالدنا عن ديننا كلّ فخمة لكان أفضل[٣]. ونجد في مقابل قزمان رجلاً مثل عمرو بن ثابت الّذي أسلم ذلك اليوم واستُشهد في الحرب دون أن يصلّي صلاةً واحدةً[٤].

وجُرح رسول الله ﷺ في وجهه وفمه ـ وطعن أُبيّ بن خلف بحربته فجرحه، ثمّ مات في رجوع قريش إلىٰ مكّة[٥]. وأثنىٰ ﷺ علىٰ قتال ثلّة من أصحابه: عليّ ؑ، وسهل بن حُنيف، وأبي دجانة، وعاصم بن ثابت، والحارث بن الصمّة[٦]. وكان قرب المدينة من موضع القتال ـ وكذلك فرار بعض الأشخاص إلى المدينة ووصول أخبار الحرب إلىٰ أهل المدينة ـ باعثاً علىٰ قدوم عدد من أهلها إلىٰ أُحُد. وأسرعت بعض

---

(١) **دلائل النّبوّة**، البيهقيّ ٣: ٢٨٣.

(٢) **المغازي** ١: ٢٢٤، ٢٢٥؛ **السّيرة النّبويّة**، ابن هشام ٣: ٨٨. بعد جرحه أخذ السّيف فاتّكأ عليه حتّىٰ خرج من ظهره. انظر: **المغازي** ١: ٢٦٤. (٣) **السّيرة النّبويّة**، ابن هشام ٣: ١٣٥، ١٣٦.

(٤) **المغازي** ١: ٢٦٢؛ **السّيرة النّبويّة**، ابن هشام ٣: ٩٠. قالوا: وكان مخيريق اليهوديّ من أحبار اليهود لحق برسول الله ﷺ ذلك اليوم وأوصىٰ بأن تكون أمواله كلّها لرسول الله ﷺ. انظر: **المغازي** ١: ٢٦٢، ٢٦٣؛ **السّيرة النّبويّة**، ابن هشام ٣: ٨٨؛ **أنساب الأشراف** ١: ٣٢٥.

(٥) **السّيرة النّبويّة**، ابن هشام ٣: ٨٤؛ أنشد حسّان بن ثابت شعراً جميلاً في ذلك. انظر: المصدر نفسه: ٨٥.

(٦) نفسه ٣: ١٠٠؛ **المغازي** ١: ٢٤٩.

النساء المسلمات إلى العطشىٰ فسقينهم، وإلى المجروحين فداوينهم[١]. واصطدم بعضهنّ بالعدوّ وجرحن مثل نسيبة الّتي كانت في ميدان القتال منذ الصّباح[٢]. وذكر الواقديّ أخبار سائر النساء اللّائي كنّ في أُحُد مفصّلاً[٣]. وأخذ أبو دجانة في بداية الحرب سيفاً من رسول الله ﷺ ومشىٰ بين الصفّين متبختراً. فقال رسول الله ﷺ: «إنّ هذه لمشية يُبغضها الله عزّ وجلّ إلّا عند القتال»[٤].

وكان الشّهداء من المسلمين سبعين. وفقد كثير من نساء الأنصار عدداً من أقاربهنّ. وحملت زوجة عمرو بن الجموح جنازة زوجها، وابنها، وأخيها علىٰ بعير لها قاصدة المدينة، وكانت تقول: «أمّا رسول الله ﷺ فصالح، وكلّ مصيبةٍ بعده جَلَل». وكان بعيرها يبرك في ذهابه إلى المدينة، وعندما توجّهه راجعة إلىٰ أُحُد يُسرع. ودفنهم رسول الله ﷺ في أُحد[٥]. ولقي ﷺ في الطريق حَمْنه بنت جحش، فعزّاها باستشهاد أخيها عبد الله، وصبرت. ثمّ عزّاها باستشهاد خالها حمزة، وبعد ذلك عزّاها ببعلها مصعب بن عمير، فصاحت، فقال ﷺ: إنّ للزوج من المرأة مكاناً ما هو لأحدٍ[٦].

ولمّا كان لهذه الحرب بعد ثأريّ (كان أبو سفيان يقول: يوم بيوم بدر) فإنّ بعض الأشخاص كانوا يبحثون عن قتلة آبائهم. فقد كُلِّف وحشيّ الّذي قيل إنّه كان غلاماً لجبير بن مطعم أو لبنت الحارث بن عامر بقتل عليّ عليه السلام أو حمزة عليه السلام. فكان يبحث

---

(١) *المغازي* ١: ٢٤٩، ٢٥٠.

(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٨١، ٨٢؛ *المغازي* ١: ٢٦٨، ٢٦٩.

(٣) انظر: *المغازي* ١: ٢٦٩ ـ ٢٧٣.

(٤) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٦٧؛ *دلائل النّبوّة* ٣: ٢٣٤.

(٥) *المغازي* ١: ٢٦٥. كان كثير من المفجوعين يهدأ روعه إذا سمع سلامة رسول الله ﷺ. انظر: *المغازي* ١: ٢٩١، ٢٩٢.

(٦) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٩٨.

عن حمزة في ميدان القتال حتّىٰ إذا وجده ضربه بحربته فقضىٰ عليه، ومُثّل بجسده الطاهر[١]. وأعدّ الواقديّ كلّ ما سمعه عن هذا الحرب، ولابدّ من القول إنّه أخبرنا بأفضل أخبارها.

ولمّا كانت معركة أُحُد معركة الشّهادة فإنّ الحكايات عن جَلَد النساء، وشجاعة الرّجال، ولقطات الإخلاص الحماسيّة كثيرة فيها. وعندما بلغ المسلمون سعد بن الرّبيع وفيه اثنتا عشرة طعنة بالحربة قال مخاطباً الأنصار وهو في أنفاسه الأخيرة: الله، الله، وما عاهدتم عليه رسول الله ليلة العقبة! والله ما لكم عذر عند الله إن خُلص إلىٰ نبيّكم ومنكم عين تطرف[٢]!

وعندما وضعت الحرب أوزارها ذهب أبو سفيان عند الجبل واقترب من الشِّعب الّذي كان فيه رسول الله ﷺ وأصحابه، وقال: أين ابن أبي كبشة؟ وهو لقب لقّب به المشركون رسول الله ﷺ. ثمّ قال: يوم بيوم بدر، وحنظلة بحنظلة[٣]؛ (كناية عن استشهاد حنظلة غسيل الملائكة في مقابل حنظلة بن أبي سفيان ببدر). ثمّ سأل: هل قُتِل محمّد؟ فقيل له: لا. وسُرّ بنصر هُبَل، ورأىٰ أنّ حادثة أُحد دليل علىٰ حقّانيّة الأصنام[٤]. وتحدّث عن التّمثيل بالشّهداء، وأنّ هذا العمل ليس بأمر الأكابر، مع ذلك

---

(١) *المغازي* ١: ٢٨٥، ٢٨٦؛ وقيل: هو الّذي قتل مسيلمة الكذّاب؛ لكنّه حُدّ في زمن عمر مراراً بسبب شربه الخمر إلىٰ أن حذف عمر اسمه من الديوان. وكان عمر يقول: كنتُ أعلم أنّ الله لا يدع قاتل حمزة. انظر: *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٧٣.

(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٩٥؛ *المغازي* ١: ٢٩٣.

(٣) قال ابن الزِّبعرىٰ في شعره أيضاً: (انظر: *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ١٣٧)

فقتلنا الضّعفَ من أشرافهم وعدلنا ميل بدر فاعتدل

(٤) ولمّا عاد إلىٰ مكّة أيضاً ذهب إلىٰ هُبَل قبل بيته، وشكره علىٰ ظفرهم، وحلق رأسه؛ *المغازي* ١: ٢٩٩.

لم يمتعض منه[١]! وأضاف: ألا إنّ موعدكم بدر علىٰ رأس الحول! فأمر رسول الله ﷺ أن يجيبوه بالايجاب.

وبعد ذلك توجّه جيش قريش إلىٰ مكّة. وذكر ابن إسحاق أنّ رسول الله ﷺ أوفد الإمام عليّاً عليه السلام ليرىٰ أهل ذهبوا حقّاً أم هي مكيدةٌ منهم[٢]. لكنّ ما ظهر دلّ علىٰ ذهابهم. ويبدو أنّ بعض المشركين كانوا ينوون نهب المدينة بيد أنّ رجالاً حالوا دون ذلك، وممّا قالوه أنّ لديهم عوائل ولا يعلمون ماذا سيحدث لهم بعد ذلك، كما أنّ المسلمين لم يلاحقوا الفارّين منّا ببدر. وذكر الواقديّ أنّ رسول الله ﷺ بعث سعد بن أبي وقّاص ليأتيه بخبر القوم فذهب ورجع يخبر بابتعادهم ووجهه منكسر. وخلا به رسول الله ﷺ وسأله: حقّاً ما تقول؟ قال: نعم. ثمّ سأله: ما لي رأيتك منكسراً؟ قال: كرهتُ أن آتي المسلمين فرحاً بقفولهم إلىٰ بلادهم[٣].

طبيعيّاً كانت قريش تحتمل أيضاً جمع المسلمين قواهم مرّةً أُخرىٰ ومواجهتهم لهم بخاصّة أنّ كثيراً من الأوس والخزرج تخلّفوا عن الحرب لسبب أو آخر، ويُحتَمل التحاقهم بالجيش الإسلاميّ مرّة أُخرىٰ. والخسائر الّتي تكبّدها العدوّ لم تكن قليلة

---

(١) ذكر ابن إسحاق أنّ الحُلَيس بن زبان الّذي كان رئيس الأحابيش اعترض علىٰ أبي سفيان لتمثيلهم بحمزة، فطلب منه أبو سفيان ألّا يحدّث بذلك إذ كان خطأً منهم. انظر: *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٩٣، ٩٤؛ *المصنّف* لعبد الرزّاق ٥: ٣٦٦؛ *دلائل النّبوّة*، البيهقيّ ٣: ٢١٣.

(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٩٤.

(٣) *المغازي* ١: ٢٩٦ ـ ٢٩٨. ويمكن أن يكون رسول الله ﷺ قد بعث شخصين في مرحلتين مختلفتين. مع هذا إنّ من الملاحظات اللافتة للنظر في غزوة أُحُد هي أنّ بعض الأعمال تُنسَب إلى الإمام عليّ عليه السلام تارةً، وإلىٰ سعد بن أبي وقّاص أو الزبير تارةً أُخرىٰ. وليس هذا ببدع لأنّ الرّواة المدنيّين متّهمون في مثل هذه المجالات. ومن المناسب هنا أن ننقل رواية عن صلح الحديبيّة: يقول ابن عبّاس: كاتب الصّلح هو عليّ عليه السلام. ويقول معمّر سألتُ الزّهريّ في ذلك، فضحك وقال: الكاتب عليّ عليه السلام لكن لو سألت بني أميّة لقالوا: عثمان. *المصنّف*، عبد الرزّاق ٥: ٣٤٣.

لا سيّما أنّ المنطقة هي منطقة المسلمين. كما أنّ من مشكلات قريش هي أنّ أكثر خيولهم قد عُقرت من النّبل ولا قدرة لها على الحرب[١]. ويبدو أنّ رسول الله ﷺ رجع إلى المدينة في أوّل الليل وصلّىٰ بالمسلمين المغرب والعشاء. وكان الأنصار يحرسون مسجده وبيته ﷺ تلك الليلة حتّى الصّباح إذ كان من المحتمل رجوع قريش أو في الأقلّ قيام جماعة منها بشنّ الغارة.

وكان الشهداء أربعاً وسبعين. وبينهم وجوه بارزة من المهاجرين والأنصار منهم حمزة ومصعب بن عمير. واستُشهد من بني عبد الأشهل الّذين كانت مساكنهم قريبة من أُحُد اثنا عشر. وقال ابن الزّبعرىٰ في قتلى المسلمين:

ليت أشياخي ببدر شهدوا — جزع الخزرج من وقع الأسل

حين حكّت بقباء بركها — واستحرّ القتلُ في عبد الأشل[٢]

يريد من تشبيهه الحرب بالجمل الواضع صدره على الأرض بقُباء أنّ عدداً كبيراً من شهداء المسلمين كانوا من قُباء وواصل كلامه عن مقتل بني عبد الأشهل.

ومن الشهداء مجذَّر بن زياد، قتله الحارث بن سُوَيد الّذي كان من المسلمين أيضاً. وقصّتها أنّ مجذّراً قتل سُوَيد بن الصّامت في مكانٍ شاغر أيّام حروب الأوس والخزرج في الجاهليّة. ثمّ أسلم الحارث بن سويد ومجذَّر لكنّ الحارث كان يفكّر بالثّأر لأبيه، ولم يستطع أن يثأر له ببدر إلىٰ أن نشبت حرب أُحُد، فاستغلّ تفرّق المسلمين وقتله غيلةً. ونقل الواقديّ أنّ رسول الله ﷺ عرف ذلك بعد واقعة أُحُد بأيّام إذ أخبره جبرئيل ﷺ بها. فركب ﷺ إلىٰ قباء في اليوم الّذي أخبره جبرئيل، في يوم حارّ، وكان لا يذهب إلىٰ قباء إلّا يوم السّبت والاثنين، للصّلاة في مسجدها. فعرف أهلها أنّ قدومه ﷺ إليها في غير الوقت المألوف يدلّ علىٰ حادثة غير طيّبة.

---

(١) *المغازي* ١: ٢٩٩. (٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ١٣٧.

ودعا ﷺ عويم بن ساعدة وقال له: قدّم الحارث بن سويد إلىٰ باب المسجد واضرب عُنقه. فحاول الحارث أن يوصل نفسه إليه ﷺ وأعرب عن ندمه وقال إنّه مسلم حقّاً لكنّ هوى النّفس غلب عليه، وأعلن عن استعداده لدفع ديته، وأن يُعتق رقبةً، ويصوم شهرين متتابعين، ويُطعم ستّين مسكيناً. فقال النّبيّ ﷺ: قدّمه يا عويم فاضرب عنقه[١]! وكانت هذه الواقعة درساً تربويّاً للمسلمين قاطبةً. كان عليهم أن ينسوا الجاهليّة. وبهذا العمل دلّ رسول الله ﷺ علىٰ أنّه غير مستعدّ أن يتعدّىٰ حدود الله تعالىٰ في تنفيذ حكمٍ بحقّ مجرمٍ ارتكب خلافاً، بل لم يسمع توسّله وأنينه وتوبته.

وقُتل من المشركين ثلاثة وعشرون أو أربعة وعشرون. ونقل ابن إسحاق أنّ ستّة منهم قتلهم الإمام عليّ عليه السلام[٢]. ومن هؤلاء أبو عزّة الجمحيّ الّذي كان الأسير الوحيد في غزوة أُحُد. وكان قد أُسر ببدر من قبل لكنّه توسّل برسول الله ﷺ واستغاث به أن يمنّ عليه بفدائه لكثرة عياله. ثمّ اتّفق أن يؤسر بأُحد، وفي هذه المرّة طلب من النّبيّ ﷺ أن يمنّ عليه أيضاً فقال ﷺ: «إنّ المؤمن لا يلدغ من جُحرٍ مرّتين. ولا ترجع إلىٰ مكّة تمسح عارِضَيك تقول: سخرتُ بمحمّد مرّتين». ثمّ أمر أن تُضرَب عُنُقه[٣]. وكان أُبي بن خلف في عداد القتلىٰ، جرحه رسول الله ﷺ بحربته، ثمّ هلك في طريق رجوعه إلىٰ مكّة.

ودُفِن عدد من الشّهداء في أُحُد، وأُتي بثُلّة أُخرىٰ منهم إلى المدينة ودفنوا بالبقيع،

---

(١) *المغازي* ١: ٣٠٥؛ *أنساب الأشراف* ١: ٣٢٢ ـ ٣٣١. ويختلف ما نقله الواقديّ عمّا ذكره ابن إسحاق ثمّ صحّحه ابن هشام. انظر: *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٨٩.

(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ١٢٧ (حول بعضهم خلاف). انظر: *دلائل النّبوّة* ٣: ٢٣٨.

(٣) *المغازي* ١: ٣٠٩؛ *أنساب الأشراف* ١: ٣٥؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ٤٣؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ١٠٤.

ووُريَ اثنان منهم في قباء. وجرىٰ هذا العمل من غير علم النّبيّ ﷺ، بيد أنّه علم به في وقتٍ كان نقلهم إلىٰ أُحُد متعذّراً. وكان أكثر الشّهداء يُدفَنون اثنين اثنين في قبر واحد، وأحياناً ثلاثة ثلاثة. وقال رسول الله ﷺ عند دفن مصعب الّذي كان من أولاد أشراف مكّة: «لقد رأيتُك بمكّة وما بها أحد أرقّ حلّةً ولا أحسن لمّة منك. ثمّ أنت شعث الرأس في بردة»[١]! ونقل الواقديّ أنّ بعض الشهداء دُفنوا بالصحراء متفرّقين، ولم تعرف إلّا بقبور بعضهم كحمزة بن عبد المطّلب، وسهيل بن قيس، وعبد الله بن عمرو ابن حزّام، وعمرو بن الجموح[٢]. وكان رسول الله ﷺ يذهب إلىٰ زيارة قبورهم في كلّ عام، وإذا بلغ أوّل القبور قال: «السّلام عليكم بما صبرتم فنعم عُقبى الدار». وهذه سيرة عمل بها الخلفاء من بعده أيضاً[٣].

وكانت السّيّدة فاطمة الزّهراء عليها السلام تذهب إلىٰ زيارة قبورهم كلّ ثلاثة أيّام[٤]. وهي الّتي أعلمت قبر حمزة بصخرةٍ[٥]. ويذكر الواقديّ كثيراً من الصّحابة الّذين كانوا يذهبون إلىٰ زيارة قبر حمزة وسائر الشّهداء من أُحُد. وبعد مضيّ ستّ وأربعين سنة أراد معاوية حفر قناة في أُحُد فطلب أن تحضر عوائل الشّهداء. وظهرت أجساد

---

(١) *الطّبقات الكبرىٰ* ٣: ٩٠.

(٢) كانت قبور بعض الشّهداء تبعد عن قبر حمزة خمسمائة متر. انظر: ***تاريخ المدينة المنوّرة*** ١: ١٢٩، ١٣٠، ١٣١.

(٣) ***تاريخ المدينة المنورة*** ١: ١٣٢؛ ***دلائل النّبوّة***، البيهقيّ ٣: ٣٠٦ ـ ٣٠٨. وكان عليّ عليه السلام يسلّم علىٰ شهداء أُحُد أيضاً؛ انظر: ***دلائل النّبوّة***، البيهقيّ ٣: ٣٠٩؛ ***وفاء الوفاء*** ٣: ٩٣٣؛ وكان النّاس يصلّون عند قبر حمزة أيضاً؛ انظر: ***دلائل النّبوّة***، البيهقيّ ٣: ٣٠٨؛ ***البداية والنّهاية*** ٤: ٤٥؛ (ليلتفت الوهّابيّة).

(٤) ***المغازي*** ١: ٣١٣؛ ***وفاء الوفاء*** ٣: ٩٣٢؛ ***دلائل النّبوّة***، البيهقيّ ٣: ٣٠٩.

(٥) ***تاريخ المدينة المنوّرة*** ١: ١٣٢.

بعضهم عند الحفر حتّىٰ أُجبروا علىٰ تغيير موضع قبر بعضهم. وقيل إنّ الأجساد كانت سالمة تماماً[١].

ولمّا يمّم رسول الله ﷺ المدينة قادماً من أُحُد لقي أمّ سعد بن معاذ فعزّاها بعمرو ابنها. ثمّ قال: «يا أمّ سعد أبشري وبشّري أهليهم أنّ قتلاهم قد ترافقوا في الجنّة جميعاً ـ وهم اثنا عشر رجلاً ـ وقد شُفِّعوا في أهليهم». قالت: رضينا يا رسول الله، ومن يبكي عليهم بعد هذا[٢]؟ وكان هناك من دفعه ضعف إيمانه إلى الاعتراض. ولمّا جُرح يزيد بن حاطب ووسِّد في المدينة محتضراً بشّره المسلمون بالجنّة، فقال أبوه: تعدونه جنّة يدخل فيها؟ غررتموه من نفسه حتّىٰ خرج[٣]! ومثل هذه الحالات كان قليلاً.

وجلس أهل المدينة لاسيّما نساؤهم للعزاء، ولمّا رأىٰ رسول الله ﷺ عزاء نساء الأنصار قال: أمّا حمزة فلا بواكي له[٤]، لذا كنّ يأتين بيته بعد صلاة المغرب ويبكينه، وهنّ نساء الأنصار ويقصدن العزاء علىٰ حمزة وتطييب قلب رسول الله ﷺ الّذي كان يحبّ حمزة. وكلّما جلسن للعزاء بعد ذلك يبدأن بحمزة[٥]. وأنشد شعراء الأنصار شعراً كثيراً في رثائه، ونقله ابن إسحاق[٦]. وجُرح ثلاثون من المسلمين، وظلّوا في بيوتهم، يداويهم الآخرون.

وفي هذه الأجواء طفق المنافقون واليهود يلومون المسلمين. وكان عبد الله بن أُبيّ الّذي جُرح ابنه في أُحد يقول: عصاني محمّد وأطاع الولدان. مع هذا وحفاظاً علىٰ

---

(١) انظر: *المغازي* ١: ٢٦٧ ـ ٢٦٨؛ *تاريخ المدينة المنوّرة* ١: ١٢٨؛ *وفاء الوفاء* ٣: ٩٣٦ ـ ٩٣٩.

(٢) *المغازي* ١: ٣١٦.

(٣) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٨٨.

(٤) *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ٤٤.

(٥) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٩٩؛ *دلائل النّبوّة*، البيهقيّ ٣: ٢١٦ ـ ٣٠١؛ *المغازي* ١: ٣١٦، ٣١٧؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٤٤.

(٦) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ١٥١ ـ ١٦٣.

منزلته في المسجد وتفوّقه قام بحضور رسول الله ﷺ وقال: هـذا رسـول الله بـين أظهركم، قد أكرمكم الله به؛ انصروه وأطيعوه. ولكن لخبثه الّذي ظهر في أُحُد قام إليه المسلمون وصاحوا: اجلس يا عدوّ الله! وجعل أبو أيّوب يأخذ بلحيته، وعبادة بن الصّامت يدفع في رقبته، ويقولان له: لستَ لهذا المقام بأهلٍ[1]! وذكر ابن إسحاق أنّ يوم أُحُد كان يوم بلاء ومحنة واختبار إذ عرّف الله المؤمنين والمنافقين، المنافقين الّذين يُظهرون الإيمان بألسنتهم ويبطنون الكفر في قلوبهم، وكان يوماً منّ الله به علىٰ أهل ولايته الّذين أراد بالشّهادة[2].

وكانت الواقعة المسمّاة بغزوة حمراء الأسد تتمّة لغزوة أُحُد. قالوا: لمّا جاء رسول الله ﷺ المدينة بلغه أنّ المشركين ندموا علىٰ تركهم المدينة ورجـوعهم إلىٰ مكّـة، فأمر ﷺ أن يتأهّب الصّحابة الّذين شهدوا أُحُداً، حتّى المجروحون الّذين لهم طاقة على المشي، للمسير إلى المشركين. والآية (١٧٢) من سورة آل عمران تتحدّث عن إجابة هؤلاء أمر رسول الله ﷺ، حتّى بعد جرحهم، إذ استجابوا لدعوة الله ورسوله.

وجاء رسول الله ﷺ حتّىٰ منطقة حمراء الأسد[3] وهذه المنطقة على الطّريق بين المدينة ومكّـة، وتـبعد عـن المـدينة عـشرين كـيلومتراً. وذهب الواقـديّ إلىٰ أنّ النّبيّ ﷺ تحرّك يوم الأحد، أي: في غد يوم أُحُد. وأعطى الراية عـليّاً عليه السلام[4]، ثمّ تحرّك. ولم يبعد عنهم العدوّ كثيراً وقتئذٍ. وأمر رسول الله ﷺ ليلة الاثنين أن توقد النار في خمسمائة موضع. ومرّ معبد بن أبي معبد الخزاعيّ ـ وهو يومئذٍ مشرك لكنّه

---

(١) ***المغازي*** ١: ٣١٨.

(٢) *التسيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ١٠٥؛ ***دلائل النّبوّة***، البيهقيّ ٣: ٢٧٤؛ نقل اللفظ المذكور عن الآخرين.

(٣) ***دلائل النّبوّة***، البيهقيّ ٣: ٢١٧؛ ***المغازي*** ١: ٣٤٠.

(٤) ونقل الواقديّ هنا قولاً آخر أيضاً وهو أنّها دُفعت إلىٰ أبي بكر! انظر: ***المغازي*** ١: ٣٣٦. وأشرنا في أحد الهوامش المتقدّمة إلىٰ فلسفة مثل هذا الاختلاف في الأخبار.

من خزاعة حليفة النّبيّ ﷺ ـ علىٰ رسول الله ﷺ حتّىٰ وصل إلىٰ أبي سفيان بالروحاء، فقال له: أهل المدينة مجمعون علىٰ ألّا يرجعوا حتّىٰ يثأروا لقتلاهم. وقيل: إنّ أبا سفيان نفسه لم يوافق على الرجوع، وكان يحتمل اتّحاد الأوس والخزرج، ومقاومتهم بشدّة، حتّىٰ من تخلّف منهم في أُحُد[١].

وسار المشركون نحو مكّة بسرعة وكانوا قد خشوا اجتماع أهل المدينة. ووصل خبرهم إلى المدينة. ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد ثلاثة أيّام أمضاها في حمراء الأسد[٢]. ومهما كان فالتّحرّك المذكور خطوة وقائيّة مهمّة لصدّ الهجوم القرشيّ على المدينة، ويضاف إليه أنّه يمثّل نوعاً من تعزيز المعنويّات لأناس كانوا قد هُزموا بشدّةٍ أمس.

موقعة أُحد في القرآن الكريم

قال ابن عوف لشخص سأله عن أُحد: «يا ابن أخي عُدَّ بعد العشرين ومائة من آل عمران فكأنّك حضرتنا»[٣]. وذكر ابن إسحاق أيضاً أنّ ستّين آيةً من سورة آل عمران خاصّة بأُحُد[٤]. ويتحدّث عدد من آياتها عن وقائع أحد بصراحة، وبعضها يشير إلىٰ نقاط عامّة بشكل غير صريح.

تخاطب الآية (١٢٠) المؤمنين فتقول: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾. وهكذا تهيّؤهم من الناحية الرّوحيّة لصبر أكثر من أجل الخلاص من مكر المشركين، وتحول دون قلقهم من شماتة العدوّ.

---

(١) *المغازي* ١: ٣٣٩.
(٢) *دلائل النّبوّة*، ابن هشام ٣: ٣١٥.
(٣) *المغازي* ١: ٣١٩؛ *أنساب الأشراف* ١: ٣٢٧.
(٤) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ١٠٦.

وتذكّر الآية الّتي تتلوها رسول الله ﷺ بيوم خروجه من أهله، وتعبئته المؤمنين لخوض الحرب. قال تعالىٰ: ﴿**وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾. وهذه الآية معدودة في الآيات النازلة بشأن أحد. لكنّ قوله: (غدوتَ) المترجَم بالصبح لا ينسجم مع ذهاب رسول الله ﷺ إلىٰ أُحُد عصر يوم الجـمعة. والّذي يرفع الإشكال هو تفسير «الغداة» بمطلق الخروج، كـما أنّ «الرّواح» مـطلق الرّجوع. فالمعنىٰ هو ليس الصبح، علىٰ عكس ما ورد في مختلف التّرجمات[1].

وتذكر الآية (١٢٢) الطّائفتين اللّـتين لم تـعزما عـلىٰ حـضور الحــرب. وذهب المفسّرون إلىٰ أنّهما بنو حارثة وبنو سلمة من الأنصار، بيد أنّ الّذي يُستشفّ مـن قوله: ﴿**وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا**﴾ هو أنّهما كانتا من أهل ولاية الله بمستوىٰ تحضران فيه القتال مع سائر المؤمنين. وجاء في آخر الآية قوله: ﴿**وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ**﴾.

ويُثار للمؤمنين هنا سؤال مفاده إنّ الله تعالىٰ لِمَ لَمْ ينصرهم في أُحُد. ويـبدو أنّ الجواب عن هذا السؤال يتمثّل في أنّ الله سبحانه يبيّن شروط نصره بذكر غزوة بدر. قال تعالىٰ: ﴿**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا ٱللَّهَ لَـعَلَّكُمْ تَشْكُـرُونَ * إِذْ تَـقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ * بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِن فَوْرِهِمْ هٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ**﴾. ويستبين من ظاهر الآيات أنّ رسول الله ﷺ كان يُذكّرهم بإمداد الله إيّاهم ببدر، وذلك قبل وقوع حرب أُحُد، ويقول: إن تصبروا وتتّقوا يزيدكم الله إمداداً أكثر من

---

(١) وجاء هذا التعبير أيضاً في قصيدة كعب بن مالك الّتي رثىٰ بها حمزة (*السّيرة النّبويّة*، ابـن هشـام ٣: ١٣٩)

غــــداةَ أجــابت بأســيافها　　　جـميعاً بـنو الأوسِ والخـزرج

بدر. فالصمود علىٰ أيّ حال من الشّروط الأصليّة للإمداد الإلٰهيّ[١]. يقول الواقديّ: «فلم يصبروا وانكشفوا فلم يُمَدّ رسول الله ﷺ بمَلَكٍ واحد يوم أُحُد»[٢].

ثمّ تأتي آيات لا علاقة لها بموقعة أُحُد إلّا الآية «١٣٢» الّتي تؤكّد إطاعة الله ورسوله. ومرّة أُخرىٰ تتناول الآية «١٣٩» فما تلاها ما حدث في أُحُد. وسبقتها إشارة إلى السنن الإلٰهيّة في التّاريخ في إبادة أقوام اتّهموا رسلهم بالكذب، وأنّ النظر فيما حدث ونتائجه بيان للناس وهدًى وموعظة للمتّقين. ثمّ قال تعالىٰ في الضربة الّتي تلقّاها المسلمون بأُحد: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّالِمِينَ﴾. وكثير من المسلمين الّذين لم يشهدوا بدراً كانوا يتمنّون الشّهادة بعد ذلك[٣].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ وكانت ذريعة كثير من الفارّين يوم أُحُد خبر قتل النّبيّ ﷺ. قال تعالىٰ في الآية «١٤٤»: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّاكِرِينَ﴾.

وكان كثير من ضعفاء الإيمان والمنافقون يزعمون أنّ المسلمين يُقتَلون في غير سَدَد. قال تعالىٰ في الآية «١٤٥»: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً﴾ وبعد ذلك يضرب مثالاً علىٰ مقاومة أصحاب الأنبياء السّابقين في الحروب فيقول: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا ٱسْتَكَانُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّابِرِينَ * ... فَآتَاهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْآخِرَةِ﴾.

ويتحدّث في الآية «١٥٢» عمّا يرتبط بوعده سبحانه ونصره، وفرار المسلمين من

---

(١) انظر: *مجمع البيان* ٢: ٤٩٩؛ ويقول الواقديّ أيضاً: إذ تقول هذا يوم أُحُد؛ *المغازي* ١: ٣١٩.

(٢) *المغازي* ١: ٣٢٠.

(٣) *المغازي* ١: ٣٢١؛ *مجمع البيان* ٢: ٥١١.

ساحة القتال، ومن ثمّ هزيمتهم: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَا تُحِبُّونَ مِنكُم مَن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ[١] وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. وتدلّ هذه الآية علىٰ ماهيّة الصّحابة بصراحة إذ يميل بعضهم إلى الدّنيا، وبعضهم إلى الآخرة. وتمثّل هذه التّوجيهات الّتي تترافق مع ظاهرة النفاق السّائدة في المدينة هزّة لمن يعتقد بنظريّة عدول الصّحابة كلّهم. والطّريف في هذه الآية أنّها أثارت دهشة البعض واستغرابهم حتّىٰ قال قائلهم أنّه ما كان يحسب أنّ أحداً من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يطلب الدّنيا حتّىٰ نزلت الآية[٢].

ثمّ أشار سبحانه إلىٰ فرار المسلمين فقال جلّ شأنه: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِى أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. وبغضّ النّظر عن الآراء المختلفة في شرح هذين الغمّين[٣] إنّ الآية تُشير إلىٰ ما فُقد منهم وما نزل بهم من المصائب والقروح. ولعلّ المقصود من اللفظ المذكور هو ازدياد الغمّ بعد الغمّ في كلّ لحظةٍ بعد الفرار. فقد أضاعوا ما كان في أيديهم من النّصر. واستُشهد كثير منهم. والخبر الّذي شاع في أوساطهم هو مقتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِن بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِنْ شَىْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِى أَنْفُسِهِم مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ

---

(١) انظر الاحتمالات الواردة في تفسير هذه الفقرة من الآية في تفسير **مجمع البيان** ٢: ٥١٤.

(٢) *دلائل النّبوّة*، البيهقيّ ٣: ٢٢٨، ٢٢٩. (٣) *مجمع البيان* ١: ٥٢٣.

﴿مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾. وتمّ تأكيد هذا الموضوع نفسه في الآية (١٥٦) أيضاً.

وقال سبحانه في الآية (١٥٥) بشأن الفارّين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

وعفا تعالىٰ عن الفارّين الّذين ارتكبوا كبيرةً بفرارهم وقال لرسوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾. وقوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلأَمْرِ﴾ في الفارّين من الحرب، هو من أجل جذب قلوبهم لا محالةً، لذا قال بعدها ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ ممّا يشير إلىٰ أنّ صاحب القرار هو رسول الله ﷺ. وفي الوقت نفسه ينبغي أن نقول: إنّ مشاورة رسول الله ﷺ الصّحابة في الخروج من المدينة لا علاقة لها بالهزيمة. فما كان مهمّاً هو أهواء بعض الصحابة، الّتي جعلت الشّيطان يغويهم. وفي كلّ الأحوال إنّ ما حدث هو نتيجة أعمال النّاس أنفسهم.

قال تعالىٰ في الآية (١٦٥): ﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾. فجملة القول إنّ كلّ شيءٍ يتحقّق بإذن الله تعالىٰ. أي: كان متيسّراً أن يحول سبحانه من عالم الغيب دون هذا الحادث. لكنّه لا يفعل خلاف السُّنن الّتي وضعها في الكون إلّا لمصلحةٍ أكبر، وهي نفسها سنّة أُخرىٰ. والمصلحة هنا تستلزم إذنه تعالىٰ للمؤمنين والمنافقين أن يبدو كلّ ما عندهم، لذا قال في الآيات ١٦٦ ـ ١٦٨: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَاتَّبَعْنَاكُمْ[1] هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَا لَيْسَ فِى

---

(١) لعلّهم لا يقصدون أنّهم لو كانوا يعلمون قتالاً لاتّبعوهم، إذ كان واضحاً أنّ الحرب تنشب في كلّ حال: ⇐

قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ * ٱلَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. وهذه الآيات نزلت في المنافقين خصوصاً جماعة عبد الله بن أُبيّ.

ونحن نعلم أنّ رسول الله ﷺ جهّز جيشه بعد أُحد ليجعله علىٰ أهبة الاستعداد ويهدّد به المشركين، وجاء حتّىٰ حمراء الأسد. ولمّا بلغه أنّ المشركين ذهبوا ولا ينوون الرجوع عاد إلى المدينة. قال سبحانه بشأنهم في الآية (١٧٢) و(١٧٣) من آل عمران: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ * ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.

معالم رسول الله ﷺ في أُحُد

نلحظ أنّ رسول الله ﷺ منذ أن دخل المدينة، وأقام الصلاة في قباء بادئ الأمر، ثمّ بنىٰ مسجدها إلىٰ أن فارق الدنيا خلّف ذكرياته في عشرات المواضع الّتي تبرّكت بصلاته فيها، فصارت مساجد للمسلمين. سار ﷺ بهذه السّيرة في كلّ حيّ، وبين كلّ قوم وقبيلة. وكان النّاس في كلّ منطقةٍ يدعونه بشوقٍ إلىٰ تأسيس مسجد وإقامة الصّلاة فيه. وبلغ تعلّق النّاس به ﷺ أنّه حيثما ذهب وصلّىٰ، حتّى لو صلّىٰ معه أحد، اتُّخذت البقعة الّتي يصلّي فيها مسجداً، كما تتبرّك وتُقدَّس كلّ عين كان يشرب منها الماء، وتحظىٰ باحترام الجميع. وكانت سنّة التّبرّك جارية بجدٍّ وشرعيّة بين الصّحابة والتّابعين، وتتوفّر مئات الأدلّة لإثبات ذلك[1]. وأورد ابن شبّه فهرساً للمساجد الّتي

⇐ فكان قصدهم أنّ هذه الحرب جائرة وغير حقيقيّة؛ وكانوا يقولون: ما ندري علىٰ ما نقتل أنفسنا؛ فهذا انتحار. انظر: *أنساب الأشراف* ١: ٣١٥.

(١) وردت هذه الأدلّة مفصّلاً في كتاب *التبرّك* الثمين للأستاذ آية الله أحمدي ميانجي.

أقام رسول الله ﷺ فيها الصّلاة[١].

منها في غزوتَي أُحد والخندق إذ اتُّخذت بعض الأماكن الّتي صلّىٰ فيها رسول الله ﷺ، أو جلس، أو لبث فيها قليلاً مساجد للصلاة. وعندما صعد ﷺ إلىٰ شعب جرار في سفح أُحد وصلّىٰ فيه الظهر والعصر اتُّخذ ذلك المكان مسجداً عُرف بمسجد الفسح. وقيل إنّ هذه التّسمية تعود إلىٰ أنّ المكان المذكور كان ضيّقاً لحضور الصّحابة في الجماعة ونحن نعلم أنّ الله سبحانه أمر المؤمنين أن يتفسّحوا في المجالس إذا دخل عليهم أحد واحتاج إلىٰ مكان يجلس فيه[٢]. وروىٰ ابن شبّه عن رافع بن خديج أنّ رسول الله ﷺ صلّىٰ في مسجد صغير ملاصق لجبل أحد في شعب جرار[٣]. وشِيد مسجد آخرفي الموضع الّذي تكسّرت فيه ثنايا رسول الله ﷺ، فعُرف بقبّة الثنايا[٤].

وأشرنا من قبل إلىٰ أنّ رسول الله ﷺ لمّا تحرّك من المدينة إلىٰ أُحُد توقّف في حصن الشّيخين، فبُني عنده مسجد يعرف بمسجد الشّيخين أو مسجد البدائع[٥]. وفي رجوعه من أُحد مكث في الطريق هنيئةً ليستريح فبُني مسجد الاستراحة. وهو الآن على الشّارع، وتمّ ترميمه بشكل رائع[٦]. وقبل ذلك كان ﷺ قد توقّف في طريق بدر بمحلّة سقيا. فأُنشئ فيها بعد ذلك مسجد سقيا أيضاً.

---

(١) *تاريخ المدينة المنوّرة* ١: ٧٥ ـ ٧٩. (٢) المجادلة: ١١.

(٣) *تاريخ المدينة المنوّرة* ١: ٥٧؛ انظر: *معالم الأثيرة*: ١٥٠. وحول وضعه الحالي انظر: مجلّة *ميقات*، العدد ٧، ص ١٣٥.

(٤) انظر: *ميقات*، العدد ٧، ص ١٣٧.

(٥) *معالم الأثيرة*: ٢٥٤؛ وانظر: ص ٢٦٤ عن ابن شبّه.

(٦) تشرّفنا بزيارة هذا المسجد سنة ١٤١٤ هـ.

الوقائع الحادثة بين أُحُد والأحزاب

لا ريب في أنّ غزوة أُحد كانت ضربة فادحة للكيان الإسلاميّ. فاستشهاد سبعين من جيش قوامه سبعمائة يعني أنّ عُشر الجيش قد أُبيد. وجُرح كثيرون أيضاً وظلّوا يعانون من جروحهم مدّةً. وأدّت غزوة حمراء الأسد الناشبة في غد يوم أُحد إلىٰ تعزيز معنويّات المسلمين قليلاً. بيد أنّ أكبر هدف توخّته الغزوة المذكورة هو صرف قريش عن مهاجمة المدينة.

ومن الحريّ بالعلم أنّ عدوّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم يكن قريشاً وحدها، بل كان المنافقون واليهود داخل المدينة في عداد ألدّ الأعداء للإسلام. وسنقدّم بعض التّوضيحات حول اليهود. أمّا المنافقون فأوّل ملاحظةٍ عنهم هي أنّ العقبة الرئيسة في طريقهم تتمثّل في المؤمنين الّذين كانوا يعيشون داخل طوائفهم ولم يحيدوا قيد أنملة عن سبيل رسول الله صلى الله عليه وآله. وكانوا يراقبون المنافقين بشدّة، ويفرضون عليهم قيوداً خاصّة. يضاف إلىٰ ذلك أنّهم لم يكونوا من طائفةٍ خاصّة لذا لم يتيسّر لهم أن يحيكوا المؤامرات كجيش منظّم. ويجب ألّا ننسىٰ أنّ القرآن الكريم هاجمهم وفضحهم في أكثر السّور المدنيّة. مع هذا كان لهم دور مهمّ في إضعاف معنويّات المسلمين كما سنرىٰ ذلك في غزوة الخندق. وهذا أمضىٰ سلاحٍ كان بأيديهم. علاوة علىٰ ذلك أنّ إثارتهم الفرقة بين المسلمين، وتحريضهم الأنصار على المهاجرين، والأهمّ إحياءهم الأحقاد الّتي كانت بين الأوس والخزرج كلّ أولئك كان من أساليبهم السّياسيّة الأصليّة لإضعاف الإسلام. لكنّ التحرّك النّبويّ الرّصين أمام هذه الأساليب، ونزول الآيات القرآنيّة بشأنهم قد ضَيّقا عليهم العرصة حتّىٰ أنّنا لا نجد في السّيرة عملاً جادّاً قاموا به على الصعيد العمليّ. وعند ما نجد أنّ ابن عبد الله بن أبيّ يستأذن رسول الله صلى الله عليه وآله في قتل أبيه ـ ولم يأذن له طبعاً ـ يتسنّىٰ لنا أن نتصوّر مدى التّضييق الّذي كان على المنافقين

حتّىٰ في بيوتهم، مع أنّنا لا نَخَلْ أنّ عددهم كان قليلاً، ذلك أنّ ثلثمائة منهم تبعوا عبد الله بن أبيّ في أُحُد نفسها.

على أيّ حال، ومرّ بنا سلفاً، أنّ غزوة أحد ضاعفت لوم المنافقين، وانتشرت شبهاتهم أكثر من ذي قبل؛ مع هذا، ومن حسن الحظّ، أنّ حادثة أُحُد لم تكن علىٰ درجة من التّأثير المُفضي إلىٰ مواجهة الإسلام لمشكلة أساسيّة. وصحيح أنّ سبعمائة من المسلمين انهزموا أمام جيش قوامه ثلاثة آلاف في تلك العمليّات ـ وكان ذلك طبعاً بعد ظفرهم الأوّل وبسبب خطأ قابل للتّفادي ـ بيد أنّه لم تكن هنالك قوّة أقدر من قوّة الإسلام في المدينة وأطرافها. ويضاف إلى المنافقين واليهود أنّ القبائل المحيطة بالمدينة ـ بغضّ النّظر ـ عن علاقاتها بقريش ـ لطمعها في أموال أهل المدينة، كانت عدوّ المسلمين بالقوّة وبالفعل. منها قبيلة بني أسد. فإنّ هذه القبيلة الّتي كانت تعيش علىٰ بعد (٣٠٠) كيلومتر شمال شرق المدينة (باتّجاه منطقة القصيم) فكّرت بمهاجمة المدينة في المحرّم سنة (٤) للهجرة بعد مضيّ ثلاثة أشهر علىٰ واقعة أُحُد. وتجهّز منها الأخَوان طُلَيْحَةَ وسَلَمة ابنا خويلد (أسلم الأوّل منهما بعد ذلك، ثمّ ارتدّ بعد وفاة النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وادّعى النّبوّة، وفرّ في إحدى الحروب، ثمّ أسلم مرّة أخرىٰ) لمهاجمة المدينة مع قُرابة ثلاثمائة من طائفة بني أسد. والّذي دفعهم إلىٰ ذلك أنّ ماشية أهل المدينة كانت في خارجها ولهم أن يهاجموها اعتماداً علىٰ خيول سريعة ويحصلوا علىٰ غنائم منها ثمّ يفرّوا بلا اصطدام. وإذا واجههم المسلمون فإنّهم سيتمكّنون منهم بسبب ما عندهم من الخيول والإبل السّريعة. يضاف إلىٰ ذلك أنّ المسلمين قد خُذلوا في حربهم الأخيرة مع قريش، ولا يستطيعون أن ينظّموا قواهم إلىٰ مدّة من الزّمان.

وجاء في خبر الواقديّ أنّ شخصاً من بني أسد قال: «والله ما هذا برأي! ما لنا قِبَلهم وترٌ وما هم نُهبة لمنتهب؛ إنّ دارنا لبعيدة من يثرب، وما لنا جمع كجمع قريش. مكثت قريش دهراً تسير في العرب تستنصرها ولهم وِتر يطلبونه، ثمّ ساروا... ثلاثة

آلاف مقاتل». فلم يؤثّر كلامه علىٰ ما يبدو. وذكر خبره شخص من قبيلة طيء ـ وكانت تعيش في تلك المنطقة أيضاً بعيدة قليلاً ـ كان قد قدم المدينة لزيارة أحد أقاربه، وأعلم زوجه، وبلغ خبره رسول الله ﷺ[١].

ولم ينتظر رسول الله ﷺ مجيء بني أسد في حين أنّ هذا العمل يمكن أن يقضي عليهم دفعة واحدة، فبادر ﷺ إلىٰ إيفاد مئة وخمسين من أصحابه إليهم، وأميرهم أبو سلمة بن عبد الأسد، ودليلهم هو ذلك الطّائيّ الّذي سلك بهم غير الطّريق خلال أربعة أيّام حتّىٰ بلغ بهم قطناً (على بعد (٣٠٠) كم عن المدينة) حيث بئر من آبار العدوّ. وهاجموا إبلاً لبني أسد، وغنموها مع ثلاثة من العُبدان. وفرّ باقي العُبدان وأخبروا بني أسد بهجوم المسلمين، وتفرّقوا بعد ذلك. ومكث أبو سلمة يوماً واحداً هناك، واستولىٰ علىٰ ما كان من الإبل ورجع إلى المدينة. ويدلّ خبر آخر علىٰ وقوع اشتباك طفيف فرّ علىٰ أثره بنو أسد تاركين القتال[٢].

وكان أبو سلمة الّذي جُرح بأُحُد يظنّ أنّه شُفي من جرحه تماماً، لكنّه انفتح مرّة أُخرىٰ وما لبث أن استُشهد بسببه. وعدّه أرباب السِّير في نظم شهداء أُحُد.

والعمل الآخر الّذي قام به رسول الله ﷺ هو القضاء علىٰ أحد الوجوه المعاندة المتنفّذة من قبيلة هُذَيل. فقد ذكر ابن سعد أنّ رسول الله ﷺ أُخبربتأهّب سفيان بن خالد الهذليّ ـ من طائفة لحيان ـ لحرب المسلمين، فبعث ﷺ عبد الله بن أنيس في المحرّم من السّنة الرّابعة ليقتله. فجاءه عبد الله وقال له إنّه سمع بتجهيزه جيشاً لحرب محمّد ﷺ، وهو راغب في الالتحاق به. وبعد أن سارا قليلاً وتفرّق عنه أصحابه قتله وفرّ إلى المدينة[٣]. ولم يُشِر ابن إسحاق إلىٰ هذه الحادثة وتاريخها[٤]. كما أنّ

---

(١) *المغازي* ١: ٣٤١، ٣٤٢.
(٢) نفسه ١: ٣٤٥ـ٣٤٦.
(٣) *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ٥٠، ٥١.
(٤) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٦١٩، ٦٢٠.

الواقديّ لم يتطرّق إليها في حوادث السّنة الرّابعة[١]. ووقعت الحادثة المذكورة في منطقة عرنة قريباً من مكّة ـ على مسير يوم واحد[٢]. وأنشد عبد الله بن أنيس شعراً في ذلك وعدّ نفسه فيه حنيفيّاً فقال:

وَقُلتُ له خذها بضربة ماجدٍ حنيفٍ علىٰ دين النّبيّ محمّدِ[٣]

وينبغي عدّ الحادثة المذكورة في الحوادث الّتي همّت فيها قبائل الحجاز دون قريش، أو بتحريضها، بمعاداة الإسلام.

وعلىٰ هذا المنوال ينبغي أن نذكر حادثَتي الرجيع، وبئر معونة اللّتين تدلّان علىٰ عداء القبائل البدويّة للإسلام، ولابدّ من الإشارة تمهيداً إلىٰ أنّ الحادثتين المذكورتين قياساً بالحوادث الأُخرى الواقعة في التّاريخ الإسلاميّ مُنيتا بطابع قصصيّ إلىٰ حدّ كبير. وأدّىٰ هذا الأمر إلى اختلاف كثير في الأخبار المتعلّقة بهذه الوقائع، كما ولّد شكّاً جدّيّاً في كثير من التفاصيل المرتبطة بها.

وكانت الرجيع عين ماء لقبيلة هُذيل علىٰ بعد سبعين كيلومتراً شمال مدينة مكّة. ونقل بعض المؤرّخين أنّ حادثة الرجيع وقعت في صفر من السّنة الرّابعة للهجرة (الشّهر السّادس والثّلاثين من الهجرة، وذكر آخرون غيرهم أنّها كانت في السّنة الثالثة بُعَيد أُحُد. ونقل الواقديّ عن عروة بن الزّبير، قال: «بعث رسول الله ﷺ أصحاب الرّجيع عيوناً إلىٰ مكّة ليخبروه خبر قريش، فسلكوا على النّجويّة حتّىٰ كانوا بالرّجيع فاعترضت لهم بنو لحيان»[٤]. وذكر خبر آخر أنّ بني لحيان أرادوا من قبيلتَي عضل وقارة [اللتين كانتا من قبيلة بني هون بن خزيمة بن مدركة] أن يذهبوا

---

(١) جاء خبر السريّة المذكور في كتاب *سبل الهدىٰ والرشاد* نقلاً عن الواقديّ. انظر: ٦: ٥٧.

(٢) انظر بشأن وادي عرنة أو نخلة ـ إذ ذكرت نخلة في هذه الحادثة أيضاً ـ **معجم معالم الجغرافية في السّيرة النبويّة**: ٢٠٥.

(٣) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٦٢١.

(٤) **المغازي** ١: ٣٥٤.

معاً إلىٰ رسول الله ﷺ في مؤامرة مشتركة بذريعة الإسلام وطلب مبلغ من المال. وبعد ذلك قُبِض على الذّاهبين وسُلِّموا إلىٰ قريش ـ ويضاف إليه أن يقتلوا شخصاً في مقابل قتل سفيان بن خالد الهذليّ الّذي قتله عبد الله بن أنيس[١].

ومهما كان السّبب ـ وعُدّ هذا العمل غدراً وخيانةً في المنقولات التّاريخيّة وفي شعر حسّان أيضاً[٢] ـ فقد ذهب ستّة أو سبعة من الصّحابة إلىٰ منطقة الرجيع، ومُنوا ببني لحيان. ولم يرضخ ثلاثة أو أربعة منهم للأسر فاستشهدوا. وأُسر الآخرون وأُخذوا إلىٰ مكّة. وفيهم عبد الله بن طارق الّذي تمكّن من فكّ قيده في مرّ الظّهران وسلّ سيفه ليقاتلهم. فرجمه أعداء الإسلام وقتلوه. والآخران هما حبيب بن عديّ، وزيد بن الدّثنة، اللذان فُوِّض أمرهما إلىٰ مشركي مكّة فقتلوهما ثأراً لقتلاهم ببدر[٣].

وقيل إنّهما قاوما وصمدا حتّى النّفس الأخير أمام إصرار المشركين على ارتدادهما عن الإسلام[٤].

وكانت هذه الحادثة ضربة أخرىٰ للمسلمين، إذ استُشهد عدد منهم علىٰ يد قريش وسائر القبائل، ممّا أدّىٰ إلى اجترائهم على المسلمين. ومثّلت السّنة الرّابعة والخامسة في الحقيقة ذروة العداء الّذي تُرصده القبائل للإسلام، ومسايرتها لقريش.

---

(١) *المغازي* ١: ٣٥٤، ٣٥٥. وجاء في بعض الأخبار أنّ خالد بن سفيان نفسه كان ضالعاً في هذه المؤامرة آنئذٍ. وإذا كانت واقعة الرجيع قد حدثت بعد أُحُد وفي السّنة الثّالثة فقد صحّ هذا الأمر، إذ كان قتل خالد في السّنة الرّابعة.

(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ١٨١:

هم غدروا يوم الرّجيع وأسلمت ... أمانتهم ذا عفّةٍ ومكارمِ

(٣) ناقش أُستاذنا العلّامة السّيّد جعفر مرتضىٰ في *الصّحيح* ٥: ١٨٢ ـ ٢٤٣ هذه الحادثة. وفي سياق استقصائه للتضارب في أخبارها يصرّح أنّ القسم الأكبر من تفاصيلها مشكوك ولا يمكن قبوله في الأغلب؛ والمتبنّىٰ هو مجمل القضيّة المتمثّلة باستشهاد ثلّة احتبلتهم مؤامرة المشركين.

(٤) *المغازي* ١: ٣٦١، ٣٦٢.

وكانت هُذيل الّتي منها بنو لحيان من أسوئها، ولحسّان بن ثابت شعر كثير في هجائها، منه أنّه أشار مرّة إلىٰ طلبها من رسول الله ﷺ أن يحلّل لها الزّنا حتّىٰ تُسلم:

سألت هذيلُ رسولَ الله فاحشةً ضلّت هُذيل بما سألت ولم تُصبِ[١]

والحادثة الأُخرى الّتي تماثل واقعة الرّجيع، ووقتها قريب غاية القرب منها ـ وذكر الواقديّ أنّها كانت في صفر من السّنة الرّابعة ـ هي حادثة «بئر معونة». وكانت هذه المنطقة في نجد، والبئر المذكورة تعود إلىٰ بني سُلَيم. وكان بنو عامر بن صعصعة، وهم السبب الأصليّ لهذه الحادثة، يعيشون في المنطقة نفسها. وكانت هذه القبيلة إحدى القبائل العربيّة المهمّة الذائع صيتها في البلاد العربيّة منذ العصر الجاهليّ حتّىٰ قرون بعد الإسلام بوصفها قبيلة متميّزة معروفة[٢]. ويدور خلاف حول السّبب الّذي دعا رسول الله ﷺ إلىٰ بعث عدد من صحابته، الّذين قيل إنّهم كانوا بين أربعين إلىٰ سبعين[٣]، إلى تلك المنطقة. وهنا في الأقلّ روايتان أشهرهما أنّ أبا براء الّذي كان من زعمائها قدم المدينة ـ أو أوفد إليها أحداً ـ وطلب من رسول الله ﷺ أن يرسل عدداً من أصحابه إليها لتعريف أهل نجد[٤]. وتعهّد بالمحافظة عليهم بعد أن رأىٰ تردّده ﷺ. فذهبوا إلىٰ هناك، وتدلّ الرّواية الأُخرىٰ علىٰ أنّ رسول الله ﷺ بعث الجماعة المذكورة إلىٰ نجد لتقصّي الأخبار[٥]. ولا ينسجم هذا النّقل مع ما قيل في غدر العدوّ

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ١٨٠ [سالت = سألت].

(٢) انظر: **معجم قبائل العرب** ٢: ٧٠٨ ـ ٧١٠.

(٣) وجاء في أخبار أُخرىٰ عشرة، أو عشرون، أو عدد من الأشخاص، وأرقام أُخرىٰ غيرها. انظر: **الصّحيح** ٥: ٢٥٧. وقال الواقديّ: «ورأيتُ الثّبت علىٰ أنّهم كانوا أربعين. انظر: **المغازي** ١: ٣٤٧.

(٤) **دلائل النّبوّة**، البيهقيّ ٣: ٣٣٨، ٣٣٩.

(٥) **مجمع الزّوائد** ٦: ١٢٧؛ **المغازي**، الذهبيّ: ١٩٢؛ وبشأن الأسباب الأُخرىٰ انظر: **الصّحيح** ٥: ٢٥٤ ـ ٢٥٦؛ ومضافاً إلىٰ ما جاء هناك انظر: **دلائل النّبوّة**، البيهقيّ ٣: ٣٤٨؛ يقول أنس: استمدّت قبائل رعل، وذكوان، وبنو لحيان علىٰ رسول الله ﷺ. ويبدو أنّ هذا مستبعدٌ.

إبّان تلك الحادثة، ذلك أنّ من الواضح هو أنّ الغدر يدلّ علىٰ نوعٍ من حلف سابق. ولحسّان بن ثابت شعر في رثاء شهداء بئر معونة يتّهم فيه العدوّ بالغدر والخيانة، مع أنّه لم يُشر فيه إلى مهمّتهم التبليغيّة.

أصـــابهم الفـناءُ بـعقد قـومٍ   تُخوّن عـقد حـبلهم بـغَدرِ[١]

ومهما كان السّبب، فإنّ عامر بن الطّفيل الّذي كان من سراة عامر علم بحضورهم، فحاصرهم مستعيناً بقبائل بني سليم، ورعل، وذكوان، وأبادهم. وقـيل إنّـه قـبل مواجهته لهم قتل أحد الصّحابة بعد ما جاءه بكتاب رسول الله ﷺ الّذي يدعوه فيه إلى الإسلام. ثمّ توجّه نحوهم وقتلهم كلّهم في مواجهةٍ جرت بينهم. واستثنىٰ بعض الأخبار أحدهم إذ جُرح فنجا. يضاف إلىٰ ذلك أنّ أحد الاثنين (أو الثلاثة في بعض الأخبار) شهد الحادثة حين علم بخبرها وكان قد ظلّ عند متاعه ـ أو كما قيل كان يبحث عن بعيره الضّائع ـ واستُشهد بعد اشتباكه بالعدوّ. وكان النّاجي ـ ويُحتمل معه شخص آخر ـ وهو عمرو بن أُميّة الضمريّ الّذي أخبر رسول الله ﷺ بالواقعة. وقيل إنّ عامر بن الطفيل أسره، ولمّا علم أنّه مُضَريّ أطلقه. وفي طريق عودته لقي اثنين من بني عامر، وعندهما كتاب أمانٍ من رسول الله ﷺ لم يعلم به فقتلهما. وذكر كتّاب السِّير أنّ رسول الله ﷺ توجّه نحو بني النضير لدفع ديتهما، ومن هـنا بـدأ النزاع مع هؤلاء اليهود (انظر: المباحث الآتية).

وأشرنا قبل ذلك إلىٰ أنّ حادثة الرّجيع مُنيت بنوع من الطّابع القصصيّ. ولم تسلم بئر معونة من هذا الأمر. وأدّى الطّابع القصصيّ إلىٰ زيادة الاختلافات في الأخـبار المنقولة، علىٰ سبيل المثال، قيل في قوام السّريّة المذكورة أنّه عشرة، وقيل أكثر من ذلك حتّىٰ بلغ سبعين. ومنها أنّ عامر بن فهيرة الّذي كان من قتلاها قام من الأرض

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ١٨٩.

تدريجاً بمرأىٰ من العدوّ وصعد إلى السّماء(١). ومن الواضح أنّ نقل خبر ضعيف بهذا الشّأن لا يمكن أن يدعم مثل هذا الخبر المنقول. وبعد السّريّتين الظافرتين اللتين تمثّلتا في الهجوم علىٰ بني أسد، وفي مقتل سفيان بن خالد، مرّت علىٰ رسول الله ﷺ حادثتان مؤلمتان فقد فيهما عدداً من صحابته.

وكانت قبائل أُخرىٰ تعيش حوالي المدينة تراودها فكرة الهجوم عليها بين حين وآخر. وقال رجل كان قد جاءها لبيع بضاعته في السّنة الرّابعة نفسها أنّه قدم من نجد ورأى في طريقه رجالاً يتجهّزون للحرب، وهم من بني محارب، وبني ثعلب (وكلاهما من غطفان)(٢). فتوجّه رسول الله ﷺ إلى المنطقة المنظورة المسمّاة ذات الرّقاع علىٰ رأس أربعمائة ـ وقيل سبعمائة أو ثمانمائة. وتقع هذه المنطقة علىٰ بعد (٨٥) كيلومتراً عن المدينة تقريباً(٣).

وبعث رسول الله ﷺ كتائب من جيشه إلىٰ تلك الأرجاء، بيد أنّ العدوّ لجأ إلىٰ قمم الجبال. وقيل إنّ رسول الله ﷺ صلّىٰ صلاة الخوف لأوّل مرّة في سفره هذا. وفيها صلّىٰ بعضهم الركعة الأولىٰ جماعةً، والركعة الأُخرىٰ فرادىٰ، وكانت ثلّة منهم تراقب الأوضاع في كلّ مرّة.

وكان العمل الآخر للقبائل غير القرشيّة محاولة جمع من قبيلة قضاعة وغسّان حرب الحجاز. وكانوا في خارجها علىٰ طريق الشّام. يقول الواقديّ في سبب ذهاب رسول الله ﷺ: «وقد ذُكر له أنّ بدومة الجندل جمعاً كثيراً وأنّهم يظلمون من مَرّ بهم من الضّافطة (من يجلب الميرة والمتاع إلى المدن)... وضوىٰ إليهم قوم من العرب

---

(١) **دلائل النّبوّة**، البيهقيّ ٣: ٣٥٣. (٢) ***السّيرة النّبويّة***، ابن هشام ٢: ٢٠٣.

(٣) ***معالم الأثيرة في السّنّة والسّيرة***: ١٢٨. وذُكر في تسميتها ذات الرقاع أسباب منها أنّ شجرةً كانت هناك باسم الرقاع. ومنها أنّ جبلاً فيها بهذا الاسم. ومنها أنّ علىٰ جبالها بقعاً بيضاء وسوداء، وأسباب أخرىٰ؛ انظر: ***السّيرة النّبويّة***، ابن هشام ٣: ٢٠٤.

كثير، وهم يريدون أن يدنوا من المدينة»[١]. فتحرّك ﷺ في ربيع الأوّل من السّنة الرّابعة علىٰ رأس ألف نحوها، وكانت علىٰ بُعد خمسة أيّام عن دمشق، وخمسة عشر يوماً عن المدينة[٢].

وخرج المسلمون من المدينة في الخامس والعشرين من ربيع الأوّل، ورجعوا إليها في العشرين من ربيع الآخر. ولم يصطدموا بأحد إذ كان أولئك قد فرّوا قبل وصول المسلمين إليهم. ومهما كان فإنّ مثل هذه الأعمال تضمن استعداد المسلمين لمواجهة كلّ تحرّك، وتردع القبائل القاطنة في أطراف المدينة عن التفكير بالهجوم أو التحدّث به، إذ كان كافياً أن يبلغ المدينة خبر كلامهم في التآمر، فحينئذٍ تتحرّك كتيبة من المسلمين نحوهم. ولعلّ هذا هو الّذي أدّىٰ إلىٰ معاهدة أو معاهدات مع القبائل المذكورة خلال هذه الغزوات ومنها الغزوة المتقدّم ذكرها[٣].

الموقف من أهل الكتاب

نزلت سورة آل عمران بعد أُحُد وقبل الخندق[٤]. وتحدّث عدد من آياتها عن معركة أُحُد، وهو ما ذكرناه سابقاً. وآيات أُخرىٰ منها تناولت أهل الكتاب، وبعضها في اليهود، والآخر في النّصارىٰ. ولمّا كانت الآيات النازلة بشأنهم متفرّقة في السّورة المذكورة، نورد فيما يأتي ما جاء في القرآن الكريم مرتّباً.

نلحظ في بعض الحالات كحدّ أدنىٰ أنّ اصطلاح «أهل الكتاب» يقابل اصطلاح

---

(١) *المغازي* ١: ٤٠٣. (٢) **عيون الأثر** ٢: ٨٣.

(٣) انظر: *الطّبقات الكبرىٰ* ٤: ٦٢، ٦٣؛ وعُقِدَ هذا الحِلف مع عُيينة بن حصن الّذي مالأ الأحزاب في غزوة الخندق لاحقاً. انظر: **عيون الأثر** ٢: ٨٦.

(٤) نزلت آل عمران بعد الأنفال وقبل الأحزاب. انظر: *التّمهيد في علوم القرآن* ١: ١٣٧، ١٣٨.

«الأُمّيّين». وكان قسم من السكّان العرب وغير العرب في الحجاز، وأهل الكتاب وطائفة أُخرىٰ من النّاس أُمّيّين، أي: لا كتاب لهم. وكان كلا الاصطلاحَين موجوداً قبل الإسلام واستعملهما القرآن الكريم أيضاً. فقد جاء في الآية العشرين من آل عمران: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّٰهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ وَقُل لِلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ وَٱلأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ﴾. وقيل إنّ هذه الآية كانت في مواجهة وفد نجران[1].

وكان سكّان هذه المدينة الواقعة في جنوب الجزيرة العربيّة علىٰ بعد (٩١٠) كيلومترات عن مكّة، نصارىٰ. والآية تخاطب أهل الكتاب. وتشير الآية الثّالثة والعشرون والرابعة والعشرون إلى اليهود، فتقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ ٱلْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ ٱللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُم مُعْرِضُونَ * ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ﴾. وكان اليهود يرون أنفسهم أفضل من غيرهم، فليس مهمّاً عندهم أن يعملوا بكتاب الله لأنّهم علىٰ أيّ حال سيدخلون الجنّة بعد أيّام. وذكرت فلسفة الاصطفاء من منظار الدين بعد عدد من الآيات. قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللهَ ٱصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾.

تلا ذلك حديث مفصّل عن ولادة مريم، وكفالة زكريّا إيّاها، وإنجاب زكريّا، وولادة عيسى ابن مريم. والهدف الرئيس من هذه الآيات إثبات نبوّة عيسىٰ عليه السلام وإبراز الحقيقة القائلة إنّ الّدين ليس إلّا الإخلاص والتّسليم التامّ لله، وترك الشّرك. تقول الآية (٥٢) من آل عمران: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى ٱللهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ ٱللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾. وتبيّن هذه الآية الموقف من وفد نجران.

---

(١) مجمع *البيان* ٢: ٤٢٢.

وهكذا يقدّم الإسلام رُؤاه في الأقرار بعيسىٰ عليه السلام، وكذلك التّوراة والإنجيل، ويرىٰ نفسه امتداداً لهما. بيد أنّ النّصارىٰ لا يقرّون بذلك. والنّصارىٰ غير اليهود، فهم أولو قلوب سليمة. وهم إذ لم يقرّوا بهذه الآراء في حجاجهم مع رسول الله ﷺ، فهل هم متمسّكون بحقّانيّة عقائدهم إلى الحدّ الّذي يقبلون فيه المباهلة؟[١] وقال تعالى في الآية الحادية والستّين من هذه السّورة في المباهلة: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ[٢] ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ ٱللهِ عَلَى ٱلْكَاذِبِينَ﴾. وحضر المباهلة رسول الله ﷺ، والسيّدة فاطمة الزّهراء عليها السلام، وعليّ المرتضىٰ، والحسنان عليهما السلام. ولمّا رآهم النصارى استحسنوا ترك المباهلة واستحبّوا الجزية عليها[٣].

---

(١) المباهلة هي الملاعنة. وفي الاصطلاح هي أن يجتمع القوم إذا اختلفوا في شيء فيقولوا: لعنة الله على الظّالم منّا. انظر: *لسان العرب* ٢: ٥٢٢، ذيل بهل.

(٢) قيل إنّ المراد من أنفسنا عليّ عليه السلام. بعبارة أُخرىٰ، عليّ عليه السلام في هذه الآية نفس النّبيّ ﷺ؛ انظر: **مجمع البيان** ٢: ٤٥٣.

(٣) الآية والأحاديث المأثورة فيها تدلّ علىٰ فضيلة من فضائل أهل البيت النّبويّ الكريم عليهم السلام. فقد أخذ ﷺ أعزّ أعزّته ممّا دفع أسقف النّصارىٰ إلى الانصراف عن المباهلة وقوله: «إنّي لأرىٰ وجوهاً لو سألوا الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله». ونظراً إلى الآيات الواردة في سورة آل عمران بشأن أُحُد، فإنّ السّورة المذكورة تتعلّق بما بعد أُحد، أي السّنة الثالثة فصاعداً. فلا ينبغي أن تكون بعد سورة الأحزاب، أي: بعد السّنة الخامسة. وفي هذا الضوء لابدّ أن تكون المباهلة قد جرت في هذه السّنين. وذكرها ابن سعد ضمن الوفود (*الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٣٥٧، ٣٥٨) ولكن يتبيّن ممّا أورده أنّها كانت بعد فتح مكّة. وحينئذٍ إمّا نقول إنّ آية المباهلة لا تتعلّق بوفد نجران، أو إنّ سورة آل عمران نزلت في السنة التّاسعة، أو إنّ نصارىٰ نجران جاءوا للحوار مرّةً، وأفضىٰ مجيئهم إلى المباهلة، وبعد ذلك قدموا إلى المدينة مع الوفود مرّة أخرىٰ في السّنة التّاسعة أو العاشرة. وينبغي أن نقول: لا مراء في الأحاديث المأثورة في المباهلة وآيتها وشأن نزولها. وللاطّلاع على المصادر الكثيرة الّتي ذكرتها انظر: **مكاتيب**

⇐

مبدئيّاً، يتّسم موقف القرآن الكريم من النّصارىٰ باللين والهدوء، وهذا غير انتقاده الشّديد للشّرك. ويركّز الباري تعالىٰ في الآية الرّابعة والستّين فما بعدها علىٰ ثقافة إبراهيم التوحيديّة ويخاطب أهل الكتاب بقوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ ٱللهِ﴾. وكان النصارىٰ واليهود يرون إبراهيم منهم. قال سبحانه: ﴿يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ ٱلتَّوْرَاةُ وَٱلْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * ... مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلَا نَصْرَانِيّاً وَلٰكِن كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾. من هنا يتمثّل القرآن في تأكيده التّوحيد الخالص، والإخلاص لله وحده، وهذه هي رسالة القرآن إلىٰ أهل الكتاب، بخّاصة النّصارىٰ في تلك الفترة. وتتحدّث الآية التّاسعة والستّون عن رغبة أهل الكتاب في إضلال المؤمنين، ثمّ تقول لهم: ﴿يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. وكان أسلوبهم في إضلال المؤمنين أنّهم يؤمنون بالآيات النازلة أوّل النّهار، وينكرونها آخره. وبهذا الأُسلوب يتظاهرون بأنّهم أُولو منطق سليم علىٰ ما يزعمون، إذ يدركون أنّها غير صحيحة بعد الإيمان بها والتّأمّل الكافي فيها! وينقل سبحانه هذا الأُسلوب عن طائفةٍ منهم. وجاء في الأخبار التّاريخيّة أنّ شرذمة من أحبار اليهود أرادت أن تفعل هكذا لكي يشكّ المسلمون على أيّ حال[1]. وطبيعيّاً أنّ أهل الكتاب جميعهم لم يكونوا صفّاً واحداً. وذكرت الآية الخامسة والسّبعون أمانة بعضهم في مقابل رغبة البعض الآخر في الخيانة. وقيل إنّها تتضمّن مدح النصارىٰ في أمانتهم قياساً بسيرة اليهود في حبّهم الدنيا. وسبب

⇐ *الرّسول* ١: ١٨٠، ١٨١؛ وانظر أيضاً: *تاريخ المدينة المنوّرة* ١: ٥٨٢، ٥٨٣. وبشأن الآية من المحتمل أنّها نزلت في السّنة التّاسعة. ثمّ وُضعت في سورة آل عمران بأمر النّبيّ ﷺ.

(١) مجمع *البيان* ٢: ٤٦٠.

ميل اليهود إلى الخيانة في الأمانة هو أنّهم كانوا يقولون علىٰ ما نقل الله تعالىٰ عنهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّنَ سَبِيلٌ﴾. أي: كانوا يرون أنفسهم أهل الكتاب وأفضل من غيرهم، ويجيزون لأنفسهم أكل أموال الآخرين لاسيّما الأُمّيّين[1].

وينسب القرآن الكريم في الآية الثّامنة والسّبعين التّحريف إلىٰ طائفة من أهل الكتاب، بخاصّة في شكله المستقبح المشين فيقول: ﴿وإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. ويتواصل الكلام فيؤكّد سبحانه التّسليم الخالص، ويقول بعد الإشارة إلىٰ أنّه لم يأمر باتّخاذ الملائكة والنّبيّين أرباباً: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِى ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾. وتؤكّد الآية التّالية لها عدم وجود فرق بين أحدٍ من الأنبياء. ثمّ يقول تعالىٰ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلإِسْلَامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾. فالتّسليم والإخلاص المحض يتجسّدان في دين الإسلام التّوحيديّ حقّاً. ويحذّر سبحانه المؤمنين في الآية المائة ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾. ومن المؤسف أنّ بعض المسلمين كانوا مهتمّين بقراءة التّوراة وغيرها من آثار اليهود، فأنكر عليهم النّبيّ ﷺ ذلك إنكاراً شديداً[2]. وجاء في الآية ١١٣: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ ٱللهِ آنَاءَ ٱللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ﴾. وهذه الآية في النّصارى الّذين كانوا راغبين في الإسلام، والّذين كانوا يبكون عند سماع الآيات القرآنيّة[3]. ومن الطبيعيّ والمحتمل أنّهم أسلموا مباشرةً.

---

(١) انظر: *مجمع البيان* ٢: ٤٦٣؛ حسبوا أنفسهم مؤمنين، وحسبوا الأمّيّين خارجين من دينهم، فأجازوا لأنفسهم الاستيلاء علىٰ أموالهم.

(٢) انظر: *مصنّف*، عبد الرّزّاق ١١: ١١١؛ *لسان الميزان* ٢: ٤٠٨؛ *البداية والنّهاية* ٢: ١٣٣؛ *نثر الدّرّ* ١: ٢٠٧.

(٣) المائدة: ٨٣.

غزوة بني النّضير

تمثّل الاصطدام الآخر باليهود في اصطدام النّبيّ ﷺ بيهود بني النّضير. وأشرنا في المباحث الماضية إلىٰ رأي القرآن الكريم في اليهود. ومحصّلتها أنّه يراهم والمشركين أشدّ عداوةً للمؤمنين، في حين يذكر النصارىٰ بتلطّف ولين[١]. ومن الطبيعيّ فانّ اليهود لم يَدَعوا فرصةً للقضاء على الإسلام ونبيّه ﷺ؛ وفي الوقت نفسه أنّهم لمّا كانوا أقلّيّة فإنّهم عقدوا معاهدة الصلح مع رسول الله ﷺ منذ بداية هجرته.

وكانت الطّوائف اليهوديّة الثّلاث بنو قَيْنُقاع، وبنو النّضير، وبنو قُريظة تعيش في الشّمال الشّرقي من محلّة قبا علىٰ شكل مثلّث تقريباً. وكان بنو النّضير أقربها إلىٰ قباء. وكان الاصطدام بهم وإخراجهم علىٰ ما روى الواقديّ في ربيع الأوّل من السّنة الرّابعة للهجرة (سبعة وثلاثون شهراً للهجرة). بيد أنّ ابن شهاب الزّهريّ كان يعتقد أنّ إخراجهم كان بعد بدر وقبل أُحد[٢]. وقيل في سبب اصطدام النّبيّ ﷺ ببني النّضير أنّ عمرو بن أميّة أحد الصحابة الّذين كانوا يبلّغون بيان النّبيّ ﷺ قتل في طريق عودته من بئر معونة اثنين من قبيلة بني عامر، وهذه القبيلة كانت وراء قتل الصّحابة بالرّجيع.

---

(١) المائدة: ٨٢.

(٢) **دلائل النّبوّة**، البيهقيّ ٣: ١٧٦، ٣٥٤. وتبنّىٰ أُستاذنا العلّامة السيّد جعفر مرتضىٰ ـ حفظه الله وأبقاه ـ الرأي الثّاني، وأقام الأدلّة علىٰ إثباته. انظر: ***الصّحيح من سيرة النّبيّ*** ﷺ ٦: ٣٤ ـ ٣٩. والحقيقة هي أنّ الأدلّة المذكورة لا تكفي. ورأي ابن شهاب يستند إلى رواية عن عائشة في حين أنّ عروة بن الزّبير، وابن إسحاق وموسى بن عقبه، وعاصم بن عمرو بن قتادة، ومحمّد بن عمر الواقديّ، وهم من أركان ***المغازي*** يذهبون إلىٰ أنّ غزوة بني النّضير كانت بعد أُحُد؛ ***دلائل النّبوّة***، البيهقيّ ٣: ١٨٠، ١٨٣. ويدلّ شعر سماك اليهوديّ الّذي أنشده في رثاء بني النضير علىٰ أنّ الواقعة المذكورة كانت بعد أُحُد.

وحدث هذا في وقت كان للرّجلين المذكورين «أمان وعهد» من رسول الله ﷺ[١]. وما مضىٰ إلّا قليل حتّىٰ بعث عامر بن الطّفيل رسولاً إليه ﷺ طالباً منه الدّية. فعزم ﷺ على استغاثة بني النّضير حلفاء عامر لدفع الدية! لذا سار بعدد من أصحابه وأتىٰ قباء فصلّىٰ فيها، ثمّ ذهب عندهم، فأغاثوه بدفع الدية. وفي نفس الوقت ظنّ عدد من أكابرهم أنّ الفرصة مناسبة لقتله عند جدار حصنهم الذي كانوا جالسين إزاءه. وكانوا يرون أنّ أصحابه يتفرّقون بقتله، وتعود قريش إلىٰ مكّة، وهم أيضاً يرجعون إلىٰ أحلافهم السّابقة مع الأوس والخزرج[٢].

وتقول المصادر: علم رسول الله ﷺ الأمر عن طريق الوحي فعاد إلى المدينة بدون أن يخبر أحداً من أصحابه الّذين انتظروه فترةً ثمّ قدموا المدينة بعد أن عرفوا أنّه لا يرجع. وبعد ذلك أشخص ﷺ إلى اليهود محمّد بن مسلمة الّذي كان من الأوس المتحالِفة معهم هذه الطّائفة اليهوديّة في الجاهليّة، وقال: عليهم أن يخرجوا من المدينة. فتعجّبوا من مجيء رجل أوسيّ لكنّه قال لهم: «تغيّرت القلوب»[٣].

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ١٨٦.

(٢) **المغازي** ١: ٣٦٤. ذُكر في رواية موسى بن عقبة اسم شخصين كلابيّين يبدو أنّ المتصوَّر هو أنّ قريشاً حين جاءت إلىٰ أحد تمالأت معهما، ولذا كانا قُتلا. انظر: ***دلائل النّبوّة***، البيهقيّ ٣: ١٨٠. وقيل إنّ السبب الآخر لبدء الحرب مع بني النّضير هو أنّ المشركين كاتبوا يهود المدينة بعد بدر، وطلبوا منهم في سياق تهديدهم أن يحاربوا النّبيّ ﷺ. فأرسلوا إليه أن يبعث إليهم ثلاثين من أصحابه ليتباحثوا، وهم أيضاً أعدّوا ثلاثين منهم لذلك. واتّفقوا بعدها علىٰ أن يتباحث ثلاثة منهم وثلاثة من المسلمين. وكان هدفهم قتل رسول الله ﷺ الّذي أبلغته به امرأة يهوديّة بواسطة أخيها. وهذا ما دعاه ﷺ إلى الاصطدام باليهود. انظر: ***دلائل النّبوّة***، البيهقيّ ٣: ١٧٩؛ ***الدرّ المنثور*** ٦: ١٨٩؛ وانظر أيضاً: الصّحيح ٦: ٣٩ ـ ٤٣. والحقّ أن التّضارب في نقل الأخبار المتعلّقة بغزوة بني النّضير بلغ مبلغاً أنّ كلّ قسم منها مُني بالاختلاف أيضاً. وما نقلناه نحن يعتمد علىٰ ما أورده الواقديّ المتخصّص في السّيرة، وإن كنّا قد أشرنا إلىٰ بعض الأخبار المنقولة عن غيره في بعض المواطن.

(٣) **المغازي** ١: ٣٦٧.

فرضوا بالذّهاب أوّل مرّة، ثمّ فتروا بعد وصول رسول عبد الله بن أبيّ إلىٰ حُيَيّ بن أخطب يطلب منه أن يدافع عنهم مع حلفائه. وأرسل عبد الله بن أُبيّ إلىٰ بني قريظة أن يشهدوا ذلك فرفضوا وقالوا: إنّهم لا ينكثون العهد.

ونشأ الخلاف بين اليهود من الركون إلىٰ كلام عبد الله أو عدم الركون إليه. وكان المعارضون يقولون: لا يُركن إلى ابن أُبيّ، فإنّه وعد بني القينقاع بنفس الوعود لكنّه لم يفعل لهم شيئاً، وهو خزرجيّ علىٰ أيّ حال، ونحن كنّا في الجاهليّة نقاتل طائفته إلىٰ جانب الأوس. كما أنّه ليس يهوديّاً، ولا مسلماً، ولا علىٰ دين قومه، لذا لا يمكن الاعتماد عليه. وهذا العمل سيؤدّي إلىٰ ذهاب أموالنا، وشرفنا، وسباء ذرارينا، وقتل مقاتلينا[1]. وكان نفوذ حُيَيّ بن أخطب في بني النّضير باعثاً علىٰ مقاومتهم. وكتب إلىٰ رسول الله ﷺ يخبره أنّهم لا يبرحون مكانهم. وذهب رسوله إلىٰ عبد الله يطلب منه تهيئة مساعدته. فرأىٰ بكلّ تعجّب منادياً ينادي في الأزقّة ويدعوا إلى الحرب. واتّفق أنّ ابن عبد الله أخذ سلاحه أمام أبيه وهو يريد اللحاق برسول الله ﷺ[2].

وحاصر المسلون حصن بني النضير، فجعل بنو النّضير يرمونهم بالنّبل والحجارة. وقد استعمل رسول الله ﷺ عليّاً على العسكر[3] عشاءً، وعاد إلى المدينة، ثمّ غادرها صباحاً. وكانت قبّة رسول الله ﷺ من خشب وعليها مُسوح (كساء من شعر)، وقد ضُربت له قرب مسجد بني خطمة. وأصابها يهوديّ يقال له عزوك بنبلة، فحوِّلت إلىٰ مسجد الفضيخ[4]. وما زال هذا المسجد ماثلاً اليوم، وهو من مساجد

---

(١) *المغازي*: ٣٦٩.　(٢) نفسه ١: ٣٧٠.

(٣) وقال الواقديّ هنا أيضاً بعد نقل الخبر: «ويُقال أبا بكر». والحقيقة أنّ هذا الضرب من الفضائل المتعلّقة بالحرب والجهاد لا يتناسب مع شخصيّة أبي بكر. ويضاف إليه أنّ كبار كتّاب السِّيَر ذكروا أنّ الراية كانت بيد الإمام عليّ عليه السلام. *الصحيح من سيرة النّبيّ* ﷺ ١٦: ٧٢ ـ ٧٤.

(٤) **المغازي** ١: ٣٧١؛ انظر بهذا الشأن: *الصحيح من سيرة النّبيّ* ﷺ ٦: ٨٩.

الشّيعة في محلّة قباء[١]. وفي ليلة من ليالي الحصار فُقِد الإمام عليّ عليه السلام، فأخبر الصّحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «دعوه، فإنّه في بعض شأنكم»! فلم يلبث أن جاء برأس عَزْوَك، فطرحه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأخبره بكيفيّة عثوره عليه وقتله. وكان الإمام عليه السلام قلقاً من عزوك الّذي كان شجاعاً، لذا كمن له عدد ليالٍ، فجاء مع نفر من اليهود، فشدّ عليه الإمام فقتله. ولمّا جاء عليه السلام إلى النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم طلب منه أن يبعث معه نفراً من أصحابه ليظفروا بأصحاب عزوك الّذين كانوا هناك، فبعث معه عدداً من أصحابه، فأدركوهم، فقتلوهم[٢].

وكلّف صلى الله عليه وآله وسلم واحداً أو اثنين من أصحابه ليقطع أفضل نخيل بني النّضير. فضجّت نساء اليهود ورجالهم. فأرسل حييّ بن أخطب إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قائلاً: إنّك كنتَ تنهىٰ عن الفساد، لم تقطع النخل؟ فنزلت آيات قرآنيّة تبيّن أنّ عمله صلى الله عليه وآله وسلم كان بإذن الله. والثّابت هو أنّ قطع النّخيل يدلّ علىٰ جدّ النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في محاصرتهم وإجلائهم، وعلى استبدال يأسهم بأملهم في البقاء. ودام الحصار خمسة عشر يوماً[٣]. واقتنع اليهود بثبات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصموده في أمره، لذا رضوا بالرّحيل. بيد أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمر هذه المرّة أن لا يأخذوا معهم سلاحاً، ولا متاعاً آخر إلّا حمل بعير. وجاء في بعض الأخبار أنّهم يستطيعون أخذ كلّ شيء عائدٍ لهم إلّا السّلاح. وقبلوا ذلك، وغادروا المدينة بعد انتهاء الموعد المقرّر لتصفية حساباتهم الماليّة مع أهلها. وخربوا بيوتهم بأيديهم آنذاك، وكذلك فعل المسلمون.

وبلغت علاقات الأوس ببني النّضير، لاسيّما تعاضدهم الجاهليّ، إنّ المنافقين

---

(١) زرنا هذا المسجد سنة ١٤١٣هـ و ١٤١٤هـ وكان في السّنة الأولىٰ خرباً وسخاً، لكنّه في السّنة الثانية كان نظيفاً مصبوغاً!

(٢) *المغازي* ١: ٣٧٢.

(٣) وقيل: ستّة أيّام، وقيل: واحد وعشرين يوماً. *الصّحيح من سيرة النّبيّ* ٦: ٢٤. وذهب ابن هشام إلىٰ أنّه دام ستّة أيّام. انظر: *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ١٩١.

وشخصاً مثل حسّان بن ثابت عبّروا عن مواساتهم لهم عند رحيلهم. وارتفع ضجيج بعض المنافقين قائلين: من يسقينا الشّراب بعدهم؟ ومن يطعم الشّحم فوق اللحم؟[١] وركب بنو النّضير علىٰ ستّمائة بعير، وأظهر نساؤهم حليهنّ وزينتهنّ، ورفع أكثرهنّ النّقاب من وجوههنّ. وكان مقصدهم خيبراً الواقعة علىٰ بعد (١٦٥) كيلومتراً شمال المدينة علىٰ طريق الشّام. ومن الطّبيعيّ أنّ سرورهم يعود إلى استقرارهم في خيبر إلىٰ جانب حلفائهم اليهود آملين أن يعودوا يوماً إلى المدينة مرّة أُخرىٰ. ولعلّ إصرار المسلمين علىٰ تخريب دورهم هو لقطع أملهم الواهي هذا. وهم أنفسهم كانوا يخربون بيوتهم لأخذ أثاثها وأُطر أبوابها. وذكر ابن إسحاق أنّ عدداً منهم ذهب إلى الشّام أيضاً.

وكان من الغنائم الباقية مقدار من السّلاح الّذي يضمّ خمسين درعاً، وخمسين خوذةً، وثلاثمائة سيف وأشياء أُخرىٰ[٢]. ومن الثّابت أنّ هذا المقدار كان جدَّ قليل من أسلحتهم. لذا يضيف الواقديّ قائلاً: «ويقال: غيّبوا بعض سلاحهم وخرجوا به»[٣]. وتمثّل أصل الغنائم بالنّخيل والأراضي الخصبة الّتي كانت بأيدي اليهود، ثمّ صارت لرسول الله ﷺ لأنّها وقعت بأيدي المسلمين بدون قتال. بعبارة أُخرىٰ: الأموال المذكورة لم تعدّ في غنائم الحرب كي تُخمَّس، ويكون خمسها لرسول الله ﷺ، بل كانت كلّها تحت تصرّفه ﷺ. وخصّص ﷺ قسماً من عائداتها لأهله، وصرف الباقي في شراء السّلاح والإبل[٤]. وصار ما خُلِّفَ منها للمهاجرين بعد كسب تأييد الأنصار بشرط ألّا يكونوا عالةً على الأنصار من الوجهة الاقتصاديّة. وكان الاقتراح الآخر هو تقسيم الأموال بين المهاجرين والأنصار وبقاء المهاجرين عند الأنصار.

---

(١) *المغازي* ١: ٣٧٥؛ وذكر الواقديّ أسماء هؤلاء الأشخاص وعويلهم.

(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ١٩١.

(٣) *المغازي* ١: ٣٧٧.

(٤) نفسه ١: ٣٧٧، ٣٧٨.

وقال الأنصار: لا تُدفع الأموال المذكورة للمهاجرين فحسب، بل لهم أن يصيبوا حظّاً من أموال الأنصار كما هو الوضع سابقاً. وأثنى الله سبحانه علىٰ إيثارهم في القرآن الكريم[١]. ويبدو أنّ اثنين من الأنصار أخذا سهمهما، وكانا فقيرين، وأحدهما سهل ابن حُنيف، والآخر أبو دُجانة[٢].

وكان إخراج بني النّضير من المدينة مهمّاً لأمنها نظراً إلىٰ شوكتهم. كما أنّه يُعدّ ضربة قاصمة لقريش الّتي كانت عقدت الآمال على اليهود من بعيد. وقال ابن لقيم العبسيّ مشيراً إلى الواقعة المذكورة:

فمن مُبلغٌ عنّي قريشاً رِسالةً ... فهل بعدهم في المجد من متكرَّمِ

وللإمام عليّ عليه السلام شعر أيضاً في مقتل كعب بن الأشرف وإجلاء بني النّضير ـ وإن كان ابن هشام يرىٰ أنّه لصحابيّ آخر ـ وفي سياق إشارته إلىٰ طغيان كعب وتشبيهه بالجمل الناكب عن الطريق، تطرّق إلىٰ وحي الله في قتله، وذكر إخراج بني النّضير الذليل:

وأجلى النّضير إلىٰ غربةٍ ... وكانوا بدارٍ ذوي زُخرفِ

وذهب عليه السلام إلىٰ أنّ المكان الّذي ذهبوا إليه هو أذرعات بالشّام[٣]. وأُشير قبل ذلك إلىٰ أنّ جماعة ذهبت إلىٰ خيبر، وأخرى إلى الشّام. وهدّد سماك اليهوديّ في الردّ علىٰ هذا الشّعر أنّه سيمضي إلىٰ قتال المسلمين مع أبي سفيان، فقال:

مع القوم صخر وأشياعه ... إذا غاور القوم لم يضعفِ[٤]

وأشار كعب بن مالك في شعر له إلىٰ ذلّة بني النّضير بعد قتل كعب بن الأشرف، كما ذكر خيانتهم وتغلّب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليهم، فقال:

---

(١) *تاريخ المدينة المنوّرة* ٢: ٤٨٩.
(٢) نفسه ٢: ٤٩٠.
(٣) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ١٩٧.
(٤) نفسه ٣: ١٩٨.

فلمّا أشربوا غدراً وكفراً ... وحاد بهم عن الحقّ النفور

أرى اللهُ النّبيّ برأي صدقٍ ... وكان الله يحكم لا يجورِ

وأجابه سماك اليهوديّ وذكر أنّ كعب بن الأشرف هو سيّد الأحبار. وتطرّق إلىٰ أُحد وما مُني به المسلمون من محن وشدائد وقال:

كما لاقيتم من بأس صخر ... بأُحد حيث ليس لكم نصير[1]

وتعتبر واقعة إخراج بني النّضير وتبعاتها من الوقائع الّتي تحدّث عنها القرآن الكريم بنحو مفصّل إلىٰ حدٍّ ما. فالقسم الأكبر من سورة الحشر يتناول هذه الواقعة. قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِنَ ٱللَّهِ فَأَتَاهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِى ٱلْأَبْصَارِ * وَلَوْ لَا أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ * ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ * مَا قَطَعْتُم مِن لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَاسِقِينَ﴾.

وقال في الغنائم المكتسبة: ﴿وَمَا أَفَاءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * مَا أَفَاءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ * لِلْفُقَرَاءِ ٱلْمُهَاجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلصَّادِقُونَ﴾.

ثمّ قال في فضيلة الأنصار: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٢٠٠. المقصود من صخر هو أبو سفيان.

إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

وقال سبحانه في موضوع المنافقين في هذه الغزوة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾. وقال تعالىٰ في الوضع الروحيّ للمشركين: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِنَ ٱللَّهِ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾[١].

وكان أحد قادة بني النّضير سلّام بن أبي الحُقَيق، وتوجّه مع ابن أخيه كنانة، وحُيَيّ بن أخطب إلىٰ خيبر. فاحتفىٰ بهم أهلها بعد وصولهم إليها[٢]. وكان لهم دور مهمّ في تحريض الأحزاب علىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[٣]. وكان لسلّام شخصيّة بارزة بينهم، وكما ذكر الواقديّ فإنّه «قد أجلب في غطفان ومن حوله من مشركي العرب، وجعل لهم الجُعل العظيم لحرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم»[٤]. من هنا بعث النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم خمسة أشخاص لقتل سلّام بخيبر. وأميرهم عبد الله بن عتيك، وكان يعرف العبريّة، كما أنّ أمّه من الرضاعة كانت تعيش بخيبر. واستطاعوا أن يتغلغلوا في خيبر بخطّة دقيقة، وبمساعدة أمّ عبد الله، فقتلوا سلّاماً في بيته، وبذل اليهود قصاراهم للعثور عليهم فلم يفلحوا.

وهكذا قُتِلَ واحد من بني النّضير، وكان أحد المحرِّضين لقبائل العرب ضدّ

---

(١) الحشر ١٣، ١٤.
(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ١٩١.
(٣) نفسه ٣: ٢١٤.
(٤) *المغازي* ١: ٣٩٤.

الإسلام. والقيام بهذا العمل نظراً إلىٰ بعد طريق خيبر عن المدينة (١٦٥ كم)، بخاصّة بين آلاف من اليهود، أمر في غاية الرّوعة والعجب حتّىٰ إنّ رسول الله ﷺ قدّرهم وثمّن عملهم كثيراً بعد قدومهم. وفي الحقيقة كانت لسلّام منزلة كمنزلة كعب بن الأشرف، وذكره حسّان في مصافّه فقال:

لله درّ عصابةٍ لاقيتهم   يابن الحُقَيق وأنت يابن الأشرفِ

وعبّر حسّان عن فرحه وسروره لقيام المسلمين بقتلهم في عقر دارهم وحصنهم، فقال:

حتّىٰ أتوكم في محلّ بلادكم   فسقوكم حتفاً ببيضٍ ذُفَّفِ

مستنصرين لنصر دين نبيّهم   مستصغرين لكلّ أمر مُجحفِ[1]

وذهب الواقديّ إلىٰ أنّ قتل ابن أبي الحقيق كان قبل الخندق بينما ذكر ابن إسحاق أنّه كان بعدها وبعد غزوة بني قُريظة. وحريّ بالذكر أنّ الأوس هم الّذين تولّوا قتل كعب بن الأشرف. ونافسهم الخزرج في كسب الامتياز منافسة دفعتهم إلىٰ قصد سلّام وقتله[2].

بدر الموعد

في ضوء عِدَة أبي سفيان منتهىٰ حرب أُحُد، يُفترض أن يُنازل المشركون المسلمين في منطقة بدر بعد الحرب المذكورة بعامٍ واحدٍ. وَرضِيَ رسول الله ﷺ بذلك. وكان مثل هذه العدات مألوفاً عند العرب. فقد كانت الحروب الطويلة تنشب بينهم في كلّ سنة. وتشوّق المشركون بالثّأر في أُحُد، ومن هنا لم يكن لهم حافز حقيقيّ

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٥٧، ٢٧٦. البيض هي السّيوف. الذُّفَّف أي تقتل بسرعة.

(٢) نفسه ٣: ٢٧٤.

علىٰ إتيان بدر، وكان عداؤهم للمسلمين طبيعيّاً، لكنّ هزيمتهم في بدر، ونصرهم الّذي حدث صُدفةً في أُحد سلبا منهم الإقدام على الحرب. وبعد ذلك وقعت حرب الأحزاب في وقتٍ صحب قريشاً إلى المدينة عشرة آلاف من العرب. وفي مقابل هذا كان رسول الله ﷺ والمسلمون علىٰ أُهبة الاستعداد للتوجّه نحو بدر. ونقل الواقديّ أنّ المسلمين، وعددهم ألف وخمسمائة، حضروا بدراً في الأيّام الثمانية الأُولىٰ من شهر ذي القعدة للسّنة الرّابعة[1]. وذهب ابن إسحاق إلىٰ أنّ هذه الغزوة وقعت في شهر شعبان[2]. وذكر موسى بن عقبة أيضاً أنّها كانت في شعبان إلّا أنّه أورد كما يبدو شعبان من السّنة الثّالثة تاريخاً لبدر الموعد سهواً[3].

وكانت بدر الّتي شهدت نزالاً بين المسلمين والمشركين في السّنة الثّانية للهجرة سوقاً للعرب يعرضون فيها بضائعهم. ووقتها كان الأيّام الثمانية الأُولىٰ من شهر ذي القعدة. وعزم أبو سفيان علىٰ منع المسلمين من حضور بدر بتحريض نعيم بن مسعود، وهو نفسه لم يقصد حضورها في تلك السّنة، وأحد دواعيه الرئيسة هو الجفاف، وحينئذٍ لم يكن المتخلّف عنها وحده. في حين كان مجيء المسلمين يسبّب خزي قريش وجرأة المسلمين أكثر. وجاء نعيم من مكّة إلى المدينة وحذّر المسلمين من

---

(١) وبه قال ابن سعد في *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ٥٩؛ وفي *أنساب الأشراف* أيضاً ١: ٣٤٠.

(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٢٠٩.

(٣) *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٤: ٤٧٨؛ لو قُدِّر أن تقع حرب بعد أُحد بسنةٍ، فلا بدّ أن تكون بدر الموعد في شوّال أيضاً لوقوع أُحُد في شوّال، وهذا ما لا يدّعيه أَحَدٌ. وحينئذٍ وبهذا الاستدلال المتمثّل بنشوب الحرب بعد سنة لا يتسنّىٰ لنا أن نقول: إنّ رأي ابن إسحاق صحيح إذ ذهب إلىٰ وقوع بدر الموعد في شعبان (قبل التّاريخ المذكور بشهرين). وإذا كانت في ذي القعدة، ففيه إشكال آخر يتمثّل في أنّ هذا الشّهر من الأشهر الحرم، فلا ينبغي لطرفي الحرب أن يحدّدا موعداً كهذا. من جهة أُخرى الدليل الصحيح على تاريخ ذي القعدة هو قيام أسواق العرب في مثله. وسنلحظ أنّ قدوم المسلمين كان في أيّام السّوق هذه. ولذا كان مع بعضهم بضاعة كعثمان الّذي قال: «ربحتُ للدينار ديناراً».

جيش قريش الجرّار، وشجّعهم على البقاء في بيوتهم إذ هو أفضل لهم بالنظر إلىٰ تجربة أُحُد. وولّدت هذه التّهديدات شكوكاً عند المسلمين بيد أنّ عزيمة رسول الله ﷺ رجحت، فتحرّك المسلمون لحرب قريش وحضور سوق بدر. «وكان يحمل لواء رسول الله ﷺ الأعظم يومئذٍ عليّ بن أبي طالب عليه السلام»[١].

وأخبر رسول الله ﷺ النّاس حين رأىٰ شكوكهم أنّه سيذهب إلىٰ بدر حتّىٰ لو كان وحده. وانتهىٰ أبو سفيان إلىٰ مَجَنَّة ـ موضع على أميال يسيرة من مكّة ـ ومعه ألفان ليتظاهر أنّه قام بعملٍ علىٰ أيّ حال، لكنّه رجع متذرّعاً بأنّ ذلك العام هو عام الجدب. وحين انتشر خبر المسلمين وحضورهم ببدر أتّهمت قريش بخلف الوعد والخوف، فعزمت على التأهّب لخوض حرب شاملة ـ حرب الأحزاب ـ ضدّ المسلمين. وذكر الواقديّ أنّها استجلبت مَنْ حولها من العرب، وجمعت الأموال العظام ـ الّتي قيل أنّ أهل مكّة كلّهم شاركوا في تهيئتها[٢]. وعاب المسلمون قريشاً علىٰ خلفها الوعد. قال كعب بن مالك:

وعدنا أبا سفيان بدراً فلم نجد لموعده صدقاً وما كان وافيا[٣]

معركة الأحزاب

مرّ أنّ قريشاً لم تحضر بدراً علىٰ عدتها، بيد أنّها نشطت بجدٍّ للتّلافي، وإطفاء نور الإسلام بالمرّة. وما ازدياد عدد المشركين في الأحزاب ـ إذ كان ثلاثة أضعاف ما كان في أُحد ـ إلّا دليل علىٰ جدّهم في هذه الحرب. ويضاف إليه أنّ قريشاً لم تكن وحدها

(١) *المغازي* ١ : ٣٨٨؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ٢ : ٥٩.

(٢) *المغازي* ١ : ٣٨٩. الأموال المذكورة في رواية البيهقيّ هي من أجل قدوم المشركين إلىٰ مَجَنَّة، ويجب ألّا تكون صحيحة. *دلائل النّبوّة*، البيهقيّ ٣ : ٣٨٦.

(٣) *المغازي* ١ : ٣٨٩؛ وفي هامش *دلائل النّبوّة*، البيهقيّ ٣ : ٣٨٧ ورد الشّعر المذكور لعبد الله بن رواحة.

تريد إطفاء نور الإسلام بل إنّ القبائل الأخرىٰ أيضاً كانت كذلك إذ أدركت خلال هذه المدّة أنّه أصبح خطراً حقيقيّاً يهدّد وجودها. كما أنّ اليهود كانت تكنّ حقداً كبيراً على الإسلام بسبب أحداث بني القينقاع وبني النّضير، وقتل بعض سراتهم ككعب بن الأشرف. من هنا أجمعت الأحزاب برمّتها علىٰ مهاجمة المدينة الّتي كان سكّانها من الرجال والنساء، والكبار والصغار قرابة عشرة آلاف، والقضاء على الإسلام عبر تعبئة عامّة. ومن المحتمل بقوّة أنّ شبه الجزيرة العربيّة لم تشهد مثل هذا النّفير في حروبها القبليّة يومئذٍ قطُّ.

وذهب الواقديّ، وابن سعد، والبلاذريّ إلىٰ أنّ معركة الأحزاب تمتدّ من يوم الثلاثاء الثّامن من ذي القعدة حتّىٰ يوم الأربعاء الثّالث والعشرين منها في السّنة الخامسة للهجرة[١]. وذهب ابن إسحاق إلىٰ أنّها كانت في شوّال من السّنة المذكورة[٢]. وفي مقابل هذين الرأيين يرىٰ موسى بن عقبة نقلاً عن الزّهريّ، ومالك بن أنس أنّها كانت في السّنة الرّابعة[٣]. ونقل البيهقيّ آراء مختلفة. وعرض توجيهين لإثبات عدم التّعارض بين القولين، الأوّل: عند ما يقال إنّ بدراً كانت في السنة الثانية، فإنّ هذا يعني أنّها كانت بعد الهجرة بسنة ونصف، وكذلك أُحُد فإنّها كانت بعدها بسنتين ونصف، فحينئذٍ تكون الأحزاب بعد أربع سنين وقبل خمس سنين[٤]. ومن هنا يمكن القول أنّ الأحزاب كانت في السّنة الرّابعة بناءً على رؤيةٍ، والتّوجيه الآخر هو أنّ بعض المؤرّخين يبدأ تاريخه من المحرّم بعد ربيع الأوّل ـ شهر الهجرة ـ أي: يتركون عشرة أشهر من السّنة الهجريّة عمليّاً. واعتماداً علىٰ هذا الحساب فإنّ معركة

---

(١) *المغازي* ٢: ٤٤١؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ٦٥؛ *أنساب الأشراف*: ٣٤٣.

(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٢١٤؛ *زاد المعاد* ٣: ٢٦٩. وذهب إلىٰ أنّ هذا الرأي هو «أصحّ القولين».

(٣) *دلائل النّبوّة*، البيهقيّ ٣: ٣٩٣.

(٤) نفسه ٣: ٣٩٥.

الأحزاب وقعت في السّنة الرّابعة. ويرى البيهقيّ أنّ يوسف بن سفيان الفسويّ صاحب كتاب «المعرفة والتّاريخ» من هؤلاء[١].

على أيّ حال يتمثّل رأي البيهقيّ في وقوع الأحزاب العام الخامس من الهجرة إذ إنّ ما ذُكر من توجيه هو توجيه صوريّ لقول آخر فحسب. ونقل البلاذريّ في رواية عن الزّهريّ أنّ الأحزاب كانت بعد أُحُد بعامين. فلا بدّ أنّه يرىٰ وقوعها في السّنة الخامسة أيضاً. ومن الأدلّة على إثبات السّنة الخامسة كلام أبي سفيان الّذي قال بعد أُحُد: موعدنا العام القادم، ولم يحضر المشركون في بدر الموعد، ولا يمكن، بالنظر إلى استدلال أبي سفيان بجدب السّنة الرابعة سبباً في الغياب عن بدر، أن يكون جاء بعد شهرين. فلا جرم أنّنا ينبغي أن نقول إنّ الأحزاب قدمت المدينة في السّنة اللاحقة، أي: السّنة الخامسة[٢].

وذهب أرباب السِّيَر إلىٰ أنّ اليهود هم السّبب الأصليّ لنشوب حرب الأحزاب. فقد جاء رؤساؤهم الّذين كانوا ذهبوا إلىٰ خيبر بعد واقعة بني النّضير إلىٰ قريش وطلبوا منهم التّحالف والتّوجّه لحرب المدينة من أجل القضاء علىٰ رسول الله ﷺ[٣]. ولم ترغب قريش في هذا التّحالف كثيراً مع أنّها كانت جالسة بمكّة، لذا أجاب أبو سفيان اليهود أنّ أحبّ النّاس إلينا من أعاننا علىٰ عداوة محمّد[٤]. وقيل إنّ قريشاً حين رأت رؤساء اليهود حاولت أن تسألهم عن صحّة دينها وتفوّقه على الإسلام. وتحدّثنا سابقاً عن الهيمنة الثّقافيّة لأهل الكتاب علىٰ عرب الجاهليّة. وكان العرب ـ كما جاء هنا أيضاً ـ يسمّون اليهود «أهل العلم والكتاب الأوّل». وسألت قريش:

---

(١) *دلائل النّبوّة*، البيهقيّ ٣: ٣٩٦. (٢) *أنساب الأشراف* ١: ٣٤٥.

(٣) *السّيرة النّبويّة*، ابن كثير ٣: ١٨٠. وقيل بهذا الشأن موضوع آخر أيضاً ليس لنا أن نتعرّض له هنا. انظر: *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٤: ٥٦١؛ *زاد المعاد* ٣: ٢٦٩، ٢٧٠.

(٤) *المغازي* ٢: ٤٤١؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٢١٤ [لنستأصل محمّداً]

ديننا خير أم دين محمّد؟ فنحن عمّار البيت، وننحر الكوم، ونسقي الحجيج، ونعبد الأصنام. فأجابهم اليهود النفعيّون: أنتم أولىٰ بالحقّ منه، إنّكم لتعظّمون هذا البيت، وتقومون على السقاية، وتنحرون البُدنَ (للإطعام)، وتعبدون ما كان عليه آباؤكم[١].

ولم تكتف اليهود بتحريض قريش، بل دعت قبيلة بني سُلَيم، وغطفان المعروفتين بعدائهما للإسلام لمظاهرتها[٢]. وتعهّدت لغطفان أن تعطيها نصف تمر خيبر (وفي خبرٍ جميع ما يُجنىٰ منه خلال سنةٍ واحدة)[٣]. واستمدّت قريش حلفاءها أيضاً. وشكّلت هي والأحابيش جيشاً قوامه أربعة آلاف مع ثلاثمائة حصان. فسبعمائة من بني سُليم بقيادة سفيان بن عبد شمس[٤]، وبنو فزارة كلّهم بإمرة عيينة بن حصن[٥]، وأربعمائة من قبيلة أشجع، وأربعمائة من بني مرّة، وبنو أسد بقيادة طليحة بن خويلد، وجملة القول إنّهم سيّروا جيشاً عظيماً لحرب الإسلام. وصحب قريشاً خلقٌ كثير من غطفان حتّىٰ قيل إنّ قوام جيش الشّرك بلغ عشرة آلاف[٦]، وساروا نحو المدينة ثلاثة عساكر[٧].

وهذه المرّة أيضاً بلغ المدينة خبر أتىٰ به جماعة من قبيلة خزاعة حليفة رسول الله ﷺ حول استعداد المشركين. واستشار رسول الله ﷺ المسلمين في قتال المشركين. وتحدّثنا سابقاً عن استشارة رسول الله ﷺ الناس في أمر الحرب؛ ومن

---

(١) *المغازي* ٢: ٤٤٢.

(٢) نفسه. وقيل: إنّ الآية الحادية والخمسين من سورة النّساء نزلت في هذا الشّأن، وهي تتّفق تماماً مع الموضوع المذكور. *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٢١٥.

(٣) نفسه ٢: ٤٤٢، ٤٤٣.

(٤) *دلائل النّبوّة*، البيهقيّ ٣: ٣٩٨، ٣٩٩.

(٥) هو أبو أبي الأعور السّلميّ الّذي قاتل أمير المؤمنين عليه السلام مع الأحزاب البغاة بصفّين إلىٰ جانب معاوية. وهكذا كانت الأحزاب في عصرها الجاهليّ، وفي عصر ما بعد الإسلام جنباً إلى جنب لذا كان أميرالمؤمنين عليه السلام يقول في تحريض أهل الكوفة على القاسطين: «سيروا إلىٰ بقيّة الأحزاب».

(٦) *المغازي* ٢: ٤٤٣، ٤٤٤.

(٧) *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ٦٦.

الاتّفاق تأكيد الواقديّ هنا بقوله «وكان رسول الله يُكثر مشاورتهم في الحرب»[١]. ومن الممكن أن نقول: إنّه كان يستشيرهم في الحرب فحسب. ولم يتحدّث كتّاب السِّيَر عن الاقتراحات المطروحة بدقّة. وذكر الواقديّ أنّ جماعة قالت إنّها تقف بين ثنية الوداع، والجُرف، وبُعاث. وهذا المكان في موضع حُفر فيه الخندق تقريباً. ومهما يكن فإنّ سلمان تحدّث عن تجربة الفُرس. وكان الرأي هو حفر الخندق عند الخوف من خيل العدوّ. ورحّب رسول الله ﷺ بهذا الرأي وما لبث أن شرع فيه[٢]. وأضاف البلاذريّ أنّ العرب لم تعرف هذا الفنّ العسكريّ المتمثّل بحفر الخندق[٣].

وما كان مهمّاً في هذا المجال هو أن يُحفَر خندق يسدّ جميع المنافذ إلى المدينة. ويُعيق العدوّ. وعلينا أن نلتفت إلىٰ ما قلناه سابقاً حول الموقع الجغرافيّ للمدينة. فقد كانت المدينة تقع بين الحرّة الشّرقيّة والحرّة الغربيّة. والحرّة منطقة صخريّة ذات حجارة سوداء حادّة وعلىٰ شكل تلال صغيرة في صعيد واسع. وأحاطت هاتان الحرّتان بالمدينة تماماً، وغطّتا القسم الجنوبيّ تقريباً، وإن كانت هناك منافذ محدودة من تلك الجهة. وفي غضون ذلك كان القسم الشّمالي وحده أرضاً زراعيّة ومسطّحة. وفي المسافة الواقعة بين رأس الحرّة الشّرقيّة (الواقع جبل أُحُد في شمال غربها) حتّىٰ جبل سلع الواقع قرب القسم الأخير من الحرّة الغربيّة أرض سهلة خالية من الحجارة. ولو قُدِّر للعدوّ أن يأتي المدينة فإنّ المنفذ الوحيد إليها هو القسم الشّمالي هذا، لأنّ جيشاً قوامه الآلاف لا يمكن أن يجتاز الصخور بسهولة في الأقسام الأُخرىٰ. وكانت الصّخور في قبا أقلّ من غيرها، لذا كان هناك احتمال ضعيف أن تتمكّن مجموعات صغيرة من الدّخول في نطاق يثرب. وسار المشركون من مكّة في

---

(١) *المغازي* ٢: ٤٤٥. (٢) نفسه.

(٣) *أنساب الأشراف* ١: ٣٤٣.

السّنة الثّالثة وداروا حول المدينة واستقرّوا علىٰ سفح أُحُد. ويعود ذلك إلىٰ تعذّر عبور الجيش عن طريق قباء، أي: الجنوب، الّذي كان الطريق المعتاد لسفر أهل المدينة إلىٰ مكّة.

ولننظر الآن أين حُفر الخندق؟ يقول الواقديّ: «فكان أعجب المنازل إليه [رسول الله ﷺ] أن يجعل سَلعاً خلف ظهره [التقدّم قليلاً]، ويخندق من المذاد [اسم أُطم لبني حرام من بني سلمة غربيّ مسجد الفتح] إلىٰ ذباب، إلىٰ راتج»[١]. وراتج على الحرّة الشّرقيّة، وذُباب جبيل في الحرّة الغربيّة عند جبل سلع. فالخندق حُفر في الحقيقة بين الحرّتين متقدّماً قليلاً علىٰ جبل سلع الّذي كان رسول الله ﷺ مستقرّاً عنده. ويقع مسجد الفتح علىٰ جبل سلع الآن. ويضاف إلىٰ ذلك أنّه نُصبت قبّة للنّبيّ ﷺ علىٰ جبل ذُباب أيضاً[٢]. وكانت ذباب داخل نطاق المدينة في هذه الجهة من الخندق. ويقال للمنطقة الّتي توسّط سلع وذُباب ثنية الوداع، وهو المكان الّذي كان يُستقبَل فيه النّبيّ ﷺ ويودَّع عند دخوله المدينة أو خروجه منها[٣].

ويقول الواقديّ في موضع آخر من كتابه حول موضع الخندق: «قالوا: وكان الخندق ما بين جبل بني عبيد بِخُربىٰ إلىٰ راتج. فكان للمهاجرين من ذُباب إلىٰ راتج، وكان للأنصار ما بين ذُباب إلىٰ خربىٰ». وخُربى قرب مسجد القبلتين[٤] الواقع غرب جبل سلع. ويضيف الواقديّ: «وخندقت بنو عبد الأشهل [الّذين كانوا يسكنون في الحرّة الشّرقيّة] عليها بما يلي راتج إلىٰ خلفها [أسفل ممّا هو باتّجاه مركز المدينة] حتّىٰ جاء الخندق من وراء مسجد النّبيّ ﷺ [جانبه الشّرقيّ طبعاً]».

---

(١) انظر: *المغازي* ٢: ٤٤٥. قيل: مذاد اسم أُطم بني سلمة؛ وانظر أيضاً: *الحجاز في صدر الإسلام*: ٥٤٣.

(٢) *تاريخ المدينة المنوّرة* ١: ٦١، ٦٢.

(٣) *المعالم الأثيرة*: ١٢٠؛ الثنية طريق العبور بين جبلين. انظر: *معجم المعالم الجغرافية*: ٧١.

(٤) نفسه: ١٠٨.

يضاف إلىٰ هذا كلّه أنّ احتياطات أُخرىٰ قد تحقّقت أيضاً. ويواصل الواقديّ كلامه فيقول: «وشبّكوا المدينة بالبنيان من كلّ ناحية وهي كالحصن»[١].

واستقرّت النساء والأطفال في الآطام. وحفر الخندق في قباء حول بعض الحصون. وأمر رسول الله ﷺ عدداً من رجال القبائل الّذين كانوا يعيشون حوالي يهود بني قريظة أن يتسلّحوا عند تنقّلهم إذ كان يخاف عليهم من اليهود. وكانوا يتردّدون بين جبهة الحرب ومناطق سكنهم. وذات مرّة التقىٰ جماعة من المسلمين كانوا متّجهين نحو قباء بشرذمة من يهود بني قريظة في الطّريق، فرماهم اليهود، وردّ عليهم المسلمون، وجُرح منهما رجالٌ. وذكر النّاقل أنّه لم يُرَ لليهود جمع بعد ذلك[٢].

إنّ ما ينبغي أن نقوله كنتيجة ـ وذهب الواقديّ إلىٰ أنّه أصحّ الأقوال ـ هو أنّ الخندق كان يمتدّ من جبل أبي عبيد إلىٰ راتج. ومن المحتمل أنّ أعمالاً أُخرىٰ تحقّقت في بعض المناطق احتياطاً، منها ما قيل في بني عبد الأشهل. من هنا يسّر السّور الطّبيعيّ للمدينة بواسطة الحرّة عمل المسلمين، وإنّما حُفِر خندق في القسم الشّماليّ من المدينة. وكان عمقه بمقدار قامة الإنسان[٣]. وعرضه بمقدارٍ ـ لعلّه أربعة أمتار كحدّ متوسّط ـ يتعذّر معه عبور المشاة فضلاً عن الخيّالة إلّا في مواضع استثنائيّة تتمثّل في أماكن ضيّقة منه.

وأخبار الواقديّ الدقيقة حول عمل الصّحابة في حفر الخندق لافتة للنّظر. ومجملها أنّ المسلمين الّذين كانوا يحفرون الخندق حذاء جبل سلع يملأون مكاتلهم بالتّراب ويرتقون سلعاً لإلقائه هناك، وبعد إلقائه يملأونها حجراً ليجمعوه في مكان

---

(١) *المغازي* ٣: ٤٥٠، ٤٥١؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ٦٦، ٦٧.

(٢) *المغازي* ٢: ٤٥١.

(٣) نفسه ٢: ٤٤٦؛ ذكر البعض أنّه كان ثلاثة أمتار، انظر: *الإدارة العسكريّة في حروب الرّسول محمّد* ﷺ: ٢١٧. وقال: إنّ طوله كيلومتران.

واحد فيفيدوا منه عند هجوم العدوّ. وكان رسول الله ﷺ يحمل التّراب في المكاتل أيضاً ويطرحه هناك.

وإذا ضعف أحد ذلك اليوم فالجميع يضحكون عليه. وكان سلمان قويّاً عارفاً بحفر الخنادق. وقال الأنصار: سلمان منّا، وقال المهاجرون: سلمان منّا، وطلبوا منه أن يكون معهم. فقال رسول الله ﷺ: «سلمان منّا أهل البيت»[١]. وكان يعمل عمل عشرة رجال. وعُيّنت له منطقة سعتها خمسة أذرع في خمسة أذرع، وكان يحفرها وحده.

وكان جُعَيل بن سراقة منهمكاً في العمل، وهناك غيّر رسول الله ﷺ اسمه إلىٰ عمرو. وأخذ أحد المسلمين سلاح زيد بن ثابت الّذي كان نام في الخندق لفرط التعب. ولمّا أفاق أمر رسول الله ﷺ أن يُرجع إليه سلاحه. ونهىٰ ﷺ أن يُروَّع المسلم، أو يؤخَذ متاعه لاعباً جادّاً. وقيل: ما كان في المسلمين يومئذٍ أحد إلّا يحفر في الخندق. وكان أبو بكر وعمر لا يتفرّقان في عمل، ولا مسير، ولا منزل ينقلان التراب في ثيابهما إذ لم يجدا مكاتل يحملانه به. قال البراء بن عازب: لبس رسول الله ﷺ حلّة حمراء، ولمّا كان ﷺ أبيض الوجه فإنّ الحلّة ناسبته كثيراً. وكان يحمل التراب علىٰ ظهره وشعره مُرسَل علىٰ أكتافه. وقال أبو سعيد الخُدريّ: كان ﷺ يقول وهو يحمل التّراب:

اللّهمّ لولا أنت ما اهتدينا   ولا تَصَدَّقْنا ولا صَلَّينا[٢]

وكان المهاجرون والأنصار يرتجزون قائلين:

نحن الّذين بايعوا محمّدا   على الجهاد ما بقينا أبدا

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٢٢٤؛ *المغازي* ٢: ٤٤٦، ٤٤٧؛ *دلائل النّبوّة*، البيهقي ٣: ٤٠٠.

(٢) *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ٧١؛ *المغازي* ٢: ٤٤٩؛ *دلائل النّبوة*، البيهقي ٣: ٤١٣؛ وورد هناك بيتان آخران أيضاً علىٰ قياس البيت المذكور.

وكان رسول الله ﷺ يقول أيضاً:

اللّهمّ لا خيرَ إلّا خير الآخرة   فاغفر للأنصار والمهاجرة[١]

وكان عدد المسلمين في هذه الحرب ثلاثة آلاف. وحضرها جميع البالغين الّذين كانوا بالمدينة. وبذلوا قصاراهم فهيّأوا الخندق خلال ستّة أيّام[٢]. واتّخذ ﷺ جبل سلع ـ الّذي عُرف بجبل الأحزاب فيما بعد ـ مقرّاً له. وضرب قبّة من أدم في القسم المقابل للخندق[٣].

واستقرّ جيش قريش بوادي العقيق ـ منطقة فسيحة شمال المدينة باتّجاه ذي‌الحليفة ـ في وقت كان الخندق مُهَيَّئاً. وسرّحوا إبلهم في البادية، لكن لم يوجد فيها شيء للأكل إلّا العضاه، إذ إنّ موسم الحصاد قد تصرّم. ويضاف إلىٰ ذلك أنّ مطراً لم ينزل تلك الأيّام، وأطراف المدينة جديبة ممّا أدّىٰ إلىٰ هزال الإبل هزالاً شديداً[٤].

وأشارت أخبار السّيرة إلى البرد مراراً. وسبق حييّ بن أخطب الّذي شبّهه أحد المحدِّثين بأبي جهل في كبره وأنانيّته ونخوته قريشاً في دخول المدينة. وذهب عند كعب بن أسد رئيس بني قُريظة والموقّع على المعاهدة مع رسول الله ﷺ. وقال له إنّه أتىٰ بجيش غفير يشمل قريشاً، وغطفان، وكنانة، وقوامه عشرة آلاف، واستقرّ في وادي العقيق، وزغابة قرب أُحد ـ ورومة، وسيريحهم من محمّد هذه المرّة. ورفض كعب أن يدخله في بيته بادئ الأمر لأنّ هذا العمل يعتبر نكثاً للعهد. وأصرّ حييّ

---

(١) ***الطّبقات الكبرىٰ*** ٢: ٧٠؛ ***المغازي*** ٢: ٤٥٣؛ ***دلائل النّبوّة***، البيهقيّ ٣: ٤١٠، ٤١١؛ ونقل بعض الأخبار كلمة «الإسلام» مكان كلمة «الجهاد» الواردة في جواب الأنصار في عجز البيت. وأكّد أنس بن مالك أنّ الصّحابة كانوا ينشدون شعرهم في البيعة على الإسلام يوم الخندق.

(٢) ***الطّبقات الكبرىٰ*** ٢: ٦٧. وجاء في أخبار أخرىٰ ستّة عشر يوماً، وسبعة عشر يوماً، بل أربعة وعشرون يوماً. انظر: ***عيون الأثر*** ٢: ٨٧.   (٣) ***المغازي*** ٢: ٤٥٤.

(٤) ***المغازي*** ٢: ٤٤٤.

حتّىٰ دخل البيت. فقال له كعب: والله لم أر أوفىٰ من محمّد. ولم يلزمنا الأخذ بدينه، ولم يغتصب أموالنا[١]، لكنّه أصرّ حتّىٰ رضي كعب، وأعطاه العهد الّذي كان وقّعه مع رسول الله ﷺ فشقّه حييّ. وكانت مشكلة اليهود أساساً هو خشيتها من عجز قريش وسائر القبائل عن القيام بعمل ما، وتركها المنطقة، وحينئذٍ لا يستطيع بنو قريظة مواجهة المسلمين، وحلف حييّ أنّه سيبقىٰ معهم[٢].

ولمّا بلغ رسول الله ﷺ نكثُ بني قريظة أرسل من يأتيه بخبرهم. فأتاه وأخبره أنّهم مشغولون بإصلاح حصونهم وطرقهم، وأنّهم جمعوا ماشيتهم كلّها. فبعث ﷺ وفداً من كبارالأنصار ضمّ سعد بن معاذ ـ الّذي كان حليفاً لبني قريظة قبل الإسلام ـ وسعد بن عبادة، وأُسيد بن حُضَير، وعدداً آخر غيرهم إلىٰ كعب بن أسد، وأقسم عليه أن يفي بعهده، لكنّ كعباً واليهود سبّوا رسول الله ﷺ وسعداً مع إشارتهم إلى إخراج بني النّضير[٣]. وقال كعب إنّه يقطعه (العهد) كما يقطع قِبال النّعل (شِسعه)[٤]. وأفزع المسلمين نكث بني قريظة عهدهم، بيد أنّ رسول الله ﷺ وعدهم بالنّصر.

وظهر يومئذٍ نفاق المنافقين الّذين كان فيهم عدد كبير من ضعفاء الإيمان والمذبذبين، وطفقوا يهدّدون المسلمين ويسخرون من كلام رسول الله ﷺ[٥]. وفي مقابل ذلك وعد رسول الله ﷺ المسلمين بالنصر وقال إنّه يرجو أن يطوف حول البيت العتيق آمناً، ويهلك الله كسرىٰ وقيصر، وينفق أموالهم في سبيل الله[٦]. وسنرىٰ أنّ القرآن الكريم يشير إلىٰ دور المنافقين في هذه الحرب إشارات خاصّة. وجاء في

---

(١) ***دلائل النّبوّة***، البيهقيّ ٣: ٤٠١. (٢) ***المغازي*** ٢: ٤٥٥ ـ ٤٥٧.

(٣) ***دلائل النبوّة***، البيهقي ٣: ٤٠٣؛ ***السّيرة النّبويّة***، ابن هشام ٣: ٢٢٢.

(٤) **المغازي** ٢: ٤٥٧، ٤٥٨.

(٥) كان أحد المنافقين يقول: يَعِدُنا محمّد كنوز كسرىٰ وقيصر، وأحدنا لا يأمن أن يذهب إلىٰ حاجته!

(٦) ***دلائل النّبوّة***، البيهقيّ ٣: ٤٠٢.

خبر آخر أنّهم كانوا يتباطؤون في حفرالخندق قبل وصول المشركين، وكانوا يرجعون إلىٰ بيوتهم بلا إذن من النّبيّ ﷺ وعلمه[١]. على أيّ حال الوضع كان متأزّماً متوتّراً. فإذا دخل جيش العدوّ المدينة وقوامه عشرة آلاف، مع سبعمائة من مقاتلي بني قُريظة، فإنّهم يضيّقون على المسلمين بسهولة، ومن ثمّ يبيدونهم إبادة جماعيّة.

ولمّا كان محتملاً أن يُخرِجَ المشركون مجموعات ـ ولو بمشقّة ـ من يهود بني قريظة من حصنهم ويُدخلوهم المدينة، وكذلك سُمعت أخبار عن رغبة كعب في التحاق ألفين أو ثلاثة آلاف شخص من المشركين به ليهجموا على المسلمين من الداخل، فإنّ رسول الله ﷺ جعل خمسمائة من أصحابه علىٰ بيوت المدينة للمحافظة عليها. ومع وجود الخندق أمام جيش المشركين، فإنّ خوف المسلمين من بني قريظة، الّذين كانت منازلهم جنب منازل المسلمين، كان أكثر. وأرسل النّبيّ ﷺ أحد الصّحابة إلىٰ حصن بني قُريظة لتقصّي أخبارهم، لكنّه غلبه النوم بعد ساعات من مراقبة الأوضاع، ولمّا استيقظ وجد نفسه أسيراً بيد أحدهم. فقال له: ولدت بقرتك عجلاً سميناً! فانتزع ذلك الصّحابي وهو خوّات معول اليهوديّ بذكاء ووجأ به بطنه ثمّ فرّ بسرعة. ورُئي يهوديّ مرّةً في أطراف أحد الحصون الّذي كان فيه نساء المسلمين، ومعهنّ حسّان بن ثابت الّذي قيل إنّه كان جباناً. فنزلت صفيّة عمّة النّبيّ ﷺ فقتلته[٢].

وفي متناول أيدينا أخبار عن بدء الأعمال التخريبيّة لبني قريظة بالمدينة[٣]، وهي تدلّ علىٰ أنّهم بدأوا نشاطهم، وكانوا يترصّدون الفرصة لتدخل قريش المدينة، فيبدأون عملهم من الداخل. وكان قيامهم بتحرّك عسكريّ واسع متعذّراً قبل وصول الإمدادات.

---

(١) ***دلائل النّبوّة***، البيهقيّ ٣: ٤٠٢.

(٢) ***دلائل النّبوّة***، البيهقي ٣: ٤٤٢؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٢٢٨؛ ***أنساب الأشراف*** ١: ٣٤٧.

(٣) ***المغازي*** ٢: ٤٦٢.

وانصبّ جهد المشركين علىٰ عبور الخندق. وكانوا يتقصّون موضعاً قليل العرض منه ليتسنّىٰ لهم عبوره. وعثر أبو سفيان ومعه لمّة من المشركين علىٰ مكان منه مرّةً وحاولوا العبور، لكنّهم أُجبروا على التقهقر إذ جوبهوا بسهام المسلمين وحجارتهم. وفي مرّة أُخرىٰ حاول عمرو بن العاص العبور مع مئة من أصحابه فأرغمهم حُماة الخندق على التقهقر إذ رموهم بالسّهام والحجارة. وقيل إنّ ابن العاص وخالد بن الوليد حاولا كثيراً فلم يُفلحا. وبلغا شفير الخندق أمام قبّة النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مرّةً ورميا لكنّهما لم يستطيعا العبور[١]. وتكرّر هذا الوضع، وفي كلّ مرّة كان يجرح جماعة من الطّرفين بسبب الرمي.

وكان المسلمون يراقبون الخندق من جميع أرجائه ممّا أدّىٰ إلىٰ إعاقة قريش أيّاماً حسوماً. وكانوا يتوقّعون هجوم بني قريظة على المدينة من الداخل، لكن ـ كما مرّ سابقاً ـ عددهم لا يكفي لهجوم حاسم. والخوف منهم طبعاً دفع المسلمين إلىٰ حراسة المدينة، وكانوا يكبّرون حتّى الصّباح، وإنّما فعلوا ذلك لرفع الخوف عن أنفسهم[٢]. وأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين الذين كانوا يسكنون قريباً من بني قريظة أن يتسلّحوا عند تنقّلهم[٣]. وقيل إنّ عُبّاد بن بِشر ومعه ثلّة من الصّحابة بذلوا جهوداً كبيرةً لحراسة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وكانوا مجبَرين على السّهر ليلاً. وذكر خبر آخر أنّ المشركين كانوا يبعثون إلى الخندق في كلّ يوم كتيبةً بقيادة أحد أمرائهم؛ وتبدأ الكتيبة بالرمي لعلّها تستطيع العبور، لكنّها ترجع ليلاً وهي خائبة[٤]. وفي إحدىٰ هذه الهجمات أُصيب سعد بن معاذ، ثمّ استُشهد بعد أيّام مضت وكانت فيها نهاية بني قريظة. وكان حصار المدينة بنحو استقرّ فيه العدوّ في جميع مواضع الخندق أحياناً[٥].

---

(١) *المغازي* ٢: ٤٦٥، ٤٦٦؛ وانظر: ص ٢٦٧.

(٢) *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ٦٧؛ *المغازي* ٢: ٢٦٧.

(٣) *المغازي* ٢: ٤٧٢. (٤) نفسه ١: ٤٦٩.

(٥) نفسه ١: ٤٧٢.

وشهد أحد الأيّام هجوم عسكر عظيم فيه رؤساء قريش، وبنو أسد، وغطفان، وسائر القبائل، واستطاع عدد منهم عبور الخندق من موضع ضيّق فيه، وفيهم عمرو ابن عبد وَدّ[١]، وعكرمة بن أبي جهل، ونوفل بن عبد الله، وضرار بن الخطّاب. وطلب عمرو أن يبرز إليه أحد المسلمين ـ وكان قد شهد بدراً وجُرح فيها، فلم يشهد أُحداً لذلك، وأراد أن يثأر لنفسه ـ وكرّر نداءه ثلاث مرّات، ولم يقم إليه في كلّ مرّة أحد من شجعان العرب إلّا عليّ بن أبي طالب عليه السلام. ويشهد تاريخ صدر الإسلام علىٰ أنّ الصّحابة كلّهم لم يكونوا كعليّ في شجاعته، والبراز إلىٰ عمرو يتطلّب شجاعة خاصّة حقّاً. ووضع رسول الله ﷺ العمامة بيده الشّريفة علىٰ رأس الإمام ودعا له، وسيّره إلىٰ عمرو.

وقال عمرو للإمام إنّه لا يريد قتاله لأنّه صديق أبيه في الجاهليّة، بيد أنّ الإمام عليه السلام أجابه إنّه يرغب في قتله. وفي الوقت نفسه طلب منه الإمام أن يعمل بما قاله في الجاهليّة: إنّه إذا أراد منه أحد ثلاثة أشياء في البراز يقبل واحداً منها. فطلب عليه السلام منه أن يسلم، أو يعتزل القتال، أو ينزل من فرسه للبراز، فرفض الأوّلين، وعزم على المبارزة. فبدأت المناوشات بينهما حتّىٰ ثار الغبار فلم يرهما أحد إلىٰ أن علا صوت الإمام بالتكبير. وهذه آية علىٰ أنّ عمرو قد قُتل. فذُعر الآخرون حين رأوا ذلك ذعراً شديداً ولاذوا بالفرار. وفيهم نوفل بن عبد الله إذ سقط في الخندق فرُمي بالحجارة حتّىٰ هلك[٢]. وأنشد الإمام عليه السلام بعد مقتل عمرو قائلاً:

---

(١) وَدّ اسم صنم ذُكر في الآية (٢٣) من سورة نوح.

(٢) *المغازي* ٢: ٤٧٢؛ *دلائل النّبوّة*، البيهقيّ ٣: ٤٣٧؛ ونصّت أخبار أخرىٰ أيضاً علىٰ أنّ الإمام عليّاً عليه السلام هو الّذي قتله. انظر: *دلائل النّبوّة*، البيهقيّ ٣: ٤٣٨؛ *المغازي* ٢: ٤٩٦. ومن الجدير ذكره أنّ خبراً يدلّ علىٰ أنّ عمراً جرح رأس الإمام عليه السلام. انظر: *أنساب الأشراف* ١: ٣٤٥. ورويت أشعار رائعة عن الإمام جواباً عمّا ارتجزه عمرو. انظر: *دلائل النّبوّة*، البيهقيّ ٣: ٤٣٨، ٤٣٩؛ *عيون الأثر* ٢: ٩٣.

نَصَرَ الحجارةَ من سفاهة رأيه ونصرتُ ربّ محمّدٍ بصوابي
لا تحسبنّ الله خاذلَ دينه ونبيّه يا معشر الأحزابِ(١)

وضعضعت هذه الحادثة معنويّات العدوّ بشدّة، وكانت البداية لتردّد المشركين في البقاء وراء الخندق. واصطدمت في إحدى الليالي مجموعتان من المسلمين، وكلّ منهما تظنّ أنّ الأخرىٰ هي العدوّ، فترامتا، وكانت بينهما جراحة وقتل. من هنا كان المسلمون ينادون بشعار «حم لا يُنصَرون» لئلّا يتكرّر مثلها(٢).

وعلاوة على الضربة الّتي مُنيت بها قريش في عبور عدد من أفرادها الخندق وجود أمور أُخرىٰ زادت تردّد الأحزاب في البقاء أو الذّهاب. فتموين عشرة آلاف شخص مع آلاف من الإبل، الّتي تحتاج إلىٰ علف كثير يوميّاً، في أطراف الخندق عمل بالغ العسر والصعوبة، حتّىٰ إنّ الإبل أشرفت على الموت بعد مضيّ أيّام بسبب الجوع(٣). ويضاف إلىٰ ذلك أنّ ليلةً عاصفةً مرّت بهم فأطفأت النار مواقد طعامهم، وبعثرت أثاثهم، وضاعفت ذعرهم. وأشار كعب بن مالك في شعر له إلىٰ دور العواصف، فقال:

بريحٍ عاصفٍ هبّت عليكم فكنتم تحتها مُتكمِّهينا(٤)

وكانت غطفان، وهي من جياع العرب، تعاني كثيراً. وقيل ـ وتصويبه يحتاج إلىٰ مزيد تحقيق ـ إنّ رسول الله ﷺ عرض علىٰ غطفان أن تأخذ ثلث تمر المدينة وترجع مستهدفاً بذلك تفريق وحدة العدوّ. لكنّها طلبت نصفه فرفض ﷺ طلبها

---

(١) *السّيرة النّبويّة* ٣: ٢٢٥؛ *عيون الأثر* ٢: ٩٣.

(٢) *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ٧٢؛ *مستدرك الحاكم* ٢: ١٠٧؛ *المغازي* ٢: ٤٧٤.

(٣) *المغازي* ٢: ٤٨٠.

(٤) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٣٥٦. المتكمّه: الأعمىٰ.

واقتنعت بالثلث[١]. ولمّا جاء عُيينَة بن حصن والحارث بن عوف للتفاوض، لم يُبدِ زعماء الأنصار رغبةً في ذلك. وقالوا لهما إن كان هذا العمل بأمر الله فافعلا ما تؤمران به، وإذ كنتما فيه راغبين فنحن مطيعون، ولكن إذا جئتما للتشاور فليس عندنا إلّا السّيف[٢]. وأراد رسول الله ﷺ أن يفصل هذه المجموعة عن الآخرين بعد رؤية الأحزاب المتّحدة. علىٰ أيّ حال رجع عُيينة بن حصن. وقال لو عرفت قريش هذا التّفاوض لعلمت أنّنا أذللناها، ولا نحميها[٣]. ولم يرد الأنصار أوسهم وخزرجهم أن يستسلموا لقبيلة كغطفان ذات الوضع الاقتصاديّ الذليل في مقابل الأوس والخزرج وذلك للحُرمة الّتي تراها لنفسها في الجاهليّة. والموقف الصارم للأنصار، ثمّ لرسول الله ﷺ آيس غطفان من التّغلّب على الأنصار إذ عرفوا أنّ الأنصار سيصمدون حتّىٰ لو بقي منهم شخص واحد. ونُقل عن غطفان وبني سليم قولهم إنّ محمّداً ﷺ خير لهم من اليهود فَلِمَ يؤذونه[٤]. ولعلّ هذا يعود إلىٰ شعورهم العربيّ أمام اليهود.

ويضاف إلىٰ ما مرّ أنّ نعيم بن مسعود الذي شارك الأحزاب في حرب النّبيّ ﷺ

---

(١) وكانت غطفان الجائعة قد وُعدت بتمر خيبر سنة كاملة. وعدها اليهود في قضيّة الالتحاق بالأحزاب. *أنساب الأشراف* ١: ٣٤٣.

(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٢٢٣.

(٣) بغضّ النّظر عن تقويم الخبر المذكور بدقّة من الوجهة التّاريخيّة، لابدّ من مراعاة الملاحظات الكلاميّة. فقول النّبيّ ﷺ وفعله حجّة شرعيّة من منظار المذاهب الإسلاميّة جميعها. وهذا يعني أنّ ذلك كلّه معيار العمل الشّرعيّ للمسلمين. وإذا قدّر أنّ بعض الأفعال الّتي يمارسها النّبيّ ﷺ تفقد الحجّيّة لأنّها ليست وحياً، فما هو المعيار حينئذٍ لتمييز ما هو حجّة منها ممّا هو غير حجّة؟ ونظراً إلىٰ هذه النقطة ربّما يقال إنّ ما ورد في المتن وما شابهه من أخبار لا يمكن قبوله من منظار ما هو متّفق عليه بين المسلمين، بخاصّة إذا علمنا أنّ في الصّحابة من كان ينوي نشر هذا الرأي ويعتقد أنّ حديث رسول الله ﷺ ليس حجّة! (انظر بهذا الشّأن: *تاريخ تحوّل دولت وخلافت*: ١٠٠ ـ ١٠٣) [تاريخ تطوّر الحكومة والخلافة] ولعلّنا نستطيع أن نبرّر مثل هذه المشاورات بالنّظر إلى اجتذاب قلوب الأنصار، والرّوح القبليّة السائدة فيهم، وكون الناس حديثي عهد بالإسلام، وأمور مماثلة كالّتي أشرنا إليها في المشورة حين الحرب.

(٤) *أنساب الأشراف* ١: ٣٤٥.

آنذاك ـ وهو القائل إنّ الله تعالىٰ قذف نور الإسلام في قلبه ـ قدم إلىٰ رسول الله ﷺ وأعلن إسلامه[١]. وسأل ماذا يمكنه أن يقوم به؟ وكان تفريق الأحزاب وتخذيلها أهمّ موضوعٍ يومئذ، فطلب منه النّبيّ ﷺ أن يبذل قصاراه في هذا المجال. وبدأ نعيم جهوده ببني قريظة الذين كانت تربطه بهم مودّة، فأكّد علاقته السّابقة بهم وأخبرهم أنّ شيئاً قد بدا له، وإذا لم يتّهموه ذكره لهم. فأيّدوا مودّته لهم. فقال مشيراً إلىٰ أنّ النّبيّ ﷺ أصبح بلاءً عليهم: رأيتم أنّه أجلىٰ بني القينقاع وبني النّضير. والآن جئنا لنصرتكم بتحريض كنانة بن أبي الحقيق إلّا أنّ أيّام البقاء طالت وعسرت. فإذا لم يتحقّق ما نريد، فإنّ وضع قريش وغطفان ليس كوضعكم، إنّهم يرجعون إلىٰ مكانهم ومسكنهم. وليس هنا إلّا أنتم مع ذراريكم في مقابل جند محمّد ﷺ. ورأيتم كيف لبثوا أمس من أوّل النهار حتّى الليل، وقتل عمرو بن عبد ودّ من صناديدهم. فطلبت منه قريظة رأياً تعمل به، فقال تأخذون من قريش وغطفان رهناً لكي يمكثوا حتّىٰ آخر الأمر. فقبلوا منه. ثمّ ذهب إلىٰ قريش وحدّثها عن ندم قريظة، وعزمها على ارتهان عدد من رجالها وتسليمهم محمّداً ﷺ.

وتركت كلماته تأثيرها في الجانبين وألقت التفرقة في صفوف العدوّ وعزم أبو سفيان على الرجوع وقال لقريش: إنّ الجناب قد أجدب، وهلك الكُراع والخفّ، وغدرت اليهود وكذبت، وليس هذا بحين مُقام ثمّ بعث عِكرمة إلىٰ بني قريظة ليلاً ليستيقن خبرهم. فقال لهم: إنّه قد طال المكث، ولابدّ من مناجزة عدوّكم. فقالوا: غداً السبت لا نقاتل. فإذا أرسلت قريش رهاناً من رجالها إليهم فالقتال الأحد[٢]. ورجع عكرمة وقال لأبي سفيان: إنّ الخبر الّذي جاء به نعيم حقّ. وحاول حيّي بن

(١) جاء في بعض الأخبار أنّه كان في صلحٍ مع رسول الله ﷺ، لا أنّه كان أسلم.

(٢) *دلائل النّبوّة*، البيهقيّ ٣: ٤٠٥؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٢٣٠، ٢٣١.

أخطب أن يجرّ بني قريظة للحرب فلم يفلح. وكان يقول لأبي سفيان إنّ بني قريظة ليسوا أهل غدرٍ، إنّهم أعدىٰ أعداء محمّد[ﷺ]. وتيقّن أبو سفيان غدر بني قريظة ونكثهم العهد، فغلظ علىٰ حييّ بن أخطب حتّىٰ خاف علىٰ نفسه. وفي تلك اللحظة بدأ جيش الشّرك تحرّكه وسار نحو مكّة. ونقل الواقديّ بعد هذه المطالب روايات تدلّ علىٰ أنّ حييّ بن أخطب كان قد وعد كعب بن أسد رئيس يهود بني قريظة بأخذ الرهن منذ البداية كي يقنعه بنكث العهد. وجاء في هذا الخبر أنّ حُييّاً لم يُطلع قريشاً على هذا الموضوع. وورد في خبر آخر أنّ البيهقيّ نقل عن موسى بن عقبة[١] ـ وذكره الواقديّ أيضاً ـ أنّه أطلع قريشاً وغطفان عليه، بل كتبوا له موعداً. وأُثر في خبرٍ أنّ نعيماً كان جالساً عند أبي سفيان إذ أتاه خبر بني قريظة. وكانوا قد كتبوا إليه أن ابدأ الحرب، ونحن نُغير على المدينة من الخلف. فجاء نعيم إلىٰ رسول الله ﷺ وأخبره، فقال ﷺ: «فلعلّنا أمرناهم بذلك!» وقيل إنّ نعيماً لا يكتم شيئاً. وإنّما قال ﷺ ذلك بمصداق «الحرب خدعة». وأخبر نعيم قريشاً بذلك ممّا أدّىٰ إلىٰ تدهور العلاقات بين قريش واليهود[٢].

وورد هذا الموضوع في خبر موسى بن عقبة لكن قيل إنّ رسول الله ﷺ لمّا أخذ من نعيم عهداً أن لا يُفشي شيئاً قال: كتب إلينا بنو قريظة أن يوادعونا بشرط إرجاع بني النّضير[٣]. وحين بلغ المشركين ذلك شعروا بأنّ اليهود خانوهم. وجاء في خبر ابن عقبة أنّ قريشاً امتنعت من إرسال رهائنها حين سمعت الخبر. والأشخاص الّذين كان من المقرّر ذهابهم إلىٰ بني قريظة أعلنوا عن عدم استعدادهم للذهاب إلىٰ حصونهم.

---

(١) *دلائل النّبوّة*، البيهقيّ ٣: ٤٠١.

(٢) انظر: *المغازي* ٢: ٤٨٥، ٤٨٦. وذهب الواقديّ إلىٰ أنّ الخبر الأوّل أصحّ.

(٣) *دلائل النّبوّة*، البيهقيّ ٣: ٤٠٥ ـ ٤٤٧؛ *صحيح البخاري*، كتاب الجهاد، رقم ١٥٧ [باب الحرب خدعة] وانظر: *صحيح مسلم*، كتاب الجهاد، رقم ١٨.

علىٰ أيّ حال لا بدّ من الالتفات إلىٰ أنّ قبول الحكاية الجميلة المتعلّقة بنعيم الواردة في أوّل الموضوع يبدو عسيراً نوعاً ما، مع أنّ الواقديّ ذهب إلىٰ صوابها، وابن إسحاق أوردها وحدها دون غيرها نقلاً عن نعيم[١]. وما يستشفّ من جملة المرويّات أنّ خلافاً ظهر بين اليهود والمشركين، وكلاماً طُرح حول الرّهن، والنتيجة هي أنّ بعضهم اتّهم البعض الآخر بالغدر، وأفضى اتّحاد الأحزاب إلى الخلاف.

أمّا المسلمون فقد عراهم الخوف، والجوع، والبرد في بعض الليالي خلال تلك المدّة. وفي الليلة الّتي همّ العدوّ فيها بترك المدينة طلب النّبيّ ﷺ من أصحابه أن يقوم أحدهم وينظر ماذا يفعل العدوّ. يقول حذيفة:... وما قام رجل واحد من شدّة الجوع والقرّ والخوف... [إلى أن] دعاني، وأمرني أن آتي العدوّ وأرجع إليه بخبرهم. يقول: رأيتهم يصطلون علىٰ نيرانهم، وإنّ الريح تفعل بهم ما تفعل، لا تقرّ لهم قراراً ولا بناءً؛ وقال أبو سفيان لعسكره في تلك اللحظة: إنّكم والله لستم بدار مقام؛ لقد هلك الخُفُّ والكُراع، وأجدب الجناب، وأخلفتنا بنو قريظة، وقد لقينا من الرّيح ما ترون، ما يثبت لنا بناء ولا تطمئنّ لنا قِدر. فارتحلوا فإنّي مُرتحل. فجعل الناس يرتحلون. وأقامت قريش عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد في مائتي فارس ليأمنوا من طلب المسلمين[٢]. وذهب سائر الأحزاب مترافقين ليطمئنّوا من ورائهم، ثمّ تفرّقوا ويمّموا منازلهم.

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٢٢٩، ٢٣٠.

(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٢٣٢؛ *المغازي* ٢: ٤٨٩، ٤٩٠؛ *دلائل النّبوّة*، البيهقيّ ٣: ٤٤٩، ٤٥٤؛ *صحيح مسلم*، كتاب الجهاد، باب غزوة الأحزاب، رقم ٩٩. ونعرف في مواضع من السّيرة طاعة الصحابة التّامة المطلقة لنبيّهم ﷺ، في حين نلحظ في مواضع أُخرىٰ أنّهم يعارضون بأسرهم أو يعصون أمراً من أوامره ﷺ، ومنها ما نقله حذيفة في هذا المجال، وهو ما وضع البيهقيّ إصبعه عليه في الجزء الثالث من دلائله، ص ٤٥٤ نقلاً عن حذيفة. فأحجم الصحابة في موضع شرط فيه رسول الله ﷺ لمن يذهب مرافقته في الجنّة، ولم يبرح أحد منهم مكانه. وسنرىٰ موضعاً مهمّاً آخر مثله في الحديبيّة أيضاً.

وخلت المنطقة من العدوّ صباح ذلك اليوم، فقد رحلوا برمّتهم. وأذن رسول الله ﷺ للمسلمين بالرجوع أيضاً. ودام حصار المدينة خمسة عشر يوماً أو أكثر حتّىٰ عشرين يوماً علىٰ قولٍ، وذهب الواقديّ إلىٰ أنّ الصحيح هو خمسة عشر يوماً[1]. بيد أنّ ابن الزّبعرىٰ ذهب في شعر له إلىٰ أنّه دام أربعين يوماً. فقد قال:

حتّىٰ إذا وردوا المدينة وارتدوا ... للموتِ كلّ مجرّب قضابِ
شهراً وعشراً قاهرين محمّداً ... وصحابه في الحرب خير صحابِ
لولا الخنادق غادروا من جمعهم ... قتلىٰ لطيرٍ سغّب وذئابِ[2]

وقيل إنّ رسول الله ﷺ فكّر بعد رجوع المسلمين أن يتأمّلوا قليلاً لئلّا يطّلع بنو قريظة علىٰ رجوعهم جميعاً. ويقول عبد الله بن عمر: أنا أخبرت المسلمين بما أراده رسول الله ﷺ، فلم يرجع منهم أحد[3].

وقيل إنّ أبا سفيان حين شارف الرحيل كتب إلىٰ رسول الله ﷺ كتاباً يحمل التّهديد والوعيد. وقال فيه: «... فإنّي أحلف باللات والعزّىٰ، لقد سرتُ إليك في جمعنا، وإنّا نريد ألّا نعود إليك أبداً حتّىٰ نستأصلك، فرأيتك قد كرهتَ لقاءنا، وجعلتَ مضائق وخنادق، فليت شعري من علّمك هذا؟ فإن نرجع عنكم فلكم منّا يوم كيوم أُحُد». فردّ عليه رسول الله ﷺ قائلاً: «... أمّا بعد، فقديماً غرّك بالله الغرور، أما ما ذكرت أنّك سرتَ إلينا في جمعكم، وأنّك لا تريد أن تعود حتّىٰ تستأصلنا، فذلك أمر الله يحول بينك وبينه، ويجعل لنا العاقبة حتّىٰ لا تذكر اللات

---

(١) في بعض الأقوال، ومنها قول ابن القيّم في *زاد المعاد*، دام الحصار شهراً. انظر *سبل الهدىٰ والرشاد* ٤: ٥٦٢.

(٢) *عيون الأثر* ٢: ١٠٠؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٢٥٨. وأجابه حسّان بن ثابت بشعر جميل رائع.

(٣) *المغازي* ٢: ٤٩٠ ـ ٤٩٢؛ وقام جابر بالمهمّة نفسها لكنّه لم يستطع أن يُرجع أحداً. يقول جابر: أخبرتُ رسول الله ﷺ في بني حرام، فضحك.

والعزّىٰ. وأمّا قولك: «مَنْ عَلَّمك الّذي صنعنا من الخندق؟» فإنّ الله تعالىٰ ألهمني ذلك لِما أراد من غيظك به وغيظ أصحابك. وليأتينّ عليك يوم تدافعني بالراح، وليأتينّ عليك يوم أكسر فيه اللات، والعزّىٰ، وإساف، ونائلة، وهُبل، حتّىٰ أذكّرك ذلك». وقيل إنّ أبا سفيان كان ذكر في كتابه أنّ قريشاً هُزمت في بدر لأنّه لم يشهدها، ولكنّه حين شهد وقعة أُحُد غزا المسلمين في عقر دارهم، وقتل، وحرق، أمّا في الخندق فإنّه أتاها والمسلمون خلف الخنادق والصياصي[1].

ومهما كان فإنّ الأحزاب لم تستطع أن تواجه تلك الخطّة العسكريّة بخطّة أُخرىٰ. وحاول أبو سفيان أن يبرّر هزيمته باتّهام المسلمين بالخوف. وقال شاعر من ملأه:

فلولا خندق كانوا لديه ـــ لدمّرنا عليهم أجمعينا[2]

واستشهد من المسلمين ستّة بسهام أعدائهم، وأبرزهم سعد بن معاذ. وقُتل من المشركين ثلاثة أحدهم عمرو بن عبد بن أبي قيس بن عبد ودّ، والآخر نوفل بن عبد الله بن نوفل، قتلهما عليّ بن أبي طالب عليه السلام[3].

وكانت وقعة الأحزاب آخر محاولة للمشركين في إيجاد جبهة قويّة عامّة ضدّ الإسلام. وأخذت قوّة قريش تتبدّد بعدها. وأدّت الهجمات المتكرّرة الّتي قام بها رسول الله ﷺ على القبائل المجاورة، بخاصّة الّتي كان يراودها هوى المناوءة والعزم علىٰ مهاجمة المدينة، دورها في ردع الجميع وإيقافهم عند حدّهم. وقال رسول

---

(١) ***المغازي*** ٢: ٤٩٢، ٤٩٣؛ وانظر أيضاً: ***أنساب الأشراف*** ١: ٣٤٤.

(٢) ***السّيرة النّبويّة***، ابن هشام ٣: ٢٥٥.

(٣) ***المغازي*** ٢: ٤٩٦. ثمّة خلاف حول قاتل نوفل أعليّ عليه السلام قتله أم الزبير. وكانت نسبة فضائل الإمام عليه السلام إلىٰ غيره أمراً شائعاً عند أرباب السير ذوي الميول العثمانيّة. وحدّها الأدنىٰ إثارة التشكيك في النّقل الصحيح بذكر كلمة «قيل»!

الله ﷺ بعد رحيل المشركين: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا»[١].

معركة الأحزاب في القرآن الكريم

تحدّث الله تعالىٰ في سورة الأحزاب عن بعض الحوادث الواقعة في الحرب، ومعنويّات المسلمين والمشركين. وجاء في الآية التّاسعة بشأن الإمدادات الغيبيّة في الحرب قوله سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً**﴾. وتحدّثت الآية الّتي تلتها عن الهجوم الشّامل الّذي شنّه العدوّ اليهود والمشركون. قال تعالىٰ: ﴿**إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ ٱلظُّنُونَا**﴾. وذكرت هذه الآية الخوف العجيب الّذي مُني به عدد كبير من النّاس. وأشارت الآيات التالية إلى الاختبار الإلٰهيّ ومعرفة المنافقين. قال سبحانه: ﴿**هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً**﴾.

وأمام هذا التهديد انقسم الناس فريقين: منافقين، ومؤمنين. وينقل لنا تعالىٰ رؤيتهما حول تلك الظّروف المستقلّة. فالمنافقون أوّلاً ومنطقهم: ﴿**وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً * وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً * وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا ٱلْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً * وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْؤُولاً * قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذاً لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً**﴾.

---

(١) *المعرفة والتاريخ* ٢: ٦٢٢؛ *حلية الأولياء* ٤: ٣٤٥؛ *عيون الأثر* ٢: ٩٩؛ *دلائل النّبوة*، البيهقيّ ٣: ٤٥٧، ٤٥٨؛ وفي هامشه عن كتاب البخاريّ ٥: ٤٨.

ويستشفّ من الآية الثامنة عشرة أنّ أشخاصاً لم يشهدوا الحرب، وأنّهم كانوا يحرّضون الآخرين ألّا يشهدوها. قال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً﴾.

ويصف سبحانه في الآية التاسعة عشرة ذعرهم في الحرب، إلى جانب روح مطالبتهم حين تنتهي الحرب ويكون الانتصار ويحين تقسيم الغنائم. قال سبحانه: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُولٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيراً﴾. وقال في المنافقين: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً﴾.

والفريق الآخر هم المؤمنون الّذين كانوا يفكّرون بنمط آخر: ﴿وَلَمَّا رَأَى ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا هٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً * مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً * لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّه كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾. بيد أنّ نتيجة الحرب هي هزيمة الأحزاب: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً﴾.

وأشرنا في موضع آخر إلىٰ أنّ مثل هذه الحوادث يمكن أن يساعدنا في التّعرّف علىٰ وجوه وجدت لها مكاناً بين المسلمين متظاهرةً بأنّها منهم. وهؤلاء ليسوا قليلين بل كانوا كُثراً منبثّين علىٰ نطاق واسع بين من نعرفهم بالصّحابة.

غزوة بني قريظة

إنّ خبث اليهود من بني قريظة في قضيّة حصار جيش المشركين المؤلّف من عشرة آلاف عمل لا يُغتفَر. وفي غد رحيل المشركين طلب رسول الله ﷺ بأمر الله تعالىٰ من المسلمين أن يصلّوا العصر حوالي حصن بني قريظة. فاقتربوا منه، كما رَوىٰ ابن إسحاق، والراية بيد عليّ بن أبي طالب عليه‌السلام، وحين رآهم اليهود بدأوا يشتمون رسول الله ﷺ[١].

واستقرّ ﷺ قرب بئر أُبيّ وهي من آبار بني‌قريظة دون حرّتهم. وكان بنو قريظة يسكنون في القسم الأعلىٰ من المدينة، في حين أنّ مركزها ومسجد النّبيّ ﷺ في القسم الأسفل منها. ودعاهم النّبيّ ﷺ إلى الإسلام في البداية فلم يقبلوا[٢]، فدام الحصار. ونقل ابن إسحاق أنّه استغرق خمسةً وعشرين يوماً، في حين نقل الواقديّ أنّه طال خمسة عشر يوماً (من الأربعاء (٢٣) ذي القعدة إلى الخميس (٧) ذي الحجّة سنة خمس)[٣].

وترامى الجانبان خلال تلك الفترة، ورجا اليهود أن يكفّ المسلمون عن حصارهم بمقاومتهم. واشتدّ الرمي من جانب المسلمين حتّىٰ ظنّ اليهود أنّ المسلمين مخلّدون. من هنا بعثوا من يعلن عن استعدادهم للخروج من المدينة بنفس الشّروط الّتي خرج بها بنو النّضير منها، فلم يرض رسول الله ﷺ بذلك. ثمّ عاودوا الكرّة معلنين أنّهم لا يأخذون من أموالهم حتّىٰ جملاً واحداً، فلم يرض أيضاً وأمر أن

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٢٣٤؛ *المغازي* ٢: ٤٩٩.

(٢) *المصنّف*، عبد الرزّاق ٥: ٣٧٠.

(٣) *المغازي* ٢: ٤٩٦.

يستسلموا وينزلوا علىٰ حكمه من غير شرط[١]. وكان على اليهود أن ينهجوا عدداً من الطرق، وذكر أرباب السّير أنّهم كانوا يتشاورون لاختيار إحداها، منها أن يسلموا، ولم يقع هذا موقع القبول. ومنها أن يقتلوا نساءَهم وذراريهم ثمّ يهاجموا المسلمين. فإذا انتصروا استأنفوا حياتهم ثانيةً، وإذا قتلوا فليس لهم أُسَرٌ يسبيها المسلمون. ورُفِض هذا أيضاً. ومنها أن يُغيروا على المسلمين ليلاً وليلة الغارة هي ليلة السّبت أيضاً، وتشاوروا علىٰ ذلك، ولم يلق قبولاً من أحدهم. فاحتدم الخلاف بينهم، وعاشوا هم و نساؤهم في وضع نفسيّ عصيب. ونزل عدد منهم ـ وهم ليسوا من قريظة ولا من النّضير ـ من الحصن، وأسلموا، وأنقذوا أنفسهم[٢].

وطلب اليهود من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يأذن لهم بمشاورة أبي لبابة الّذي كان من الأوس، حلفاء بني قريظة في الجاهليّة. وذهب أبو لبابة إلىٰ بني قريظة بإذن النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. وذكّره اليهود برفقتهم القديمة ومساعدتهم للأوس ضدّ الخزرج في الجاهليّة، وسألوه ماذا يصنعون؟ وما هو المصير الّذي ينتظرهم؟ وقالوا: إنّ محمّداً قد أبىٰ إلّا أن ننزل علىٰ حكمه، أفننزل؟ قال: نعم، فانزلوا ـ وأومأ إلىٰ حلقه، هو الذبح. وبهذا أعلمهم بالمصير الّذي ينتظرهم[٣].

وجواب أبي لبابة هذا ـ وقد التفت إليه عاجلاً ـ دفع بني قريظة إلىٰ عدم التّسليم. وخرج أبو لبابة من حصن بني قريظة، وتوجّه نحو مسجد النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مكان أن يأتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نفسه، وربط نفسه بإحدى اسطوانات المسجد، وطفق يستغفر لخيانته رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ولازم الاسطوانة الّتي عرفت فيما بعد بأُسطوانة التّوبة أيّاماً ـ وقيل ستّة أيّام ـ ولم يفارقها حتّىٰ نزلت آيات قبل الله تعالىٰ فيها توبته. وذكر ابن إسحاق

---

(١) *المغازي* ٢: ٥٠١.

(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٢٣٨؛ *المغازي* ٢: ٥٠٤.

(٣) *المغازي* ٢: ٥٠٦.

أنّ الآية السّابعة والعشرين من سورة الأنفال نزلت فيه[١]. لكنّ الواقديّ وابن هشام ذهبا إلىٰ أنّ الآية الثانية والمئة من سورة التّوبة نزلت فيه[٢]: قال تعالىٰ: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ولم يجد بنو قريظة بداً إلّا التّسليم لحكم النّبيّ ﷺ راجين أن يتوسّط الأوس لهم. وأمر رسول الله ﷺ بجمع أثاثهم وأسلحتهم. وقال ابن هشام: «حدّثني بعض من أثق به من أهل العلم أنّ عليّ بن أبي طالب صاح وهم محاصرو بني قريظة: يا كتيبة الإيمان... وقال: والله لأذوقنّ ما ذاق حمزة أو لأفتحنّ حصنهم؛ فقالوا: يا محمّد، ننزل على حكم سعد بن معاذ»[٣].

وكان الأوس قد لمسوا صفح النّبيّ ﷺ عن بني القينقاع فيما مضىٰ ظنّاً منهم أنّ ذلك كان لأجل الخزرج، فطلبوا منه ﷺ أن يصفح هذه المرّة عن بني قريظة لأجلهم. وبعد إصرارهم وافق ﷺ علىٰ ما يحكم به سعد بن معاذ أحد وجهاء الأوس. فرضي الأوس بذلك. وكان سعد بن معاذ قد أُصيب في حصار الأحزاب، وأُرقد في خيمة بالمسجد حيث كانت امرأة من أسلم تداوي الجرحىٰ[٤]. وحين حان التّحكيم طلب منه الأوس أن يُحسن إلىٰ بني قريظة كما فعل عبد الله بن أُبيّ في بني القينقاع. فقال سعد: «قد آن لسعد ألّا تأخذه في الله لومة لائم». وأخذ من اليهود

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٢٣٧.

(٢) *المغازي* ٢: ٥٠٩؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٢٣٨. وقال البعض أيضاً أنّ الآية الحادية والأربعين من سورة المائدة نزلت في أبي لبابة. والمستبان هو أنّها كلّها خالية من التّصريح، وأنّها تخمينات يتوكّأ أكثرها على ظاهر الآية. ونحن نعلم أنّ الله تعالىٰ قلّما يشير إلىٰ المصداق في مثل هذه المواطن، ويتحدّث بصورة عامّة.

(٣) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٢٤٠.

(٤) نفسه ٣: ٢٣٩.

عهداً أن يرضوا بما يحكم به مهما كان، فرضوا. فقال: «فإنّي أحكم فيهم أن يُقتل من جرت عليه الموسَى، وتُسبى النّساء والذّرّيّة، وتقسم الأموال. فقال رسول الله ﷺ: لقد حكمتَ بحكم الله عزّ وجلّ»[١].

وحدث ذلك فقُتل الرجال من بني قُريظة في غد ذلك اليوم، كما قُتلت امرأة كانت السّبب في قتل أحد المسلمين[٢]. وكان في القتلىٰ حُييّ بن أخطب المحرّض الأصلي علىٰ حرب الأحزاب، والمتعهّد لكعب بن أسد في البقاء معهم إذا ذهب الأحزاب. وكان عليه حُلّة تضرب إلى الحمرة قد شقّها عليه من كلّ ناحية قدر أنملة لئلّا يُسْلبها. فلمّا نظر إلىٰ رسول الله ﷺ قال: أما والله ما لمتُ نفسي في عداوتك، ولكنّه من يخذل الله يُخذَل. ثمّ أقبل على الناس، فقال: أيّها الناس، إنّه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله علىٰ بني إسرائيل، ثمّ جلس فضُربت عنقه[٣]. وهكذا طَهُرت المدينة من دَنَس اليهود.

وكان رسول الله ﷺ عفا عنهم مرّتين حتّىٰ ذلك الحين لنكثهم العهد. ثمّ إنّ خطأ بني القينقاع وبني النّضير لم يبلغ جرم بني قريظة. فقد نكثوا عهدهم في أسوأ الظّروف، وأهانوا المسلمين واستخفّوا برسول الله ﷺ. ولو قُدِّر لهم النّصر لما تركوا، ومعهم المشركون، مسلماً واحداً حيّاً بالمدينة، فآن لهم أن يذلّوا ويُخذَلوا. وكانت الحياة السياسيّة للإسلام مبدئيّاً رهينة بحفظ المعاهدات الّتي تربطه بالقبائل. فالنكث المتواصل، وعفو النّبيّ ﷺ عن النّاكثين يهيّئان الأرضيّة لنكث متكرّر. وفي مثل هذه الظروف يتعذّر على المسلمين الحياة في المدينة الّتي تمثّل قاعدتهم الوحيدة.

وفقدت قريش بعملها هذا ناصراً مهمّاً لها في المدينة، ونصر المسلمين ليس على

---

(١) *المغازي* ٢: ٥١٢؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٢٤٠.

(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٢٤٢. (٣) نفسه ٣: ٢٤٠.

اليهود فحسب، بل على المشركين أيضاً. وذكر حسّان بن ثابت واقعة بني النّضير بوصفها إنذاراً لقريش[١]. وقال الله تعالىٰ في الآية السّادسة والعشرين والسّابعة والعشرين من سورة الأحزاب في سياق الآيات النازلة في معركة الأحزاب: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَؤُوها وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيراً﴾[٢].

وصارت المدينة برمّتها في تصرّف المسلمين، واليهود قاطبة نكثوا عهدهم فكان مصيرهم القتل أو مغادرة المدينة. وقسمت الغنائم الباقية بين المسلمين بعد أخذ خمسها. وبلغ النساء اللاتي كنّ يساعدن المسلمين أيّام الحرب سهمٌ منها. واستُشهد سعد بن معاذ بعد أيّام من قطع عصب في يده لسهم أصابه في حصار الأحزاب. وكان رسول الله ﷺ يحبّه حبّاً جمّاً، وحضر تجهيزه وتشييعه ودفنه، ودعا له علىٰ قبره.

ولمّا بلغ يهودَ خيبر خبر بني قريظة علموا أنّ لحظة من التأمّل تعني أنّ أمر اليهود قد انتهىٰ في الحجاز. فعزموا على استجلاب يهود تيماء، ووادي القرىٰ، وفدك لحرب المسلمين[٣].

مقاتلة القبائل وثبات المدينة

كان يهمّ رسول الله ﷺ أمران خطيران، أحدهما الحؤول دون اعتداءات القبائل الصّغيرة والكبيرة القاطنة في ضواحي الحجاز. والآخر تمهيد الأرضية لقبول الإسلام.

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٢٧٣.

(٢) بالنظر إلىٰ هذه الآية وما ذكره عامّة أرباب السِّيَر في مصير بني قريظة، لا يبقىٰ مجال للشّك في إبادة رجالهم. ويبدو أنّ بعض المتأخّرين شكّ في ذلك وأجاب الباحثين عن هذا التشكيك بأدلّة تاريخيّة. انظر: **مجلّة نور علم**، العدد ١٢، ١٣.

(٣) **المغازي** ٢: ٥٣٠.

ومن الحريّ بالذكر فيما يخصّ الثاني هو أنّ بدو الحجاز لم يتطيّبوا برائحة الثّقافة الرّبانيّة والإنسانيّة، إذ ألفوا حياة البداوة ومردوا علىٰ حفنة من الآداب والتقاليد الجاهليّة. وكان عملهم الأصليّ هو البحث عن لقمة الخبز والتّمر، ولم يتأبّوا عن القتل ونهب القبائل الأُخرىٰ. فبأيّ منطق يتيسّر إقناعهم ليكفّوا عن الاعتداء والنّهب، ويأتوا المدينة ويُسلموا؟ لا جرم أنّ أكثرهم لا يفهم منطق الدّعوة، ولا يُرضخه إلّا منطق القوّة. وعليهم أن يدركوا أهمّيّة المدينة وحكومتها الحديثة العهد، فلا يجرأوا على انتهاكها خوفاً. بل يحافظوا علىٰ أنفسهم من اعتداءات الآخرين من وحي رجائهم الاستظلال بحمايتها. ولهم أن يتمتّعوا بحقوق أيّ مسلم آخر بعد النطق بالشّهادتين فحسب، ومن ثمّ يدافع سائر المسلمين عنهم وعن حقوقهم كإخوةٍ لهم. وتركيبة الحياة في النظام الجديد ليست تركيبة قبليّة وعنصريّة فلا يستطيع أحد أن يلتحق بقبيلة أخرىٰ، بل نطق الشّهادتين وحدهما يكفي لتمتّع الأعرابيّ مهما كانت قبيلته وطائفته بحقوق أيّ مسلم آخر.

وفي ضوء هذه السّياسة المتمثّلة بالحؤول دون الاعتداءات، وكذلك توسيع نطاق الإسلام، كان المسلمون يتوجّهون كلّ حين إلى المنطقة الّتي يأمرهم النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم بالذّهاب إليها. وكانوا يستهدفون القبائل الّتي كانت تنوي محاربة المسلمين بنحو من الأنحاء، أو ترافق أعداء الإسلام في اعتداء مخطّط له من قبل. وسنجمل الحديث فيما يأتي عن عدد من هذه الغزوات والسّرايا الّتي وقعت في الفترة الواقعة بين حرب الأحزاب وصلح الحديبيّة.

غزوة القُرطاء

توجّه محمّد بن مسلمة في ثلّة من الصّحابة إلى موضع من نجد كانت تسكنه

القُرطاء، وهي بطن من هوازن[١]. وأفلح في قتل نفر من المشركين وأصاب غنائم منهم[٢]. وقيل إنّ ثُمامة بن أُثال الّذي كانوا يدعونه سيّد أهل اليمامة أُسر في هذه الحرب. وكلّمه النّبيّ ﷺ بالإسلام ثلاثةً فأسلم في اليوم الثالث. ولمّا قصد مكّة للعمرة ولبّىٰ جهرةً، أراد المشركون قتله، لكنّهم أحجموا عن ذلك وأطلقوه لنفوذه في اليمامة، وخوفهم من قطع قمحها عنهم. وسألوه: أَصَبَأْتَ؟ قال: لا، بل أسلمت واخترت أحسن الأديان. وحين رجع إلى اليمامة حال دون إرسال القمح إلىٰ مكّة، حتّىٰ كتب أبو سفيان إلىٰ رسول الله ﷺ: قتلتَ الآباء بالسّيف والأبناء بالجوع. فأمر ﷺ ثمامة أن يترك الطريق مفتوحاً أمام القافلة إلىٰ مكّة[٣].

غزوة بني لحيان[٤]

كانت طائفة بني لحيان من مساعير حادثة الرّجيع[٥]. وتحرّك رسول الله ﷺ في البداية من شمال المدينة باتّجاه الشّام لئلّا يبلغ بني لحيان خبرُه. ثمّ غيّر مسيره في البادية بسرعة وقصدهم. وحين سمعوا به هربوا في رؤوس الجبال، فلم يظفر بأحد منهم. وكان هذا في ربيع الأوّل سنة ستّ[٦]. وأشار كعب بن مالك في شعر أنشده إلىٰ هروبهم المذكور[٧].

---

(١) ذكرت هذه الطائفة في الشعر المنشَد في واقعة بئر معونة. انظر: *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ١٨٩.

(٢) ***المغازي*** ٢: ٥٣٤.

(٣) ***سبل الهدىٰ والرشاد*** ٦: ١١٢ ـ ١١٥.

(٤) لحيان بن هذيل بن مدركة.

(٥) ***السّيرة النّبويّة***، ابن هشام ٣: ٢٧٩؛ وانظر: ص ١٧٩ ـ ١٨٣. وفي هامش ***المغازي*** ٢: ٥٣٥ كلام حول بئر معونة، وهو وهمٌ.

(٦) ذهب الواقديّ إلىٰ أنّها في ربيع الأوّل، بيد أنّه أشار في سياقها إلىٰ حوادث يبدو أنّ أيّامها كانت في الأشهر الحُرُم. انظر: ***المغازي*** ٢: ٥٣٦، ٥٣٧.

(٧) ***السّيرة النّبويّة***، ابن هشام ٣: ٢٨١؛ ***سبل الهدىٰ والرّشاد*** ٥: ٥٠.

غزوة ذي قرد أو الغابة[١]

تقع منطقة الغابة شمال غرب المدينة علىٰ ستّة كيلومترات عنها. وكانت نياق رسول الله ﷺ تؤخذ للرعي فيها. وكان أشخاص يقومون بحراستها. وفي الثالث من ربيع الآخر سنة ستّ زحف عُيينة بن حصن عليها في أربعين فارساً واستاقها[٢]. فتبعهم النّبيّ ﷺ في ثمانية فرسان كما جاء في شعر حسّان[٣]. واستُشهد أحد الصّحابة في هذه الواقعة، وهلك أربعة من العدوّ أحدهم حبيب بن عُيينة، وأُرجع عدد من النياق أيضاً. ونحن نعرف أنّ عيينة كان من غطفان جياع الجزيرة، وكانت تأتي إلىٰ يثرب في الجاهليّة لإشباع بطنها. ويقول ابن الأكوع: لحقتُ القوم فجعلت أرميهم بالنبل وأقول: قفوا قليلاً! يلحقكم المهاجرون والأنصار من أدباركم، فيزدادون عليّ حنقاً[٤].

وبعد ذهاب الفرسان الأوائل تحرّك أهل المدينة إلى المنطقة تدريجاً إلىٰ أن تهيّأ جيش قوامه بين خمسمائة وسبعمائة في منطقة ذي قرد علىٰ بعد (٣٥) كيلومتراً عن المدينة. وقيل إنّ رسول الله ﷺ صلّىٰ هناك صلاة الخوف. من جهة أُخرىٰ كان سعد ابن عبادة يحرس المدينة في ثلاثمائة. وقيل إنّ سعد بن زيد الأشهليّ كان أمير الفرسان لكنّ حسّان بن ثابت ذكر المقداد بن عمرو مكانه، واعترض عليه سعد

---

(١) وقيل لليوم الّذي وقعت فيه الغزوة: «يوم السّرح» أيضاً. *المغازي* ٢: ٥٤٥.

(٢) يحوم خلاف حول زمان الغزوة هل كانت قبل الحديبيّة أو بعدها. انظر: *سبل الهدىٰ والرشاد* ٥: ١٦٦، ١٦٧.

(٣) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٢٨٦؛ *سبل الهدىٰ والرشاد* ٥: ١٦٣؛ كنّا ثمانية وكانوا جحفلاً. الجحفل: الجيش الكبير. إشارة إلى العدوّ الّذي كان عدد أفراده أربعين.

(٤) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٢٨٣؛ جاء في نصّ ابن إسحاق: «من أدباركم». وفي *المغازي* ٢: ٥٤١: «من أربابكم المهاجرين والأنصار».

لذكره المقداد مكانه، فقال له حسّان: «والله ما أردتُ إلّا القافية»[١]! وكانت قصيدته داليّة وورد اسم المقداد في نهاية أحد أبياتها. ثمّ أنشد شعراً في وصف سعد لإرضائه[٢]. علماً أنّ ابن سعد، والواقديّ ذكرا أنّ اللواء كان معقوداً في رمح المقداد[٣].

وتدلّ غزوة ذي قَرَد علىٰ أنّ الأعراب كانوا يطمعون في المدينة، ولم يرعووا عن شنّ الغارات الليليّة لضرب الإسلام. من هنا كان رسول الله ﷺ محقّاً إذ يتوجّه نحو المشركين كلّ حين بمجرّد سماعه أدنىٰ خبر عن تحرّكهم.

غزوة بني المصطلق أو المريسع

بنو المصطلق طائفة من خزاعة، والمُرَيْسُع منطقة اصطدم فيها المسلمون بهم. وهي في وسط الطّريق بين مكّة والمدينة، وتبعد عن ساحل البحر ثمانين كيلومتراً. وذهب الواقديّ إلىٰ أنّ تاريخ هذه الغزوة شعبان سنة خمس، لذا ذكرها قبل حرب الأحزاب. في حين ذهب ابن إسحاق، وخليفة بن الخيّاط، والطبرسيّ إلىٰ أنّها كانت في شعبان سنة ستّ[٤]. وفيها أنّ الحارث بن أبي ضرار رئيس بني المصطلق عبّأ قومه وآخرين من العرب لحرب الإسلام. ولمّا بلغ رسول الله ﷺ الخبر بعث بُريدة بن الحُصَيب يعلم علم ذلك. فذهب عند الحارث وقال له: قدمتُ لمّا بلغني عن جمعكم لهذا الرجل، فأسير في قومي ومن أطاعني فتكون يدنا واحدة. فقال الحارث: فعجّل

---

(١) *المغازي* ٢: ٥٤٧، ٥٤٨.
(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٢٨٦، ٢٨٧.
(٣) انظر: *سبل الهدىٰ والرشاد* ٥: ١٥٣.
(٤) انظر: *سبل الهدىٰ والرشاد* ٤: ٥٠٢؛ وذهب قتادة، وعروة بن الزّبير إلىٰ أنّها كانت في سنة خمس. وجاء في كتاب البخاريّ ٥: ٥٤ أنّها كانت في سنة أربع، ولم يقل بهذا أحد، انظر: *سبل الهدىٰ والرشاد*: ٥٠٢؛ وممّا ينبغي ذكره أنّ معلومات البخاريّ التّاريخيّة قليلة، وهذا ما يُستشفّ من مغازي كتابه.

علينا. فرجع بُريدة إلىٰ رسول الله ﷺ وأخبره. وبعد ذلك انطلق رسول الله ﷺ في جيشه نحو بني المصطلق. ويضيف الواقديّ أنّ عدداً كبيراً من المنافقين صحبوه في هذه الحرب طمعاً في الغنائم ولقرب الطريق[١].

والتقوا في الطريق بأحد جواسيس العدوّ، فأخبرهم بجمع الحارث جيشاً كثيراً وتأهّبه لحربهم. فأراد منه رسول الله ﷺ أن يسلم، فأجاب أنّه تابع قومٍ. فأمر ﷺ أن تضرب عنقه. وهزّ خبر مقتله العدوّ وأفزعه فزعاً شديداً، وفرّق جماعة من الأعراب عن الحارث[٢].

ونزل المسلمون في المريسيع، وكان لواء المهاجرين بيد عمّار، ولواء الأنصار بيد سعد بن عبادة[٣]. واستعدّ العدوّ للقتال أيضاً، وكان الرمي بالنّبال ساعةً، ثمّ بدأت الحرب منازلةً. فانهار العدوّ سريعاً، وقُتل عشرة منه وأُسر الباقون. وكان شعار المسلمين في هذه الحرب كشعارهم في حرب بدر، وهو «يا منصور، أمِت، أمِت»[٤]. وبعد انتهاء الحرب صارت أموال بني المصطلق جميعها غنائم، وقسّمت أغنام وجمال كثيرة بين المحاربين. وكانت جويريّة بنت الحارث في الأسرىٰ، ثمّ تزوّجها رسول الله ﷺ بعد انتهاء الحرب، ولهذا السّبب أطلق المسلمون أسرىٰ بني المصطلق بلا فدية أو بفدية يسيرة[٥]. وما لبث أن التحق النساء والأطفال كلّهم بآبائهم. وهكذا سرعان ما انتهىٰ تمرّد آخر للعرب، وتحسّن الوضع الاقتصاديّ للمسلمين بفضل الغنائم الحربيّة.

وقالوا: تنازع سنان بن وَبَر وجهجاه بن مسعود بعد الحرب علىٰ الاستقاء من عينٍ. فنادىٰ سنان الأنصار، ونادىٰ جهجاه المهاجرين (لعلّ النداء كان يا قريش!).

---

(١) *المغازي* ١: ٤٠٥. (٢) *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٤: ٤٨٧.

(٣) *المغازي* ١: ٤٠٧؛ وقيل هنا أيضاً: كان لواء المهاجرين بيد أبي بكر!

(٤) نفسه؛ وقيل: منصور اسم مَلَك. (٥) انظر: *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٤: ٤٩٠.

وجمع سلاح من الفريقين. فقال رسول الله ﷺ: هذه استغاثة جاهليّة! فالمسلم هو من يغيث أخاه المظلوم[١]. وبعد أن هدأ الوضع قال عبد الله بن أُبيّ لمن حوله من المنافقين: هذا ما فعلتم بأنفسكم! أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، فقللتم وكثروا. لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوّلوا إلىٰ غير داركم. ﴿لَئِن رَجَعْنَا إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾. فسمع ذلك زيد بن أرقم، وكان غلاماً، فمشىٰ به إلىٰ رسول الله ﷺ. فشاع بين الجيش، وحلف بن أبيّ بالله أنّه لم يقل ما قاله زيد. وكان حديث الناس طول الطريق. ورحل رسول الله ﷺ عن المريسيع معجّلاً كي يمنع الناس من الخوض فيه. ومشىٰ بالنّاس يومهم ذلك حتّىٰ أمسىٰ، وليلتهم حتّىٰ أصبح، وصَدْر يومهم ذلك حتّىٰ آذتهم الشّمس، ثمّ نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مسّ الأرض فوقعوا نياماً[٢]. وفي طريق الرجوع إلى المدينة نزلت سورة (المنافقون) علىٰ رسول الله ﷺ[٣].

وقبل ذلك طلب بعض الأشخاص من رسول الله ﷺ أن يأذن بضرب عنق بن أبيّ، فقال ﷺ: «لا يتحدّث الناس أنّ محمّداً قتل أصحابه»[٤]. علماً أنّ أشخاصاً آخرين أرادوا منه ﷺ قبل نزول سورة «المنافقون» أن يرفق به. ذلك أنّه كان قبل قدوم رسول الله ﷺ بلغ مبلغاً أنّ خرز تتويجه قد أُعدّت إلّا واحدة منها، وبقدوم رسول الله ﷺ ذهب ذلك كلّه.

وتحدّث الله تعالىٰ في السورة المذكورة عن أيمان المنافقين فقال: ﴿إِذَا جَآءَكَ

---

(١) وردت أحكام فقهيّة خاصّة بشأن من يطلق مثل هذه الاستغاثة. وفيها آراء، أحدها أنّ من يلبّي هذه الاستغاثة يعزّر بخمسين سوطاً؛ والآخر: يعزّر بعشرة أسواط؛ والثالث أنّ عددها منوط باجتهاد الإمام. انظر: *سبل الهدىٰ والرشاد* ٤: ٥٠٤.

(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٢٩٢.

(٣) *المغازي* ٢: ٤١٩.

(٤) *المغازي* ٢: ٤١٨؛ *سبل الهدىٰ والرشاد* ٤: ٤٩٤.

ٱلْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ * ٱتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾. وبعد أن حذّر نبيّه أن يبتعد عنهم قال سبحانه: **﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ * يَقُولُونَ لَئِن رَجَعْنَا إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾**[١]

وكان تيّار النّفاق مستطيراً في المدينة، مع أنّ رمزه البارز هو عبد الله بن أبيّ. ومسك رسول الله صلى الله عليه وآله بزمام المدينة عبر هداية النّاس، وتمكّن من إخضاع المنافقين لسيطرته بسهولة. وقال صلى الله عليه وآله في هذه الواقعة: «لو أمرتُهم بقتله قتلوه»[٢]. لكن كما مرّ سابقاً لم يرغب صلى الله عليه وآله في أن ينعكس صدى القائل: «محمّد يقتل أصحابه» في أجواء المدينة.

وكان الأمر هكذا إذ إنّ نزول آية أو آيات في لوم أحدٍ يشقّ عليه كثيراً، لأنّها تكرّر مراراً ولا ينسىٰ أحد فعله[٣]. وقال عبادة بن الصّامت لابن أُبيّ قبل نزول سورة (المنافقون): تنزل فيك آيات تقرأ في الصلاة كراراً[٤]. وبعد تلك الآيات نزلت سورة (المنافقون)، وقراءتها في صلاة الجمعة مستحبّة.

ورغب المسلمون في المدينة عنه، بل لم يسلّموا عليه. وجاء ولده إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله لشدّة إخلاصه وكان سمع إصرار جماعة علىٰ قتل أبيه، فقال: «إن كنت تريد أن تقتل أبي فيما بلغك عنه فَمُرني... لقد علمت الخزرج ما كان فيها رجل أبرّ بوالدٍ منّي... وإنّي لأخشىٰ يا رسول الله أن تأمر غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلىٰ

---

(١) المنافقون: ٧، ٨.
(٢) *المغازي* ٢: ٤١٨.
(٣) قال تعالىٰ في الآية ٦٤ من سورة التوبة: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾.
(٤) *سبل الهدىٰ والرشاد* ٤: ٥٠١.

قاتل أبي يمشي في النّاس، فأقتله فأدخل النّار...» فقال رسول الله ﷺ: «ما أردتُ قتله وما أُمرتُ به، ولنُحسننّ صحبته ما كان بين أظهرنا»[١]. وفي هذه السّفرة نفسها، وقرب المدينة حال عبد الله بن عبد الله بن أبيّ دون دخول أبيهالمدينة وقال: لا أدعك تدخلها حتّىٰ يأذن رسولالله ﷺ فتعلم من الأعزّ ومن الأذلّ. فبلغ رسول الله ﷺ خبره، فأمره أن يضرب عن طريق أبيه صفحاً[٢]. ونجد أنّه كان لرسول الله ﷺ مثل هؤلاء الصّحابة في مقابل شرذمة من المنافقين العُمي البصائر الذين كانوا يقفون أمام الأوامر النّبويّة. ومن المؤسف أنّ ظاهرة النفاق كانت قويّة في ذلك المجتمع بدرجة يتعذّر معها التخلّص منها إلى الأبد.

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٢٩٣؛ *سبل الهدىٰ والرشاد* ٤: ٤٩٤، ٤٩٥؛ *المغازي* ٢: ٤٢٠. وأنشد شعراً في إصرار عمر، الذي كان في غير محلّه وبلا مشورة، علىٰ رسول الله ﷺ في مقابل قتل أبيه، ونقله الواقديّ في ص ٤٢١ من مغازيه. ولو كان نجل عبد الله قد قرأ سيرة ابن إسحاق ومغازي الواقديّ ولاحظ كيف استأذن عمر عشر مرّات في ضرب عنقه لما تعامل مع الموضوع بجدٍّ يُذكر.

(٢) *سبل الهدىٰ والرشاد* ٤: ٤٩٨.

(٧)

باتّجاه النّصر على الحجاز

صلح الحُديبيّة

مرّ بنا أنّ رسول الله ﷺ قال بعد غزوة الأحزاب ما مضمونه: لن يأتوا إلىٰ قتالنا وإنّما نحن الذين نذهب إلىٰ قتالهم. وعقيدته ﷺ أنّ قريشاً لا تفكّر بمهاجمة الإسلام إذ فقدت قوّتها لهزيمتها في الأحزاب، مضافاً إلىٰ جميع التجارب السّالفة خلال قرابة عشرين سنة منذ البعثة. وعلاوةً علىٰ ذلك أنّها ليست كالبدو الّذين لا يفكّرون إلّا بالحرب، بل يمكنها أن تفكّر بالسّلم أيضاً. ولو قُدّر أن تنشب حرب عقيمة بكلّ ما تستتليه من نتائج صعبة منها قطع الطريق التّجاريّ على قريش، فكم يحسن التخطيط للسّلم أيضاً. علىٰ أيّ حال كان سراة قريش علىٰ درجة من النضج السّياسيّ يدركون معها أنّهم لا قِبَلَ لهم بقتال المسلمين، لا سيّما إذا كان بهدف الأطاحة بهم. ولمّا جاء بُديل بن ورقاء الحديبيّة كان ممّا قاله رسول الله ﷺ: «وقريش قوم قد أضرّت بهم الحرب ونهكتهم»[1]. وقال سهيل بن عمرو في مفاوضاته أيضاً: «وكان [القتال] من سفهائنا»[2].

وعزم رسول الله ﷺ على التّوجه تلقاء مكّة للعمرة في شوّال سنة ستّ بالنّظر إلىٰ معرفته العميقة بمعنويّات العدوّ. ومنطلق عزمه هذا رؤيا رآها. فقد رأىٰ ﷺ في النوم أنّه دخل البيت، وحلّق رأسه، وأخذ مفتاح البيت. وبعد ذلك دعا الناس إلىٰ أن

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٣٠٩؛ *سبل الهدىٰ والرشاد* ٥: ٦١ ـ ٧١؛ *المغازي* ٢: ٥٩٢.

(٢) *المغازي* ٢: ٦٠٤.

يتهيّأوا للعُمرة. فأعدّوا عدّة السفر. و ذُكر أنّ المسلمين لم يشكّوا في الفتح[١].

وأمر ﷺ المسلمين أن يخرجوا بغير سلاح إلّا السّيوف في القُرُب، ليثبت للعرب كلّهم ولقريش أيضاً أنّه لم يرد إلّا العمرة ولا شغل له في الحرب. وطلب منه سعد بن عبادة، وعمر أن يحملا السّلاح احتياطاً حتّىٰ إذا رأيا من العدوّ ريباً كانا مُعِدَّين له. فقال ﷺ: لستُ أُحبّ أحمل السّلاح معتمراً[٢].

وتوجّه ﷺ نحو مكّة مع ألفٍ وأربعمائة إلىٰ ستّمائة من أصحابه. وسبق ذلك إرساله رجلاً يأتيه بخبر قريش، ومجموعة مكوّنة من عشرين فارساً طليعة للجيش. وأحرم في مسجد الشجرة. وجعل يمرّ بالأعراب فيستنفرهم. وأحجموا عن تلبية دعوته. ولعلّ جُلّ خوفهم يعود إلىٰ ما يظهر من عدم احتياط المسلمين في إقدامهم بلا سلاح. وكانوا يظنّون أنّ المسلمين لن يرجعوا، لأنّهم يذهبون إلىٰ قوم مسلّحين حديث عهدهم بمن أُصيب منهم ببدر[٣].

وخرج ﷺ من المدينة يوم الأثنين الأوّل من ذي القعدة الحرام. ولقي في الطريق جماعة من بني نهد، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يستجيبوا. وأرسلوا إليه لبناً، فأبىٰ ﷺ أن يقبل منهم وقال: لا أقبل هديّة مشرك ثمّ اشتراه منهم، فسُرّوا[٤].

يقول الواقديّ: خطب رسول الله ﷺ بالجُحفة، وكان ممّا قاله: وقد تركت فيكم كتاب الله وسنّة نبيّه[٥]. ومن المؤسف حقّاً أنّ بعض المحدّثين والرّواة نقلوا الحديث المذكور في مقابل حديث الثّقلين المتواتر المقطوع به الّذي أكّد علىٰ «القرآن» و«العترة»، وذلك تبعاً للأحاديث الموضوعة في العصر الأمويّ. في حين أنّ سنّة

---

(١) *المغازي* ٢: ٥٧٢. (٢) *المغازي*: ٥٧٣؛ *إمتاع الأسماع* ١: ٢٧٥.

(٣) *المغازي* ٢: ٥٧٤، ٥٧٥؛ *إمتاع الأسماع* ١: ٢٧٦؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٥: ٥٧.

(٤) *المغازي* ٢: ٥٧٥؛ *إمتاع الأسماع* ١: ٢٧٦، ٢٧٧.

(٥) *المغازي* ٢: ٥٧٩؛ *سبل الهدىٰ والرشاد* ٥: ٥٩.

رسول الله ﷺ القائمة علىٰ أساس الآيات القرآنيّة الّتي تأمر النّاس بطاعته ﷺ، وتعرّفه كأسوة، حجّة على النّاس. ويضاف إلى ذلك أنّه ﷺ علىٰ رأس العترة. وما أكّده ﷺ في حديث الثقلين هو القرآن، والعترة. ولا ننقل هنا مصادر حديث الثقلين لأنّ كتباً ومقالات مفصّلة دوِّنت في هذا المجال، وللقرّاء أن يرجعوا إليها.

والملاحظة الجديرة بالاهتمام هي أنّ رسول الله ﷺ كان بعد الحديبيّة يكثر من تأكيد موقع أهل البيت، ودام إصراره عليه حتّى الأيّام الأخيرة من حياته. ومن الحريّ بالذكر أنّ موضع الإعلان عنه عرفة، وذهب البعض إلىٰ أنّه كان بالمدينة في الأيّام الأخيرة من حياته ﷺ، وقال آخرون كان ذلك أثناء الرجوع من الطّائف[1]. وليس ببعيد أنّ رسول الله ﷺ أكدّه في الحديبيّة، إلّا أنّ الواقديّ أورد نصّه المحرّف. ونقل الطبرانيّ عن زيد بن أرقم أنّ رسول الله ﷺ نزل بالجحفة، ثمّ نقل حديث الثقلين، وكذلك الغدير عنه[2]. ويخلو نقل الطّبرانيّ من إشارة إلى الحديبيّة طبعاً، لكن بالنّظر إلىٰ ذكر الجحفة، وإلىٰ ما نقله الواقديّ في هذا الخبر، يُحتَمل أنّ رسول الله ﷺ قاله في سفر الحديبيّة.

ولمّا بلغ قريشاً خبر اقتراب المسلمين جعلوا يتشاورون، وعزموا علىٰ صدّه ﷺ عن الدخول إلىٰ مكّة ظانّين أنّ دخول المسلمين إليها، ولو للعمرة، مسّ لكرامتهم، وضربة لشأنهم، وذلك للوضع الحربيّ الّذي يسود علاقاتهم به ﷺ، وحينئذٍ سيتصوّر العرب أنّ المسلمين بلغوا من القوّة مبلغاً أنّهم يستطيعون معها الدخول إلىٰ مكّة بسهولة. من هنا استنصروا حلفاءهم كثقيف، والأحابيش. وبعثوا خالد بن الوليد على رأس مئتي فارسٍ إلىٰ منطقة الغميم. وأخرجوا أطفالهم وأسكنوهم وادي بَلْدح في طريق الخروج من مكّة إلى الحديبيّة. وجعلوا الجواسيس على الجبال

---

(١) انظر: ***حديث الثقلين***، تواتره ـ فقهه: ٣٣. (٢) ***المعجم الكبير*** ٥: ١٨٦، ١٨٧.

ليرقبوا هجوم المسلمين من أرجاء شتّى[١]. ونحرت قريش بدناً كثيرةً وأطعمت العرب في أربع نقاط من مكّة[٢]. وكان لهذا العمل تأثيره الكبير في استجلابهم بمكّة.

وطفق رسول الله ﷺ يشاور أصحابه حين بلغه الخبر. وجاء في هذا النقل أنّ أبا هريرة قال: «فلم أر أحداً كان أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ﷺ، وكانت مشاورته أصحابه في الحرب فقط»[٣]. والمشاورة هي أيمضون ويصطدمون بفرسان العدوّ، أم يتركونهم لحالهم ويقصدون من كان بالمدينة؟ والرأي العامّ هو الذهاب إلىٰ مكّة للعمرة، ومن صدّهم قاتلوه. ونزل ﷺ في منطقة الحديبيّة الواقعة في طريق جُدَّة علىٰ بعد (٢٢) كم غرب مكّة بعد أن اجتاز طرقاً وعرة بهدف الابتعاد عن فرسان العدوّ. واستقرّ فرسان العدوّ قريباً منهم أيضاً.

وصلّىٰ ﷺ صلاة الخوف بسبب دنوّ العدوّ منهم. وقيل إنّ الآية الثانية والمئة من سورة النّساء نزلت في هذا الشّأن. قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُم مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾.

وهذه الآية والآيات الّتي تتلوها تدور حول الاهتمام بالجهاد والصّلاة إذا تقارنا. وعلى المسلمين ألّا يغفلوا عنهما معاً. ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا ٱللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ إِنَّ ٱلصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً﴾[٤].

وكان لرسول الله ﷺ حلفاء من خزاعة في نطاق مكّة. وحصل منهم علىٰ معلومات جمّة خلال حروبه مع قريش[٥]. ومن قادتهم بُديل بن ورقاء الخزاعيّ،

---

(١) *المغازي* ٢: ٥٧٩؛ *إمتاع الأسماع* ١: ٢٧٨؛ *سبل الهدىٰ والرشاد* ٥: ٦١.

(٢) *إمتاع الأسماع* ١: ٢٨٠.

(٣) *المغازي* ٢: ٥٨٠.

(٤) النساء: ١٠٣.

(٥) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٣١٢.

وكانت له اتّصالات بالنّبيّ ﷺ أيّام استقراره في الحديبيّة. وفي تلك الأيّام أهدىٰ عمرو بن سالم الخزاعيّ رسولَ الله ﷺ وسائرَ أصحابه عدداً من الشّاء. فأمر ﷺ بنحرها وتقسيم لحمها بين المسلمين. وأتاه غلام من خزاعة بهدايا، ثمّ طلب منه أن يأذن له بتقبيل يده. فلم يأذن له ثمّ مسح ﷺ علىٰ رأسه، وقال: بارك الله فيك[١].

وتزخر السيرة النبويّة بمثل الّذي مرّ من حالات التّبرّك. قالوا: وفي هذه الأيّام وقف ﷺ على بئر قليل ماؤها. وشكا المسلمون يومئذٍ من شحّة الماء. فأخرج سهماً من كنانته ودفعه إلىٰ أحد أصحابه ليضعه في أسفل البئر، ففارت بالماء[٢]. وحين حلّق ﷺ رأسه بعد نحر البُدن أخذ المسلمون طاقات من شعره المبارك[٣].

وكانت خزاعة ـ ومنهم المسلم، ومنهم الموادع ـ عينَ رسول الله ﷺ في تهامة ولم تُخْفِ عليه شيئاً[٤].

وكان الوضع في الحديبيّة كما يأتي: قصد رسول الله ﷺ مكّة مع ثلّة من المسلمين ليعتمروا، وهم بلا سلاح إلّا السّيوف في أغمادها. فلم يريدوا قتالاً، كما لم يرغبوا في البقاء بمكّة. من جهة أُخرىٰ، حالت قريش بشدّة دون دخوله، إذ لم تطمئنّ لقدومه معتمراً فحسب. فربّما يظلّ فيها ويحارب أهلها. وفي نفس الوقت لم تقصد قريش حرباً ابتدائيّة مع المسلمين أيضاً. من هنا كان ضروريّاً أن يتفاوضوا، ويُنهوا هذه المشكلة بنحوٍ يرضىٰ فيه كلّ منهما مطلب الآخر. والسّلم أساساً هو الطّريق الوحيد للجانبين، بيد أنّه عسيرٌ علىٰ قريش نوعاً ما.

---

(١) *المغازي* ٢: ٥٩٢.

(٢) نفسه ٢: ٥٨٩. نلحظ أنّ كتب السّيرة والحديث مليئة بمئات الأمثلة من حالات التبرّك، لكنّ الوهّابيّين الّذين يرون أنفسهم أتباع السّلف وأهل الحديث اتّفاقاً لا يقرّون بهذه العقيدة. انظر بهذا الشأن كتاب *التبرّك* الثمين للأستاذ العلّامة أحمدي ميانجي.

(٣) نفسه ٢: ٦١٥.

(٤) نفسه ٢: ٥٩٣.

وأعلن رسول الله ﷺ عن قبول شروط فُرضت قاصداً تذليل قريش واستئذانها للعمرة. ووافاه في ذلك الحين بُديل بن ورقاء مخبراً إيّاه عن تأهّب قريش للدفاع عن مكّة، وأن لا طريق لدخولها إلّا بإبادة جماعتها. فقال ﷺ إنّه والمسلمون لم يأتوا لقتال أحد، لكن من صدّهم قاتلوه.

وعرض وقتها اقتراحاً منطقيّاً يتلخّص في أنّ الحرب أضرّت بقريش ونهكتهم، وإنّه يستطيع أن يعقد معهم اتّفاقاً طويلاً يأمنون فيه. ويخلّون بينه وبين النّاس، في حين أنّ أكثر النّاس منهم. فإن ظهر فلقريش أن يدخلوا فيما دخل فيه النّاس أو يقاتلوا. وليجهدنّ علىٰ أمره هذا ما كان به رمق[1].

وعاد بُديل إلىٰ مكّة لنقل الاقتراح. ولم تُبدِ قريش في البداية رغبة في سماعه وهو ينقل أخبار المسلمين. ثمّ طلبت منه أن يقول ما سمعه. فنقل اقتراح السّلم المؤقّت.

وكان عُروة بن مسعود الثّقفيّ إلىٰ جانب قريش يومئذٍ. وتحدّث عن نصره السّابق لهم وطلب منهم أن يُرسلوه إلىٰ محمّد ﷺ ليأتيهم بخبره. فبعثوه فجاء النّبيّ ﷺ وسمع منه نفس الجواب الّذي أجاب به بُديلاً من قبل. وحين رجع عُروة قال لقريش:

«... وإنّي والله ما رأيتُ ملكاً قطّ أطوع فيمن هو بين ظهرانَيه من محمّد في أصحابه، والله ما يُشدّون إليه النظر، وما يرفعون عنده الصوت، وما يكفيه إلّا أن يُشير إلىٰ أمرٍ فيُفعل، وما يتنخّم وما يبصق إلّا وقعت في يدي رجل منهم يمسح بها جلده، وما يتوضّأ إلّا ازدحموا عليه أيّهم يظفر منه بشيءٍ... فروا رأيكم»[2].

---

(١) *المغازي* ٢: ٥٩٤؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٣٠٩. وجاء في هذا المصدر أنّ رسول الله ﷺ قال ذلك لبشر [أو بسر] بن سفيان الكعبيّ؛ *عيون التواريخ* ١: ٢٣٨، ٢٣٩؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٥: ٦٢؛ *إمتاع الأسماع* ١: ٢٨٦.

(٢) *المصنّف*، عبد الرزّاق ٥: ٣٣٦؛ *المغازي* ٢: ٥٩٨؛ *المصنّف*، ابن أبي شيبة ٧: ٣٨٢، ٣٨٨؛ ⇐

وأصرّت قريش علىٰ موقفها في صدّ المسلمين عن الدخول إلىٰ مكّة ذلك العام. ثمّ بعثت مكرز بن حفص مندوباً عنها إليه ﷺ، فلم يحصل إلّا علىٰ ما قيل سلفاً. فأرسلت الحليس بن علقمة سيّد الأحابيش. فلمّا طلع قال ﷺ: «هذا من قوم يعظّمون الهديَ ويتألّهون. ابعثوا الهديَ في وجهه حتّىٰ يراهُ». فبعثوا الهديَ وعليه القلائد الّتي تدلّ على استعدادهم للنحر، وطفق المسلمون يلبّون. فرجع ولم يصل إلى النّبيّ ﷺ وقال لقريش إنّه رأىٰ ما لا يحلّ صدّه، رأىٰ رجالاً عازمين على الطّواف. وأضاف قائلاً: «ما علىٰ هذا حالفناكم، ولا عاقدناكم علىٰ أن تصدّوا عن بيت الله من جاء معظّماً لحرمته مؤدّياً لحقّه». ثمّ هدّدهم: «... لتخلّنّ بينه وبين ما جاء به، أو لأنفرنّ بالأحابيش نفرة رجل واحد». فقالت قريش: «إنّما كلّ ما رأيتَ مكيدةً من محمّد وأصحابه. فاكفُف عنّاحتّىٰ نأخذ لأنفسنا بعض ما نرضى به»[1].

وبعث رسول الله ﷺ خراش بن أُميّة إلىٰ قريش لأوّل مرّة من أجل إفهامها طلبه، لكنّ عكرمة بن أبي جهل ذبح بُدن خراش العائدة إلىٰ رسول الله ﷺ واستطاع خراش أن ينقذ نفسه بفضل الأحابيش[2]. وأمر رسول الله ﷺ عمر أن يذهب إلىٰ مكّة ويتحدّث مع قريش. فذكر أنّه يخافها على نفسه لعداوتها له وليس بمكّة من بني عديّ فيذبّ عنه[3]. ولم يقل ﷺ شيئاً، وعمر نفسه اقترح أن يذهب عثمان لوجود أقاربه من بني أميّة بمكّة. فأمره أن يذهب ويخبرها أنّه لم يأت لقتال

⇐ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٢: ٣١٤؛ *عيون التواريخ* ١: ٢٤٠؛ *إمتاع الأسماع* ١: ٢٧٨؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٥: ٧٤، ٧٥. وتحدّثنا في السّياق عن تلكّؤ بعض الصحابة في طاعة الأوامر النبويّة السياسيّة.

(١) *المغازي* ٢: ٥٩٩، ٦٠٠؛ *عيون التواريخ* ١: ٢٤٠، ٢٤١؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ٩٦؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٣١٢؛ *إمتاع الأسماع* ١: ٢٨٨؛ *سبل الهدىٰ والرشاد* ٥: ٧٥، ٧٦.

(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٣١٤؛ *سبل الهدى والرشاد* ٥: ٧٧.

(٣) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٣١٥؛ *عيون التواريخ* ١: ٢٤١.

أحد، وإنّما لزيارة البيت وتعظيم حرمته، ومعه الهديَ ينحره وينصرف. فلقي عثمان قريشاً في بَلْدَح، وأبلغها كلام النّبيّ ﷺ، ومنه إنّ الحرب قد نهكتكم وأذهبت بالأماثل منكم. فقالوا له: ارجع من حيث جئتَ وقل لمحمّد إنّه لا يصل إلينا.

وفي تلك اللحظة رحّب به أبان بن سعيد بن العاص، وهو من أشراف مكّة، وآواه وردفه وراءه علىٰ فرسه لئلّا يصل إليه سوء، وأدخله مكّة، وتحدّث عثمان مع أشرافهم رجلاً رجلاً، لكن لم يثمر كلامه شيئاً.

قالوا: مكث عثمان بمكّة ثلاثة أيّام يدعو قريشاً إلى الصّلح. لكن لم يتّضح بدقّة كيف ولماذا تركته قريش يعمل فيها ما يشاء. فإمّا كان راغباً في زيارة أقاربه عادةً كما كان بعض المسلمين يستأذنون رسول الله ﷺ لزيارة أقاربهم، أو أنّ قريشاً فرضت عليه البقاء بالقوّة. وهذا الرأي مرفوض لأنّه كان من بني أميّة، وله في مكّة مدافعون كثر. يضاف إلىٰ ذلك أنّه ـ كما مرّ ـ كان في حمىٰ أبان بن سعيد بن العاص منذ دخوله مكّة[1]. وذكر الواقديّ عشرة من المهاجرين دخلوا مكّة لزيارة عوائلهم[2].

إنّ طول الفترة الزمنيّة لمهمّة عثمان، وموافاة بعض الأخبار المقلقة حول المهاجرين الّذين كانوا ذهبوا داخل المدينة[3]، وإصرار قريش على صدّ المسلمين عن دخول مكّة، كلّ ذلك مهّد لضرورة بيعة عامّة. وسمّيت هذه البيعة «بيعة الرّضوان»، و«بيعة الشّجرة» أيضاً. لأنّ رسول الله ﷺ بايع النّاس تحت شجرةٍ، وتلك هي الشجرة

---

(١) ***عيون التواريخ*** ١: ٢٤١؛ ***المصنّف***، ابن أبي شيبة ٧: ٣٨٦؛ ونصّ علىٰ أنّ عثمان لم يذهب إلىٰ مكّة لمفاوضة العدوّ بل ذهب إليها لإبلاغ المسلمين المحصورين فيها رسالة النّبيّ ﷺ.

(٢) ***المغازي*** ٢: ٦٠٢، ٦٠٣؛ ***إمتاع الأسماع*** ١: ٢٩٠.

(٣) أوقف المشركون هؤلاء الأشخاص، وفي الجانب الآخر أسر المسلمون عدداً من فرسان المشركين. وتقرّر في بداية المفاوضات أن يُطلق الجانبان أسراهما.

الّتي كان يصلّي عندها الحجّاج عدد سنين[١].

وأُخذ اسم الرّضوان من الآية الّتي نزلت بهذا الشأن. وكانت هذه البيعة قد جرت في ظروف خاصّة طرأت حينئذٍ، ومن هنا كان موضوعها الجهاد. وكان على المسلمين أن يبايعوه ﷺ على الاستقامة والمقاومة والجهاد. ويلحظ اختلاف في الأخبار المنقولة حول مضمون ما تمّت البيعة عليه. ونُقل شيئان أساساً: الأوّل: بايع المسلمون على أن لا يفرّوا وقت الحرب، «بايعناه على أن لا نفرّ». الثاني: يقاتلون ويصمدون حتّى الموت، «بايعهم على الموت». وأشار الواقديّ إلى القولين كليهما[٢]، لكنّ بعض الصّحابة أكّدوا بعد ذلك أنّ البيعة تمّت على الثّبات فحسب، وكان جابر يقول: كنّا في الحديبيّة ألفاً وأربعمائة وبايعنا علىٰ أن لا نفرّ، لا على الموت[٣].

والحقيقة هي أنّ البيعة لو كانت على الثّبات وحده، فلا قيمة لها حتّى الموت. ولعلّ ثلّة من الصّحابة بايعوا على المضمون الأوّل، وثلّة بايعوا على المضمون الثّاني. وقال الواقديّ: قال سنان بن أبي سنان لرسول الله ﷺ: أُبايعك علىٰ ما في نفسك[٤]. وبايع سلمة بن الأكوع ثلاث مرّات. وقيل إنّه لمّا كان شجاعاً، دعاه رسول الله ﷺ إلىٰ تجديد البيعة[٥]. ورضي الله سبحانه عن البيعة فقال جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

---

(١) *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ٩٩. ولمّا سمع عمر هذا الأمر أمر بقطع الشجرة. *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ١٠٠؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٥: ٨٤. وقال جابر في أيّام كفّ بصره: لو أبصرت عيني لأريتكم مكان الشجرة. *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٥: ١٢٢.

(٢) *المغازي* ٢: ٦٠٣. حول البيعة على الموت انظر: *أنساب الأشراف* ١: ٣٥١؛ *الدرّ المنثور* ٦: ٧٤.

(٣) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٢: ٣١٥؛ وانظر: *سنن الدارميّ* ٢: ٢٢٠؛ *المعرفة والتّاريخ* ٣: ٢٨٨؛ *عيون التّواريخ* ١: ٢٤٢؛ *الدرّ المنثور* ٦: ٧٤. قال معقل بن يسار إنّه كان واقفاً على رأس النّبيّ ﷺ يومئذٍ وبايعه النّاس على أن لا يفرّوا، لا على الموت. انظر: *مجمع البيان* ٩: ١١٧؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ٩٩، ١٠٠.

(٤) *المغازي* ٢: ٦٠٣؛ *الدرّ المنثور* ٦: ٧٤.

(٥) *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٥: ١٢١.

يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ[١]... **لَقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً**﴾[٢].

وتلا البيعة الّتي تمّت بحضور عدد من المشركين، وحثّتهم على التفاوض[٣]، إرسالهم سهيل بن عمرو مندوباً عنهم إلى الرسول ﷺ. وحريّ بالقول إنّهم فزعوا من خوض القتال مع المسلمين. وقال سهيل لرسول الله ﷺ: «من قاتلك لم يكن من رأي ذوي رأينا ولا ذوي الأحلام منّا، بل كنّا له كارهين حين بلغنا ولم نعلم به، وكان من سفهائنا[٤]. فابعث إلينا بأصحابنا الّذين أسرتهم». فقال رسول الله ﷺ: «إنّي غير مُرسلهم حتّىٰ تُرسل أصحابي». يقصد بذلك من ذهب إلىٰ مكّة لزيارة أُسَرهم، وأمسكتهم قريش.

ثمّ رجع سهيل إلىٰ مكّة. واتّفقت قريش علىٰ أن ينصرف النّبيّ ﷺ عامه ويرجع قابِلَ، فيُقيم ثلاثاً وينحر هديه ويعتمر ثمّ ينصرف.

---

(١) الفتح: ١٠.

(٢) الفتح: ١٨، ١٩. ومن المفيد أن نشير إلىٰ ما جاء في ***صحيح البخاريّ*** ونقله الشّاميّ عنه (***سبل الهدىٰ والرشاد*** ٥: ٨٢) وفيه قال نافع: أسلم عبد الله بن عمر قبل أبيه (كان عبد الله ابن خمس عشرة سنة يوم الخندق). قال: هذا لا يصحّ، فالمراد من إسلام ابن عمر قبل أبيه أنّ عمر بعث وراء عبد الله الذي كان عند أحد الأنصار، وجاء عبد الله وراء الإبل ورأى النّاس يبايعون النّبيّ ﷺ تحت الشجرة فبايع ورجع. ثمّ أخذ عبد الله الفرس إلىٰ أبيه وأخبره ببيعة النّاس. ولا يستبين أساس هذا التوجيه ومنبع هذا الكلام. ونحن نعلم أنّ البعض يرى أنّ إسلام عمر كان قبل الهجرة بقليل. ومن النقاط الطريفة أنّه على الرغم ممّا جاء في الخبر السّابق وغيره فإنّ عمر عرف بيعة النّاس متأخّراً. ونقلت رواية تذكر أنّه أخذ بيد النّبيّ ﷺ عند بيعة الناس!

(٣) انظر: ***المغازي*** ٢: ٦٠٤، ٦٠٥؛ ***إمتاع الأسماع*** ١: ٢٩١.

(٤) ***سبل الهدى والرشاد*** ٥: ٨٠.

وإصرارهم علىٰ صدّه ذلك العام يعود إلىٰ ما يتعلّق بكرامتهم. والسبب في الحقيقة هو أنّهم لم يريدوا أن يتصوّر العرب أنّه ﷺ دخل مكّة بالقوّة[١].

وكان دخوله ﷺ تلك السّنة يعني أنّه أرغم قريشاً على أن تفتح له الطريق إليها. لكنّ قدومه في السّنة القادمة لا يضرّها، لأنّه يتحقّق علىٰ أساس معاهدة موقّعة. بيد أنّ لها مشكلة أُخرىٰ في رفض الصّلح. فقد كانت ترىٰ نفسها سادنة الكعبة، ولمّا لم تأذن لأحدٍ بالدخول مهما كانت الظروف، فإنّ العرب ينحون باللائمة عليها[٢]، كما نبّه علىٰ ذلك رئيس الأحابيش تماماً. ورجع سهيل بن عمرو وجرت المفاوضات وتقرّر أن يُعَدّ نصّ مكتوب.

في مقابل ذلك، كان الصّلح أمراً بديعاً بالنسبة إلى المسلمين. فالخطط كلّها جرت علىٰ أساس القتال والحرب مع المشركين حتّى الآن، ولعلّ المسلمين لم يحسبوا أنّهم يصالحون المشركين يوماً ما. من هنا، أبدىٰ بعض الصحابة شكّهم في موقف النّبيّ ﷺ بعد قبول الصّلح.

يقول الواقديّ:

فلمّا اصطلحوا فلم يبق إلّا الكتاب، وثب عمر إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ألسنا بالمسلمين؟ قال: بلىٰ. قال: فعلامَ نُعطي الدّنيّة في ديننا؟ فقال رسول الله ﷺ: أنا عبد الله ورسوله، ولن أُخالف أمره، ولن يضيّعني. ويضيف الواقديّ قائلاً إنّ عمر ـ ولم يذهب شكّه بعد ـ ذهب إلىٰ أبي بكر بعد ذلك وقال له ما قال لرسول الله ﷺ، وأجابه أبوبكر بنفس الجواب. ولقي عمر من القضيّة أمراً كبيراً وكان يقول: علام نُعطي الدنيّة في ديننا؟ يقول ابن عبّاس: قال لي عمر في خلافته: ارتبتُ ارتياباً لم أرتبه منذ

---

(١) قال سهيل بن عمرو: «فوالله لا يتحدّث العرب أنّك دخلتَ علينا عنوةً». انظر: *المغازي* ٢: ٦٠٥؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٣١١ ـ ٣١٦. (٢) *المصنّف*، ابن أبي شيبة ٧: ٣٨٢.

أسلمتُ إلّا يومئذٍ، ولو وجدتُ ذلك اليوم شيعةً تخرج عنهم رغبةً عن القضيّة لخرجتُ[١]!

والحقيقة هي أنّ عمر كان عصبيّاً متطرّفاً حادّ المزاج، وفهمه للدّين فهم متطرّف مُفرِط غير متّزنٍ. وكان يراه شديداً، وقلّما كان يتسامح أو يتساهل. وتحدّثنا في *تاريخ الخلفاء* عن هذه الروح الّتي كان يحملها وعن أفكاره وآرائه مفصّلاً. وكان تصوّره في الحديبيّة أنّ رسول الله ﷺ، وقد رأىٰ قريشاً قانعة إلىٰ هذا الحدّ، رضي بالصّلح دون حرب وقتال محافظةً منه علىٰ سلطته. ويبدوا أنّه كما قال لابن عبّاس ظنّ أنّ الإسلام ذريعة بيد النّبيّ ﷺ لاستلام السلطة[٢]. مع أنّه يقول إن الله تعالىٰ نجّاه من هذه التهلكة. ونلحظ في المباحث الكلاميّة المرتبطة بالإمامة أنّ علماء الشّيعة يذهبون إلىٰ أنّ موقفه في الحديبيّة يمثّل نقطة ضعفٍ مهمّة في عصيانه أمر النّبيّ ﷺ[٣]. ودلّ بموقفه هذا على أنّه لم يثق بقرارات الرسول ﷺ. ويمكن أن نقرّ بأنّه وقف نفس الموقف في الغدير أيضاً.

إنّ مخالفة المعاهدة لم تقتصر علىٰ عمر وحده. مع أنّ المصادر المعنيّة ذكرت أنّه كان الشخص الوحيد الّذي رفع عقيرته بالاعتراض وامترىٰ. ولمّا حُرّرت وثيقة الصّلح أمر رسول الله ﷺ الناس أن ينحروا هديهم ويحلقوا رؤوسهم. لكن لم يقم أحد من

---

(١) *المغازي* ٢: ٦٠٦، ٦٠٧؛ *الدرّ المنثور* ٦: ٧٧؛ *المصنّف*، عبدالرّزّاق ٥: ٣٣٩؛ *سبل الهدىٰ والرشاد* ٥: ٧٦، ٧٧؛ حول أصل الاعتراض انظر: *صحيح البخاريّ*، كتاب الشروط ٢: ١٢٢؛ *الطبقات الكبرىٰ* ٢: ١٠١؛ *المصنّف*، ابن أبي شيبة ٧: ٣٨٤، ٣٨٥؛ *إمتاع الأسماع* ١: ٢٩٣؛ *السّيرة النّبويّة*، إبن هشام ٣: ٣١٧؛ *عيون التّواريخ* ١: ٢٤٣، ٢٤٤.

(٢) ويبدو أنّ دليله علىٰ أيّ حال هو أليس قد رأى النّبيّ ﷺ أنّه يدخل الكعبة، فَلِمَ يرضىٰ أن يرجع ذلك العام؟ ومن الطّريف أنّه قلّما أبدىٰ شجاعةً في ساحة الحرب، مع ما كان يحمله من روح متطرّفة.

(٣) *النّص والاجتهاد*، رقم ١٧.

مكانه وأعاد ذلك فلم يُجبه أحد. وفي المرّة الثالثة إذ لم يتّبعوا أمره ﷺ دخل على أمّ سلمة مغضَباً شديد الغضب. فقالت له: «يا رسول الله، انطلق أنت إلىٰ هديك فانحره، فإنّهم سيقتدون بك»! ففعل ﷺ ما أشارت به عليه[١]. ويدلّ هذا العمل على كثرة السّاخطين، لكنّه ﷺ لم يعر اهتماماً بكلامهم، وعقد معاهدة الصّلح متوكّئاً على نبوّته، وعلى اعتقاده بأنّ الله لا يضيّعه.

ويدلّ التوجّه المذكور الّذي أشرنا إلىٰ نموذج آخر منه في موضوع حرب الأحزاب على غياب الإخلاص عند بعض الصحابة حيال الأوامر النبويّة. بعبارة أُخرىٰ، يدلّ مثل هذه الحوادث بخاصّة على منابذات للقرارات النّبويّة السّياسيّة. كما تفيد الحادثة المذكورة أنّ رسول الله ﷺ غير مستعدّ أن يترك ما يرىٰ فيه المصلحة حتّى لو اعترض أكثر الصحابة عليه. وكان على النّاس أن يصبروا حتّىٰ فتح مكّة لإدراك صحّة القرار الّذي اتّخذه رسول الله ﷺ. ولمّا أخذ ﷺ مفتاح الكعبة، دعا عمر، وقال مشيراً إلى اعتراضه في الحديبيّة يومئذ: «هذا الّذي وعدتكم»[٢] وكان المخالفون قد اعترضوا ذلك اليوم على خُلف الوعد بالفتح القريب الّذي وُعدوا به إذ أُكرهوا على الرجوع إلى المدينة قبل أداء العُمرة.

وتقرّر بعد التّفاوض أن يُكتَب نصّ المعاهدة. وقبل ﷺ شروط قريش من أجل

---

(١) ***المصنّف***، ابن أبي شيبة ٧: ٣٨٣ ـ ٣٨٩؛ ***إمتاع الأسماع*** ١: ٢٩٩؛ ***صحيح البخاريّ***، كتاب الشروط ٢: ٢، ١٢؛ ***مسند أحمد*** ٤: ٣٢٦؛ ***المغازي*** ٢: ٦١٣؛ ***الدرّ المنثور*** ٦: ٧٧؛ ***المصنّف***، عبد الرّزّاق ٥: ٣٤٠؛ ***سبل الهدىٰ والرّشاد*** ٥: ٩٢، ١٢٦. (قال رسول الله ﷺ لأمّ سلمة: ألا ترين إلى النّاس بالأمر فلا يفعلونه وهم يسمعون كلامي وينظرون في وجهي. مع وجود هذا الكلام ذكر مؤلّف ***سبل الهدىٰ والرشاد*** توجيهاً واهياً للدّفاع عن الصّحابة. مثلاً لعلّ أمره ﷺ كان مستحبّاً! أو لم يلزم العمل بأمره ﷺ فوراً! والنّقطة الطريفة الّتي التفت إليها المؤلّف المذكور (١٢٦) هي مشاورة النّبيّ ﷺ أم سلمة. ويقول بأنّ المستفاد من هذا الخبر هو جواز مشاورة المرأة الفاضلة.

(٢) ***المغازي*** ٢: ٦٠٩.

الدخول في مرحلة جديدة من دعوته، ووافق علىٰ إرجاع المسلم الّذي يفرّ إلى المدينة، إلىٰ مكّة. وفي ذلك الحين وقبل تدوين المعاهدة جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو ـ الّذي كان أسلم منذ مدّة وأبوه يراقبه ـ إلىٰ مكّة خفيةً ولحق بالمسلمين. فاعترض سهيل وقال لرسول الله ﷺ: لا أُكاتبك على شيء حتّى تردّه إليّ. فردّه رسول الله ﷺ وقال له: «اصبر واحتسب فإنّ الله جاعلٌ لك ولمن معك فرجاً ومخرجاً». فبكى المسلمون. وجاء في خبر من الأخبار أنّ عمر اعترض هنا علىٰ رسول الله ﷺ أيضاً، وجواب رسول الله ﷺ هو نفس الجواب الّذي مرّ آنفاً[1].

وتقرّر بعد مناقشات كثيرة أن تُكتَب المعاهدة وكُلِّف الإمام عليّ عليه السلام بتحرير وثيقة الصلح[2]. وقال له رسول الله ﷺ في البداية: «اكتب: بسم الله الرّحمٰن الرّحيم». فقال سهيل: لا أعرف الرحمان، وكان المشركون قبل ذلك يثيرون حسّاسيّة بالنّسبة إلىٰ كلمة «الرحمٰن» ويصرّحون بأنّهم لا يعرفونها[3]. وبعد إصرار سهيل اكتفوا بكتابة «باسمك اللّهمّ» الّتي اتّفق عليها الجانبان. والجملة الّتي تلتها هي: هذا ما اصطلح عليه رسول الله... فاعترض سهيل على كتابة «رسول الله» وقال: لو أعلم أنّك رسول الله ما خالفتك... أفترغب عن اسمك واسم أبيك...؟ فضجّ المسلمون. وكان اعتراض سهيل في محلّه وفقاً لمعاهدة يتّفق عليها الجانبان .لذا أسكتهم

---

(١) *المغازي* ٢: ٦٠٨، ٦٠٩؛ *إمتاع الأسماع* ١: ٢٩٥، ٢٩٦؛ وجاء في هذا الخبر أنّه ﷺ قال بعد اعتراض عمر: «أنسيتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم في أُخراكم؟ أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم... وأنقذكم الله ...أ...؛ وانظر: **مجمع البيان** ٩: ١١٨، ١١٩.

(٢) يقول معمّر: سألت الزُهريّ عمّن كتب معاهدة الحديبيّة، فضحك وقال: عليّ بن أبي طالب عليه السلام لكن إذا سألتَ هؤلاء (بني أُميّة) يقولون لك: عثمان. *المصنّف*، عبد الرزّاق ٥: ٣٤٣؛ قرّت عين الزّهريّ إذاً وهي ترى البعض يقول: الكاتب محمّد بن مسلمة. *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٥: ١٢٣.

(٣) الفرقان: ٦٠.

رسول الله ﷺ، وأمر أن تكتب عبارة «محمّد بن عبد الله»[١]. وفيما يأتي عدد من الموادّ الّتي اتّفق عليها الجانبان:

الف ـ وضع الحرب عشر سنين (هُدنة) يأمن فيها النّاس ويكفّ بعضهم عن بعض، على أنّه لا إسلال (سرقة خفيّة)، ولا إغلال (خيانة).

ب ـ من أحبّ أن يدخل في عهد محمّد ﷺ وعقده، أو عهد قريش وعقدها فعل.

ج ـ من أتىٰ محمّداً ﷺ منهم (قريش) بغير إذن وليّه ردّه إليه، ومن أتىٰ قريشاً من أصحاب محمّد ﷺ لم تردّه.

د ـ يرجع محمّد ﷺ بأصحابه إلى المدينة عامه هذا، ويدخل عليهم قابِلَ (في السنة القادمة) في أصحابه فيُقيم ثلاثاً، لا يدخل عليهم بسلاح إلّا سلاح المسافر، والسيوف في القُرُب[٢]. وجاء في نقل آخر تصريح في سياق المعاهدة بأنّ كلّ من يأتي من أصحاب محمّد ﷺ مكّة للحجّ أو للعمرة، فسوف يأمن، كما أنّ كلّ قُرَشيّ يمرّ بالمدينة قاصداً الشام أو مصر، فله ولماله الأمان[٣].

وكُتبت نسختان أخذ كلّ منهما نسخته. ونلحظ في هذا العقد مزيّتين لرسول الله ﷺ تشترك قريش معه في إحداهما. الأولىٰ: الأمن عشر سنين، فقريش تزاول

---

(١) *المغازي* ٢: ٦١٠. وإلىٰ هذه الواقعة استند أميرالمؤمنين عليه السلام في وقعة صفّين فأجاب أصحابه حين اعترضوا على حذف كلمة «أميرالمؤمنين» من عقد الصلح الّذي عقده مع معاوية ومدّته سنة واحدة، وفي الحديبيّة أمر رسول الله ﷺ الإمام أن يمحو عبارة «رسول الله» من المعاهدة. فقال إنّ يده لا تطاوعه. فطلب منه أن يدلّه على مكانها ليمحوها بنفسه، ففعل. انظر: *مجمع البيان* ٩: ١١٨؛ *المصنّف*، ابن أبي شيبة ٧: ٣٨٣؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٥: ١٢٣.

(٢) انظر: *أنساب الأشراف* ١: ٣٥٠؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ٩٧؛ *مجمع البيان* ٩: ١١٨؛ *إعلام الورىٰ*: ٥١؛ *مكاتيب الرّسول* ١: ٢٧٥.

(٣) *المصنّف*، ابن أبي شيبة ٧: ٣٨٥؛ *أنساب الأشراف* ١: ٣٥١.

فيها تجارتها، ورسول الله ﷺ يجد فيها فرصة مؤاتية لبثّ دعوته في سائر نقاط الجزيرة العربيّة وخارجها. والمزيّة الأُخرى الإذن بدخول مكّة لأداء العُمرة، وقد أُرجئ ـ طبعاً ـ إلى السنة القادمة. من هنا ـ ومنذ ذلك الحين ـ استطاع رسول الله ﷺ والمسلمون أن يأتوا مكّة للعمرة بلا قتال. وعلاوة على مزاولة الشّعائر الدينيّة أنّهم أروا العرب تعظيمهم للكعبة أيضاً، وأنّهم ليسوا حفنة من الطغام والمتسكّعين أو من طبقة الصعاليك كما كانت قريش تَسِمُهُم بذلك. وفي السنة السّابعة من الهجرة أُتيحت له ﷺ الفرصة لأداء «عمرة القضاء» مع عدد كبير من أصحابه.

بيد أنّ الأهمّ هو أنّ الصلح يمثّل اجتيازاً لمرحلة معيّنة. واعترفت قريش بالكيان السياسيّ لحكومة المدينة. والىٰ ما قبل ذلك كانت قريش تفكّر بالقضاء على المسلمين، أمّا الآن فإنّها أذعنت بأنّ الإطاحة بالإسلام أمر غير يسير، وما عليها إلّا الاعتراف به كحقيقة واضحة. ورأىٰ رسول الله ﷺ بحزمه الخاصّ أنّ هذا التحرّك بداية لفتح مكّة، ووصفه الله سبحانه في القرآن الكريم بأنّه الفتح المبين. ويقول جابر: لا نرىٰ فتح مكّة إلّا يوم الحديبيّة[١]. وقالوا: نزلت سورة الفتح في صلح الحديبيّة، وآيات منها في بيعة الرّضوان كما مرّ سلفاً. وأوّلها ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً**﴾. وفي الآيتين الحادية عشرة والثانية عشرة منها إشارة إلى الأعراب الّذين كان رسول الله ﷺ يلتقي بهم طول الطريق ويدعوهم إليه، لكنّهم زعموا أنّ أموالهم وأهليهم شغلتهم ظانّين بأنّهم لن يعودوا إلىٰ بيوتهم[٢]. ﴿**سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِنَ ٱللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً * بَلْ ظَنَنتُمْ**

---

(١) مجمع *البيان* ١: ١٠٩.

(٢) انظر: *الدرّ* المنثور ٦: ٧٢؛ مجمع *البيان* ٩: ١١٤.

أن لَن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً ﴾.

وسمّى الله سبحانه، في سياق الآيات، ثواب المبايعين الّذين رضي عنهم «فتحاً قريباً»، ويرىٰ معظم المفسّرين أنّ خيبراً مصداق ذلك[١]. ويضاف إليه ذكر الغنائم الكثيرة الّتي أصابها المسلمون في أعقاب الصّلح. قال تعالىٰ: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً * وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيراً ﴾[٢].

وقال سبحانه في صدق الرؤيا الّتي رآها رسول الله ﷺ: ﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّؤْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَاءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذٰلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ﴾[٣]. وموضوع هذه الآية فتح مكّة الّذي يمثّل تفسير الرؤيا المذكورة. وذلك الفتح القريب الّذي كان قبل دخول المسجد كما تصرّح به الآية إشارة إلى خيبر.

ووصف سبحانه سلسلة التطوّرات المتعلّقة بصلح الحديبيّة حتّىٰ فتح مكّة أنّها مقدّمة «للفتح المبين»، و«الفتح القريب». وكما أشرنا كان جابر أيضاً يقول: لا نرىٰ فتح مكّة إلّا يوم الحديبيّة[٤]. ونُقل عن الإمام الصّادق عليه السلام أنّ الإسلام نما واتّسع بعد مضيّ مدّة على الصّلح حتّىٰ كاد يستولي علىٰ مكّة. واختلط المسلمون والمشركون، وتمكّن الإسلام من قلوبهم. وبعد ثلاث سنين ـ حتّى السّنة الثّامنة ـ أسلم ما لا يُحصىٰ

---

(١) *مجمع البيان* ٩: ١١٦.

(٢) الفتح: ٢٠، ٢١.

(٣) الفتح: ٢٧. ويبدو أنّ قسماً من سورة الفتح في الرجوع من الحديبيّة على سبيل الاحتمال ـ كما قالوا ذلك ـ وقسماً آخر بعد فتح مكّة.

(٤) *إعلام الورىٰ*: ٦١؛ *مكاتيب الرسول* ١: ٢٨٥.

من الناس، فزاد جماعة المسلمين[١].

يقول الواقديّ: كانت الحرب قد حجزت بين الناس وانقطع الكلام... فلمّا كانت الهُدنة وضعت الحرب أوزارها وآمن الناس بعضهم بعضاً، فلم يكن أحد تكلّم بالإسلام يعقل شيئاً إلّا دخل في الإسلام حتّىٰ دخل في تلك الهدنة صناديد المشركين الذين يقومون بالشّرك وبالحرب ـ عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، وأشباه هم[٢]، من هذا المنظار، كان الإختلاط المذكور في الظّروف الّتي أصبح الإسلام فيها قوّة متفوّقة مؤثّراً في إسلام المشركين. وقال البرّاء بن عازب أيضاً: أنتم ترون فتح مكّة فتحاً، ونحن نرىٰ بيعة الرّضوان فتحاً[٣].

وما جاء من أنّ لكلّ قبيلة أن تتحالف مع رسول الله ﷺ كان عمليّاً في علاج المشاكل الخارجيّة، كما كان مزيّة للمسلمين، إذ كانت هناك قبائل ـ على أيّ حال ـ لم تقترب من النّبيّ ﷺ خوفاً من قريش، والآن هي حرّة في أن تتحالف معه. وبوجود هذا المبدأ ليس لقريش أن تدخل في حرب معها، أو تناصر عدوّها. وفي أعقاب المبدأ المذكور أعلنت خزاعة أنّها حليفة محمّد ﷺ. كما أعلنت بكر عن تحالفها مع قريش! والقلق المهمّ في ميثاق الصلح يتمثّل في إرجاع المسلمين الّذين تخلّصوا من أيدي أُسَرهم المشركة وفرّوا إلى المدينة بمشقّة. وهذا الموضوع كان مهمّاً للمسلمين من الوجهة العاطفيّة، لكنّ رسول الله ﷺ قال في قضيّة أبي جندل بن سهيل بن عمرو إنّه ليس من أهل الغدر، وإنّه يبقىٰ وفيّاً لهذا المبدأ. وعُرض هذا الموضوع في

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٣٢٢؛ *مجمع البيان* ٩: ١٠٩. ويذكر ابن هشام بعد نقل كلام الزهريّ أنّ الدليل علىٰ صواب كلام الزّهريّ هو أنّ رسول الله ﷺ دخل مكّة في الحديبيّة بألف وأربعمائة، في حين دخلها في فتح مكّة بعشرة آلاف. *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٣٢٢؛ وانظر: *عيون التاريخ* ١: ٢٤٦؛ *الكامل في التاريخ* ١: ٧٨؛ *مكاتيب الرسول* ١: ٢٨٥.

(٢) *المغازي* ٢: ٦٢٤.

(٣) *مجمع البيان* ٩: ١١٠.

سورة الأنفال قبل ذلك بسنين إذ قال سبحانه في المسلمين الذين كانوا في أسر مكة: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنْصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْر إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِيثَاقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[١].

إنّ إرجاع الرّجال بعد معاهدة الحديبيّة ليس فيه إشكال فقهيّ خاصّ، بيد أنّ الموضوع يتفاوت فيما يخصّ النساء. ولم تُشر المعاهدة إليهنّ، لكن لمّا نزلت آيات حكمت بالطّلاق القطعيّ إذا كان أحد الزّوجين كافراً، فإنّ المسلمات الباقيات واجهن بعض المشاكل في مكّة. من هنا، طلب سبحانه من رسوله بصراحة ألّا يُرجع النساء المسلمات المهاجرات إلى الكفّار. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ﴾[٢].

إنّ دفع المهر لمثل هؤلاء النّساء، سواء كان من المسلمين إلى الكفّار لأجل النساء اللّائي أسلمن، أم لفصل الرجال المسلمين عن نسائهم الكوافر اللّاتي كنّ بمكّة أو رجعن إليها كمرتدّات[٣]، يعدّ مزيّة متبادلة للجانبين كليهما. يقول الزهريّ: «لولا الهدنة لم يردّ إلى المشركين الصداق كما كان يُفعل قبل»[٤]. وبلغت أهمّيّة الأواصر العائليّة درجةً أنّ الحكم بفصل النساء المسلمات عن أزواجهنّ يتحقّق في اختبارهنّ ﴿امْتَحِنُوهُنَّ﴾ وبعد ذلك يبايعن علىٰ رعاية الحرام والحلال في الدّين كما جاء في الآية الثانية عشرة من سورة الممتحنة. من هنا خرج حكم النّساء المسلمات من دائرة

---

(١) الأنفال: ٧٢.
(٢) الممتحنة: ١٠.
(٣) ذكر الزُّهريّ أسماء ستٍّ منهنّ. انظر: ***مجمع البيان*** ٩: ٢٧٥.
(٤) نفسه ٩: ٢٧٤.

المعاهدة، وبعد هذا كان مسير عدد كبير منهنّ إلى المدينة، وفي هذا الاتّجاه طُلِّقت الكوافر المعلّقة اللّواتي كان أزواجهنّ في المدينة، وتزوّجن الكفّار(١).

وتمّ حلّ مشكلة الرجال المهاجرين بسرعةٍ أيضاً. ذلك أنّ من استطاع منهم أن يفرّ من مكّة، لم يأت المدينة، بل استقرّ منهم بشكل منظّم وجماعيّ قُرابة سبعين رجلاً في الطرق التجاريّة لقريش، وكانوا ينالون منها نيلاً(٢). وفعلوا ذلك لمّا رأوا ما جرىٰ لأبي بصير مع أحد مرافقيه إذ قتله، وكان جاء لإرجاعه من المدينة إلىٰ مكّة. ولمّا رأت قريش الوضع هكذا تغاضت مكرَهةً عن امتيازها الّذي كانت جعلته وسيلةً للحؤول دون تنامي الإسلام بمكّة.

دعوة الملوك والطوائف إلى الإسلام

فكّر رسول الله ﷺ ببثّ الدعوة الإسلاميّة خارج حدود الحجاز بعد أن أوقف انتهاكات قريش وراء صلح الحديبيّة. وكان ﷺ مصداقاً لقوله تعالى ﴿رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(٣) وبوصفه ﴿خَاتَمَ ٱلنَّبِيِّينَ﴾(٤) كان يحمل رسالةً تفوق حدود الحجاز والعرب. ولم يكن هذا الموضوع ليطرحه رسول الله ﷺ في العصر المدنيّ، لاسيّما بعد صلح الحديبيّة، بل كان يعد المسلمون بكنوز كسرىٰ وقيصر منذ بدء نبوّته، وفي مكّة نفسها كان المشركون يخاطبون المسلمين الحفاة بأنّهم ورثة كسرىٰ وقيصر ساخرين بهم. ومهما كان، بدأ العمل الدّعوتيّ بعد الحديبيّة. وفي المقابل راسل النبيّ ﷺ ثلاث شرائح متنفّذة. الأولىٰ: ملوك الدول العظمىٰ آنذاك. الثانية: الأقطاب الدينيّة

---

(١) **مجمع *البيان*** ٩: ٢٧٣، ٢٧٤. ذكر أمثلة عديدة؛ وانظر أيضاً ***الاستيعاب*** ٤: ١٤٨٨ (في حاشية الإصابة).

(٢) ***المغازي*** ٢: ٦٢٧؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٣٢٣، ٣٢٤.

(٣) الأنبياء: ١٠٧.

(٤) الأحزاب: ٤٠.

للنّصارىٰ. الثالثة: رؤساء القبائل الكبيرة المعروفة في شتّىٰ مناطق الجزيرة العربيّة والشّام. وسنتحدّث عن هذه الرسائل بإجمال ومصدرنا الأصليّ ـ لا محالة ـ كتاب مكاتيب الرسول الثمين.

كان أحد المخاطَبين الملك السّاسانيّ خسرو برويز الّذي قُتل في السّجن سنة ٦٢٨ م(السّنة السّابعة للهجرة). وكان من الملوك المترفين، هزمه هرقل في حروب متعدّدة هزائم نكراء. وبناءً علىٰ سنة قتله، من المفروض أن تكون رسالة النّبيّ صلى الله عليه وآله وافته في السّنة الأخيرة من حكومته. وعبّر عنه النّبيّ صلى الله عليه وآله «بعظيم فارس» وطلب منه فيها أن يشهد بوحدانيّة الله ونبوّة محمّد صلى الله عليه وآله وإلّا فعليه إثم المجوس.

أمّا موقف كسرىٰ فقد جاء أنّه مزّق الرسالة، وكتب إلى باذان واليه على اليمن أن يستتيب قُرَشيّاً ادّعى النبوّة بمكّة، وإلّا يأتيه برأسه. وورد في خبر اليعقوبيّ ـ علىٰ عكس الأخبار الأخرى المنقولة ـ أنّه قرأ الرّسالة وبعث بعض الهدايا إليه صلى الله عليه وآله[١]! وكان حامل الرسالة عبد الله بن حذافة السهميّ.

وكانت الرسالة الأخرىٰ هي رسالته صلى الله عليه وآله إلى المُقَوْقِس حاكم مصر، وخاطبه فيها بعنوان «عظيم القبط». وفي خبر آخر «صاحب مصر». وكانت مصر آنذاك خاضعة للحكم الرومانيّ الشّرقيّ وعاصمته القسطنطينيّة. وكان يحكم الإسكندريّة حاكم يُسمّىٰ كروس وكان نصرانيّاً. دعاه رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الإسلام، وكتب إليه في آخر الرسالة قوله تعالىٰ: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ ٱللهِ**﴾. وهذه الرسالة بلّغها حاطب بن أبي بَلْتَعَة.

ونقلت المصادر التّاريخيّة حوار حاطب والمقوقس. وأشار حاطب فيه إلى مصير

---

(١) مكاتيب *الرسول* ١: ٩٠ ـ ٩٣.

فرعون الّذي كان يحكم مصر قبله، وتحدّث عن دعوة النّبيّ ﷺ والعداء المشترك الّذي تكنّه قريش واليهـود له، وأكّد أنّ النصارىٰ أقرب الناس إلى الإسلام. وقـرأ المقوقس الرسالة ببالغ الإحترام ورحّب بحـاطب. وطلبه مـرّةً وسأله عـن فـحوى الدّعوة النّبويّة. كما أراد منه أن يصف رسول الله ﷺ له. ثمّ ذكر أنّه ينتظر ظـهور نبيٍّ، لكنّه كان يظنّ أنّه يظهر بالشّام لأنّها مهد الأنبياء السّابقين. وأخبره أنّ أهـل مصر لن يتّبعوه في هذا. فإذا تمكّن من سائر البلاد، فسوف يصل سلطانه إلىٰ هـنا أيضاً. وبعد ذلك كتب رسالةً وبعثها إليه ﷺ ومعها جاريتان، إحداهما مارية القبطيّة الّتي أعتقها وتزوّجها وهي أمّ إبراهيم. والأخرىٰ سيرين أختها، وصارت لحسّان بن ثابت، ومكث حاطب خمسة أيّام في بلاط المقوقس ثمّ عاد إلى المدينة[١].

وكانت رسالته الثالثة إلى الهلال حاكم البحرين. وليس من معلومات تُذكَر حوله. ولم يُشِر إلىٰ رسالته إلّا ابن سعد[٢]. وسنرىٰ أنّ أفراداً آخرين أيضاً دُعوا إلى الإسلام في البحرين.

وكانت رسالته الرابعة إلىٰ قيصر الرّوم. وتبدأ هذه الرسائل بتعبير «سلام علىٰ من اتّبع الهدىٰ» عادةً. ويستعمل هذا التّعبير في مخاطبة الكافرين. وكان العرب يعرفون قيصر الروم على أنّه هرقل. وكان حامل الرسالة إلىٰ قيصر دحية بن خليفة الكلبيّ وهو صحابيّ جميل المحيّا، وجاء في الروايات أنّ جبرائيل عليه السلام كان يظهر في صورته. وقال البعض: كان المقرّر أن يُعطي دحية الرسالة حاكم بُصرىٰ ليوصلها إلىٰ قيصر الرّوم.

ونُقل نصّ الرسالة بأشكال متباينة. فـي أحـدها كـانت الدعـوة إلى الإسـلام

---

(١) *مكاتيب الرسول* ١: ٩٧ ـ ١٠١. (٢) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٢٧٥.

فحسب، ثمّ جاء قوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ تَعَالَوْا...﴾ بعدها[١]. وفي الآخر طُلب منه أن يُسلم، وإلّا يدفع الجزية، ثمّ ذكرت آية الجزية[٢][٣]. قالوا: وافته الرّسالة وهو في الشام إذ ذهب إلى زيارة بيت المقدس من أجل الشّكر على انتصاره على قوى الفرس. وهناك سأل عمّن كان حاضراً من أهل مكّة ليزوّده بالمعلومات عن محمّد صلى الله عليه وآله وسلم. وكان أبو سفيان يومئذٍ في الشّام ـ وهو لم يزل علىٰ شركه ـ وأُخذ إلىٰ هرقل لتقديم التّوضيحات ـ ووصفت المصادر الإسلاميّة موقف هرقل بشكل يبدو فيه أنّه لم يرد قبول الإسلام خوفاً علىٰ ملكه، في حين أنّه كان في الأصل ينتظر ظهور مثل هذا النّبيّ. وكذلك ورد أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كتب إلىٰ قيصر عندما كان في تبوك. وجواب قيصر الوارد في المصادر الإسلاميّة الموجودة قرين بالتّودّد وإرسال الهدايا[٤]. وعلاوة علىٰ قيصر، كتب صلى الله عليه وآله وسلم إلى الأسقف الأعظم للروم أيضاً، وأشار فيه إلى مريم وعيسىٰ وذكر إيمانه بجميع الأنبياء السابقين[٥].

ومن الذين كاتبهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم النّجاشيّ حاكم الحبشة وحامل رسالته إليه هو عمرو بن أُميّة الضّمريّ وجاء في النّص الّذي يعدّ أكثر من بعض النصوص الأُخرىٰ تفصيلاً أنّ عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلىٰ مريم فحملت بعيسىٰ، كما خلق آدم بيده ونفخه. وهذا هو مضمون الآيات القرآنيّة. وجاء في كتابه صلى الله عليه وآله وسلم: «وقد بعثت إليكم ابن عمّي جعفراً ومعه نفر من المسلمين فإذا جاءوك فأقرّ ودع التجبّر».

ويستشفّ من هذه الفقرة أنّ هذه الرّسالة كانت في سنة هجرة المسلمين إلى الحبشة، أي: السنة الخامسة للبعثة، في حين كانت دعوة الملوك والأمراء بعد الحديبيّة، ونقل الرّواة أنّ الرّسالة المذكورة هي نفس الرّسالة الّتي أخذها عمرو بن

---

(١) *مكاتيب الرسول* ١: ١٠٥.

(٢) التوبة: ٢٩.

(٣) *مجموعة الوثائق السياسيّة*: ٨٢.

(٤) *مكاتيب الرسول* ١: ١٠٥ ـ ١١٤.

(٥) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٢٧٦.

أميّة إلى الحبشة. ويمكن أن تكون الفقرة الأخيرة منها توصية جديدة بالتّعامل اللّين مع المهاجرين. وينبغي الالتفات إلىٰ أنّ المهاجرين رجعوا في السّنة السابعة، من هنا، وبالنّظر إلىٰ ما جاء في آخر الرسالة، يمكن أن تكون توصيات عمرو بن أُميّة والرّسالة المذكورة بعد بدر، حين أعادت قريش محاولتها لإرجاع المهاجرين.

ويحوم خلاف حول نجاشيّي الحبشة في السنين الأولىٰ من البعثة، وأواخر عصر الهجرة من كانوا؟ فقد قيل: إنّ أحدهم هو النّجاشي الذي استقبل المهاجرين بجفاوة، وقبل دعوة الإسلام، وبعد وفاته صلّىٰ عليه رسول الله ﷺ من المدينة. أمّا النّجاشيّ الّذي جاء بعده فقد ردّ علىٰ رسالة النّبيّ ﷺ بعد أن مزّقها[١]. ووردت أخبار كثيرة في المصادر الإسلاميّة حول النّجاشيّ الّذي أسلم، وسلوكه مع المهاجرين وحبّه رسول الله ﷺ وهو الّذي بعث هدايا كثيرة إلىٰ رسول الله ﷺ في جوابه له.

ومن الملوك الآخرين الّذين دُعوا إلى الإسلام الحاكم الغسّانيّ للشّام الحارث بن أبي شمر الّذي كان يحكم دمشق وأعمالها من قبل قيصر الرّوم، ومقرّه الجولان.

بسم الله الرحمٰن الرحيم. إلىٰ الحارث بن أبي شمر. سلام على من اتّبع الهدىٰ وآمن به وصدّق. وإنّي أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يبقىٰ ملكك[٢].

وحمل شجاع بن وهب الأسديّ هذه الرّسالة إلى الحارث، وغضب الحارث من الجملة الأخيرة فيها وهدّد أن يأتيه بجيش حتّىٰ لو كان باليمن.

وراسل ﷺ هوذة بن عليّ الحنفيّ (المفروض أن يكون من بني حنيفة) ملك اليمامة. ودعاه إلىٰ قبول الإسلام، وأشار إلىٰ ظهور دينه في المستقبل. طلب منه أن يسلم ويجعل له ما تحت يديه. وكان حامل الرسالة إليه سليط بن عمرو. وأجاب

---

(١) **مكاتيب الرسول** ١: ١١٨ ـ ١٢٨. ونقلت رسائل أخرىٰ لرسول الله ﷺ بعثها إلى النّجاشيّ.

(٢) ***السيرة الحلبيّة*** ٣: ٢٨٦؛ ***مكاتيب الرسول*** ١: ١٣٤.

هوذة مشيراً إلىٰ قوّته الأدبيّة، وقال:... والعرب تهاب مكاني، فاجعل لي بعض الأمر أتّبعك[١]. ورغبته في إشراكه تقوم على أساس تصوّر غالط يحمله هوذة عن النبوّة، وهو الّذي أراده مسيلمة الكذّاب بعد ذلك.

وخاطب ﷺ المنذر بن ساوى أحد أشراف البحرين بواسطة العلاء بن الحضرميّ. وكان المنذر متأثّراً بالدّين المجوسيّ. وأجابه المنذر قائلاً: «أمّا بعد يا رسول الله فإنّي قرأتُ كتابك علىٰ أهل البحرين. فمنهم من أحبّ الإسلام وأعجبه ودخل فيه؛ ومنهم من كرهه فلم يدخل فيه. وبأرضي يهود ومجوس، فاحدث إليّ أمرك في ذلك». ومهما كان فالمنذر هذا في عداد من قبلوا دعوة الرسول ﷺ.

ودُعي جيفر وعبد ابنا الجلنديّ مَلِكا عمان إلى الإسلام سنة ثمان من الهجرة. وحامل الرسالة إليهما أبو زيد أو عمرو بن العاص. ونُقل خبر مفصّل عن حوار عمرو ابن العاص معهما، وجاء في ختامه أنّهما أسلما. ويظهر من الخبر المذكور أنّهما كانا يرغبان في معرفة موقف قريش من الإسلام. وهناك قال عمرو: تبعوه (تبعوا الإسلام) إمّا راغب في الدّين أو راهب مقهور بالسّيف. وتلاشت مقاومة قريش[٢].

وكانت شبه الجزيرة العربيّة تخلو من نظام ملكيّ، وإنّما كان في مناطقها المختلفة رؤساء بعض القبائل وهم في حكم الحاكم المحلّيّ، بخاصّة إذا كانت الحكومة الساسانيّة تدعمهم وتعزّزهم. وكانت الرسائل التي كُتبت إلىٰ هؤلاء ذات مردود إيجابيّ. ومن المحتمل أنّ عندهم أخباراً لافتة للنظر عن قوّة الإسلام. وكحدٍّ أدنىٰ أرادوا انتهاج سبيل الاحتياط. وينطبق هذا الموضوع علىٰ بعض حكّام العرب في مناطق الشّام أيضاً.

ومن هؤلاء فروة بن عمرو الجذاميّ حاكم مَعان. فقد أسلم وأرسل إلىٰ رسول

---

(١) *مكاتيب الرسول* ١: ١٣٨. (٢) نفسه ١: ١٤٩ ـ ١٥١.

الله ﷺ هدايا. ويستفاد من نصّ الرسالة أنّه أشخص مندوباً عنه إلى النّـبيّ ﷺ قبل أن يبعث إليه النّبيّ ﷺ. رسالةً. وفيما يأتي نصّ الرسالة:

من محمّد رسول الله إلىٰ فروة بن عمرو؛ أمّا بعد، فقد قدم علينا رسـولك وبـلّغ مـا أرسلت به، وخبر عمّا قِبلكم، وأتانا بإسلامك، وأنّ الله هداك بهـدىٰ إن أصـلحت وأطعت الله وأقمت الصلاة وآتيت الزكاة[١].

وكتب ﷺ إلىٰ أُسقف نجران:

باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب؛ من محمّد النّبيّ رسول الله إلىٰ أسقف نجران، أسلم أنت، فإنّي أحمد إليكم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، أمّا بعد: فإنّي أدعوكم إلىٰ عبادة الله من عبادة العباد وأدعوكم إلىٰ ولاية الله من ولاية العباد، وإن أبيتم فالجزية، فإن أبيتم آذنتكم بحربٍ والسلام[٢].

وأرسلت رسائل كثيرة لدعوة القبائل المهمّة والأشخاص المتنفّذين إلى الإسلام. ومن هؤلاء أكثم بن صيفيّ أحد رؤساء بني تميم[٣]. ودُعي زياد بن جمهور وهو من لخـم بالشام إلى الإسلام، وكان من وجهائها[٤]. وتلقّت قبيلة بكر بن وائل دعوة لم يستطع أحد منهم قراءتها بسبب أُمّيّتهم حتّىٰ جاء رجل من بني ضبيعة فقرأها لهم! ثمّ سمّي نسله بني الكاتب! ونقلت منها جملة قصيرة لعلّها هي الرسالة جميعها: من محمّد رسول الله إلىٰ بكر بن وائل أسلوا تسلموا[٥].

---

(١) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٢٨١؛ *مكاتيب الرسول* ١: ١٥٢، ١٥٣.

(٢) *البداية والنّهاية* ٥: ٥٣؛ *مكاتيب الرسول* ١: ١٧٥.

(٣) *مكاتيب الرسول* ١: ١٥٥.

(٤) نفسه ١: ١٦٥.

(٥) نفسه: ١٦٦.

خيبر آخر خندق ليهود الحجاز

خيبر منطقة خصبة ذات ماء وعمران كثير، وهي من أفضل مناطق الحجاز. والتمر أكثر محاصيلها ووفرته بحدٍّ يُعاب معه نقله إليها[1]. وتقع شمال المدينة ـ في طريق الشّام ـ على بعد (١٦٥) كيلومتراً عنها، ومركزها اليوم «الشُّرَيف»[2]. ولمّا جاء اليهود إلىٰ شبه الجزيرة العربيّة، سكن قسم منهم في خيبر. وأصبحوا ذوي سطوة قويّة فيها بسبب إمكانيّاتها الاقتصاديّة. وبنوا فيها حصوناً حصينة، وجعلوا من أنفسهم قوّة مقاومة لا تُقهر من خلال ادّخار الطعام والسّلاح الكثير. وكان للمنطقة سوق سنويّ يقام في الأيّام الأُولىٰ من شهر ربيع الأوّل وعنوانه «سوق نطات خيبر». وكانت غطفان تعيش قريباً منهم. وهي من حُماة السوق المذكور إذ كانت توفّر أسباب الأمن لمن يرتاده[3].

وكان طبيعيّاً وجود تزاور وتواصل بين يهود خيبر ويهود المدينة. كما أنّ عدداً منهم وعلى رأسهم حيّي بن أخطب ظلّوا خيبريّين بعد إجلاء بني النضير. وفي واقعه الأحزاب أسر حييّ مع بني قريظه، ثمّ هلك. وكان أفراد آخرون من بني النّضير ضالعين في وقعة الأحزاب، ثمّ رجعوا إلىٰ خيبر. ومن هؤلاء سلام بن أبي الحقيق الّذي قتله جماعة من مسلمة الخزرج داخل خيبر[4]. وتحدّثنا عن قتله سابقاً. وأنشد حسّان بن ثابت شعراً في تغلغل المسلمين في عمق التراب اليهوديّ، وقتل ابن أبي الحقيق، فقال:

---

(١) كنقل الكمّون إلىٰ كرمان. [هذا مَثَلٌ فارسيّ يقابله في العربيّة قولهم: كناقل التّمر إلىٰ هَجَر.] المترجم وهجر مدينة في البحرين مشهورة بتمورها.

(٢) انظر: *معجم المعالم الجغرافيّة في السّيرة النّبويّة*: ١١٨. بين المدينة والشّريف ١٦٣كم.

(٣) *في شمال غرب الجزيرة*، حمد جاسر: ٢٣٦.

(٤) انظر: *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٢٧٣؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٦: ١٦٢ ـ ١٦٤.

حتّىٰ أتوكم في محلّ بلادكم فسقوكم حتفاً ببيضٍ ذُفَّفِ[١]

من هنا، بدأ اشتباك مسلمي المدينة بأهل خيبر بعد حرب الأحزاب، وهم أنفسهم همّوا بمواجهة المسلمين. وأصبح اليهود في وضع أعسر من السّابق، لأنّهم فقدوا إمكانيّة الاستعانة بقوّة قريش أو حلفائها. مع هذا اتّفقت معهم بعض القبائل العربيّة الّتي كانت حوالي خيبر في معاداة الإسلام، وجرت بينها وبين أهل خيبر مفاوضات في هذا الوقت. ومن هذه القبائل قبيلة بني سعد الّتي كانت تسكن حوالِ خيبر.

وروى الواقديّ أنّ رسول الله ﷺ علم بمرافقتهم لأهل خيبر، وسمع أنّهم يريدون أن يمدّوا اليهود. وبعد ذلك بعث في رمضان سنة ستّ عليّاً عليه السلام إليهم في مائة رجل فسار حتّى انتهىٰ إلى الهَمَج (ماء بين خيبر وفدك)، فأصاب عيناً (جاسوساً). واضطرّ هذا الجاسوس أن يدلّ المسلمين على مرعىٰ بني سعد خوفاً علىٰ نفسه. فأغاروا علىٰ نَعَمٍ وشاءٍ لهم، فغنموها. وهي خمسمائة بعير، وألفا شاةٍ. وأخبر الرّعاة الفارّون بني سعد بهجوم المسلمين، وتفرّقوا وجاء في هذا الخبر أنّ الجاسوس المذكور كان ابن أخي رئيس قبيلة بني سعد. وكان متوجّهاً إلىٰ خيبر لإبلاغ رسالته. وورد في خبر عن رئيس طائفة بني سعد أنّه لم يتصوّر هجوم المسلمين على خيبر حتّىٰ بعد الحملة المعهودة، وذلك لوجود حصون حصينة لا يُنفذ منها[٢]. وكان هذا التحرّك ضربة أُخرىٰ ليهود خيبر.

وكانت الخطوة الأُخرىٰ للمسلمين في خيبر إيفاد مجموعة ثلاثيّة لكسب المعلومات عن وضع خيبر. فقد بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة مع رجلين، واستطاعوا أن يحصلوا علىٰ بعض المعلومات خلال مكثهم الّذي طال ثلاثة أيّام. وفي

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٢٧٦.

(٢) *المغازي* ٢: ٥٦٢، ٥٦٣؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٦: ١٥٤، ١٥٥.

ذلك الوقت حاول يسير أو أسير بن زارم[١] أن يفرض حرباً على المدينة من خلال تحريض قبيلة غطفان الّتي كانت تسكن قريباً من خيبر. ولمّا بلغ النّبيّ ﷺ ذلك بعث عبد الله بن رواحة إلىٰ خيبر مع ثلاثين. فذهبوا عند أسير بعد الاستئمان وأخبروه أن لو أتىٰ رسول الله ﷺ لولّاه علىٰ خيبر. فقبل وخالفه بعض اليهود، وتوجّه إلى المدينة مع جمع من اليهود. وندم أُسير بعد أن ابتعد عن خيبر قليلاً. وكان عبد الله بن أنيس ينظر إليه، وما إن رأىٰ آثار النّدم في وجهه استلّ سيفه وحمل عليه. وطفق المسلمون يقاتلون. وبعد انتهاء القتال تمكّن يهوديّ واحد فحسب من الفرار[٢]. وهكذا قتل واحد من زعماء اليهود.

وهذه الإجراءات كانت قبل صلح الحديبيّة. أمّا بعد توقيع معاهدة الصّلح، فقد اهتمّ رسول الله ﷺ بموضوع يهود خيبر الّذين كانوا يمثّلون إسناداً ليهود المدينة طوال السّنين السّابقة، وذلك بسكينة أكثر. فسار ﷺ إليها في صفر سنة سبع ـ أو في الأوّل من جمادى الأولىٰ[٣]، أو المحرّم[٤] من تلك السّنة ـ على رأس جيش. ولم يتوقّع اليهود أن يهاجمهم النّبيّ ﷺ بسبب قواهم العسكريّة الكثيرة وحصونهم الحصينة. ولمّا تحرّك ﷺ من المدينة والمسلمون معه، منعهم يهود المدينة ـ الّذين لم ينقضوا عهدهم مع المسلمين حتّىٰ ذلك الحين ـ من الذّهاب إلىٰ خيبر. ومن الطبيعيّ أنّهم لم يريدوا أن يزول آخر خندق لليهود في الحجاز[٥].

وسار رسول الله ﷺ مع جنده من طريق الشّمال وكان اللواء بيد عليّ بن أبي

---

(١) عند ابن هشام: يسير، وعند الواقديّ أسير.

(٢) *المغازي* ٢: ٥٦٦ ـ ٥٦٨؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٦١٨؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٦: ١٧٦، ١٧٧.

(٣) انظر: *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ١٠٦.

(٤) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٣٢٨.

(٥) *المغازي* ٢: ٦٣٤، ٦٣٧.

طالب عليه السلام، ورايتان إحداهما بيد الحباب بن المنذر، والأخرىٰ بيد سعد بن عبادة[١].

وفي الطريق أمر صلى الله عليه وآله وسلم عبد الله بن رواحة الّذي كان شاعراً وذا صوت شجيّ أن يشوّق الركب بأرجاز، فقال رضوان الله عليه:

والله لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدّقنا ولا صلّينا

فانزلن سكينةً علينا وثبّت الأقدام أن لاقينا

والمشركون قد بَغَوْا علينا[٢]

وصحبه صلى الله عليه وآله وسلم ستّ عشرة من نساء المسلمين لإسعاف الجرحىٰ[٣]. وفي ضوء إحصاء زيد بن ثابت في آخر الحرب كان المسلمون ألفاً وأربعمائة بينهم مئتا فارس[٤].

ولمّا كانت خيبر مرغوبة من الوجهة الاقتصاديّة وذات غنائم لا تحصىٰ، فقد قصد البعض أن يسيروا مع النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم رجاء الغنيمة، لكنّه قال: لا تخرجوا معي إلّا راغبين في الجهاد[٥].

ويبدوا أنّ الآية الخامسة عشرة من سورة الفتح إشارة إلى الأعراب الّذين تخلّفوا في الحديبيّة، لأنّهم كانوا يخافون من مواجهة قريش، لكن لمّا ذهب المسلمون إلىٰ خيبر وكان بيّناً تقريباً أنّ سفرهم سيكون مصحوباً بالغنائم، أعلنوا عن استعدادهم للسّفر. ويستشفّ من الآية رفض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طلبهم. وكان النّهب مبدئيّاً من

---

(١) *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ١٠٦؛ *سبل الهدىٰ والرشاد* ٥: ١٨٧.

(٢) *المغازي* ٢: ٦٣٩. وارتجز سلمة بن الأكوع بشعر مثله أيضاً. *المغازي* ٢: ٦٣٨؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٥: ١٨٢.

(٣) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٣٤٢؛ *المغازي* ٢: ٦٨٤، ٦٨٥.

(٤) *المغازي* ٢: ٦٨٩.

(٥) *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ١٠٤؛ *المغازي* ٢: ٦٣٤؛ *سبل الهدىٰ والرشاد* ٥: ١٨٠.

أُصول الحياة البدويّة للأعراب، وبغضّ النظر عن كونهم مسلمين همّوا بالخروج معهم طلباً للغنائم. ولمّا كانت نيّة الجهاد وحدها ـ أي: الحركة التحرّريّة الإسلاميّة ـ موضع اهتمام النبيّ ﷺ فقد تغاضى عن المساعدة المحتملة لهذا الصنف من الناس وحال دون مجيئهم للغنيمة، إلّا أن يأتوا بنيّة الجهاد لا غيرها.

ويمّم رسول الله ﷺ خيبراً مستعيناً بدليلين من قبيلة أشجع، غير أنّه طلب منهما أن يختارا طريقاً يجعل المسلمين في منطقة بين الشّام وخيبر.

ويعود ذلك إلىٰ أنّه ﷺ أراد أن يستقرّ بين قبيلة غطفان حليفة يهود خيبر وحصون خيبر كي لا يسمح لهم بدخول الحصون. والتقى المسلمون في الطريق بأحد جواسيس اليهود، فقال في البداية: فجاءوا [يهود خيبر] معدّين مؤيّدين بالكراع والسلاح،... وطعام كثير لو حُصروا لسنين لكفاهم، وبعثوا وراء غطفان فأتوهم. بيد أنّه اعترف بعد تحقيق أكثر أنّه ذكر ذلك بأمر اليهود ليسترهب المسلمين. وعلى العكس، فزع أهل خيبر بشدّة من مجيء المسلمين(١).

وفي سياق عدد من الأخبار أشار الواقديّ إلىٰ وجود عشرة آلاف مسلّح ليهود خيبر(٢). ولكنّه مستبعد على ما يبدو. وجدير بالذكر أنّ رسول الله ﷺ حين وصل إلىٰ خيبر كان اليهود خرجوا من حصونهم للعمل ففوجئوا بالمسلمين(٣). وهذا يدلّ على جهلهم بقدوم الجيش. وكتم رسول الله ﷺ خبر التّحرّك، وحافظ علىٰ كتمانه بدقّة. وكان يهود خيبر وعدوا الغطفانيّين بأن يعطوهم نصف تمر خيبر لسنة إذا شهدوا معهم القتال. وقيل إنّهم تأهّبوا وتقدّموا مرحلةً بعد سماعهم خبر الحملة،

---

(١) *المغازي* ٢: ٦٤٠، ٦٤١.

(٢) ذكر اليعقوبيّ عشرات الآلاف. وهو رقم لا يمكن قبوله بسهولة. *تاريخ اليعقوبيّ* ٢: ٥٦.

(٣) *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ١٠٦؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٢: ٣٢٩؛ *سبل الهدى والرشاد* ٥: ١٨٥.

لكنّهم رجعوا حين شعروا بالخطر علىٰ عوائلهم[١]. وجاء في خبر الواقديّ ـ علىٰ رواية ـ أنّ عيينة تقدّم مع جنده حتّى دخل أحد الحصون فناداه سعد بن عبادة وكلّمه وعرض عليه تمر خيبر لسنةٍ بعد الفتح كي يغادر ذلك المكان، فرفض. ووجّه رسول الله ﷺ أصحابه نحو الحصن الّذي فيه غطفان، فرُعبوا وخافوا علىٰ أهليهم فانصرفوا عن المكان[٢].

وكانت خيبر منطقة واسعة ذات نخيل لا يُحصىٰ وضمّت قلاعاً متباعدة فيما بينها يُطلق عليها الحصون[٣]. وبعضها كبير إلى درجة أنّه يسع حصوناً أصغر فيه. ويمكن أن نقول: إنّ مجموعة من الحصون قد تشكّل حصناً كبيراً. وكان «النَّطاة» اسماً يطلق علىٰ حصون ناعم، والصَّعب بن مُعاذ، والزبير[٤]. كما قيل إنّ حصن مرحب كان داخل النّطاة. والنّطاة أوّل حصن هاجمه المسلمون. ثمّ ثنّوا بمنطقة الشّقّ الّتي تشتمل علىٰ حصن أُبيّ، ونزار. وفُتح حصن الصّعب بن معاذ بوجه المسلمين بعد ثلاثة أيّام من الحصار إذ كان من الحصون المنيعة جدّاً[٥]. وكان ذا آطامٍ عدّة، أي: حصون صغيرة[٦]. والأطم يقال للبيت الكبير ذي الجُدُر المرتفعة كالحصن.

ونقل الواقديّ أخباراً كثيرة عن حصن الصعب بن معاذ، وهي تدلّ علىٰ ضخامته ووفرة غنائمه. وبعد فتح حصون النّطاة ـ ومنها حصن ناعم، وحصن الصّعب بن

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٣٣٠؛ *المغازي* ٢: ٦٠٠.

(٢) *المغازي* ٢: ٦٥١.

(٣) حصون اليهود هي: القموص، وأُبيّ، والأخبية، والبزاة، والزبير، والسلالم، والصعف، والظهار، والكتيبة، والمنزال، وناعم، والنزار، والنطاة، وجدة، وطيح.

(٤) *المغازي* ٢: ٦٤٨، ٦٥٨. ذكر الشّاميّ حصن الصّعب بقوله: حصن الصّعب بن معاذ بن نطاة؛ انظر: *سبل الهدىٰ والرشاد* ٥: ١٨٩.

(٥) *المغازي* ٢: ٦٦٠.

(٦) نفسه ٢: ٦٦٤.

مُعاذ ـ تحوّل اليهود إلىٰ حصن الزّبير. وحوصر هذا الحصن ثلاثة أيّام، ثم فُتح بمساعدة أحد اليهود. وبفتحه تكون حصون النّطاة قد فُتحت كلّها. وأمر رسول الله ﷺ بتغيير موضع العسكر[١]. وهكذا يستبين وجود مسافة بين النّطاة والشّق بحيث إنّ تغيير الموضع كان ضروريّاً.

وتلا تغيير الموضع مسير المسلمين إلى الشّقّ وفيها حصون ذات عدد. وأوّلها حصن أُبيّ. وفيه دعا بعض اليهود إلى البراز، فخرج إليهم الحباب بن المنذر وأبو دجانة وقتلاهم، وبعد ذلك هاجم المسلمون الحصن المذكور، ففرّ اليهود إلىٰ حصن النِّزار الّذي كان في الجانب الآخر من الشّقّ وأغلقوا بابه بإحكام[٢].

وذُكر هؤلاء بوصفهم «أشدّ أهل الشّقّ» إذ كانوا يقاومون بشدّة، وهزموا أخيراً بعد قتال شديد. وكان هذا الحصن آخر حصن وقع بيد المسلمين في قتالٍ. وفيه أُسرت صفيّة بنت حييّ بن أخطب، ثمّ أُطلقت وتزوّجها رسول الله ﷺ. ويعود أسر صفيّة ومن معها وحدهم في حصن النِّزار إلى أنّ اليهود كانوا أخرجوا نساءهم وذراريهم من النّطاة، ووقفوه على الحرب، ونقلوهم إلى الكتيبة بعد إخلائه تماماً. وفي غضون ذلك قام بنو الحقيق بنقل عدد من النساء والأطفال ـ وفيهم صفيّة ـ إلى النِّزار لأنّهم كانوا يخالون أنّه منيع حصين. من هنا أُسر المذكورون وحدهم[٣].

وتوجّه المسلمون إلى الكتيبة، والوطيح، والسّلالم بعد سقوط النِّزار. والحصنان الأخيران لبني الحقيق، وهما والقموص في عداد حصون الكتيبة[٤]. وحينما تأهّب المسلمون لمهاجمة الحصون المذكورة، وأيقن أهلها بالهزيمة، طلبوا الموادعة. وسلّموا كلّ شيء عندهم، وأمنوا. وعندما عُثر علىٰ أموال ابنَي أبي الحقيق ـ وهي حِلي في

---

(١) *المغازي* ٢: ٦٦٧؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٥: ١٩١ ـ ١٩٣.

(٢) *المغازي* ٢: ٦٦٨. (٣) نفسه ٢: ٦٦٩.

(٤) *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ١٠٦ [وحصون الكتيبة منها القموص، والوطيح، والسلالم]

جلد جمل ـ قُتلا، وكانا أخفيا كثيراً من أموالها، وأقسما أنّهما لا يملكان شيئاً على الرغم من طلب النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم المتكرّر وتهديدهما بسلب الأمن منهما عند العثور علىٰ أموالها. وكان هذان الابنان من زعماء اليهود الّذين جهدوا في تحريض العرب واليهود ضدّ الإسلام عدد سنين. وسُلِّم كنانة بن أبي الحقيق لمحمّد بن مسلمة ليقتله بأخيه الذي استُشهد في إحدى الحملات على الحصون[١].

وكانت غزوة خيبر مسرحاً آخر لشجاعة الإمام عليّ عليه السلام. وتجسيد الشّجاعة المذكورة هذه المرّة كان بنحوٍ تظلّ فيه فضيلة الإمام وتفوّقه ودوره الأكبر في تطوّرات عصر صدر الإسلام عالقةً في الأذهان قياساً بسائر الصحابة. وفي فتح أحد الحصون الّذي يجب أن يكون حصن النِّزار لإشارة الخبر المذكور إلىٰ أسر صفيّة بنت حييّ بن أخطب[٢] فيه ـ أمّر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبا بكر صبحاً، لكنّ الحصن المذكور لم يُفتح حتّى الليل. ثمّ دفع الراية إلىٰ عمر في ذلك اليوم، ولم يُفتح الحصن أيضاً. وفي الليلة الثالثة قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لأعطينّ الراية غداً رجلاً يُحبُّ اللهَ ورسولَه ويحبّه اللهُ ورسولُه[٣]». وفي صباح اليوم الثالث سار الإمام عليّ عليه السلام بالجيش وفتح حصن اليهود[٤].

---

(١) *المغازي* ٢: ٦٧٢. (٢) *أنساب الأشراف* ٢: ٩٤.

(٣) لم ينكر هذا الكلام النّبويّ بحقّ الإمام حتّىٰ أشدّ النّاس نصباً وعداءً له. وأُثر عن مئات الطرق الروائيّة. ونقل صاحب *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ١١٠ أنّ عمر قال بعد سماعه: فما أحببت الإمارة قبل يومئذٍ فتطاولتُ لها واستشرفتُ رجاء أن يدفعها إليّ. وجاء في نقل ابن أبي شيبة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: لأبعثنّ رجلاً ... حتّى يفتح الله له، ليس بفرّار. انظر: *المصنّف* ٧: ٣٩٦؛ لعلّ في كلامه كناية عن فرار الآخرين.

(٤) *المصنّف*، ابن أبي شيبة ٧: ٣٩٣، ٣٩٤؛ *سبل الهدىٰ والرشاد* ٥: ١٩٣، ١٩٤؛ *السيرة الحلبيّة* ٣: ٤٣؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٣٣٤. وجاء الخبر بهذا النّحو في مصادر عديدة. وفي خبر الواقديّ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دفع لواءه إلىٰ رجل من أصحابه من المهاجرين ... ثمّ دفعه إلىٰ آخر ... فذكر كلمة

⇐

ونقل ابن إسحاق عن أبي رافع أنّه كان مع عليّ عليه السلام حين اشتبك مع يهوديّ وسقط تُرسه من يده. فتناول باب الحصن فترس به عن نفسه، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتّى فتح الله عليه. قال أبو رافع: «فلقد رأيتني في نفر سبعة معي، أنا ثامنهم، نجهد على أن نقلب ذلك الباب، فما نقلبه»[١]. ومن شجاعة الإمام وبسالته في هذه الحرب قتل مرحب اليهوديّ الّذي كان من أشجع أهل خيبر. وكان خرج بعد سقوط حصن السلالم والوطيح[٢] فقتله الإمام. وعلى الرغم ممّا ذكره البعض أنّ محمّد بن مسلمة هو الّذي قتله، لكنّ مسلماً، وأحمد بن حنبل، وغيرهما، ذكروا أنّ الخبر الصحيح هو أنّ الإمام عليه السلام قتله. وكذلك نصّ عليه ابن شاكر[٣]. وقتل عليه السلام الحارث أخا مرحب أيضاً. وبعد ذلك برز عامر اليهوديّ وألحقه الإمام عليه السلام بهما أيضاً[٤]. واستشهد من المسلمين خمسة عشر[٥].

ويبدو أنّ الالتفات إلىٰ حادثتين صغيرتين، لكنّهما ذواتا قيمة، في فتح خيبر أمر مناسب. الأولىٰ: عندما هوجم حصن ناعم الّذي كان في حصن النّطاة، نهىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن القتال حتّىٰ يأذن لهم. فعمد رجلٌ من أشجع فحمل علىٰ يهوديّ، وحمل عليه مرحب فقتله. فقال الناس: يا رسول الله، استُشهد فلان. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أبعد

⇐ رجل مكان اسم أبي بكر وعمر إذ لم يصرّح باسميهما. انظر: ***المغازي*** ٢: ٦٥٣. لكنّه ذكر الإمام عليّاً عليه السلام وفتح خيبر في حديثه عن غزوة خيبر.

(١) ***السّيرة النّبويّة***، ابن هشام ٣: ٣٣٥؛ ***سبل الهدىٰ والرشاد*** ٥: ٢٠٠؛ ***عيون التواريخ*** ١: ٢٦٧.

(٢) ***سبل الهدى والرشاد*** ٥: ١٩٥، ١٩٦.

(٣) ***عيون التواريخ*** ٢: ٢٦٦، ٢٦٧؛ ***سبل الهدى والرشاد*** ٥: ١٩٧، ١٩٨. ورواية مسلم وأحمد بن حنبل هكذا أيضاً إذ ذكرا أنّ الإمام عليه السلام قتل مرحباً. انظر: ***سبل الهدى والرشاد*** ٥: ١٩٧ ـ ٢٠٠؛ وانظر ايضاً: ***الطّبقات الكبرىٰ*** ٢: ١١٢؛ ***المصنّف***، ابن أبي شيبة ٧: ٣٩٣.

(٤) ***عيون التواريخ***: ١٦٥.

(٥) ***الطّبقات الكبرىٰ*** ٢: ١٠٧؛ ***المغازي*** ٢: ٦٦٩.

ما نهيتُ عن القتال؟» فقالوا: نعم... فنادىٰ: «لا تحلّ الجنّة لعاصٍ»[١].

وجاء في خبر آخر أنّ غلاماً حبشيّاً من اليهود لحق برسول الله ﷺ أثناء الحصار، وأسلم. وكان راعياً لأغنام، وبعد إسلامه قال: إنّ غنمي هذه وديعة. فأمره رسول الله ﷺ أن يسوقها ويرجعها إلىٰ صاحبها[٢].

ولمّا وضعت الحرب أوزارها وقعت الغنائم بيد المسلمين فقُسمت بينهم وبقي خمسها لرسول الله ﷺ. ووافق يهود خيبر حسب عهدٍ معيّن أن يعملوا على الأرض ويتعاهدوا النخيل. وهكذا ظلّت المنطقة المذكورة بيد أهل خيبر، وكلِّفوا بإرسال مقدار من محصولهم إلى المدينة سنويّاً. وبعد أن أصبح نصف المحصول لليهود وفق العهد المذكور، كان بعض المسلمين يقعون في حرثهم وبقلهم، فشكوا إلىٰ رسول الله ﷺ، فجمع النّاس وقال لهم: «... وقد أمّنّاهم علىٰ دمائهم وعلىٰ أموالهم والّذي في أيديهم من أراضيهم، وعاملناهم، وإنّه لا تحلّ أموال المعاهدَين إلّا بحقّها». وكان المسلمون لا يأخذون من بقولهم شيئاً إلّا بثمنٍ[٣].

وصار حصن الكتيبة في تخميس الأموال الباقية سهماً لله، وبهذا كان مصرف أمواله في تصرّف النّبيّ ﷺ[٤]. وجعل ﷺ لبني عبد المطّلب سهماً مهمّاً من غنائم الكتيبة[٥]. ونقل الواقديّ أنّ جُبير بن مطعم، وعثمان بن عفّان جاءا رسول الله ﷺ وعتبا عليه ذلك، فقال: «إنّ بني عبد المطّلب لم يفارقوني في الجاهليّة والإسلام؛ دخلوا معنا في الشِّعب[٦]» (شعب أبي طالب).

وكانت أموال الكتيبة علىٰ تقسيم رسول الله ﷺ لبني هاشم. وبعد ذلك قرّر عمر

---

(١) *المغازي* ٢: ٦٤٩.
(٢) نفسه.
(٣) نفسه ٢: ٦٩١.
(٤) *مكاتيب الرسول* ٢: ٥٣٧.
(٥) *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ١٠٨.
(٦) *المصنّف*، ابن ابي شيبة ٧: ٣٩٣؛ *المغازي* ٢: ٦٩٦؛ *البداية والنّهاية* ٤: ٢٠٠.

أن يعطي يتاماهم من عائداتها. يقول ابن عبّاس: «فأبينا عليه إلّا أن يسلّمه كلّه»[١]. وكان بنو هاشم يرون أنّ هذه الأموال سهمهم المحتوم. وعندما سأل نجدة الخارجيّ ابن عبّاس عن الخمس، قال: نحن نرىٰ أنّ هذه الأموال حقّ لنا، لكنّ قومنا أبوا علينا ذلك وصبرنا[٢].

وكانت فدك من مراكز اليهود، ولا تبعد عن خيبر إلّا قليلاً. وتقع هذه المنطقة الّتي هي اليوم منطقة عامرة واسمها «الحائط»[٣] جنوب خيبر. وتزامناً مع غزوة خيبر، بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من يدعو أهل فدك إلى الإسلام. فمكثوا قليلاً ليروا ماذا يحلّ بخيبر. وحين عرفوا مصيرها وادعوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بلا قتال يذكر. ولمّا كانت فدك وقعت بيد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم سلماً، لم تقسّم بين المسلمين كسائر الغنائم، وأصبحت خالصةً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[٤].

وبعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم طالبت فاطمة الزهراء عليها السلام أبا بكر أن يُرجع لها فدكاً محتجّة عليه بأنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كان نحلها إيّاها بشهادة أمّ أيمن، وعليّ بن أبي طالب عليه السلام وابنَيْها عليهما السلام، فأبىٰ عليها ذلك. وظلّت هذه المشكلة قائمة بين السّلاطين والعلويّين لقرون إلىٰ أن حثّ المأمون فقهاء عصره بالإفتاء بملكيّة العلويّين لها بناءً علىٰ شهادة الأشخاص المذكورين[٥]. بيد أنّ المتوكّل استرجعها منهم بعد مدّة.

وحين انتهت غزوة خيبر عاد مهاجرو الحبشة إلى المدينة بقيادة جعفر بن أبي طالب عليه السلام بعد خمس عشرة سنة. وكانت عودتهم إليها في أعقاب كتاب كتبه

---

(١) *المغازي* ٢: ٦٩٧.

(٢) *أحكام القرآن*، الجصّاص ٣: ٧٨.

(٣) *المعالم الأثيرة*: ٢١٥.

(٤) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٣٥٣.

(٥) *تاريخ اليعقوبيّ* ٢: ٤٦٩. وذكر ياقوت الحمويّ ما جرى لفدك، وأشار إلىٰ أمر المأمون بإرجاعها إلىٰ أولاد فاطمة عليها السلام. انظر: *معجم البلدان* ٤: ٢٤٠. لمزيد الاطّلاع انظر: *فدك في التاريخ* للشّهيد الصّدر. وانظر أيضاً: *النّص والاجتهاد*: ٣٥؛ *مكاتيب الرسول* ٢: ٥٧٨ ـ ٥٨٠.

رسول الله ﷺ إلى النّجاشيّ وطلب منه فيه أن يهيّئ أسباب عودتهم. ولمّا نظر ﷺ إلى جعفر سلام الله عليه قال: «ما أدري بأيّهما أنا أسرّ، بقدوم جعفر أو فتح خيبر؟» ثمّ ضمّه رسول الله وقبّل بين عينيه[١].

وجاء عمر إلىٰ بيت بنته حفصة بعد مدّة مضت، وهناك قال لأسماء زوجة جعفر: سبقناكم إلى الهجرة. فنحن أولىٰ بالنّبيّ ﷺ. فغضبت عليه و قالت: كنتم عند النّبيّ ﷺ يُشبع جياعكم ويعلّم جهّالكم. لكنّا كنّا في أرض بعيدة، وتحمّلنا لله وللرسول. ووالله لا آكل ولا أشرب شيئاً حتّىٰ أُخبر النّبيّ ﷺ بمقالتك. وقال رسول الله ﷺ حين سمع كلامهما: هو ليس أولىٰ بي منكم. فقد هاجر هو وأصحابه هجرة واحدة. وأنتم لكم هجرتان[٢].

الحوادث بعد فتح خيبر إلىٰ فتح مكّة

أتاح صلح الحديبيّة للمسلمين فرصةً للجهاد ضدّ قبائل الحجاز، كما مهد الطّريق لتوسيع نطاق الدعوة الإسلاميّة. وذكر أرباب السِّير عدداً من السّرايا الّتي حدثت خلال الفترة الواقعة بين فتح خيبر وفتح مكّة. ومنها سريّة بشير بن سعد الّذي ذهب إلىٰ بني مرّة مع ثلاثين. وكانت هذه القبيلة تعيش قريباً من فدك. وفي البداية أفلح المسلمون في غَنْمِ شاءٍ ونَعَم، لكنّهم هوجموا في الطّريق ففرّوا إلّا بشيراً الّذي انتهىٰ إلى فدك، وبعد أيّام رجع إلى المدينة. ثمّ بعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله في مئتي رجل، فهزموا العدوّ.

---

(١) *المغازي* ٢: ٦٨٣؛ *تاريخ اليعقوبيّ* ٢: ٥٦؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ١٠٨.

(٢) *أُسد الغابة* ٥: ٣٩٦؛ *سبل الهدى والرشاد* ٥: ٢١١؛ *المعجم الكبير* ٢٤: ١٤٠. وجاء في الصفحة ١٥٣ أنّ أسماء قالت لرسول الله ﷺ إنّ قوماً يزعمون أنّا لسنا من المهاجرين. فقال: كذب ذاك، لكم هجرتان، هاجرتم إلى النجاشيّ وهاجرتم إليّ.

وفي هذه السريّة لاحق أُسامة بن زيد رجلاً، ولمّا وصل إليه قتله مع أنّه كان أظهر إسلامه. وحين سمع رسول الله صلى الله عليه وآله الخبر لامه لوماً شديداً. فقال أُسامة: أظهر إسلامه خوفاً من القتل. فقال صلى الله عليه وآله: «ألا شققت قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب؟»[١]

ومن المهمّ هنا الالتفات إلى نقطتين: الأولىٰ: إنّ كلّ كافر يشهد الشهادتين يأمن علىٰ نفسه وماله، وليس لأحد أن يمسّه بسوء. بعبارة أخرىٰ، كلّ كافر يشهد الشّهادتين يتمتّع بكلّ ما يتمتّع به المسلم من حقوق. الأُخرىٰ: وَهْم أُسامة في إفادته غير الصحيحة من هذه التجربة. فقد ذكر أنّه لن يقاتل من شهد الشهادتين. وطرح هذا الموضوع كتبريرٍ لغيابه عن غزوات أميرالمؤمنين عليّ عليه السلام مع مناوئيه. ومثل هذه النتيجة غير سديد لأنّ الله تعالىٰ يأمر في سورة الحجرات بالوقوف أمام الباغي من الطائفتين المؤمنتين ومقاتلته حتّىٰ يقبل حكم الله. وطرح سائر القاعدين استدلال أُسامة هذا[٢].

وقاد غالب بن عبد الله سريّة أُخرى تضمّ مئةً وثلاثين رجلاً لمهاجمة بني عبد بن ثعلبة. وهلك فيها جماعة من العدوّ وأصاب المسلمون فيها غنائم لهم. وكان هؤلاء يسكنون في نجد. وذكر ابن سعد أنّ الذي حصل لأسامة بن زيد كان في هذه السريّة[٣]. وقاد بشير بن سعد سريّة نحو الجناب قريباً من خيبر ووادي القرىٰ. وأُرسلت هذا السريّة إثر خبر أتىٰ به رجل من قبيلة أشجع إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله. فقد أنبأه أنّ جمعاً من غطفان يهمّون بمهاجمة المدينة مع آخرين غيرهم بتحريض من عيينة. فبعث صلى الله عليه وآله هذه السريّة المكوّنة من ثلثمائة رجل مع دليل معهم وأفلحوا في هزيمة عدد من أفراد العدوّ ونيل الغنائم منهم، لكنّهم لمّا وصلوا إلى الموضع الأصليّ للعدوّ وجدوهم قد لجأوا إلى الجبال وتفرّقوا[٤].

---

(١) *المغازي* ٢: ٧٢٣ ـ ٧٢٥.

(٢) انظر: *تاريخ تحولات دولت وخلافت* [تاريخ التطوّرات في الحكومة والخلافة] ١٤٣ ـ ١٤٦.

(٣) *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ١١٩.

(٤) نفسه ٢: ١٢٠؛ *المغازي* ٢: ٧٢٨، ٧٢٩.

عمرة القضاء

عزم رسول الله ﷺ على عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع لصدّ قريش المسلمين عن العمرة سنة ستّ. وأمر ﷺ المسلمين أن يهيّؤا مئة فرس و سلاح كثير ويسيروا. ولمّا سئل ﷺ عن حمل السّلاح مع وجود معاهدة الحديبيّة قال: «إنّا لا نُدخلها عليهم الحرم، ولكن تكون قريباً منّا، فإنْ هاجنا هيج من القوم كان السّلاح قريباً منّا»[١]. ونقل ﷺ الأسلحة قريباً من المكان المنصوبة عنده علامات الحرم. وجعل عليها مئتين يحرسونها ودخل الحرم[٢]. وحين سمع المشركون قدوم المسلمين عزموا على الذّهاب إلىٰ أعالي جبال مكّة كي لا ينظروا إلى المسلمين نظرة واحدة أيضاً[٣]. مع هذا اصطفّ عدد منهم عند دار الندوة ليروا رسول الله ﷺ[٤]. ودخل ﷺ مكّة في جمع من أصحابه في وقت كانوا يحرسونه بشدّة[٥]. وأخذ عبد الله بن رواحة بزمام ناقته وهو يقول:

خلّوا بني الكفّار عن سبيله إنّي شهدتُ أنّه رسوله
حقّاً وكلّ الخير في سبيله نحن قتلناكم علىٰ تأويله
كما ضربناكم علىٰ تنزيله ضرباً يزيل الهام عن مقيله
ويذهل الخليل عن خليله[٦]

---

(١) *المغازي* ٢: ٧٣٣؛ *سبل الهدىٰ والرشاد* ٥: ٢٨٩.

(٢) بعد أن أدّى المسلمون العمرة أُوفد مئتان مكانهم لحراسة الأسلحة. انظر: *المغازي* ٢: ٧٤٠؛ *سبل الهدى والرشاد* ٥: ٢٩٤.

(٣) *المغازي* ٢: ٧٣٤.

(٤) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٣٦٩.

(٥) *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ١٢١ [والمسلمون متوحّشون السّيوف محدقون برسول الله]

(٦) *المغازي* ٢: ٧٣٦؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ١٢١، ١٢٢. وقال الواقديّ وابن سعد: اعترض عمر علىٰ ⇐

ونقل ابن إسحاق الأبيات المذكورة باختلاف يسير. وأضاف ابن هشام أنّ قوله «نحن قتلناكم علىٰ تأويله» إلىٰ آخر الأبيات هي لعمّار بن ياسر قالها في يوم غير هذا اليوم [نحن نعلم أنّ عمّاراً أنشدها في صفّين ولم يرد ابن هشام أن يذكر ذلك]. وأضاف أيضاً أنّ دليله هو أنّ قصد ابن رواحة المشركون وهم لم يقبلوا التنزيل. ومن الطبيعيّ أنّه يقاتل على التأويل من يقبل التنزيل[1]. وجاءت الأبيات المذكورة في مصادر أخرىٰ أيضاً[2].

وذكر محقّق كتاب طبقات فحول الشعراء أنّ المقصود من التأويل «ما يؤول إليه نبأ الله» لا تأويل القرآن. وحينئذٍ لا توجيه لإشكال ابن هشام. ومن الثّابت أنّ عمّاراً قرأ الأبيات المذكورة أيضاً أمام جند معاوية في واقعة صفّين[3].

وكان المشركون يقولون: يأتي مكّة قومٌ أنهكهم حرّ يثرب، ولذا أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يهرولوا ثلاثة أشواطٍ في الطّواف ليرى المشركون قوّتهم[4].

ودخل ﷺ الكعبة بعد الطواف والسّعي إلىٰ أن أذّن بلال على سطحها. وفي تلك اللحظة قال عكرمة بن أبي جهل: لقد أكرم الله أبا الحكم حيث لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول. وأمّا سهيل بن عمرو ورجال معه، فحين سمعوا ذلك غطّوا وجوههم

⇐ قراءتها في الحرم، فقال رسول الله ﷺ: يا عمر إنّي أسمع! ووهم الترمذيّ وهماً آخر إذ ذكر أنّ الأمر يرتبط بكعب بن مالك لأنّ عبد الله بن رواحة استشهد في مؤتة غافلاً عن أنّ مؤتة كانت بعد عمرة القضاء. انظر: *سبل الهدى والرشاد* ٢: ٢٩٩.

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٣٧١، ٣٧٢.

(٢) *طبقات فحول الشعراء* ١: ٢٢٤؛ *مختصر تاريخ دمشق* ١٢: ١٥٤.

(٣) **وقعة صفّين**: ٣٤١.

(٤) *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ١٢٣؛ *سبل الهدىٰ والرشاد* ٥: ٢٩٢؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٣٧١. وقال ﷺ: رحم الله من أظهر القوّة من نفسه.

من الغيظ أو الحياء[١]. وبعد انتهاء المهلة، جاء سهيل إلى النّبيّ ﷺ وطلب منه أن يترك مكّة. وتلا ذلك أنّه ﷺ أمر أبا رافع أن يعلن الرّحيل عنها، ولا يبقىٰ فيها أحد[٢].

وبعث ﷺ أبا رافع إلىٰ مكّة قبل خروجه من المدينة ليعقد له على ميمونة[٣]. وبعد انتهاء المناسك طلب من المشركين أن يأذنوا له بصنع وليمة لهم فرفضوا وطلبوا منه أن يعجّل بالخروج من مكّة. ونقل ابن هشام عن عبيدة أنّ الآية (٢٤) من سورة الفتح نزلت في هذه العمرة الّتي أدّاها النّبيّ ﷺ[٤]. وكانت العمرة المذكورة تحقيقاً لرؤيا رآها ﷺ قبل تحرّكه من المدينة إلى الحديبيّة.

وأُرسل عدد من السّرايا إلىٰ مناطق شتّىٰ بعد عمرة القضاء. منها سريّة مؤلّفة من خمسة عشر بقيادة كعب بن عمير الغفاريّ إلىٰ منطقة «ذات أطلاح». وقيل إنّ المنطقة كانت حوالي خيبر في الجانب الآخر من وادي القرىٰ، أي: منطقة شمال الحجاز. وبالنظر إلىٰ وجود منطقة بهذا الاسم في فلسطين فقد ذهب البعض إلىٰ أنّ موضع السّريّة المذكورة كان هناك[٥]. واستشهد أفراد هذه السريّة إلّا واحداً منهم في اصطدام بعدوّ لم تُشر كتب السيرة إلىٰ هويّته[٦]. ولا بدّ أن يكون هؤلاء طلائع موقعة مؤتة بالشّام.

---

(١) ***المغازي*** ٢: ٧٣٨؛ ***سبل الهدى والرشاد*** ٥: ٢٩٤. وجاء في بعض الأخبار أنّهم لم يأذنوا بدخول الكعبة وإن كان بلال قد أذّن على سطحها مرّة.

(٢) وأمر بلالاً أيضاً أن يخبر المسلمين بالخروج من مكّة قبل غروب الشّمس، وألّا يبقىٰ فيها أحد منهم؛ ***المنتخب من ذيل المذيل***: ٥١٧.

(٣) كانت إحدىٰ أزواجه ﷺ وعمّرت حتّىٰ سنة ٦١ هـ.

(٤) ***السّيرة النّبويّة***، ابن هشام ٣: ٢٧٢، ٢٧٣. (٥) ***المعالم الأثيرة***: ٣٠.

(٦) ***الطّبقات الكبرىٰ*** ٢: ١٢٧؛ ***المغازي*** ٢: ٧٥٢، ٧٥٣؛ وانظر: ***السّيرة النّبويّة***، ابن هشام ٤: ٦٢١.

وكانت قبيلة هوازن من القبائل المتمرّدة المتآمرة ضدّ الإسلام. وبلغ عنادها مبلغاً أنّها واصلت مقاومتها حتّىٰ بعد فتح مكّة. وبعث رسول الله ﷺ في ربيع الأوّل سنة ثمان سريّة قوامها خمسة وعشرون رجلاً بقيادة شجاع بن وهب الأسديّ إلىٰ طائفة بني عامر لينزلوا بهم ضربتهم ويرجعوا، وهكذا فعلوا[1]. وكان شجاع من رسُل النّبيّ ﷺ إلىٰ الملك الغسّانيّ جبلّة بن الأيهم.

سريّة مؤتة

ذكرها الواقديّ بهذا الاسم، لكنّ ابن سعد أعطاها عنوان الغزوة في طبقاته. ولمّا كان هذا العمل العسكريّ قد قامت به قوّة قوامها ثلاثة آلاف فقد خرج من عنوان السريّة التي تعبّر عن عمل عسكريّ فدائيّ محدود. ومؤتة الآن مدينة عامرة، وكانت في شرق الأردن، وتبعد عن مدينة كرك الصغيرة أحد عشر كيلومتراً. وكانت هذه المنطقة في نطاق الشّام، والعمليّات العسكريّة فيها تعدّ أوّل خطوة قاطعة في تلك المناطق بعد ما قيل بشأن ذات أطلاح. وإلىٰ ما قبل الحديبيّة لم يستطع رسول الله ﷺ أن يخلي المدينة من قوّة عسكريّة ويرسل قوّاته إلى المناطق البعيدة إلّا في حالة واحدة أو حالتين محدودتين. لكنّه تحرّك بعدها صوب الشّمال حتّىٰ بلغ خيبراً ووادي القرىٰ بمسافة (١٦٠) كيلومتراً.

وعزم ﷺ بعد غزوة خيبر أن يذهب إلىٰ مناطق أُخرىٰ في أقصى الشّمال ويبثّ الإسلام بين القبائل العربيّة القاطنة فيها. وكانت الشّام بالغة الأهمّيّة له ﷺ إذ لم يبذل جهوده لتغلغل الإسلام فيها عبر موقعة مؤتة فحسب بل عبر تبوك أيضاً. ونُقلت أسباب محدودة لإيفاد جيش مؤتة لكنّها لا تمثّل الباعث الأساس على إرسال

---

(١) *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ١٢٧؛ *المغازي* ٢: ٧٥٣؛ *إمتاع الأسماع* ١: ٣٤٤.

مثله. وقيل في هذا المجال إنّ شُرَحْبيل بن عمرو الغسّانيّ قام بإغلاق الطّريق بوجه أحد الرّسل الذين أشخصهم النّبيّ ﷺ إلىٰ منطقة مؤتة. وهذا الرّسول هو الحارث ابن عمير الأزديّ الّذي حمل رسالة النّبيّ ﷺ إلىٰ ملك بصرىٰ. فأمر شرحبيل أن يوثق رباطاً ثمّ قدّمه فضرب عنقه. ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره. فبلغه الخبر فاشتدّ عليه وأمر بتعبئة الجيش وتحرّكه إلىٰ هناك. فعسكر ثلاثة آلاف من المسلمين في الجرف متأهّبين للذّهاب[١].

ولم يتحدّث ابن إسحاق عن سبب قيام غزوة مؤتة. أمّا الواقديّ فقد قدّم في مغازيه تفاصيل أكثر عنها. وعيّن رسول الله ﷺ ثلاثة أمراء على الجيش يحلّ أحدهم محلّ الآخر عند استشهاده. وهم جعفر بن أبي‌طالب عليه السلام، وزيد بن حارثة، وعبد الله بن رواحة. ودار خلاف حول الأوّليّة في الإمارة أكانت لجعفر أم لزيد؟ فكتب السّيرة عند أهل السّنّة تقدّم زيداً، أمّا كتب الشّيعة فتذهب إلىٰ أنّ جعفراً هو الأمير الأوّل للجيش[٢]. وقال ابن أبي الحديد مشيراً إلىٰ عقيدة الشّيعة إنّ الأبيات الّتي ذكرها له ابن إسحاق تدلّ علىٰ عقيدة الشيعة[٣]. وذكر اليعقوبيّ في البداية أنّ جعفراً كان الأمير الأوّل للجيش ثمّ أشار إلى القول الآخر أيضاً[٤]. وأورد أستاذنا العلّامة مرتضىٰ أدلّة على تقدّم جعفر علىٰ زيد في مقالة قصيرة له. منها رواية عن الإمام الصادق عليه السلام[٥]. وفي نقل عن كتاب ابن سعد قال أحد الشّهود إنّ جعفراً هو

---

(١) *المغازي* ٢: ٧٥٥، ٧٥٦؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ١٢٨؛ *إمتاع الأسماع* ١: ٣٤٥.

(٢) *المبعث والمغازي*، أبان بن عثمان الأحمر: ٩٢ ـ ٩٤.

(٣) شرح *نهج البلاغة*، ابن أبي الحديد ١٥: ٦٢.

(٤) *تاريخ اليعقوبيّ* ٢: ٦٥.

(٥) *بحار الأنوار* ٢١: ٥٥؛ *دراسات وبحوث في التاريخ والإسلام* ٢: ٢٤٠ (طبعة جديدة).

أوّل من حمل السلاح وقاتل واستشهد، ثمّ تلاه زيد[١]. ومن منظار تاريخيّ يدلّ شعر لحسان بن ثابت، وأشار إليه ابن أبي الحديد، على هذا الرأي، قال:

فلا يبعدنّ الله قتلىٰ تتابعوا ... منهم ذو الجناحين جعفر

وزيد وعبد الله حيث تتابعوا ... جميعاً وأصحاب المنيّة تخطر[٢]

وذُكر جعفر أكثر من زيد في شعر لكعب بن مالك وشاعر آخر كان في مؤتة[٣].

وخرج جيش مؤتة من ثنيّة الوداع بالمدينة في جمادى الأولىٰ سنة ثمان قاصداً الموضع المعهود، وقد شَيَّعَهُ رسول الله ﷺ. وأوصى الجند بتقوى الله، وطلب منهم أن يدعوا المشركين إلى الإسلام في البداية، فإذا أجابوا، يدعوهم إلى التحوّل من دارهم إلىٰ دار المهاجرين، وإلّا فهم كأعراب المسلمين الذين اختاروا الإسلام لكنّهم بقوا في أرضهم. ولا يكون لهم في الفيء ولا في القسمة شيء إلّا أن يجاهدوا مع المسلمين. وإن أبوا، يدعوهم إلىٰ إعطاء الجزية فإن أبوا يُقاتَلوا بعد الاستعانة بالله وإن أرادوا أن تُجعل لهم ذمّة الله وذمّة رسوله، فلا تجعل لهم، ولكن تُجعَل لهم ذمّة الشّخص الّذي يعطيهم الأمان، إذ عند نكث الأمان، تُخفر ذمّة الآمن، وذلك أفضل من أن تُخفَر ذمّة الله وذمّة رسوله. وأوصاهم ألّا يتعرّضوا لمن كان في الصّوامع، ولا للنساء، والصّغار، والشّيوخ الكبار، وألّا يقطعوا شجراً، ولا يهدموا بيتاً[٤].

وعلم العدوّ بتحرّك الجيش الإسلاميّ الّذي كان ذا حجم كبير تقريباً، إذ إنّ قوامه ثلاثة آلاف. ولبث المسلمون في وادي القرىٰ فترة، ثمّ تقدّموا بعد ذلك صوب «معان»[٥] وبلغ المسلمين إعداد هرقل جيشاً قوامه مئة ألف، وتوجيهه إليهم بقيادة

---

(١) *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ١٣٠. (٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٣٨٤.

(٣) نفسه ٤: ٣٨٨؛ وانظر: *دراسات* ... ٢: ٢٤٢.

(٤) *المغازي* ٢: ٧٥٧، ٧٥٨؛ *إمتاع الأسماع* ١: ٣٤٥، ٣٤٦.

(٥) مدينة جنوب عمّان على بعد (٢١٢) كيلومتراً عنها في الطريق الّذي يربط المدينة بعمّان. انظر: *المعالم الأثيرة*: ٢٧٥.

رجل يدعىٰ مالكاً، وهو مؤلّف من الروم[١] والقبائل العربيّة بالشّام. وغير واضح مدىٰ حقيقة هذا الخبر لاسيّما عدد أفراد الجيش، لكن علىٰ أيّ حال، ارتاب المسلمون في أمر الحرب وعزموا علىٰ مكاتبة النّبيّ ﷺ، وإذا عبد الله بن رواحة يشجّعهم علىٰ قتال العدوّ، وهو أحد قادة الجيش الثلاثة، وكان شاعراً وخطيباً بليغاً[٢]. وبدأت الحرب، واستشهد القادة الثلاثة للمسلمين في اليوم الأوّل منها. وشعر المسلمون بالهزيمة، وتراجعوا بعد استشهاد عبد الله بن رواحة[٣]. وعاد إلى المدينة ليلاً واللواء بيد خالد بن الوليد الّذي كان حديث عهد بالإسلام.

وتدلّ الأخبار جميعها على أنّ رسول الله ﷺ كان شديد الحزن علىٰ جعفر الّذي قدم المدينة من قريب بعد خمس عشرة سنة من الجهاد والبعاد[٤]. وقال ﷺ ما مضمونه: أبدله الله بيديه جناحين يطير بهما مع الملائكة في الجنّة. من هنا سمّي ذا الجناحين[٥]. ولا يُعلم لماذا استُشهد في هذه الحرب ثمانية أو عشرة على قولٍ، وقفل الباقون راجعين إلى المدينة. علماً أنّه إذا صحّت الإحصائيّة المتعلّقة بجيش العدوّ فليس للمسلمين حلّ إلّا الرجوع، مع أنّه ينبغي أن نقول: لو أنّ حرباً شاملةً

---

(١) عبّر جعفر عن جيش العدوّ بالروم وذلك في ارتجازه بمؤتة، قال:

والروم روم قد دنا عذابها   كافرة بعيدة أنسابها

(٢) ***السّيرة النّبويّة***، ابن هشام ٤: ٣٧٥؛ ***المغازي*** ٢: ٧٦٠؛ ***الطّبقات الكبرىٰ*** ٢: ١٢٩؛ ***إمتاع الأسماع*** ١: ٣٤٨.

(٣) ***المغازي*** ٢: ٧٦٣. وعندما جاءوا إلى المدينة جعل النّاس يحثون في وجوههم التراب ويقولون: يا فرّار. فقال رسول الله ﷺ: ليسوا بفرّار، ولكنّهم كرّار إن شاء الله! ***الطّبقات الكبرىٰ*** ٢: ١٢٩؛ ***إمتاع الأسماع*** ١: ٣٤٩.

(٤) حينما رأىٰ رسول الله ﷺ بكاء السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام علىٰ جعفر قال: علىٰ مثل جعفر فلتبك البواكي. ***إمتاع الأسماع*** ١: ٣٥١.

(٥) ***المبعث والمغازي***، أبان بن عثمان: ٩٤؛ ***الطّبقات الكبرىٰ*** ٢: ١٣٠؛ ***إمتاع الأسماع*** ١: ٣٥٠.

قد شُنّت يومئذٍ، وكانت الهزيمة للمسلمين فإنّ عدد شهداء المسلمين يزداد أكثر من العدد المذكور.

وإنّ استشهاد ثلاثة من الوجوه البارزة للمسلمين ترك حرقة شديدة في قلوب المسلمين، وأنشد الصّحابة الشّعراء كحسّان بن ثابت وكعب بن مالك شعراً كثيراً في مدحهم لاسيّما في مدح جعفر[١]. وبعد ذلك حين فتح المسلمون الشّام عمروا قبورهم، وهي الآن مزارات يرتادها أهل تلك الديار وغيرهم زائرين لها.

وبعد موقعة مؤتة أُوفد جيش إلىٰ ذات السلاسل بقيادة عمرو بن العاص. وليس في أيدينا معلومات دقيقة عن هذه المنطقة[٢]، إلّا ما قيل أنّها كانت في مناطق تبوك وحدود الشّام. وكانت هذه الحملة لصدّ حملة قبيلة قضاعة وبليّ. وعلى الرغم من

(١) كان حسّان من الشّعراء الّذين سجّلوا كثيراً من ذكريات صدر الإسلام شعراً. وانحاز إلىٰ عثمان بعد ذلك بيد أنّه لم يستطع أن يمحو شعره السّابق، وينكر واقعيّته في عصر النّبيّ ﷺ. وفي شعرٍ له قاله في جعفر ذكر بني هاشم ودورهم الرفيع في بزوغ شمس الإسلام (*السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٣٨٤، ٣٨٥)

وكـنّا نـرىٰ في جـعفر مـن محـمّد ... وفـاءً وأمـراً حـازماً حـين يأمـرُ
فما زال في الإسـلام مـن آل هـاشم ... دعـائم عـزّ لا يـزلن ومـفخرُ
هم جبل الإسلام والنـاس حـولهم ... رضـامٌ إلىٰ طـودٍ يـروق ويـقهرُ
بهـاليلُ مـنهم جـعفر وابـن أمّـه ... عـليّ ومـنهم أحـمد المـتخيّرُ
وحمـزة والعـبّاس مـنهم ومـنهم ... عقيل وماء العودِ من حيث يُـعصرُ
هـم أوليـاءُ الله أنـزل حـكمه ... عـليهم وفـيهم ذا الكـتاب المـطهّرُ

ونلحظ في البيت الثالث أنّه شبّه الناس حول بني هاشم بالصخور المتراكمة حول الجبل. والبهاليل جمع بهلول وهو السيّد الحسن الوجه.

وجاء بعدها شعر كعب بن مالك في مدح بني هاشم (*السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٣٨٦):

قـومٌ بهـم عـصم الإلٰـه عـبادَهُ ... وعـليهم نـزل الكـتاب المـنزَلُ
وبهـديهم رضى الإلهُ لخـلقه ... وبجـدّهم نُـصر النّـبيّ المُـرسلُ

(٢) *المعالم الأثيرة*: ١٤٢.

الخبر المتعلّق باجتماع هؤلاء وإسفاره عن إرسال جيش آخر لإسناد جيش ابن العاص، لم تقع حادثة مهمّة تُذكَر إلّا اشتباك بسيط[١].

وتحرّكت سريّة أُخرىٰ بقيادة أبي قتادة الأنصاريّ متوجّهة نحو منطقة الحَضيرة في نجد، وبعد ضربتها لغطفان وحصولها على الغنائم رجعت[٢].

وتمّ إيفاد سريّة أُخرىٰ إلىٰ منطقة «بطن إضَم» بقيادة أبي قتادة نفسه. يقول ابن سعد: وكانت هذه الحادثة قبل الإعداد لفتح مكّة، وكان رسول الله ﷺ يريد أن يُظهر أنّه يقصدها[٣]. وكان المهمّ الذي حدث فيها هو أنّ عامر بن أضبط الأشجعيّ قد مرّ على المسلمين وسلّم بتحيّتهم، فأحجم الجيش عن مهاجمته، إلّا أنّ أحد المسلمين وطمعاً منه في الغنيمة حمل عليه بذريعة كفره وقتله. فنزل قوله تعالى[٤]: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِنْ قَبلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيكُم فَتَبَيَّنُوا إِنَّ ٱللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾[٥].

وكانت شخصيّة العرب في الجاهليّة شخصيّةَ سلبٍ ونهبٍ، فمنّ الله تعالىٰ عليهم وهداهم إلى الإسلام، ورسالتهم في هذه الرؤية الجديدة الجهاد في سبيل الله والاعتقاد بهذا الأصل وهو أنّ عند الله مغانم كثيرة. ومع وجود هذه الآية، يجانب الإنصاف من يشبّه حروب صدر الإسلام بغارات العرب في الجاهليّة، كما فعل المستشرقون.

---

(١) *المغازي* ٢: ٧٦٩ ـ ٧٧١؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ١٣١.

(٢) *المغازي* ٢: ٧٧٧ ـ ٧٧٩؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ١٣٢.

(٣) *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ١٣٣.

(٤) نفسه.

(٥) النساء: ٩٤.

فتح مكّة نهاية القوّة السياسيّة للمشركين في الحجاز

لمّا نكثت قريش عهدها بعد مرور اثنين وعشرين شهراً علىٰ صلح الحديبيّة عزم رسول الله ﷺ علىٰ أن يُنهي أمر مكّة ويقوّض السّيادة السّياسيّة للشّرك. وكان لخزاعة حلف مع عبد المطّلب منذ عصر ما قبل الإسلام ممّا أدّىٰ إلىٰ توثيق أواصرهم ببني هاشم[1]، وكما مرّ بنا سابقاً كان الخزاعيّون عيون النّبيّ ﷺ في مكّة وحواليها. ومن جهة أخرىٰ كانت خزاعة علىٰ عداءٍ وخصومة مع بني بكر بن عبد مناة، ونشبت نزاعات بينهما قبل بزوغ فجر الإسلام. ثمّ انشغلوا عنها بعد مجيء الإسلام حتّىٰ حان صلح الحديبيّة. ومرّ أنّ من أُصول المعاهدة المذكورة حرّيّة القبائل في التّحالف مع أيّ طرفٍ من الطرفين، أي: قريش ورسول الله ﷺ. ولمّا كانت خزاعة حليفة بني هاشم سنين متمادية، فقد جدّدت عهدها السّابق بعد الحديبيّة، وعقدت بنو بكر حلفاً مع قريش أيضاً.

والمفهوم الواضح لمعاهدة الحديبيّة هو إذا تنازع حلفاء الجانبين فلا قريش يحقّ لها إغاثة حليفها، ولا رسول الله ﷺ، لأنّ مدلول هذا العمل هو أنّ الجانبين أنفسهما في نزاع. والتّقليد المتّبع في الحروب القبليّة هو وقوف الحليف في جبهة واحدة. ومن الطبيعيّ أنّ قريشاً أو رسول الله ﷺ لو تدخّلا في نزاع خزاعة وبني بكر، فإنّ ذلك يعني نكث معاهدة الصّلح.

ولمّا هدأت الأوضاع اعتزم طوائف من بني بكر أن يحملوا علىٰ جماعة من خزاعة. وكان رجال من قريش يشتركون في الحرب سرّاً وهم متنكّرون منتقبون ليلاً مضافاً

---

(١) ذكر الواقديّ نصّ الحلف ٢: ٧٨١. وأشار إلىٰ أنّ رسول الله ﷺ أيّده وجعله أساساً لحلفه الجديد مع خزاعة.

إلىٰ إرساهم السّلاح[١]. قالوا: إنّ من أسباب بروز فتنتهم هو أنّ أنس بن زُنيم من بني بكر هجا رسول الله ﷺ، فاعترض عليه غلام من خُزاعة، فوقع به فشجَّهُ[٢].

ونشبت الحرب بين بني بكر وخزاعة في وقت لم تكن خزاعة علىٰ علم بما جرىٰ قطّ. وبعد هجوم العدوّ توجّهت خزاعة إلى الحرم، لكنّ بني بكر لم يرعوا حرمة الحرم، فلاحقوها. وفرّت إلىٰ مكّة ونزلت في دار بديل بن ورقاء الخزاعيّ[٣]. وقُتل في هذه الحرب ثلاثة وعشرون منها[٤].

ولم يدرك سفهاء قريش تبعات الحادثة الواقعة، بيد أنّ أبا سفيان الّذي كان يعدّ عقل قريش أدرك أنّ رسول الله ﷺ لن يصفح عن هذه الحادثة. ولا جرم أنّه ﷺ كان يرتقب هذه الفرصة إذ يتسنّىٰ له بعد مضيّ قرابة عامين على المعاهدة، واعتناق جمع غفير من الناس الإسلام ـ وفيهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص اللذان كانا من الوجوه البارزة بين قريش ـ وزوال السّطوة اليهوديّة، أن يستولي علىٰ مكّة بيُسر. واعتزم أبو سفيان أن يذهب إلى المدينة قبل ذهاب خزاعة إليها ليجدّد العهد مع رسول الله ﷺ، ويثنيه عن التوجّه إلىٰ مكّة سلفاً. وكانت قريش تتوقّع أن يطالب النّبيّ ﷺ بدية خزاعة أو يطلب منها أن تَدَعَ دعم بني نفاثة ـ طائفة من بني بكر أوقدت نار الحرب مع خزاعة (وحينئذٍ ستذهب خزاعة ومحمّد ﷺ إلىٰ حرب بني نفاثة)، أو تعلن نبذها لمعاهدة الحديبيّة. وكان لكلّ اقتراحٍ معارضون. وهمّ أبو سفيان بإنكار التعاون الّذي أبدته قريش من الأساس، وآل الأمر إلىٰ تجديد عهد

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٣٩٠؛ *المغازي* ٢: ٧٨٣.

(٢) *المغازي* ٢: ٧٨٢. ولمّا بلغ رسول الله ﷺ خبرُ هجاء أنس إيّاه، أهدر دمه. فجاء المدينة وأنشد شعراً في مدح رسول الله ﷺ، وكذّب فيه أنّه هجاه قبل. *المغازي* ٢: ٧٨٩، ٧٩٠.

(٣) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٣٩٠، ٣٩١؛ *المغازي* ٢: ٧٨٣.

(٤) *المغازي* ٢: ٧٨٧.

الحديبيّة مشفوعاً بالاعتذار[١].

وتوجّه عمرو بن سالم الخزاعيّ إلى المدينة مع أربعين راكباً من خزاعة، وشكوا من قريش قبل أن يذهب إليها أبو سفيان. وقام عمرو في المسجد بين المسلمين، واستأذن رسول الله ﷺ في أن يقرأ شعراً مضمونه استغاثة حلفائهم الأقدمين، وفيه إشارة إلىٰ غارة بني بكر وقريش علىٰ خزاعة:

إنّ قُريشاً أخلفوك موعدا ونقضوا ميثاقك المؤكّدا

وأضاف أنّها بيّتتهم بالوتير هُجّداً يتلون القرآن ركّعاً وسجّداً[٢]. فقال رسول الله ﷺ وهو يجرّ طرف ردائه ـ وعائشة تقول: لم أره أشدّ غضباً من ذلك اليوم: «لا نُصرتُ إن لم أنصر بني كعب (من خزاعة)»[٣]. وهكذا اتّخذ قراره بقتال قريش. ورأىٰ أنّ نقض قريش العهد لأمر يريده الله تعالىٰ بهم. وليس قصده من ذلك إلّا فتح مكّة.

ولقي أبو سفيان في طريقه جماعة من خزاعة، وعرف أنّ خبر نقض العهد بلغ رسول الله ﷺ. فجاء المدينة وطلب منه ﷺ أن يجدّد العهد ويشدّه. فقال: «هل كان قبلكم حدث؟» فأنكر ذلك أبو سفيان. فقال ﷺ: «فنحن على مدّتنا وصلحنا يوم الحديبيّة». وبذلك لم يُبد في الحقيقة رغبةً في تجديد العهد.

والطّريف في غضون ذلك أنّ أبا سفيان ذهب إلىٰ بيت بنته أمّ حبيبة زوجة رسول الله ﷺ، فلم تأذن له أن يجلس علىٰ فراش رسول الله ﷺ قائلة له: أنت امرؤ نَجَس مشرك. ثمّ عنّفته علىٰ عبادة الأصنام، وهو يكرّر لها استدلاله القديم أنّه كيف

---

(١) نفسه ٢: ٧٨٧، ٧٨٨. وذكر الواقديّ في خبر ـ يقرّ فيه أنّ أحداً لم يقبله منه ـ أنّ رسول الله ﷺ بعث إلىٰ مكّة رجلاً ليبلغ أهلها بالاقتراحات المذكورة؛ ويبدو ـ كما أورده الواقديّ أيضاً ـ أنّ هذه الاقتراحات ظنون خالتها قريش لنفسها. وكانوا يحسبون أنّ محمّداً ﷺ يطرحها.

(٢) *المصنّف*، ابن أبي شيبة ٧: ٤٠١؛ *المغازي* ٢: ٧٨٩؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٣٩٤، ٣٩٥.

(٣) *مجمع الزّوائد* ٦: ١٦١؛ *سبل الهدىٰ والرشاد* ٥: ٣٠٩.

يترك ما كان يعبد آباؤه ويتّبع دين محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ؟[1]

ثمّ ذهب إلىٰ بيت فاطمة وطلب منها أن تجيره. فقالت عليها السلام: «ذلك إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم». فقال: مُري أحد بنيك يجيرني. قالت: «إنّهما صبيّان، وليس مثلهما يجير». فأتىٰ عليّاً عليه السلام، وقال: أجر بين الناس وكلّم محمّداً يزيد في المدّة. فقال عليه السلام: «... إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عزم ألّا يفعل، وليس أحد يستطيع أن يكلّم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في شيء يكرهه... ما أجد لك شيئاً أمثل من أن تقوم فتُجير بين الناس...» قال أبو سفيان: تُرىٰ ذلك مغنياً عنّي شيئاً؟ قال عليه السلام: «لا أظنّ ذلك». فقام بين ظَهَري النّاس فصاح: ألا إنّي قد أجرتُ بين النّاس، ولا أظنّ محمّداً يُخفرني. ثمّ جاء سعد بن عبادة وذكّره بعلاقاتهما قبل الإسلام، وطلب منه أن يُجير بين النّاس، ويزيد في المدّة بوصفه ممثّل أهل المدينة. فقال سعد: جواري في جوار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ما يُجير أحد علىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[2]. ورجع أبو سفيان إلىٰ مكّة بلا نتيجة؛ وظلّت قريش ـ وهي عاجزة عن اتّخاذ أيّ قرار ـ تنتظر خبراً جديداً، وما هو إلّا هجوم المسلمين عليها.

وأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يتجهّز النّاس للمسير، لكنّه لم يُفصح عن قصده. ويبدو أنّ عدداً من الأهداف يمكن تصوّرها لهذا السفر: السفر إلى الشّام، أو الطائف، أو هوازن، أو مكّة! وأمر صلى الله عليه وآله وسلم بمراقبة الطّرق الّتي تؤدّي إلىٰ مكّة، للحؤول دون ذهاب الأشخاص المشبوهين إليها. ويضاف إلىٰ ذلك، كما مرّ سابقاً، أنّه بعث سريّة إلىٰ «بطن إضم» ليُتَصَوَّر أنّه صلى الله عليه وآله وسلم لا يريد مكّة.

وكتب حاطب بن أبي بلتعة الّذي كان من البدريّين اتّفاقاً إلىٰ قريش يخبرها بعزم

---

(۱) *المغازي* ۲: ۷۹۲، ۷۹۳؛ *المصنّف*، ابن أبي شيبة ۷: ٤٠١؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٣٩٦؛ *سبل الهدىٰ والرشاد* ٥: ٣١٣.

(۲) *المغازي* ۲: ۷۹٤، ۷۹٥. وبشأن الذهاب إلىٰ عليّ وفاطمة عليهما السلام انظر: *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٣٩٦؛ ٥: ٣١٤.

المسلمين على التّوجّه إلىٰ مكّة. ووقع كتابه الّذي تقرّر أن تأخذه امرأة إلى مكّة بيد المسلمين. و لمّا استدعىٰ رسول الله ﷺ حاطباً وسأله عمّا حمله علىٰ ما صنع، قال إنّه ما زال علىٰ إيمانه لم يغيّر ولم يبدّل، ولكنّ أهله بمكّـة، وأراد أن يـصانع قـريشاً لأجل ذلك. فطلب عمر علىٰ عادته من رسول الله ﷺ أن يأذن له بضرب عنقه فلم يأذن له. وقيل إنّ الله تعالىٰ أنزل هذه الآيات فيه:[(١)]

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُم خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَـن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ ٱلسَّبِيلِ * إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾، ولعلّ الآية الآتية نزلت في توجيه حاطب حول أهله وعياله: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَـيْنَكُمْ وَٱللَّـهُ بِـمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[(٢)].

وأرسل رسول الله ﷺ إلىٰ أهل البادية وإلىٰ من حوله من المسلمين يقول لهم: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة. وبعث رسولاً في كلّ ناحية لتعبئة القبائل. وذكر الواقديّ فهرساً بأسماء المبعوثين[(٣)]. وعدد المسلمين المفيد لمعرفة

---

(١) **مجمع البيان** ١٠: ٢٦٩؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٣٩٩؛ **سبل الهدى والرشاد** ٥: ٣١٨، ٣١٩.
بعث رسول الله ﷺ عمّاراً، وعليّاً عليه السلام، وعمر، والمقداد، فالتمسوا الكتاب في رحلها فلم يجدوا شيئاً. فعزموا على الرجوع، فقال عليٌّ عليه السلام: إنّا نحلف بالله ما كُذب رسول الله ﷺ ولا كُذبنا. وسلّ سيفه وقال: أخرجي الكتاب. فخافت المرأة وأعطته إيّاه. واسم هذه المرأة سارة جاءت المدينة لفقرها وترمّلها بمكّة، وكان النبيّ ﷺ قد أمر بتأمين معيشتها. ونصّ كتاب حاطب: «إنّ رسول الله قد أذّن في الناس بالغزو، ولا أراه يريد غيركم، وقد أحببت أن تكون لي عندكم يد بكتابي إليكم». **المغازي** ٢: ٧٩٨.

(٢) الممتحنة: ١ ـ ٣.

(٣) **المغازي** ٢: ٧٩٩.

التركيبة الاجتماعيّة لمجتمع المدينة وغيرها من الأمور كالآتي: المهاجرون سبعمائة؛ الأنصار أربعة آلاف؛ مُزينة ألف؛ أسلم أربعمائة؛ جُهينة ثمانمائة؛ بنو كعب بن عمرو خمسمائة، وعدد آخر.

وكان قوام الجيش الإسلاميّ عشرة آلاف[١]. وحدث أن جاء المشركون لحرب المدينة في الأحزاب وهم عشرة آلاف، وقال رسول الله ﷺ بعد ذهابهم ما مضمونه: سنأتيهم بعد ذلك. فكان عدد المسلمين في فتح مكّة نفس العدد، إلّا أنّ مكة عاجزة عن أيّ مقاومة.

وتقدّم الجيش إلىٰ منطقة مرّ الظّهران علىٰ مسافة عشرات الكيلومترات عن مكّة، ولم يستبن لأحد هدفه الأصليّ بعدُ[٢]. أهوازن، أم ثقيف، أم قريش؟! وأنشد كعب ابن مالك شعراً أمام رسول الله ﷺ، وذكر في سياقه أنّهم (المسلمون) قضوا من تهامة وخيبر كلّ ريب، ثمّ أراحوا السيوف. والآن هم مستعدّون لقطع خيام ثقيف ودورها. وأراد بشعره هذا أن يسمع شيئاً من لسان النّبيّ ﷺ، لكنّه ﷺ تبسّم ولم يزد علىٰ ذلك، فما حصل كعب على شيء[٣]. وكان عيينة بن حصن الفزاريّ من رؤساء غطفان، وحضر عند النبيّ ﷺ مرّات، وحين سمع بتحرّكه قدم المدينة، فوجده قد خرج قبله. وعاد فلقيه بالطريق، فأراد أن يعرف نَواه، بيد أنّه ﷺ لم يقل شيئاً[٤].

---

(١) *المغازي* ٢: ٧٩٩ ـ ٨٠١. والتحق بنو سليم برسول الله ﷺ في القُديد وهم تسعمائة. نفسه: ٨١٢.

(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٤٠٠.

(٣) *المغازي* ٢: ٨٠٢.

قضينا من تهامة كلّ ريبٍ وخيبر ثمّ أَجْمَمْنا السّيوفا

(٤) *المغازي* ٢: ٨٠٣، ٨٠٤. وكان عيينة من البدو، بلا حياء ولا أدب. وارتدّ بعد وفاة النّبيّ ﷺ ثمّ أسلم مرّة أُخرىٰ. انظر بشأنه: *أسد الغابة* ٤: ١٦٦، ١٦٧.

ولم يحمل جند الإسلام أيّة راية حتّىٰ منطقة القُديد الّتي تبعد عن مكّة (١٢٠) كيلومتراً. ولم تكن لهم سيما عسكريّة. ثمّ رفرفت الرايات بعد ذلك، وكان لواء المهاجرين بيد عليّ بن أبي‌طالب عليه السلام[١]. وأدّىٰ غموض الهدف إلىٰ أن تتأهّب هوازن وثقيف للدفاع عن نفسها. وكانوا على اتّصال فيما بينهم[٢]. وكانت قريش، وثقيف، وهوازن في الحقيقة الفصائل المشركة الوحيدة ذات الشأن في‌الحجاز. وقريش أضعفها يومئذٍ لأنّ موقعة بدر أسقطتها، وعلى الرغم من نصرها بأُحد، لم يستقم لها عود. وليس لكبرائها ومشركيها الذين عادوا رسول الله ﷺ عدد سنين أن يخوضوا قتالاً الآن، إذ لا قوّة لهم ولا محفّز على الحرب.

وكان أبو سفيان بن الحارث حفيد عبد المطّلب إلى جانب أبي لهب شديد العداء لرسول الله ﷺ وانبرىٰ لهجاء الإسلام والمسلمين. وبلغ في محادّته حدّاً أهدر فيه النّبيّ ﷺ دمه. وما إن كاد المسلمون يصلون إلىٰ مكّة، حتّىٰ ذهب عند النّبيّ ﷺ، وعلى الرغم من إعراضه ﷺ عنه حتّىٰ حرب حنين فقد أُكره علىٰ تحمّل الوضع إلىٰ أن رضي عنه رسول الله ﷺ في نهاية المطاف[٣]. وظلّ العبّاس بن عبد المطّلب بمكّة حتىٰ ذلك الحين ثمّ التحق بالنّبيّ ﷺ بالجُحفة، مع أنّه لم يخاصمه وكان في الشعب خلال الأيّام العصيبة كسائر بني هاشم[٤]. وما قيل عنه أنّه أسلم خفيةً أمر مرفوض، إذ لم ينقل أيّ من المؤرّخين أنّه لبث هناك بأمر رسول الله ﷺ.

وإلى أن وافىٰ رسول الله ﷺ مرّ الظّهران لم تعلم قريش بهدف الجيش الإسلاميّ المتمثّل بفتح مكّة[٥]. وأمر ﷺ أن توقد النار في نقاط كثيرة. وجاء أبو سفيان،

---

(١) **مجمع الزوائد** ٦: ١٧١.

(٢) نبّه علىٰ هذا الموضوع جاسوس من هوازن وقع أسيراً بأيدي المسلمين. انظر: ***المغازي*** ٢: ٨٠٥.

(٣) نقل إسلامه بشكلين؛ انظر: **المغازي** ٢: ٨٠٧ ـ ٨١٠.

(٤) ***السيرة النّبويّة***، ابن هشام ٤: ٤٠٠.

(٥) ***سبل الهدىٰ والرشاد*** ٤: ٣٢٤.

وحكيم بن حزام، وبُديل بن ورقاء لتقصّي الأخبار. فلمّا رأوا النار خافوا وخالوا أنّ هوازن تريد مهاجمتهم. وحينما اقترب أبو سفيان أكثر، رأى الجيش ولقي العبّاس بن عبد المطّلب (أو بعث إليه، أو أُسر وأغاثه العبّاس)، فطلب منه العبّاس أن يسلم. وكان عمر واقفاً، فقال لرسول الله ﷺ علىٰ عادته: اضرب عنق عدوّ الله. فقال العبّاس لعمر: لو كان من بني عديّ لما قلت هذا[١]!

وشهد أبو سفيان بالتّوحيد بادئ الأمر، لكن لمّا طلب منه أن يشهد بالنّبوّة والرّسالة، توقّف وقال: ما زال في نفسي منها شيء، أمهلوني حتّى الغداة. وحين علا صوت الأذان في صباح تلك الليلة سأل: ما هذا؟ قالوا: وقت الصّلاة. فسأل: كم نصلّي في الليل والنهار؟ قالوا: خمس مرّات. فقال: والله كثير! ثمّ جاء رسول الله ﷺ وشهد بنبوّته.

ولمّا كانت الثّقافة الجاهليّة قد ملأت كيان أبي سفيان، ولم يزل متشرّباً فيها، فقد اعترض وقال: «جئت بأوباش الناس إلىٰ عشيرتك وأصلك»؟ فقال ﷺ: «أنت أظلم وأفجر. غدرتم بعهد الحديبيّة وظاهرتم علىٰ بني كعب بالإثم والعدوان في حرم الله وأمنه». فقال أبو سفيان:... لوكنتَ جعلتَ حدّتك ومكيدتك بهوازن... فقال ﷺ: «إنّي لأرجوا من ربّي أن يجمع ذلك لي كلّه بفتح مكّة»[٢]. وكما توقّع ﷺ فإنّ لفتح مكّة أن يجعل الحجاز في قبضة الإسلام حتّىٰ لوقامت بعض القبائل بمقاومة يسيرة.

وطلب رسول الله ﷺ من العبّاس أن يوقف أبا سفيان في مكانٍ ليرىٰ كتائب الله وعظمتها. ومرّت القبائل أمامها واحدة تلو الأُخرىٰ. والعبّاس يعرّفها لأبي سفيان،

---

(١) *مجمع الزوائد* ٦: ١٦٦.

(٢) *المغازي* ٢: ٨١٥، ٨١٦، ٨١٨. وعلىٰ ما روىٰ ابن أبي شيبة (*المصنّف* ٧: ٤٠٢) قال أبو سفيان حين شهد الصلاة ورأىٰ ركوع المسلمين وسجودهم المنظّمَين: ما رأيتُ كاليوم طاعة قوم. جمعهم من هاهنا وهاهنا ولا فارس ولا روم... بأطوع منهم له.

وهو يقول في كلٍّ منها شيئاً. ثمّ مرّ رسول الله ﷺ أمـامه ومـعه جمـع كـثير مـن المهاجرين والأنصار، فقال أبو سفيان: ما رأيت مثل هذه الكتيبة قطّ... مـا لأحـد بهذه طاقة ولا يدان. ثمّ قال: لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً! فقال العبّاس: ويحك يا أبا سفيان، ليس بملك ولكنّها نبوّة[1]. وأشرنا قبل ذلك في موقف المشركين من الإسلام إلىٰ أنّ أكابر قريش كانوا يزعمون أنّ بني هاشم بادّعائهم النّبوّة يريدون الملك. وعلى هذه النظرة كان أبو سفيان حتّىٰ تلك اللحظة، بل ما بعدها، بل حـتّىٰ آخر عمره. وهو ـ في كلّ حال ـ أظهر إسلامه وأنشد شعراً ذكر فيه أنّه شرّد بمـن هداه في الآفاق[2]. ويقصد أنّه كيف صنع بالنّبيّ، وكيف صنع النّبيّ به.

وكما مرّ فإنّ إسلام أبي سفيان كان بإصرار العبّاس قبل دخوله مكّة وكان العبّاس راغباً في أن يعجّل أبو سفيان وسائر قريش في الإسلام لتصوّره أنّ رسول الله ﷺ إذا دخل مكّة مقاتلاً فستهلك قريش إلى الأبد[3]، ويضاف إليه أنّ تجارة مكّة تفنىٰ والعبّاس نفسه يهلك أيضاً.

من جهة أُخرىٰ، دعا سهـيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل النّاس إلىٰ حرب رسول الله ﷺ، واستجاب لهما رجال من قريش، وبني بكر، بني هُذيل، وأقسموا ألّا يسمحوا له بدخول مكّة عنوةً.

وتوقّف ﷺ بذي الطوى الواقعة اليوم في نطاق مكّة، ثمّ قسّم جيشه وبعث كلّ قسم إلىٰ داخل مكّة من إحدى المناطق. وجُوبه دخول الجيش بالمقاومة في المنطقة الّتي كان يتولّىٰ خالد بن الوليد إمارتها. وأسفر اشتباك المسلمين بالمشركين عن أربعة

---

(١) *المصنّف*، ابن أبي شيبة ٧: ٣٩٩؛ *المغازي* ٢: ٨٢٢؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٤٠٤.

(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٤٠١. (٣) نفسه ٤: ٤٠٢؛ *مجمع الزوائد* ٦: ١٦٥.

وعشرين قتيلاً من قريش، وواحد من هُذيل[١]، ولاذ الآخرون بالفرار. وأمر رسول الله ﷺ أن يُعلَن بأنّ كلّ من لزم بيته أو ذهب إلى المسجد أو دخل دار أبي سفيان فهو آمن. ويهدف هذا الإعلان إلىٰ إبادة المشركين وسلب المقاومة. وحضّ أبو سفيان الناس أيضاً على الذّهاب إلىٰ بيوتهم، وترك أسلحتهم عبر صيحاته. ويمكن أن نقول: إنّ هزيمة المقاومة وشخصيّة أبي سفيان قبل فتح مكّة قد ضعضعتا أكثر من نصف الجيش.

وأهدرالنّبيّ ﷺ دم عدد محدود من المشركين والمشركات. وأمر المسلمين بقتلهم أنّىٰ كانوا، ولو متعلّقين بأستار الكعبة. وفيهم عدد من النساء. ومن الرجال: عكرمة ابن أبي جهل (عُفي عنه)، وهبّار بن الأسود (عُفي عنه)، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح (عفي عنه) وكان أسلم ثمّ ارتدّ، ومقيس بن صبابة اللّيثيّ (قُتل في فتح مكّة)، والحويرث بن النُقيذ[٢]، وعبد الله بن هلال الأدرميّ، ووحشي قاتل حمزه (عُفي عنه)، والحويرث بن الطلال الخزاعيّ (قتله الإمام عليّ عليه السلام)[٣]. ومن النساء: هند بنت عتبة ابن ربيعة وزوجة أبي سفيان (عُفي عنها)، وسارة مولاة عمرو بن هاشم، وجاريتان مغنّيتان تُدعيان قُرَيبة وقرينا (قُتلت إحداهما، وفرّت الأُخرىٰ ثمّ أُومنت)[٤] وكلتاهما لأبي الأخطل[٥]. وكان فيهم عبد الله بن الأخطل أيضاً، قُتل وهو متعلّق بأستار الكعبة. وكان من المرتدّين، وله شعر في هجاء الإسلام، وكان يعطيه جواريه ليُغَنّين

---

(١) *المغازي* ٢: ٨٢٥، ٨٢٦. وقتل من المسلمين في فتح مكّة اثنان كانا قد أخطآ طريقهما. نفسه: ٨٢٨.

(٢) قتله الإمام عليّ عليه السلام بعد تقصّيه وملاحقته. انظر: *المغازي* ٢: ٨٥٧

(٣) *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٥: ٣٤٠.

(٤) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٤١١. وكان اسم إحداهما قريبة، والأخرىٰ فَرَتنىٰ. وظلّت الثانية حيّة وأسلمت؛ انظر: *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٥: ٣٤١.

(٥) انظر: *المصنّف*، ابن أبي شيبة ٧: ٤٠٤.

به. ويمكن أن نلحظ في السّيرة النّبويّة كلّها أنّه صلى الله عليه وآله لم يغفل عن دور المرجفين من العدوّ إذ كلّما سنحت له الفرصة قتلهم. فالتّلاعب بمشاعر النّاس في تحريضهم ضدّ الحقّ أمر خطر لا يُغْتَفَر عنده صلى الله عليه وآله .

وشهدت فاطمة الزّهراء عليها السلام فتح مكّة. وحين آوت أمّ هانئ أخت الإمام عليّ عليه السلام اثنين من المشركين الأرجاس، دخل الإمام بيتها ليقتلهما، فحالت دونهما. ثمّ جاءت رسول الله صلى الله عليه وآله تستجير به، فرأت فاطمة عليها السلام، فعاتبتها علىٰ ما صنع الإمام بها. تقول أمّ هانئ: فكانت أشدّ عليّ من زوجها، وقالت لي: تجيرين المشركين؟ ولبّىٰ صلى الله عليه وآله طلبها وقال لها احتراماً: «قد أَمَّنَا من أمَّنتِ، وأجرنا من أجرتِ»[١].

ولمّا دخل صلى الله عليه وآله المسجد لأوّل مرّة كبّر، وكبّر معه المسلمون. وكان بعض المشركين يرىٰ هذا المشهد من على الجبال. وطاف صلى الله عليه وآله، ثمّ قصد الأصنام، وكانت ثلاثمائة وستّين على الكعبة وأكبرها هُبَل. وكان صلى الله عليه وآله يضربها بعصاه، ويُلقيها على الأرض[٢] وهو يتلو قوله تعالىٰ: ﴿**جَاءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَاطِلُ**﴾[٣]. وبعد دخوله الكعبة أمر بمحو صور إبراهيم، والملائكة، ومريم عليهم السلام الّتي كانت على جدرانها من الداخل[٤].

وذكر ابن أبي شيبة، والحاكم النيسابوريّ نقلاً عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال [ويومئذٍ] رفعني رسول الله صلى الله عليه وآله وأخذني قريباً من الكعبة، ثمّ قال لي: إجلس، فجلستُ. ثمّ صعد علىٰ كتفي وقال لي: قم؛ ولمّا رأىٰ ضعفي عن القيام قال: إجلس، فجلستُ، فنزل وجلس وقال لي: إصعد علىٰ كتفي فصعدتُ، وقام، وقال: ألقِ صنم قريش الكبير. وكان من النحاس ورُبط في الأرض بمسامير. وطلب منّي أن أهزّه

---

(١) *المغازي* ٢: ٨٣٠. ولم يشر ابن أبي شيبة في مصنّفه (٧: ٤٠٧) إلىٰ موقف فاطمة عليها السلام لكنّه ذكر حضورها في فتح مكّة؛ وانظر: *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٤١١.

(٢) *المصنّف*، ابن أبي شيبة ٧: ٣٩٧، ٤٠٣. (٣) الإسراء: ٨١.

(٤) *المغازي* ٢: ٨٣٤.

وألقيه على الأرض، ففعلتُ[١]! وجاء في خبر أنّه طهّر المسجد أو أزال عنه كلّ أثر من آثار الشّرك[٢]. وغسل ﷺ رأسه الشريف بماء زمزم بعد الطّواف. وكان المسلمون الذين حوله يأخذون قطرات من ذلك الماء الّذي يسيل منه و يمسحون بها أجسامهم تبرّكاً[٣].

وخطب ﷺ بمكّة. وفي سياق عدد من المواعظ والنّصائح الأخلاقيّة مع بيان بعض الأحكام الشرعيّة، وقف القسم الأصليّ من خطبته علىٰ تبيان التفاوت في الحقوق بين النّاس قبل الإسلام وبعده. وذكر أنّ على الأمّة أن تنسى الماضي وتبدأ حياة جديدة.

«ألا إنّ كلّ رباً في الجاهليّة، أو دمٍ، أو مالٍ، أو مأثُرةٍ، فهو تحت قدميّ هاتين إلّا سدانة البيت وسقاية الحاجّ. ألا وفي قتيل العصا والسّوط الخطأ شبه العمد، الدّية مغلّظة مائة ناقة، منها أربعون في بطونها أولادها. إنّ الله قد أذهب نخوة الجاهليّة وتكبّرها بآبائها. كلّكم من آدم وآدم من تراب. وأكرمكم عند الله أتقاكم. ألا إنّ الله قد حرّم مكّة يوم خلق السّماوات والأرض، فهي حرام بحرمة الله، لم تحلّ لأحدٍ قبلي، ولا تحلّ لأحدٍ كائن بعدي، ولم تحلّ لي إلّا ساعةً من النّهار».

ثمّ ذكر عدداً من الأحكام الّتي تتعلّق بالأُسرة، وقال بعد ذلك:

«المسلم أخو المسلم، والمسلمون إخوةٌ، والمسلمون يدٌ واحدةٌ على من سواهم، تتكافأ دماؤهم، يردّ عليهم أقصاهم، ويعقد عليهم أدناهم، ومشدّهم علىٰ مضعفهم»[٤].

---

(١) *المصنّف*، ابن أبي شيبة ٧: ٤٠٣، ٤٠٤؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٥: ٣٥٦، ٣٥٧. نقلاً عن الحاكم النيسابوريّ وابن أبي شيبة.

(٢) *المصنّف*، ابن أبي شيبة ٧: ٤٠٦.

(٣) نفسه: ٤٠٥.

(٤) *سبل الهدىٰ والرشاد* ٥: ٣٦٤، ٣٦٥ (تفصيلاً ومن مصادر مختلفة)؛ *المغازي* ٢: ٨٣٦؛ *المصنّف*، ابن أبي شيبة ٧: ٣٩٨؛ وانظر: *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٤١٢.

ثمّ بين عدداً آخر من الأحكام العائليّة أيضاً.

ولمّا خطب صلى الله عليه وآله طلب منه مسلم يُدعىٰ أبا شاة أن يكتب له ما قاله. فأمر صلى الله عليه وآله أن يُكتب له(١). وهذا الخبر أحد الأدلّة علىٰ جواز تدوين الحديث الّذي منعه بعضهم في صدر الإسلام، وجاء بعدهم بقليل من ناب عنهم فوضعوا أحاديث تزعم أنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله نفسه لم يأذن بتدوين الحديث!

وحين أذّن بلال علىٰ سطح الكعبة سمعته قريش من فوق الجبال وداخل البيوت، وعبّر كلٌّ منها عن أسفه. وقالت جويرية بنت أبي جهل: «قد لعمري رفع لك ذكرك! [حين قال بلال: «أشهد أنّ محمّداً رسول الله»]. أمّا الصلاة فسنُصلّي، والله لا نحبّ من قتل الأحبّة أبداً». وقال الحارث بن هشام: «وا ثكلاه! ليتني متّ قبل هذا اليوم ولا أسمع بلالاً ينهق فوق الكعبة»! وقال أبو سفيان: «أمّا أنا فلا أقول شيئاً. لو قلتُ شيئاً لَأَخْبَرْتهُ [رسولَ الله صلى الله عليه وآله] هذه الحصباء»(٢). وكانت التجربة أثبتت أنّ كثيراً من الكلام الّذي أسرّه المشركون والمنافقون أظهرته الآيات القرآنيّة الكريمة.

وعفا رسول الله صلى الله عليه وآله يومئذٍ عن المشركين كافّة إلّا من ذكرناهم سابقاً، ومن عُفي عنه منهم. وعُفي أيضاً عن وحشي قاتل حمزة، وهند الّتي مثّلتْ به، وعبد الله بن سعد ابن أبي سرح المرتدّ الّذي تلقّى العفو بإصرار عثمان(٣). وعُفي عن رجال مثل سهيل بن

---

(١) *المصنّف*، ابن أبي شيبة ٧: ٤٠٦. للاطّلاع على ما كُتب له موجزاً انظر: **مكاتيب الرّسول** ١: ٥٢١ عن مصادر مختلفة؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٥: ٣٦٦.

(٢) **المغازي** ٢: ٨٤٦، ٨٤٧.

(٣) **المغازي** ٢: ٨٥٥. وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يرغب في قتله. ولمّا أتىٰ به عثمان عنده للأمان، استأذنه ثلاثاً في أن يبايع، فرفض صلى الله عليه وآله في الأُولَيين، وقبل في الثالثة. ثمّ التفت إلىٰ أصحابه وقال: «ما منعكم أن يقوم رجل منكم إلىٰ هذا الكلب فيقتله؟» أو قال: «الفاسق». قالوا: ألا أومأت إلينا يا رسول الله؟ فقال صلى الله عليه وآله: «إنّي لا أقتل بالإشارة». وانظر: **المغازي** ٢: ٨٥٦، ٨٥٧؛ يقول ابن هشام في سيرته ٤: ٤٠٩: ثمّ استعمله عمر، وعثمان أيضاً.

عمرو الّذي شهد حروب قريش كلّها ضدّ المسلمين، ووقف أسوأ المواقف من رسول الله ﷺ في الحديبيّة. وكان شعار النّبيّ ﷺ أمام أهل مكّة «الإسلام يَجُبُّ ما قبله»[١]. فما يُسلم أحد إلّا ويُغضىٰ عن ماضيه.

إنّ عنوان «الطلقاء» الّذي يعبّر عن القرشيّين الّذين كانوا أسرى النّبيّ ﷺ إشارة إلىٰ منّته ﷺ عليهم في إطلاقهم. ومثّل العنوان المذكور سابقة سيّئة لم تبرح ملفّ المشركين المعاندين بمكّة من الذين أسلموا عام الفتح أو العام الّذي تلاه[٢]. والعنوان الآخر هو«المؤلَّفة قلوبهم» وهم الّذين قدّم لهم رسول الله ﷺ مساعدةً ماليّة لكسب مودّتهم. وهذا التعبير ينطق عن شخصيّتهم.

وكانت هند زوجة أبي سفيان ممّن أمر رسول الله ﷺ في البداية بقتلها، لكنّها قدمت مع نساء أُخريات إليه ﷺ وأسلمت. وفرّ كثير من المشركين إلى اليمن، ونجران، ونقاط أُخرىٰ، ثمّ عادوا تدريجاً وأسلموا. يقول أحدهم: فررنا خوفاً علىٰ أنفسنا حتّىٰ بلغنا أنّ التشهّد بالشّهادتين أمان لنا ولأموالنا، فرجعنا وأسلمنا[٣]. وكان عكرمة بن أبي جهل في الفارّين إلى اليمن ،وبعد مدّةٍ أسلم. وحينما جاء عند رسول الله ﷺ سأل: «إلىٰ ما تدعو يا محمّد؟» قال: «أدعوك إلىٰ أن تشهد أن لا إله إلّا الله ... وأن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة ...». فقال عكرمة: «والله ما دعوتَ إلّا إلى الحقّ وأمر حسن

---

(١) قاله ﷺ عند ما أظهر ابن الزّبعرىٰ إسلامه وهو شاعر قريش ومحرّض الناس ضدّ الإسلام. انظر: *المغازي* ٢: ٨٤٩.

(٢) انظر: *تاريخ تحوّل دولت وخلافت* [تاريخ تطوّر الحكومة والخلافة]: ١١٦، ١٣٦، ١٩٣. وأشار حسّان بن ثابت في شعره يوم الفتح إلى أنّ سيوف الأنصار أذلّت أبا سفيان وجعلته عبداً بمكّة، وجعلت بني عبد الدار إماءً. *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٤٢٦.

(٣) *الطّبقات الكبرىٰ* ٧: ١٣٨، ١٣٩.

جميل». فقال ﷺ: «... اللّهمّ اغفر له كلّ عداوة عادانيها»[١]. وفي غضون ذلك عفا ﷺ حتّىٰ عن هبّار بن الأسود الّذي كان يتغيّظ رسول الله ﷺ كلّما ذُكر عنده، وكان هبّار قد استُثنيَ من الطلقاء في فتح مكّة[٢].

ولمّا فتح رسول الله ﷺ مكّة بثّ السرايا لهدم ما تبقّىٰ من أصنام القبائل. فبعث عمرو بن العاص مع جماعة إلىٰ صنم هُذيل، سواع، فهدمه. وقال سادنه: لا تقدر علىٰ هدمه! لكنّه كسره وهدم بيت خزانته. فقال السّادن وهو يرىٰ تكسّره حادثةً مفاجئةً له: «أسلمتُ لله»[٣]. ومن الأصنام الأُخرى الّتي هدمها المبعوثون ذو الكفّين صنم قبيلة عمرو بن حُمَمَة، وصنم مناة بالمشلّل. ولم يكن بمكّة بيت إلّا وفيه صنم. فنادىٰ منادي رسول الله ﷺ: من كان يؤمن بالله وبرسوله فلا يَدَعَنَّ في بيته صنماً إلّا كسره أو حرقه[٤].

وهكذا تقوّضت القوّة السّياسيّة للشّرك، وانضوت مكّة تحت راية الإسلام بحنكة رسول الله ﷺ وحزمه بعد مقاومة دامت عقدين من الزّمن. والمصداق البارز لهذه الحنكة أنّ مكّة فُتحت بلا إراقة دمٍ، لاسيّما وأنّ ذلك قد تمّ في حادثةٍ كبرىٰ كفتح مكّة وبين عدوّين قَدُمَ عداؤهما وأُثخن بالجراح وخلّف وراءه حوادث مثل بدر وأُحد. وتحدّثت الآية القرآنيّة الّتي قيل إنّها نزلت في هذا الشأن[٥] عن الحادثة المذكورة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾[٦]. ويعلم الله تعالىٰ أنّ كفّ أيدي المسلمين عنهم مع عدائهم الشديد لهم يعود إلىٰ أنّ بينهم مسلمين يكتمون إيمانهم، وإذا ما نشبت الحرب فلعلّهم

---

(١) *المغازي* ٢: ٨٥٢؛ *سبل الهدىٰ والرشاد* ٥: ٣٧٩.

(٢) *المغازي* ٢: ٨٥٨.

(٣) نفسه ٢: ٨٧٠.

(٤) نفسه ٢: ٨٧٠، ٨٧١.

(٥) *المصنّف*، ابن أبي شيبة ٧: ٤٠٥.

(٦) الفتح: ٢٤.

يفنَون، ويرتكب المسلمون ـ غير عامدين ـ خطأً. قال سبحانه: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾(١).

ولم يُكره رسول الله ﷺ أحداً علىٰ قبول الإسلام في فتح مكّة، وكلّ من أسلم فباختياره، مع أنّ كثيراً من المشركين ذوي الماضي السّيّئ أسلموا طمعاً في الصّفح عن ماضيهم والأمن علىٰ نفوسهم. بيد أنّ لمّاً منهم ظلّوا علىٰ شركهم حتّى السّنة التّاسعة وقليل بعدها. ولم يسكن رسول الله ﷺ بيتاً خلال مكثه بمكّة بل أمضىٰ وقته في خيمة، إذ جعل خيمته في الحُجون، وكان يذهب إلى المسجد الحرام لإقامة الصّلاة(٢). ويبدو أنّ عقيلاً كان قد استولىٰ علىٰ بيته بعد هجرته ﷺ. من هنا لمّا أُريد منه أن يسكن بيته قال: وهل ترك لي عقيل بيتاً؟

ولعلّ أحد الأسباب التي دعت إلىٰ رغبته عن اللبث بمكّة والسكن في بيت من بيوتها هو لئلّا يتوهّم الأنصار أنّه تركهم. وقال لهم ذات مرّةٍ: «هاجرتُ إلى الله وإليكم، حياتي حياتكم ومماتي مماتكم»(٣). والتحق قرابة ألفين من أهل مكّة

---

(١) الفتح: ٢٥.

(٢) *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٥: ٣٤٩.

(٣) *المصنّف*، ابن أبي شيبة ٧: ٣٩٧؛ *سبل الهدىٰ والرشاد* ٥: ٣٦٩؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٤١٦. ونشير هنا بإجمال إلىٰ أنّ رسول الله ﷺ بذل قصاراه لتعزيز موقع الأنصار أمام قريش، لكنّ تحايُل قريش ـ كما كان متوقّعاً ـ غيَّرَ الأوضاع. ونُلمع هنا إلىٰ أنّ ما جاء في سياق الأخبار المرتبطة بحوادث الفتح يدلّ علىٰ محاولتين لتمييع شخصيّة سعد بن عبادة. وذلك لتمثيله الأنصار، وموقفه في السقيفة. علىٰ سبيل المثال قالوا: غضب عليه رسول الله ﷺ لكلام صدر عنه وأخذ منه الراية ودفعها إلى ابنه (*المغازي* ٢: ٨٢١، ٨٢٢) في حين ورد في خبر آخر أنّه هو الّذي دفع الرّاية إليه (*المصنّف*، ابن أبي شيبة ٧: ٣٩٩). ونقل ابن إسحاق ذلك في سيرته ٤: ٤٠٦، ٤٠٧ عن قول بعضهم. وقال: بعث

⇐

بالمسلمين إبّان الفتح. وكأنّهم جميعهم لم يكونوا مسلمين، غير أنّه كان واضحاً أنّهم سيُسلمون. ومهما كان فإسلامهم هذا ليس كإسلام ما قبل الفتح قيمةً وشأناً. وبيّن الله تعالى هذا الموضوع بصراحة وقال في كتابه الحكيم: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَـٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[1].

والسّبب في هذا التفضيل واضح أيضاً. وأدّىٰ فتح مكّة إلىٰ حرمان المسلمين الجدد من مزيّة أُخرىٰ وهي الهجرة. وفصّلنا الكلام قبل ذلك في الحديث النّبويّ القائل: «لا هجرة بعد الفتح»[2].

وكان فتح مكّة بداية النموّ التّصاعديّ للإسلام في شبه الجـزيرة العـربيّة. وكـان مستحيلاً عند العرب أن يسيطر رسول الله ﷺ علىٰ مكّة. وبدت قـريش بـقوّتها الموصوفة المشفوعة بدعم القبائل الكثيرة أنّها لا تُقهر ،بخاصّة أنّها تذرّعت بـعنوان القداسة، وكانت ترىٰ نفسها صاحبة الحرم. فعلى الله والآلهة أن يدافـعوا عـنها ولم يفعلوا طبعاً. وقيل إنّ العرب كانت تقول إبّان الفتح: انظروا! إذا غلب محمّد قريشاً فهو صادق. ويقول الناقل لهذا الكلام: حين بلغنا خبر الفتح بادرت القبائل جميعها إلى الإسلام[3]. ولمّا أراد رسول الله ﷺ من ذي الجوشن الضبابيّ أن يسلم قال: لا

⇐ رسول الله ﷺ عليّاً عليه السلام ليأخذ الراية منه. وجاء في أخبار أُخرىٰ أنّ الراية أُخذت منه ودُفـعت إلى الزبير (*سبل الهدىٰ والرّشاد* ٥: ٣٣٧). ومن الواضح أنّ اللبس يكتنف الخبر المذكور. وأعجب من هذا كلّه أنّ الجمع بين هذه الأخبار متضارب! انظر: *سبل الهدىٰ والرشاد* ٥: ٣٣٧. وبشأن المـورد الثاني انظر: *المغازي* ٢: ٨٦٦، ٨٦٧.

(١) الحديد: ١٠.

(٢) انظر: *المصنّف*، ابن أبي شيبة ٧: ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٠٩؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٥: ٣٨٩.

(٣) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٣٣٦.

أُسلم حتّىٰ يتمكّن الإسلام من الكعبة[١]. وجاءت قبيلة بني عبد بن عديّ عند رسول الله ﷺ لتسلم، وذلك قبل الفتح بزمنٍ. وأعلمت رسول الله ﷺ باستعدادها للقتال إذا قاتل غير قريش إذ هي لا تقاتل قريشاً[٢]. ويذكرالمسعوديّ هذه الحقيقة بتعبير واضح يقول فيه: «فلمّا فتح رسول الله ﷺ مكّة ودانت له قريش ،انقادت له العرب إلى الإسلام»[٣]. وقيل في موضع آخر: «لا تذلّ العرب حتّىٰ يذلّ أهـل مكّـة»[٤]. ورأىٰ فضالة الّذي أسلم يوم الفتح أنّ ذلك اليوم هو يوم فناء الشّرك. وأنشد قائلاً:

لرأيتَ ديـــنَ الله أضـحىٰ بـيّناً والشّرك يغشىٰ وجـهه الأظـلامُ[٥]

وأورد ابن إسحاق بعض التوضيحات في هذا المجال[٦].

وعندما كان رسول الله ﷺ بمكّة ـ فترة تتراوح بين خمسة عشر إلىٰ عـشرين يوماً ـ أشخص خالد بن الوليد في جماعة معه إلىٰ قبيلة بـني جـذيمة يـدعوهم إلى الإسلام. وكانت هذه القبيلة تسكن في منطقة يَلَمْلَم. وحين رأوا خالداً مع جمع من المسلمين ـ ثلاثمائة وخمسين ـ اطمأنّوا معتمدين علىٰ إسلامهم وأذانهم ومسجدهم. ووقف خالد أمامهم وسألهم عن سبب حملهم للسّلاح فقالوا: نذود به المخالفين عن الإسلام. وفي خبر آخر: نذود به عدوّنا عن أنفسنا[٧]. وبعد ذلك وضعوا سلاحهم على الأرض بأمر خالد، فأسرهم وربط بعضهم ببعض. وفي تلك اللحظة دار خلاف بين المسلمين إلىٰ أن نادىٰ منادي خالد في منتصف الليل: كلٌّ يـقتل أسـيرَهُ! فـقام

---

(١) مجمع الزوائد ٦: ١٦٢؛ *سبل الهدىٰ والرشاد* ٥: ٣٩.

(٢) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٣٠٦.

(٣) *التنبيه والإشراف*: ٢٣٩.

(٤) *المصنّف*، ابن أبي شيبة ٧: ٤١٠.

(٥) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٤١٧. ونقل ابن إسحاق شعراً كثيراً في فتح مكّة بعضه جميل.

(٦) نفسه ٤: ٥٦٠.

(٧) انظر: *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ١٤٧.

رجال من بني سليم كانوا معه بقتل أسراهم، لكنّ المهاجرين والأنصار لم يطيعوه[١].
وحين وافوا مكّة قال له عمر وعبد الرحمن بن عوف: فعلتَ ذلك ثأراً لعمّك فاكه الّذي قتله بنو جذيمة في الجاهليّة[٢].

وغضب رسول الله ﷺ علىٰ خالد حين بلغه الخبر وأعرض بوجهه عنه. وكان خالد يقول: بعثني رسول الله ﷺ للحرب. وقد كذب لأنّ رسول الله ﷺ نفسه يقول: «ما أمرتُ خالداً بالقتل، إنّما أمرته بالدعاء»[٣]. يضاف إلىٰ ذلك أنّ أفراد السريّة جميعهم رأوا مسجد بني جذيمة وسمعوا أذانهم. قال رسول الله ﷺ: «اللّهمّ إنّي أبرأ إليك ممّا فعل خالد»[٤].

وغلظ عمّار علىٰ خالد في ذلك المجلس، وردّه خالد بالمثل. فقال ﷺ: «مه يا خالد! لا تقع بأبي اليقظان، فإنّه من يعاده يعاده الله، ومن يبغضه يبغضه الله...» بعد ذلك أعطى الإمام عليّاً عليه السلام مالاً لينطلق إلىٰ بني جذيمة، ويَدِيهم[٥]، ويسلّيهم. وكان خالد ذا روح عسكريّة بحتة، ولم تكن له الشّخصيّة الفكريّة الأخلاقيّة المطلوبة. وينبغي أن نتحسّس الصورة الحقيقيّة لخالد في التطوّرات الّتي تلت وفاة النّبيّ ﷺ. ولكن ذكر هذه الملاحظة ـ قبل ذلك ـ لا يخلو من ثمرةٍ، وهي أنّه قتل امرأةً عجوزاً في وقعة حُنين أيضاً، واعترض عليه النّبيّ ﷺ[٦].

---

(١) *المغازي* ٣: ٨٧٦.

(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٣٤١. وجاء فيه نزاع قريش مع بني جذيمة.

(٣) *المغازي* ٣: ٨٨٣؛ وانظر: *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ١٤٧.

(٤) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٤٢٩، ٤٣٠.

(٥) *المغازي* ٣: ٨٨١، ٨٨٢؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٤٣٠.

(٦) *المغازي* ٣: ٩١٢.

نحو حُنين

لـمّـا كان الفتح غُلبت قريش الّتي مثّلت أخطر عدوٍّ للنّبيّ ﷺ من بين الأعـداء الثلاثة الناشطين بجدٍّ. والآخران هما هوازن الّتي تأهّبت حـين بـلغها خـبر تحـرّك النّبيّ ﷺ من المدينة. وثقيف الّتي كانت مستقرّة بالطّائف. وهاتان الفرقتان عزمتا على التمرّد بعد فتح مكّة. من هنا لا بدّ للنّبيّ ﷺ من إخماد تمرّدهما قبل مـغادرته مكّة.

وكانت قيادة هوازن بيد مالك بن عوف النصريّ الّذي لم يتجاوز الثـلاثين مـن عمره، وكان متكبّراً[١]. وقد بادر إلىٰ تعبئة جيشٍ في منطقة أوطاس على الرغم من مخالفة شيوخ القبيلة وتخلّف بعض طوائفها عنه[٢]. وأمر الجند كلّهم أن يأتوا بنسائهم وأبنائهم وكذلك جمالهم وأبقارهم وأغنامهم. وباعثه علىٰ هذا العمل هو ليعلم الجميع أنّهم يذودون عن أنفسهم وأعراضهم وأموالهم[٣]. وشهـد الوقـعةَ ثـقيف، ونَـصْر، وجُشَم، وسعد بن بكر، وجماعة من بني هلال[٤]. وتوجّه رسول الله ﷺ إلىٰ حنين ومعه اثنا عشر ألفاً بعد أن خلف عتّاب بن أُسيد علىٰ مكّة[٥].

إنّ أوّل ما يلفت النظر هو كثرة المسلمين. ونقل الواقديّ، وابن سعد، والبلاذريّ أنّ أبا بكر حين نظر إلىٰ كثرتهم قال للنّبيّ ﷺ: لا نُهزم اليوم من قلّةٍ. ثمّ نزلت هذه

---

(١) قيل فيه: كان مسبلاً. وهو من يرتدي لبـاساً طـويلاً بحيث يجرّه عـلى الأرض. وكـان يـفعل ذلك لغطرسته.

(٢) يقول عاتق في *معجم المعالم الجغرافيّة*: ٣٤: أوطاس مـنطقة مسطّحة في شرق مكّـة عـلىٰ مـئة وتسعين كيلومتراً عنها. ولذا لا صلة لهذا الموضع بحنين الّتي تبعد ثلاثين كيلومتراً عن مكّة علىٰ طريق الطّائف. وبالضرورة لا يمكن أن تكون أوطاس الّتي تكرّر ذكرها في أخبار وقعة حنين.

(٣) *المغازي* ٣: ٨٨٧، ٨٨٨.

(٤) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٤٣٧.

(٥) كان ابن عشرين يومئذٍ.

الآية: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ...﴾[١] وهذه الآية نزلت بعد الحرب أساساً، لكنّها تشير إلىٰ كلام أبي بكر وأمثاله[٢]. وكان عدد كبير من المسلمين حديثي عهد بالإسلام إذ أسلموا خلال العامين اللذين تلَوَا الحديبيّة. فلم تكن لهم معرفة بالمعارف الدينيّة وعمق الرؤية التوحيديّة. كما لم يكن لهم الاستعداد الكافي لأداء رسالتهم الدينيّة من الوجهة الروحيّة. والدليل علىٰ ذلك واقعة طرأت في طريق حُنين.

وكان من الأشياء المقدّسة عند المشركين في الجاهليّة شجرة يسمّونها «ذات أنواط». وتعود هذه التسمية إلىٰ أنّهم كانوا يعلّقون عليها أسلحتهم ويعكفون حولها لقداستها[٣]. وجاء في رواية الواقديّ أنّهم كانوا ينحرون عندها قرابينهم ويعكفون عليها يوماً. وإذا جاءوها وضعوا رداءهم وتوجّهوا إليها[٤].

وعندما كان المسلمون في طريق حُنين ظهرت شجرة كبيرة. يقول ناقل الحادثة: قلنا لرسول‌الله ﷺ: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فكبّر رسول الله ﷺ مرّتين وقال: «والّذي نفسي بيده قلتم كما قال قوم موسىٰ؛ ثمّ تلا قوله تعالىٰ:

---

(١) التوبة: ٢٥؛ *المغازي* ٣: ٨٨٩؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ١٥٠؛ *أنساب الأشراف* ١: ٣٦٥؛ *شرح نهج البلاغة*، ابن أبي الحديد ١٥: ١٠٦.

(٢) لم تذكر بعض الأخبار الحادّ محتواها نوعاً ما اسم القائل. ونقل عن يونس بن بكير أنّه قال: قال رجل يوم حنين: لا نُهزم اليوم من قلّةٍ. فعزّ ذلك علىٰ رسول الله ﷺ وأدّىٰ إلى الهزيمة (*سبل الهدى والرشاد* ٥: ٤٦٩). وهناك من نسب الكلام إلىٰ فتىً من الأنصار، وهناك من نسبه إلى النّبيّ ﷺ نفسه. قال الشّاميّ: الصحيح هو أنّ قائله غير رسول الله ﷺ، ونقل عن ابن إسحاق أنّ البعض قال: بعض من بني بكر قال كذا. وأيّد ابن عبد البرّ نقل الواقديّ أنّ أبا بكر هو القائل. (انظر: *سبل الهدىٰ والرشاد* ٥: ٤٦٩، ٤٧٠) وانظر: *شرح نهج البلاغة*، ابن أبي الحديد ١٥: ١٠٦.

(٣) *تاج العروس*، ذيل «نوط: ينوطون بها سلاحهم ـ أي: يُعقلون ـ ويعكفون حولها».

(٤) *المغازي* ٣: ٨٩٠، ٨٩١.

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَامُوسَى ٱجْعَلْ لَنَا إِلَٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾(١). وتدلّ هذه الواقعة علىٰ جهل بعض الصحابة بحقيقة التّوحيد الّذي هو أساس الدعوة النبويّة. وعلى الرغم من تأكيداتنا السابقة التّبرّك، نؤكّد أنّ التّبرّك بمثل ذات أنواط يقرّب المسلم من الشّرك ويرغّبه عن التّوحيد.

وكان أهل مكّة مع رسول الله ﷺ في غزوة حُنين أيضاً. وكانوا غير راغبين في غلبته، وإنّما تبعوه لينظروا لمن تكون الدائرة فيصيبون من الغنائم(٢). وكان هذا التّوجّه مشكلة مهمّة للجيش. فحسبه أن يفرّ عدد منهم تاركين القتال، وحينئذٍ ينهار الجيش كلّه.

واستقرّ جيش هوازن بقيادة مالك بن عوف في وادي حنين علىٰ بعد ثلاثين كيلومتراً عن مكّة. يقول أنس بن مالك أحد رواة الأخبار المتعلّقة بحنين: كان رجال هوازن في المقدّمة، تتلوهم إبلهم وأغنامهم، ونساؤهم فوق الإبل، وعن هذا الطريق عبّأوا عسكراً عظيماً. ويضيف أنّ وادي حنين كثير الشعاب والمضائق. واختفىٰ فيها جماعات مختلفة من هوازن. وكان المسلمون يسيرون بترتيب وتنظيم. وإذا هم بوغتوا بحملة من بين الشِعاب المذكورة. ولاذ بنو سليم بالفرار وكانوا في مقدّمة الجيش وأميرهم خالد بن الوليد(٣)، فتبعهم سائر النّاس. وكانت حملة المشركين قبل طلوع الشّمس في الساعات الأخيرة من الليل.

---

(١) الأعراف: ١٣٨؛ *المغازي* ٣: ٨٩٠، ٨٩١؛ *سبل الهدىٰ والرشاد* ٥: ٤٦٥؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٤٤٢.

(٢) *المغازي* ٣: ٨٩٤، ٨٩٥.

(٣) قتل خالد في هذه الحرب امرأةً أيضاً ممّا أثار اعتراض رسول الله ﷺ عليه. *المغازي* ٣: ٩١٢؛ *سبل الهدىٰ والرشاد* ٥: ٤٩٣. وكان فرار بني سليم الّذي يبدو أنّهم تعمّدوه نوعاً ما ـ لقرابتهم من هوازن ـ أحد المشكلات الأصليّة الّتي سبّبت فرار النّاس من الحرب. انظر: *المغازي* ٣: ٨٩٧.

يقول العبّاس بن عبد المطّلب: رأيت رسول الله ﷺ وما معه إلّا أبو سفيان بن الحارث آخذا بزمام بغلته ﷺ . ويقول: حين رأىٰ رسول الله ﷺ من الناس ما رأىٰ، قال: يا عبّاس، إصرخ: يا معاشر الأنصار، يا أصحاب السَّمُرَة[١]. فأقبلوا كأنّهم الإبل إذا حنّت إلىٰ أولادها[٢]. وكان أمل رسول الله ﷺ في أصحاب الشّجرة والأنصار لا في المسلمين الجدد الذين أسلموا بعد الحديبيّة. وجاء في الخبر المذكور أنّ العبّاس أثنىٰ علىٰ صدق الأنصار وثباتهم وصمودهم في الحرب. وكان رسول الله ﷺ نفسه ينادي: يا معشر النّاس! هلمّوا إليَّ، أنا رسول الله، أنا محمّد بن عبد الله، لا يتخلّفْ أحد عنّي[٣]. وورد في خبر آخر أنّ المسلمين انهزموا إلّا قليلاً من المهاجرين والأنصار. وممّن ثبت معه من أهل بيته عليّ عليه السلام[٤]، والعبّاس، وأبو سفيان بن الحارث، وآخرون لم يتجاوزوا ثلاثة.

ونقل ابن أبي شيبة عن الحكم بن عتيبة أنّ النّاس لمّا فرّوا في حنين، لم يبق مع النّبيّ ﷺ إلّا أربعة منهم، ثلاثة من بني هاشم، وواحد من غيرهم[٥]. وجاء في شعر العبّاس بن عبد المطّلب أيضاً قال فيه: كنّا تسعة مع رسول الله ﷺ وفرّ الباقون[٦]. وقام حارثة بن النعمان بإحصاء من فرّوا امتثالاً لأمر رسول الله ﷺ ! ويذكر أنّه نصب في حزرهم فبلغوا قرابة مئةٍ. وقيل إنّ ثلاثة وثلاثين كانوا من المهاجرين،

---

(١) شجرة كانت بيعة الرضوان تحتها.

(٢) *المغازي* ٣: ٨٩٨، ٨٩٩؛ *سبل الهدىٰ والرشاد* ٥: ٤٧٦، ٤٧٧؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٤٤٥.

(٣) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٤٤٣.

(٤) يقول أنس: وكان عليّ يومئذٍ أشدّ النّاس قتالاً بين يديه. *سبل الهدى والرشاد* ٥: ٤٧٨؛ نقلاً عن الطّبرانيّ وأبي يعلىٰ.

(٥) *سبل الهدى والرشاد* ٥: ٤٨٥.

(٦) نفسه ٥: ٥١١.

وسبعة وستّين من الأنصار[١]. ويلحظ هنا توفّر الأرضية لوضع الأخبار، إذ إنّ الطائفتين جهدتا ألّا تكونا من الفارّين.

ومهما كان فإنّ صمود تلك الثلّة، ورجوع عدد من المهاجرين والأنصار ومقاومتهم ألحق الهزيمة بهوازن. وأُسر جماعة منهم. وكانت أمّ حارث مع زوجها، فأخذت بخطام الجمل، وهي تخاطبه: تترك رسول الله ﷺ؟ وتقول هذه المرأة: فمرّ بي عمر، فقلتُ: يا عمر! ما هذا؟ قال: أمر الله![٢]

وبعد انهزام العدوّ، قام بعض المسلمين بقتل الذرّيّة، فساء رسولَ الله ﷺ ذلك العمل بشدّة. فقال بعض المسلمين: أليسوا إنّما هم أولاد المشركين؟ فقال ﷺ: «أو ليس خياركم أولاد المشركين؟ كلّ نسمةٍ تولد على الفطرة حتّىٰ يُعرب عنها لسانها، فأبواها يهوّدانها أو ينصّرانها»[٣].

وكان نصر المسلمين في حنين بعد فرارهم بتأييد ربّانيّ فحسب. وهذه ملاحظة ثبّتها الله سبحانه ووردت في الأخبار التّاريخيّة أيضاً. وكان العامل الأساس للفرار وجود منافقي مكّة وكفّارها الّذين صحبوا الجيش، وكانوا يحرّضون النّاس عليه. وطفق أبو سفيان يقول أثناء فرار النّاس: «لا تنتهي هزيمتهم دون البحر». وقال أخو صفوان لأمّه: «ألا بَطَلَ السحر اليوم». فوبّخه صفوان وهو يرىٰ أنّ ربّاً من قريش يربّيه خير له من أن يربّيه ربّ من هوازن[٤]. ومهما كان فقد غلب المسلمون، وأنشدت امرأة منهم فقالت:

---

(١) *المغازي* ٣: ٩٠٠، ٩٠١؛ *سبل الهدىٰ والرشاد* ٥: ٤٨٥.

(٢) *المغازي* ٣: ٩٠٤؛ وسأل أبو قتادة عمر حين رآه عن سبب فرار النّاس، فقال: قضاء الله. انظر: نفس المصدر: ٩٠٨؛ *سبل الهدى والرشاد* ٥: ٤٨٧. ومع وجود هذه الأخبار ذكر ابن إسحاق أنّه كان ممّن ثبتوا. انظر: *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٤٤٣.

(٣) *المغازي* ٣: ٩٠٥؛ *سبل الهدىٰ والرشاد* ٥: ٤٨٨.

(٤) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٤٤٣، ٤٤٤؛ *المغازي* ٣: ٩١٠؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٥: ٤٧٢، ٤٧٣.

غلبت خـيلُ الله خـيلَ اللاتِ   واللهُ أحَـــقُّ بـــالثّباتِ[١]

ومرّ أنّ خالد بن الوليد قتل امرأةً أيضاً. فنهىٰ رسول الله ﷺ عن قتل الأطفال، والنساء والعبيد[٢]. وبعد أن أسلم شاعر من هوازن قـال في شـعرٍ له مـضمونه أنّ هوازن قاتلت يوم حنين قتالاً شديداً فلم يبق مع رسول الله ﷺ أحد؛ وبعد ذلك جاء جبريل لإغاثة المسلمين، فأُسر جماعة منّا. ولولا جبريل، لذبّت سيوفنا عنّا[٣]. وقُتل من ثقيف الّتي كانت مع هوازن سبعون، وفرّ الباقون إلى الطائف[٤].

قال سبحانه في نصره للمسلمين يومئذٍ: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَـوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ ٱللهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَذٰلِكَ جَزَاءُ ٱلْكَافِرِينَ﴾[٥]. وقال بُجير بن زهير في شعرٍ له إنّه لولا نصر الله لانهزم المسلمون[٦]. وأحسن ما قيل في هذه الغزوة هو شعر العبّاس بن مرداس الّذي أورده ابن إسحاق مفصّلاً[٧].

ولمّا كان مشركو هوازن قد أتوا بنسائهم وأولادهم وأموالهم، فقد استولىٰ عليها المسلمون بعد فرارهم. وأُرسلت الغنائم المذكورة والأسرىٰ إلى الجعرانة لتُقسّم بـين المسلمين فيما بعد.

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٤٤٩؛ *المغازي* ٣: ٩١٢؛ *سبل الهدىٰ والرشاد* ٥: ٤٨٩.

(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٤٥٨.   (٣) نفسه ٤: ٤٧٥.

(٤) *سبل الهدىٰ والرشاد* ٥: ٤٩٢.   (٥) التوبة: ٢٥، ٢٦.

(٦) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٤٥٩؛ *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٥: ٥٠٢.

لولا الإلٰــهُ وعــبده ولّـيتم   حين استخفّ الرُّعبُ كـلَّ جـبانِ

(٧) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٤٦٠ ـ ٤٧٠؛ *سبل الهدى والرّشاد* ٥: ٥٠٣ ـ ٥٠٧. وأكثر ما أكّد هذا الشّعر هو دور بني سليم الذين شاء القدر أن يكونوا أوّل الفارّين.

حصار الطّائف

لمّا انهزم المشركون، فرّوا في مجموعات إلىٰ عدد من المناطق. فمنهم من توجّه إلىٰ داخل الطّائف وفيهم مالك بن عوف رئيس هوازن، وأكثر هؤلاء من ثـقيف الّـتي اشتركت في الحرب. ومنهم من فرّ إلى «النخلة»، وذهب جماعة إلىٰ «أوطاس» الّتي كانت معسكرهم الأوّل[١]. وبعث رسول الله ﷺ مجموعات تلاحقهم، فأسروا عدداً منهم. وتوجّه ﷺ نفسه إلى الطائف أيضاً.

وكانت الطائف من أفضل مناطق الحجاز مناخاً، وهي مواطـن ثـقيف. ولهـذه القبيلة علاقات بقريش. وهي من قبائل الحجاز المشهورة. ومنها شخصيّتان مهمّتان بعد الإسلام. أحدهما المختار الشّيعيّ، والآخر الحجّاج الأمويّ. وهذا الخندق آخر ما كان يسيطر عليه المشركون. وإن كان علىٰ أهل الطّائف أن يروا رأيهـم عـاجلاً أم آجلاً بعد فتح مكّة.

وسار المسلمون. وبنىٰ رسول الله ﷺ مسجداً في المـوضع الّذي أقام فيه صلاة الظّهر[٢]. ثمّ توجّه بهم إلى الطائف، فحاصرها. وكان ذلك في شوّال سنة ثمان. ومن وجوه ثقيف البارزة عروة بن مسعود الّذي أشار إليه مشركو مكّة وقتاً ما حين عتبوا على الله جلّ شأنه إذ لم ينزل القرآن علىٰ رجل من القريتين عظيم. وهو الّذي كـان ذهب إلى اليمن مع غيدن بن سلمة ليتعلّما المنجنيق والدّبّابات[٣].

وعمر أهل الطّائف سورهم وذخروا مِيرةً تكفيهم لسنةٍ. وأشار عبّاس بن مرداس

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٤٥٣. (٢) *المغازي* ٣: ٩٢٤.

(٣) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٤٧٨. الدّبّابات هنا هي المدرّعات الحالية. وهي آلة تُتّخذ في الحـصار كانوا يدخلون في جوفها ثمّ تُدفَع في أصل الحصن فينقبونه وهم في جوفها.

في شعر أنشده في حرب هوازن وثقيف إلىٰ ثقيف بقوله: «هم رأس العدوّ من أهل نجد»[١].

واستقرّ رسول الله ﷺ في منطقة مرتفعة خارج الطّائف، وهي الّتي بنت فيها ثقيف مسجد الطّائف[٢]. وحوصرت المدينة المذكورة أيّاماً ـ خمسة عشر أو ثمانية عشر أو تسعة عشر يوماً ـ وهاجم بعض المسلمين ذات مرّة سور الطائف متترّسين بتُرسين. واحترق التُّرسان المذكوران اللذان كانا من جلود البقر بسكك حديد محماة للمشركين، ورجع المسلمون. وأمر رسول الله ﷺ أن يُقطع عدد من أشجار العنب العائدة لثقيف وذلك لممارسة الضغط عليهم[٣]. ومن جهة أُخرىٰ نادىٰ منادي رسول الله ﷺ: أيّما عبدٍ نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حرّ. فخرج من الحصن رجال، بضعة عشر رجلاً. وبغضّ النظر عن مجيء هؤلاء، فإنّ أهل الطّائف واجهوا مشكلة جديدة داخل المدينة، إذ ما عادوا يثقون بعبيدهم[٤].

ويُستشفّ من الأوضاع بعد مضيّ خمسة عشر يوماً أن بقاء الجيش هنا لا يُجدي كثيراً، لأنّه كما قال نوفل بن معاوية للنبيّ ﷺ واصفاً ثقيفاً بأنّها ثعلب في جُحر، إن أقمتَ عليه أخذته؛ وإن تركته لم يضرّك شيئاً[٥]. ولم يتسنّ لثقيف أن تظلّ في الحجاز ـ الّذي يسيطر الإسلام علىٰ جميع أرجائه ـ كقوّة عسكريّة تهاجم مكّة أو المدينة. وما عليها إلّا الاستسلام للظروف الجديدة عاجلاً أم آجلاً. وحين تحدّث بعض المسلمين بالانصراف، خالفهم جماعة، وذهب جماعة إلىٰ عمر، لكنّه قال ـ وكان قد شهد تجربة الحديبيّة ـ: «قد رأينا الحديبيّة، ودخلني في الحديبيّة من الشّكّ ما لا يعلمه إلّا الله،

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٤٦٠؛ *سبل الهدىٰ والرشاد* ٥: ٥٠٣.

(٢) *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٥: ٥٥٨.

(٣) *المغازي* ٣: ٩٢٨.

(٤) *مستدرك الوسائل* ١١: ٩٧؛ *المغازي* ٣: ٩٣١.

(٥) نفسه ٣: ٩٣٧.

وراجعتُ رسول الله ﷺ يومئذٍ بكلام ليت إنّي لم أفعل»[١]. ومهما كان فقد غادر ﷺ الطّائف، وبعد مدّة قدم إليه وفدها في المدينة، ثمّ انتشر الإسلام بين ثقيف.

وثمّة حوادث وملاحظات جديرة بالذكر أثناء حصار الطّائف. منها أنّ حكم القصاص أُجري لأوّل مرّة فيها. فقد قتل رجل من بني ليث رجلاً من هُذيل عمداً، فنفّذ رسول الله ﷺ فيه حكم القصاص . وإذا صحّ ما قيل: «فكان أوّل دمٍ أُقيد به في الإسلام»[٢]، فيستبين منه أنّ الحكم المذكور كان غير مطبّق بالمدينة قبل ذلك.

ومنها حادثة تتعلّق برجلٍ يُدعىٰ ماتعاً من موالي خالةالنّبيّ ﷺ . فقد بلغه ﷺ أنّه قال لخالد بن الوليد: «إن افتتح رسول الله ﷺ الطّائف غداً فلا تفلتنّ منك بادية بنت غيلان فهي كما قال الشاعر: «من نظر إليها استغرقت طرفه وبصره، ووجهها ليس كثير اللحم، وفي بياضه حمرةٌ». فلمّا سمع ﷺ كلامه أمر أن يُجلىٰ إلىٰ منطقة بعيدة عن المدينة. وحين شكيا الحاجة أذن لهما أن ينزلا كلّ جمعة. وظلّا هناك إلىٰ آخر خلافة عمر، ولمّا ولي عثمان رجعا[٣].

ومنها ما نقله الفَسَويّ عن عبد الرحمٰن بن عوف أنّ رسول الله ﷺ لمّا افتتح مكّة انصرف إلى الطّائف فحاصرهم تسع عشرة ليلة أو ثمان عشرة، فلم يفتحها ... فقام في الناس خطيباً فقال:

«أيّها النّاس إنّي لكم فَرَطٌ . أُوصيكم بعترتي خيراً، فإنّ موعدكم الحوض. والّذي نفسي بيده لتُقيمُنَّ الصلاة ولتُؤتُنَّ الزكاة، أو لأبعثنّ إليكم رجلاً منّي أو كنفسي فليضربنَّ أعناق مقاتلتكم وليسبينَّ ذراريكم».

قال: فرأى النّاس أنّه أبو بكر أو عمر!! فأخذ بيد عليّ رضي الله عنه، فقال: «هذا»[٤].

---

(١) *المغازي* ٣: ٩٣٦.

(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٤٨٢؛ *المغازي* ٣: ٩٢٧؛ *سبل الهدىٰ والرشاد* ٥: ٥٥٧.

(٣) *المغازي* ٣: ٩٣٣، ٩٣٤.

(٤) *المعرفة والتّاريخ* ١: ٢٨٣.

وتوجّه رسول الله ﷺ إلى الجعرانة بعد فكّ الحصار عن الطّائف. وفيها أسرىٰ حنين وغنائمها. وكان عدد الأسرىٰ قرابة ستّة آلاف من النساء والصّغار والكبار، وشملت الغنائم أربعة وعشرين ألف بعير، وعدداً لا يحصىٰ من الأغنام[1] الّتي أتت بها هوازن إلىٰ ميدان الحرب. ولمّا رأىٰ رؤساء هوازن الفارّون هذا الوضع، جاءوا رسول الله ﷺ في وفدٍ وهم يستعفونه ويطلبون منه إطلاق أسراهم. فخيّرهم بين الأموال والأسرىٰ، فاختاروا الأسرىٰ عادةً. ثمّ قال ﷺ: «أمّا ما لي ولبني عبد المطّلب فهو لكم... وإذا صلّيتُ الظّهر بالنّاس فقولوا: إنّا لنستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلىٰ رسول الله». وفعلوا ذلك بعد الصّلاة، فتنازل ﷺ عن حقّه، وكذلك فعل المهاجرون والأنصار بعده[2].

ولم يرغب في ذلك المسلمون الجدد مثل عُيينة رئيس فزارة، والأقرع بن حابس من بني تميم، وعبّاس بن مرداس من بني سليم إذ لم يتنازلوا عن حقّهم، إلّا أنّ قبائلهم تنازلت لأجل رسول الله ﷺ على الرغم منهم، فرضوا. وسأل رسول الله ﷺ عن مالك بن عوف أحد رؤساء هوازن. وحين بلغه أنّه في الطّائف قال ما مضمونه: قولوا له إن أسلم فسنعيد له أهله مع مئة من الإبل. وبعد أن أسلم قال في شعرٍ له أنّه لم يَرَ بين النّاس أحداً كمحمّد ﷺ. وجعله رسول الله ﷺ رئيس مَن كان أسلم من قومه[3].

وسار رسول الله ﷺ بعد أن التحق أسرىٰ حنين بقبائلهم. وكان النّاس يطلبون منه أن يقسّم عليهم الإبل والغنم الباقية. وألحّوا عليه كثيراً حتّىٰ سقط رداؤه من كتفه. ثمّ وقف وقال ما مضمونه: ما يحلّ لي إلّا الخمس، وكلّ من أخذ شيئاً،

---

(١) *المغازي* ٣: ٩٤٣.

(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٤٨٩؛ *المغازي* ٣: ٩٥١.

(٣) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٤٩١.

ولو صغيراً، فليردّه في مكانه[١]. وقسّم الأموال بين الناس، وجعل للمشركين أو المسلمين الجدد الّذين تمكّن الشّرك من نفوسهم سهماً خاصّاً. وعرفوا بالمؤلّفة قلوبهم. وسرد ابن إسحاق وابن سعد فهرساً بأسمائهم وهم من طوائف مختلفة. ومن هؤلاء أبو سفيان، وابناه يزيد ومعاوية، وحويطب بن عبد العزّىٰ، وعُيينة بن حصن، وحكيم بن حزام، وصفوان بن أُميّة[٢]. وسهم كلٍّ منهم مئة بعيرٍ مع مقدارٍ من الذّهب.

ولمّا أُعطي عبّاس بن مرداس أربعة أبعرة لام النبيّ ﷺ في شعرٍ أنشده. فقال ﷺ: «اقطعوا لسانه عنّي». فأعطوه مئةً من الإبل[٣]. وفي موضع آخر اعترض بعضهم عليه ﷺ أنّه أعطىٰ عيينة وأمثاله سهماً وترك جُعيل بن سُراقة فقال: «... ولكنّي تألّفتهما ليُسلما، ووكلتُ جُعيل بن سراقة إلىٰ إسلامه[٤]». وإنّ عنوان المؤلّفة قلوبهم المذكور سلفاً أُخذ من القرآن الكريم. ثمّ إنّه لم يمثّل سابقةً حسنةً لهم.

وتتطلّب طبيعة الأمور أن يعطي ﷺ الأشخاص المذكورين ما بقي تحت تصرّفه كخمس بعد تقسيم سهم المقاتلين. ولم ينصّ علىٰ ذلك أحد فيما رأيناه. ويذكر الواقديّ أنّ كل رجل بعد إحصاء النّاس أُعطي أربعاً من الإبل أو أربعين شاةً[٥]. وقيل: قام ذو الخويصرة الّذي تزعّم الخوارج في عهد أميرالمؤمنين عليّ عليه السلام وقال: اعدل يا رسول الله! فقال ﷺ: «ويلك فَمن يعدل إذا لم أعدل؟»[٦]

وتمثّلت المشكلة الأُخرىٰ بالأنصار. فقد شعروا أنّ رسول الله ﷺ اعتنىٰ بقريش

---

(١) *المغازي* ٣: ٩٤٣.

(٢) انظر: *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ١٥٢، ١٥٣.

(٣) *المغازي* ٣: ٩٤٧.

(٤) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٤٩٥، ٤٩٦؛ *المغازي* ٣: ٩٤٨.

(٥) *المغازي* ٣: ٩٤٩.

(٦) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٤٩٦، ٤٩٧. وروىٰ ابن إسحاق هذا الخبر أيضاً عن الإمام الباقر عليه السلام. وانظر: *المغازي* ٣: ٩٤٨.

أكثر منهم، وتركهم بعد عقدٍ من قتالهم وجهادهم معه. حتّىٰ إنّ حسّان بن ثابت عبّر عن هذا الشعور في شعرٍ له. وذكر فيه تعجّبه من تقديم بني سُليم بسوابقهم المعروفة علىٰ من آوى النّبيّ ﷺ ونصره وأيّده، وهم الّذين سمّاهم الله تعالى الأنصار، لأنّهم نصروا دينه في حروب متعدّدة[١]. وبلغ الأمر مبلغاً أنّ سعد بن عبادة أتى النّبيّ ﷺ مندوباً عنهم وأبلغه اعتراضهم، وذكر أنّه هو نفسه أحد قومه! فأمر بجمعهم، فاجتمعوا، ثمّ قال:

يا معشر الأنصار، مقالة بلغتني عنكم ... ألم آتكم ضلّالاً فهداكم الله، وعالةً فأغناكم الله، وأعداءً فألّف الله بين قلوبكم ... ألا تجيبوني؟

قالوا: وماذا نُجيبك يا رسول الله، ولرسول الله المنّ والفضل؟ قال:

أما والله لو شئتم قلتم فصدقتم: أتيتنا مكذَّباً فصدَّقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك!... وجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في شيء من الدنيا تألّفت به قوماً ليُسلموا، ووكلتكم إلىٰ إسلامكم. أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشّاء والبعير وترجعوا برسول الله إلىٰ رحالكم؟ والّذي نفس محمّد بيده، لولا الهجرة لكنتُ امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس شِعباً، وسلكت الأنصار شِعباً لسلكتُ شِعبَ الأنصار ... اللّهمّ ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار.

قال: فبكى القوم حتّىٰ أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا يا رسول الله حظّاً وقسماً[٢]. فقد أثّر كلامه ﷺ فيهم تأثيراً بالغاً وهدّأهم. وبعد ذلك توجّه ﷺ إلىٰ مكّة لأداء العمرة ثمّ قفل راجعاً إلى المدينة.

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٤٩٧، ٤٩٨.

(٢) نفسه ٤: ٤٩٩ ـ ٥٠٠؛ *المغازي* ٣: ٩٥٧ ـ ٩٥٨؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ١٥٤.

غزوة تبوك (رجب سنة تسع)

[منافقو المدينة في مرآة سورة التّوبة]

تقع بلاد الشام في شمال الجزيرة العربيّة، وكانت لقريش قياساً بغيرها معرفة وافية بها لتردّدها عليها. من هنا لو كان قُدِّر للإسلام أن ينتشر، فهي أوّل منطقة مقصودة، أو كحدّ أدنىٰ أقسام منها كانت تقع شمال الحجاز. ونحن نعلم أنّ اصطلاح الشّام يضمّ منطقة فسيحة تشمل اليوم سورية، والأردن، وفلسطين، ولبنان. وكانت هناك مبادرة محدودة نسبيّاً قبل تبوك تمثّلت في موقعة مؤتة الّتي لم تُثمر شيئاً. ولمّا فُتحت مكّة أصبح ضروريّاً أن يسير إليها جيش عظيم يعبّر عن حضور قاطع للحجاز الإسلاميّ فيها، بخاصّة أنّ أخبارها الّتي ينقلها بعض التّجّار الأنباط ـ الّذين يأتون المدينة بالدقيق الأبيض والزّيت ـ إلى المدينة تُنبئ عن جهود هرقلها في تعبئة جيش من القبائل العربيّة، ذلك الجيش الّذي لا بدّ من إعداده لحرب الحجاز.

وينبغي ألّا نغفل عن أنّ الشّام كانت منطقة عربيّة خاضعة لسيطرة الرومان، فالمؤمَّل منها أن تتجاوب مع حركة عربيّة تلتقي معها. وأهمّ القبائل العربيّة في الشّام لخم، وجذام، وغسّان، وعاملة[1]. مع هذا اشتهر بين المسلمين أنّ هذه الحرب هي مع «بني الأصفر»[2] والمقصود من «بني الأصفر» هم الرّوم.

وكان هذا الخبر مقلقاً نوعاً ما للمسلمين الّذين كانوا يمثّلون قوّة ضئيلة أمام جيش الشّام. فما عليهم إلّا أن يعبّئوا جيشاً عظيماً مناسباً للمواجهة ومن الطبيعيّ أنّ

---

(١) *المغازي* ٣: ٩٩٠.

(٢) *المصنّف*، ابن أبي شيبة ٧: ٤٢٣. وذُكرت وجوه مختلفة في تسميتهم بهذا الاسم، منها أنّهم أولاد صفر ابن روم بن يعصو. انظر: *تاج العروس* ١٢: ٣٣٦.

مثل هذا العمل لا يمكن أن يظلّ مخفيّاً[١]. وبعث رسول الله ﷺ مندوبين إلى مناطق مختلفة، منها مكّة كي يتهيّأ الناس لهذا السفر. وأبان عن المقصد، وطلب من المسلمين المشاركة بوصفه واجباً شرعيّاً.

وبغضّ النظر عمّا يتعلّق بقتال الروم، فإنّ غزوة تبوك كانت ـ لدواعٍ ـ اختباراً للمسلمين، وكشف نيّاتهم. ويعود ذلك إلىٰ أنّ السّفر المذكور كان في فصلٍ شديد الحرارة، وطريقٍ طويلٍ طويلٍ مع مشقّات كثيرة، وتزامن مع نضج المحاصيل، ورغبة الناس في الاستظلال[٢]. وبلغ من العُسر مبلغاً أنّ الجيش عُرف فيه بجيش العُسرة حقّاً.

ولمّا أُعلن النّفير العامّ، انبرىٰ له بعض المسلمين من ضعفاء الإيمان. ونشط المنافقون الّذين كانوا يومئذٍ أكثر من ذي قبل. وتذرّع المتذرّعون بأنواع الذّرائع للتملّص من هذه المهمّة وحاولوا استئذان رسول الله ﷺ في البقاء بالمدينة. وتحدّث القرآن الكريم في سورة التوبة عن هذه الجهود، وفصّل الكلام عن الّذين كانت قلوبهم مع النّبيّ ﷺ أو الذين كانوا يبحثون عن مناصٍ للتخلّص من مسؤوليّة هذا السّفر. ونقل الآيات المرتبطة بهذا الموضوع أفضل من كلّ إشارة تاريخيّة أُخرىٰ.

وتبدأ المطالب المتعلّقة بتبوك والنّفير العامّ فيها من الآية الثامنة والثّلاثين من السّورة المذكورة. قال تعالىٰ: **﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنْفِرُوا فِى سَبِيلِ ٱللهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَٱللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ *... ٱنفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللهِ ذٰلِكُمْ**

---

(١) يقول كعب بن مالك: «كان رسول الله ﷺ لا يغزو غزوة إلّا ورّىٰ بغيرها حتّى كانت غزوة تبوك... فجلّىٰ للنّاس أمرهم ليتأهّبوا لذلك أُهبة غزوهم». *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ١٦٧؛ *المصنّف*، ابن أبي شيبة ٧: ٤٢٢؛ *المغازي* ٣: ٩٩٠.

(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٥١٦.

خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَلٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَٱللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

تدلّ هذه الآيات على الروح المسيطرة على المسلمين في تلك الفترة التي كانت تمثّل السنين الأخيرة من حياة النّبيّ ﷺ. وأذن ﷺ لمن أراد بالبقاء إشفاقاً عليهم، فخاطبه ربّه بسبب هذا الإذن قائلاً: ﴿**عَفَا ٱللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ * لَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَٱللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ**﴾.

ورأى الله سبحانه المصلحة في بقاء أمثال هؤلاء الضعفاء الإيمان في بيوتهم، لأنّهم لو ذهبوا لأدّىٰ ذهابهم إلىٰ إضعاف معنويّة المسلمين. قال تعالىٰ في الآية السّادسة والأربعين: ﴿**وَلَوْ أَرَادُوا ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلٰكِن كَرِهَ ٱللهُ ٱنْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا مَعَ ٱلْقَاعِدِينَ *... لَقَدِ ٱبْتَغَوُا ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ ٱلأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللهِ وَهُمْ كَارِهُونَ**﴾.

وكانت معاذير بعضهم طريفة، كالجدّ بن قيس الّذي كان متموّلاً؛ فقد امتنع من الخروج، وعذره أنّه سيُفتتن بالجميلات من الرّوم ولا يصبر عنهنّ[1]. ﴿**وَمِنْهُم مَن يَقُولُ ٱئْذَن لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ**﴾. وهؤلاء وأمثالهم كانوا من منافقي المدينة، وعددهم كبير. وجاء في الآية الخمسين: ﴿**إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ**﴾.

وأخبر سبحانه أنّ هؤلاء حتّىٰ لو أنفقوا لا يُتقبّل منهم، لأنّهم كافرون بالله في

---

(١) *المغازي* ٣: ٩٩٢؛ *الاستيعاب* ١: ٢٥١؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٥١٦.

أعماق قلوبهم. ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾. وهؤلاء كانوا عادةً من المترفين في المدينة. لذا قال تعالىٰ لنبيّه: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ ٱللهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ وقال في منافقي المدينة أيضاً: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ مِنكُمْ وَلٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ * لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ * وَمِنْهُمْ مَن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾.

ونقل سبحانه في الآية الستّين من سورة التّوبة اعتراض هؤلاء المترفين الّذين أرادوا أن تُدفَع إليهم الصّدقات والزكوات أيضاً، فذكر أنّ مصرفها ﴿لِلْفُقَرَاءِ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱلْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَارِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾. وبعد ذلك تحدّث عن قيام المنافقين بإيذاء رسول الله ﷺ، ووردت آياتٌ عن الروح الّتي يحملونها.

إنّ المنافقين، في الوقت الّذي كانوا يتناجون بعضهم مع بعض، كانوا قلقين من أن تنزل فيهم آيات تخزيهم وتُخجلهم، وكان بعضهم يترصّد في «العقبة» وسط طريق تبوك ليفتك برسول الله ﷺ عند رجوعه. وأخبره جبريل عليه السلام بذلك. فبعث ﷺ مَنْ يطردهم من المكان الّذي يترصّدون فيه. وعرف حذيفة الّذي كان معه ﷺ بعضهم، كما عرّف ﷺ بعضهم الآخر أيضاً. وسأل حذيفة: ألا تقتلهم؟ فقال ﷺ ما مضمونه: أكره أن تقول العرب: إنّ محمّداً لمّا انقضت الحرب وضع يده في قتل أصحابه. ويضيف الطَبْرسيّ أنّ هذا نُقل عن الإمام الباقر عليه السلام أيضاً إلّا إنّ ما ورد فيه هو أنّهم كانوا في عسكرهم يتحدّثون عن قتل رسول الله ﷺ.

وتشير الآية الرابعة والستوّن والخامسة والستّون من سورة التوبة إلى كلامهم[١]: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوا إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ❁ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ❁ ...ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ﴾. وكان المنافقون يسخرون من الّذين كانوا ينفقون[٢]. لذا قال تعالىٰ: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُم﴾.

وتحدّثت الآية الحادية والثمانون مرّة أُخرىٰ عن الّذين تخلّفوا في تبوك، وأشارت إلىٰ أنّ معاذيرهم حرارة الجوّ: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ❁ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. ثمّ قال سبحانه في الآية الرابعة والثمانين: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُم مَاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ❁... وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَأْذَنَكَ أُولُوا ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَعَ ٱلْقَاعِدِينَ ❁ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ❁ ...وَجَاءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وأذن لبعضهم بالبقاء. وهؤلاء هم الضعفاء والمرضىٰ ومن كان غيرقادر علىٰ تأمين نفقات سفره. وفيهم من اشتدّ حزنه لعجزه عن الذّهاب. وبشأنهم قال تعالىٰ في الآية الثانية والتسعين إلى الآية الثانية بعد المئة من السورة المذكورة: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَا

---

(١) مجمع *البيان* ٥: ٤٦. وبشأن الأقوال الأُخرىٰ انظر: *المغازي* ٣: ١٠٠٤.

(٢) التوبة: ٧٩.

أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ * إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَا تَعْتَذِرُوا لَن نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ... * ... سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَاسِقِينَ * ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ ٱللهِ وَصَلَوَاتِ ٱلرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَٱلسَّابِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنْصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ * وَآخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾.

وجاء في الآية السابعة عشرة والمئة: ﴿لَقَد تَابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنْصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِن بَعْدِمَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾.

وأشارت الآية الثامنة عشرة بعد المئة إلىٰ ثلاثة من الصّحابة الّذين لا يُتَوقّع منهم التخلّف البتّة. وأحدهم كعب بن مالك شاعر الرسول ﷺ في الحروب الذي طالما افتخر بطاعته المطلقة لأوامر الرسول ﷺ ، ونقلنا شيئاً من شعره في موضعٍ من هذا الكتاب. والآخران هما مرارة بن الربيع، وهلال بن أُميّة اللذان لم يرضيا بالخروج

حتّىٰ بعد إصرار النّبيّ ﷺ. ولم يكلّمهم ﷺ بعد رجوعه عملاً بأمر الله سبحانه إذ أمره أن يعرض عنهم. كما أُمر سائر المؤمنين بالابتعاد عنهم. علماً أنّهم لم يكونوا في عداد المنافقين، بل فعلوا ما فعلوا إهمالاً لأمره ﷺ وحبّاً للدّنيا.

ولمّا عاد رسول الله ﷺ والمسلمون لجأ أولئك إلى الجبال مكرهين. وكانت عوائلهم تأخذ إليهم الطعام دون أن تتحدّث معهم إلىٰ أن قبل الله توبتهم[1] ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَاثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَا مَلْجَأَ مِنَ ٱللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ ٱللهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

والآيات الأُخرىٰ من هذه السّورة شأنها «مسجد ضرار». فعندما بنى الصحابة وبنو عمرو بن عوف مسجد قباء، وصلّىٰ فيه رسول الله ﷺ، قام بنو غنم بن عوف ببناء مسجد إلىٰ جانبه بدافع النفاق والحسد، وطلبوا منه ﷺ أن يصلّي فيه. وكان يتجهّز إلىٰ تبوك فوعدهم بالصلاة فيه بعد رجوعه، لكنّ الله سبحانه نهاه عن الصلاة في ذلك المسجد الّذي سمّاه «مسجد ضرار» وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ ٱللهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ [مسجد قباء] أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَٱللهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾. فأمر ﷺ بحرقه بعد عودته[2].

ويذكر ابن إسحاق أنّ رسول الله ﷺ أمر قبل الذّهاب إلىٰ تبوك بحرق بيت لأحد اليهود يُدعىٰ سويلم، وكان قاعدة للمنافقين[3].

---

(١) *مجمع البيان* ٥: ٧٩؛ *المغازي* ٣: ١٠٥٢، ١٠٥٣؛ *المصنّف*، ابن أبي شيبة ٧: ٤٢٣. يقول كعب: أمر رسول الله ﷺ أن «لا يكلّمنا أحد ولا يسلّم علينا أحد ولا يردّ علينا سلام» ودام هذا الوضع أربعين يوماً.

(٢) *المغازي* ٢: ١٠٤٦؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٥٣٠.

(٣) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٥١٧.

علىٰ أيّ حال، بعد تبليغ كثير تجهّز قرابة ثلاثين ألفاً إلىٰ تبوك ومعهم عشرة آلاف من الخيول[١]. وخلّف صلى الله عليه وآله عليّاً عليه السلام مكانه وخرج من المدينة. وكان واضحاً أنّ السفر إلىٰ تبوك كان طويلاً من جهة، وتخلّف منافقون كُثر في المدينة من جهة أُخرىٰ. من هنا كان ضروريّاً أن يبقىٰ فيها رجل كالإمام عليه السلام للمحافظة عليها. بيد أنّ المنافقين أرجفوا بأنّه تركه فيها رغبةً عن مصاحبته إيّاه، ممّا دفع الإمام عليه السلام إلىٰ أن يأتيه صلى الله عليه وآله ويطلب منه أن يأخذه معه، فقال صلى الله عليه وآله: «أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنّه لا نبيّ بعدي»[٢]. وهذا حديث متواتر ثابت لم يُنكره أحد من كتّاب السِّير والمحدِّثين والمؤرّخين قطّ. ويرى الشيعة أنّ هذا الحديث أحد الأدلّة علىٰ إثبات إمامة الإمام عليّ عليه السلام.

وحيثما صلّىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله في طريقه إلىٰ تبوك بُني في ذلك الموضع مسجد. وتحدّثنا قبل ذلك عن تبرّك الصّحابة بمصلّاه صلى الله عليه وآله وبناء المسجد. وذكر ابن إسحاق والواقديّ سبعة عشر مسجداً بأسمائها الّتي تعبّر عن المناطق الّتي كانت فيها الصلاة[٣].

وبقي أبوذرّ في وسط الطّريق لهزال بعيره، ثمّ لحق برسول الله صلى الله عليه وآله بعد أيّامٍ ماشياً. فقال البعض: تخلّف أبوذرّ عن العسكر لكنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال حين وافاه: «مرحباً بأبي ذرّ! يمشي وحده، ويموت وحده، ويُبعث وحده»[٤].

وضلّت في بعض المنازل ناقة النّبيّ صلى الله عليه وآله القصواء. فقال أحد المنافقين: أليس محمّد يزعم أنّه نبيّ ويخبركم عن خبر السّماء، وهو لا يدري أين ناقته؟ فقال صلى الله عليه وآله:

---

(١) *المغازي* ٢: ١٠٠٢.
(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٥١٩، ٥٢٠.
(٣) *المغازي* ٣: ٩٩٩؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٥٣١. ذكر الواقديّ خمسة عشر، وابن إسحاق سبعة عشر.
(٤) *المغازي* ٣: ١٠٠١؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٥٢٤. ونقل ابن إسحاق خبر وفاة أبي ذرّ بالربذة.

«إنّ منافقاً يقول... وإنّي والله ما أعلم إلّا ما علّمني الله، وقد دلّني عليها، وهـي في الواديّ في شعب كذا وكذا ـ الشعب أشار لهم إليه ـ حبستها شجرة بزمامها»[١]. وتدلّ هذه الحكاية علىٰ أنّ رسول الله ﷺ لم يبنِ حياته العاديّة علىٰ علم الغيب. والقول أنّه لا يعلم الغيب أي: لا يعلم شيئاً مستقلّاً عن الله، فقد ثبت وكان متيسّراً أنّ الله سبحانه علّمه شيئاً من الغيوب.

ولبث رسول الله ﷺ في تبوك عشرين يوماً. ثمّ رجع إلى المدينة بدون أن يحدث أيّ اصطدام بالعدوّ. وعندما كان ﷺ في تبوك بعث سريّة إلىٰ دومـة الجـندل[٢]. وكان عليها الأُكيدر بن عبد الملك من قبيلة كـندة، وكـان نـصرانـيّاً تـابعاً لمـلوك الغساسنة بالشام. وأفلح خالد بأخذه إلىٰ رسول الله ﷺ[٣]. وبعد ذلك كتب رسول الله ﷺ كتاباً إلىٰ أهل دومة الجندل. وهذا الكتاب كالكتب الّتي كانت تكتب لوفود القبائل ومن النّقاط الأصليّة في الكتاب أحكام الزكاة، وشموليّة ذمّة الله والرسول لمن يكتب لهم ـ ويعني ذلك دفاعه ﷺ عنهم وحفظ حرمة أرواحهم وأموالهم ـ وإقامة الصّلاة وإيتاء الزكاة[٤].

ويدلّ ظاهر الكتاب علىٰ أنّ الأُكيدر أسلم، مع خلافٍ بين المصادر في هذا الشّأن. ولو صحّ نصّ الكتاب فلا ريب في إسلام الأُكيدر، مع هذا تُشير رواية الواقديّ إلىٰ أنّه ﷺ اتّفق معه في إعطاء الجزية[٥]. ومن المحتمل أنّ الكتابين الواردين في المكاتيب

---

(١) *المغازي* ٦: ١٠١٠؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٥٢٣.

(٢) منطقة في شمال السعوديّة على مسافة (٤٥٠) كيلومتراً عن تيماء.

(٣) *المغازي* ٣: ١٠٢٧؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ١٦٦. ينصّ هذا الخبر علىٰ أنّ خالداً جاء بالأُكـيدر إلى المدينة.

(٤) في الكتاب ومصادره انظر: *مكاتيب الرسول* ٢: ٣٨٧ـ٣٩٣. وذُكر فيه الكتابان.

(٥) *المغازي* ٣: ١٠٢٧.

يعودان إلى الزّمن الّذي اعتنق فيه أهل دومة الجندل الإسلام كسائر القبائل. والعجيب أنّ الواقديّ نفسه ذكر كتاباً صُرِّح فيه بإسلامه[١].

وجاء في هذا السّفر حاكم أيلة ـ وهي اليوم من مناطق الأردن وتعرف بالعقبة ـ واسمه يُحَنّة بن رؤبة، وكان نصرانيّاً، إلىٰ رسول الله ﷺ بعد أن كتب ﷺ له كتاباً يحمل التهديد والوعيد، وعقد معه معاهدةً علىٰ إعطاء الجزية[٢]. ونقل الواقديّ نصّ هذه المعاهدة وأهمّ ما فيها هو طلبهم الأمان لسفنهم وقوافلهم التجاريّة وصرّح فيها بحلّيّة مال من يُثير الفتنة[٣].

وكتب رسول الله ﷺ لأهل جرباء، وأذرح كتاباً بأنّهم آمنون بأمان الله ورسوله، وأنّ عليهم مئة دينار في كلّ رجب[٤]. وكتب مثله لأهل مقنا الّذين كانوا يسكنون قريباً من أيلة. والطّريف في هذا الكتاب أنّه جعل واليهم منهم أو من «أهل رسول الله»[٥]. ونقل بعض المصادر أنّ رسول الله ﷺ كتب من تبوك كتاباً إلىٰ قيصر ـ الّذي كان يُحتَمل أنّه حاكم الشام ـ ودعاه إلى الإسلام أو دفع الجزية[٦]. وهكذا استطاع رسول الله ﷺ في سياق غزوة تبوك أن يقيم علاقات مع القبائل العربيّة المسيحيّة في جنوب الشّام، ويوقّع معهم معاهدات من موقع القوّة. وكان لإمكانيّة تغلغل الإسلام بين القبائل العربيّة القاطنة في تلك المناطق ممهِّدات كثيرة. إذ على

---

(١) *المغازي* ٣: ١٠٣٠.
(٢) *مكاتيب الرسول* ١: ١٦١ ـ ١٦٤.
(٣) *المغازي* ٣: ١٠٣١؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٥٢٦.
(٤) *المغازي* ٣: ١٠٣٢.
(٥) انظر في ذلك: *مكاتيب الرسول* ١: ٢٨٨ ـ ٢٩١. ووُضع كتاب نُسب إلىٰ رسول الله ﷺ في أهل مقنا أيضاً. وناقش الأُستاذ أحمدي ـ دامت إفاضاته العالية ـ أدلّة وضعه واختلاقه في صص ٢٩٢ ـ ٢٩٤ من مكاتيبه.
(٦) *الأموال* أبو عبيد: ٢٢ نقلاً عن *مكاتيب الرسول* ١: ١١٦.

الرغم من قوّة النصرانيّة فيها لعدّة قرون، فانّ العرب كانوا يرون أنفسهم خاضعين لسلطة الروم بشكل طبيعيّ. ويمكن أن يولّد هذا ردّ فعل ايجابيّ لمصلحة الإسلام في تيك الأرجاء. ونحن نعلم أيضاً أنّنا إذا استثنينا القوّة العسكريّة المتفوّقة للروم على العرب، فإنّ مقاومة المناطق المذكورة للإسلام كانت في غاية الضآلة[1].

انتشار الإسلام في شبه الجزيرة العربيّة إبّان السّنة التاسعة والعاشرة

انتشر الإسلام بين القبائل العربيّة والأعرابيّة بعد فتح مكّة بأسرع ما يكون. وأسلمت قريش سادنة الحرم، واستظلّت مكّة بظلّ الإسلام. فلا عقبة يؤبه لها بعد ذلك في طريق إسلام القبائل العربيّة. وبعث رسول الله ﷺ كتباً إلىٰ كثير من رؤساء القبائل المهمّة وأراد منهم أن يُسلموا. واستسلم آخرون كثر منهم للظروف الجديدة، واعتنقوا الإسلام عمليّاً. ونُقل عن بعضهم أنّهم لمّا رأوا وفود العرب قد أسلمت بأسرها أسلموا لئلّا يُعرفوا بأنّهم شرّ العرب[2].

وكان واضحاً أنّ مثل هذا الإسلام لم ينطلق منطلق صدقٍ قطّ، بل إنّ معظم القبائل ـ بالنظر إلى الوضع الجديد ـ لم يجد بُدّاً إلّا اعتناق الإسلام. من جانب آخر، فرّق رسول الله ﷺ بين إسلام هؤلاء، والإيمان الحقيقيّ. فهم كانوا أسلموا فحسب، ولم يعرفوا الإسلام من عمق عقولهم، بل لم يرضوه في أعماق قلوبهم[3]. وما ارتداد كثير

---

(١) ومن المفيد أيضاً الالتفات ـ كما مرّ سابقاً ـ إلى أنّ القسم الأكبر من كتب الدعوة بعثها النبيّ ﷺ إلى نصارى الشام، ومصر، والحبشة، والروم. (٢) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٣٣٨.

(٣) قال تعالىٰ في الآية (١٤) من سورة الحجرات متحدّثاً عن الأعراب الحديثي عهد بالإسلام: «قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلصَّادِقُونَ».

من القبائل بعد وفاة رسول الله ﷺ إلّا شاهد علىٰ كفر الأعراب الحديثي عهد بالإسلام. وكان العام التّاسع عام إسلام القبائل أو عام الوفود، أي: حضور مندوبي القبائل عند النّبيّ ﷺ لإعلان الإسلام. وصنّف كتّاب السِّير فهرساً بأسماء هذه الوفود. ومن المناسب أن نذكر بعضها وطريقة تعاملها مع النّبيّ ﷺ بإجمال.

كان وفد ثقيف من أهمّ الوفود المذكورة. وموطنها الطائف. ووقفت أمام الهجوم الّذي شنّه رسول الله ﷺ علىٰ مدينتهم. وبعد مضيّ شهورٍ لم يجدوا حيلةً أمامهم إلّا اعتناق الإسلام. وكانوا يشعرون أنّهم لا يستطيعون الخروج من حصنهم قدماً واحدةً ما لم يسلموا[١]، فما عليهم إلّا أن يخطّطوا في هذا المجال بأسرع ما يكون. وقبل أن يتّخذوا قراراً ما أسلم عروة بن مسعود ورجع إلى الطائف. بيد أنّهم قتلوه لأنّ الأجواء ما زالت ضدّه. وبعد تبدّل الظّروف توجّه وفد من ثقيف إلى المدينة برئاسة عبد ياليل بن عمرو. وبدأوا بالمغيرة بن شعبة الّذي كان من ثقيف، فأخذهم إلىٰ رسول الله ﷺ. وسُرَّ ﷺ بمقدمهم واحتفىٰ بهم. ونُصبت لهم خيام عند المسجد. فشهدوا صلاة الصحابة وتهجّدهم في اللّيل أيّاماً.

وبعد ذلك، عرض وفد ثقيف عدداً من الشّروط لقبول الإسلام[٢]. منها استحلال الزنا، فخالف رسول الله ﷺ هذا الشّرط بشدّة، وتلا قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا ٱلزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾[٣] ثمّ استحلال الرّبا، فتلا ﷺ الآية (٢٧٨) من سورة البقرة وأخبرهم أنّ الله سبحانه حرّمه ولا سبيل إلى استحلاله. ثمّ سألوه استحلال الخمر، فقرأ عليهم الآية (٩٠) من سورة المائدة. ثمّ استأذنوه أن يَدَعَ لهم وثنهم الرَّبَّة لا يهدمه، فأبىٰ. فكلّموه أن يدعه لهم سنتين أو ثلاث سنين، فأبىٰ. فذكروا أنّ

---

(١) **المغازي** ٣: ٩٦٢.

(٢) وهو ما ذكره سبحانه في سورة الحجرات أنّهم يمنّون علىٰ رسول الله ﷺ بإسلامهم في حين أنّ الله تعالىٰ هو الّذي يمنّ عليهم بهدايتهم.

(٣) الإسراء: ٣٢.

مشكلتهم هي سفهاؤهم ونساؤهم وصبيانهم، فإن كان لا بدّ من هدمه، فلا يهدموه بأيديهم. فقبل ذلك منهم، وبعث إلى الطّائف من يهدمه. وبهذا أسلمت مدينة أخرىٰ من مدن الحجاز وهي الطائف[١].

وكان رسول الله ﷺ يحترم رؤساء القبائل الّذين كانوا وجهاء قومهم وصفوة قبائلهم في الخصال الإنسانيّة. وكانت الوفود الوافدة عليه ﷺ تشمل الرؤساء المذكورين عادةً. وكان هؤلاء ضيوفه ﷺ خلال الأيّام الّتي كانوا يمكثون خلالها بالمدينة. وإذا ما ذهبوا يقدّم لهم بعض الهدايا الّتي قد تكون ذهباً أو فضّة أحياناً[٢]. وهذا التكريم جعلهم يتعلّقون به ﷺ. وكان يكفي أن يُسلم رئيس القبيلة، فيتبعه أفراد قبيلته جميعهم[٣]. وبلغ إلطافه ﷺ ببعض القبائل مبلغاً أنّه جعل لها مرتعاً. وكان طبيعيّاً أن ليس لأحد حقّ انتهاكه علىٰ سبيل المثال، أعطىٰ بني عقيل منطقة العقيق وكتب لهم:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم. هذا ما وهبه محمّد رسول الله لربيعة، ومطرّف، وأنس. وهبهم العقيق ليُقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة ويطيعوا»[٤]. وجاء في النّصّ الّذي كتبه لوائل بن حجر من وفد حضرموت أنّي جعلت لك ما في يدك من الأراضي والحصون...[٥] وطُرح إقطاع الأراضي لرؤساء الطوائف عند كثير من الوفود، وحُرّرت كتب بوصفها وثائق احتفظ بها أحفادهم لقرون، ولمّا جاء وفد بني البكّاء طلب معاوية بن ثور من رسول الله ﷺ أن يمسح بيده علىٰ رأس ابنه تبرّكاً ففعل ﷺ. وأنشد أحد أحفاده شعراً قال فيه:

---

(١) *المغازي* ١: ٩٦٣ ـ ٩٦٨؛ *إمتاع الأسماع* ١: ٤٩٠ ـ ٤٩٣؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٣١٢، ٣١٣.

(٢) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٢٩٨ (وفد ثعلبة). (٣) نفسه ١: ٢٩٩ (وفد سعد بن بكر).

(٤) نفسه ١: ٣٠٢، وانظر: ص ٣١٧، ٣١٩، ٣٢٤.

(٥) نفسه ١: ٣٤٩.

وأبي الّذي مسح الرسول برأسه ودعا له بالخير والبركاتِ[١]

وكان في هذا الوفد شخص يُدعىٰ عبد عمرو، فسمّاه رسول‌الله ﷺ عبد الرحمٰن[٢]. وبغضّ النظر عن أخذ الأرض والهدايا، كانوا يأخذون الأمان منه ﷺ. وهذا الأمان يعني أنّ القبيلة المعهودة أسلمت ولها حقوق المسلمين. وليس للمسلمين أن يهاجموها، بل عليهم أن يدافعوا عنها إذا تعرّضت للعدوان. وكان ﷺ يكتب لعدد من الوفود أحكام الإسلام وشرائعه[٣].

وطلب منه وفد خثعم أن يكتب لهم كتاباً ليتّبعوا ما فيه[٤]. وكان وفد عامر بن صعصعة أحد الوفود. وقال رئيسهم عامر بن الطفيل في بدء قدومه: يا محمّد! إذا أنا أسلمتُ فما عليَّ؟ فقال ﷺ: «لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين». قال: هل تجعل لي الأمر بعدك؟ قال ﷺ: «الأمرُ لله يضعه حيث يشاء». فرجع عامر ولم يسلم، إلّا أنّ قبيلته أسلمت بعد هلاكه.

وجاء ذات مرّة وفد بني تغلب وفيهم المسلم والنصرانيّ، فتقرّر أن يبقى النّصارىٰ علىٰ نصرانيّتهم، لكنّهم لا ينصّروا أولادهم[٥]. وأثناء المدّة التي كان يمكث فيها رؤساء الوفود بالمدينة، كان بعض الصّحابة يعلّمونهم القرآن وأحكام الشّريعة بأمر رسول الله ﷺ[٦]. وكلّ من أحسن تلاوة القرآن منهم يجعله رسول الله ﷺ إماماً لجماعتهم. ولمّا جاء وفد جعفي المدينة، كان أفراده لا يجيزون أكل القلب، فقال ﷺ

---

(١) *الطبقات الكبرىٰ* ١: ٣٠٤، ونموذج آخر ص ٣١٠، ونموذج ثالث ص ٣٥٠. وهكذا يستبين أنّ المسح والتّبرّك برسول الله ﷺ كان تقليداً مألوفاً.

(٢) وكان شخص آخر أيضاً يدعىٰ غاوي بن عبد العزّىٰ وسمّاه رسول الله ﷺ راشد بن عبد الله، نفسه ١: ٣٠٨. كما دُعي (بنو غيان) «بني رشدان». نفسه ١: ٣٣٣.

(٣) نفسه ١: ٣٠٧.

(٤) نفسه ١: ٣٤٨.

(٥) نفسه ١: ٣١٦.

(٦) نفسه ١: ٣٢٤.

ما مضمونه: لا يتمّ إسلامكم إلّا بأكل القلب، فأُتي لهم بقلب مشويّ. وحين مدّ رئيسهم سلمة بن يزيد ليأكل، ارتعدت يده، فقال ﷺ: كُل، فأكل، وأنشد يقول:

عليٰ أنّي أكلتُ القلبَ كَرهاً وَتُرعَدُ حين مسّته بناني[١]

وكان من الأعمال الّتي يقوم بها رسول الله ﷺ نصب رئيس للقبيلة الوافدة. ويُختار من بين الوجهاء. وهكذا كان ﷺ يوطّد السّيادة السّياسيّة للمدينة على القبائل. وجاء في كتابٍ كُتب لوفد جُعفي تعبير: إنّي استعملك على مرّان و... والمخاطب هو قيس بن سلمة[٢]. وورد في صُرَد بن عبد الله الأزديّ أيضاً أنّ رسول الله ﷺ جعله حاكماً عليٰ مسلمي قومه[٣]. وصار قيس بن حُصَين حاكماً عليٰ قبيلة بني حارث بن كعب بتنصيب رسول الله ﷺ[٤].

وكان أمن القبائل الّذي أشرنا له من قبل بالغ الأهمّيّة لها. فقد كان رجالها يطلبون «أمان الله وأمان رسوله» و «ذمّة الله وذمّة رسوله». واهتمّت الكتب الّتي كُتبت لها بهذه القضيّة عادةً. وجاء في تعبير آخر ورد في كتابٍ كُتب لوفد مَهرة: «هذا كتاب من محمّد رسول الله لمهري بن الأبيض عليٰ من آمن به من مَهرة ألّا يؤكلوا... ومن آمن به فله ذمّة الله وذمّة رسوله[٥]. وجاء في معنىٰ «لا يؤكلوا»: «أي: لا يُغار عليهم». وذلك هو الأمن الّذي كانت تنشده القبائل الحديثة عهد بالإسلام.

إعلان البراءة من المشركين

شهدت مكّة بحلول موسم الحجّ في السنة التاسعة حضور عدد كبير من المسلمين

---

(١) *الطبقات الكبرىٰ* ١: ٣٢٤، ٣٢٥. إنّهم لم يستطيعوا أن يتحمّلوا ذلك بخاصّة عندما سألوه ﷺ عن مكان أمّهم إذ كانت وأدت بناتها مع خيرهم الكثير. فقال ﷺ: جهنّم. فارتدّوا بعد رجوعهم إلىٰ ديارهم.

(٢) نفسه: ٣٢٥. وانظر أيضاً: ٣٢٧.

(٣) نفسه ١: ٣٣٨.

(٤) نفسه ١: ٣٤٠.

(٥) نفسه ١: ٣٥٥.

والمشركين الّذين كان كلٌّ منهم يؤدّي مناسك الحجّ علىٰ دينه. ومن الجدير ذكره أنّ الأحكام الفقهيّة للحجّ علىٰ طريقة الفقه الإسلاميّ كانت ما زالت غير واضحة، لأنّ أهمّ أحكام الحجّ أُخذ من المناسك الّتي أدّاها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في السّنة العاشرة للهجرة. ولم يكن تعيين أمير للحجّاج مألوفاً يومئذٍ. إذ كانت كلّ قبيلة تأتي إلىٰ مكّة وتؤدّي مناسكها، إلّا أنّ الأصنام كانت تُجمَع في الموسم، وكان المشركون يعيشون مشكلةً فيما يرتبط بالأعمال المتّصلة بالأصنام. وفي نفس الوقت ظلّت بعض التقاليد الجاهليّة علىٰ حالها كطوافهم عراةً. وعزم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علىٰ تقويض الشّرك في شبه الجزيرة العربيّة بأمر الله سبحانه. وكانت مكّة وموسم الحجّ مكاناً ووقتاً مناسبين لإعلان ذلك وتنفيذه. من هنا أُذن أن يُعلَن مضمون الآيات الأولىٰ من سورة براءة (أو سورة التوبة) كمبادئ للعرب جميعهم.

وتقرّر في البداية أن يعلنها أبو بكر بمكّة نيابة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وبعد تحركّه بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليّاً عليه السلام خلفه ليأخذها منه ويقرأها على النّاس في مكّة. وأدّت هذه القضيّة إلىٰ إثارة الجدل حول الخبر في الكتب الكلاميّة والمباحث المتعلّقة بالإمامة. فقال أهل السّنّة: تعهّد أبو بكر ذلك العام بمناسك الحجّ والإعلان المذكور، لكن تقرّر بعد أمر النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أن يعلنها عليّ عليه السلام، في حين ظلّت مسؤوليّة الحجّ علىٰ عاتق أبي بكر. وأشرنا قبل ذلك إلىٰ أنّ عنوان مسؤوليّة الحجّ لم يكن موجوداً آنذاك، وإنّما كان بعد وفاة النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. ويبدو أنّ مقام أمير الحاجّ قد ذُكر لأبي بكر كي لا يبقى الموضوع شيناً، وجاء في خبر ابن إسحاق أنّ المشركين عرفوا منازلهم على النسق الجاهليّ في ذلك العام[1]. ومن الطبيعيّ أنّ مناسك جديدة لم تعرف يومئذٍ فيبيّنها أحدٌ للناس ما عدا التلبية وأصل التّوحيد. ومرّ أنّ مناسك الحجّ الإسلاميّ

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٥٤٣، ٥٤٦.

مأخوذة من حجّ رسول الله ﷺ في السّنة العاشرة للهجرة.

ونقل عن الإمام عليّ عليه السلام أنّه قال ما مضمونه: لمّا نزلت الآيات العشر الأولىٰ من سورة براءة أمر رسول الله ﷺ أبا بكر لقراءتها في مكّة. ثمّ بعثني فأخذتها منه بالجُحفة[١]. فرجع ووافىٰ رسول الله ﷺ وقال: هل نزل فيّ شيء من القرآن؟ فقال ﷺ: لا، ولكن جاءني جبرئيل فقال: لا يؤدّي عنك إلّا أنت أو رجل منك[٢]. وأُثر هذا الحديث بطريق كثيرة جدّاً، وجمع العلّامة الأمينيّ القسم الأعظم منها[٣]. ونلحظ في جميع الأخبار المنقولة تقريباً أنّ أخذها من أبي بكر وإعطاءها الإمام عليّاً عليه السلام كانا بأمر جبرئيل عليه السلام، ولو أنّ المناوئين لهذه الفضيلة ذكروا أنّ ذلك كان على السّنن القبليّ إمّا يؤدّيه النّبيّ ﷺ أو أحد من قُرباه. وأُشير إلىٰ أنّ قوله ﷺ «أُمرْتُ أنْ أُبلّغها أنا أو رجلٌ من أهل بيتي» يربط الموضوع بالوحي[٤].

والأصول المعلنة هي أن ليس لمشرك حضور الحجّ من السّنة القادمة. ولا يحقّ لأحد الطّواف عارياً في المسجد. وكلّ من له عهد مع النّبيّ ﷺ فعهده إلىٰ مدّته. وأكّد كذلك أنّ المؤمن وحده يدخل الجنّة. وبهذا تمهّدت الأرضيّة لتقويض أركان الشّرك في الحجاز، ثمّ شبه الجزيرة تدريجاً. وورد في سورة براءة أنّ للمشركين أربعة أشهر في اتّخاذ قرارهم إمّا القتال أو اعتناق الإسلام، وبعد ذلك يجب أن يُقضىٰ على الشّرك ويُباد تماماً. ويرى الإسلام أنّ لأهل الكتاب الحقّ في التعايش مع المسلمين في

---

(١) جاء في *إمتاع الأسماع* ١: ٤٩٩ أنّه وافاه في منطقة ضجنان.

(٢) **الغدير** ٦: ٣٤١ عن *الدرّ المنثور* ٣: ٢٠٩؛ *كنز العمّال* ١: ٢٤٧؛ *البداية والنّهاية* ٥: ٣٨، ٧: ٣٥٧؛ *تفسير ابن كثير* ٢: ٣٣٣؛ *مجمع الزوائد* ٧: ٢٩.

(٣) **الغدير** ٦: ٣٤١ ـ ٣٥٠.

(٤) نقل ابن أبي الحديد في شرحه على النّهج (١٧: ١٩٥ ـ ٢٠١) البحوث الكلاميّة والمجادلات المتعلّقة بحديث البراءة علىٰ لسان المؤيّدين والمعارضين.

المجتمع الإسلاميّ، بيد أنّه لا يرىٰ ذلك للمشركين عبدة الأصنام.

وصرّحت الآيات الأولىٰ من سورة التوبة بالبراءة من الشّرك. قال تعالىٰ: ﴿**بَرَاءَةٌ مِنَ ٱللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ٱلَّذِينَ عَاهَدْتُم مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ**[1] **وَٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللهِ وَأَنَّ ٱللهَ مُخْزِى ٱلْكَافِرِينَ * وَأَذَانٌ مِنَ ٱللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللهَ بَرِىءٌ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ * فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَاقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتَوُا ٱلزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ ٱللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[2].

وحضّ الله تعالى المسلمين على المشركين الّذين نقضوا عهدهم بشدّة وأمرهم أن يقاتلوا أئمّة الكفر. وينبغي أن نقول في دخول المؤمن وحده الجنّة: المراد من يعمر مساجد الله وهو علىٰ شركه وكفره. وأخبر سبحانه بأنّ هذا العمل لا ثمرة لهم فيه. ﴿**مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ ٱللهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَالِدُونَ**﴾[3].

إنّ قيمة مسلم مجاهد في سبيل الله هي أعلىٰ من قيمة من يتولّىٰ سدانة الكعبة ويسقي الحجيج وكان العبّاس بن عبد المطّلب، وطلحة بن شيبة جالِسَين مع الإمام

---

(١) يستبين من سياق الآيات أنّ المقصودين هم المشركون الّذين نكثوا عهدهم.

(٢) وكتب رسول الله ﷺ لوفد جذام في وقت آخر: من أسلم فهو من حزب الله. ومن أعرض فله الأمان شهرين (*الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٣٥٤). وهذه فرصة لتفكير أكثر عادةً.

(٣) التوبة: ١٧.

عليّ عليه السلام. فقال طلحة: أنا سادن الكعبة، ولو شئتُ لبتُّ فيها. وقال العبّاس: أنا ساقي الحجيج. فقال الإمام عليه السلام: لا أدري ما تقولون، لكنّي صلّيتُ قبل المسلمين بستّة أشهر، وأنا صاحب الجهاد[١]. فنزل قوله تعالىٰ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَاجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَجَاهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ ٱللهِ وَٱللهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ * ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ ٱللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللهِ وَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْفَائِزُونَ﴾[٢].

وتزامن إعلان البراءة وإعلان كثير من القبائل إسلامها في العام التاسع الهجريّ الّذي عُرف بعام الوفود. وأسلمت قبائل جديدة من أقصى الأرض وأدناها في العام العاشر بعد براءة بمحضر النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وقد تكرّر هذا.

السرايا الأخيرة

لمّا فتحت مكّة، وزال عدد من الأصنام، كانت بعض القبائل النائية عاكفة للوثنيّة، ولبعضها أوثان مشهورة. ومن هذه القبائل قبيلة طيّ الّتي تعود شهرتها إلىٰ حاتم الطّائيّ وموضعها شمال المدينة، حوالي دومة الجندل، وتيماء، وسكاكة[٣].

وكان صنم طيّ يُعرف بفلس، ورئيسها يومئذٍ عديّ بن حاتم الطّائيّ. وبعث رسول الله عليه السلام في ربيع الآخر من السّنة التاسعة سريّة بقيادة الإمام عليّ عليه السلام ومعه مئة وخمسون من الأنصار قاصدين طيّاً[٤]. ولم يكن بينهم مهاجريّ واحد. وتوجّهوا حتّىٰ

---

(١) *مجمع البيان* ٥: ١٤، ١٥. ونُقل موقف بعض الأشخاص من الإمام عليه السلام في خبر آخر. ومهما كان فإنّ هذه الآية من فضائله عليه السلام الّتي لا يأتي عليها الإحصاء.

(٢) التوبة: ١٩، ٢٠.

(٣) *معالم الأثيرة*: ١٧٦، ١٧٧.

(٤) مع تصريح المصادر بقيادة الإمام للسريّة، هناك من ذهب إلىٰ أنّ خالد بن الوليد كان آمر السّريّة! انظر: *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٣٢٢.

بلغوا موضعاً قريباً من مقرّهم. ورأوا هناك غلاماً أسود استبان بعد السّؤال أنّه كان رصداً يستعلم هجوماً محتملاً يمكن أن يشنّه أصحاب محمّد صلى الله عليه وآله وسلم. واعتسف بهم الطريق في البداية، ثمّ دلّهم بعد التهديد. فكان الهجوم المباغت الّذي فاجأهم به الإمام عليه السلام سبباً في أسر عدد كبير منهم، وغنيمة إبلٍ وأغنام كثيرة. وفي الأسرىٰ أُخت عديّ بن حاتم، وجيء بها إلى المدينة. وذهب الإمام عليه السلام بعد غلبه إلىٰ موضع الأصنام فكسر فُلساً وغنم ثلاثة سيوف ثمينة. وأُسكنت أُخت عديّ في دار رملة بنت الحارث[1].

وكلّما مرّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علىٰ ذلك المكان للصّلاة، كانت تستصفحه بإشارةٍ من الإمام عليه السلام، حتّىٰ صفح عنها ولطف بها. ولمّا مضت مدّة جاء أخوها عديّ إلى المدينة بطلبٍ منها وأسلم؛ وكان فرّ إلى الشّام عند الحملة[2]. وجاء في خبر ابن إسحاق أنّه كان يقول: كنتُ قبل الإسلام على النصرانيّة[3]. وصار عديّ هذا من أقرب أصحاب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إليه بعد ذلك. وقدّم أولاده في صفّين دفاعاً عن أهدافه عليه السلام واستشهدوا، كما فقد إحدىٰ عينيه فيها.

وعندما جاء المدينة، ذهب عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعرّف نفسه. فأخذه معه إلىٰ بيته. يقول عديّ: فلقيته امرأة عجوز في الطّريق كان لها شغل، فتحدّث معها مليّاً.

---

(١) كانت دارها القريبة من المسجد مأوىً للمجروحين، وأحياناً الأسرىٰ والضيوف. انظر بشأن الضيوف: *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٣١٥. وضيّف وفد عبد القيس فيها. وكذلك وفد تغلب. انظر: ص٣١٦؛ وخولان ص ٣٢٤.

(٢) *المغازي* ٣: ٩٨٤ ـ ٩٨٩.

(٣) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٥٧٨ ـ ٥٨١. وجاء في ص ٥٨٠ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سأله: ألستَ من الركوسيّة؟ قال: بلىٰ. وقال محقّق السّيرة في الهامش: هؤلاء قوم دينهم وسط بين النّصارىٰ والصّابئين. ومهما كان فمن المحتمل أنّ أفراداً من طيّ مالوا إلى النّصرانيّة أو غيرها من الفرق الأُخرىٰ بغضّ النظر عن أنّ سوادهم كان يعبد الأصنام.

فقلتُ في نفسي: ليس هذا ملكاً. وأجلسني في بيته علىٰ موضع مفروش، وجلس على الأرض.

ومن السّرايا الأُخرىٰ سريّة علقمة بن مجزِّز المدلجيّ. يقول الواقديّ: «بلغ رسول الله ﷺ أنّ ناساً من الحبشة تراياهم أهل الشُّعَيْبَة (على بعد (٦٨) كيلومتراً جنوب جدّة في ساحل البحر) في مراكب؛ فبلغ النّبيّ ﷺ، فبعث علقمة في ثلاثمائة رجل حتّى انتهىٰ إلىٰ جزيرة في البحر، فخاض إليهم، فهربوا منه. ثمّ انصرف، فلمّا كان ببعض المنازل استأذنه بعض الجيش في الانصراف حيث لم يلقوا كيداً، فأذن لهم وأمّر عليهم عبد الله بن حُذافة... .

وأوقد القوم ناراً يصطلون عليها ويصطنعون الطّعام. فقال عبد الله بن حذافة: ألستُ أميركم؟ وإلّا فما عليكم إلّا أن تطيعوني. عزمتُ عليكم ألّا تواثبتم في هذه النّار. فقام بعض القوم فتحاجزوا حتّىٰ ظنّ أنّهم واثبون فيها، فقال: اجلسوا. إنّما كنتُ أضحك معكم! فذُكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «من أمركم بمعصيةٍ لا تُطيعوه!»[1] ويبدو أنّ هذه الحادثة هي الأساس في كلامه ﷺ: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

ومنها سريّة عُيَيْنَة بن حصن إلىٰ بني تميم. وكانت هذه القبيلة من قبائل الحجاز، وفي ما بعد من قبائل العراق. ولها دور مشهور في التطوّرات الحاصلة أيّام الخلفاء. وكان من أمرهم أنّ رسول الله ﷺ بعث بعد فتح مكّة مجموعةً من أصحابه إلى القبائل المسلمة لجمع الزّكاة لأوّل مرّة. ومنهم ثلاثة ساروا لجمع زكاة بني كعب الّذين كانوا من خزاعة وكانت طوائف من بني تميم تسكن قريباً منهم يومئذٍ، وهم ما زالوا علىٰ شركهم.

---

(١) *المغازي* ٣: ٩٨٢ ـ ٩٨٤؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٦٤٠. لم يُشر ابن إسحاق إلىٰ مجيء الأحباش.

وعندما جمعت خزاعة زكاتها وأرادت أن تدفعها إلىٰ مبعوثي رسول الله ﷺ، منعها بنو تميم. وتأهّبوا للحرب وسلّوا سيوفهم وذكروا أنّهم لن يأذنوا بأخذ جملٍ واحد كزكاةٍ. فشعر المصدّق وهو بُشْر بن سفيان أنّ عاقبة بقائه القتل، فرجع إلى المدينة بأسرع ما يكون. وبعث رسول الله ﷺ عُيينة بن حصن في خمسين فارساً. فلمّا رأوهم ولّوا، وتركت خُزاعة المكان. ولاحق عُيينة بني تميم، وهجم عليهم في لحظة. ففرّ كثير من رجالهم، وأُسر عدد من نسائهم وأطفالهم وبعض رجالهم، وسيقوا إلى المدينة.

وجاء المدينة رؤساؤهم، ومنهم قيس بن عاصم، والأقرع بن حابس. والتقوا برسول الله ﷺ في المسجد بعد صلاة الظّهر. وتحدّث خطيبهم عن مفاخر قبيلته. فأمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس أن يتكلّم. فتكلّم عن بعثة النّبيّ ﷺ وهداية الناس به، وبالتّوحيد. وقام شاعر بني تميم وقال:

نحن الملوك فلا حيّ يقاربنا ... فينا الملوك وفينا تُنصَب البِيَعُ

وكم قسرنا من الأحياء كلّهم ... عند النّهاب وفضلُ الخير يُتّبَعُ

فأجابه حسّان بشعرجميل مدح فيه رسولَ الله ﷺ وصحابته وجهادهم في سبيل الله ودعم الأنصار له. وبعد أن أسلموا ردّ رسول الله ﷺ عليهم السّبي والأسرىٰ، وأمر لهم بجوائز[١].

وكان بنو تميم بدويّين ذوي طبيعة فظّة مع لجاجةٍ وتكبّر. وكانوا يفضّلون قبيلتهم على كلّ شيء وكلّ أحد، ولم يرضوا بأيّ حكومة تحكمهم. وكانوا في زمرة المرتدّين بعد وفاة رسول الله ﷺ ثمّ رجعوا وأسلموا مرّةً أُخرىٰ. وعندما لبثوا بالمدينة كانوا ينادون النّبيّ ﷺ من وراء باب بيته، ويصرّون علىٰ ذلك. وقيل إنّ آياتٍ من سورة

---

(١) *المغازي* ١: ٩٧٠ ـ ٩٧٣؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٥٦٠ ـ ٥٦٧.

الحجرات نزلت فيهم[١]: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ ٱلْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۞ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٢].

وكان إيتاء الزكاة عسيراً على القبائل البدويّة. بيد أنّ رسول الله ﷺ ـ من جهة أُخرىٰ ـ عدّها والصّلاة من أكثر شروط الإيمان والإسلام مبدئيّة وجوهريّة. وتحدّثت الآيات القرآنيّة عن «إقامة الصّلاة وإيتاء الزكاة» منذ العصر المكّيّ، وهذا مفهوم معروف عند المسلمين. وأُرجئ العمل به إلىٰ ما بعد الفتح. وحين حان عام الفتح أُوفد بعض الصّحابة إلى القبائل تدريجاً من أجل جمع صدقاتها، وهي الزّكاة طبعاً. وكانت وصيّة النّبيّ ﷺ للموفَدين هي أن يتركوا كرائم المال لأفراد القبيلة أنفسهم، ويرضوا بما يُذكَر لهم من عدد الضأن والإبل، ويتعاملوا مع الناس بلينٍ. وأُخذت الزّكاة من الأغنياء في بعض المواطن وقُسمت بين الفقراء[٣]، وهذه نقطة مهمّة لتبليغ الإسلام. وعندما جاءت القبائل المختلفة إلى المدينة لاعتناق الإسلام، عُرّفت الشّرطَ اللازم لإيتاء الزّكاة.

وهكذا أصبح للحكومة الجديدة عائد ثابت بعد تغلغل الإسلام بين القبائل. وقبل ذلك كانت غنائم الحروب وحدها تسدّ قسماً من الحاجات الماليّة للحكومة والمهاجرين والأنصار. أمّا اليوم فإنّ الصدقات تؤدّي ذلك الدور بنحو دائم. وكانت القبائل والمناطق المهمّة الّتي أُوفد إليها المبعوثون هي صنعاء، وحضرموت، والبحرين، ونجران، وقبيلة طيّ، وبني أسد، وبني حنظلة. وتوجّه الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام إلىٰ نجران لجمع صدقاتها[٤].

---

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٥٦٠؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٢٩٤.

(٢) الحجرات: ٤، ٥.

(٣) *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ٣٠٠.

(٤) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٣: ٦٠٠.

ومن الملاحظات الطّريفة في جمع الصّدقات، واهتمّ بها القرآن الكريم أيضاً، هي إيفاد الوليد بن عقبة بن أبي المُعيط لجمع زكاة بني المصطلق. ولمّا دنا منهم استقبله رجال منهم بإبل وشاءٍ. لكنّه فرّ إلى المدينة وأخبر رسولَ الله ﷺ أنّهم جاءوا لحربه، فدُهش بنو المصطلق وبعثوا رجالاً منهم إلى المدينة ليطلعوا رسولَ الله ﷺ علىٰ حقيقة الموضوع. وفي هذا الشأن نزلت آية تُفسّق الوليد، وتطلب من النّبيّ ﷺ ألّا يثق بخبر الفاسق[١]. قال سبحانه: **﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾**[٢].

وصار دفع الزكاة معضلة بعد وفاة النّبيّ ﷺ، بل قبلها أيضاً، وأدّىٰ إلى ارتداد بعض القبائل، حتّىٰ إنّها اصطدمت بالسّلطة الإسلاميّة مدّةً، ثمّ أعلنت عن استعدادها لدفعها إلى الحكومة الجديدة.

إيفاد الإمام عليّ عليه السلام إلى اليمن

ومن السرايا الأُخرىٰ إيفاد الإمام عليه السلام إلى اليمن لدعوة أهلها إلى الإسلام. وذكر ابن سعد أنّ الإمام أُوفد إليها مرّتين، عدّ إحداهما في شهر رمضان سنة عشر، ولم يورد الأُخرىٰ[٣]. ونقل البيهقيّ عن البراء بن عازب أنّ رسولالله ﷺ بعث خالد بن الوليد إليها. وأشار البراء إلىٰ أنّهم لبثوا ستّة أشهر، ولم يسلم أحد. ثمّ بعث عليّ بن أبي طالب عليه السلام. وحين وصل إليها وقرأ كتابَ النّبيّ ﷺ علىٰ قبيلة هَمْدان[٤]، أسلمت

---

(١) *المغازي* ٣: ٩٨٠، ٩٨١. لا وجود لأدنىٰ شكٍّ في كتب الحديث والتّاريخ في أنّ الآية المذكورة نزلت في الوليد بن عقبة.

(٢) الحجرات: ٥.

(٣) *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ١٦٩.

(٤) وهي من القبائل اليمانيّة ولا صلة لها بمدينة هَمَدان الإيرانيّة.

جميعها. فكتب إليه ﷺ يخبره بإسلام الهمدانيّين، فقال مرّتين: «السّلام علىٰ هَمْدان»[١].

والسّريّة الأخرى الّتي رواها الواقديّ، وابن سعد وغيرهما ـ وكانت في شهر رمضان سنة عشر ـ هي سريّة الإمام عليّ عليه السلام إلى اليمن. فقد عمّمه رسول الله ﷺ وأمره أن يمضي ولا يلتفت. وجاء في نصائحه ﷺ له عليه السلام ألّا يبدأهم بقتال حتّىٰ يقاتلوه. فإن قاتلوه وقُتل منهم (من المسلمين) أحد فليتأنّ. ثمّ يقول لهم: هل لكم إلىٰ أن تقولوا لا إله إلّا الله؟ فإن قالوا: نعم، فقل: هل لكم أن تُصلّوا؟ فإن قالوا: نعم، فقل: هل لكم أن تُخرجوا من أموالكم صدقةً تردّونها علىٰ فقرائكم؟ فإن قالوا: نعم، فلا تبغ منهم غير ذلك. وخرج عليه السلام في ثلاثمائة فارس. فلمّا لقي مِذْحج دعاهم إلى الإسلام، فأبوا. ثمّ حمل عليهم فقتل منهم عشرين رجلاً. ثمّ مكث قليلاً، وأعاد دعوته، فأجابوا. وجمع غنائمهم وعزل الخمس، وفرّق الباقي على الجند. وبعد ذلك كتب إلىٰ رسول الله ﷺ يخبره بالواقعة، وبعث إليه رسول الله ﷺ يأمره أن يلتحق به في الحجّ ـ حجّة الوداع ـ فالتحق به[٢].

ولا يستبين كثيراً كيف كانت طبيعة السّفرتين المذكورتين علىٰ نحو الدّقّة. ورُوي خبران في خُمس السّريّتين، ومن المناسب أن ننقلها هنا. فقد ذُكر أنّ الإمام عليّاً عليه السلام خمّس الغنائم الموجودة في سفرته الأُولىٰ. وكان فيها جارية من سهم الخمس، أي: سهم الله. فاختصّ بها لنفسه مستنداً إلىٰ أنّ الخمس هو لأهل البيت. فكتب خالد بن الوليد إلىٰ رسول الله ﷺ معاتباً. وجاء في أحد الأخبار أنّ بريدة بن الحصيب ـ وفي خبر آخر البراء ـ ذكر أنّه استاء من الإمام عليه السلام بشدّة. وعندما دفع كتاب خالد إلى

---

(١) *البخاريّ*، باب الجهاد، باب بعث عليّ بن أبي طالب وخالد إلى اليمن. *سبل الهدىٰ والرشاد* ٦: ٣٥٨؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن كثير ٤: ٢٠٣.

(٢) *المغازي* ٣: ١٠٨٠ ـ ١٠٨٢؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ١: ١٦٩، ١٧٠.

النّبيّ ﷺ غضب ﷺ علىٰ خالد واحمرّ وجهه، وقال: «مَنْ كُنتُ وليَّهُ فعليٌّ وليُّه». ثمّ قال لي: لعليّ في الخمس أكثر من هذا[١]. وصرّحت بعض الأخبار المتعلّقة بالسّفرة الأُولىٰ أنّ الإمام عليه السلام أُوفد لأخذ الخمس[٢]. بيد أنّا ذكرنا سابقاً أنّ الدعوة الإسلاميّة كان لها وجودها، وأسلمت قبيلة هَمْدان جميعها بدعوة الإمام عليه السلام.

أمّا الخبر الآخر فيعود إلى السّفرة الثانية. وجاء فيه أنّ الإمام عليه السلام خمّس الغنائم بعد الحرب، ثمّ عزل الخمس، وأعطى المسلمين حصصهم. وورد فيه أيضاً أنّ الأُمراء كانوا قبل ذلك يهبونهم قسماً من الخمس أحياناً، لكنّ الإمام عليه السلام قال أمام طلب المسلمين: إنّ الخمس سهم رسول الله ﷺ ولن يعطيه أحداً إلّا بإذنه، ويضاف إلىٰ ذلك أنّه منعهم ركوب الابل الّتي أُخذت كزكاة، لأنّ المسلمين كلّهم فيها شركاء. وعند الرجوع إلىٰ مكّة سبق الآخرين في لحاقه برسول الله ﷺ وأودع الخمس أبا رافع. وأخذ الناس منه ثياباً كانت في الخمس. ولمّا بلغ الإمامَ ذلك لامه، وجرّد بعضهم منها، وكانوا قد أحرموا بها، فشكوه إلىٰ رسول الله ﷺ[٣].

وذكر أبو سعيد الخُدريّ عتاب النّاس لشدّة غلظة الإمام عليه السلام. وذكر أنّ سعد بن مالك شكاه إلى النّبيّ ﷺ بالمدينة، فقال ﷺ ما مضمونه: والله إنّ عليّاً خشن في ذات الله[٤].

ونحن نعلم أنّ الخمس متعلّق أساساً برسول الله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، إذ لا تحلّ لهم الصّدقات والزكوات. وكان الخيار فيه إلىٰ رسول الله ﷺ نفسه، وله أن يعطي

---

(١) ونقل هذا الخبر بكثير من التّفاصيل ـ بنحو متفاوت ـ في سنن النسائيّ، والترمذيّ، ومسند أحمد، ومستدرك الحاكم؛ انظر: *سبل الهدىٰ والرّشاد* ٦: ٣٥٨، ٣٥٩.

(٢) *السّيرة النّبويّة*، ابن كثير ٤: ٢٠١.

(٣) انظر: *المغازي* ٣: ١٠٨١؛ *سبل الهدىٰ والرشاد* ٦: ٣٦٢، ٣٦٣.

(٤) *السّيرة النّبويّة*، ابن كثير ٤: ٢٠٤، ٢٠٥.

منه من يشاء من المحتاجين، أو الذين في إعطائهم مصلحة.

إنّ ما يلفت النظر في سفرتَي الإمام عليه السلام إلى اليمن هو أنّ أهل اليمن لا سيّما قبيلة هَمْدان ومِذْحج تعلّقوا به عليه السلام منذ ذلك الحين. ثمّ صاروا من أقرب المقرّبين إليه في الكوفة[1]. وجاء في كثير من الأخبار أيضاً أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعث الإمام عليه السلام إلى اليمن قاضياً، ولعلّ ذلك كان في إحدى السّفرتين. وورد في خبر أنّه صلى الله عليه وآله وسلم بعثه إلى اليمن، ودعا له قائلاً: «اللّهمّ اهد قلبه وثبّت لسانه»[2]. ثمّ زوّده بوصاياه حول القضاء بين النّاس[3]. ونُقلت أمثلة من قضائه عليه السلام، وأمضاها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[4].

مشكلات الحكومة الإسلاميّة في السّنة العاشرة

كان فتح مكّة أحد المراحل المهمّة في عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. فبدخولها في دار الإسلام، دخلت قريش في الإسلام، إلّا أنّ إسلامها لم ينبع ـ في بعض المواطن ـ من صميم القلب وأعماقه. ورُفع الأمر بالهجرة إلى المدينة منذ ذلك الحين، وكان للمسلمين أن يعيشوا خارجها. وأسلم كثير من القبائل حوالي المدينة بعد الهزيمة القاطعة الّتي مُنيت بها قريش. ويتسنّىٰ لنا أن نقول: قلّما بقيت قبيلة من القبائل

---

(١) انظر: *الشّيعة في إيران ـ دراسة تاريخيّة*: . من هنا قال أمير المؤمنين عليه السلام في شعر له حول هَمْدان:

فلو كنتُ بوّاباً علىٰ باب جنّةٍ لقلتُ لهَمْدان ادخلوا بسلامِ

شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد ٢: ٢٣٩. وذكر الأُستاذ أحمدي ميانجي أنّه رأىٰ في كتاب *فتوح الشام* للواقديّ أنّ مالك الأشتر رضوان الله عليه حين قدم المدينة من اليمن، نزل في بيت الإمام عليه السلام. ويدلّ هذا علىٰ معرفته به عليه السلام منذ كان في اليمن.

(٢) *شرح نهج البلاغة*، ابن أبي الحديد ١: ١٦. (٣) *السّيرة النّبويّة*، ابن كثير ٤: ٢٠٨.

(٤) *سبل الهدىٰ والرشاد* ٦: ٣٦٤؛ *البداية والنّهاية* ٥: ١٠٧، ١٠٨؛ *السّيرة النّبويّة*، ابن كثير ٤: ٢٠٩، ٢١٠؛ *المغازي* ٣: ١٠٨٦.

العربيّة المعروفة إلّا أسلمت عند دنوّ أجل النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. ودخلت أفواج من الناس في الإسلام مع احتفاظها بتركيباتها القبليّة، وأعرافها العربيّة الجاهليّة، وبدوافع سطحيّة متزعزعة غالباً، وينبغي للمدينة أن تحكمهم وتدير شؤونهم. وأهمّ قضيّة كانت تراودهم هي أن تعترف بهم حكومة المدينة القويّة وتقرّ إسلامهم، حتّىٰ يأمنوا على أراضيهم وأموالهم من خطر الاستيلاء عليها. وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتعهّد لهم بذلك في مقابل عهودٍ يلتزمون بها أيضاً.

وعلاوةً على اعتناقهم الإسلام وتمسّكهم به كان عليهم أن يرسلوا زكوات أموالهم إلى المدينة، وإن كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يأمر في بعض الحالات أن تبدأ القبائل بإعطاء فقرائها من صدقاتها. وكان صلى الله عليه وآله وسلم يبعث في السّنة التّاسعة والعاشرة إلى القبائل من يجمع صدقاتها[١]. ويضاف إلىٰ ذلك أنّه كان يرسل إليهم أشخاصاً يعلّمونهم القرآن والأحكام، ويعيّن لهم ولاةً معظمهم من الرؤساء السّابقين للقبائل نفسها. وهكذا مارست المدينة سلطتها عليهم عن هذا الطريق بوصفها حكومةً لها هيمنتها، وكانت تدافع عنهم وتحميهم من عدوان القبائل الأُخرىٰ وانتهاكاتها.

ومن المشاكل الّتي واجهتها الحكومة المذكورة حسد بعض القبائل المكينة الّتي كانت تخال انتصارَ الإسلام انتصار قبيلة خاصّة على القبائل الأُخرىٰ؛ وهذا بالضبط هو نفس التصوّر الّذي كان يحمله بعض القرشيّين إذ كانوا يحسبون أنّ عرض الإسلام ذريعة تشبّث بها بنو هاشم للتغلّب علىٰ سائر البطون من قريش[٢]. وانبرىٰ بعض القبائل المذكورة للإسلام في السّنة الأخيرة. وأهمّ تمرّد كان هو تمرّد الأسود العنسيّ ومُسيلمة. وتدلّ الإشارة إلىٰ كتابيهما علىٰ مدى المشكلات الّتي كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) انظر: *الكامل في التاريخ* ٢: ٣٠١ للاطّلاع علىٰ فهرس أسمائهم.

(٢) *الدرّ المنثور* ٤: ١٨٧؛ *المصنّف*، ابن أبي شيبة ١٤: ٩١، ٩٢.

يواجهها فيما يتعلّق بالسّلطة المركزيّة. فقد خاطبه مسيلمة بقوله: «أمّا بعد، فإنّي شريكك في الأمر؛ ونصف الأرض لنا، إلّا أنّ قريشاً قوم لا يعدلون». فأجابه رسول الله ﷺ: أمّا بعد ﴿فَإِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[١]. ويستبين من هذا الكتاب أنّهم كانوا يرون غَلَبَ الإسلام غَلَبَ قريش، في حين كانت قريش ندّاً للإسلام حتّىٰ تلك الفترة. وكانوا يمثّلون الجاهليّة، ووقفوا أمام الإسلام الّذي كان يُلغي النّظام الجاهليّ.

أمّا مشكلة الأسود العنسيّ فقد تمثّلت في الزكاة، إذ كتب إلىٰ عمّال الحكومة الّذين ذهبوا لجمع الزّكاة قائلاً: «أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا، ووفّروا ما جمعتم، فنحن أولىٰ به وأنتم علىٰ ما أنتم عليه»[٢]. وولّدت الزكاة مشكلات كثيرة للقبائل الّتي كانت تحمل روح الاستقلال، ولم تستعدّ لطاعة سائر القبائل. وبدأت الاعتراضات في الحقيقة حين عرف الناس مرض النّبيّ ﷺ بعد رجوعه من حجّة الوداع[٣]. ولمّا توفّي ﷺ ظهرت في أنواع التمرّد الّذي عُرف بالارتداد، وسنقدّم بعض التّوضيحات في هذا المجال لاحقاً.

وكانت هذه مشكلات أثارتها القبائل الساكنة حوالي المدينة وأعراب البادية. من جهة أُخرىٰ، كانت تُلحظ في داخل المدينة ومكّة مشكلات تدور حول مستقبل الحكومة. وتتناول روايات أهل السنّة ـ بقدر ما يتعلّق بعقائدهم الخاصّة ـ الوضع السياسيّ في السّنين الأخيرة من حياة النّبيّ ﷺ بنحوٍ كأنّه لم يتحدّث فيه أحد عن مستقبل الحكومة وموضوع الخلافة، وكأنّ رسول الله ﷺ، وأهل بيته، وصحابته، وجميع الّذين يهمّهم الأمر لم ينبسوا ببنت شفةٍ فيها[٤]!! وإنّما حكوا عن أبي بكر أنّه

---

(١) *الكامل في التاريخ* ٢: ٣٠٠؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ٣٧، ٣٨.

(٢) *تاريخ الطبريّ* ٣: ٢٢٩. (٣) نفسه ٣: ١٨٤، ١٨٥.

(٤) دع عنك ما اختلقه الوضّاعون، الّذين كانوا ينكرون النّصّ النّبويّ على الإمامة، فيما بعد من أحاديث في ⇐

قال عند موته: وددت لو أنّي كنت سألتُ رسول الله ﷺ عنها[1]! ويبدو مستبعَداً أنّ أحداً لم يطرح موضوع الخلافة. والفرضيّة الأخرىٰ كلام الشّيعة إذ كان الموضوع واضحاً تماماً عندهم، وعلىٰ ما نقله ابن إسحاق أنّ عامّة المهاجرين وجميع الأنصار لم يشكّوا قطّ في أنّ عليّاً عليه السلام سيكون صاحب الأمر بعد وفاة رسول الله ﷺ[2]. ومن الثّابت أنّ هذه المنافسات العلنيّة والسّريّة كانت جارية بينهم، ومن الصِدفة والاتّفاق أنّ عِليةَ الصّحابة كانوا يفكّرون بهذا الأمر.

ومن المناسب، قبل الإشارة إلىٰ بعض القضايا الّتي تمخّض بها ذلك العصر، أن نعرض موقف إحدى القبائل من رسول الله ﷺ إبّان العهد المكّيّ. فقد سار إلىٰ بني عامر بن صعصعة مرّةً ودعاهم إلى الإسلام. فقال أحدهم: إذا اتّبعناك وأظفرك الله علىٰ أعدائك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ فقال ﷺ: «الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء»[3]. وهكذا ينبغي أن نقول: إنّ بعض القبائل كبني عامر كانوا يفكّرون بخلافة رسول الله ﷺ منذ أوان البعثة. في مثل هذه الحالة كيف يمكن أن نتصوّر أنّ أحداً لم يسأل عنها، أو أنّ رسول الله ﷺ لم يقل فيها شيئاً خلال السنين العشر من الهجرة؟ ولا يبدو هذا الأمر معقولاً إلّا إذا حصرنا دور النّبيّ ﷺ بدور الإنسان الداعي فحسب، في حين أنّه لم يكن كذلك كما مرّ بنا، فقد أقام حكومةً، وكان ﷺ علىٰ رأسها، وشرع يُنشئ بعض الأجهزة لإدارة الشّؤون العامّة للنّاس؛ وحينئذٍ يتعذّر علينا قبول مثل الأمر.

⇐ خلافة أبي بكر وغيره على الرغم من جميع الأخبار الدّالّة علىٰ إمامة أهل البيت عليهم السلام. انظر: *الغدير*: ٥، بحث سلسلة الموضوعات في الخلافة: ٣٣٣ ـ ٣٥٦. وبشأن الأدلّة علىٰ نفي صحّة الأحاديث المذكورة، انظر: ٣٥٧ ـ ٣٧٥.

(١) *تاريخ الطّبريّ* ٣: ٤٣١.

(٢) *الموفّقيّات*: ٥٨٠؛ *شرح نهج البلاغة*، ابن أبي الحديد ٢: ٢٧٣.

(٣) *تاريخ الطّبريّ* ٢: ٣٥٠.

إنّ ما قيل في القضايا الحادثة في السّنة الأخيرة من حياته ﷺ يشتمل علىٰ مباحث في قسمين. الأوّل ويتضمّن مطالب فيما يجب أن يتحقّق وكان موضع اهتمام الرسول ﷺ. الآخر ويتضمّن مطالب فيما تحقّق عمليّاً. ونقطة الالتقاء بين هذه المباحث إجراءات اتُّخذت لنقل الحقيقة إلى الواقع. ومن الطّبيعيّ أنّ جزءاً من مباحث القسم الأوّل يرتبط بمباحث كلاميّة وأحياناً تاريخيّة تدور حول الإمامة، ولا نذكرها هنا ـ مع أنّنا سنوضّح في البحوث القادمة بعض الآراء ـ بل نذكر منها بقدر ما يستبين الوضع المتمثّل بتبلور الحكومة. وكانت التّركيبة السّياسيّة لجماعة المؤمنين بالمدينة في السّنة الأخيرة من حياة النّبيّ ﷺ كالآتي: الأنصار وهم الأغلبيّة، وكانوا سكّان المدينة وأهلها المحلّيّين؛ والمهاجرون وهم أقلّيّة، لكنّهم ذوو نفوذ وسطوة. ومنهم من هاجر إليها من مكّة، ومنهم من أمّها من مناطق أُخرىٰ، واستوطنها. وفي السّنين الأُولىٰ من الهجرة حتّىٰ فتح مكّة وحّدتهم ضرورة الجهاد ضدّ الكفّار، أمّا بعد الفتح وانتشار الإسلام بين القبائل، وزوال الخطر المتوقَّع من الكفّار فإنّهم اهتمّوا بشؤونهم الداخليّة، وتتمثّل هذه الشّؤون بمنافسة سكّان المدينة القدامىٰ للمهاجرين الجدد إلىٰ حدٍّ ما.

وعندما قسّم رسول الله ﷺ غنائم حُنين على المسلمين الجدد من غير المدنيّين، اعترض الأنصار، وما قرّت أنفسهم إلّا بالكلام الملطِّف الّذي تحدّث به رسول الله ﷺ وعدّ نفسه الشّريفة من الأنصار[1]. ولا جرم أنّ الأنصار والمهاجرين كليهما كانا قلقين علىٰ وضعهما بعد وفاة النّبيّ ﷺ. وبلغ ارتباك الأنصار مبلغاً أنّهم بادروا إلىٰ تشكيل السّقيفة بعد سماعهم خبر وفاته ﷺ مباشرةً. وذهولهم هذا مبتنٍ على أرضيّة سابقة. وبين الأنصار ذاتهم مشكلات أهمّها المنافسة القديمة بين الأوس

(١) *السّيرة النّبويّة*، ابن هشام ٤: ٤٩٨، ٤٩٩.

والخزرج. وأبناء الأعمام من الخزرج أنفسهم كانوا يعيشون تـناحرات تحـول دون اتّحادهم.

أمّا المهاجرون أو بتعبير أفضل سكّان المدينة غير الأصليّين فقد كـانوا قـريشاً وعدداً غفيراً من سائر القبائل العربيّة. وتتميّز قريش بموقع أفـضل بـينهم لمـاضي سيطرتها ولقرابتها من رسول الله ﷺ، بيد أنّها كانت مُنيت بالتّشتّت والتشذّر إبّان سنين البعثة والهجرة. وكانت هناك مناحرات بين بني هاشم وبني أُميّة حتّىٰ قبل أن يكون الإسلام سبباً في الانشقاقات الّـتي طـرأت في الصّـفّ القـرشيّ. وإنّ ظـهور النّبيّ ﷺ بين بني هاشم لم يدفع بني أميّة وحدهم إلى الحسد، بل دفع سائر الطوائف القرشيّة المهمّة في مكّة إلىٰ ذلك أيضاً. وبلغ ذلك الحسد مبلغاً أنّهم اعترضوا علىٰ نبوّة رسول الله ﷺ ورأوا غيره أهلاً لهـا[1]. فهذه أمور سابقة حدت قريشاً، أو بتعبير آخر أغلبيّة قريش، أو بتعبير أفضل بني أميّة، وبعض حلفائهم كبني مخزوم عـلىٰ مواجهة الإسلام. فهؤلاء الذين كان يمثّلهم أبو سفيان ـ بعد مقتل صناديدهم ببدر ـ أسلموا في فتح مكّة، وكان بيّناً أنّ الظّروف الزّمنيّة وحدها آنذاك هي الّتي دفعتهم إلى اعتناق الإسلام. وكانوا يُدعَون «الطّلقاء» وهو اسم اختاره رسول الله ﷺ لهم.

وكان هذا قسماً من قوّة قريش، ولم يكن له موقع في السّنة الأخيرة من حـياة الرسول الأكرم ﷺ وما عداه، فإنّ كثيراً منها كان أسلم، وفيهم عثمان بـن عـفّان الأُمويّ، وهؤلاء يعدّون من مسلمي عهد البعثة. وينبغي أن نذكر أبا بكر وعمر في عدادهم أيضاً، وهما من بطنين قرشيّين: تيم وعَدِيّ. وكانت جميع الأطراف القرشيّة ساخطةً علىٰ بني هاشم من بين المهاجرين. ويعود هذا السّخط ـ مضافاً إلى السوابق التاريخيّة قبل الإسلام ـ إلىٰ أنّ عدداً كبيراً من أعضاء الأُسر المذكورة كان قـد لقي

---

(١) الزخرف: ٣٢؛ الأحقاف: ١١، ٥٣؛ وانظر: *أنساب الأشراف* ١: ١٨٤، ١٩٦، ١٩٧.

حتفه علىٰ يد عليّ بن أبي‌طالب عليه السلام، وحمزة سلام الله عليه. ولا يمكن أن نقبل بأنّ هذا الفعل لم يستتبع ردّ فعل عند أقارب هؤلاء، مع الأخذ بنظر الاعتبار الأواصر القبليّة والأُسريّة الوثيقة. وقال عثمان في أيّام خلافته للإمام عليّ عليه السلام مرّة: إن كانت قريش لا تحبّك فما ذنبي؟ ولقد قتلتَ رجالاً كثيرين منهم كانت وجوههم تسطع كالذهب[1]. وكانت الزهراء عليها السلام ترىٰ أنّ الأمر مرتبط بسيف عليّ عليه السلام، وأنّ خوف قريش يعود إلىٰ موقفه عليه السلام من كفّارها في حروبها مع النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم[2].

ويتجلّىٰ سخط قريش علىٰ بني هاشم في السّنة الأخيرة من حياة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم من خلال رواية منقولة عن العبّاس بن عبد المطّلب. فقد قال للنّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ذات مرّةٍ: حين تتلاقى قريش بعضها ببعض، تتلاقىٰ بالبِشر، ولكن حين تلقانا، نرىٰ وجوهاً لا نعرفها! قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما مضمونه: «والّذي نفس محمّد بيده، لا يدخل الإيمان قلبَ رجلٍ حتّىٰ يحبّكم لله ورسوله»[3]. وكانت الأوضاع بنحو عانىٰ فيه بنو هاشم ما عانوا لأجل ذلك، بل إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نفسه كان يخشىٰ الجهر بأمر الله سبحانه في إمامة عليّ عليه السلام. ولم تكن لقريش المناوئة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ أي: بني أُميّة وحلفائها ـ قاعدة تذكر بسبب مناوآتها الّتي دامت عدد سنين. وهكذا أخذ الجناح المعتدل من قريش زمام الأُمور وسيطر على السّلطة السياسيّة بتمهيداته الخاصّة مستغلّاً المناحرات والخلافات الّتي كانت قائمة يومئذٍ.

ويبدو مناسباً أن نستعرض عدداً من الأحداث المهمّة الّتي وقعت في الأشهر

---

(١) *نثر الدرّ* ٢: ٦٨؛ *معرفة الصّحابة*، أبو نعيم الإصفهانيّ ١: ٣٠١؛ *مسائل الإمامة*: ٥٦؛ *الوافدات من النساء علىٰ معاوية*: ٣٠.

(٢) *نثر الدّرّ* ٤: ١٤. وذكر ابن أبي الحديد أيضاً أنّ قريشاً كانت ترىٰ عليّاً عليه السلام قاتل أعزّتها، وأنّ الدّماء التي سالت، وإن كانت للإسلام، لكنّها كانت تقطر من سيفه عليه السلام. انظر: *شرح نهج البلاغة* ١٣: ٣٠٠.

(٣) *المعرفة والتاريخ* ١: ٢٩٥؛ *البداية والنّهاية* ٢: ٢٥٧.

الأخيرة من حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وأوّلها واقعة الغدير الّتي قيل فيها الكثير حتّى الآن. فإنّ معظم المحدِّثين والمؤرّخين المسلمين يقرّون بأصل الواقعة، حتّىٰ إنّ مؤرّخاً معروفاً كالطّبريّ لم يذكرها في تاريخه الكبير، بيد أنّه صنّف فيما بعد كتاباً مستقلّاً فيها بعنوان «طرق حديث الولاية»، ويؤسفنا أنّه ليس في متناول أيدينا الآن، وإن كان يقتنيه بعض العلماء حتّى القرن الثّامن الهجريّ[١]. ويجب أن نقول إنّ تعصّب بعض أهل الحديث حال دون ذكره في كتبٍ اتّخذت عنوان «صحيح البخاريّ» و «صحيح مسلم» في حين وردت في هذين الكتابين عشرات الأحاديث الّتي نقلها صحابيّ واحد فحسب، مع أنّ عشرات الصّحابة نقلوا حديث الغدير[٢]، ولم يرد له ذكر فيهما. وفي ضوء ما جاء بشأن نزول قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ...﴾ الآية ٦٧ من سورة المائدة، أمر سبحانه نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم أن ينصّب عليّاً عليه السلام خليفةً له[٣]. ويُستشفّ من الآية أنّه صلى الله عليه وآله وسلم كان يخشى الإعلان عنها ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾. ودلّت هذه الخشية علىٰ نفسها من خلال ما حدث في المراحل اللاحقة. وبعد أن أعلن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ولاية عليّ عليه السلام بايعه جميع الحاضرين. ومن الطّريف أنّ الطّبريّ روىٰ حديث الغدير في كتابه عن عمر بن الخطّاب، وأورده ابن كثير عن كتاب الطّبريّ (نقلاً عن الجزء الأوّل من كتابه «الولاية»)[٤].

والحادثة الثانية الّتي وقعت في الشّهرين الأخيرين من حياة النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم تتمثّل في

---

(١) انظر بشأنه: *رجال النجاشيّ*: ٢٢٥؛ *الفهرست* للشيخ الطّوسيّ: ١٥٠؛ *تذكرة الحفّاظ* للذّهبيّ ٢: ٧١٣؛ *معجم الأدباء* ١٧: ٨١؛ مجلّة *تراثنا*، العدد ٢١، مقالة: الغدير في التراث الإسلاميّ ١٧٢، ١٧٣.

(٢) انظر: *الغدير*، بحث رواة حديث الغدير من الصّحابة ١: ١٤ ـ ١٦.

(٣) انظر في شأن نزول الآية المذكورة في واقعة الغدير كتاب *الغدير*، بحث: الغدير في الكتاب، آية التبليغ، ١: ٢١٤ ـ ٢٢٩.

(٤) *البداية والنّهاية* ٥: ٢١٣.

الواقعة المعروفة بواقعة «يوم الخميس». وأجمع المؤرّخون والمحدّثون علىٰ روايتها. وفيهم البخاريّ الّذي: ذكرها في مواضع من صحيحه، منها «كتاب العلم»، و «باب قول المريض: قوموا عنّي...»[١]. وجاء فيها أنّ رسول الله ﷺ قال: «ائتوني بصحيفة ودواة أكتب لكم كتاباً لن تضلّوا بعده». فقام عمر وقال: إنّ الرجل [نُفِثَ علىٰ لسان هذا الرّجل فنطق بما لا يليق وأقذع، ففرّط في جنب رسول الله ﷺ ولم يرعَ رحمته ولم يدرك قداسته، فيا للأسىٰ وحاشا لرسول الله ﷺ عمّا تفوّه به! وكلّ مسلم غيور يحاشيه ﷺ أن يقول غير الحقّ] قد غلبه الوجع [وإنّه ليهجر] حسبنا كتاب الله[٢]. وبالنظر إلى الدور الحسّاس الّذي مارسه الخليفة في الأحداث الواقعة في بداية الخلافة، فإنّ هذه المعارضة الّتي أبداها لا ينبغي أن تنال حظّها من الإهمال وعدم الاهتمام. وبعد هذا الاعتراض قال رسول الله ﷺ: «قوموا عنّي لا ينبغي عند نبيّ نزاع». وعلىٰ ما نقله البخاريّ، وابن سعد فإنّ ابن عبّاس كان يقول ودموعه تجري علىٰ خدّه: «الرزيّة كلّ الرزيّة ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم. وقالوا: إنّه يهجر»[٣].

ونقل ابن أبي الحديد عن كتاب تاريخ بغداد لأحمد بن أبي طاهر طيفور عن ابن عبّاس مسنداً أنّه قال: «دخلتُ علىٰ عمر في أوّل خلافته، وقد أُلقيَ له صاعٌ من تمرٍ علىٰ خَصَفة، فدعاني إلى الأكل، فأكلتُ تمرةً واحدةً... ثمّ قال: من أين جئتَ يا عبد الله؟ قلتُ: من المسجد. قال: كيف خلّفت ابن عمّك؟ فظننتُه يعني عبد الله بن جعفر.

---

(١) *البخاريّ*، كتاب العلم، باب كتابة العلم ١: ٢٢، ٢٣، باب جوائز الوفد من كتاب الجهاد ٢: ١٢٠.

(٢) *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ٢٤٢ ـ ٢٤٥؛ *مسند أحمد* ١: ٣٢٥؛ *الأمالي في آثار الصّحابة*: ٣٨؛ وللاطّلاع علىٰ مصادر أكثر انظر: *مكاتيب الرّسول* ٢: ٦١٨ ـ ٦٢٦.

(٣) انظر: *تاريخ الطّبريّ* ٣: ١٩٣. ومن المُخجل ما قيل إنّ النّبيّ ﷺ أراد أن يكتب اسم أبي بكر. انظر: *تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين*: ١١١.

قلتُ: خلّفته يلعب مع أترابه. قال: لم أعنِ ذلك، إنّما عنيتُ عظيمكم أهـل البـيت. قلتُ: خلّفته يمتح بالغَرْب علىٰ نُخيلاتٍ من فلان، وهو يقرأ القرآن. قال:... هل بقي في نفسه شيء من أمر الخلافة؟ قلت: نعم. قال: أيزعم أنّ رسـول الله صلى الله عليه وآله نـصّ عليه؟ قلتُ: نعم. وأزيدك: سألت أبي عمّا يدّعيه، فقال: صَدَقَ. فقال عمر: لقد كان من رسول الله صلى الله عليه وآله في أمره ذَرْوٌ من قولٍ لا يُثبت حجّةً... ولقد أراد في مرضه أن يصرّح باسمه، فمنعتُ من ذلك إشفاقاً وحيطةً على الإسلام... لا تجتمع عليه قريش أبداً! ولو وليها لانتقضت عليه العرب من أقطارها. فعلم رسول الله صلى الله عليه وآله أنّي علمتُ ما في نفسه، فأمسك...»[1].

ولا جرم أنّ عمر كان يعبّر عن واقعة يوم الخـميس. ونحـن نـعرف أنّ رسـول الله صلى الله عليه وآله أمسك عن التّصريح باسم عليّ عليه السلام لأنّه لم يُرد أن يحدث نزاع عنده. وبشأن مطلب قريش، ينبغي أن نقول: إنّ مناوءة المناوئين للإمام عليه السلام كانت واسعة بيد أنّها لم تقم دليلاً علىٰ إنكار النصّ النّبويّ، بـل لعـلّ دعـم الإمـام عليه السلام يـزيل المـناوءات. ويستشفّ من هذا الخبر أنّ الخليفة كان يرى الأمر النّبويّ خلافاً للمصلحة، وغير قابل للطّاعة طبعاً. وينسجم هذا الأمر مع كثير ممّا قيل في الخليفة. وهو معلَم علىٰ صحّة ما ذُكر من أنّ طاعة الأوامر النّبويّة غير واجبة عنده في مواضع عديدة. وسُئل مرّةً عن سبب الموقف السّلبيّ من الإمام عليّ عليه السلام، فقال: صغر سنّه وحبّه بني عـبد المطّلب[2]. وسنزيد التّوضيح في هذا المجال لاحقاً.

---

(١) **شرح *نهج البلاغة***، ابن أبي الحديد ١٢: ٢١. إنّ الحسد الّذي كانت تكنّه بطون قريش المختلفة لبـني هاشم لا يُغَضُّ الطّرف عنه. وتدلّ عليه السّابقة التاريخيّة لتدهور العلاقات. وقال عمر لابن عـبّاس مرّةً: أبىٰ قومكم أن تجتمع النّبوّة والخلافة في بيت واحد. انظر: *نثر الدرّ* ٢: ٢٨؛ وهكذا لم يتعلّق هذا الأمر بمعارضة العرب، بل كانت قريش هي صاحبة القرار فيه.

(٢) **شرح *نهج البلاغة***، ابن أبي الحديد ١٢: ٨٢.

ويعتقد أبو جعفر النقيب أُستاذ ابن أبي الحديد أنّ الصحابة [وعلى رأسهم أبو بكر وعمر كما نرىٰ] لم يروا الخلافة من معالم الدّين كالصّلاة والصّيام، كما لم يُلزموا أنفسهم باتّباع «نصّ رسول الله» في هذه الحالات عند تشخيصهم عدم المصلحة في طاعتها. ويضيف أنّ الصّحابة أهملوا كثيراً من النّصوص النّبويّة متّفقين بالنظر إلى المصلحة الّتي كانوا يرونها[١]. وينبغي الالتفات إلىٰ أنّ رسول الله ﷺ كان قد أوصىٰ في الشّهور الأخيرة بالتمسّك بأهل بيته إلىٰ جانب القرآن الكريم مراراً [حديث الثقلين] وهو ما رواه ابن سعد[٢]. وجمع رسول الله ﷺ الناس بعد مرجعه من الطّائف أيضاً، وأوصاهم بأهل بيته ما يلزم من الوصايا[٣].

وأمّا الحادثة الثالثة فهي عزم رسول الله ﷺ على إيفاد جيش أُسامة إلىٰ مؤتة عند الرجوع من حجّة الوداع في السّنة العاشرة من الهجرة. وتزامن هذا الإيفاد مع بدء اعتلال رسول الله ﷺ، وشروع المعارضة الّتي أبداها المتنبّئون كطليحة في بني أسد، ومسيلمة في بني حنيفة، والأسود العنسيّ في اليمن، وسجاح في بني تميم.

وسنشير هنا إلىٰ هذه الحادثة فحسب. فقد كان قائد الجيش شابّاً يتراوح عمره بين السابعة عشرة والعشرين في حين كان جيشه يتألّف من سابقي الصحابة ومتأخّريهم. وروى ابن سعد أنّ جميع الصّحابة الأُوَل والأنصار تهيّأوا للخروج، وفيهم أبو بكر، وعمر، وأبو عبيدة بن الجرّاح [ولم يذكر اسم عليّ عليه السلام بينهم قطّ، كما لم يذكره سائر المؤرّخين أيضاً]. وأضاف أنّ جماعة اعترضوا على صغر سنّه، فغضب رسول الله ﷺ وقال: «إنّه لخليق بها». وكان تجهيز الجيش في السادس والعشرين من صفر، أي: قبل وفاته ﷺ ببضعة أيّام. وكان ﷺ يقول وهو في شدّة المرض:

---

(١) شرح *نهج البلاغة*، ابن أبي الحديد ٨٢، ٨٣.

(٢) *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ١٩٤.

(٣) *المعرفة والتاريخ* ١: ٢٨٣.

«انفذوا جيش أُسامة»[١]. فتثاقلوا من الذّهاب حتّىٰ توفّي صلى الله عليه وآله. ولا يوجد أدنىٰ شكّ في أنّ كبار الصّحابة ومنهم الخليفتان كانوا في عداد الجيش[٢]. ولا يمكن أن يعترض على سنّ أُسامة إلّا عمر وحده، لأنّه ظلّ علىٰ رأيه في الاعتراض علىٰ سنّه وإمارته حتّىٰ بعد استخلاف أبيبكر وإيفاد الجيش[٣]، مع أنّه ينقل هذا الموضوع عن الأنصار. وجاء في كلماتٍ لأميرالمؤمنين عليه السلام أنّ الهدف من إيفاد الجيش هو تثبيت ولايته عليه السلام[٤].

وثمّة حادثة أُخرىٰ تزامنت مع وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، وهي إنكار الخليفة الثاني وفاته صلى الله عليه وآله. وحين عمّ الخبر، سلّ سيفه، وقال: من زعم أنّه مات فسأقتله[٥]. وبرّر ابن أبي الحديد وهو سنّيّ معتزليّ، ذلك بأنّه كان يتحاشىٰ وقوع الفتنة[٦]. بيد أنّ أهل السّنة ـ نوعيّاً ـ يذهبون إلىٰ أنّه كان يعتقد أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لا يموت إلّا بعد أن يموت جميع أصحابه[٧]. ولمّا وصل أبو بكر، وقرأ عليه الآية ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَيِّتُونَ﴾ رضي بذلك[٨]!

ومن المناسب أن ننقل هنا خبراً آخر حول الدور الّذي أدّته زوجات النّبيّ صلى الله عليه وآله في التطوّرات السّياسيّة للخلافة. ويروي ابن عبّاس أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أرسل [وهو علىٰ فراش المرض] وراء عليّ عليه السلام. فقالت عائشة: ماذا لو أرسلت وراء أبي بكر؟ وقالت حفصة: ماذا لو أرسلتَ وراء عمر؟ فاجتمعوا كلّهم، فقال صلى الله عليه وآله ما مضمونه:

---

(١) *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ١٨٩، ١٩٠.

(٢) *مسائل الإمامة*: ٥٣؛ *أنساب الأشراف* ٢: ٣٨٤؛ *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ٢٤٩.

(٣) *الكامل في التاريخ* ٢: ٣٣٥.

(٤) **بحار الأنوار** ٣٨: ١٧٣ [نقلاً عن خصال الصدوق].

(٥) انظر: *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ٢٦٦، ٢٦٧؛ *أنساب الأشراف* ١: ٥٦٥، ٥٦٧.

(٦) *شرح نهج البلاغة*، ابن أبي الحديد ٢: ٤٢، ٤٣.

(٧) *الفائق في غريب الحديث* ١: ٤٠٨، ٤٠٩.

(٨) *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ٢٦٧؛ *تاريخ الطّبريّ* ٣: ٢٠٠، ٢٠١.

لا بأس، اذهبوا، إذا شئت أرسلتُ وراءكم[١]. والحادثة الأُخرىٰ رواية صلاة أبي بكر في المسجد مكان رسول الله ﷺ. وهي الرواية الّتي نقلها أهل السّنّة كثيراً، وناقشناها في موضع آخر بإيجاز[٢]. ونكتفي بالإشارة إلىٰ أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يعتقد أنّ عائشة هي الّتي نقلت عن رسول الله ﷺ أن يصلّي أبو بكر مكانه على ما يبدو، وهذه ملاحظة كان الإمام عليه السلام يذكرها لأصحابه مراراً[٣]. ويضاف إلىٰ ذلك أنّنا نعلم أنّ النّبيّ ﷺ جاء إلى المسجد وهو معتلّ، وتقدّم علىٰ أبي بكر. وقالوا في توجيه هذا الأمر إنّ أبا بكر اقتدىٰ برسول الله ﷺ، واقتدىٰ النّاس بأبي بكر! وكان الشّافعيّ يعتقد أنّ صلاة واحدة فحسب كانت هكذا[٤]، ويستبين من التوضيح المتقدّم إلىٰ أيّ مدىٰ بلغ الأمر. ويصرّح الدكتور أحمد محمود صبحي أنّ قصّة صلاة أبي بكر والاستناد إليها لإثبات خلافته من موضوعات العصر المتأخّر، إذ رمىٰ بعض الأشخاص من أنصاره إلىٰ وضع نصٍّ لإثبات خلافته[٥].

وتدلّ هذه الأحداث على اضطراب الأوضاع السّياسيّة فيما يخصّ الخلافة. ولا ريب في أنّ رسول الله ﷺ نصّب عليّاً عليه السلام في الغدير، وأعلن النّصّ علىٰ إمامته بأمر الله تبارك وتعالىٰ، إلّا أنّ جهوده ذهبت سدىً، إذ نشطت ثلّة من الناس فحالت دون تنفيذ النّصّ[٦]. ومن مجموع المباحث المتقدّمة بدايتها حتّى الآن يمكن أن نركّز علىٰ

---

(١) *تاريخ الطّبريّ* ٣: ١٩٦.

(٢) *تاريخ سياسى اسلام تا سال چهلم هجرى* [التاريخ السياسيّ للإسلام حتّى السّنة الأربعين من الهجرة]: ٢٣٤ ـ ٢٣٨.

(٣) شرح *نهج البلاغة*، ابن أبي الحديد ٩: ١٩٧، ١٩٨.

(٤) *إرشاد السّاري* ٢: ٤٩.

(٥) *نظرية الإمامة عند الاثني عشريّة*: ٢٢.

(٦) وللسُدآباديّ تقسيم رائع لفئات النّاس المختلفة يومئذٍ: ١ ـ فئة قتل عليّ عليه السلام آباءها وإخوتها وأقاربها. ٢ ـ فئة ارتدّت من العرب. ٣ ـ فئة حاسدة لبني هاشم. ٤ ـ فئة مُنيت بحبّ الدنيا ولم تشعر بالمسؤوليّة

⇐

عددٍ من النقاط بإيجاز. كانت مهمّة الرّسول ﷺ بالدرجة الأولىٰ مهمّة رساليّة، وبعد أن انتظم أمر الرسالة، جمع المسلمين كلّهم في المدينة وأنشأ حكومة إسلاميّة وبدأت هذه الحكومة عملها بشكل متماسك من خلال معاهدةٍ عامّة ارتكزت علىٰ مفهوم الأُمّة، وأُخذت من التعاليم الفكريّة والفقهيّة للإسلام.

وأدّت الهجرة والجهاد دورهما في إرساء دعائم الحكومة النّبويّة في المجتمع. وبعد نزول الآيات الفقهيّة الّتي كانت معايير للمعاملات الفرديّة والاجتماعيّة، تحدّد إطار «النظام السياسيّ والاجتماعيّ» للمدينة تدريجاً. وكان الركن الأصليّ لهذه الحكومة هو رسول الله ﷺ نفسه. وكان ﷺ مطاعاً في أُمّته، في حربها، وسلمها، وشؤونها الماليّة، وتسوية دعاواها. والقاعدة الأصليّة لهذه الطّاعة آيات قرآنيّة عديدة أمرت الناس باتّباعه. ولم تُقيّد الآيات المذكورة بشيء إلّا أنّها طلبت من الرسول ﷺ أن يحكم حسب الآيات الإلٰهيّة. وأُثني على النّاس لبيعتهم رسول الله ﷺ، وذُكِّروا بأن يكونوا مسؤولين أمام بيعتهم وعهدهم، وأن يعلموا بأنّهم مسؤولون أمام الله سبحانه، وهو سائلهم.

والسّؤال المهمّ هو كيف كانت حكومة الرسول ﷺ؟ وهل يتكرّر مثلها أو لا؟ والإجابة عن هذين السّؤالين ونظائرهما ليست بسيطةً. فإذا كانت حكومته ﷺ قوامها «النصّ» و «البيعة» ـ مع أنّ النّصّ في الأصل شرعيّ مُلزم بشرعيّته؛ والبيعة ضمان الناس للطّاعة؛ وإذا لم يعطوا مثل هذا الضمان، فإنّ ذلك يستتبع مشكلةً تنفيذيّة، أو تطبيقيّة كما تُسمّىٰ ـ فإنّنا نستطيع أن نعتبرها نظريّة «الإمامة الشيعيّة» نفسها الّتي يُعدّ النّصّ الإلٰهيّ أهمّ دعامةٍ لها. ويعتقد الشّيعة الإماميّة بهذا المبدأ. من هنا فهم

⇐ أمام الله. ٥ ـ فئة من الهمج الرعاع كالأنعام تميل مع من تشاء. ٦ ـ فئة مستضعفة كانت تعرف الحقّ لكنّها لم تستطع أن تفعل شيئاً. انظر: *المقنع*: ١١٢.

يرون أنّه يتكرّر في الأئمّة الاثني عشر عليهم السلام. وإنّ الاعتقاد بالنّصّ في شرعيّة الحاكم، بشكل خاصّ، لم يُطرح في أيّ نظريّة من النظريّات المألوفة المعروفة في الفكر السّياسيّ الغربيّ، مع أنّه نوقش بشكل عامّ تحت عنوان الثيوقراطيّة الّتي تعني حكومة الله على النّاس.

وهكذا ينبغي الالتفات إلىٰ أنّ الخلافة الّتي يريدها أهل السّنّة تعرف أيضاً باسم حكومة الله على النّاس. والحكومة الثيوقراطيّة في الحقيقة هي حكومة تطالب بتطبيق الأحكام الإلٰهيّة على النّاس، وترىٰ نفسها مختارةً باختيار الله في الحكم على النّاس. ويعدّ القيد الثّاني (تطبيق الأحكام الإلٰهيّة) المرحلة الثانية في الثيوقراطيّة (بعد مبدأ حاكميّة قانون الله على النّاس)، ومرحلتها الثالثة الاعتقاد بالنصّ الصريح في شرعيّة الحاكم. وكان النّاس يتّبعون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لقوله تعالىٰ: ﴿**أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ**﴾ وكان الخلفاء أيضاً يرون أنفسهم مصاديق لأولي الأمر، إلّا أنّ هناك تفاوتاً بيّناً بين الاثنين يتمثّل في أنّ مصداق الرسول هو محمّد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم وحده لا غيره، أمّا مصداق أولي الأمر، فيمكن أن ينطبق على كلّ من يمسك بزمام الخلافة، ولكن كيف يكون ذلك؟ وعن أيّ طريق يتحقّق؟ فالشّيعة تذهب إلىٰ أنّ مصداق أولي الأمر المتمثّلين بأصحاب الأمر من الله تعالىٰ حصراً هم الأئمّة الاثنا عشر عليهم السلام فحسب. وحينئذٍ فالعقيدة الّتي ترىٰ تكرار مثال الحكومة الدينيّة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الرؤية النّظريّة هي عقيدة الشّيعة الإماميّة.

ويبدو أنّ محاولة بعض العلماء من أهل السّنّة لتعزيز الرؤية القائلة أنّ لشرعيّة الخلفاء ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منطلقاً معيّناً (أي: البيعة) مرفوضة. إذ إنّ بيعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بالنظر إلىٰ تطبيقها في عصره، لم تكن وسيلةً لإضفاء الشّرعيّة قطّ، بل وسيلة لولاء النّاس للإسلام ولطاعته صلى الله عليه وآله وسلم. وبغضّ النظر عن مبدأ الشّرعيّة الإلٰهيّة لحكومة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فإنّ القضيّة ترتبط بطريقته صلى الله عليه وآله وسلم في الحكم أيضاً.

ومن المؤسف أنّ هذين الجانبين يختلط بعضهما بالآخر في بعض الحالات. فما يُقال إنّ رسول الله ﷺ كان يداري الناس، ويستشيرهم ويفيد من آرائهم في أمر الحكومة لا علاقة له أبداً بالجانب الأوّل من البحث المتمثّل بالنّصّ والشّرعيّة المستحصلة منه. والحكومة، مبدئيّاً للنّاس، وضرورة إبقائهم في السّاحة إشراكهم في إدارة الأُمور. وكما يختار الناس أشخاصاً لإدارة شؤونهم، ويُستفاد من سلطتهم لتنظيم شؤونهم الحياتيّة، فينبغي أن يُفاد من عقول الناس لمثل هذا العمل أيضاً. وهذا مبدأ قرآنيّ ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾، لكن لا علاقة له بالشّرعيّة، لأنّنا نعلم ـ موقنين ـ أنّ شرعيّته ﷺ مستمدّة من النصوص القرآنيّة. ويمكن في هذا القسم أن نفيد من القدرة الفكريّة والتطبيقيّة للنّاس بأشكال مختلفة، وندير أعمالهم في كلّ زمان بالمشورة تبعاً لنطاق حياتهم الاقتصاديّة والاجتماعيّة.

الأيّام الأخيرة

لا ريب في أنّ الأيّام الأخيرة من حياة النّبيّ ﷺ كانت محفوفة بالقلق علىٰ مستقبل المسلمين. وفي الوقت نفسه كان قسم من شؤونه الخاصّة ذا بعد شخصيّ، بل ذا بعد تربويّ نوعاً ما للمسلمين من أجل مواجهة الموت وتبعاته يوم ملاقاة الله سبحانه.

ومن الأخبار الّتي نقلت حول الأيّام الأخيرة من عمره الشريف ﷺ تردّده على البقيع أكثر من السّابق. وكان فيه كثير من أصحابه الّذين استُشهدوا أو ماتوا خلال السنين العشر الماضية. فكان يذهب إلى البقيع لزيارتهم بانتظام. يضاف إلى ذلك أنّ دنوّ الأجل كان يحدو به على الذهاب إلى البقيع أكثر من ذي قبل. وكان يخاطب

أصحابه الثاوين في قبورهم قائلاً: «السّلام عليكم دار قومٍ مؤمنين، أنتم لنا فَرَطٌ وإنّا بكم لاحقون»[١].

واعتلّ رسول الله ﷺ شيئاً فشيئاً. وظهرت عليه أعراض المرض في حمّىً شديدةٍ. وبلغت الحمّىٰ من الشدّة مبلغاً أنّ الّذين كانوا يضعون أيديهم علىٰ جسمه الشريف يشعرون أنّه لا طاقة له من شدّة الحمّىٰ[٢]. وكان ﷺ يقول إنّ مرض المؤمن كفّارة لذنوبه. ومع هذا لم يترك صلاة الجماعة ولمّا تقدّم أبو بكر للصّلاة بلا استئذان، رفع ﷺ ستارة الحجرة ورآه، وحينئذٍ جاء إلى المسجد، وتقدّم وأمّ الناس[٣]، وكان دعاؤه الأخير في أيّامه الأخيرة قوله: «اللّهمّ اغفر لي وارحمني وألحقني بالرّفيق.

ووصل إليه في يوم من أيّامه الأخيرة مقدار من المال، فوزّع قسماً منه على النّاس، وأودع إحدىٰ زوجاته ستّة دنانير متبقيّة. بيد أنّ عينه لم تر النوم حتّىٰ سألها عنها. فجاءته بها، فقسم خمسةً منها بين خمسة من أُسر الأنصار، وطلب ممّن حوله إنفاق الدينار المتبقّي. ثمّ قال: «الآنَ استرحتُ»[٤]. ورأوه مرّة ذاهباً إلىٰ بيته مسرعاً، فسُئل عن سبب ذلك، فقال ما مضمونه: كان عندي ذهب وما أردتُ أن أنام وهو عندي، فأمرتُ بتقسيمه[٥].

ومن الأمور الأُخرى المنقولة أنّه لم يُرد أن يبقىٰ أقلّ دَينٍ ـ بكلّ ما للكلمة من معنىٰ ـ في ذمّة أحدٍ. ونقرأ في هذا المجال حديثاً شائقاً أُثر عنه.

«عن جابر بن عبد الله وابن عبّاس: لمّا نزلت ﴿**إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ**﴾ إلىٰ آخر السورة، قال رسول الله ﷺ: يا جبرئيل، نفسي قد نعيت. قال جبرئيل: ﴿**وَلَلْآخِرَةُ**

---

(١) *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ٢٠٣.
(٢) نفسه ٢: ٢٠٨.
(٣) نفسه ٢: ٢١٥ (وجاء في هذا اللفظ أنّه ﷺ بعثه للصّلاة، لكنّه جاء وتقدّم وصلّىٰ ﷺ!)
(٤) *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ٢٣٧.
(٥) نفسه ٢: ٢٣٨.

خَيْرٌ لَكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾(١). فأمر رسول الله ﷺ بلالاً أن ينادي بالصلاة جامعةً، فاجتمع المهاجرون والأنصار إلىٰ مسجد رسول الله ﷺ، فصلّىٰ بالناس، ثمّ صعد المنبر فحمد الله وأثنىٰ عليه، ثمّ خطب خطبةً وجلت منها القلوب، وبكت منها العيون، ثمّ قال: أيّها النّاس، أيّ نبيّ كنتُ لكم؟ فقالوا: جزاك الله من نبيّ خيراً. فقد كنت لنا كالأب الرحيم، وكالأخ الناصح المشفق، أدّيت رسالات الله، وأبلغتنا وحيه، ودعوتَ إلىٰ سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة، فجزاك الله عنّا أفضل ما جازىٰ نبيّاً عن أُمّته. فقال لهم: معاشر المسلمين، أنا أُنشدكم الله وبحقّي عليكم، من كان منكم له قبلي مظلمة فليقُم فليقتصّ منّي. فلم يقم إليه أحد. فناشدهم الثانية، فلم يقم إليه أحد. فناشدهم الثالثة... فقام من بين المسلمين شيخ كبير يقال له: عكاشة، فتخطّى المسلمين حتّىٰ وقف بين يدي النّبيّ ﷺ فقال: فداك أبي وأمّي لولا أنّك ناشدتنا مرّةً بعد أُخرىٰ ما كنت بالذي أتقدّم علىٰ شيء منك؛ كنتُ معك في غزاة، فلمّا فتح الله علينا، ونصر نبيّه ﷺ، [وأردتَ] الانصراف، حاذت ناقتي ناقتك، فنزلتُ عن الناقة، ودنوتُ منك لأُقبّل فخذك، فرفعت القضيب فضربتَ خاصرتي، فلا أدري أكان عمداً منك أم أردتَ ضرب الناقة؟ فقال رسول الله ﷺ: يا عكاشة، أُعيذك بجلال الله أن يتعمّدك رسول الله بالضرب؛ يا بلال، انطلق إلىٰ منزل فاطمة فائتني بالقضيب الممشوق، فخرج بلال من المسجد ويده علىٰ أمّ رأسه وهو ينادي: هذا رسول الله يعطي القصاص من نفسه، فقرع الباب علىٰ فاطمة، فقال: يا ابنة رسول الله، ناوليني القضيب الممشوق. فقالت فاطمة: يا بلال، وما يصنع أبي بالقضيب وليس هذا يوم حجّ ولا [...]؟ فقال: يا فاطمة، ما أغفلك عمّا فيه أبوك! إنّ رسول الله ﷺ يودّع الدين ويفارق الدنيا،

---

(١) الضُّحىٰ: ٤، ٥.

ويعطي القصاص من نفسه. فقالت فاطمة عليها السلام: يا بلال، ومن تطيب نفسه أن يقتصّ من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ يا بلال ادنُ وقل للحسن والحسين يقومان إلىٰ هـذا الرجـل فيقتصّ منهما، ولا يدعانه يقتصّ من رسول الله. ودخل بلال المسجد، ودفع القضيب إلىٰ عكاشة... وقام الحسن والحسين فقالا: يا عكاشة، ألست تعلم أنّا سبطا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والقصاص [منّا] كالقصاص من رسول الله؟ فقال لهما النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: اقعدا يا قرّة عيني، لا نسي الله لكما هذا المقام. ثمّ قال عليه الصلاة والسـلام: يـا عكـاشة اضرب إن كنت ضارباً. فقال:... ضربتني وأنا حاسر عن بطني. فكشف عن بطنه... وصاح المسلمون وقالوا: أترىٰ عكاشة ضارباً بـطن رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فـلمّا نـظر عكاشة إلىٰ بياض بطنه صلى الله عليه وآله وسلم كأنّه القَباطيّ، لم يملك أن أكبّ عليه، فقبّل بطنه وهو يقول: فداك أبي وأمّي، ومن تطيق نفسه أن يقتصّ منك؟! فقال له النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: إمّا أن تضرب، وإمّا أن تعفو. فقال: قد عفوت عنك رجاء أن يعفو الله عنّي يوم القـيامة. فقال النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: من سرّه أن ينظر إلىٰ رفيقي في الجنّة فلينظر إلىٰ هذا الشيخ. فقام المسلمون فجمعوا يقبّلون ما بين عيني عكاشة ويقولون: طوباك طوباك نلت درجات العلىٰ بمرافقة النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن الوقائع الأليمة الأخرى الّتي حدثت في تلك الأيّـام قـضيّة الكـتاب الّـذي أراد صلى الله عليه وآله وسلم أن يكتبه، فحال بعض الأشخاص دون ذلك. وذكرنا هـذه الحـادثة في موضع آخر من كتابنا. وفي مصافّ الواقعة المذكورة موضوع بعث أُسامة الّذي آذى النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بشدّة، لأنّه كلّما أصرّ علىٰ ذهـاب المـهاجرين والأنـصار مـعه، تخـلّف بعضهم، بل حالوا دون ذهاب الآخرين أيضاً.

وكانت فاطمة وعليّ عليهما السلام أقرب الناس إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ورأىٰ صلى الله عليه وآله وسلم فاطمةَ تبكي بشدّة، فدعاها إليه. فهمس في أُذنها، فزاد بكاؤها. ثمّ قال لها شيئاً فتبسّمت. وحين سئلت عن ذلك، قالت: أخبرني أنّه سيموت في مرضه، ثمّ أخبرني أنّي أوّل من ألحق به من أهل بيته.

ومن وصاياه الأكيدة الأخرىٰ ﷺ وصيّته المهاجرين بالأنصار. وكان طبيعيّاً أنّ المهاجرين سيسيطرون على الوضع، وسيعيش الأنصار مظلومين في بلدهم. واغتسل ﷺ في يوم من الأيّام الّتي تحسّنت فيها حاله نوعاً ما، وصلّىٰ، ثمّ خطب خطبةً استغفر فيها لشهداء أُحد، وأوصىٰ بالأنصار، وأخبر المهاجرين بأنّهم سيعلو كعبهم، وأنّ الأنصار يظلّون علىٰ ما هم عليه. وأنّهم سنده الذي يستند إليه، وليُحسَن إلىٰ محسنهم، ويُعفَ عن مسيئهم. وروىٰ أبو سعيد الخُدريّ أنّه أوصىٰ بأهل بيته ثمّ أوصىٰ بالأنصار[١]. مع هذا كان أكثر وصيّته بالصّلاة. وأوصىٰ أيضاً بالإماء اللاتي تعرّضن لصنوف الظّلم. ونُقل عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه ﷺ وضع رأسه في حجر أميرالمؤمنين عليه السلام وهو يكرّر قوله: «الصلاة الصلاة»[٢].

وتتّفق المصادر كلّها علىٰ أنّ وفاة رسول الله ﷺ كانت في يوم الاثنين. وقيل أيضاً أنّه دُفن يوم الثلاثاء أو يوم الأربعاء[٣]. ونلحظ آراءً متفاوتة حول يوم الوفاة بناءً على استقصاء لأحد الباحثين. أوّلها: أنّه كان يوم الثامن والعشرين من صفر، وهو المشهور عند الشّيعة، لكن لا توجد رواية ـ ولو ضعيفة ـ تدلّ علىٰ هذا التّاريخ، على أنّ الشيخ المفيد والشيخ الطّوسيّ يذهبان إلىٰ هذا الرأي، وهو ما أُقرّ بعدهما تبعاً لهما. الثاني: أنّه كان في الثاني من ربيع الآخر. وهو ما ذهب إليه بعض الفقهاء من الحجاز وعدد من المؤرّخين كأبي مخنف، والزهريّ[٤]. وفي أيدينا أحاديث مأثورة عن الإمام الباقر، والإمام الصّادق، والإمام الرضا عليهم السلام تؤيّد الرأي الثالث. الثالث: أنّه كان في الثاني عشر من ربيع الأوّل، وهو الأشهر عند أهل السّنّة، ورواه ابن إسحاق، والواقديّ، والكلينيّ. ويرىٰ الباحث المذكور أنّ الثامن والعشرين من صفر

---

(١) *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ٢٥١، ٢٥٢.

(٢) نفسه ٢: ٢٦٢.

(٣) نفسه ٢: ٢٧٣.

(٤) نفسه ٢: ٢٧٣.

لا يمكن قبوله، والصحيح هو أنّ يوم وفاته ﷺ كان في الثاني من ربيع الأوّل سنة ١١ هـ[١]. وإذا قبلنا الثاني عشر من ربيع الأوّل تاريخاً لدخوله ﷺ المدينة عند الهجرة، فإنّه كان فيها عشر سنين إلّا عشرة أيّام.

وتوفّي ﷺ واجتمع رجال بعده في السقيفة ونقل ابن سعد أنّ عليّ بن أبي‌طالب، والفضل بن عبّاس، وأُسامة بن زيد تولّوا غسله. وغسله عليّ بن أبي‌طالب في لباسه، وهو يناجيه قائلاً: «فداك أبي وأمّي، طبتَ ميّتاً وحيّاً»[٢]. ونصّ ابن سعد علىٰ أنّ رسول الله ﷺ نفسه أراد من عليّ أن يتولّىٰ غسله[٣]. ثمّ وُضع ﷺ علىٰ سريرٍ، وكان النّاس يأتون جماعةً جماعةً ويصلّون عليه. وقيل لم يكن إمام في الصّلاة، وأوّل من صلّىٰ عليه بنو هاشم، ثمّ المهاجرون والأنصار وسائر الناس.

وثار خلاف حول مدفنه ﷺ. وقُرِّر أن يُدفَن في بيته. ذلك البيت الّذي ادّعت به عائشة. وزعمت أنّه ملك لها مستغلّةً نفوذها في سلطة أبيها ورفيقه. ويبدو أنّه دُفن ﷺ في بيته، في القسم الّذي يتوسّط بيت الزهراء والحجرة الّتي كانت تسكن فيها عائشة. [صلوات الله وسلامه وتحيّاته عليه وعلىٰ أهل بيته الطّاهرين].

---

(١) مجلّة *تراثنا*، العدد ٢١، ص ٤٣ ـ ٥٧. (٢) *الطّبقات الكبرىٰ* ٢: ٢٧٧.

(٣) نفسه ٢: ٢٨١.

فهرس الموضوعات

- **عرض قاصد واعد للمترجم** ٥
- **توطئة** ٤٠

(١)
كتابة التّاريخ عند المسلمين
٤٣ ـ ٢٢٣

المسلمون وكتابة التّاريخ ٤٤

التّراث التّاريخي للعرب في الجاهليّة ٤٤

تأثير المباحث التّاريخيّة للقرآن الكريم ٤٧

ضرورة الاستهداء بالسّنّة النّبويّة ٤٨

إهتمام الحكّام بالتّاريخ ٤٩

تأثير الكتابات التّاريخيّة لسائر الأقوام علىٰ العرب ٥١

الأنماط المتنوّعة لكتابة التّاريخ عند المسلمين ٥٣

كتابة السّيرة والتّرجمة ٥٣

النّظرة الأُحاديّة الموضوع في تدوين الوقائع المهمّة ٥٦

كتابة التّاريخ العامّ والتّقويميّ ٥٨

كتابة التّاريخ علىٰ أساس علم الأنساب ٥٩

الأُسلوب الحديثيّ المسنَد ٦١
كتابة التّاريخ الإقليميّ ٦٢
كتابة التّاريخ الثّقافيّ والاجتماعيّ ٦٩
تدوين السيرة وكتّابها ٧١
تدوين السيرة قبل ابن إسحاق ٧١
تدوين السيرة النبويّة في المدينة ٧٨
موسى بن عُقْبة (م ١٤١) ٨١
محمّد بن إسحاق (٨١ ـ ٨٥ / ١٥٠ ـ ١٥١) ٨٣
أبان بن عثمان البجليّ (م ح ١٧٠) ٩٢
محمّد بن عمر الواقديّ (١٣٠ ـ ٢٠٧) ١٠٠
محمّد بن سعد (١٦٨ ـ ٢٣٠) ١٠٤
أبو سعد الخركوشيّ (م ٤٠٧) ١٠٨
البيهقيّ (٣٨٤ ـ ٤٥٨) ١٠٩
تدوين السيرة بعد القرن الخامس ١١١
تحريف السّيرة ١١٤
معاداة الأنصار وتحريف السيرة ١١٨
تأثير كتّاب السّيرة في التحريف ١١٩
الصّور القصصيّة في السّيرة ١٢٠
التّطوّر في تدوين السّيرة ١٢٥
الشيعة وتدوين السيرة ١٢٨
كتابة التاريخ والمؤرّخون من البداية حتّى القرن الخامس ١٣٦
أبو مِخْنَف (ح ٩٠ ـ ١٥٧) ١٣٧
نصر بن مزاحم المِنقَريّ (م ٢١٢) ١٤٠

هشام بن محمّد الكلبيّ (٢٠٤ ـ ٢٠٦) ١٤١
هيثم بن عديّ (م ٢٠٧) ١٤٤
أبو عبيدة معمر بن المثنّىٰ (١١٠ ـ ٢٠٩ أو ٢١١ ـ ٢١٣) ١٤٦
أبو الحسن المدائنيّ (١٣٥ ـ ٢٢٨) ١٤٧
خليفة بن الخيّاط (م ٢٤٠) ١٤٩
محمّد بن حبيب (م ٢٤٥) ١٥٣
الأزرقيّ (م ٢٤٨) ١٥٧
الزبير بن بكّار (م ٢٥٦) ١٥٨
عمر بن شبّه (١٧٣ ـ ٢٦٢) ١٦٣
ابن قتيبة (٢١٣ ـ ٢٧٦) ١٦٥
يعقوب بن سفيان الفَسَويّ (حوالي ١٩٥ ـ ٢٧٧) ١٦٩
محمّد بن إسحاق الفاكهيّ (٢١٧ ـ ٢٧٢ إلىٰ ٢٧٨) ١٧١
أحمد بن يحيى البلاذريّ (١٧٠ إلىٰ ١٨٠ ـ ٢٧٩) ١٧٣
أبو حنيفة الدِينَوَريّ (م ٢٨٢) ١٧٦
أبو إسحاق الثقفيّ (م ٢٨٣) ١٧٨
أخبار الدولة العبّاسيّة (القرن الثالث) ١٨٠
اليعقوبيّ (م ٢٨٤) ١٨٣
محمّد بن جرير الطبريّ (٥ ـ ٢٢٤ / ٣١٠) ١٨٨
أحمد بن أعثم الكوفيّ (م ح ٣١٤) ١٩٤
أبوبكر الجوهريّ (م ٣٢٣) ١٩٨
قدامة بن جعفر (م ٣٣٧؟) ٢٠٠
محمّد بن أحمد التميميّ (م ٣٣٣) ٢٠٢
عليّ بن الحسين المسعوديّ (م ٣٤٦) ٢٠٣

أبو الفرج الإصفهانيّ (٢٨٤ ـ ٣٥٦) ٢١٠
أبو نصر المقدسيّ (منتصف القرن الرابع) ٢١٢
الشيخ المفيد (م ٣٣٦ ـ ٤١٣) ٢١٧
أبو عليّ أحمد بن محمّد بن مسكويه (٣٢٠ ـ ٤٢١) ٢٢٠

(٢)

العصر الجاهليّ

٢٢٥ ـ ٣١٣

تمهيد في مفهوم الجاهليّة ٢٢٦
الفصل الأوّل: الأوضاع السياسيّة والاجتماعيّة ٢٢٩
الأوضاع السياسيّة الدّاخليّة والعلاقات الخارجيّة ٢٢٩
طبيعة القبيلة وقضاياها ٢٣٢
الحياة في الحاضرة والبادية ٢٤١
الأحلاف السّياسيّة بين القبائل ٢٤٥
الحرب والنّزاع بين القبائل ٢٥٠
قبيلة قريش ٢٥٢
سُمعة قريش ٢٥٤
الفصل الثّاني: دين الناس وتديّنهم في الجاهليّة ٢٦٠
السّوابق الدينيّة لجزيرة العرب ٢٦٠
دين إبراهيم عليه السلام ٢٦٥
حول الحنيفيّة ٢٦٨
الشّرك وأبعاده في شبه الجزيرة العربيّة ٢٧١
شركاء لله ٢٧٥

المشركون والمعاد ٢٧٧
الكعبة، والدّين، والوضع المعيشيّ للنّاس ٢٧٨
الشريعة الدينيّة عند العرب ٢٨٠
المستوى الإيمانيّ للعرب المشركين ٢٨٣
اليهود في شبه الجزيرة العربيّة ٢٨٦
النّصرانيّة في شبه الجزيرة العربيّة ٢٩١
الفصل الثالث: الثقافة والعلم في العصر الجاهليّ ٢٩٣
الثقافة والمعارف العلميّة ٢٩٣
القراءة والكتابة ٢٩٤
الشّعر والخطابة ٣٠٠
علم الأنساب ٣٠٦
علم الأيّام ٣٠٩
ثقافة أهل الكتاب عند العرب ٣١١

(٣)

بداية الإسلام

٣١٥ ـ ٤٣٦

بداية الوحي ٣١٦
الخطوات الأولىٰ لبثّ الإسلام وتوسيع نطاقه ٣٢٨
تأثير النّبيّ ﷺ تاريخيّاً ٣٤٢
١ ـ ارتباط النّبيّ ﷺ بقريش والعرب ٣٤٢
٢ ـ السّابقة الدّينيّة للنّبيّ ﷺ ٣٤٦
٣ ـ النّبيّ الأمّيّ ٣٥٥

٤ ـ النّبيّ والأخلاق ٣٥٧
٥ ـ النّبيّ ذو العزم ٣٦٢
مكائد المشركين في موقفهم من النّبيّ ﷺ ٣٦٤
١ ـ المساومة ٣٦٦
٢ ـ المواقف النّفسيّة ٣٧٠
٣ ـ المواقف السّياسيّة ٣٧٥
٤ ـ الاضطهاد البدنيّ ٣٧٩
٥ ـ المواقف العلميّة ٣٨٢
تأثير القرآن الكريم تاريخيّاً ٣٨٦
١ ـ أثر الآيات القرآنيّة ٣٨٦
٢ ـ التّأثير التّاريخيّ لتنزيل القرآن الكريم ٣٩٤
٣ ـ القرآن أمام التحجّر الفكريّ الجاهليّ ٣٩٦
٤ ـ الدّفاع عن المحرومين من تعاليم القرآن الجوهريّة ٤٠٢
مناهضة المشركين للقرآن ٤٠٤
الدّعوة الإسلاميّة ومراحلها ٤١٢
الظّروف السّياسيّة والاجتماعيّة والفكريّة لمكّة وتأثيرها في تقدّم الإسلام ٤١٨
الفراغ الفكريّ والعقيديّ ٤٢٤
الفراغ القانونيّ ٤٢٧
الفراغ الأخلاقيّ ٤٢٨
موقع مكّة ٤٢٩
أخلاق العرب في الجاهليّة ٤٣٤

(٤)

الإسلام أمام ضغوط قريش

٤٣٧ ـ ٤٨٢

المشركون أمام الإسلام ٤٣٨

ردّ فعل المسلمين حيال أذى المشركين ٤٥١

الهجرة إلى الحبشة ٤٥٧

١ ـ سبب الهجرة ٤٥٧

٢ ـ تاريخ الهجرة ٤٦٠

٣ ـ اختيار الحبشة ٤٦٣

٤ ـ مبادرة قريش وإخفاقها ٤٦٥

٥ ـ عودة المهاجرين من الحبشة ٤٦٨

قصّة الغرانيق ٤٦٩

شِعب أبي طالب ٤٧٥

(٥)

الإسلام في المدينة

٤٨٣ ـ ٥٧٨

يثرب قبل الإسلام ٤٨٤

المسلمون الأُوَل في يثرب ٤٩٢

بيعة أهل يثرب للنبيّ ﷺ ٤٩٧

١ ـ البيعة الأُولىٰ لمسلمي يثرب مع رسول الله ﷺ ٤٩٧

٢ ـ بيعة العقبة الثّانية ٥٠٤

٣ ـ ماهيّة البيعة ٥١٠

أسباب الانتشار السّريع للإسلام في المدينة ٥١٩
الهجرة إلى المدينة وقضاياها ٥٢٧
١ ـ مفهوم الهجرة ٥٢٧
٢ ـ بدء الهجرة ٥٢٨
٣ ـ هجرة النّبيّ ﷺ ٥٣١
٤ ـ من مكّة إلى المدينة ٥٣٧
رسول الله ﷺ في قباء ٥٤١
٦ ـ استقرار رسول الله ﷺ والمهاجرين في المدينة ٥٤٦
٧ ـ استمرار وجوب الهجرة حتّىٰ فتح مكّة ٥٥٠
٨ ـ الهجرة بداية التّاريخ الإسلاميّ ٥٥٨
أعمال النّبيّ ﷺ بعد الاستقرار في المدينة ٥٦٢
١ ـ بناء المسجد ٥٦٢
٢ ـ عقد المؤاخاة بين المسلمين ٥٦٤
٣ ـ الدستور الأوّل للأُمّة الواحدة ٥٦٩

(٦)

غزوات النّبيّ ﷺ حتّى السّنة الخامسة للهجرة

٥٧٩ ـ ٧٣٩

أُسلوب بثّ الدّعوة الإسلاميّة ٥٨٠
الإسلام داعية السّلام ٥٨٥
الحرب أداةٌ لتحقيق السِّلم ٥٨٨
حروب رسول الله ﷺ : جهاد أم دفاع ؟ ٥٩٤
الأحداث قبل بدر ٥٩٧

العلاقات باليهود إلىٰ ما قبل بدر ٦٠٦
تغيير القبلة واعتراض اليهود ٦٠٩
معركة بدر ٦١١
معركة بدر في القرآن الكريم ٦٣٦
الأحداث الواقعة بين بدر وأُحُد ٦٤١
١ ـ الموقف من شعراء الكافرين واليهود ٦٤١
٢ ـ الموقف من المشركين ٦٤٦
٣ ـ الموقف من يهود بني القَينُقاع ٦٤٨
موقعة أُحُد ٦٥١
موقعة أُحد في القرآن الكريم ٦٧٥
معالم رسول الله ﷺ في أُحُد ٦٨٠
الوقائع الحادثة بين أُحُد والأحزاب ٦٨٢
الموقف من أهل الكتاب ٦٩٠
غزوة بني النّضير ٦٩٥
بدر الموعد ٧٠٣
معركة الأحزاب ٧٠٥
معركة الأحزاب في القرآن الكريم ٧٢٥
غزوة بني قريظة ٧٢٧
مقاتلة القبائل وثبات المدينة ٧٣١
غزوة القُرطاء ٧٣٢
غزوة بني لحيان ٧٣٣
غزوة ذي قرد أو الغابة ٧٣٤
غزوة بني المصطلق أو المريسع ٧٣٥

(٧)

باتّجاه النّصر على الحجاز

٧٤١ ـ ٨٦٧

صلح الحُديبيّة ٧٤٢
دعوة الملوك والطوائف إلى الإسلام ٧٦١
خيبر آخر خندق ليهود الحجاز ٧٦٨
الحوادث بعد فتح خيبر إلىٰ فتح مكّة ٧٧٩
عمرة القضاء ٧٨١
سريّة مؤتة ٧٨٤
فتح مكّة نهاية القوّة السياسيّة للمشركين في الحجاز ٧٩٠
نحو حُنين ٨٠٩
حصار الطّائف ٨١٥
غزوة تبوك (رجب سنة تسع) [منافقو المدينة في مرآة سورة التّوبة] ٨٢١
انتشار الإسلام في شبه الجزيرة العربيّة إبّان السّنة التاسعة والعاشرة ٨٣١
إعلان البراءة من المشركين ٨٣٥
السرايا الأخيرة ٨٣٩
إيفاد الإمام عليّ ﷺ إلى اليمن ٨٤٤
مشكلات الحكومة الإسلاميّة في السّنة العاشرة ٨٤٧
الأيّام الأخيرة ٨٦٢